تفسير البدليسي

TAFSĪR AL-BIDLĪSĪ

تفسير البدليسي

Author : *Al-Shaykh Houssamuddin Ali ben Abdullah Al-Bedlisi Al-Hanafi Al-Sufi (D. Around 900 H.)*

المؤلف : الشيخ حسام الدين علي بن عبدالله البدليسي الحنفي الصوفي (ت حوالي سنة ٩٠٠ هـ)

Editor : *Dr. Assem Ibrahim Al-Kayyali*

المحقق : الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

Classification : *Exegesis Of Qur'an - Sufism*

التصنيف : تفسير قرآن – تصوّف

Year : *1441 H. - 2020 A.D*

سنة الطباعة : ١٤٤١هـ – ٢٠٢٠م

Pages: *4072 (5 Vols. / 5 Pasrts)*

عدد الصفحات : ٤٠٧٢ (٥ أجزاء / ٥ مجلدات)

Size : *17 × 24 cm*

القياس : ٢٤ × ١٧ cm

Printed in : *Lebanon*

بلد الطباعة : لبنان

Edition : *First edition*

الطبعة : الأولى

All Rights Reserved

BOOKS - PUBLISHER
كتاب - ناشرون
Beirut-Lebanon بيروت - لبنان

Mazraa, Ras Nabea, Mohamad Al Hout Street,
Katerji Building, First Floor, Beirut-Lebanon
Tel :+961 76 944 855-P.O.Box: 11- 374 Riyad Al-Soloh
E-mail: books.publisher@hotmail.com

Exclusive rights by © BOOKS-PUBLISHER Beirut - Lebanon No Part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system,or to post it on Internet in any form without the prior written permission of the publisher.

Tous droits exclusivement réservés à © BOOKS-PUBLISHER Beyrouth-Liban Toute représentation, édition, traduction ou reproduction même partielle, par tous procédés, en tous pays, ou téléchargement sur Internet de quelque mamière que se soit faite sans autorisation préalable signée par l'éditeur est illicite et exposerait le contrevenant à des poursuites judiciaires.

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة كتاب - ناشرون بيروت – لبنان ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأ أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على أسطوانات ضوئية أو تحميله على صفحات الإنترنت بأي شكل من الأشكال إلا بموافقة الناشر خطياً.

ISBN 978-2-7451-7929-6

تفسير البدليسي

تفسير إشاري صوفي شارح لمقامات الدين الثلاث: الإسلام والإيمان والإحسان - الشريعة والطريقة والحقيقة

تأليف

العارف بالله تعالى الشيخ

حسام الدين علي بن عبد الله البدليسي الحنفي الصوفي

المتوفى حوالي سنة 900 هجرية

اعتنى به وضبطه

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي

الجزء الأول

المحتوى

الفاتحة - البقرة - آل عمران

BOOKS - PUBLISHER

كتاب - ناشرون | بيروت - لبنان Beirut-Lebanon

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم الكنز المخفي الباطن عن غيره، بمقتضى ذاته، والظاهر لنفسه بمقتضى أسمائه وصفاته، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: 22 ـ 23].

وصل اللهم على مجلى قرآن دهر الذات بمقتضى الحديث الشريف: «**لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر**» ومرآة فرقان أيام الشؤونات بمقتضى قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمٰن: 29].

وعلى آله الطيبين الطاهرين من رؤية خيال الباطل مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: 81].

وعلى صحابته الأخيار المتحققين بأنوار مقامات حبيبهم المختار الآفاقية والأنفسية مصداقًا لقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: 53].

وبعد، ففي إطار الاهتمام بنشر كتب التراث الإسلامي وخصوصًا المخطوطات منها التي نقوم بتحقيقها وتصحيحها ونشرها بأبهى حلة خدمة للدين الإسلامي الحنيف نقدم للقراء الكرام مخطوطًا نفيسًا في علم التفسير الإشاري يطبع للمرة الأولى للعارف بالله تعالى الشيخ حسام الدين البدليسي وفيما يلي سنعرض ترجمة موجزة للمؤلف وتوصيفًا للمخطوط وأهميته.

وقبل الشروع في ذلك لا بدّ من القول إن التفسير الإشاري، وهو التفسير الذي شرح العلماء من خلاله: «غوامض أسرار القرآن الكريم ودقائق إشاراته، فلاح لهم من ألفاظه معاني ودقائق ولطائف اصطلحوا عليها بعد أن ذاقوا معانيها

وحقائقها، مثل الفناء والبقاء، والحضور والغيبة، والأنس، والقبض، والبسط وشبه ذلك: فسمّوا ذلك علم التصوف. ويسمى تفسيرهم لكلام اللّه تعالى وكلام رسوله ﷺ: «تفسير إشارات». ويعرِّف الإمام الزرقاني في كتابه مناهل العرفان التفسير الإشاري بقوله: «هو تأويل القرآن بغير ظاهره لإشارة خفية تظهر لأرباب السلوك والتصوف، ويمكن الجمع بينها وبين الظاهر المراد أيضًا».

ويقول الشيخ أحمد زروق في قواعده الصوفية شارحًا هذا النوع من التفسير: «نظر الصوفي أخصّ من نظر المفسر وصاحب فقه الحديث، لأن كلًّا منهما يعتبر الحكم والمعنى ليس إلّا، وهو يزيد بطلب الإشارة بعد إثبات ما أثبتناه، وإلا فهو باطني خارج عن الشريعة فضلًا عن المتصوفة واللّه أعلم».

ونعود لما كنا بصدده من ترجمة المؤلف وتوصيف المخطوط:

ترجمة الشيخ البدليسي(*)

البدليسي: هو العارف باللَّه تعالى الشيخ حسام الدين علي بن عبد اللَّه البدليسي الحنفي الصوفي المتوفى في حدود سنة 900 تسعمائة هجرية.

مؤلفاته: له مؤلفات عدة أهمها: جامع التنزيل والتأويل في تفسير القرآن المجيد المعروف بتفسير حسام الدين البدليسي، خمس مجلدات كبار وهو هذا الكتاب الذي بين أيدينا، والذي نقدمه للقراء الكرام بأبهى حلّة، وكان قد استكتبه الوزير عبد الرؤوف باشا الرومي عند ولايته لأرضروم.

وله كتاب شرح اصطلاحات الصوفية للقاشاني. وهو مطبوع في الدار بتحقيقنا، وله أيضًا كتاب الكنز الخفي في بيان مقامات الصوفي. وهو أيضًا مطبوع في الدار بتحقيقنا.

توصيف المخطوط

لقد حققنا هذا الكتاب (تفسير البدليسي) عن مخطوط رقم: 87229 من مقتنيات مجلس الشورى الإسلامي في إيران تحت عنوان «تفسير حسام الدين»،

(*) انظر (هدية العارفين باب العين [1/ 392]).

وذكر أن مؤلفه هو الشيخ حسام الدين علي البدليسي وناسخه هو رسول الصوري.

وَكُتِبَ المخطوط بخط نسخ سيّىء نسبياً، وواضح أحيانًا أخرى، إلا أنه حافل بالأخطاء والحذف والتداخل، ولغته ركيكة الألفاظ بحيث تصعب قراءة العديد من الكلمات ولذا استغرق نسخ المخطوط وتصحيحه والاعتناء به سنوات عدة.

هذا ولم يورد مصدر المخطوط مواصفاته، إلا أن المخطوط مكون من ستمائة وأربع عشرة ورقة بصفحتين، والصفحة الواحدة تحتوي على خمسة وثلاثين سطراً، وبذلك يكون المخطوط مؤلفًا من ألف وثمانٍ وعشرين صفحة بالحجم الكبير.

هذا ولا بدّ من الإشارة إلى أننا حين الشروع في المخطوط لم نتمكن من العثور على غير هذه النسخة علمًا أنه حاليًا يوجد العديد من طلبة العلم حققوا أقسامًا منه في جامعة بنكل التابعة لمدينة بنكل الواقعة في شرق تركيا كرسائل ماجستير.

ولأهمية هذا المخطوط شرعنا في تحقيقه بتوجيه من صاحب الدار الحاج الدكتور أبي وسيم محمد علي بيضون.

وها نحن بفضل الله تعالى وتوفيقه، وبعد بذل الجهد الكبير، نضعه بين يدي القراء الكرام، ليستفيدوا بما فيه من علوم شرعية، وصوفية تتعلق بالسير والسلوك إلى الله تعالى، وبالحقائق الروحية الملكوتية والجبروتية السرية، الموصلة إلى معرفة الله تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله.

كتبه العبد الفقير إلى الله تعالى والغني به عن سواه

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي

نماذج من صور المخطوط

صورة الصفحة الأولى من المخطوط

صورة الصفحة الثانية من المخطوط

سورة الناس مختلف فيها ست آيات

صورة الصفحة الأخيرة من المخطوط

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة المصنّف

اِعلم أن للمحققين في كيفية الإنزال والتنزيل قولين:

أحدهما: أن مجموع القرآن قد أنزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا وعلى مَلِكها وهو العقل الفعّال دفعة واحدة ثم حسب المصالح تنزل منها بذريعة جبرائيل عليه السلام منجّمًا على قلب النبي ﷺ في مدة عشرين أو ثلاثة وعشرين سنة ويؤيّد الثاني قوله عليه السلام: «**الرؤيا الصالحة جزءًا من ستة وأربعين جزءًا من النبوة**».

الثاني: أنه ينزل من الحضرة الإلهية والمرتبة العلميّة إلى اللوح المحفوظ المسمّى عند الحكيم بالطبيعة الأصلية والنفس الكلية والنفس الناطقة الفلكية وعند الملّيين بالحقيقة الملكية والملائكية، ويظهر للنبي ﷺ، وظهوره له بأمر الله أو بنفسه، وأما إظهاره إنما كان بذريعة جبرائيل عليه السلام وفيه طريقان:

أحدهما: أنه عليه السلام كان ينخلع من الصورة البشرية ويتّصل أو يتّحد بالحضرة الإلهية وكلّ ما يظهر له في هذه الحالة يسمى حديثًا قدسيًّا، «**لي مع الله وقتٌ لا يسعني فيه ملكٌ مقرّب ولا نبيٌّ مرسل**» فإن اعتبر حصوله دفعة واحدة وإجمالًا في الحضرة العلمية التي تسمّى بالقلم والعقل وجبرائيل فيتسمّى بالقرآن وباعتبار ظهوره في اللّوح المحفوظ مفصّلًا يسمّى بالفرقان.

والطريق الثاني: أن المَلَك ينخلع من صورته إلى الصورة البشرية فيلقى الروح والوحي إليه.

وأيًّا ما كان فالنزول والإنزال والتنزيل عقليّ وإن التنزيل منجّم تدريجي والإنزال جمل دفعيّ وهو ظهور الفرقان في قلبه ظهورها بالقوة إلى الفعل من غير انتقال من محلّ إلى محلٍّ آخر، قال بعضهم أفهم كلام جبرائيل فيمثّل فيه ثم جاء من السماء إلى الأرض وعلّم النبي ﷺ هذا ما وصل إليّ من كلام القوم وفيه ما فيه.

أقول وبالله التوفيق إنّ القرآن هو كلامٌ غير مخلوقٍ قديمٌ قائمٌ بذات الله تعالى مع أنه مكتوبٌ في مصاحفنا محفوظٌ في قلوبنا مقروءٌ بألسنتنا مسموعٌ بآذاننا غير حالٍّ فيها وقد أخبر الله تعالى بأنه أنزله ونزّله، والإنزال والتنزيل لا يتصوران ولا يفهمان إلا من العلوّ إلى السفل وذلك لا يكون إلا بالنّقل والانتقال وهو مُحالٌ في حقّ الله تعالى، فإذًا واجبٌ أن يأولا بالانتقاش والانطباع والإحداث في محلٍّ قابلٍ ومحلٍّ حاملٍ، وأيًّا ما كان فهو لا يخلو عن تكلّف وتمحّل وتعسّف وهو ظاهر، فألهمني الله تعالى وعلّمني في هذا المقام ما لا يدرك إلّا من خصّه الله بالكشف الصّريح والذوق الصّحيح وهو أنّ القرآن للنفوس كالإيمان والإسلام فطريّ كما قال عليه الصلاة والسّلام: «**كلُّ مولودٍ يولدُ على الفطرة**» الحديث، وذلك أنّ الروح الإنسانيّ ونفسه الرّبانيّة هو روح الله تعالى كما قال عزّ وجلّ: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحِجر: 29] فيكون نسبة القرآن إلى الروح كنسبته إلى الحق ونسبته إلى الروح كنسبة الإيمان إليه كما قال عزّ وجلّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النِّسَاء: 136] والأرواح قد سمعوا ذلك في الفطرة الأولى من الله في مقام الخطاب بألست بربكم فالقرآن في النفوس والأرواح كالإيمان مكتوب ومرقوم ومرسوم ومذكور ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ﴾ [المجَادلة: 22] فإذا أراد الله تعالى إظهاره في أيّ أحد شاء هيّأ له سببًا معنويًّا كالملَك أو جسميًّا كالنبيّ فعبّر عن هذا الإظهار بالإنزال والتّنزيل وعن السّبب المعنويّ بجبرائيل وعن ظهوره بذلك السّبب بالوحي وعن التّذكّر بالتعلّم ﴿۞ طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣﴾ [طه: 1 - 3]، ولذا قيل إنّ المعلّمين من الأنبياء والأولياء والعلماء والحكماء متنبّهون وكذا الكلام في اللّوح المحفوظ والملَك والعقل الفعّال والنفس الكليّة.

تنبيه:

اِعلم أنّ التفسير في الأصل من التفسرة وهو الدليل والماء الذي في القارورة وينظر فيه الأطبّاء لتكشف بها حال المريض صحّةً ومرضًا، وفي العرف عبارة عمّا يعلم به الآية وقصّتها ومعناها وسبب نزولها وتنهر به ما قيل فيها بالرأي العليل بطريق البرهان والدليل من الحكم الغير الصّحيح عمّا حكم عليه العقل الصّريح وحرم على صحّة النّقل الفصيح.

وأمّا التأويل فصرف الآية إلى معنى يحتمله موافقًا لما قبلها وما بعدها من الأوّل وهو الرّجوع والعود، فالتفسير بجميع أجزائه الأربعة الّتي هي شأن الآية وقصّتها ومعناها وسبب نزولها موقوفٌ على السّماع فلا مدخل للرأي فيه، فمن فسّر القرآن برأيه فقد كفر ومن قال في القرآن برأيه وأصاب فأخطأ، فالتفسير نتيجة النّبوة والرّسالة والتأويل حاصل بطريق الولاية وهي التقرّب إلى الله تعالى ومعرفته وهما لا يستفادان من أحد غير الله والنبوّة التي هي التّقلّد والتّقيّد والتّقليد والتّقييد بالأحكام الشرعية المستفادة من الولاية وتعليم الله وإرشاده بالواسطة الملكيّة والإنسية أعمّ من النبوّة بحسب الوجود لوجودها في الكفّار والأعيان الغير المقيّدة بالأحكام الشرعية لكونها مقتضى الذّات الّتي هي أعمّ من الأسماء والصّفات الّتي هي مبادئ النبوّة ولذا أمر موسى عليه السلام باستفادة أسرار الولاية من صاحبها خضر عليه السلام ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: 65] إلى قوله: ﴿مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف: 67]، وأمر رسول الله ﷺ بالصّبر مع أصحاب الصّفة، وأمر الخليل عليه السّلام بتحسين الخُلُق ليدخل مداخل الأبرار وهم الأشخاص الكاملون في كلّ زمان غير محتاجين إلى صاحب النّبوّة دائرون في كلّ زمان ولا يخلو الزّمان عنهم بخلاف الأنبياء، فالولاية أعمّ والنّبوّة أفضل وأتمّ. فالتأويل يجوز لكلّ من هو عالم بالتفسير من غير سماع بخلاف التّفسير كما مرّ فهو أخصّ بحسب الوجود.

وها أنا أخوض في المقصود بعون الله المعبود منه بدؤٌ وإليه يعود.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ترتيبها 1 سُورَةُ الفَاتِحَةِ آياتها 7
مكية

مكيّة ومدنيّة لشرفها لكونها متضمّنة وحاوية لتمام الكتب الإلهيّة والصّحف السّماويّة كما قال عليّ كرّم الله وجهه: «إنّ جميع ما في الكتب الإلهية في القرآن وجميع ما في القرآن فهو في فاتحة الكتاب وكلّ ما في فاتحة الكتاب فهو في بسم الله وكلّ ما في بسم الله فهو في باء بسم الله وكلّ ما في باء بسم الله فهو في نقطة باء بسم الله وأنا النّقطة تحت الباء»، ولذا أنزلت تامّة وقيل لا تجاب الصّلوات إلا فيها ولا صلاة إلا بفاتحة الكتاب وفيه ما فيه، ولتكرّر نزولها سمّيت بالسّبع المثاني، وإنما سمّيت بالفاتحة لافتتاح الصّلاة والقرآن بها.

وهي أول سورة تامّة نزلت، وأمّا سورة اقرأ فخمس آيات منها نزلت أولًا إلى قوله ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: 5].

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ فتح كتاب تجلّياته بظهور ذاته بذاته لذاته بمحبّته الذّاتية ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الّذي تجلّى في ذاته بأسمائه وصفاته الأوليّة الّتي هي مبدأ أعطيات الوجودات على ماهيات الممكنات إلى النهايات ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: 1] الّذي أعادها إلى ما كانت عليه من العدم «**كان الله ولم يكن معه شيء**» والآن على ما عليه كان وهي من الفاتحة عند الشّافعي وجماعةٍ من العلماء وفرقةٍ من الفقهاء

وعند قرّاء مكّة والكوفة وإذ لم ينصّ أبو حنيفة فيه ظنّ أنّها ليست من الفاتحة. سُئل محمّد بن الحسن عنه قال: ما بين الدّفتين كلام الله وفيهما البسملة وعليه الإجماع إذ صحّ من كافّة العلماء وعامّة الفقهاء الإجماع على إثباتها في المصاحف مع ولوعهم في تجريد القرآن حتّى أنّه لم يكتب آمين.

وهي سبع آيات لصحّة تسميتها بالسّبع المثاني [أضاف] إليها البسملة وعليه أخبار صحيحة وآثار صريحة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أخبرك بآيةٍ لم تنزل على أحدٍ بعد سليمان بن داود، فقلت: بلى يا رسول الله، قال: بأيّ شيءٍ يفتح القرآن إذا افتتحت الصلاة [قال:] ببسم الله الرّحمن الرّحيم، قال: هي هي**»، هذا دليل على أنّ البسملة آية تامّة من الفاتحة ومن سائر السور، وأمّا الّتي في النّمل فبعض آية منه، عن أبي جعفر الملاطي عن عليّ بن موسى الرّضا عن أبيه عن جعفر بن محمد الباقر رضي الله عنهم أنه قال: «اجتمع آل محمّد على الجهر ببسم الله الرّحمن الرّحيم وعلى أن يقضوا ما فاتهم من صلاة الّليل بالنّهار وعلى أن لا يقولوا في أبي بكر وعمر رضي الله عنهم إلا أحسن القول». سألت الصادق رضي الله عنه عن الجهر بالبسملة فقال: «أحقّ ما جهر به الآية الّتي ذكرها الله ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: 46]».

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النّبي ﷺ قال: «**أتاني جبريل يعلّمني الصلاة ثم قام رسول الله ﷺ وكبّر فجهر ببسم الله الرّحمن الرّحيم**» قال عليه السّلام: «**يقول الله عزّ وجلّ قسمتُ الصلاة بيني وبين عبدي، فإذا قال العبد بسم الله الرّحمن الرّحيم، قال الله تبارك وتعالى: مجّدني عبدي، وإذا قال: الحمد لله ربّ العالمين، قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: الرّحمن الرحيم، قال الله تعالى: أثنى عليّ عبدي، وإذا قال: مالك يوم الدّين، قال الله تعالى: فوّض إليّ عبدي، وإذا قال: اهدنا الصّراط المستقيم، قال الله تبارك وتعالى: هذا لعبدي ولعبدي ما شاء**»، قالت أم سليم: «**قرأ رسول الله ﷺ وعدّ بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله ربّ العالمين آية، اهدنا الصّراط المستقيم آية، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليه ولا الضّالّين آية**».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال كنتُ مع رسول الله ﷺ وهو يحدّث

أصحابه فدخل رجلٌ وافتتح الصلاة فتعوّذ وقال: الحمد لله ربّ العالمين فسمع النبيّ ﷺ فقال للرجل: «**قطعت على نفسك الصّلاة أما علمت أنّ بسم الله الرّحمن الرّحيم من الحمد فمن تركها ترك آيةً منه ومن ترك آيةً منه فقد قطع عليه السّلام**».

واعلم أنّ ما بين الدّفتين كلام الله اتّفاقًا واتّفقوا على كتابتها بخط المصحف فما بين المقدّمتين اندفع ما قال الباقلّاني ردًّا على الشّافعي رضي الله عنه بأنّه لا يبعدُ أن يفسّق المثبت لأنّ الإثبات أن تثبت بالتّواتر امتناع الخلاف وإلا لم يكن القرآن حجّةً قاطعةً لأنّ التواتر قسمان:

قوليّ وفعليّ، فالتواتر قد وقع على ردّ على الفعليّ وهو الكتابة وهو يستلزم القوليّ من غير عكس. عن ابن عبّاس رضي الله عنه: «من تركها فقد ترك مائة وعشرة وأربع آية من كتاب الله تعالى».

واتّفق قراء المدينة وفقاؤها على أنّها ليست من الفاتحة ولا من سائر السّور وإنما كتبت للفصل والتبرّك وأقوى تمسّكهم فيه ما روي عن الزهريّ أنّه قال: «أوّل من ترك البسملة عمرو بن سعيد بن العاص بالمدينة». وما روي عن أنس بن مالك أنّ النبيّ ﷺ وأبا بكر وعمر رضي الله عنهما كانوا لا يجهرون بها. وأنت خبيرٌ بأنّ هاتين الرّوايتين لا يدلّان على المطلوب.

أمّا الأولى: فمحمولة على السّهو والنسيان.

وأمّا الثانية: فعلى التّخافت وترك الجهر لا النّفي مع أنّه يمكن أن يقال المراد من الجهر المبالغة في رفع الصّوت لا الإسرار والتّرك. وأجيب أيضًا بأنّ كلام الرّوايتين معارض، وأمّا الاتفاق على كتابتها في المصاحف كلّها بخطّ المصحف وعلى أنّ ما بين الدّفتين كلام الله فسالم عن المنع.

واعلم أنّ ما بين الدّفتين سواء ما يكتب فيه من أسماء السّور وعدد الآي وكونها مكيّة ومدنيّة وما قيل أنها للفصل مردود، إذ الفصل تحصيل بابتداء السورة ألا ترى أنّ سورة براءة قد فصلت وتميّزت من صاحبتها من غير البسملة فثبت أنّها آية مستقلة من كلّ سورة سوى سورة النّمل وإنّما أقحم الاسم بين الباء وبين الله

الذي هو اسم الذّات المستجمع لجميع الأسماء والصّفات وأضافه إليه إضافة العام إلى الخاص تنبيهًا عل أنّ القارئ المبتدئ من حيث إنّه محفوفٌ بالغواسق الهيولائية واللّواحق الجسمانية والبوارق الظلمانية بعيدٌ عن الله تعالى المقدّس عن اللّواحق الماديّة والقيود الظلمانية فلا بدّ أن يكون بينهما مناسبة ووسيلة يناسبهما وهو الاسم التّام وإشعار بأنّ الاسم عين المسمّى فتكون الإضافة بيانيّة، ويدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البَقـرَة: 31] أو إظهار لما أنّه لا بدّ أن يكون بين العبد الممكن الطالب والسّالك الرّاغب والحقّ الواجب واسطة في حصول مرتبة الشهود والمعرفة كالرّسل والأنبياء والأولياء، كما أنّ الاسم واسطة في الإفادة وأنّ الذّات البحت بلا اسم وصفة لا يؤثر، وما قيل أنّ ذاته تعالى كافية في إظهار الكمالات معناه أنّه لا يحتاج إلى وجود الغير لامتناعه في تلك المرتبة لا بالنّسبة إلينا وإلا قيّد أنه تعالى على حالةٍ واحدةٍ لا تتغيّر ولا تتبدّل لا حقيقةً ولا اعتبارًا لا في ذاته ولا في أسمائه وصفاته الذّاتية.

اللغة والإعراب

واعلم أنّ معلّق الباء محذوف أي بسم الله أقرأ أو أتلو لأنّ الّذي يتلوه مقروءٌ كما يشعر به في بدء الوحي ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ [العَلَق: 1] وهذا أولى من أن يضمر أبدأ لعدم ما يطابقه وانتقاء ما يدلّ عليه من القرائن المقاميّة والحاليّة ولو كانت تخصيصيّة بالقراءة لتخصيص المقام بها ولذا كرّر في بدء الوحي، أو ابتدائيّ لزيادة الإضمار فإن قيل لم أخّرها وقدّم في ذلك المقام قلت لأنّ الله تعالى أمر في ذلك المقام بقراءة النّعَم والقراءة أهمّ نظرًا إلى ذلك المقام وحال المأمور وإن كان ذكر الله أهمّ نظرًا إلى نفسه فإن قيل البسملة مقروءة يحتاج إلى بسملة أخرى فيتسلسل، أجيب بأنّ حديث: «**كلّ أمرٍ ذي بالٍ . . .**» إلى آخره بالنّسبة إلى غير البسملة لا بالنّسبة إليها لحصول الغرض بها كالظهور والوجود بالنّظر إلى الأشياء لا إليهما قيل الباء للمصاحبة يتعلق بـ(متيمّنًا أو متبرّكًا) لا يسبقها ولا يقارنها معنى الابتداء إلا في ظرف من البسملة وهو الظرف، أجيب بأنّ ذلك إنّما يكون في الحال المؤكدة نحو أبوك عطوفًا لا المستقلة، وقيل للإلصاق فشعر باتصال العبد بربّه وإلصاقه به ولها تواضع وكسر

وانكسار لفظًا وخطًّا؛ أمّا لفظًا فظاهر وأمّا خطًّا فلتواضعها الخطّي الحاصل من انحطاط الألف عن التطاول والرّفعة وانبساطها على أرض الخضوع وبساط التسفّل والخشوع، فإنّ الاتصال بالربّ يوجب مزيد التواضع وإن كان تواضعها موجبًا لرفعتها على ما سواها حيث صارت مبدأً لظهور كمالات الكائنات ومنشأً لصدور سائر الكمالات، وهذا الارتفاع أتمّ وأعلى وأهمّ، أو متعلّقٌ بالحمد أي متلبّسًا باسمه الظاهر أو مطلقًا أو بأعوذ إن تعوّذ ليشعر بأنّه لا يستقل بالالتجاء إليه، أو بمحذوف كما مرّ تحقيقًا يشير إلى أنّ الاتصال يفيد تخفيفًا لوزن الفعل لأنه الأصل في العمل والتعلّق وليشير إلى إحداثه الاتصال به والانفصال عمّا سواه وليعترف بالتقصير في الماضي وقصد التلاقي في المستقبل وليوافق ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة: 5] أو اسم من جنس الابتداء ليدلّ على إثبات مبدائيّة الله تعالى أو ما جعلوا التسمية مبدأً له كالقراءة لتشعر بدوام تلبّسه به في جميع أوقات قراءته مؤخّرًا تعظيمًا لاسمه تبارك وتعالى وقصدًا للحصر ردًّا على القائل باسم اللّات والعزّى أو مقدّم لحصول التلبّس في اللّفظ كما في المعنى ويجوز أن يكون تعلّقه به كتعلّق القلم بكتبته في قولك كتبتُ بالقلم لأنّ الفعل يتمّ ولا يعتدّ به شرعًا ما لم يصدّر باسمه تعالى بل لا يوجد إلا بإرادته ومشيئته واسمه وإيجاده فلا ينبغي لأحد أن يقدّم على فعل بدون البسملة لكونه حينئذٍ كلا فعل.

اِعلم أنّ تقديم المعمول ههنا أولى نظرًا إلى أنّه أهمّ في نفسه وأدلّ على الاختصاص وأدخل في التعظيم وأوفق الموجود كما في قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا﴾ [هُود: 41]، فإن قيل كيف قال الله تعالى متبرّكًا بسم الله، قلت: هذا وما بعده معوّل على ألسنة العباد كما يشعر على لسان الغير والتسمية الوضع والذكر، والاسم إن أريد به اللفظ الدّالّ فغير المسمّى لأنّه يتألّف من أصوات متقاطعة غير قارّة وتختلف باختلاف الأمم والأعصار ويتبدّل بحسب الأماكن والأمصار، وإن أريد به ما يحكم عليه ويخبر عنه ويترتّب عليه الآثار ويتعاقب لديه الأخبار فلا بدّ وأن يكون عين المسمّى وذاته أو صفة من صفاته كما هو رأي الأشاعرة، وينقسم عندهم انقسام الصّفة إلى ما هو عينه أو غيره أو لا هذا ولا ذاك.

وقيل الاسم المدلولي المطابقي والمسمّى الذّات من حيث هي أو باعتبار ما صدق عليه الاسم المدلول أعمّ من المعنى المطابقي لصدقه على التّضمّني والالتزامي وهذه المعاني متّحدة في أسماء الذّات ومتغايرة في أسماء الأفعال ومتوسّطة في أسماء الصّفات.

والاسم عند البصريين من الأسماء العشرة المحذوفة الأعجاز وهي اسم وابنة وابن وامرؤ وامرأة واثنان واثنتان وأم وبنت وأنتم ثبت أوائلها على السّكون فإذا نطقوا بها زادوا بهمزة وصلٍ إذ دأبهم في الابتداء بالمتحرّك والوقف على السّكون، ومنهم من لم يردّها استغناءً عنها بتحريك السّاكن كقول الشاعر:

واللـه أسـمـاكَ سُـمًّـا مـبـاركَـا وأنـزلَ الـلـه بـه تـبـاركَـا

واشتقاقه من السموّ بدليل تصريفه إلى أسماء وسُميّ وسمّيته سمّى به لعلوّ المسمّى به فهو على زنة أفِع.

وعند الكوفيين أنّه مشتقّ من الوسم وهي العلامة فإنّ الاسم علامة للمسمّى والأوّل صحيحٌ لعدم مجيء وسامٍ ووسيمٍ في جمعه وتصغيره، والقلب غير معهود وإنما ابتدأ بالباء دون سائر الحروف سيّما الألف لما فيها من انكسار وتواضع ولذا صارت عاملة في غيرها بجعله صفة التواضع والانخفاض لما تقرّر من أنّ الشيء ما لم تتحقق نصفه لم يتجاوز تلك الصّفة منه إلى غيره كما أشار إليه جلّ وعلا (**عظ نفسك فإن اتّعظت عظ غيرك وإلا فاستجير منّي**).

وفي الألف ترفّع وتكبّر وتطاول فما لم ينخفض ولم ينكسر لا يتمكّن أن يكون مبدأً لسائر الحروف فإنّ الباء في الحقيقة سقوط الألف وانخفاضه ولهذا انجلت صورة الوحدة أي النقطة ووصلت بالكلّ والكلّ بها، فإن قلت قد اتّفقوا في حذفها حكم الدّرج دون الابتداء الّذي عليه وضع الخطّ لكثرة الاستعمال وطوّلت الباء تعويضًا من طرح الألف إشعارًا بامتداد الفيض الإلهي إلى الممكنات أولًا في عالم الجبروت لإظهار الاستعدادات وإعطاء الوجود العلميّ وما يتبعه من الأحكام الأوليّة والقضايا الأزلية، ثمّ إلى عالم الأرواح لإفاضة أنواع الأرواح البيانيّة والحيوانيّة والإنسيّة والملكيّة والجنيّة ثمّ إلى عالم الملك والأجسام إلى ميم صورة آدم عليه السّلام. عن عمر بن عبد العزيز أنّه قال لكاتبه:

طوّل الباء أو أظهر السّينات ودوّر الميم تلويحًا إلى هذا المعنى، ووقوع النقطة تحتها وانكسارها إشارة إلى التوجّه الاتحادي إلى ما تحتها من المراتب وأعيانها بإعطاء الوجود وما يتبعه من الكمالات الأوليّة المتنوّعة. والثّانية من اللوازم الذّاتيّة والوجوديّة وإعلامٌ بأنّ السائرين إلى الله إنّما يصلون إلى هذا المقام إذا وضعوا ما سوى الله من المراتب وأعيانها تحت أقدامهم، وإنّ الأسرار الإلهيّة والأنوار الرّبانيّة لا تنزل ولا تقف إلا عند منكسري القلوب ومندرسي الشهادة والغيوب «**أنا عند المنكسرة قلوبهم والمندرسة قبورهم**» والقبور هي الأجسام والأبدان الّتي هي من عالم الشّهادة والأجرام، قال آدم الأولياء عليه السّلام:

وفي الجهل قبل الموت موتٌ لأهله وأجسامهم قبل القبورِ قبورُ
وإن امرؤ لم يحي بالعلم ميّتٌ وليس له حتّى النّشورِ نشورُ

الله: أصله إله حذفت الألف وعوّضت الألف واللّام عنها، قال صاحب الكشّاف: الإله أصل فحذفت الهمزة وعوّض عنها حرف التعريف ولذلك قيل يا الله بالقطع، قال معاذ الإله أن يكون كطيبة ونظيره النّاس أصله الأناس، والإله من أسماء الأجناس كالرجل والفرس يقع على كلّ معبود بالحقّ والباطل ثمّ غلّب على المعبود بالحقّ كما أنّ النّجم اسم لكلّ كوكب ثم غلّب على الثّريّا، وكذا البيت على الكعبة، ومنه اشتقّ أسباله وباله كاستنوق واستحجر من النّاقة والحجر.

وأمّا الله فعَلَمٌ خاصٌّ للمعبود بالحقّ الواجب الوجود المتعيّن لجميع الأسماء والصّفات الخالق للكلّ الجامع للجزء والكلّ لا يطلق على غيره، ومن قال إنّه اسم لمفهوم المعبود بالحقّ الواجب لذاته لا علم تقدّسها وإلا لما أفاد لا إله إلا الله التّوحيد إذ المراد بالإله إمّا المعبود بالحق فيلزم الاستثناء من نفسه أو مطلق المعبود فيلزم الكذب ويمكن أن يقال المراد في نفس الأمر والخارج لا الوهم والاعتقاد كأنّهم قيل لا موجود بالذّات في نفس الأمر إلا الله وهو اسم لا صفة أصلًا إذ لا يوصف به شيء وهو موصوف بكلّ كمال لائق به إذ لا يقال الشيء هو الله كما لا يقال شيء رجل، ويقال الله الواحد القديم كما يقال رجل كريم خيّر، ومنهم من قال أنّه مشتقٌّ من ألهَ آلهة وألوهة وألوهية مثل عبد وعبودة

وعبودية لفظًا ومعنًى، أو من ألهت إلى فلان أي سكنت إليه أي لا تسكن العقول إلا بذكره ولا تطمئنّ القلوب والأرواح إلا بمعرفته وشكره، أو من لاه يليه لاهًا إذا ارتفع، أو من لاه يلوه إذا احتجب، أو من وَلِهَ إذا ذهب عقله وتحيّر النّسب ظاهرة.

وفي تفسير القاضي أيضًا أنّ الحقّ أنّه وصفٌ في أصله لكنّه لمّا غلّب عليه بحيث لا يستعمل في غيره صار كالعلم مثل الثّريّا والعيوق أجري مجرى العلم في الأوصاف عليه وامتناع الوصف به وعدم تطرّق احتمال الشّركة إليه، ولأنّ ذاته من حيث هو بلا اعتبار أمر آخر حقيقي أو اعتباري غير معقول للبشر فلا ممكن أن يدلّ عليه بلفظ، ولأنّه لو دلّ على مجرّد ذاته المخصوص لما أفاد ظاهر قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِۖ﴾ [الأنعام: 3] معنًى صحيحًا ولأنّ معنى الاشتقاق هو كون أحد اللّفظين مشاركًا للآخر في المعنى والتّركيب وهو حاصلٌ بينه وبين الأصول المذكورة وفيه نظر لأنّه إن أراد بقوله أنّه وصف في الأصل أنّ استعماله في الوصف مقدّم على إطلاقه على ذاته فممنوع، وإن أراد معنًى آخر فلا بدّ من البيان حتّى يتكلّم عليه، والحقّ أنّه لمّا لم يطلق على غيره ولا يسوغ استعماله فيما سواه لا أصالةً ولا تبعًا ولا حقيقةً ولا مجازًا كان من أعرف المعارف فلا يكون إلا علمًا ولا وصفًا وقد يطلق على الذّات البحت ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: 1] وعلى الذّات مع الوصف ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص: 2].

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾

واعلم أنّه كما أنّ العقول قد تحيّرت في ذات الله تعالى تحيّرت الأوهام في اللّفظ الدّالّ عليه هل هو اسم أو صفة، عَلَم أو غير عَلَم وغير ذلك، وهذا دليل أنّه مختصٌّ به ولا يطلق على غيره أصلًا.

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفَاتِحَة: 3] هما بمعنى واحد عند بعض مثل ندمان

ونديم وسلمان وسليم ولهفان ولهيف بُنيا للمبالغة كالرحمان من رحم كالغضبان من غضب والعليم والسّقيم والمرض من عَلِمَ وسَقِمَ ومَرِضَ ومعناهما ذو الرّحمة وهي إرادة الخير بأهله.

وفي الكشّاف أنّ الرّحمن من المبالغة ما ليس في الرّحيم، وقيل الرّحمن ترك عقوبة من يستحقّها أو إيلاء الخير إليها، وبعضهم خصّ هذا المعنى بالرّحيم في الآخرة. والرّحمة في اللّغة رقّة القلب وانعطافه يقتضي التّفضيل والإحسان، ومنه الرّحم لانعطافها على ما فيها، فإطلاقها على الله بأيّ معنى كان مجاز، قال ابن الحاجب: الرحمن مجازٌ لا حقيقة له، وقيل الرّحمن أبلغ بحسب الكميّة والرّحيم باعتبار الكيفيّة فباعتبار الأولى قيل يا رحيم الدّنيا لأنّ رحمته في الدّنيا تعمّ الكافر والمؤمن وسائر المخلوقات باعتبار الوجود وما يتبعه من أنواع الخير الدنياوي وباعتبار الثانية، قيل رحيم الآخرة لأنّ الأخرويّة كلّها جسام عظام بخلاف الدّنياويّة فإنّها قليلة حقيرة بالنّسبة إلى الأخرويّة وإن كانت عظيمة في نفسها. وقيل الرّحمن خاصّ اللّفظ عامّ المعنى والرّحيم بالضّدّ، والرّحمن اسم خاصٌّ بنعمةٍ عامّةٍ والرّحيم اسم عامٌّ بصفةٍ خاصّة، وقيل الرّحمن يرحم برحمةٍ واحدةٍ والرّحيم بمائة رحمة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ لله عزّ وجلّ مائة رحمة أنزل منها واحدة إلى الأرض وقسّمها بين خلقه بها يتعاطفون وبها يرحمون، وأخّر تسعة وتسعين لنفسه يرحم بها عباده يوم القيامة.

قيل الرّحمن هو الذي إذا سئل أعطى والرّحيم إذا لم يُسأل غضب، عن أبي هريرة رضي الله عنه: «من لم يسأل الله غضب عليه»، وقيل الرّحمن ثمن علمه والرّحيم ثمن علم فعمل، قيل الرّحمن ثمن ذكره والرّحيم ثمن شكره.

قال أبو بكر الورّاق: «الرحمن ثمن جحده والرّحيم ثمن وجده والرّحمن ثمن ذكره والرّحيم ثمن شكره».

وقيل الرّحمن ثمن علم والرّحيم ثمن عمل بما علم فعلم بما لم يعلم، قال عليه الصلاة والسّلام: «**من عمل بما علم ورّثه الله علم ما لم يعلم**».

عن جابر رضي الله عنه: «لما نزل بسم الله الرّحمن الرّحيم سرت الغيم إلى المشرق وستلت[1] الريح وهاج البحر وأصعب البهائم بأدائها ورجمت الشياطين من السماء وحلف الله تعالى بعزّته أن لا يسمّى اسمه على سقيم إلا شفاه ولا على شيءٍ قليلٍ إلا بارك عليه ومن قرأه دخل الجنّة».

عن ابن مسعود: «من أراد أن ينجّيه الله تعالى من الزّبانيّة التّسعة عشر فليقرأ بسم الله الرّحمن الرّحيم تسعة عشر حرفًا ليجعل الله تعالى كلّ حرفٍ منها جنّة تقيه»، ومن قرأها عند كلّ ملكٍ جبّارٍ وأميرٍ قهّار أمِنَ من شرّه وسَلِمَ منه و[من] ضرّه، ومن كان له حاجة فليصلِّ ركعتين وليقرأ بلا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم، يا قديم، يا دائم، يا فرد، يا وتر، يا أحد، يا صمد، مائة مرة، وذلك البسملة بعدد حروفها بالإخلاص التّام ويسأل الله ما شاء قضى له.

نكتة:

مرض موسى عليه السّلام فشكى إلى الله تعالى فدلّه على عشب في المفازة فأكله ببسم الله الرّحمن الرّحيم فعوفي بإذن الله تعالى، ثم عاد مرّة أخرى فأكل ذلك العشب ازداد مرضه فشكى إلى الله تعالى فقال: يا موسى أكلته أوّلًا باسمي وثانيًا باسمك ورأيك.

روي أنّ فرعون قبل دعوى الألوهية بنى قصرًا وكتب على بابها اسمه تعالى فلمّا بعث موسى إليه ودعاه إلى الله فلم يجبه، فدعا موسى عليه السّلام عليه، قال الله: يا موسى تريد أنت هلاكه لنظرك إلى كفره وأنا أنظر إلى ما في داره من اسمي فما دام عليه لا يمكن هلاكه.

لطيفة:

إنّ فرعون مع كمال عصيانه وعموم طغيانه لا يهلك لأنّ اسمه الكتابيّ مكتوبٌ على باب بيته العتابي، فما ظنّك بمن كتب حقيقة هذا الاسم على صفحة قلبه وهو بيت الله تعالى.

---

(1) سَتَلَ القوم: خرجوا متتابعين واحدًا بعد واحد.

اِعلم أنّ طبقات أصحاب الكشف والشهود ودرجات أرباب مراتب الوجود بحسب كثرة النّشآت وعلّو البيان في الأحوال والمقامات واختلاف الشؤونات متفاوتة، فمنهم من فاز بأن جاز تمام قصبات السّبق في مضمار نشآت الأدوار الإلهية والأكوار الكونيّة الجماليّة والجلاليّة أفرادًا وجمعًا استقلالًا وتبعًا وأحاط بمقتضيات فردانية الأحقاب السّرمديّة كما هو بيان معاشر البرزات ومحاضر الكمونات وتطورات أنواع التجليات وتنوّع أطوار الشهودات من غير أن ينفيه بمقتضيات فرداريّة دورةٍ مخصوصةٍ ويتقلّد بمرتضيات فرداريّة كورة منصوبة ومنهم من يقيّد بواحدة منها أو أكثر واستعاب مقتضيات تلك الدّورة من أنواع الفنون الحكمية والمعارف الإلهية والأحكام الشّرعيّة والأعلام العرفية الأصليّة والفرعيّة واستشرف على درجات أوج المقامات وتموّج أبحر نظورات التجليّات ينبوع أقسامها الواقدة في تلك الدّورة، ومنهم من ليس لا من هذا ولا من ذاك وهم العلماء القشريّة والمتصوّفون القشريّة وهذا لا يغني عن جوع، فكلّ ما ظهر في الأكوار الإلهية والأدوار الكونيّة المنسوبة إلى ظاهر الأسماء الأربعة الأولى من الأسماء السّبعة الذّاتية الظاهرة في فرداريّة الأدوار الجمالية هي الكتاب الإلهي الجماليّ والمنسوب إلى باطن هذه الأسماء البارزة في فرداريّة الأكوار الجلاليّة هي الكتاب الجلاليّ ولكلّ دورة منها بداية ونهاية والأعيان التي هي الآيات المحبوبة تلك الجمعيّة الكتابيّة عليها بالأسماء السّبعة الذّاتية جماليّةً كانت أو جلاليّةً لسبعة أبطن.

قال النّبيّ ﷺ: «**لكلّ آيةٍ ظهرٌ وبطنٌ إلى سبعة أبطن**»، فمن دار في هذه الأدوار الإلهية الجماليّة والأكوار الإلهية الجلاليّة، وتحقّق بمقتضيات كلّ دورة منها وفي الدّورة الجامعة لها وتحقّق بمقتضياتها فقد تلا كتاب الله تعالى عن التّلاوة ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البَقَرَة: 121].

فعلى هذا يكون الكتاب الإلهيّ والكلام الرّبانيّ ثلاثة أنواع: عينيّ جلاليّ وعينيّ جماليّ وجمعيّتهما؛ أمّا العينيّ الجلاليّ فهو كلامٌ نفسيٌّ قائمٌ بالذّات من حيث إنّه ذات، وأمّا العينيّ الجماليّ فهو نعت ظاهر العلم قائم بذات الله تعالى بالأسماء والصّفات الذاتيّة الأوليّة وهو غيب مجموع النّسب الأسمائيّة

والشؤونات الذّاتية المسمّى بالصّور العلميّة والأعيان الثابتة والحروف العاليات والماهيات المبسّطة والحقائق الإلهيّة، أمّا العينيّ الجمعيّ فهو مجموع المراتب المحقّقة الجبروت والملكوت والملك وما فيها من الأعيان وصور الأكوان ظاهرًا وباطنًا صورةً ومعنىً وهي الكمال الجمعيّ الإنسانيّ:

أنا القرآن والسبع المثاني وروح الرّوح لا روح الأواني

ففاتحة الكتاب الجماليّ هي بداية الدّورة العظمى الجماليّة النّوريّة الوجوديّة، وفاتحة الكتاب الجلاليّ هي بداية الدورة العظمى الجلاليّة العدميّة الظلاميّة، وفاتحة الكتاب الجمعيّ الصّورة الجمعيّة الجلاليّة والجماليّة الظّاهرة بالكون الجامع الإنسانيّ الغير المتناهي فباء بداية كلّ دورة هي باء بسم الله الرّحمن الرّحيم، وألف الاسم وهي الألف الظاهرة بالباء المختفية هي إشارة إلى الذّات المتّصفة بالصّفات السّبعة الذّاتية المحتجبة بالصّور الجمعيّة أي الصّور النّوعيّة الإنسانيّة التي هي مفتتحة الكتاب الإلهيّ بذاته الكبرات الكونيّة، ونهاية الآحاد والوحدات الإلهية التي هي حقائق الكائنات وهيولى صور الموجودات وهي عالم الجبروت والواحدية والعلم والعقول وسننه بأسنانه الثلاثة التي هي كانت في ضمن الألف إشارة إلى العوالم الثلاثة عالم الأمر والأرواح والملكوت وعالم الخيال المطلق والبرزخ المحقّق وعالم الملك والشّهادة، أو إلى الوجوه الثلاثة المعتبرة في المعلول الأوّل وهي الوجه الإلهيّ الكونيّ والجمعيّ يخرج من القوّة إلى الفعل ويتميّز بعضها عن بعض بالصّور اللّطيفة الرّوحيّة في البرزخ الذي هو سماء عالم الواحديّة وفلك مرتبة الجبروت كما تميّزت في الحضرة العلميّة بالصور العلميّة، وميمه إشارة إلى عالم الملك والشهادة وهو عالم الأجرام وعالم الحسّ والأجسام فتمّت كلمات كتاب الله الملك العلّام وظهر الذات أولًا بصورة الاسم العظيم أي الله الواحد الأحد الفرد الصّمد العليم المتصرّف في الكون بلا مدد عن الغير ولا عون، وهذا عالم العقول والجبروت الذي هو حقيقة الألف وزبوره وثانيًا بلام الفعل الذي هو قلب الألف وهو عالم الملكوت والنّفس والرّوح، وثالثًا بشكل الحرف وهو عالم الملك والأجسام الذي هو نهاية الألف وآخر الاسم وذلك لأنّ النّقطة العينيّة والوحدة الذّاتيّة المفيدة للتعيّن كما أشار إليه

آدم الأولياء عليّ المرتضى كرّم الله وجهه بقوله: "أنا النّقطة تحت الباء" إذا دارت بالحب الذّاتيّ بحركة التوجّه الحيّ الإيجاديّ بنفسها على نفسها في نفسها وهي أصل الامتدادات الثلاثة من المبدأ إلى المبدأ على المبدأ ومن الله وإلى الله وفي الله فظهرت أوّلًا نفس ألف امتداد النّفس الرّحماني الّذي هو مادّة هذه الامتدادات الثلاثة، وإذا امتدّت نسبتها إلى النّقطة وعلى النّقطة ومن النّقطة، ثانيًا ظهرت الامتدادات الطوليّة والعرضيّة والعمقيّة متميّزٌ بعضها عن بعض بالفعل في العلم وتعيّنت بصورة الباء، وإذا تحرّكت الباء وهو وهوات الظّهور وربّ الغيب والحضور على نفسها فعيّنت في نهاية العين بصورة آدم منطبقًا على الصّورة الإلهيّة، فإنّ باء ثلاثة فيضربها في نفسها يصير (ط) يعني تسعة وإذا دارت على نفسها يصير (هـ ٤) يعني آدم باط آدم ط ج ز و هـ د ح ب بالباء ظهر الوجود وبالنّقط تميّز العابد عن المعبود، وهذه البيدلات هي الحركة الجنيّة بصورة الحبّ والمحبّ والمحبوب «**كنتُ كنزًا مخفيًّا فأحببتُ أن أُعرَف**» فالكتاب بتنوّع ما فيه من الكلمات والصّور والعشور والحروف والآيات ولذا قيل الألف غيب ومحيط يَملك ولا يُملك والهمزة فتوجّب ظهور غيب والباء ظاهر نسيب وحكمة ترتيب.

فالكتاب بأنواعه الثلاثة بما فيه من السّور والأجزاء والعشور والوقوف والكلمات والحروف والآيات إن اعتبرت أن يكون ثانيه دفعة واحدة على وجه يكون نعت العلم والشّهود ظاهرًا والأثر والنّسب العينيّة والإضافات الخارجيّة الحسيّة مخفيّة مندرجة في العلم تسمّى بالقرآن وبالكتاب المعنويّ والكلام العينيّ، وإن كان على وجه يكون العلم والشّهود الذّاتي ضمنًا خفيًّا والأثر واللّوازم الخارجية والخصائص العينيّة والخصوصيات الحسيّة مخفيّة مندرجة في العلم تسمّى بالقرآن وبالكتاب المعنويّ والكلام العينيّ وإن كان على وجه يكون العلم والشهود الذّاتيّ ضمنًا خفيًّا والأثر واللّوازم الخارجية والخصائص العينيّة والخصوصيّات الحسيّة والنّسب النّفسية ظاهرة تسمّى بالفرقان والكتاب العينيّ.

وإن كان العلم والفعل والأثر وما يتفرّع عليه من النّفع والضرّ والخير والشرّ ظاهرة في مرتبة واحدة و متحدة كما ظهر في النّاسوت ولذا ختم عليه الكتاب صريحًا وضمنًا من الجنّة والنّاس (ي سين آدم حوّا) كما افتتح به ضمنًا.

وأمّا وقوع النّقطة تحت الياء وكسرها إشارة إلى فتح أبواب كنوزه الغيبيّة بمفتاح الحبّ الذّاتيّ وإلى ضمّ التوجّه الاتّحاديّ وخفض الفيض الجوديّ لرفع أعلام الوجوديّ ونصب سهام النّصال الشّهودي على ما وقع في المعاقد العهوديّ.

واعلم أنها أوّل الأشياء وأصل الحروف الوجوديّة ومبدأ الكمالات الكلمات الجماليّة ومنشأ الظّلمات والهيئة العدميّة الجلاليّة الإجماليّة.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الّذي خلق السموات والأرض وجعل الظّلمات والنّور وعبّر عن هذه النّسبة بالحبّ الذّاتيّ والتوجّه الاتحاديّ كما قال تعالى: "فأحببت أن أعرف"، وثانيها إلى ظهور تفاصيل صور الحروف وإظهار معانيها جمالاً وجلالاً وأشار إليه بقوله: «**كنتُ كنزًا مخفيًّا فأحببتُ أن أُعرف**»، وثالثها: إلى نفسها الطّاوية على هاتين النّسبتين فأشار بقوله: «**فخلقتُ الخلق لأُعرف**»؛ وباعتبار الأوّل سمّيت همزةً، وباعتبار الثّاني باءً ولذا قيل الهمزة فتق وظهور غيب وبالباء ظاهر نسيب وحكمة ترتيب، وباعتبار الثالث ألفًا. ولكلّ من الألف والباء في عالم الأسباب كما في إظهار الكتاب اقتضاءً خاصًّا مشروطًا بنوع اختصاص بالصّور المخصوصة والأشكال المرصوصة والرّقوم المنصوبة والنّسب العدّيّة والنّصب الوديّة وهي منبئة عن كيفيّة جريان آثار جواهر تلك الكنوز بطريق الإشارات والرّموز ولأرباب الإشارات وأصحاب العبارات في إدراكها مراتب متفاوتة، فمنهم من جمع جميع طرق الإشارات من الحاليّات وعلوّ المقامات وسموّ الدّرجات وأحاط بالقواعد الحرفيّة والرموز الجفريّة، ومنهم من قنع بظاهر العبارات وبعض من الإشارات.

والاسم الأوّل الظاهر من الألف الله واحدٌ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: 1] وهو اسم الجمع جامع للفرق والجمع لا ينكشف إلا لأهل جمع الجمع بخلاف سائر الأسماء فإنّ كلًّا منها تدلّ على الذّات بوجه خاصّ ووجوه خاصّة، **والله** اسمٌ للذّات المستجمع لجميع الأسماء والصّفات فلا يصير إلى حقيقة معناه إلا من أوصله الله تعالى في المرتبة الجمعيّة والدّرجة المعيّة وحقيقة بحقيقة معناه الجمعيّ وفحواه المعيّ وهو الذّات بتمام الأسماء والصّفات الذّاتية

والأفعاليّة والآثاريّة والصّورة النوعيّة والهيئة الجمعيّة ولذا لا يخبر بهذا الوجه أي معه إلا عنه تعالى ولا يسمّى به إلا هو ولا يتكلّم به إلا هو ولا إله في تمام الأدوار وعموم الأكوار إلا هو ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٥٩﴾ [الأنعام: 59]، فلا موجود ولا شاهد ولا مشهود إلا هو ولا عابد ومعبود إلا هو لأنّ ألف الله باعتبار النّسبة الأولى إشارة إلى الأحديّة الذّاتيّة والوحدة الحقيقية التي لا تتّصل بذاتها لغيرها لامتناعها في مرتبته ولا يمتنع اتّصال الغير بها إذ هي في المرتبة الغيريّة موجودة والغير في مرتبتها مهلك «لو دنوت أنملة لاحترقت» وفيه لامان الأولى منها مشيرة إلى الإجمال في الجمال والجلال والثانية إلى تفضيل الكمال في فرداريّة الجمال وفرداريّة وحدانيّة الجلال، وادّغام الأولى في الثّانية إشارة إلى اندماج الجلال في الجمال عند فرداريّة الجمال وحين العكس بالعكس كاندماج اللّيل في النّهار تارةً وبالعكس أخرى وإلى أنّ المحبّ قد يندمج في المحبوب والمحبوب يندمج في المحبّ وقد يندمجان كلاهما في الحبّ بحكم ظهور العدالة الحقيقية واقتضائها وإلى أنّ المحبّ والمحبوب متّحدان بالذّات والحبّ عنهما وذلك نزول فرداريّة اسم من الأسماء والسّبعة الذّاتيّة بفرداريّة اسم آخر منها بالاستقلال والاشتراك كما مرّ وعند انقضاء اقتضاء فرداريّة الأسماء السّبعة الذّاتيّة تقوم السّاعة وتظهر القسمة وتنتقل طور الدّنيا إلى طور الآخرة وطور الآخرة إلى طور الدّنيا، فإذن تصير الدّنيا معقولة والآخرة محسوسة. وسيجيء لهذا زيادة بسطٍ وتفصيلٍ إن شاء الله تعالى.

وأمّا الهاء التي تشير إلى الهويّة والعينيّة والأينيّة الذّاتيّة السّارية في جميع الهويّات وتمام الماهيّات فزبورها يشير إلى العوالم الخمسة ومع البينة إلى المراتب الست الكليّة ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٣﴾ [الحديد: 3] وهو أصل جميع الحجب الظلمانيّة والنّورانيّة وإلى أنّ العبد ما دام في قيد خصوصيّة هويّته وتحدد تعيّن ماهيّته يكون منحطًّا عن درجة الإدراك وإذا ارتفعت قيود خصوصيّاته واندفعت سدود هويّاته تجلّى بذاته وتمام أسمائه وصفاته عليه

والألف تجلّى من الأنانية لقلوب الموحّدين فتوحّدوا وباللّام الأولى تجلّى لهم بأسمائه السّبعة الذّاتيّة وأسراره العينيّة في الطّور الخفيّ واللّام الثّانية تجلى في طوره الرّوح بنعوت الرّبوبيّة فتفرّدوا بانفراده وتحقّقوا بأسمائه وأفعاله وبالهاء تجلّى لهم في الطّور السّريّ ومرتبة الفؤاد بهويته الذّاتيّة والأسمائيّة الجمعيّة بصور الآثار وأفضله أن يكون بصورة الإنسان الكامل بالحق الفاضل والخلق بالنّعت الكليّة والهيئة الوحدانيّة وصورة الجمعيّة بجميع أسمائه وصفاته مع مقتضيات تمام الأدوار الجماليّة والمرتضيات الجلاليّة وجميعها ولا يختل دلالة الله على الذّات بإسقاط حروفه وبقائه على حرف واحد قال الشّبليّ: «ما قال الله إلا الله فمن قاله قاله بخطّ وأنّى يدرك الحقّ بالخطوط».

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفَاتِحَة: 3] تفصيل ما أجمل الأوّل إشارة إلى قوس التنزّل والثاني إلى قوس الترقّي وإلى التّوصل بطريق التوسّل ومجمعها هو الأحديّة الجمعيّة والحقيقة المحمديّة ومقام (أو أدنى) والبرزخيّة والبرزخ العظمى وبرزخ البرازخ والطّامة الكبرى، هذا إن اعتبر معه الأسماء الذّاتيّة في نفسها وإن اعتبرت مع تفاصيل منسوباتها تسمّى بالبرزخيّة الإنسانيّة بمقام قاب قوسين ومجمع البحرين ومرتع ذي القرنين ومنبع العينين وهو موطن نزول القرآن وبداية عالم الجبروت والواحديّ ونهاية اللاهوت والأحديّة وتنزّل فيض الوجود المطلق أوّلا من سماء الحقيقة المحمّديّة وفلك النّبوّة الذّاتيّة إلى أراضي استعدادات الماهيّات الكونيّة وقابلات الأعيان الثّابتة والحقائق الإلهية، وينفصل هناك تصوّر الأوامر والنّواهي والأخبار فإنّ الله تعالى خلق بحر المنّة وخلق الخلق جميعًا فيه وأمطر عليهم أمطار المعارف الإلهيّة فمن أصابه صار مؤمنًا سعيدًا ومن لم يصبه صار كافرًا شقيًّا ومن أصابه بوجه ولم يصبه بوجه صار منافقًا ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞ﴾ [التّغَابُن: 2] وبهذا الاعتبار تسمّى بالفرقان.

والرّحمن: يفيد الوجود وما يتبعه الرّحيم يعطي قبول المعارف والشّهود وهو يقتضي النّزول أوّلًا على ألواح الاستعدادات ثمّ على أرواح الكائنات ثمّ على سماء دنيا الأبدان ثمّ على الصّور النّوعيّة الإنسانيّة والهيئة الكليّة الجمعيّة في النشأة العنصريّة، ويرتضي القبول والعروج في يوم كان مقداره مائة عام وألف

سنة أو خمسين ألف سنة فاصبر صبرًا جميلًا ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ [البَقَـرَة: 259] إلى أن يستكمل دائرة ميم مرتبة وجود كلّ واحد نزولًا وقبولًا ورجوعًا وعروجًا ووصولًا ويصير بالبداية عين سين النّهاية وميمها من آدم والنّاس بالاعتبارين المذكورين.

والرّحمن: مظهر للجمال راحم على أوليائه بتعريف نفسه لهم حتى عرفوا به أسماءه وصفاته وجماله وكماله وبه خرجت جميع الكرامات للأبدال والصّدّيقين وبه تهيأت أسرار المقامات للأصفياء والمؤمنين ويجلب أنوار المعارف للأتقياء والعارفين، فإنّ الرّحمن مخبر عن خالق الخلق وكمال كرمه، وفيه نزهة المحبّين وبهجة السّابقين وفرحة العاشقين، وبه استئناس فؤاد المشتاقين واطمئنان قلوب المنبّئين وانشراح صدور المؤمنين ومنه أمان المذنبين ورجاء الخائفين.

والرّحيم: فيه موهبة الخاصّ من أهل الخلاص على نهج الاختصاص، وهو محجّة لذي العثرات ومسرّة لأهل القربات إذ الرّحمة مطيّة السّالكين تسري بهم إلى محطّ العناية ومحطّ حقيقة الهداية ومحطّ الشهود والدّراية لا بطريق النظر والرّواية بل بطور الكشف ونور الولاية وهو حبل الحقّ للمجذوبين يجذبهم بالفعل إلى محال الوصلة باسمه الرّحمن ومكّنهم في مقعد صدق الأمن والأمان آمنين عن نكاية العقاب وكناية العذاب، وبالرّحيم أتاهم من نفائس الثّواب متحققين بالصّدق والصّواب؛ فالأوّل مفتاح المكاسبة بطريق المجاهدة والثاني مرقاة الشهود والمشاهدة وبه فتح لهم الغيوب، وبالرّحيم صحّ لهم الغفران عن الذّنوب، وبالرّحمن صحّ التبرّي عن القبائح والعيوب، قال الصادق عليه وعلى آبائه السّلام: "الرّحمن للمرادين والرّحيم للمريدين" فالرّحمن يقتضي البقاء بالله والرّحيم يقتضي الفناء في الله، والأوّل مقتضى النّبوّة والثّاني مرتضى الولاية إذ هو يستدعي التّنزيل الإخباري وهذا يقضي ويحكم بالترقّي في الإرادي لأنّه يفيد التبدّل والانتقال في النشآت وقربه نعيد وصول الكلّ وأيضًا لهم بحضرة الكلّ في مسالك الترقيات والعود إلى البداية حيث ينقطع الكلام وتسكن حركة اللّام وتنمحي نقطة العين وينوب الواحد إلى الاثنين.

اِعلم أنّ كلّ عين من الأعيان باعتبار أنّه حصّة من الوجود الذي هو منبع تمام

الكمالات له صلاحيّة محقّق لجميع كمالات الكلمات وهذا لا يتحقّق إلا بالوصول بكلّ مرتبة من المراتب والتردّد في النشآت لتحصيل المطالب وأعظم المآرب جلالًا وجمالًا صريحًا وضمنًا صورةً ومعنًى أدوارًا وأكوارًا فمن وصل في مسيرات نشآته بهذه الرّتبة ممكن من أن يحمد الله عزّ وجلّ حقّ الحمد ولا يتيسّر لأحد أن يصل إلى هذه المرتبة إلا بالتّحقق بالفناء في الله والبقاء بالله والجمعية الكبرى والكلّية العظمى بالتحقّق بالتطوّرات فيها في الله في السير بأدوار لا تتناهى وأكوار لا تعدّ ولا تحصى وأنت خبير بأنّ الموجود بهذا الوجه لا يكون إلا واحدًا أو موجودًا منفردًا لأنّ الشواهد العقليّة والقواعد النّقليّة قد دلّت على أنّ الموجود الذي يكون باطنًا وظاهرًا أوّلًا وآخرًا لا يكون إلا بالذّات الواحد الأحد الفرد الصّمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، وهذا الموجود واجب بالذّات غنيّ بذاته في ذاته وتمام أسمائه وصفاته لا يحتاج في كمالاته الذّاتيّة وهيئاته الكماليّة إلى موجود آخر غيره إذ ذاته كافية في كلّ ما له من الأسماء والصّفات وتمام الكمالات فإذًا الموجودات الممكنة والممكنات القدميّة لا تكون إلا النّسب الذّاتيّة والصّفات الوجوديّة والصّور العلميّة والمفهومات العدميّة التي لزمت من ذاته لذاته وهذه النّسب ليس غير الذّات إذ ليست عدمًا صرفًا ونعتًا محضًا بل هي صور علميّة ودور حكميّة لا تكون لها تحقّق سوى الوجود المطلق والعلم الحقّ الذي هو الوجود المطلق والظهور والنّور المحقّق الذي هو عين الذّات لما علمت أنّ الذّات كافية في كلّ ما لها من الكمالات الذّاتية والأسمائيّة وكلّ لما ظهر ظاهرٌ وبطن باطنٌ وكان كائنٌ ليس إلّا مطلق الوجود وعين العلم ونفس الشهود لله نور السّموات والأرض هو الأوّل والآخر والظّاهر والباطن ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ١١٥﴾ [البَقَـرَة: 115]، ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ﴾ [المَـائـدة: 17] إنّ الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا الله واحد فإذًا الوجود والعدم والنّور والظلمة والخفاء والظهور والحدوث والقدم وغير ذلك من المفهومات المتقابلة والمعاني المتناسبة ليست إلا أمور نسبيّة وإضافات اعتباريّة لا يتحقّق واحدٌ منها بدون الآخر، وفي المرتبة الأحديّة الجمعيّة عين الذّات والذّات عينها وكلٌّ منها عين

الأخرى، وأمّا في المرتبة الثّانية وهي مرتبة السّوى والغيرية فيظهر الذّات لذاته في ذاته بذاته بأنحاءٍ لا تتناهى ووجوهٍ لا تعدّ ولا تحصى وبكيفيّات لا يعلمها إلا الله وعلى كمّياتٍ ونسبٍ لا يحيطها إلا هو ويظهر من كلّ واحدٍ من هذه الوجوه والكيفيّات والنّسب والإضافات تعيّنٌ خاصٌّ في الوجود واسمٌ وصفةٌ باعثةٌ للإدراكات والشهود.

وما لا يتحقّق التعيّن إلا به أمور خمسة: الذّات، والعلم، والحياة، والقدرة والإرادة، وكلّ واحدٍ منها مبدأ عالم من عوالم الخمس، وينسب كلٌّ منها إلى مرتبة من المراتب الكليّة السّتة الأحديّة والجبروت والواحديّة والملكوت والرّبوبيّة والبرزخ والأشباح والملك والشّهادة والإنسان والنّاسوت لتميّز التّعينات ويتفرّد فيها أعيان الكائنات وخصائص الموجودات.

ولكلٍّ من هذه الأسماء والذّات ولكلّ نعتٍ وصفةٍ من النّعوت والصّفات الذّاتيّة والأسمائيّة والأفعاليّة والآثاريّة والصّوريّة الجمعيّة والهيئة المعيّة في هذه اقتضاء مخصوص ولكلّ مرتبة منها أفلاك متناسبة وأملاك متباعدة ومتقاربة مديرةٌ ومحرّكةٌ وللأفلاك حركاتٌ متطابقةٌ لائقةٌ في تلك المرتبة عناصرُ مفارقةٌ وأركان موافقة، ولكلّ حركة وهي في الحقيقة تطوّر النّسب الذّاتيّة وتنوّع الإضافات في الرّتب الغينيّة والعينيّة مدّة معيّنة وفرداريّة مبنيّة، ولذلك الاقتضاء ظهورٌ وإظهارٌ وإعلانٌ وإسرارٌ وخفاءٌ وإخفاءٌ، ولكلّ من هذا الظهور والإظهار والخفاء والإخفاء خواصٌّ ولوازمُ. فلازم الظهور والإظهار الدّنيا وأدوارها وخصائصها، ولازم الإخفاء والخفاء هو الآخرة وخصائصها الجنّة والنّار وغيرهما من أمور الآخرة، وتلك الفرداريّة(*) والسّلطنة تكون لربٍّ من الأرباب الأربعة: العليم والحيّ والقدير والمريد. ومدّة فرداريّة العليم في الواحديّة والجبروت ثلاثمائة وستون ألف سنة، والسّنة ثلاثمائة وستون يومًا، وكذا فرداريّة الباقي من أرباب الحيّ في مرتبة الملكوت القدير في مرتبة البرزخيّة، والمريد في مرتبة الملك،

(*) فرداريّة: كلمة مشتقة من كلمة يونانية معناها [الفترة الكوكبية].
وهذه الكلمة فرداريّة وردت في الأصل المخطوط (فردازنة) وارتأينا تصحيحها بكلمة فرداريّة.

والتّفاوت إنّما هو في مقدار اليوم. فمقدار يوم الواحديّة والجبروت خمسون ألف سنةٍ من سنين عالم الأمر والملكوت والأرواح، ويوم الملكوت ألف سنة من سنين عالم المثال، ويوم عالم المثال مائة سنة من سنين عالم الملك، ويوم عالم الملك أربع وعشرون ساعة يعرج الملائكة والرّوح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ممّا تعدّون ﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ [البقرة: 259]، وتلك الأدوار الأربعة الإلهية منسوبة إلى الجمال والوجود يدبّرها الذّات باسم الرّحمن والنّور والجليل صريحًا، وللذّات تدبيرًا آخرًا باسم الجليل، والرّحيم ضمنًا وتبعًا في الأدوار الأربعة المذكورة بذريعة بواطن الأرباب الأربعة فتدبره الحياة وجعل الظّلمات والنّور. فإن كان الحكم للجميل صريحًا ضمنًا وبالعكس وهما لازمان للذّات ومتلازمان بحسب الأسماء والصّفات فعند ظهور أحدهما يختفي الآخر فيه كاندماج اللّيل والنّهار وبالعكس ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾ [الحج: 61] وعند استكمال مدّة تربية الذّات الأعيان في الأدوار الأربعة ظاهرًا وباطنًا يستكمل اليوم واللّيلة والأدوار الأربعة الجماليّة والأربعة الجلاليّة بمنزلة الفصول السّنويّة. ولمّا كانت السّنة الرّبانيّة دائرةً في الأفق الأعلى وهو الاستوائي الجبروتي فلا بدّ أن تكون فصولها ثمانية كما هو المشهود في عالم الملك أنّ فصول خطّ الاستواء ثمانية.

وكلّ واحدة من هذه الأدوار الأربعة الجماليّة والجلاليّة تنطوي على أربعة أدوار أخرى سمّيت بالدّورة العظمى والكبرى والوسطى والصّغرى؛ أمّا الدّورة العظمى فهي التي تتمّ حكم دورتها في ثلاثمائة وستين ألف سنة، وحكم الكبرى ثلاثين ألف سنة والوسطى ثلاثة آلاف وستمائة وستون سنة، وأمّا الصّغرى هذا هو الذي صرّح به أرباب التّنجيم في أدوار عالم الملك حيث قالوا في سنة طالع العالم بأنّ حكم كلّ درجة ألف سنة في الدّورة الكبرى وعشر سنين في الدّورة الوسطى وسنة واحدة في الدّورة الصّغرى.

ولمّا كانت المراتب وما فيها متطابقة لأنّ ما في المرتبة السّفلى أظلال وأمثال لما في المرتبة الأعلى فلا بدّ وأن يعتبر في المراتب الباقية مثل ما اعتبر في المرتبة الأدنى، فعند استيفاء كلّ واحد من الأسماء الأربعة في المراتب

المذكورة أحكامٌ مقتضياته وانتقاله في الفرداريّة من اسم ومرتبة إلى اسم آخر ومرتبة أخرى تقوم قيامةٌ وتظهر ساعةٌ وتنتقل طور الدّنيا إلى طور الآخرة وبالعكس، ويتبدّل حكم الأبد إلى الأزل والأزل إلى الأبد ويتبدّل طور الأعيان عند انتقال الحكم من مرتبةٍ إلى مرتبةٍ أخرى، مثلًا لمّا تمّت فرداريّة حكم سلطنة فرداريّة اقتضاء الذّات بالتّجلّي الذّاتيّ بالعنوان الذّاتيّ والنّعوت الذّاتيّة وهي الوجوه الذّاتيّة التي تلي الذّات وهي حقائق الممكنات ودقائق المكوّنات التي يشهدها الله العارف أولًا في الحضرة الأحديّة بالتّجلّي الذّاتيّ إمّا بالاستقلال أو ضمن شهود الذّات بالعنوانات الذّاتيّة والنّعوت الأحديّة في حضرة التّجلّي الذّاتيّ الجمعيّة التي هي برزخُ البرازخ ونهاية اللاهوت وبداية الجبروت وتسمّى هذه الوجوه بالشؤونات الذّاتيّة والشّهودات الإلهيّة وهذه المرتبة في الرتبة وراء الحضرة العلميّة وأعلى منها وإليه الإشارة بقوله عليه السّلام: «**الجنّة مائة درجة ما بين درجةٍ ودرجة مسيرة خمسمائة عام والفردوس أعلاها درجة ومنها ينفجر أنهار الجنّة الأربع ومن فوقه يكون الفردوس**» وربّ هذه المرتبة والرتبة الحاليّة هو الذّات بالتّجلّي الذّاتيّ الذي اندرج فيه سائر التّجليّات بما فيها من صور الأسماء الذّاتيّة والأفعاليّة والآثاريّة والصّورة الجمعيّة والهيئة المعيّة والهويّة العينيّة وتسمّى هذه الدورة بالدّورة العظمى. وعجائب هذه الدّورة وغرائبها لا يحيط بها إلا الله والرّاسخون في العلم والنّاسخون لصور الأعيان بعلوّ الحال وكمال الحلم. ثمّ نزل من هذه المرتبة الذّاتيّة والرتبة الذّاتيّة السّنيّة الحاليّة إلى المرتبة الأسمائيّة والرّتبة العلميّة، واسم العلم في مرتبة الجبروت انتقلت إلى الملكوت والأعيان الجبروتيّة انتقل من مرتبة الجبروت إلى مرتبة عالم الملكوت وأعيان عالم الملكوت إلى أعيان مرتبة المثال وأعيان المثال إلى الملك وأعيان الملك والنّاسوت يرجع ثانيًا إلى مرتبة عالم الأحديّة، ويستهلك عن أطوار مقتضيات المراتب المذكورة الجماليّة على مقتضى حكم الجلال ثم يتعيّن الذّات حسب اقتضاء فرداريّة الجلال وحكمه بالمفهومات العدميّة والصّور التنزيهيّة التي كانت في فرداريّة الجمال معدومة وأحكامها ضمّنته، والمفهومات الوجوديّة والصّور الثنويّة التشبيهيّة صريحة وأحكامها واضحةٌ ظاهرةٌ صريحةٌ وأحكامها باهرةٌ فتصيّر

التنزيه تشبيهًا والتشبيه تنزيهًا والجمال جلالًا والجلال جمالًا والظاهر باطنًا والباطن ظاهرًا والرّحمن رحيمًا والرّحيم رحمانًا والولاية نبوةً والنّبوّة ولايةً والرّوح جسدًا والجسد روحًا والذّات صفةً والصّفة ذاتًا، وينقلب الظّهور من بطن إلى بطن إلى سبعة أبطن والأعيان تتحوّل أطوارها وتتبدّل أحوالها، وأمّا المراتب فباقية بحالها لا تتغيّر ولا تتبدّل ولا تتعظّم ولا تتصغّر ولا تتحوّل، فتعيّن الثوابت الأحديّة العدميّة بأزهار وأنوار في شجرة باطن مرتبة الجبروت والجنّة الأزليّة القدسيّة بالصّور العلميّة الجلاليّة التي هي نقائص الصّور العلميّة الجماليّة وتهيّأت الماهيّات بعنوان العدم والممات لا بالوجود والحياة، وهكذا تسري تلك النّواة في جميع المراتب وتتعيّن في شجرة كلّ مرتبة على ما تقتضيه مدير فرداريّة كلّ دورةٍ أو كورةٍ بخصوصيّات أعيان تلك الكورة من الهيئة العدميّة والكيفيّات الظلّيّة السّلبيّة كمّا أن حقيقة الزّمان وهي القائمة والآن تتعيّن في اللّيل بهيئة الظّلمة والخفاء وفي النّهار بكيفيّة النّور والضياء، فكلّما جرى وظهر في فرداريّة الجمال على مقتضى أدوارها المذكورة في المدّة المزبورة من الأعيان وأحوالها لا بدّ وأن يظهر نقائص تلك الأعيان وأضداد أحوالها إذا انتقلت الفرداريّة من النّور والجمال إلى الظلّ والجلال من الصّور العدميّة والمفهومات السّلبيّة التنزيهيّة في فرداريّة الأكوار الأربعة.

فأوّل ما يتعيّن في الكورة العظمى من أكوارها الأربعة ويظهر في بدايتها معلول ظلّيّ عدميّ وهو باطن الحقيقة المحمّديّة وغيب الأحديّة الجمعيّة الجماليّة، وتسمّى بالإنسان المعنويّ الجلاليّ الظلّيّ العدميّ وهي الماهيّة الكلّيّة العلويّة، ثمّ يظهر بواسطته ويتعيّن بذريعته جوهرٌ أهرمنيّ وهو باطن العقل الكلّ وهما توأمان يتعيّنان ويتوالدان معًا، يظهر أهرمنيّته ويتبطّن ملكيّته وعقليّته. وهكذا تتنزّل النّواة والحبّة بالأسماء والصّفات على المراتب ويظهر في كلّ مرتبة بخصوصيّة شجرة يقتضيها ربّ تلك المرتبة. ثمّ تظهر تلك النّواة وتتعيّن في المرتبة الثّانية بأعيان الأغوال، وفي الثّالثة بالشّياطين، وفي الرّابعة بالجانّ، وفي الخامسة بالأبالسة، وفي السّادسة بالصّورة الجمعيّة الأهرمنيّة التي هي باطن الجمعيّة الإنسانيّة.

وللجمعيّة الإنسانيّة عشرة دوائر واحد إنسانيّ وبالباقي حيوانيّ، وفي كلّ

كور من الأكوار أفلاكٌ وعناصرُ ودنيا وأخرى وأعيان مخصوصة، أرسل الله تعالى على تلك الأعيان من جنسهم أنبياءَ ورسلًا وأنزل فيهم كتبًا وبيّن لهم أحكامًا كما أشار إلى ذلك صاحب هذه الأدوار(*) على لسان العلويّة: "أنا الذي عنده ألف كتاب من كتب الأنبياء أنا المتكلّم تكلّم لغة في الدّنيا". فمن دار في مدّة الأدوار والأكوار واطّلع على أحوال أعيان كلّ دورة وأطوار أكوار كلّ دورة منها فله تصوّر تلك الأعيان والأكوان وأحوالها وأطوارها بروزاتٍ وعلى مقتضى التّحقيق بأربابها ومديراتها ظهوراتٍ على وجهٍ لا يعلمه ولا يحيطه إلا الله وإذا تعيّنت الذّات بأطوار مرتضيات أرباب الأكوار وانقضت مقتضياتها انتقلت الفرداريّة كرّةً أخرى من النّور والجمال إلى الظلّ والجلال. وتكرّر اسمي الرّحمن والرّحيم في الفاتحة إشارة إلى هذا السرّ.

وإنّما سمّيت سبع المثاني لنزولها تارةً في الدّورة الجماليّة وأخرى في الكورة الجلاليّة. وقد تقرّر في كلّ دورة وكورةٍ نوعًا من الدّنيا، وفي مقابلة كلّ دنيا آخرة. قال النبيّ ﷺ: «**خلق الله تعالى الدّنيا على سبعة آمادٍ**» وفي بعض الرّوايات «**على أربعة عشر آماد**» ومدّ خلق الله تعالى إلى آدم إلى أن تقوم السّاعة «**إنّهم في أمدٍ واحدٍ**» الحديث، فحقّ حمد الله تعالى وثنائه لا يتأتّى إلا لمن دار في الأدوار الجماليّة والأكوار الجلاليّة الأفراديّة والجمعيّة وجمعيّة الجمعيّة، وشاهد الحقّ بالرّحمانيّة والرّحيميّة وسائر ما اشتملت عليه فاتحة الكتاب وتحقّق بمقتضاها وتخلّق على وجه يكون ربًّا وعبدًا أو عبدًا وربًّا لا ربًّا فقط كما هو شأن المجذوبين الغير السّالكين فإنّه للعبد الممكن نقصان لا كمال لأنّه يبطل الرّبوبيّة، قال عليه الصّلاة والسّلام: «**إنّ للرّبوبيّة سرًّا لو كُشِفَ لبطلت الرّبوبيّة**» فحقّ الكمال وكمال الحقّ لا يظهر إلا في الجمعيّة العظمى والكليّة الكبرى وهي لا تتحقّق أدوارًا وأكوارًا إلا في الرتبة الإنسانيّة الجماليّة والجلاليّة الأفراديّة والجمعيّة الإنسانيّة عن استئناس الحقّ بذاته لذاته لا بغيره لامتناعه، وهو لا يكون إلا التعيّن الأوّل والمعلوم الأقدم جماليًّا كان أو جلاليًّا فأعيان الإنسان إمّا إلهٌ أو عبدٌ أو ربٌّ عابدٌ أو عابدٌ

(*) وهي الحقيقة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام.

ربٌّ، فله أربعة مقامات ألوهيّةٌ محضةٌ وعبديّةٌ صرفةٌ وهما طرفان لا كمال فيها، وإنّما الكمال في الوسط لأنّ خير الأمور أوسطها وهو مقام نسبة الجمعيّة وهو الثّاني والثّالث القابليّ والفاعليّ، وهو جمعيّة الربّ والعبد ومعنيهما لا تقررهما أعني العبد والرّبّ، فكن في نفسك دائمًا مرّ الدّهر والوقت والعصر عبدًا ربًّا ربًّا عبدًا لا عبدًا بلا ربّ ولا ربًّا بلا عبد، فالأوّل يقتضيه الرّحمن والثّاني يقتضيه الرّحيم ويجمعهما الله ولهذا استحقّ جميع المحامد واستغرق تمام جهات الحمد من النّعم والحامد والمحمود في فرداريّة الجمال لإظهار أحكام النّور والوجود وما يلزمهما من الشّاهد والمشهود والعابد والمعبود، فمن هذا تحقّق أنّ الذّات كما يكفي بذاته أن تظهر بأسمائه وصفاته وأفعاله وآثاره يكفي أن يكون عابدًا ومعبودًا ساجدًا ومسجودًا من غير أن يحتاج إلى موجد آخر غيره فيتحقّق الرّبوبية والعبوديّة من ذاته في ذاته بذاته ولكلّ منهما أحكام وخصائص ولوازم ونصائص، فاقتضت الحكمة الجمعيّة أن يتميّز أحكام هذا من ذا، وذا من ذاك، فلا بدّ من مميّز وممّا به الامتياز بتفاصيل اللّوازم والأحكام، فالمميّز هو الله ينعت الألوهيّة والرّبوبيّة وما به الامتياز هو النّبوة الظاهرة بقوّة الولاية، فالعارف المحقّق والواقف الغير الواقف المدقّق في تلك المراتب يتحقّق باثني عشر نوعًا من التّوحيد وهي التّوحيد الجماليّ الذّاتيّ والصّفاتيّ والأفعاليّ والآثاريّ والجمعيّ الافراديّ والتّوحيد الجماليّ الذّاتيّ إلى آخر المذكورات، وتوحيد جمعيّة الجمعيّة الجلاليّة وتوحيد جمع الجمع الجماليّ ولكلّ واحدٍ من هذه التّوحيدات الاثني عشر ربٌّ وصاحبٌ ومقتضى وهو في الحقيقة الذّات باعتبار اسم من الأسماء الذّاتيّة، وصاحب الجمعيّة الكبرى هو الإله الكون الجامع والكون الجامع الإله والعبد الربّ والرّب العبد، وفي هذا المقام يحمد نفسه بذاته بجميع أسمائه وصفاته ويندرج فيه فرداريّة أدوار الوجود والجمال والعدم والجلال وأحكامها من الشّاهد والمشهود والعابد والمعبود فردًا وجمعًا فرادى ومعًا، فتتنوّع المحامد بتنوّع الحامدين ومقتضيات الأدوار الجماليّة والجلاليّة والصّور الجمعيّة إلى أنواع لا يحصيها ولا يحيط بها إلا الله، فبالضرورة

انحصرت مقتضيات الأدوار الفرديّة والفرديّة الجمعيّة الجلاليّة والجماليّة وجمعيّة الجمعيّة في اثني عشر دورًا على سبيل الأصالة أربعة منها جماليّة أفراديّة وأربعة جلاليّة بسيطة وأربعة جمعيّة.

والأدوار المذكورة بروج سماء الدّورة العظمى الإلهية وأربابها هي الأسماء السّبعة الذّاتيّة ونجومها هي الصّفات الذّاتيّة التي تدور في سماء مطلق الوجود وفلك الشّهود والشّاهد والمشهود.

وذكر الرّحيم بعد الرّحمن يدلّ على فرداريّة الجلال بعد فرداريّة الجمال، والحروف الأربعة في كلّ منهما يدلّ على أنّ له أدوار وسيجيء لهذا زيادة شرحٍ وبيانٍ إن شاء الله، وليكن هذا آخر ما رمز في بيان إشارات البسملة ورموزٌ ثاني. وهذا العدد يظهر منه أكمل الأعداد وأشرفها وهو أوّل ما يظهر به الألف وأوّل ما يصدر من الألف ولهذا صارت الألف بداية الآحاد من أنواع الأعداد ونهايتها من الأطراف والأضداد ولهذا افتتح به فاتحة الكتاب واختتم به النّاس.

سورة فاتحة الكتاب
تفسيرها وتنزيلها وتأويلها

سمّيت بها لافتتاح المصحف والصلاة بها أو لأنّها مفتاح السّعادات الدّينيّة والدّنيويّة لاشتمالها على ما يفيد معرفة الصّانع من أسمائه الحسنى وصفاته العليا. ويفيد العلم بالمبدأ والمعاد وذلك أصل العقائد الدّينيّة ومبنى العبادات الإسلاميّة، وعلى ما يتوسّل به في تحصيل تلك السّعادات من الاستعانة وطلب الهداية والاستقامة والتعوّذ بالله ذي الجلال من الغضب والضلال.

والسّبع المثاني لأنّها سبع آيات نزلت مرّتين أوّلًا بمكّة حين فرضت الصّلاة وثانيًا بالمدينة حين تحوّلت القبلة أو لأنّها ثُنّى في الصلاة وهذا الوجه أولى لتسميتها به قبل نزولها بالمدينة لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر: 87].

والوافية والكافية لا لذلك ولأنّها كافيةٌ في الصّلوات وافيةٌ لدفع البليّات.

والأم والأساس لاشتمالها على ما في القرآن كما عرفت عن ابن عبّاس

رضي الله عنه أنّه قال: "لكلّ شيءٍ أساسٌ وأساسُ القرآن سورة الفاتحة" كما أنّ أساس الدّنيا مكّة لأنّ الأرض دحيت من تحتها، وأساس السّموات عرش وهي السّماء السّابعة، وأساس الأرض السّفلى وهي الأرض السّابعة، وأساس الجنان جنّة عدن، وأساس الأنبياء نوح عليه السّلام، وأساس بني إسرائيل يعقوب عليه السّلام، وأساس الكتب القرآن، وأساس القرآن الفاتحة كما مرّ.

والشّفاء إذ هي شفاءٌ من كلّ داء قال النبيّ ﷺ: «**فاتحة الكتاب شفاءٌ من كلّ سمّ**».

وهي سورة الصّلاة إذ لا صلاة ولا فضيلة لها إلا بها.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ الحمدُ هو الثّناء بالجميل للجميل الاختياريّ وغيره، فيكون بإزاء النّعمة وغيرها، وهو مساوٍ للمدح.

وقيل الحمدُ مختصٌّ بما يدخل تحت الاختيار فلا يقال حمدته على حسنه بل مدحته، فعلى هذا لو وصف الشّجاع بالشّجاعة من حيث هي هي يصدق عليه المدح دون الحمد، وإذا وصف بها من حيث إنّها مبدأ لأفعاله الاختياريّة الحميدة العجيبة فذاك الوصف حمد ومدح لأنّه بالحقيقة يرجع إلى أفعاله فتأمّل.

والحقّ أنّهما أخوان لأنّ الذمّ يقتضيهما بالاتفاق فيجب اتحادهما لتحقّق التناقض وإلا لامتنع والكفران نقيض الشّكر وهو فعلٌ ينبئ عن تعظيم المنعم لكونه منعمًا. والشّكر صرف العبد كلّ ما أنعم الله عليه من السّمع والبصر والعقل وغيرها إلى ما خلق لأجله كصرفه النّظر إلى مصنوعاته، والعقل إلى التدبّر في بدائع مكنوناته وملكوت آياته وجبروت أسمائه وصفاته، فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها، والسّمع إلى إصغاء الحقّ وآياته، وقس على ذلك الباقي من الأعضاء والأرواح والقوى.

ولمّا كان الحمد أقوى شعب الشّكر دلالةً على النّعمة وأشمل لها بخلاف ما في القلب لخفائه وعمل الجوارح لاحتمال التخلّف اختيارًا وقال الحمد لله ولذا قال النبيّ ﷺ: «**الحمدُ رأسُ الشّكر**».

اِعلم أنّ حقيقة الشّكر درك العجز عن أدائه فإنّ توفيق الشّكر نعمةٌ أخرى

تستدعي شكرًا، وهلمّ جرًّا، ويدلّ على ذلك ما روي أنّ داود عليه السّلام قال في مناجاته: «**إلهي كيف أشكرك والشّكر أيضًا عطاؤك**» فأوحى الله تعالى إليه «يا داود الآن شكرتني».

وإنّ المحمود يستحقّ الحمد بأمور أربعةٍ: الكمال الذاتيّ، والإحسان إلى الحامد، وخوف الحامد، ورجاؤه منه؛ فبالأوّل يستحقّ استحقاقًا ذاتيًّا وبالباقي استحقاقًا وصفيًّا، والمستحقّ لجميع المحامد بتمام تلك الأمور ليس إلا الله المنعم المحسن شديد العقاب ذو الطّول.

واللام في الحمد لتعريف الجنس ومعناه الإشارة إلى ما يعرفه كلّ أحد من الحمد ما هو من بين أجناس الأفعال، وقد يراد بلام الجنس ما يفيد الاستغراق كما صرّح به صاحب الكشّاف في قوله تعالى: ﴿يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البَقَرَة: 195]، فإنّ الحبّ يتناول كلّ محسن وتخصيصه ببعض منهم يناقضه وجوده في بعض آخر، ويجوز أن يراد به ههنا أيضًا الاستغراق لأنّ كلّ فردٍ من أفراد الحمد يرجع إليه بواسطة أو بغيرها لأنّه خالق الكلّ والكلّ منه فما بكم من نعمةٍ فمن الله والتّفصيل ههنا؛ إنّ اللام إمّا أن يشار به إلى نفسه الحقيقة من غير نظرٍ إلى فردٍ من أفرادها فهو لتعريف الجنس ونحوه علم الجنس كأسامة، وإمّا إلى حصّةٍ معيّنةٍ فهو العهد الخارجيّ ونحوه علم الشخص كزيد، وإما حصّةٍ غير معيّنةٍ فهو العهد الذهنيّ ومثله النكرة كرجل، وإمّا إلى كل الأفراد فهو للاستغراق، ومثله كلّ مضاف إلى النّكرة وإنّما أردف الاسم الدّالّ على الذّات المستجمع لجميع الصّفات بقوله ربّ العالمين وما بعده تنبيهًا على تحقّق الاستحقاقين الذّاتيّ والوصفيّ.

والربّ في الأصل مصدر لربّ يَرُبُّ يستعمل بمعنى الخالق والسيّد والمالك لأمورهم والمربّي، والتّربية تبليغ الشيء إلى غاية كماله، والكلّ مرادٌ في هذا المقام.

والعالم اسم لما يعلم كالخاتم والقالب ثم غلّب فيما يعلم الصّايغ من الجواهر والأعراض فإنّ كلّ موجود سوى الله لما فيه من الاحتياج والافتقار إلى الوجود وما يلزمه فيه علاقة دالّة على الواجب لذاته الصّانع بذاته وصفاته، وهو اسم جمعٍ لا واحد له من لفظه ويجمع ثانيًا جمع العقلاء تغليبًا لهم أو لأنّ كلّ

شيء دالّ على وحدانيته فكأنّه عالم يعلم ذلك ويعلم غيره، قال أبيّ بن كعب: «العالمون هم الملائكة وهم ثمانية عشر ألف ملك، أربعة آلاف وخمسمائة منهم بالمشرق ومثلها في كلّ من الجوانب الثلاثة الغربيّ والجنوبيّ والشّماليّ مع كلّ ملك من الأعوان ما لم يعلم عدده إلا الله ومن ورائهم أرض بيضاء كالرّخام عرضها مسيرة الشّمس أربعون يومًا وطولها لا يعلمها إلا الله، وهي مملوءةٌ من أملاك يقال لهم الرّوحانيّون لهم رجلٌ بالتّسبيح والتّهليل لو كُشِفَ عن صوت أحدهم أهلك أهل الأرض من هول صوته، وقيل هم آدم وأولاده وقيل هم الجنّ والإنس». وقال أبو عبيدة: «هم عبارة عمّن يعقل ويعلم وهم أربعة: الإنس والجنّ والملائكة والشياطين» وقال الصادق رضي الله عنه: «هم أهل الجنّة وأهل النّار» وقال الحسن ومجاهد وقتادة: «هم جميع الخلق» ثم اختلف في كميّتهم وكيفيّتهم، قال سعيد بن المسيّب: «هي ألف عالم؛ ستمائة في البحر وأربعمائة في البرّ، منهم قوم حفاة عراة لا يعرفون خالقهم» قال: «وهب الله تعالى ثمانية عشر ألف عالم الدّنيا عالم منها» وما العمارة في الخراب إلا كفسطاط في الصّحراء، وقال كعب الأخبار: «لا يُحصى عدد العالم إلا الله لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾» [المدَّثِر: 31].

اِعلم أنّ الحمد هو عبارة عن الإفصاح عن حال شأن المحمود والإيضاح عن كمال عظمته وعموم إحاطته بالأمور الغير المحدودة من الآيات الباهرة والأمارات العالية القاهرة على وجهين: الأوّل إظهار عن الإطلاق الذاتيّ في المحمود وهو لسان التّسبيح والتّقديس بالقيود العدميّة والحدود الوهميّة بالوجه الذي يليه، والثّاني الإظهار عنه بلسان التحميد والتّمجيد بالقيود الوجوديّة ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسرَاء: 44] فالحمد تارةً يكون بلسان التّحميد والتّمجيد صريحًا وبلسان التّنزيه والتّقديس ضمنًا عند فرداريّة الجمال ومقتضاها في أدوارها الأربعة، وتارةً بالعكس عند فرداريّة الجلال في أدوارها الأربعة، وتارةً يكون بهما جميعًا، كلٌّ منهما بلسان الفرق والجمع أو بهما جميعًا حالة الجذبة والسّلوك، أو فيهما نزولًا أو عروجًا أو معًا.

فأقسام الحمد باعتبار أنواعه وأقسام أنواعه وأحوالها وأحوال الحامد

والمحمود عليه والمحمود له وآداب الحمد وسائر ما يتعلق به كبيرةٌ عسيرةُ الضّبط، وأمّا باعتبار حال الحامد والمحمود وآداب الحمد حسب ارتضاء الأدوار الفرديّة واقتضاء الصّور الجمعيّة فتنحصر في اثني عشر نوعًا:

حمد الجمع للجمع بلسان الجمع

حمد الجمع للجمع بلسان الفرق

حمد الجمع للجمع بلسانهما

حمد الجمع للفرق بلسان الجمع

حمد الجمع للفرق بلسانهما

وقس باقي الأقسام عليه وهو حمد الفرق للفرق بلسان الفرق إلى آخر الأنواع. وهذه الأنواع تكون أوّلًا بالذّات في المراتب الأربعة الكليّة عند فرداريّة أربابها وهي الجبروت وربّها العليم، والملكوت وربّها الحيّ، والبرزخ وربّها القدير، والملك وربّها المريد.

فالحمد في المرتبة الأولى بلسان العقل وفي الثانية بلسان الرّوح وفي الثالثة بلسان الشبح وفي الرّابعة بلسان الجسم، وإن اعتبر باطن المراتب وغيبها الأسماء فالحاكم فيها هو الذّات بنعت الجلال، وإن اعتبر فهو الحاكم بنعت الجمال.

وفي قول: الحمد، إشارة إلى العلل الأربع للظهور الدوريّ وإلى كلّ من قوسي دائرة الاستكمال النّزوليّ والعروجيّ، فألفها وهو الألف الأحدي الجماليّ إشارةً إلى العلّة الفاعليّة، واللّام وهو اللّام القابليّ الجلاليّ إشارةً إلى العلّة المادّيّة، وحاء حقيقة الحامد إشارةً إلى العلّة الصّوريّة، والميم وهو الميم المحمديّة وميم المحبّة إشارةً إلى العلّة الغائيّة، والدّال وهي صورة قوسي دائرة الكمال إشارةً إلى أنّ استكمال الدّائرة ليس إلا بقوسي النّزول والعروج.

والحاصل: أنّ الألف الأحديّ الفاعليّ الجماليّ اتّصل باللّام القابليّ الجلاليّ واندمج فيه ثمّ ظهر بصورة الحامد اقتضاء المحبّة الذّاتيّة المقتضية للظّهور الدّوريّ فقد استكمل ميم دائرة الكمال بقوسيها العروجيّ والولوجيّ

وظهور كماله بكمال ظهوره إنّما هو في الصّورة الجامعة المحمديّة كما أشار إليه في قوله تعالى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾ [طه: 1 - 2] وقوله: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ [يس: 1 - 2] فإنّ كلًّا من لفظي طه ويس يندرج فيه آدم وحوّاء لأنّ (45) بالحركة الدّورية **آدم (45) و(55) حوّاء ويس وبيناته آدم وحوّاء يس آدم (60) حوّاء يس (60)** [1].

---

(1) قول وسين بزبره وبيناته. آدم وحواء، قوله والمراد بسين لفظ اسم س، والمعنى في لفظ اسم س بزبره آدم وحواء وبيناته آدم وحواء كما أوضحه عقب ذلك والزبر في اصطلاحهم يطلق على الحرف الأول من اللفظ والبيّنة بقية اللفظ وحاصله عدد مسمى السّين الذي هو زبر اسمه يحسب به الجمل وهو ستون يوافق حاصل عدد حروف آ د م و ح و ا بذلك الحساب، وحاصل عدد بينة اسم س التي هي أيضًا يوافق حاصل عدد آدم وحوا وهو أيضًا ستون إلا أن فيه نظرًا يظهر وجهه مما سبقنا به آنفًا. وزبر لفظ سين موافق لبينته وهي الحكمة التي استخرجها العارفون من تخصيص نداء رسول اللّه ﷺ في مطلع سورة يٓس، ياسين إشارة إلى امتداد شريعة واستقامة دينه وملّته واستنبط بعضهم على هذه القاعدة اسم محمد ﷺ، واسم علي كرم اللّه وجهه عن اسم اللّه تعالى عن نظم ذلك بيت بعون اللّه:

بـــود يـــكـــالـــف وهـــي ود ولام زين جار حروف مختصر كشت تمام

إذ بـيـنـة ألـف عـلـي را بـطـلـب وأزهـى ود ولام شـد محـمـد را تـام

وتوجيهه ظاهر غني عن البيان.

قوله يندرج فيه أي بإشارة الحروف على السّنَن المعروف لأن أعداد ط من طه تسعة وهي إذا دارت على نفسها كتبت هكذا ٤٥ فترتقي الأربعة عند حصول الصفر في جنبها إلى أربعين والصفر المذكور في حدّ ذاته خمسة فالمجموع خمسة وأربعون وهو حاصل عدد حروف اسم آدم بحساب الجمل وأعداد ٥ من طه وهي الأصل المتحقق به أعداد ح و ا وهي خمسة عشر فإنها ثلاث خمسات اجتمعت، وفيه نظر من وجهين:

الأول: أنا لا نسلم عدد حروف حواء خمسة عشر فإن ذلك إنما يتم أن لو لم يعدّ منها النمرة وليس كذلك اللّهم إلا أن يبنى الكلام على مذهب بعض أصحاب الأحاجي وليس بشيء. وأيضًا لا نسلم أن عدد حروف اسم آدم خمسة وأربعون بل هو ستة وأربعون على القاعدة التي اعتبرها في لفظة آخر الزمان في تفسير أوائل سورة الأعراف وأوائل سورة يٓس.

والوجه الثاني: أن كون عدد الذي هو خمسة عشر مندرجًا في خمسة على الوجه المذكور مبنيًّا على كون مراتب الأعداد مركبة مما تحتها من الأعداد وهو خلاف ما عليه المحققون والحكماء وفيه من آخر مراتب العدد أنواع متخالفة بالماهية وليست الفوقيات مركبة من التحتانيات ونقله عضد الملّة في المواقف عن أرسطاطاليس من أكابر الحكماء وقالوا في التعليل إنا نلاحظ العدد الفوقانية مع الذهول عن التحتاني وأن الحكم بكون العشرة مثلًا مركبة من السبعة والثلاثة ليس أولى من الحكم بكونها مركبة من الأربعة والستة، وهذا =

ويدلّ على كون محمد عليه السّلام علّة غايته للظّهور وإيجاد حروفها محسوب بحسب جمل إيجاد واعتبر التّضعيف في الثّاني لكونه فيه أصليًّا دون الأوّل فالحامد بالألسن المذكورة بجميع أنواع الحمد وأقسامه التي لا يحصيها إلا الله في جميع الأدوار والنّشآت إنّما هو الصّورة الكليّة المحمديّة الجامعة الكاملة، فاللّام في الحمد حينئذٍ للاستغراق الحقيقيّ وفي إرداف اسم الذّات بالأوصاف إشعار بأنّه تعالى مستحقٌّ للحمد استحقاقًا ذاتيًّا ووصفيًّا ودلالةً على أحديّة ذاته وواحديّة أسمائه وصفاته وإظهار لفظة الله بعد الحمد والحقّ إضماره لسبق ذكره في البسملة تلويحٌ إلى أنّ طور الوجود دوريّ ودورة كوريّ ويجب أن يستأنف الدّور بما انتهى به وأن تتّصل البداية بالنّهاية وتصير إحداهما عين الأخرى لامتناع التّعطيل وتوسيط لفظة ربّ العالمين بين لفظ الله والرّحمن الرّحيم وترك تكريرها إشارةً إلى أنّ الرّبوبيّة لا ينقرض بانقضاء تربية الجمال والجلال ولا ينقطع أبدًا ولا يتكرّر أصلًا لاستحالة العبث وإن تكرّرت صورة العالم نوعًا لا شخصًا ويتنوّع بتنوّع أحوال الأعيان في المراتب الكليّة السّتّة والعوالم الخمسة التي تقبل الرّبوبيّة هي الأعيان المتردّدة في نشآت الأدوار بتنوّعات مقتضيات المراتب بصور الأطوار وتبدّلات مراتب كيفيّات الأنوار وظهورات الأسرار وتخلّف الرّبوبيّة بحسب اختلافات قابليّات أعيان كلّ مرتبة وتغاير اقتضاءات أرباب الأدوار في المراتب، فرتبة الأعيان الثّابتة والماهيّات الممكنة في مرتبة الواحديّة في فرداريّة الجمال صريحًا بتعليم المعارف النّظريّة والعلوم الحضوريّة والتّجليّات الأسمائيّة والشّهودات الذّاتيّة إنّما هي باسم العليم وتربية الأرواح والعقول بإفاضة الصّور العقليّة والعلوم النّظريّة والإدراكات الفكريّة والتّجليّات الأفعاليّة والمغيّبات الرّوحيّة إنّما هي باسم الحيّ في عالم الأمر والملكوت، وتربية الفؤاد والطور السّريّ بإلهام كيفيّة ترتيب المقدّمات العقليّة ورعاية المناسبات الوضعيّة والأحكام الشرعيّة الأصليّة والفرعيّة

= وإن خالف مواد آراء العوام واضح جليّ عند الإمعان والتحقيق اللّهم إلى أن يقال إن الكلام مبني على قول غير المحققين وما يظهر في بادئ الرأي كان في الإشارة أو يقال بحصول الإشارة هكذا ٥ ٤ ٣ ٢ ١ وليس كلٌّ من ذلك تكلفًا ظاهرًا.

وبالتّجليّات الآثاريّة والمشاهدات الغيبيّة وكشف الأسرار القلبيّة إنّما هي باسم القدير في عالم المثال والمرتبة البرزخية، وتربية الأبدان بالتوفيق بالامتثال بالأحكام الشّرعيّة، وتربية الأفعال والقوى الطبيعيّة والأعمال السّياسيّة والأشغال المنزليّة والأمور المدنيّة إنّما هي باسم المريد في المرتبة الشّهاديّة وعالم الملك والرّبوبيّة الجماليّة مستندة إلى الذّات بنور الجمال باسم الرّحمن صريحًا. ولا شكّ أنّ تلك الربوبيّة الظّاهرة متوقّفة على الرّبوبيّة الباطنة الجلاليّة التي هي إعطاء الاستعدادات وإفاضة القابليّات بنعت الجلال باسم الرّحيم والرّبوبيّة الجماليّة تتنقل في التّنزّلات لتبلغ كلّ عين من الأعيان في كلّ مرتبة إلى كماله اللاّئق بها في التّرقيّات لتبلغ كلّ عين إلى ما كانت عليه.

وبعد استكمال الرّبوبيّة الجماليّة العروجيّة والنّزوليّة ينتقل من الجمال إلى الجلال ويصير الجمال جلالًا والجلال جمالًا والتّصريح ضمنًا والضّمن صريحًا والرّحمن رحيمًا والرّحيم رحمانًا.

اِعلم أنّ إفاضة الاستعدادات الكليّة على نوعين: نوع مستندٍ إلى الذات الجامعة لتمام المراتب والأسماء والصفات فبهذا الاعتبار استعدادًا للمعطى والكلّ مهتدٍ إلى دار السّلام وعلى الصّراط المستقيم والإسلام والله يدعو إلى دار السلام وكلّ مولودٍ يولد على فطرة الإسلام، ونوعٌ منسوبٌ إلى الذّات باعتبار اسم من الأسماء ويفيض على كلّ موجودٍ استعدادًا خاصًّا وقابلية جزئيةً خاصّةً، ومن هذا وقع التّفاوت في الأعيان وظهرت السّعادات وبرزت الشّقاوات.

﴿مَـٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾

﴿مَـٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: 4] قرأ عاصم والكسّائي ويعقوب بالألف وهي قراءة النبيّ عليه السّلام والخلفاء الرّاشدين وبعض الصّحابة والباقون بغير الألف.

والمالك مأخوذٌ من الملِك بالكسر وهو المتصرف في الأعيان المملوكة حسب المشيئة، والملك مشتقٌ من الملك بالضمّ وهو التصرّف بالأمر والنّهي في المأمورين، وقيل الملك بالضمّ أعمّ لقوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ [غافر: 16].

وقيل: الملك والمالك بمعنى واحد مثل فره وفاره وحذر وحاذر وفكه وفاكه.

وقيل: المالك أعمّ لأنّه مالك الطّين والدّوابّ والوحوش وكلّ شيء.

ولا يقال ملِكلها بل ملك النّاس. وقرئ مِلْك بالسّكون ومَلَكَ بلفظ الفعل، وملك ومالك بالنّصب على المدح.

أمّا إضافته إلى الظّرف فلإجرائه مجرى المفعول على الاتساع كقولهم: يا سارق الليلة أهل الدّار معناه مالك الأمور كلّها في يوم لا ينفع مال ولا بنون فيه إلا الدّين والطّاعة ويجوز صفة لله لكونه بمعنى الماضي على طريقة قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعراف: 44] فإضافته حقيقيّة.

﴿ٱلدِّينِ﴾: الجزاء كما تدين تُدان، وقيل: الطّاعة والإسلام واحد لقوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: 19] وهو على نوعين: إسلام في الظّاهر وإسلام في الباطن؛ أمّا الظّاهر فإقرار باللّسان وعملٌ بالأركان. وفي الحديث: "**الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمدًا رسول الله وأن تقيم الصّلاة**" وأمّا الإسلام الباطن فانشراح الصّدر بنور الله ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ [الزُّمَر: 22].

فالإسلام الظاهريّ استسلام الجسد لأوامر الله تعالى، والإسلام الباطنيّ استسلام القلب وانقياد الرّوح لأحكام الله الأزليّ وقضائه الأوليّ وقدره في الجزئيّ والكليّ فيتنوّر بنور ربّه الكريم ويستنقذ من ظلمات دركات الجحيم والاستسلام الظاهريّ يقي صاحبه عن الدّركات الجسمانيّة والباطنيّ يصون عنه العقوبات الرّوحانيّة ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ۝٨ فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ ۝٩﴾ [الهُمَزة: 6 - 9] فمن تحقّق بالإسلامين الظاهريّ والباطنيّ ممكن أن يحكم أولًا بعلم اليقين ثم يجزم بعين اليقين أنّ الملك لله وأن لا مالك سوى الله واستأهل لأن يعبده عيانًا وأن يحمده بجميع المحامد تبيانًا وبيانًا. وفي ذكر الأوصاف دليل على أن من لم يتّصف بهذه الصّفات لم يكن حقيقًا لأن يُحمد فضلًا عن أن يُعبد إذ ترتّب الحكم على الوصف مشعرٌ بالعليّة والوصف الأول وهو الرّبوبيّة كافٍ لإيجاب الحمد الثّاني والثّالث للدلالة على أنّه منفصلٌ بالتّربية

مختارٌ فيه غير واحد بني عليه لسوابق الأعمال، والوصف موجبٌ لاختصاص الحمد به ناصٌّ عليه لامتناع الشّركة في ذلك الوصف، وفي تعليم طلب البداية إيماء إلى أنّ العقل لا يستقلّ بالاهتداء إلى درك أحكام المبدأ وأحكام المعاد بل يحتاج إلى الوحي الإلهيّ والإعلام الرّبانيّ الظاهر عند انتهاء فرداريّة كلّ من الإدراك الأربعة الجماليّة الفرعيّة والأصليّة وانقضاء فرداريّة الأكوار الجلاليّة وانقراض نوبة الصّورة الجمعيّة وحينئذٍ يتبدّل طور الدّنيا إلى طور الآخرة وطور الآخرة إلى طور الدّنيا وتنتقل أعيان المراتب العليا إلى المراتب السّفلى ويجزى كلّ منهم بجزاء يليق به.

بيان ذلك أنّه انتقلت أعيان مرتبة الواحديّة وعالم الجبروت أولًا إلى عالم الأمر والأرواح ومنها إلى عالم البرزخ ومنه إلى عالم الملك إلى النّاسوت ثمّ تعرج وترجع إلى عالم اللّاتعيّن والذّات البحت ثم ينزل منها وينتقل عنها إلى غيوب تلك العوالم إلى الناسوت ولكلّ مرتبة من المراتب يوم الدّين يجزي أعيانها فيه بما يليق بها ثمّة.

اِعلم أنّ انتقال الأعيان من مرتبة غيب الغيوب إلى مرتبة الشّؤونات الذّاتيّة بالتّجلّي الذّاتي ثم إلى الأعيان الثّابتة والصور العلميّة بالتّجلّي الاسميّ والوصفيّ جلالًا وجمالًا دفعيّ وإلى سائر المراتب تدريجيّ، خلق السّموات والأرض في ستّة أيّام وذلك لأنّ نسبة الذّات إلى ذوات الأعيان في مرتبتي الذّات والعلم على السّواء وكمالاتها بالفعل وفي سائر المراتب لكونها مع الأسماء والصّفات ليس كذلك وكمالاتها على الترتيب والتّدريج ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر: 21] ولا سيّما في كل مرتبةٍ من تلك المراتب حركة مناسبة لتلك المرتبة مستلزمة لأمر حضوريّ في العلم الإلهيّ وهي في الحقيقة امتداد سرمديّ لنسب الذّات وهذه النّسب أمور اعتبارية لا حقيقة لها إذ الذّات مع ما لها من الكمالات الذّاتيّة والأسمائيّة الّتي هي عنها على حالة واحدة أزلًا وأبدًا وهذه الاعتبارات في نظر المعارف بحسب تبدّل أحواله وفلك الامتداد وهو الآن الدّائم الّذي هو في الحقيقة أصل الوقت والدّور والعصر والزمان والأزل والأبد، فالوقت الحقيقيّ والآن الدّائميّ هو امتداد ديموميّة تبدّل النّسب الذّاتيّة بحركة

فلك التجلّي الذّاتي وسماء التّعيّن الأولي إلى ما لا يعلمه إلا الله ولا يمضي فيه ملكٌ مقرّبٌ ولا نبيٌّ مرسلٌ وفي هذا الوقت وقع التّكوين والإبداع، وأوّل الخلق والدّهر هو امتداد تبدّل أوضاع فلك الرّبوبيّة وهو مبدأ الخلق والاختراع ولا تسبّوا الدّهر فإنّ الدّهر هو الله، والعصر هو امتداد تحوّل أحوال الأفلاك المثاليّة والسّموات البرزخيّة، والزّمان مقدار حركة الفلك الملكيّ والسّماء الجماليّ. ولا شكّ أنّ فلك عالم الملك وما فيه من الكواكب والحركات وتبدّل الأوضاع وما يلزمها من الدّنيا والآخرة إنّما هي أمثال وأظلال لما فوقها من المراتب وما فيها من الأفلاك والطّبائع الكليّة والكواكب المعنويّة والحركات النّفسانيّة والهيئات الرّوحانيّة والنّسب العقليّة والصّور العلميّة. فعند قيام القيامة العظمى وظهور السّاعة الكبرى تتبدّل السّموات والأرض بأسرها ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝٤٨﴾ [إبراهيم: 48]، وكذلك تتبدّل الأعمال والأفعال والأحوال والأقوال الواقعة فيها، أشار إلى هذا المعنى بقوله ﷺ: «**إنّما هي أعمالكم ترد عليكم**» الحديث.

كما أنّ الأعمال هي مقتضى الصّور العلميّة الّتي كانت في مراتبها الاستعداديّة الجلاليّة وكلّ ما يقتضيه قوّة المبدأ في عالم الملك يقتضيه في سائر العوالم والمراتب ليطابقها وما وقع في عالم الملك في التبدّل يسمّى القيامة الصّغرى والمحشر الأدنى وفي عالم المثال القيامة الوسطى وفي عالم الأرواح القيامة الكبرى وفي الواحديّة والجبروت والعقول القيامة العظمى وفي كلّ من هذه القيامات أربع جنّات بإزاء التجلّيات المنسوبة إلى الصّفات الأربعة الأوليّة والأسماء المربّعة الذّاتيّة وهي العليم والحيّ والقدير والمريد ولكلّ منها وجهان:

وجه إلى الأحديّة لا يظهر بوحدانيّة الكثرات.

ووجه إلى الواحديّة يظهر بصور الكثرات ومن هذا قال النّبيّ ﷺ: «**إنّ للجنّة ثمانية أبواب**».

أمّا الأربعة الأولى: فالتّوحيد الذّاتيّ والصفاتيّ والآثاريّ والأفعاليّ، وأمّا الخامس فالتوحيد الجمعيّ، وأمّا الثلاثة الباقية هي التّجليّات الظاهرة بصور

كثرات الصّفات والأفعال والآثار الّتي هي منسوبة إلى الأسماء الثلاثة الذّاتيّة الّتي هي السّمع والبصر والتكلّم.

وأمّا الجحيم الّتي لها سبعة أبواب وهي صورة انتفاء جمعية هذه الوجوه السّبعة الّتي هي آثار أنوار الأسماء السّبعة الذّاتيّة وتوابعها وانتفاء البعض مستلزم لانتفاء الصّورة الجمعيّة الّتي هي المطلب الأعلى والمقصد الأقصى، وأمّا ارتفاع الكلّ من حيث المجموع فممنوع إذ لانتفاء كلّ واحد منها كلّ ممكن بدّ وأن يدخل في حيطة تدبير اسم من الأسماء السّبعة الذّاتيّة، ورد من باب ذلك الاسم في جنّة عرضها كعرض السّماء والأرض إلا أنّه لم يدخل الجنّة بجميع أبوابها الثّمانية إلا من تخلّص من مقتضيات جميع نقائص الأسماء، ومن تقيّد بواحد منها فهو غير متخلّص من نار القطيعة ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۝٧٢﴾ [مريم: 71 - 72] أي الّذين اتّقوا نواقص الأسماء: أكبرها والظّالمون هم الذّين فاتهم أكبر سعادات الأسماء الذّاتيّة، فالسّعيد من تردّد في نشآت أدوارها إلى أن يستوفي جميع السّعادات ويستغني عن موجبات دركات الشّقاوات وجزاء من فاز بآثار أنوار اسم من الأسماء الذّاتيّة عند فرداريّة تردد في طور منسوب إليه فإنّها تغاير جزاء من فاز بآثار أنوار اسم آخر منها عند فردازنيّة في طور فخَرَّ الطّور القابليّ عند نور اللّذّات البدنيّة والمشتهيات الطبيعيّة وعند الفوت إدراك الآلام والتألّم بالآلام الشّديدة وجزاء الطّور النفسيّ.

وأمّا العلوّ والشرف والإحاطة بالمطالب والمآرب بالضّدّ أجزاء طور القلبي إنّما هو الصّفاء والضياء والأبّهة والبهاء وغيرها من الملكات الفاضلة والهيئات والعلوم النّظريّة والذّوق الحاصل من المعارف الإلهيّة والشّوق الموصل إلى العوارف الغير المتناهية وأضدادها.

وجزاء الطور السريّ والرّوحيّ والخفيّ وغيب الغيوب إنّما هو التجلّي الآثاريّ والأفعاليّ والصّفاتيّ والذّاتيّ وفواتها ومن فاز بالسّير على تلك الأطوار بأسرها فجزاؤه ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر في الدّنيا والآخرة، أو في الآخرة بعد المفارقة.

مطلب العارفين

ومعنى مالك يوم الدّين مجازي العارفين الصّادقين يوم القرب بشهود تطوّر تجليّات ذاته في مزايا الأسماء الذّاتيّة والأفعاليّة والآثاريّة ومجالي صورة جمعيّتها في كلّ دورة وكورة أو في الأدوار والأكوار تصور جمعيّتها ومجازي الظّالمين بالتّبعيد من رحمته أو إياسهم من فضله وكمال نقمته فينبذهم في النّشآت ولا ينظر إليهم ولا يستكملهم فيها على مقتضى استعداداتهم ومجازي المحبّين بالنّظر إليهم بكمال الاستئناس وفرط الارتياح المتزايد آنًا فآنًا إلى وجهه الكريم الذي لا تنتهي تطوّرات تجلّياته ولا تنقطع تنوّعات جلواته وهم العارفون الفاقدون أنفسهم ودنياهم مطروحون عن أعين قلوبهم إلى الآخرة منبوذون عن نظر أفئدتهم عند معروفهم في مقام الرّوح عند انفتاح أبواب الفتوح في أنواع اللّطائف الرّوحيّة وشهود التّجليّات الفتوحيّة مختفية في الطّور الخفيّ بالتّجليّات الذّاتيّة وشهود الصّفات الإلهيّة. وفي كلّ طور من الأطوار السّبعة الغيبيّة أقاليم ومدائن قال آدم الأولياء كرّم الله وجهه: إنّ لله تعالى مدائن في كلّ من الدّنيا والآخرة. والنّفوس والأرواح يجازي بها العارفين ولكلّ من النّفس والبدن والقلب والرّوح والعقل جزاء ملائم، فجزاء الأبدان النّعم الأخرويّة من الحور والقصور لكونها مصوّرة كالأبدان وجزاء القلب الأنس بالله وهما معنويان وجزاء الرّوح والعقل المحبّة لله.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾

ولمّا استكمل العارف في مراتب تجلّيات أسمائه وصفاته وأحاط لوامع أنوار نعمه وأزهار أسرار محبّته ظاهرةً وباطنةً بحيث لا يشاهد غير الله ولم يعاين ما سوى الله ولم يبق في نظره غير الله خاصّة في تمام المراتب.

وقال ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي إيّاك نقصد في عبوديّتنا من غير التفات إلى ما سواك ولا نريد منك غيرك فنخصّك بالعبادة والعياذة في جميع الأحوال.

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفَاتِحَة: 5] أي نخصّك بطلب المعونة في جميع الأمور يعني بتوفيقك نعبدك وبهدايتك وتسييرك نصل إلى رضوانك فسبحانك لا

إله إلا أنت بل لا موجود ولا كائن إلا أنت المستعان وأنت المعبود و﴿إِيَّاكَ﴾ ضمير منصوب منفصل.

وقيل إيّا ضمير والكاف ملحق، وقُرِئَ أَيّاك بفتح الهمزة، وهناك تقلب الهمزة هاء، وتقديم المفعول للتّخصّص والعدول من الغيبة إلى الخطاب بطريق الالتفات لتحسين الكلام لأنّ نقل الكلام من أسلوب إلى آخر يوجب حسنه وقد التفت امرؤ القيس ثلاث التفاتات في ثلاثة أبيات:

تطاول ليلك بالإثمدِ ونامَ الخليُّ ولم ترقدِ
وباتت وبات له ليلةٌ كَلَيْلةِ ذي العابد الأرمدِ
وذلك من نبأٍ جاءني وخبّرتهُ عن أبي الأسودِ

وقد اختصّ وقوعه ههنا بلطائف جمّة منها أنّه لمّا ذكر الحقيق بالحمد وأجرى عليه صفات عظام أفاد ذلك تميّزه عن غيرهِ تميّزًا ذاتيًّا وتعلّق علمه بمعلوم عظيم الشّان حقيقٌ بالحمد، وأيضًا على وجهٍ يفيد التوجّه كمال التميّز المقتضي إلى حدّ الشهود فيوصل الحامد إلى مقام الإحسان فيصير كأنّه يراه فحينئذٍ يستحقّ أن يخاطبه كأنه يعاينه بأنّ من هذا شأنه يخصّك بالعبادة والاستقامة ويترقّى بمرقاة البرهان إلى مرماة سهام الشّهود وقصبات سوابق أمر العيان ويتأمّل في خصوص نعمائه وعموم آلائه من المصنوعات الكاملة وأحوالها الفاضلة ثم يترقّى منها إلى مبادئها وهي الأسماء الذّاتيّة والصّفات الأفعاليّة والنّعوت الآثاريّة ويستدلّ بغرائب صنائعه وعظم آلائه ونعمائه على عظم شأنه وحكم سلطانه وهو يعبده على طريقة المشاهدة. ومن هذا تبيّن أنّ مبنى المعرفة العبادة ولهذا فسّروا العبادة في قوله ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذّاريَات: 56] بالمعرفة أي ليعرفون تسميةً للمسبّب باسم السّبب.

وفي تقديم الخطاب إشعارٌ بأنّه لا بدّ وأن تكون مشاهدة العابد العارف متقدّمة على عبادته كما كان في مقام ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 172] وأشار إلى هذا عليّ كرّم الله وجهه: "رأيته فعرفته ثم عبدته لم أعبد ربًّا لم أره"، وكذا قال في جواب القائل: "هل رأيت ربّك، أأعبد من لم أره" وهذه الرؤية إنّما هي تعيّن القلب وإنّه لا بدّ أن يكون نظر العابد إلى المعبود لا العبادة ليسلم عن

الإشراك وأن لا يرى لنفسه أثرًا أصلًا.

وحقيقة العبادة الخشوع والاستسلام والخضوع والاستعظام يقال طريق مُعبَّد وثوب ذو عبدة إذا كان مذلّلًا في غاية الضّعف والصّفاقة، وبها تناهي الاستهلاك والفناء عمّا سوى المعبود على ثلاثة أنواع: عبادة وعبودة وعبودية؛ أمّا الأوّل فلطلب الجنّة، وأمّا الثّاني فلطلب النّجاة من النّار، وأمّا الثالث فلطلب وجه الله وابتغاء مرضاته ورضائه إنّما هو بإسقاط الشّرك ووجود الغير، وإنّما كرّر ضمير المفعول ليشير إلى أنّ الحقّ حقيق بأن يكون في جميع الأحوال نصب عينك ولأنّه حاضرٌ لديك ناظرٌ إلى كلّ ما يجري بين يديك وهذا هو غاية الإحسان إذ الإحسان: أن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك.

﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾

﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفَاتِحَة: 6] بيان للمطلوب من المعونة كأنّه قيل كيف أعينك فقالوا اِهدنا أي ثبّتنا على ما كنّا عليه في الحال الأوّل وتبيّنا صراطك الموصل إليك على ما علمنا في المقام الأوّل في الأوّل وهو الإسلام الحقيقيّ «**كلّ مولودٍ يولدُ على فطرةِ الإسلام فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه**».

وقيل: معناه ثبّتنا على الهداية وهي عند أهل السّنة والجماعة عبارةٌ عن خلوّ الاهتداء ونسبة الهداية إلى غير الله مجاز عن الدّلالة والدّعوة كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ﴾ [فُصِّلَت: 17] معناه بيّنا لهم الطّريق الواضح الموصل.

وعند المعتزلة هي بيان طريق الصّواب وهو باطل لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [القَصَص: 56] المشهود عندهم إنّما هي الدّلالة إلى البغية وهو أيضًا منظور فيه بما ذكرنا.

وعند مشايخنا هي الدّلالة على طريق يوصل إلى المطلوب حصل أو لم يحصل وما قال عليّ عليه السّلام: «**نبّئني لتحصيل الهداية في ضمن العبادة**» أوفق بالثاني. وقد تفسّر بالدّلالة بلطف ولذلك خصّ استعمالها بالخير، وأمّا قوله تعالى: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الصَّافات: 23] فللتهكّم والزّجر والتوبيخ وفعله

أصله هدى أن يعدّى بحرف اللّام أو بإلى وقد يحذف كما في ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: 90] وهي أنواع كثيرة إلا أنّها تنحصر على الإجمال في أجناس:

مرتبة الأوّل: إفاضة القوى التي بها يمكّن المرء من الاهتداء إلى مصالحه كالقوة العاقلة والمشاعر العشرة الشّاعرة.

والثاني: نصب الأدلّة الفارقة بين الحق والباطل ﴿فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فُصّلَت: 17].

والثالث: إرسال الرّسل وإنزال الكتب ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسرَاء: 9].

الرابع: الكشف وشهود أسماء الله تعالى كما في الوحي والإلهام والمنامات الصّادقة والحالات الفارقة وهي مختصّة بالأنبياء والأولياء ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: 90] ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: 69] فالمنفيّ إمّا زيادة المنح من الهدى أو الثبات عليه فإذا قاله العارف يعني به أرشدنا السير فيك ليميط عنّا غياهب ظلمات الرّسوم البشريّة وحدود الصّور الإنسانيّة ليستضيء بنور قدسك فنراك بنورك ونشاهدك بك.

واعلم أنّ الأمر والدّعاء يتشاركان لفظًا ومعنًى ويتفارقان اعتبارًا وهنا الصّراط المستقيم الطّريق الواضح المستوي، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «**خطّ رسول الله ﷺ خطّين خطًّا عن يمينه وخطًّا عن شماله قال: هذه سبل وعلى كلّ سبيل منها شيطان يدعو إليه وهذه سبيل الله**» ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: 153] ويوافقه ما تقرّر في العلم الأكبر أنّ أقصر الخطوط المستقيمة الخارجة من النّقطة الغير المركزيّة إلى محيط الدّائرة هو الخطّ المسامت بالمركز المطبق على القطران يكون آخر القطر ويكون عمودًا على جنوب قسيّ وأصله بين تلك الخطوط للخرجة من جنبي الخطّ من تلك النقطة المفروضة وعنه عليه السّلام: «**ضرب الله مثلًا صراطًا مستقيمًا وعلى جنبي الصّراط سورٌ فيه أبواب مفتحة والأبواب سور مزجاة وعلى باب الصّراط داع يقول يا أيّها النّاس ادخلوا الصّراط جميعًا ولا تتعوّجوا أو داعٍ يدعو من فوق الصّراط فإذا أراد الله فتح شيء من تلك الأبواب قال لا تفتحه فإن تفتحه يلجه**

فالصّراط الإسلام والسّور حدود الله عزّ وجلّ والأبواب المفتّحة محارم الله والدّاعي من فوق واعظ الله في قلب كلّ مسلم» الحديث.

إذا أراد الله لعبد حافظًا جعل له من نفسه واعظًا وفي الصّراط خمس قراءات وبالسّين هو الأصل وبالصّاد بقلب السّين صادًا وهو الكتاب وإنّما سمّي الطّريق سراطًا لأسراطه السّائلة المأثورة أي لاتّباعها.

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفَاتِحَة: 7] بدل من الأوّل بدل الكلّ الّذين منّ عليهم بالتّوفيق والرّعاية والتوحيد والهداية هم الأنبياء والمؤمنون الّذين ذكروا في كتابه الكريم ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النِّسَاء: 69].

قال شهير بن حوشب: هم أصحاب رسول الله وأهل بيته.

قيل: الذين أنعمت عليهم بالشّكر على السرّاء والصّبر على الضّراء أي أتممت عليهم النّعمة.

﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ وهو من الأسماء المتوغّلة في الإبهام كالنّحو والمثل والنّظير وما ضاهاها لا يكتسب التّعريف بالإضافة فتوصف الّذين به على التّأويلين لإجراء الموصول مجرى النّكرة بناء على أن لا يقصد منه معهود كما في هذا القول: ولقد أمرّ على اللّئيم يسبّني.

وقيل: غير مستغرقة ههنا لأنّ هذه الأسماء إن أضيفت إلى الأضداد الموصوفة بها يتعيّن كقولك: عليك بالحركة غير السّكون، قُرِئ بالنّصب على الحال عن الضّمير المجرور والعامل فيه أنعمت أو بالإضمار أو بالاستثناء إن فسّر النّعم بما يعمّ القبيلتين وهو النّعمة المطلقة الشّاملة للإيمان والسّلامة من غضب الله والضّلال وهو ثوران النّفس وحركتها إلى الظّاهر لدفع ما تنكره ودفع شيء تكرهه وإرادة الانتقام وإطلاقه على الله تعالى كما مرّ إنّما هو باعتبار الغاية لا المبدأ.

﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفَاتِحَة: 7] أي الهالكين من الضّلال وهو الهلاك إمّا حالًا أو مآلًا.

يقال: ضلّ الماء في اللّبن إذا تغيّر وخفي وذهب، ورجلٌ ضلّ إذا أخطأ الطّريق وآل الأمر إلى الهلاك وهو ضدّ الهداية.

وقد عرفتها و"لا" مزيدةٌ لتأكيد ما في "غير" من معنى النّفي فكأنّه قال لا المغضوب عليهم ولا الضّالين.

وإذًا جاز أنّ زيدًا غير ضارب كما جاز أنّ زيدًا لا ضارب وامتنع أنّ زيدًا مثل ضارب وقد يطلق على العدول عن الطّريق السّوي عمدًا أو خطأً.

قيل: المغضوب عليهم هم اليهود من لعنهم الله وغضب عليهم وجعل منهم القردة، والضّالين هم النّصارى قد ضلّوا من قبل وأضلّوا كثيرًا.

وقد روي مرفوعًا معطوفًا على غير المرفوع على أنّه خبر مبتدأ محذوف.

وقيل: المعنى من الأوّل العصاة ومن الثّاني الجاهلون بالله لأنّ المنعم عليهم من وفق الجمع بين المعرفة الحق والخير والعمل به وكان القائل له من إحدى قوّتيه العاقلة والعاملة والمخلّ بالعمل فاسق مغضوب عليه لقوله تعالى في القاتل عمدًا ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ [النِّسَاء: 93] والمخلّ بالعلم هو الجاهل فما بعد الحقّ إلا الضّلال.

وقُرِئ لا الضّألون بالهمزة على لغة من هرب من التقاء السّاكنين.

آمين صوت سمّي به الفعل هو اِستجب كما أنّ رويد وحيهل وهلمّ أصوات سمّيت بها الأفعال الّتي هي أمهِلْ وأسرِعْ وأقبِلْ.

ليس من القرآن بدليل أنّه لم يثبت في المصاحف، لا يقولها الإمام لأنّه الدّاعي به قال أبو حنيفة والمشهور عنه وعن أصحابه الإخفاء وعن الشّافعيّ الجهر لما روى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "**إذا قال الإمام غير المغضوب عليهم ولا الضّالين فقولوا آمين**» فمن وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدّم من ذنبه.

إشارة وتأويل

﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة: 5] بمعونتك نعبد لا بحولنا وقوّتنا وإيّاك نستعين لتمام عبوديّتك ودوام برّك علينا حتى بك نرى فضلك ولا تنظر إلى أعمالنا إياك نعبد لا نروم المعاملات وطلب المكافآت بل لاقتضاء حسن الرّؤية واقتضاء النّسبة الفطرية حببت الأعيان وحملت استعدادت الأكوان عليها ونستعينك لمزيد العناية وعنيد الهداية بنعتِ العصمة عن القطيعة، إيّاك نعبد بحكم المراقبة لا لتوهّم المعاقبة وإيّاك نستعين في المجاهدة لتحصيل المعاينة وتكميل المشاهدة، وإيّاك نعبد بعلم اليقين وإيّاك نستعين بعين اليقين لتحصيل مقام حقّ اليقين، إيّاك نعبد في أدوار فرداريّة الجمال الأربعة بالعبادات الوجودية الموقوفة على الإدراكات الثبوتيّة والدّرايات التشبيهيّة وإيّاك نستعين في شهود التّجليّات الإلهيّة والمشاهدات الجلاليّة المقتضية لتلك الأكوار المذكورة في المراتب المزيورة، إيّاك نعبد لقطع العلائق ورفع الموانع وبالإعراض عن الشواغل أو الأغراض وإيّاك نستعين في الثّبات والاستقامة على هذه الأمور بك لك.

قال أستاذٌ: العبادة برهةٌ من المريدين ورياض الأنس للمحبّين ومربّع البهجة للعارفين ومربّع المسرّة للمشتاقين.

واعلم أنّ العبوديّة كالرّبوبيّة والهداية نوعان: ذاتيّة وهي تعمّ جميع الأعيان بل الأعراض وبين تطوّرات الظّهورات الإلهيّة وتنوّعات التّنزلات الأسمائيّة والشؤونات الذّاتيّة فما من موجود ذهنيّ وخارجيّ ذاتيّ وعرضيّ بل المعدوم الثّابت بالعنوان العدم إلا وهو من حيث لا يقبل الثّبوت والظّهور إلا من ذات الحقّ والوجود المطلق عائدٌ له ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ۝٩٣﴾ [مَريَم: 93] ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسرَاء: 23] فالكلُّ بهذا الوجه على الصّراط المستقيم مهتدٍ إليه هدايةً ذاتيّةً ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖ﴾ [المُلك: 3]، وغير ذاتيّة وهي إنّما تكون بعد تحقّق الأحكام الوجوديّة واللّوازم الكونيّة التي هي أظلال المعارف النّظريّة وأظلال الإدراكات البسيطة الفطريّة والشّهودات الذّاتيّة والعلوم الضّروريّة التي هي عينها، فكلّ ما يظهر في المرتبة

العينيّة والنّشأة الشّهاديّة من العبادات والعلوم والإدراكات والأحوال والمقامات إنّما هي أظلال وأمثال لما في المراتب التي قبل هذه المرتبة ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التّغابن: 2] فتمام الأحكام الذّاتيّة والنّواميس الإلهيّة إنّما هي معرفات ومذكّرات لما في تلك المراتب التي هي مقتضيات الأدوار السّابقة ومرتضيات الأكوار الإلهيّة.

وفي هذه المراتب ظهر التفاوت ونشأ الاختلاف والتهافت ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: 213] فاجتلبوا إلى الهداية وطلبها.

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: 6] أي بيّن لنا الهداية الذاتيّة الظّاهرة في بداية الأدوار الإلهيّة ومبدأ الأكوار الكونيّة التي تكون في فرداريّة الجمال بنعت الوجود في الجلاليّة بوصف العدم ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يُونس: 25]، وعيّن لنا صراطك المستقيم في بداية الدّورتين ومبدأ الكورين واهدنا إليه على وجه يستدعي استعداداتنا الجماليّة وقابليّتنا الجلاليّة ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يُونس: 25].

قال الصادق عليه السّلام: "أرِنا طريق المعرفة والمشاهدة وأقِم قلوبنا وأدِم نفوسنا بخدمتك وأرِنا طريق الهداية للسّير فيك حتى نستقيم معك على توحيدك" فالأوّل دعاء المريدين والثّاني نداء المؤمنين والثّالث صداء العاشقين.

أمّا طريق المنيبين فهو طريق الإنابة والشّوق والشّكر فنتوب إليك ونستأنس بالوصول لديك وبالقرب من وصالك فإنّا إذا رأيناك فقد وجدناك بطريق المقام معك ونذكرك معك وننظرك بذكر رضاك فهذا طريق الأولياء.

قال صاحب العرايس: اهدنا مرادك منّا لأنّ الطّريق المستقيم ما أراد الحقّ من الخلق من الإخلاص والصّدق في عبوديّته وخدمته.

أو أرشِدنا إلى ما أنت عليه وأيضًا اهدِنا إلى معرفتك حتى نسترح من معاملتنا بنسم أُنسِك وأنوار حقائق أنسك بحسنك. اهدِنا إنابتك حتى نصفك بصفاتك.

وقيل: اهدِنا لا بأنفسنا بل بقلوبنا إليك وأقمنا بين يديك وكن دليلًا منك إليك حتى لا نقطع عمّا لك منك. أو اهدِنا هدى العيان بعد البيان لنستقيم لك على حسب إرادتك. وأيضًا اهدِنا بفناء أوصافنا الطّريق إلى أوصافك التي لم تزل ولا تزال.

الصّراط المستقيم هو امتداد النَّفَس الرّحمانيّ الّذي ساق الله الأعيان الثابتة والحقائق الإلهيّة بسياط التّجلّي الذّاتي على بسيط بساطته من البسائط والمجرّدات والمادّيات والوسائط وصور المركّبات والرّوابط والعلل والشّرائط وغاية التّنزّلات والضّوابط ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هُود: 56].

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفَاتِحَة: 7] أولًا بالوجود العلميّ ثم بالوجود العينيّ في فرداريّة دورة أو كورة عن الأدوار الجماليّة النّوريّة والأكوار الجلاليّة الظّليّة إشارة إلى أنّ كلّ عين من الأعيان من حيث إنّه حصّة من الوجود المطلق فيه قوّة الكلّ واستعدادها وخروجه من القوّة إلى الفعل مشروط بالأدوار الإلهيّة الجماليّة والأكوار الجلاليّة فعند استجماع الشرائط تصل كلّ عين من الأعيان الكونيّة إلى كماله اللّائق وهو كلّ كمال لكمال الفرداريّة الجماليّة والجلاليّة ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ۝٥٣﴾ [الشّورىٰ: 52-53] ويجوز أن يحمل على القوّة النّظريّة الصّائبة في نظرها والقوّة العمليّة التي هي نهايتها واستقام إليها كما استقام سهام النّظر التي هي أجلّ أقسام النّعم ومنتهى موارد الهمم.

﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ المترددين في نشأة الأدوار الجماليّة، قال الغزالي رحمه الله: "الغضب نسبة مشيئة الله إلى من استوقف لهم أسباب الحكمة دون غايتها ومبدؤها الكفران ورتّب عليهم اللّعن والمذمّة ويقابله الرّضا وهو نسبة مشيئة الله إلى من استعمل أسباب الحكمة وإتمامها مبدؤه الشكر ورتّب عليها الثّناء والعطاء".

﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفَاتِحَة: 7] في نشآت الأدوار الجلاليّة، قال الصّادق رضي الله عنه: "أي لا يغضب على من يصل إلى مرتبة العارفين" ومعنى الغضب

الإهمال في العصيان أي لا تكلنا إلى أنفسنا ولا تهملنا وطبيعتنا. ولا الضالين أي لا تهمل العارف في ضلالته ولا تخذل الوليّ في طغيانه ولا المريد في هواء نفسه ولا المؤمن في فسقه ومعصيته وخذ بنواصي قلوبهم وردّهم إلى بابك وارجع بهم إلى طريق هداك وسبيل رضاك. فسبحان من به ابتدأ أمور المؤمن وتمام سؤال العارفين.

اعلم أنّ الضّلال وهو سلوك طريق لا يوصل إلى البُغية والمرام ولا إلى الحال والمقام إمّا لفعله إيثار اللذّات الحسيّة على الكمالات الرّوحانيّة كإيثار الصبيّ اللّعب على السّلطنتين أو لاغتراره بالأكاذيب والمخيّلات [التي] تصبو النّفس إليها كما يخيّل أنّ الدّنيا نقد والآخرة نسيئة، والنّقد خير من النّسيئة وأنت خبير بأن النّسبة المحقّقة بالبراهين والقرائن من القوانين الدّالّة على تحققها خير بمراتب من نقد حقير فإنّ النّسيئة الّتي هي الآخرة ثابتة محقّقة الوقوع عند خواصّ أشخاص العيان وضابطه البيان الحق وكلما جاء منه من الأنبياء والعلماء الرّبّانيين والحكماء المتألّهين بأنّهم عاينوا بعين العيان وضابطه البيان الحقّ وكلّما جاء منه من الإخبار عن المغيّبات وإنباء الخلائق منها فمن له عقل سليم وفهم مستقيم يتلقّى منهم من غير تكرير ولغلبة هوى النّفس واستيلاء حكم الوهم وحق بيضاء كمال القوّة القدسيّة وصفاء الحدس فإن استمرّوا عليها ربّ ربًّا احرث نباتًا ثم غشاوتهم طبعًا ثم ختمًا ثم غلفًا كما قالوا بل طبع الله عليها أموات غير أحياء أو أخطأ أو وقع الكفر أو أضلّه الله على علم من ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: 17]. وكذا مراتب الانشراح وهو الامتحان والسّكينة والعصمة وإنّما أسند الإنعام إليه دون الغضب والضّلال لاستلزامهما الغيريّة دون الإنعام فإنّ الذّات الواحدة كافية فيه فإنّ الوجود والصّفات الذّاتيّة كلّها نعمٌ عظيمة للذّات من الذّات **(سبقت رحمتي غضبي)**.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ترتيبها 2 سُورَةُ البَقَرَةِ آياتها 286 مدنية

مطلب خواص سورة البقرة

وهي خمسة وعشرون ألف حرف وستة آلاف ومائة وإحدى وعشرون كلمة ومائتان وستّ وثمانون آيةً.

عن أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه عن عكرمة أنّ أوّل سورة نزلت في المدينة سورة البقرة قال النبيّ ﷺ: «**إنّ لكلّ شيءٍ سنامًا وسنام القرآن سورة البقرة ومن قرأها في بيته نهارًا لم يدخل في بيته شيطانٌ ثلاثة أيّام ومن قرأها في ثلث الليل لم يدخله شيطانٌ ثلاث ليال**» وقال أيضًا: «**تعلّموا البقرة فإنّ أخذها بركة وتركها حسرة ولن تستطيعها البطلة**» أي السّحرة.

وإنّما سمّيت سورة البقرة إشعارًا بأنّ الكلام الغيبي والكتاب الإلهيّ بها، وفيها من السّور والعشرات والأجزاء والآيات متطابقة وكذا الكتاب الكونيّ المركّب يطابق الكتاب البسيط الغيبيّ فسورة البقرة وقعت في المرتبة الثالثة كما أنّ البقرة التي تطلق على الطّبيعتين الكليّة والجزئيّة وعلى الطبيعة الكليّة البسيطة والمركّبة وقعت أيضًا في المرتبة الثالثة وكذا إذا أطلقت على الثّور الّذي وضع الملك الحامل للأرض الّتي خلقها الله من زبد الماء الّذي تحرّك في اللّوح المحفوظ بأمر الله وبهجته إيّاه رجله على الصّخرة المربّعة وهذه الصّخرة على متن الثّور الّذي وقع في المرتبة الثّالثة فإنّ كرة الأرض الّتي أحاط بها البحور السّبعة الّتي خلقها الله تعالى محيطةٌ بالأرض كانت كالسّفينة المضطربة في هذه

البحور وحمل البقرة على الحوت والحوت في الماء الّذي كان عرشه عليه والماء على الهواء الّذي هو مادّة الحياة والهواء على الظّلمة الّتي هي حقيقة الإمكان. وقد يطلق على القوّة النّفسانيّة أو على النّفس العاملة وعلى ثور القوّة العمليّة التي هي ثور القوّة النّظريّة الّتي هي أرض الاستعدادت بها وتزرع لبها حبّة الحبّ الذّاتي فإنّ البقرة التي ابتلاها الله موسى الرّوح هي النّفس العاملة الّتي اشتعلت بتركها في طور الأربعين الّذي وعده الله فيه شهود التّجلي وأمر بإلقاء عصا القوّة النّظريّة في الوادي المقدسّة القلبيّة لأنّ القوّة النّظريّة شيطان لا يجامع شهود الرّحمن.

﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الّذي صوّر وفطر وبقر أرض أعيان القابليّات ببقرة قدرته الذّاتيّة ﴿الرَّحْمَنِ﴾ الّذي حمل أثقال الصّور الكونيّة والهيئة النّوعيّة على بقرة الاستعدادت القريبة والبعيدة الّتي هي مقتضيات النّور والجمال ومرتضيات الضّمور والجلال ﴿الرَّحِيمِ﴾ الّذي عرض الأمانة الجمعيّة الإلهيّة والكونيّة على بدنة القوّة النّفسانيّة وبقرة النّفس المطمئنّة الإنسانيّة لتصل بسباقه الحضائر القدسيّة وسباقه السرائر الإنسيّة إلى الحضائر الأُنسيّة.

﴿الٓمٓ ①﴾

﴿الٓمٓ ①﴾ [البَقَرَة: 1] اختلف في الحروف المصدّرة بها السور فالأكثرون على أنّها من المتشابهات الّتي استأثرها الله بعلمه فنحن نؤمن بتنزيلها واشتمالها على معانٍ وكلّ إلى الله علمها وتأويلها، قال أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه: «إنّ لله عزّ وجلّ في كلّ كتاب سرًّا وسرّ الله في القرآن أوائل السّور» وقال عليّ ابن أبي طالب رضي الله عنه: «إنّ لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التّهجّي».

اعلم أنّ الحروف نوعان: نورانيّ وهو أربعة عشر المذكورة في أوائل السّور وظلمانيّ وهي ما عدا ذلك وسبعة منها أظلم وهي الّتي منعت من الفاتحة إذ هي نور ورحمة والآخرون فسّروها. قال سعد بن جبير: «أسماء الله العظيمة ولو أحسن النّاس تأليفها لعلموا اسم الله الأعظم». ألا ترى أنّك تقول الر و حم و ن فيكون الرّحمن. وعلى هذا القياس إلا أنّا لا نقدر على الوصل والجمع بينهما.

قال قتادة: «هي أسماء القرآن» وقال: «هي أقسام أقسم الله عزّ وجلّ [بها]» وروي عنه: «أنّها ثناء أثنى الله بها على نفسه». وقال أبو العالية: «ليس منها حرف إلا وهو مفتاح اسم من أسماء الله تعالى ليس منها اسم إلا وهي في آلائه ونعمائه وبلائه وليس منها حرف» وهو في مدّة قوم وآجال آخرين فإنّ الرّسول أتاه اليهود فتلا عليهم ألم البقرة فحسبوه وقالوا: «كيف ندخل في دين مدّته إحدى وسبعون سنة» فتبسّم رسول الله ﷺ فقالوا: «هل غيره» فقال: «ألمص وألر وألمر» فقالوا: «اختلطت علينا فلا ندري بأيّها نأخذ».

وقال عبد الرّحمن بن زيد بن أسلم: «هي أسماء السّور المفتتح بها» وعليه الأكثرون إشعارًا في بادئ النّظر بأنّها كلمات معروفة التّركيب فلو لم يكن وحيًا لم تساقط مقدرتهم دون معارضها فاستدلّ عليه بأنّها لو لم تكن مفهمة كان الخطاب بها كالخطاب بالمهمل وتكلّم الزنجيّ مع العربيّ ولو لم يكن القرآن بيانًا وهدىً لما أمكن التّحدّي به، وإن كانت مفهمة، فأمّا إن كان المراد بها السّور الّتي هي استهلّها على أنّها ألقيا بها أو غير ذلك والثّاني باطل لأنّه إمّا أن يكون المراد به ما وضعت له لغة العرب فظنّ أنّه ليس كذلك أو غيرها وهو باطل لأنّ القرآن ينزل على لغتهم لقوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشُّعَرَاء: 195] فلا يحمل على ما ليس في لغتهم هذا.

أقول المراد بها غير السّور لعدم إفادتها التمييز بلا ضمّة كالبقرة وآل عمران ولقمان وغير ذلك، واسم الشيء ما يميّزه من مشاركاته بالوضع الخاصّ، ويجوز أن يكون المراد بها ما وضعت له على اصطلاح له للتخاطب كما يقال الم وسائر الألفاظ الّتي تتهجّى بأسماء مسمّياتها الحروف الّتي ركّبت بها الكلم لدخولها في حدّ الاسم، واعتوار ما يختصّ به من التّعريف والتّنكير والجمع والتّصغير وغير ذلك وإن يكون معتنيًا بها ما قاله الصّدّيق والمرتضى رضي الله عنهما إشعارًا بأنّ هذه هي ما يظهر به الكتاب الإلهيّ والخطاب الأزليّ وحيًا وإلهامًا وخطابًا وإعلامًا وغير ذلك، وردًّا على ما يوهمه بعض النّاس من أنّ المعاني المجرّدة لا تتعاطى بالملابس الحسيّة في المجالس الأنسيّة كما أنّ الرّسل لا تكون إلا جواهر مادّية كالملك.

ويجوز أن يراد بها ما أشار إليه النّبيّ ﷺ: « **تعلّموا أبجد وتفسيرها وويل لعالم جهل تفسيرها الألف الله وآلاء الله وحرف من أسماء الله والباء بهاء الله وأمّا الجيم فبهجة الله وأمّا الدّال فدين الله**» الحديث، فالكلّ دالّ على معنى أراده الله تعالى ولا يطّلع عليه إلا من خصّصه الله بوفور عنايته وعموم هدايته لا يقال إنّ ما روى ابن مسعود رضي الله عنه قال: «**من قرأ حرفًا من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول ألم حرف بل ألف حرف ولام حرف وميم**». يخالف ما ذكر إذ أقول مبنيّ على اللّغة فإنّها لم تفرّق بين الألفاظ الّتي يتهجّى بها وبين مسمّياتها الّتي ركّبت منها الكلمات، ولعلّ النبيّ ﷺ سمّاه باسم مدلوله. قال القاضي: ولمّا كانت مسمّياتها حروفًا وحدانيّة وهي مركّبة صدرت لتكون بها تأديتها بالمسمّى أوّل ما يقرع به السّمع واستعير الهمزة مكان الألف لتعذّر الابتداء بها.

هذا أقول المراد بالألف إن كان هو السّاكن الواقع في الوسط والآخر لا يكون، قوله صدّرت بها كليّة وإن كان أوّلها يتلفّظ من الحروف، فقوله استعيرت الهمزة غير صحيح لعدم الاحتياج إليها لأنّها عينها، وأيضًا يلزم منه أن تكون الهمزة غير الألف أحد الحروف المقطّعة وليس كذلك لانحصارها على ثمانية وعشرين، والحقّ أنّ الألف اسم لما هو مبتدأ لسائر الحروف وهو في ذاته غير متحرّك ولا ساكن، فإن رفعت في الصّدر حركت ويسمّى همزة وإن وقعت في غير الصّدر فبقيت على حالها غير متحرّكة وتسمّى ساكنة فهما متّحدان بالذّات. لا يقال هي مزيدة للتّنبيه وللدّلالة على انقطاع الكلام أو إشارةً إلى كل ما هي منها فاقتصرت عليها اقتصار الشاعر في قوله:

فقلت لها قفي فقالت قاف

وكما روي عن ابن عبّاس أنّه قال: "الألف آلاء الله واللّام من جبرائيل والميم من محمّد" أي القرآن منزّل من الله بلسان جبرائيل على محمّد، فهي للدّلالة وإن لم تكن عربيّة لكنّها لإشهادها بين النّاس حتى العرب تلحق بالمعرّبات كالمشكاة والسّجيل والقسطاس، أو دلالة على الحروف المبسوطة مقسمًا بها لشرفها من حيث إنّها بسائط أسماء الله ومادّة خطابه، وإنّ القول بأنّها

أسماء الشّهور يخرجها إلى ما ليس في لغة العرب لأنّ التّسمية ثلاثة أسماء فصاعدًا مستكرهٌ عندهم جدًّا أو يؤدّي إلى اتّحاد الاسم والمسمّى ويستدعي بآخر الجزء عن الكلّ من حيث إنّ الاسم يتأخّر عن المسمّى بالرّتبة لأنّا نقول هذه الألفاظ لم تعهد للتّنبيه والدّلالة على الانقطاع والاستئناف لا يقتضي ذلك أن لا يكون لها معنى في غيرها ولم يستعمل للاختصار من كلمات معيّنة في لغتهم، أمّا الشّعر فشاذّ وأمّا قول ابن عبّاس فتنبيهٌ على أنّ هذه الحروف منبع الأسماء ومباني الخطاب ومثال لما في الكتاب، وتمثّل بأمثلة حسنة وجعلها مقسمًا بها وإن كان غير ممتنع لكنّه يخرج إلى إضمار أشياء لا دليل لها. والتّسمية بثلاثة أسماء أنّما يمتنع إن ركّبت وجعلت اسمًا واحدًا على طريق بعلبك، أمّا إذا ابتدأت ورخّم وجعلت اسمًا واحدًا فلا، وناهيك بتسوية سيبويه بين التّسمية بالجملة والبيت من الشعر وطائفة من أسماء المعجّم.

والمسمّى وهو مجموع السّور والاسم جرّدها فلا اتّحاد وهو مقدّم من حيث ذاته وجزئه باعتبار كونه اسمًا ثم جعل الاسم ينطق بحرف واحد إلى ثمانية وعشرين حرفًا فجعلها مدار الكلام والكتب والأصوات واللّغات والعبارات كلّها إلى يوم القيامة ونزّلها عن كمال يرفعها وتمام استعلائها وجمعها كلّها في أبجد هوّز وجعل الألف لتواضعها وانخفاضها وانكسارها وظهورها وتعيّنها بصورة لها وسائر الحروف منقطعة ومفتاح أوّل أسمائه ومقدّمًا على الحروف كلّها.

ثمّ إنّ مسمّياتها لمّا كانت عنصر الكلام وبسائطه الّتي يركّب منها افتتحت السّور بطائفةٍ منها إيقاظًا لمن تحدى بالقرآن وتنبيهًا على أنّ المتلوّ عليهم كلام منظوم ممّا ينظمون منه كلامهم فلو كان من عند غير الله لما عجزوا عن آخرهم مع تظاهرهم وقوّة فصاحتهم ووفور تناصرهم عن الإتيان بما يدانيه.

وليكون أوّل ما يقرع الأسماء مستقلًّا بنوع من الإعجاز فإنّ النّطق بأسما الحروف مختصّ بمن خطّ ودرس، فأمّا من الأميّ الّذي لم يخالط أهل العلم والخطّ والكتابة فمستبعد مستغرب جدًّا خارق للعادة بارق للتحدّي من الأصل. وقد روعي في ذلك ما يعجز عنه الأديب الفائق الأريب النّحرير الحاذق في فنّه وصناعته وهو أنّه ورد في هذه الفواتح أربعة عشر اسمًا وهو أسماء الحروف كما

أنّ الظاهر أبدًا من أجزاء الفلك من المنازل القمريّة وهي ثمانية وعشرون أربعة عشر حرف من الحروف المتهجيّة منسوب إلى منزل من هذه المنازل ربّ ومربّ وملكوته وغيبته وجبروته. كما قيل الألف غيب يملك ولا يملك، الباء ظاهر بسبب وحكمة ترتيب والجيم جلال وجمال وجمع وإجمال الدّال دوام أمر واستقلال منه وخسر، أمّا لام وألف وهو في الأصل خطّان يتقاطعان إشارة إلى أربعة حالات على هذه الصّورة ويكون بأدائها أربعة حروف وقعت في كلام العرب وهي يآ وجيّم ورّ وجيّم وكاف وهذا لا يتصوّر إلا في من هو خالق الأرض والسّماء.

وأيضًا هذه الفواتح مشتملة على أنصاف أنواعها من المهموسة وهي ما يضعّف الاعتماد على مخرجها وهي عشرة يجمعها (حثّه شخص سكت) حقيقة نصفها الحاء والهاء والصّاد والسّين والكاف وكذا من الباقي المجهورة والشّديدة والرّخوة والمطبقة والمنخفضة والمستعلية وغير ذلك، فمن جعل هذه الفواتح اسمًا يكون كسائر الأعلام معربة بحسب انقضاء العوالم ومن لم يجعها اسمًا لم يكن لها محلّ من الإعراب كما لا محلّ للجمل المبتدأة والمفردات والأعداد، وأمّا الألف واللّام والميم فإشعارٌ بأنّها منطوية على ما عداها من الحروف فانطواء مخارجها على مخارجها.

واعلم أنّ هذه الفواتح مع أخواتها آلمص كهٓيعٓص طٓس طٓسم كلٌّ منها آية عند الكوفيين وحٓم عٓسق آيتان والبواقي ليس بآيات.

تأويل وإشارة

اِعلم أنّ الحروف قسمان: عليّ ودنيّ؛ فالعليّ أربعة عشر يجمعها قولك: (سر حصين كلا من قطع) والعليّ أيضًا قسمان: أعلى وهو (صانعك له) وما يقرب وهو (طريق سمح) فالمجموع (صانعك له طريق سمح) والدّني فيما عداه ب ج و ز ق ش ت ث خ ي ض ط غ في تصريف هذه الحروف العليّة تعلو في تمام سماء الأمور المطلوبة ولا يُعلى عليها وبها تعلو كلمات الله العليا.

مطلب الاسم الأعظم

واسم الله الأعظم إنّما يركّب منها كما روي عن رسول الله ﷺ كان يقول

في الشّدائد: «**يا حم يا ماجد يا كهيعص**»، عن علي كرّم الله وجهه: «اسم الله الأعظم الّم كهَيعَص حَمعَسق وما أشبه ذلك فمن أحسن كيف يصل الحروف بعضها إلى بعض لقد علم اسم الله الأعظم» ومراده فهذه الحروف المقطّعة الّتي جاءت في أوائل السّور قد انتظم من هذه ستّة وستون اسمًا بعدد قوى حروف الاسم الأعظم الجامع وهي الله وهو ضعف عدد الكلّ بل صورةً ومعنًى، فالألف منه إشارة إلى ذات الأحديّة من حيث إنَّها أوّل الأشياء في أزل الآزال أوّلًا في العلم متضمّنًا لظهور الصّفات السّبعة الذّاتيّة ولهذا قيل إن يقومها إنّما هي بثماني نقاط إن اعتبرت الصّورة الجمعيّة، إمّا في الصّفات فقط أو في الذّات والصّفات أو سبعة نظر إلى المادّة فقط ثم في العين أوّلًا في عالم الملكوت والأفعال والأرواح ثمّ في عالم الصّورة والأشباح ثمّ في عالم الشهّادة والملك صاحب المصباح كما ينطوي ظاهر الألف على الإشارة إليها لاشتمالها على المبدأ والوسط والمنتهى على الإجمال والتّفصيل والجمعيّة بينهما رعاية لبراعة الاستهلال.

واللّام الأولى إشارة إلى عالم الأمر والرّوح واللّام الثّانية إلى عالم الصّورة والملك الّتي اندرجت وأدغمت الأولى في الثّانية اندراج الرّوح في البدن واندراج الطبيعة في القطر والصّورة النوعيّة في المعدن والهاء إلى عالم النّاسوت أعني المرتبة الجامعة بينهما فحقيقة الألف هي امتداد النّفس الرّحمانيّة مبتدأ من النّقطة الأحديّة والوحدة الذّاتيّة مارًّا على مراتب الكائنات ومخارج الحروف البسيطة العاليات ومدارج هيئات صور الكلمات من الجوهريّات والعرضيّات منتهيات إلى نهاية العنصريّات وغاية المركّبات فعلى هذا ليس لهيئات الممكنات وصورة الكليّات هيولى حقيقيّة إلا الألف هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن وأشار إليه بعض المحقّقين أنّ معنى (الّم) أنا لي مبنًى وهو معنى واجب الوجود **فالألف** معناه أفرد لي سرّك انفراد الألف عن سائر الحروف **واللّام** ليّن جوارحك لعبادتي **والميم** قم معنى بحقّ رسومك وبحقّ صفاتك أريتك لك بصفات الأنس لي والقرب منّي ودم بي بفنائك فيّ وبقائك لي، (يا عبدي أطعني أجعلك مثلي وليس لي مثل) الحديث.

فالألف إشارة إلى مرتبة الذّات والصّفات الذّاتيّة واللّام إلى الأفعال والميم

إلى الآثار، قال صاحب العرائس إنّ الألف إشارة إلى الوحدانيّة الذّاتيّة والصّفات واللّام إلى أزليّة الصّفات والميم إلى أبديّة الملك في إظهار الآيات، فبالألف أخبر عن فرداريّة الذّات وباللّام عن سرمديّة الصّفات وبالميم عن سلطانيّة في إبراز الآيات، فالألف سرّ الذّات واللّام سرّ الصّفات والميم سرّ القدم في ظهور الآيات، أمّا سرّ الذّات فلا ينكشف إلا لواحدانيّ الذّات وسرّ الصّفات لا ينكشف إلا لمن اتّحدت صفاته بالصّفات الإلهية وسرّ القدم لا ينكشف إلا لمن خرج من الآيات فتجلّى بالألف لأرواح الأنبياء من سرّ ذاته فإفنائها عن البشريّة وكسائها من أنوار الذّات فخصائصهم في ذلك إظهار المعجزات، وتجلّى باللّام لقلوب العارفين عن سرّ صفاته فإفنائها عن الكدرات وإلباسها من الصّفات فكرامتهم في ذلك إظهار السّطحيات، وتجلّى بالميم لنفوس الأولياء من سرّ أقدميّته بإفنائها عن الشّهوات ونوّرها بصفاء القدرة بوسائط الآيات فشرّفهم في ذلك بإظهار الكرامات.

قال جعفر الصّادق رضي الله عنه: «الٓم رمز وإشارة بينه وبين حبيبه أراد أن لا يطّلع عليه سواهما أخرجه بحروف فبعّده عن درك الأغيار هذا السرّ بينهما لا غير».

واعلم أنّه ليس للمركّبات ولا لصور الكلمات العاليات والسّافلات ماهيّات وحقائق سوى الألف وهويّتها فلهذا صارت الحقائق مجعولة والماهيّات لا مجعولة كما قيل: «الألف غيب لا يدرك ومحيط تملك ولا يملك» إلا أنّ للحروف خصائص تميّزها عن بعض تميّز الحقائق بعضها عن بعض بخواصها البسيطة والصّفات المفردة وهي كونها عالية ودنيّة ونورانيّة وظلمانيّة وهذه الخصائص تسري في البسيطة والمركّبة منها فواتح السّور وهي الحروف العالية النورانيّة والأسماء المركبّة منها ستةٌ وستون اسمًا بعدد قوى حروف الاسم الأعظم وهي الله: «الله لا إله إلا هو الرّحمن الرّحيم، الملك، السلام، الظاهر، المظهر، المؤمن، المهيمن، القهّار، البصير، السّميع، العليم، الحكيم، المحيط، المحصي، الحيّ، العالم، الحكم، مالك الملك، أحكم الحاكمين، المقسط، المانع، الحقّ، العليّ، المحيي، الكريم، العليّ، العلّام،

المعلّم، الحنّان، المنّان، السّلطان، المحسن، المنعم، المكرّم، المعظّم، المصلح، الملهم، العاصم، المانح، المسلِّم، المعين، المصلّي، القابل، السّريع، الأمان، المرسل، المعسر، النّصير، الآمر النّاهي» انتهى.

فمن وضع هذه الأسماء في مربع منتصف الشّهر وبين الشّمس والقمر أربعة عشر منزلًا لا يسأل الله شيئًا إلا أعطاه، ومن وضع الحروف الدّنيّة في مربع أربع عشرة والقمر في محاقه أو كسوفه لدفع الأعداء ظفر به.

قال سهل التّستري قدس الله سره في خواصّ الحروف النّورانيّة وهي التي أقسم الله بها في أوائل السّور «في بواطن هذه الحروف حروف ظلمانيّة وهي أربعة عشر كما أن منازل القمر أربعة منها ظاهرة وأربعة منها باطنة»، ولهذا قال بعض العلماء: «الحروف النّورانيّة جامعة لجميع أسماء الله التّسعة والتّسعين ومن نقش هذه الحروف بهذه الصورة وألحق إليها اسم الله تعالى وجعلها معه قضيت جميع حوائجه ويكون معزّزًا مكرّمًا بين النّاس وما وقع عليه بصر أحدٍ إلا أحبّه».

وكذا من نقش الحروف المتحابّة المذكورة في كتاب الله تعالى على الترتيب الإلهي وهي الٓم الٓمص كٓهيٓعٓص طٓسٓم حٓم قٓ مع ا لٓ ل ه في خاتم فضّة تطالع النّور والقمر فيه وصاحبه مسعود بعيد عن التأثر وإذا رأى المنحوس قضيت جميع حوائجه.

ومن كتب الحروف المتوافقة للمقابلة والمخاصمة وللدّخول على الملوك على لوح فضّة أو خاتم منها أو قرطاس نظيف أجلب المحبّة الثابتة وظفر على الخصم إذا حملها معه وقرأها بعدد الحروف ولا بدّ أن تكون الكتابة في أوّل ساعة الشّمس يوم الأحد مع اعتقاد صادق خالص عن شوب ظلمات الوهم والخيال. قال عليه السّلام: «**أدعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة**». وقال أيضًا: «**اعلموا أنّ الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل**» فرجعت إلى عيان الكرم في هذا المقام إلى أصل المرام.

واعلم أنّ ذا اسم إشارة واللّام والكاف خطاب يشار به إلى الغائب البعيد إما باعتبار أنّ الٓم كما عرفت لانطوائه بحسب المخارج اللّفظيّة والمدارج الحرفيّة

في التّنزّلات والتّرقيات والعروجات على جميع الحروف قد تضمّن الكتاب تضمينًا مندرجًا وهو التباعد أو باعتبار جعله اسمًا للسّورة أو القرآن فإشارة إلى الكتاب المرتّب والخطاب المركّب من هذه الحروف فباعتبار التكلّم والتقضي والوصول إلى المرسل إليه من المرسل صار بعيدًا. وأمّا بذكره في الأوّل أن جعل الكتاب خبره فباعتبار المعنى والمسمّى أي مسمّى الٓم ذلك الكتاب وإن جعل صفة بالنّظر إلى كونه إشارة إلى الكتاب صريحًا.

واسم الإشارة مشار به إلى الجنس الواقع صفة له كاشفًا عنه يقول: هو ذلك الإنسان أو ذلك الشخص فعل كذا أو باعتبار الكتاب المعهود إنزاله على الرّسول الموعود للرّسالة إمّا في الكتب المتقدّمة أو في هذا الكتاب ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [المزّمل: 5] فالجزع هو المجموع أي الٓم هو ذلك الكتاب المعهود الكامل باعتبار الأوّل الٓم مبتدأ وذلك مبتدأ ثان والكتاب خبره وهو مع خبره خبر المبتدأ الأوّل فالمعنى الذي ضمن ذكره هذا الكتاب بل الكتب السّالفة هي هذا الكتاب أو الذي قام بذات الله والكتاب الموعود إنزاله أو المرسل إليه هو هذا الكتاب الكامل لا غير.

إشارة وتأويل

الٓم أي بحقّ ألف الأحدية الذّاتيّة ولام جبريل وميم محمّد أو بحقّ ألف أدوار فرداريّة النّور والوجود ولام كمال فرداريّة وألف أحدية الجمال ولام تفصيل أسرار الجلال وميم جمعيّتها أو بحقّ ألف أدوار فرداريّة النّور والوجود وكمال فرداريّة أكوار الظلّ والعدم وميم مرتبة معيّة الأدوار والأكوار وجمعيّة تمام الأطوار بحق ألف امتداد الرّحمانيّة النّفس الّتي هي مادّة الامتدادات الثلاثة في المراتب الثلاثة وهي الطّوليّ والعرضيّ والعمقيّ في مراتب ألف القلم إلا على العقول في عالم الجبروت ولام الملكوت الّتي هي قلب المراتب ووسطها وميم الملك والجسم وبحقّ ألف أوّل الكون الإلهيّ الّذي هو القلم الأعلى الّذي انشقّ إلى إجمال الجلال ومفصل النّور والجمال وهو قاف القلم ولامه وميمه، أو بحقّ ألف الألف ولامه وميمه وهو في (ذي) وهما ميم وهي محبوبة على تمام مراتب الحروف العاليات والمتوسّط والسّافلات وغير ذلك من الإشارات والرّموزات.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: 2] لا شكّ لأحد من أرباب العقول الصّافيات الصّريحة الذكيّة والنّفوس الوفيّة الزكيّة الصّحيحة والقلوب الفاقهة الوافية للعهود الأوليّة والعقول الأزليّة ﴿فِيهِ﴾ أي في الكتاب هذا أو في الّذي جرى في سابق علمي وأنزلته إليك في الفطرة الأولى في النّشأة العليا وسوف أنزله عليك في النّشأة العليا. قال أبو عثمان في ذلك الكتاب الّذي خاطبت به في الأزل خواصّ أوليائي وعموم أحبّائي أمرتهم فيه ونهيتهم فمنهم من تقرّب إلى فهم معناه ومنهم من تقرّب بالإخلاص فيه ومنهم من تقرّب إلى تعبيراته فلكلّ أحد من عبادي منه حظّ عامّ وحظّ خاصّ تامّ ولهذا أبقى الرّتب على وجه يستفهم الاستغراق. إمّا بالنّظر إلى الواقع ونفس الأمر أو بالنّظر إلى طريق المعهودين بأنّ الله تعالى خاطب الأعيان وحقائق الأرواح ولطائف الأشباح في موطن ألستُ بربّكم وعلّمهم بالقرآن لقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرّحمٰن: 1 - 4] فمن بقي فيه أثر ذلك الخطاب لا يكون فيه ريب أصلًا ومن طوى عقله بسبب التصرّف في هذا المقام لم يعرض له الشّك إلا أنّه لو تأمّل فيه حقّ التأمّل لعلّه يتذكّر منه ويرتدع عن الارتياب فيه. وأمّا من استحكمت فيه تلك الغفلة إلى أن بلغ مرتبة الرّيب فهم خارجون عن حيّز الخطاب لدخولهم في زمرة أولئك كالأنعام بل هم أضلّ ولهذا قيل معناه لا ريب فيه للمتّقين الّذين خصّصهم الله بالعناية العامّة والهداية التّامّة يدلّ عليه ما عقبه.

والرّيب في الأصل مصدر من راب يريب إذا قلق واضطرب وإنّما سمّي به لأنّه يزيل الطمأنينة ويمثّل صاحبه إلى التّردّدات الشّيطانيّة فالشّك ريبة تضيّق الصّدر وتعلّق النّفس في بداية الأحوال وتورّث في الخلد الحذر والصّدق والحقّ، والطّمأنينة تفسح الصّدر وتشرحه قال النّبيّ ﷺ: «**دع ما يريبك**» الحديث ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: 125].

ومنه ريب الزّمان أي نوائبه ولا نظير أن يعمل عند سيبويه عملها إلا أن يعد

(لا) غير منوي بخلاف (إن) فإنه قد يكون منويًّا وهذا العمل للمشابهة في التحقق فإن (إن) للتحقيق والإثبات و(لا) لتحقيق النفي ويجوز أن يكون معنى (إن) إنشاء أي: لا يرتابوا كقوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ [البَقَـرَة: 197] أي لا ترفثوا وهو تأكيد لذلك الكتاب أي إشعار بوقوع كثرة الارتياب وإخراجه على خلاف مقتضى الظاهر إشارة إلى كثرة دلائل نفي الرّيب ولذا نزّل المنكر منزلة غير المنكر على أنّه نفي محلّ الارتياب.

وريب في المشهور مبنيّ لتضمّنه معنى من كأنّه قيل هل فيه من ريب تأكيدًا للنّفي ولم يقدّم كما قدّم في قوله تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ [الصَّافات: 47] إذ نفي الرّيب أهمّ لا تخصيص نفي الرّيب حتّى يلزم ثبوت الرّيب في غيره من الكتب الإلهيّة. وفي قراءة أبي الشّعثاء مرفوع لكونه بمعنى ليس وفيه خبره أو صفته وللمتقين خبره.

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البَقَـرَة: 2] أي هاديًا إلى الحقّ وناديًا إلى طريق مستقيم يوصل الخلق إلى معرفة الحقّ وهو في الأصل مصدر كما يسري. والتّقى بمعنى البيان والدّلالة قوبل به الضّلال ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [البَقَـرَة: 198] لعلى هدى أو في ضلال.

وقيل هي الدّلالة الموصلة إلى البُغية أو وجدان ما يوصل إلى المطلوب وهذان التّعبيران يناسبان التّخصيص دون الأول لعمومه المتّقين أو غيرهم فالمناسب حَ للنّاس إذ المراد بهم مَنْ مِنْ شأنه الاتقاء فالمتقي من صان سرّه عمّا يصيره آجلًا وعاجلًا.

قال ابن الأنباري معناه هدًى للمتّقين والكافرين فاكتفى بأحد الفريقين عن الآخر كقوله تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النّحل: 81] أي الحرّ والبرد إلا أنّ الانتفاع به لكونه مختصًّا بهم خصّهم بالذّكر فالاهتداء والهداية في حقّهم إنّما هو التثبّت وازدياد مراتب اقتباس أنوار الهدى واقتياض أنهار النّهي واستدامة آثار التّقى لأنّهم لمّا صقلوا مرايا عيون القلوب ووسّعوا دوائر حيّات العقول وسرّ الغيوب وتدبّروا في الآيات وتفكّروا في ملكوت الكائنات وجبروت الموجودات واستبعدوا عن عوارض أمراض الضّلالات وغوامض أغراض الجهات واستعدوا

لقبول تواتر فيضان أنوار الكتاب وثوران أسرار الخطاب فصار في حقه حافظًا للصّحة ورافعًا للسّعال والبحة وجالبًا للمنفعة وجاذبًا لمزيد الرّحمة ومزيلًا للأسقام ومميلًا لشقّة إيلام آلآم الأيّام وفي حقّ غيرهم بالعكس ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسـراء: 82] وكون ما فيه من الإجمال والتّشابه ممّا لم يعلمه إلا الله لا يقدح في كونه هدى لما لم ينفكّ عن تبيين المراد وتعيّن الفساد.

والاتّقاء في الأصل الحجر بين الشّيئين من قوله اتّقاه بترسه إذا جعل التّرس حاجز بينه وبين غيره.

ومنه التّقية في الدّين أي جعل ما يظهره حاجزًا بينه وبين ما يخشاه من المكروه ومنه حديث: «**كنّا إذا احمرّ النّاس اتّقينا برسول الله ﷺ**»، فالمتّقي هو الّذي يتحرز وتحجّز بطاعته عن العقوبة قال عليه السّلام: "**جماع التّقوى**" في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النّحل: 90].

وهو مأخوذ من وقى يقي وقاية وهي فرط الصّيانة ووفور الحفظ والرعاية وبروز الصّيانة فالتّقوى أصله. وقوى جعل الواو تاء كما جعل في التكلان واليجة أصلهما وكلان ووجمة من وجم الطعام إذا لم يستمرّ أو لم ينهضم.

وهو كلّي له لوازم كثيرة ولهذا اختلف العلماء في تفسيره والكلّ راجع إلى معنى أصليّ وهو أنّه اسم لما يصون به نفسه عمّا يضرّها في المبدأ والمعاد وله ثلاث مراتب:

الأولى: وهو التوقّي عن العذاب المخلّد بالتبرّي عن الشّرك المقلّد وألزمهم كلمة التّقوى.

والثانية: التّجافي عن كلّ ما يأثم من فعل أو ترك وقول وخلق غير مرضيّ حتّى الصّغائر عند قوم ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟﴾ [الأعراف: 96].

والثالثة: التنزّه عمّا يشغل سرّه عن الحقّ وإن بما يستصعد إليه بشرٍّ استشرّه لذّته بحذاريفه وحذافره وهو التّقوى الحقيقيّ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عِمرَان: 102].

فنقول الّم مبتدأ على أنّه اسم القرآن أو السّورة وقد يفسّر المؤلّف منها ذلك الكتاب خبره، قيل لا يجوز لأنّ المؤلّف أعمّ لا يحمل عليه الظّرف أو مفعولًا ومرفوعًا، إمّا مبتدأ قدّم خبره ولذلك يوقف على لا ريب أو خبر مبتدأ محذوف وهو هو والأولى أن يقال إنّها أربع جمل متسابقة تقرّر السّابقة منها اللّاحقة ولذلك لم تخلل العاطفة بينها.

فألّم جملة محذوفة الصّدر أو العجز دلّت على أنّ المتحدَّى به هو المؤلّف من جنس الحروف الّتي يتركّبون منه كلامهم وذلك الكتاب جملة ثانية مقرّرة لجهة التّحدي بأنّه الكتاب المنعوت بغاية الكمال ثم سجّل على كماله بنفي الرّيب منه وهي الثّالثة ثمّ أكّد كونه حقًّا لا يحوم الشكّ حومه ولا يقوم الفكّ والدّك رومه بقوله هدًى للمتّقين ويستتبع كلّ واحدة ما يليها استتباع الدّليل المدلول، بيانه أنّه لمّا نبّه أوّلًا على الإعجاز المتحدّى به من حيث إنّه من جنس كلامهم قد عجز عن معارضتهم استنتج أنّه من الكتاب بأنّ البالغ حدّ الكمال هو لا غيره واستلزم ذلك أن لا يتشبّث الرّيب بأطرافه ولا يتلبّث النقض والعيب بأوصافه وما كان كذلك فهو لا محالة هدى للكلّ؛ للمتّقين حقيقة التّقوى وقاية الحقّ عبده وعصمته عن كلّ ما لا لياقة له عنده بمنع الوصول إلى الأحدية الجمعيّة لحصول العدالة والوحدة الحقيقية أو الإضافية وذلك لا يتأتى إلا بالهداية ولذلك قدّمها على المتّقين فالهداية تستتبع التّقوى استتباع العلّة للمعلول والدّليل للمدلول والعدالة لِلعادل والمعدول.

والتّقوى بالمجاز هو صيانة العبد النّفس ووقايتها عن طرفي حدّ الاعتدال والإفراط والتّفريط كالعفّة والشّجاعة والحكمة والعدالة وتتنوّع التّقوى بتنوّع الهداية والعدالة ومن هذا قال النّبيّ ﷺ: «**جماعة التّقوى**» في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النّحل: 90] الآية.

والأصل الجامع للتّقوى هو أن تتّقي بقلبك عن الغفلات وبنفسك عن الشّهوات وبخُلُقِك عن الكذب وبجوارحك عن الشّبهات وبسرّك عن صور الأعيان من كلّ الممكنات وبروحك عن إسناد الأفاعيل إلى الكثرات وبصراحة عقلك عن إضافة الأسماء والصّفات إلى العلل والمعلولات وبغيب غيبك عن

نسبة الوجود إلى ما سواه من الموجودات والمعدومات وبكلّ جمعيتك عن مقتضيات خصوصيّات هذه المذكورات إذ مشاهدة خصوصيّة كلّ من هذه الأطوار تمنع التّحقق بالجمعيّة وبجمعيّة الجمعيّة الّتي هي الغاية القصوى من خلق الكثرات وتكوين الأرض والسموات فيتمّ حقيقة التّقوى في الأدوار المفردة والحقيقية الجمعيّة وجمعيّة الجمعيّة في الأكوار والأدوار الإفراديّة والجمعيّة وجمعيّة الجمعيّة إمّا بالتّحقيق أو التّخليق أو التّيقّن بمعانيها والعمل بمقتضى فحواها في تمام الدّورات وعموم الكورات بجميع أطوار الشّهود والمشاهدات قال الثّوريّ: "هو الّذي تحبّ للنّاس ما تحبّ لنفسك" قال الجنيد: "بل تحبّ للنّاس أكثر ممّا تحبّ لنفسك" قال أبو يزيد: "وإذا قال قال لله وإذ سكت سكت لله وإذا ذكر ذكر لله" قال بعض الحكماء: "لا يبلغ الرّجل سنام التّقى إلا إذا كان بحيث لو جعل ما في قلبه في طاق في السّوق لم يستحي من شي عليه"؟

﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾

﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البَقَرَة: 3] أي يدعون ويصدّقون في حالة الغيبة إمّا صفة المتّقين أو مبتدأ خبره ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى﴾ [البَقَرَة: 5] حقيقة الإيمان هي التّصديق بالقلب وليس له معنى سواه لا في اللّغة ولا في العرف والشّرع إذ لو كان لاشتهر النّقل كما في الصّلاة والإسلام والزّكاة والحجّ فأصل الإيمان هو الإذعان وقبول القلب وما ورد في الحديث في جواب جبريل عليه السّلام: «**أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن يؤمن بالقدر خيره وشرّه من الله تعالى**» فبيان وتفصيل للمؤمن به فمطلق التّصديق ليس بإيمان بل ما يتعلّق بأمور مخصوصة هذه فمن أنكر البعض فهو مؤمن في الجملة. مأخوذ من الأمن فكأنه أمن المصدّق من التّكذيب والمخالفة وما يلزمه من العذاب والتّعذيب وتعديه بالباء لتضمّنه معنى الإقرار والاعتراف.

فالإيمان قسمان إجماليّ وتفصيليّ والتّفصيلي أكمل وأنفع وأفضل وإن كان الإجماليّ لا يحطّ عن درجة التّفصيليّ حقيقة، وأمّا الإقرار باللّسان فهو من الإسلام كما أجاب الرّسول عليه السّلام في سؤاله ثانيًا بأنّ «**الإسلام شهادة أن**

لا إله إلا الله وأنّ محمّدًا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحجّ البيت إن استطعت إليه سبيلا» فصدّقه جبريل فيها، فمحلّ الإسلام من الإيمان محلّ الضوء من الشّمس فكلّ شمسٍ ضوءٌ دون العكس إذ الإسلام هو الخضوع والانقياد في الظّاهر ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحُجرَات: 14] استسلمنا من خوف السّيف ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: 22]، ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: 41]، ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النّحل: 106] قال النبيّ ﷺ: «**الإيمان سرٌّ وإسرار في الصّدور**» والإسلام علامة هل شققت قلبه إلا أنّ الإقرار باللّسان وأعمال الأبدان وأفعال الجوارح والأركان لما كان من شعشعة نور الإيمان ولوامعه سمّي إيمانًا بوجه من المناسبة قال عليه السّلام: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة أدناها إماطة الأذى عن الطّريق وأعلاها لا إله إلا الله**» وقال أيضًا: «**الحياء شعبة من الإيمان**»، عن عليّ ابن أبي طالب كرّم الله وجهه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الإيمان معرفةٌ بالقلب وإقرارٌ باللّسان وعملٌ بالأركان**» وروى أيضًا: «**الإيمان قولٌ مقول وعملٌ معمول وعرفانٌ بالعقول واتباعٌ بالرّسول**» والكلّ من ثمرات صفة الإيمان الكامل ومكملاتها لأنّها من أجزائه فالموصول إمّا مفصول أو موصول بالمتّقين صفة مقيّدة إن فسّر التّقوى بترك ما ينبغي مرتّبةً عليه ترتّب التّخلية على التّحلية والتّصوير على التّفضيل أو كاشفة إن فسّر التّقوى بما يعمّ فعل الحسنات وترك السّيئات لانطوائه على ما هو أصل الأعمال ومبناها وأساس الحسنات ومعناها من الإيمان والصّلوات والصّدقات وهي عماد الدّين ومعاد جلّ الأعمال النّفسانيّة والأفعال البدنيّة والمستتبعة لسائر الطّاعات والتّجنّب عن المعاصي والسّيئات غالبًا ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العَنكبوت: 45] والبغي، وأمّا إذا كان مفصولًا عنه فمرفوعٌ بالابتداء خبره ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البَقَرَة: 5] فتعيّن الوقف على المتّقين أو خبر محذوف المبتدأ أي هم الّذين يؤمنون.

فللإيمان أركان وكذا للإسلام فمن أخلّ بركن من أركانها فإن كان الأوّل وهو كلمة الشّهادة والإيمان بالله ومعرفته فبالاتّفاق أنّه كافر عند الحقّ والخلق إن كان باختيار وإلا فهو معذور كما في حديث أبي ذرّ الغفاريّ وأمّا إخلال باقي

الأركان فإن كان من الإيمان فيكفر أيضًا وإن كان من الإسلام. فمن قال الإيمان مجموع التّصديق والإقرار والأعمال الظّاهرة كالمحدثيّة والخوارج فنقول إنّه كافر، وأمّا الشّافعيّ وإن قال به إلا أنّه قال إنّه الإيمان الكامل فمن تحقّق بالأوّل أي التّصديق القلبيّ فهو مؤمن عند الخلق والحقّ والمخلّ بالأوّل دون الثّاني فمنافق عند الكلّ، ومن أخلّ بالثّالث دون الأوّلين فهو عاصٍ عند المحقّقين كافر دون غيرهم، ومن أقام الكلّ إلا أنّه ارتكب الكبائر فهو فاسق عند أهل الحقّ لا كافر ولا مؤمن عند الباقين، فإن قيل قد ينتفي كما في النّوم والغفلة والإغماء قلت التّصديق وهو قبول القلب وإذعانه باقٍ في الصّدور بتجدّد الأمثال كالنقش في الحجر، والذّهول إنّما هو عن الفناء والهيول لا عنه كما أنّ النّفس حاضرةٌ عند ذاتها لذاتها وهي ذاهلةٌ عن هذا الحضور ولو سلم فالشّارع جعل الحقّ الّذي لم يطرأ عليه ما يضادّه في حكم الباقي حتّى كان المؤمن اسمًا لمن آمن في الحال أو في الماضي ولم يطرأ عليه ما هو علامة التّكذيب ثم اختلف في أنّ مجرّد التّصديق هل هو كافٍ ـ لأنّه المقصود بالذّات ـ أم لا بدّ من اقتران الإقرار المتمكّن منه؟ ولعلّ الحقّ هو الثّاني لأنّ ذمّ المعاند أكبر ممّا ذمّ الجاهل المقصّر فإن قيل يجوز أن يكون مريدًا بالذّات لإنكاره لا لعدم إقراره قلت كون الإنكار مذمومًا لاستلزامه عدم الإقرار بل هو عدم الإقرار والإلزام الواسطة.

[الغيب]

الغيب مصدر بمعنى الغائب أي الأمر الغائب عن الحسّ وهو المؤمن به أو فعلٌ خفّف كالسّيف والميّت والمراد هو الخفيّ الّذي لا يدركه الحس ولا تقتضيه بديهيّة العقل وهو قسمان: قسم لا دليل عليه ولا يمكن أن يبرهن ويستدلّ لديه ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: 59] وهو الّذي استأثره الله تعالى لنفسه، وقسم ينصب عليه دليل كالصّانع وصفاته واليوم الآخر وأحواله وهو بتوفيقه وإعلامه وتحقيقه هذا إن جعلته صلة الإيمان وواقعته موقع المفعول به وإن جعلته حالًا على تقدير متلبّسين بالغيب أو الغائبين عن المؤمن به أو عنكم لا كالمنافقين ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة: 14].

قيل المراد بالغيب القلب لأنّه مخفيّ عن العيون أي يؤمنون بالغيب لا كمن يقول باللّسان ما ليس بالقلب فالباء على الأوّل للتعدية وعلى الثّاني للمصاحبة وعلى الثّالث للاستعانة قال رسول الله ﷺ: «**قومٌ يأتون من بعدي هم في أصلاب الرّجال فيؤمنون بي ولا يروني ويجدون الورق المعلّق فيعملون بما فيه فهؤلاء أفضل أهل الإيمان إيمانًا**».

قال صاحب العرائس: القلب غيبٌ فالرّيب غيبٌ فاطّلع الغيب على الغيب فآمن الغيب بالغيب فوجد من الله كرامتين الصّلاة والمال؛ فالصّلاة زاد المصلّي إلى معبوده وزاد العقل الصّريح إلى سابق معهوده وساد الشّاهد بالسّابق إلى أوّل مشهوده، والمال هو العلم الّذي يميل القلب به من الفاني إلى الباقي بل هو نفس الميل وعطفه من نفسه إلى ذاته ثمّ إلى سائر أحواله من أفعاله وصفاته ثمّ منها إلى ربّه ونعوت ذاته وأسرار غيبه إذ معرفة النّفس مطيّة معرفة حضرة القدس لقوله عليه السّلام: «**من عرف نفسه عرف ربّه**» حضورًا وشهودًا أو بطريق الفكر رسمًا وحدودًا.

أقول إنّ المتّقين الّذين اتّقوا نفوسهم وقلوبهم وسرّهم وأرواحهم ومبادئ هذه الأطوار وقواهم الظّاهرة والباطنة عمّا نسب إليها من الآثار والصّور والمعاني والأنوار وغابوا عن غيبهم وشهادتهم اتّصلوا بغيب الغيوب وهو غيب غيب ما يتبيّن عن هويّاتهم غائبين عن خصوصيّات ماهياتهم ثم صاروا باقين بغيب كلّ غيب فحينئذٍ تحقّقوا بمقتضى معنى قوله: «**كنتُ سمعه وبصرَه ويدَه ورجلَه ولسانَه فبي يسمع وبي يُبصر وبي يبطش وبي يمشي وبي ينطق**» فصاروا مؤمنين بالغيب بالشّهادة والغيب.

وأيضًا لمّا كانت حقيقة إيمانهم التامّ وجوهر تقاتهم العامّ الّذي نزل من بداية مقام المعرفة النّظريّة إلى نهاية النّشآت العنصريّة الّتي هي المرتبة البشرية إلى أن صارت نسبته إلى الذّات وجميع الأسماء والصّفات بالسويّة كان ح[1] إيمانهم بالغيب.

(1) حينئذٍ.

وأيضًا لما سمع غيب القلب كلامه تعالى وشهد أنوار جماله وأسرار جلاله في مقام أو أدنى فإذا سمع في هذه النّشأة تذكّر عن تلك الحالة وآمن بالغيب والشّهادة وهي الحقيقة الّتي كانوا يعلمون في تلك المرتبة في الدّورة العظمى والكورة الكبرى.

والصلاة هي في اللّغة الدّعاء وفي الشّرع الأركان المعلومة والأفعال المخصوصة أي يديمونها ويتمونها ويحافظون عليها بمواقيتها وأركانها وهيآتها، والإقامة هي المواظبة والمداومة يقال: أقام الحجّ وأقام القوم السّوق إذا استعملوها ولم يعطّلوها:

أقامت غزالة السّوق الضّرابَ لأهل العراقين حولًا قميطًا

والمعنى ههنا هي المكنونة، أو يعدلون أركانها ويحفظونها من غير أن يقع فيها زيغ ومثل في أفعالها من أقام العود إذا قوّمه وعدله. أو يشمّرون لأدائها من غير فتورٍ وكسالةٍ وقصورٍ وكهالةٍ من قولهم قام بالأمر وأقامه إذا جدّ فيه ويخلد وضدّه قعد عن الأمر وتقاعد.

ويؤدّونها عبّر عن الأداء بالإقامة تنبيهًا على أنّ الحقيق بالمصلّي أن يراعي حدودها الظّاهرة من الفرائض والسّنن وحقوقها الباطنة من الخشوع والانقياد والخضوع والتّوجه التّام إلى التّأمّل في معاني ما يقرأ وأن يكون حاضر القلب سيّما عند الحمد لله والخطاب إلى الله والاستعانة بالله لئلا يكون مشركًا بالله عابدًا لغير الله عامدًا إلى ما سوى الله لأنّ العاقل الساهي والذّاهل اللّاهي يكون من زمرة ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾ [الماعون: 4 - 5] وهي فعل من صلّى إذا دعا فتسميتها بها إمّا على سبيل التّغليب أو النّقل قال أبو حامد الخازنجي: اشتقاقها من الصّلا وهو النّار، وذلك أنّ الخشبة المعوجّة إذا أرادوا تقويمها سخّنوها بالنّار ثمّ قوّموها بين خشبتين، كذلك المجزي المصلّي المتسخّن بنار مودّة ربّه وبجمر نار نور عينيه ويقوّم نفسه ويسخّنها أو لإيثار الشوق فيجعلها محصورة بين صدر في الحدود الظّاهرة والحدود الباطنة ليكون مستقيم القلب حاضر الشهادة والغيب عند الربّ.

وإنّما كتبت الصلوة بالواو وكتبت الزكوة بها إشعارًا بأنّ حقّ المصلّي

ووظيفته أن يكون آخر صلاته كأوّلها في نفي الغير وسلب خطوره في السّير بالله والسّير يقوده إلى الله ويكون قلبه مستقيمًا بالله باستقامة ألف الواو في قلبه الظّاهر في قلب المقلّب بصورة الّلام لدى إيصاله بلام قلب الله وحقيقة جمعيّة آدم وحقيقة صلّى حرّك الصّلوين أي إلى الوركين إشارة إلى حقّ المصلّي أن يحرّك نفسه في السّير إلى الله ومن الله ويستقيم في السّير في الله وبالله ومع الله إذ المصلّي يفعل ذلك في ركوعه وسجوده وتشهّده.

واعلم أنّ الأحكام الشرعيّة الظّاهرة والأعلام الدّينيّة الباهرة لها منافع جليلة ومناجع جميلة عاجلًا أو آجلًا خصوصًا العبادات سيّما الصلاة فإنّ من أدّاها في وقتها ورعى شرائطها ووعى آدابها وشرائعها وصبر على أدائها فقد أخذ العهد من الله أن يكون في كنف الله تعالى وعصمته ومن أدام الصلاة فكأنّما أقام العبادات وأركان الدّين كلّها تجنّب عن المعاصي بجملتها ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾ [العنكبوت: 45] قال النبيّ ﷺ: «**الصّلاة عماد الدّين وأنّها كفّارة للذّنوب وماحية الخطايا وساترة العيوب**»، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «**سمعت رسول الله ﷺ يقول: أرأيتم لو أنّ نهرًا بباب أحدكم يغتسل منه كلّ يوم خمسًا ما تقولوا في ذلك هل يبقى من درنه؟ قالوا: لا يبقى من درنه، قال فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا ومن أقامها بأركانها وحدودها فقد اعتصم بحبل الله واستعان به ويتحصّن به في دفع نكائب الزّمان ونوائب الحدثان**» ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة: 45] ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: 46] قال عليه السّلام: «**حصّنوا أموالكم بالزّكاة وداووا أمراضكم بالصلاة وداووا مرضاكم بالصّدقة واستقبلوا البلاء بالدّعاء**» وقال أيضًا: «**الصّدقة في السر تطفئ غضب الربّ ومن سرّه أن يلقى الله تعالى آمنًا فليحافظ على الصلوات الخمس**»، وهي معيار جميع العبادات قال: «**أوّل ما يحاسب العبد يوم القيامة بصلاته فإن فلحت فقد أفلح وإن فسدت فقد خاب وخسر**».

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: 3] أقول قال النّبيّ ﷺ: «**الصلاة معراج المؤمن**» المصلّي يناجي ربّه فمن أراد الرّجوع إلى أحديته الجمعيّة والعروج إلى وحدته

الأصليّة والنّعوت العدمية فليكمّل صلاته بتعديل أركانها وأدائها وتوسّط واقتصد في إطالتها وتقصيرها ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: 238] وتراعي شرائطها وترفع موانعها فإنّها كالإنسان لها جسد وروح ونفس وقلب ورأس ويد ورجل وظهر وفؤاد وصدر وغير ذلك ولكلّ منها خصائص جليلة وخصائص جميلة لا يتعاطاها إلا أهل الحضور بالله وأصحاب شرائع الله وفي الله فرأسها النيّة وعينها التّكبير وسمعها الإخلاص يسمع بها القبول والإخلاص وذوقها كمال التّوجه إلى الله وشمّها هو القرار عند الله يشتمّ بها طيب الرّوائح اللّطيفة والعناية لدى الشّهود والمعاينة ووجهها وجه المصلّي إلى الله وصورتها وجسدها الهيئات المخصوصة وروحها القرآن وقلبها هو معانيها ويدها هي الرّكوع والاعتدال وفخذها السّجود وساقها التّشهّد وقدمها السّلام وأصابعها التّفرّق والتّفريق فلا بدّ وأن ينطوي على عبادات جميع الموجودات انطواء الإنسان على أجزائها على تمام الكائنات فالقيام إشارة إلى عبادة الملائكة والرّكوع إلى عبادة السّموات والتّشهّد إلى عبادة العناصر والسّجود إلى عبادة الجمادات والنباتات ولذا تُكرّر وعلى هذا القياس فكلّ منها صلاة والمجموع صلوات ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ۝٢٣٨﴾ [البقرة: 238] ولهذا صارت أفضل الطّاعات وأكمل العبادات صائرة لدرجات جميع الجنّات جنّة الذّات وجنّة الصّفات وجنّة الأفعال وجنّة الآثار فشأن المصلّي الّذي يناجي ربّه أن يستحي على المطّلع على سرّه العالم ما في نفسه وصدره، فكن بحيث أراك لما أراد منك وإليك دعاك، فهي بحسب اختلاف طبقات أحوال الإنسان على ثلاثة أقسام:

عاميّة وخاصيّة وأخصيّة ولكلّ منها اقتضاء خاصّ وارتضاء ناصّ؛ فمقتضى العاميّة بقدر غاية شرائطها المخصوصة وغاية الأركان المنصوصة عاجلًا وهو صيانة النّفس عن السّيف وصيانة العرض والمال عن الميل والحيف، وآجلًا النّجاة عن درك الدّركات والقابليّة والاستعداد والعروج إلى درجات جنّات التّجليّات الصّوريّة فمن استكمل أركانها وما يجب لها وفيها فقد استكمل جسدها واستعدّ أن يستصعد إلى جنّة من الجنّات وهي جنّة الآثار ونعيم الأبرار، ومن

أخلّ بشيء من أركانها فكأنه نقص جسده ونقض عهده الّذي كان بينه وبين الله وانتفت المناسبة وانقطعت المجانسة بين المصلّي وبين تلك المرتبة السّنيّة والمرتبة العليّة الّتي كان البدن من جنسها وهي جنّة الآثار الّتي عرضها كعرض السّماء والأرض، فكان جاثيًا في قعر النّار مكبًّا جاثيًا في دار البوار جهنّم يصلّونها فبئس القرار فيكون نفعها محصورًا في حقّ المصلّي في الدّنيا دون العقبى، وأوّل درجة استكمالها بعد استجماع الشرائط بالتّوجه خالصًا إلى المعبود خاصًّا قصده بذلك المعهود هو أن يراه في عباداته ويعمد بأن يراه ويشاهده في مزايا طاعاته وإلا اعتقد أنّه يراه في كلّ ما يصدر عنه على مقتضى عاداته واعتمد أنّه قد اعتقد أنّه يرى كلّما يصدر عنه من الأفعال والأقوال والأحوال هذا هو مقام الإحسان، ولذا أردف السّؤال عن الإسلام بالسّؤال عن الإحسان حيث قال: «**ما الإحسان، قال: أن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك**».

واستكمال الإسلام وأركانه إنّما يكون بالإحسان قال عليه الصّلاة والسّلام: «**كتب الله الإحسان في كلّ شيء**» هذا هو مقام العلم اليقين في درجة العامّة.

وأمّا صلاة الخواصّ فهي أن يشاهد المعبود أولًا مطابقًا لما جرى في معاهدة العهود الأزليّة وموافقًا لما سرى في معاقد العقود الأوليّة في مقام ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ﴾ [الأعراف: 172].

قال آدم الأولياء علي المرتضى كرّم الله وجهه: "رأيته فعرفته ثم عبدتّه لم أعبد ربًّا لم أره" هذا هو مقام عين اليقين شاهدًا إيّاه في قيامه أوّلًا في المرتبة العلميّة وسلاسل العواجز الوجوديّة ومناظم تعيّنات الجواهر النّوريّة الغيبيّة عابدًا له في المراتب عبادة الجواهر العالية والأعيان القدسيّة طاعةً والأنوار المجرّدة القدسيّة حينئذٍ ثم عامدًا شهوده في المراتب السّافلة شهودًا ثابتًا ومحقّقًا ثابتًا قاصدًا إليه في ركوعه وسجوده قصد الجواهر الماديّة والأجساد العالية السّفليّة من السّموات والعناصر المركّبات وسط المركز.

وأمّا صلاة أخصّ الخواصّ فهي أن يفنى عند التّوجّه إليه في نظره جميع الكائنات وتمام الموجودات بغتةً ودفعةً واحدةً بل هويّته الخاصّة فلم ير حينئذٍ في

تمام المراتب إلا وجهه الكريم متجليًا هو على نفسه بنفسه تجليّات غير متناهية كلٌّ منها مرآة جليّة غير منقطعة فلا يشاهد ذاته إلا بذاته فيتّحد حينئذٍ العابد والمعبود والعبادة اتّحاد الشّاهد والمشهود والشّهادة فلا تغير إلا في أطوار الخلوات وأنواع التّجليّات بظهورات الشؤونات في نظره، وشهوده ذاته بذاته بتنوّعات التّجليات الذّاتيّة والصّفاتيّة والأفعاليّة والآثاريّة في مرايا الحقائق الإلهيّة والماهيّات الكونيّة.

وهذه التّجليّات هي أصل الإيمان وحقيقة اليقين وكمال العرفان ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحِجر: 99] وهذه العبوديّة الذّاتيّة وهي الرّبوبيّة الأصليّة إنّما هي حقيقة كل تعبّد وعبادة وماهيّة كلّ عقيدة وآراء قال الصّادق رضي الله عنه: "العبوديّة هي جوهرة كنهها الرّبوبيّة" فما فقد في العبوديّة أي من العابد من القوّة والنّعت الجزئيّ والكليّ الّذي اختفى في مدارك الإدراك وانتفى في مسالك الأسلاك وجد في الرّبوبيّة من المجازاة والمكافآت. ومن قتلته فأنا ديته ما وجد من الرّبوبيّة من أحكام القضاء والقدر كائنًا من كان أصبت في العبوديّة، أو موجود في عينيك وحضرتك قال الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [فُصّلَت: 53] وقد فسّر العبوديّة بأنّها بذل القوّة وصرف مبادئ القوّة بالكليّة أي بذل العبد كلّه في امتثال الأوامر والانتهاء عمّا منع وسبب ذلك منع النّفس عمّا تهوى وحملها على ما تكرهه ومفتاح ذلك ترك الرّاحة وحبّ العزلة كما يشعر به حروف العبد: العين علمه بالله والباء بونه وبعده عمّا سوى الله والدّال دنوّه بالله بلا كيف ولا حجاب.

فائدة علميّة

إنّ الله تعالى خلق الإنسان من ثلاثة أشياء: جوهران متباينان أحدهما ظاهر كثيف ظلمانيّ دنياويّ وهو البدن والثّاني باطن نورانيّ ولطيف ربّانيّ من جنس الآخرة وهو الرّوح الإلهيّ ﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحِجر: 29]، والثّالث هو الصّورة الجمعيّة منهما وهي الصّورة النّوعيّة الإنسانيّة ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: 14] ولكلّ منها صلاة وعبادة، أمّا صلاة الجزء الأوّل وهي الأركان المخصوصة والاستعطاة المنصوصة من النقاصة وهي اللّمعان والفكرة والميعان

واليرقان والأفعال المعلومة والهيئات المرسومة المنصوصة وهي من جنس الدّنيا ظاهرة ومحسوسة، يفيد علم اليقين بالمعبود وصلاة الجزاء الثّاني وهي المناجاة والمراعاة وهي باطنة تفيد عين اليقين الّذي كان في الأوّل حضوريًا شهوديًا، وأمّا صلاة الجزء الثّالث فهي المتاعة والملاطفة الكليّة والجمعيّة الأصليّة وهي شهود الذّات ذاته بذاته تصوّر جميع أسمائه وصفاته وتنهى عن الفحشاء الإنسيّة والمنكرات النّفسيّة والمنهيّات الجسميّة وهي في الحقيقة التّحقيق بحقيقة ما يقتضيها إسناد الأجزاء الثلاثة انفرادًا واجتماعًا على ما ترضيها الحقيقة والشّريعة والطّريقة فردًا أو جمعًا استقلالًا وتبعًا ويفضي إلى حقّ اليقين في حقيقة الأحوال بعد تحقّقه بحقيقة الأعمال وهيئة الأحوال والأفعال.

فائدة حكميّة في تحقيق الصلاة وأقسامها

لمّا خلق الحق الخلق وجعل الإنسان والحيوان بعد المعادن والنّبات والأركان بعد الأفلاك والنّفوس المجرّدة والأنوار القدسيّة الكاملة بذواتها وفرّع من الإبداع والخلق والاختراع وميّز كلّ واحدٍ من الأعيان المجرّدة والأكوان الماديّة بخصائص منصوصة ولوازم مخصوصة ظاهرًا وباطنًا صورةً ومعنًى؛ ففي الباطن والمعنى ميّز الإنسان بالعقل الخطوريّ والفكر الحضوريّ فيكون الابتداء بالعقل وهو حقيقة الإنسان أوّل ما خلق عقلي وروحي والجسم بالعاقل والتعلّق، ففائدة الخلق وغايته جوهرًا كان أو عرضًا إنّما هو الإنسان والشّهود والعرفان الكامل الحاصل من العبادة سيّما الصلاة فللحقّ في كلّ واحدة من هذه المبتدعات في كلّ آن نسبة وشأن وكذا الكلّ منها نسبة مخصوصة نظرًا إليه تعالى وإلى كلّ منّها وكلّ منّها يشتمل على حكم ومصالح، فالحكمة الإلهيّة والقدرة الرّبانيّة المشيئة الصّمدانيّة اقتضتا أن يكون في العبد ما يدلّ على هذه النّسب فبكمال جمعيته الجوهريّة والعرضيّة امتاز عن غيره من الجواهر النّوريّة والظلميّة ويقتضي التّحقيق بالحقائق وبين التّفوّق على الكلّ من الحقائق والدّقائق والشقائق في المراتب الثّلاثة المحقّقة أي الجبروت والملكوت والملك ويفضي إلى الاطّلاع عليها ويقتضي على الوصول بها وإلى شهود كيفيّة ارتباط كلّ منها إلى مبدئها وانتهائها وغايتها وهي الصّلاة الحقيقيّة والعبادة الحقيّة.

فاعلم أنّ العالم الأكبر هو الإنسان فكما أنّ الموجودات تترتّب في عالم الكون كذلك الإنسان يترتّب في عالم الشّوق والأفعال والأحوال والعروج إلى ما كان عليه وفي أزل الآزال عكس ترتّب الموجودات في النّزول كرتبة في تكوّنه وتركّبه في ما بعده فإنّه مركّب من المبادئ الأربعة والقوى المفرّعة أي الملكيّة والشّيطانيّة والسّبعيّة والبهيميّة فمنهم من يوافق فعله فعل الملك ومنهم من يوافق فعله فعل الشّيطان أو السّبع أو البهيميّة فالكامل منه هو الّذي تكون هذه القوى فيه معدّلة ليكون في ذاته وصفاته وأفعاله وأحواله مكمّلة ومتخلّقة ومتحقّقة بالإلهيّة وهذا التّعديل إنّما يكون إذا اعتدلت أركانه الأربعة أي النّار والهواء والماء والأرض واعتدالها في الإنسان إنّما يكون إذا كانت على النّسبة الّتي تعيّنت في تحقّق نفسه فلكلّ واحدة من هذه الأركان والمبادئ وقوى الأركان على الانفراد صلاة وعلى تعذّر كونها في المركّب صلاةً وعبادةً مثلًا عبادة النّار وصلاتها حالة التفرّد الإحراق وتفريق المختلفات وجمع المتمثلات والإيضاح وعبادة الهواء الشّديد والتّلطيف وإعطاء استعداد النّضج والتّرطيب وصلاة الماء وعبادته هي التّسييل والسّيلان والتّبليل والتّبريد وصلاة الأرض التّجميد والتّغليظ والتّبريد وأمّا في المركّب فصلاة النّار وكمالها إنّما هي إفادة الشّوق والعشق والمحبّة والتّرجيع والتّصعيد إلى سماء الأحديّة الذّاتيّة والهيئة الإحاطيّة الجمعيّة وصلاة الهواء المركّبة في المواليد الميل والإمالة والتّوجيه وإعطاء الاستعداد والقبول وصلاة الماء القبول وصلاة التّراب الحفظ وصيانة النّسبة الجمعيّة ووقاية المناسبة الذّاتيّة والعرضيّة ووعاية الهيئة الكليّة الإحاطيّة فاستقامة كلّ شيء واستقراره على مقتضى طبعه وجريانه عليه هو عبادته الذّاتيّة لصنائعه وكماله اللّائق به الدّالّ على كمال صنعه وتماميّة قدرة مبدعه وعمل حكمة مخترعه.

وأمّا الصّورة الجمعيّة إنّما تفيد المحبّة الكاملة وتفيد المعرفة الشّاملة والمشاهدة التّامّة الكليّة والجزئيّة والتّخلّف عن النّقصان والفساد والعصيان فسعادة الإنسان وكماله الأولى الّذي به يمتاز عن غيره هو علمه بصنائعه على الوجه الأكمل الّذي يستتبع استقامة جميع القوى الطّبيعيّة والحيوانيّة واستسلام القوّة الشّيطانيّة بأن لا يأمر صاحبه إلا بالخير كما ورد في الحديث: «**ما منكم من**

أحدٍ إلا وقد وُكّل به قرينه من الجنّ قالوا وإيّاك يا رسول الله قال عليه السّلام: وإيّاي إلا أنّ الله أعانني عليه فلا يأمرني إلا بالخير» الحديث فللإنسان في تصاريف أفعاله وتعاطيف أحواله ملكيّة كانت أو شيطانيّة أو حيوانيّة أو طبيعيّة عباداتٌ وصلواتٌ ومعاصي ويبدي الله تعالى إليها وجوهٌ ونواصي ويستعري آراءَك وباعتبار هيئاتها الجمعيّة والإحاطيّة الكلّ، صلاة أخرى أكمل وعبادة أخرى أشمل بها فاق على الكلّ شرفًا ومنزلًا وساق على الاستشراق على استجماع أطراف الجزء والكلّ الحقير والجليل زيادةً وشرفًا مفصّلًا ومجملًا إذ الأفعال الطّبيعيّة وهي التّعدية والتّنمية وتوليد الميل موجودةً في النّبات والحيوان وفي الإنسان بالزّيادة والهولى جولان القوّة والحول إلى أن يعود إلى ما كان عليه في الأوّل من عدم القوّة والطّول من العمل والقول مع ما تستخدمها القوّة الطّبيعيّة من الإمساك والهضم والجذب والدّفع من الأفعال الحيوانيّة وهي جذب المنافع ودفع المضارّ ورفع المدافع ولا يحصل لك تلك الأفعال إلا بالإدراك والشّعور والملائم والمكروه والمنافر والمنافع والمضارّ بها ومبدأها الشّهوة والغضب شعبةٌ من الشّهوة لأنّها لطلب النّفع والقهر والغلبة والتّفوّق والدّفع والاستيلاء وقبول الرّياسة وهي لذّة روحانيّة لا تتعاطاها النّفس إلا بالقوّة الشهويّة الّتي هي مبدأ فعل يختصّ بالحيوان ففعله الخاصّ به الّذي في الأصل هو الشّهوة في الفرع وهو الغضب فمشترك بين الحيوانات كلّها كما كانت الأفعال في الصّورة الأولى مشتركٌ بين الأجسام النّامية كلّها ويمتاز بعضها عن بعض بالفضول الحيوانيّة أيضًا وكذا ما يستتبعها من القوّة الشّوقيّة المحرّكة والشّاعرة الظّاهرة والباطنة وكذا الأفعال الملكيّة وأحوالها من التقدّس والتّنزّه من الأوساخ الطّبيعيّة والنّفرة من المنازل الكدرة الدنيّة إلى المحال الرّفيعة والمحامل المنيعة الإنسيّة والمحامل القدسيّة الإنسيّة وكذا محبّته العلوم بحقيقته والميل إلى الإدراكات الخفيّة والفرح وإصلاح ذات البين والصّلاح والتقرّر والتكرّر عن الأمور الخسيسة وبعض الجهل والمعاصي والتأمّل في الصّنائع والتفكّر في البدائع وغير ذلك مشتركةٌ بين الملأ الأعلى وبين الإنسان، وأمّا الّذي يختصّ بالإنسان فهو الّذي ينتزع من الكلّ ويتفرّع عليه جميع السّبل وهي بفرقان التحقّق الهيئة الجمعيّة الأحديّة الكليّة

الإحاطيّة للكلّ في الظّاهر والباطن ولهذا صارت صلواته الظّاهرة هي الأركان المعلومة والأفعال المخصوصة جامعة الصّلوات جميع الموجودات الكنانيّة في الظّاهر والباطن، وأمّا الصّلاة الظّاهرة فقد تقدّمت وهي ظاهرة وأمّا صلاته الباطنة فهي التحقّق بحقائق الكائنات والتخلّق بأحوالها وبما هي عليه من مبادئها من الأسماء الإلهيّة والصّفات الربّانيّة والجواهر النّورانيّة والفواخر العقليّة فعلى هذا انقسمت إلى قسمين: ظاهرة وباطنة وكلّ منها إلى طبيعيّة وإراديّة.

قال المعلّم الثّاني أبو نصر الفارابي في كتابه الفصوص: "صلّت السّماء بدورانها والأرض برجحانها والماء بسيلانه والمطر بهطلانه" وقد تصلّي أنت له ولا تشعر ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾ [العَنكبوت: 45] إشعارًا بكلا النّوعين من العبادة البسيطة وهي العامّة وعبادة الصّورة النّوعيّة والهيئة الجمعيّة وهي مختصّة بأكمل الأنواع وهو الإنسان وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ [العَنكبوت: 45] وقد فصّلناه في باب الحمد فليراجع إلى ذلك المقام والله أعلم وأحكم.

﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [البَقَـرَة: 3] تفسيره أي أعطيناهم الرّزق الأوفر والحظّ الأوفر المعدّ للانتفاع وإسناده إلى نفسه مشعرٌ بأنّ أصل الأرزاق هو الحلال وهو ما ينتفع به الحيوان والإنسان فإن كان طعامًا فللتغذّي وإن كان لباسًا للتورية والتّغطّي والتّستّر والكساء فإن كان مسكنًا فللسّكنى والانتفاع والتوقّي والصّيانة والتّبييت، أمّا الأوّل وهو كونه بدلًا ممّا يتخلّل ليبقى المتغذي إلى ما قدّر الله تعالى لامتداد حياته من عمره وبقائه نباتًا كان أو حيوانًا أو إنسانًا فيكون بالحلال والحرام والعرف خصّصه بالحيوان لاختصاص بدل ما يتخلّل فيما يخصّ الحيوان لأنّه لازم للحركة النّقليّة المختصّة بالحيوان وإن كانت قاعدة الحكمة عامّة تعمّ المركّبات التّامّة والنّاقصة هذا هو الّذي ذهب إليه أهل التّفسير. وأمّا عند الأصوليين فهو اسم لما يسوقه الله تعالى إلى الحيوان ليأكله قد يكون حلالًا وقد يكون حرامًا والمعتزلة لما خصّصوا الانتفاع بالانتفاع الشّرعي فسّروا الرّزق تارةً بمملوكٍ يأكله المالك وأخرى بما لا يمنع من الانتفاع واستحالوا من التمكّن من الحرام لأنّه منع من الانتفاع به وأمر بالزّجر عنه فقالوا الحرام ليس برزق إلا

أن يرى أنّه أسند التّرزيق ههنا إلى نفسه ومدح المرتزقين بالإنفاق وهو لا يكون إلا بالحلال الطلق فإنّ إنفاق الحرام لا يوجب المدح فلا يثاب عليه وذمّ على تحريم المشركين بعض ما رزقهم الله بقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ [يُونس: 59].

هذا أقول على ما فسّرتم في الأوّل يلزم أن يأكله الحيوان لا يكون رزقًا لانتفاء تمكّن التّملّك وإنّ من أكل الحرام طول عمره لا يكون مرزوقًا من الله أصلًا وإنّ مبنى هذا الاختلاف على أنّ الإضافة إلى الله معتبرة في مفهوم الرّزق وإنّه لا رزّاق إلا الله فأوردوا عليه أنّه لا يستحقّ العبد حينئذٍ الذمّ والعقاب على أكل الحرام إذ كلّ ما يستند إلى الله تعالى لا يكون قبيحًا فمرتكبه ومباشره لا يذمُّ ولا يعاقب. والجواب عن هذا أنّ ذلك لسوء مباشرة أسبابه بالاختيار والإرادة فإنّ الإسناد إلى الله تعالى للتّعظيم والتّحريض على الإنفاق وذمّ الكفّار لتحريم ما أحلّ الله.

وأمّا اختصاص ما رزقناهم للإنفاق بالحلال فللقرينة المقاميّة وتمسّك أصحابنا على شمول الرّزق لهما بقوله عليه السلام في حديث عمرو بن فره: «**لقد رزقك الله طيّباته**» فاخترت ما حرّم الله عليك من رزقه مكان ما أحلّ الله لك من حلاله وبأنّه لو لم يكن رزقًا لم يكن المتغذّي بالحرام طول عمره مرزوقًا وهو بطل لقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هُود: 6] وأهل الاعتزال لما منعوا كون القبائح من الله تعالى ألجأهم إلى عدم عدّ الحرام رزقًا قال الغزالي: "الرزق على أربعة أقسام: مضمون ومقسوم ومملوك وموعود"؛ فالمضمون هو الغذاء وما به قيام البنية دون سائر الأسباب والضمان من الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هُود: 6] والتوكّل يجب بإزائه وأمّا المقسوم فهو ما رزقه الله تعالى وكتبه في اللّوح المحفوظ من الأكل والشرب ويكتسبه كلّ واحد بمقدار مقدّر ووقت مؤقّت لا يزيد ولا ينقص ولا يتقدّم ولا يتأخّر عمّا كُتب قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الزّخرُف: 32] وأمّا المملوك فلا يملك كلّ واحد من أموال الدّنيا إلا ما قدّر الله وقسّم له أن يملكه قال الله تعالى: ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا

رَزَقْنَٰكُم﴾ [البَقَـرَة: 254] أي ملّكناكم، وأمّا الموعود فهو ما وعد الله المؤمنين بشرط التّقوى من غير كدّ وتعب ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطّلَاق: 2 - 3].

﴿يُنفِقُونَ﴾ [البَقَـرَة: 3] أي يتصدّقون وأصل الإنفاق الإخراج عن اليد وعن الملك وهو والإنفاد أخوان إذ الاستقراء قد استقرّ على أنّ كلّ ما فاؤه نون وعينه فاء فهو دالّ على الذّهاب والخروج والظّاهر من الإنفاق ما يخرج ممّا رزقه الله تعالى ويصرفه في سبيل الله فرضًا أو نفلًا ومن فسّر بالزّكاة فقد ذكر أفضل أنواعه والأصل فيه أو يخصّصه بها لأقرانها بما هو شقيقها واقترنهما بالذّكر حيث وقع الّذين يقيمون الصّلاة ويؤتون الزّكاة معًا وتقديم المفعول للاهتمام وإدخال من التّبعيضيّة للكفّ عن الإسراف والتّبذير المنهيّ ويحتمل أن يراد به بيان الإنفاق من جميع المعارف الّتي آتاهم الله من النّعم الظّاهرة والباطنة ويؤيّده قوله عليه السّلام: "**إنّ علمًا لا يقال به ككنز لا ينفق منه**" وإليه ذهب من قال.

وممّا خصّصناهم به من أنوار المعرفة يفيضون وينفقون منها.

إشارة وتأويل

اِعلم أنّ الرّزق يختلف حسب اختلاف أحوال الموجودات فهو صوريّ ومعنويّ؛ أمّا الصّوريّ فقد علمت أنّه مخصوص بالأعيان الماديّة، وأمّا المعنويّ فهو ما يتقدّم به الموجودات المطلقة وتتقوّى به الماهيّات الإلهيّة والوحدة الذّاتيّة بأن يستحيل ويتجرّد عن خصوصيّات الهويّات وتعيّنات الماهيّات وتحققت الهويّة الأحديّة وتبعت الوحدة الذّاتيّة أو بالعكس بأن يتخلّل الوحدة في أعيان مراتب الكثرات وتعيّنت الحقائق الكنانيّة والماهيّات الكونيّة وتطوّرت الهويّات والتّعيّنات تخلّل الغذاء في الأجزاء والأعضاء الذّاتيّة الأحديّة ولذا سمّي الخليل خليلًا.

والغذاء المطلق إمّا إلهيّ أو كونيّ؛ أمّا الإلهيّ فهو مطلق الكون والوجود يفيض بمحض الكرم والجود أوّلًا في التّجلّي الذّاتيّ في الشؤونات الأحديّة بالعنوانات الذّاتيّة في الآيات الدّائمة والأوقات الدّيموميّة ثم بتجلّي الأسماء

بالنّعوت الوصفيّة في الأوقات الإلهيّة بالأقوات الرّبّانيّة أوّلًا على الأعيان الثّابتة والماهيّات الكونيّة ثم على سائر الأكوان في الدّهور والأعصار والأزمان تكرّر الشّهور والأعوام والأدوار هذا هو الرّزق الأولى ثم يتبع هذا الرّزق وعليه يتفرّع أرزاق أخرى ويحيط بالممكنات المطلقة والمجرّدة والماديّة بالتّجليّات العالية والعلوم الحقيقيّة والمعارف الفطريّة السّارية في جميع الأعيان الإلهيّة والكونيّة البسيطة والمركّبة الجوهريّة والعرضيّة قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحِجر: 21] الآية، وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسرَاء: 44].

ومن الرزق المعنوي ما يحصل له من النّغمات الملائمة والأصوات الحسنة والصّور المليحة المستحسنة المشتملة على النّسب الاعتداليّة والهيئة الوحدانيّة والحالات والأبعاد المتناسبة المتتالية المتوالية كبعد ذي الكلّ وذي الأربع وذي الخمس وغير ذلك من الأبعاد المطبوعة العقليّة والمصنوعة الموضوعة على النّسب الفلكيّة والأجرام السّماويّة الحسيّة المطابقة للنّسب والمثل النّوريّة والهيئات البرزخيّة الموافقة للّطائف الرّوحانيّة الّتي هي صور النّسب العقليّة المنطبعة على الصّور العمليّة الّتي هي مظاهر الشؤونات الذّاتيّة فغذائيّة النّغمات الملائمة وكيفيّة تأثيرها في الأرواح والنّفوس أتمّ من سائر أنواع الأغذية ومن لم يتغذّ ولم يتقوّ بهذا الغذاء المطلق الذّاتيّ الإلهيّ ولم يتقوّم به في غيب هويّته وجيب إنيّته فهو مريض بالمرض الذّاتيّ وهذا النّوع من الغذاء يبقى ولا يتغيّر ولا يعدم ولا يفنى أصلًا وصاحبه يبقى أبد الآباد في جميع الأدوار والأكوار الحاكية عن ذلك العالم المذكور وعمّا جرى فيه عن تلك العهود الأصليّة والعقود الأزليّة وعن تلك الخطايات الأوليّة والكتابات الأزليّة الجارية في مقام ألست بربّكم المعيّنة عن الرّسوم البشريّة الموصلة إلى الرّتبة القريبة بدرجة الشّهادة في مضمار المجاهدة لإدارة المشاهدة ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عِمرَان: 169 - 170] قال عليه الصّلاة والسّلام: «**عليكم بالوجوه الملاح والحدق السّود فإنّ الله تعالى يستحي أن يعذّب وجهًا مليحًا بالنّار**» «**أنا أبيت عند ربّي يطعمني ويسقين**».

وههنا نوع آخر من الرّزق وهو أن يتخلّل الوجود المطلق والذّات الحقّ في

السّير من الله في العبد ويصير عينه ظاهرًا وباطنًا صورةً ومعنًى كما يتخلّل العبد في السّير إلى الله وفي الله ويفنى عن خصوصيّة النسبيّة وتعيّن هويّته ويبقى ببقائه ويصير غيبته صيرورةً سرمديّةً ولذا سمّى الخليل خليلًا بهذين الوجهين.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [البقرة: 4] تفسيره قال مجاهد: الآيات الأربعة المتقدّمة نزلت في جميع المؤمنين من العرب ومن أهل الكتاب قال ابن عبّاس وابن مسعود: إنّ الآيتين من أوّل السّورة نزلتا في مؤمني العرب والآيتين بعدهما نزلتا في مؤمني أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب الأحبار وأخويهما، ﴿وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [البقرة: 4] هو التوراة والإنجيل والزّبور والصّحف المنزّلة اثنتان على آدم وخمسون على شيث وثلاثون على إدريس وثمانية على نوح وعشرة على إبراهيم عليه السّلام والعرب ليس لهم كتاب معطوف على الّذين يؤمنون بالغيب داخلون معهم في المتّقين دخول أخصّين تحت الأعمّ. وهاتان الآياتان تفصيل للمتّقين هذا قول ابن عبّاس وغيره على أنّه معطوف على المتّقين فكأنّه قال ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2] عن الشّرك والّذين يؤمنون بالله وبما جاء منه ونزل عنه من الأنبياء والكتب ويحتمل أن يراد بهم الأوّلون بأعيانهم ووسّط العاطف كما في قوله تعالى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا﴾ [آل عمران: 39]: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ [غافر: 3]

أنا الملك للقوم وابن الهمام   وليث الكتيبة في المزدحم

على أنّه يجمعون بين الإيمان بما يدركه العقل والإتيان بما يصدّقه من العبادات البدنيّة والشّهادات الماليّة وبين الإيمان بما لا طريق إليه سوى السّمع. وكرّر الموصول تنبيهًا على تباين السبيلين أو طائفة منهم وهم مؤمنو أهل الكتاب ذكرهم مخصّصين عن الجملة كذكر جبريل وميكائيل بعد الملائكة تعظيمًا لشأنهم وترغيبًا لأمثالهم إلى الإيمان بالله وبما جاء منه.

والإنزال نقل الشيء من الأعلى إلى الأسفل وهو إنّما يلحق المعاني بتوسّط لحوقه الذّات الحاملة لها ولعلّ نزول الكتب الإلهيّة على الرّسل بأن يتلقاه الملك

من الله تلقيًّا روحانيًّا أو يحفظه من اللّوح المحفوظ ونزل به فيلقيه على الرّسل وقدّم الكلام في المقدمة في تحقيقه والمراد بما أنزل القرآن بأسرها والشريعة عن آخرها. وإنّما عبّر عنه بلفظ الماضي وإن كان بعضه مترقبًا تغليبًا للموجود على ما سيوجد وبما أنزل من قبل الكتب السّالفة والإيمان بهما للكلّ جملة فرض عين وبالأوّل دون الثّاني تفضيلًا من حيث إنّما متعبّدون له بعينه متقلّدون بتفصيله فرض عين لكن بالكفاية لأنّ وجوبه على كلّ أحد يوجب الجرح وفساد المعاش وكساد الانتعاش.

﴿وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البَقَرَة: 4] بدار الآخرة بدليل تلك الدّار الآخرة نجعلها للّذين لا يريدون علوًّا في الأرض ولا فسادًا والعاقبة للمتّقين وإنّما سمّيت بها لتأخّرها وكونها بعد الدّنيا كما سمّيت الدّنيا دنيا لدنوّها من الآخرة أو منّا. يقال يقن ييقن يقينًا فهو ييقن وأيقن بالأمور واستيقن وتيقّن كلّه واحد أي اطمئنان القلب واعتقاده الجازم المطابق للواقع ولا يزول بتشكيك المشكّك بحيث يفضي إلى الشّهود والعيان وهو الإيمان الحقيقيّ بالحقّ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنفال: 4] وتأخيره عن الإيمان بالأنبياء والكتب وتقديم المفعول وتخليل الضّمير لفائدة الفصل دليل على أنّه إنّما يحصل بطريق الكشف والوحي المشروط بكمال التّقوى وهو يزيد وينقص دون الإيمان لأنّه إذعان وقبول واليقين خطرات ترد على الإيمان قال النّبي عليه الصّلاة والسّلام: «**الإيمان في القلب واليقين خطرات تتّصف بالشّدة والضّعف**» بحسب كثرة الخطرات وقلّتها والفرق أنّ الإيمان من مقولة الكيف والانفعال والزّيادة والنّقصان من صفات الكمّ واليقين باعتبار الورود من الكمّ المنفصل لطريان التّعدّد عليه بحسب المراتب في الزّيادة والنّقصان بل المتّصل وكثرته باعتبار توارد الصّفات والنّعوت وباعتبار كونه من الإدراكات والعلوم والاعتقادات هو من مقولة الكيف والانفعال وإنّ العقل الصّرف بلا ضميمة الوحي لا يهتدى به ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ﴾ [الشّورىٰ: 52] وإنّ العلوم كلّها إنّما تقتبس من مشكاة النّبوّة والوحي والكتب المنزّلة المتقدّمة لتقدّمها على طريق العقل على أنّ الأنبياء مع كونهم أعقل النّاس

ما سلكوا طريق العقل بل سلكوا طريق المجاهدة والعقل والعمل وتثبّتوا عليها. وعن الثّوريّ: من زعم أنّه مؤمن بالله حقًّا ثم لم يشهد أنّه من أهل الجنّة فقد آمن بنصف الآية. ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ﴾ [البَقَرَة: 260].

وإنّما لم يسمّ علم الله يقينًا لعدم توقّفه على الوحي قال القاضي في تفسيره اليقين: يقان العلم بنفي الشكّ والشّبهة عنه بالاستدلال ولذلك لا يوصف به علم الباري تعالى ولا العلوم الضّروريّة هذا مخالف لظاهر آية ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحِجر: 99] وأيضًا منقوض بالوحي والإلهام والهاتف والوارد والخطاب وغير ذلك اللهم إلا أن يقال إنّ المراد هو العلم المتعدّي إلى الغير وذكر الشيء لا ينفي ما عداه والاستدلال أعمّ من أن يكون كالإسلام والإيمان فطريًّا أو نظريًّا فكريًّا نعم يرد بالأحكام الدّائرة بين الأنبياء الّذين أتقنوا تلك الأحكام بالوحي وكذا عند أرباب الإلهام مع أنّ الأعمال الدّنياويّة كالحرف والصّنائع إنّما تثبت بالوحي ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هُود: 37] وإن ادّعوا العرف فلا مشاحة فيه وأيضًا أنّ العلم بالمعنى المذكور لا يجامع الشكّ حتّى يبقى عنه تأويل وإشارة ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [البَقَرَة: 4] في النشأة البشريّة من التّجلّيات الإلهيّة والمشاهدات الرّبّانيّة وما أنزل من قبلك في النّشأة الأولى والفطرة العليا من المعارف الإلهيّة وما يظهر في النّشأة إنّما هو مثال لما في تلك في فرداريّة الجمال والجلال أو جمعيّة صورة فردازنتهما فإنّ للعبد في هذه الأدوار أزل وأبد دنيا وآخرة فإنّ في انتقال فرداريّة الحكم من اسم إلى اسم آخر من الأسماء الذّاتيّة ينتقل طور ظاهر الدّنيا إلى طور الآخرة وبالعكس كما علمت في الفاتحة ويظهر فيه دنيا وآخرة أخرى وآدم آخر وحواء أخرى فإنّ السرّ الإلهيّ وهو الصّورة الجمعيّة الأحديّة والواحديّة دائر في نشأة الأدوار على مظاهر الأشخاص الكاملة في الأدوار المذكورة دوران نقطة تقاطع منطقة البروج المعدل النّهار فإنّ من منطقة البروج في كلّ آن تقع نقطة وجزء في موضع التّقاطع إلى أن يعود ذلك الجزء الأوّل إلى موضع التّقاطع الأوّل فتدبّر وتأمّل وتبصّر ليظهر لك أنّ أحوال الأعيان من العلم والعرفان واليقين والإيمان في نشأة الأدوار

وشؤونات الأكوار متطابقة ومقتضياتهما ومرتضياتهما متوافقة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [النّساء: 136].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى﴾ عظيم وسدىً كريم ﴿مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ [البَقَرَة: 5] ربّاهم بصنوف الهدايات وشباهم بصنوف العبادات الّتي هي أبين السّعادات وأحسن العادات، ذكر الموصوف باسم الإشارة تنبيه على أنّه جدير بما يرد بعده من أجلّ الأوصاف وأجلّ اللّطائف بالأعطاف والتّثبيت على الهداية الكاملة هذه الجملة في محلّ الرّفع إن جعل أحد الموصولين موصولًا عن المتّقين خبر له وكأنّه لما قيل هدًى للمتّقين قيل ما بالهم خصّوا بذلك فأجيب والّذين يؤمنون بالغيب إلى آخرها أولئك على هدًى من ربّهم وإلّا فاستئناف لا محلّ لها من الإعراب فكأنّه ثمرة ونتيجة للصّفات المتقدّمة أو جواب سائل قال ما للموصولين بهذه الصّفات اختصّوا بالهدى الكامل ونظيره أحسنت إلى زيدٍ صديقك صديق القديم حقيق بالإحسان فإنّ الإشارة منها كإعادة الموصوف بصفاته المذكورة وهو أبلغ من أن يستأنف بإعادة الاسم وحده لما فيه من بيان المقتضى والمقتضي فإنّ في ترتيب الحكم على شيء إيذانًا بأنّه موجب وسبب له ومعنى الاستعلاء في على هدًى تمثيل تمكّنهم من الهدى واستقرارهم عليه بحال من أعقل الشّيء وقيّده وركّبه واستعلى عليه كما اشتهر في قولهم امتطى الجهل والغوى واقتعدت غارب الهوى أي استعلى ما بين السّنام والعنق وذلك إنّما يكون باستفراغ الفكر وإدامة النّظر فيما نصب من الحجّ والمواظبة على محاسبة النّفس في العمل بمقتضى الخبر فإنّما نكّر هدى للتعظيم كأنّه أريد به ضرب لا يبلغ كنهه ودرره ولا يغادر قدره. وتكرار الهدى إشارة إلى أنّ الممكن لمّا احتاج في وجوده آنًا بعد آنٍ إلى المبقى والمرجّح فكذلك ما يحتاج ما يتبعه من العلم والهدى إليه بل هو أحوج إليه.

إشارة وتأويل

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ [البَقَرَة: 5] على حقيقة جوهر بيقين متّصل

بأنوار المعرفة الفطريّة وأسرار المحبّة الذّاتيّة في النّشأة العليا متحصّلًا من ربّهم في حضائر القدس بلا معارضة النّفس ومناقضة ريب الشّيطان على مقتضى الخنس ومرتضى جنس الدّنس، وتكرار الهدى إشارة إلى تحقّقه وتكرّره في النّشأة الجزائيّة وتكثّر التّطورّات في شؤونات دوراته الكليّة والجزئيّة ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرّحمٰن: 29] آنٍ بعد آنٍ أو الكليّة كما هي في اقتضاء فرداريّة الأسماء السّبعة الذّاتيّة.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البَقَرَة: 5] بالهداية المصيبون بأنواع الخيرات والنّاجون من النّار ودار البوار في مهاوي الدّركات جهنّم يصلونها فبئس القرار العارجون إلى الجنّة دار القرار من الأحرار وأصحاب كمال اليقين من الأبرار وأصل الفلاح والإفلاح البقاء والفوز بالبغية كأنّهم الّذين انفتحت لهم وجوه الظّفر ولم ينغلق عليهم باب الرّحمة والمغفرة والمفلج بالجيم مثله.

لو كان حيّ مدرك الفلاح أدركه ملاعب الرّياح

كرّر فيه اسم الإشارة تنبيهًا على أنّ اتّصافهم بتلك الصّفات يقتضي كلّ واحد من الأثرين وإنّ كلّ واحد منها كاف في تميّزهم بهما عن غيرهم ووسّط العاطف لاختلاف مفهوم الجملتين ههنا بخلاف قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: 179] فإنّ التسخير بالغفلة والتّشبيه شيء واحد فكانت الجملة الثّانية مقرّرة للأولى لكمال الاتصّال فلا يناسب العطف المشعر بكمال الانفصال وهم فصل تفصيل الخير عن الصّفة ويفيد اختصاص المسند بالمسند إليه أو مبتدأ والمفلحون خبره والجملة خبر أولئك وتعريف المفلحين للدّلالة على أنّ المتّقين هم الّذين وفّقهم الله لاكتساب تلك الصّفات الّتي صارت ذريعة الفلاح ووسيلة الفلاح والنّجاح آجلًا وعاجلًا إشارة إلى أنّهم شهدوا في حقّهم بكمال الصّلاح فاستحقّوا من عند الله باسم الفلاح وأعمّ النّجاح واختصّوا به ويتعدّى منهم إلى صلاح جلابيبهم وفلاح حرابيهم "**هم قوم لا يشقى جليسهم**" الحديث، هذا ترغيب الغير بالاقتفاء بأثرهم والاقتداء بهم وبهذا سقط التّثبيت به الوعيد في خلود الفسّاق من أهل القبلة في النّار وجهٌ وجيه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ﴾ أي الّذين اتقوا الله حقّ تقاته على هدًى من ربّهم بأن يوصل

حقيقة تقيّتهم بالمعارف والإدراكات الحضوريّة بحيث انقطعت معارضة النّفس الشّيطان الخسيس بالتّلبيس عن القلب والرّوح عند انطباق دائرة الاستكمال على دائرة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البَقَرَة: 5] الّذين اختصّوا بكمال الفلاح الأبديّ ووفور البهجة والسّرور والنّجاح السّرمديّ وهو شهود التّجليّات الذّاتيّة والصّفاتيّة والأفعاليّة والآثاريّة والفناء في الله والبقاء بالله فكانوا مفلحين بالله مفلحين من الله صالحين مع الله مصلحين لله مخلصين لوجه الله المتخصّصين بوفور العناية الإلهيّة ودروب الهداية الرّبانيّة فرحين بوجه الله في سيرهم إلى الله ومن الله فلحين مفلحين بالسّير في الله وبالله فعاينوا كيفيّة سريان أنوار التّجليات الجماليّة والجلاليّة اللّطيفيّة والقهريّة في المظاهر الكنانيّة في مراتب عين اليقين وهيآت كمال العرفان لأصحاب حقّ اليقين فتارة يجلو التّجلّي بتطوّر تجدّد نور الإيمان وتعدّد جلوات قوّة إتقان الإيقان وأخرى في تنوّع مجالس الكفر والعصيان وملابس الطّاغية والطّغيان في أدوار الجمال وأكوار الجلال الأصليّة والفرعيّة الإفراديّة والجمعيّة وكرّةً ثالثةً تصوّر جميعها وتطوّرها أيضًا فإنّ التّجليّات الإلهيّة لا تنقطع ولا تتكرّر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [البَقَرَة: 6] بالاشتراك من العرب وبهذا الكتاب لم يكن كفرهم لشبهة عرضت لهم في إعجازه أيّاهم بعد النّظر فيه بل لتركهم النّظر أو لعنادهم أو لا يكادون ينظرون لكونهم قاصرين في حسن النّظر كفروا.

وقال بعضهم نزلت في أبي جهل وخمسة من أهل ثنيّة. وقال الكلبيّ هم اليهود، وقيل المنافقون.

والكفر أصله بفتح الكاف هو الجحود والإنكار عن كفر كفرًا كشكر شكرًا أي ستر سترًا، ومنه قيل الزّراع الكافرون لسترهم الزّراعة ﴿أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد: 20] أي الزّراع وإنّما سمّي جاحد الحقّ كافرًا لستره إيّاه وتوحيده ونعمه أو لفطرة أزليّة وهو الإسلام، قال عليه السّلام: «**كلّ مولود يولد على فطرة الإسلام**».

والكفر على أربعة أنحاء كفر إنكار وكفر جحود وكفر معاندة وكفر نفاق وفي

الآية دلالة على الكلّ. والكفر الشرعيّ وهو إنكار ما علم بالضّرورة مجيء الرّسول به صادق على الجميع وإنّما عدّ لبس الغيار وشدّ الزّنّار وغيرهما ممّا يكفر به قاصده لأنّها أمارات التّكذيب، فمن كفر لقي ربّه بشيء من ذلك ولم يغفر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النِّساء: 48] أمّا الكفر الإنكاري فهو أن يكفر بقلبه ولسانه ولا يقرّ بالتّوحيد. وكفر الجحود هو أن يعرف بقلبه ولا يقرّ بلسانه ولا ينقاد للأحكام ولا يدين ككفر أبي طالب.

ولقد علمنا بأنّ دين محمّد ... من خير أديان البريّة دينًا

لولا الملامة في جِدٍّ أرى سببه ... لوجدني سمحًا بذلك مبينًا

وأمّا كفر النّفاق فهو أن يقرّ بلسانه ويكفر بقلبه. لمّا ذكر خواصّ عباده وخلاصة أوليائه بصفاتهم الّتي أهّلتهم للهدى والفلاح وكمال النّهى ووفور الصّلاح عقبهم بذكر أضّدادهم ولا نهاية لأعدادهم وإنّما لم يعطف قصّتهم على قصّة المؤمنين كما عطف في ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ۝١٤﴾ [الانفِطار: 13 - 14] لتباينهما في العرض تباينًا كليًّا فإنّ الأولى سبقت قصّتهم لذكر الكتاب وبيان لشأنه والأخرى مسبوقة بشرح تمرّدهم في الضّلال وانهماكهم في الإضلال فإن قيل لم اعتبر اختلاف العرض هنا ولم يعتبر هنالك قلت الفاعل هنالك هو الله وأفعال الله غير معلل بالأغراض والفاعل هنا هو الممكن البشر في الظّاهر وأفعالهم مختلفة بالغرض (وإنّ وأنّ) من الحروف المشبّهة بالفعل في العدد والبناء على الفتح ولزوم الأسماء وإعطاء معانيه وبالتعدّي خاصةً في الدّخول على اسمين برفع أحدهما وبنصب الآخر إيذانًا بأنّه فرع في العمل دخيل فيه.

قال الكوفيون الخبر مرفوع علمًا كان بالخبريّة فلا يرفعه الحرف. أجيب بأنّ اقتضاء الخبريّة مشروط بالتّجرّد عن العوامل اللّفظيّة ولتخلّفه عنها في خبر كان ويمكن أن يقال نصرة الكوفيين بأن كان فعل عمله أصليّ لا فرعيّ والصّواب في الردّ عليهم أنّ ما خبر بعد ما ولا المشبّهتين بليس وإنّ وأن يذكر في معرض الشكّ لرفعه وجواب السّؤال ورفع الإنكار في الحال والاستقبال، قال المبرّد قولك عبد الله قائم إخبار عن قيامه وإنّ عبد الله قائم جواب عن سائل عن قيامه وإنّ عبد الله لقائم

جواب منكرٍ لعناية فمقتضى الحال في هذا المقام تجريد الكلام عن التّأكيد لوضوح حال الكفّار وتوغّلهم في الكفر على الكلّ إلّا أنّه لما كان مجرى حالهم على خلاف مقتضى الظّاهر إذ مقتضى ظاهر العقول السّليمة ومرتضى الطّباع المستقيمة التّلقّي بحصّة هذا الكتاب والتّصدي إلى الاستسلام بأحكامه فكان قد وقع الشكّ عن النّقص في تردّدهم في حقيّته فأزال الشكّ. فتعريف الموصول إمّا للعهد والمراد به ناس بأعيانهم كأبي لهب وأبي جهل والوليد بن المغيرة وأحبار اليهود وغيرهم أو للجنس متناولًا لمن صمّم على كفرهم ولغيرهم فحضّ عنهم غير المصرّين بما أسند إليه.

ذهبت المعتزلة إلى حدوث القران محتجًا بأنّ ما عبّر عنه بلفظ الماضي يدلّ على حدوثه لاستدعائه سابقة مخبر عنه، أجيب بأنّ مقتضى التّعلّق وحدوثه لا يستلزم حدوثه الكلام كما في العلم فإنّ تعلّقه لا يستلزم حدوثه وسبق العلم بالذّات.

﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾ [البقـرة: 6] أي مستوٍ عليهم إنذارك وعدم إنذارك أو كون الإنذار وعدم الإنذار في موضع الرّفع مبتدأ وسواء خبره مقدّمًا عليه والجملة خبر إنّ فإن قلت وضع الفعل على الخبريّة قلت هو من جنس الكلام المهجور فيه جانب اللّفظ إلى جانب المعنى ونظيره لا تأكل السّمك وتشرب اللّبن أي لا يكن منك أكل السّمك وشرب اللّبن والفعل إنّما يمنع الإخبار إذا أريد به تمام وضع له، أمّا لو أطلق وأريد به اللّفظ ومطلق الحديث لمدلول عليه ضمنًا اتّساعًا فهو كالاسم في الإضافة والإسناد إليه كقولهم وإذا قيل لهم آمنوا يوم ينفع الصّادقين صدقهم وكقولهم تسمع بالمعيد خير من أن تراه والهمزة وأم مجرّدتان عن معنى الاستفهام إلى معنى الاستواء قال سيبويه: إن أجري على حرف الاستفهام كما جري اللهم اغفر لي أيتها العصابة على حرف النّداء يعني أنّ هذا جرى على صورة الاستفهام ولا استفهام كما أنّ ذا جرى على صورة النّداء ولا نداء وإنّما عدل ههنا عن المصدر إلى الفعل لما فيه من إيهام التّجدد وحسن دخول الهمزة وأن عليه لتقرير معنى الاستفهام وتأكيده فإنّهما جرّدا عن معنى الاستفهام كما جرّد حرف عن الطّلب بمجرّد التّخصيص في قولهم اللهم اغفر لي

أيتها العصابة والإنذار تهديد، يقال أنذرتهم فينذروا أي أعلمهم فيعلموا، أو المراد التّخويف من عقاب الله وإنّما اقتصر عليه دون البشارة لأنّه أوقع في القلب وأشدّ تأثيرًا في النّفس في جلب النّفع والجذب من حيث إنَّ رفع الضّرر أهمّ من جلب النّفع وإذا لم ينفع كانت البشارة بعدم النّفع أولى.

وفيه وفي أخواته أربع قراءات: تخفيف الهمزتين وإثباتهما وهي لغة بني تميم وقراءة أهل الكوفة لأنّها ألف الاستفهام دخلت على ألف القطع، وتخفيف الهمزة الثّانية بين بين ولما قلبها ألفًا فهو لحنٌ لأنّ المتحرّك لا يقلب لاجتماع السّاكنين على غير الحدّ وتحذف الهمزة الّتي يلي فاء الفعل و تعوّض عنها مدّة كراهةً للجمع بين الهمزتين وهي لغة أهل الحجاز وإدخال ألف بين الهمزتين المخففتين أو الثّانية بين بين وهي قراءة أهل الشّام في رواية هشام.

﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البَقَـرَة: 6] سواءٌ عندهم الإيمان وعدم الإيمان لكونهم مثل البهائم ثمّ كان رسول الله ﷺ يحرص على أن يؤمن به جميع النّاس ويبايعونه على الهدى فأخبره الله أنّه لا يؤمن إلا من سبق له من الله تعالى السّعادة في الذّكر الأوّل ولا يضلّ إلا من سبق له الشّقاوة في الذّكر الأوّل فهذه جملة مفسّرةً لإجمال ما قبلها فيما فيه الاستواء فلا محلّ لها من الإعراب أو حال مؤكّدة أو بدل عنه أو خبر أنّ والجملة المتقدمة على أحد الوجهين اعتراض بما هو عليه الحكم والآية ممّا احتجّ به من جوّز التّكليف بما لا يطاق بأنّ الله سبحانه وتعالى أخبر عنهم بأنّهم لا يؤمنون وأمرهم بالإيمان فلو آمنوا انقلب خبره كذبًا وعلمه جهلًا تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا. ويحتمل إيمانهم بأنّهم لا يؤمنون فيجمع الضّدان والحقّ أنّ التّكليف بالممتنع لذاته وإن جاز عقلًا من حيث إنَّ الأحكام لا تستدعي عرضًا سيّما الأمثال لكنّه غير واقع والإخبار عن وقع الشيء وعدمه لا ينفي القدرة عليه كإخبار الله عمّا يفعله هو أو العبد باختياره فإنّه إذا أخبر عمّا يفعله لا يصير واجب الصّدور بل يفعله باختياره وكذا إذا أخبر عن عدم الفعل لا يكون ممتنعًا بل يوجده باختياره وفائدة الإنذار بعد العلم بأنّه لا يستجمع إلزام الحجّة وخيار الرّسول فضل الإبلاغ، ولذلك قال سواء عليهم ولم يقل عليك كما قال لعبدة الأوثان ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ﴾ [الأعراف: 193] وفي الآية إخبار

بالغيب وإعجاز إن أريد بالموصوف أشخاص بأعينهم.

إشارة وتأويل

اِعلم أنّ الإيمان والطّاعة والعصيان والشّكر والكسالة والكفران كسائر الأحوال من الأرزاق والآجال قسمةٌ أزليّةٌ وحكمةٌ أوليّةٌ مستفادة من الجمال والجلال، عن ابن عمر رضي الله عنه عن النّبي ﷺ أنّه قال: «**خلق الله خلقه في ظلمة ثمّ ألقى عليهم من نوره فمن أصابه يومئذٍ من ذلك النّور اهتدى ومن أخطأ ضلّ جفّ القلم بما هو كائن عند الله**» ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التّغَابُن: 2] فمن كان فيه كافرًا استوى عنده الإنذار وعدم الإنذار لا يؤمن أبدًا والغرض من التّكليف ظهور كيفيّات الأدوار الأزليّة وتعريفها والأخبار عن أفعال الخلق وأحوالهم السّابقة في علمه لا الوقوع والإيقاع ليلزم المحذور، قال عليّ عليه السّلام في دعواته ومناجاته: "اللهم إنّي لم أرتكب الذّنوب والخطايا جراءةً منّي ولا استحقاقًا بحقك لكن سبق به علمك وجرى عليه قلمك".

اِعلم أنّ لكلّ اسم من الأسماء السّبعة الذّاتيّة اقتضاءً خاصًّا وارتضاءً ماضيًا مغايرًا لاقتضاء الاسم الآخر فمن كان في فرداريّة سلطنته اسم من الأسماء الذّاتيّة وحكومته كافرًا شقيًّا لا يمكن أن يصير مؤمنًا سعيدًا في هذه الفرداريّة إلى أن ينتقل نوبة فرداريّة الاقتضاء إلى اسم آخر فحينئذٍ يصير كلّما كان في ذلك الاسم باطنًا يكون في فرداريّة هذا الاسم ظاهرًا وتتبدّل السموات والأرض وتصير الدّنيا آخرة والآخرة دنيا والجنّة نارًا والنّار جنّة والشقيّ سعيدًا والسّعيد أسعد وإن كان في هذا التردّد نوع شقاوةٍ ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ [مَريَم: 71] إلى أن يبلغ مبلغ الكلّ فحينئذٍ يصير سيره سيرًا في الله، وأمّا الذين سعدوا ففي الجنّة خالدين فيها ما دامت السّموات والأرض إلى ما شاء ربّك عطاءً. فالغرض من دعوة النبيّ المنسوب إلى ذلك الاسم هو الإعلام والإنهاء إلى تنوّع اقتضاء ترتبة ذلك الاسم وبطوره ظاهرًا وباطنًا صورةً ومعنًى. ويتميّز معنى السعادة عن الشقاوة والطاعة عن المعصية لتميّز لطف الرّبّ عن قهره والتّجلّيات بعضها عن بعض.

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ قال الزّجاجي الختم والطبع واحد وهو الاستيثاق من الشيء بأن لا يدخله ولا يخرج عنه شيء وأنّ الختم على قلوب الكفّار يمنع دخول الإيمان فيها وخروج الكفر عنها وذلك بأن يخلق الله الكفر فيها ويصدّهم عن الهدى فلا يدخل الإيمان في قلوبهم.

وقال بعضهم معنى الختم والطبع حكم الله عليهم بالكفر والشّقاوة كما قال الرجل: ختمته عليه أن لا يفلح أبدًا هذا تعليل للحكم السّابق وبيانٌ لما يقتضيه.

والختم الكتم سمّي الاستيثاق من الشيء واستحكامه بضرب الخاتم عليه تسمية للملزوم باسم اللّازم لأنّه كتم به والبلوغ آخره نظرًا إلى أنّه آخر فعلٍ يفعله في إحرازه.

﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ [البَقَرَة: 7] والغشاوة فِعالة من غشاه إذا غطّاه يثبت لما يشمل على الشّيء كالعصابة والعمامة والكتابة ولا ختم ولا تغشية منها وإنّما المراد بهما أن يحدث في نفوسهم حالة وهيئة على استحباب ورسوخ الأغراض الفاسدة المسند عنه للأغراض الفاسدة المسند عنه للإعراض فيهم عن النّظر الصّحيح والحقّ الصّريح فجعل قلوبهم بحيث لا ينفذ فيها الحقّ وأسماعهم لا تعاقب استماعه وأبصارهم لا تنجلي لهم الآيات المنصوبة في الآفاق والأنفس كما ينجلي لأعين المستبصرين المعتبرين فيكون كأنّها غطيت وحيل بينها وبين الإبصار، سمّاها على الاستعارة تبعيّة كانت أو مصرّحةً أو بالكناية ختمًا وتغشيةً أو على وجه التّشبيه بأن تعقل قلوبهم ومشاعرهم الموثوقة بها بأشياء ضرب بينهما وبين الاستيقاع ختمًا وتغطيةً أو على وجه قال صاحب الكشّاف، ويحتمل أن يكون كلا نوعيه وهما الاستعارة والتّمثيل قد جعل التّمثيل من أحد نوعي المجاز قسمًا للاستعارة وهي النّوع الأخير مع أنّ بينهما عمومًا وخصوصًا قد يجتمع في مادّة واحدة وقد عبّر عن هذه الهيئة بالطّبع في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ [النّحل: 108] وبالإغفال في قوله ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا

قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ [الكهف: 28] وبالإقساء والقساوة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: 13] وبالرّين ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ [المطفّفين: 14] وهذه الهيئات من حيث إنّها الممكنات بأسرها مستندةً إلى الله تعالى واقعةً بقدرته استندت من حيث إنّها مسبّبته بما اقترحوه من الآثام وعبادة الأوثان بدليل قوله تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النّساء: 155] وقوله تعالى: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [التّوبة: 87] وإليه وردت الآية ناعيةً عليهم شايعةً على حالهم ووخامة عاقبتهم.

ولمّا كانت المعتزلة لم يسندوا الممكنات بأسرها إلى الله اضّطروا إلى هذه الآية ونظائرها اضّطرارًا شديدًا إذ ذكروا لها تأويلات واهية وتوجيهات ناهية:

الأولى: أن ألقوا ولمّا أعرضوا عن الحقّ وتمكّن ذلك في قلوبهم حتّى صارت كالطّبيعة لهم بالوصف الخلقي المجبول عليه.

الثّانية: أنّ المراد تمثيل حال قلوبهم بقلوب البهايم الّتي خلقها الله خاليةً عن الفطن أو قلوبهم مقدّر عليها ختم الله. ونظيره سال به الوادي إذا هلك وطار بالعنقا إذا طالت به غيبته.

الثّالثة: أنّ ذلك في الحقيقة فعل الشيطان والكافر لكن لمّا كان صدوره عنه بما قدّره الله تعالى أسند إليه إسنادًا إلى المسبّب.

الرّابعة: أنّ أعراقهم لمّا رسخت في الكفر واستحكمت بحيث لم يبق طريق إلى تحصيل إيمانهم سواء الإلجاء والقسر ولم يقسرهم إبقاء على عرض التّكليف عبّر عن تركه بالختم فإنّه سدّ لإيمانهم وفيه إشعار إلى تراقي أمرهم في الغيّ وتناهى انهماكهم في الضّلالة والبغي.

والخامسة: أن يكون حكايةً كما كانت الكفرة يقولون: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فُصّلت: 5] تهكّمًا واستهزاءً بهم في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [البيّنة: 1].

السادسة: أنّ ذلك في الآخرة وإنّما أخبر عنه بالماضي لتحقّقه وتيقّن وقوعه ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا﴾ [الإسراء: 97].

والسّابعة: أنّ المراد بالختم واسم قلوبهم بسمة تعرفها الملائكة فيبغضونهم ويتنفّرون عنهم.

ومدار الكلمات هذه على أنّ الله تعالى ليس خالقًا لأفعال العباد وقد شهدت المعاقد العقليّة ودلّت الشّواهد النّقليّة على أن ليس لهم فعل من أنفسهم بل بخلق الله وقد أثبتوا لها الكسب وهو أيضًا من أفعاله، والجواب عن الكلّ أنّ الله تعالى هو عالم بعدم إيمانهم وثبوت أعماله وبوقوع أحواله هذه أم لا والثّاني بطنه لوجود تنزيه الله عن الجهل ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [يونس: 61] الآية وإن كان عالمًا وجب وقوع الكلّ لأنّ العلم بعدم الإيمان لا يتحقّق إلا إذا لم يتحقّق أصلًا وهذه المقدّمة ضروريّة لأنّ العلم بعدم الإيمان لا يحصل وهذا ظاهر عند الإنصاف وترك التعصّب والاعتساف. وإنّما عطف على سمعهم وعلى قلوبهم لاشتراكهما في أنّ الإدراك فيهما من جميع الجهات وما أدرك الأبصار فمختصّ بالجهة المقابلة فجعل المانع إمّا عن فعلها الغشاوة المتحقّقة بتلك فإن قلت نظرًا إلى اللّفظ يحتمل أن يكون الإسماع داخل في حكم الختم والتّغشية فعلى أيّهما تقول، قلت على دخولها في حكم الختم كقوله تعالى: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ [الجاثية: 23] ولوقفهم على سمعهم دون قلوبهم، ولما مرّ في اشتراكهما في الإدراك من جميع الجهات وعلى أبصارهم غشاوة أي غطاء وحجاب فلا يرون الحقّ تشبيهًا بغاشية السّيرح وهي مبتدأ والظّرف مقدّم عليه خبره دليل على ما مرّ.

وقرئ بالنّصب بإضمار الفعل والحمل على الختم أي ختم الله على أبصارهم غشاوة يدلّ عليه وجعل على بصره غشاوةً وإنّما حدّ السّمع دون قرينته إشعارًا بأنّ مدركه جنس واحد وهو الصوت ومدركهما كثيرة والمراد منه حاسّة البصر، قيل لأنّ مصدر والمصادر لا تجمع فيه ما فيه.

قال سيبويه: توحيد السّمع يدلّ على الجمع لأنّه توسّط بين جمعَيْن كقوله تعالى يخرجهم من النّور إلى الظّلمات أي من الأنوار إلى الظّلمات.

قيل: المضاف محذوف أي قوّة السّمع وإنّما نكّرت غشاوة للتّعظيم أي يعني على أبصارهم غشاوة عظيمة ليس ممّا يتعارفه النّاس وهو التّعامي عن الآيات

ونوع عظيم لا يعلم كنهه إلا الله.

والبصر نور العين وهو ما يبصر به الرّائي المبصرات كما أنّ البصيرة نور القلب وهو ما يستبصر ويدرك به بواطن الأشياء وأسرارها فكأنّهما جوهران لطيفان خلقهما الله تعالى للإبصار والاستبصار.

تأويل وإشارة

قال الصّادق رضي الله عنه: « قطع الله قلوب أعدائه عن نوره وأقعدهم على مائدة إياسته وأصمّهم عن ذكره وأعماهم عن برّه ورحمته» وقال أيضًا: «الختم على وجوه منهم ختم قلبه براية الإعراض والأعواض».

ومنهم من ختم قلبه بالإيمان ومنهم من ختم قلبه بالمعرفة، وإنّما ذكر من الحواسّ السّمع والبصر لأنّ معظم المطالب الدّينيّة والمآرب الحكميّة والمعارف الإلهيّة منوط بهما وأيضًا هما من الصّفات الذّاتيّة دون سائر الحواسّ ومنهم من ختم قلبه التّوحيد فكلٌّ واقف مع ذلك الختم هذا.

أقول الغرض بيان درجات الخلق من المؤمنين الموافقين بعد بيان حال الكفّار والمنافقين، وأمّا أهل الله فعليهم مختوم بالحقّ لا يتّسع غير الحقّ ولا يرى من الأشياء إلا الحقّ مع الحقّ، الدّنيا حرامٌ على أهل الآخرة والآخرة حرامٌ على أهل الدّنيا، وهما حرامان على أهل الله.

قال بعضهم: أهل النّظر نظروا من الله إلى الأشياء فشاهدوها في أسرار القدرة وأهل الاستدلال استدلوا بالأشياء على الله فحجّتهم عقولهم واستدلالهم بنظرهم عن بلوغ كنه المعرفة بالله.

وقال عليّ كرّم الله وجهه: «طبع الله على قلوبهم برؤية أفعالهم بمعاونة النّفوس حتّى كفروا سرًّا وآمنوا علانيةً».

وأقول: «ختم على قلوب الّذين كانوا في فرداريّة اسم الآخر ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: 179]».

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: 7] القتل والأسر في الدّنيا والعذاب الدّائم في

العقبى والعذاب كالنّكال وزنًا ومعنًى، يقال أعذب عن الشيء إذا أمسك عنه كما يقال نكّل عنه أي أمسك عنه.

ومنه الماء العذب لأنّه يقمع العطش ويردعه بخلاف الملح فإنّه يزيده، يدلّ عليه تسميتهم إيّاه نقّاخًا لأنّه ينفخ العطش أي يكثره وفراتًا لأنّه يرفعه على القلب أي ينصب ويتّسع فيه.

إشارة وتأويل

عذابهم بعدهم عن قرب مولاهم حتّى لم يدركوا بركات كراماتهم ودرجات حسناتهم في العقبى.

اِعلم أنّ البعد يتضمن القرب كما أنّ العذاب يتضمّن العذب إذ الموجودات كانوا في حرم قربه تعالى في مقام ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 172] فابتعدوا عنه وتردّدوا إلى أن وصلوا إلى أسفل السّافلين في غاية البون، وهم في هذه الحال في غاية القرب أيضًا إذ نسبتهم إلى الله في الحالتين واحدة ليطابقهما في كمال الجمعيّة لتعانق القوسين فيهما في استغربوا عن النّاسوت في العروج والتّرقّي واستقربوا بالذّات واللّاهوت وصار عذابهم وبعدهم عذبًا وقربًا لأنّ امتداد ألف الأنانيّة واعتداد حرف خصوصيّة الهويّة الغيبيّة قد ارتفعت عن البين وانمحت نقطة الغين واتّصل العين بالعين وناب الواحد عن الاثنين.

أنـا مـن أهـوى ومـن أهـوى أنـا نـحـن روحـان حـلـلـنـا بـدنـا

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ٨﴾

تفسيره حقيقة لعدم مطابقة لسانهم لما في قلوبهم لانتفاء التّصديق القلبيّ وارتفاع الإذعان الغيبيّ ولامتناع الاعتقاد بالرّسل سيّما بمحمّد وبما جاء به النّبيّ من جماعة من جنس الحيوان تميّزت بالصّورة النّوعيّة الإنسانيّة.

وهو لفظ وضع للجمع كالقوم والرّهط واحده إنسان أصله الأناس حذفت الهمزة تخفيفًا كما قيل لوقه في اللوقه فحذفها مع لام التّعريف كاللّازم فلا يقال الأناس يدلّ عليه أناسيّ وسمّوا بذلك لظهورهم من قولهم، أي: هم يؤنسون

ويستأنسون أي يبصرون كما سمّي الجنّ جنًّا لاجتنانهم عن العين والأبصار وكذلك سمّوا البشر بشرًا لعرائه عن الشّعر السّاتر ووزنه فُعال بضمّ الفاء لأنّ الزّنة على الأصول لا يرى أنّهم يقولون وزن ق إفعل، وأمّا اللّام فللجنس ويجوز أن يكون للعهد.

والإشارة للكافرين المذكورين يعني ومن النّاس ناس يقولون فمن موصوفة لا موصولة على التّقدير الأوّل وموصولة على الثّاني مراد منها عبد الله بن سلول وأصحابه فلمّا ذكر أحوال المرافقين من المؤمنين والكفّار وأردفهم بذكر المنافقين وهم من كلّ منهما شيء وهم المنافقون الّذين آمنوا بأفواهم ولم تؤمن قلوبهم وهو أخبث الكفر وأبغضهم إلى الله لأنّهم توهّموا الكفر وخلطوا به الإيمان خداعًا واستهزاءً ولذا طوّل في بيان خبثهم وفسادهم وإظهار خبثهم في بثّهم البغي والإفساد والاستقراء وتمكّنوا في الدّرك الأسفل يوم التّناد. وههنا قسم رابع وهم أخفوا إيمانهم وقلوبهم مملوءة بنور الإيمان ولم يظهر منهم لا إقرار ولا إنكار فإنّهم في الشّرع لكونهم غير مقرّين في الظّاهر محكوم عليهم بالكفر يجري عليهم أحكام الجزية والإهانة والاستحقاق والجزئية وأمّا عند الله فحالهم غير معلوم إلا أنّ الظّاهر لما كان إيمانهم الخفيّ في غاية القوّة لا يدخلون النّار ولانتقاء الأعمال والإقرار باللّسان الظّاهرة في الظّاهر الّتي ثمراتها ونتائجها الجنّة ونعيمها وهما ركنان من الإيمان فلانتفائهما عنهم لا يدخلون الجنّة ولا يلتذّون بنعيمها فيلجهم إلى البرزخ الحائل والمقام الفاصل بينهما وهو الأعراف.

إشارة وتأويل

اعلم أنّ المنافقين هم الّذين انتقلوا من فرداريّة اسم إلى فرداريّة اسم آخر ولم يستكملوا في واحد منهما لاستحكام أمراضهم المزمنة ولم يندفع عنهم في فرداريّة اسم لرداء مادّة أمراضهم فلا بدّ وأن ينتقلوا في فرداريّة الاسم الثّالث والرّابع إلى غير ذلك قال عليه الصّلاة والسّلام: «**المؤمن يأكل من أمعاء واحدة والمنافق يأكل من سبعة أمعاء**» ولذلك كان مقامُهم في الدّرك الأسفل وعذابهم أشدّ ومدّته أكثر وأطول ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ

إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ [غافر: 11] ﴿يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: 9] ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: 56].

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ تفسيره بيان في المعنى ليقول الخدع أن توهم غيرك خلاف ما تخفيه ويزيد من المكروه لتنزيله عمّا هو بصدده. من خادع الضّبّ وخدع فإنّه إذا مدّ الحارس يده على باب جحره أوهمه إقباله عليه فإذا به خرج من باب آخر. ولمّا كانت المخادعة بين الاثنين فخداعهم مع الله ليس على ظاهره لأنّه لا يخفى خافية عليه ولأنّهم لم يقصدوا خديعته بل المراد بها مخادعة رسول الله ﷺ على حذف المضاف أو على أن معاملة الرّسول في الحقيقة هي معاملة الله من حيث إنّه خليفته كما قال الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: 80] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: 10].

وأمّا صورة صنعتهم مع الله من إظهار الإيمان واستبطان الكفر والطّغيان وصنع الله معهم بإجراء أحكام المسلمين عليهم وهم أخبث الكفّار في الدّرك الأسفل أنّه استدراجًا لهم في إخفائهم لهم وإجراء أحكام الآلام عليه مجازاةٍ لهم ظاهرًا فيمثّل لصنعهم بصورة صنع المخادعين ويحتمل أن يراد بيخادعون معنى يخدعون لأنّه بيان القول واستئناف بذكر ما هو الغرض إلا أنه أخرج إلى زنة تفاعل للمبالغة فإنّ الزّنة لما كانت للمبالغة والفعل وقع فيه التّشارك جاء أحدكم وأبلغ ما هو ممّا تفرّد فيه الفاعل للا مقابلة ومعارضة ومباراتٍ ومناقضة فاستحبت ذلك لزيادة قوّة الدّاعي إليه ويعضده قراءة يخدعون، وكان غرضهم في ذلك أن يدفعوا عن أنفسهم مما يتطرّق به من سواهم من الكفرة وأن يفعل بهم ما يفعل بالمؤمنين من الإكرام والإعطاء، وأن يختلطوا بالمسلمين فيطّلعون على سرائرهم ويذيعونها إلى أهل ناديهم ويغشون إلى من هو مناديهم إلى غير ذلك من الأغراض الفاسدة والأعراض الفاسدة.

﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ [البقرة: 9] لأنّ وبال خدعتهم ونكال مكرهم واستدراجهم وبدعهم راجع إليهم فكأنّهم يخدعون أنفهسم لأنّ الله تعالى يطلع

محمدًا على أسرارهم وكفرهم ومكرهم ونفاقهم فيفضحون في الدّنيا ويستوجبون العقاب الشّديد في العقبى.

قرأ شعبة ونافع وابن كثير وأبو عمرو بالألف يجعلوه من المفاعلة الّتي لا تتأتّى من الواحد والباقون بلا ألف لأنّ المخادعة لا تتصوّر إلا بين الاثنين المتقابلين.

والمعنى أنّ دائرة الخداع يدور عليهم وكنايتها ونائبتها ترجع إليهم وما يعاملون تلك المعاملة المشبهة بمعاملة المخادعين إلا بأنفسهم لأنّ ضررها يلحقهم ومكرها يحيق بهم فما خدعوا إلا أنفسهم حيث حدّثتهم بالأمانيّ وحملتهم على مخادعة من لا يخفى عليه خافية لا في القلب ولا في النّفس ولا في خزائن العقل والحسّ والنّفس في الأصل ذات الشيء وحقيقته، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك.

ثمّ قيل: الرّوح لأنّ نفس الحي به وللقلب لأنّه محلّ الرّوح الحيوانيّ يقال: المرء بأصغريه أي القلب واللّسان الحديث أو متعلّقه. والدّم الرقيق الأشقر الكائن من لطافة الأخلاق المحمودة. وقد يطلق على الجزء الأفضل وهو جوهر مجرّد يتعلّق بالبدن تعلّق التّدبير والتّصرّف كما مرّت الإشارة إليه. والحقّ أنّ العقل والرّوح والنّفس والقلب متحدة الحقيقة متعدّدة الصّفات والآثار والطّبيعة فباعتبار الإدراك والتّعقّل قيل العقل وباعتبار الحياة والحسِّ والحركةِ الرّوحُ وباعتبار النّفسِ النّفسُ وباعتبار جمعيّة الكلّ مع شيء آخر هو القلبُ.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: 9] أي لا يحسّون ولا يدركون أنّهم يخدعون أنفسهم وأنّ وبال خداعتهم دائرة إليهم وتعود عليهم. الشّعور بالشّيء العلم به علمًا حسيًّا من الشّعار ومنه مشاعر الإنسان العشرة يعني أنّ لحوق ضرر ذلك بهم كالمحسوس وهم لتمادي غفلتهم كالّذي لا حسّ له ولا شعور ولا إدراك.

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ
ٱللَّهُ مَرَضًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: 10] أي شكّ ونفاق وهو هيئة غير طبيعيّة يعرض

للإنسان ويضرّ بأفعاله الطبيعيّة ضررًا أوّليًّا والصّحة ضدّها ولا واسطة بينهما إلا إذا نزلت الأفعال على الجميع فيهما وهو قسمان: باطني وهو يضرّ بالأفعال الباطنة الّتي هي العلوم والإدراكات والمعارف الإلهيّة والاعتقادات الخفيّة وذلك كالجهل المركّب الّذي هو مادّة النّفاق وهو أردأ أمراض النّفوس والكفر والشّرك وغير ذلك من الأخلاق الرّديّة والصّفات الدّنيّة.

مطلب الجهل المركب

والمرض هو حقيقة هيئة غير طبيعيّة للبدن أو أجزائه، أو في النّفس أو فيما يضرّ بالأفعال الطّبيعيّة والأحوال النّفسيّة الإنسانيّة والحالات القلبيّة ضررًا أوّليًّا. ومجازًا هو الأغراض النّفسانيّة والأغراض الفاسدة الّتي هي محلّ لكمال النّفس كالجهل المركّب وسوء الاعتقاد والحقد والحسد وحبّ الجاه والمعاصي فإنّها مانعة عن النّيل إلى الفضائل والعلوم الّتي هي كالحياة والآية يحتملها، فإنّ قلوبهم كانت متألمة محزونة على ما فات عنهم من الرّياسة وحسدًا على ما يرون من ثبات أمر الرّسول واستعلاء شأنه وتعالى إعلام برهانه يومًا فيومًا فكلّما ازدادت شمس الإسلام ارتفاعًا واستعلاءً وبدر الدّين ارتفاعًا واستنارةً ازدادوا غصّةً ومحنةً وحقدًا وحسدًا وبعدًا.

﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ﴾ [البَقَرَة: 10] فإنّ ازدياد مرضهم حسب ازدياد ارتفاع الدّين واستطاع شأن أهل اليقين قال الصّادق: "في قلوبهم حال لا يقدرون أن يؤمنوا بالله وبالرّسول" وهي القطيعة عن الحق فزادهم الله حالًا وهي تباعدٌ عن كلّ خير فزيادة ذلك إمّا بالطّبع أو بازدياد التّكليف وتكرار الوحي وتضاعيف النّصر وإسناد الزّيادة إلى الله من حيث إنّه مسبّب من فعله وإسنادها إلى السّورة في قولهم فزادتهم رجسًا لكونه سببًا ويحتمل أن يراد بالمرض ما يدخل في قلوبهم من الجبن والجور والجهل المركّب والحور، قال النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام: «**نعوذ بالله من الحور بعد الكور**» حين شاهدوا شركة المسلمين وإمداد الله بهم بالملائكة وقذف الرّعب في الرّوع "**نصرت بالرّعب مسيرة شهر**" الحديث، وبزيادته تضعيف المرض بما زاد لرسوله نصرةً على الأعداء وتسلّطًا في البلاد بالأعداء ولهم عذاب أليم.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وجع بمعنى الموجع كالسّميع بمعنى المسمع يخلّص الوجع إلى قلوبهم. يقال ألم أليم كوجع وجيع، ووصف العذاب على طريقة جَدَّ جَدُّهُ فإنّ الألم في الحقيقة للمؤلم المعذّب كما أنّ الجدّ للجادّ.

﴿بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ [البَقَـرَة: 10] أي بسبب كذبهم وهي قراءة الكوفيين وعاصم وحمزة والكسائي وقرأ الباقون بالتّضعيف أي بسبب تكذيبهم الرّسول بقلوبهم. والكذب هو الخبر عن الشيء على خلاف ما هو به وهو حرام كلّه مسقط للمروءة وللعدالة والفتوّة وهو رأس كلّ الذّنوب وتركه مفتاح تمام المكارم ودركه مطيّة جميع القربات كما ورد في الحديث فيما رواه أبو ذرّ رضي الله عنه حيث سأل: "**المؤمن يزني قال: نعم وهو مؤمن وإن زنى وإن سرق**، ثمّ كرّر السّؤال، **على رغم أنف أبي ذرّ وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي ذرٍّ وإن زنى وإن سرق**" ولذا علّل به استحقاق العذاب حيث رتّب عليه. وأمّا ما يروى عن إبراهيم صلوات الله عليه أنّه كذّب ثلاث كذباتٍ فالمراد التّعريض، ولمّا كان صورته صورة الكذب سمّي به. وعن أبي بكر الصّدّيق رضي لله عنه وروى مرفوعًا: «**إيّاكم والكذب فإنّه مجانبٌ للإيمان**» من قولهم كذب الوحشي إذا جرى شوطًا ثم وقف لينظر ما وراءه فإنّ المنافق متوقّف متردّد في أمره ولذا قيل مذبذب قال رسول الله ﷺ: "**المنافق كمثل الشّاة الفحل العائرة بين الغنمين يعر إلى هذه مرّة وإلى هذه أخرى**".

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [البَقَـرَة: 11] بالكفر والمعصية وتعويق النّاس عن الإيمان بمحمّد والقرآن أو بتبديل الملّة وتغيير السّنة وتحريف كتاب الله عزّ وجلّ. الفساد في الأرض تهييج الحروب والفتن لأنّ ذلك انتفاء انتظام أحوال النّاس في المعاش والمعاد ولفساد الزّروع وكساد رواج الرّيوع وعناد المنوع في المنافع الدّينيّة في الأصول والفروع والدّنياويّة من انهدام المراتع وقلّة الشّراء والبيوع وتحريف كتاب الله وتعويق الخلق عن الإيمان بالله وبرسوله وبما جاء به وإذا تولّى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنّسل وهو في الأصل الخروج عن الاعتدال واستقامة الأحوال الطّبيعيّة ومنه ممالأة الكفّار

عليهم وإفشاء الأسرار إليهم وغير ذلك ممّا يحلّ بالشّرائع ويوجب الإعراض عنها، فإنّ في انتفائها كرّة الهرج والمرج وهتك العرض والفرج والقابل هو الله أو بعض المؤمنين موضع إذا قيل لهم من الإعراب، أمّا إذا فمنصوب إمّا لأنّه ظرف أو اسم ظرف وهو الوقت والحين كأنّك قلت اذكر حين القول لهم أو يومًا ووقتًا قيل لهم وهو مجهولٌ، قال أصله قول انقلبت كسرة الواو إلى الفاء وقلبت ياء معطوفة على يكذبون أو على يقول آمنّا لأنّك إذا قلت: ومن النّاس من إذا قيل لهم لا تفسدوا كان صحيحًا والأوّل أوجه لا يفسد مفعول قائم مقام الفاعل لقيل على ما عرفت أي إذا قيل لهم هذا القول.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ﴾ [البَقَرَة: 11] إنّما لقصر الحكم على شيء كقولك إنّما ينطلق زيدٌ أو لقصر الشيء على حكم نحو إنّما زيدٌ كاتبٌ إذ المعنى أنّه لا يصحّ مخاطبتنا بذلك فإنّ شأننا ليس إلا الإصلاح وأنّ حالنا صحّة متمحّضة له حالة خالصة عن شوائب الفساد فيكون ردًّا على النّاصح بأبلغ وجه وآكد طريق.

(ألا) مركّبة من همزة الاستفهام وحرف النّفي لإعطاء معنى التّنبيه على تحقيق ما بعدها والاستفهام إذا دخل على النّفي أفاد تحقيقًا أليس ذلك بقادر الآية.

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ١٢﴾

ردًّا لما ادّعوه أبلغ ردّ للاستئناف به وتصديره بحرف التّأكيد وألا المنبّهة على تحقيق ما بعدها وأنّ للتّحقيق فإنّ همزة الاستفهام الّتي للإنكار إذا دخلت على النّفيّ أفاد تحقيقًا ولذلك لا تكاد تقع الجملة بعدها إلا مصدّرة بما يتلقّى بها القسم وأختها، إمّا الّتي من طلائع القسم وإمّا تعريف الخبر وتوسّط الفصل والاستدراك بلا يشعرون فردّ لما في قولهم: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ﴾ [البَقَرَة: 11]، من التّعريض للمؤمنين.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ١٣﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ﴾ من تمام النّصح والإرشاد فإنّ كمال الإيمان مجموع

الأمرين الإعراض عمّا لا ينبغي ويعني وهو المقصود بقوله لا تفسدوا، والإقبال إلى ما ينبغي وهو المطلوب بقوله آمنوا. ﴿كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: 13] أي أصحاب محمّد الّذين أخلصوا في إيمانهم اختصّوا بكمال إتقان إيقانهم "**من اشتغل بما لا يعنيه فإنّه ما يغنيه**" الحديث في حيّز النّصب على المصدريّة وما مصدريّة أو كافّة مثلها في ربّما أي آمنوا إيمانًا كإيمان النّاس الكاملين في الإنسانيّة العاملين بقضيّة العقل الصّريح ورضيّة النّظر الصّحيح، فإنّ اسم الجنس كما يستعمل لمسمّاه مطلقًا يستعمل لما يستجمع المعاني المخصوصة المفقودة منه، ولذلك يسلب عن غيره فيقال زيدٌ ليس بإنسان، وقد جمعها الشّاعر:

إذ النّاس ناسٌ والزّمان زمانٌ

ويجوز أن يكون اللّام للعهد والمراد به الرّسول أو من معه أو من آمن أهل جلدتهم كعبد الله بن سلام وأصحابه، والمعنى آمنوا إيمانًا مقرونًا بالإخلاص متمحّضًا عن شوائب النّفاق مماثلًا لإيمانهم، واستدلّوا به على قبول توبة الزّنديق، وإنّ الإقرار باللّسان إيمان وإلا لم يفد التقييد وفيه ما فيه.

﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ﴾ أي الّذين قلّت عقولهم، جمع السّفيه ومصدره السّفَه والسّفاه والسّفاهة يعني سخافة الرّأي نقضها نقصان العقل وخفّته يقابله الحلم والوقار الّذي يستتبع الحكمة، ولذا سمّى الله الصّبيان والنّساء سفهاء، ولذا أمر رسول الله ﷺ بطلب الحلم والوقار: «**اطلبوا العلم واطلبوا مع العلم السّكينة**» والحلم لمن تعلّمون ولمن تعلّمتم منه ولا تكونوا من جبابرة العلماء فيغلب جهلكم علمكم ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ﴾ [النساء: 5] عنوا أصحاب محمّد عليه السّلام، فإنّ أكثر المؤمنين بدءًا كانوا فقراء، ومنهم موالي كصهيب وبلال وغيرهم، وذلك دليل على صحّة دعواه كما سأل هرقل عظيم الرّوم في أن السفهاء، أي الضّعفاء تابعوه أم الفقراء والأقوياء قال بل الضّعفاء قال شأن الأنبياء هكذا.

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: 13] أي لا علم لهم لعدم جريهم على مقتضى العقل وقضيّته فإنّ أصحاب محمّد جرت أمورهم على وجه يفضي إلى سعادة النّشأتين والتّجافي عن الشّقاوة في الدّارين، وهم لا يعلمون

شياعة شناعتهم ووخامة مآلهم وسوء عاقبتهم ووقاحة أحوالهم وقباحة أفعالهم، ردّ عليهم ومبالغة في تجهيلهم، لأنّ الجاهل الجهلة مجازم المغارم وضررها لجسارته إلى خلاف ما في الواقع أعظم ضلالةً وأتمّ جهالةً من المتوقف المتأمّل المعترف بجهله فإنّه ربّما يرجع ويفيد وتنفعه الآيات الّتي بها تنذر وتبشّر.

وإنّما قال ههنا لا يعلمون وفي إذًا بلا يشعرون لأنّه أكثر طباقًا وأوفر وفاقًا لذكر السّعة، ولأنّ الوقوف على أمر الدّين الفارق الفاصل والتّمييز بين الحق والباطل ممّا يفتقر إلى مزيد نظر وعنيد تأمّل وفكر، وأمّا النّفاق وما فيه من الفتن والشّقاق فإنّما يدرك بأدنى تفطّن وشعور وإحساس، ولكونهم متردّدين لا مسكة لهم في إمساك السّرّ المضمر وكتمان الشرّ المجمر، ولعدم الاستدامة على الخير تمثّلوا في جماعة لا يخفى فضيحتهم على أحد.

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾

أنزلت في عبد الله بن أبي سلول الخزري عظيم المنافقين من رهط سعد بن عبادة كان إذا لقى سعدًا يقول نعم الدّين دين محمّد وكان إذا رجع إلى رؤساء قومه من أهل الكفر قال شدّوا أيديكم بدين آبائكم قد استقبله مع أصحابه نفر من أصحاب رسول الله فقال عبد الله لأصحابه: انظر كيف ردّ هؤلاء السّفهاء عنكم، وأخذ يد أبي بكر رضي الله عنه وقال: مرحبًا بالصدّيق سيّد بني تميم وشيخ الإسلام ثاني رسول الله في الغار الباذل نفسه وماله، ثمّ أخذ بيد عمر فقال: مرحبًا بسيّد بني عدي بن كعب الفاروق القويّ في دين الله الباذل نفسه وماله لرسول الله فقال له عمر: يا عبد الله اتّقِ الله ولا تنافق، قال: المنافقين في الدّرك الأسفل، ثم أخذ بيد عليّ فقال: مرحبًا بابن عمّ رسول الله وحبيبه سيّد بني هاشم ما خلا رسول الله فقال له عليّ: يا عبد الله اتّقِ الله ولا تنافق فإنّ المنافقين أشرّ خلق الله فقال عبد الله: مهلًا يا أبا الحسن إنّ إيماننا كإيمانكم وتصديقنا كتصديقكم، أي إثم اقترفوا، فقال عبد الله لأصحابه: كيف رأيتموني، فرجع المسلمون إلى رسول الله ﷺ وأخبروا بذلك فأنزلت: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ

﴿ءَامَنُوا﴾ اللّقاء المصادفة يقال لقيته إذا صادفته ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ كإيمانكم بيانًا لمعاملتهم مع المؤمنين والكفّار وما صدرت القصّة به فسياقه لبيان مذهبهم وتمهيد فليس بتكرير.

﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ أي رؤسائهم وقائديهم وكبرائهم وعظمائهم قال ابن عبّاس رضي الله عنه: "هم خمسة نفر من اليهود ولا يكون كاهن إلا ومعه شيطان" بالغة له كعب بن الأشرف بالمدينة وأبو يزيد من بني أسلم وعبد الدّار من بني جهينة وعود بن عامر في بني أسد وعبد الله بن السّوراء بالشّام وإنّما عدّي بإلى لتضمّنه معنى الانتهاء أي إذا رجعوا وأنهوا إلى شياطينهم المترددين العاتبين من الجنّ والإنس.

جعل سيبويه نون الشيطان الّتي هي تارة أصليّة من شطن إذا بعُدَ فإنه يبعد عن الإصلاح والصّلاح، وأخرى زائدة على أنّه شاط إذا بطل ومن أسمائه الباطل.

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ﴾ أي مصاحبوكم وموافقوكم في الدّين والاعتقاد والحبّ والوداد. إنّما خاطب المؤمنين بالجملة الفعليّة والشّياطين بالجملة الاسميّة المؤكّدة بأنّ لأنّهم قصدوا بالأولى دعوى إحداث الإيمان وحدوث المعاهدة والإتقان للأمور المصلحة للأحوال لا عن صميم قلب وخلوص اعتقاد وثبوت رأي وكمال اعتماد وتمام اعتداد وبالثّانية تحقّق ثباتهم على ما كانوا عليه ولأنّه لم يكن له باعث من عقيدة في صدق رغبة فيما خاطبوا به المؤمنين من المهاجرين والأنصار.

﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البَقَـرَة: 14] تأكيد لما قيل لأنّ المستهزئ بالشيء المستخفّ به مصرٌّ على خلافه بدلًا منه لأنّ من حقّر الإسلام فقد عظّم الكفر، أو استئناف وكان الشّياطين قالوا لهم لمّا قالوا إنّا معكم إن صحّ ذلك فما لكم توافقون المؤمنين وتدعون الإيمان فأجابوا بـ ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ من الهزء وهو القتل السّريع. يقال هزء فلان إذا مات على مكانه.

إشارة وتأويل

مطلب خلق القلب

في قلوبهم مرض أي غرض دويّ وعرض مديّ فيها به ليشتغل عن الحق

ويشغل ما يردّ بقوله الخلق. قيل هو غفلة عن العقبى وهمّته شاغلة عنه إلى الدّنيا وإنّما نسبته إلى القلب لأنّه أوّل ما خلق من الإنسان وأصله لما ثبت في علم التّشريح أوّل ما يظهر في النّطفة في الرّحم ثلاث نقط أوّلها نقطة هي مادّة القلب ثم نقطتان أخريان أحديهما للكبد وهي معدن الرّوح الطبيعي والأخرى للدّماغ وهو من الرّوح النّفسانيّ ومتعلّق النّفس الإنسانيّ، فكما أنّ وجوده أصل لغيره من الإعطاء فكذلك حاله الأصليّة وهي الصّحة والمرض أصل لأحوال سائر الأعضاء وأفعالها لقوله عليه السّلام: "**إنّ في جسد بني آدم لمضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد وإذا فسدت فسد ألا وهي القلب**".

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ [البَقَرَة: 11] أي كفّار القوى النّفسانيّة والطّبيعيّة الّتي تطاع تارةً للنّفس الأمّارة وأخرى للنّفس اللّوامّة التّابعة للقلب ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [البَقَرَة: 11] أي أرض القلب وزرع القلب هي المعارف الفطريّة وحبوب العلوم النّظريّة المزروعة في الفطرة الأولى فيها ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الواقِعَة: 64]. ولا ينكروا أولياء الله ولا يشوشوا قلوب المرتّدين ولا يلقوهم إلى مهلكة الفراق وقنطرة النّفاق ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ الأولياء فإنّ إنكارهم يوجب رفع درجاتهم عند الحقّ وترويجهم عند الخلق فإمّا حال نفوسهم فإنّهم أوقعوها في مدارج الاستدراج وحجّتهم عن صلاح المنهاج وإصلاح الرّجوع والمعراج فاحتجبوا عن المعنى إلى مضارع الدّعوى ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: 104].

قال الصّادق: «لا تدخلوا ميدان محبّتي وفي سرّكم مساعدة أعدائي: قالوا: إنّا ندخلها بالصّلح والصلاح لا بالعدواة والتّراح» فأخبر الله عن دخولهم بالسّفاهة والعداوة وختم عليهم بأنّهم لا يشعرون الصّلح لعدم اقتضاء نشأتهم الصّلح والصلاح والشّعور به.

﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾ قال الصّادق: «من اختار مراده على مراد مولاه فقد وافق الشّياطين» ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ۖ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإسرَاء: 27] ومن كان مراده مراد العدوّ وهو عصيان مولاه وهو يتمنّى الجنّة واللّقاء فقد استهزأ بنفسه وقلوبهم في غطاء وأعينهم في عماء لا يبصرون منافع

تجارتهم ومرابع نشأتهم ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [البَقَرَة: 16] فالتّاجر هو الّذي اشترى بفنائه فيه وترك رضاءه في رضائه وأن يجعل نفسه تحت رضاء مولاه فحينئذٍ يبقى ببقائه ولا يرضى إلا به «ومن قتلته فأنا ديته».

﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾

مطلب استهزاء الله بالكفار

﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أي يجازي بهم جزاء الاستهزاء وإنّما سمّي الجزاء باسم ما يجازي به لكون جزاء سيّئة سيّئة مثلها إمّا بمقابلة اللّفظ باللّفظ أو لكونه مماثلًا له في القدر "**ومن جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسّيئة فلا يجازى إلا مثلها**" أو لأنّه يرجع وبال الاستهزاء عليهم فيكون كالمستهزئ له لنفوسهم ولأنّه نزل بهم الحقارة والهوان الّذي هو لازم الاستهزاء والغرض منه أو يعاملهم معاملة الاستهزاء إمّا في الدّنيا بإجراء حكام المسلمين عليهم واستدراجهم بالإمهال والزّيادة في النّعمة على التّمادي في الطّغيان وانهماكهم في الضّلالة والعصيان، وإمّا في الآخرة فبأن يفتح لهم وهم في النّار بابًا إلى الجنّة فيسرعوا نحوها وإذا وصلوا إليه سدّ عليهم الباب وردوا إلى ما كانوا عليه من العذاب ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المطفّفين: 34 - 36] وأيضًا إنّ الله تعالى إذا قسّم النّور يوم القيامة للجواز على الصّراط أعطى المنافقين مع المؤمنين الّذين كانوا في الدّنيا في بلد وقبيلة واحدة نورًا فإذا عبروا المؤمنين بقوا المنافقين في الظّلمات وسقطوا في النّار والدّركات.

﴿وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البَقَرَة: 15] معطوف على ﴿يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ ومن جملته وإنّما جيء بالفعل المضارع مخالفًا لما قالوا نحو يستهزؤون إيماءً إلى أنّ الاستهزاء وما في حيّزها يحدث يومًا فيومًا عن حال إلى حال ويتجدّد حينًا بعد حين أو لا يرون أنّهم يفتنون في كلّ عام مرّة أو مرّتين وأنّ آثار غصصها تتوارد على قلوبهم وأكبادهم متواليًا متواترًا والمدّ ههنا هو الزّيادة والتّقوية من مدّ الجيش وأمدّهم وقوّاهم زادوا عددًا وقوّةً، التّرك والإهمال والإطالة ومن الأوّل

مددتُ السّراج والأرض إذا أصلحتها بالزّيت والسّماد أي من المدد لا من المدّ في العمر والإمداد والإهمال يستعملان باللّام كما يقال وأملي لهم ونمدّ له ويؤيّده قراءة ابن كثير (ويُمِدُّهم) بضمّ الياء وكسر الميم وهما بمعنى واحد إلا أنّ أكثر المدّ أكثر ما يأتي في الشرّ والإمداد في الخير ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ [مَريَم: 79] ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ [الإسرَاء: 6] والمعتزلة لمّا تعذّر عليهم إجراء الكلام على ظاهره بناءً على قاعدتهم الواهية وعقائدهم السّاهية قالوا لما منعهم الله الطّاقة الّتي منحها المؤمنين وخذلهم بسبب كفرهم وإصرارهم عليه سدّ وهم طريق التّوفيق على أنفسهم فرأت قلوبهم بسببه ظلمةً تزايد قلوب المؤمنين بالإيمان انشراحًا ونورًا كَمَن الشيطان في إغوائهم فزادهم طغيانًا أسند ذلك إلى الله إسناد الفعل إلى المسبّب وأضاف الطغيان إليهم لئلا يتوهّم أنّ إسناد الفعل إليه على الحقيقة.

أصل يمدّهم يمدّ لهم في أعمارهم كي ينتهوا ويطيعوا فما زادوهم إلا طغيانًا وعنادًا وتعنّتًا فحذفت اللّام وعدي الفعل بنفسه كما في قوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ [الأعرَاف: 155]. أو بتقدير يمدّهم استصلاحًا وهم مع ذلك يعمهون في طغيانهم، والطّغيان بالضمّ والكسر تجاوز في العصيان والغلوّ في الكفر والكفران وقال لموسى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [طه: 24].

العمه التحيّر هو مثل العمى إلا أنّ العمى عامّ في البصر والرّأي والعمه في الرّأي خاصّة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ
فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ [البَقَرَة: 16] أي الكفّار والمنافقون هم استدلّوا واختاروا الكفر على الإيمان والنّفاق على الوفاق والخلوص والإتقان.

تنصّرت بعد الحقّ عارًا للطمة ... ولم يكن فيها لو صبرت لها ضررْ
فأذكرك فيها لجاج جمّته ... فبعتُ بها عين الصّحيحة بالعورْ
فيا ليت أمّي لم تلدني وليتني ... صبرت على القول الّذي قاله عمرْ

أنشده نصرانيّ أسلم ثم خاصم مسلمًا فلطم وجهه فجاء إلى عمر فشكى على النّصرانيّ فأمر عمر المسلم أن يلطمه فلطمه فارتدّ النّصرانيّ عن الإسلام إلى النّصرانيّة فقال هذا الشّعر فذكر السّمع وأراد الاستدلال واختار إنما أخلّوا بالهدى الّذي جعل الله لهم في الفطرة الأولى الّتي فطر النّاس عليها لأنّهم اختاروا الضّلالة على الهدى واستحبّوا الغباوة على ذكاء النّهى وهذا الاختيار إنّما هو اختيار الحقّ وإرادته هو مشاهدة جمال الحقّ وصفات الذّات والوجود المطلق في النّشأة الحسيّة بالمبادئ النّفسيّة.

﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ [البَقَرَة: 16] أي فما ربحوا في تجارتهم الّتي رفضوا لها الوطن الأصليّ الموطن الأوّليّ الأزليّ إلى الموطن السّفليّ ليحصّلوا هنا ما ليس في ذلك الموطن ويكمّلوا في شهود كمال مصانعه بما ليس في ذلك الموطن وهو معاينة كمال صنع الصّانع ووضع البدايع لينتقل منه إلى معاينة صفاته الكماليّة وتجليّات أسمائه الذّاتيّة ونعوته الإلهيّة مفصّلًا ومجملًا ويعبده بأكمل عبادة ويعرّفه أتمّ معرفة ليتعرّج ويتصعّد إلى سماء درجات جنّات تجلّياته الذّاتيّة على وجه يتضمّن سائر التّجليّات الأسمائيّة والأفعاليّة والآثاريّة والجمعيّة الكليّة والمعيّة الأزليّة والأبديّة بنعت السّرمديّة إلا أنّهم لمّا ضيّعوا رأس مالهم وهو الإسلام الّذي تولّد عليه في الفطرة الأولى والنّشأة العليا «**كلّ مولودٍ يولد على فطرة الإسلام**» الحديث.

بطلت تجارتهم فما ربحوا فيها لعدم استسلامهم لدلالة المستبصر العارف بقيمة متاع ذلك العالم الّذي بعثه الله تعالى إلى عالمنا هذا ليدلّنا على تعرّف قيمة متاع العالمين ويذكرنا من الميثاق والعهود الّتي أخذها معنىً وهو الرّسول عليه السّلام فمنّا من وفّى بما عاهده الله به في مقام ألستُ بربّكم وأطاع بما ظهر منه وشاع من إدلال الدّليل إلى ما باع وصرف عمره عمّا ضاع إلى ما به فهداه إلى طرق اقتناص ما يفيد الاسترباح فربح في تجارته ومن رفض ذلك العهد ونقضه وبدّده وراء ظهره فقد خسر خسرانًا مبينًا وضلّ ضلالًا مبينًا والضّلالة في الأصل هي الجور عن القصد وفقد الاهتداء فاستعين للذّهاب عن الصّواب في الدّين. والرّبح هو الفضل على رأس المال ولذلك سمّي بالشّفّ كقولك لهذا على هذا

شف أي فضل وزيادة، والتّجارة معروفة. والبيع في اللّغة هو مبادلة مال بمال تمليكًا وتملّكًا، وفي الشّرع عبارة عن تمليك عين أو منفعة بعرض ماليّ على التأييد ثم استعير للإعراض عمّا في يده محصّلًا به غيره سواء كان من المعاني والأعيان وإنّما أسند الرّبح على التّجارة على الاتساع لكونها سببًا له، فإن قلت إنّ شري الضّلالة بالهدى وقع مجازًا في معنى الاستبدال إلا أنّ ذكر الرّبح والتّجارة يوهم بالمبايعة الحقيقيّة قلت هذا من صنعة أهل البيان بالمجاز تبلغ بذروة العليا وهو أن يساق كلمة مساق مجاز ثم تعفى بأشكال لها أخوات إذا تلاحقن لم تر كلامًا أحسن منه ديباجةً وأكثر ماءً ورونقًا وهو المجاز المرشّح وذلك نحو قولنا: العرب في البيد، كأن أذني قلبه حظلًا، أن جعلوه كالحمار، ثم رشحوا ذلك دومًا لتحقيق البلادة، فادعوا لقلبه أذنين فادعوا لهما الحظل ليمثلوا البلادة تمثيلًا يلحقها ببلادة الحمار مشاهدة معانيه ونحوه:

فلمّا رأيتُ النّسر عزّ ابن داية وعشّش في وكريه جاش له صدري

﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ۝١٦﴾ [البَقَرَة: 16] لطرق التّجارة فإنّ المقصود منها سلامة رأس المال والرّبح وهم قد ضيّعوهما كما علمت.

إشارة وتأويل

اِعلم أنّ الأعيان الثّابتة والماهيّات الممكنة لما أفاض الله عليها بالفيض الأقدس والتّجلّي الذّاتيّ الاستعدادت الأزليّة والقابليّات الأوليّات وخصّص لكلّ منها كمالًا لائقًا فأعطى خلقه ثم هدى كلًّا منهم إلى شهودٍ لذاته وحضوره له بأسمائه وصفاته وأسمع كلامهم للكلّ وأجرى عليهم أحكامهم وهم قبلوا منه تلك الأحكام الذّاتيّة والمعارف الإلهيّة والعلوم الحقيقيّة في ضمن ذلك الشّهود ونزلوا من هذا المقام على آفاق أمصار المراتب إلى مصر مرتبة النّاسوت فمنهم من نسي تلك الحالة السّابقة أو تذكّرها تذكّرًا ما فلا بدّ له من مذكّر ومنبّه فاقتضت الحكمة الإلهيّة من مذكّر ومنبّه ومرشد ومكمّل ليعيد الكلّ إلى تلك الحالة الأوليّة ويفيدها فائدةً تامّةً ويعيدها إعادةً عامّةً بمزيد كرامات وتجديد خرق عادات فمنهم من استجمع شرائط العود والرّجوع إليها ورجع فقد اهتدى وربح في تجارته وفاز ببغيته ومطلوبه ومنهم من كان بضدّه وعكسه فقد ضلّ ضلالًا بعيدًا أو خسر في

تجارته خسرانًا شديدًا واللّازم على كلّ أحد في تجارته هذه أن يعلم متاع ذلك العالم الّذي اتّجر به ومتاع هذا العالم الّذي اتّجر إليه ولا يتيسّر لكلّ أحد هذا العلم فلا بدّ من معلّم ومرشد منهم ليعلّمهم وهم الأنبياء والأولياء المرشدون ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: 17].

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: 17] لمّا رأيت العلم بحقيقة حالهم عقبه بضرب المثل زيادةً في التّوضيح وهدايةً إلى كمال التّقرير والتّصريح فإنّه أوقع في القلب وأقمع في رفع الشكّ ورفع الرّيب لربّك المتخيّل محققًا والمعقول محسوسًا موفّقًا ولذا أكثر الله الأمثال في كتبه فثبت في كلام الأنبياء والحكماء بهذا المنوال والمثل في الأصل بمعنى النّظير والشّبيه يقال: مِثِلَ ومَثَلَ كشَبِهَ وشَبَهَ ثم شاع في القول السّائر الممثّل الّذي يضربه بمورده ولا يضرب إلا بما فيه غرابة ولذلك حوفظ عليه وحُميَ من التّغيير ثمّ استعير لكلّ حالٍ وقصّةٍ أو حكايةٍ وصفة لها شأنٌ رفيعٌ غريبٌ وفيها أمر منيعٌ عجيبٌ مثل قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الرّعد: 35] فللّه المثل الأعلى. والمعنى حالهم العجيبة الشّأن كحال من استوقد نارًا والّذي ههنا بمعنى الجمع كما في قوله: وخضتم كالّذي خاضوا إذا جعل مرجع الضّمير في بنورهم الّذي سوّغ وضع الّذي في موضع الّذين ولم يجزِ وضع القائم موضع القائمين ولا نحوه من الصّفات ذكر وجهين:

أحدهما: أنّ الّذي لكونه وصّله إلى وصف كلّ معرفة بجملة وتكاثر وقوعه في كلامهم ولكونه مستطالًا بصلته حقيقٌ بالتّخفيف ولذلك نهكوه بالحذف فحذفوا ياءه ثم كسروا ذاله واقتصروا على اللّام وحدها في اسم الفاعل والمفعول.

الثّاني: أنّ جمعه ليس بمنزلة جمع غيره بالواو والنّون الّتي هي علامة لزيادة الدّلالة، ألا ترى أنّ سائر الموصولات لفظ الجمع والواحد فيها واحد ويريد جنس المستوقدين أو لأنّه ليس باسم تامّ بل هو كالجزاء منه فحقّه أن لا يجمع كما لا يجمع أخواته كمن وما وأمّا الّذين فليس جمعه مصحّحًا بل ذو زيادة لزيادة

المعنى ولذلك جاء بالياء دون الواو. وحالة الرّفع على اللّغة الفصيحة الّتي عليها التّنزيل ولكونه مستطيلًا بصلة استحقّ التخفيف ولذلك بولغ في الحذف كما عرف على أنّ المنافقين وذواتهم لم يشبهوا بذات المستوقدين حتّى يلزم تشبيه الجماعة بالواحد بل شبّه قصّتهم بقصّة ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجُمُعَة: 5].

الاستيقاد طلب الوقود والسّعي في تحصيله وهو سطوع النّار وارتفاع لهيئتها. واشتقاق النّار من نار ينوّر إذا نفر ونت وبت لأنّ فيها حركةً واضطرابًا. فإن قلت: ما معنى ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾؟ وما مثل المنافقين؟ ومثل الّذي استوقد نارًا؟ حتّى شبه أحد المثلين لصاحبه قلتُ قد استعير المثل استعارة الأسد للمقدام للحال والصّفة والقصّة إذا كان له شأن وفيها غرابة كأنّه قيل حالهم العجيبة الشّأن كحال الّذي استوقد نارًا وكذلك قوله مثل الجنّة الّتي وعد المتّقون.

﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾ الإضاءة فرط الإنارة والإشراق هو الّذي جعل الشّمس ضياءً والقمر نورًا وهي في الآية متعدّية يحتمل أن يكون لازمًا مستندًا إلى ما حوله والثّانية بحسب المعنى فيما حوله أماكن وحوله نصب على الظّرف وأصله للدّوران والإطافة ولذا قيل للعام: حول لأنّه يدور ويطوف.

﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البَقَرَة: 17] جواب لمّا والضّمير للّذي وجمعه للحمل على المعنى إنّما قال بنورهم ولم يقل بنارهم لأنّه المراد من إيقادها أو استئناف جواب اعتراض لقوله ما بالهم شبّهت حاله بحال المستوقد انطفت ناره وذهب نوره فقيل ذهب الله بنورهم فعلى هذا يكون جواب لمّا محذوفًا وهو خمدت فبقوا خابطين في ظلمات متحدّين متحسّرين على قوّة الضوء خائبين بعد الكدح في إخفاء وإسناد الإذهاب إلى الله إمّا لأنّ الكلّ بفعله أو لأنّ الإطغاء حصل بسبب خفيّ أو أمر سماويّ كريح أو مطرٍ أو للمبالغة ولذلك عدّي الفعل بالباء دون الهمزة لما فيها من معنى الاستصحاب والاستمساك يقال ذهب السّلطان بماله إذا أخذه واستصحب وما أخذه أو أمسكه فلا مرسل له فلا مزيل من يده ولذلك عدل عن الضّوء الّذي هو مقتضى اللّفظ إلى النّور فإنّه لو قيل ذهب الله بضوئهم احتمل ذهابه بما في الضّوء من الزّيادة وبقاء ما سمّى به نورًا والغرض

إزالة النّور عنه ألا ترى كيف قرّر ذلك بقوله: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ فإن قلت حقّ النظم إطفاء الله تعالى نارهم ليشاكل جواب لما معنى هذه القصّة قلتُ لمّا كان إطفاء النّار مثلًا لإطفاء نورهم أقيم مقام الإطفاء، أمّا إذا جعل ذهب الله مستأنفًا فلأنّ بانتفاء اللّازم يستلزم انتفاء الملزوم بدون العكس، ومعنى إذهاب الله نورهم هو أنّ الله تعالى بسبب نور المنافقين الّذين أعطاهم إيّاه مع المؤمنين في الدّنيا والآخرة، أمّا في الدّنيا فهو ذهاب نور المعرفة وقلّة الاعتقاد بهم وندرة الاعتناء والاعتداد بشأنهم، فعند إظهار الحقّ وإفشائه يعاقبهم. وأمّا في الآخرة فعلى الصّراط إذ لمّا عبر المؤمنون عن الصّراط قال المنافقون ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ [الحديد: 13] ذكر الظّلمة الّتي هي عدم النّور والظّلمات جمعها ونكّرها ووصفها بأنّها ظلمة خالصة لا يترائى فيها شجان وضعف وكسر وفتور والتّرك في الأصل بمعنى الطّرح وخلى وله مفعول واحد لتضمّنه معنى صيّر يجري مجرى أفعال القلوب كقوله تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: 17] والظّلمة مأخوذة ما ظلمك أن يفعل كذا أي أمنعك لأنّها تسدّ البصر وتمنع الرؤية. والمراد ظلمة الكفر وظلمة النّفاق وظلمة يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ [الحديد: 12].

أو ظلمة سخط الله وظلمة العقاب السّرمديّ، ومفعول لا يبصرون من قبيل المطروح والمتروك، وكان الفعل لازم تنبيهًا على أنّ المنفيّ هو الإبصار نفسه لا المخصوص منه، والآية مثل ضرب الله لمن أتاه وأعطاه ضربًا من الهدى فأضاعه ولم يتوصّل إلى نعيم الأبد فبقي متحيّرًا متحسّرًا تقريرًا وتوضيحًا لما تضمّنته الآية الأولى، ويدخل تحت عموم هؤلاء المنافقين فإنّهم أضاعوا ما نطقت به ألسنتهم من الحقّ باستبطان الكفر وإظهاره حين خلوا إلى شياطينهم.

ومن آثر الضّلالة على الهدى المجعول له بالفطرة الأولى وارتدّ عن دينه بعدما آمن به أو مثل لهم من حيث إنّه يعود عليهم حقن الدّماء وسلامة الأموال والعِرض والأولاد وإسقاط الجزية ومشاركة المسلمين في الغنائم والإحكام بالنّار الموقدة للاستضاءة وذهاب أثره وانطماث نوره بإهلاك نوره وافتتان حالهم بإطفاء الله تعالى إيّاها وإذهاب نورها وسقوط العزّة والحرمة بافتضاح حالهم بنزول الآية

في حقّ نفاقهم نزلت في حقّ اليهود وانتظارهم خروج النّبيّ ﷺ وإيمانهم واستفتاحهم على العرب فلمّا خرج كفروا به، وذلك أنّ قريظة والنّضير وبني قينقاع قدموا من الشّام إلى يثرب حين انقطعت النّبوّة من بني إسرائيل فدخلوا المدينة يشهدون لمحمّد بالنّبوّة وأنّ امّته خير الأمم، وكان يغشاهم رجل من بني إسرائيل يقال له عبد الله بن هيثم بن الهشام قبل أن يوحى إلى رسول الله كلّ سنة فيحضّهم ويحثّهم على طاعة الله وإقامة التّوراة والإيمان بمحمد ويقول إذا خرج فاقبلوه وانصروه وعزّروه واتبعوا النور الذي أنزل معه وقد كنت أطمع أن أدركه فمات قبل خروجه ﷺ يقول: "إذا خرج فاقبلوه"، ثمّ لما خرج ﷺ كفروا به فضرب الله لهم هذا المثل. وهي معطوفة على ذَهَبَ مبيّنة له، وإنّما جمع الظّلمات ووحّد النّور لأنّه من جنس واحد وهو النّار، والظّلمات مأخوذة من الظلّ، ولكلّ جسمٍ من الأجسام ظلّ، والمراد من النّور جنسه.

إشارة وتأويل

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البَقَرَة: 17] من فتح له أحوال الإرادة فادّعى أحوال المحبّة واستوقد نار الدّعوى فأذهب الله عنه نور الإرادة فتركهم في ظلمات كرّة لوازم المحبة وهي المصابرة على البلايا والشّدائد والمحنة لا يبصرون أنوار ثمراتها وأسرار حالاتها، أو من تقيّد في مرتبة الأطوار القلبيّة بمرتبة الطّور السّرّي واستوقد نار المحبّة بالتّجليات الآثاريّة فلمّا أضاءت ما حوله من جهات أصناف التّجلّي الآثاري في مظاهر الأجرام العالية ومجالي الأجسام السّافلة فلمّا رأى الشّمس بازغةً قال هذا ربّي من الشّجرة ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [القَصَص: 30]، "رأيت ربّي في صورة شابٍّ أمرد قطط"، ثمّ غلبت الهواجس النّفسانيّة والوساوس الشّيطانيّة باستيلاء سلطان الوهم فإذا ذهب الله بنورهم أي نور التّجلّي الذّاتي الآثاري وتركهم في ظلمات النّفس وإغواء الوهم وإغراء الحسّ لا يبصرون شيئًا لا من أنوار تجليّات الآثار ولا من تجليّات أفعال الرّبوبيّة وكذا في تجليّات الأسماء الذّاتيّة وتجليّات الذّات، فلمّا أضاءت ما حوله أذهب الله نور الوجود وسرور الشّهود ممّا سواه وتركهم في ظلمات الفناء في الله لا يبصرون شيئًا سوى الله، والله ما في الوجود وجه آخر

من يعتدّ في فرداريّة آثار الأحكام وأدوار الجمال ولم يتكمّل في مقتضيات فرداريّة الجلال. فلمّا انتقلت الفرداريّة من الجمال إلى الجلال ذهب الله بنور شهود أحكام مقتضيات أدواره، وكذا الحال في السّير إلى الله ومن الله وفي الله في الفردازنتين.

قال صاحب العرائس: هذا مثل من دخل طريق الأولياء بالتّقليد لا بالتّحقيق فعمل عمل الظاهر وما وجد حلاوة الباطن، فترك الأعمال بعد فقدان الأحوال.

وأيضًا مثل من استوقد نيران الدعوى ليس معه حقيقة المعنى فأضاءت ظواهره بالصّيت والشّهرة والقبول بين الخلق فافتتن نفاقه بينهم حتى يندوه في ظلمات الجسارة ودياجير الشجريّة ولا يوجد مخلصين من فضاحة الدّنيا والآخرة.

قال أبو الحسن الورّاق: هذا مثل ضربه الله لمن لم يصحّ له أحوال الإرادة فارتقى في الأحوال بالدّعاوي إلى أحوال الأكابر فكانت تضيء عليه أحوال إرادته لو صحّحها بملازمة أدائها، فلمّا مزجها وخلطها بالدّعاوي أذهب الله عنه تلك الأحوال وبقي في ظلمات دعاويهِ لا ينظر طريق الخروج منها.

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾

وهي الأذن، يقال رمحٌ أصمّ إذا لم يكن له جوف أي سدّة شديدة، وعلّة شديدة في معقر الصّماخ آذان القلوب لما سدّوا مسامعهم عن الإصغاء إلى الحقّ وأبوا أن ينطقوا به ألسنتهم وتبصّروا الآيات بأبصارهم جعلوا كأنّما انتفت مشاعرهم وامتنعت قواهم ومنادي إحساساتهم كقوله تعالى: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البَقَرَة: 93] وقوله:

صمٌّ إذا سمعوا خيرًا ذُكِرتُ به وإن ذُكِرتُ بسوءٍ عندهم أذِنوا
صمٌّ عن الشيء الذي لا أريده وأسمع خلق الله حين أريد

يعني عن الحقّ عميٌ لا يبصرون آيات الله المنصوبة للاعتبار المصبوبة للاختيار وإطلاقها عليهم على سبيل التّمثيل لا الاستعارة إذ من شرطها ذكر

المستعار له بحيث يمكن الكلام على المستعار منه لولا القرينة كقول زهير:

لدى أسدٍ شاكي السّلاح مقذّف ... له لبد أظفاره لم تقلّم

ومن ثمّ يراهم يضربون عن توهّم التّشبيه صفحًا كقوله:

ويصعد حتّى يظنّ الجهول ... بأنّ له حاجةٌ في السّماء

وههنا وإن طوى ذكره لحذف المبتدأ لكنّه لكونه مقدّرًا في حكم المنطوق به، نظيره:

أسدٌ عليّ وفي الحروب نعامةٌ ... فتحاء تنفر من صفير الصّافر

وهذا إذا جعلت الضّمير للمنافقين على أن الآية فذلكة مقدّمة التمثيل ونتيجته وإن جعلته للمستوقدين فهي على حقيقتها، والمعنى أنّهم لمّا أوقدوا نارًا ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلماتٍ هائلةٍ أدهشتهم بحيث اختلّت حواسهم وانتفضت قواهم وحواسهم.

وقراءته بالنّصب على الحال من معقول وتركهم هذا على طريقة قولهم هم ليوث للسّحقان إلا أنّ هذا في الأسماء وذلك في الصّفات.

وقد جاءت الاستعارة في الأسماء والصّفات والأفعال، يقال: رأيتُ ليوثًا ولقيت صماه عن الخير ورجاء الاسلام وإضاء الحقّ.

إشارة وتأويل

أي صممته أسماع أرواحهم عن أصوات الوصلة وحقائق إلهام القربة الّتي يعرّف بها الحقّ سبحانه وتعالى صفاته للأولياء، بكمٌ عن ايضاح علل بواطنهم وإفصاحها عند أطبّاء القلوب عُجُبًا وأنَفَةً ونفاقًا وحمته حمى عن رؤية أنوار جمال الحقّ بسماء أوليائه.

وقال بعضهم: صمٌّ لا يستمعون القرآن الّذي سمعوه في مقام ألستُ بربّكم، بكمٌ لا يتكلّمون بما قد سمعوه في ذلك المقام، عميٌ عمّا رأى فيه أو عن الأعيان أدوار الجلال، صمٌّ عمّا يطيق به أعيان أدوار الجمال وبالعكس لانتفاء شرط السّماع واختفاء سبب الاستماع وهو التّحقيق بما يقتضيه الجماع والمجامعة وهو عند الاتصاف بالنّعت الجامع لهما.

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البَقَرَة: 19] عطف على قصّة استوقد وأصل للتّساوي في الشكّ ثمّ اتّسع فيه واستعير للتّساوي من غير شكّ مثل جالس الحسن أو ابن سيرين ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسَان: 24] والآية من هذا القبيل يعني أنّ قصّة المنافقين مشبّهة بهاتين القصّتين وأنت مخيّر في التّمثيل بهما والصّبيب وزنه فيعل بكسر العين عند البصريّين ولا يوجد إلا في المعتلّ نحو سيّد ولين وهين وميت وطيب وضيق أصله صبوب جعلت الواو ياء فأدغمت إحدى اليائين في الأخرى.

وقال الكوفيون: على فعيل أصله صييب حذف كسرة الياء للثّقل وأدغمت ثمّ كُسرت الثّانية وهو في الأصل النّزول.

فإن قلت أيّ التّمثيلين أبلغ، قلتُ الثّاني لأنّه أدلّ على فرط الحيرة وشدّة الأمر وفظاعته ولذلك أخّره تدريجًا من الأهون إلى الأصعب.

السّماء كلّ ما علاك وأظلّك كالسّقف والسّحاب، وما ضاهاها من السّموّ يقال سمو يسمو سموًّا، قلبت الواو ألفًا، من أسماء الأجناس يكون واحدًا أو جمعًا ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ [البَقَرَة: 29]. فقيل جمع واحدة سماوة، والسّموات جمع الجمع وتعريفه للدّلالة على أنّ الغمام مطبق. يقال: أخذ بآق السّماء كلّها إذا صعد إليها. وإنّ كلّ أفق منها يسمى سماء، كما أنّ كلّ طبقة منها سماء، فالصيّب لا يكون إلا من السماء المخصوص، فاللّام للعهد يعني أنّ الغمام يأخذ المطر من السماء الخالص وينزل من السّماء من جبال فيها من برد، لا كما زعمت الفلاسفة من أنّ المطر من السّحاب من أجزاء رشيّة مائيّة وهوائيّة، وأنّ تلك الأجزاء الرشيّة المائيّة إذا تكاثفت اجتمعت وتقاطرت وتمطّرت. فنظر أهل الشرع أعلى لوقوعه على الأمر العالي فإنّ تدبير عالم الكون والفساد إنّما هو من الطّرف الأعلى ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [السَّجدَة: 5] الآية. وهم يقولون بهذا لاعترافهم بأنّ الحوادث الزّمانيّة مستندة إلى الأوضاع الفلكيّة والنّظرات الكوكبيّة والاتصالات السّماويّة وهي بتقدير الفاعل المختار وتدبيره.

وقيل: المراد من السّماء هو السّحاب، فالّلام لتعريف الماهيّة فيه.

﴿فِيهِ﴾ أي في الصيّب أو المطر ﴿ظُلُمَٰتٌ وَرَعۡدٌ وَبَرۡقٌ﴾ [البَقَرَة: 19] فإن أريد به المطر فظلماته ظلمة تكاثيفه متتابعة، أو ظلمة غمامة مع ظلمة الّليل، وإن أريد به السّحاب فظلماته سخينة وتطبيقيّة مع ظلمة الّليل، وحيث لم ير فيها درّيّ من الكواكب، وارتفاعها بالطرف لاعتماده على الموصوف. والرّعد صوت يسمع من السّحاب، والمشهور أنّ سببه الظّاهريّ اضطراب أجرام السّحابة واصطكاكها إذا أخذتها الرّيح وطردتها من الارتعاد، وهو تحرّك مضطرب، والبرق: ما يلمع من السّحاب، من برق الشيء بريقًا إذا لمح.

والحقّ ما قال به أهل الشرع من أنّ الأملاك موكّلة على إيصال الآثار من الأفلاك إلى الأجسام السّفليّة وطائفة من الأملاك تدبّر الأمر من السّماء إلى الأرض وهي أعيان منسوبة إلى ميكائيل قد وكّلت على السّحاب يسوقونه حيث أراد الله، فالرّعد صوت يحصل من كيفية السّوق دليلًا على ما أراد الله بقوم خيرًا أو شرًّا، والبرق ما يلمح من ضرب سياطهم السّحاب الغليظ الكثيف لمعان ما يحدث النّاس والآلات الحديديّة على الأرض الحجريّة له أو ما يحدث من مساسهم السّحاب كما يحدث من مساس إهابة الهربة وغيرها من الحيوانات الشعريّة في ظلمة اللّيالي وكلاهما في الأصل مصدر.

قال الحكماء: السّبب الظاهريّ للرّعد هو التّفريق العنيف الحاصل من تمريق ما احتبس في السّحاب من الدّخان الطالب، فإنّ الأجزاء الناريّة المحتبسة فيه لم يجمعا بطلب الفوق والمحيط ويمنعها السّحاب فيمزّقه تمزيقًا عنيفًا أو التحت عند انطفاء ناريّته. وسبب البرق هو اصطكاك أجزاء السّحاب بعضها بعضًا وضرب أحدهما بالآخر كاصطكاك الحجر والحديد وضرب أحدهما بالآخر، والصّاعقة هي الدّخان الّتي اشتعلت عند الوصول إلى كرة النّار وإذا خمدت نارها هبطت وتحرق كلّ ما فيه حتى إذا وقعت في البحر أحرقت الحيتان الّتي في قعره.

قال بعض أهل التّفسير: الرّعد ملكٌ ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرّعد: 13] الآية ويسوق السّحاب.

قال عكرمة: الرّعد ملك موكّل بالسّحاب يسوقها كما يسوق الرّاعي الغنم

والإبل. قال شهير بن حوشب: الرّعد ملك يزجي السّحاب ويحثّه كما يحثّ الرّاعي الإبل، فإذا اشتدّ غضبه طار من فيه النّار، وهو الصّواعق.

عن عليّ كرّم الله وجهه قال: البرق محارق الملائكة وأثر ضربها.

قال أبو الدّرداء: الرّعد للتّسبيح والبرق للخوف والطّمع والبرد عقوبة والصّواعق للخطيّة والجراد رزق لقوم ورجزٌ لآخرين، والبحر يمكّنان والجبال يمرّان.

قال أصحاب ابن عبّاس وهم مجاهد وطاوس وعكرمة: الرّعد ملكٌ يرجز السّحاب بصوته ويسوقه، والرّعد الّذي هو الصّوت سمّي باسمه.

مطلب دعاء الرعد

قال رسول الله ﷺ: «**إذا سمعتم الرّعد فاذكروا الله فإنّه لا يصيب ذاكرًا**».

والبرق مصعق ملك يسوق السّحاب، قال عليّ أيضًا: البرق محاريق بأيدي الملائكة.

كان النّبي عليه السّلام إذا رأى البرق وسمع الصّواعق قال: "**اللّهم لا تهلكنا بعذابك ولا تقتلنا بغضبك وعافنا قبل ذلك وبعد ذلك**".

واعلم أنّ نظر الشّارع في الظّاهر أعلى لوقوعه على السّبب الفاعل ومسرح بصر الحكيم أسفل وأدنى لعلة وقع على السّبب الفاعل ونظر المحقّق أعمّ وأتمّ لوقوعه عليهما معًا وقال بهما لأنّ لكلّ أمر حادث لا بدّ منهما.

وإنّ كلّ ما قال الحكيم في هذا الباب وغيره من كائنات الحقّ فهو أمر إقناعيّ خطابيّ لا برهانيّ، وما قاله الشّارع فهو مقبول للعقول السّليمة والطباع المستقيمة لاستناده إلى الوحي وتجرّده عن حكم الوهم، وإنّما يفيد اليقين التّامّ والعلم العامّ، أو لا سبب أعلى للعلم من الوحي لاشتماله على الكشف الصّحيح أو النّقل الفصيح والعقل الصّريح والتأييد الإلهي الجريح.

فإن قلت ما الفائدة في ذكر السّماء والصيّب لا يكون منه، قلتُ فيه فائدتان: أحدهما أنّ السّماء يطلق على الآفاق كما يطلق على كلّ طبقة من أطباق السّموات فلو لم يذكر لتوهّم اختصاص الصيّب بأفق دون أفق ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ

﴿أَمۡرَهَاۚ﴾ [فُصّلَت: 12] الآية إلى آخرها، الثّاني: ينحدر السّحاب من السّماء ويأخذ الماء منها لا كما زعم البعض من أنّه يأخذ الماء من البحر، ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ﴾ [النُّور: 43] الآية فإن قلت يكون المطر مكانًا للرّعد والبرق، قلتُ: مكانهما السّحاب وإنّما نسبهما إلى المطر لمناسبة بينهما كما يقال: الشمس والقمر يدوران في مدارهما اليوميّة.

والمعنى أنّ الله تعالى ضرب للمنافقين مثلًا آخر وشبّههم بأصحاب مطر فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. وأراد بالمطر القرآن وإنّما شبّهه به لما فيه من حياة القلوب كما أنّ المطر حياة الأرض والأبدان، وما في القرآن من ذكر الكفر والشّرك وبيان الغين والأحوال مشبّهة بالظّلمات الكثيفة وما خرقوا به من المواعيد. وذكر النّار بالرّعد والبرق والصّاعقة فحينئذٍ[1] القرآن وما فيه من البيان والشّفاء والنّور والصّفاء مشبّه بالضّياء الحاصل بالبرق وما يتطرّق فيها من الشكّ والشبهة والتّردد بالظّلمات الحقيقية.

﴿يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم﴾ [البَقَرَة: 19] عند سماع القرآن وقراءته لما فيه من افتضاحهم وسوء حالهم وذلك لعدم تدبّرهم بأنّ هذا لا ينجيهم عاجلًا وآجلًا، فإن قلت قد شبّه المنافق في التّمثيل الأوّل بالمستوقد وإظهار الإيمان بالإضاءة وانتقاله بإطفاء نور النّار وارتضاعه وانتفاء استضاءته فماذا شبّه في التّمثيل الثّاني بالصيّب وبالظّلمات وبالرّعد والبرق وبالصّواعق، قلتُ: شبّه الدّين والإسلام بالصيّب لأنّ القلوب تحيى به حياة الأرض بالمطر وما يتعلّق من تشبيه الكفّار بالظّلمات وما فيه من الوعيد بالبرق وما يصيب الكفرة من الإفزاع والبلايا والفتن من جهة الإسلام بالصّواعق. والمعنى أو كمثل ذوي صيّب والمراد كمثل قوم أخذتهم السماء على هذه الصّفة فلقوا منها ما لقوا، فإن قلت: هذا التّشبيه أشياء بأشياء فأين ذكر المشبّهات، وهلا صرّح بها كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [غَافر: 58] ولا المسمّى، قلتُ: كما جاءت تلك صريحًا فقد جاءت مطويّةً، ذكرها على سنن الاستعارة كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ سَآئِغٞ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞۖ﴾ [فَاطِر: 12]

(1) المراد فحينئذٍ يكون.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾ [الزُّمَر: 29] شبّه المؤمن بالبحر العذب والكافر بالبحر الملح الأجاج، ثمّ رام بين عذب الاستواء بينما ترك ذكر المشبّه به وجعله نسيًا منسيًّا فيكون استعارةً مصرّحةً. وكذا إن ترك ذكر المشبّه به كما في الآية ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا﴾ [الزُّمَر: 29] فإنّه شبّه الكافر برجل فيه شركاء متشاكسون أي مختلفون والمؤمن برجل علم هل يستويان مثلًا. وقد علمت أنّ المثل قد يستعار للحال والصّفة أو القصة فنسبة كيفيّة منتزعة وهيئة متفرّعة موعدة أشياء بأخرى كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾ [الجُمُعَة: 5] الغرض تشبيه حال اليهود في جهلهم بما معهم من التّوراة بحمال الحمار في جهله بما يحمل.

تأويل وإشارة

قال الصّادق: الصيّب تجربة الله لعباده كما قال: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ﴾ [هُود: 7] فإذا نزلت التّجربة من السّماء وهو إرسال المطر والنّعمة على مراد النّاس فيه ظلمات لتجربة الأعداء وبرق لتجربة الأولياء ورعد لتخويف الأحباء، فالكافر يسمع ويرى النّعمة من صنمه، والأولياء يرونها من الله، والأحباء يرونها من عدل الله لأنّ نعيم الدّنيا منبسط على بساط العدل ونعيم الآخرة على بساط الفصل والفضل للأولياء والعدل للأعداء، ولا ينفع الحذر للأعداء لأنّ الله محيطٌ بهم والبرق ضياء الله لا يأكل منها إلا السّعداء ولا يجد منها أهل النّفاق لأنّهم بغير السّمع والإبصار وبقوله ظلمات صمّهم وبكمهم وعميهم ولم يملكهم يوم القيامة حين ندائهم لأمّة محمّد: يا أيّها النّاس اعبدوا.

أقول: هذا بيان أحوال النّظر والفكر وأصحاب التّقليد الّذين اقتنصوا بقوّة السّمع والبصر فإنّهم لمّا استدلّوا على المقاصد الإلهيّة والمطالب الأخرويّة والمآدب الدّينيّة واطمأنّوا بها واعتكفوا عليها وحسبوا أنّهم على شيءٍ فلمّا انكشفت سترتهم وانقطعت عليهم أحوالهم الأوليّة وتشعشعت لديهم لوامع أنوار المعارف الفطريّة وتلمّعت الزّوارق الجبليّة الأزليّة واستشرفوا إليها بما استذرفوا في الفطرة الأولى والنّشأة العليا وأضاءت ما حولهم من القوى النّفسانيّة والمبادئ الرّوحانيّة والأطوار القلبيّة واستضاؤوا بنور الانتقال وضياء الاستدلال فظنّوا أنّهم

يحسنون صنعًا، ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: 12]. ويحتمل أن يحمل على الأدوار ومقتضياتها الإفراديّة والجمعيّة وجمعيّة الجمعيّة، فلمّا ذهبت أنوار الكسب والاكتساب عنهم وتركهم في ظلمات التّحيّر وطرحهم في غياهب النّدامة والتّحسّر فطلبوا الحالة الأولى الأزليّة الّتي جرت في مقام ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: 172]، قائلين: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ [الحديد: 13] تعمّ الحالات الاستدلاليّة وإن كانت من مقتضيات ذلك المقام إلا أنّهم ما حصل لهم هذا العلم لا شهوديًّا ولا حصوليًّا.

﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾ الضّمير لأصحاب الصيّب والجملة استئنافية وتؤذن بالشّدة والهول لما قيل فكيف حالهم أجيب بها، وذكر الأصابع موضع الأنامل للمبالغة من قبيل المجاز المرسل.

﴿مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾ جمع صاعقة تتعلّق بيجعلون وهي الصّيحة والصّوت الشّديد. والصّعقة والصّاعقة هي المهلكة، ومنه صعق الإنسان ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: 143] إذا غشي عليه وصعق إذا مات.

وقرأ الحسن: من الصّواعق حذر الموت ينصب على العلّة. والموت زوال الحياة وفساد البنية فالتقابل بينهما بالعدم والملكة. وقيل: عرض تضادها لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [المُلك: 2] الخلق بمعنى التّقدير والإعدام مقدّرة.

أقول: المقدّر ممكن مقدور يعتل الخلق إذ القدرة لا تتعلّق بالممتنعات بخلاف العلم والإرادة فإنّهما متعلقان بالممكنات والممتنعات إذ إرادتنا هي إرادة الله تتعلّق بأمر ممتنع وكذا علمنا يتعلّق به وهما بإرادة الله تعالى ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البَقَرَة: 255] ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسَان: 30] وأيضًا إنّ الخلق مشترك بين التّقدير والإيجاد فحمله على الأوّل دون الثّاني محكم مع الحذر والاستبعاد من المعدوم بعيد.

قال الزّجّاج نصبه على المصدريّة أي يحذّرون ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البَقَرَة: 19] فلا يفوتونه كما لا يفوت المحاط به المحيط، لا يخلصهم الخداع والحيل. والجملة اعتراضيّة، قيل مهلكهم وجامعهم في النّار دليله إلا إن يحاط بهم ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ [الكهف: 42] أي أصابه الهلاك وأهلكه.

﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾

﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [البَقَرَة: 20] استئناف وجواب لما قيل ما حالهم. كاد من أفعال المقاربة وضعت لمقاربة الخبر من الوجود لعروض سببه لكنّه لم يوجد إمّا لفقد شرطه أو لوجود مانع، وكدتُ أفعل معناه: فعلتُ بعد إبطاء يستعمل بأن ويعبّران، والثّاني أفصح، وعسى موضوعة لرجائه فهي خبر محض ولذلك جاءت متصرّفة وخبرها مشروط، فمنها ما يكون فعلًا مضارعًا تنبيهًا على أنّه مقصود بالقرب من غير أن يؤكّد القرب بالدّلالة على الحال وقد يدخل عليه حملًا لها على عسى كما يحمل عسى عليها في الحذف عن خبرها لمشاركتهما في أصل المقاربة.

الخطف الأخذ بالسّرعة والاختلاس والسّلب، ومنه الخطّاف. وقرأ بكسر الطاء، ويتخطّف بالتّشديد، هذا من تمام التّمثيل، والمعنى يكاد ما في القرآن من الحجج الواضحة النّيرة يخطف أبصارهم من شدّة إزعاجها إلى النّظر في أمر دينهم.

﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ﴾ لاهتدائهم إلى الطّريق لضوء البرق كذلك المنافقون كلّما قرئ عليهم شيء من القرآن ممّا يحبّون صدّقوا وإذا قرئ عليهم ما كرهوا وقفوا من التّصديق وأنكروا. هي مركّبة من كلّ وكلمة ما الجزاء فصارت أداة للتكرير منصوبة بالظّرفيّة بمعنى متى والعامل فيها جزاؤها أي مشوا فيه وقت الإضاءة. وفي حرف عبد الله مضوا فيه استئناف ثالث كأنّه قيل ما يفعلون في مادتي حقوق البرق وحقيقته فأجيب به، هذا تمثيل لشدّة الأمر على المنافقين.

﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾ تركوا الحركة وتوقفوا في مكانهم، وأظلم غير متعدّ وهو الظّاهر ومتعدّ مفعولًا من ظلم به اللّيل يؤكّده قراءة يزيد بن قطب (أُظلِمَ) على مفعول ما لم يسمّى فاعله.

حاولت إرشادي فعقلي مرشدٌ   إن أسأت تأديبي فدهري مؤدّبي
هما أظلما حالي ثمة أجليا   ظلاميهما عن وجه أمرد أشيب

وهذا وإن كان متحدثًا لا يصحّ الاستشهاد به في اللّغة إلا أنّه من كلام

العرب فاجعله بمنزلة الرّواية وأيضًا لما وافق كلامه قرأه البعض تأكدًا لنفسه.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْۚ﴾ لشدّة البرق أي لو شاء بإذهاب سمعهم وأبصارهم لأذهبهما كما أذهبهما عن قلوبهم ولكن تركهم بهما للحكمة والمصلحة فحذفه لدلالة الجزاء عليه وهو كثير، ولو شئتُ أن أبكي دمعًا لبكيته، لو أردنا أن نتّخذ ولدًا لاتخذناه وغير ذلك، ولو حرف شرط ظاهره الدّلالة على الانتفاء الأول لانتفاء الثّاني ضرورة انتفاء الملزوم عند انتفاء اللّازم إلا أنّ الظّاهر ههنا بمحرّد الشرط مثل إن، وفائدة هذه الشرطيّة.

تنبيه:

إنّ تأثير الأسباب في المسبّبات مشروط بمشيئة الله تعالى وإنّ وجودها مرتبط بأسبابها واقع بقدرته.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ﴾ [البَقَرَة: 20] ممكن متساوي الطرفين إلا الواجب والممتنع قد رجّح أحدهما على الآخر على وفق الإرادة كالتّصريح والتّقدير للسّابق مختصّ بالموجود لأنّ في الأصل شيئًا مصدر شاء يكون تارةً بمعنى شاء وحينئذٍ يتناول الباري تعالى كما قال: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ﴾ [الأنعام: 19] وأجرى عليه مشيئة وجوده، وما شاء الله وجوده فهو موجود في الجملة، والمعتزلة لما قالوا الشّيء يصحّ أن يوجد وهو يعمّ الباري والممكن أو ما يصحّ أن يعلم ويخبر عنه فيعمّ الممتنع أيضًا لزمهم التّخصيص بالممكن في الموضعين بدليل العقل.

والقدير هو المتمكّن من إيجاد الشيء، وقيل صفة تقتضي الممكن، وقدرة الإنسان هيئة بها يتمكّن من الفعل، وقدرة الله تعالى عبارة عن نفي العجز، والقادر هو الّذي إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل، والقدير الفعّال لما شاء على ما شاء، ولذلك قيل ما يوصف به غير الباري، واشتقاق القدرة من القدر لأنّ القدر يوقع الفعل على مقدار قوّته أو على مقدار ما يقتضيه القابل وشيئيته، وفيه دليل على أنّ الحادث حال حدوثه والممكن حال بقائه مقدوران، وإنّ مقدور العبد مقدور الله تعالى لأنّه شيءٌ وكلّ شيءٍ مقدور.

فإن قيل: فحينئذٍ يلزم إيجاد الموجود وهو محال، قلنا: المحال إيجاد

الموجود بوجود سابق وهو غير لازم، واللّازم إيجاد موجود بوجود لاحق هو أثر ذلك الإيجاد وهذا ليس بمحال، وأمّا المقدور فالمعنى منه ما يصحّ أن تتعلّق به القدرة لا ما تعلّقت به القدرة ليلزم الفصل بين قادرين وإن جوّزه الشاعر بناءً على أن لا تأثير لقدرة القدرة إذ الجميع مستند إلى قدرة الله تعالى، فالفعل الاختياري بعد أن تعلّق به يستند إلى قدرة الله تعالى إيجادًا وإلى العبد كسبًا، والممتنع تعلّق القدرتين إيجادًا، هذا والظّاهر أنّ التّمثيلين من جملة التّمثيلات المؤلّفة كما عرفت، ويمكن أن يجعلا من قبيل التّمثيل المفرد وهو أن يذكر الأشياء فرادا فتشبّهها بأمثالها كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾﴾ [فَاطِر: 19 - 21].

قال امرؤ القيس:

كأن قلوب الطّير رطبًا يابسًا لدى وكرها العناب والحشف البالي

يشبّه **في الأوّل**: المنافقين بالمستوقدين وإظهارهم الإيمان باستيقاد النّار وما انتفعوا به من حقن الدّماء وسلامة الأموال والأولاد وغير ذلك بإضاءة ما حوله وزوال ذلك عنهم بإهلاكهم وإفشاء حالهم وإبقائهم في الخسران الدائم والعذاب الأليم السّرمد اللّازم بإطفاء نارهم والذّهاب بنورهم.

وفي الثّاني: يشبّه أنفسهم بأصحاب الصيّب وإيمانهم المخالطة للكفر والخداع بصيّب فيه ظلماتٌ ورعدٌ وبرقٌ ونفاقهم حذرًا عن نكبات المؤمنين وما يطرقون به من سواهم من الكفر بجعل الأصابع في الآذان وما بيّناه خبر عن هذا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ
ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البَقَرَة: 21] لمّا ذكر فرق المكلّفين من المؤمنين والمنافقين وذكر خواصّهم ومصارف أمورهم أقبل بالخطاب على سبل الالتفات هزًّا للسّامع وتنشيطًا ونزالةً واهتمامًا بأمر العبادة وتفخيمًا بشأنها وجبرًا لكلفة العبادة ومشقّتها بلذّة المخاطبة.

ويا للنّداء وهو أقرب إليهم من حبل الوريد اعتبارًا لحالهم أو تنزيلًا له لعلوّ

شأنه وكمال عظمته منزلة البعيد وللاعتناء بالمدعوّ له وزيادة البحث عليه وإنّما كثّر النّداء على هذه الطريقة دون غيرها لاختصاصها بأمور وبانتصاحها بأسباب من المبالغة لأنّ كلّ منّا نادى الله به عباده من أوامره ونواهيه وعطائه وزواجره ووعده ووعيده واختصاص الأمم الدّارجة المستدرجة عليهم وغير ذلك ممّا أنطق به كتابه أمور عظام وخطاب جسام كان عليهم أن يتفطّنوا بها ويميلوا بقلوبهم وأبصارهم أبصارها وهم عنها غافلون فاقتضت الحال أن ينادوا بالآكد الأبلغ.

وفي الكشّاف: أنّ كلّ آية فيها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ مكيّة و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ مدنيّة.

فإن قلت الأمر بالعباد لا يخلو من أن يكون متوجّهًا إلى المؤمنين والكافرين جميعًا أو إلى كفّار مكّة خاصّة على ما روي عن النّبي ﷺ والحسن، فالمؤمنون عابدون ربّهم فكيف أمروا وإيمانهم متلبسون به وأمّا الكفّار فلا يعرفون الله ولا يعرفونه به فكيف يعبدونه. قلت: المراد بعبادة المؤمنين ازديادهم ووفور إقبالهم إليها وثباتهم عليها، وأمّا عبادة الكفّار فمشروط فيها ما لا بدّ منه وهو الإقرار والمعرفة كما شرط على المأمور بالصّلاة بالوضوء والنيّة وغيرهما أو ما لا بدّ للفعل منه، فهو مندرج تحت الأمر به. ومن لوازمه وإن لم يذكر أنّ مشركي مكّة كانوا يعرفون الله ويعرفونه به ولئن سألتهم من خلقهم ليقولنّ الله، فالزيادة على العبادة والبيّنات عليها عبادة.

فالنّاس يعمّ الموجودين وقت النّزول لفظًا ومن سيوجد لما تواترت من دينه عليه السّلام أنّ مقتضى خطابه وأحكامه شامل للقبيلين ثابتٌ إلى يوم القيامة إلى ما خصّة الدّليل. فاختصاص النّزول شأن طائفة وسكّان مكان وبلدة لا يوجب الاختصاص بهم فإنّ المأمور به هو الشرك بين بدو العبادة والزيادة فيها والمواظبة عليها. فالمطلوب من الكفّار هو الشّروع فيها بعد الإتيان بما يوجب تقديمه من المعرفة والإقرار بالصّانع فإنّ من لوازم وجوب الشيء وجوب ما لا يتمّ إلا به، فكما أنّ الحدث لا يمنع وجوب الصّلاة فالكفر أيضًا لا يمنع وجوب العبادة بل يجب دفعةً والاشتغال بما عقبته بها ومن المؤمنين ازديادهم وثباتهم عليها وإنّما قال ربّكم تنبيهًا على أنّ الموجب للعبادة هي الرّبوبيّة التّامّة.

إشارة وتأويل

قال الصّادق رضي الله عنه: " إنّ الله تعالى أعزّنا بالإنسانيّة وفضّلنا بالعبوديّة لأنّ بالعبوديّة تزول الحرية، والعبوديّة ثلاثة: الجفاء والحفظ للوفاء والاستقامة على بساط اللقاء"، وقال رسول الله ﷺ: «**بيّنوا ربوبيّته بما عبدوه على حدّ الهيبة ووفور التقوى والخوف والإجلال وكمال الرّهبة وعاينوا أوّل ترتيبكم في مقام العهود الأزليّة بخطاب ألستُ بربّكم لتعلموا كمال الخصوصيّة بكم من بين سائر خلقه**»، قيل: وجدوا ربّهم بالعبوديّة والعبوديّة بالرّبوبيّة وشكروا النّعمة مقرّين بعبادته. هذا وأقول: اعبدوا أي اعترفوا على طريق العبوديّة في الأدوار الأربعة الجماليّة في المراتب الأربع الإلهيّة والرّبوبيّة والكونيّة والواحديّة والجبروت والأمر والملكوت والبرزخ والمثال والملك والشهادة على سبيل الانفراد وعلى طريق الجمعيّة في عالم النّاسوت والمرتبة البشريّة في الأدوار الأربعة الجلاليّة في عيون المراتب المذكورة انفرادًا وصورةً جمعيّةً إلهيّةً وكونيّةً إنسانيّةً في كلّ من هاتين الدّورتين الجماليّة والجلاليّة وفي جمعيتهما أيضًا.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ الخلق هو إبداع الشيء لم يسبق إليه أحد، فكلّ شيء خلقه الله فهو مبدؤه أوّلًا من غير مثال لما سبقت إليه صفة جرت عليه للتّعظيم والتّعليل ويحتمل التّقييدان خصّ الخطاب بالمشركين وأريد بالربّ أعمّ من الربّ الحقيقي والإلهيّة الّتي يسمّونها أربابًا.

ويقال: الخلق هو إيجاد الشيء على تقدير واستواء، أصله التّقدير، يقال: خلق إذا قدّر وسوّى.

﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: 21] يتناول كلّ ما يتقدّم الإنسان ذاتًا وزمانًا كالعناصر والأفلاك والجانّ والشّياطين والأغوال والأملاك، منصوب معطوف على الضّمير المنصوب في خلقكم والجملة أخرجت مخرج المقرّر عندهم إمّا لاعترافهم كما قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: 25] أو لتبينهم بالعلم به بأدنى نظر.

وفي كتاب الكشّاف قرأ ﴿من قبلكم﴾ هذه قراءة زيد بن علي رضي الله عنهما

وهي قراءة مشكّلة ووجها على إشكالها أن يقال أقحم الموصول الثّاني بين الأوّل وصلته تأكيدًا كما أقحم جرير في قوله: يا تيمُ تيمَ عدي لا أبا لكم، تيم الثّاني بين الأوّل وما أضيف إليه وكإقحامهم لام الإضافة بين المضاف والمضاف إليه في لا أبا لكم.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البَقَرَة: 21] سخط شرككم مقتضى بربوبيّته ومرتضى ألوهيّته، وعبوديّتكم وإهمالكم شكر أجلّ النّعمة الّتي فطر النّاس عليها وهي الإسلام ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الرُّوم: 30]، قال عليه السّلام: «**كلّ مولودٍ يولدُ على فِطرة الإسلام فأبواه يهوّدانه ويمجّسانه وينصّرانه**» وهذا أولى من أين يكون من أسبابه لاستقلاله بالسّببيّة والعليّة دونه الثّأني إلا أن يراد أنّ هذا الكلام إنّما يناسب هذا المقام إلا الّذي أورده مقدّمًا وإنّ هذا التّمثيل مغلوب في حقّهم لاستلزام الضرّ والدّفع عليهم لا النّفع والشّر لهم حال عن الضّمير في ﴿ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ راجين أن ينخرطوا في سلك المتّقين الفائزين بالهدى والفلاح المستوجبين لجوار الله تعالى وكمال النّسبة في الرّتبة العليا.

تنبيه:

التّقوى منتهى لا يغيّر بعبادته ولا ينجز بطاعته ويكون ذا خوف ورجاء كما قال الله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السَّجدَة: 16] يرجون رحمته ويخافون عذابه، أو من مفعول خلقكم والمعطوف عليه على معنى خلقكم ومن قبلكم بائتين وكائنين أنتم معهم في صورة من يرجى منه التّقوى لترجّح أمره باجتماع أسبابه وكثرة الدّواعي إليه، وغلّب المخاطبين على الغائبين في اللّفظ والمعنى لإرادتهم جميعًا أو لكونهم حاضرين في علمه الحضوريّ، قيل: لعلّ ههنا بمعنى كي للتّعليل هو ضعيف إذ لم يثبت في اللّغة لعلّ بمعنى كي.

إشارة وتأويل

أي تذكّروا بعبادة ربّكم الّذي خلقكم وقدّركم أوّلًا في مرتبة التّجلّي الذّاتي بالشؤونات الذّاتيّة والعنوانات الأحديّة في المرتبة العلميّة ثمّ عالم الأمر والبرزخ وعالم الأفلاك والعناصر إلى أن سوّاكم في المرتبة العنصريّة وأنتم راجعون الرجوع بالتّقوى من الكمّل إليه.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقـرة: 22] صفة ثانية أو مدح منصوب أو مرفوع أو مبتدأ خبره فلا تجعلوه، وجعل من الأفعال العامّة على ثلاثة أوجه بمعنى صار وطفق فلا يتعدى كقوله:

فقد جُعِلَت قلوص أبي سهيل من الأكوار مرتعها قريب

وبمعنى أوجد وأنشأ ويتعدى إلى مفعول واحد وجعل الظّلمات والنّور بمعنى صيّر وتعدّى إلى مفعولين كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [المـُلك: 23]، والتصيير قد يكون بالفعل تارةً وبالقول أخرى ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [إبراهيم: 30] إبراهيم: ومعنى جعلها فراشًا أي جعل بعض جوانبها بارزة على الماء مع ما في طبعه من إحاطةٍ لها جميعًا، وجعلها متوسّطة بين الصّلابة واللّطافة حتّى صارت مهيأة لأن يقعدوا وينامو عليها كالفراش المبسوطة وذلك لا يستدعي كونها مسطّحة مستوية لأنّ كرّية شكلها مع عظم حجمها واتّساع جرمها لا يأتي الافتراش عليها وإن كانت كرويّة مستديرة في نفسها واستدارتها لا تعلم إلا في فرسخ أو فرسخين بتقدّم طلوع الكواكب وتأخرّها وغير ذلك من الأحوال المتواردة عليها، وهذا القدر من الاستدارة لا يمنع الافتراش والسّكون عليها والاستواء.

﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ أي سقفًا مرفوعًا، والبناء مصدر، سمّي المبنيّ بيتًا أو قبّةً أو خباءً أو ظرفًا وأبنية العرب أخبيتهم، ومنه بنى على امرأته لأنّهم إذا تزوّجوا ضربوا عليها خباءً جديدًا.

قال الفاضل الهندي ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ أي سقفًا مرفوعًا يستظلّون به عن أشعة أنوار الملكيّة العلويّة وفيه ما فيه لأنّ الأجرام الفلكيّة شفافة غير مانعة عن نفوذ الأشعّة النّجميّة وهي أكثف من الأشعّة الملكيّة فلا استظلال، وأيضًا إنّ الأشعّة البصريّة تنفذ في السّموات السّبع وتقع على الثابتات في آنٍ واحد فترى بها، وإنّ هذا الحكم غير مطّرد لخروج الأشعّة الملكيّة الموكّلة على فلك القمر والعناصر

منه وغير ذلك من التقوّض.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: 22] وهي في الأصل حمل الشّجرة، ثم استعمل لكلّ ما ينتفع به فما زيادة على الأصل المال، يقال ثمّر الله مالك أي جعل الله زيادةً فيه وعقل مثمر إذا كان يهدي صاحبه إلى الرّشد.

والمراد جميع ما يخرج من الأرض ممّا ينتفع به وهو بقدرة الله وإرادته إلا أنّه جعل الماء الممزوج بالنّبات سببًا قابلًا له والمزج وكيفيّته وكمّيته أيضًا بقدرته وإرادته وكمال حكمته لا يغرب عنه مثقال ذرّةٍ في الأرض ولا في السّماء، كما جعل النّطفة والحبوب سببًا للتولّد أي جعلهما قابلين للصّور القابضة عنه عليهما، وجعل الهواء والنّار سببين فاعلين في الظّاهر وإن كان قادرًا على الخلق بدون هذه الأسباب كما أظهر السّماوات وأبدع العقول والنّفوس وغيرها من الممكنات بلا مادّة ومدّة وأنموذج ومثال كما ورد: "يا بارئ النّفوس بلا مثال" خَلا من غيره إلا أنّ في إنشائهما على سبيل التّدريج حكمًا ومصالح وهو إظهار كمال شمول العلم والقدرة وعموم آثار أنوار الحكمة والإرادة.

والمراد من السّماء ما مرّ ذكره في الظّاهر يطلق على السّحاب وعلى كلّ ما يرفع ويعلو فنزول الماء من السّماء إلى السّحاب ومنه على الأرض، كما عرفت فإنّ فلك الأفلاك وهو العرش على الماء وكان عرشه على الماء والماء جارٍ في الكل، ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: 30] يعمّ من أشعة الذّراري السّماويّة تنثر الأجزاء الرّطبة مختلطة بالهواء متصاعدة إلى جوّ الهواء فينعقد سحابًا قابلًا وغيمًا هاطلًا، فمن الأوّل للابتداء والثّاني للتّبعيض إذ لا يحصل الرّزق من كلّ الثّمرات والنّكارة في ماءً ورزقًا للتّبعيض أي أنزلنا وأخرجنا به بعض الثّمرات ليكون بعض رزقكم هذا هو المطابق لصّحة المعنى لأنّه لم ينزل من السّماء كلّ الماء ولا أخرج من المطر جميع الثّمرات ولا جعل الرّزق كلّه من الثّمرات ويجوز أن يكون للبيان كقولك أنفقت من الدّراهم ألفًا فانتصاب رزقًا على أنّه مفعول له إن كان للتّبعض وإلا فبإخراج على تقدير كونها للبيان، فإن قلت الثّمر المخرج بماء السّماء كثير فلم قيل الثّمرات بجمع القلّة دون الثّمر

والثّمار وهما جمع كثرة، قلت فيه وجهان: أحدهما أن يقصد بالثّمرات جماعة من أنواع الثّمرات كما في قولك فلان أدرك ثمرة بستانه يريد ثماره المختلفة الأنواع، والثّاني أنّ الجموع قنعا ويقع بعضها موضع بعض لاتّفاقهما في الجمعيّة كقوله: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ﴾ [الدّخان: 25] وثلاثة قروء ويقصد الأول قراءة محمّد ابن السّميع من المثمرة على التّوحيد ولكم صفة جارية على الرّزق إن أريد به العين وإن جعل اسمًا للمعنى فهو مفعول به كأنه مثّل رزقًا إيّاكم في استحقاق العبادة فضلًا عن الاشتراك في الرّبوبيّة والصّفات الكماليّة والأسماء الذاتيّة.

﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: 22] أشباهًا وأمثالًا تفريع على ما سبق من الأدلّة الدّالّة على وحدانيّته وكمال فردانيّته في تدبيره أو متعلّق باعبدوا على أنّه نهي معطوف عليه أو نفي منصوب بإضمار إن في جواب فلا أو بلعلّ على أن ينصب ليجعلوا انتصاب فاطّلع في قوله تعالى: ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: 36 - 37] أي خلقكم كي تتقوا وتخافوا عقابه إلحاقًا لها بالأشياء السّتة لاشتراكهما في غير موجبة. والمعنى أن يتّقوا ألا يجعلوا لله أندادًا، أو بالّذي جعل لكم إذا رفعته على الابتداء على أنّه نهي وقع خبرًا على تأويل مفعول وإلغاء للسّببيّة لتضمّنه معنى الشّرط والمعنى من يبلّغكم بهذه النّعم الجسام والآيات العظام، وينبغي أن لا يشرك به النّداء لمثل المعاوق المنادي والشّبيه المعاند المعادي قال جرير:

أينما تجعلون إليّ ندًّا   وما يتم لذي حسب نديد

من ندّ يندّ ندًّا إذا يفسق، ونددت الرّجل إذا خالفته، وقولهم: ليس لله ندٌّ ولا ضدٌّ معناه نفي ما يسدّ مسدّه ونفي ما ينافيه ويضدّه، وإنّما خصّ بالمخالف المماثل في الذّات كما خصّ المساوي للماثل في العدّ، فإن قلت: إنّ الكفّار وإن جعلوا الآلهة أصنامًا وسمّوا بأسماء إلا أنّهم ما زعموا أنّها تخالف الله وتماثله في الذّات والصّفات، قلت: لما تقرّبوا إليها وعظّموها وسمّوها آلهةً شبّهت حالهم بحال من يعتقد أنّها آلهة مثله قادر على مخالفته ومعاداته، قال زيد بن عمرو بن نوفل حين فارق دين قومه:

أربًّا واحدًا أم ألف ربٍّ   أدين إذا تقسّمت الأمور

تـركـتُ الـلّات والـعُـزّى جـمـيـعًـا كـذلـك يـفـعـل الـرّجـل الـبـصـيـر

قال ابن مسعود: فلا يجعلوا لله أندادًا أكفّاء من الرّجال فيطلبونهم في معصية.

قال عكرمة: لولا كلبنا لدخل اللّص في بيوتنا.

مطلب الفرق بين العبادة والطاعة

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: 22] أنّه واحد خالق كلّ شيء وأن لا خالق إلا الله وأنّ الأنداد التي تعبدونها لم ترفع لكم السّماء ولم تمهّد لكم الأرض ولم ترزقكم رزقًا بإنزال الماء وإخراج النّبات هذا هو الإسلام الّذي جبلت النّفوس كلّها إليه في الفطرة الأولى كما ورد في الحديث: «**كلّ مولود يولد على فطرة الإسلام**» إلا أنّه لم يمنع طاعة الغير إذ هي امتثال أمرٍ من الحاكم والآمر كالنّبيّ وأولي الأمر كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ [النِّسَاء: 59] بخلاف العبادة فإنّها غاية التذلّل والانقياد التي لا يستحقّها إلا من له غاية الفطنة ونهاية الكبرياء والجلالة، ولمّا كانت العبادة مقتضى ذات الربّ والعبد يقتضي إنعامه عليه لم يكن له منها في الحكم وفي امتثال الأمر وهو إمّا بالكتاب أو بالسّنّة أو بالإجماع أو بالقياس وأصل الكلّ الكتاب، لم يكن لها بدّ، ولمّا لم يتمّ شأنه العظيم إلا بنفي الرّيب عنه نفى عنه بإعجازه.

عن عبد الله بن مسعود: «**سألت رسول الله: أيّ الذّنب أعظم؟ قال: أن يجعل لله ندًّا وهو خلقكم**»، قلت: ثم أيّ، قال: «**أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك، قلت: ثم أيّ، قال: أن تزني بحليلة جارك**».

وهي حال من ضمير فلا تجعلوا ومفعول مطروح أي وحالكم أنت من أهل العلم وإصابة الرأي والفكر والنّظر فلو تأمّلتم أدنى تأمّل لاضطرّت عقولكم إلى إثبات موجد للمكنات وهو متفرّد بوجوب الذّات متعالي عن شأنه المخلوقات وأنّ الأوثان الّتي تعبدونها إنّما هي من مخلوقاته ومن جملة مصنوعاته فعلى هذا لا شرك له ذاتًا ولا صفةً وفعلًا وأثرًا ووجودًا وعلمًا وشهودًا.

تأويل وإشارة

واعلم أنّ مضمون الآيتين هو الأمر بعبادة والنّهي عن الإشراك به والإشارة إلى ما هو العلّة والمقتضى وبيانه أنّه رتّب الأمر بالعبادة على صفة الرّبوبيّة إشعارًا بأنها العلّة لوجوبها ثمّ بيّن ربوبيّته بأنّه خالقهم وخالق أصولهم وما يحتاجون إليه في معايشهم من المقلّة والمظلمة والمطاعم والملابس فإنّ الثّمرة أعمّ من المطعوم والرّزق من المأكول والمشروب، ثمّ لما كانت هذه الأمور لا يقدر عليها غيره رتّب عليها النّهي عن الإشراك به ولعلّه سبحانه وتعالى أراد من الآية الأخيرة مع ما آل عليه الظّاهر وسبق فيه الكلام الباهر الإشارة إلى تفضيل خلق الإنسان منه، ولمّا أفاض عليه من المعاني والصّفات على طريقة التّمثيل مثل البدن بالأرض والنّفس بالسّماء والعقل بالماء، وأفاض عليه من الفضائل العلميّة والعمليّة الحاصلة بالحواسّ الظّاهرة والباطنة الّتي هي للقّوة العاقلة بمنزلة الغاذية والنامية الطبيعيّة والمولّدة وبازدواج القوى النّفسانيّة والبدنيّة بالثّمرات والقوة المتولّدة من ازدواج القوى النّفسانيّة الفاعليّة والأرضيّة القائلة بقدرة الفاعل.

واعلم أنّ الأرض هي القابليّات والسّماء هي التّجلّي الذّاتيّ والماء هو المعارف الفطريّة والإدراكات الضّروريّة والثّمرات أنوار الإيمان الّتي رتّبت على الاستعدادات والأرض هي النّسب الذّاتيّة والشؤونات الأوليّة والسّماء هي المحبّة الذّاتيّة التي هي السّبب الأوّل «**كنتُ كنزًا مخفيًا فأحببتُ أن أُعرف فخلقتُ الخلق لأعرف**» والماء هي الأشواق والأذواق والثّمرات هي المعارف، أو المراد مرتبة علم اليقين وعين اليقين وحقّ اليقين، والثّمرات الأخلاق المرضيّة، أو المراد منها الشّريعة والطّريقة والحقيقة، أو المراد منها مراتب العقل والقوّة النّظريّة المرتّبة الهيوليّة والملكيّة والمستفادة والعقل.

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ [البَقَرَة: 23] وشكٍّ وعدم طمأنينةٍ، يشير إلى أنّه ينبغي أن يرتاب فيه لكونه محض الحكمة البالغة فإنّ فرض بناء على عدم جريان العقل

على مقتضى الصّراحة فلا ينبغي أن يدوم في المرتاب والمرتاب فيه من أمر يرد علّة ويزيله ويمنعه فإن دام لغلبة القواسر أو لضعف المقتضى أو لكليهما فلا ينبغي أن يحيط الجوانب، أحاط الظّرف المظروف لكمال ظهور محاسنه، فإن كانت فغايته أن يكون نوعًا أو فردًا منه، فإن كنتم فيه أي في شكّ فيه مع أنّا جعلنا معجز حال ترقّيه في الإنزال فحال الاجتماع لما فيه من القوّة الكاملة والهيئة الفاضلة أشدّ إعجازًا أو أشدّ إبرازًا لما فيه من الخصائص الشّريفة والمزايا واللّطائف الظّريفة التي تخرجه عن طوق البشر إلى فوق النّظر والفكر لكون المنزل عليه فمن أيّده الله بروح القدس وشرّفه بصراحة العقل وبقوّة النّفس لأنّه من نَفَس الرّحمن بل من نَفْس الرّحمن «**إنّي وجدت نَفَسَ الرّحمن من جانب اليمن**» بالضّرورة يلزم الإعجاز بالإطناب والمساواة والإيجاز يحتمل التّوبيخ على الريبة لما معهم ما يردّ عنهم ويرفعهم عن الأصل والتّغليب لما فهم من يعرف الحقّ وينكره عنادًا، وأصل (إن) أن يكون وقوع الشّرط ولأن وقوعه غير مجزوم في مقام الشكّ وقد دخلت ههنا لغير شكّ لأنّ الله عليم بأنّهم مرتابون إلا أنّ المخاطبات ههنا على عادة العرب تنزيل العالم بمنزلة الجاهل، وغير الشاكّ بمنزلة الشّاك في إن كنت إنسانًا فافعل كذا، وإن يعلم أنّه إنسان فعل له كذا وكذا، قيل إنّ ههنا بمعنى إذ كقوله تعالى: ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 278].

﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾ من القرآن ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ محمّد ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ﴾ [البقرة: 23] جملة مسودة وجملة مترجمة ومصوّرة من الكتاب، وإنّما التّنزيل لتمكّن التّحدي به لأنّ طعنهم وارتيابهم إنّما كان في القرآن المنزّل منجّمًا مفصّلًا لا جملة واحدة لخروجها عن طرق البشر لما تقرّرت وحدانيّته وبيّن الطّريق الموصل إلى العلم بها عقبه بما هو حجّة على نبوّة محمّد عليه الصّلاة والسّلام وهو القرآن المعجز بفصاحته التي بدت، وغلّب فصاحة كلّ منطق وإفحامه من طولب بمعارضته من مصاقع الخطباء من العرب العرباء مع كثرتهم وفرط مودّتهم في المضادّة والمضارّة وتهالكهم على نداهم عليه وهم في أثناء ذلك بهتوا عن التّحدّي والمعارضة وسكتوا. وإيثار التّنزيل على الإنزال بناء على أنّ القرآن مع كونه على وترة كلامهم منجّمًا نزلت آية عن آية على حسب النّوازل ومقتضى الحوادث ومرتضى المنازل

وعلى سنن ما جرت عليه محاورات أصحاب المخاطبات والإشعار في المجالس والمحافل والمحاضرات عجزوا عن الاتيان بأقصر كلام يماثله.

قرئ على عبادنا المراد الرّسول وأمّته.

السّورة: طائفة من القرآن أقلّها ثلاث آيات موجودة في سورة البلد، أو من السّور التي هي الرّتبة إن كانت الواو أصليّة لاحتوائها على فنون من العلم وأجناس من الفوائد والحكم وانطوائها على أنواع المصالح والحكم. أو من السّورة التي هي بقيّة الشيء وفضيلته إن كانت منقلبة عن الهمزة لكونها قطعيّة كما ورد في الحديث: "**سؤر المؤمن شفاء**" وإنّما نزلت مقطّعة مفصّلة متدرّجة لا دفعة لما فيها من مصالح العباد في المعاش والمعاد في جميع الأماكن والبلاد. وهي على النّوائب مجدّدة بالتّعاقب مبدّدة. وأيضًا فلو نزلت بغته لخرجت عن التّحدّي لتعدّيه عن طوق البشر، وأيضًا إنزال التوراة والإنجيل وغيرها من سائر الكتب كان على هذا النّمط.

واعلم أن كون القرآن معجزًا لأمرين:

أحدهما: أنّه بلغ في حسن النّظم في مراتب البلاغة ومناقب الفصاحة والصّناعة إلى حدّ امتنع الصّعود إليه.

الثّاني: أنّه مشتمل على بيان الحقائق الإلهيّة والحوادث الزّمانيّة الغير المتناهية من الأزل إلى الأبد فإنّ كلّ آية وكلمة بل كلّ حرف بحسب الصّورة والهيئة والعدد والزبرة البيّنات وعدد البيّنات وبيّنات عدد البيّنات إلى سبعة أبطن، بشّر إلى مراتب الوجود وظهورات ما فيها من أحوال العابد والمعبود وأطوار ما اشتملت هي عليه مجملًا ومفصّلًا.

قال الصّادق: "لا تكرار في القرآن لا إشارة ولا عبارة" فإنّ كلّ آية وكلمة دالّة على معنى من المعاني مغايرة لغيرها وعلى صورة مغايرة وحادثة من الحوادث الكائنة ومع غيرها على معنى آخر من المعاني إلى غير نهاية، ولهذا امتنع الإتيان بمثله مع كثرة المعاندين وصرف هممهم إلى أن يأتوا بسورة من مثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا، كما أنّ أجزاء أفراد الإنسان وأحوال أعضائه من

الخطوط والأسارير على اليد والرّجل والجبهة وسائر هيئات الأجزاء من العين والأنف وغير ذلك فإنّ لكلّ منها دلالات واضحة وإشارات ساطعة على الأحوال الآتية والماضية والحاليّة إلى غير نهاية، وكذا في أجزاء بدن الإنسان الكبير وهو الأفلاك وما فيها من النّجوم والكواكب والعناصر وما يحدث فيها ومنها من كائنات الجوّ من ذوات الأذناب والشّارد وذوي الذّواب والرّعد والبرق والصّواعق وغير ذلك فإنّ الله تعالى أودع فيها علومًا وأسرارًا وحكمًا وأنوارًا وفهومًا غير متناهية وكلام الله يحتوي على هذه العلوم والإدراكات ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: 61].

﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ صفة سورة أي سورة كائنة من مثله والضّمير لما أنزلنا، ومن للتّبعيض والتّبيين وزائدة عن الأخفش، أي بسورةٍ كائنةٍ ممّن هو على حاله كونه بشيرًا ونذيرًا أميًّا لم يقرأ الكتب ولم يدارك العلوم ولم يمارس الحدود والرّسوم ولم يماسس الإشارة والرّقوم أو صلة لقوله ﴿فَأْتُوا۟﴾ الضّمير والرّد إلى المنزل أوجه لأنه المطابق لقوله ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: 23] وكسائر آيات التّحدّي ولأنّ الكلام فيه لا في المنزّل عليه فحقّه أن لا ينفكّ عنه لينسّق التّرتيب والنّظم ولأنّ مخاطبة الجمّ الغفير بأن يأتوا بمثل ما أوتي به واحد من أبناء جلدتهم أبلغ من التّحدّي وعجزهم عن الإتيان بالمثل بوجوه: أحدها لابتلائهم بقهر الله وغضبه عليهم، عن أبي محمّد النّحويّ قال: نتذاكر إعجازًا للقرآن وكان ثمّة شيخ فاضل كبير السنّ كثير الفضل قال: ما فيه ما يردّ الفضلاء عنه أنا آت به ثمّ ترقّى إلى غرفة ومعه صحيفة ووعد أنّه سيأتهم بعد ثلاثة أيّام ممّا يضاهي القرآن فلمّا انقضت ثلاثة أيّام صعدوا فوجدوه ميّتًا مستندًا إلى الجدار يابسًا يده على القلم. وبعضهم أتوا بكلام سمج بارد قد عارض مسيلمة الكذّاب سورة البلد: (لا أقسم بهذا البلد، وأنت مقيم بهذا البلد، حتى يكون ذا مالٍ وولد، وحيل وعدد إلى آخر الأبد على زعم من حسد)، عارض بعض آخر سورة الفيل: (فقيل ما الفيل، وما أدراك ما الفيل، له ذنب وخرطوم طويل، وأنّ ذلك من خلق ربّنا لقليل)، وقال آخر: (يا ضفدعة ضفدعين نقّي كم تنقّين، أعلاك في الماء وأسفلك

في الطّين، لا الماء تكدّرين ولا التّراب تمنعين، إنّ الأرض نصفها لقريش ولكن قريش قوم يعتدون)، وغير ذلك مما لا حلاوة له ولا طراوة عليه من المهملات والأباطيل والضّلالات، فاعتبروا يا أولي الألباب واستبصروا يا أولي الأبصار.

فلمّا عجزوا عن المعارضة ركنوا إلى الحروب والمقابلة وإلى الضّرب بالسّيف والمقاتلة وركنوا من المشرق والمغرب من العجم والعرب للقتال بوفور الرّغبة وكثرة الضّرب فما خلصوا إلا بالفرار والهرب ورضوا بسبي الذّراري وأخذ الأموال والنّهب ورفضوا المقابلة فحاروا في المغاور والتّيه والجبل وصاروا أعجز من الأذل.

﴿وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم﴾ يشهدوا لكم في إثبات المثابة ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: 23] بالاستعانة بكلّ من ينصركم ويكون في هذا الأمر ظهيرًا، جمع شهيد بمعنى الحاضر أو القائم بالشّهادة أو النّاصر وإنّما سمّي به لأنّه يحضر النّوادي ويبرم بمحضرة الأمور في المحاضر والبوادي، ومنه قيل للمقتول في سبيل الله شهيد لأنّه حضر له ما كان يرجوه ووجده أو الملائكة حضروه، ومعنى دون: أدنى مكان من الشّيء وأقرب منه تدوين الكتاب لأنّه أدنى البعض من البعض وقرّبه منه، ودوّنك هذا أي خذه من أدنى مكان منك، ثم استعير للمراتب فقيل زيد دون عمرو في الشّرف والرّتبة، ومنه الشّيئ الأدون أي الحقير ثمّ اتّسع فيه فاستعمل في كلّ تجاوز حدٍّ إلى حدّ وتخطّي أمر إلى آخر ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عِمرَان: 28] أي لا يجاوزوا ولاية المؤمنين إلى ولاية الكافرين، "يا نفس ما لك دون الله من واق" إذا جاوزت وقاية الله فلا يتمسك غيره، ومنه ﴿وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: 65] أي من عندنا وحضرتنا، ومن متعلّقة بأدعوا وبشهداء والمعنى وادعوا إلى المعارضة من حضركم أو رجوتم معونته من إنسكم وجنّكم وإلٰهكم غير الله فإنّه لا يقدر على أن يأتي بمثله إلا الله، وادعوا شهداءكم من دون الله يشهدون لكم بأنّ ما أتيتم به مثله، قيل من دون الله أي من دون أوليائه وهم المؤمنون بتقدير المضاف يعني فصحاء العرب ووجوه المشاهير ليشهدوا لكم أنّ ما آتيتم به مثله، فإنّ العاقل لا يرضى لنفسه أن يشهد بصحّة ما اتّضح فساده وافتضح شداده وعناده وبان إخلاله وراء انفعاله من دون الله في أنّ

محمدًا قال من نفسه جوابه محذوف دلّ عليه ما قبله. أي فائتوا بسورةٍ من مثله ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البَقَرَة: 23] والصّدق تارةً يكون صفة الخبر والأخرى صفة للمخبر لأنّ في الكلام نسبة لها خارج فإن طائفةً فهو صادق وإلا فكاذب فإن أضيف الخبر إلى الصّادق يكون صفةً للمخبر وإلا فهو صفة الخبر.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟﴾ بما أمرتم به فيما مضى ﴿وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ في المستقبل أبدًا هذا على حسب حساباتهم وطمعهم أو لأنّ العجز قبل التأمّل كان كالمشكوك فيه لكمال اتّكالهم على اقتدارهم على الإتيان بمثله لكمال بلاغته، أو من مقولة إن كنت مسلمًا فلا تخن ولم للحجّة بجعل المضارع ماضيًا وإن تجعل الماضي مستقبلًا ولن ولا أختان في نفي المستقبل إلا في لن تأكيد وتشديد، تقول: لا أقيم غدًا فإذا أنكر عليك تقول: لن أقيم غدًا، كما أنا أقيم وإنّي مقيم أصلها لا أن وعند الفرّاء لا انقلبت ألفها نونًا، وعند سيبويه حرف مقتضية أداة مرتجلة لتأكيد نفي المستقبل، وهي جملة اعتراضيّة لا محلّ لها من الإعراب.

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البَقَرَة: 24] والوقود ما يتقوّد ويشتعل به النّار ويرتفع، مبتدأ وخبره النّاس والحجارة جمع حجرة كالجمال جمع جمل، وهو خلاف القياس لما بيّن لهم ما يتعرّفون به أمر الرّسول وما جاء به وميّز لهم الحقّ من الباطل رتّب عليه ما هو كالفذلكة والنّتيجة وهو أنّهم إذا اشتدوا في معارضته وعجزوا جميعًا من الإتيان بما يساويه أو يدانيه ظهر أنّه معجز والتّصديق به واجب مقرّر وشجرة الإيمان ودوحة العرفان في رياض القلب تغرس وتعزّز فآمنوا به واتّقوا به العذاب المعدّ لمن كذّبه فعبّر عن إتيان المكلّف بالفعل الذي يعمّ الإتيان وغيره إيجازًا لا حقيقةً بل مجازًا وترك الجزاء وهو رفض العناد ونزّل لازمه منزلته على سبيل الكناية تقريرًا المكنّى عنه أي ترك العناد تهويلًا لشأن العناد وتصريحًا بالوعيد مع الإيجاز في المعاد. والمراد من الحجارة الأصنام التي ينحتونها وقرأوا بها أنفسهم وعبدوها طمعًا في شفاعتهم واستدفاع

المضارّ من مكانتهم أنّكم وما تعبدون من دون الله حطب جهنّم فعذّبوا بما هو منشأ جرمهم بجرمهم وجنسهم كما عُذِّب الكافرون بما كبروه فلأنها للعهد أو التبعيض ما كانوا يذيعون زيادةً في تحسّرهم، وقيل هي الذّهب والفضّة التي كانوا يكنزونها ويغترّون بها وعلى هذا لم يكن لتخصيص هذا النّوع من العذاب بالكفّار وجه، وقيل حجارة الكبريت وهو تخصيص بلا دليل وإبطال للمقصود إذ الغرض تهويل شأنها وتفاقم لهبها بحيث تتّقد بما لا يتّقد غيرها والكبريت تتّقد به كلّ نار وإن ضعفت وقلّت وحقّرت و. . . ، فإن صحّ هذا عن ابن عبّاس فلعلّه أراد به الأحجار كلّها لها كالكبريت يتّقد بها ولمّا كانت الآية مدنيّة نزلت بعدما نزلت بمكّة في سورة مريم نكرة إذ سمعوها من الرّسول فحينئذٍ عرفت النّار وقعت الجملة صلة لكون القصّة معلومة.

﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البَقَرَة: 24] وتكون النّار على طبقات تكون هذه الحالة فيها أيضًا على طبقات لتفاوت أحوال الواردين فيها كالجنّ والشّياطين والإنس، فعذاب الشّياطين أشدّ من عذابهما.

إشارة وتأويل

ولا تجعلوا لله أندادًا في محبّة الله الذي جعل التّوحيد فراشًا للموحّدين المطمئنّين عليه مع المولى ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾ خطاب للأطوار السّافلة من الأطوار السّبعة القلبيّة أو بالقوّة النّظريّة والعمليّة وعمّالها من الحواس الظاهرة والباطنة. إن وقع لكم شكّ وتردّد ممّا نزّلنا من سماء الأحديّة الذّاتيّة من آيات التّجليات الآثاريّة والأفعاليّة والصّفاتيّة والذّاتيّة وما يتفرّع عليها من الأحوال من الفناء في الله والبقاء بالله والكليّة والمطهريّة الجماليّة والجلاليّة وكليّاتهما الإفراديّة والجمعيّة الإفراديّة والكليّة التي وقعت في أوّل الأدوار الإلهيّة وبداية الأكوار الأحديّة على عبدنا أي القلب الجامع والطّور الرّافع صاحبه إلى طور طور السّر ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ تكون مماثلة لها فلو كان ما زعمتم من أنّها خيالات فاسدة وأوهام كاسدة غير صحيحة فلكم خيال ووهم أتيتم بمثلها ﴿وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم﴾ [البَقَرَة: 23] من القوّة العاقلة ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ﴾ في الأدوار السّالفة ﴿وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ في الأدوار الآتية مع أنّكم في بداية كلّ دورة قد شاهدتم ذلك الجمال

والوجه الجلال وأخذتم الميثاق على شهوده في الأبد ونقضتم ذلك العهد ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [البقرة: 24] أي نار التحسّر والنّدامة التي تطّلع على الأفئدة التي هي ظهور التّجلّي في المحشر العظيم، وحشرهم عميًا وعشواء وهذه النّار أشدّ لأنّ وقودها هي النّفوس والحجارة والقابليّات إذ التّخالف النّفسانيّ والتّكاثف الرّوحانيّ أشدّ ثباتًا ورسوخًا من التّخالف الجسمانيّ، وتحصيل التّماثل فيها أصدّ، والنّار من شأنها جمع المتماثلات وتعريف المخالفات وتخلية جواهر النّفوس عن الكدورات الجسمانيّة والهيئات الظّلمانيّة ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: 24] السّائرين عهود الله التي جرت بين الله وبين القوى والأجزاء والمبادئ والأعضاء يوم يشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يكسبون والفؤاد الصّحيح.

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥﴾

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي الأطوار السّريّة والرّوحيّة والخفيّة وغيب الغيوب الذين آمنوا بالله وبتجلّيه في الفطرة الأولى مع جميع القوى البدنيّة والمبادئ النّفسانيّة والرّوحانيّة التي كانت فيها متّحدة بهم غير متميّزة عنهم حسًّا وعقلًا ونفسًا وحكمهم هو حكمهم في قبول التّجلّي والإشراقات الإلهيّة فإذا أنزلوا من هذه المرتبة في هذه النّشأة تميّز بعضها من بعض ظهر شهود ذلك الجمال في النّفس بصورة الإيمان وفي القلب برؤية العرفان وفي القوى والأعضاء بكيفيّة العمل وكميّة الإحسان ﴿أَنَّ لَهُمۡ﴾ من أحديّة جمعيّة كلٍّ منهم ﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي﴾ [البقرة: 25] أي ما يجتن ويحتجب به عماؤنا فيها وهي التّجليّات التي كانوا عليها في الفطرة الأولى وهي أربعة: ذاتيّة وصفاتيّة وأفعاليّة وآثاريّة ظاهرة في مجالي أعيان عالم الملك والشّهادة من الأجرام السّماويّة والعنصريّة التي من آثار تأثير الأرواح والنّفوس والملائكة العاملة والجواهر النّوريّة والأنوار القاهرة كما شاهده الخليل بصورة الكواكب وموسى في صورة العناصر ومحمّد

بصورة أحسن شابّ إنسانيّة، أمّا الأفعاليّة فهي أنواع: أحدها أن يرى الحقّ مؤثّرًا فاعلًا خالقًا للكلّ رازقًا جامعًا مفارقًا سواه يرى الحقّ متّصفًا به أو نفسه مظهرًا لربوبيّته، وغير ذلك من أسماء الرّبوبيّة، وقد يرى ذاته نفس الكثرات إمّا على سبيل العموم كما قال أيضًا: "المتقلّب في الصّور" والخصوص وغير ذلك من الإشارات التي أوردها في كتاب خطبة البيان.

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي كلّ ما استقام من جنس الأعمال الإراديّة السّنيّة الدينيّة والأفعال النّفسانيّة الحسيّة الإنسيّة ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ جمع جنّة وهي البستان من النّخيل وغيره من الشّجر الظّليل المتكاثف القضبان المتعاطف الأغصان، وإنّما سمّيت بها لاجتنانها واستتارها وكتمانها بالأشجار ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا﴾ أي تحت الأشجار وما فيها من القصور والبنيان ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ جمع نهر من النّهار الفائق فوق الأفق، والمعنى ههنا هو الماء الجاري المتجاوز عن الشّواطئ والجداول كالنّيل والفرات وإن أريد منه المجرى فإسناد تجري إليه من باب سال الميزاب وجرت الوادي والبطائح واشتعل الرّأس شيبًا، ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا﴾ فيها ومن الثّانية للتّبعيض والبيان ﴿مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ أوتوا بمثله فعل ماض مجهول من باب الأفعال أي أوتي لهم بالمرزوق في الدّنيا والآخرة من ثمرات متشابهة في الطّعم والرّائحة والكيفيّة الفائحة ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [البَقَرَة: 25] من دنس الحيض والنّفاس وغير ذلك من الأمور المكدّرة المتعذّرة للطبائع وهو أبلغ من طاهر ومطهّرة للإشعار بأنّ ههنا ظهرهنّ وليس ذلك إلا على الله عزّ وجلّ، والزّوج في الأصل لما هو قرين من جنسه كزوج الحقّ فإن قلت: فائدة المطعوم هو وقع ضرر الجوع وفائدة المنكوح التّوالد وحفظ النّوع وفي الجنّة لا حاجة إليهما، قلت: مطاعم الجنّة ومناكحها وسائر أحوالها لا يريها الدّنيويّة في بعض الصّفات والاعتبارات وسمّى بأسمائها على سبيل الاستعارة والتّمثيل ولا يشاركها في تمام حقيقتها ما يفيدها قال رسول الله ﷺ: «**إنّ أهل الجنّة يأكلون ويشربون ولا يتفلون ولا يتغوّطون ولا يتبوّلون** . . . .(*) **الطّعام**» قال: «**جشاء ورشح يجري من أعراقهم كريح**

(*) يوجد بياض في الأصل المخطوط.

المسك يلهمون التّسبيح والتّمجيد كما يلهمون النّفس» وقال: «**يدخلون الجنّة على صورة القمر ليلة البدر تلوّنهم على أشدّ كوكب دريّ**» قال عليّ عليه السّلام: لا بيع فيها ولا شراء إلا الصّور من الرّجال والنّساء فإذا اشتهى الرّجل صورة دخلها وإنّ فيها بمجمّع الحور. . . . . (*) الخلائق بمثله نحن الخالدات فلا نبيد أبدًا ونحن النّاعمات فلا نيأس أبدًا ونحن الراضيات . . . . (*) لنا وكنا له. قال الحسن البصريّ: هنّ عجائزكم العمص الرّمص العمش ظهرن من قدرات . . . . (*) مقيمون لا يموتون فيها ولا يخرجون عنها.

وفي الكشّاف: والخلد الثّبات الدائم والبقاء اللّازم . . . . (*) من قبلك الخلد فإن متّ فهم الخالدون الدّائمون، الخلد والخلود في الأصل الثّبات . . . . (*) ثاني والأحجار الخوالد وللجزاء الذي يبقى من الإنسان على حاله دام حيًّا خلد، ولو كان وضعه للدّوام لكان تقييده بالتأبيد في قوله ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النِّسَاء: 57] لغوًا واستعماله حيث لا دوام كقوله وقفٌ مخلّدٌ يوجب اشتراكًا أو مجازًا والأصل بنفيهما بخلاف ما لو وضع للأعمّ منه فاستعمل فيه بذلك الاعتبار كإطلاق الجسم على الإنسان لكن المراد به الدّوام ههنا عند الجمهور كما يشهد له الإيمان والسّنن.

فإن قيل الأبدان مركّبة من أجزاء متضادّة الكيفيّة متداعية إلى الافتراق والاعتراك والانفصال معرّضةً للاستحالات المؤديّة إلى الانفكاك والانحلال فكيف يعقل خلودها في الخيال، قلت: إنّه تعالى يعيدها بحيث لا يعتريها الاستحالة بأن يجعل أجزاءها مثلًا متقاربة في الكيف متساوية في القوّة لا يقوى منها شيء على إحالة الآخر بل هي متلازمة لا ينفكّ بعضها عن بعض كما يشاهد في بعض المعادن كالذّهب والياقوت، فإن قلت: فعلى هذا يلزم أن تكون بعض المعادن أعدل أمزجة من الإنسان، فالجواب: إنّ الاعتدال على نوعين: أحدهما: أن يكون بين الأجزاء الأوليّة والأركان العنصريّة الكثيفة، والثّاني: أن يكون بين الأجزاء الأوليّة والثّانية، أي الرّوح والجسد أيضًا؛ فالأوّل يقتضي البقاء البدني والثّاني يقتضي الكمال الأبدي، وفي الآخرة يحصل الكلّ واحد من أفراد

(*) يوجد بياض في الأصل المخطوط.

الإنسان كلّا إلا الاعتدالين ويقتضي الخلود ودوام الثّبوت في البدن وأحواله وذلك لأنّ كلّ نعم جليلة إذا قارنها خوف الزّوال وعرف الانفصال والانتقال عادت نقمة وبليّة وغصّة بليلة، أقول: إنّ أجزاء بدن أهل الجنّة ليست من جنس العناصر الدّنياويّة تتغيّر وتتبدّل يعني عند ظهور القيامة وانتقال فرداريّة الدّورة الجماليّة الدّنياويّة إلى فرداريّة بل هي العناصر البرزخيّة لما تحقّق عند أهل الحقّ أن أجزاء أبدان أهل الجنّة باقية ببقاء النّفس أزلًا وأبدًا والعناصر الدّنياويّة تتغيّر وتتبدّل يعني عند ظهور القيامة وانتقال فرداريّة الدّورة الجماليّة الدّنياويّة إلى فرداريّة الدورة الجلاليّة الأخرويةّ الضمنيّة ينتقل الحكم إلى الآخرة إذ لا شكّ ولا مريّة أن مقتضيات هذه الدّورة يغاير تلك الدّورة وكذا يغاير أحكامها وأحوالها أحكام تلك الدّورة وأحوالها فإذا أبشر بخلودها أبشر بهذه النّعم وبدوام التّلذّذ بهما، قال عليه السّلام: «**من يدخل الجنّة يحيى ولا يموت وينعم ولا ييأس ولا يبلى شأنه ولا يبلى شبابه**، قيل: يا رسول الله كيف بناؤها، قال: **لبنة من فضّة ولبنة من ذهب بلاطها مسك أذفر وحصباؤها اللّؤلؤ والياقوت وترابها الزّعفران**».

إشارة وتأويل

واعلم أنّ المبدع القادر والمخترع المختار القاهر في جميع الأحوال في تمام الأدوار وعموم الأكوار هو الذّات لكن حيث هو ذات وإلا لما تعيّن مخلوق لتساوي نسبتها إلى الكلّ بل بخصوصه اسم من أسمائها الذّاتيّة وصفة من صفاته الأوليّة وهي سبعة بعضها بالأصالة وهي أربعة: الحيّ العليم والقدير والمريد والبعض الآخر بالاشتراك والتّبعيّة وهي الباقية، فللذّات باعتبار كل اسم من الأسماء الذّاتيّة في كلّ مرتبة من المراتب الأربع ربوبيّة خاصّة واقتضاء مخصوص، ولذلك اقتضاء مدّة متعيّنة وبرهة مبيّنة ولها بداية ونهاية وأزل وأبد وأفلاك مصفوفة ولها أدوار وحركات ولكلّ منها دنيا وآخرة ونار وجنّة وغير ذلك من المواعيد المذكورة يبعث في كلّ دورة أنبياء وينزّل كتبًا ويبيّن شرائع ويعيّن أممًا مؤمنين وكافرين، فما دام الحكم والفرد ظاهر يكون طور الآخرة باطن حقيّ وإذا انقضت هذه حكم الدّنيا اختفت وتبطّنت أطوار الدّنيا وأحوالها وأهوالها فذلك الأحوال خالدون فيها.

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦ ﴾

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ﴾ أي لا يترك ترك المستحي إذ هو لازم النّفس عن القبح مخافة الذّم ﴿أَن يَضۡرِبَ﴾ ويبيّن ﴿مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ﴾ إذ لازم في ذلك إذ الواجب فيه أن يكون على الممثّل من جهة التّمثيل الذي هو إبراز المعنى المعقول في صورة المحسوس تخليصًا للعقل عن منازعة الوهم. نزلت في اليهود لمّا ذكر الذّباب والعنكبوت في الكتاب ضحكت اليهود وقالوا ما هذا الكلام وماذا أراد الله بهذه الأشياء الخسيسة في كتابه وما يشبه هذا كلام الله فأنزل الله يعني أنّ الله لا يترك ضرب المثل حياء منه ولا يمنعه الحياء أن يبيّن مثلًا بأحقر الأشياء وأصغرها كالبعوضة وما فوقها كالذّباب ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بمحمّد وبما جاء به من الكتاب ﴿فَيَعۡلَمُونَ﴾ قطعًا ﴿أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ﴾ هذا المثل هو من ربّهم ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ﴾ [البقرة: 26] أي أيّ شيء أراد الله بهذا المثال ضرب المثل وصنعه من ضرب اللّبن وضرب الخاتم أصله وضع الشيء ووضعه على آخر، وما في بعوضة إبهاميّة وإذا اقترنت بالنّكرة أبهمتها إبهامًا وزادتها أشياعًا وعمومًا، تقول أعطني كتابًا ما وتصوّر بوجه ما أي أيّ كتاب وأي تصوّر كان أو أصله وزيادة للتّأكيد ولا نعني بالصّلة اللّغو الضائع العبث إذ القرآن كلّه هدى وبيان وإنّما زيدت على ما وضع لأنّ ما تذكر مع غيره فيعدّ له وثاقة وقوّة وزيادةً في الهدى غير قادح فيه، وبعوضة عطف لمثلًا أو مفعول ليضرب ومثلًا حال قدّمت عليه لأنّها نكرة أو هما مفعولان لتضمّنها معنى الجعل، وقرئ بالرّفع على أنّه خبر مبتدأ محذوف فحينئذٍ يحتمل أن يكون لـ "ما" وجوه أخر، أن تكون موصولة محذوفة الصّدر كما في تمامًا على الذي أحسن أو مفعولًا ثانيًا على التّصدير المذكور أو موصوفًا بصفة كذلك ومحلّها النّصب بالبدليّة واستفهاميّة هي المبتدأ كأنّه ورد استبعادهم ضرب الله الأمثال، قال بعده

ما بعوضة فما فوقها وما حقيقتها وماهيّتها وخصائصها ولوازمها وأحكامها الذّاتيّة والوجوديّة حتى لا يضرب بها مثل، وأي ترجّح لغيرها حتى ساغ فيضرب مثل دونها بل له أن يضرب بما هو أحقر منه، والبعوضة فعولة من البعض وهو القطع كالبضع فما فوقها عطف على بعوضة أو على ما إن جعل اسمًا ومعناه ما زاد عليها في الجثّة كالذّباب والعنكبوت ويحتمل أنّ الفرق هو الزّيادة في جانب الحقارة والقلّة بمعنى أحقر وأقلّ وأصغر. وأمّا حرف تفصيل لما أجملت ويدخل على المبتدأ متضمّنًا لمعنى الشرط ولذلك يجاب بالفاء وتؤكّد، تقول زيدٌ ذاهب فإذا قصدت توكيد ذلك قلت أمّا زيد فذاهب.

قال سيبويه: أمّا زيد فذاهب معناه مهما يكن من شيء فزيدٌ ذاهب والأصل دخول الفاء على الجملة الخبرية لا الجزاء.

ماذا: تحتمل الوجهين أحدهما: أنّ ما استفهاميّة وذا بمعنى الذي وما بعده صلة والمجموع خبر ما، وإن تكون ماذا استفهاميّة اسمًا واحدًا لما كانت الآيات السّابقة متضمّنة لأنواع من التّمثيل عقب ذلك بيان حسنه وما هو الحقّ له والشّرط فيه هو أن يكون على وفق الممثّل له من العظم والصّغر والخسّة والشرف والقوّة والضّعف دون الممثّل، فإنّ التّمثيل وهو تنزيل المعاني الصّرفة من عالم التّجرّد إلى عالم الحسّ والتّجدّد وتشبيه المعقول بالمحسوس إنّما يصار إليه كشف المعنى الممثّل له ورفع الحجاب عنه وإبرازه في صورة المشاهد المحسوس لتساعد فيه الوهم العقل ويصالحه فإنّ المعنى الصّرف إنّما يدرك بالعقل بلا واسطة من الوهم والمعاني المخلوطة بواسطة، والتّمثيل إنّما يجري في الصّورة الثّانية مع منازعة من الوهم لأنّ في طبعه من الميل إلى الحسّ والمحاكات لكونه مجبولًا على أن يأخذ المعاني الجزئيّة من الحسن ويقيس الغائب والمعقول على الحاضر والمحسوس قد يخطئ ولذلك شاعت الأمثال في الكتب الإلهيّة وشاعت في عبارات البلغاء واعتبارات العرفاء المتحقّقة وإشارات الحكماء المتألّهة تمثّل الحقير بالحقير والعظيم بالعظيم وبالعكس لنكتة كما مثّل وشبّه الكفّ بالبحر والوجه بالقمر والشمس وغير ذلك، وإن كان الممثّل أعظم من كل عظم كما مثّل في الإنجيل غلاء الصّدر بالنّخالة والقلب القاسي بالحصاة ومخاطبة السّفهاء

بإثارة الزّنابير كما مثّل الله تعالى حال المنافقين بحال المستوقدين وأصحاب الصّيّب وأحوال الأوثان ببيت العنكبوت في كمال الوهن والضّعف، قال الله تعالى ردًّا على الكفّار: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ﴾ [البَقَرَة: 26] وقد جاء في الحديث: «**إنّ الله يستحي من ذي الشّيبة المسلم أن يعذّبه**»، «**إنّ الله حيي كريم يستحي إذا رفع العبد يده إليه أن يردّها صفراء حتّى يضع فيها خيرًا**» وأيضًا قال عليه السّلام: «**عليكم بالوجوه الحسان والحدق السّود فإنّ الله يستحي أن يعذّب وجهًا مليحًا بالنّار**» فالمراد ترك اللّازم للإقباض والقبض اللّازم للحياء الذي يرضى به صاحبه زوال الحياة كما يقال: رأيت الهلال في وجهه من شدّه الحياء وذات حياء. كما أنّ المراد من رحمته وغضبه إصابة المعروف والمكروه، ويجوز أن يراد به الغاية لا المبدأ وهو كيفيّة حادثة في النّفس دون إدراك مرغوب فيكره أن يتعاطيه الحياء بمنع الرّزق.

وفي الكشّاف: الحياء تغيّر وانكسار يعتري الإنسان من لحوق ما يعاب ويذمّ.

والإرادة مصدر نقيض الكراهة وهو طلب النّفس ما يرتضيه وميل القلب إليه والمتكلّمون على أنّها معنى يوجب للحيّ حالًا لأجلها يقع منه الفعل الاختياري بوجه دون وجه وهي في الباري تعالى له صفة تخصّص تعلّق القدرة بأمر دون أمر في وقت دون وقت آخر فإنّ نسبة القدرة إلى جميع الأشياء في تمام الأوقات على السّواء والإرادة تخصّصها ويخصّص الممكنات بالوقوع في وقت دون وقت وبالاتّصاف بصفة دون صفة وبالتّحقيق بحال دون حال، فإن قلت كيف جاز وصف القديم سبحانه وتعالى بما يصف به العبد ولم يجر عليه الخوف والذمّ، قلت: هو جار على سبيل التّمثيل مثل تركه إجابة العبد وأنّه لا يردّ يديه صفرًا من عطائه لكرمه يترك من يترك ردّ المحتاج إليه حياء وكذلك معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ﴾ أي لا يترك ضرب المثل بالبعوضة ترك من يستحي أن يتمثّل لحقارتها ويجوز أن تقع هذه العبارة في كلام الكفرة فقالوا: ما يستحي ربّ محمّد أن يضرب مثلًا بالذّباب والعنكبوت فجاءت على سبيل المقابلة وإطباق الجواب على السؤال وهو فنّ من كلامهم بديع وطراز

عجيب، فإن قلت: كيف يضرب المثل بما دون البعوضة وهي النّهاية في الصّغر، قلت: ليس كذلك فإنّ جناحيها أقلّ منها بدرجات وقد ضرب به رسول الله ﷺ: «**لو وزنت الدّنيا عند الله جناح بعوضة لما سقى كافرًا شربة ماء**» وفي خلق الله حيوان أصغر منها ومن جناحيها ربّما رأيت في تضاعيف الكتب العتيقة دويبة لا يكاد تجلّيها للبصر الحادّ إلا بحركتها وإذا سكنت فالسّكون يواريها ويسرّها ويخفيها فسبحان من يدرك صورة تلك الدّويبة وإغطائها وتبصّر بصرها ويطّلع على ضميرها ولعلّ ما أصغر منها في خلقه، ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٦﴾ [يس: 36].

يا من ترى مدّ البعوض جناحها ... في ظلمة اللّيل البهيم الألْيَلِ
ويرى عروق[1] يناطها في محوها ... والمخّ في تلك العظام النُّحّلِ
اغفر لعبد تاب من فريّاته ... ما كان منه في الزّمان الأوّلِ

والحقّ هو الثّابت الذي يسوغ إنكاره يعمّ الأعيان الثّابتة والأقوال الصّادقة والأفعال الصّائبة من قولها حقّ لأمر إذا ثبت ثبوت محقّق أي محكم النّسخ.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وكان حقّه: وأمّا الذين كفروا فلا يعلمون لتطابق قرينة وتوافق قريبة لكن لمّا كان قولهم هذا دليلًا واضحًا على كمال جهلهم عدل إليه على سبيل الكناية ليكون كالبرهان عليه ﴿فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ والإرادة نزوع النّفس وميلها إلى الفعل بحيث تحمله وتظهره ويقال للقوّة التي هي مبدأ النزوع والأوّل مع الأوّل والثّاني قبله وكلا المعنيين لا يتصوّر اتّصاف الباري بهما ولذلك اختلف في معنى إرادته، قيل علمه باستحالة الأمر على النّظام الأكمل والوجه الأصلح الأفضل فإنّه يدعو القادر إلى تحصيله والحقّ أنّه توجّه أحد المقدورين على الآخر ويخصّصه بوجه دون وجه.

ومثلًا نصب على التّمييز كقولك لمن أجاب بجواب غثّ ماذا أردتّ بهذا جوابًا وعلى الحال ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البَقَرَة: 26] أي أراد الله بهذا المثل أن يضلّ به كثيرًا من النّاس جواب بماذا أي المراد إضلال كثير

(1) وهو عرق علّق به القلب.

وهداية كثير أي بيان للجملتين المصدّرتين بأمّا وكلاهما موصوفان بالكثرة. إنّ العلم يكون حقًّا من باب المعدي الذي ازداد به المؤمنون نور إلى نورهم وإنّ الجهل بحسن مورده من باب الضّلالة التي ازدادت الجهلة خبطًا في ظلماتهم ويحتمل أن يكون كثرة الضّالّين من حيث العدد وكثرة المهتدين من حيث الفضل والشّرف، كما قال عليه السّلام: «**ثقال إذا لاقوا، خفاف إذ مروا، قليل إذا عدّوا، كثير إذا شدّوا**».

وفي الكشّاف: أهل الهدى كثير في أنفسهم وحين يوصف القلّة إنّما يوصفون بها بالقياس إلى أهل الضّلال وأيضًا إنّ القليل من المهتدين كثير في الحقيقة وإن قلّوا في الصورة فسموا ذهابًا إلى الحقيقة كثيرًا. إنّ الكرام كثير في البلاد وإن قلّوا كما أنّ غيرهم قليل وإن كثروا ومع إسناد الإضلال إلى الله تعالى إسناد إلى السّبب لأنّه لما ضرب المثل ومثّل به ضلّ به قوم واهتدى به قوم ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: 26].

﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ الذي أخذ منهم في الأزل أي والحال أنّه تعالى ما يضلّ بضر المثل إلا الذين من شأنهم الفسق وعدم الإطاعة ونقض العهد الذي في الأزل جرى بينهم وبين الله ﴿مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [البقرة: 27] واستحكامه بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: 172] أوّلًا في علم الله ثمّ في عالم الأرواح ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ۛ﴾ [الأعراف: 172].

الفاسق في الشّرع هو الخارج عن طاعة الله وأمره بارتكاب الكبائر الذي يسقط به أداء الشّهادة لانتفاء العدالة والمراد ههنا هم الخارجون عن حدّ الإيمان وللفاسق درجات ثلاث: الأولى اتّفاقيّ وهو أن يرتكبها أحيانًا مستقبحًا إيّاها مستنكرها ومرتكبها لائمًا لنفسه نادمًا إدراكه حسّه، والثّانية: يعتاد ارتكابها غير مبالي لها، والثّالثة: الجحود وهو يرتكبها مستوزنًا إيّاها مستوزنًا أدناها وأقصاها

فإذا شارف هذا المقام وتخطى خططه خلع ربقة الإيمان من عنقه ولابس الكفر وما دام في درجة الاتفّاقي والانهماك في مرتبة النّفس اللّوامّة والملهمة لا يسلب عنه اسم المؤمن ولا ينفى عنه حقيقة الإيمان لاتصافهم بالتّصديق والإقرار فلا يكفر لأنّ الكفر تكذيب الحقّ وجحوده وهم متبرّؤون عن هذين.

وأمّا المعتزلة لمّا قالوا إنّ مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر نزلوا منزلة بين المنزلتين لأنّ حكمه حكم المؤمن في النّكاح والإرث والغسل والصّلاة عليه والدّفن في مقابر المسلمين ولكونه كالكافر يذمّ ويلعن ويبرأ عنه ولا يقبل الشّهادة ولا يحرم عداوته ولمّا كان العدول عن الحقّ الواسع الموسع قضاء الدّائرة القلب والرّكون إلى الأباطيل الضيّقة المضيقة للقلب المفضية إلى الشكّ والمعاداة والاستنكار والاستهزاء والميل إلى استحقار التّمثيل والممثل حتى رسخت فيهم الجهالة وتمكّنت في بواطنهم الضّلالة ولهذا نقضوا عهودهم الأزليّة ونقضوا عقودهم الأوليّة.

عن قتادة في قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [آل عِمرَان: 81] لم يبعث الله نبيًّا آدم ومن بعده إلا أخذ عليه العهد في محمّد لئن بُعث لتؤمننّ به ولتنصرنّه وأمره أن يأخذ العهد على قومه.

فإن قلت من أين ساغ استعمال النّقض في إبطال العهد قلت من حيث تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة مما فيه من ثبات الوصلة بين المتعاهدين ومنه قول ابن التّيهان في بيعته رسول الله أنّ بيننا وبين قومنا حبالًا ونحن قاطعوها فإذا استعير العهد كان استعارةً بالكناية فإنّ ذكر النّقض والقطع كان ترشيحًا وإن ذكر مع العهد كان رمزًا إلى ما روى وهو أنّ العهود حبل في ثبات الوصول بين المتعاهدين فالضّمير في ميثاقه للعهد والميثاق اسم لما وقع به الوثاقة وهو الإحكام والمراد ما وثقه الله به عهده من الآيات والكتب أو ما وثقوا من الالتزام والقبول ويحتمل أن يكون بمعنى المصدر أي الإيثاق والتّوثيق كما أنّ الميعاد والميلاد بمعنى الوعد والإيلاء من الابتداء في جميع الوجوه فإنّ ابتداء النّقض بعد الميثاق.

وفي الكشّاف: فإن قلت ما المراد بعهد الله، قلت ما ذكرت عقولهم من

الحجّة على التّوحيد كأنّهم أوصاهم به ووثّقه عليهم وهو معنى قوله: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: 172] وأخذ الميثاق بأنّهم إذا بعث إليهم رسول الله صدّقه الله بمعجزاته صدّقوه واتّبعوه أو لم تكتموا ذكره فيما تقدّمه من الكتب عليهم فاليهود نقضوا العهد لأنّهم فعلوا باسم عيسى ما فعلوا باسم محمّد ﷺ.

مطلب ميثاق الثلاثة

قيل عهد الله إلى خلقه ثلاثة عهود: الأوّل: الذي أخذه على جميع ذريّة آدم الإقرار بربوبيّته ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: 172] والثّاني: عهد خصّص به النّبيين أن يبلّغوا الرّسالة ويقيموا الدّين ولا يتفرّقوا ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى﴾ [الأحزاب: 7] والثّالث: عهد خصّص به العلماء ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عِمران: 187].

﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [البَقَرَة: 27] لاستبدالهم النّقض بالوفاء والقطع بالوصل والفساد بالصّلاح وعقابها بثوابها والسّعادة الأمديّة بالشّقاوة الأبديّة.

ما موصولة ضمير به عائد إليه وما بعده صلته مع الصّلة مفعول يقطعون وهو جملة فعليّة معطوفة على ينقضون ويفسدون جملة معطوفة عليها أن يوصل يحتمل النّصب والخفض على أنّه بدل من ما أو ضميره أي ينقضون عهد الله في الأزل ويقطعون في الأبد جميع أنواع الصّلة ويحملون في الأرض بغير الحقّ ويأمرون بالمعاصي أقواها النّهي عن الإيمان بمحمّد أولئك المغبونون غبنًا فاحشًا لفوات الربح والقسمة وللمصير إلى النّار وهو أعظم العقوبة ولنقصان رأس المال في التّجارة وهو الإدراك الفطري الذي هو حقيقة وهو يحتمل كلّ قطيعة لا يرضاها الله تعالى بها كقطع الرّحم والإعراض عن موالاة المؤمنين والإيمان بجميع الكتب والرّسل من لدن آدم إلى محمّد حين قالوا نؤمن ببعض ونكفر ببعض، وأمّا المؤمنون فوصولوا بالإيمان بجميعهم ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البَقَرَة: 285]

بجميع ما أمرنا به وانتهينا بما نهانا ومنعنا عنه وترك الجماعات المفروضة وسائر ما فيه رفض خير وتعاطي شرّ فإنّه يقطع الوصلة بين الله وبين العبد المقصود بالذّات من كلّ وصل وفصل، والأمر هو القول الطّالب للفعل.

وفي الكشّاف هو طلب الفعل ممّن هو دونك ويغيب عليه وبه سمّي الأمر الذي هو واحد الأمور لأنّ الدّاعي الذي يدعو إليه من يتولّاه شبّه بأمر يأمر به فقيل له أمر تسمية للمفعول به بالمصدر كأنّه مأمور به كالصّيد اسم للتصيّد والخلق اسم للمخلوق كما قيل له شأن والشّأن به الطّلب والقصد، يقال شأنت شأنه أي قصدت قصده.

﴿وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بالمنع عن الإيمان والاستهزاء بالحقّ وقطع الوصل الذي هو نظام العالم وصلاحه ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [البَقَـرَة: 27] الذين خسروا بإهمال الفعل من النّظر واقتباس ما يفيدهم في الحياة الأبديّة واستبدال الإنكار والطّعن في الآيات بالإيمان بها والنّظر في حقائقها والاقتباس من أنوارها وإشراء البغض بالوفاء.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البَقَـرَة: 26].

تأويل وإشارة

قال الصّادق رضي الله عنه أنّ الله تعالى ذكر البعوضة بما عرفت ربّها وهو أرفع الأشياء من حيث ذاتها قد كانت عارفة عند ربّها والكافرون الفاسقون الذين ينظرون في دار المحنة إلى ظاهر الأشياء أضلّهم الله حتّى نظروا إلى ظاهر البعوضة وحقارة حجمها ودناءة جسمها ورداءة جرمها وهدًى للمؤمنين حتّى نظروا إلى باطنها فوجدوا أنوار ربوبية الحقّ وآثار أسماء ألوهيّته في البعوضة مثل ما وجد في عظم الجثّة كالفيل والجمال فإنّ كل ما هو موجود فيهما من الأعضاء والأجزاء والقوى النّباتيّة والحيوانيّة موجود فيها، يعرفون أنّ ما يستحقّاه من العبوديّة استحقّته البعوضة بل هي أحقّ لبدائع العجائب وكثرة الغرائب فيها فعرفوا أنّها أكثر استحقاقًا للعبوديّة فمن انقطع المراد من العبوديّة واختار المفقود على الموجود فقد كفر بالشّاهد والمشهود.

مطلب العهود وأنواع الميثاق

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ في الفطرة الأولى والنّشأة العليا ﴿فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ نزل ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ الحقّ على الخلق بالعدل والصّدق لأنّهم صادقوا حقيقة مقام التّصديق قبل الصّورة وبعدها فقابلوا الآخر بالأوّل والأبد بالأزل فوجدوا ذلك في النّشأتين متطابقًا في الحكم متوافقًا فاستقاموا في الصّدق والإخلاص إذا سمعوا الخطاب المعهود وانتفعوا من معاني الكتاب المشهود. ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وستروا ما سمعوا فلم يبلغوا مقام المشاهدة فوقعوا في بحر الإشكال فلم يهتدوا بحقيقة القرآن وبما فيه من الّلطائف والخواصّ والمزايا وضرب الأمثال ﴿فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [البَقـرَة: 26] فإذا لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم ﴿۞ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [البَقـرَة: 26 - 27] ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ الذي جرى في الأزل بين الرّب والأعيان الثّابتة التي هي مربوب الذّات بالأسماء والصّفات الأوّليّة، فللذّات مع كل اسم من الأسماء الذّاتيّة بعينه ومع كلّ الأسماء بكلّ عين من الأعيان عهد وميثاق ولكلّ عين منها إقرار واعتراف وإيقان بربوبيّته، وهذا الإقرار والعهد يجري في سبعة محاضر كلّ محضر منسوب باسم من الأسماء أوّلها عالم الجبروت ثمّ الملكوت ثمّ المثال ثمّ المركبّات ثمّ المعادن والحيوان والنّبات والحيوان والإنسان في غيب كلّ من هذه المحاضر إجمالًا وتفصيلًا مع الله ولله معه عهد وميثاق وله به إقرار واعتراف بالعبوديّة والرّبوبيّة وكذا في عين كلّ كوكب من الكواكب السيّارة السّبعة أيضًا ميثاق لله بالإنسان وله به إقرار واعتراف وانقياد بما أمر الله به أن يوصلوا ما قدّر الله له وأبدعه فيهم لتدبّره بهم وبما فيهم من البدائع ولطائف الودائع يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ بهذه المحاضر وغيب الكواكب إلى أن يصلوا للفناء الذّاتيّ وهو عدميّتهم الذّاتيّة والبقاء بالله وحجّتهم به بحيث لا يتطرّق عليهم تغيّر وزوال وتبدّل وانتقال ثمّ إلى المرتبة الجامعة لهما وهي الصّورة الكليّة والجمعيّة لهما ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البَقـرَة: 27] بأن ضيّعوا أرض القابليّات وعرض

الاستعدادات. وإنّما أسند الفعل إلى الأعيان مع كونهم عديمي الوجود فضلًا عن الفعل بناء على أنّ ظهورها لهم وإن كان إظهارها بالله عزّ وجلّ.

واعلم أنّ الصّغر والكبر إنّما هو بالنّسبة إلينا لا إليه جلّ وعلا أو قدرته تعالى متعلّق بالنّقطة السّويدائيّة القلبيّة الإنشائيّة بمثل ما يتعلّق بالكلّ قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرّحمن يقلّبهما كيف يشاء وهي مع كونها أصغر الصّغائر أكبر وأوسع لاتساعها الحقّ بجميع أسمائه وصفاته «**لا يسعني أرضي ولا سمائي ولكن يسعني قلب العبد المؤمن**» ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: 72].

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾ [البقرة: 28] بلا خفاء في مراتب الاستحالات النّطفيّة والعلقيّة والمضغيّة وقبلها ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ [الرُّوم: 19] ههنا استفهام فيه معنى التّعجّب والتّوبيخ أي أخبروني على أيّ حال يقع منكم الكفر وقد ثبتت حجّة الله عليكم وهي أنّكم كنتم أمواتًا فأحياكم، استخبار فيه إنكار وتعجّب ونظيره أتكفرون بالله ومعكم ما يصرفكم عن الكفر ويدعوكم إلى الإيمان كما تقول: طائر بغير جناح وكيف يطير بغير جناح وأمّا إخراجه ههنا عن صورة مستحيل فلما فيه من أمر قوي يكون الكفر معه كالمستحيل وهو الإحياء والإماتة. فإن قلت الهمزة لإنكار الفعل والإيذان باستحالته إمّا في نفسه أو لأمر صارف قوي عنه، فما تقول في كيف بحيث كان إنكار الحال التي يقع عليها كفرهم أي الإحياء والإماتة غير مستحيل استحالة الطيران بلا جناح، قلت: حال الشّيء تابع لذاته فإذا امتنع ثبوت الذّات تبعه امتناع ثبوت الحال، وتحريره أنّه إذا أنكر أن يكون لكفرهم حال يوجد عليها وقد علم أنّ كلّ موجود لا ينفكّ عن حال وصفة عند وجوده ومحال أن يوجد بغير صفة من الصّفات كان إنكار الوجود على الطّريق البرهانيّ نحو ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ﴾ [الزُّمر: 64] وهو أبلغ وأقوى في إنكار الكفر من تجريده عن تلك الحال وأوفق لما بعده من الحال والخطاب مع

الذين كفروا، فكيف ههنا حال وما بعده عامل فيه لأنّه ظرف وما قبله إن كان كلامًا مستقلًا وإلا على الحدث فهو حال مقدّم عليه وإن لم يكن مستقلًا يكون مرفوعًا مبتدأ وهو خبر مقدّم عليه. ولمّا وصفهم بالكفر وقبح المقال وسوء الفعال ودناءة الخصال خاطبهم على طريقة الالتفات ووبّخهم على كفرهم مع علمهم بحالهم المقتضية خلاف ذلك، أي والحال أنّكم كنتم أمواتًا أي جدًّا متبدّلة الأحوال في مدارج الاستكمال لا حياة لها ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: 12 - 14] ﴿فَأَحْيَـٰكُمْ﴾ بخلق الأرواح وتعلّقه بها ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ بعد انقضاء الآجال ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بالنّشور في يوم نفخ في الصّور أو للسؤال في القبور.

مطلب سؤال أفلاطون عن عيسى عليه السلام

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: 28] أي بعد الحشر فيفعل بكم ما شاء غفر أو عذّب أو تنشرون إليه من قبوركم للحساب فما أعجب كفركم مع علمكم بحالكم هذه فإن قلت إن علموا أنّهم كانوا أمواتًا فأحياهم ثمّ يميتهم لم يعلموا أنّه يحييهم ثمّ إليه يرجعون. قلت: لتمكّنهم واقتدارهم من العلم بهما لما أصابهم من الدلائل لإنكارهم أكثر أهل الاستدلال من الحكماء بل لإرسال الرّسل وإنزال الكتب لأنّ أمر المبتدا وأحوال المعاد ممّا لا يستقلّ بإدراكهما العقل بل لا بدّ من إسماع الوحي كما أمر وأشار إليه عيسى إلى أفلاطون في جواب سؤال حيث قال: يا من شرّفك الله بالاستعدادت العقليّة والرّموزات النّقليّة كن طالبًا لتدبّر النّفس بالأنوار الإلهيّة القدسيّة الجاذبة من الدّار الدنيّة الفانية إلى الدّار الباقية التي هي محلّ الأرواح الطّاهرة والنّفوس الزكيّة فإن مجرّد العقل غير كافٍ إلى صراط مستقيم ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: 15]. قال عليه السّلام: «**العقل لإقامة العبوديّة والرّبوبيّة**» إذ العقل المشوب بأحكام الوهم مفرد عن إدراك الأسرار الإلهيّة والعلوم العريضة الرّبانيّة والمعارف الغامضة الغميضة الحقّانيّة والقول بأنّ الإعادة هي الأهون من الإبداء والإفادة إنّما هي بعد الوحي.

مطلب الحياة الحقيقية

﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ﴾ [الأنبياء: 104] فمع هذه النّعم الجليلة الإلهيّة والمنح الجزيلة الرّبانيّة يكون الكفر في غاية القباحة والضّلالة ونهاية الحماقة والجهالة فإن قلت: كيف يكون بعد الإماتة من النّعم المقتضية للشكر، قلت: لما كانت الذّريعة أسبابًا ووسيلةً إلى الحياة الثّانية التي هي الحياة الحقيقيّة كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: 64] أعدّت من النّعم الجسيمة والعطايا العظيمة مع أنّ المعدودة عليهم نعمة هي المعنى المنتزع من القصّة بأسرها كما أنّ الواقع حالًا هو العلم بها لا كلّ واحد من الجمل فإنّ بعضها ماضٍ وبعضها مستقبل وكلاهما لا يصحّان حالًا ولا يجتمعان معها لعدم دلالتهما على الحاضر ومع الخطاب للمؤمنين خاصّةً لتقدير المنّة عليهم وتبعيد الكفر عنهم، كيف يتصوّر منكم الكفر ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾ أي جهّالًا ﴿فَأَحْيَٰكُمْ﴾ بما أفادكم من العلم والإيمان ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ أي ينسيكم ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: 106] ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بالحياة الحقيقيّة وهي العلوم اليقينيّة والمعارف الإلهيّة ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فينبّئكم بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فالحياة وهي مبدأ الحسّ والشّعور والحركة الإراديّة حقيقة وبها يسمّى الحيوان حيوانًا ومجازًا في القوّة النّامية لأنّها من طلائعها ومقدّماتها ذا مختصّ به الإنسان من الفضائل والإيمان من حيث كمالها وغايتها فهو أحقّ باسم الحياة ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: 122] والموت بإزائها، يقال على ما يقابلها في كلّ مرتبة تقابل الإيجاب والسّبب والعدم والملكة والقضاء وهو الأصحّ كما يُشعر قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: 2] الآية وإذا وصف بها الباري تعالى أريد به صحّة اتّصافه بالعلم والقدرة اللّازمة لهذه القوة فينا أو معنى قائم به يقتضي ذلك فهو على الاستعارة.

وفي الكشّاف: فإن قلت: يقال أموات في حال كونهم جمادًا وإنّما يقال ميّت فيما يصلح فيه الحياة من النبي قلت: بل يقال ذلك لعادم الحياة مطلقًا كقولك بلدةٌ ميت ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾ [يس: 33] ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ [النحل: 21]

ويجوز أن تكون استعارة لاجتماعهما فيما لا روح ولا إحساس.

تأويل وإشارة

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ يا أهل السّير إلى الله ومن الله و﴿بِاللَّهِ﴾ الذّات الجامع لجميع المراتب وما فيها من الأعيان وما لها من الأحوال والمقامات وسائر المقاصد والمطالب وعموم الحالات وتمام المآرب والكمالات في مرتبة جامعة كاملةٍ هي غاية مرتبة السّائرين في الله ونهاية الدّائرين بالله ومع الله في الأدوار الإلهيّة والأطوار الرّبانيّة المتحلّي بنعت النّور والوجود والجمال وفي الأكوار السبحانيّة التي استترت الذّات واحتجبت فيها بالحجب الجلاليّة والنّعوت التنزيهيّة والصّور العدميّة والمفهومات السّلبيّة وفي الأحقاب السّرمديّة بالجمعيّة بين الجلال والجمال والنّور والأظلال بالبقاء بالله ثمّ بعد التّنزّل في المرتبة البشريّة يميتكم مرّة أخرى بالإفناء في الله ثمّ يحييكم بالبقاء بالله أخرى وهكذا ينتقلون من الموت إلى الحياة ومن الحياة إلى الموت بعد النشآت إليه إلى الذّات الجامعة لتمام الأدوار والأكوار ومقتضياتهما من الأطوار كلّها الظّهورات والبرزات ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بالبقاء بالله الجامع لتمام الأسماء والصّفات الذّاتيّة والأفعاليّة والآثاريّة والصّور النّوعيّة والهيئة الجمعيّة فإذا يتخلّصون من الموت ويأمنون من خوف المحو والفوت ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ الجامع لتمام الأسماء والصّفات ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا﴾ في فرداريّة اسم من أسمائه الذّاتيّة ﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾ في فرداريّة اسم آخر ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ في فرداريّة اسم ثالث ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ في فرداريّة اسم رابع ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البَقَـرَة: 28] بعد النّشأة الكثرة لما عرفت من أنّ المنافقين لكونهم في الدّرك الأسفل طالت تردّداتهم وحالت بينهم وبين الله نشآتهم إلى أن زالت حالاتهم الدّنيّة وهيئآتهم الدريّة فإنّ كل اسم من الأسماء الذّاتيّة التي هي ربّ الأدوار الأربعة المذكورة ينطوي على اقتضاء جماليّ وارتضاء جلاليّ صريحا وضمنًا وإذا انقضت مدّة الصّراحة انقلب الحكم فيصير الضّمن صريحًا والصّريح ضمنًا ودور الدّنيا يصير خفيًّا ضمنًا وطور الآخرة ظاهرًا صريحًا وموت الدّنيا ينقلب حياة وحياة الآخرة حياة سرمديّة حقيقيّة بلا موت وفناء وفوت، فإذا انقضى حكم انقضاء الصّراحة الأخرويّة يصير تارةً أخرى طور

الآخرة ضمنًا في فرداريّة اسم آخر.

قال في العرائس: كنتم أمواتًا في قبوركم بأنوار القدم وأيضًا كنتم أمواتًا في غطاء الغفلة فأحياكم بنور المعرفة وزوال الغفلة وفصال الفترة.

قال الشبليّ: كنتم أمواتًا بغيره فأحياكم به.

أقول: كنتم أمواتًا عنّا فأحياكم بنا.

قال ابن عطاء: كنتم أمواتًا بالظّاهر فأحياكم بمكاشفة الأسرار ومشاهدة الباطن أوصاف العبوديّة ثم يحييكم بأوصاف الرّبوبيّة ثم إليه ترجعون عند تحيّركم عن إدراك صرف الذّات والصّفات عن شواهد المعرفة في طلب الحقيقة.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البَقَرَة: 29] الخلق هو الإنشاء والإحداث فيه معنى التّقدير وقد مرّ اللّام للاختصاص وما موصولة مع صلته مفعول خلق جميعًا تأكيدًا أو حال منه، يعني أنّ الله في المراتب، ثم خلق القادر الذي قدّركم أولًا في علمه ثم خلق لكم وأحدث ما في الأرض وما على الأرض جمعًا وبعضًا لأجلكم خاصّة إبقاءً لكم نوعًا وشخصًا فإنّ ما في الأرض وعلى الأرض متناول لما هو الغذاء وشامل لكلّ ما هو للأشربة والدّواء ومنافعها لكم خاصّة، إمّا لما صح أو لما هو مقصود كلّي من أديانكم وهو الاستدلال والاعتبار وفي الاختصاص تنبيه على أنّ الفرض ممّا ذكر ليس لتكميل الفاعل بل لاستكمال المفعول وكماله مختصّ بالإنسان لا يشاركه أحد من المخلوقات فيه والحال أنّ ما عداه من الجنّ وسائر الحيوانات شاركه فيه. ويمكن أن يقال إنّ المقصود من مجموعة الجليّ والخفيّ والجزئيّ والكليّ إنّما هو لنا ومختصّ بالذّات ونظيره ما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف: 32] مما يقم غير الأرض لا للأرض وحدها إلا أنّ يراد منها جهة السّفل كما يراد من السّماء جهة العلوّ،

فحينئذٍ يتناول كائنات الجوّ كالرّعد والبرق والسّحاب والرّياح والأمطار والبرد والثلج وقوس قزح وغير ذلك ممّا يكون في كرة النّار والماء والهواء ومنافعها هي الافتراش السّكنيّ وغيرها من التّمتعات وهذا الوجه وجه ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي سماء الاعتدال فلك الاستواء والاستقامة يقال: استوى العود وغيره إذا استقام واعتدل أي خلق الأرض وما فيها وما عليها قصدًا إلى خلق السّماء ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البَقَرَة: 29] سبع طبقات لاختصاص الاستواء بالمعنى المذكور بالأجسام وهو لكونه مبدأً للأجسام والجواهر والأعراض منزّه عن الكلّ وصفاته، أو من قولهم استوى إليه كالسّهم المرسل إذا قصده قصدًا مستويًا من غير أن يكون على شيء يكون كالمكان ومنه استعير في المرتبة الثّانية التي خلقها بإرادته ومشيئته من غير إرادة خلوّ شيء آخر في البين، وقيل بمعنى استولى وملك، قال الشّاعر:

قد استوى بشر على العراق من غير سيفٍ ودم مهراق

مطلب خلق الأرض

فثمّ لعلّ تتفاوت ما بين الخلقين لا للتّراخي في الوقت كقوله تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧﴾ [البَلَد: 13-17] ثمّ كان من الذين آمنوا في رتبة الإيمان على أن لا يقال مخالفة ظاهر قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠﴾ [النّازعَات: 30] فإنّه يدلّ على تأخّر دحو الأرض المتقدّمة على خلق ما فيها وما عليها عن خلق السّماء وتسويتها.

وفي الكشّاف: إنّ خلق جرم الأرض مقدّم على خلق السّماء ودحوها مؤخّر.

أقول: يمكن أن يكون إشارةً إلى ما تقرّر من تأثير الفاعل موقوف على قابليّة القائل فلا بدّ أن يتقدّم عليه وللخلق معنيان التّقدير الذي يلائم القابليّة والإيجاد والتّكوين الذي يلازم الفاعل، فالمراد ههنا هو الأوّل تنبيهًا على تقدّمه على الثّاني أو إيماءً إلى أنّ المنخفض المتواضع أحبّ إلى الله من الرّفيع المتمانع.

قال الحسن: خلق الله الأرض في موضع بيت المقدس كهيئة الفهر عليها

دخان يلتزق بها ثمّ أصعد الدّخان وخلق فيه السّموات وأمسك الفهر في موطنها وبسط منها الأرض فذلك قوله تعالى كانتا رتقًا وهو الالتزاق ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ﴾ [البَقَرَة: 29] أي أجرام السّموات السّبعة لأنّ السّماء جمع أو في معنى الجمع وإلا فمبهم يفسّره ما تقدّمه ممّا يستبقه في الذّكر فإن قيل إنّ أصحاب التّنجيم وأرباب الأرصاد وأهل التّعميم قد أدركوا من السّموات تسع حركات متخالفات كمًّا وكيفًا ووجهةً فلا بدّ وأن يكون تسعة أفلاك، ولذا أثبتوا أفلاكًا تسعًا. قلت فيما ذكروه شكوك قد أوردوها وغيرهم على ما ذكر.

قال صاحب الرّصد بمراغة يجوز أن تكون الأفلاك ثمانية والحركة اليوميّة مستندة إلى نفس كليّة قويّة على تحريك الأفلاك الثّمانية كلّ يوم دورة واحدة بالتّقريب.

قال صاحب التّحفة: لم لا يجوز أن تكون الأفلاك سبعة والكواكب الثّابتة والبروج كلّها مثبتة في محدب الممثّل لزحل والحركة البطيئة المحسوسة في الثّوابت والأوجات مستندة إلى فلك الممثّل والحركة اليوميّة مستندة إلى فلك النّفس القويّة وتكون الحركات التّسع مضبوطة بالأفلاك السّبعة كما هو في الكتاب الكريم، فاستحسنه صاحب الرّصد وأثنى عليه ويجوز أيضًا أن تكون الأفلاك أكثر من تسعة لكلّ كوكب من الكواكب الثّابتة صغيرة كانت أو كبيرة فلك تكون جميع الأفلاك متّفقة الأقطاب والمناطق والمحاوير والمذاكر والحركات متساوية القدر متوفقّة الجهة فحينئذٍ تكون المحسوسة جميع هذه الحركات حركة واحدة لما تقرّر من أنّ الحركات الكثيرة المركّبة إذا كانت متساوية القدر متوافقة الجهة تكون المحسوسة من الكلّ حركة واحدة وأنّ سلّم العرش والكرسي عبارتان عن الفلك الأطلس والفلك الثوابت فحينئذٍ يتقوّى رأي الأقدمين من أنّ الأفلاك تسعة وتواطنت النّبوّة والحكمة وتساقطت المخالفة وقد تحقّقوا أنّ هذا الرّأي قد اقتبس من مشكاة أسفار الأنبياء فلا سبيل إلى تحقيق هذا بل الكلّ إلا الوحي. وأمّا كونها سبعًا فالبرهان العقليّ على وجود حركاتها المستقيمة المتّفقة في الجهة المختلفة في القدر فإنّ الحركة التي يتركّب منها الشّهور المشهورة تتمّ دورتها في سبعة وعشرين يومًا، ومن اجتماع إلى اجتماع تسعة وعشرون يومًا

ونصف، ومحور دقيقة وحركة فلك الشّمس الوسطيّة كلّ يوم أنماط دقيقة إذا كانت متوسّطة بين السّرعة والبطء وتتمّ دورتها في مدّة ثلاثمائة وستّين يومًا بالتّقريب وكذا حركات سائر الكواكب ومدّة أدوارها مختلفة فإذا كرّرنا النّظر في حركاتها وجدنا وراء هذه الحركات السّبع حركتين إحداهما في غاية السّرعة وهي الحركة اليوميّة والأخرى في غاية البطء وهي حركة فلك الثّوابت ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [المُلك: 2 - 4] ومن البيّن أن الجسم الواحد لا يمكن أن يتحرّك بحركتين مختلفتين سرعة وبطء فضلًا عن الحركات المختلفة فلا بدّ أن يكون لكلّ من الكواكب السّبعة السيّارة فلك كليّ وكذا لا بدّ وأن يكون لكلّ من الحركتين المذكورتين فلك كليّ وهو العرش والكرسيّ. ويقال في عرف الفلسفة الأولى للأوّل فلك الأفلاك وللثّاني فلك البروج. وفي عرف المبيّن وأهل الشرع يقال: الأوّل العرش والثّاني الكرسيّ.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: 29] فيه تعليل كأنّه قال ولكونه عالمًا بحقائق الأشياء وأحوالها كلّها خلق ما خلق على النّسق العجيب والنّمط البديع الغريب والاستدلال بأنّ من كان فعله على هذا الوجه الأحسن والنّهج البديع الأبين كان عليمًا قادرًا حكيمًا فاطرًا فإنّ الأفعال المتقنة والأشكال المستجنّة والآثار البديعة والأنوار المنيعة والمباني الدقيقة لا تتصوّر إلا ممّن له علم شامل وحكم كامل غير مماطل له واحد في صنعه وتأثيره لا يعتريه عاطل وباطل.

واعلم أنّ تحقيق هذا المقام يستدعي بيان المذاهب المختلفة والأقوال الحقّة والعقائد الصحيحة الغير محرّفة فللعقلاء والحكماء في حدوث العالم على مقتضى نظر العقل ومرتضى دور النّقل أقوال أربعة: أحدها: أنّ العالم الجسماني بحسب الذّات والصّفات حادث حدوثًا زمانيًّا، الثّاني: أنّه قديم بالذّات حادث بالصّفات، الثّالث: أنّه قديم بالذّات والصّفات، والرّابع: أنّه قديم بالصّفات حادث بالذّات، وهذا ممّا لم يقل أحد به، أمّا الأوّل فقد قال به أرباب الملل وأصحاب النّحل من المسلمين والنّصارى واليهود والمجوس وحكماء الهند والسند وأرباب التّنجيم منهما وبعض حكماء الفتاء والصّين والبراهمة وأوائل الأدوار والأكوار،

وقد ثبت في الكتب السّماويّة التّصريح به والأنبياء قاطبةً قاطعون بحقيقته، وأمّا الثّاني فقد قال به الفلاسفة الذين كانوا قبل أرسطو، وأمّا الثّالث فقد ذهب إليه أرسطو ومن تابعه كأبي علي والفارابي فإنّهم قالوا الأفلاك بذواتها وصفاتها المعينّة كالمقدار والشّكل وما يجري مجراهما من الأمور القارّة اللّازمة قديمة، وأمّا الحركات والأوضاع فحادثة مسبوقة بالغير لا إلى أوّل، وأمّا العناصر فقديمة بموادها شخصًا وبصورها نوعًا أي كان قبل كلّ صورة صورة لا إلى أوّل، والأصل في هذه الأقاويل قول الأنبياء لاستنادهم إلى الوحي مع كونهم أعقل العقلاء، والاختلاف إنّما نشأ بعدهم لبعد العهد عنهم فإنّ الفلاسفة الأول كانوا يقتبسون أطوار العلم من مشكاة الأنبياء ويتّبعونهم آخذين الحكمة من مشكاة النّبوّة فلمّا بعد عهدهم عنهم وانقطعت عنهم أنوار النّبوّة اشتغلوا بالنّظر والفكر فاختلفوا المزاحمة القوة الوهميّة بالعقل وإلا فطريق العقل الصّريح واحد فحكموا بأنّ ذوات الأجسام قديمة دون صورها ولم يتفطّنوا بأنّ الصور لم توجد بدون الذّوات لا العكس. فلمّا جاء أرسطو فتفطّن به عدل عنه مذهبهم وحكم بقدمهما معًا بالزّمان لا بالذّات وبقدمه أيضًا بمعنى أنّه لا أوّل له أوّلًا زمانيًا فالزّمان ليس له أوّل زماني لا أنّه لا أوّل له مطلقًا لأنّه بديهيّ الاستحالة ولا يلزم من انتفاء الأوّل انتفاء الثّاني لأنّ انتفاء الخاصّ لا يستلزم انتفاء العامّ ولا يلزم من ثبوت الثّاني ثبوت الأوّل أيضًا لأنّه يلزم أن يكون للزّمان زمان ألا ترى أنّ المجرّدات الممكنة لها أوّل مع أنّه لا يلزم أن يكون زمان وأنّ الله تعالى قبل كلّ شيء وبعد كلّ شي مع أنّه منزّه عن الزّمان، ولما كان هذا الطّريق كطريق قدماء الفلاسفة باطلًا أرسل الله الرّسل وأنزل عليهم الكتب ليخبروا عن بطلان هاتين الطّريقتين.

هذا صورة مكتوب أفلاطون إلى عيسى عليه السلام

كتب أفلاطون لعيسى عليه السّلام: يا طبيب النّفوس المريضة بداء الجهالة المكتنفة بأكناف الرّزالة المنغمسة في العلائق البدنيّة المكدّرات بالكدرات الطّبيعيّة ويا موقظ القوم من رقدة الغافلين ومنبّه العبّاد من مضيق الجاهلين، يا منجي الهلكى يا غياث المستغيثين، من استغاث أنّ ذاتًا هبطت فاغتربت وتذكّرت فمُنعت فهل إلى وصول من سبيل؟ فأجاب عيسى عليه السّلام: يا من شرّفك الله

بالاستعدادت العقليّة والرّموزات النّقليّة كن طالبًا لتنوير النّفس بالأنوار الإلهيّة القدسيّة من الدّار الدّنيّة إلى دار البقيّة التي هي محلّ الأرواح الطّاهرة والنّفوس الزاكية فإنّ مجرّد العقل غير كافٍ إلى صراطٍ مستقيم.

قال نبيّنا عليه الصلاة والسّلام: «**العقل لإقامة العبوديّة لا لإدراك الرّبوبيّة**».

إذا تقرّر هذا فاعلم أنّ العالَم وما هو سوى الله جلّ وعلا مع ما فيه من الأفلاك والعناصر وكلّ ما عليها من الأملاك والجواهر النّوريّة والقواهر العالية الغالية وغيرهما حادث، وإنّ القديم ليس إلا للذّات وصفاته الذّاتيّة وهي في طور التّحقيق عين الذّات وإنّ الحادث لا بدّ له من مادة، وقال الصّوفيّة وبعض المحقّقين من الحكماء: الأهليّة هي الصّورة العلميّة وهي ليست غير الذّات الحقّ لأنّ العالم بذاته لا يفتقر في إدراك ذاته إلى حقيقة أخرى غير ذاته كذلك لا يفتقر في إدراك صادرة الأوّل أي العلم بذاته إلى صورة حقيقة أخرى غير ذاته، يعني أنّ الإدراك بنفسه في نفسه كما لا يفتقر إلى حقيقة أخرى غير نفسه، كذلك إدراك الإدراك لا يفتقر إلى حقيقة صورة أخرى غير ذاته، وهكذا تتضاعف الإدراكات ولا تكون متغايرة بالذّات والحقيقة بل بالاعتبار والنّسبة والإضافة وإلا لزم التّحكم، فكما أنّ الشّيئين أي ذاته وعلمه بذاته واحد بالذّات كذلك الأثر أي الصادر الأوّل وعلم الله به شيء واحد بالذّات لا تغاير بينهما إلا بحسب الاعتبار فإذًا لا يكون الصادر الأوّل أي إدراك الإدراك مباينًا للأوّل وعلم الله به شيء واحد بالذّات لا تغاير بينهما [تع] ولا الثّاني أي العلم بالصادر وهو صفة متقرّرة فيه غير زائدة عليه، فاعلم به هو عينه كما كان هو عين الحقّ تعالى فإذًا علمه تعالى بما كان وبما يكون وبما هو كائن هي بأسرها العينيّ والغينيّ والجسمانيّ والنّفسانيّ والذّهنيّ والوهميّ والخياليّ كلّها إنّما هو علمه تعالى بذاته في ذاته لذاته بأنحاءٍ شتّى وإنّ الله قد أحاط بكلّ شيء علمًا، وكذلك خالق الأشياء وموجدها ومخترعها ومبديها ومبدعها هو في الحقيقة على الذّات بذاته لذاته في ذاته فمادّة الشّيء في الحقيقة هي علم الحقّ بذاته تعالى بأنحاء شتّى ووجوه لا تعدّ ولا تحصى. وقد علمت أنّ العلم هو عين ذاته وكذا العلم بالعلم وهو صور الأشياء فمادّة الأشياء وصورها ولوازمها وأحوالها الذّاتيّة والوجوديّة هو العلم

والإدراك ويضاعفه؛ فالعلم والوجود والنّور والظهور شيء واحد لاتّحادها حقيقةً وهي الظّاهر بذاته المظهر لغيره وهذا لا يصدق إلا على الذّات الواجب وجوده فيكون عين الذّات بخلاف سائر الفهومات فإنّ الحدّ لا يصدق على شيء منها، فالفهومات المذكورة إنّما تكون عين الذّات لاشتراكهما في هذا الحدّ، فذات الواجب جلّ وعلا كافية في كلّ ما لها من الكمالات الذّاتيّة فلا تكون محتاجة فيها إلى غيرها فتكون بالذّات عينيّة عن غيرها لأنّها غير موجودة ظاهرًا وباطنًا صورةً ومعنىً أوّلًا وآخرًا، فذاته عين العلم وعين الوجود وعين الظّهور وعين النّور وعين الشّهود، فحقائق الأشياء مادّة وصورة ليست إلا العلم والنّور والوجود ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: 35] ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد: 3].

قال طاليس الملطيّ[1] ومن تابعه أنه الماء لأنّه قابل لكلّ الصّور ثمّ حصل الأرض منها بالتّكثّف والانجماد والنّار الهواء بالتّلطّف فإنّ الماء إذا لطف صار هواءً والنّار قد تكوّنت من صفوته والسّماء تكوّنت من دخان النّار، ويقال من بخار كالدّخان فخلق السّموات فظهر على موضع وجه الأرض وكله زبد فخلق منه الأرض وهذا قريب من الحقّ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: 30] ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: 7].

قال عليه السّلام: **"كان الله ولم يكن معه شيء غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذّكر أي اللّوح المحفوظ خلق كلّ شيء ثمّ خلق السّموات والأرض"** الحديث، فدارت الأفلاك حول الأرض دوران المسبّب على سببه بالشوق الحاصل منها إليه ثم قال: إنّ المبدأ الأوّل إبداع العنصر الأوّل الذي فيه صورة الموجودات والمعدومات كلّها فانبعث من كلّ صورة موجود في العالم على

---

(1) طاليس الملطي (624 ـ 546 قبل الميلاد) هو رياضي وعالم فلك وفيلسوف يوناني من المدرسة الأيونية، وهو أحد الحكماء السبعة عند اليونان. (انظر الموسوعة الحرة ويكيبيديا). الحكماء السبعة هم: «سولون من أثينا» ـ لا تكثر من شيء، «خيلون الأسبرطي» ـ اعرف نفسك، «طاليس» ـ التأكد يجلب الخراب، «بياس من بريني» ـ كثرة العمال تفسد العمل، «كليوبولوس من لندوس» ـ كل اعتدال محمود، «بينتاكوس من ميتيليني» ـ اعرف فرصتك، «بيربياندر من كورنث» ـ التفكير المسبق في كل شيء.

المثال الذّي في العنصر الأوّل فمحلّ الصّور ومنبع الموجودات هو ذات العنصر وما موجود في العالم العقلي ولا في العالم الحسّي الأوّل في ذات العنصر الأوّل والاسطقس المؤول صورة ومثالًا عنه تعالى.

ثم قال طاليس: وقد تصوّر العامّة أنّ صور الموجودات والمعدومات بأسرها في ذات المبدأ الأوّل لا بل هي في مبدعه ومعلوله.

وقال الآخرون: كان الأصل أرضًا فحصل الباقي من الأرض بالتّلطيف. وزعم بعضهم أنّه الهيولى تكون من لطافة النّار والهواء ومن كثافة الأرض والماء.

وقال الآخرون: أنّه البخار. وعن انكسا غورس: أنّه الخليط الذي لا نهاية له وهو أجسام صغار غير متناهية وفيه من كلّ جنس أجزاء صغار متلاقية، أجزاء على طبيعة الخبز وأجزاء على طبيعة اللّحم وأجزاء على طبيعة الشّحم والعظم وغير ذلك وتلك الأجزاء متفرّقة متحرّكة، فمتى اجتمع من تلك الأجزاء أجزاء كثيرة متماثلة التأمت وصارت جسمًا، وهذا القائل بنى على هذا المذهب إنكار المزاج والاستحالة، وقال بالكون والبروز.

ومنهم من زعم أنّ تلك الأجزاء كانت ساكنة في الأزل ثمّ إنّ الله تعالى حرّكها فتكوّن منها العالم.

وأمّا الفرقة الثّانية الذين قالوا إنّ أصل العالم ليس بجسم فهم فرقتان: فرقة قالوا: القدماء خمسة: الباري تعالى والعقل والنّفس والهيولى والدّهر والخلاء، قالوا الباري تعالى تامّ العلم والحكمة ليس له غفل ولا سهو ويفيض عنه العقل كفيض النّور عن قرص الشّمس وهو يعلم الأشياء علمًا تامًّا، وأمّا النّفس فلقد تفيض عن العقل فيضان النّور عن ضياء الشّمس لكنّها جاهلة لا تعلم الأشياء ما لم تمارسها، وكان الباري تعالى عالمًا، ثانيًا من شأن النّفس التّعلّق بالهيولى وطلب المؤانسة بالجسم وبذاته فأفاض عليها عقلًا وإدراكًا فيه بذكرك عن عالمها لعلمها بأنّها ما دامت في العالم الهيولانيّ لم تنفكّ عن الآلآم واشتياقها إلى ذلك عن حبّ بعد المفارقة إليه، وبقيت ساكنة أبد الآباد في نهاية البهجة والسّعادة.

الفرقة الثّانية أصحاب فيثاغورس وهم الذين قالوا إنّ مبادئ المركّبات هي

التسلّط وهي الأعداد المتولّدة من الوحدات وأنّ قوام المركّبات بالبسائط وهي أمور كليّة وحقائق أصليّة تكوّنت منها الموجودات وهذه الأمور ماهيّات وراء كونها وحدات الأوقات كان الأوّل كانت مركبّة لأنّ هناك تلك الماهيّة مع تلك الوحدة وكلامنا في الوحدات والبسائط لا المركّبات، وإن كان الثّاني كان مجرّد وحدات لا بدّ وأن تكون مستقلّة بأنفسها وإلا لكانت مفتقرة إلى الغير فيكون ذلك الغير أقدم منها، وكلامنا في المبادئ المطلقة هذا خلف، فإذا كانت الوحدات أمور قائمة بأنفسها فإنّ غرض الوضع للوحدة صارت نقطة، وإن اجتمعت على وضع الاستقامة حصل الخطّ وإن اجتمع الخطّان حصل السّطح، وإن حصل السّطحان حصل الجسم فظهر أنّ مبدأ الأجسام وحدات البسائط وعلى هذا ذهب المتكلّمون إلى أنّ مادّة الأجسام وأجزائها الأوليّة الجواهر الفردة ودلائلهم دلائل أصحاب فيثاغورس وما يرد عليهم يرد عليه وجوابه جوابهم مع أنّ النّقوض الواردة كلّها إنّما هي بالنّسبة إلى عالم الأجسام وأنت خبير بأنّ مرتبة البسائط والوحدات متغايرة لمرتبة الأجسام فلا يمكن أن يعتبر فيها ما اعتبر فيه فلا تردّ تلك النّقوض والبسيط الحقيقي وهو الوحدة وما سواه مركّب وما سوى الله تعالى هو الأجسام عند المتكلّمين، والفيثاغورس، وأقلّ ما يتركّب من جزآن أو ثلاثة أو أربعة إلى ثمانية مركبّة من الوحدات والجواهر الفردة.

مطلب خلق العالم

فقالوا خلق الله السّموات في ستّة أيّام، ففي يوم الأحد من أوّل نيسان خلق الله الأرض ثمّ الفلك الأعظم والعرش الكريم المتحرّك بالحركة الأولى الذّاتيّة من المشرق إلى المغرب وتسع مراتب: الأفلاك والأركان فخلق أوّلًا جرم الأرض ثمّ خلق السّموات ثمّ دحى الأرض وسطحها ثمّ بعد خلق السّموات خلق يوم الاثنين الرّفيع وهي سماء الدّنيا أي الفلك الثّامن وما في ضمنه من الأفلاك السّبع المتحرّكة بالحركة الثّانية من المغرب إلى المشرق، وفي يوم الثّلاثاء أمر الله تعالى الماء فاجتمع في مكان واحد فصار بحرًا وانكشفت الأرض وأنبت الله منها عشبًا وأشجارًا مثمرة وغير مثمرة، وفي يوم الأربعاء خلق الكواكب الثّابتة في الرّفيع الثّامن والسّيارات في الأفلاك الباقية للفصل بين النّهار واللّيل وما

يتركّب منهما فاستولت سلطنة الشّمس على النّهار والقمر على اللّيل وخلى فلك التّاسع عن الكواكب لكونها متساوية النّسبة إلى الكلّ وأحمل فيه جميع الحوادث والأوضاع الكليّة والجزئيّة والاتّصالات بين الأجرام الكوكبيّة وقدّر فيها الأمور ثمّ أنزلها إلى سائر الأفلاك بالتّدريج ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢١﴾ [الحجر: 21] إلى فلك القمر فجعله ذريعة لإيصال تلك الأمور إلى عالم الكون ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [السَّجدَة: 5]، وفي يوم الخميس خلق التّنانين العظام وكلّ نفس متحرّكة في الماء وكلّ طائر ذي جناح، وفي العروبة والجمعة أمر الله الأرض فأخرجت أنفسًا حيوانيّةً بهائم وسباع وحشرات ثمّ خاطب ملائكته هلمّوا بأن يخلق إنسانًا على صورتنا ومثالنا عارفًا بالخير والشرّ فوجد يوم الجمعة بعد العصر آدم وشقّ إحدى أضلاعه اليسرى وخلق منها حواء أمّ البشر وأسكنهما الجنّة، وفي يوم السّبت لم يخلق شيئًا.

وهذا على طريقة الملّتين والأنبياء وطريق العلم لهم في هذا الأمر هو الوحي من الله تعالى ولم يجعلوا للعقل الصّرف من غير سماع الحقّ من الحق طريقًا إلى العلم بحقائق صنعه، فمن ركب مطيّة العقل في تحقيق الأمور بلا قائد الوحي وعائد السّمع والهدى وشاهد النّبوّة والولاية والشرّع وصاحب الجدي فقد ركب عمياء وخبط خبط عشواء فإنّ العقل وحده لا يهدي صاحبه إلى العلم بحادثة جزئيّة واضحة فكيف إلى الأفعال العويصة والأحوال الغامضة والأسرار الخفيّة والمعضلات الحقيّة الإلهيّة والرّموزات الرّبانيّة.

مطلب جذب السلوك وعكسه
إشارة وتأويل

واعلم أنّ هذه الآية قد دلّت على تقدّم خلقه الأرض وما فيها وما عليها وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعرَاف: 54] وغير ذلك تدلّ على تقدّم خلق السّموات إشارة إلى تعاكس اقتضاء الأدوار النّوريّة الجماليّة الوجوديّة وتناكس ارتضاء الأكوار الجلاليّة الظليّة العدميّة فإن فرداريّة أدوار الجمال تكون خلق السّموات متقدّمًا على خلق الأرض وفي

خلق فرداريّة الأكوار الجلاليّة الظليّة الأمر بالعكس، إذ اقتضاء الأدوار وارتضاء الأكوار متعاكسة، ويحتمل أن تكون إشارة إلى أنّ في كلّ واحد من الأدوار والأكوار نور عين من الاقتضاء لأنّ أعيان الجمال وكذا أكوار الجلال يشتمل على أرض القابليّة وعوض الاستعدادت الذّاتيّة وعلى سماء الوجود وما يترتّب عليه من فلك التّسعين ودائرة الإدراك والشّهود وأيضًا تكون إشارة إلى أنّ السّماء اقتضاء الأدوار ترى في ارتضاء الأكوار سفلًا وأرضًا، وأرضه علو وسماء كما يرى في الماء والمرايا الموضوعيّة على الأرض السّموات والأشجار وسائر الأشجار المرتفعة منكوسة وصورها وهيئاتها معكوسة ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم: 48] والمراد من الأرض هي الآنيّة الذّاتيّة وافق الهويّة الغيبيّة المنتهى أسماء الأسماء الذّاتيّة والصّفاتيّة الإلهيّة التي أشار إليها بقوله تعالى: «**لا يسعني أرضي ولا سمائي ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن**» هذا إنّما هو على طريقة التّنزلات والظّهورات، وأمّا على طور مسالك الأحوال والمقامات والكشوف والمشاهدات فاعلم أنّ الأطوار السّبعة القلبيّة منها يرتقي ويصعد ويعرج فيها إلى سماء شهود التّجليّات وهي الأطوار السّريّة والرّوحيّة والخفيّة وغيب الغيوب ومنها ما يحصل فيه قابليّة شهود التّجليّات واستعداده وهي الطّور القالبيّ والنّفسيّ والطّور القلبيّ فإنّ في هذه الأطوار تحصل استعدادات شهود التّجليّات ووجود كمال القابليّات لأنواع المشاهدات وأطوار المكاشفات فإن كان السّلوك على النظم الطّبيعي يرى ويشاهد الأوّل والأرض وأحوالها وما في حكمها وهي العناصر الباقية، وإن كان على نظم غير الطّبيعيّ يكون الأمر بالعكس سيّما إذا كانت الجذبة عالية قويّة.

وأمّا أرباب الأطوار مختلفة الأحوال فمنهم من تتقدّم فيهم الجذبة على السّلوك وإعداد القابليّة والاستعداد ويرتقي إلى سماء شهود التّجليّات قبل تربية القابليّة "رأيته فعرفته ثمّ عبدته لم أعبد ربًّا لم أره" وهو المجذوب السّالك ومنهم من يكون بالعكس وهو السّالك المجذوب، ففي الآيتين إشارة إلى هذا الاختلاف.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30] إذ ظرف وضع لزمان نسبة ماضية تقع فيه أخرى كما أنّ إذ ظرف وضع لزمان نسبة مستقبلة تقع فيه أخرى وهو منصوب بأذكر أي اذكر وقت قول ربّك في الماضي للملائكة ويجوز أن ينصب بقال أي قال اذكر وقت قول ربّك للملائكة في الماضي، والملائكة جمع ملك أو ملاك كالشمائل والشّمال وهي الرّسل، والتّاء لتأنيث الجمع وهو مقلوب المالك من الألوكة والملائكة بمعنى الرّسالة لأنّهم وسائط بين الله وبين النّاس.

مطلب أقسام الملائكة

جاعلٌ أي مصيّرٌ خليفةً أي بدلًا منكم وناب مناب المختلف في تدبير الأمور، والمراد منها آدم لأنّه خليفة الله واختلف في حقيقتهم بعد اتّفاقهم على أنّها ذوات موجودة قائمة بأنفسهم فذهب أكثر الإسلاميّة إلى أنّها أجسام لطيفة قادرة على التّشكّل بأشكال مختلفة مستدلّين بأنّ الرّسل كانوا يرونهم بأشكال مختلفة كذلك.

وقالت طائفة من النّصارى هي النّفوس الفاضلة البشريّة المفارقة للأبدان قالت الحكماء إنّها جواهر مجرّدة مخالفة للنّفوس النّاطقة في الحقيقة منقسمة إلى قسمين: قسم شأنهم الاستغراق في معرفة الحقّ والتّنزّه عن الاشتغال بغيره ويسبّحون باللّيل والنّهار لا يفترون وهم العلّيون والملائكة المقرّبون وقسم يدبّرون الأمر من السّماء إلى الأرض على ما سبق به القضاء وجرى به القلم ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التّحريم: 6] وهم المدبّرات فمنهم سماويّة ومنهم أرضيّة يدبّر عالم العناصر والعنصريّات من البسائط والمركّبات فالحكماء يسمّون الأوّل النّفوس الفلكيّة والثّاني النّفوس الأرضيّة، وأهل الشّرع الملائكة

السّماويّة والملكوت الأعلى والملكوت الأوسط من فلك الشّمس إلى عنصر النّار ومنها إلى أرض الملكوت الأدنى والملائكة السّفليّة والأرضيّة ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٣﴾ [يـس: 83] ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: 101] وأمّا الجواهر التي لا منها ولا من ذلك فهم أقسام حيّز بالذّات وهم الملائكة الكروبيّون عند أهل الشّرع أو شرّير بالذّات وهم الشّياطين أو مستعدّ لهما وهم الجنّ، وهذا أمر تقليديّ تعبّديّ التقط من مشكاة النّبوّة وانضبط من مرقاةٍ ليس برهانيًّا ليتّجه عليه النّقض والمعارضة ويرد عليه المنع والمناقضة.

قال المفسّرون: إنّ الله خلق السّماء والأرض وخلق الملائكة والجنّ فأسكن الملائكة السّماء والجنّ الأرض فعمّروا وعاشوا وعليه عبروا دهرًا طويلًا وتناسلوا عصرًا جزيلًا فظهر فيهم الفساد والبغي والمخالفة والمكابرة والعناد فبعث الله عليهم جندًا من الملائكة يقال لهم الجنّ رأسهم ورئيسهم عدوّ الله إبليس كان من خزائن الجنان وسكّان الجنّة وجليس الرّضوان اشتقّ لهم الاسم من الجنّة وهبطوا إلى الأرض وطردوا الجنّ من وجهها ألحقوهم بشعوب الجبال وجزائر البحار ومفاويز البراري وأكنّة الأودية وكهون التّلال فسكنوا هذه الطّائفة من الملائكة الأرض خفّف عنهم العبادة فأحبّوا لهذا الأمر البقاء في الأرض وأعطى الله إبليس ملك الأرض والسّماء وخزانة الجنان وخمّر في نفوسهم عداوة نوع الإنسان فكان يعبد الله تارةً في السّماء وتارةً في الجنّة وتارةً في الأرض، واستوى عنده النّار والهواء سبعمائة ألف سنة لم يبق في الأرض أي جهة السّفلى سواء كان نارًا أو هواءً أو ماءً أو ترابًا مكان ولا في السّماء ولا في الجنان كنان خالٍ عن عبادته، فلمّا رأى ذلك في نفسه دخله الكبر والعجب فقال في نفسه ما أعطاني الله هذا الملك إلا لأنّي أكرم الخلق والملائكة عليه وأعظم منزلة لديه فجاء في معرض العزل فقال الله تعالى له ولجنده: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البَقَرَة: 30] فخلق آدم على طريقة الملّيين وبعض الحكماء.

مطلب خلق كثرة الآدم

وأمّا رأي البراهمة من حكماء الهند والسّند والصّين فاعلم أنّ الله خلق آدم

قبل خلق السّموات والأرض بستة وثلاثين ألف سنة وكان روحانيًّا لا يحتاج إلى الغذاء ثمّ بعد ذلك خلق الشّمس والقمر وسائر الكواكب الثّابتة والسيّارة فلمّا رأى آدم نفسه استوحش وطلب من الله المؤنس، خلق الله تعالى من جنبه الأيسر حواء، ويقال يعرّفهم لآدم يس ولحواء كوريّ ثمّ خلق معهما من أي جنس من الحيوان مزوجتين وخلق الفرس من جبهته ثمّ عاشوا بعد توالد بلا نفس وغذاء بل كانوا روحانيين أربعة آلاف واثنتان وتسعون سنة ولم يكن من العناصر معهم عنصر النّار، ومن هذا ذهب الإشراقيون إلى أنّ النّار ليس عنصرًا برأسها بل هي الهواء المستحرّ قد اشتدّت سخونته بحركة فلك القمر ممّا يلاقي منه ما كان أسرع حركةً وهي المنطقة تكون أحرّ وأسخن فيكون أغلظ، وما كان من أجزاء كرة الهواء قريبًا إلى القطبيّة يكون أقل سخونةً وألين حرارةً ليكون أرقّ لأنّ ما يلي القطب من أجزاء الفلك بطيء الحركة فلا يكون مقعر كرة الهواء المستحرّة المسمّاة بكرة النّار صحيح الاستدارة لأنّ ما يلي القطب دقيق وما يلي المنطقة غليظ نسبة شكل الإهليلج، وأمّا محدّبها الذي يلي مقعر الفلك القمر فصحيح الاستدارة. فبعد الدّورة التّامّة وهي أربعة آلاف واثنتان وتسعون سنة هلكوا ولم يبق منهم أحد، ثمّ بعد مدّة مديدة مرّة أخرى خلق آدم وحوّاء مع النّفس وطلبوا الغذاء فخلق الله النّار والنّبات والحيوان وظهر الزّرع والأشجار والحبوب والثّمار بعد مرور الأدوار وعبور الأعصار ودور الأكوار وكانوا إذا زرعوا مرّة واحدة حصدوا سبع مرّات في سنة واحدة وكذا الأثمار حصّلت في كلّ سنة سبع مرّات، وكان الخلق في هذه الدّورة كريمًا جوادًا صدوقًا وإذا عصى وأجرم واحدٌ منهم أهلك الله بشأن عصيانه ورداءة طغيانه سبعين ألف نفر من أقاربه وعشائره، وعاشت هذه الطّوائف أربعة أدوار ثمّ هلكوا طرًّا، ثمّ أوجد الله تعالى مرّة ثالثة آدم آخر ثم خلق الجنّ والشّياطين ويقال لهم بالفارسيّة ديو وهيئة الجنّ في الخلقة كالإنسان في الأعضاء والأجزاء إلا أنّ أعضاءهم مثنى مثنى في كلّ طرف يدان ورجلان وعينان وسمعان وأنفان، فلكلّ واحدٍ منهم أربعة أيد وأبعة أرجل وأربعة أعين وأربعة آذان، وهكذا البواقي والشّياطين أيضًا مثلهم إلا أنّ لأحد منهم عشرة رؤوس واحد منها كرأس إنسان والثّاني إمّا رأس حمار أو رأس بقر أو رأس فيل أو غير ذلك من

الخنزير والدبّ والقردة كانوا طوال القامة جدًّا أو من شانة فعالهم ورداءة خصالهم كان حاصل زروعهم وأثمارهم في سنة مرّتين، ولمّا نقص صدقهم وشاع كذبهم في معصية أحدهم هلك سبعة نفر فلمّا غلب الكذب على الصّدق هلك الكلّ، ثم أظهر الله الدّنيا وخلق آدم والجنّ والشّياطين، وأمّا آدم الصّفيّ فقد خلق بعد سبعين نوعًا من آدميين.

مطلب خلق سبعين آدم

وأشار إلى هذا الأمر النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام بقوله: "**خلق الله تعالى الدّنيا على سبعة آماد**" والأمد هو الدّهر الطويل لا يحصيه إلا الله عزّ وجلّ، فمضى من الدّنيا قبل آدم ستة آماد. ومنذ خلق الله آدم إلى أن تقوم السّاعة أنتم في أمد واحد، والغرض من إطناب الكلام في هذا المقام التّنبيه على حدوث العالم الجسمانيّ بل الرّوحانيّ وإنّ له بداية ونهاية، وما ذهب إليه العقلاء المتقدّمين والمتأخّرين إلى قدم العالم إلا شرذمة قليل منهم وهم الفلاسفة الأولى والأخرى الذين حكموا بمجرّد العقل الخالي عن نور النّبوّة وضياء الولاية المتشبّث بأذيال الوهم والخيال فركبوا عمياء وخبطوا عشواء.

﴿قَالُوٓاْ﴾ أي ملائكة الأرض ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البَقَرَة: 30] الجعل الخلق كما كان في جاعل والسّفك السبك وهما نوعان من الصّبّ إلا أنّ الأوّل يستعمل في الدّماء، والثّاني الجواهر الذّاتيّة أي أتخلق فيها خلقًا يفسدون فيهما بالمعاصي وسفك الدّماء.

قال ابن عبّاس: "إنّ الله قال لهم إنّي خالق في الأرض بشرًا يتحاسدون ويتقاتلون ولذلك قالوا في الجواب ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾.

قال أكثر المفسّرين: إنّهم قاسوا آدم على من كان قبلهم من بني جان على مقتضى عقولهم.

قال ذهب: لمّا خلق الله تعالى نار السّموم وهي نار لا دخان لها بين السّماء والأرض تكون الصّواعق منها خلق الجان منها ﴿وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ٢٧﴾ [الحِجر: 27] وخلقًا آخر عظيمًا يقال له مارج وكان على شبه

ذئب وخلق منه زوجته على مثال أسد وتولّد منها الجانّ لقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ [الرَّحمـٰن: 15] وتولّد من الجانّ الجنّ والجنّ توأمان الذّكر والأنثى حتّى صاروا سبعين ألفًا وتكثّروا إلى أن صاروا كعدد الرّمال ثمّ تزوّج إبليس امرأة من ولد الجانّ فتولّد منهما أولاد لا تعدّ ولا تحصى قد سكنوا المفاوز والقفار والغياض والآجام والبطائح والطّرق والمزابل والكهوف والبحار والأنهار والبراري والصحاري وكلّ موضع مظلم موحش حتّى ملأت الأرض ثمّ تمثّلوا بعد ذلك بصور آدم وبصور الدّوابّ والبغال والإبل والحمار والكلاب والسّباع فلمّا ملأت الأرض منهم أسكن الله الجانّ في كرة الهواء والنّار والجنّ وأولاده في سماء الدّنيا وأمرهم بالطّاعة والعبادة وبعث فيهم رسلًا وأنزل عليهم كتبًا وكلّفهم بالأحكام الشرعيّة والأعلام الوضعيّة والمعارف الإلهيّة إلى أن ظهرت بينهم المكابرة والمعاندة والمخالفة والفساد ثمّ أرسل الله عليهم جنوده وهم الملائكة فطردهم عن السّماء والهواء إلى الأرض وأهلكهم وأقامت الملائكة مقامهم وكلّفوا بما كلّفوا وكان إبليس بأولاده بينهم إلى أن تكبّروا وتجبّروا فأهلكهم الله، فشاور الله هذه الملائكة بـ ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البَقَـرَة: 30] قالوا ما قالوا وبلغوا ذلك من الذّكر وهو اللّوح المحفوظ.

قال رسول الله ﷺ: «**إنّ الله جمع جميع الأرض مادّة بدن آدم فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود ولما كانت طبائع أجزاء المادّة متخالفة ظهرت الصّفات متضادّة في آدم** ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ﴾» [الأعـرَاف: 58].

قال وهب: خلق الله رأس آدم من الأرض الأولى وعنقه من الثّانية وصدره من الثّالثة ويداه من الرّابعة وبطنه وظهره من الخامسة ومذاكيره وعجزه وفخذاه من السّادسة وساقاه وقدماه من السّابعة.

عن ابن عبّاس رضي الله عنه: خلق الله آدم من الأقاليم السّبعة: فرأسه من تربة الكعبة وصدره من دهناء وبطنه وظهره من الهند ويداه من الشّرق ورجلاه من الغرب وساقاه وفخذاه من الخطاء، هذا كلّ عضو من ناحية.

وفي مشاورته للملائكة تعظيم للعباد وإن كان المستشار أنقص علمًا وحكمةً من المستشير إذ ربّما يحصل من الهيئة الاجتماعيّة ما لا يحصل من الانفراد. وفي الاستفهام تعجّب من أن يستخلف لعباده الأرض وإصلاحها من يفسد فيها وإيثار مكان أهل الطّاعة لأهل المعصية واستكشاف ممّا خفي عليهم من الحكمة التي تميّزت بها تلك المفاسد لا إنكار ولا اعتراض ولا طعن على آدم لقوله تعالى في خلقهم على وجه الغيبة: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنبياء: 26 - 27] فتأمّل الخليفة هو البدل برفع الأمور إلى المخلف ولا يتولّى إمضاء الأمر عن الآمر والمراد آدم عليه السّلام وكلّ نبيّ ووليّ عادل وحكيم فاضل أو حاكم عادل عامل في عمارات الأرض وسياسات النّاس وتكميل نفوسهم وتنفيذ أمره فيهم لا لحاجة المخلّف بل لقصور المستخلف عليهم من قبول فيضه وتلقّي أمره بغير وسط لذلك لم يستنبئ ملكًا كما قال الله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: 9] لأنّ الأنبياء ومن يحذو حذوهم مع أنّهم قلّما فاقت قواهم واشتغلت قرائحهم بحيث ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النّور: 35] احتاجوا في الاستفاضة إلى الواسطة فأرسل إليهم الملائكة ومن كان من أعلا مرتبة كلمة بلا واسطة كما كلّم موسى في الميقات ومحمّد ﷺ ليلة المعراج ويظهر ذلك في عالم الطّبيعة هي أنّ العظم لمّا عجز عن قبول الغذاء عن اللّحم والدّم لما بينهما من التباعد جعل الباري جلّ اسمه بحكمته البالغة الغضروف المناسب لهما واسطة ليأخذ منه ويعطي إيّاه في المراتب جعل مرتبة البرزخ ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون واسطة بين عالم الأرواح وعالم الأجسام ليصل منه إلى عالم الأجسام ومن عالم الأجسام إلى عالم الأرواح نزولًا عروجًا، وأمّا إفراده فلاستغناء بذكره عن ذكر بنيه وأولاده، كما قيل مضر وقريش وهاشم، أو على تأويل من يخلفكم خلف بخلفتم.

سأل أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه سلمان: ما الخليفة؟ ومن الملك؟، فقال سلمان عليه الرّحمة والرّضوان: «إنّ الخليفة الذي يعدل في الرّعيّة ويقسم بينهم بالتّساوي ويشفق عليهم شفقة الرّجل على أهله ويقضي بكتاب الله، فقال

كعب: ما كنت أعرف في المسجد أحداً يعرف معنى الخلافة غيري ولكنّ الله تعالى ملأ سلمان علمًا وحكمةً وعدلًا، فقال عمر رضي الله عنه: أملك أنا أم خليفة، فقال سلمان: إن كنت جئت من أرض المسلمين بدرهمٍ أو أقلّ ووضعته في غير موضعه فأنت ملك لا خليفة فاستعبر عمر».

إشارة وتأويل

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي اذكر الوقت الذي وقعت فيه بداية فرداريّة الجمال وخلق فيها أوّلًا الصّورة النّوعيّة الجمعيّة الإنسانيّة التي هي الأحديّة الجمعيّة ومشكاة الأنوار معيّة الذّات بالأسماء الذّاتيّة السّبعة والنّعوت الأوليّة وهي تسعة: **ط ح ذ و هـ د ج ب ا ا د م (هـ ٤)** ثمّ خلق الملائكة وقال لهم ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البَقَـرَة: 30] أي في أرض الأنيّة الذّاتيّة وافق عرض الهويّة العينيّة التي يقع في وجهه الباطن مرتضيات أكوار الجلال والظلّ والعدم لاستكمال أطوار المشاهدة وأنوار الشّهود بعد التّكامل في المجاهدة المحدودة في المقام المعهود إلى اليوم الموعود خليفة هي عبارة عن عكس الصّور الجمعيّة الإلهيّة والكونيّة وانعكاس الهويّة الرّبانيّة والإمكانيّة الجماليّة والجلاليّة والخلافة باعتبار اختلاف اقتضاء أطوار تجلّيات الذّات بحسب تغاير أحكام الأسماء والصّفات الذّاتيّة في الأدوار والأكوار ضمنًا وصريحًا متعددة ومقتضياتها في الارتضاء كلّ دورة متحدّدة في نفسها متجدّدة لما علمت من أنّ في كلّ الأدوار الإلهيّة نوعًا من الإبداع والمبدع والاختراع والخلق والمخلوق والمخترع ونوعًا من الملائكة والسّموات والأرض ودنيا وآخرة وقيام قيامة وظهور ساعة وأنّ اقتضاء الأدوار الجماليّة يغير ارتضاء الأكوار الجلاليّة فإنّ الأعيان في الأدوار الجماليّة إنّما تظهر بعنوان الوجود والنّور والجمال والحدود وفي الأكوار الجلاليّة إنّما تظهر وتتعيّن بنعت العدم والظّلام والضّمور والخفاء والغمور، فإنّ ما خلق الله تعالى في الأدوار الجماليّة وتعيّن فيها هو الحقيقة المحمديّة والوحدانيّة الذاتيّة الوجوديّة، ففي دورتها العظمى إنّما تظهر الخلافة بنعت العلم والنّور في الكبرى بصفة الحياة واللّطائف الرّوحانيّة، وفي الوسطى بعنوان القدرة وطغيان القوّة، وفي الصّغرى بخصوصيّة الإرادة كما أشار إليه عليه السّلام: «**أوّل**

ما خلق الله نوري» أو «**أوّل ما خلق روحي**» أو «**أوّل ما خلق الله القلم**» أو «**أوّل ما خلق الله العقل**» وغير ذلك ثمّ خلق الملائكة بكثرة أنواعها في الأدوار النّوريّة في المراتب الوجوديّة صريحًا وفي الأكوار الجلالية ضمنًا يظهر أوّلًا ظهورًا ظلّيًّا الأهرمن الأعظم ثمّ الأغوال والشّياطين ثمّ الجانّ وذلك لأنّ كلّ واحد من الأدوار الجلاليّة الأربعة المذكورة يشتمل على أدوار أربعة أخرى جلاليّة ضمنيّة، ففي الدّورة الأولى خلق من النّوريّة الملائكة والعقول صريحًا والأهرمن ضمنًا، وفي الدّورة الثّانية خلق الأرواح والأغوال وفي الثّالثة النّفوس والأشباح والشّياطين، وفي الرّابعة الأجسام والجانّ، فيستر نور الحقيقة المحمديّة وسريان الوحدة الذّاتيّة أوّلًا في الملائكة والعقول والأهرمن مع كثرة أنواعها في الدّورة العظمى الجمالية، وثانيًا في الأرواح والأغوال، وثالثًا في النّفوس والشّياطين، ورابعًا في الأجسام والجانّ في المرتبة الجنيّة، إذ علّة الأشياء وسببها ومبدأها في الحقيقة هي الحقيقة المحمديّة والوحدة الذّاتيّة التي هي الصّورة الجمعيّة والهيئة النّوعيّة الإجماليّة الإنسانيّة السّارية في الكلّ فلا بدّ وأن تظهر في الجميع، إذ المجموع معلول لها والمعلول صورة العلّة والمبدأ فالباعث على الإقدام إلى الإعراض في الملائكة بقولهم: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾ هو الأهرمن الضمنيّ لما علمت من أنّ الأعيان العقول والملائكة تتضمّن الأهرمن وكذا أعيان الأرواح والنّفوس تتضمّن الأغوال الشّياطين والأجسام الجنّ.

﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ في الأدوار الأربعة الجماليّة الأصليّة والفرعيّة ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [البَقَرَة: 30] أي أوّلًا في أرض الأنية الذّاتيّة وثانيًا في الدّورة الكبرى الأسمائيّة وثالثًا في الوسطى الأفعاليّة ورابعًا في الصّغرى الجسمانيّة الآثاريّة وخامسًا في الصّورة النّوعيّة والهيئة الكليّة الجمعيّة في الدّورة الأخيرة الأصليّة والفرعيّة صريحًا وضمنًا وخليفةً بالاختلاق الإلهي ظاهرًا بصورة جامعة لجميع ما جرعه في الأدوار السّالفة والأحقاب طائفة بنعت الوجود والنّور، هذا إنّما هو في الأدوار الجماليّة النّوريّة الوجوديّة، أمّا إذا انتقلت نوبة التّدبير من الجمال إلى الجلال فأوّل ما يظهر في هذه الدّورة الجلاليّة الذّات البحت بعنوات البحت وهي الحضرة المرتضويّة فحينئذٍ تختفي النّبوّة وتظهر

الولاية وتستولي سلطنتها ويصير سرّ الولاية ظاهرًا وجهرًا وسرّ النّبوّة خفيًّا وسرًّا وتكون حقائق الملائكة خفيّة والأهرمن والشّياطين وحكم الأغوال صريحة وجهرًا. وقدّم أنّ لها أدوار أربعة وتصير أحكام التّنزيه والتّقديس بارزًا صريحًا وحكم التّشبيه مكنونًا وقس على أحوال أدوار الجمال أدوار الجلال فليقتصر عليها والله أعلم بحقيقة الحال ومن أطلعه الله تعالى على سريرة الدّائرة وبرّه الدائم وكشف ستائر سرائره شاهد نظام أكوان الأكوار في جميع ما ذكرنا عكس أعيان الأدوار في جميع ما ذكرنا وتمام ما أوردنا إجمالًا وتفصيلًا.

﴿قَالُوٓاْ﴾ اي الملائكة الظّاهرة في الأدوار الجماليّة بالوجه النّوريّ الظّاهر بعنوان الوجود الذي هو ظاهر الذّات أو جمع الملائكة الظّاهرة الجماليّة والحقيقة الجلاليّة فحينئذٍ تندرج الأغوال والشّياطين والجانّ في حكم الملائكة وأمّا إذا انتقلت الفرداريّة من الجمال إلى الجلال وأصبح الجلال ظاهرًا صريحًا وأمسى الجمال خفيًّا وظلّ الخطاب صريحًا وبالملائكة ضمنًا ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا﴾ أي في الأرض الأنيّة الذّاتيّة ﴿مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾ بمقتضى القوّة الشّهوانيّة الغير المعدّلة ﴿وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ بالقوّة الغضبيّة الغير المباركات وما نسبوا إلى آدم في الحقيقة إنّما هو مآل حالهم وحال مآلهم لأنّ آدم إنّما هو مرآة الخلق ومرآة الكلّ فلمّا ذكر الله آدم عندهم توجّهوا إليه فنظروا فيه وشاهدوا في مرآته ما هم عليه من الفساد وسفك الدّماء فنسبوا إلى آدم أحوال المشاهدة من السّفك والفساد اللّذان هما مخمّران في حقيقتهما مضمران في ماهياتهما فما شاهدوا في أنفسهم ونسبوا إلى آدم وقالوا تعريضًا إلى آدم.

﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ [البقرة: 30] جملة حاليّة بيان لما استشكلوا واعتقدوا بأنّ هذين الوصفين لا يليقان بالخلافة، بل نحن بالجزء النّورانيّ والبسيط الرّبانيّ وهو الجزء الملكيّ الذي يناسب التّقديس والتّسبيح من التّسبيح والتّقديس أحقّ بها منه، لأنّ المعصية تنافي الخلافة والعصمة تناسبها.

واعلم أنّ الغرض من الاعتراض ليس إنكارًا ونفيًا على الله تعالى بل المقصود الاستفسار لا العجب والتّفاخر والتّفاضل لعلمهم بأنّ المجعول خليفة قوّى ثلاث اثنان منها مبدأ الشّهوة والغضب الذين يفضيان إلى ما ذكر والثّالث ما

يجرّه إلى المعرفة والطّاعة والامتثال والإطاعة بقدر الاستطاعة ونحن بالنا من الثّالث نقيم ما أمرنا به سالمًا عن معارضة تينيك القوّتين وهم قد غفلوا عن فضيلتها إذا اقترفنا بالثّالث مبعدين عن الرّذائل النّفسانيّة والقوابل الشّيطانيّة وإطاعتها له أعني العقل الصّريح مذهبين بحلل الخصائص الرّوحانيّة وغرر الخصائص الإنسانيّة وهذا هو أفضل من أن يكونا مجبولين على العصمة والشّجاعة فقط لأنّ اقترانهما بالثّالث يتضمّن العلم بحقائق الأسماء كما قال: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [البقرة: 31] الآية وأيضًا لم يعلموا أنّهما لا يظهران بل لا يكونان إذ جبلتا على العصمة والشّجاعة وأنّ الصّورة الجمعيّة تفيد ما تقصر عنه الآحاد وتفيد ما لا تقتدر عليه الأفراد حال الانفراد كالإحاطة بالجزئيّات والكليّات واستخراج منافع الكائنات من القوّة إلى الفعل وأنّ العصمة والشّجاعة تقضيان الألفة والاستكبار وتنصبّان إلى الاستعجاب والاستكبار بخلاف الصّورة الجمعيّة فإنّها ما لا يفيد الأفراد ولا يعيد الآحاد. والتّسبيح هو تبعيد الحقّ عن النّقائص الوجوديّة والنّقائض الشّهوديّة، من سبح في الأرض والماء إذا ذهب فيهما، أمّا التّقديس فهو التّبعيد عن القيود التّنزيهيّة والنّعوت العدميّة والسّكوت السّلبيّة الوهميّة، من تقدّس إذا ظهر لأنّ مقدّس الشيء مطهرة عن الأقذار، بحمدك في موضع الحال أي متلبّسين بحمدك على ما ألهمتنا معرفتك ووفّقتنا لتسبيحك وقد تداركوا ما أوهم إسناد التّسبيح على أنفسهم ونقدّس لك أي نقدّس نفوسنا عن الذّنوب في الاجتراء على تبعيدك عمّا وصفت نفسك من النّعوت الظّاهرة والأوصاف الطّاهرة والصّفات الباهرة، سبحانك ما عرفناك حقّ معرفتك، كأنّهم قابلوا الفساد المفسّر بالشّك عند قوم بالتّسبيح وسفك الدّماء الذي هو أعظم الأفعال الذّميمة بتطهّر النّفس عن الآثام.

قيل اللّام في لك أصليّة أي تقدّس.

إشارة وتأويل

﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ﴾ إيّاك في فرداريّة الأدوار الجماليّة صريحًا متلبّسين على ما يقتضي الحال التّشبيه الضّمنيّ ﴿بِحَمْدِكَ﴾ كما علمت في الفاتحة ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ في الفرداريّة الجلاليّة ضمنًا فقط فإنّ للملائكة وجهين جماليّ ظاهرًا بنعت النّور

وجلاليّ باطنًا بصفة الظّلمة والخلاف وصورة العدم والضّمور، هذا في الفرداريّة الجماليّة أمّا في الفرداريّة الجلاليّة فينعكس الأمر كما نبّهت عليه وإنّما قيّد التّسبيح بالحمد دون التّقديس لأنّ للملائكة في نوبة الجمال وجهين: تنزيهًا صريحًا وحمدًا تشبيهيًّا ضمنًا، وأمّا في الجلال فيصير الوجه التّشبيهيّ وهو الحمد صريحًا لدى انقلاب الملائكة غولًا وشيطانًا، وبهذا الوجه اعترضوا على الله حيث قالوا ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقـرة: 30] وبهذا الوجه نظروا إلى طاعتهم تقع عباداتهم مطرح نظرهم.

قال النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام: «**المحسن من ظنّ أنّه مسيء والمسيء من ظنّ أنه محسن**». والغول والشيطان ملكان فلا يكون للملائكة إلا وجهًا واحدًا وهو التّقديس الضّمنيّ، قال الله تبارك وتعالى للملائكة: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ﴾ كلّ الأدوار الجماليّة والجلاليّة ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من الانقلابات والتّطورات والانتقالات وتنوّعات الافتضاة ضمنًا وصريحًا وممّا اجتمع في النّشأة الجامعة والمرتبة الكليّة الإنسانيّة الرّافعة للكلّ إلى الذّات البحت من الأسرار الإلهيّة والأنوار الربوبيّة والحقائق الغير متناهية.

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ تفسيره أي أسماء المسمّيات الإلهيّة والكونيّة والرّبوبيّة والأعيان الوجوديّة والعدميّة في الأدوار والأكوار والأحوال الظّاهرة والباطنة فخلق علم ضروريّ بها فيه وبإلقاء معنى في روعه ولا يتسلسل لعدم الافتقار إلى سبق علم غير متناهٍ للانتهاء إلى العلم الضّروريّ والإعلام الرّبانيّ. والتّعليم تأثير يترتّب عليه العلم غالبًا ولذا قيل علميّة فلم يتعلّم وآدم اسم أعجميّ كآزر وشالخ، واشتقاقه من الأدمة والأدمة بمعنى الاستواء ومن أديم الأرض.

قال عليه السّلام: "**إنّ الله تعالى قبض قبضته من جميع الأرض سهلها وحزنها فخلق منها آدم**"، أو من الآدم أو الأدمة بمعنى الأدمة كاشتقاق إدريس من الدّرس ويعقوب من العقب وإبليس من الإبلاس والتّلبيس، والاسم ما يكون

علامةً للشّيء من الألفاظ والأفعال والصّفات وقليلًا ما يرفعه إلى الذّهن.

وفي العرف: هو اللّفظ الموضوع لمعنى سواء كان مفردًا أو مركّبًا مخبرًا عنه أو خبرًا رابطةً بينهما.

واصطلاحًا: هو المفرد الدّالّ على معنى نفسه غير مقترن بأحد الأزمنة الثّلاثة فالمراد في الآية إمّا الأوّل أو الثّاني وهو يستلزم الأوّل لأنّ العلم بالألفاظ من حيث الدّلالة متوقّفة على العلم بالمعاني والمعنى أنّه تعالى خلق آدم من أجزاء مختلفة وقوًى متباينة مستعدًّا لإدراك أنواع المدركات المعقولات والمحسوسات والمتخيّلات والمتوهّمات، وألهمه معرفة دوران الأشياء وخواصّها وأصول العلوم وقوانين الصّناعات وكيفيّة ترتيب الآلات ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ الضّمير إمّا للأسماء أو للمسمّيات المدلول عليها ضمنًا إذ التّقدير أسماء المسمّيات المضاف إليه لدلالة المضاف عليه وعوّض عنها اللّام كقوله تعالى: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مَريَم: 4] أي رأسي فحذف الياء وعوّض عنه اللّام أي الرّأس لأنّ الغرض السؤال عن أسماء المعروضات فلا يكون المعروض نفس الأسماء سيّما أريد بها الألفاظ المراد بها ذوات الأشياء أو مدلولات الألفاظ وتذكيره لتغليب ما اشتمل عليه من العقلاء وقرئ وعرضها على معنى عرض مسمّياتها أو مسمّياتهنّ، ومن قال أنّه للأسماء يقول إنّ الأسماء عين المسمّيات وأراد بها الذّوات التي هي مناط الأحكام وسياط الأعلام، وأمّا الألفاظ والعبارات والرّقوم والإشارات فهي ذوات الدّلالات وإمارات الإدراكات وعلامات التّعرّفات ووسائط التّعقّلات.

﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ تبكيتٌ لهم وتنبيهٌ على عجزهم عن أمر الخلافة إذ التّصرّف والتّدبير على منهج العدالة التي هي من خصائص الخلافة.

قيل: تعرف الأشياء والوقوف على مراتبها في الاستحقاق وقدر حقوقها محال وليس بتكليف ليكون تكليفًا بالمحال. الإنباء إخبارٌ فيه إعلام ولذا يجري مجرى كلّ واحد منهما.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البَقَرَة: 31] في زعمكم أنّكم أحقّاء بالخلافة لعصمتكم وكمال عفّتكم وتمام انهماك آدم من المفاسد والطّغيان والغلوّ في المخالفة

والعصيان فإنّ خلفهم واستخلافهم وهذه صفتهم لا تليق بالقادر الحكيم هذا لازم مقالتهم وإن لم يصرّحوا به إذ التّصديق كما يتطرّق إليه خواصّ الكلام ومزاياه باعتبار منطوقه فكذلك يتطرّق إليه ويتعرّض به ما يلزم مدلوله من الإخبار، وبهذا الاعتبار تعتري النّشآت أيضًا.

إشارة وتأويل

وعلّم آدم الأسماء كلّها وهي مقتضيات الأحقاب الإلهيّة ومرتضيات أدوار الأرباب الأسمائيّة من الأنوار الوجوديّة والأسرار الجوديّة والأطوار الحموديّة الحادثة في النّهار السّرمدي واللّيل الإلهي الأزلي الأبدي.

قال صاحب الخلافة العظمى الجامعة للكلّ: "أنا الذي عنده علم الكتاب ما كان وما يكون" وقال أيضًا: "أنا الذي أعمل ما يحدث في اللّيل والنّهار أمرًا بعد أمر وشيئًا بعد شيء إلى يوم القيامة" العظمى الكبرى التي هي منتقل الدّورة العظمى الجماليّة والجلاليّة وإنّما عجّزهم بالعلم دون العبادة مع أنّ المناسب أن يعجزوا بالعبادة لادّعائهم كمالها إشعارًا بأنّ العلم أشرف وأعلى من العبادة البدنيّة والطّاعة النّفسانيّة لأنّ عبادة العقل والرّوح مع أنّ العمل بدون العلم رسم وعادة لا طاعة وعبادة فلمّا لم يعرفوا الله ولم يعلموه حقّ معرفته وعلمه وعجزوا عنه أحالهم الحقّ جلّ وعلا إلى آدم وأمره بإخبارهم وتعليمه لهم لاقتباس العلم واقتباس الأدب والحلم في خدمته لتوصّلهم بعلم الذّات ومعرفة الأسماء والصّفات حتّى بلغوا في معرفته ويعرف أنوار حكمته إلى ما لم ينالوا بالعبارات وكثرة الطّاعات لأنّهم عبدوا الله تعالى بالجهل لعدم علمهم بأركان الطّاعات وآداب العبادات من الأركان والتّسبيحات والتّهليلات والتّكبيرات وغيرها فإنّها أسماء غير معلوم لهم وأيضًا من الأسرار المكنونة الجليلة القدر ما لم ينال بكثرة الطّاعات وكمال العصمة ووفور العبادات بل لا بدّ له من أمر آخر وهو الجمعيّة الكبرى ليكون مرآةً لشهود ذاته بجميع أسمائه وصفاته المتقابلة كالأوليّة والآخريّة والظّاهريّة والباطنيّة وما يلزمها كالنّافع والضّار والقابض والباسط وغير ذلك ممّا يستعدّ به الإنسان لحمل أمانته ويحاكي بها ما عنده من أسرار ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ولهذا نظرت الملائكة إلى مرآته وهي

الجمعيّة الكبرى شاهدوا فيها ما فيهم من الصّفات الدّنيّة وهي سفك وارتكاب الفساد واكتساب المعاندة والعناد ونسبوها إليه فإنّ عدم إرادة خلق آدم بعينه وهو سفك الدّماء وارتكاب الفساد في الخلاء والملاء وأيضًا إنّ صفة المغفرة ونعت الرّحمة وكمال الرّأفة ووفور النّعمة ووصف الكرامة لا يظهر إلا بالعصيان وكمال المعصية ووفور الطغيان لا بالعفّة الأصليّة والعصمة الكليّة.

قال عليه الصّلاة والسّلام: «**لو أنّكم لم يكن لكم ذنوب يغفرها لكم لجاء الله بقوم لهم ذنوب يستغفرون لها فيغفرها لهم**»، وقال أيضًا: «**لو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم ويدخلهم الجنة**» وقال أيضًا حكاية من الله تعالى: «**إنّ أنين المذنبين أحبّ إليّ من زجل المسبّحين**» ومن هذا طلب الملائكة كلّهم أن يصلوا إلى مرتبة آدم، وقال أيضًا: «**إنّ بدلاء أمّتي لم يدخلوا الجنّة بصومٍ ولا صلاة ولكن بسلامة الصّدور وسخاء النّفس وبصحبة المسلمين**».

وقالت الإشراقيّة: إنّ آدم باب الأبواب وإنّ النّفوس الفلكيّة مستنسخة من النّفوس الإنسانيّة، كما مرّت الإشارة إليه في خلق العالم وإنّ حركات الأفلاك للتّشويق لأن يصلوا إلى مرتبة أحديّة الجمعيّة يتنزلّون إلى النّشأة البشريّة مرّة أخرى في فرداريّة اسم آخر من الأسماء الأربعة الذّاتيّة وهكذا إلى غير النّهاية لأنّ الكمالات الإلهيّة والكلمات الرّبانيّة غير متناهية واكتسابها موقوف على تعليم آدم وأيضًا إنّهم لما ادّعوا العبادة وافتخروا بالأفعال والأقوال عند سرادقات العظمة أسقطهم الله عن مقام حقيقة المعرفة وردّ وجوههم إلى آدم وأمرهم بالسّجود فإذًا قالوا:

﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾

﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقـرة: 32] تفسيره ننزّهك تنزيهًا عن الاعتراض عليك في حكمك وتدبيرك فنصبه لكونه مفعولًا مطلقًا أي نسبّحك سبحانك تسبيحًا مثل تسبيحك نفسك.

قيل منصوب على النّداء فإنّ سبحانه عَلَمٌ للتّسبيح وهو اعتراف بالعجز والقصور في الإدراك وإشعار بأنّ سؤالهم كان استفسارًا لا اعتراضًا وأنّه قد بان

لهم ما خفي عليهم من فضل الإنسان والحكمة في خلقه وإظهارًا لشكر نعمته بما عرفهم وكشف عليهم ما اعتقدوا عليهم واستشكل لديهم ومراعاة الأدب بإسناد العلوم كلّها إليه وتصدير الكلام به اعتذار عن الاستفسار والجهل عن حقيقة الحال وذلك جعله ذريعة للتّوبة إليه ومفتاحًا ومقدّمةً للرّجوع والتّدلي عليه والإنابة والتّدني لديه كما قال موسى عليه السّلام: «**سبحانك تبت إليك**» وقال يونس: ﴿سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: 87].

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: 32] تعليل لحصر العلوم كلّها عليه بأبلغ صفة وآكد صنعة، الحكيم له معنيان الإحكام كقوله تعالى: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: 104] أي مؤلم وذو آلام وضرب وجيع أي موجع وأولو وجع. وأصل الحكمة المنع، يقال للحديدة المعترضة في فم الدّابة تمنعها من الاعوجاج الحكمة وأنت إمّا فصل أو تأكيد كاف الخطاب قبل مبتدأ وما بعده خبره والجملة خبر إنّ أي لا علم لنا لا قليلًا ولا كثيرًا إلا ما علّمتنا ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي لانحصار العلوم العامّة والحكمة التامّة عليك إشعارًا بأنّ هذا الاعتراض منهم ليس على سبيل التّقليد والتّحكّم بل على طريقة الحقيقة يفيده التّعليم الإلهيّ والتّفهيم الرّبانيّ المترتّب على إظهار العجز والافتقار فعيل بمعنى المفعول أي كما أنّه لا قصور في حكمته وعلمه كذلك لا فتور في أفعاله وحِكَمِه فعلى هذا الأوّل من أسماء الذّات والثّاني من أسماء الأفعال.

﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ إن كان المراد الألفاظ الدّالة وإن كانت الذّوات والمسمّيات فالمعنى أخبرهم فعلى هذا الاسم عين المسمّى إذ الحكم إنّما هو على المسمّى والذّات لا اللّفظ والعبارات.

﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: 33] أي ملكوتهما وما فيهما من المعاني والصّور والجواهر النّوريّة وأعيان الدّرر الملكوتيّة في الدّورة الوجوديّة.

﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ [البَقَرَة: 33] من الخضوع والخشوع لآدم أو ما قالوا في حقّه ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البَقَرَة: 30] ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ إنّه لن يخلق خلقًا أفضل ولا أعلم منّا، أو عداوة آدم أو الكراهة في استخلاف آدم.

قال ابن عبّاس: إنّ إبليس مرّ على جسد آدم وهو ملقى بين مكّة والطّائف لا روح فيه فقال: لأيّ شيء خلق، ثم دخل من فيه وخرج من دبره وقال: إنّه خلق بلا تماسكٍ لأنّه أجوف ثمّ قال للملائكة التي معه: أرأيتم إنّ فضل هذا عليكم وأمرتم بطاعته ماذا تصنعون، قالوا: نطيع أمر ربّنا، فقال إبليس في نفسه: والله لئن سلّطت عليه لأهلكنه ولئن سلّط عليّ لأعصينه، فقال الله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البَقَرَة: 33] هذا كالحجّة على ما تقدّم من ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: 30] استدلالًا من الكلّي إلى الجزئيّ وتصريحًا على ما علم ضمنًا إشعارًا بعدم الاعتداد بفهمهم وإدراكهم وعلمهم.

واعلم أنّ هذه الآيات تدلّ على شرف الأنبياء وهو ليس إلا بالعلم وعلى تفضيل العلم على العبادة والعمل وأنّ العلم شرط الخلافة دون العمل وأنّ التّعليم يجوز أن يسند إلى الله وأن لا يصحّ إطلاق المعلّم على الله لاختصاصه بمن يحترف به وأنّ اللّغات والأسماء توقيفه تستدعي سابقة وضع، وذلك لا يتصوّر من الله وأنّ مفهوم الحكمة زائد على مفهوم العلم وإلا يلزم التّكرار، وأنّ علوم الملائكة وكمالاتهم تتزايد والحكماء منعوا ذلك في الطّبقة العليا منهم، وإنّ آدم أفضل من الملائكة لكونه أعلم، والفضل إنّما هو بالعلم، وإنّ الله عالم بالأشياء قبل حدوثها.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ
فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟﴾ معطوف على فإن بمقدر يكون عطف الجملة الفعليّة على الفعليّة أي اذكروا لأعطف القصّة على القصّة لمّا خمّر طينة جسد آدم بيده وسوّاه ونفخ فيه من روحه وجعله قابلًا وحاملًا للأمانة وذريعة للملائكة في استبقاء كمالاتهم وعلّمهم ما لم يعلموا وجعله كالرّوح للمبدعات

كلّها بل للموجودات بأسرها وجعله مرآةً لظهور ذاته وصفاته منتخبًا من العالم الرّوحانيّ والجسمانيّ والإلهيّ أمرهم بالسّجود له تعظيمًا وتبجيلًا واعترافًا بفضله وأداء حقّه واعتذارًا لما قالوا فيه والسّجود في الشّرع وضع الجبهة على الأرض على قصد العبادة فالمسجود له في الحقيقة إنّما هو الله تعالى وحده لا شريك له وإنّما جعل آدم قبلة لسجودهم، والمأمور بالسّجود إنّما هم الملائكة المستشارون وإن كان يستحقّ بما ذكرنا أن يكون مسجود الكلّ لأنّه خليفة للكلّ وتعظيم الخليفة تعظيم للمستخلف.

﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾ الإباء وهو المنع بالخيار والتّكبّر بأن يرى المرء نفسه أكثر من غيره والاستكبار طلب ذلك بالسّعي والاستثناء متّصل بناء على التّغليب وجعله من الملائكة أو منقطع بناء على الاختلاف.

﴿وَكَانَ﴾ إبليس ﴿مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البَقَـرَة: 34] في علم الله وقضائه الأزليّ وفي تقييد حكمه وإمضائه الأولي باستقباحه أمر الله وإيّاه بالسّجود زعمًا منه أنّه أفضل منه، الأفضل لا يليق به أن يسجد للمفضول لخروجه عن قانون الحكمة كما قال ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعـراف: 12] والآية تدلّ على أنّ آدم أفضل من الملائكة المأمورين بالسجود له ولو من وجه وإنّ إبليس من الملائكة وإلا لم يصحّ الاستثناء إلا في لغة غير الفصيح ولا ينافي ذلك قوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ [الكهف: 50] لجواز كونه من الجنّ فعلًا ومن الملائكة نوعًا وحقيقةً ولأنّ ابن عبّاس رضي الله عنه روى أنّ من الملائكة ضربًا يتوالدون يقال لهم الجنّ ومنهم إبليس ويمكن أن يقال أنّ الجنّ أيضًا مأمورون بالتّبعيّة إذ الأصاغر في الأمور الثّابتة بالأمر تابع للأكابر، فسجدوا سجودًا شاملًا للقبلتين، وكان من الملائكة من لا يخالف الشّياطين بالذّات وإنّما خالفوهم بالعوارض والصّفات كالمردة والفسقة من الإنس والجنّ، وكان إبليس من هذا الصّنف كما قال ابن عبّاس، لا يقال كيف يصحّ ذلك، وإنّ الملائكة خلقوا من النّور والجنّ من النّار فإنّ المراد بالنّور هو الجوهر المضيء والنّار كذلك.

عن أبي العالية أنّه قال: لمّا ركب نوح السّفينة إذا هو بإبليس عليها قال:

ويحك قد غرق النّاس من أجلك، قال: فما تأمرني، قال: تُبْ، قال: سل ربّك هل لي من توبة، قال: فقيل له إنّ توبته أن يسجد لقبر آدم، قال: تركته حيًّا وأسجد له ميتًا.

تأويل وإشارة

﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى﴾ أي بعلم الولاية وهو العلم اللّدنيّ ﴿بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي الأسماء الذّاتيّة والأفعاليّة والآثاريّة والصّور الجمعيّة التي ربّاه بها ودبّرهم لها ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البَقَرَة: 31] من أصحاب الولاية المطلقة العامّة فعجزوا عن الجواب.

قال الصّادق رضي الله عنه: "أكرم الله آدم بثلاثة أشياء: بالعلم والنّور والقبول؛ فبالعلم صار معروفًا بين الملائكة، وبالنّور صار مذكورًا بين الملكوت وبالقبول صارت توبته مقبولة عند الله. وقال أيضًا: «خلق الله إبليس من نار القطيعة فلمّا أمره بالسّجود لآدم قال: بماذا أمرتني حتّى تخرجني من نار القطيعة ووصلته، فقال: يا ربّ إنّي لا أخرج ممّا كنت فيه فآيسه الله وأخرجه وجعله من أهل النّار بعدله لقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: 104]».

قال صاحب العرائس: ألبس الله الملائكة لباس العبوديّة فأعجبوا بعبادتهم فأمر الله بسجود آدم تغييرًا لهم وتعليمًا أنّ عبادتهم لا تزيد على الرّبوبيّة وتنقص عن الألوهيّة وأيضًا رأوا فيه سرًّا لله ولباسه عليه مصبوغًا بالصّبغ الإلهي ولم ير إبليس هذا السّر لاحتجابه بأنانيّته وبالنّظر إلى هويّته وخصوصيّة ماهيّته كما قال: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ﴾ [الأعراف: 12] وباستحقاره آدم وخلقيته من طين فأبى واستكبر من غضب الله عليه. قال ابن عطاء: لمّا استطعمت الملائكة تسبيحهم وتقديسهم وعبادتهم أمرهم بالسّجود لغيره ليريهم به استغناءه عنهم وعن عبادتهم وتسبيحهم واعلم أنّ غيره قهرمان سلطنته منع إبليس عن السّجدة لآدم علمًا منه أنّ السّجدة لا تليق إلا له ولا يستحقّ لها غير الواحد الحقيقي.

والحاصل: أنّ آدم عبارة عن الهيئة الاجتماعيّة من الواحديّة والأحديّة وإبليس مظهر أحديّته فرأى أنّه لا تليق السّجدة إلا بالأحد الحقيقي والملائكة

لكونهم مظهرًا لواحديّته شاهدوا فيه زمانًا سرًّا للواحديّة والأحديّة بالإعلام الإلهي فسجدوا له فكلاهما في طاعة الحقّ مطيعين لأمره لامتثالهما الأمر الأوّل في سابق علمه وسابق قضائه وحكمه.

إشارة وتأويل

﴿بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [البقرة: 31] وحقائقهم الجماليّة والجلاليّة فإنّ الملائكة في فرداريّة الجمال نور ووجود وظهور وجمال وفي فرداريّة الجلال ظلمة وعدم وخفاء وجلال؛ فالأوّل هو مقتضى وجود الذّات البحت من حيث هو بحت وهو جزاء مفهوم الوجوب الذّاتي فإنّ مفهومه هو اقتضاء الذّات الوجود وامتناع العدم وارتفاع الظّلمة والخمود واختفاء الفناء الباطل، وفي فرداريّة الجلال يكون بالعكس إظهارًا للعدالة الحقيقيّة وهم لغلبة نوريّة الذّات قد خفي عليهم حقيقته نورًا وظلمة وغمورًا وخفاءً وضمورًا. وآدم لتساوي النّور والظّلمة فيه صار مرآةً مجلوّة حاكية لحقيقة الحال ومصدوقة المقال وحقيقة المآل، استوى عنده الجمال والجلال وانعكس فيه مطلق الكمال والأسماء الإلهيّة والكونيّة الجنيّة والملكيّة والعنصريّة والفلكيّة البرزخيّة والملكيّة ظهر منه النّور والظّلمة وصورة جمعيتهما الإفراديّة والجمعيّة وجمعيّة الجمعيّة في الأدوار والأكوار، ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي مقتضى النّور والوجود الجماليّ ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ أي مرتضى العدم والخفاء الجلاليّ ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ على مقتضى النّور والجمال ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: 33] من مقتضيات الخفاء والظّلمة والجلال.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ بعد خلق حواء منه إذ استحقاق السّجود ليس إلا للحقيقة الجامعة الإلهيّة والكونيّة والرّبوبيّة والعبوديّة السّفليّة والعلويّة النّوريّة والظلّيّة الفاعليّة وقابليّته ﴿ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ﴾ أي اذكروا الوقت الذي وقع فيه حكم فرداريّة الجمال والجلال ومقتضى أدوارهما الأربعة ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ أي توجّهوا إليه واسترجعوا لديه استرجاع الجزء للكلّ ليتحقّقوا بنعت الكليّة ويتوصّلوا إلى درك حقيقتهم الأصليّة وهي الجمعيّة الكبرى ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ أي مالوا إليه وتواضعوا لديه الملائكة كلّهم ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ الذي باطنه النّور وظاهره الظّلمة والنّار أي الذي كان في فرداريّة الجمال ملكًا وفي فرداريّة الجلال جِنًّا خفيًّا لأنّ الظّلمة الجلاليّة كانت

غالبة صريحةً والنّوريّة مغلوبةً ضمنيّةً في الشّياطين في الدّورة الجلاليّة وكمال الظّلمة في حقّ الشّياطين في تلك الفرداريّة نور والنّور ظلمة وينعكس الأمر في الملائكة ﴿أَبَىٰ﴾ ومنع عن السّجود وامتنع عن امتثال أمر المعبود فحينئذٍ يكون الاستثناء من وجهٍ متّصلًا ومن وجهٍ آخر منقطعًا ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ على تقدير صيرورة الوجه النّوراني ظلمانيًّا ﴿وَكَانَ﴾ أي صار في الفرداريّة الجماليّة ﴿مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البَقَـرَة: 34] فالملائكة باطن الشّيطان والشّياطين باطن الملائكة فإذا ظهرت الملائكة كانت الشّياطين باطنة وبالعكس.

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البَقَـرَة: 35] عطف على قلنا من السّكنى وهو الإقامة واللّبث والاستقامة لا من السّكون الذي ضدّ الحركة ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعَـام: 13] أي قام ولبث واستقام واستقرّ، أنت تأكيد لفاعله المستكنّ ليصحّ العطف عليه والجنّة هي البستان والمراد هي دار الثّواب.

مطلب كذب النساء

كان آدم في الجنّة وحيدًا وحشيًّا فريدًا لم يكن من مجالسته من يتألّف به ويؤانسه فنام نومة فخلق الله من قصيراه من شقّه الأيسر حواء من غير أن يحسّ بذلك و[ما] وجد منه ألمًا حتى لو وجد منه ألمًا لما عطف رجل على امرأة فلمّا انتبه آدم من النّوم فإذا حواء جاءت عند رأسه أحسن ما خلق الله فقال لها: من أنتِ، قالت: زوجتك خلقني الله لك لتسكن إليّ وأسكن إليك، فقالت الملائكة عند ذلك امتحانًا بعلم آدم: ما هذه يا آدم، قال: امرأتي، قالوا: واسمها، قال: حوّاء، قالوا: ولما سمّيت حوّاء قال: لأنّها خلقت من حيّ، قالوا: تحبها، قال: نعم، فقالوا لحوّاء: تحبيه يا حوّاء، قالت: لا، وفي قلبها أضعاف ما في قلبها فلو صدقت امرأة في حبّ زوجها لصدقت حوّاء في حبّ آدم، وإنّما قدّم آدم في النّداء إيذانًا بأنّه المقصود بالحكم مناط التّكليف وهو العقل فيه دون حوّاء

لنقصانه فيها ولذا ظهرت خلاف ما فيها وصار حكمها ما وضع حكمه في المراتب والشّهادة.

وزعمت القدريّة أنّ الجنّة التي أسكنهما لم تكن جنّة الخلد بل بستانًا من بساتين الدّنيا لعدم الابتداء والتّكليف في دار الخلد وإنّ من دخل الجنّة استحال خروجه عنها لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: 37].

والجواب: أنّ أهل الجنّة مأمورون فيها بالمعرفة ومكلّفون بذلك وأنّ الله تعالى قادر على الجمع بين الأضداد فيها وامتناعه مخصوص بالدّنيا فيرى آدم الامتحان والمحنة فيها كما رأى إبراهيم في النّار بردًا وسلامًا إيذانًا بأنّ الحريّ للعبد أن لا يأمن من قهر ربّه ومن سخطه وغضبه مدبر لشهادته وغيبه وأن لا يغفل طرفة عين من مقلّب غيبه وقلبه وأن لا يقنط من رحمة ربّه وليعلم أنّ له أن يفعل ما يشاء وأنّ المخلّد ما داسها للثّواب ألا يرى أنّ الرّضوان وخزّان الجنان يدخلونها ثمّ يخرجون منها وإبليس كان خازنها فأخرج منها.

إشارة وتأويل

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: 36] قد تقرّر من أنّ لكلّ من الأدوار الجماليّة الأصليّة والفرعيّة دنيا وآخرة وآدمًا مخصوصًا وشيطانًا منصوصًا وجنّة مناسبة لتلك الدّورة والجنّة بطريق الكلّيّة على مقتضى اقتضاء أرباب الأدوار الأربعة: جنّة الذّات وجنّة الصّفات وجنّة الأفعال وجنّة الآثار، ولمّا كان آدم في آخر الجنّات وهي الآثاريّة الجسمانيّة الصّوريّة كما يدلّ عليه صفاتها وشرح حالاتها وبيان أبنيتها وكمّيّتها وكيفيّتها، هذه والجنّة قد تتضمّن سائر الجنّات الباقيات فحظّ العارف من هذه الجنّة شهود ذلك الوجه الكماليّ في مرآة صورة الأجسام وهيئات الأجرام والتّحقّق بها، وحظّ العلماء الظّاهر الاحتفاظ بالصّور اللّطيفة الهيئة التي هي عكس معلوماتهم حسب مراتب موضوعات العلوم المدوّنة المتداولة فكلّ علم موضوعه أشرف وأعلى يكون صور مسائله أنور وألطف وأبهى وأشرف وحظّ الزّهّاد والعبّاد وسائر أصحاب النّفوس الزكيّة من العبّاد منها هو الالتذاذ النّفسانيّ بالمآكل والمشارب والمناكح وغير

ذلك، فيتلذذ منها أي من نعيمها المختلف حسب اختلاف مآرب أهلها؛ فصاحب الشّهود يلتذّ من شهود تطوّرات التّجليّات وأهل العلوم يلتذّون من تنوّعات تبدّل تلك الصّور المكتسبة البرزخيّة آنًا فآنًا وأمّا أرباب النّفوس إنّما تكون باللّذّات البهيميّة، والتذاذ أصحاب العلوم والمعارف روحانيّ والتذاذ أهل الله من العرفاء قلبيّ محتوٍ على جميع اللّذّات المذكورة كما أنّ تجلّي الآثار وجنّته حاوي على سائر التّجليّات وجنّاتها.

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البَقَرَة: 35] فهي باعتبار أنّ لكلّ واحد من هذه الفرق الثلاث نظرًا إلى اختلاف الجنّات وتغاير الدّرجات وإن جاز أن تكون شجرة أحدها غير شجرة الأخرى إلا أنّ الكلّ لكونه مشتركًا في شجرة الطّبيعيّة فالمقصود منها هو هذه الشّجرة الطبيعيّة ولذا وحّدها في البداية وفي النّهاية تختلف على ما ذكرنا اختلاف أحوال الشّياطين وتطوّر إغوائهم، فمنهم من قال هي الحنطة والتّين أو العنب أو غير ذلك.

واعلم أنّ النّعت الفاعليّ لا يستدعي ذاتًا مغايرةً لقبول أثره وفعله إذ ربّما يكون الفعل لازمًا وكذا لو كان متعدّيًا إذ ذات الفاعل يكفي في القبول كالعالم بالذّات فإنّه عالم ومعلوم من غير احتياج إلى ذات وصفة أخرى غير ذات الفاعل وصفته إذ الذّات الواحدة يجوز أن يكون لها جهات مختلفة وصفات اعتباريّة غير قادحة لوحدة الذّات فباعتبار كلّ جهة يحصل له صفة ويثبت فيه اعتبار ونسبة، فنعت الفاعل لكونه ظاهرًا بالذّات متقدّمًا على سائر النّعوت والجهات يكون متقدّمًا على القابليّة لكونها غير مقصودة بالذّات. وللفاعليّة مراتب فظهورها في جميع المراتب تكون في آدم بالذّات من غير افتقار إلى الغير والقابليّة لا تكون إلا بعد الفاعليّة لكونها ظاهرة منها تابعة لها فعلى هذا لا يعدّ في ظهور آدم بداية بلا أب وأمّ وظهور حوّاء منه وفي دخولهما الجنّة بعد تكوّنهما إذ الجنّة لكونها محيطة بالسّموات والأرض ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [آل عِمرَان: 133] لامتناع في الدّخول فيها بل الكلّ في دار الدّنيا إمّا في الجنّة أو في النّار لإحاطتهما الكلّ ولا خروج لشيء منهما؛ فالجنّة مرآة الفاعليّة والنّار مرآة القابليّة وآدم لكونه محتويًا على الفاعليّة والقابليّة انطوى على النّار والجنّة في

أولاده فريق في الجنّة وفريق في السّعير.

قال عليه الصّلاة والسّلام: «**القبر روضةٌ من رياض الجنّة أو حفرةٌ من حفر النّار**» والقبر الأوّل هو البدن والثّاني هو المشهور.

وَلِلْجَهلِ قبلَ الموتِ موتٌ لأهله وأجسادهم قبل القبور قبورُ
وإنِ امرؤٌ لم يحيَ بالعلم ميّتٌ وليس لهم حتّى النّشور نشورُ

وإذ لا يعدّ في ظهور آدم وحوّاء وذريّاته وأولاده منه وكذا في ظهور الجنّة والنّار وما يتبعهما منه كذلك لا يعدّ في ظهور ذات الواجب الوجود بذاته في ذاته في أسمائه وصفاته وأفعاله وآثاره من غير احتياج إلى شيء آخر من الموجودات والمعدومات بل ذاته كافية في ظهور كمالاته الأسمائيّة والذّاتيّة والأفعاليّة والآثاريّة ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النّور: 35] إلى آخرها [وقوله:] ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد: 3] بل ظهور آدم في الحقيقة هو ظهور الحقّ في مراتب جمعيّة كمالاته الذّاتيّة والأفعاليّة والآثاريّة وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وفي الآية الثّانية إشارة إلى ظهور الحقّ في أسمائه وصفاته بصورة خلقه آدم على صورته إلا أنّ الحجب البشريّة لا يرونها فعند ارتفاع البشريّة يرى الحال على ما كانوا عليه لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى وإذا غلبت البشريّة على آدم وحوّاء افترق الذّنب واحتجب منهما وخرج منهما، فالاحتجاب عنهما هو الخروج عنهما.

﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ كُلَا: أمر من يأكل مثنّى أصله أؤكل حذف إحدى الهمزتين على خلاف القياس ثم حذفت الأخرى للاستغناء عنهما، وقد يُقرأ على الأصل بقلب الهمزة الأخرى واوًا. ورغد: يرغد بمعنى الفاعل صفة المفعول المطلق المحذوف بمعنى الكثرة أي أكلًا كثيرًا واسعًا، حيث: ظرف مكان أي أيّ مكان شئتما.

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: 35] قال عليّ كرّم الله وجهه: هي شجرة الكافور. قال قتادة: هي شجرة العلم فيها من كلّ شيء. والبعض هي السّبيلة هذا هو المشهور إلا أنّه خلاف الظّاهر أو التّين أو الكرم ويمكن أن يقال هي طريق النّظر والفكر كما قيل في تفسير والتّين والزّيتون أنّ التّين عبارة عن القوّة النّظريّة

والزيتون عن القوّة العمليّة كما سيجيء إن شاء الله تعالى.

قال إبليس لمّا تصدّى عنه الأمر بالسّجود بالنّظر والفكر وعارض الحقّ بطريق النّظر حيث قال لآدم وحوّاء عن هذه الشّجرة ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: 20] وهما ممّا يجب على العاقل أن يسعى في تعاطيهما وأن يعرض نهيهما لأنّه مضرّ وكلّما هو مضرٌّ يجب تركه فحملهما على الإعراض عنه وإلى التّصدي والإقبال إلى القبول والأكل بعد ترتيب المقدّمتين بأنّ هذا ناصح وكلّ ناصح فهو مقبول القول وواجب العمل. وفي تعبير النّهي بالقرب الذي هو من مقدّمات الأكل مبالغة في تحريمه ووجوب الاجتناب عنه على أنّ القرب بالشّيء بحيث يورث داعيةً وشوقًا إليه يختلف القلب ويجنّبه وكلّيته بمجاعة إليه ويلهيه عمّا هو مقتضى العقل والنّقل فيعمى عن رؤية قبحه "حبّك للشيء يعمي ويصمّ" الحديث، فينبغي أن لا يحوم حول ما حرم ولا يحوم حول ما نهي عنه لئلّا يقع فيه كما ورد في الحديث.

﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: 35] ترك القوّة العمليّة التي اختارها الملائكة في السّجود واختار القوّة النّظريّة التي اختارها إبليس في معصيته فأغواهما إلى ما نهى الله عنه. وأصل الظّلم وضع الشّيء في غير موضعه، فالفاء للسّببيّة سواء عطف على النّهي أو يكون جوابه أو يكون منصوبًا بأن المقدّرة في جواب الأشياء السّتّة.

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٣٦﴾

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا﴾ [البقرة: 36] من زلّ بمعنى أزال والضّمير المؤنّث للجنّة لما نهى الله تعالى آدم وحوّاء عن أكل الشّجرة استشرف ويشمّر إبليس لإغوائهما فأزالهما وأذهبهما بإغوائهما عن الجنّة وهما متقاربان إلا أنّ أزلّ يقتضي عسره مع الزّوال فأزاله وأغواه لهما هو قوله: ﴿هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾ [طه: 120] ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ٢٠ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢١﴾ [الأعراف: 20-21].

فإن قلت: كيف وصل إلى إزلالهما ووسوستهما وقد قيل له: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [الحجر: 34]، قلت: يجوز إني يمنع دخولهما على جهة التّقريب والتّكرمة كدخول الملائكة ولا يمنع من الدّخول على جهة الوسوسة. وقيل كان يدنو من السّماء فكلّمهما، وقيل قام عند الباب فنادى إليهما وأرسل إليهما رسله وجنوده والعلم عند الله.

نعم يمكن أن تقع هذه الصّور واحدًا بعد واحد وترتيب الإغواء والإزلال إنّما يترتّب على الواحد.

﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البَقَرَة: 36] من الكرامة والنّعيم العميم والترفّه والالتذاذ الجسيم وذلك أنّ إبليس لمّا أُخرج من الجنّة أراد أن يدخلها للوسوسة فمنعته الخزنة فأتى إلى الحيّة وكانت من خزّان الجنان لها أربع قوائم كقوائم الإبل والفرس وكانت من أحسن الدّوابّ وكان بينهما من الصّداقة، وآدم لمّا دخل الجنّة ورأى ما فيها، والكرامة من النّعم فقال: لو أن كانت خلدًا، فاغتنم الشّيطان فأتاه من قبل الخلد كما مرّ في الآية فلمّا دخل الجنّة وقف بين يدي آدم وحوّاء وهما لا يعرفانه فناح نياحةً أحزنتهما فقالا: ما يبكيك، قال: عليكما، تموتان فتفارقان ما أنتم عليه فأغمّا ثمّ أتاهما بعد ذللك فقال: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: 120] فأبى آدم أن يقبل منه فقاسمهما بالله أنّه لهما لمن النّاصحين فدلّهما بغرور ولم يظنّا أنّ أحدًا يحلف بالله عزّ وجلّ كاذبًا، فبادرت حوّاء إلى أكل الشّجرة ثمّ ناولت آدم حتّى أكلها، قيل ما أكل آدم الشّجرة وهو عاقل لكن سقته حوّاء خمرًا فإذا سكر قادته إليها ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: 22].

﴿وَقُلْنَا﴾ لآدم وحوّاء وإبليس والحيّة ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ انزلوا في الأرض والحال أنّه ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ وهبط آدم بسَرَنْديب من أرض الهند على جبل يقال له نود وقيل أشم حراء وحراء بجدة وإبليس بالآبله، وقيل يمنان، والحيّة بأصفهان، وخاطب آدم وحوّاء جميعهما باعتبار الذّريّات أولهما والشّيطان ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ أي موضع قرار ﴿وَمَتَٰعٌ﴾ يتمتّع فيه بالمعاش والاستتباع بالمآكل

والمشارب والاستمتاع بالمناكح وسائر المآرب والانتعاش وحل الانتفاع ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البَقَرَة: 36] أي إلى إفضاء الأجل وانقضاء الحرص وانقراض الأمل.

إشارة وتأويل

إرشاد للطّالبين فإنّ وظائف الطّالبين وحقّهم لا يدلّهم أن لا يعتمدوا على كلّ أحد يدّعي الإرشاد والتّكميل إذ ربّما يكون المدّعي كاذبًا وكذّابًا ضالًّا ومضلًّا وقالبًا وقلّابًا فلا بدّ أن يكون للطّالب قانون وميزان ليزن به والقانون للكلّ وهو النّواميس الإلهيّة والشّرائع النّبويّة فإذا كان المرشد كاملًا في رعاية أحكام الشّرائع ورعاية آداب الطريقة والشّوارع فتح عليه أبواب مدينة الحقيقة فشاهد منها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وإذا كان المريد كاملًا في إرادته تعدّت تلك الأحكام إلى أعضائه وجوارحه فإذا استقام في الشّريعة سارت أنوار عبادته وصارت ضياء ملاعته إلى القلب وانفتحت عيناه وأذناه فيكون حينئذٍ مستبصرًا في طلبه، وحضرة المرشد الكامل المكمّل في الحقيقة هي الجنّة، فمن مشى بإشارة المرشد فهو في طاعة الله بمراد الله أعطاه الله الخلد فيها. ومراد الله في الحقيقة هو مراد المرشد، ومن مشى بمراد نفسه في صحبته أخرجه الله ببركة صحبته إلى ميدان العفو وقضاء المغفرة حتّى بقي حينئذٍ بمراد الله، ومن مشى على بساط العلم النّظريّ بمقتضى القوّة النّظريّة المستخدمة للقوّة الوهميّة بترك العمليّة وجرى بمراد نفسه كالشّيطان فالحقّ جلّ وعلا يعطي الجنّة بقدر ما علم وعمل ويستحقّ له مكافاةً لعلمه، فمن لم يفن عن علمه في علم الحقّ أخرجه منها ولم يعد إليها، فإنّ من سلك طريق الشّهوة احتجب عن مشاهدة القربة لأنّ سوء الأدب يوجب سقوط المريد عن دوحة الحرمة ودرجة القربة ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ [البَقَرَة: 36] في الاستعداديّة وهي مقام من مقامات القلب فيستقرّ فيه إلى أن يقي حظّه منه، ثم ينتقل إلى أعلى منه أو أدنى عنه إلى أن يأتي الجذبة جذبة من جذبات الرّحمن توازي عمل الثّقلين أو في الأرض دورة من الأدوار الإلهيّة إلى أن ينتقل من دورة اسم إلى دورة اسم من الأسماء الذّاتيّة، فمن وظائف المسترشدين إذا استشرفوا في خدمة المرشد وإن كان من أعلم النّاس أن لا يرى لعلمه وعمله قدرًا بل لا يقع منه نظر إليه أصلًا ويحسب نفسه من أجلّ النّاس.

قال عليّ كرّم الله وجهه: «كن عند النّاس خير النّاس وعند نفسك شرّ النّاس وعند النّاس ناسًا من النّاس» إذًا القوّة النّظريّة ليست مقصودة بالذّات بل هي خادمة للقوّة العمليّة، فلو خرجت عن إطاعتها تكون ضالّة مضلّة فيكون شيطانًا، فلهذا لمّا كان إبليس عاملًا بما علم كان مقدّم حكم الملائكة مقرّبًا عند الله أمينًا في ملكه وملكوته، وإذا أخرجها عن القوّة العمليّة إلى القوّة النّظريّة والقدرة الفكريّة واعتمد عليها وأعملها استقلالًا كان ضالًّا ومضلًّا عدوًّا لله ورسله وملائكته والنّاس أجمعين وإنّ الملائكة لمّا عملوا بما أمرهم الله ورفضوا مقتضى نظريّة القوّة استقلالًا علّمهم الله ما لم يعلموا.

وبهذا لمّا خلق آدم كانت الكواكب السّبعة في إشراقها إلا عطارد الذي هو مبتدأ القوّة النّظريّة فإنّه كان في الحول وهو هبوطه ووباله، وزحل والمشتري اللّذان يستمدّان القوّة العمليّة من غيبهما كانا في الشرف.

إنّ الكواكب كنّ في إشراقها إلا عطارد حين صوّر آدم

وحال إبليس كانت بالعكس لأنّه من مقتضيات فردانيّة فرداريّة الجليل الذي هبط وحفظ حكمه واندمج في حكم الجمال وبينهما تباين أوّلي وتناقض كلّي، وأمّا إذا نزلت القوّة النّظريّة الجلاليّة الشّيطانيّة من سطوة مقتضاها وأطاع القلب والرّوح ودعت القوّة الوهميّة في حكم القوّة العمليّة التي هي في حكم القلب وأطاعت القلب فيكون [حينئذٍ] نظره كلّه صحيحًا غير منفكّ عنه أصلًا و«**إنه ليغان على قلبي وإنّي أستغفر الله في كلّ يوم سبعين أو مائة مرّة**» وذلك لأنّ القوّة النّظرية تدخل القلب في كلّ الأحوال وعموم التّجلّيات وفي التّحقيق بالأسماء والصّفات وغيرها من الحالات والمقامات. ويستحسن كلّ ما حال عند القلب قصدًا منها أنّ تقييده بتلك الحالة ليتتبّع بها ولا يروم أعلى منها لأنّ كلّ حال من أحواله الجماليّة لا بدّ وأن يكون في مقابلها حال من الجلال وهي انتفاء مادّتها عدمها وانعدامها ويحدث منها شيطان يدغدغه ويبقى معها أبد الآباد إلى أن ينتقل إلى الفرداريّة من الجمال والجلال فحينئذٍ تصير الشّياطين أملاكًا والأملاك التي من الأحوال الجماليّة ظهرت تصير شياطين تدغدغ صاحبها في الفرداريّة الجلاليّة ولا تظنّنّ أنّ هذه المقامات من المتخيّلات لأنّه ما يحدث في فرداريّة الجمال من

كلّ أحد من الجواهر والأعراض والمعاني والألفاظ إلا وخلق الله معه ملك وشيطان ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [ق: 18] إذ كلّ ما نبت في أرض الوجود فله أصل متّصلّ بالحق فهو باقٍ عند الحقّ أزلًا وأبدًا وجمالًا وجلالًا ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: 21].

واعلم أنّ الله تعالى أسكن آدم وحوّاء الجنّة وهما طينتان لم تبلغا مقام الرّشد والصّلاح وإبليس كان معمّرًا كثير التّجارب غفير التّحارب فلمّا رأى إبليس حالتهما هذه اغتنم وانتهض في إغوائهما علمًا منه أنّ إغواءَهما في هذه الحالة لكونهما حديثا أُنْسٍ غير ممارسي للتّجارب ولا يعلمان قدر هذه النّعمة الجليلة والعطيّة الجميلة فطمع في سلبها عن أيديهما ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾ [البَقَـرَة: 36] ولهذا حكم الشّارع بمنع تصرّف الصّبيّ ما لم يبلغ في مقام الرّشد والصّلاح فلمّا أراد الله أن يعلّمهما ابتلاهما ليكون إرشادًا لأولادهما وتعليمًا لأحفادهما بأن لا يرجع في عظائم الأمور والخوض فيها إلا إلى من له رشد حصل من التّجارب وكثرة المزاولة ولهذا ابتلاه الله تعالى أوّلا الأنبياء ثمّ بعد التّجربة الكاملة أرسلهم إلى الخلق وأنزل الكتب عليهم.

مطلب دعاء النبي

ومع هذا يدعو الرّسول بقوله: «**يا حيّ يا قيّوم برحمتك أستغيث ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين وأصلح [لي] شأني كلّه**».

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٣٧﴾

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ﴾ أي قبل واستقبل بالأخذ ﴿كَلِمَٰتٍ﴾ [البَقَـرَة: 37] وهي هـذه: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٢٣﴾ [الأعـراف: 23] وقيل: «**سبحانك اللّهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدّك ولا إله غيرك ظلمت نفسي فاغفر لي ذنوبي فإنّه لا يغفر الذّنوب إلا أنت**».

وعن ابن عبّاس: قال آدم: يا ربّ ألم تخلقني بيدك؟ قال: بلى، قال: ألم تنفخ فيّ من روحك؟ قال: بلى، قال: ألم تسبق رحمتك غضبك؟ قال: بلى،

قال: ألم تسكنّي جنّتك؟ قال: بلى، قال: فيم أخرجتني منها؟ قال: بشؤم معصيتك، قال: ربّ أرأيت إن تبت أنا وأهلي ترجعنا إلى الجنّة؟ قال: بلى، قال الله تعالى: هؤلاء الكلمات التي هي هذه إرشادًا وتعليمًا للعباد، من الكَلْمِ وهو القطع.

جراحاتُ السّنانِ لها التئامٌ ولا يلتئِمُ ما جرح اللّسانُ

عن عمرو رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «**لمّا أصاب آدم الخطيّة رفع رأسه فقال: يا ربّ محمّد اغفر لي، فقال الله: وما محمّد ومن محمّد، قال: لمّا تمّمت خلقتي رفعت رأسي إلى عرشك فإذا عليه مكتوب لا إله إلا الله محمّد رسول الله فعلمتُ أنّه أكرم خلقك إذ قرنت اسمه مع اسمك، فقال الله تعالى: نعم قد غفرت لك وهو آخر الأنبياء من ذريّتك ولولاه ما خلقتك**».

قال ابن عبّاس: بكى آدم وحوّاء على ما فاتهما من نعم الجنّة مائتي سنة ولم يأكلا ولم يشربا أربعين سنة ولم يقرب آدم حواء مائة سنة، فتاب عليه أي فتجاوز عنه ورجع عليه بالرحمة وقبول التوبة وإنما رتبها بالفاء على تلقي المتضمنة معنى التوبة وهو الاعتراف بالذّنب والنّدم عليه والعزم على أن لا يعود إليه واكتفى بذكر آدم لأنّ حوّاء تابعة له في الحكم وقد طوى ذكر النّساء في أكثر القرآن.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البَقَرَة: 37] أي الرجّاع على العباد بقبول التّوبة وبالمغفرة وأصل التّوبة الرّجوع فإذا وصف بها العبد كان رجوعًا عن المعصية وإذا وصف بها الرّب ارتدع من العقوبة إلى المغفرة الرّحيم هو المبالغة في الرّحمة والجمع بين الوصفين وعدّ للتّأديب بالإحسان مع العفو.

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ﴾ كرّر للتّاكيد أو الاختلاف والتزييد والثّاني أولى إذ الإفادة خير من الإعادة فالأوّل خطاب عتاب والثّاني لتحصيل استعداد الهداية وكثرة الدّراية والثّواب، فمن وجد الهداية والدّراية والثّواب ومن نجا أغورها فقد هلك وغوى. أو تقول إشارة إلى أنّ لكلّ من البدن والنّفس جنّة المنى لكلّ منها

احتظاظًا من الجنّة التي يناسبها فللعاقل العارف الجازم جنّة تناسبه، أو إنّه للتّنبيه على أنّ مخافة الإهباط المقترن بأحد هذين الأمرين وحده كأنّه للجازم أن يعوقه عن مخالفة حكم الله فكيف بالمقترن بهما ولكنّه نسي ولم يخذله، عزمًا أو تعظيمًا للخطبة وتقطيعًا بشأنها بأن استحقرها فالحريّ على الفطن الفائز الحائز أن لا يستحقر خطية صغيرة فضلًا عن كبيرة فإنّ صغيرة واحدة أخرجت آدم من الجنّة فما ظنّك بالصّغائر المتعدّدة والكبائر المتحدّدة فإنّها تذوده عنها لانتفاء المناسبة بين الآثام والجنّة كما ثبت البون بين الإنس والجنّ إلى سماء الدّنيا والثّاني منها إلى الأرض جميعًا أو من جنّة سماء الأسماء إلى سماء الدّنيا ثمّ منها إلى الدّنيا حال في اللّفظ تأكيد في المعنى.

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ هذا تسلية لآدم وحوّاء وأولادهما أي لا تحزنوا ولا تيأسوا من روح الله لأنّه قال: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 38] أمّا أصله إمّا صلةً وشرطًا زيدت للتّأكيد ويأتينّكم مؤكّد بنون الثّقيلة ﴿هُدًى﴾ فاعله وهو الكتاب أو الرّسول فمن تبع من موصولة متضمّنة للشّرط مبتدأ ﴿فَلَا خَوْفٌ﴾ مع اسمه وخبره خبره وهو جزاء الشّرط الأوّل كقولك إن جئتني فالذي رتّب عليه من الخيرات فأعطيك إيّاه ومن كرّر الفاء لتكرّر الشّرط.

وفي الكشّاف: فإن قلت فلم جيء بكلمة الشكّ وإتيان الهدى كائن لا محالة لوجوبه، قلت: للإيذان بأنّ الإيمان والتّوحيد لا يشترط فيه بعثة الرّسل وإنزال الكتب وإنّه لم يبعث رسول ولا كتاب [إلّا] كان الإيمان لهما واجبًا لما فيه ممّا يدرك به الخفيّات وحقائق الأشياء والمغيّبات من العقل والقوى الدّاركة، أقول: لأنّ العلم بالله وبتوحيده للنّفوس فطريّة أسبغه عليها في الفطرة الأولى في مقام ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 172]، ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الرّوم: 30]، والأنبياء كلّهم منبّهون معروفون مذكورون ﴿طه ۝١ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣﴾ [طه: 1-3] ولهذا كرّر أمر اهبطوا والمرتّب عليه من الشّرط فمن تحقّق بالشّرطين المذكورين فاز بالسّعادة العظمى والسّعاية الكبرى في النّشأتين وشرط التذكّر بل سبب وجوده الرّسول

والكتاب إذ بمجرّد العقل لا يهتدي إلى البغية كما ورد في أسمائه العظام: يا كبيرًا أنت الذي لا تهتدي العقول لوصف عظمته، وصرّح به نبيّنا وعيسى عليهما السّلام، أمّا النّبيّ فقال: «**العقل لإقامة العبوديّة لا لإدراك سرّ الرّبوبيّة**».

فقال عيسى عليه السّلام في جواب أفلاطون حيث قال: إنّ ذاتًا هبطت فاغتربت وتذكّرت فهل إلى خروج من سبيل.

قال في جوابه: كن طالبًا لتنوير النّفس إلى آخره فإنّ مجرّد العقل لا يهتدي إلى سواء السّبيل ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أصلًا فضلًا من أن لا يحلّ بهم مكروه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البَقَـرَة: 38] على فوت المحبوب وحلول المكروه المخطوب إذ الحزن إنّما هو على المكروه المتوقّع.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾

عطف على فمن اتّبع قسم له والآيات جمع آية وهي العلامة الواضحة متعلّقة بالفعل بين المقدّمتين من باب التّنازع، أولئك خبر الموصول وقد استدلّ الحشوية بهذه الآية على عدم عصمة الأنبياء من وجوه: الأوّل: الكتاب قد دلّ على معصية آدم حيث جعله من الظّالمين وسائر ما قال في حقّ آدم من الخاسرين والتّوبة عليه، والجواب أنّ ارتكابه للمعصية إنّما كان من سهو ونسيان لا من قصد وطغيان لقوله (نسي) ولم يخذله عزمًا، فإن قلت: بالسهو والنّسيان لا يؤاخذ المرء ولا يستحقّ العقاب به، أقول: السّهو والنّسيان إنّما يأتيان من الغفلة من الله وأحكامه لغفلة منه ومن الأوامر ونواهيه في حقّ الأنبياء أتمّ لأنّ شأنهم العصمة عن الصّغائر فللكبائر أن يكونوا حاضري القلب وناظري الغيب وآمري الرّيب.

قال عليه السّلام: «**إنّي ليغان على قلبي وإنّي لأستغفر الله في كلّ يوم سبعين مرّة**» وكرّر الاستغفار في كتاب الله في حقّ آدم وبنيه لعظم قدرهم وعلوّ شأنهم، وأيضًا إنّ آدم عليه السّلام بعد إغواء الشّيطان ومقاسمته قد اجتهد فأدّى اجتهاده إلى فعل ما فعل والعمل بالاجتهاد ليس بمعصية فإنّه ظنّ أنّ النّهي ليس للتّحريم بل للتّنزيه وإنّ الإشارة إنّما هي إلى الشّجرة عينها لا إلى ثمرتها من بينها، إذ الأصل في الاستعمال إنّما هو الحقيقة والرّكون من الحقيقة إلى المجاز ورفض

الأصل إنّما شرع لغرض مشروع معقول فالعقوبة به ليست لارتكاب الخطيئة الظّاهرة بل لأجل الغفلة عن الله وهذه الآية تدلّ على كون الجنّة مخلوقة وأنّ التّوبة مقبولة وأنّ عذاب النّار يخلد في حقّ الكفّار دون غيرهم.

واعلم أنّه لمّا ذكر دلائل التّوحيد والنّبوّة والمعاد عقّبها بتعداد النّعم العامّة تقريرًا لها وتأكيدًا لما دلّت عليها فإنّها من حيث إنّها حوادث محكمة تدلّ على محدث هو حكيم ومورث قويّ قديم ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: 54] لا شريك له، ومن حيث إنّ الإخبار عن ما هو مثبت في الكتب السّابقة فمن لم يمارس شيئًا منها إخبار عن الغيب معجز يدلّ صدق من ادّعى النّبوّة ومن حيث اشتمالها على خلق الإنسان وإعادته وإبداعه واختراع وصوله وهو أعظم من ذلك يدلّ على أنّ المحدث هو الله القادر على الإعادة كما كان قادرًا على الإبداء، خاطب أهل العلم والكتاب منهم وأمرهم أن يذكروا نعمة الله عليهم ويوفوا بعهودهم في الأزل معهم في اتّباع الحقّ واقتفائه ليكونوا أوّل من آمن بمحمّد ﷺ وبما أنزل عليه.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ
وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٤٠﴾

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: 40] إسرائيل مركّب من إسرا وئيل أي صفوة الله، وإيل هو الله، لقب يعقوب عليه السّلام، وقيل معناه عبد الله يعني يا أولاد يعقوب كائن من كان إلى يوم القيامة، اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وعلى آبائكم كنجاة نوح من الطّوفان وإبراهيم من النّار ونمرود والنيران، وكنجاة بني إسرائيل من بأس فرعون، وكالاستيلاء في الممالك وقهر الأعداء والتّسلّط على ممالكهم ومملوكاتهم وغير ذلك، وغرق فرعون وجنوده وتملّكهم على ما كان في أيديهم من ممالك مصر وتوابعه، وذكر النّعمة وتعدادها هو الشّكر.

قال رسو ل الله ﷺ: «**من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر النّاس لم يشكر الله**». ومن ذكر وحدّث بنعمة الله فهو شاكر وتاركها كافر والجماعة رحمة والفرقة عذاب.

﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ والعهد يضاف إلى المعاهد، يقال: أوفيت بعهدي أي ما عاهدت عليه والعاهد أي إلى الفاعل والمفعول، ولعلّ الأوّل من الأوّل والثّاني من الأوّل أيضًا لا من الثّاني، وللوفاء عرض عريض فمنها هو الإتيان بكلمة الشّهادة وبما يستكمل الإنسان الطّاهر من سائر أركانه، وأمّا من الله فللعامّة حقن الدّم وحفظ المال وصون العرض، وأمّا للخواصّ الإغراق في بحر التّوحيد بحيث لا يرى نفسه فضلًا للغير والفوز باللّقاء وحوز الفناء بالبقاء.

﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [البَقَرَة: 40] أي احصروا خوفكم لا سيّما في بعض العهد وهذا آكد في إفادة التّخصيص من إيّاك نعبد لما فيه من التّقديم من تكرير المفعول، والفاء الجزائيّة المتضمّنة معنى الشّرط كأنّه قيل إن كنتم راهبين شيئًا فارهبوني فحذفت الياء لدلالة العهد عليها، ولا شرط لإشعار الفاء عنه، والنّون نون الوقاية، والآية متضمّنة للوعد والوعيد دالّة على وجوب الشّكر ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾ [إبراهيم: 7].

والرّهبة هي الخوف مع الحزن، وإيّاي ضمير منصوب.

﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۢ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾

﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ﴾آمنوا أمر من الإيمان، ما موصولة، المراد منه القرآن، أنزلت صلته ضميره محذوف مصدّقًا حال يجوز أن يكون من الفاعل والمفعول والموصول الثّاني مع صلة الموصول بمصدّقًا، والخطاب عامّ لبني إسرائيل وغيره حكمًا، وإن كان خاصّ المورد.

قيل: الضّمير في به ﴿لِّمَا﴾ راجع إلى ﴿لِّمَا مَعَكُمۡ﴾ لأنّهم إذا كفروا بما يصدّقه فقد كفروا به.

﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۢ بِهِۦۖ﴾ [البَقَرَة: 41] هذا تعريض لبني إسرائيل بأنّهم وجب عليهم أن يكونوا أوّل مؤمن بمحمّد عليه السّلام وبما جاء به لكونه مصدّقًا لما معهم من التّوراة ولما فيها الذين يتّبعون الرّسول النّبيّ الأميّ الذي يجدونه مكتوبًا

عندهم في التّوراة والإنجيل.

عن كعب الأحبار أنّه قال في التوراة في السّطر الأوّل: "محمّد رسول الله ﷺ عبدي المختار لا فظّ ولا غليظ ولا سخّاب في الأسواق ولا يجزي السّيئة بالسّيئة ولكن يعفو ويغفر، ومولده بمكّة وهجرته بطيبة وملكُهُ بالشّام"

وفي السّطر الثّاني: محمّد رسول الله أمّته الحمّادون يحمدون الله في السّرّاء والضّرّاء ويحمدون الله في كلّ منزلة ويكبّرون الله على كلّ شرف، رعاة الشّمس، يصلّون الصّلاة إذا جاء وقتها وإن كانوا على رأس كناسة ويأتزرون على أوساطهم ويغضّون أطرافهم وأصواتهم باللّيل في جوّ السّماء أصوات النّحل. وغير ذلك ممّا ذكر في التّوراة في صفة محمّد وأمّته وكانوا يعرفون محمّدًا كما يعرفون أبناءهم وكانوا من أهل النّظر حين يستفتحون على المشركين في معجزاته والعلم بشأنه ويستبشرون بزمانه.

فإن قيل: كيف هو التّقدّم في الكفر قد سبقهم مشركو العرب، قلت: المراد به التّعريض لا الدّلالة على ما يظنّ أهل الظّاهر كقولك: فلست أنا بجاهل أو لا يكون أو كافر به من أهل الكتاب وعلى هذا لا بدّ وأن يكون المخاطب بعضًا من بني إسرائيل لا لانحصار الكتاب فيه إلا أن يكون المراد من الكتاب أعمّ، والكفر بالقرآن كفر بالتوراة وسائر ما صدّقه.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ نهي معطوف به على النّهي السّابق، والاشتراء قبول المبيع بالعرض، وههنا استعير للاستبدال والباء للمقابلة وإلا فالثّمن هو المشترى به داخلًا عليه الباء، والثّمن القليل هو الرّياسة التي كانت لهم وهي بالنّظر إلى الحقّ والذين في غاية الحقارة والقلّة والاستبدال والتّجارة في نهاية الخسارة ذاتًا واعتبارًا.

﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ [البقرة: 41] أي احذروا نفوسكم من أن تتعرّض لغضبي وتقع في معرض قهري.

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢)﴾

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ أي لا تخلطوا، يقال: لبستُ الثّوب لبسًا إذا

خلطته، أي لا تخلطوا الحقّ بالباطل أي بالذي كتبتم بأيديكم، وعلى الثّاني يكون المعنى ولا تخلطوا الحقّ بالباطل ملتبسًا مستعينًا بباطلكم ولا تجعلوا الحقّ ملتبسًا مخلوطًا بسبب خلطم الباطل الذي تكتبونه أو تذكرونه في تأويل ما نزل في حقّه في التّوراة وغيره ﴿وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ الدّاخل تحت حكم النّهي، ونهوا عن الإضلال بالتّلبيس على من سمع والإخفاء على من لم يسمعه، أو نصب بإضمار أن على أنّ الواو للجمع أي لا تجمعوا لَبس الحقّ بالباطل وكتمانه، ويعضده أنّه في مصحف ابن مسعود يكتمون بمعنى كاتمين، وفيه إشعار بأنّ استفتاح اللّبس لا تصحبه من كتمان الحقّ الذي اعتقدتم حقّيّته ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: 42] كتمانكم الحقّ أو أنّ المذكور المتلوّ في كتابكم صادق عليه كتم السرّ وهو مجزوم داخل تحت النّهي أي ولا تكتموا مثل ولا تخونوا الله وتخونوا أماناتكم، أي ولا تخونوا أو منصوب بإضمار أن والواو بمعنى الجمع أي ولا تجمعوا لبس الحقّ بالباطل وكتمان الحقّ كقولك: لا تأكل السّمك وتشرب اللبن، فإن قلت الكتمان هو اللّبس فلا وجه للجمع، قلت: لا بل هما مغايران لأنّ لبس الحقّ بالباطل هو المكتوب بأيديهم وتصرّفهم في التّوراة والكتمان أن يقولوا لا نجد في التّوراة وصف محمّد ولا نعته، والمذكور غيره في مصحف عبد الله، وتكتمون بالنّون أي كاتمين وأنتم تعلمون أنّه نبيّ مرسل أي حال كونكم عالمين بحقيّة نبوّته وهذا أقبح لأنّ الجهل بالقبيح وبما يعذر وحذف المفعول إشعار بأن يفتتح حالهم ويقطع شأنهم ومآلهم، ولا ينحصر في صورة دون صورة بل عامّ.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿وَأَقِيمُوا۟﴾ أمر من تقيمون من باب الأفعال ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ والصّلاة في الأصل الدّعاء نقلت منها إلى الأركان العلويّة والأفعال المخصوصة ﴿وَءَاتُوا۟﴾ أيضًا أمر من تؤتوا اجتمعت الهمزتان إحداهما همزة القطع والأخرى أصليّة قلبت الثّانية ألفًا، ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وهي في الأصل النّماء والطّهارة، يقال: زكت الزّروع إذا نمت وازدادت.

وفي الشّرع: إخراج مال معدود من مال معلوم محدود على قصد الصّدقة

بشرط النّصاب عند حولان الحول، وفائدته إنماءُ المال وازدياده وتطهيره من الخبث وصاحبه من البخل.

أي حافظوا على الصّلوات الخمس بمواقيتها وحدودها وركوعها وأركانها وهيئآتها وسننها، وأدّوا زكاة أموالكم عند حلول الحول على النّصاب، ﴿وَٱرْكَعُوا۟﴾ [البَقَـرَة: 43] أي صلّوا مع المصلّين مجاز مرسل من باب ذكر الجزء وإرادة الكلّ كما يعبّر عنها بالسّجود والمخاطب عامّ بحسب الحكم وإن كان بحسب المورد خاصًّا فيدخل كلّ من يصلح للخطاب. والآية تدلّ على أنّ الكفّار كلّهم مخاطبون بالأصول والفروع أي صلّوا صلاة المسلمين وأدّوا زكاة الأموال كزكاة المسلمين، وهذا الخطاب يتضمّن خطاب الإيمان.

إشارة وتأويل

قال الصّادق: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [البَقَـرَة: 36] العداوة مخالفة الصّداقة والهداية فالشّيطان أظهر عداوته وأبونا آدم أظهر هدايته فوجد من ربّه كلمات القرب والأنس مع الله يعني كما أنّ للعقاقير خواصّ كذلك للكلمات الرّبانيّة والمقالات الإلهيّة خواصّ تعم الرّوح والقلب والعقل والجسم، ففي الرّوح خاصيّتها إزالة ظلمات الحجاب عنه وتقريبه بالله فلمّا أمر بالسّجود فقال: يا ربّ ارفع شرف السّجود عن ما سواك حتّى إن كنت أمرتني به فقد نهيتني عنه فقال له: إنّي أعذّبك عذابًا لا أعذّبه أحدًا، قال: أولست تراني في عذابك، قال: بلى، قال: فرؤيتك لي تحملني على رؤية العذاب وقبوله فإنّي في عذابك ألذّ من رؤية غيرك فافعل بي ما شئت.

﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البَقَـرَة: 35] أي اسكن في جواري من قطيعتي وإن يصبك خطأ وعصيان فإنّ في عصيانك في دار العصمة عذر عصاة أولادك في المحنة لمّا أراد الله عصيانهما وكّلهما إلى أنفسهما وعزلهما عن القربة بإدخالهما في الجنّة وإن كانا طفلا الزّمان قريبا الحدثان لا يستقرّان في جبروت الرّحمن كمالًا حسب اقتضاء الطّبيعة في أكل ثمرات الجنان، فغفلا عن معاهدة ربّهما فقد فاز إبليس باغترارهما وإغوائهما، فلمّا أراد الله أن يجعل آدم

عارفًا بسرّ ربوبيّته مشاهدًا نور ألوهيّته أخفى في الشّجرة سرّ ربوبيّته وأكساها أنوار القدس وتجلّى لهما منها كما تجلّى لموسى من الشّجرة، وإغواء إبليس وإن كان في الظّاهر إضلالًا إلا أنّه في المعنى دلالة على هدايته فلا يوجد شرّ جزئيّ إلا وقد يتضمّن خيرًا كليًّا. ولهذا قال: «**سبقت رحمتي غضبي**» واشتهر أنّ ارتكاب الشرّ القليل للخير الكثير خير كثير، فإبليس يكون معرّفًا ودليلًا وقولًا شارحًا وسبيلًا إلى ظهور أحكامه الأزليّة ومقدّراته الأوليّة وأسراره الإلهيّة وأنواره الرّبوبيّة فلولاه لم يظهر قطّ سرّ من الأسرار، ولهذا اختصّت القوّة النّظريّة، فإبليس مظهر ومرآة الإضلال والهداية للأوّل بالذّات وللثّاني بالعرض والحقّ مظهرهما للأوّل بالعرض وللثّاني بالذّات ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [البقرة: 39].

قال الصّادق: «من اختار الله على ما سوى الله اختاره الله على سائر خلقه ومن هرب من الله أخلده الله تعالى وأسكنه وأيّده في غضبه وسخطه».

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ على بساط الكرامة بالتّجانب عن الكفر والهواء واختيار ربّ الأرض والسّماء أوفِ بجلالي بإتمامها في دار اللّقا بشهود جماله أوفوا بما أعطيتكم من استعداد معرفتي وعمارة موقع نظري ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: 40] بأن أطلعكم على خزائن سرّي وكنوز حقائق علمي في سرائر غيبي وأوفوا بعهدي الذي عاهدتم معي في الميثاق الأوّل بلفظ بلا فلا ترجعوا في طلب شيء إليّ يعني لا تنظروا إلى غيري بل لا بدّ أن ينحصر نظرك إليّ في جميع المظاهر ويختصّ طلبك من أي مظهر فإنّ الظّاهر في الكلّ إنّما أنا لا غيري أوفِ بعهدكم أي ما أودعت أي بإظهار ما أودعت في قابليّتكم أو أوفوا بعهدي بحفظ ودائعي عندكم إلا عن أهلها يعني لا تنظر إلى غيره بل لا بدّ أن ينحصر نظرك إليّ من جميع المظاهر ويختصّ ظنّك من أيّ مظهر فإنّ الظّاهر في الكلّ إنّما هو أنا لا غيري أوفِ بعهدكم بإباحة شهود جمالي وجلالي والاطّلاع على خزائن أسراري.

واعلم أنّ الله تعالى عهد في سابق علمه وسابق قضائه وحكمه في الأعيان الثّابتة على مقتضى أسمائه الذّاتيّة سبعة عهود فإنّ له في كلّ عين باعتبار كلّ اسم نوع اقتضاء وثانية سبقه سبعة كما يشهد به علم التّشريح.

﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [البَقَرَة: 40] في وفاء عهدي وأيّاي فاتّقون في وفاء عهدكم. وبداية التّقوى التّبرّي عن النّاسوت إلى اللّاهوت ومن الكون إلى المكوّن حتّى بلغ حقيقة التّقوى فاتّقي منه به له.

قال بعضهم: التّقوى على أربعة: للعامّة تقوى الشّرك وللخواص ترك المعاصي وللعارفين ترك التّوسّل ولأهل الصّفوة تقواهم منه إليه به. ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ أي تخلطوا الكشف بالخيال والفهم بالوهم وإن كانا فيه أيضًا إذ لا أثر للعدم بالممكن والفراسة بالخناسة، والإلهام بالوسواس، واليقين بالشكّ، والعبوديّة بالربوبية، والحقيقة بالرسم، والإخلاص بالرّياء، والكرامة بالمكر، وإن كان الكلّ منه إليه وما من شيء إلا وله مقام معلوم ووجه خاصّ مفهوم، فلا بدّ وأن يعتبر الكلّ على ما هو عليه ويكون طريقًا يرجع منه إليه.

إشارة وتأويل

فتلقّى آدم من ربّه في الأدوار الجماليّة والجلاليّة بكلمات مناسبة في تلك الأدوار لآدم كلّ كلمة منها مزيلة للبعد الذي هو مقتضى البشريّة مميلة للعبد من الفرقة إلى الجمعيّة المعنويّة والصّوريّة التي هي مرتضى إحاطة الهيئة الظّلمانيّة والنّورانيّة الوجوديّة والعدميّة الحدوثيّة والقدميّة فتاب ورحم وعطف عليه عطفًا يليق به نظرًا إلى اقتضاء كلّ دورة من الأدوار الجماليّة والجلاليّة الإفراديّة والجمعيّة وجمعيّة الجمعيّة، فإنّ التّوبة الجماليّة الإفراديّة في الحقيقة تنافي التّوبة الجلاليّة الإفراديّة والتّوبة الإفراديّة تغاير التّوبة الجمعيّة وتوبة الجمعيّة تباين توبة جمعيّة الجمعيّة إذ توبة الأدنى بالنّسبة إلى الأعلى سيئة.

قال النّبيّ ﷺ: «**حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين**» سواء كانت في شخص واحد أو في أشخاص متعدّدة «**وإنّي ليغان على قلبي وإنّي لأستغفر الله في كلّ يوم مائة مرّة أو سبعين**» ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ [النّصر: 3] الآية. بل هي في الحقيقة ذنب بالنّسبة إليها بعكس ﴿هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البَقَرَة: 37] أي الرّجّاع أي كثير الرّجوع من النّقمة التي هي الرّحمة الجلاليّة إلى الرّحمة الجماليّة ولذا ذكر الرّحيم ليتخصّص بالجمال.

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ أي من حسنة الجمال إلى حسنة الجلال الذي يقتضي البعد نظرًا إلى مقتضى الجمال «**حفّت الجنّة بالمكاره وحفّت النّار بالشهوات**» ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ تسوق إلى جنّة الجمال أو إلى جنّة الجلال وإمّا إلى جميعها، ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ﴾ من أعيان الجمال والجلال هدي في الأدوار المنسوبة إلى أحدها ﴿فَلَا خَوْفٌ﴾ في تلك الأدوار ﴿عَلَيْهِمْ﴾ لجريانهم على مقتضى دورة ربوبيّة ربّه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البَقَرَة: 38] على تضييع ما يقتضيه ربّه في دورة تناسب نورًا وظلالًا وجمالًا وجلالًا حالًا ومآلًا ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي ستروا بمقتضى نقيض دورته ما يقتضي فرداريّة أدوار ربّه ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ بأن جرى على غير مقتضى أدوار ربّه على ما يقتضيه الجلال الضّمنيّ والظّلال ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [البَقَرَة: 41] وأرباب نار القطيعة والبوار من مقتضى أدوار ربوبيّة ربّه ﴿هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ في هذه النّار ما دامت مقتضيات تلك الأدوار باقية فإذا انتقلت نوبة التّربية من الجمال إلى الجلال انقلبت النّار والبوار في حقّهم الجنّة والنّور. ﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ﴾ أي القوى الرّوحانيّة والمبادئ النّفسانيّة والغرائز الطّبيعيّة التي خصّصها الله تعالى بأنواع النّعم الظّاهرة والمنح الخفيّة الباطنة من العلوم والإدراكات والتّصرّفات وعاهد معهم بأن استقاموا على ما خصّص الله بهم ولم يستعملوا تلك المذكورة إلا فيما وضعت له ولم يتعدّ إلى غير ما حدّده الله لهم واستداموا على قضاء حقوق العبوديّات وآداء رسوم العبادات بلغهم الله إلى غاية مقتضيات استعدادهم وهي الفناء في الله والبقاء بالله والتّحقيق بالأسماء الإلهيّة والصّورة الجمعيّة في الأدوار الجماليّة والأكوار الجلاليّة والهيئة الإحاطيّة بمقتضاها في السّير إلى الله ومن الله وفي الله وبالله وعلى هذا ﴿وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البَقَرَة: 40] أي لم يخافوا ولم يرجعوا إلا إليّ ولم يستقرّوا إلا لديّ ولم يتوكّلوا إلا عليّ ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ﴾ عليكم في الفرداريّة الجماليّة وأدوارها قرارًا ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ من الأدوار السّالفة والأكوار الخالفة فإنّ مقتضيات الأدوار متطابقة ومرتضيات الأكوار متوافقة لكونها متّسقة وأطوارها منتظمة مستوثقة ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ [البَقَرَة: 41] أيّتها القوى العاقلة والمبادئ الرّوحانيّة التي خاطب الله في مقام ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 172] إيّاكم أوّلًا ثمّ سائر القوى لقربها من الربّ رتبة به

ممّا جرى في الأدوار السّالفة ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى﴾ أي تجلّياتي ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وعلمًا رسميًّا عليلًا يعني لا تستبدلوا العلم الشّهوديّ والإدراك الفطريّ الحضوريّ بالعلم الاستدلاليّ النّظريّ الحضوريّ ﴿وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ [البقرة: 41] واجعلوني في وقاية لكم في انتساب الأفعال والأحوال ولا تجعلوا نفوسكم وقاية في أمر من الأمور.

﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ وسعة الخير مأخوذة من البرّ لسعته ويتناول كلّ خير وتنسون أنفسكم أي تترك إياها وإصلاح حالها.

وفي الزّبور: يا داود اسمع ما أقول والحقّ ما أقول، من نظر في عيوب النّاس وترك عيب نفسه وكانت همّته أن يتبع ملجيات النّاس فضحته على رؤوس الإنس والجنّ والبهائم في يوم القيامة.

﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [البقرة: 44] أي التوراة نزلت في علماء اليهود وذلك أنّ منهم كان يقول لصهره وقومه ورضيعه وخليفة من المسلمين في السّرّ إذا سأله عن محمّد عليه السّلام: أثبت على الأمر الذي أنت عليه وكلّ ما يأمره فهو حقّ.

وقيل: كانوا يأمرون بالصّدقة وهم لا يتصدّقون وإذا أتوا بصدقات ليتقرّبوا بها خانوا فيها.

وعن محمّد بن واسع: بلغني أنّ ناسًا من أهل الجنّة اطّلعوا على ناس من أهل النّار فقالوا: أنتم قد كنتم تأمرونا بأشياء عملناها فدخلنا الجنّة، قالوا: كنّا نأمركم بها ونخالف إلى غيرها.

مطلب البرّ ثلاثة

قيل: البرّ ثلاثة: برّ في عبادة الله وبرّ في مراعاة الإفادة وبرّ في معاملة الأجائف.

واختلف أهل العلم في النّفس والعقل فمنهم من قال: هي جوهر مجرّد متعلّق بالبدن تعلّق التّدبير والتّصرّف وهو لا يتصرّف بدون التّصوّر والإدراك،

والعقل جوهر مجرّد متعلّق بالبدن والنّفس لا تعلّق التّدبير والتّصرّف بل تعلّق التّعقّل والتّصور، وهو إدراك شيء مجرّد عن الغواشي الغريبة واللّواحق الماديّة التي ما به يدرك. وإن قيل إنّه إحساس يكون مبيّنًا له مندرجًا تحت العلم وهو صفة توجب التّمييز لا تحتمل النّقيض وإن خصّ بالأمر المعنوي يخرج عنه الإدراك ويدخل فيه التّعقّل وإنّ العقل والنّفس والقلب ألفاظ مترادفة.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ قبح ما أنتم عليه توبيخٌ عظيم وتشنيعٌ عميم أي تتفطّنون لقبح ما أقدمتم عليه حتّى يصدّكم عن ارتكابه وكأنّكم تتلون العقول لجريان أحوالكم على خلاف مقتضى العقل ونحوه، أفٍّ لكم ولما تعبدون من دون الله، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البَقَرَة: 44] العقل في الأصل الشدّ والحبس مأخوذ من عقلتُ البعير إذا أشددتُ رجلها، يحبس الإنسان ويشدّه عن تلقّي القبائح والتّصدّي إلى الفضائح والتّعدّي إلى الوقائح. عرف أيضًا بأنّه جوهر مجرّد متعلّق بالبدن لإدراك ما يهمّه من جذب المنافع ودفع المضارّ ورفع الوقائع.

(*)﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البَقَرَة: 45] الصّبر هو الحبس والمنع وقد عرفت معطوف على مقدّر أي دعوا جميع ما ذكر من المناهي والأوار وواظبوا عليها واستعينوا أي اطلبوا المعونة من الله عليها والإتيان بالجميع متلبّسين بالصّبر والصّلاة لما فيهما من التّكاليف الشّاقّة والمعاطيف الدّاقّة، فالصّبر عليها من إخلاص القلب وحفظ الثّبات ودفع الوسواس ومراعاة الآداب ومنع الأعضاء والجوارح عن مسارحها ومآلفها ومطارحها والاحتراس عن المكاره مع الخشوع والخضوع واستحضار القلب بأن انقلب بين يدي الجبّار والمجاهدة لشياطين الكفّار والمناجاة بربّ العالمين وقراءة القرآن والتّوجّه إلى درك معانيه لإنجاح الجوارح ودفع العكائب ومنع نزول الرّكائب وحلول الشّدائد ووصول المصائب. وكان رسول الله ﷺ إذا أحزنه أمر فزع إلى الصّلاة.

قيل: إنّ المراد بالصّبر هو الصوم.

(*) ربعُ الجزء.

قيل الواو في الصّلواة بمعنى على أي واستعينوا فيما [يثبتكم] بالصّبر على الصّلاة.

قال الحكماء: الصّبر رؤية العدل والشّكر ورؤية الفضل وهذا إنّما يحصل بالصّلاة.

إنّ ابن عبّاس نُعِي إليه بنت له وهو في السّفر فاسترجع ثمّ قال: عورةٌ سترها الله ومؤنةٌ كفاها الله وأجرٌ ساقه الله، ثمّ نزل فصلّى ركعتين ثمّ قام يمشي إلى راحلته وهو يقول: واستعينوا بالصّبر والصّلاة.

﴿وَإِنَّهَا﴾ أي الاستعانة بهما والصّلاة لعظم شأنها واشتمالها عليه أو حمله ما أمروا ونهوا عنها ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ أي ثقيلة صعبة شاقّة من قولهم كبر عليَّ هذا الأمر إذا اشتدّ وصعب ﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البَقَرَة: 45] المؤمنين المخبتين الإخبات هو الخشوع، والخضوع اللّين والانقياد ولهذا يقال الخشوع بالجوارح والخضوع بالقلب.

﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾

أي يصلون إليه للحساب ويرجعون إليه به لنيل الصّواب بأمره يوم الجزاء من ربّ الأرباب الموصول مجرور على أنّه صفة الخاشعين، الظنّ هو الطّرف الرّاجح وهو المتوقّع والوهم المرجوح والشكّ هو المتوسّط بينهما وقد يطلق على العلم وهو الاعتقاد الجازم الثّابت المطابق للواقع ويؤيّده ما وقع في مصحف عبد الله يعلمون لمشابهته به في الرّجحان فاستعير اسمه له لا قواسم فاعل من لاقى يلاقي أصله ملاقيون نقلت ضمّة الياء إلى القاف وحذفت الياء لالتقاء السّاكنين والنّون للإضافة، ولكونه بمعنى العلم يعدّى إلى مفعول واحد لتضمّنه معنى التّوقّع.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

المراد بالنّعمة ههنا هي الفضائل وبالأولى هي الفواضل وبالعكس والمراد من الأوّل النّعم الدّنياويّة علميًّا كان أو عمليًّا وبالثّاني ما يترتّب عليه من ثمراتها ونتائجها من النّعم الأخرويّة.

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٤٨﴾

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ أي احذروا يومًا يكون فيه الحساب والخطاب والعتاب وهو يوم الحسرة والنّدامة ويوم الجزاء والقيامة لا تجزَى ولا تكفى ولا تقضي ولا تغني نفسٌ عن نفسٍ شيئًا من الحقوق والجزاء مفعول به أو في موضع مصدر أي قليلًا من الجزاء وهذه الجملة منسوبة صفة يومًا والضّمير محذوف أي فيه والتّنوين للتّنكير أي أنّ نفسًا ما من الأنفس لا تجزى عن نفسٍ شيئًا ما من الأشياء.

﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: 48] أي من النّفس فدية معادلة للمفدي ومنه الحديث «**لا يقبل منها صرف ولا عدل**» أي لا توبة ولا فدية من النّفس الثّانية العاصية أو من الأولى وكأنّه أريد بالآية نفي أن يدفع العذابَ أحدٌ عن أحد من كلّ واجب متحمّل فإنّه إمّا أن يكون قهرًا أو غيره والأوّل النّصرة والثّاني إمّا أن يكون مجّانًا أو غيره والأوّل ما يشفع فيه أوّلًا والثّاني إمّا بأداء ما كان عليه وهو أن يجزي عنه أو بغيره، والأوّل أن يعطى عنه عدلًا.

الشّفاعة من الشّفع كأنّ المشفوع له كان فردًا فجعله الشّفيع شفعاء بضمّ نفسه إليه فإن قلت: هل فيه دليلٌ على أنّ الشّفاعة لا تقبل للعصاة، قلتُ: نعم لأنّه نفى أن يقضي نفس عن نفس حقًّا أجلب به من فعل أو ترك ثمّ نفى أن يقبل منها شفاعة شفيع فعلم أنّها لا تقبل من العصاة، والجواب: إنّ الآية مخصوصة بالكفّار للآيات والأحاديث الواردة في الشّفاعة ويؤيّده أنّ الخطاب معهم إذ الآية نزلت في حقّ اليهود لمّا زعموا أنّ آباءهم الأنبياء يشفعون لهم فأقنطوا إقناطًا قطاعًا كليًّا لمطامعهم وأيضًا إنّ المطيعين لا يحتاجون إلى الشّفاعة في الثّواب يترتّب على الإطاعة وفي غيره إمّا مأمور بعملٍ يترتّب عليه فإن عمل به استحقّ به ذلك الثّواب المترتّب على تلك الطّاعة وإلا فهو عاصٍ يحتاج في حصوله إلى الشّفاعة بشرط الإيمان.

إشارة وتأويل

﴿يَبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: 40] وفاءً للعبوديّة والاستقامة على بساط الحريّة ولا يؤخذ منها عدل.

قال الصّادق رضي الله عنه: «العدل هو المعاصي والصّبر هو المغفرة والشّفاعة هي الرّحمة» وهذا لا يكون لمن لم يتّقِ الله يوم القيامة.

﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ﴾ [البقرة: 49] أعظم البلاء والبلاء شدّة ولا شدّة لمن عرف الله ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ۝٤٨﴾ أي لا يمنعون من عذاب الله وتذكيره.

﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة: 45] قال الصّادق رضي الله عنه: "الصّلاة نور الله والصّبر وقوده والخشوع دهنه والاستعانة حفظها" وهذا أمر عظيم يتضمّن الوصول إلى مقام الشّهود والاستصعاد إلى أوج فلك المقام المحمود وإلى تحقّق الشّاهد العابد بكمال الوصول إلى المشهود المعبود والسّخط والغضب على من خالف الله.

وقال بعضهم: أمر بالصّبر والصّلاة على تصفية الرّوح وتجلية العقل بما يترتّب على كلّ الفتوح من حلل المعارف الإلهيّة ودور الزّوارق الرّبانيّة ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: 45] الذين رفضوا الذّات وطرحوا النّفس لإدراك الأنس في حظائر القدس وسرائر المناجاة بسرّ الأنس.

﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: 46] أي الذين ينقلون من مقام علم اليقين وهو بالنّظر إلى عين اليقين كالظنّ إلى مقام عين اليقين وحقّ اليقين، إذ الاستشراف في مقام شهود الملاقاة وهي حاصلة للكلّ دائمًا لا تتأتّى إلا بطرح الكونين من البين.

قال الشّبليّ: لو حقّقوا التّوحيد بل تحقّقوا به كانت صلواتهم زينا وإذا ركنوا إلى أفعالهم كان توحيدهم وطاعتهم شينًا لتتلاشى قلوبهم في خطاب ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ [الفاتحة: 5].

قيل: إنّما أراد بالظنّ مقام اليقين تسلية للطّالبين وتطييبًا لقلوب العاصين وتشريعًا لهم إلى الوصول بالكشف والشّهود والتّحقّق بما يوصل إلى المقام المحمود ولئلّا يتناسوا عبادته.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ هذا تصريح لما علم إجمالًا أصله: أهل بدل أهيل خصّ استعماله بأولي الخطر والأشراف كالأنبياء والملوك فلا يقال: للاسكاف والحجام. وفرعون عَلَمٌ لمن ملك العمالقة مشتقًّا من تفرعن فلان إذا عتا وتجبّر فلمّا جاء موسى زاد عتوّه وفرط عزمه واسمه وليد بن مصعب بن الريّان وكان من العمالقة منسوبة إلى عمليق بن لاود بن أرم بن سام بن نوح، وفي زمن يوسف عليه السّلام كان فرعون آخر اسمه ريّان بينهما أكثر من أربعمائة سنة وأقلّ من خمسمائة.

﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي يذيقونكم ويكلّفونكم أشدّ العذاب من سامَهُ خسفًا إذ ولّاه ظلمًا، والسّوء مصدر ساء أي قبح، يقول: "أعوذ بالله من سوء الخلق وسوء الفعل" أي قبحهما، معنى سوء العذاب أَوجعُهُ وأشدُّهُ وأقطعُهُ والجملة حال من المفعول أو من المجرور.

﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ بيان يسومونكم ولذا لم يعطف وذلك أنّ فرعون رأى في منامه كأنّ نارًا أقبلت من بيت المقدس حتّى اشتملت على بيوت مصر فاحترقت وأحرقت القبط وتركت السّبط ببني إسرائيل فهالَهُ ذلك فسأل الكهنة فقالوا: سيكون في بني إسرائيل غلام يكون هلاكك وزوال ملكك وتبديل دينك على يديه، فأمر فرعون بقتل كلّ غلام يولد في بني إسرائيل، وأسرع الموت بكبارهم فدخل رؤوس القبط على فرعون وقالوا إنّ الموت وقع على بني إسرائيل فتذبّح أبناؤهم ويموت كبارهم فيوشك أن يقع الفعل علينا، فأمر فرعون أن يذبحوا سنة ويتركوا سنة، فولد هارون في سنة الترك وموسى في سنة القتل.

﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ أي يتركونهنّ فلا يقتلونهنّ بل يستخدمونهنّ.

﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ﴾ أي في ذلك الإنجاء على قراءة أنجيناكم والتّنجية بلاء ونعمة ومحنة وشدّة أو أشير إلى ما ذكر ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البَقَرَة: 49] أصله الاختبار والامتحان فإنّ امتحان الله عباده تكون تارةً بالمحنة والمحبّة وأخرى

بالنّعمة والمكرمة، ويفعلونكم بالشرّ والخير فتنة لما أخبر الكهنة لفرعون حقيقة رؤياه أمر بقتل الصّغار وجعل الكبار ثلاثة أصناف، فعيّن صنفًا من الأصناف للخدمة وصنفًا للأعمال مثل الحرث والبناء وصنفًا آخر لا يستطيعون العمل، فإذا صنعت أم موسى تابوتًا ووضع فيه موسى وألقته في اليمّ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوًّا وحزنًا وبقي موسى بينهم أربعين سنة إلى أن أعان السّبطي على القبطيّ وقتله ففرّ موسى وجاء شعيب النّبيّ وثبت في خدمته في تربيته ووفور نعمته ثمّ بعد برهة من الزّمان أعطاه بنته والعصا واللّوح وأُمر بدعوة فرعون ثمّ لمّا جاء موسى لفرعون وبلّغ حكم الله إليه وأمره بترك المعصية ودعوى الرّبوبيّة وجرى ما جرى في البين ودنا هلاك فرعون أمر الله عزّ وجلّ أن يسري ببني إسرائيل من أرض مصر إلى الأرض المقدّسة فأمر موسى قومه أن يسرجوا إلى الصّبح وأخرج الله أولاد الزّنا من السّبط إلى القبط ومن القبط إلى السّبط حتّى رجع كلّ واحد من أولاد الزّنا إلى أبيه وألقى الله الموت على القبط والعرس والزّفاف والنّشاط في السّبط فاشتغل القبط بدفن موتاهم حتّى طلوع الشّمس وخرج موسى في ستمائة ألف وعشرين ألف مقاتلًا لا يعدون ابن العشرين لصغرهم ولا ابن السّتّين لكبرهم فلمّا أرادوا السّير ضرب الله عليهم التّيه والحيرة فلم يدروا أين يذهبون فدعا موسى بني شحنة وسألهم عن هذا قالوا: إن يوسف عليه السلام لما حضره الموت أخذ على إخوته عهدًا أن لا يخرجوا من مصر حتّى يخرجوه معهم فلذلك انسدّ الطّريق عليهم فسألهم عن موضع قبره فلم يعلموا فقام موسى ينادي إلى أن قالت امرأة عجوز أنّه في الماء في النّيل فحفر موسى ذلك الموضع وأخرجه في صندوق مرمر وحمله ففُتِح لهم الطّريق فساروا موسى على ساقهم وهارون على مقدمهم فأخبر فرعون فخرج في طلب بني إسرائيل في ألف ألف وتسعمائة ألف وكان منهم سبعون ألفًا مردهم الخيل فلمّا وصل بنوا إسرائيل إلى البحر والماء في غاية الزّيادة فإذا نظروا فإذا فرعون مع جنوده، حتّى أشرقت الشّمس فبقوا متحيّرين وقالوا: ما الحيلة؟ فإنّ فرعون خلفنا والبحر أمامنا، قال عليه السّلام: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: 62]، فأوحى الله تعالى ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: 63] فظهر منها اثنا عشر طريقًا لكلّ سبط طريق.

كتب معاوية إلى ابن عبّاس سائلًا عن مكان لم تطلع فيه الشّمس إلا مرّة واحدة فكتب في جوابه: هو المكان المتعلّق في البحر فأوحى الله إلى جبال الماء أن تشبك شبكات يرى بعضهم بعضًا ويسمع بعضهم كلام بعض.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ
وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٠﴾

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ وذلك لمّا وصل فرعون البحر فرآه معلّقًا فقال: انظروا إلى الفجر فانفلق من هيبتي حتّى أدرك أعدائي فلمّا هاب فرعون وقومه الدّخول في البحر ولم يكن في القوم خيل أنثى بل كلّه ذكر فحل فجاء جبريل على فرس أنثى ودخل البحر فخاضوا في أثره كلّ القوم وأمرهُ الله أن يأخذهم فالعظيم عليهم والنقم لديهم وأغرقهم أجمعين. فإن قلت: ما معنى ﴿بِكُمُ﴾، قلت: فيه أوجه: الأوّل أن تكون الباء للآلة، والثّاني: للسببيّة أي لسبب إنجائكم، والثّالث: أن يكون الغرق متلبّسًا بكم ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: 50] أي مصارعكم وإغراقكم.

إشارة وتأويل

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ أي اذكر الوقت الذي أغرقنا وقطعنا وفتقنا بحر التّوحيد الصّفاتي وأغرقنا قوى فرعون الأمّارة الدّاعية إلى الكثرات لظلمات الشّهوات فأنجينا موسى الرّوح وقواها النّظريّة والعمليّة.

قد علم من هذا أنّ النّجاة إنّما يحصل إذا هلك العدوّ وفيه تنبيه إلى أنّ السّالك إنّما ذا مقام وتمكين وحال إذا مات وهلك بالموت الاختياري فلا عبرة بالمقامات والأحوال مع بقاء النّفس بل هذا فرعونيّةً أعلى وأسدى.

﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً
ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ۝٥١﴾

﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: 51] وذلك أنّ بني إسرائيل لما آمنوا من

عدوّهم ودخلوا مصر لم يكن لهم كتاب ولا شريعة ينتهون إليها ولا نواميس إلهيّة يعتكفون عليها لتنظّم أمور دنياهم وأخراهم فوعد الله موسى أن ينزل عليه التّوراة فقال لقومه: إنّي ذاهب لميقات ربّي لآتيكم بكتاب فيه بيان كلّ ما تأتون وتذرون، وواعدهم أربعين ليلةً ثلاثين من ذي القعدة وعشرة من ذي الحجّة واستخلف عليهم هارون فلمّا أتى الوعد للميقات جاء جبريل على فرس يقال له فرس الحياة لا يصيب شيئًا إلا حيا ليذهب موسى إلى ربّه فلمّا رأى السّامريّ وكان رجلًا صابئًا من أهل هاجرم واسمه ميخا وكان منافقًا قد أظهر الإسلام وأضمر الكفر والشّرك وكان من قومه يعبدون البقر فدخل قلبه حبّ البقر فلمّا رأى جبريل على ذلك الفرس قال هذا ثباتًا رفيعًا وأخذ من تربة حافر فرس جبريل وقد كان بنو إسرائيل قد استعاروا حليًّا كثيرًا من قوم فرعون حين أرادوا الخروج من مصر بعلّة العرس فلمّا أهلك القبط بقيت تلك الحلي في أيدي بني إسرائيل، فلمّا فصل موسى عن قومه قاصدًا إلى طور قال السّامريّ: إنّ الأمتعة والحليّ التي استعرتموها من قوم فرعون غنيمة لا تحلّ لكم، فاحفروا الحفرة وادفنوها حتّى يرجع إلينا موسى، إذ العادة كانت في بني إسرائيل ومن تقدّمهم أن لا يأكلوا الغنيمة ولا الصّدقة بل يدفنوها، فأخذها السّامريّ وصاغ منها عجلًا جسدًا له خوار فوضع تلك الزّينة فيها فقال السّامريّ: هذا إلهكم وإله موسى، وكان بنو إسرائيل يعدّون الأيّام واللّيالي فلمّا بلغت عشرين قالوا: قد انتهى ما وعدنا موسى فافتتنوا بالعجل منهم ثمانية آلاف، وعكفوا عليه يعبدونه من دون الله، وإنّما ذكر اللّيل دون النّهار لأنّ شهور العرب وضعت على مسير القمر والهلال الذي سلطانه في اللّيل، وقيل: لأنّ اللّيل خلق قبل النّهار ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يس: 37].

﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ إلهًا ومعبودًا ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي بعد إنجائكم من بأس فرعون ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ بإشراككم واتخاذكم العجل إلهًا.

إشارة وتأويل

﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾﴾ [البَقَرَة: 51] إشارة إلى خلقة حقيقة آدم وكميّة أجزائه أوّلًا وانحصارها في أربعين

وثانيًا إلى مراتب استكمالها وأوقع في الأعراف فسير أوّلًا إلى عدد مراتب الاستكمال وثانيًا إلى كميّة أجزاء حقيقته إلى أن يصل في الاستكمال إلى شهود التّجليات وإلى أنّ التّجلّي وجوديّ وشهوديّ.

قال النّبيّ ﷺ: «**من أخلص للّه أربعين صباحًا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه**» وذلك لأنّ حقيقة آدم إنّما تستكمل من أربعين كما اشتهر: "خمّرت طينة آدم بيديّ أربعين صباحًا" إذ من مبدأ تنزل حقيقته وهي الأحديّة الجمعيّة إلى منتهاه وهو النّاسوت أربعون مواقف الأسماء السّبعة والعقود العشرة والأفلاك التّسعة والكواكب السّبعة والعناصر الأربعة والمواليد الثّلاثة إذ صورته النّوعيّة إنّما هي هذه الجمعيّة الأحديّة فمن هذه المرتبة إلى تلك المرتبة أربعون مسلك فما لم يقطع لم يمكن الوصول أو سماع الكلام بحسن التّلقّي والقبول. ولمّا كانت هذه المراتب ساترة للوحدة الذّاتيّة التي هي نهاية مسالك السّائرين وغاية مدارك السّالكين العابدين عبّر عنها باللّيْلة أو باعتبار اجتماعهما في ليلة بطن الأمّ.

قال النبيّ ﷺ: «**إنّ خلق أحدكم يجمع في بطن أمّه أربعين يومًا نطفة ثم أربعين يومًا علقة ثمّ أربعين يومًا مضغة مثله**».

والسرّ في اختيار هذا العدد أنّ وحدات عقود هذا العدد وهو الأربعة يشتمل على كمال مرتبته وهو العشرة تضمّنًا إذ فيه ٤ ٣ ٢ ١ والمجموع هو العشرة وهو نهاية كمال الآحاد.

واعلم أنّ موسى إشارة إلى الرّوح وفرعون إلى النّفس الأمّارة والسّامريّ إلى النّفس اللّوامّة وهارون إلى القلب والعجل إلى العجلة الطّبيعيّة وهي من شيم اللّوامّة، وطور سيناء هو الطّور السّريّ الذي هو مجلى أوّل التّجلّيات وهو تجلّي الآثار، والقوم هو القوى الجسمانيّة والرّوحانيّة إشارة إلى أنّ السّالك ما لم يستكمل جميع القوى البدنيّة والنّفسانيّة والرّوحانيّة لم يتأتّ له الوصول إلى المبدأ الأوّل والحصول في الرّتبة العليا والجمعيّة الكبرى.

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم﴾ [البَقَرَة: 52] أي تركناكم وأهملناكم ولم

يستأصلكم من قوله عليه السّلام: «**أحفوا الشّوارب وأعفوا اللّحى**».

وقيل: محونا ذنوبكم من قولهم: «عفت الرّيح المنازل وعفت».

﴿مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ أي عبادتكم العجل ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [البَقَرَة: 52] نعمة العفو.

اختلف العلماء في ماهيّة الشّكر قال ابن عبّاس: هو الطّاعة لجميع الجوارح لربّ الخلائق في السّرّ والعلانية.

وقال الحسن: شكر النّعمة ذكرها ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ١١﴾ [الضّحىٰ: 11].

عن رسول الله ﷺ: «**قال موسى عليه السّلام يا ربّ كيف استطاع آدم أن يؤدّي شكر ما أجريت عليه بنعمك خلقته بيدك واستخدمت له الملائكة وأسكنته جنّتك فأوحى الله تعالى إلى أنّ آدم علم أنّ ذلك كلّه منّي ومن عندي فذلك شكر**».

قال داود: «إلهي كيف لي أن أشكر وأنا لا أصل إلى شكرك إلا بنعمتك، فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: ألست تعلم أنّ الذي بك من النّعمة منّي، قال: بلى يا ربّ، قال: ارضَ بذلك لك شكرًا».

قال الجنيد: «الشّكر العجز عن الشّكر» روى ذلك عن داود عليه السّلام أنّه قال: «سبحان من جعل اعتراف العبد بالعجز عن الشّكر شكرًا كما جعل اعترافه بالعجز عن معرفته معرفة».

قال ذو النّون المصري: «الشّكر لمن فوقك ينبئ عن تعظيم المنعم لكونه منعمًا سواءً كان باللّسان أو الأركان أو الجنان».

أمّا العرفيّ: فهو صرف العبد جميع ما أنعم الله عليه من السّمع والبصر وغيرهما إلى ما خلق وأعطاه لأجله كصرف البصر إلى مطالعة مصنوعاته والسّمع إلى إسماع كلام الله الحقّ واليد لأخذ الحقّ وتغيير الباطل واللّسان للقول والحقّ وغير ذلك.

وأمّا الحمد بقسميه فقد عرفته، والنّسب بينهما إمّا بين الحمد اللّغويّ والشّكر اللّغويّ فعموم وخصوص من وجه، والحمد أعمّ بحسب المتعلّق والشّكر بحسب المورد. أمّا بين العرفين منهما فعموم وخصوص مطلقًا، إذ الحمد العرفيّ

وهو الشّكر اللّغويّ أعمّ من الشّكر العرفيّ.

﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾

﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ﴾ يعني الجامع بين كونه كتابًا منزّلًا وحجّة بين الحقّ والباطل أعني التّوراة كقولك: الغيث واللّيث أي الرجل الجامع بين الجبن والجرأة يعني أن جعلناه ذا كتاب جامع منزّل يكون حجّة على الغير، فاروق بين الحقّ والباطل.

قيل: أراد بالفرقان المعجزات الفارقة بين المحقّ والمبطل في الدّعوى بين الإيمان والكفر، أو الشّرع الفارق بين الضّلالة والهدى أو النّصر والظّفر الفارق بينه وبين عدوّه يوم الفرقان يوم التقى الجمعان.

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 53] أي كي تهتدون في التدبّر في الكتاب والتفكّر في الآيات في تمام الأبواب وارتباط عموم الأسباب بتقدير الأرباب وفي الجميع مقاصد الدّنيا ومعاهد العقبى ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ﴾ [المائدة: 44].

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ

لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾
۞ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ
فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا
وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ وقد عرفت إذ حالها وحكمها أصل البراء الخلوص والباري ههنا هو الخالق، الفاء الأولى: للسببيّة، والثّانية: للتّقريب، أي توبوا لأجل ظلمكم أنفسكم باتّخاذ العجل، حمل قوله: ﴿فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [البَقَرَة: 54] على الظّاهر وهو النّخع أي فاعزموا على التّوبة واجزعوا إلى من خلقكم بريًّا من التّفاوت ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ [المُلك: 3] ومميّزًا على بعضكم عن بعض بصور متغايرة وهيئات متقاربة وأشكال متمايزة فإذا عزمتم على التّوبة بخلوص النيّة وصفاء الطويّة فاقتلوا أنفسكم لكونه تمامًا لتقويتكم ومتمّمًا لهدايتكم ومكمّلًا لصدق نواياكم وصحّة أمنايتكم بالنّخع وبقطع الشّهوات، فإنّ من لم يعذّب نفسه بقطع شهواتها ومنع مشتهاتها يتبعها ومن تبعها لم يقبلها ولم يحتجبها، فإنّ كمال الحبس إنّما يحصل بالقتل وهو كفّها عن مشتهياتها.

قيل: «أمر من لم يعبد العجل أن يقتلوا العبدة، روي أنّ الرّجل كان يبصر ولده ووالده وجاره وقريبه وخليله فلم يمكنهم إمضاء أمر الله فأرسل الله صبابةً ظلماء وسحابةً سوداء، وقيل لهم اصبروا على أمر الله لأنّه لعن من مدّ طرفه أو جنبه وغيّر وضعه وهيئاته المعدّة للقتل».

فإن قيل: الرّدة تزول بالتّوبة فلا بدّ أن يستتاب أوّلًا والذين افتتنوا بالعجل ثمانية آلاف فينبغي أن يأمر بقتل بعضهم بعضًا فما الحكمة في أمر الله المعصومين بقتلهم حتّى قتلوا أكثر ممّا عبدوا؟

قلتُ: من ترك عبادة الباري العالم الحكيم الذي يراهم بلطف حكمته على الأشكال المختلفة والأحوال المنقطعة والأعمال المنحرفة والهيئات المتقاربة

والهويّات المتناسبة والنّكات الفاضلة والصّفات الكاملة وغير ذلك من النّعوت والأوصاف العالية والسّافلة مولّيًا لهم أنواع النّعم ظاهرة وباطنة إلى عبادة البقرة التي هي أبلد المدركات والسّفاهة والبلاهة وأبرد أغلب الحيوانات، لا تكون توبتهم إلا بالقتل لأنّ الغباوة والسّفاهة والبلاهة التي هي عبادة البقر لا يزول عن نفوسهم إلا بالقتل، وأمّا الذين لم يعبدوا البقرة فإنّهم وإن كانوا بحسب الظّاهر بريًّا وخاليًا وعريًّا إلا أنّ بواطنهم مملوءةً بمحبّة العجل «**إنّ الله لا ينظر إلى صوركم وأعمالكم بل ينظر إلى قلوبكم ونيّاتكم**».

﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ﴾ أي ذلك القتل خيرٌ لكم من سائر التّوبة بتضمّنه تزكية بواطنكم من الشّركة وتخلية معاطين سرائركم من المراء والإفك وتصليةً لكم بالحياة الأبديّة السّرمديّة المتفرّعة من كمال نفي الكلّ والتّرك.

﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ متعلّق بمحذوف إن جعلته من كلام موسى عليه السّلام لهم مرّة: إن قتلتم بما أمرتم فقد تاب الله عليكم، وإن جعلته خطابًا من الله لهم على طريقة الالتفات فعطف على محذوف كأنّه قال: فإن امتثلتم بما أمرتم فتاب عليكم أي قبل الباري توبتكم مستعليًا عليكم ومحيطًا بأحوالكم وعموم أعمالكم ومنافعكم ومصالحكم وتمام أفعالكم ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البَقَـرَة: 54] علّة لما تقدّم قبل توبتكم لأنّه رجع من العقوبة الأخرويّة إلى المغفرة العامّة والرّحمة التّامة.

إشارة وتأويل

﴿وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ﴾ قال الصّادق رضي الله عنه: "الكتاب رسول الأنبياء والفرقان رسول الأولياء، والهدى بساط السّعداء" أو القوّة النّظريّة المستمدّة من النّبوّة والعمليّة التي تستمدّ من الولاية ﴿لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [البَقَـرَة: 53] في إدراك حقائق الأشياء على ما هي عليه أو في شهود أسرارها وظواهرها وبواطنها على ما تطابق الوقائع، قال الصّادق عليه السّلام: العجل فراقك عن المولى وقتلك وصلك مع المولى والهداية استقلالك على الهدى والطّبيعة البهيميّة مطبوعة على الاستعجال، والتّوبة المقبولة قتلها واستئصالها وصرفها إلى من برأها وأنشأها لتكون مطيّة تحمل أسرار تجلّياته.

وقيل: التّوبة هي الرّجوع عن رؤية مواهبه إلى معرفة نفسه المؤدّية إلى معرفة مولاها وربّها، ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [البَقَـرَة: 54] بسيوف هممكم وحسام غمومكم وأحزانكم.

قال النّبي عليه السّلام: «**إنّ الله يحبّ كلّ قلب حزين**»، لئلا يزحمكم في قربة ربّكم ورؤية بارئكم، وتوبوا من رؤية توبته عليكم واقتلوا أنفسكم حتّى توصلكم إلى معرفة ربّكم وشهوده.

وقيل: لمّا كان أوّل قدم في العبوديّة التّوبة وهي قتلها ورفض شهواتها فما ظنّك بمنازل الصّديقين فإنّهم يقتلون أنفسهم في كلّ يوم سبعين مرّة، وقد وقع في الكلمات القدسيّة: يموت النّاس سبعون مرّة عند مجاهدة أنفسهم هواها.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ المراد بالواحد ما لا يختلف ولا يتبدّل كما يقال: مائدة الأمير واحدة، يريد أنّها لا تختلف ألوانها، ولهذا لمّا جمعوا المنّ والسّلوى وسمّوها بضرب واحد لأنهما معًا وأهل البلد فإنّهم كانوا فلاحة ركنوا إلى عكرهم عكر السّوء واشتاقت طباعهم إلى ما جرت عادتهم من تنويع ما على المائدة من البقول والحبوب، أو لأنّ العرب يعبّر عن الاثنين بلفظ الواحد وبالعكس كقوله: يخرج منها اللّؤلؤ والمرجان، وإنّما يخرج من المالح دون العذب.

﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ في اللّفظ والإعراب ادع أمر من تدعوا أي اسأل ربّك مفعوله ﴿يُخْرِجْ﴾ مجزوم لكونه جوابه، ﴿تُنۢبِتُ﴾ [البَقَـرَة: 61] لتظهَرَ، إسناد إلى الأرض مجاز

مرسل مسند إلى ما يلابس الفعل وهو الظّرف من تفسير وبيان ﴿لَنَا﴾ [البَقَرَة: 61] والبقل المراد منه أطاييب البقول العطر كالنّعناع والسيسنبر والكرفس والباذرج ونحوها، والقثّاء بكسر القاف وقرئ بالضمّ معروف، وأمّا الفوم ففيه اختلاف، قال ابن عبّاس هو الخبز، تقول العرب فوموا بالنّار أي اختبزوا، وقيل هو الحنطة أو الحبوب كلّها أو الثّوم، وفي مصحف عبد الله (وفومها وعدسها).

مطلب [عدم] ترك العدس

قال رسول الله ﷺ: «**وثومها**».

والعدس والبصل معروف، عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**عليكم بالعدس فإنّه مبارك مقدّس يرقّق القلب ويكثر الدّمع**» وإنّه بارك فيه سبعون نبيًّا آخرهم عيسى ابن مريم.

فقال في جوابهم: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ﴾ وفي مصحف أُبي (أتبدّلون) ﴿ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ﴾ وأدون قدرًا وأقرب منزلةً من الدّنوّ وهوالقرب في المكان فاستعير للخسيسة كما استعير القصوى والبعد للشّرف والرّفعة، قيل: بعيد هو المحلّ أقصى المنزل بعيد الهمّة عتيد النيّة ﴿بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ أي منزله، بالمنّ والسّلوى، التّعبير عنهما بلفظ واحدٍ بناءً على ما تقدم فإنهما خبر (إنّ) دينًا ودنيا لعدم الحساب وانتفاء ترتب العقاب عليه ولكونه بريًّا عن شوب الكراهة فضلًا عن الحرية وقليل الماديّة وعدم الحاجة إلى السّعي وانتفاء الافتقار إلى الرّعي والسّقي، ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا﴾ فإن أتيتم ما كنتم بعدهم فانحدروا وتنزّلوا إلى بلد هو مصر وقرئ بضم الهمزة والمراد الجنس لانصرافه وكون البلاد حوالي البيت بينها وبين المقدس اثني عشر فرسخًا ولو كان مصر فرعون لما انصرف، ادخلوا مصر فالانصراف لكونه ثلاثيًّا ساكن الوسط، وفي مصحف عبد الله على قراءة الأعشى (مصرَ) بلا تنوين، ﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ من استبدال المنّ والسّلوى بما تنبت الأرض لما فيهم من الطّبيعة البقريّة، ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ أي جعلت الذلّة والمسكنة محيطة عليهم إحاطة القباب والخيام مجازاة لهم، أشار المذلّة الجزئيّة على شرف نعمة الله وهي المنّ والسّلوى في كفران النّعمة ولهذا صارت اليهود في أغلب الأحوال أذلاء مساكنين لا شرافة لهم عند النّاس لدناءتهم ورداءة نيّتهم.

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ باؤوا: رجعوا ومالوا أصل البواء المساواة أو

استحقوا فحينئذٍ يكون الباء صلة ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الهواء والإحاطة ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي بسبب كفرهم بالمعجزات التي من جملتها فلق البحر وإظلال الغمام وإنزال المنّ والسّلوى وانفجار العيون والكتب المنزلّة كالإنجيل والتّوراة والفرقان وإنّه الرّحم والتي فيها نعت محمّد وبقتلهم الأنبياء منهم شعيب وزكريّا ويحيى وغيرهم بلا موجب عرفيّ أو شرعيّ ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا﴾ [البَقَرَة: 61] أي المذكور بسبب العصيان والتوغّل في الكفران والتّمادي في الظّلم والعدوان ﴿وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البَقَرَة: 61] والحال أنّهم كانوا مستمرّين على الاعتداء والتّحاور من الحقّ إلى الباطل من جحود الآيات وقتل الأنبياء بغير حقّ. وإنّما كرّر الإشارة للدّلالة على أنّ ما لحقهم من الذلّة والمسكنة والبواء بغضب من الله بسبب الاعتداء هذا.

إشارة وتأويل

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ أي تجلّي واحد ذاتيّ بعنوان واحد ذاتيّ بشهود واحد ذاتيّ قد حصل للشؤونات الذّاتيّة في مرتبة الأحديّة الذّاتيّة أو على مقتضى اسم واحد في دور واحد وطور متّخذًا بما مال إلى أنّ لكلّ واحد من أعيان القوى بل جزء من أجزاء ظاهر الرّوح أي البدن استعدادًا لأن يتّصف بكمال الكلّ فلا بدّ وأن يخرج من القوّة إلى الفعل، وذلك لا يحصل إلا بالتردّد في النشآت في دورات الأسماء والصّفات ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا﴾ في أرض استعدادنا وحجر قابليّاتنا من مقتضيات الأسماء والمراتب ﴿مِنْ بَقْلِهَا﴾ أي فيوض عالم الأحديّة من المعارف الفطريّة ﴿وَقِثَّائِهَا﴾ أي علوم عالم الرّبوبيّة والملكوت وخيار أعيانها القدسيّة ﴿وَفُومِهَا﴾ عالم الأشباح عالم البرزخ ﴿وَعَدَسِهَا﴾ اقتضاءات أوضاع عالم الملك وأشكاله ﴿وَبَصَلِهَا﴾ أي بصل ما يتركّب من طبقات العناصر ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ﴾ والقائل هو الله الجامع للكلّ والمخاطب هو كل أحد من الشّؤونات الذّاتيّة والأعيان الثّابتة ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ الجمعيّة والبلدة الطّيبة الإحاطيّة في السّير في الله ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ أي والحال أنّهم كانوا قبل هذه الجمعيّة مضروبًا عليهم مذّلة اسم الواحد ومسكنة آثار حكمه ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي ضرب الذلّة كان بسبب كفرهم بآيات مقتضيات جمعيّة الأسماء والصّفات وخصائص كليّة كمالات النّشآت أو مذلّة خصوصة قوس التّنزّل والتّرقّي أو قوس الوجوب والإمكان أو السّير إلى الله ومن

الله قد مات فيهم وفات منهم في هاتين الحالتين أعيان التّجلّيات وأنواع الشّهودات ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [البَقَـرَة: 61] أي الملكات الفاضلة والتّجلّيات الإلهيّة الصّفاتيّة والأفعاليّة والآثاريّة.

قيل: المذلّة هو الطّغيان والمسكنة هي العصيان. ألبسهم الله في قلوبهم حبّ الدّنيا وفي سرائرهم بغض الآخرة. والذّل هو الشّيخوخة والمسكنة هي الحرص.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾

﴿هَادُواْ﴾ ماضٍ من هود أي مال ومن المهاداة إن جعلته من المفاعلة أي مال بعضهم إلى بعض في قبول أمر الدّين.

﴿وَٱلنَّصَـٰرَىٰ﴾: جمع نصرانيّ كندامى جمع ندمان وهو الصّفة المشبّهة أي النّاصرون.

﴿وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ﴾: جمع صاباء من صباء يصيب صباء بالهمزة أو من صبا يصبو بدون الهمزة، صبوًّا وهو بمعنى مال وخرج من دين إلى دين.

﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ من موصولة مبتدأ متضمّن للشّرك ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ [البَقَـرَة: 62] خبر والجملة خبر إنّ على تقدير الضّمير أي منهم، يعني إنّ الذّين آمنوا في الظّاهر وتديّنوا بدين محمّد باللّسان فمنهم من آمن بالله واليوم الآخر بالإخلاص التّام وبما جاء من الله بالصّفاء العامّ وعمل مرضيًّا لله مقبولًا عند الله. أو الذّين دخلوا في اليهوديّة وهي دين موسى فيه إن كانت غريبة فمعناها التّوبة أي تابوا من عبدة العجل، أو معرب يهود وهو اسم ولد من أولاد يعقوب فسمّوا بذلك، أو لأنّه يتهوّدون أي يتحرّكون عند قراءة التّوراة ويقولون إنّ السّموات والأرض قد تحرّكت حيث آتى الله التّوراة موسى والياء في نصرانيّ للمبالغة كأحمريّ، سمّوا بذلك لأنّهم نصروا المسيح أو لأنّهم كانوا تبعة له في قريةٍ نزلها مع أمّه يقال لها نصران أو ناصرة فسمّوا باسمها، أو من اسمها، أو لأنّ الحواريين قالوا نحن أنصار الله.

والصّابئين: قال عمر رضي الله عنه: «هم طائفةٌ من أهل الكتاب ذبائحهم ذبائح أهل الكتاب».

قال ابن عبّاس: «ذبائحهم لا تحلّ ولا مناكحهم»، وقال مجاهد: «هم قبيلة حوالي الشّام بَنَتِ اليهود والنّصارى أديرة لهم وكانوا لا يراهم من أهل الكتاب» وهو رأي أبي حنيفة.

قال قتادة ومقاتل: «هم يقرّون بالله ويعبدون الملائكة ويقرأون الزّبور ويصلّون إلى الكعبة، أخذوا من كلّ دين شيئًا».

قال الكلبي: «هم قوم بين اليهود والنّصارى يحلقون أوساط رؤوسهم ويجبّون مذاكرهم درجوا وانقرضوا ولم يبق منهم أثر».

مطلب غريب

والأقاويل المذكورة غير متمانعة في الحقيقة لجواز كونهم بحسب الأزمان والحوادث المختلفة الآراء والأحوال كما يشاهد في كلّ الملل والأديان اختلفوا في حكم هذه الآية ومعناها فلهم فيه طريقان: أحدهما أراد بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على التّحقيق وعند التّصديق فمنهم من قال: هم الذين آمنوا بعيسى ثمّ لم يتهوّدوا ولم يتنصّروا ولم يصبؤوا وانتظروا خروج محمّد ﷺ. وقال آخرون: هم طلّاب الدّين عرفوا قرب ظهور محمّد وانتظروه منهم: حبيب النّجار وقيس بن ساعدة وزيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وأبو ذرّ الغفاري وسلمان الفارسيّ وبحيرا الرّاهب ووفد النّجاشيّ، وقيل منهم أفلاطون اللّدني فإنّه كتب كتابًا إلى نبيّنا محمّد ﷺ: «إنّي آمنت بكم وأُخبرت عن مقدمكم وحقيقة دينكم فآمنت بكم وبما جئتم به»، وكتابًا إلى عليّ كرّم الله وجهه: «إنّ علم الحرف وقاعدة الجفر كان عندنا غير تامّ وإتمامه موقوف على ظهور الإسلام وسعيكم واهتمامكم».

ونقل أنّ عيسى عليه السّلام بعث إليه ودعاه إلى الإيمان فكتب في جوابه: «إنّك لتكميل النّواقص ونحن لا نحتاج إلا نبيّ آخر الزّمان».

وطريق الإخوان أنّ الحكم بإيمانهم إنّما هو بالمجاز والتّسمية.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ [البَقَـرَة: 63] قد مرّ معنى الميثاق اسم الطور الجبل المخصوص وهو في الأصل اسم جنس الجبل بالسّريانيّة فغلب

استعماله في الجبل المخصوص فصار علمًا له ولما واعد موسى بعد هلاك فرعون لقومه بكتاب فيه الأحكام والإعلام بصلاح الدّنيا والآخرة فطلبوا منه فأخذ موسى منهم العهد والميثاق إذا جاء به لهم اعتمدوا بأحكامه وتمسّكوا به فقبل القوم منه فلمّا نزل نقضوا عهدهم لما فيه من الأحكام الشّاقّة والأعمال الثّقيلة الشّاذّة الداقّة فوق الطّاقة فأمر الله جبريل فقلع الطّور من أصله ورفعه مظلمًا فوقه على قدر عساكرهم فرسخًا في فرسخ على قدر مجمعهم لا على ما كانوا عليه فإنّه كان اثني عشر ميلًا وظهرت نار من قبل وجوههم والبحر المالح من خلفهم وقلنا لهم ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ بجدّ ومواظبة على ما أمرتم ﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ [البَقَـرَة: 63] أي احفظوا واعملوا بما فيه من الأحكام الأصليّة والأعلام الفرعيّة، وفي حرف الجرّ بكسر الكاف مشدّدة من الافتعال وفي حرف عبد الله (تذكّروا) من التّفعّل أي انفضّوا واذكروا بما قبلتم في مقام ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ﴾ [الأعـراف: 172] ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البَقَـرَة: 63] وتضربوا نفوسكم من هلاك الدّنيا وعقاب الآخرة فلمّا أيسوا من الهرب وأنِسوا بالمطلب وقبلوا ذلك وسجدوا حرفًا ووضعوا جبهتهم على الأرض طرفًا ليلاحظوا الجبل فصارت هذه الهيئة في اليهوديّة سنّة فإنهم لا يسجدوا إلا على أنصاف جباههم وأطراف وجوههم وأعراف أشفاههم وفوهِهم فلمّا رأوا الجبل قالوا يا موسى سمعنا وأطعنا ولولاه ما أطعناك.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم﴾ أي اعترضتم وأضربتم ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ العهد ولم يوفّوا بما جرى بينهم من الميثاق، أي منّ الله وعطفه وعنايته الأزليّة ﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾ الامتنانيّة بتوفيقكم لطلب التّوبة وبتأخير العذاب عنكم والعقوبة ﴿لَكُنتُم﴾ وصرتم ﴿مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [البَقَـرَة: 64] اي المغبونين المعاقبين بأشدّ العقاب وأشدّ العذاب.

«لو» عند سيبويه خبره واجب الحذف لدلالة الكلام عليه وسدّ الجواب مسدّ فاعل فعل محذوف.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾﴾

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى﴾ رعاية يوم ﴿ٱلسَّبْتِ﴾ اللّام لتوطئة القسم، الاعتداء التّجاوز عن الحدّ أي تجاوزوا ما جدّ لهم من المواظبة على العبادة وتعظيم يوم السّبت، والموصول مع الصّلة مفعول علمتم أي والله لقد علمتم المتجاوزين منكم من رعاية يوم السّبت وتعظيم السّبت ومصدر بمعنى القطع، وذلك أنّهم كانوا في زمن داوود عليه السّلام في أرض يقال لها أبله حرّم الله عليهم صيد السّمك يوم السّبت وكان إذا دخل يوم السّبت لم يبق حوت في البحر إلا اجتمع هناك فإذا مضى السّبت تفرقن إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعًا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم، فعمل منهم جماعة أن حفروا حول البحر حياضًا وشرعوا منها إليها أنهارًا فإذا كان عشيّة الجمعة فتحوا تلك الأنهار فأقبل الموج الحيتان في الحياض فلا يطقن الخروج عنها، فإذا كان يوم الأحد أخذوا وفعلوا ذلك أيّامًا وشهورًا وأعوامًا ولم ينزل عليهم عقوبة فقست قلوبهم وكثرت فيهم ذنوبهم وتعنّت وجوههم وتسوّدت غيوبهم واشتهرت نقائصهم وعيوبهم وكانوا قريبًا من سبعين ألفًا وقد نهاهم داوود عنه، وافترقوا ثلاثة أصناف: صنف أمسكوا وانتهوا عنه، وصنف أمسكوا ولم ينتهوا، وصنف انتهك، فلمّا امتنع المجرمون عن قبول النّصح قال النّاهون لهم: والله لا نساكنكم في قريةٍ واحدةٍ فقسّموا القرية وعبّروا على ذلك مدّة فلعنهم داوود وغضب الله عليهم، فخرج النّاهون ذات يوم ولم يخرج المجرمون عن بيوتهم ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة: 65] جامعين ثبت صورة القرد مطرودين خائنين من الخسوء وهو الصّغار والطّرد والخرس ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون: 108].

﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿فَجَعَلْنَٰهَا﴾ أي صيّرنا العقوبة أو القصّة ﴿نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ أي عقوبةً وعبرةً ونصيحةً لما قبلها وما بعدها لتثبت قصّتهم في زبر الأوّلين والآخرين

﴿وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البَقَرَة: 66] أي نصيحةً وعبرةً للمؤمنين الكاملين خَلقًا وخُلُقًا عند اشتهار هذه القصّة بتواتر أثر الأخبار وتخصيص الوعظ بالمتّقين إشعار بأنّ قبول النّصح والاعتبار مشروط بالتّقوى.

إشارة وتأويل

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إلى آخره إشارة إلى ما تقرّر في قانون الحكمة من أنّ كلّ ما يشير إليه العقل له أربعة وجودات: وجود في نفس الأمر، ووجود في الذّهن في اللّفظ، ووجود في الكتابة.

أمّا الأوّل: فإشعار إلى الوجود العلميّ.

والثّاني: إلى الوجود الغيبيّ الذهنيّ الرّوحيّ.

والثّالث: إلى الوجود اللّفظيّ الشّبحيّ البرزخيّ والرّابع إلى الوجود الكتابيّ الملكيّ الجسميّ، وأيضًا إشعار بمقتضى الأدوار المذكورة التي هذه الأمور الأربعة من مقتضياتها وهي الدّورة العظمى النّوريّة والكبرى والوسطى والصغرى من آمن بالله واليوم الآخر إيماء إلى أنّ من استكمل في الأدوار المذكورة جامعًا لمقتضياتها في النّشأة الجامعة البشريّة ﴿وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البَقَرَة: 62] من عذاب القطيعة ولا هم يحزنون على فوت الحالة المنتظرة في هذه الأدوار.

قال الصّادق رضي الله عنه: «الإيمان هو الولاية الإلهيّة ولا مدخل فيها إلا من آمن بالله من الشّقاوة والعزل»

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ﴾ أي عهودكم في هذه المراتب وأدوارها ليجامعوا آثار أحكام هذه الأدوار في النّشأة الجامعة العنصريّة والمرتبة البشريّة ﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ الجبل جلال الله وطور جماله وظلّ لطفه ولا يستظل بظلّه إلا من ألقى الدّنيا وآثر العقبى وخالف الهوى، والمراد من الجبل هو الطّور العالي والطّور هو الطّور القلبي، فلا يدخله إلا حبيب الله وكليمه.

قال الصّادق عليه السّلام: «الجبل جلال الله والطّور حجاب الله لا يدخله إلا حبيبه وكليمه».

﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم﴾ أي ما أعطيناكم وأنعمناكم وأفضلناكم ومنحناكم من

التّجلّيات الآثاريّة ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي بنفسٍ زاكيةٍ وقلبٍ صافٍ قويٍّ لا يتقلّب إلى جانب النّفس ﴿وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ أي هذا التّجلّي من الجمال الذي شاهدتّموه في الفطرة الأولى ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البَقَـرَة: 63] ويتصرّفون خائفين عن شهود ما سواه ﴿ثُمَّ تَوَلَّيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۖ﴾ التّجلّي والتّذكّر بما فيه ﴿فَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾ [البَقَـرَة: 64] أي قضاؤه السّابق، ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ﴾ الخطاب للقوى الرّوحانيّة والمعتدّ من همم القوى النّفسانيّة الذين خاضوا في بحر التّجلّي الآثاري لصيد سمك التّوحيد الآثاري أو جلاء مرآة القلب وكمال صفاته ليتجلّى فيها ذلك الجمال ولا ينعكس فيها غيره فلمّا حدّ لهم رجوعهُ ﴿فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البَقَـرَة: 65] القردة هي الانغماس في التّقليد والتّقييد فلا يشاهد منّه ولا إفضاله، والخاسئ هو الذي لا يذكره، والمعتدي هو الذي لا يتبرّا عمّا سواه.

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٦٧﴾

أوّل هذه القضيّة قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا﴾ [البَقَـرَة: 72] وإنّما فكّت عنها وتقدّمت عليها لاستقلالها بنوع آخر من مساوئها وهو عدم الامتثال بأمر الله وعدّهم هزوًا وهي السّخرية والتّمسخر ﴿أَن تَذۡبَحُواْ﴾ [البَقَـرَة: 67] على تأويل المصدر المنصوب مفعول يأمر اتّخذ لتضمّنه معنى الجعل يتعدّى إلى مفعولين وقد يحذف أحدهما كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ﴾ [البَقَـرَة: 51] أي آلهةً هزاءً مفعول ثانٍ له، ﴿أَنۡ أَكُونَ﴾ على تأويل المصدر مجرور بتقدير ﴿مِنَ﴾ أي أعوذ بالله من كوني من ﴿ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [البَقَـرَة: 67] أي من ثبوت الجهل في هذا الأمر.

والقصّة أنّه كان في بني إسرائيل رجل كثير المال له ابن أخ لا مال له فقتله ليرث ماله وطرحه على باب المدينة وجاء إلى موسى عليه السّلام وادّعى على رجل فسأله: هل لك حجّة، قال: لا، فاشتبه الأمر على موسى، هذه هي القسامة نزلت في التّوراة فطالب بديّته فأمر الله أن يذبحوا بقرة ويضربوه ببعضها ليحيا فيخبر عمّن هو قاتله.

﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ ٦٨﴾

﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ﴾ [البَقَرَة: 68] أي حالها وصفتها وكان الحقّ أن يقولوا أيّ بقرة هي أو كيف هي لا أن يسألوا عن جنسها، والحقيقة أنّهم لمّا أمروا بها على حال لم يوجد شيء من جنسها أجريت مجرى ما لم يوجد إلا واحدة عينها أو لم تعرف حقيقتها لانتفاء الرّؤية بمثلها، ولو أنّهم عمدوا في أوّل الأمر إلى ذبح أيّ بقرة لأجزت عنهم لكنّهم شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم، وتشديدهم كان لمصلحة وحكمة وهي ما ذكر السّدي وغيره أنّ رجلًا في بني إسرائيل كان بارًّا بأبويه وبلغ من برّه أنّ رجلًا أتاه بلؤلؤة فباعها بخمسين ألفًا وكان فيها فضل، فقال البائع: إنّ أبي نائم ومفتاح الصّندوق تحت رأسه فأمهلني حتّى يستيقظ، قال: أيقظ أباك واعطني المال، قال: ما كنت أفعل ولكن أزيدك عشرة آلآف فانظرني حتّى يتنبّه أبي، فقال الرّجل: أنا أحطّ عشرة آلآف إن أيقظته وعجّلت الثّمن، فقال: وأنا أزيد عشرين ألفًا إن انتظرت انتباه أبي، ولم يوقظ أباه ولأجل ذلك جعلت تلك البقرة عنده.

وقال ابن عبّاس ووهب وغيرهما: "كان في بني إسرائيل رجل صالح وله ابن طفل وكان له عجل فأتى بالعجل إلى غيضته وقال: اللهم إنّي استودعك هذه العجلة لابني حتّى يكبر ومات، فلمّا كبر الابن بارًّا بوالديه وكان يصلّي ثلث اللّيل وينام ثلثه ويخدم أمّه ثلثًا آخر ويجلس عند رأسها ويتحطّب بالنّهار على ظهره ويتصدّق بثلث بيعه ويأكل الثّلث الآخر ويعطي الثّلث لأمّه، فقالت له أمّه: إنّ أباك ورّثك عجلةً فانطلق إليها وادع إله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق أن يردّها عليك، وإنّ من علامتها كذا وكذا، فلمّا أتى الغيضة فرآها ترعى فصاح وقال ما قالته أمّه فأقبلت حتّى قامت بين يديه فقبض بعنقها وقادها، قالت له: اركبني، قال: ما قالت أمّي، فجاء بها الفتى إلى أمّه، فقالت له: إنّك فقير فانطلق وبع هذه البقرة بثلاثة دنانير ولا تبعها بدون رضائي، وكان ثمن البقرة في ذلك اليوم ثلاثة دنانير، فانطلق بها الفتى إلى السّوق فبعث الله ملكًا ليرى كمال قدرته فقال

له الملك: بكم بقرتك، قال: بثلاثة دنانير بشرط رضاء أمّي، فقال له الملك: لك ستّة دنانير ولا تستأمر أمّك، قال: لا ولو تعطيني بوزنها ذهبًا، فأتى أمّه واستشارها، قالت له أمّه: هذا الرّجل ملك قل له أنبيع هذه البقرة أم لا، فقال الملك: اذهب وقل لها أمسكي هذه البقرة فإنّ موسى بن عمران يشتريها منك ولا تبعها إلا بملئ مسكها دنانير.

﴿قَالَ﴾ موسى ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الله ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ أي لا كبيرة ولا صغيرة، قال الأخفش وأبو عبيدة: الفارض الكبيرة المسنّة التي لا تلد، لعمري لقد أعطيت ضيفك فارضًا وإنّما سمّيت به لأنّها فرضت سنّها أي قطعت وبلغت أجلها ﴿عَوَانٌۢ﴾ يصف ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ بين الفارض والبكر فإنّه لا يضاف إلا إلى متعدّد وتأويل ذلك بتأويل ما تقدّم وما ذكر من بين ذلك وأجزاء هذه الصّفات عليها يدلّ على أنّ المراد بها معينة ويلزمه تأخير البيان عن وصف الخطاب ومن أنكر ذلك زعم أنّ المراد بها بقرة من شقّ غير مخصوص بسؤالهم ويلزمه النّسخ لعدم احتياج العين إلى البيان قبل العقل فإنّ التّخصيص إبطال التّأخير الثّابت بالنّص والحقّ جوازهما ويؤيّد الرأيّ الثّاني ظاهر اللّفظ والمروي عنه عليه السّلام: «**لو ذبحوا أيّ بقرة أراد لأجزى لكن شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم**».

قال: «**أعظم النّاس جُرمًا من سأل عن شيء لم يحرّم فحرِّم لأجل مسألته**».

عن عمر بن عبد العزيز: «فإذا أمرتك بشيء فلا تراجعني لأنّ الخاطر الأوّل رحمانيّ».

قال صاحب الكشّاف: فإن قلت كانت البقرة التي يتناولها الأمر بقرة من شقّ البقر غير مخصوصة ثمّ انقلبت مخصوصة بلون وصفات فذبحوا المخصوصة فما فعل الأمر.

قلت: رجع منسوخًا لانتقال الحكم إلى البقرة المخصوصة والنّسخ قبل الفعل جائزًا على أنّ الخطاب كان لإبهامه متناولًا له فكذلك إذا وقع عليها بعد التّخصيص.

﴿فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ﴾ [البَقَرَة: 68] من ذبح البقرة بلا تكرار السّؤال.

﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ ۝٦٩﴾

﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ﴾ ما استفهاميّة اسم مبتدأ خبره لونها وقرئ منصوبًا يبيّن وما صلة ﴿قَالَ إِنَّهُۥ﴾ أي الله ﴿يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ﴾ صافٍ ﴿لَّوْنُهَا﴾ صفراء خبر بعد خبر ﴿تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ﴾ [البَقَـرَة: 69] إليها أي بهجة الفقوع نصوع الصّفرة ولذلك يؤكّد به فيقال أصفر ناصع كما يقال أسود هائل وفي إسناده إلى اللّون وهو صفة صفرة لملابسة بها فصل تأكيد كأنّه قيل صفراء شديدة الصّفرة صفر بها.

﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ۝٧٠﴾

﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ﴾ وفي تكرار السّؤال مزيد استكشاف لكمال الاشتباه بناء على أنّهم قريبو العهد من استخدام الفراعنة الذي هو الشّبه ومظانّ الرّيب ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ اعتذار عنه لأنّ البقر الموصوف يشابه غيره في الصّفة، وقرئ أنّ الباقر وهو اسم لجماعة البقر والأباقر والبواقر ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البَقَـرَة: 70] إلى البغية وذبحها أو إلى القاتل، وفي الحديث: «**لو لم تستثنوا لم تهتدوا إليه أبدًا**».

واحتجّ أصحابنا على أنّ الحوادث بإرادة الله وأنّ الأمر لا ينفكّ عن الإرادة وإلا لم يكن للشّرع بعد الأمر منه معنى، والمعتزلة استدلّوا إليه بهذه الآية على حدوث الإرادة.

أجيب بأنّ التّعليق لا نفس الصّفة.

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝٧١﴾

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ﴾ [البَقَـرَة: 71] غير ذلول من الذّلّة وهي الهوان

والصّغار أي لم تذلّل للحرث وسقي الحروث ﴿تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾ وتسقها ﴿وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾ بيان لها فالأولى بمعنى غير والثّانية صلة ويجوز أن يعطف على ذلول وحينئذٍ لا تكون صلة والفعلان على الأوّل صلة ذلول وعلى الثّاني، الأوّل صفةً له والثّاني للبقرة ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ مخلّاةً وطبيعتها سالمة عن العيوب ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ لا لون فيها يخالف لون جلدها وهي في الأصل مصدر وشى يشي وشيةَ إذا خلط بلونه لون آخر سوى الصّفرة فهي صفراء كلّها.

﴿قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالوصف الثّابت لها المختصّ بها لا يشاركها فيه بقرة أخرى، ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ فيه اختصار ﴿وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ من أفعال المقاربة وضع لدنوّ الخبر حصولًا فإذا دخل عليه النّفي قيل معناه الإثبات مطلقًا، قيل إذا كان ماضيًا والصّحيح أنّه كسائر الأفعال ولا ينافي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [البَقَـرَة: 71] فذبحوها لاختلاف وقتها إذ المعنى ما قاربوا أنّ غلاء ثمنها أو لحوق الفضيحة في ظهور القاتل فإذا انتهت أسئلتهم وانقضت تعلّلاتهم التجأوا إلى ذبحها، وإنّما أمر الله بذبح البقرة دون غيرها تحقيرًا لما اعتقدوه إلٰهًا فيما مضى لكونها تطفّلًا لمصالح العباد مع كمال توفّر فيها وعظمها ثمنًا.

إشارة وتأويل

﴿أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً﴾ [البَقَـرَة: 67] أي النّفس اللّوامة الغير الطّائعة الأمّارة التي هي الضّارّة المهلكة للصّواب والفجور والتّقوى وهي مظهرها، وأمّا اللّوامة فمظهرها السّباع الذي هو حيوان سمائي كالحيّة والعقرب فإن أطاعت القلب وعملت بأمره صارت ملهمة للصّواب والفجور والتّقوى ولهذا أمر الله بقتل الأولى وتربية الثّانية بقطع كثرة الأكل والشّرب الذي يسلّط سلطنة القوّة البهيميّة والسّبعيّة عليها واستيلاء القوّة السّبعيّة.

قال الصّادق رضي الله عنه: «من تقرّب إلى الله بعُدَ عن مراد نفسه وطبع البقريّة ومن عاد قلبه عن محبّة الله بعُدَ عن هدايته إلى ولايته وعزله عن صفات ربوبيّته ولم يجد إلى ربّه سبيلًا ولا إلى مآبه دليلًا وصار في الأمر ذليلًا وعند الله غريبًا».

﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ ولمّا كانت البقرة مشتركة مبهمة سألوا عمّا هو يستحقّ القتل والذّبح والقتيل هو القوّة العاملة الرّوحانيّة المستخدمة للقوّة النّظريّة التي قتلتها النّفس الأمّارة وجذبتها إلى مقتضى سجيّتها وطبعها ليريها نقود المعارف الحسيّة الخسيسة المتعلّقة بالذّات البهيميّة والشّهوات النّفسانيّة وتملّل القوة النّظريّة وتجذبها للاستخدام في إدراكات المنافع ومضارّها وخطاب الأمراء إنّما هو للقوى الرّوحانيّة، وإنّما جعلوا ذبحها هزاء لكونهم مستأنسين بقوى النّفس الأمّارة والجنود الفرّاعة ولذا استبعدوا ذبحها واستكثروا السّؤال وتعلّلوا في ذبحها ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ [البَقَـرَة: 68] أي لا راسخ في النّقور ولا ذات ثبات في القبور يعني لا فرعونيّة قديمة فارّة ولا موسومة حديثة قارّة بل متوسّطة بينهما قابلة لأن تعمل ﴿صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ [البَقَـرَة: 69] أي صافٍ ظاهرها عن دنس الكفر الفرعونيّ وباطنها مشحون به فإنّ في صورتها سلامة وفي باطنها خيانة وجناية وملامة، خدعت بصورتها النّاظرين السّالكين فإذا استولت صولة الرّوح على فرعونيتها وانقلبت بالكليّة من النّفس الفرعونيّة إلى الرّوح الموسويّة واستعدّت لأنّ يسرّ النّاظرين ظاهرها وباطنها ويتجلّى لها الحق من عين الجمع وزيّن سرّها وعلانيّتها ﴿لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾ أي عاجزة قد نسي عجزها ونشى أزهارها من تشحّم الأرض الاستعداديّة ومن سعى حرث حبوب المعارف الإلهيّة والإدراكات النّظريّة ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ لا مبذولة في العبوديّة ولا معمولة في دار عمارة المحنة ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ [البَقَـرَة: 71] شية أي علامة وسمة عليها لأحد من الجانبين لاتّحاد وجهها إلى الأحديّة الجمعيّة وقبلتها الحقيقيّة.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَءْتُمْ فِيهَا وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ [البَقَـرَة: 72] خوطبت الجماعة لوجود القتل فيهم وكون القسامة بين الكثير ﴿فَٱدَّٰرَءْتُمْ فِيهَا﴾ أي تخاصمتم في شأن النّفس واختصمتم أو تدافعتم لأنّ المتخاصمين يدرأ بعضهم بعضًا أي يدفع المطروح عليه على الطّارح أصله تدارأتم ثم أدغمت التّاء بعد انقلابها دالًا في الدّال واجتلبت الهمزة ﴿وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البَقَـرَة: 72] التّاء وإعماله لكونه حكاية عن مستقبل في وقت

التّدارُئ كما حكى الحاضر في قوله ﴿بَٰسِطٌ ذِرَاعَيۡهِ﴾ [الكهف: 18] وهذه الجملة اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه أي ادارأتم.

﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٧٣﴾

﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ﴾ أي النّفس باعتبار الشّخص أو القتيل أو الإنسان ﴿بِبَعۡضِهَاۚ﴾ أي ببعض البقرة أيّ بعض كان، وقيل بأصغريها أو فخذها اليمنى أو عُجزها، وقيل هذا أولى لأنّ العصعص هو أساس البدن الذي ركّب عليه الخلق وأنّه أول ما يخلق وآخر ما يفنى أو العظم الذي يلي الغضروف وهو أصل الأذن أو البضعة بين الكتفين، فضربوه فحيَّ فحذف ذلك لدلالة قوله ﴿كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ روي لمّا ضربوه قام بإذن الله وأوداجه تستجيب في القيامة والخطاب مع من حضر حياة القتيل أو نزول الآية، ويريكم آياته الواضحة ودلائله النّاطقة على عظمته وكمال علمه وقدرته ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [البقـرة: 73] أي ليفطّن عقولكم بأنّ من قدر على إحياء نفس واحدة قادر على إحياء الأنفس كلّها لعدم الاختصاص حتّى لا ينكروا البعث ولعلّه تعالى إنّما لم يحييه ابتداءً وشرط فيه ما شرط في البقرة لما فيه من المنافع والفوائد والتّنبيه على فضل التّوكّل والشّفقة على الأولاد والمسارعة إلى الامتثال بأمر الله من غير تعلّل وتفتيش وكثرة سؤال، والدّلالة على بركة برّ الوالدين فإنّ ما به التقرّب ينبغي أن يكون أحسن وأحب للنّفس ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ٩٢﴾ [آل عمران: 92] وإنّ النّسخ قبل الفعل جائز وإن لم يجز قبل وقت الفعل وإمكانه، وإنّ فعل الخلق قد يسبّب بأمور لا يتصوّر منها أثر وغير ذلك.

وفي الكشّاف: وليعلم أنّ المؤثّر هو المسبّب لا الأسباب لأنّ الموتين الحاصلين في الجسمين لا يعقل أن يتولّد منهما.

أقول: هذا مخالف في الظّاهر مذهبه فإنّ أفعال العباد مخلوقة للعباد إذ ما سوى الله أسباب لظهور أفعاله وهو أظهر.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾ التعقّل والقساوة عبارة عن الغلظة مع الصّلابة كما في الحجر وقسوة القلب ووصف القلوب بها مثل بنوها عن الاعتبار حبس الاعتقاد وإنّ الوعظ لا يؤثّر فيها ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي إحياء القتيل أو جميع ما عداه من الآيات فإنّها توجب لين القلب ﴿فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ﴾ في قسوتها ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ يعني أنّ القلوب في القساوة مثل الحجارة أو زائد عليها كالحديد معطوف على الحجارة إمّا على معنى مثل أو أشدّ قسوة فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، ويؤيّده قراءة الأعمش بنصب الدّال عطف على الحجارة.

﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ تعليل للتّفصيل ومن للتّبعيض واللّام للتّأكيد وما موصولة يعني بعض الحجارة يتأثّر وينفعل ولا محالة يخرج منه الماء كالحجارة المضروبة بالعصا كما مرّ ذكره، ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾ كحجر موسى ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ﴾ ويتنزّل من العلوّ إلى السّفل طلبًا لخيره الطّبيعيّ بأمر الله وبقدره وحكمه ﴿مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ كان لها إدراك ما يلائمها ويناسبها ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقـرة: 74] عن عملهم أو معمولهم.

﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾

(*)﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ﴾ ويطلقوا الخطاب للرّسول والمؤمنين أي تقترحوا أن يحدث اليهود الإيمان مع تكامل قسوة قلوبهم وانهماكهم في الغيّ والضّلالة والحال أنّه ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ﴾ وطائفةٌ ﴿مِّنْهُمْ﴾ فيما سلف ﴿يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ أي التّوراة ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾ [البقـرة: 75] ويغيّرون ما أنزل به من نعت محمّد ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ وأدركوا حقيقته وما حكم به من أنّه الرّحم وممّا

(*) نصف الجزء.

اختاره إسماع كلام الله في الطّور في الأوامر والنّواهي ثمّ قالوا بعد السّماع أنّ الله قال في آخر كلامه: إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا وإن شئتم فلا تفعلوا ولا بأس بعد الفهم والضّبط بعقولهم لم يحنث لم يبق لهم شبهة في صحّة أن يتركوا ما لم يستطيعوا ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: 75] أنّهم حرّفوه بعد العلم وأنّهم كاذبون مفترون فيما قالوا يعني أنّ حال أخيارهم ومقدّمهم وأخبارهم ومعلّمهم هذا فما ظنّك بسفلتهم وجهّالهم.

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا
وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا
فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ يعني منافقو اليهود إذا لقوا المؤمنين وهم أبو بكر وأصحابه قالوا آمنّا كإيمانكم وشهدنا كما شهدتم وأنتم على حقّ وصدق وأنّ محمّدًا صادق نجده في كتابنا نعته وصفته ﴿وَإِذَا خَلَا﴾ ورجع ﴿بَعْضُهُمْ﴾ غير مدّعي الإيمان ﴿إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ وهو كعب بن الأشرف وكعب بن أسد ووهب بن يهوذا وغيرهم من رؤساء اليهود يعني إذا رجع المنافقون الذين كانوا على الكفر ثابتين عليه متمكّنين لديه من الكافرين والمشركين ﴿قَالُوٓا۟﴾ أي التّائبون عن الكفر ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ وهو أنّ محمّدًا حقّ وقوله صدق.

وقال بعضهم إنّ من المؤمنين إذا لاقوا قرينه وصديقه وحليفه من اليهود فسألوهم عن محمّد وحقيقة دينه يقولون: إنّه حقّ ودينه موافق لما في كتابنا، وإذا رجعوا إلى رؤسائهم منعوهم عن التّحدّث عن ذلك بأنّكم إن تحدّثوهم بشيء ﴿لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ﴾ ليخاصموكم ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾ أي ليخاصموكم به ويغلبوا عليكم في الدّنيا والعقبى ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البَقَرَة: 76] من تمام كلام الله أي ليس لكم عقل يتعقّل مضارّ الكلام ومنافعه أو خطاب من الله للمؤمنين متّصل بقوله: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ [البَقَرَة: 75] والمعنى أفلا تعقلون يا معشر المسلمين مال اليهود كبارهم وصغارهم ليقطعوا أرحامكم من إيمانهم فالهمزة الأولى تقريع وتوبيخ والثّانية إنكار ونهي.

﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾

﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني اليهود منافقين كانوا أو موافقين على الكفر ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة: 77] أي يخفون ويظهرون الكفر والإيمان.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾ أي بعض اليهود لا يحسنون القراءة و﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ معاني ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي التّوراة المحرّفة ليطالعوه ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: 78] استثناء منقطع جمع أمنية وهي في الأصل ما يقدّره الإنسان في نفسه من منى وكذلك يطلق على الكذب وعلى ما يتمنّى ويقرأ والمعنى أنّهم يعتقدون الأكاذيب قد أخذوها تقليدًا من المحرّفين قراءة العامّة بتشديد الياء بعضهم مخفّفة إحدى اليائين وهي ياء الجمع.

قال أبو حاتم: كلّ جمع واحد مشدّد فلك فيه التّخفيف والتّشديد مثل أماني وأغاني وغيرها.

اختلفوا في معنى أمانيّ، قال الكلبي: لا يعلمون إلا ما يحدّثهم به علماؤهم. وقال بعضهم: تلاوة وقراءة عن ظهر قلب، ولا يرونها في الكتب إلا إذا تمنّى ألقى الشيطان في أمنيته أي قراءته، أو الأحاديث و[قال] أبو العالية: يتمنّون على الكذب والباطل ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: 80]، ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: 111].

﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: 78] أي ما هم إلا قوم يظنّون يختصّون بالظنّ لا علم لهم وقد يطلق العلم على كلّ رأي واعتقاد من غير قاطع وإن جزم به صاحبه كاعتقاد المقلّد، والرّابع عن الحقّ يشهد.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ
هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم
مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾

﴿فَوَيْلٌ﴾ [البقرة: 79] الأصل فيه أنّه مصدر لا فعل له بمعنى الهلك والخسر

وإنّما ساغ الابتداء به نكرة لأنّه ربّما من قال أنّه وادٍ في جهنّم أو جبل فمعناه أنّ فيه موضعًا يتبوّء ويسكن فيه من جعل له الويل، ولعلّه سمّاه بذلك مجازًا.

قال رسول الله ﷺ: «**الويل وادٍ في جهنّم يهوي الكافر فيه أربعين خريفًا**».

﴿لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البَقَرَة: 79] أي المحرّفون ولعلّه أراد به كتبوه من التّاويلات الزّائغة والتّوجيهات الباطلة، بأيديهم تأكيد من خلوص مجاز التّأكيد كما يقول لمن ينكر معرفة ما كتبه: هذا كتبته بيمينك هذه.

﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا﴾ أي المحرّف ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي ليستبدلوه به ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من التّغيير والتّبديل والتّحريف وغيره من الآثام ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا﴾ كانوا ﴿يَكْسِبُونَ﴾ [البَقَرَة: 79] من الرّياسة وغيرها ممّا يتفاخر فيه والتّكرار إشارة إلى أنّ تفضيح حالهم تقبيح من حقّهم ومآلهم بحيث لا يزول عنهم بوجه بل يتكمّل ويثبت بكمال التّكرار وبثبات التّكثار ففيه كمال تقرير وغاية تصوير.

﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾

﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾ المسّ اتّصال الشّيء بالبشرة بحيث تتأثّر الحاسّة عند اللّمس كالطّلب له، ولذلك يقال: لمسته لم أجده، ﴿إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ محصورة قليلة، روي أنّ بعضهم قالوا بعدد أيّام عبادة العجل أربعين يومًا وبعضهم قالوا مدّة الدّنيا سبعة آلاف سنة، فكلّ سنة يوم فالمجموع سبعة أيّام. ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا﴾ أي خبرًا أو وعدًا ﴿فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ﴾ ميثاقه ووعده جواب شرط محذوف فهمزة الاستفهام إذا دخلت على ألف الوصل جاز إثباتها وقلبها ألفًا وإسقاطها اكتفاءً على الاستفهام ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: 80] أم إمّا معادلة لهمزة الاستفهام بمعنى أي أنّ أحد الأمرين كائن على سبيل التّقرير لأنّ العلم واقع بكون أحدهما ويجوز أن تكون منقطعة بمعنى بل.

﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨١﴾

﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ [البَقَرَة: 81] بلى وبل حرف استدراك ولهما معنيان نفي الخبر الماضي وإثبات المستقبل والفرق بين بلى ونعم أنّ بلى لجواز إقرار بعد جحد وإنكار، ونعم جواب إقرار بلا جحد فإذا قلت: ألست كذا، فيقول: بلى، وإذا قال: لم أفعل كذا، يقول: بلى، وإذا قلت: فعلتَ كذا، فتقول: نعم. قال الله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: 172] ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ٨ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [المُلك: 8-9] ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّاۖ قَالُواْ نَعَمْ﴾ [الأعراف: 44] ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ١٦ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ١٧ قُلْ نَعَمْ﴾ [الصَّافات: 16-18] وإنّما قال ههنا بلى للجحود الذي قبله وهو ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾ [البَقَرَة: 80] السّيئة القبيحة أو الشّوكة.

الكسب جلب النّفع المحقّق أو المظنون أو الموهوم وتعليقه بالسّيئة من قبيل ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ﴾ [آل عِمران: 21].

﴿وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ [البَقَرَة: 81] أي استولت عليه واشتملت جميع أحواله حتّى صار كالمحاط بها لا يخلو عنها شيء من جوانبها، هذا إنّما يصحّ في شأن الكفّار، فإن قلت: من الكفّار من كان له أنواع طاعات وأصناف عبادات وخيرات، قلتُ: أصل الطّاعات والخيرات وأساسها الإيمان بالله وبالرّسول وبما جاء به من عنده فمجرّد الإيمان بالله غير كافٍ لأنّه وإن كان مؤمنًا عند الله إلا أنّه كافر في الشّرع فالإيمان الفطري والإسلام الأوّليّ الذي أشار إليه النّبيّ ﷺ بقوله: «**كلّ مولود يولد على فطرة الإسلام**» وأن تجيء عن النّار الجسمانيّ وإمّا عن النّار الروحانيّة فلذلك الأرواح كلّهم أظلال الرّوح المحمديّ فمن لم يؤمن به ولم يعرفه يكون محجبًا عنه فيكون معذّبًا بنار القطيعة وبالبواري المنيعة فيحترق بمجمرة الهجران وبنائرة الحرمان على ما يقتضيه الفناء الحصّة الشّرعيّة. نعم من كان له تصديق قلبيّ بالكلّ دون الإقرار مقرونًا بالطّاعات أو غير مقرون فالإحاطة في حقّه مرفوعه كما في حقّ أبي طالب حيث قال مقاتل: "هي الذّنوب المحيطة

كلّ من عمل ذنبًا ارتفع حتى يغشى القلب ويأخذه بمجامعه ودنسه في ظلمة الطّبيعة إلى أن بلغ مقام الرّين". قيل: هي الخطيئة الغالبة على الطّاعة بالقلب.

واعلم أنّ ههنا أربعة أحوال: الخطيئة المحيطة المحضة، والعبادة المحضة، والمساواة والمخلوط الغالب أحدهما، فالمحيطة هي الأولى يدخل صاحبها في النّار خلد فيها أم لا، فالمخلّد هو الشّرك والكفران ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النِّساء: 48] النساء: إذ القلوب بالكفر والذنوب تتكدّر وتتظلّم بحيث انتفى عند التّقدّس الأصليّ فلم يبق بينه وبين الحقّ وعالم القدس مناسبة فيطلبها وكدورتها ينجذب إلى ما يناسبها وهو النّار ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ ملازمون لها غير منفكّين عنها لزوم اكتساب السّيئات واختلاف الذّنوب والخطيئات في الدّنيا ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البَقَرَة: 81] دائمون أو لابثون لبثًا طويلًا والآية كما ترى لا حجّة فيها على خلود صاحب الكبيرة فيها ولا التي قبلها.

إشارة وتأويل

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ﴾ [البَقَرَة: 75] خطاب لقوى النّفس المطمئنّة أي يرجون من هذه القوى الطّبيعيّة والنّفس الأمّارة وتوابعهما الإيمان بالله ودخولهما في الجنّة ورجوعها إلى ربّها والحال أنّه كان فريقٌ منهم يسمعون كلام الله الذي سمعوا منه في مقام ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 172] ثمّ يحرّفونه من بعد أن علموا أنّ هذا المسموع في الأزل إنّما هو من الله.

قال الصّادق عليه السّلام: من يطمع في لقاء الله فليفرغ قلبه لمناجاة الله وليطلق وجه الهوى إلى الوجه الأوّل وغلبة العقل الصّريح فإنّه غفلة عن الخفاء وعلم بالمولى أو ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ انتكسوا عن الفطرة الأولى وهي الإسلام بالاقتداء بآثار الآباء، "**كلّ مولودٍ يولد على فطرةِ الإسلام**" الحديث، أو ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ﴾ فريق كانوا في فرداريّة اسم غير فرداريّة اسم يديركم ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ [الكافرون: 1 - 2] الآية ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البَقَرَة: 14] إشارة إلى النّفس اللّوامّة المتعلّقة تارةً إلى شياطين النّفس الأمّارة وأخرى إلى النّفس المطمئنّة النّاطقة ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ

مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ [البقرة: 77].

قال الصّادق عليه السّلام: «العلانية بساط الكرامة والسّرّ بساط الوصلة والعلم به مائدة الولاية والدّيانة مع الله وأيّ نعمةٍ أفضل من نعمة الدّيانة».

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي من القوى العاقلة ليس لهم علم نظريّ بالكتاب أي بظاهر العالم المعنويّ والصّوريّ إلا بطريق التّقليد والتّبعيّة كما أنّ القوة النّظريّة المتشبّثة بأذيال الوهم لا يدرك باطن الكتاب وغيبه إلا بطريق التّبعيّة والتّقليد لا بالعيان أو البرهان ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: 78] أي لا يعلمون علمًا حضوريًّا شهوديًّا كما يشاهد القوة العمليّة باطن الكتاب وحقيقته وهو الذّات والأسماء والصّفات ويمكن أن تنزل الآية على مراتب القوّة النّظريّة العقليّة وهي العقل الهيولاني والعقل بالملكة والعقل بالفعل والعقل بالمستفاد وكذا أعلى مراتب القوّة العمليّة وهي التّزكية والتّجلية والتّخلية والتّحلية، ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: 79] أي القطيعة ثابتة للقوّة السّالكة إلى الله إذا تقيّدت بما لها من الإدراكات المكتسبة بيدي فكرهم ونظرهم أو العمل ثمّ نقول هذا من عند الله ولم يشاهد الله ولا اتّصاله به، هذا عامّ يشمل كلّ من سلك وسار إلى الله ولم يشاهد كلّيته وإحاطته الجمعيّة واتّصال الكلّ به ولم يفن من وجوده في وجوده ولم يبق ببقائه ولم يتحقّق بأخلاقه وكليّته ليشتروا به ثمنًا قليلًا أي ليستبدلوا ما لهم في قواهم واستعدادهم بما لهم في الظّاهر من الكمالات الحسيّة الجزئيّة والحقائق الإلهيّة والمعارف الحقيقيّة الغير متناهية بالإدراكات الجزئيّة الوهميّة الطبيعيّة الرسميّة واعتكفوا عليه وتقيّدوا به وقالوا ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: 80] إمّا أربعين بإزاء مراتب الحقيقة الإنسانيّة ومنازلها أو سبعة بإزاء مبادئ حقيقته وأجزائها الأوّليّة وهي الأسماء الذّاتيّة والصّفات الرّبانيّة فإن تقيّد الإنسان بكلٍّ منها في الحقيقة قطيعةً له عن الجمعيّة الأسمائيّة وإحاطة الأدوار الرّبانيّة لما عرفت أنّ غاية مقاصد كلّ أحد ونهاية شاهد كلّ جزء وفرد أن يتحقّق بالكليّة الإحاطيّة والجمعيّة الأسمائيّة ويتخلّق بتمام الكمالات بالانصاف بجميع الأسماء والصّفات وأن ينطوي بمقتضيات كلّ الدّورات ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ [البقرة: 81] كلّ ما شغلك

عن ربّك فهو سيّئة وإن كان في الظّاهر طاعة وفي الصّورة عبادة وإطاعة، وهذا لا يتصوّر إلا في حقّ من يقيّد بمرتبةٍ وحالٍ ومقامٍ وهو بعيد عن الله ونار القطيعة في حقّه ولذا قال أصحاب النّار ولم يقل في النّار.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾

قد جرت عادة الله سبحانه وتعالى وعده بوعيده ليرجى رحمته ويخشى عذابه وعقوبته وعطف العمل على الإيمان دليل على خروج العمل غير مسمّاة وفيه بحث إذ يجوز أن يكون من وادي ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البَقَرَة: 238] والخلود فيها لامتناع الخروج عنها إذ ما به الخلود وهو التّقلّص لازم ذاتيّ للقلب دون التّدنّس فإنّه عارض وما بالذّات لا يزول بالعرض والعرض لا يبقى زمانين فامتنع الخلود في النّار إذ النّفوس كلّها مجبولة على الطّهارة والتّقدّس «**كلّ مولودٍ يولد على فطرة الإسلام فأبواه يهوّدانه ويمجّسانه وينصّرانه**».

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ إخبار من معنى المنهيّ عنه الذي هو الخطيئة إمّا واحد بالاستقلال وهو الشّرك أو متعدّد وهو السّيئات والخطيئات وهي في المعنى إنشاء وهو نهي عبوديّة غير الله، أي لا تعبدوا غير الله وفي اللّفظ إخبار لأنّ لا للنفيّ بقرينة ثبات النّون وفي اللّفظ إخبار ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا﴾ [البَقَرَة: 233] وهو أبلغ من الصّريح لما فيه من إيهام وإنّ المنهيّ أسرع إلى الانتهاء ويعضده قراءة (لا يعبدوا) بحذف النّون. وعطف قوله وقولوا للنّاس فيكون على عطف إرادة القول.

أقول: ﴿لَا تَعْبُدُونَ﴾ [البَقَرَة: 83] إذ في النّهي عنف وفي الإخبار كرم

ولطف إذ النّفوس متفاوتة في قبول النّصح ألا يرى قوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ [يس: 22] ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ﴾ وقيل تقديره: (أن لا تعبدوا).

قال صاحب الكشّاف: أخذ إجراء مجرى القسم كأنّه قيل وإذا قسمنا عليهم لا تعبدوا، ويمكن أن يجعل أن المقدّرة مفسّرة.

﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا﴾ متعلّق بمضمر ويحسنوا أو أحسنوا والثّاني أحسن لأنّه عطف إنشاء على إنشاء والأوّل عطف الإخبار على الإنشاء .﴿وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ [البقرة: 83] عطف على الوالدين، لا تعبدوا ينافي جمع يتيم وهو طفل لا أب له، والمسكين هو الصّحيح المحتاج.

قال الفقهاء: الفقير هو الذي لا مال له ولا كسب وقع موقعًا من حاجته ولا يخرجه عن الفقر المسكن والثّياب وأحواله الغائبة إلى مسافة القصر وديونه المؤجّلة ولا يشترط الدّيانة والتّعفّف عن السّؤال ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ﴾ [البقرة: 273] والمسكين هو الذي لا يملك من المال ما يقع موقعًا من حاجته أو يقدر على كسب لا يكفيه.

﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ [البقرة: 83] يتبيّن لكيفيّة النّصح وتعيين لطريقته أي يبالغوا في النّصيحة ولا يغلطوا في الموعظة على وجه يكبّهم على [الفضيحة] والعار والعصبية ويذبهم على الحميّة الجاهليّة ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النّحل: 125] هذه الآية تشتمل على جميع أقسام الحكمة العمليّة والنّظريّة ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: 44] وتنبيه على كيفيّة المعاشرة مع أهل المنزل، فالآية حكمها عامّ وإن كان موردها خاصًا لعدم اختصاصها ببني إسرائيل، قال عليه السّلام: «**إنّ اللّه أوجب الإحسان في كلّ شيء حتى الذّبح فإذا ذبحتم فأحسنوا الذّبح فحدّوا شفرتكم**». وقرئ (حُسُنًا) بضمّ الحاء والسّين فيكون نعتًا للقول وبفتح الحاء والسّين، وإحسانًا أيضًا وحسنى، وهو مصدر كبشرى، أي قولوا قولًا حسنًا في أيّ شيء يخوضون فإن سألوا منك من نعمة محمّد وصفته فقولوا ما هو حقّ

وصدق وقس باقي الأحوال.

قال محمّد من الحنيفة: هذه الآية [مشتملة] للبرّ والفاجر. قال الثّوريّ: أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البَقَرَة: 43] هذه الأمور كلّها ثابتة في دينهم بيان وتفسير للميثاق ﴿ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ [البَقَرَة: 64] أعرضتم عنا بعد إعطائكم العهد والميثاق ﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ﴾ أي نفرًا وهم أقاموا قبل النّسخ على اليهوديّة ومن أسلم منهم، والخطاب وإن كان مع الموجودين منهم في عهد الرّسول ﷺ إلا أنّ الحكم لا يقصر عليهم بل يعمُّ الجميع إلى يوم القيامة ﴿وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ﴾ [البَقَرَة: 83] والحال أنّكم قوم من شيمكم الإعراض عن قبول الحقّ لكونه ثابتًا في طباعكم وعادتكم ثابتًا بالأرض في رضاعكم.

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٨٤﴾

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ﴾ أي لا يتعرّض بعضكم لبعض بسفك الدّماء وبالإجلاء عن الأوطان وإنّما أضاف الدّماء إلى السّفك لاتّصاف بعضهم بعضًا نسبًا وأصلًا ودينًا فكأنّهم نفس واحدة، وقيل إذا قتل غيره فكأنّما قتل نفسه لأنّه يقتصّ منه.

قيل: معناه لا ترتكبوا ما يبيح حدّ سفك دمائكم وإخراجكم من دياركم ولا تفعلوا ما يردّكم ويصرفكم عن الحياة الأبديّة فإنّه في الحقيقة القتل، ولا تفترقوا إلى ما تمنعوا به الجنّة التي هي دياركم الأولى وهو وطنكم الأصليّ.

قال عليه السّلام: «**حبّ الوطن من الإيمان فإنّه الجلاء الحقيقي**».

﴿ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ﴾ بالميثاق واعترفتم على أنفسكم بلزومه ﴿وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ﴾ [البَقَرَة: 84] على أنفسكم، يقال: فلان مقرّ على نفسه بكذا أي شاهد عليها حال مؤكّدة، وقيل: ﴿وَأَنتُمۡ﴾ أيّها الموجودون ﴿تَشۡهَدُونَ﴾ على إقرار إسلامكم، فيكون إسناد الإقرار إليهم مجازًا.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي أنتم بعد ما ذكر هؤلاء المشاهدون استبعادًا لما ارتكبوه بعد الميثاق والإقرار به والشّهادة عليه مبتدأ وخبر أي أنتم بعد ذلك هؤلاء النّاقصون كقولك: أنت ذلك الرّجل الذي فعل كذا وكذا، نزّل تعبير الصّفة منزلة الذّات وعدّهم باعتبار ما أسند إليه حضورًا وباعتبار ما سيحكى عنهم غيبًا ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ﴾ جملتان حالتان والحال فيهما معنى الإشارة أو بيان للجملة السّالفة أو هؤلاء مبتدأ وهذه الجملة خبره أو موصول صلته الجملة المذكورة، منكم صفة فريقًا، ﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم﴾ حال من فاعل يخرجون، يظاهرون أصله يتظاهرون وهو التّفاعل من الظّهر، قرئ بالتّشديد، قلبت التّاء ظاءً وأدغمت بالحذف والإثبات، وتظهّرون بمعنى يتظهّرون بمعنى أخذهم آباءَهم ظهرًا وقوّةً ونصيرًا ﴿بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ حال من فاعل يخرجون أو فاعل يتظاهر أو من مفعوله وهو عليهم أي جعلوا ادّعاء الإثم والعدوان حجّة عليهم لإخراجهم ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ﴾ قرئ تفدوهم ويفادوهم، وأسرى وأسارى، رُوِيَ أنّ القريظة كانوا حلفاء الأوس والنّضير حلفاء الخزرج، وإذا تقاتلا عاون كلّ فريق حلفاءه، وإذا غلب أحدهما الآخر خرّبوا ديارهم وأخرجوهم منها، فإذا أُسِر رجل من الفريقين اتّفق الحلفاء حتّى يفدونه، فعيّرهم العرب بذلك وقالوا ما القتال وما الفداء هذا فقالوا: إنّا قد أمرنا بأن نفدي لهم وحرّم علينا قتلهم، قالوا: لِمَ يقاتلونهم؟ قالوا: إنّا نستحي أن نستذخل حلفاءنا فغيّرهم الله عليهم، وفي الآية تقديم وتأخير، ويخرجون فريقًا منكم يظاهرون عليهم بالإثم والعدوان ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ وإن يأتوكم

أسارى تفادوهم مع أنّ الله أخذ عليهم أربعة عهود: ترك القتال والإخراج وترك المظاهرة وفداء أساريهم، فنقضوا العهود الثّلاثة وأوفوا بالرّابع وهو محرّم عليكم إخراجهم وهو إمّا عائد إلى الإخراج المذكور ضمنًا فيكون مبتدأ أو محرّم خبره، فإخراجهم تأكيد للضّمير في محرّم وبيان له أو للشّأن وإخراجهم مبتدأ محرّم خبره مقدّم عليه أو مبهم يفسّره إخراجه، فقال الله تشنيعًا عليهم:

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ قيل يستعملون البعض ويتركون البعض الآخر، وهو جمع أسير نحو سكرى وسكارى وكسالى وكسلى، وقرئ أسرى بضمّ الألف وسكون السّين مثل جرح وجريح ومرض ومريض وندمى ونديم وضرعى وضريع ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ﴾ أي إخراج البعض وترك البعض أو فداء البعض وترك البعض أو الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعضه ﴿مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ﴾ وعذاب وهو أنّ الخِطَاب لليهود في الحياة الدّنيا خزي بني قريظة: القتل والسّبي، وخزي بني النّضير: الجلاء والنّفي عن منازلهم وديارهم إلى أذرعات وأريحا من الشّام، وضرب الجزية على غيرهم من متعلّقهم، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ [البَقَرَة: 85] وهو عذاب النّار في السّعير وأشدّ من ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝﴾ [الهُمَزة: 6 - 7] وهي نار التحسّر والنّدامة في النّشأتين لكثرة عصيانهم وشدّة طغيانهم ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البَقَرَة: 85] من أعمال البعض وترك البعض.

إشارة وتأويل

إنّ الذين آمنوا أي شاهدوا الله أوّلًا في مرتبة برزخ البرازخ وهو نهاية الأحدية واللّاهوت ويلزمانه الواحديّة والجبروت وهذا الشّهود ضمنيّ يحصل للعارف الفاني الباقي في شهود الذّات للذّات بعنوان الذّات وهو على خمسة أوجه: الأوّل شهود مطلق الذّات بعنوان الذّات، الثّاني شهود الذّات المطلق، الثّالث شهود الذّات المخصوص بعنوان الإطلاق، الرّابع شهود الذّات بعنوان مطلق القيد، الخامس: شهود الذّات بعنوان الجمعيّة الإطلاق والقيد ثمّ إنشاء شهود، فالأوّل منشأ العوالم الخمس، والثّاني وهو شهود مطلق الذّات مبدأ المراتب الأولى مبدأ الأحديّة واللّاهوت في مرتبة العلم ثمّ في مرتبة الوصف

العلميّ ثم الحسيّ بعنوان القدرة ثم بعنوان الإرادة وهكذا إلى الكلام ثمّ في مرتبة الغيب أوّلًا بعنوان العقل ثم بعنوان النّفس والرّوح ثم بعنوان الشّبح ثم بعنوان امتداد النّفس الرّحمانيّ، أوّلًا في المرتبة الرّوحيّة ثمّ في المرتبة الشّبحيّة والنشأة البرزخيّة حتّى دخلوا في عالم الشّهادة واحتجبوا الحجب الأبديّات أي أحكام الآثار عن مشاهدة الأسماء والصّفات والذّات كما كانوا محتجبين بنقاب الأزليّات ثم بنقاب الأوليّات شهود الذّات عند مشاهدة أنوار الأسماء والصّفات من الشؤونات الذّاتيّة والنّسب والإضافات الأوّليّة.

قيل: إنّ النّجاة في سعادة الأزل لا في الطّاعات إذ ليس فيها إلا امتثال الأمر على ما في الأزل ولذا قيل: عناية الأزل كتابة الأبد. وأمّا ما قيل: إنّما الأعمال بالخواتم فهو باعتبار الأزل، أولئك هم الواصلون إلى الرّضوان الأكبر وهو الزّيادة في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26].

الجنّة أربعة: جنّة العابدين، جنّة الآثار وهو من جنس مطاعم الدّنيا ولذّاتها، وجنّة الأفعال وهي جنّة الأخيار الواصلين إلى فناء أفعالهم في أفعال الحقّ وفازوا بتوحيد الأفعال في نهاية الملكوت الأعلى كما كان الأوّل في وسط عالم الملكوت، وأمّا أدنى عالم الملكوت فهو مرتبة السّعير، وأمّا الثّالث وهو جنّة الصّفات الذّاتيّة والأسماء الأوليّة فمختصّ بالواصلين بعالم الجبروت الفانين عن صفاتهم في صفات الحقّ، الرّابع جنّة الذّات وهي جنّة العارفين الّذين فنوا عن خصوصيّة الذّات والأسماء والصّفات والأفعال وآثار الأجسام.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [البقرة: 83].

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي ميثاق القوى الإلهيّة والكونيّة الرّوحيّة والبدنيّة في مقام العهود الأزليّة في ذوات الأسماء الذّاتيّة ﴿لَا تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: 83] في المرتبة الجمعيّة البشريّة إلا الذّات الإلهيّة الجامعة لجميع الأسماء والصّفات فإنّ في كلّ قوّة من القوى بل في كلّ جزء من الأجزاء البدنيّة إمكان الاتّصاف لكمال الكلّ ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى

جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ [الفَجر: 28 - 30]، أي القوّة الفاعليّة والقابليّة ﴿إِحْسَانًا﴾ أي اقبل آثارهما قبولًا حسنًا وحالًا ورجوعًا ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ إشارة إلى مرتبة الإرشاد والتّكميل داخلًا كتحسين الأوصاف وتبديل الأخلاق وخارجًا كتربية السّالكين وتأديب المرشدين وتهذيب نفوس المتكلّمين وإن كانوا في الحقيقة واحدة.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ أي استبدلوا الباقية بالفانية بأن بدّلوا الباقية وأخذوا الفانية وبدّلوها بعوضها ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾ في الدّنيا بنقصان الجزية وخسران المال وكسر الحومة وتغيير الأحكام عليهم ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ [البَقَرَة: 86] في الدّنيا والآخرة بمنع العذاب عنهم بسبب اتّساع الهوى وترك الهدى في الدّنيا.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۖ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾ أعطينا موسى ﴿مُوسَى الْكِتَابَ﴾ التّوراة ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ أي أرسلناه قفًا رسولًا بعد رسول، من التّقفية، يقال قفاه إذا اتّبعه من القفاء نَحو ذنبته، ثم أرسلنا رسلًا تترى وهم يوشع وأشمويل وشمعون وداود وسليمان وشعيب وأرمينا وعزير ودانيال وحزقيل وإلياس واليسع ويونس وزكريّا ويحيى وجرجيس وغيرهم ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ [البَقَرَة: 87] العلامات الواضحات والدّلالات اللّائحات كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والإخبار عن الغيب ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصَّف: 6] والإنجيل. قيل: كان بين عيسى وموسى عليهما السّلام أربعة آلاف نبيّ، وقيل: سبعين ألف نبيّ والله أعلم، وكان بين عيسى ويحيى ستّة أشهر، فعيسى أكبر منه بهذا القدر وهو ابن خالته وقد آمن يحيى بعيسى في بطن أمّه وكانت أخت مريم تقول لمريم

إنّ من بطني من يتكلّم بمن في بطنك ويؤمن به ويحنّ إليه حنينًا حال كونه جنينًا.

﴿وَأَيَّدْنَهُ﴾ قرّبناه قرئ وأيدناه بالمدّ ومنه أخذنا بالجيم إذا قرأه. يقال: الحمد لله الذي أوجدني بعد ضعف و[أغناني] بعد فقر. ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِۗ﴾ [البَقَرَة: 87] فيه لغتان السّكون والحركة كالرّغب والسّحب فإن كان اسمًا من أسماء الله تعالى فأضاف الرّوح إليه للتّعظيم كقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحِجر: 29]، ودار السّلام وبيت الله وعبد الله وإن كان مصدرًا بمعنى الطّهارة فتكون من إضافة الموصوف إلى الصّفة أي الرّوح المقدّس كما يقال: حاتم الجود ورجل صدق فوصفها بالقدس كما وصفها بالاختصاص في روح منه، ونفخنا فيها من روحنا لأنّه لم يتضمّنه أصلاب العجولة ولم يشتمل عليه أرحام الطوامس من الجواري والكهولة بل كان أمرًا من أمر الله كما كان آدم عليه السّلام ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ﴾ [آل عِمرَان: 59].

قال بعضهم: هو جبريل، قال الحسن: القدس هو الله وروحه هو جبريل إذ أنزله عامًّا وخاصًّا على أنبيائه.

وقال بعضهم: هو اسم الله الأعظم وبه كان عيسى يحيي الموتى ويري النّاس عجائب المعجزات.

وقيل: هو الجبل وإنّما سمّي به كما سمّي القرآن روحًا ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾ [الشّورىٰ: 52].

﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ﴾ يا يهود ﴿رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ﴾ مما لا تحبّ ولا توافق ولا ترضى، يقال: هوي بالكسر يهوي إذا مال وأحبّ وبضمّ الهاء هو السّقوط، وسّط بين الباء وما تعلّقت به وهو المعطوف عليه وهو رسول وأنبياء، همزه للتّوبيخ والتّعجّب على تعقيبهم ذلك بهذا، ويجوز أن يريد: ولقد آتيناهم ما آتيناهم ففعلتم ما فعلتم ثمّ وبّخهم على ذلك، فدخول الفاء لعطفه على المقدّر فحينئذٍ المعنى: ولقد آتينا بني إسرائيل ما آتيناهم فكلّما جاءكم رسول بما لا تهوى ﴿أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان وتعظيم واستكبرتم من الاقتفاء بأثره جواب كلّما، ﴿فَفَرِيقًا﴾ وزمرةً ﴿كَذَّبْتُمْ﴾ سمّيت به لافتراقها من الجملة ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البَقَرَة: 87] كزكريّا ويحيى وشعيبًا حكي أنّه بعد قتل شعيبًا قتلوا ثلاثمائة نبيّ في

يوم واحد لاتّباعهم هوى النّفس لا هدى القدس وإنّما كرّر لفظ المستقبل حكايةً عن الحال الماضية استحضارًا لها في النّفوس واستقرارًا في القلوب وللدّلالة على أنّكم كآبائكم مستمرّون على حالة الاستكبار ومقالة الاستنكار إذ أنتم تحرصون حول قتل محمّد ولذلك سخرتم وسمّمتم وهو في كنف عصمتي.

﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾

﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ جمع أغلف كحمر وأحمر وقيل أصله غلف بضمّتين جمع غلاف فخفّف أي هي في الأصل الحلقة مغطاة بأغشية لا يتوصّل إليها، ما جاء به محمّد، فإنّ قلوبنا أوعية لكلّ علم ومعارف وحكم، فلو كان فيه علم وحكمة لتعيه أذن واعية ثم ردّ الله أن تكون قلوبهم كذلك لأنّها خلقت على الفطرة السّليمة والتّمكّن عن الحقّ انتكسوا عنها واسّتحقّوا بأن لعنهم وخذلهم بسبب كفرهم ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ أي ليس الأمر على ما دعاهم لما خلقوا على الفطرة الإسلاميّة والتّمكّن من قبول الحقّ كما قال عليه السّلام: «**كلّ مولود يولد على فطرة الإسلام فأبواه يهوّدانه ويمجّسانه وينصّرانه**» أي بعّدهم الله عن لطفه وولايته بسبب كفرهم وجريانهم على خلاف مقتضى الفطرة الأولى وتصبيغهم إيّاها وإن كان ذلك على مقتضاها أيضًا ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البَقَرَة: 88] أي إيمانًا قليلًا أو لمّا كان الأمر كذلك فأنت تجد قليلًا منهم يؤمنون بمحمّد وبما جاء به إذ من آمن من المشركين لخلوّ قلوبهم من التّقييدات الفاسدة والتعصّبات الباطلة والتّسويلات العاطلة أكثر ممّن آمن من أهل الكتاب المحرّف، وإذ قد تكون القلّة طريق العدم جاز أن يكون المراد منها العدم إذ جهل المشركين بسيط وجهل اليهود مركّب، وهو أردأُ أمراض النّفوس سيّما إذا استحكم وصار طبيعة ثابتة ودنيا وطبيعة نامية امتنع زوالها ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ [المطفّفِين: 14].

إشارة وتأويل

﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَـٰرَىٰ﴾ خطاب إلى أطوار القلب ومقتضيات أدوار الغيب، نعني إذا استولى جيوش قلوبكم على جنود أنفسكم وعلى أنوار مبادئ نقائصكم وعيوبكم في مواطن البواطن وغيوبكم وجعلهم ﴿أُسَـٰرَىٰ تُفَـٰدُوهُمْ﴾ ويرحمونهم

ويخلّصونهم عن مذلّة الأسرة النّفسانيّة بإلباس خلع الأخلاق المرضيّة والهيئات الملكيّة ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ [البَقَرَة: 85] عن أطوارهم الأصليّة ومنازلهم الجبليّة وأماكنهم المعيّة إشارة إلى كيفيّة الإرشاد وشرائط التّكميل، يعني أنّ الله تعالى لما عيّن في سابق قضائه أن يكون للطّبيعة القلبيّة والحقيقة الإلهيّة الإنسانيّة في كلّ مرتبة من المراتب طور من الأطوار كما قال: ما لكم لا ترجون لله وقارًا وقد خلقكم أطوارًا وحكم بأن يكون في في المرتبة الأولى مطيعة ومطاوعة لما في المرتبة العليا من الأطوار الأعلى وعهد بها على أن لا يخرج أعيان كل مرتبة من مقتضيات تلك المرتبة وطورها ما دام في فرداريّة ترتيبها وطورها وما منّا إلا له مقام معلوم كما مرّت الإشارة إليه في سورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝﴾ [الكافِرون: 1]، فإنّ لها في المرتبة الغالب طورًا وفي مرتبة النّفس طورًا ومرتبة الصّدر والقلب طورًا وهكذا في مرتبة السّرّ والفؤاد والرّوح الخفيّ وغيب الغيوب أطوارًا مخصوصة وأنوارًا منصوصة ولله في كلّ مرتبة إلهيّة خاصّة وربوبيّة ماصّة، فالواجب على المرشد الكامل المكمّل أن يراعي في كلّ مرتبة مقتضاها ويعطي كلّ ذي حقّ حقّه إلى أن يسعى في تحصيل المرتبة الملكية ويرفض مقتضيات مرتبة النّفس البهيميّة والشّيطانيّة فإنّه يسدّ باب الرّبانيّة ويردّ معاقد النّواميس الإلهيّة كما ورد في الحديث: «**ما منكم إلا وله شيطان واحد**، قالوا: وإيّاك، قال: **وإياي إنّ شيطاني قد أسلم بيدي لا يأمرني إلا بالخير**». ويمكن أن يجعل إشارة إلى كيفيّة مقتضيات الأدوار فإنّ مقتضى دورة كلّ اسم [من الأسماء] الأربعة عند انقضائها وانتقال الفرداريّة إلى اسم آخر منها يكون أعيان ومقتضيات ذلك الاسم الساري في حكم هذا الاسم على ما فضل في أطوار القلب ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الكونيّة والإلهيّة كالمراتب العالية الملكيّة وأطوار التّجليّات الرّبّانيّة ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ كالمراتب النّازلة والأطوار النّفسيّة الشّيطانيّة كما هو مقتضى طور السّائرين إلى الله ومن الله ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ﴾ الأمر المذكور ﴿مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [البَقَرَة: 85] الجامعة لجميع الأطوار جمعيّة الدّنيا ما في المرتبة العليا والسّفلى ومقتضيات تمام الأطوار في مرتبة السّير في الله. قيل: إن يأتوكم أسارى الشّوق وسكارى العشق والذّوق ترحمونهم بأصوات معلّقة

وأقوال مرقرقة تفادوهم براية الصّفات وتشغلونهم عن رؤية الآيات وأيضًا إن يأتوكم أسارى ظلمة الكفر تفادوهم وتدركونهم بأنوار المعرفة.

قال بعضهم: إن يأتوكم أسارى غرقى [في] بحر الذّنوب تفادونهم على طريقة التّوبة، هذا ويمكن أن يقال: إنّ القوى العمليّة إذا غلبت على القوى النّظريّة واقترفوا الإدراكات الكسبيّة والمعارف الإلهيّة النّظريّة ملفوفة بلفائف الصّور الذّهنيّة تفدونهم بنزع الصّور وبتخليصهم عن القيود إلى الإطلاق ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي استبدلوا بواطن الدّنيا ومعانيها وهي الآخرة والتّجليّات الذّاتيّة والصّفاتيّة والأفعاليّة والآثاريّة والصوريّة الجمعيّة الإلهيّة والكونيّة في الأدوار النّوريّة والأكوار الظليّة الوجوديّة والأطوار الشهوديّة الباقية بظاهرها وصورتها الفانية ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ [البَقَرَة: 86] التردّد في النشآت أو المعارف العمليّة وهي العلوم الحضوريّة الشّهوديّة بالمعارف والإدراكات النّظريّة وهي العلوم الحصوليّة.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي الطور الرّوحيّ كتاب التّجليات الأفعاليّة وأعطينا عيسى أي الطّور الخفيّ ببيّنات التّجليات والأسماء الذّاتيّة والصّفات الأوليّة وأيّدناه بروح القدس أي التّجلّي الذّاتي ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ﴾ [البَقَرَة: 87] أي تجلّي ذوقيّ وعلم لدنيّ وتجلّي شوقيّ عشقيّ على وجه ﴿بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ﴾ لا تناسب بطوره كما جرى بينه وبين الطور الخفيّ الخضريّ ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ٧٨﴾ [الكهف: 78] ﴿ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾ عن قبوله ﴿فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ﴾ وهي القوّة العمليّة المستخدمة بالقوّة النّظريّة كالأخلاق المرضيّة والملكات الفاضلة أي الأطوار الخفيّة الخضرويّة كذّبتموها ﴿فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ﴾ [البَقَرَة: 87]أي أعرضتم عن قبول الأسرار الإلهيّة والتّجليات الذّاتيّة الذّوقيّة ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ﴾ [البَقَرَة: 88] أي قالوا أصحاب المرتبة الأدنى لأعيان المراتب العليا قلوبنا وحقيقة أطوارنا مسدودةً بما آتاه الله لنا وخصّصه بنا لا يتجاوز عنه لكم دينكم ولنا ديننا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا﴾ [المائدة: 105]، ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي أبعدهم وطردهم ﴿بِكُفۡرِهِمۡ﴾ بما كفروا به واستتروا به من المرتبة الجمعيّة والجنّة الكليّة الإحاطيّة ﴿فَقَلِيلٗا مَّا

﴿يُؤْمِنُونَ﴾ [البَقَـرَة: 88] أي أنّ المؤمن الكامل والعارف الفاضل يميل إلى كمال الجمعيّة بحيث يحتوي على مقتضيات جميع الأدوار وما تنطوي هي عليه من الأدوار الجزئيّة والكليّة غير المتناهية ولا يصدّ من إحاطته إلا شيء قليل وهو المطلب الأعلى والمقصد الأقصى من الاتّحاد وسلوك العباد ليوم التّناد.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ يعني القرآن ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أي التّوراة صفة كتاب وجواب لما محذوف أي كفروا وكذّبوا واستهانوا به يدلّ عيه جواب لما الثّانية، وقرئ مصدّقًا حال من الفاعل ﴿وَكَانُواْ﴾ أي بنو إسرائيل ﴿مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي يستنصرون على المشركين قبل ظهور الإسلام قائلين: اللهم انصرنا بنبيّ مبعوث آخر الزّمان منعوت في التّوراة والإنجيل والفرقان، أي وقد آن أوان بعثه إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح فإنّهم قالوا لأعدائهم المشركين قد حان زمان سيحيا بمقدم نبيّ يصدقنا وينصرنا عليكم فنقتلكم ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ﴾ حسدوا بغيًا ﴿بِهِۦۚ﴾ يعني بمحمّد ﷺ من غير بني إسرائيل من أولاد إسماعيل خوفًا من زوال ما في أيديهم من الرّياسة وتناول ما يحصل من السّياسة وقد وقع ذلك بأبلغ وجه وأوجه منهج وإذا كان ذلك ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البَقَـرَة: 89] ووضع المظهر مقام المضمر إشعارًا بأنّ ما به اللّعنة هو الكفر فتكون اللّام للعهد ويجوز أن تكون للجنس فتدخلون فيه دخولًا أوّلًا لأنّ الكلام فيهم.

﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾

﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ [البَقَـرَة: 90] هو ونِعْمَ فعلان ماضيان وضعا

للمدح والذّم لا يتصرّفان تصرّف الأفعال وهما رافعان للاسمين أحدهما على الفاعليّة والآخر على كونه مخصوصًا بالمدح أو الذّم، وما نكرة موصوفة منصوبة بمعنى شيء يفسّره فاعل بئس المستكنّ فيه والمخصوص بالذّمّ ﴿أَن يَكْفُرُواْ﴾ [البَقَـرَة: 90] واشتروا صفته ومعناه باعوا واشتروا بحسب ظنّهم فإنّهم ظنّوا أنّهم خلّصوا أنفسهم من العقاب بما فعلوا.

قيل: بئس الذين اختاروا لأنفسهم حيث استبدلوا الباطل بالحقّ والكفر بالإيمان أو بئس ما باعوا به أنفسهم ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ البغي هو الفساد، يقال: بغى الجرح إذا امتدّ وفسد ومفعول ينزل محذوف وهو القرآن والفضل هو الوحي أي كتابًا موافقًا لما تقتضيه الحكمة الإلهيّة والمشيئة الأزليّة وهي النّبوّة، ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ [البَقَـرَة: 90] أي صاروا أحقاء بغضب متعاطف وسخط مترادف بكفرهم بمحمّد بعد عيسى وقيل بعد قولهم: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التّوبَـة: 30] وقولهم ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المَـائدة: 64] وغير ذلك من أنواع الكفر وحسدهم ظنّ هو أفضل ما خلق ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البَقَـرَة: 90] أي مذلّل ومحقّر أي يتهاونون فيه ولا يقررون وهذا مثال ما تقدّم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي القرآن وكلّ منزل ﴿قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ وهو التّوراة مع أنّهم خالفوه وكفروا به أيضًا لانتفاء عملهم بما فيه ولأنّ كفر المصدّق مستلزم كفر المصدّق به ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ حال من الضّمير في قالوا ردّ عليهم وتكذيبهم لأن يكفر ما وراءه بعنيه تكفير له لما فيه من الأمر بالإيمان به ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم﴾ [آل عِـمـرَان: 81] الآيـة ﴿وَرَآءَهُۥ﴾ في الأصل مصدر بمعنى السّوى والغير جعل ظرفًا [فحينئذٍ] يضاف إلى الفاعل ويلاحظ فرداريّة ما يتوارى به وهو خلفه أي يختفي بسببه وإلى المفعول فيرى ما يواريه وهو قدّامه ولذلك عدّه من الأضّداد ﴿وَهُوَ﴾ أي ما وراءه ﴿ٱلْحَقُّ﴾

الثّابت حال من مفعول يكفرون ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البَقَرَة: 91] حال مؤكّدة تتضمّن ردّ مقالتهم قل يا محمّد معترضًا.

إشارة وتأويل

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ اي لمّا ظهر كتاب التّجلّي الذّاتي للقوى العمليّة اليهوديّة والنّظريّة النّصرانيّة الذين كانوا في الفطرة الأولى على الإسلام والانقياد لهذا التّجلّي ﴿مُصَدِّقٌ﴾ أي موافق ﴿لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أي لما كانوا عليه في معاهد العهود الأزليّ ﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ﴾ أي قبل ظهور التّجلّي المذكور ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي على قوى النّفس الأمّارة وهي القوى الطّبيعيّة من الشّهويّة والغضبيّة والنّاميّة من النّشوء والنّماء وتوليد المثل وغير ذلك ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ﴾ أي التّجلّي الذي شاهدوه في مقام ألست بربّكم ﴿كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ بسبب استيامهم بالكفّار القوى النّفسانيّة ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البَقَرَة: 89] أي الطّرد والبعد عن الذّات الجامعة للكلّ الذين كفروا واشتروا التّجلّي الذّاتيّ الجامع لجميع التّجلّيات ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ [البَقَرَة: 90] **أحدهما**: فقدان ما عاهدوا عليه في المرتبة الأدنى.

والثّاني: فيما تقدّم في المرتبة العليا ﴿قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ أي بما يناسب مرتبتنا ومنزلتنا ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ [البَقَرَة: 91] أي غيره بخصوصيّة مرتبتهم من مشاهدة سائر المراتب وما فيها من المعارف الإلهيّة والأسرار الغير متناهية ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ وهم لفرط جهلهم بما معهم وبما وراءهم ما تفطّنوا بما لهم وبما لغيرهم ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ﴾ أي التّجلّيات التي ظهرت في مرتبتكم وغيرها من المراتب التي هي قبل مرتبتكم وكأيّن من آية يمرّون عليها وهم عنها معرضون ﴿وَهُوَ﴾ أي محمّد والقرآن ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الثّابت ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ حال مؤكّدة يتضمّن ردّ مقالتهم ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ﴾ أي قبل زماني أو نزول الكتاب عليّ ﴿كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البَقَرَة: 91] بما ادّعيتم من الإيمان ببعض وإنّما أسند عمل الآباء إليهم إشعارًا بأنّ الأمور التي من مناط الأعمال ينتقل من الأصل إلى الفرع كما قال عليه السّلام: «**الحبّ يتوارث والبغض يتوارث**».

﴿۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي الآيات التّسع: العصا واليدّ والجراد والقمل والضفادع والدّم وانفجار الماء من الحجر وانفلاق البحر وتفتق الجبل ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ إلهًا مقصودًا أو ربًّا معبودًا ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي يجيء الآيات المذكورة أو الذّهاب إلى الطّور وفيه بعد ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [البَقَرَة: 92] حال من فاعل اتّخذتم أي واضعين عبادة العجل في غير موضعه برفض الآيات ونبذ العلامات واعتراض بمعنى أنّكم قوم من شيمكم الظّلم والتّعدي عن الحقّ، أو تنبيه أنّ طريقتهم مع الأنبياء بعينها طريقة آبائهم مع موسى.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ وعهدكم بأنّه إذا جاءكم الكتاب فيه موعظة وتفصيل لكلّ شيء فاقبلوه، ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ وقلنا لهم ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾ وأعطيناكم وأنزلناكم فيه الأوامر والنّواهي أعني التّوراة ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي عقيدةٍ قويّةٍ وطويّةٍ صفيّةٍ لا يتطرّق عليها تزلزل ولا يطرأ إليه تململ ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾ سماع القلب وآذان الغيب لئلا يبقى فيه من الرّيب ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا﴾ قولك ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أمرك ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ [البَقَرَة: 93] أي خولطت وعرض فيها شراب حبّ العجل عوض الماء في أعماق البدن والأصباغ في الثّوب في اللّون وإنّما كرّر الميثاق والطّور تنبيهًا على كمال غفلتهم وسرعة تغيير عقيدتهم في المحسوسات فضلًا في المعقولات.

فإن قيل الفِرَق التي عبدوا العجل وتداخل في قلوبهم حبّ العجل قد استأصلوا واستهلكوا فلم يبق أحد منهم فكيف يصحّ قوله ﴿فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [البَقَرَة: 54]،

أجيب: بأنّ الحماقة العجليّة والكسالة العجليّة علّة سارية في الكلّ مرتكزة في طباعهم جارية فيهم برضاعهم ولهذا بادروا في تعبّدها وانكبّوا على عبادتها من غير تأمّل وارتكاب تحمّل وإنّما أضاف حبّ العجل إلى القلوب دون النّفوس والعقول لأنّ الحبّ متوسّط بين العلم والعمل كالقلب بين النّفس والعقل تنبيهًا على أنّ قلوبهم فاسدة لمتابعتها النّفوس ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ بسبب كفرهم وفساد قلوبهم متعلّق بالإشراب لأنّهم كانوا في الأصل مجسّمة وحلوليّة ولهذ استقرّ فيما سوّلهم السّامريّ ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ﴾ بالتّوراة لأنّه ليس في التّوراة عبادة العجل، فاعل يأمر والمخصوص بالذّم محذوف أي بئس الشّيء الذي يأمركم هو إيمانكم أو ما يعمّه وغيره من الأمور المعدودة فيما سلف فاعل مستكنّ بغيره، ما: نكرة منصوبة ما بعده صفتها ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 93] بها لما أمركم بهذه القبائح وما رخّص لكم فيها إيمانكم.

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً﴾ خاصّة بكم كما ادّعيتم نصبها على الحال ﴿مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ سائرهم أو المسلمين فالّلام للعهد ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ أي اطلبوا طلبًا مقرونًا بالتّمنّي ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: 94] في الدّعوى لأنّ من أتقن وجزم لأنّه من أهل الجنّة وأنّها مع نعيمها باقية والدّنيا وما فيها وما لها فانية حقيرة كدرة وأنّ الرّحيل منها إليها يتحقّق إشفاقها أنّه بحكم قضيّة العقل بالنّظر إلى الكلّ أنّ واجب التّخلّص إليها وتمنّي سرعة الوصول بها كما قال أمير المؤمنين عليّ كرّم الله وجهه: «لا أبالي إن سقطت على الموت أو سقط الموت عليّ»، وعن حذيفة أنّه كان يتمنّى الموت فلمّا احتضر قال: «حبيب جاء على فاقة ومحتاجًا ـ أي حال كونه محتاجًا إليه ـ لا أفلح من ندم على المنى».

قال عمّار بن ياسر بصفّين: "الآن آتي جنّة محمّد أو حزبه"، فكان كلّ أحد من العشرة يحبّ الموت ويحبّ الله سيّما علم أنها شاملة له لا يشاركه فيها غيره.

عن النّبيّ ﷺ: «**لو تمنّوا الموت لغصّ كلّ إنسان بريقه فإن كان ما بقي على وجه الأرض يهوديّ**».

﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾

والحال أنّهم ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي بسبب ما أسلفوا من موجبات النّار من الكفر بمحمّد وبما جاء به وتحريف كتاب الله وسائر أنواع الكفر والعصيان ولما كانت اليد العاملة المختصّة بالإنسان آلة لقدرته ومنها أكثر منافعه عبّر بها عن النّفس تارةً والقدرة أخرى، وهذه الجملة إخبار عن الغيب وكان كما أخبر بأنّهم لن يتمنّوا، اشتهر فإنّ التّمنّي ليس من عمل القلب ليخفى بل هو فعل الإنسان بأن يقول يا ليت لي كذا أو محال أن يقع التّحدّي بما في الضّمائر ولو كان بالقلوب لقالوا قد تمنّيناه في القلوب ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البَقَرَة: 95] تهديد وتنبيه على أنّهم ظالمون في دعوى ما ليس لهم وتقيّة عن أهوائهم.

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ﴾ اللّام للقسم من وجد يجد وجدًا يجري مجرى العلم مفعولاه هم واحرص وتنكير الحياة للتّنويع أي حياة متطاولة سواء كانت منغّصة أو منعمة ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ محمول على المعنى فإنّ من مقدرة في النّاس وإفرادهم بالذّكر لشدّة حرصهم فيها لانحصار سعادتهم عليها وفيه توبيخ عظيم وفيمن له كتاب إثبات الجزاء في العقبى التّوبيخ أعظم لكثرة حرصهم وشدّة تكالبهم عليها وإنّما زاد حرصهم على حرص المشركين لعلمهم بسوء عاقبتهم والمشركون لا يعتقدون الآخرة، ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [البَقَرَة: 96] إخبار عن حالهم، لو للتمنّي بمعنى ليت أعمّر فأجري على الغيبة.

قيل: المراد من المشركين المجوس لأنّهم كانوا يقولون لملوكهم عِش ألف نوروز وألف مهرجان.

عن ابن عبّاس: «هو قول الأعاجم بزي هزار سال».

وقيل: كلام مبتدأ أي ومنهم ناس يودّ أحدهم على حذف فعل هذا والذين هم اليهود لإشراكهم بعزير ابن الله.

﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ ضمير هؤلاء وأن يعمّر فاعل مزحزحه، الزّحزحة هي التّبعيد والإنحاء أي لا يبعده تعميره إيّاه من العذاب ولا ينجيه كونه معمّرًا منه ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البَقَرَة: 96] أي عملهم أو معمولهم خبير بما يسرّون وما يعلنون.

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ [البَقَرَة: 97] نزلت في عمر رضي الله عنه حين سأل اليهود ذات يوم بالرحمٰن الذي أنزل التوراة على موسى أتجدون محمدًا في كتابكم فتمسكوا ثم قالوا: نعم، ولكنَّ صاحبه جبريل عدونا وهو صاحب كل عذاب لله ينزل عليه فقال: جبريل، فقال: ذلك عدوًّا عادانا مرارًا. وأشدّها أنزلت على نبيّنا أنّ بيت المقدس سيخربه بخت نصّر فبعثا لقتله فرآه ببابل فوجده غلامًا مسكينًا لا قوّة له فهمّ أن يقتله فدفع عنه جبريل قائلًا إن كان ربّكم آمره وقدّر له بهلاكهم فإنّه لا يسلّطكم عليه وإن لم يكن كذلك فعلى أي حقّ تقتلونه.

وقيل: أمره الله أن يجعل النّبوّة فينا فجعلها في غيرنا.

روي أنّ أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه دخل يومًا بمقدس اليهود فسألهم عن جبريل فقالوا ذلك عدوّنا فيطّلع محمّدًا على جدّ أبينا وأنّه صاحب كشف وعذاب، وميكائيل يجيء على الخصب والسّلام، فقال: ما منزلهما من الله، قالوا: جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره وبينهما عداوة، فقال عمر: إن كان كما يقولون لأنتم أكفر من الخبر ومن كان عدوًّا لجبريل فهو عدو لميكائيل ومن كان عدوًّا لهما فهو عدوّ الله، ثمّ رجع فوجد جبريل قد سبق بالوحي فقال عليه السّلام له: «**وافقك جبريل يا عمر**».

في جبريل ثمانية لغات مركّب من جبريل بمعنى عبد الله، ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ البارز الأوّل إلى جبرائيل والثّاني إلى القرآن وإن لم يسبق ذكره لشهرته ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بأمر الله وحكمه ﴿مُصَدِّقًا﴾ حال كونه مطابقًا وموافقًا ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من التّوراة ﴿وَهُدًى﴾ عطف على مصدّقًا ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البَقَرَة: 97] أحوال مترادفة من مفعول نزّله أي نزّله وتيسيره حال كونه مصدّقًا وهدىً وبشرى وهو حال من فاعل نزّل ويجوز أن يكون حالًا من المفعول أيضًا فإنّه جواب للشرط، فالمعنى من كان منهم عدوًّا لجبريل فقد تعدّى عن دائرة الاتّصاف إلى غائرة الاعتساف وكفر بما معه من الكتب لأنّه نزّل كتابًا مصدّقًا للكتب المقدّمة فحذف الجواب وأقيم عليه مقامه، ومن عاداه والسّبب في عداوته أنّه نزّله عليك.

﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾

﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ﴾ أي مخالفًا لأمره وحكم كتابه ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ فيه أربعة وجوه لغةً ممدود ومهموز مشبع أو محلّى مقصور مهموز وميكال على وزن مفعال ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البَقَرَة: 98] أراد بعداوة الله مخالفة أمره وعنادًا ولا تعيّنًا أو عداوة للمؤمنين الكاملين فطيّ ذكرهم لتفخيم شأنهم نكال عداوتهم لهم في الحقيقة إنّما هو عداوة الله كما في ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفَتْح: 10].

قال عليه السّلام: «**من آذى وليًّا فقد آذاني**» وإنّما أفردهما بالذّكر لفضلهما وعلوّ رتبتهما وللتّنبيه على أن معاداة أحدهما وكليهما على السّواء في الكفر ووضع الظّاهر موضع المضمر للدّلالة على أنّه تعالى عاداهم لكفرهم وأنّ عداوة الملائكة والرّسل كفر بلا تفرقة.

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ أي واضحات عينًا كانت أو معنىً ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [البَقَرَة: 99] أي المتمرّدون الخارجون عن أمر الله

الدّاخلون في غضب الله وسخطه، والفسق إذا استعمل في نوع من المعاصي دلّ على أعظمه إذ المطلق ينصرف بالكمال أي المتجاوز عن الحدّ وهو الكفر والشّرك.

نزل في ابن صور حين قال لرسول الله ﷺ: «**ما جئتنا بشيء نعرفه وما أنزل عليك من آية فنتّبعك**».

﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠٠﴾

﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ﴾ الهمزة للإنكار والواو للعطف على المحذوف أي أكفروا، أو كلّما عاهدوا بمعنى وما يكفر بها إلا الفاسقون النّاقضون العهود والميثاق واليهود موصوفون بالغدر ونقض العهود فإنّ الله أخذ منهم ومن آبائهم الميثاق مرارًا وهم قد بغضوه، والنّبذ الطّرح يغلب فيما ينسى وإنّما قال: ﴿فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ﴾ إذ البعض لم ينقض، التّنوين للتّعليل والتّنكير ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البَقَرَة: 100] بالتّوراة وليسوا في الدين على شيء فلا يعدون نقض المواثيق ذنبًا ولا يبالون به.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٠١﴾

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ﴾ بكتاب كعيسى وموسى ومحمّد أو بغير كتاب كسائر الأنبياء الذين قتلوهم للقول الحق بهم ﴿نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي التّوراة، النّبذ هو الطّرح والرّمي ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ﴾ قال بعض المفسّرين: هو التّوراة، والظّاهر أنّه هو القرآن لأنّ المنبوذ والمطروح المعرض عنه رأسًا غير الملتفت إليه بأن لا يكون عندهم بأسًا ولا تجد على مثل هذا ناسيًا هو القرآن لا التّوراة لأنّها ليست عندهم ممّا لا يلتفت إليه

لأنّهم تداولوها قراءة لا حكمًا وإنّما كان نبذ القرآن كفر عندهم أيضًا لإفضائه إلى تكذيبها إذ تكذيب القرآن والكفر به أو قد صدقته التّوراة وأمرهم بتلقّيه، فالقبول تكذيب وكفر بالتّوراة وأيضًا الإفادة خير من الإعادة ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: 101] إنّه كتاب الله لا يدخله شكّ يعني أنّ علمهم بحقّيته ثابت إلا أنّهم كابروا وعاندوا وتجاهدوا ومن قال بالأوّل قال إنّ الله فرّق اليهود أربع فرق: فرقة آمنوا بالتّوراة وقاموا بحقوقها وأقاموا أحكامها وحدودها كموسى ومن تابعه وهم الأقلّون دلّ عليه ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وفرقة جاهروا بتقريب عهودها وتخطّي حدودها تمرّدوا فسوقًا وهم المعنيون بقوله ﴿نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُمۚ﴾ [البَقَرَة: 100]، ومنهم فرقة لم يجاهروا بنبذها ولكن نبذوها لجهلهم بها وهم الأكثرون، وفرقة تمسّكوا بها ظاهرًا ونبذوها حقيقةً عالمين بالحال نفيًا وعنادًا وهم المتجاهلون، وهذه الوجوه تعتبر في القول الثّاني ضمنًا، عن الشّعبيّ: بين أيديهم مقروءة ولكنّهم نبذوا العمل بها، وعن شعبان: أدرجوه في الدّيباج والحرير وحلّوه بالذّهب ولم يحلّوا حلاله ولم يحرّموا حرامه.

مطلب هاروت وماروت

﴿وَاتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

﴿وَاتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَۖ﴾ أي اليهود نبذوا كتاب الله واتّبعوا ما تتلوا الشّياطين أي كتب السّحر والشعوذة التي كانت تقرأ على ملك سليمان أي عهده وزمانه وذلك أنّ الشياطين كانوا يسترقون السّمع يضمّون إلى ما سمعوا

أكاذيب سيلقونها إلى الكهنة وهم دوّنوها في الكتب يقرّونها ويعلّمونها النّاس وفشا ذلك في زمن سليمان حتّى قالوا إنّ الجنّ يعلم بالغيب وكانوا يقولون هذا علم سليمان وما تمّ لسليمان ملكه إلا بهذا وبه يعجز الجنّ والإنس والرّيح التي تجري بأمره ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾ تكذيب للشّياطين ورفع لما رمي به سليمان من اعتقاد السّحر والعمل به وسمّاه كفر البدل على أنّهم كفّروا الأنبياء وهم معصومون عن الكفر ولكنّ الشّياطين كفروا باستعمال السّحر وتدوينه ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ قاصدين به إغواؤهم وإضلالهم، قيل إنّ الشياطين كتبوا السّحر والنيرنجات على لسان آصف، هذا ما علّم آصف بن برخيا سليمان الملك ثم دفنوها تحت مصلّاه حين نزع الله ملكه ولم يشعر بذلك سليمان فلمّا مات سليمان عليه السّلام استخرجوها وقالوا للنّاس إنّما ملك سليمان بهذا العلم فتعلموا وعلّموا النّاس، وأمّا علماء بني إسرائيل وخيارهم قالوا معاذ الله أن يكون هذا علم سليمان وأمّا سفلتهم أقبلوا على هذا العلم ورفضوا كتب أنبيائهم وفشت الملامة على سليمان إلى أن جاء الإسلام ونزل القرآن على إعذار سليمان، وبرواية قال بعضهم: لمّا فشت الأخبار أنّ الشّياطين يعلّمون الغيب وسمع سليمان ذلك أرسل إلى الأطراف وجمع كتبهم ودفنوا تحت كرسيّه وقال: من قال إنّ الشّياطين يعلمون الغيب لأضرب عنقه، فلمّا مات سليمان وانقرض العلماء تمثّل الشّيطان على صورة إنسان وأتى نفرًا من بني إسرائيل فقال لهم: هل أدلّكم على كنز لا يخفى ولا يفنى أبدًا، قالوا: نعم، قال: احفروا تحت الكرسيّ، فلمّا حفروا وجدوا تلك الكتب، وكان إبليس في طرف من الكرسيّ غير متقرّب إليه، قالوا له: ادنوا منّا، قال: لا أحفر فإن لم تجدوه اقتلوني، لأنّ الشّياطين يحترقون إذا تقرّبوا به، فلمّا وجدوا فعلوا ما فعلوا به ولهذا كان أكثر ما يوجد السّحر بين اليهود ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ وما أُنزل عطف على السّحر قيل عطف على ما يتلو ﴿بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ [البَقَـرَة: 102] عطف للملكين علمان لهما أو بدلان منهما وقصّتهما على ما ذكر المفسّرون أنّ الملائكة لما رأوا ما يصعد إلى السّماء من أعمال بني آدم وكان ذلك في زمن إدريس النّبيّ عليه السّلام فعيّر الملائكة بني آدم على قبائح أعمالهم وقالوا هم هؤلاء الذين اختارهم الله علينا فقال الله: لو

أنزلتكم إلى الأرض وركّبت فيكم ما ركّب فيهم لارتكبتم أكثر ممّا ارتكبوا، فقال لهم: اختاروا اثنين من خياركم فاختاروا هاروت وماروت لكمال علمهما وكثرة عبادتهما وتمام عدالتهما ركّب الله فيهم الشّهوة وأهبطوا وأمرهم بالحكم بين النّاس بالعدل ونهاهما عن القتل من غير حقّ والزّنا وشرب الخمر، وكانا يقضيان بين النّاس نهارًا وإذا أمسيا ذكرا الاسم الأعظم فعرجا إلى السّماء فمرّ عليهما شهر فبينما [هما] وذلك اختصم إليهما ذات يوم امرأةٌ يقال لها زهرة وكانت من أجمل النّساء في زمانها فلمّا نظرا إليها أخذت بقلوبهما فراوداها فأبت وانصرفت ثمّ عادت في اليوم الثّاني فقالا مثل ما قالا فأبت فقالت في اليوم الثّالث لا سبيل إليه إلا بأحد من الثلاثة: عبادة الصّنم أو قتل النّفس أو شرب الخمر فأبيا فانتهيا، فجاءت في اليوم الرّابع ومعها قدح من الخمر فقالت ما قالت، فقالا: الخمر أهون فشربا وزنيا بها فلمّا فرغا رآهما إنسان فقتلاه وسجدا للصّنم.

قال أمير المؤمنين عليّ ابن أبي طالب كرّم الله وجهه وجماعة من المفسّرين: قالت لهما لن تدركان منها حتى يعلّمانها الاسم الأعظم فعلّماه إيّاها فتكلّمت وصعدت إلى السّماء فمسخها الله كوكبًا وقالوا هي هذا الكوكب الأحمر واسمها بالفارسيّة ناهيد.

قال الآخرون: الزّهرة كوكب من الكواكب السّبعة السيّارة التي جعلها الله تعالى قوامًا للعالم وأقسم بها بقوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ۝١٦﴾ [التّكوير: 15 - 16] وأنّ الله تعالى أخبر عن السّموات السّبع في كتابه في مواضع ولعلّ أنّ الخواتين الحسنوات والجواري الزهروات لما كانت منسوبة إليها أرادوا بها هذه النّسبة والعلاقة.

وعن ابن عبّاس وكعب الأحبار: أنّ الزّهرة كانت امرأة فضّلت على النّساء كما فضّلت الزّهرة على سائر الكواكب في الحسن والله أعلم بحقيقة الحال.

فلمّا أمسى الملكان بعد افتراق الدّين وهما إلى السّماء سقطا وجاءا إلى إدريس وسألاه التّوبة والتّشفّع لهما فجعلهما مختارين من عذاب الدّنيا وعذاب الآخرة واختارا عذاب الدّنيا لانقضائه دون عذاب الآخرة لخلوده وثباته فهما الآن معذّبان ببابل واختلفوا في كيفيّة عذابهما فقال عبد الله بن مسعود: إنّهما

معلّقان بشعورهما إلى يوم القيامة.

قال البعض: كُلّبا من القدم إلى أصول الفخذين كلّ يوم، ومجاهد: أنّ جبًّا ملئت نارًا فجعلا فيها، والبعض: أنّهما معلّقان ينكّسان في السّلاسل أو يضربان بسياط الحديد.

ولعلّ أنّ هذه كلّها قد وقعت لأنّ العذاب الواحد إذا تكرّر لم يؤلم لاعتياده ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النِّسَاء: 56] فيعذّبان بعذاب متنوّع متطوّر.

روي أنّ رجلًا أراد تعلّم السّحر فقصد هاروت وماروت فوجدهما معلّقين بأرجلهما على الماء ليس بين ألسنتهما وبين الماء إلا قدر أصابع أربعة وهما يعذّبان بالعطش، فلمّا سمعا احتسابه قالا له: من أيّ أمّة قال: من أمّة محمّد، قالا: الحمد لله وأظهرا الاستبشار، فقال الرّجل: ما هذا الاستبشار، قالا: إنّه هي السّاعة أي يقارب السّاعة لأنّه نبيّ آخر الزّمان وقد دنا انقضاء عذابنا.

﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ﴾ أي الملكان ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ من صلة بالمعنى الذي مرّ ذكره ﴿حَتَّىٰ﴾ ينصحانه ويوعظانه ﴿يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ﴾ أي ذات ابتلاء ومحنة وعناء فلا تقم بتعلّم السّحر ولا تكن مثلنا [ولن تلقى] إلا خسارًا فيقولا هذا القول سبع مرّات فإن لم ينفع فيقولا له: ائت هذا الزّمان فبل عليه فإذا بال خرج منه نور ساطع إلى السّماء ونزل أسود مظلم وذلك غضب الله وسخط عليه وذلك النّور هو الإيمان.

روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قدمت إلى امرأة تبتغي إلى رسول الله ﷺ بعد وفاته، قالت كان لي روح فغاب عنّي فدخلت عليّ عجوزة فشكوت ذلك فلمّا كان اللّيل جاءتني بكليدين أسودين فركبت أحدهما [وركبت] الآخر ولم نمكث كثيرًا حتّى وقفنا ببابل فإذا رأينا رجلين معلّقين بأرجلهما فقالا لي: ما لك، قلت: السّحر، فقالا: إنّما نحن فتنة ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البَقَرَة: 102] فما قبلت، فقالا: ارجعي إلى بلادك فرجعت فقالا: اذهبي إلى ذلك التّنور وبولي فيه فذهبت فاقشعرّ جلدي فرجعت فقالا: فبلت، قلت: بلى، قالا: ما رأيت، قلت: ما رأيت، قالا: اذهبي إليه فذهبت وبلت فرأيت فارسًا مقنّعًا من حديد خرج منّي إلى السّماء فأتيت إليهما فأخبرت قالا: ذلك الفارس إيمانك.

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ أي بأمر الله وتقديره لأنّه وغيره من الأسباب الغير المؤثّرة بالذّات، وقرئ: (بضارّي أحد) على الإضافة إلى أحد ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ﴾ أي اليهود ﴿مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ﴾ [البَقَرَة: 102] أي إنّ مجرّد العلم به غير مقصود ولا نافع في الدّارين، وأمّا كونه ضارًّا لأنّهم يقصدون به أوّلًا العلم به قد يجري إلى العمل والأحوط التحرّز عنه لأنّه يوشك منه الضّرر ولا يقع في مجرّد العلم نعم للضّروريات الدّينيّة يجوز التّعلّم به لدفع الضّرر في الدّين.

قال عليه السّلام: «**تعلّموا حتّى السّحر**». إذا جعلت (حتّى) عاطفة.

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ﴾ أي نصيب، اللّام الأولى للقسم والثّانية للابتداء لتأكيد المدخول فيه، ومن موصولة مبتدأ وما له خبره والجملة مفعول علموا أي علموا حقًّا وقطعًا أنّ من اشترى السّحر واستبدله بكتاب الله ليس له في الآخرة من نصيب ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ﴾ يحتمل المعنيين على مرّ ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: 102] يتفكّرون فيه أو يعلمون قبحه على المعنيين أو حقيقة ما يتّبعونه وما يأخذونه بعوضه من السّحر والبغي، قيل معناه: لو كانوا يعلمون بعلمهم فإنّ من لم يعمل بما علم فهو كمن لا يعلم لانتفاء غايته.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ
مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟﴾ بالرّسول والكتاب ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ الله وحذروا عن غضبه وسخطه لتركا المعاصي والانتهاء إلى المناهي كنبذ الكتاب واتّباع السّحر ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: 103] جملة إسميّة ليدلّ على ثبات المثوبة والجزم بخبريّتها وحذف المفضّل عليه إجلالًا للمفضّل من أن ينسب إليه شيء وتنكير المثوبة لأنّ المعنى لشيء قليل من الثّواب خير ممّا هم عليه وإنّما من النّصب إلى الرّفع للثّبات والاستقرار، وقيل: ﴿لَوْ﴾ في الموضعين للتّمنّي، والمثوبة كلام ابتدائيّ فإن قلت: فهلّا قيل لمثوبة الله خير، قلت: لأنّ

المعنى لشيء من الثّواب سواء كان مقصودًا بذاته أو لا كمقدّمات الواجب، خير لهم ومنه يجوز أن يكون تمنّيًا لإيمانهم على سبيل المجاز عن إرادة الله إيمانهم واختيارهم له كأنّه قيل وليتهم آمنوا ثم ابتدأ لمثوبة من عند الله خير وجنّة ودار بقائه ودار خلده.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا﴾ [البَقَرَة: 104] الرّعي الحفظ للشيء لمصلحة، كان المسلمون أن يقولوا لِلرّسول ﷺ إذا ألقى عليهم شيئًا من العلم راعنا يا رسول الله أي راقبنا وانظرنا وتأنّ به حتّى نفهمه ونحفظه. وكانت لليهود كلمة يتساءلون بها عبرانيّة أو سريانيّة وهي راعنا فلمّا سمعوها من المؤمنين افترحوه وخاطبوا به الرّسول فنهى المؤمنين عنها وأمر بما يفيد تلك الفائدة.

ولا تقبل التّلبيس وهي انظر إلينا وانتظرنا من نظره إذا انتظره. وقيل: من النّظر وهو الإنظار والإمهال. وقرئ (راعونا) على لفظ الجمع للتّوقير وراعنًا بالتّنوين أي قولًا عن نسبة إلى الرّعن وهو الهوج والحمق.

روي أن سعد بن معاذ سمعها منهم فقال: يا أعداء الله عليكم لعنة الله والذي نفسي بيده لئن سمعتها من رجل منكم يقول لرسول الله لأضربنّ عنقه فقالوا: أولستم تقولوها فنزلت ﴿وَٱسْمَعُواْۗ﴾ أحسن السّماع والاستماع حتّى لا يفتقروا إلى طلب المراعاة أو اسمعوا سماع قبوله لا استماع اليهود حيث قالوا سمعنا وعصينا ﴿وَلِلْكَـٰفِرِينَ﴾ أي الذين تهاونوا بالرّسول وسبّوه ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: 104] أي مؤلم أشدّ الألم.

﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾

﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البَقَرَة: 105] نزلت

لتكذيب الجمع من اليهود يظهرون بوجه المؤمنين ويزعمون أنّهم يودّون لهم الخير ويريدون لهم الصّلاح والخير والفرح، والودّ محبّة الشّيء مع غيبه ولذلك يستعمل في كلّ منهما من البيان لأنّ الذين كفروا فرقتان: أهل الكتاب والمشركون، ﴿أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم﴾ مفعول يودّ ﴿مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۗ﴾ من الأولى للاستغراق والثّانية لابتداء الغاية أي ابتداؤه من ربّكم، الخير هو الوحي وكذلك الرّحمة، والمعنى أنّه يريدون في أنفسهم بالوحي أحقّ وأولى وأليق فحسدوكم فما يحبّون أن ينزّل عليكم من شيء من الوحي والرّحمة.

﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ أي بوحيه ونبوّته من يشاء ولا يشاء إلا ما تقتضيه الحكمة ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [البقرة: 105] والاختصاص أوكد من الخصوص لأنّه لغير شعار بأنّ النّبوّة من الفضل لا من العدل لتساوي إقدام الجميع فيها من حيث الإنشاء وإنّ حرمان البعض ليس لضيق فضله بل لسابق قضيّته وفارق مشيئته مطابقة لمقتضى حكمته أنّ فضله كان عليك كثيرًا.

(*)﴿۞ مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٠٦﴾

﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا﴾ [البقرة: 106] نزلت لما قالت اليهود أو المشركون ألا يرون إلى محمّد يأمر أصحابه بأمرٍ ثمّ يأمر بخلافه، والنّسخ في اللّغة إزالة الصّورة عن الشيء وإثباتها في غيره كنسخ الظلّ للشّمس ومنه التّناسخ ثمّ استعمل لكلّ واحد منها. واعلم أنّ النّسخ في اللّغة شيئان التّغيير والتّبديل ومنه نسخ الكتاب إذ حوّل من كتاب إلى كتاب أي نقل ما فيه إليه إنّا كنّا ننسخ ما كنتم أي بأمر الملائكة ننسخها.

قال ابن عبّاس في هذه الآية: ألستم قومًا عربًا هل يكون نسخ إلا من أصل كان قبل ذلك فعلى هذا القرآن كلّه منسوخ لأنّه نسخ من اللّوح المحفوظ فأنزل على النّبيّ.

(*) الحزب.

عن ابن عبّاس: أنّ الله أنزل القرآن جملةً واحدة من اللّوح المحفوظ إلى السّماء الدّنيا ثم أنزل جبريل على محمّد ﷺ آيًا بعد آيٍ.

الثّاني بمعنى رفع الشّيء وإبطاله، يقال نسخت الشّمس الظلّ أي ذهبت به وأبطلته هذا هو المعنى، فعلى هذا يكون بعض القرآن ناسخًا ومنسوخًا. أمّا في عرف الشّرع فهو رفع الحكم الشّرعيّ بدليل شرعيّ متأخّر.

اِعلم أنّ النّسخ المذكور إنّما يعرض على الأوامر والنّواهي دون الأخبار لأنّ الأخبار إذا نسخت صار المخبر كذّابًا. وأبى اليهود جواز نسخ الشّرائع وزعموا أنّه بداء، فيقال لهم: أليس قد أُمِر إبراهيم عليه السّلام بذبح ابنه ثم قال له لا تذبحه، أليس قد أمر موسى بني إسرائيل أن يقتلوا من عبد العجل منهم ثمّ أمرهم برفع السّيف عنهم، أليست نبوّة موسى عليه السّلام تميز غير متعبد بها قبل ثم تعبد بذلك، أليس قد أمرهم قبل النّبيّ عليه السّلام بالجنان ثمّ نهاه عنه، فكما لم يلحقه في هذه بداء فكذلك في نسخ الشّرائع لا يلحقه بداء بل هو نقل العبّاد من عبادة إلى عبادة ومن حكم إلى حكم لضربٍ من المصلحة وإظهار الحكمة وكمال تدبيره في ملكه ومملكته، وله أنواع فمن حاول التّفصيل فليرجع إلى الأصول.

﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: 106] فيه تسع قراءات، ننسها بضمّ النّون وكسر السّين أي ننفيها ونتركها لا يبدّلها ولا يجعل مكانها بدلًا لها أي ممحوًّا من صحيفة خاطره أي استحوذ عليهم الشّيطان فأنساهم ذكر الله، وقرأ البعض مجرّد من نسي ينسى وكلاهما بمعنى واحد.

قال بعضهم: معناه أمرنا بتركها، يقال إئت الشيء إذا أمرت بتركه، قيل: معناه يؤخّرها. والنّسخ بالمعنى الثّاني على قسمين: أحدهما أن نثبت خطّها وننسخ حكمها وتترك، والنّوع الثّاني: هو أن نترك خطًّا وكتابةً وقراءةً وحفظًا وحكمًا.

روي عن جماعة قالوا: يا رسول الله قمنا البارحة لنقرأ سورة كذا وكذا فلم نقدر، فقال عليه السّلام: «**إنّها نسخت البارحة**» نأت بخير منها بما هو أنفع وأجزى لكم وأسهل عليكم حفظًا وقرآنًا وعملًا وأكثر أجرًا لا أنّ آيةً خيرٌ من آية إذ كلام الله كلّه خير من حيث إنّه كلامه وإن حاز التفات بينهما من وجه آخر فإنّ

بعضًا منها يشتمل على التّوحيد وبعضها على الحكاية عن الأنبياء وبعضها عن الكفّار وبعضها فيها الاسم الأعظم، أو مثلها في المنعة والمثوبة، لا يقال فعلى هذا لا فائدة لأن نقول الخالي عن الفائدة هو المماثلة من جميع الوجوه وهي ممنوع فحينئذٍ يحتمل ههنا صور كثيرة فاستخرجها بقريحتك ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 106]على النّسخ والتّبديل والمحو إلى عوض.

واعلم أنّ إرسال الرّسل وإنزال الكتب لمصالح ونظام أهل المنازل والبلاد حسب اقتضاء الزّمان كذلك جاز أن يكون في زمان واحد بحسب اختلاف أحوال كيفيّة تراكيب أجسام الإنسان من العناصر والأركان فكما جاز أن يكون في كلّ زمان نوع من النّبوّة مناسبًا لأهل الزّمن كذلك جاز أن يكون في زمان واحد بحسب اختلاف أحوال أشخاص ذلك الزّمان أحكام مختلفة متجدّدة حسب تبديل الأحوال.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ١٠٧﴾

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ يفعل ما يشاء بقدرته ومشيئته ويحكم على من يشاء بما يشاء كيف يشاء بحكمته وإرادته وهو كالدّليل على قوله ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 106] لتصرّفه في ملكه ومملوكه قدير على جواز النّسخ والتّبديل والإمحاء لا إلى عوض، فليس لأحد أن يقول لم فعل وكيف فعل ولم حكم.

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ عند نزول العذاب وحلول الشّدائد والعقاب ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ قريب وصديق ورقيب ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: 107] ناصرٍ يمنعكم العذاب ويردّ حلوله عليكم، والفرق بين الوليّ والنّصير، أنّ الوليّ قد يضعف عن النّصرة والنّصير قد يكون أجنبيًّا عن المنصور.

إشارة وتأويل

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: 101] إيماء إلى

التّجلّي الذّاتي الكلّي بجميع الأسماء فإنّ الله تعالى يتجلّى بكلّ اسم من الأسماء الذّاتيّة الأربعة الأولى من السّبعة الذّاتيّة أوّلًا وأصالته وبالثّلاثة الأخيرة أعني السّميع والبصير والمتكلّم تبعًا وثانيًا كما مرّت الإشارة إليه مرارًا الكلّ عين من الأعيان الثّابتة والماهيّات الممكنة بتمام الأسماء والصّفات وكذا الكلّ ما اشتملت كلّ منها عليه من النّسب الإلهيّة والإضافات الأوليّة وكذا بكلّ اسم من الأسماء الكليّة الأربعة الذّاتيّة لكلّ عين وماهيّة ولكلّ ما اشتمل عليه كلّ أحد من الأعيان والماهيّات من الإضافات والنّسب وهي الأجرام الأوليّة للماهيّة المركّبة وباعتبار أنّ كلّ واحد من هذه النّسب في حدّ ذاته ووحدته جزئية لا يشاركه غيرها ولا يكون فيها تعدّد وتكثّر أصلًا وإلا لم يكن وحدة فتكون غير منقسمة فيكون جزأ لا يتجزّأ وجواهر فرده ووحدات غير متناهية تقوم بها الكثرات الكونيّة والأعيان الممكنة وإنّ الله تعالى أخذ العهد من كلّ واحد من الأعيان الثّابتة وممّا اشتملت هي عليه أن لا يتخلّفوا عما أمروا به إذا تنزّلوا في عالم النّاسوت وهو شاغل الكلّ ومجامع تمام السّبل، فلمّا تنزّلوا وهبطوا من ذلك المعهد إلى ذلك المعبد وتجلّى الحقّ لهم وجاء الرّسول أي رسول التّجلّي في هذه النّشأة وهو الجذبة الرّحمانيّة جذبة من جذبات الرّحمن يوازي عمل الثّقلين، فلمّا جاءهم ما عرفوا في النّشأة الأولى كفروا به فباؤوا بغضب على غضب لأنّهم كفروا **أوّلًا**: بالتّجلّي الذّاتيّ بجميع الأسماء لكلّ واحد منها ولما اشتمل عليه من الأجزاء.

وثانيًا: بالتّجلّي الأسمائيّ للكلّ وللأجزاء.

وثالثًا: بالتّجلّي الأفعاليّ.

ورابعًا: بالتّجلّي الآثاريّ.

وخامسًا: بالتّجلّي الجمعيّ والظّهور المعيّ الأصليّ والفرعيّ.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ﴾ أي للقوى العاملة والعاقلة أو للأطوار السّبعة القلبيّة التي هي مظاهر أنوار الأسماء السّبعة الذّاتيّة ﴿قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ [البَقَرَة: 91] مختصًّا بها وهم قد أعطوا العهد في الفطرة الأولى بقبول ما يأتي وينزل عليهم من التّجلّيات ومقتضيات جميع الدّورات وهو الحقّ مصدّقًا لما معهم أي التّجلّي النّازل الثّابت ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البَقَرَة: 101] من التّجلّيات

الكليّة والجزئيّة وذلك ليطابق الأدوار فيها من الأعيان والجوهريّة والمعاني العرضيّة واللّواحق الوجوديّة والشّواهد الشّهوديّة ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ﴾ [البَقَرَة: 91] أي ينكرون ويخفون العهود الأولى والمعهود الأزليّ والتجلّي الذّاتيّ والشّهود الأزليّ، ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ ما سمعنا بتلك الآذان أي ما سمعنا في هذه النّشأة بهذه الآذان ما سمعناه في تلك النّشأة أي ما حصل لنا العلم بالعلم والإدراك بالإدراك الحاصل من هذه النّشأة بطريق السّماع ورقيق الاستماع. ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ [البَقَرَة: 93] أي استقرّت المحبّة العجليّة الطّبيعيّة في قلوبهم التّابعة للأنفس فنسبت العهود وما ثبت لها في تلك المرتبة من الشّهود. ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ [البَقَرَة: 94] إشارة إلى تفاوت أقدام السّائرين إلى الله فإنّ من تعبّد بطور النّفس وتقلّد تزكيتها ورأى صفاءها وشاهد نورها وضياءها فقد اعتقد أنّ هذا قد اختصّ به ولا يشاركه أحد فيه وأن ليس وراءه مرتبة أخرى ودرجة أعلى وأحرى، وكذا حال من تقيّد بالطّور القلبيّ والسرّيّ والروحيّ أو الخفيّ وغيب الغيوب وكذا من تقيّد بالتّجلّيات الآثاريّة والأفعاليّة والصّفاتيّة أو بالسّير وبالطّير فوق الأفلاك أو في الملكوت والجبروت أو في جنّة الآثار والأفعال وجنّة الصّفات والذّات واعتكف في توحيد الآثار والأفعال والصّفات والذّات وغير ذلك من الحالات ومقامات الصّفات أو الذّات ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾ [البَقَرَة: 94] أي اطلبوا الانقطاع إليها بالإعراض عن مقتضيات الطّبيعة ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [البَقَرَة: 95] أي بسبب ما اكتسبت أيدي القوّة النّظريّة والقدرة الوهميّة. ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾حسنة وفلكة نفسيّة وهي الذّات البهيميّة والشّهوات الأنسيّة التي هي حجب تلك التّجليّات وثبتت تلك الشّهودات ﴿وَمِنَ الَّذِينَ﴾ [البَقَرَة: 96] أي النّفوس الأمّارة وقوّتها المارّة على السّلاك المحجوبين الذين كفروا بالحالة الجمعيّة الإحاطيّة الكليّة في السّير بالله فلا بدّ أن يكون حال العارفين بالله المؤمنين به خلافه أي يكونون مشتاقين إلى الموت الأسود وهو الفناء في الله المفضي إلى الفقر الحقيقيّ وهو السّواد الأعظم.

قال عليه الصّلاة والسّلام: «**الفقير سواد الوجه في الدّارين، من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه**».

فالنفس عند حلول الموت تقول: واويلاه على ما فرّطت في جنب الله وإن كنت من السّاخرين، ويقول الرّوح: نعم الفوز في انتفاء القشر من لبّ اللّوز بالمعارف الإلهيّة واختفاء ظلام القشر من العوارف المتناهية. والموت في الحقيقة عظة ويقظة المعارف فمن احتجب منه احتجب عن المميت فبغضه هو بغضه.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد الطّور الخفيّ ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ أي يبعد عن مرتبته بمرتبة الإجمال واقتنع بهذا العلم التّفصيليّ الذي يحصل بالموت والفناء في الله والبقاء بالله ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ﴾ أي كتاب العلم التّفصيليّ ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أي المرتبة الجمعيّة الكليّة ﴿مُصَدِّقًا﴾ [البَقَرَة: 97] موافقًا لما كان له في الأزل في المرتبة الواحديّة واختفى هنا لعدم شرط ظهوره وشهوده ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ﴾ صار بعيدًا من المراتب السّتّ والعوالم الخمس: اللّاهوت والجبروت والملكوت والمثال والملك إلى مرتبة النّاسوت ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البَقَرَة: 98] أي مبعد للسّائرين في الأدوار والأكوار الذّاتيّة الجامعة للعوالم الخمس والمراتب السّتّ الإفراديّة عن الرّتبة الكليّة والمرتبة الجمعيّة الإلهيّة المتردّين في البين الذين لحقوا المسامتة الحقيقيّة والنّسبة المحققة التّامّة الملجئة إلى شهود الاتّحاد ووجود الاتّصال وكمال الانقياد للجزء والكلّ ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [البَقَرَة: 101] بالتّجلّي الذّاتيّ والظّهور الاسمي كتاب الله وتجلّي الذّات والصّفات والأسماء التّجلّيات السّابقة والحالة الأوّليّة ونسوها نسيًا منسيًا ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ أي المتردّدين بين المبدأ والمنتهى الذين نبذوا كتاب التّجلّيات واتّبعوا مارسوا لشياطين الأوهام والقوى النّظريّة المتشبّثة بأذيالها في مداركها ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ طور السّرّي الذي هو مبدأ مواطن التّجلّيات الآثاريّة وهو المعبّر عنه بالفؤاد ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [النجم: 11] ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ [البَقَرَة: 102] أي ما ستر طور سرّ تجلّيات ربّه في مظاهر الآثار والأجسام، ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام: 78] أي القوى الوهميّة والخياليّة أو النّظريّة المتشبّثة بأذيالها ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ [البَقَرَة: 102] أي القوّة النّظريّة والعمليّة قد استخدمتها النّفس الأمّارة.

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ أي ما نبدّل من نشأة بنشأة أو تعيّنًا بتعيّن أو صفة بصفة أو

حالًا من الأحوال أو مقامًا من المقامات ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ أو نمحها ونزيلها إشارة إلى تبديل الأخلاق وتعديل الأوصاف ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البَقَرَة: 106] كاستبدال الفجور بالعفّة والجبن بالشّجاعة والبخل بالسّخاوة، وهو نوعان:

أحدهما: أن تغلب الأخلاق المرضيّة على غير المرضيّة.

الثّاني: أن لا يبقى من مقتضيات الغير المرضيّة أثرًا أصلًا. في الآية إشارة إليها فمحونا آية اللّيل وجعلنا آية النّهار مبصرة أو ما محوت من صفاتك شيئًا إلا رقمت فيه من صفاتي وما أريتك شيئًا من عجائب صنفي إلا أريتك ما هو أشرف منه وأيضًا ما أعلّمك علمًا إلا علّمتك أشرف منه، وكذا ما تجلّيت في مظهر ومرآة إلا كان أشرف منه. ولو اتّفق أن يكون التّجلّي في مرآتين متماثلتين بحسب النّوع فلا بدّ وأن يكون أحدهما أعلى من الآخر في مرايا الأشخاص الإنسانيّة أو في مرآة شخص واحد لكنّه يكون بصفات متفاوته بحسب الكمال أو بحسب الحسن والجمال وغير ذلك من أصناف التّغاير والقلّة والتّكاثر، وكذا بقلبك من الطّور السّرّي والتّجلّي الآثاريّ إلى الروحيّ والتّجلّي الأفعاليّ، ومن الرّوحيّ والتّجلّي الأفعاليّ إلى الخفيّ والتّجلّي الصّفاتيّ، ومن الخفيّ إلى الخفيّ والتّجلّي الذّاتيّ أو من فرداريّة اسم إلى فرداريّة اسم آخر ومن السّير إلى الله إلى السّير من الله ومنهما إلى السّير في الله والسّير بالله وإن أمن النّسخ وأنواع الرّسخ والمسخ إلا أنّ شهود الكليّة وحضور الصّورة الجمعيّة الإحاطيّة إنّما يكون بأطوار مختلفة وأدوار متفاوتة في أحداث أمثال متناسبة.

واعلم أنّ النّسخ إنّما يكون من مرتضيات الدّورة الجماليّة والإنشاء من مقتضيات الكورة الجلاليّة الضمنيّة.

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ [البَقَرَة: 108] نزلت في عبد الله ابن أبي أميّة المخزوميّ ورهط من قريش قالوا: اجعل لنا يا محمّد الصّفا ذهبًا ووسّع لنا أرض مكّة وفجّر الأنهار خلالها نؤمن لك فأنزل الله أم معادلة

الهمزة في ألم تعلم أي ألم تعلموا أنّه مالك الأمور قادر على الأشياء كلّها بأمر وبنهي كما أراد أم يعلمون ويقترحون بالسّؤال كما اقترحت اليهود على موسى أم متّعظون، والمراد أن يوصيهم بالثّقة وترك الاقتراح عليه.

قيل: نزلت في أهل الكتاب حين سألوا أن ينزل الله عليهم كتابًا من السّماء.

وقيل: نزلت في أهل الكفر والمشركين لمّا قالوا لن نؤمن لك حتّى تنزّل كتابًا نقرؤه، وهذا كما قالوا لموسى ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: 55] ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: 138].

والصّحيح والله أعلم أنّها نزلت في اليهود حيث قالوا لِمحمّد ائتنا بكتاب من السّماء نحمله كما أتى موسى بالتّوراة لأنّ هذه السّورة مدنيّة يصدّقه قوله ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ [النساء: 153] ومن ترك الثّقة بالآيات وثبتك فيها واقترح غيرها ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة: 108] الطّريق اقترحوا من المنة وسط السّبيل حتّى وقعوا في الكفر بعد الإيمان، ومعنى الآيات لا تقترحوا [على] الرّسول كما اقترح بنوا إسرائيل من موسى لتضلّوا كما ضلّوا.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني أخيارهم وأحبارهم، نزلت في نفر من اليهود منهم فنحاص بن عاذر وزيد بن قيس، قالوا لحذيفة بن اليمان وعمّار بن ياسر بعد وقعة أُحُد، ألم تريا ما أصابكما ولو كنتما على حقّ ما هزمتما فارجعا إلى ديننا، قال لهم عمّار، كيف نقض العهد فيكم، قالوا: شديد، قال: فإنّي عاهدت أن لا أكفر بمحمّد ما عشت، وقال حذيفة: أمّا أنا فقد رضيت بالله وبمحمّد نبيًّا وبالإسلام دينًا وبالقرآن إمامًا وبالكعبة قبلةً وبالمؤمنين إخوانًا فأنزل الله هذه الآية ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة: 109] لو

للتمنّي، كفّارًا حال من فاعل يردّوكم أو من المفعول أو مفعول له، حسدًا إمّا حال على تقدير يحسدون أو مفعول له من عند أنفسهم متعلّق بيردّ أي في الدّين لأنهم ودّوا ويمنعوا ذلك ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ أي إنّكم على الحقّ، وقوله صدق مصدّق لما معهم ﴿فَٱعۡفُواْ﴾ يجوز أن يتعلّق بحسدًا أي لأجل الحسد النّاشئ من نفوسهم وطباعهم الخبيثة فقدان الحقّ عندهم في التّوراة بأنّ محمّدًا على الحقّ وقوله صدق مصدّق لما معهم ﴿فَٱعۡفُواْ﴾ أي اتركوا عقوبتهم على الذّنب ﴿وَٱصۡفَحُواْ﴾ تجاوزوا عمّا يكون منهم من الجهل والعداوة ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ أي اسلكوا معهم العفو والصّفح إلى أن يأتي الله بأمره وإذنه بعذابهم بالقتل والسّبي لبني قريظة والجلاء والنّفي وضرب الجزية عليهم لبني النّضير أو بالمقاتلة أو بالحكم بينهم بإسلام بعضهم وقتل الآخرين وسبيهم، قيل المراد القيامة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [البَقَرَة: 109] على الأشياء منهم في الدّنيا والآخرة.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٠﴾

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ﴾ عطف على فاعفوا أمر بالصّبر على مخالفتهم وعداوتهم فإنّه يفضي إلى كمال الانقطاع إلى الله والإخلاص في طاعته وعبادته وتخصيصهم بالذّكر إشعار بأنّ الصّلاة ممّا يستعان بها في المقاصد الدّنيويّة والأخرويّة من جلب المنافع ودفع المضارّ، وأمّا الزّكاة فلحفظ النّفس والمال. ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ﴾ أي ما تسلفوا وتمضوا ﴿لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ﴾ بيان لما أي حسنة صلاة أو صدقة أو غيرهما من الأعمال الصّالحة، وقيل: المراد المال النّافع ﴿تَجِدُوهُ﴾ أي ثوابه وجزاؤه مضاعف لثمره ولقيمته مثل أحد مجزوم لكونه جزاء ما تقدموا وهي متضمّنة لمعنى الشّرط ﴿عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [البَقَرَة: 110] وفي الحديث: «**إذا مات العبد قال النّاس: ما خلّف؟ وقالت الملائكة: ما قدّم**»؟ عن أنس بن مالك قال: لمّا ماتت فاطمة بنت رسول الله ﷺ: «دخل عليّ ابن أبي طالب الدّار فأنشأ:

لكلّ اجتماع من خليلين فرقة وكلّ الذي دون الفراق قليل

فإنّ افتقادي واحدًا بعد واحد   دليل على أن لا يدوم خليل

ثمّ دخل المقام وقال السّلام عليكم يا أهل القبور أموالكم قسمت ودوركم سكنت ونساؤكم نكحت وهذا خير ما عندنا فما خير ما عندكم فهتف هاتف وعليك السّلام: «ما أكلنا ربحنا وما قدّمنا وجدنا وما خلّفنا خسرنا»».

﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾

﴿وَقَالُوا۟﴾ أي أهل الكتاب ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾ أي يهوديًّا فحذفت الياء الزّائدة، وقال الأخفش هو جمع هائد مثل عائد وعود وحائل وحول وغائط وغوط، وفي مصحف أبيّ: إلا من كان يهوديًّا أو نصرانيًّا، أي قالت اليهود: لن يدخل الجنّة إلا اليهود والنّصارى ولا دين إلا اليهوديّة والنّصرانيّة، كلّ منهما يثبت دينه وينفي دين صاحبه فألّف بين القولين ثقة بأنّ السّامع يرد إلى كلّ فريق قوله وأمنًا من الإلباس بما علم بين الفريقين من التّمادي في تضليل كلّ واحد صاحبه.

﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ [البَقَرَة: 111] أي الأمور المذكورة من التّمنّي بالردّ إلى الكفر أو القول بأنّ الجنّة لا يدخلها إلا اليهوديّ والنّصرانيّ ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: 80] باطلة كاذبة مفتعلة أو على حذف المضاف أي أمثال هذه الأمور.

أمانيّ جمع أمنية وهي أفعولة من التّمنّي كالأضحوكة والأعجوبة والجملة اعتراضيّة.

﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾ أصله اؤتوا برهانكم فقلبت الهمزة هاء أي هلّموا حجّتكم على اختصاصكم بدخول الجنّة ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [البَقَرَة: 111] في دعواكم فإنّ كلّ قول لا دليل عليه فهو باطل، وفي الكشّاف: هات صوت بمنزلة هاء بمعنى احضر.

إشارة وتأويل

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي القوّة النّظريّة التي هي من أهل التّجلّي

العلمي قد لجأوا إلى النّفس من القلب وقوّته العمليّة والعلميّة ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾ الخطاب إلى النّفس المطمئنّة وقواها العمليّة والنّظريّة باعتبار أنّ أصلها وفطرتها الإسلام والإيمان إشارة إلى السّقوط عن المقامات والأحوال يكون سببه بأشياء من عند أنفسهم ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ وشهوده إمّا نظرًا إلى الفطرة الأولى أو في هذه النّشأة كما يقع لبعض السّالكين كإبليس وبلعام وهاروت وماروت، اللهم اعصمنا من هذه السّقطة، ﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ﴾ إشارة إلى الإرشاد في كيفيّة التّدارك أي اتركوا شدّة العقوبة على القوى النّفسانيّة وأعرضوا عن كثرة الرّياضة وشدّة المجاهدة على القوى البدنيّة ليفضي إلى المشاهدة لا إلى السّآمة والإياسة فلا بدّ وأن تكون رياضتهم على وجه الحكمة ووفق المصلحة ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [البَقَرَة: 109] أي جذبه وتقليبه قلب ابن آدم بين إصبعين من أصابع الرّحمن يقلبه كيف يشاء، جذبة من جذبات الرّحمان توازي الثّقلين، ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البَقَرَة: 110] إشارة إلى ما به الإرشاد أي أقيموا ما يقرّبكم إلى الحقّ ويبعدكم عن الخلق من العلوم النّظريّة والمعارف العمليّة الإلهيّة ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ﴾ الجمعيّة الإلهيّة الكليّة في السّير في الله إلا من كان سائرًا إلى الله أو من الله فردّ الله عليهم بأن لا يدخل جنّتي إلا من تخلّق بأخلاقي وتحقّق بما لي تمام ما لي، قال الله تبارك وتعالى: "**المال مالي والفقراء فقرائي فإنّ شرط الدّخول في جنّتي هي الجمعيّة العظمى والإحاطيّة الكبرى**" ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ [البَقَرَة: 111] أي شرط الجمعيّة الكبرى والحجّة الكليّة العظمى، هذا غاية الإرشاد ونهاية السّوق إلى يوم التّناد.

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ الاستسلام هو الخضوع والانقياد، وبلى إثبات لنفوذه من دخول غيرهم الجنّة ردًّا عليهم على طريق الرّفق والنّصح أي نعم يدخل جنّتي من أسلم وجهه لله وخصّص بتوجّه قلبه من أخلص دينه وعلمه لله عزّ وجلّ والحال ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أحسن تمام خصاله وحسّن عموم فعاله أو خضع وانقاد

وتواضع له، وأصل الإسلام الاستسلام فيجوز أن يكون ردًّا لقولهم ثمّ يقع من أسلم كلامًا مستأنفًا ومن مبتدأ فله أجره خبره والفاء لتضمّنها الشّرط ويجوز أن يكون فاعلًا لفعل محذوف أي بلى يدخلها من أسلم، فله معطوف على يدخلها على من يدخلها من أسلم على شيء يصحّ ويعتدّ به في حذفه مبالغة عظيمة لأنّ المحال والمعدوم الذي يتطاول إليه الوهم يطلق عليه الشّيء فإذا انتفى إطلاق اسم الشّيء فقد بولغ في ترك الاعتداد به إلى ما بعده وهو الإسلام.

قال زيد بن عمرو بن نوفل: «أسلمتُ وجهي لمن أسلمت له الأرض تحمل صحراء ثقالًا وأسلمت وجهي لمن له المزن تحمل عذبًا زلالًا وحالًا ومآلًا».

وإنّما خصّ الوجه بالذّكر لكونه أشرف الأعضاء وأعرف الجوارح والأجزاء ومع المحلّ فجمع المشاعر الظّاهرة والباطنة ومحلّه موضع مطيّة للنّفس النّاطقة ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ في عمله وعلمه ومآله وفي كلّ ما له الإحسان «**أن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك**» ﴿فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ أي لمن وعد له على عمله إشعار بأنّ الإسلام إنّما هو مبنيّ على شيء لا على شيء كما أنّ حال المخالفين يؤول إليه عند ربّه ثابتًا نابتًا ولا يضع لا ينقص ولا يتحوّل ولا يتشقص ﴿وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة: 112] للضيع والنّقص في الدّنيا والعقبى.

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١١٣﴾

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ نزلت في المدينة وفي نصارى أهل نجران وذلك أنّ وفد نجران لمّا قدموا على رسول الله ﷺ أتاهم أخبار اليهود فتناظروا حتّى ارتفعت أصواتهم، فقالت اليهود لهم: ما أنتم على شيء من الدّين وكفروا بعيسى والإنجيل، فقالت لهم النّصارى: ما أنتم على شيء من الدّين وكفروا بموسى والتّوراة فأنزلت ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ معتد صحيح، كان الثّوريّ إذا قرأ هذه الآية قال صدقوا وجه الله، ﴿وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ﴾ الواو للحال والكتاب للجنس، قالوا ذلك وهم أهل الكتاب وحقّ من

جمل التّوراة والإنجيل وغيرهما وآمن بها أن لا يكفر بالثّاني وأنّ كلّ واحد من الكتابين مصدّق للثّاني شاهد بصحّته وكذا كتب الله جميعًا يتوارده على تصديق بعضها ببعض، لا يقال اللّاحق ناسخ للسّابق لأنّ المراد ليس مطلق التّصديق في جميع الأحوال بل المراد أنّ الكتب المنزّلة كلّها من الله، فتكذيب كلّ أحد الآخر تكذيب لنفسه أيضًا ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل الذي سمعته ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ﴾ إيّاهم أو الجهلة الذين لا علم لهم ولا كتاب عندهم كعبدة الأصنام أو المعطّلة أو نحوهم من الضّالين قالوا لذوي الأديان لستم على شيء، وهذا توبيخ عظيم حيث يظلمون أنفسهم مع علمهم في أنّ هنالك علم لا عدم العلم.

فإن قيل: لم وبّخهم وقد صدقوا بأنّهما بعد النّسخ ليسا بشيء، قلت: لم يقصدوا ذلك وإنّما قصدوا به إبطال الدّين مطلقًا مع كونهم كذبًا محضًا لأنّ ما لم ينسخ من أحكام الدّين فهو حقّ واجب العمل لازم القبول في كلّ وقت ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ من الفريقين يوم القيامة ﴿فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ [البقرة: 113] بأن يكذّبهم ويدخلهم النّار بعد إلزام الحجّة عليهم.

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١٤﴾

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ﴾ بالهدم والتّعطيل نزلتا في ططسوس بن استسانوس الرّوميّ فإنّه عبّد بني إسرائيل وسبوا ذراريهم وحرق التّوراة وخرّب بيت المقدس وقذف الجيف والخنازير فكان خرابًا إلى أن بناه المسلمون في أيّام عمر رضي الله عنه.

قال بعضهم: هو بخت نصّر وأعانه ططسوس لأجل قتل يحيى وزكريّا.

﴿أَن يُذۡكَرَ﴾ [البقرة: 114] مفعول بأن لمنع يقول منعته كذا، ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ﴾ [البقرة: 59] ويجوز أن يكون مفعولًا له بمعنى كراهته أن يذكر وهو حكم عام لجنس مساجد الله والمنع من ذكر الله إفراط في الظّلم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي المانعون

وأخلافهم ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ وفي مصحف أُبَيّ الإخفاء حال من فاعل يدخلون. قال ابن عبّاس لم يدخلها بعد عمارتها روميّ إلا خائفين ولو علم به قبل أي لا ينبغي لهم أن يدخلها إلا بالخضوع والتّذلّل والخشوع خوفًا من المؤمنين أو ممّا كان في علم الله وسابق قضائه لهم فتكون الآية وعدًا للمؤمنين بالنّصرة ووعيدًا للمانعين بأن يغلب المؤمنون على الظّالمين ويخلّصون المساجد من أيديهم وقد أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ولا شيء بعده.

قال أهل المعاني: هذا خبر فيه معنى الأمر، يقول: أجهضوا وتيهؤوا للجهاد كي لا يدخلها منهم إلا خائفًا من القتل والسّبي لهم ﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ عذاب وهوان قيل: هو القتل للخزي والجزية للذميّ مقابل [حماية] مدائنهم الثلاث قسطنطينة ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البَقَرَة: 114]، عن أبي هريرة قال: لا تقوم السّاعة حتّى يفتح مدينة هرقل ويؤذّن المؤذّن فيها ويقسم فيها المال بالترس فيقتلون بأكثر أموال رآها النّاس فبينما هم كذلك إذ صرخ صارخ أنّ الدّجّال قد خلفكم في أهليكم فيلقون ما في أيديهم ويجيبونه فيتأمّلون.

قيل: نزلت في مشركي مكّة، والمساجد هو مسجد الحرام منعوا محمّدًا وأصحابه عن الصّلاة فيه وطوافه إلا خائفين، أي أهل مكّة بعد فتحها فنادى رسول الله ﷺ: «**ألا لا يحجّنّ بعد هذا العام مشرك فلا يطوفنّ بالبيت عريان**». والأحناف جوّزوا دخول الكفّار في المسجد، ومالك منعه، والشّافعي مع فارق بين المسجد الحرام وغيره.

وقيل: معناه للنّهي عن تمكّنهم عن الدّخول والتّحلية بينه وبينهم قل يا محمّد لمن يخاصمك في القبلة:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟
فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥)﴾

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ [البَقَرَة: 115] منهم من قال نزلت قبل تحويل القبلة وبعضهم في تحويل القبلة فصلّوا الأصحاب مع رسول الله ﷺ وبدونه، إذ أصابهم الضّباب والظّلام [فعليهم] بالتّحرّي وعليه لو أخطأ المجتهد ثم تبيّن

الخطأ لم يلزم التدارك، فلمّا ذهب الضّباب استبان لهم أنّهم لم يصيبوا فسألوا رسول الله ﷺ، قال بعضهم لمّا صرف القبلة من البيت المقدس إلى الكعبة غيّرت اليهود لمّا نزلت، أو لمّا مات النّجاشيّ وأتى جبريل النّبي عليه السّلام فقال: «**أخاكم النّجاشيّ قد مات فصلّوا عليه**، فقال الأصحاب: كيف نصلّي على رجل مات ولم يصلّ إلى قبلتنا فإنّه كان يصلّي إلى بيت المقدس»، أو لمّا نزلت: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60] قالوا: أين ندعوهُ فنزلت: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ ملكًا وخَلقًا وخُلقًا وتصير الأرض كلّها على تقدير كونها كرة وهو الظّاهر من مشرق ومغرب نظرًا إلى مكان الأقاليم، فإنّ كل مكان من أمكنتها إذا كان طولها أكثر من طول مكّة يكون مشرق بالنّسبة إلى ما هو أقلّ طولًا إذا كان مبدأ الطّول جزاء الخاليات، وأمّا إذا كان مبدأ الطّول كتلة درٍّ فالأمر بالعكس، فلا يختصّ به مكان دون مكان، فمنّ الله على المؤمنين بجعل الأرض كلّها مسجدًا والقبلة واحدًا نسبتها لكونها واسطة بالنّسبة إلى الكلّ على السّواء في أكثر الآفاق إذا ساوى طولها طول مكّة فيصحّ أن يكون متوجّها للكلّ ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟﴾ أي تحوّلوا وتصرفوا وجوهكم في سفركم وحضركم برّكم وبحركم أي ففي أيّ مكان فعلتم التّولية ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ أي ذات الله وعلمه اللّدنيّ في التّحقيق عينه ولذا قال بعضهم معناه فثمّ الله كقوله ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: 88] أي إلا هو وكذا ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: 27] أي ذات ربّك.

وقال البعض: المراد بالقبلة أي قبلة الله فالوجه والجهة هو القبلة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: 115] أي واسع المغفرة لا تتعاظم مغفرته ذنبًا ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: 32].

قال بعضهم: الواسع الغني قال الله عزّ وجلّ: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [الطلاق: 7] قال الفرّاء: هو الجود الذي يسع عطاؤه كلّ شيء ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: 156]، وقيل العالم الذي يسع كلّ شيء ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: 255]، عليم بشأنهم وأعمالهم ونيّاتهم وأفعالهم وأمنياتهم بوجهتهم إلى القبلة حيث صلّوا وكيف صلّوا ودعوا وبمصالحهم وأعمالهم البدنيّة في الأماكن كلّها.

قال بعض السّلف: دخلت ديرًا وكليبة فجاء وقت الصّلاة فقلت لبعض من في الدّير من النّصارى دلّني على بقعة طاهرة أصلّي فيها، فقال: طهّر قلبك عمّا سواه وقف حيث شئت، قال: خجلت.

عن ابن عمر: نزلت في صلاة المسافرين على الرّاحلة.

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ﴾ نزلت في يهود أهل المدينة حيث قالوا عزير ابن الله وفي نصارى نجران حيث قالوا المسيح ابن الله وفي مشركي العرب حيث قالوا: الملائكة بنات، عطف على قالت أو منع مفهوم من أظلم ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ﴾ نزّه وعظّم نفسه عمّا قالوا لاقتضائه التّشبيه والحاجة وسرعة الفناء ألا يرى الأجرام السّماوية مع إمكانها وفنائها في نفسها فصلها وجنسها لمّا كانت باقية ما دام العالم لم يتّخذ الحيوان والنّبات من الولد اختياريًّا أو طبيعيًّا لعدم احتياجها إليه فخالقها أحقّ من أن لا يتّخذ ولا يحتاج إلى ما يحتاج ما في جوفها من العناصر والمركّبات ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ عبيدًا وملكًا ومخلوقًا ومرتدًا ردٌّ لما قالوا واستدلال على فساد عقائدهم وبداء مقاصدهم إلى ما إليه مالوا لأنّ الملائكة وعزير والمسيح من جملة ما في السّموات والأرض وهما مخلوقان فالذي يجريانه عليه أليق وأولى وأحقّ من أن يكون مخلوقًا سيّما من كان لهما في وجوده مدخل تامّ وتأثير عامّ ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ﴾ [البقـرة: 116] متفادون مطيعون مقرون بالعبوديّة أو قائمون بالشّهادة إذ أصل القنوت القيام.

سئل رسول الله ﷺ: «أيّ الصّلاة أفضل قال عليه الصّلاة والسّلام: **طول القنوت**».

وقيل مطيلون ﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ [الزمر: 9]، وقيل دائمون ﴿وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ [البقرة: 238] أي لا يمتنعون عن المشيئة والتّكون.

كلّ لمن هذا بهذه الصّفة لم يجانس أحدًا فلن يكن له ولد لأنّ من حقّ الوالد

وأنّ ما يعني الذي لغير ذوي العلم.

وقال قانتون على تغليب إلى تحقيرًا لشأنهم و[تكون] كلٌّ عوض عن المضاف إليه أي كلّ ما فيها ويجوز أن يراد كلّ من جعلوه إلٰهًا مطيعون له مقرونًا بالعبوديّة فيكون إلزامًا بعد إقامة الحجّة.

والآية مشعرة على فساد ما قالوا من ثلاثة أوجه: الأوّل: أنّ مبدع السّموات والأرض وهي أجسام عظام لا تستقيم أن توصف بالولادة لأنّ الولادة من الأجسام المركّبة ومخترع الأجسام لا يكون من جنسها، والثّاني: أنّ الولاية لا تكون إلا من زوجين من جنس واحد وهو متعال عن مجانس لم يصحّ أن يكون له صاحبة، والثّالث: أنّه ما من شيء إلا وهو خالقه ومن كان بهذه الصّفة كان بذاته غنيًّا عن كلّ شيء والولد إنّما يطلبه المحتاج.

وتمسّك بهذه الآية الفقهاء بأن من ملك ولده عتق عليه لأنّه تعالى نفى الولد بانتساب الملك لما فيها من التنافي.

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مرفوع مبتدأ من باب إضافة الصّفة المشبّهة إلى فاعلها كقولك: فلان بديع الشّعر أي بديع شعره، أو كقولك فلان ثبت القدر أي ثابت فيه القدر، أو منصوب بأعني أو مجرور بأنّه بدل من ضمير له والمعنى: أنّه عديم النّظير والمثل فيهما.

وقيل: البديع بمعنى المبدع أي المنشئ غير سبق مثال، قيل: هو الإخراج من العدم إلى الوجود بلا مادّة ومدّة.

﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ أي قدره وأراد خلقه، وأصله إتمام الشّيء وإحكامه، وإذا أراد شيئًا ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: 117] مراد من كان التّامّة أي أُحدث وكُوِّن فيحدث ويتكوّن، قرئ بنصب النّون.

واعلم أنّ السّبب في هذه الضّلالة أنّ أرباب الشّرائع المتقدّمة كانوا يطلقون الأبّ على الله باعتبار أنّه السّبب الأوّل حتّى قالوا: إنّ الأبّ هو الربّ الأصغر

والله سبحانه وتعالى هو الأبّ الأكبر، فالجهّال منهم ظنّوا أنّ المراد به هو الولادة ولذلك كفر قائله ومنع منه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ١١٨﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي اليهود والنّصارى أو مشركو العرب أو الجاهلون من أهل الكتاب ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ هلا يكلّمنا الله عيانًا بأنّك رسول الله كما تكلّم الملائكة وكلّم موسى استكبارًا منهم وعتوًّا ﴿أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌۗ﴾ تكون حجّةً على صدقك فالأوّل استكبار والثّاني جحود لأن يكون ما آتاهم الله استهانة به وعنادًا ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ أي مثل ما قالوا لك كما قال الذي كانوا لا يعلمون من قبلهم ﴿مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أي قول الذين عبدوا الأصنام أرنا الله جهرة وهل يستطيع ربّك أن ينزّل علينا مائدةً من السّماء ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْۗ﴾ أي قلوب اليهود والنّصارى تشبيه قلوب الكفّار عبدة الأصنام في الكفر والقساوة أو في العمى والعناد قرئ بتشديد الشّين ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البَقَرَة: 118] ينصفون فيوقنون أنّها آيات الله يجب الاعتراف بحقيقتها والإذعان أو يطلبون اليقين أو يوقنون بثبوت الحقائق في الآيات.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًاۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ١١٩﴾

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [البَقَرَة: 119] أي متلبّسًا بالحقّ ومؤيّدًا بالحق والصّدق من قولهم محقّق في دعواه إذا كان صادقًا ويستنبؤونك أحقّ هو أي أصدق أو ما أرسلناك عبثًا بل أرسلناك بالحقّ لا بالباطل ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأحقاف: 3] أو بالقرآن بل كذّبوا بالحقّ لمّا جاءهم أو بالإسلام ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ﴾ [الإسراء: 81] ﴿بَشِيرًا﴾ مبشّرًا لأوليائي وأهل طاعتي بالثّواب الكريم والأجر العظيم ﴿وَنَذِيرًاۖ﴾ [البَقَرَة: 119] منذرًا مخوّفاَ لأعدائي وأهل معصيتي بالعذاب الأليم بنار الجحيم فليس عليك إلا

التّبليغ لا الإصرار والمبالغة في الدّعوة والإخبار عن الإيمان وهذه تسلية لرسول الله وتسريته عن الكرب حيث ضاق صدره واغتّم لإصرارهم وتصميمهم على الكفر ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [البَقـرَة: 119] نزلت إذ قال النّبيّ ﷺ ذات يوم: «**ليت شعري ما فعل أبواي**» وقيل نزلت حين قال عليه السّلام: «**لو أنزل بأسه على اليهود لآمنوا**».

وقرئ بالجزم على أنّه نهى رسول الله ﷺ عن السّؤال عن حالة أبويه أو تعظيم لعقوبة الكافر فكأنّها لفظًا عنها لا يقدر أن يخبر عنه أو السّامع أن يستمع خبرها والجحيم والحجمة والحجم معظم النّار.

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ﴾ هي بإسراعها لعباده على لسان أنبيائه من أمللت الكتاب إذا أمليته وكتبته وذلك أنّهم كانوا يسألون النّبيّ ﷺ الهدنة والمهلة ويطمعونه ويرونه إذا هادنهم وأمهلهم اتّبعوه ووافقوه فأنزل الله.

قال ابن عبّاس هذا في القبلة وذلك أنّ يهود المدينة ونصارى نجران كانوا يرجون أنّ النّبي لمّا صلّى على قبلتهم أن يوافقهم في دينهم وإذا انصرف عنها إلى الكعبة شقّ عليهم وأيسوا منه، ملّتهم أي قبلتهم ودينهم مبالغة في اقتناط الرّسول على إسلامهم فإنّهم إذ لم يرضوا منه غير اتّباع ملّتهم فكيف يتّبعون ملّته ودينه ولعلّهم قالوا مثل ذلك فحكى الله عنهم ولذلك قالوا: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد تعليمًا للجواب ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ﴾ أي الذي هو الإسلام هو الهدى إلى الحقّ لا ما تدعون إليه أي الهداية منحصرة على الإسلام والذي سمعوه بالهدى إنّما هو الهدى والضّلالة والقوى ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ أي آرائهم الرّائقة وأقوالهم الشّائقة هي أهواء وبدع وإغراء ومنع ﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ﴾ أي من الذي هو معلوم صحّته بالبراهين الصحيحة والنّواميس الصّريحة والوحي ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البَقـرَة: 120] أصلًا لا في الظّاهر ولا في الباطن لا قليل ولا كثير

ليحفظك عن الأعداء ويدفع ضرر العداوة وينصرك ويعينك في دفع الإشارة ورفع الإهانة ويؤيّدك بالنّصر والإعانة.

إشارة وتأويل

بل من أسلم وجهه لله أي لا يدخل جنّة تجلّيات الذّات والصّفات والأفعال والآثار بخلوص النّيات وصفات الطّويات أو في كمال جمعيتهما أو جمال كليّتهما وجلال وحدة هيئة أحديتها وواحديتها في إحاطة دورتهما وجمعيّة كورتهما إلا من بذل مهجته وأخلص نيّته لله وبدّل أمنيته برضاء الله وهو في توجيهه إليه محسن بلا رؤية المعارضة وترك الرّوية في المعارضة أو بفناء ذلّته وصفائه في ذات الله وصفاته ولتحقّقه ببقائه فيزول عنه خوف الفراق وحزن منع الحجاب وهم عون الافتراق أو أعتق نفسه عن عبوديّة غيره وهو محسن بأداء العبوديّة وتعب بمراعاة أدائها والمحافظة على أسبابها فله أجر شهود المعبود عند مليك مقتدر.

قال ابن عطاء من جعل طريقه ووجهه ومراده وقصده وتدبيره لله فلا يبقى له وجه إلا إلى الله ولا عكوف إلا على الله ولا صروف إلى غير الله ولا عطوف إلا إلى الله وهو محسن برؤية الحقّ بسرّه وفؤاده ويشاهده بحقائق معرفته ويطالعه بمعاني إخلاصه وصفاء رؤيته وضياء طويته بكمال اختصاصه.

وقالت اليهود ليست النّصارى على شيء أي قالت يهود القوة العمليّة ليس نصارى القوة النّظريّة على شيءٍ من المرتبة الكليّة الجمعيّة وكلا الفريقين صادقان لعدم اتّصافهما بشيء من نعوت الجمعيّة، وهم يتلون الكتاب أي كتاب تجلّيات الجمعيّة الذّاتيّة والصّفاتيّة في ضمن تجلّياته بصفة الكلام عليهم في كلّ شيء يكون بكلمة كن كذلك أي مثل قول أصحاب دورة اسم غير اسم هو مرتبتهم، قال الذين لا يعلمون الكتاب التّجليات المذكورة مثل قولهم لعدم وصولهم في المرتبة الجمعيّة وانتفاء تحقّقهم بخصائص أحديّتها منها وخصائص لوازم واحديتها فالله يحكم أي الذّات الجامعة للكلّ يحكم بينهم عند إيصالهم إلى المرتبة الجمعيّة يوم القيامة أي يوم الوصول إلى هذه الجمعيّة لدى انتقال فرداريّة من دورة إلى أخرى أو إلى كورة أعلى وأحرى، ومن أظلم ممّن منع مساجد الله،

المانع هو النّفس اللّوامّة أي القلب البالغ في كمال الجمعيّة أن يذكر فيه اسم الله الأعظم الجامع للكلّ، أي شهوده بجميع الأسماء والصّفات بشغلهم وبإيذائهم واشتغالهم بتدبير النّفوس وتربية أبدانهم وسعى في خرابها بمنع الذّكر وشهوده فيها كمنافقي قوى النّفس اللّوامّة ما كان لهم أن يدخلوها ويتوجّهوا إلى القلب الجامع والغيب البارع إلا خائفين بأن عينهم إلى المرتبة النّفسانيّة ويدفعهم نحو التّدبيرات الجسمانيّة وإدراك الشّهوات الحيوانيّة لهم في الدّنيا أي للقوى النّظريّة في الطّور القالبي والنّفسي جزئي هو أن يفتح مدائن النّفس البهيميّة ودفائن جواهر الإدراكات الوهميّة، ومنعها عن جزاء مقتضاها وإمضاء مرتضاتها على وفق ترتيب القوّة النّظريّة للمقدّمات الوهميّة والقضايات الخياليّة لدى انقياد القوّة الواهمة والحالات الفاهمة للعقل الصّريح والنّقل الصّحيح وفي الآخرة البرزخيّة الكبرى والجمعيّة العظمى المخالفة للعقل الصّريح وعالمه أو هو ملكات رؤية وهيئات دنيّة ثابتة في البرزخ المعادي أبد الآباد من يوم التّناد يعذّب بها صاحبها إلى أن يتبدّل العذاب بالعذب ويتحوّل اليابس بالرّطب عذاب عظيم ومخالفة لمقتضى طباعها وهو التّصرّف في الحسّيّات والوهميّات ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ أي عالم الصّورة والمعنى أو العلم والعين أو الرّوح والجسد أو الوحدة والكثرة أو السّموات والأرض ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ أي مكان وجهه وأيُّ قطر رسمت يتوجهوا إليه ويقولوا ذلك ذات الله لأنّه بكلّ شيء محيط ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: 115] يسع الكلّ من العلويّات والسّفليّات ولا يخرج من كمال سعته وتمام إحاطته وشمول علمه شيء من الجواهر والأعراض بل له ما في السموات والأرض من الجواهر النّورانيّة والفواخر الضموريّة من الملائكة العالية المدبّرة والنّفوس المدبّرة مظهرًا ومرآةً يظهر فيها جميع أسمائه وصفاته إذ له في كلّ شيء ظهور مصراع:

ألا كلّ شيء ما خلا الله باطل وكل نعيمٍ لا محالة زائلُ

بديع السّموات والأرض أي الظّاهر فيهما بل يتعيّن فيهما أو بهما أو بما لهما ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ﴾ أي القوى الجسمانيّة والنّفسانيّة أو النّظريّة والعمليّة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: 118] ولا يدركون إدراكًا لا حصوليًّا ولا حضوريًّا من كان

ظاهرًا في السّموات والأرض أي في الدّورات النّوريّة الجماليّة والكورات الظلّيّة الجلاليّة أو في الأدوار الإفراديّة والجمعيّة والكورات البسيطة والمركّبة أو الأكوار الظلّيّة أو التّجلّيات الذّاتيّة أو الصّفاتيّة والأفعاليّة والآثاريّة.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ عن ابن عبّاس نزلت في أهل السّفينة الذين قدموا مع جعفر بن أبي طالب بصفّة وكانوا أربعين رجلًا اثنان وثلاثون من الحبشة وثمان من رهبان الشّام ومنهم بحيرا، ونزلت في نفر من العلماء الذين كانوا من اليهود مثل عبد الله بن سلام وسعد بن عمرو وغيرهم.

وقيل هم الذين آمنوا عامّة.

﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ أي يصفون محمّدًا حقّ الوصفيّة. قال بعضهم الضّمير للكتاب أي يحلّون حلاله ويحرّمون حرامه، ويقرأونه كما نزل من غير تحريف، أو يتّبعونه حقّ اتّباعه ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: 121] حيث آثروا الكفر بالإيمان، وكفروا وستروا الإيمان بالكفر.

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾﴾

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ وقد عرفت النّعم في الآية التي ذكرت فيما تقدّم ﴿وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: 122] في زمانهم لا في الأزمنة كلّها.

﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

وإنّما مرّ بذكر النّعم وأردفهم بالتّحذير وكرّر الآية إيذانًا بأنّ ترادف النّعم

يورث الغفلة التي توجب في إفضال النّعم الفترة في الشّكر وإيماء بأنّ إبقاء النّعم أيضًا نعمة، ففي كلّ وقت يوجب الشّكر، فالنّعمة الواحدة تتضمّن نعمًا غير متناهية من وجهين: أحدهما للشّكر ونعمة أيضًا تقتضي الشّكر الآخر إلى غير النّهاية، والثّاني إبقاؤها في الأزمنة المتتابعة.

﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ﴾ [البقرة: 124] في اللّغة والإعراب ابتلى ماضٍ من البلاء وهو الكلفة، قرئ إبراهيم بالنّصب وربّه فاعله أي كلّفه بأمور أواخر وهو مجاز عن تمكينه العبد من اختيار الأمرين مراد الله ومشيئته العبد، وقرأ البعض برفع إبراهيم بمعنى دعاه بكلمات الله وسأله، وفيه أربع لغات بلا ألف في البين وإبرهام بألف واحدة بين الهاء والميم وأبراهام بألفين وإبراهيم بين ألف الرّاء والهاء وهو ابن تارخ بن ناخور بن أرغو بن قالع بن غابر بن شالخ بن أرمخشد بن سام بن نوح مولده بالسوس من أرض أهواز وقيل بابل وقيل كوثر وقيل كسكر وقيل قوم حرّان وأبوه نقله إلى بابل أرض نمرود بن كنعان بن سحارب بن كوس بن سام ابن نوح وهو أوّل من وضع التّاج على رأسه وادّعى الرّبوبيّة.

أمّا الكلمات التي ابتلى إبراهيم فثلاثون منها هي شرائع الإسلام ما أقامها كلّها إلا إبراهيم عشرة في براءة ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة: 112]، وعشرة في الأحزاب ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْقَـٰنِتَـٰتِ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلصَّـٰدِقَـٰتِ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰبِرَٰتِ وَٱلْخَـٰشِعِينَ وَٱلْخَـٰشِعَـٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَـٰتِ وَٱلصَّـٰٓئِمِينَ وَٱلصَّـٰٓئِمَـٰتِ وَٱلْحَـٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَـٰفِظَـٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب: 35] وعشرة في المؤمنون ﴿۞ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ

ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾﴾.

عن ابن عباس أنّها عشرة: خمس في الرّأس وخمس في الجسد؛ قصّ الشّارب والمضمضة والاستنشاق والسّواك وفرق الرّأس، والتي في الجسد؛ تقليم الأظافر ونتف الإبط وحلق العانة والختان، والحكمة في الختان شيئان: أحدهما التّطهّر من البول المتحلّل في المقطوع والثّاني تسهيل إنزال المنيّ لأنّ القدر لدى الانتشار يتطوق الختن به فيقبضه ويضغطه فيضيق مجرى المنيّ فلا ينزل كما ينبغي، وله أخرى أخفى منهما وهو صوريّ ومعنويّ: أمّا الصوريّ فهو بكمال الخلق وتعديل الوصف وتحسين الخلق ولذا أوحى الله [إلى] إبراهيم الخليل: يا خليل حسّن خلقك ولو مع الكفّار تدخل مدخل الأبرار، وأخبر عن حبيبه ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: 4] وخصائص قطع الخارج والاستنجاء بالماء [وقال] مجاهد هي الآيات التي بعدها ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: 124] إلى آخر القصّة.

قال البعض مناسك الحجّ كالطّواف والسعيّ والإحرام والرّمي والتفريق وغير ذلك، [قال] الحسن وهي سبعة بالكواكب والقمر والشّمس فأحسن في ذلك وبالنّار والهجرة والذّبح والختان فاصبر على الكلّ صبرًا جميلًا والآخر ابتلاه في ماله ونفسه وولده فعمّ ماله إلى الضّيفان وولده إلى القربان ونفسه إلى النّيران وقلبه إلى الرّحمن فاتّخذه خليلًا.

وقيل هي سهام الإسلام وهي عشرة: شهادة أن لا إله إلا الله وهي الملّة، والصلاة وهي الفطرة، والزّكاة وهي الطّهرة، والصّوم وهو الجنّة، والحجّ وهي الشّريعة، والعزّ وهو النّصرة والطّاعة وهي العصمة، والجماعة وهي الألفة والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر وهو الوفاء والحجّة.

﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ إمّا وفاءً أو قيامًا ﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ﴾ يا إبراهيم ﴿لِلنَّاسِ﴾ جميعًا ﴿إِمَامًا﴾ مقتدًى به ومقصودًا من الأمر وهو القصد فما من صاحب دين وملّة إلا ويدّعي أنّه على ملّة إبراهيم ودينه ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ وأولادي وأحفادي أصله من الذّرّ وهو الولد الصّغير عطف على الكاف كأنّه قال: وجاعل بعض ذريّتي كما يقال لك أكرمك فتقول وزيدًا. وقيل من

الذّراء وهو الخلق فخفّف الهمزة وأدخل التّشديد عوضًا كالبريّة. قال الله تعالى في جواب إبراهيم ﴿لَا يَنَالُ﴾ أي لا يصيب ﴿عَهْدِى﴾ أي رحمتي أو طاعتي أو نبوّتي أو إمامتي ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: 124] وقرئ الظّالمون أي من كان ظالمًا من ذريّتك لا ينال استخلافي وعهدي ورحمتي إليه بالإمامة.

وفي الكشّاف وإنّما ينال من كان عادلًا بريًّا من الظّلم، وهو دليل على أنّ الفاسق لا يصلح للإمامة وكيف يصلح لها من لا يجوز حكمه وشهادته ولا تجب طاعته ولا يقبل خيره ولا يقدّم للصّلاة.

وكان أبو حنيفة رحمه الله يفتي سرًّا بوجوب نصرة زيد بن علي وجمع المال إليه والخروج معه على النصر، والتغلب المشتهر بالإمام والخليفة كالدّواء ينقي وأشباهه. قال له مرة أشرت إلى ابني بالخروج مع إبراهيم ومحمّد ابني عبد الله ابن حسن حتّى قتل، فقال: ليتني مكان ابنك، وكان يقول في المنصور وأشياعه لو أرادوا بناء مسجد وأرادوني على عدّ أجره لما فعلت.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِۦمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥﴾

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ﴾ وهو اسم غالب للكعبة كالنّجم للثّريّا ﴿مَثَابَةً﴾ من خفاء ﴿لِّلنَّاسِ﴾ أي للكلّ لا يختصّ به واحد منهم سواء العاكف فيه والباد معاذا أو ملجأ ومن دخله كان آمنًا أو مجمعًا ﴿وَأَمْنًا﴾ مأمنًا مأمنون فيه.

[قال] ابن عبّاس: من أحدث حدثًا خارج الحرم ثم التجأ أمن من أن يباح فيه وإذا خرج منه أقيم عليه الحدّ، ومن أحدث في الحرم أقيم عليه الحدّ فيه. ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِۦمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: 125] قرئ على الماضي والأمر على إرادة القول وقلنا اتخذوا من مقام إبراهيم موضع صلاة يصلّون فيه استحبابًا لا وجوبًا أو عطف المقدّر عاملًا لأنّ أو اعتراض معطوف على بعض تقديره توبوا إليه واتّخذوا على أنّه خطاب لمحمّد وأمّته. قال النّبيّ ﷺ لعمر: هذا مقام إبراهيم فقال أفلا تتّخذه مصلّى

أراد به تبرّكًا وتيمّنًا بموطئ قدم إبراهيم فقال عليه السّلام لم أؤمر فلم تعقب الشّمس حتّى نزلت وهو الحجر الذي فيه أثر قدميه. قال بعضهم: والحرم كلّه مقام إبراهيم والبعض الآخر المسجد كلّه مقام إبراهيم أمروا بالصّلاة فيه ولم يؤمروا بجهته في القبلة والقبيلة، وأمّا قصّته فعن ابن عبّاس قال لمّا أتى إبراهيم بإسماعيل وهاجر فوضعهما بمكّة وهي في ذلك الزّمان ما كان فيها عمارة ولا كلأ ولا ماء فلمّا غاب عنهما أخذت هاجر تتردّد بين الصّفا والمروة طالبةً للماء وكان إسماعيل صغيرًا تركته في موضع وهو يلعب في موضع قدميه ويحفره فإذا ظهر فيه ماء فلمّا أيست هاجر عن عود إبراهيم عادت إلى إسماعيل فوجدت عنده ماءً شكرت الله وحمدته وشرّبته منه فلمّا مضت مدّة نزلها الجرهميون من مكّة فوجدوا فيها [ماء] سكنوا فيها وكبر إسماعيل وتزوّج منهم امرأةً، وماتت هاجر.

مطلب استئذان الأزواج

استأذن إبراهيم سارة أن يأتي هاجر فأذنت له بشرط أن لا ينزل عليها فقدم وقد ماتت هاجر فذهب إلى بيت إسماعيل فقال لامرأته: أين صاحبك قالت: ههنا ذهب يتصيّد فقال لها إبراهيم: هل عندك ضيافة وطعام، قالت: لا وما عندي أحد فأساءت الأدب ولم تعظّمه فقال لها إبراهيم إذا جاء زوجك فاقرأي عليه السّلام وقولي له فلتغيّر عتبة بابك. وذهب إبراهيم فجاء إسماعيل ووجد ريح أبيه فقال لامرأته هل جاءك أحد، قالت: جاءني شيخ صفته كذا وكذا كالمستخفّة بشأنه قال ما قال، قالت: قال إذا جاءك زوجك إقرئي عليه السّلام وقولي له فلتغيّر [عتبة] بابك، فطلّقها وتزوّج أخرى، فلبث إبراهيم ما شاء ثم استأذن تارةً أخرى أن يزاور إسماعيل فأذنت أيضًا على أن لا ينزل، فجاء إبراهيم إلى باب إسماعيل فقال لامرأته: أين صاحبك؟ قالت ذهب يتصيّد وسيجيء الآن إن شاء الله فانزل يرحمك الله، قال لها هل عندك ضيافة، قالت: نعم فجاءت باللّبن واللّحم فدعا لها بالبركة، ولو جاءت يومئذ بخبز أو شعير أو تمر لكانت أكثر أرض الله بُرًّا وخبزًا وتمرًا، فجاءته بالمقام فوضعته عن شقّه الأيمن فوضع قدمه عليه فبقي أثر قدمه عليه فغسلت شقّ رأسه الأيمن ثمّ حوّلت المقام إلى شقّه الأيسر فغلست شقّ رأسه الأيسر فبقي أثر قدمه عليه فقال: إذا جاء زوجك فاقرئيه السّلام

وقولي له: قد استقامت عتبة بابك، فلمّا جاء إسماعيل وجد ريح أبيه فحكته زوجته وبالغت في وصف إبراهيم قالت غسلتُ رأسه فهذا أثر قدميه ـ أو مقام إبراهيم ـ الموضع الذي قام فيه ودعا النّاس إلى الحجّ.

﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ أي أمرتهما وأوصينا إليهما، ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ﴾ [البقرة: 125] يعني الكعبة أي أتيا على الطّهارة والتّوحيد أو طهّرا بيتي من الأوثان والرّيب وقول الزّور، قال النّبيّ ﷺ: «**إنّ الله أوحى إليّ يا أخا المرسلين يا أخا المنذرين أنذر قومك أن يدخلوا بيتًا من بيوتي إلا بقلوبٍ سليمة وألسنة صادقة وأيد ثقة وفروج طاهرة ولا يدخلون بيتًا من بيوتي ولأحد عندهم مظلمة فإنّي ألقاه ما دام قائمًا بين يديّ يصلّي حتّى يؤدّي تلك الظلامة إلى أهلها فأكون سمعه الذي يسمع به وأكون بصره الذي يبصر به يكون من أوليائي وأصفيائي ويكون جاري مع النبيين والصّدّيقين والشّهداء والصّالحين**».

قال بعضهم: يجزاه وخلقناه

قال عليه السّلام: «**جنّبوا مساجدكم غلمانكم أي صبيانكم ومجانينكم و. . . . . . . سيوفكم وارفعوا أصواتكم وحدودكم وخصومكم وبيعكم وشراكم وخمّروها يوم جمعكم واجعلوا على أبوابها مطاهركم**».

﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾ أي المقيمون عنده وهم سكّان الحرم أو المعتكفون فيه ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: 125] أي المصلّين جمع راكع وساجد مثل شاهد ومشهود.

قال عليه السّلام: «**إنّ لله سبحانه وتعالى في كلّ يوم مائة وعشرين رحمة ينزّل على هذا البيت ستّون للطّائفين وأربعون للمصلّين وعشرون للنّاظرين**».

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ أي مكّة مأمونًا أو ذا أمن كقولك في

عيشةٍ راضيةٍ أو آمنًا أهله كقولك ليلٌ نائم ﴿وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ معطوف على اجعل ﴿مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾ مَنْ بدل من أهله تدلّ على البعض للتّخصيص ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ﴾ [البقرة: 126] عطف على من يعني وارزق المؤمنين من أهله خاصّةً ومن كفر بالتّبعيّة ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ [الأعراف: 32]، ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا﴾ منصوب على المصدر أو على الظرفيّة أي تمتع قليلًا خبر من كفر فالكفر سبب القلّة والاضطرار إلى عذاب النّار لا التّمتّع وإنّما خصّص إبراهيم المؤمنين بالرّزق قياسًا على الإمام وفرّق بينهما بأنّ الاستخلاف غير ضروريّ وله شروط بخلاف الرّزق فإنّه ضروريّ غير مشروط فلا يلزم من كون الكفر سببًا للاضّطرار والقلّة كونه سببًا لانتفاء الرّزق ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود: 6] ﴿ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: 126] المرجع والمخصوص بالذّمّ محذوف وهو العذاب.

﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧﴾

﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ [البقرة: 127] حكاية حال ماضية والقواعد جمع قاعدة وهي الأساس والأصل لما فوقه صفة غالبة بمعنى الثّابتة وقع الأساس والبناء عليها إذ به ينتقل من هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع.

قالوا: خلق الله موضع البيت قبل الأرض بألفي عام، كانت زبدة بيضاء على الماء فدحيت الأرض من تحتها فلمّا أهبط الله تعالى آدم عليه الصلاة والسلام إلى الأرض كان رأسه يمسُّ السّماء حتّى صلع وأورث أولاده الصّلع فنفر من هيبة طوله دوابّ البرّ فصارت وحشيًّا من ذاك اليوم وكان يسمع كلام أهل السّماء ودعاءهم وتسبيحهم فيها صابت الملائكة واشتكت إلى الله فقبض طوله إلى ستّين ذراعًا من ذراعه فلمّا اشتكى آدم إلى ربّه من فقدان ما كان عليه في الجنّة أنزل الله تعالى ياقوتةً من يواقيت الجنّة له بابان من زمرّد أخضر شرقيّ وغربيّ وفيها قناديل من الجنّة فوضعها على موضع البيت فقال: يا آدم طفها كما تطوف حول العرش وصلّ فيها.

قال النّبيّ عليه السّلام: «**إنّ الحجر ياقوتة من يواقيت الجنّة ولولا ما مسّه المشركون بأنجاسهم ما مسّه ذو عاهة إلا شفاه الله**» فتوجّه آدم من أرض الهند إلى مكّة ماشيًا وقيض الله عزّ وجلّ وعيّن له ملكًا يدلّ على البيت وكانت خطوته مسيرة ثلاثة أيّام وموضع قدمه إن كان عمرانًا كان مفاوز فأتى مكّة وحجّ البيت وأقام المناسك فلمّا فرغ تلقّته الملائكة قالوا: يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام فحجّ آدم أربعين حجًّا من الهند إلى مكّة وكان إلى يوم الطّوفان فرفعه الله إلى السّماء الرّابعة فهو البيت المعمور يدخله كلّ يوم سبعون ألف ملك ثمّ لا يعودون إليه إلى يوم القيامة، وعند الطّوفان بعث الله جبريل حتّى خبّأ الحجر الأسود في جبل أبي قبيس صيانة له عن الغرق وكان موضع البيت خاليًا إلى زمن إبراهيم عليه السّلام، ثمّ أمر الله إبراهيم بعد ولادة إسماعيل وإسحاق عليهم السّلام ببناء بيتٍ يعبد الله ويذكر فيه فلم يدرِ إبراهيم أين يبني فسأل الله أن يبيّن له موضعه فبعث الله إليه السّكينة وهي على ما بيّن أمير المؤمنين عليّ ابن أبي طالب ريح جموح لها رأسان شبه الجبّة فيتبعها إبراهيم حتّى أتت مكّة على موضع البيت.

قال ابن عبّاس: هي سحابة وإبراهيم يمشي في ظلّها إلى أن وقفت موضع البيت فبنى على قدرها بلا زيادة ونقصان، فإبراهيم يبني وإسماعيل يناول الحجر وإبراهيم يتكلّم بالسّريانيّة وإسماعيل بالعربيّة، فيقول إبراهيم لإسماعيل: هب لي لبنًا، ويقول إسماعيل: هاك الحجر فخذه فبقي في موضع حجر فإسماعيل يتبعه ويطلبه، فجاء جبريل بحجر من السّماء فأتى إسماعيل فقال: من أتاك بهذا الحجر، فقال: أتاني من لم يتّكل على بنائك، فأمّا البيت فذلك.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾ قيل بنياه من خمسة أجبل: طور سيناء وطور زيتا ولبنان والجودي، وبنيا قواعده من جري، فلمّا انتهى موضع الحجر الأسود قال لإسماعيل: جئني بحجر حسن يكون للنّاس علمًا فأتاه بحجر فقال له: جئني بحجر أحسن منه فإسماعيل يطلبه فصاح أبو قبيس: يا إبراهيم إنّ لك عندي وديعةً فخذها فأخذ الحجر الأسود ووضعه في موضعه.

قيل: إنّ الله أمدّ إبراهيم وإسماعيل بسبعة أملاك فلمّا فرغا قالا ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ بناء البيت ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: 127] دعاءنا عليم بنيّاتنا وما في

ضميرنا. ومن للبيان لما فيه من الإبهام من تفخيم المبيّن، والقول حال من المقدّر أي أتممنا قائلين.

﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾

﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ موحّدين أو مطيعين أو مخلصين، وقرئ بالجمع إمّا لأنّ التثنية من مراتب الجمع ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: 4] أو باعتبار الملائكة ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ أي بعض أولادنا وإنّما خصّ الذريّة بالدّعاء لكونهم صغيرًا بعيدًا عن الإصلاح والنّصح والإفلاح أحناء بالشفقة ولأنّهم إذا أصلحوا أصلح بهم الأتباع. وإنّما خصّ البعض لعلمه أنّ في ذريّته ظلمة ولعلمه أنّ الحكمة الإلهيّة لا تقتضي الاتّفاق على الإخلاص والإقبال الكلّي على الله فإنّه ممّا يشوّش المعاش ويرعش الانتعاش، ولذلك قيل: لولا الحكمة لخربت.

وقيل: أراد بالأمّة أمّة محمّد ﷺ فتكون من للتّبيين.

﴿وَأَرِنَا﴾ أمر من رأى والهمزة للقطع وهو منقول من رأى بمعنى أبصر أو علمنا تجاوز مفعولين ﴿مَنَاسِكَنَا﴾ [البقرة: 128] شرائع ديننا وأعلام حجّنا وإعلامه وما يفعل في المواقف من الطّواف والسّعي والصّلاة أو المواقف التي تتمّم بها شرائع الحجّ كمنى وعرفات والمزدلفة فتكون جمع منسك وهو موضع العبادة أو معبدنا وأصلها غاية العبادة، يقال أنّهُ ناسك أي عابد.

﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البَقَرَة: 128] موحِّدين أو مطيعين أو مخلصين، وقرئ بالجمع إنما لأن التثليث من مراتب الجمع ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: 4] أو باعتبار الملائكة ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ أي بعض أولادنا وإنما خصّ الذرية بالدعاء لكونهم صغيرًا بعيدًا عن الإصلاح والنصح والإفلاح أحقاءً بالشفقة أو لأنهم إذا صلحوا صلح بهم الأتباع. وإنما خصَّ البعض لعلمه أن في ذريته ظلمةً ولعلمه أن الحكمة الإلٰهية لا تقتضي الاتفاق على الإخلاص والإقبال الكلي على الله فإنه مما يشوش المعاش ويرعش الانتعاش ولذلك قيل: «لولا الحكمة لخربت». وقيل: أراد بالأمة أمة محمد عليه السلام، تكون من للتبيين ﴿وَأَرِنَا﴾

أمر من تراءى والهمزة للقطع وهو منقول من رأى بمعنى أبصر أو علّمنا تجاوز مفعولين ﴿مَنَاسِكَنَا﴾ شرائع ديننا وأعلام حجّتنا وإعلامه ما يفعل في المواقف من الطواف والسعي والصلاة أو المواقف التي تقام بها شرائع الحج المكي وعرفات والمزدلفة فتكون جمع منسك وهو موضع العبادة أو معبدنا، وأصلها غاية العبادة، يقال: أنا ناسك أي عابد ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ﴾ أي تجاوز عنّا وارجع علينا بالرأفة والرحمة استتابةً لذريتهما أو عما فرط منها سهوًا، ولعلّهما قالا هضمًا لأنفسهما وإرشادًا لذّريتهما ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البَقَرَة: 128].

﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ١٢٩﴾

﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ﴾ أرسل في الأمة المسلمة ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ من أنفسهم مرسلًا ولم يبعث من ذريتهما غير محمد ﷺ فهو المجابة به دعوتهما كما قال عليه السلام: «**أنا دعوة إبراهيم وبشرى عيسى ورؤيا أمي**»، ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾ يقرأ آياتك عليهم ويبلِّغهم ما يوحى إليه من دلائل التوحيد والنبوة أي كتابك وآياته هي العلامة، وقيل: هي الجماعة ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البَقَرَة: 129] ما تكمل به نفوسهم من المعارف والأحكام والعمل بمقتضاها ولا يسمى الرجل حكيمًا حتى يجمعهما. قيل: كل صواب من العقول يورث فعلًا صحيحًا أو حالًا صحيحًا. قال يحيى بن معاذ: هي جند من جنود الله يرسلها عزَّ وجل إلى قلوب العارفين حتى يروح رهج الدنيا ﴿وَيُزَكِّيهِمْۚ﴾ يطهرهم من الشرك والذنوب ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البَقَرَة: 129] الغالب القاهر الذي لا يقهر ولا يُغلب، والمنتقم الذي لا يوجد مثله كما يقال: «**من عزّ غلب سرَّ وابتهج**» أو القوي كما قال الله تعالى: ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ [يس: 14]، أو الشدّة يقال: شدَّ عزيمتي.

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٣٠﴾

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ أي يعرض ويميل أو ترك دينه وشريعته، يقال:

رغبت في الشيء إذا أردته ورغبت عنه إذا تركته، وأصل الرغبة رفع الهمة عن الشيء، أي لا يرفع نفسه عن دينه ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ استهانها وأذلّها واستخف بها، وأصل السّفاهة الجهل وضعف الرأي، والمستثنى في محل الرفع بدل من الضمير في ﴿يَرْغَبُ﴾ لأنه في المعنى النّفي. قيل: نصب النفس على التميز ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البقرة: 130] الضمير لإبراهيم أي أجزناه في الدنيا بالأمانة بيان الخطأ ورأي من يرغب لأن من جمع الكرامة من الله في النشأتين لم يكن أحدٌ أولى بالرغبة في طريقته منه، وكان حقيقًا بالاتباع ولا يرغب عنه إلا من كان سخيف العقل ضعيف الرأي والإدراك. نزلت حين دعا عبد الله بن سلام لبني أخيه سلمة ومهاجر إلى الإسلام قال لهما: قد علمتما أن الله تعالى قال في التوراة: «أني باعث من ولد إسماعيل نبيا اسمه أحمد فمن آمن به فقد اهتدى ورشد، ومن لم يؤمن به فهو ملعون» فأسلم سلمة ومهاجر.

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾ أي اثبت على الإسلام، الضمير لإبراهيم. قال ابن عباس: قال له ذلك حين خرج من الشرك، قال: أخلص دينك بالتوحيد أو أسلم نفسك إلى الله ففوّض أمرك إليه. وقيل: اخضع واخشع واثبت على علمك، وظرف اصفينا وتعليل له أو منصوب باذكر القدر أي اذكر ذلك الوقت ليعلم أنه المصطفى الصالح المستحق للأمانة والتقدم ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: 131].

إشارة وتأويل

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ﴾ [البقرة: 119] أي التجلي الذاتي والحقيقة المحمدية ظاهرًا بالصور النورانية الروحانية والظلمانية الجسمانية في عالم الأمر والخلق وبما يناسبها من القوى النظرية والعلمية.

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ أي القوى النظرية والعملية ﴿حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ﴾ أي حتى تظهر فيهما وبهما ما يقتضيهما من المعارف النظرية والإدراكات

الحضورية الشهودية التابعة للعمل والنظر.

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ يعني أن الوصول إلى التجلي الشهودي والإدراك الحضوري منحصر على هداية الله وتوفيقه. وأما القوة النظرية والعملية فإنهما مرآتان للتجلي الذاتي وشهوده لا السبب العام له ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ أي خصوصية مقتضى القوى النفسانية والروحانية الظاهرة ﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ اللدني الشهودي الكلي المحيط للكل بل هو الكل ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البَقَرَة: 120] يتولى الأمور كلها.

﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي مانع شهود غير الله فإن خصوصية التجلي الآثاري وغيره يجمع التجلي الذاتي الكلي والصفاتي والأفعالي والآثاري ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي العيني وهو العالم أو العلمي وهو باطن العالم يعني ظاهر العالم وباطنه وما يتبعه ﴿يَتْلُونَهُۥ﴾ يعرفونه وليشهدون ﴿حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ يعني على ما شاهدوا أولًا في المرتبة الواحدية ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي يعرفونه عرفانًا يقينيًا وشهودًا وإيمانًا حقيقيًا ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾ أي يكفر بالتقييد بالمرتبة الواحدة وبما يتبعها من الأنوار المختصة بها ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البَقَرَة: 121] لنعذبهم بما كانوا عليه في الأول من سماع كلام الله وإصغاء خطابه وبعض العقود ورفض العهود الجارية بين العبد والربّ وانصرافهم عن التجلّي المذكور والمشهود والمزبور.

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟﴾ أي القوى العاقلة ﴿نِعْمَتِىَ﴾ [البَقَرَة: 122] التي هي المعارف الفطرية الألوهية وأنهى لكم في المصطبة الأولى والمرتبة الأعلى أو ما يتوقف وتتفرع هي عليه من الاستعداد الذاتي ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا﴾ أي حذّروا نفوسكم من التعرض بصنع القوى الموهوبة لها في يوم الاكتساب ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ نصرة العقل على الهوى في تدارك ما فات عنها فإنها تضمن فوت الحاضرة إذ كل ما فات فقد هلك ومات ﴿وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البَقَرَة: 123] أي عدل أعدل من نصرة العقل على الهوى وأي شفاعة أرفع من شفاعة المولى من نفسه إلى نفسه بالإحسان على الأتقياء.

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ﴾ أي ذكر وقت ابتلاء ﴿إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾ بالتجلي الآثاري بالكواكب والشمس والقمر ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ﴾ الطور الخفي في مقام الجبروت

تجليات الصفاتية الذاتية ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البَقَرَة: 124] بالتيقن والتخلف والتحقق. قال صاحب العرائس: ما خاطبه الله مع روحه في سرادقات الأزل بنعت السرور فيبتهج بها سرّه حتى التهَبَ بنار محبته فيطلب حبيبه بعد بلوغه إلى الكون بصرف الصفات البشرية فابتلاه الله تعالى بمقام القياس حيث قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعَام: الآية 75]، ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ بتجرده عن القياس برؤية الصرف كما قال: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ﴾ [الأنعَام: 79] وأيضًا ﴿ٱبْتَلَىٰهُ﴾ الله تعالى بشغل النبوة بعدما أسكره برحيق الخلَّة. وقال بعضهم: هو حمل الأثقال الخلّة، ثم طالبه بتصحيح شرائطها وهي التجلي عما سواه ظاهرًا وباطنًا، أي جاعلك للناس إمامًا في مقام التمكين في النبوة بعدما كان في الخلوة متلونًا بأطوار الخلّة وتحليته بالأحوال والأعمال الجلية والأفعال الخليَّة في مقام النفس والسّير والروح، إني جاعلك سفيرًا بيني وبين الخلق، متلونًا بأطوار الخلة فنبذهم لاستطلاع الخلوة بالحضرة. قال بعضهم: هو المعاشرة على الظاهرة ولا يؤثر ذلك بينه وبين ربّه فكان مع الخلق على حدّ الإبلاغ والمجاهدة ومع الله على حد المشاهدة.

قال الصادق رضي الله عنه: كان إبراهيم أمام المصطفى، والمصطفى إمام المولى ولا ينال أحدنا إياه لأنه ﷺ نور من نور الله يتلألأ ولا يتم أمره إلا بنور الله ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبَة: 33].

قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ الأعيان الثابتة ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البَقَرَة: 124] أي المرتبة الجمعية والهيئة الكلية بها تستحق لخلافة الإمامة من بعدي عن مقتضى فطرته الإسلامية والهيئة الجمعية التي فطر الناس عليها فقد ظلم نفسه وكتم قدسه.

قال بعضهم: قطب الأنساب عن مواهبة الأنبياء والأولياء لأنه اصطفاهم بالآيات والمعجزات ومنه انتقل بنفسه عن نفسه فإنه انعزل بنفسه عن نفسه. قال الصادق رضي الله عنه: لا ينال محبتي ومشاهدة رايتي من سَكر بمحبة أحد سواي.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ [البَقَرَة: 125] قال الصادق: البيت عهد الله في أرضه فمن دخله فكأنما دخل في عهد الله، ومَن تخلّف عنه فكأنما يخلف عهده

وينقضه. ومقام إبراهيم منشور جلي وهو مقام الجبروت والواحدية وأن الله تعالى أمره بطهارة بيته لأن البيت نور الله وهو المكان الذي سجد فيه روح المصطفى، فيها حرمة إلى أبد الآبدين، والطائفين والعاكفين هم أرواح الأنبياء يطوفون حوله، والرُّكع السجود أرواح الأولياء ونفوس العارفين.

قال الصادق: البيت ها هنا محمد ﷺ فمن آمن به وصدّقه فكأنما دخل في ميادين الأمن والأمانة.

قال بعضهم: البيت قلب المؤمن والنفس المطمئنة، الطائفين القوى النظرية، والعاكفين القوى العملية، والرُّكع السجود النفس العاملة الطائفة.

﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ قال الصادق: أي قلبي الذي هو البلد المزيّن بالمعرفة آمنًا على القطيعة ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ﴾ أي القوى التابعة التي كانت أهلًا لمعرفتك وتوحيدك ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ الشهودية والمعارف الحقيقية الفطرية ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾ أي امنحه شيئًا يسيرًا منها إذ الكفر وسترها عارض لسبب الرسوم البشرية والرقوم العنصرية وما بالذات لا يزول بالعرض. ثم بعد الترددات في النشأة وأدوار التطورات ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ﴾ أوصلته على سبيل الاضطرار وجعلته مضطرًّا ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾ أي نقلته من ظاهر النار التي هي من شأنها جمع المتماثلات وتفريق المتخالفات إلى باطن النار الذي هو العذاب اللذيذ ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البَقَرَة: 126] والحال أنهم كانوا في النشأة يقال في حقهم: بئس مصيركم ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ إلى قوله: ﴿سَعِيرًا﴾ [الانشقاق: 7، 12].

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِۦمُ ٱلْقَوَاعِدَ﴾ قال الصادق رضي الله عنه: الخلة والبيوت المحبة أو القواعد للخليل والبيوت للحبيب وفي القواعد سؤال وفي البيوت إجابة، فالإجابة أفضل من السؤال فلذلك كان نبينا محمد ﷺ أفضل من الخليل وسائر الأنبياء، وإبراهيم هو الطور الخفي، وإسماعيل هو القلب الذي بلغ ذبحه إلى المقام الخفي إشارة إلى النفس الكافرة إذا ترددت في النشأة وتبددت في الدركات واحترقت جلود القيود بنار القطيعة ووصلت إلى المرتبة الجمعية والأحدية الكلية ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القَمَر: 55]، ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ [البَقَرَة: 127] الخلة والمحبة بالتثبت عليها والاستقامة فيها.

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ إشارة إلى السير إلى الله ومن الله ثم في الله، والبرزات في السير في الله ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ أي مقتضيات نشأتنا من العبادات وأحكام النبوات والتحقق في الشهودات الجمعية، أحكام النبوات بأسرار الولايات وأنوار الكرامات بتنوع التجليات.

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ [البَقَرَة: 128] أي مرتبة الطور الخفي إلا من تقيد بطور النفس لسبب العقل المتشبث بأذيال الوهم.

قال الصادق رضي الله عنه: ذكر في الآية أربعة أشياء: الملّة والسّفاهة والصّفوة والصلح والصلاح. الملّة لخليله، والسفاهة لنمروده، والصفوة لحبيبه، والصلح لأمته.

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾ [البَقَرَة: 131] قال الصادق: حقيقة التسليم للخليل وحبيبه العلم والتفويض للمصطفى عليهما السلام ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [غافر: 44]، ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ﴾ إليك سرِّي فخلصته لك وفوّضت علانيتي فخصّصتها بك ليطابقه، وحققهما في التوحيد والتحقيق ليشاهدك في الظاهر بعين الباطن وفي الباطن بعين الظاهر، ووجدك بعين كثرتك والكثرة بعين وحدتك ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمّد: 19] قال الودود بادئ سلامة النفس في التسليم وبلاؤها في التدبير.

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ﴾ الثمانية إسماعيل أمه هاجر القبطية، وإسحاق أمه سارة، ومدين ومدائن وبنفشان وزمران وبشق وسوغ أمهم قطور الكنعانية تزوجها إبراهيم بعد وفاة سارة.

قال بعضهم: هم اثنا عشر [والوصيّة] في اللغة والإعراب التوصية هو التقدم إلى الغير بفعل فيه صلاحه وقوته وأصلها الوصل يقال: وصاه إذا وصله وأوصاه إذا فصله من التقضي، كان الموسى يصل فعله بفعل الوصي وهما لغتان بمعنى

الأمر والقول مثل: أنزله ونزله والضمير في بها للملّة أو لقوله أسلمت على تأويل الكلمة والجملة وقرئ: (أوصى) والأول أبلغ.

﴿وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ﴾ أصله بني أضيف إلى ياء المتكلم وأدغمت ياء الأولى في الأخرى وهم إثني عشر: رويل وربالين، شمعون، لاوي، يهودا، لشمون، هوردان، زبولون، بنيامين، يوسف، يفتالي، جاد. ويعقوب عطف على إبراهيم والنداء إما على إضمار القول أو على أن التوصية هو القول أي قال: يا بنيّ بتقدير أن فيكون متعلقًا بوصى بمعنى: قال إبراهيم لبنيه ونافلته يعقوب وبنوه، وإنما سمي به لأنه والعيص توأمان فقدم عيص في الخروج ثم خرج بعقبه ولذا سمّي يعقوب. أو قيل: لكثرة عقبه. روي عن النبي ﷺ: «**بعث على أثر ثمانية آلاف نبي أربعة آلاف من بني إسرائيل**».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ الإسلام الذي هو صفوة الأديان ومختارها لقوله بدل من ضمير بها أي إعطاؤكم ورفعكم لأخذه أو اختارها هو صفوة الأديان ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [البَقَرَة: 132] أي محسنون بربّكم الظن أو مؤمنون أو مخلصون. قيل: مفوضون ظاهره النهي عن الموت على خلاف الإسلام، والمقصود هو الأمر بالثبات عليه كقولك: لا تصلِّ إلا وأنت خاشعٌ، نزلت حين قالت اليهود للرسول عليه السلام: ألست تعلم أن يعقوب وصّى بنيه باليهودية وقت موته؟ فقال:

﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٣﴾

﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ﴾ أم منقطعة بمعنى بل كنتم شهداء متضمنة للهمزة بمعنى الإنكار وقد أذنت بالإضراب عما قبلها أي ما كنتم حاضرين يعقوب حين احتضار موته، والخطاب حينئذ للمؤمنين، يعني ما شاهدتم ذلك بل إنما حصل لكم العلم به من طريق الوحي. قيل: الخطاب لليهود لأنهم كانوا يقولون ويدّعون أنه ما مات نبيّ إلا على اليهودية. ولو شهدوا أو

سمعوا ما قاله لنبيه وما قاله ليظهر حرصه على ملّة الإسلام ووصيته لهم عليه ولما ادعوا عليه، فالآية حينئذ منافية لقولهم، فكيف يقال لهم: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾؟ فالوجه على هذا أن أم متصلة على أن يقدر قبلها محذوف كأنه قيل: أتدَّعون على الأنبياء اليهودية أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت، يعني أن أوائلكم من بني إسرائيل قد شاهدوا له إذ أراد أن يأمر نبيه على التوحيد وملّة الإسلام وقد علمتم ذلك فما لكم تدَّعون على الأنبياء ما هم منهم براء.

﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى﴾ بدل من إذ الأولى فإن ما بمعنى أي شيء. ولما دخل يعقوب مصر ورأى من أهله مَن يعبدون الأوثان والنيران جمع ولده وخاف عليهم وقال لهم هذا ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ عطف بيان لآبائك، وجعل إسماعيل وهو عمه من الآباء لأن العم أب والخالة أم لانخراطهما في سلك واحد وهو الأخوة. قال عليه السلام: «**عمّ الرجل صنو أبيه**» أي لا تفاوت بينهما كما لا تفاوت بين صنوي النخلة. وقال في العباس: «**هذا بقية آبائي**» ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [البَقَرَة: 133] بدل من إلٰه آبائك كقوله بالناصية: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ﴾ [العَلق: 16].

وفائدته:

التصريح بالتوحيد ونفي توهم الناشئ من تكرير المضاف لتقدير العطف على الجر وبدون التأكيد أو على الاختصاص يريد ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البَقَرَة: 133] حال من فاعل نعبد أو من مفعوله أو جملة معترضة مؤكدة أي ومن حالنا أنّا له مخلصون أو مذعنون.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾

﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى الجماعة المذكورة ﴿أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ ومضيت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ [البَقَرَة: 134] الموصول مع الصلّة فاعل على الظرف والجملتان الظرفية والفعلية صلة أمّة أي حصل وثبت للجماعة المتقدمة ما كسبت من الدين والعمل

﴿وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ منهما، ومجرد الانتساب غير نافع لكم وإنما الانتفاع بالأعمال والإخلاص كما قال عليه السلام: «**يا بني هاشم ألا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم**»، ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [البَقَرَة: 134] بأن لا تسائلون عما كنتم تعملون وهم المجزيون بأعمالهم إن خيرًا فخيرًا وإن شرًّا فشرًّا، فلا تؤخذون بسيئاتهم ولا تُثابون بحسناتهم.

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾ نزلت في رؤوس يهود المدينة وفي نصارى أهل نجران وأصحابهما وذلك أنهم لما خاصموا المسلمين في الدين كل فرقة تزعم أنها أحق بدين الله وقد كفروا بدين الأخرى ونفوا كتابهم ونبيَّهم وكفروا بمحمدٍ وقالوا للمسلمين كونوا على ديننا. ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ أو نكون على ملة إبراهيم وأمرنا ملّته أو نحن أهل ملّته ﴿حَنِيفًا﴾ مائلًا عن الأديان كلها إلى دين الإسلام، أصله من الحنف وهو ميل وعوج في القدم، حال من المضاف أو المضاف إليه ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البَقَرَة: 135] تعريض لأهل الكتاب وغيرهم فإنهم يدعون اتباعه بهم وهم مشركون.

﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾

﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: 136] يعلمهم طريق المؤمنين التوحيد والإيمان. وفي الكشاف: ويجوز أن يكون خطابًا للكافرين أي قولوا هذا القول لتكونوا على الحق وإلا فأنتم على الباطل وفيه ما فيه لعدم مساعدة ما بعده وهو: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أسباط جمع سبط وهو الحافد والذرية أصله من الشجرة الملتفة كثيرة الأغصان وهم ذراري

يعقوب وأبنائهم وفيهم أنبياء، ومنه قيل للحسن والحسين: سبطا رسول الله، وهم من بني إسرائيل كالقبائل من العرب والشعوب من العجم ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾ لا كما قال اليهود: نؤمن ببعض ونكفر ببعض، وتكون أحد نكرة في سياق النفي صح دخول بين عليه ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البَقَرَة: 136] مذعنون مخلصون لما نزلت قرأها رسول الله عليه السلام على اليهود والنصارى وقال: «**إن الله أمرني بهذا**»، وقالت النصارى: إن عيسى ليس بمنزلة سائر الأنبياء لكونه ابن الله فأنزل الله تعالى:

﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣٧﴾

﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ﴾ اليهود والنصارى ﴿بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ أي إيمانًا هو مثل إيمانكم في الجمعية من باب التعجب والتكبيت لعدم مماثلة إيمانهم ودينهم إيمان المسلمين ودين الإسلام. وقيل: الباء للدلالة لا التعدية والصلة أي سلكوا الإيمان مسلكًا مثل طريقتكم ﴿فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ﴾ فإن وحدة المقصد لا ينافي تعدد الطرق إلا أنه في حقهم في حيز الامتناع لمنافاة بينه وبين اعتقادهم ﴿وَّإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ وأعرضوا عما يقولون بهم ﴿فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ﴾ [البَقَرَة: 137] أي ما هم إلا في شقاق الحق أي منافاة ومعاندة لا غير، فإن كل واحد من المتخالفين في شق غير شق الآخر ﴿لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ﴾ [هُود: الآية 89] أي ومخالفتي. وقال بعضهم في عداوة ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله أي عادوا الله أي يخالفه ويختلفه، وإن خفتم شقاق بينهما.

﴿فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾ أمان من الله لإظهار رسول الله عليهم وتسلية للمؤمنين ووعد لهم بالحفظ والنصر على أعدائهم أي يحفظك يا محمد من شر اليهود والنصارى وينصرك مع المؤمنين عليهم بقتل قريظة وسبيهم وإجلاء بني النضير. وفي السّنن دلالة على أن ذلك كائن لا محالة وإن تأخر إلى حين ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالهم وسووا مقالاتهم ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ [البَقَرَة: 137] بأحوالهم من القتل والسبي والجلاء وضرب الجزية وحمل الذلّة في نصارى نجران وبكل ما أبدوا وأخفوا من الحسد والغل والعداوة والمكر والحيل.

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةًۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ١٣٨﴾

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِۖ﴾ [البَقَرَة: 138] أي صبغنا الله في الفطرة الأولى بالإيمان والمعرفة صبغة ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ﴾ [الرُّوم: 30] أي وطهَّر قلوبنا بملأ العلم ونور الإيمان أو نفوسنا بصيغ أحكام الدين وأركان الإسلام نافذًا فيه نفوذ الصبغ في الثوب، أو أرشد عقولنا بصبغ الحجّة والهداية وألوان طرق الاستدلال والدراية. والأصل فيه أن النصارى كانوا إذا ولد لأحدهم ولد أتى عليه أيام غمسوه في مائهم يقال له المعبودي، وصبغوه به ليكون ذلك مكان الختان. وقالوا: الآن صار نصرانيًا حقًّا، وهي مصدر مؤكد منتصب عن لآمنا بالله. قيل: بدل عن ملة إبراهيم ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةًۖ﴾ يصبغ عباده بالإيمان ويطهرهم به من أدناس الكفر فلا صبغة أحسن من صبغة الله حالًا ومآلًا، عاجلًا وآجلًا ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ [البَقَرَة: 138] أي نخص طاعتنا وعبادتنا به تعريض لهم لا نشرك به كشرككم عطف على آمنا وذلك يقتضي دخول ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِۖ﴾ في مفعول (قولوا) ومنه نصبها على الإغراء أي عليكم صبغة الله. أو البدل أن يضمن قولوا عطفًا على الزموا أي اتبعوا ملة إبراهيم وقولوا آمنا، وحتى يلزم فك النظم.

وفي الكشاف: ونحن له عطف آمنا بالله وهذا العطف يردّ قول من زعم أن صبغة الله بدل من ملة إبراهيم ونص على الإغراء بمعنى عليكم صبغة الله لما فيه من فك النظم وإخراج الكلام على القياس واشتقاقه.

﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ١٣٩﴾

﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ﴾ أي تخاصموننا يا معشر اليهود والنصارى في دين الله وانتقائه بيتًا من العرب لا منكم أي أن أهل الكتاب قالوا الأنبياء كلهم منا فلو كنت نبيًّا لكنت منّا وعلى ديننا ولو أنزل الله على أحد لأنزل علينا ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ وأن الحال سببه إلى الكل سواء فلا اختصاص له بقوم دون قوم فادّعاء

الاختصاص بحكم وهو يصيب برحمته وكرامته من يشاء من عباده ﴿وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ يعني أن يوجب الاختصاص إن كان من الله فلا اختصاص له بقوم دون قوم لعموم فضله وإن كان من العبد فأعمالنا وأعمالكم من حيث هي مستوية الاختصاص لا مرية لها وليس أمر ثالث ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ﴾ [البَقَرَة: 139] والحال أنَّا مخلصون في أعمالنا أي أعمالنا مقرونة بالإخلاص والتوحيد خاصة دون أعمالكم ولا عبرة للعمل بلا إخلاص. عن النبي ﷺ: «**سألت جبرائيل عن الإخلاص قال: سألتُ ربّ العزَّة عن الإخلاص ما هو؟ فقال: هو سر من أسراري استودعته قلب من أحببته**».

قال ذو النون المصري قدّس سرّه: من رزق بهذا الاستيداع استوى عنده المدح والذم. عن فضيل بن عياض قال: ترك العمل للناس رياءً والعمل للناس شرك والإخلاص أن يعاقبك الله عنهما. قال بعضهم: هو ما لا يكتبه الملكان ولا يفسده الشيطان ولا يطّلع عليه إنسان. قيل: هو أن تستوي أفعال العبد في الظاهر والباطن. قال سهل التستري: الإخلاص هو الإفلاس.

واعلم أن حقيقة الإخلاص هو الخلاص عن رؤية الإخلاص لنفسه بل يرى للحق تعالى والمخلص هو الحق والعبد هو المخلَّص بفتح اللام.

﴿أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٤٠﴾

﴿أَمۡ يَقُولُونَ﴾ من قرأ بالتاء يحتمل أن يكون أم معادلة الهمزة في أتحاجون أي أيُّ الأمرين يأتون للحاجة في حكمة الله أم ادعاء اليهودية والنصارى على الأنبياء والهمزة لإنكارهما معًا وأن تكون منقطعةً بمعنى بل أتقولون والهمزة أيضًا للإنكار، ومن قرأ بالياء لا تكون إلا منقطعة ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ﴾ [البَقَرَة: 140] وقد نهى الأمرين معًا. عن إبراهيم: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا﴾ [آل عِمرَان: الآية 67] احتجاجًا بقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ﴾ [آل عِمرَان: الآية 65] والأسباط

وهؤلاء المطوّفون عليه أتباعه في الدين وفاقًا ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً﴾ ثابتة ﴿عِندَهُۥ﴾ حاصلة ثابتة دونه ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: 140] إشعار بأن الأفعال الظاهرة والباطنة الإنسانية كلها من الله وبتقديره ومشيئته يعني شهادة الله حاصل لإثبات الحقيقة والبراءة عن اليهودية والنصرانية فلا أحد أظلم من أهل الكتاب لدى الحق وأرباب النهى وذوي الألباب لأنهم كتموا هذه الشهادة الصريحة والعبادة الصحيحة لغرض فاسد ويوهم عوض كاسد لو كتمت هذه الشهادة وفيه تعريض لكتمانهم شهادة لمحمد بالنبوة في كتبهم وغيرها، فمن للابتداء كما في قوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ [التوبة: 1]، ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البَقَرَة: 140] تخويفٌ ووعيد لهم وتهديد عليهم.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾

تفسير:

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ﴾ تكرير للمبالغة في التحذير والترجيح عما استحكم في طباعهم بافتخارهم بالآباء والاتكاء عليهم قبل الخطاب فيما سبق لهم وفيما بين الآية لنا وتحذيرًا عن الاقتداء بهم. وقيل: المراد بالأمة الأولى الأنبياء، وبالثانية أسلاف اليهود والنصارى ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ﴾ أنتم يا معشر الإسلام ﴿عَمَّا كَانُوا۟﴾ أي اليهود والنصارى ﴿يَعْمَلُونَ﴾ [البَقَرَة: 134] وفي التكرار مبالغة في التحذير والزجر عما استحكم في الصيغ في الافتخار بالآباء والاتكال عليهم قبل الخطاب الأول لهم والثاني لنا تحذيرًا عن الاقتداء بهم. وقيل: المراد بالأمة الأولى الأنبياء، وفي الثانية اختلاف اليهود والنصارى.

﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾

الجزء الثاني: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ لخفاف الأحلام وهم اليهود لكراهتهم التوجه إلى الكعبة وسيئاتهم إياها بالتقليد وإعراضهم عن سمت النظر

الصحيح أو المشركون أو المنافقون، وفي تقديم الإخبار عمَّا سيقع توطين النفس وإعداد الجواب فإن مناجاة المكروهات أشد والعلم به قبل وقوعه أبعد من الاضطراب ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ أي بلادهما والجهات كلها انحصار الجهات إلى سمتٍ واحدٍ يوجب انحصار الباطن إلى جهة واحدة والاستقامة في المبادئ الفعلية للانقطاع من الجهات المتعدية إلى الجهة المتحدة. قال النبي ﷺ: «**من انقطع إلى الله عن دنياه كفاه الله كل مؤنة**» والأرض كلها ملكًا والخلق عبيدًا يحولهم إلى ما يشاء كيف يشاء ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البَقَرَة: 142] حسب ما ترتضيه الحكمة وتقتضيه المصلحة تارة إلى بيت المقدس وأخرى إلى الكعبة. نزلت حيث طعنوا في تحويل القبلة تفصيل لما أجمل وتفصيل لما أجمل.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ إشارة إلى مفهوم الآية المتقدمة أي كما جعلناكم مهتدين إلى صراط مستقيم أو ﴿جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البَقَرَة: 143] خيارًا أو عدولًا مجبولين على العلم والعمل، وسط الدار والوادي خير موضع منه.

يقال لرسول الله ﷺ: هو أوسط قريش نسبًا أي خيرهم وخير الأشياء أوسطها وخير الأمور أوسطها فاستعير للخصال المحمودة لوقوعها بين طرفي إفراط وتفريط كالمراح بيت الأضداد والأطراف، والجود بيت الإسراف والبخل، والشجاعة بيت التهور، ولذلك كان محل القلب الذي هو أشرف الأعضاء إذ الأطراف يتسارع إليها الفساد دون الوسط صار أشرف الأشكال الشكل المستدير لاشتماله على الوسط الحقيقي وهو المركز والقطب والمنطقة بل

كل نقطة منه يصدق عليه الوسط بالنسبة إلى غيره ولا يتطرق عليه الفساد بسهولة، ولذا ذهب الحكماء إلى قدم السماوات وعدم الخرق والالتيام عليها نظرًا إلى ذاتها وحقيقتها، وأما بالنسبة إلى الفاعل المختار فلا امتناع. لا يقال: إن تأثير الفاعل على ما يقتضيه القائل لأنا نقول هذا إنما يكون إذا كان الفاعل موجبًا، وأما إذا كان مختارًا فلا، ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: الآية 27] ويحكم ما يريد، فبالتحريك اسم لما بين طرفي الشيء كالمركز وبالسكون اسم مبهم لداخل الدائرة والدار ولذا كان ظرفًا. فالأول يقع مبتدئًا وفاعلًا ومفعولًا به داخلًا عليه حرف الجرّ دون الثاني يوصف به مستويًا فيه المذكر والمؤنث والآحاد والجمع ويبنى منه أفعل التفضيل كالنتيجة وخلاصة الهمزة لما سبق وتقدم. وسبق الأوسط للمذكر من أوسط ما يطعمون. والوسطى للمؤنث دون البواقي فإنه للظرف لا غير.

﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ﴾ محمد ﷺ ﴿عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البَقَرَة: 143] معتدلًا مزكيًا لكم وذلك أن الله تعالى يجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد ثم يقول للكفار: ألم يأتكم نذير فينكرون ويقولون: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المَائدة: الآية 19]، فيسأل الأنبياء عن ذلك فيقولون: كذبوا قد بلغناهم، فيسألهم البينة بإخبار الله تعالى آياته في كتابه الناطق على لسان رسول الله الصادق، فيؤتى لمحمد ﷺ فيتركهم ويعدلهم وإنما عدّلهم وإنما عدل من اللام إلى على، إيماءً إلى كمال مراقبة الرسول ومحافظة عليهم، كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد. ولكون الغرض في الأول إثبات شهادتهم على الأمم وفي الآخر اختصاصهم بكون الرسول شهيدًا عليهم ولذا أخرت الجار في الأول وقدّم في الثاني.

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ [البَقَرَة: 143] أي وما رددناك وحوّلناك بعد الهجرة إلى المدينة من بيت المقدس إلى مكة. وقال بعضهم: من مكة إلى بيت المقدس وذلك أن الرسول كان قبل الهجرة يصلي في مكة إلى الكعبة ثم بعد الهجرة حوّل إلى بيت المقدس فإذا طعنت الكفار على الرسول حوّل الله القبلة إلى الكعبة كما كان في الأول ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ الثابت على الإسلام والصدق فيه فمن هو على حرف ينكص على عقبيه لقلقه فيرتد ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [المدثر: 31] ويجوز أن يكون بيانًا للحكمة في جعل بيت المقدس قبلة يعني أن أصل أمرك أن

تستقبل الكعبة فاستقبالك بيت المقدس أمر عارض يعرض لعجز الناس عن إدراك حكمته وسرّه ومصلحته ﴿مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾ في الصلاة إليها ﴿مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ﴾ [البَقَرَة: 143] وتزيد عن الدين أولًا لنعلم من يتبع الرسول ممن لا يتبعه. قال بعضهم: إلا لتعلّمنا في الأزل، والتميز عندنا والتبيين لدينا من يتبع الرسول ممن ينقلب وذلك سبب هدايته قوم وضلال آخرين وقد يضع العرب الاستقبال موضع الماضي فلم يقتلون أنبياء الله من قبل، أو ليتقرر علم ذلك عندي أو ليتقرر علمنا عندكم أو ليعلم محمد ﷺ، فإضافة علمه إلى نفسه تعظيمًا وتفضيلًا ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ﴾ [الأنفال: الآية 17]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفَتْح: الآية 10].

فإن قيل: كيف يكون علمه سوقًا بالجهل وهو لا يزال عالم لا يتطرق عليه عقله فضلًا عن الجهل. قلت: هو وأشباهه باعتبار التعلق الحال الذي هو مناط الجزاء والمعنى ليتعلق علمنا به موجودًا إشعار بأن علم الله تعالى حضوري شهودي حال مستمر فيساوي فيه الأزل والأبد الماضي والمستقبل «**ليس عند ربك صباح ولا مساء**» الحديث، ليعلم أي ليظهر كيفيته علمًا وحقيقةً حكمنا عند الخلق بأنه مستمر سرمدي غير منقطع أبدًا ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ مخفّفة من الثقيلة، واللام هي الفاصلة. قال الكوفيون: هي النافية واللام بمعنى إلا فالضمير لما دخل عليه قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ﴾ التي من الجعلة والردة والقبلة والتحويلة أي ما هي إلا كبيرة ثقيلة وقرئ بالرفع فيكون كانت زائدة ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ﴾ أي القانتين والصادقين الثابت على الإسلام الكائنين أهلًا للطفه ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ﴾ أي ثباتكم على الإيمان.

وقيل: إيمانكم بالقبلة المنسوخة أي صلواتكم التي صلَّيت إليها لما روى عليه السلام لما وجّه إلى الكعبة قالوا: كيف حال مَن مات قبل التحويل أو صلاتنا إلى بيت المقدس، ونزلت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فلا يضيع أجورهم ولا يترك ما يصلحهم. حكى عن الحجاج أنه قال للحسن البصري: ما رأيك في أبي تراب؟ فقرأ قوله: ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة: 143] ثم قال: وعلي منهم وهو ابن عم رسول الله ﷺ وختنه وأقرب الناس إليه وأحبّهم.

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي تردد وجهك في جهة السماء تطلعًا للوحي. أول ما نسخ من أمور الشرع أمر القبلة وذلك أن رسول الله ﷺ وأصحابه كانوا يصلُّون بمكة إلى الكعبة إذا قدموا إلى المدينة فبعد ليلتين من ربيع الأول أمره الله أن يصلي نحو صخرة بيت المقدس فصلى مع أصحابه نحوها سبعة عشر شهرًا وكانت الأنصار قد صلّت قبل قدوم النبي قِبَل بيت المقدس سنتين.

والكعبة أحبّ القبلتين إلى النبي ﷺ، فلما قالت اليهود: إن محمدًا يزعم أنه نبي وهو يصلي قبلتنا أو يستن سنّتنا فعلى هذا نحن أحق بالنبوة منه، فبلغ ذلك رسول الله فسبق ذلك عليه فزاد شوقًا إلى الكعبة فقال عليه السلام لجبرائيل: «**وددت صرف القبلة إلى الكعبة**»، قال جبرائيل: أنا عبد مثلك، فعرج جبرائيل وجعل رسول الله ينظر إلى السماء رجاء أن ينزل جبرائيل بما يحب من أمر القبلة، فأنزل ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ من قولك: ولّيته إذا صرفته فليعطينك وليمكننك من استقبالها من قولك: ولّيته إذا جعلته واليًا فلنجعلنك تلي سمتتَها دون سمت بيت المقدس ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ اصرف وجهك ﴿شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البَقَرَة: 144] نحوه. وقيل: أصله الفصل من شطر إذا انفصل ودار شطورًا أي منفصلًا عن الدّور. ثم استعمل لجانبه وإن لم ينفصل كالقطر، والحرام الحرم أي حرام فيه القتال أو ممنوع عن الظلم أن يتعرضوا.

حولّت القبلة في رجب بعد زوال الشمس قبل قتال بدر بشهرين بعد ستة عشر شهرًا قد صلى بأصحابه في مسجد بني سلمة ركعتين من الظهر فتحول في الصلاة واستقبل الميزاب وتبادل الرجال والنساء صفوفهم فسمي المسجد مسجد القبلتين. قال ابن عباس: البيت كله قبلة وقبلة البيت الباب، والبيت قبلة أهل المسجد، والمسجد قبلة أهل الحرم، والحرم قبلة الأرض كلها.

﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾ برًّا وبحرًا، سهلًا وجبلًا، شرقًا وغربًا، وبُعدًا أو قُربًا ﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ خصّ الخطاب أولًا بالرسول ثم عمَّم تعظيمًا له وإيجابًا لرغبته وتصريحًا لعدم الحكم تأكيدًا لأمر القبلة وتخصيصًا للأمة على المتابعة دليلًا على صدق المتابعة ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ﴾ التحويل والمتوجه وأمر الكعبة ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ الثابت من ربهم لأنه كان في إشارة بشارة أنبيائهم برسول الله أنه يصلي إلى القبلتين ولعلمهم بأن عادة الله تعالى تخصِّصُ كل شريعة بقبلةٍ وفي كتبهم بأنه يصلي إلى القبلتين ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البَقَرَة: 144] قرىء بالياء والتاء وعد ووعيد للفريقين.

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥﴾

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَۚ﴾ جواب القسم المحذوف سَدَّ مسدَّ جواب الشرط أي إن تركهم اتِّباعك ليس عن شبهة بل إنما هو عن مكابرة وعنادٍ لعلمهم بما في كتبهم من نعتِكَ أنك على الحق وما أنت به جاهٌ ثابت وحق صرف، نزلت حين قالت اليهود والنصارى: آتينا يا محمد كما أوتي بها النبيون قبلك أي بكل برهان وحجة على حقيقة دينك وعلى صحة قبلتك ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْۚ﴾ قطعٌ لأطماعهم حيث قالوا: لو ثبت على قبلته لكنا نرجو أن يكون صاحبنا الذي ننتظر قدومه ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍۚ﴾ فإن اليهود يستقبل بيت المقدس والنصارى المشرق لأن موضع ولادة عيسى كان شرقيًّا من الصخرة ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ ومرادهم في أمر القبلة على سبيل الفرض والتقدير ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي بأنَّ لك الحق وجاءك فيه الوحي ﴿إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البَقَرَة: 145] الضارّين أنفسهم لأن قبلتهم كانت باطلة وإنما بالغ فيه تعظيمًا للحق البين وتحريضًا على اقتفائه ومتابعته وتحذيرًا عن متابعة الهوى.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦﴾

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي أعطيناهم وهم مؤمن وأهل الكتاب عبد الله بن سلام وأصحابه ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ﴾ يعني محمدًا ﷺ ﴿كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ﴾ من بين الصبيان. عن ابن عباس أنه قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة قال عمر لعبد الله: لقد أنزل الله على نبيه ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ الآية، فقال عبد الله: إني لأشدُّ معرفة بمحمد مني لابني فقال عمر: كيف ذلك؟ فقال عبد الله: أشهد أنه حقٌّ رسول من الله وقد نعته الله في كتابنا ولا أدري ما يصنع النساء فدعا له عمر ﴿وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: 146] تخصيص لمن عاند واستثناء لمن آمن.

﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١٤٧﴾

﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ﴾ كلام مستأنف والحق إما مبتدأ خبره من ربك واللام للعهد والإشارة إلى ما عليها الرسول أو الحق الذي يكتمونه أو للجنس يعني أن الحق ثابت أنه من الله كالذي أنت عليه لأنه يثبتُ كالذي عليه أهل الكتاب الغير المعرّف وإما خبر مبتدأ محذوف أي هو الحق من ربّك حال أو صفة بتقدير الذي، أو خبر بعد خبر. قول أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه منصوب على الإغراء أو على أنه مفعول يعلمون أو على المدح ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ [البَقَرَة: 147] الخطاب للرسول ولكل ما هو قابل له من المؤمنين من المرية وهي الشك أي من الشاكين في أنه من ربك أو في كتمانهم الحق عالمين به. والمراد به تحقيق الأمر بحيث لا يقع الشك أو الأمر للأمة لاكتساب المعارف المرتجي للشك على الوجه الأبلغ.

﴿وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٤٨﴾

﴿وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ﴾ [البَقَرَة: 148] أي لكل أهل ملة قبلة هو مستقبلها أي

مقبل إليها أحد المفعولين محذوف أي كل أهل ملة مولّيها وجهة أو الله مولّيها إياه. وقرئ بإضافة كل، فاللام حينئذ زائدة مبتدأ مولّيها خبره ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ أي بادروا بالطاعات أو استقبلوا إلى الخيرات لسبق بعضكم بعضًا إلى أمر القبلة وغيرها مما ينال به سعادة الدارين أو لكل منكم يا أمة محمد وجهة تصلّي إليها جنوبية وشمالية شرقية وغربية فاستبقوا الفاضلات من الجهات المسامية للكعبة وإن اختلفت ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا﴾ أيّ الموضع تكونوا وتثبتوا عليه من الجهات المختلفة ﴿يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ يحضر الله جميعكم يوم القيامة للجزاء فيجزيكم بعد أن يجمعكم في موضع واحد بأن يجمع أجزاءكم الأصلية من أعماق الأرض وقلل الجبال ويعيد أرواحكم إليها، أو أينما تكونوا من الجهات المتقابلة ﴿يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ ويجعل صلواتكم كأنها إلى جهة واحدة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البَقَرَة: 148].

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾﴾

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ أيّ مكان وجهة وأيَّ موضع ووجهةٍ وبلد وسمت خرجت للسفر ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ إذا صلّيت ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي المأمور به ﴿لَلْحَقُّ﴾ خبر إن واللام لتوطئة القسم ولتأكيد الحكم ﴿مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البَقَرَة: 149] بالياء والتاء والتكرير لتأكيد أمر القبلة وتشديده لأن النسخ من مظان الفتنة والشبهة ولتسويل الشيطان والحاجة إلى التفضلة بينه وبين البداء فكرر عليهم ليثبتوا ويغرموا وتحدّوا، ولأنه ينيط بكل واحد ما لم ينط بالآخر فاختلفت فوائدها، أو لتعدد علة الحكم فإنه تعالى ذكر له ثلاث علل لتعظيم رسوله وابتغاء مرضاته، وجري العادة الإلٰهية على أن يدفع حجج المخالفين بأبلغ الوجوه، وقرن بكل علّة معلولها كما يقرن بكل مدلول دليله، أو إشارة إلى أن سموت البلاد والأماكن إلى الكعبة لكونها وسطًا حسب اختلاف عروضها وطولها والمساواة بينهما وبين طول مكة وعرضها مختلفة فمن البعض جنوبية أو شمالية أو شرقية أو غربية أو في سمت بين سموتها.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ [البَقَرَة: 150] علّة لقوله ﴿فَوَلِّ﴾ [البَقَرَة: 144] ليدفع احتجاج اليهود بأن المبعوث في التوراة هو صاحب القبلتين ويتقرر على الكعبة، وأن محمدًا يجحد ديننا ويتبعنا في قبلتنا والمشركين بأنه يدعي بأنه على ملّة إبراهيم ويخالف قبلته ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ استثناء من الناس لئلا يكون لأحد من الناس حجة على قانون المناظرة إلا للمعاندين المكابرين والمعنتين المستكبرين يحذوا حذو المحابين لا يتقيدون بقانون العقل ولا يتعودون بمعاقد النقل فإنهم يقولون: ما تحول إلى الكعبة إلا لميل إلى دين قومه أو الحب إلى بلده أو بدا له أن يرجع إلى قبلة آبائه ويوشك أن يرجع إلى دينهم وتسميتها حجة كقوله: حجتهم داحضةٌ. وقيل: الاستثناء للمبالغة لأن الظالم لا حجة له قبل الوضع واو العطف ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ [البَقَرَة: 150] بالمدينة دار غير واحدة كقوله:

دار الخليفة إلا دار مروانا

أي ودار مروان وكل أخٍ مفارِقة

أخوه لعمرك إلا الفرقدان

يعني والفرقدان أيضًا يفترقان يؤيّده قراءة البعض (إلى) مخفف يعني مع الذين ظلموا. قال بعضهم: معناه إلا الذين ظلموا من العرب فإن لهم حجج باطلة داحضة عليكم ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ فلا تخافوهم فإن مطاعتهم لا تضركم ﴿وَٱخْشَوْنِى﴾ فلا تخالفوا ما أمرتكم به ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي ولإرادتي اهتدائكم أو عطف على علّة مقدرة مثل واخشوني لأحفظكم عنهم ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ﴾ [البَقَرَة: 150] وفي الحديث: «**تمام النعمة دخول الجنة**». وعن أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه: تمام النعمة الموت على الإسلام.

في الحديث أيضًا: «**النعم ستٌّ: الإسلام والقرآن ومحمد عليه السلام والستر والعافية والغِنى عما في أيدي الناس**». وفي لعلّ ست لغات: عل ولعلّ وعن ورعن ولعا ولعلّن، ولها عدة أوجه من الله واجب، ومن الناس على معانٍ بمعنى الاستفهام لعلك، وفعلت ذلك مستفهمًا، وبمعنى الظن والإيجاب، وبمعنى التمني والترجي، وقد يكون بمعنى عسى ﴿لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [غافر: 36، 37] وبمعنى كي على الجزاء ﴿كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ﴾ [الأنعام: 65] ومنه: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [الزّخرُف: الآية 10].

إشارة وتأويل

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ قال الصادق رضي الله عنه: القبلة قبلتان قبلة المنسوخ وهي قبلة السفهاء وفيها صحة نبوة المصطفى وقبلة الرضى وهي قبلة الله تعالى التي جعلها قبلة المستقيمين وجعل المشرق فوقها والمغرب دونها حتى يرغب عليه شمس قدرته وقمر إنابته.

واعلم أن السفهاء هم الناقصون الغير البالغين إلى كمال الجمعية المترددون في النشأة ليصلوا إليها وهي قبلة الكل ووجهة تمام السُّبُل، وأن الكل من السائرين إلى الله ومن الله وفي الله قبلة، أما قبلة الفرقة الأولى فهي باطن الاسم الذي هم في حكم فردازنته وقبلة الفرقة الثانية هي ظاهر هذا الاسم، وهاتان القبلتان غير ثابتتين بل منسوختان. وأما قبلة الفرقة الثالثة وهي الذات الجامعة لجميع الأسماء والصفات وهي الكعبة الحقيقية لا تقبل الفسخ والنسخ فهي متوجهة الكل، فإن السائرين إلى الله ومن الله إذا استكملوا في النشآت تحولت قبلتهم من الاسم الخاص إلى الذات الجامعة وهي التي كانوا عليها أولًا في الأحدية الجمعية ثم عادوا إليها ثانيًا ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ﴾ في السير إلى الله ومن الله ﴿قُل لِّلَّهِ﴾ الواسع للكلّ ﴿ٱلۡمَشۡرِقُ﴾ [البَقَرَة: 142] مشرق الوحدة الذاتية وهي منتهى السّير إلى الله ومغرب الكثرة الإمكانية المنتهية إلى المرتبة الناسوتية ﴿يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[البَقَرَة: 142] بين الإفراط والتفريط والوحدة والكثرة السائرين في الله هي هذه الأمة ﴿أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يُوسُف: 108] قال الصادق رضي الله عنه: وسطًا صلحًا يشهدون الحق

والمولى يحكم بشهادتكم ولكم الجنة باهتدائكم وللأشقياء النار بعداوتكم والإيمان ثمن الرؤية فإذا لم يكن في الرؤية زيادة ونقصان فكيف يكون في ثمنها.

واعلم أن الشهادة إنما تكون بالمعادلة والمعادلة إنما تحصل إذا انتفى الميل إلى الطرف لا إلى الوحدة ولا إلى الكثرة، فثبت الوسط الجامع بين طرفي الوحدة والكثرة وهو الوحدة الجمعية والهيئة الكلية، وهذا في أتم وأكمل أولًا وآخرًا، وكذا لكل طور من الأطوار السبعيَّة القلبية قبلة وبجميعتهما قبلة وهذه ثابتة وتلك منسوخة متبدلة.

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ أي ما صرفناك عن القبلة التي هي الأحدية الجمعية وقد كنت عليها في الأزل ودعوة الأعيان الثابتة والماهيات الممكنة بالنبوة الذاتية إليها ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ [البَقَرَة: 143] أي لظهور علمنا وأحكام كمال إحاطته أو تمام سعت الكلّ ولتمني ما تعلق به من تتبع الرسول في ذلك الموطن ممن ينقلب على عقبيه وكونه سببًا للسعادة والشقاوة بل للجميع، فإذا نزلت على المراتب وهجرت من مكة عالم الأمر ووصلت إلى مدينة عالم الخلق، وتوجهت نحو صخرة بيت المقدس الناسوت فحينئذ ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾ وتوجه حقيقة سرّك وتردُّد قلبك إلى سماء الأحدية الجمعية لطلب تلك القبلة الحقيقية والكعبة الكلية ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ الخطاب لطور غيب الغيوب ولجميع الأطوار التي تحته وهو المخصوص بالرسول وسائر الأطوار لأمته، والقبلة المرضية هي الجمعية العظمى والكلية الكبرى أي الذات بتمام الأسماء والصفات، فإذا أعطيتك إياها لا يكون لك بعد ذلك طريق منها إلى خصوصية لنفسك وسبيل إلى الكون الجزئي لأنك موجود بوجودي، ومرادي مرادك و﴿شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[البَقَرَة: 144] أي القبلة المرضية على وجه غير الوجه الأول، فإن التجليات الذاتية غير متناهية أطوارًا وأنوارًا وأدوارًا ولكل منها قبلة مخصوصة وجمعية منصوصة ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ﴾ إشارة إلى عدم تناهي النشآت في المراتب والأطوار وإن المتوجه إليه في كل نشأة إنما هي القبلة المذكورة لكن على وجوه متعددة وتوجهات متجددة من غير التناهي.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ التجلي الذاتي الجامع لجميع الأطوار ﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي أمر الكعبة من حيث إن التوجه إليها والوجه والتجلي غير مكرر لشخص واحد ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البَقَرَة: 144] من التنبيهات إليها في النشأة وتنوعات أطوار التجليات.

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ﴾ [البَقَرَة: 145] إشارة إلى وجهة كل تعين إلى تلك القبلة غير وجهة تعين آخر بل إن وجه شخص واحد في آن في مكان غير وجهته في آن آخر في ذلك المكان ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرَّحمٰن: 29] «**مَن استوى يوماه فهو مغبون**».

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي التجلي الذاتي للأعيان الثابتة في مقام العلم يعرفون الحقيقة المحمدية الظاهرة للكل بالنبوة الذاتية ﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ﴾ أي الأحوال الثابتة للأطوار الثابتة ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ﴾ [البَقَرَة: 146] أي الأعيان المذكورة الداخلة تحت حيطة اسم ليكتمون الحق الظاهر في فرداريّة اسم آخر.

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ﴾ أي لكل واحد من الأعيان الثابتة في حيطة أي اسم كان من الأسماء الذاتية والأفعالية والآثارية قبلة ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ *[البَقَرَة: 148]* أي الذات الجامع للكل حافظة ونولّيها. قال الصادق رضي الله عنه: إن العدو لا ينظر إلى كثرة الآيات ولا إلى قلّتها والصدِّيق ينظر إلى الكلّ لجامعية نشأته فأجاب طائعًا راغبًا للكل ودخل في الدين مخلصًا. قال أيضًا: فالعبدُ ما دام يكون زائرًا فالبيت له دليلٌ وهو لصاحبه وشوقه إليه قائد وسبيل، وكذا العبد ما دام عارفًا فالقلب جليس له وعرفانه له أنيسٌ.

وإنما كرر حيث في أربعة مواضع إشارة إلى أن دليل مواقع التوجه والصلاة إليها، ومولّيها أربعة: عالم الواحدية ومولّيها اسم العليم، وعالم الملكوت ومولي قبلته الحيّ، وعالم المثال ومولّي وجهته اسم القدير، وعالم الملك ومولّى قبلته المريد. ولكل واحد منها اقتضاء خاص وله قبلة مخصوصة والأعيان المخصوصة مترتبة كل منها لا يمكن أن يتبع قبلة أخرى.

وأما العارف الكامل الذي تكون نسبته إلى الكل على السواء. فالجميع قبلته ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ [البَقَرَة: 142].

﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: 115]، ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: 150] وإنما عدل من المفرد إلى الجمع إشارة إلى أن النفس الكلية الكاملة الخطاب إليها يتضمن الخطاب إلى ما في ضمنها من الجزئيات، وأنّ في قوة كل منها الاتصاف بما يتصف به الكل.

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا﴾ [البقرة: 151] إجابة لدعاء خليلي أجبت، قال: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: الآية 126]، ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: 129] أو ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 150].

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا﴾ [البقرة: 151] لنبيّن لكم ملة الحقيقة البيضاء وننجيكم عن غياهيب البدعة السوداء وبما بعده أي ﴿فَاذْكُرُونِي﴾ [البقرة: 152]، ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ والخطاب إنما هو للعرب عامةً ولأهل مكة خاصة بقرينة فيكم ومنكم إشارة إلى تقبيح حال العرب وتصحيح حسن خصال العجم، أو كما ذكرتكم بإرسال الرسل، فاذكروني بالطاعة أذكركم بالثواب والنجاة من زلزلة الساعة ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾ التي أسمعتكم إياها بالخطاب الأزلي ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: 27]، ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ عن الملكات الرديّة والهيئات الدنية. وإنما قدّم ها هنا ما تأخر إبراهيم في الدعوة تنبيهًا على أنه هي العدة الوثقى لكونها غاية العلم والعمل وهي الحكمة العملية فيكون مقدّمًا باعتبار القصد متأخرًا باعتبار الفعل، وإلى أنه هو شرط التعليم وآدائه ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي الحكمة النظرية والعملية ويغيرها بلفظها متأخرًا باعتبار الفعل والحالة هو شرط التعليم وإشعارًا بأن الحكمة مقصورة عليها، وأن المقصود بالذات إنما هو عبارة عن الفعل بحقائق الأشياء على ما هي عليه بقدرة الطاقة البشرية والعمل على مقتضاها ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 151] تصريح بأن وراء الحكمة النظرية والعملية أمر آخر وهي الولاية التي هي باطن النبوة

التشريعية والتعريفية إشعار بأنهما كسبية كالسلوك والرياضة، وهيئة هي الجذبة المتقدمة على السلوك من جذبات الرحمة توازي عمل الثقلين وبأنها متأخرة عن النبوة في الأمة ومتقدمة في الرسول لأنها مبدئ النبوة، وتقسيمها إلى التشريعية والتعريفية في الولي، فالولاية في النبي أشرف وأقدم لأنها في الأكثر مبدأ وعلة للنبوة وأما في الوفا فبالعكس وإنما خصص التعليم بها إشعارًا بأنَّ ما عداها إنما هي مبادىء لها ومعاينة المشاهدة ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: 65] إذ الغرض من بعث الرسل وإنزال الكتب تكميل النفوس الناقصة ليعودوا إلى ما كانوا في الأزل عليه من سماع كلامه وكتابه وخطابه ومشاهدة جماله من غير سمع وبصر وفكر ونظر، ولهذا أمروا بالذكر ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ﴾ بطاعتي ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ [البَقَرَة: 152] بمعونتي، أو اذكروني بالمجاهدة أذكركم بالمشاهدة ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ﴾ [العَنكبوت: 69] أو بالعبادة الصالحة، أذكركم بالمغفرة والرحمة المفلحة الناجحة ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ﴾ [التّغَابُن: الآية 12]، وفي الحديث: «**مَن أطاع الله فقد ذكر الله وإن قلَّت صلاته وصيامه وتلاوته القرآن، ومَن عصى الله فقد نسيَ الله وإن كثرت صلاته وصيامه وتلاوته القرآن**».

أو ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ﴾ بالتوحيد والإيمان ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالجنات والدرجات ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ [البَقَرَة: الآية 25] عن أبي بكر رضي الله عنه: كفى بالتوحيد عبادةً وبالجنة ثوابًا، واذكروني بالشكر أذكركم بالزيادة ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْۖ﴾ [إبراهيم: 7].

قيل: اذكروني على وجه الأرض أذكركم في بطنها. روي عن أعرابي كان يقول يوم عرفة: «إلهي عجَّت إليك الأصوات بضروب اللغات يسألونك الحاجات وحاجتي إليك أن تذكرني عند البلى إذا نسيني أهل الدنيا». أو اذكروني في الملأ والخلاء أذكركم في الخلاء والملأ أشرف وأفضل وأعْرَف «**أنا عند ظن عبدي بي فليظنَنّ بي ما شاء، وأنا معه إذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ومَن ذكرني في الملأ ذكرته في ملأ خير منه، ومن تقرَّب إليَّ شبرًا تقرَّبت إليه ذراعًا، ومن تقرَّب إليَّ ذراعًا تقرَّبت إليه باعًا، ومن أتاني مشيًا أتيته هرولة، ومن أتاني بقراب الأرض خطيئة أتيته بمثلها مغفرةً بعد أن لا يُشرك بي شيئًا**» الحديث القدسي.

قيل: اذكروني في النعمة والرّخاء أذكركم في الشدّة والبلاء ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ﴾ [الصَّافات: 143، 144]، اذكروني بالإخلاص أذكركم بالخلاص، اذكروني بالإرادة أذكركم بالإفادة، اذكروني بالزيادة أذكركم بالريادة في الإعادة ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يُونس: 26]، اذكروني بالقلوب أذكركم بكشف الكروب، اذكروني بالافتقار أذكركم بالاقتدار، اذكروني بالابتهال أذكركم بالإحسان وكمال الإفضال، اذكروني بصفاء السير أذكركم بخالص البرّ، اذكروني بالصدق أذكركم بالرفق، اذكروني بالمناجاة أذكركم بالنجاة، اذكروني بالجهد في الطاعة أذكركم بإتمام المحبة برفض المحنة، اذكروني بترك الجفاء أذكركم بحفظ الوقاء، وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم، اذكروني بالصفاء أذكركم بالعفاء، اذكروني من حيث أنتم أذكركم أنا ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العَنكبوت: 45].

قال الربيع: إن الله تعالى ذكر في هذه الآية أن الله ذاكر من ذكره وزائد من شكره ومن كفره. قال السدي: ليس من عبد يذكر الله إلا ذكره الله ولا يذكره مؤمن إلا ذكره بالرحمة، ولا ذكره كافر إلا ذكره بالعذاب.

قال سفيان بن عيينة: بلغنا أن الله تعالى قال: أعطيت عبادي ما لو أعطيته جبرائيل وميكائيل كنت قد أجزيت لهما.

قلت: اذكروني أذكركم، وقلت لمؤمني: قل للظلمة لا يذكروني فإني أذكر مَن ذكرني، وإنَّ ذكري إيَّاهم أن ألعنهم. قال أبو العثمان النهري: إني لأعلم حين يذكرني ربّي عزَّ وجلَّ، قيل: وكيف؟ قال: إن الله عزَّ وجلَّ قال: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ وإذا ذكرت الله ذكرني.

﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِى﴾ ما أنعمت به عليكم ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البَقَرَة: 152] بجحود النعم وعصيان الأمر وبالذهول عن المنعم.

واعلم أن ذكر العارف الحق إنما هو ذكر نفسه لأن ذكر العارف بخلق الله وهو حالُ الذكر فانٍ في نفسه باقٍ به لا يذكر الله غير الله وهو يعم الكل إلا أنه ذاهل عنه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ﴾ [البَقَرَة: 153] على وقع مقتضى كفران النّعم أي النفس الطاغية والقوة الباغية وقدرة الإنس الواهمة ﴿بِٱلصَّبْرِ﴾ مخالفات مشتهياتها على حبسها وإمساكها وإلحاحها على تذوق مرارة شرب مرارة الصّبر في زجرها وترجيعها إلى سحتها وتعويدها بذكر باريها ومبدئها الأولي ﴿وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾، ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ﴾ [العنكبوت: 45] ولهذا صارت أم العبادات والأهم لذي العبادات ومعراج المؤمنين ومرضات ربِّ العالمين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البَقَرَة: 153].

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وجهاده الأصغر والأكبر ﴿أَمْوَٰتٌۢۚ﴾ [البَقَرَة: 154] أي هم أموات ﴿بَلْ﴾ هم ﴿أَحْيَآءٌ﴾ بحياة سرمدية الهيئة ومن قبيله فإنّا لله ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البَقَرَة: 154] ما حالهم وكيف معادهم ومآلهم، تنبيهٌ على أن حياتهم ليس بالجسد ولا من جنس ما يحسُّ به من الحيوانات بل بأمر لا يُدرك بالعقول بل بالوحي «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**» نزلت في قتلى بدر من المسلمين وكانوا أربعة عشر رجلًا، ثمانية من الأنصار وستة من المهاجرين حيث قالوا: هم ماتوا وزالت الحياة ونعيم الدنيا ولذّاتها عنهم.

مطلب: الشهداء

عن الحسن: أن الشهداء أحياء عند الله يعرض أرزاقُهُم على أرواحهم فيصل إليهم الروح والرّيحان والفرح، ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الواقعة: 88 ـ 89] كما يعرض النار على آل فرعون غدوًّا وعشيًّا فيصلُ إليهم الوجع الشديد والألم المديد.

قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ أرواح الشهداء في أجواف طير خُضر تسوح من**

ثمار الجنة وتشرب من أنهارها وتأوي بالليل إلى قناديل من نور متعلقة بالعرش».

﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾

﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ﴾ المخصوص وهو من الله وعدًا به أو المطلق من أي شيء كان وهو حركة النفس من محيط المكاره إلى مركز القلب الذي هو بيت ومحلّ نظره ليتأيّد في دفع المكروه ﴿وَٱلۡجُوعِ﴾ لنصيبنكم بقليل منهما لنختبركم أي نعاملكم معاملة المختبرين لإخوانكم هل ينصرون ويثبتون على ما أنتم عليه من الطاعة ويستسلمون لأمر الله وحكم قضائه ﴿وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ﴾ قال الشافعي: ولنبلونكم بخوف الله وجوع رمضان وأداء الزكاة والصدقات والموت والأمراض والشّيب، والثمرات موت الأولاد ولد الرجل ثمرة قلبه.

عن النبي ﷺ: «**إذا مات ولد العبد قال الله تعالى للملائكة: أقبضتم ولدَ عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول: أقبضتم ثمرة قلبه؟ فيقولون: نعم، فيقول الله: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمِدك واسترجَع، فيقول الله: ابنوا لعبدي بيتًا في الجنة وسمُّوه بيت الحمدِ**»، ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البَقَرَة: 155].

﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ﴾ [البَقَرَة: 155، 156] مؤلمة ومؤذيّة. روي أنَّ سراج رسول الله ﷺ طفيء، فقال رسول الله ﷺ: «﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البَقَرَة: 156] **فقيل: يا رسول الله أمصيبة هي؟ قال: نعم كل شيء يؤذي المؤمن فهو مصيبة**». قال سعد بن جبير: «**ما أعطي أحد من المصيبة مما أعطيت هذه الأمة**» يعني الاسترجاع. عن النبي ﷺ: «**من استرجع عند المصيبة جزا الله مصيبته وأحسن عقباه وجعل له خلفًا يرضاه**»، وليس الصبر بالاسترجاع باللسان بل بالقلب بأن يتصور ويعتقد أن ما أعطي له من الولد والمال فهو للحق عنده وديعة. نظم:

وما المرءُ إلا كالشّهاب وضَوئه يحور رمادًا بعد إذ هو ساطعُ

وما المالُ والأهلُون إلا وَدِيعة فلا بُدَّ يومًا أنْ تُردَّ الوَدائِعُ

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر والمأمورون بالصبر والصلاة ﴿عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ وهي في الأصل الدعاء، ومن الله البركة والمغفرة، ومن الملائكة الاستغفار لعباد الله المخلصين وللمؤمنين المقصرين ﴿وَرَحۡمَةٞۖ﴾ أي لطف ورأفة، المراد من الأولى النعم الظاهرة والباطنة ولذلك جمعت، وبالثاني الظاهرة فقط. أو المراد من الأولى النعم الآخرية وبالثاني الدنياوية، أو المراد من الأولى أسرار الولاية وبالثاني أنوار النبوة وأزهارها أو بالعكس. فبالصلاة استحق الصلوات وبالصبر والرحمة ذهب أكثر المفسرين إلى أنهما واحد أي رأفة بعد رأفة ورحمة أيُّ رحمة، وأنت خبير بأن هذا التفسير يخالف الاتحاد وأن الإفادة خير من الإعادة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البَقَرَة: 157] للحق والصواب وبهما إلى الجنة والثواب حيث استرجعوا وسلموا لقضائه.

﴿۞إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨﴾

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ﴾ هما جبلان بمكة ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ﴾ جمع شعيرة وهي العلامة، أصل الصفاء هي الصخرة الصلبة الملساء. المراد هنا مناسك الحج التي جعلها الله تعالى إعلامًا لطاعته أي طواف ﴿فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ﴾ قصد البيت وتحرك وتردد في طوافه ﴿أَوِ ٱعۡتَمَرَ﴾ من العمرة وهي الزيارة فعليًّا شرعيًّا على قصد البيت وزيارته على الوجهين المخصوصين، وفي الحديث: «**تابعوا بين الحج والعمرة فإن متابعة ما بينهما يزيدان في العمر والرزق وينفيان الذنوب كما ينفي الكيرُ خبث الحديد**»، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ﴾ [البَقَرَة: 158] الجُناح الإثم وأصله من جنح إذا مال، يقال: جنح الليل إذا مال بظلمته ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ﴾ [الأنفَال: 61]، ﴿أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾ أصله من الطوف وهو الدور نقل إلى التفعل أدغمت التاء في الطاء فأجليت الهمزة لتعذر الابتداء بالسكون. عن أنسٍ: كنا

نكرَهُ الصفا والمروة لكونهما من شعائر قريش فتركناه في الإسلام فأُنزِلت. عن ابن عباس رضي الله عنه: كان على الصفا صنم على صورة إنسان يقال له آساف وعلى المروة صنم على صورة الأنثى يُقال لها نائل، وأنَّثُوا المروة لتأنيث ما عليها، وكان في الجاهلية إذا سعوا سبحوا بهما فلما أتى الإسلام وكُسِرَت الأصنام فحرج المسلمون أن يطوفوا.

والإجماع على أنه مشروع في الحج وإنما الخلاف في وجوبه، فعن أحمد: سنة، وبه قال أنس وابن عباس لقوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ فإنه يفهم منه التحية وهو ضعيف لأن نفي الجناح يدل على الجواز الداخل في معنى الوجوب فلا يدفعه. عن أبي حنيفة رضي الله عنه: إنه واجب يُجبر بالدّم. وعن مالك والشافعي رضي الله عنهما: إنه لقوله عليه السلام: «**اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي**».

﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ أي فعل طاعة فرضًا كان أو نفلًا أو زاد على ما فرض الله به من حج أو عمرة أو طواف أو تطوع بالسعي إن قلنا إنه سنة، قال مجاهد: فمن تطوع بالطواف بالصفا والمروة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ﴾ أي مجاوز بعلمه ﴿عَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: 158] بنيته يجازي اليسير ويعطي الكثير ويغفر الكبير، أصل الشكر من قوله: دابة شكور إذا كان يظهر عليها من السمن فوق ما تعلف أو مثيبٌ على الطاعة لا يخفى عليه شيء من الضمير والنية.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يعني الرجم والحدود وسائر الأحكام من الحلال والحرام وغيرها مما يدل على أمر محمد ﴿وَٱلْهُدَىٰ﴾ وبالهدى على وجوب اتّباعه والإيمان به ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ﴾ لخصناه لبني إسرائيل وغيرهم ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ﴾ في التوراة، نزلت في علماء اليهود ورؤسائهم حيث كتموا آية الرجم ونعتَ محمد ﷺ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ إشارة إلى اليهود، أصله من الطرد طرد الله تعالى إبليس بقوله: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [ص: 77]، وقوله: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البَقَرَة: 159] السائلون اللعن عليهم من الله وهم الملائكة

والإنس والجن والعباد جميعًا. قال ابن مسعود: هم الرجال الذين يلعنون أصحابهم فترتفع اللعنة إلى السماء لم تتخذ فلم تجد صاحبها الذي قبلت له أهلًا لذلك فرجع إلى الذي تكلم بها فلم تجد لها أيضًا أهلًا فيقع على اليهود. قال مجاهد: اللاعنون إليها ثم يلعن عصاة بني آدم إذا اشتدت السنة وأمسك المطر قالت: هذا لشؤم بني آدم.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠﴾

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ عن الكتمان وسائر ما يجب أن يثاب عنه من العصيان ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾ نفوسهم وما قدموه بالتدارك من الأعمال ﴿وَبَيَّنُواْ﴾ ما بيَّنه الله لهم في كتابهم قبل ما أحدثوا من التوبة ليمحو اسم الكفر عن نفوسهم ويتعدى لهم غيرهم من أحزانهم ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ بالقبول والمغفرة ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ﴾ الرَّجاع بقلوب عبادي المنصرفة عني إليَّ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 160] بهم بعد إقبالهم عليَّ ورجوع قلوبهم لديَّ وإفاضة الرحمة عليهم.

إشارة وتأويل

قال الصادق رضي الله عنه: إن الحبيب علَّمنا المحبَّة حيث أُمِرْنا أن نذكره على المحبة حتى يذكرنا بالمحبة. فالمحبة شكر المنّة والمنّة الفرار من الكفر، وفي الفرار وجوب الإنس مع المولى.

واعلم أنَّ الرسول عبارة عن جذبة نزلت في مقام السرّ لتقود صاحبها وتعود طالبها إلى مشاهدة التجليات المترتبة، أولها: التجلي الآثاري، والثاني: التجلي الأفعالي، والثالث: التجلي الصفاتي، والرابع: التجلي الذاتي. فتلاوة القرآن إشارة إلى الشريعة في الطور القلبي وتزكية النفس إلى الطريقة ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [البَقَرَة: 129] إلى اكتساب الأخلاق المرضية وإلى استكمال القوة النظرية والعملية ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون من التجليات الأربعة التي شاهد بها الأعيان الثابتة في ضمن شهود التجلي الذاتي.

تفسير:

﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ﴾ في السير إلى الله بنفي الأنسية ﴿أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البَقَرَة: 152] في السير من الله بالكلية والمظهرية، أو اذكروني بالفناء أذكركم بالبقاء، واذكروني في مقام النفس خلف الحجاب أذكركم في مقام الألوهية برفع النقاب، اذكروني بتوحيد الآثار بأن لا يرى في المُلك غيري أذكركم في الملكوت بتوحيد الأفعال بشهود وحدة الواحد الفعّال، اذكروني في عالم الأمر بتوحيد الأفعال أذكركم في عالم الجبروت بتوحيد الصفات، اذكروني بتوحيد الصفات أذكركم بتوحيد الذات والصفات، اذكروني بنعت الوحدة أذكركم بشهود ذاتي وصفاتي في مرآة الوحدة والكثرة معًا، اذكروني في مرتبة التفصيل أذكركم في مرتبة الإجمال والتفصيل بنعت التفصيل والتفضيل، اذكروني في مرتبة باسم أذكركم في تمام المراتب بجميع الأسماء والصفات، اذكروني بخلوص العبودية أذكركم بكمال الجمعية بين العبودية والربوبية، اذكروني في مقام الفرق أذكركم في الفرق والجمع وجمع الجمع، اذكروني في السّير إلى الله ومن الله أذكركم في السّير في الله، من ذكرني بترك الذكر ذكرته بشهود غيب المذكور والوصول بحقيقة المشكور برفض الشكر.

قال الواسطي: حقيقة الذكر الإخلاص عن الذكر ونسيانه والقيام بالمذكور. قيل: اذكروني على الدوام لتطمئن قلوبكم ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرّعد: 28] أذكركم بدوام المشاهدات وإكرام المعاينات، اذكروني في أدوار الجمال وأكوار الجلال الإفرادية أذكركم في أدوار جمعيتهما، اذكروني في الدورة العظمى النورية والظلّيّة أذكركم في الدورة الكبرى والوسطى والصغرى الإفرادية وجمعية الجمعية، اذكروني في مراتب الظهورات أذكركم في مآرب البروزات وغير ذلك من الأحوال والمقامات، واستعينوا في التحقيق بهذه الأحوال بالصبر على أحكام الشريعة وآداب الطريقة والصلاة الحقيقية بالتوجه إلى الكعبة الجمعية، فالصلاة ولاية الله لخواصه، والهداية والرحمة هي قبول الطاعة ورفع الحجب عن بصائر الأحباء وسائر الأولياء.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البَقَرَة: 153] الصابرين من السير إلى الله ومن الله إلى

الجمعية العظمى في السير في الله وبالله ومع الله.

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: 154] قال الصادق رضي الله عنه: من مرض من شوق الحبيب فرؤيته طبيب له ودواء، ومن أفناه عن وجوده أبقاه بلقاء شهوده. قال في العرائس: من قُتِلَ في سبيل الله فهو حيٌّ عند فنائه عن حياة الإنسانية بالحياة الربانية ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البَقَرَة: 154] لأنكم محبوسون بالحياة الحسيّة عن الحياة القدسيّة. من ذبح نفسه من أربعة أشياء في أربعة مواضع، يعني رأس حرصها من الدنيا في تصريح التفريد ورأس أملها من حياتها وفرحها مصرع التجريد وقطع رأس ميلها إلى الآخرة في مقتل التحقيق، ورأس رياستها بعين الخلق في صحراء التوحيد ألبس الله روحه أربعة لباس في أربعة مقامات: لباس سناء المعرفة في مقام المكاشفة، ولباس صفاء المحبة في مقام المشاهدة، ولباس ضياء التوحيد في مقام القربة، ولبس أنوار الإنابة بنعت السّبط في مقام المخاطبة في تخليصه من سكرات الموت وصار حيًّا لا يموت أبدًا.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ﴾ [البَقَرَة: 155] الابتلاء مرآة العلم بحال الممتحن فالعرض للممتَحَن حصول العلم لا للممتحِنِ لأن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فعند عروض هذه الأمور أنّ النفس بالطبع تفر وتهرب من ظاهرة الكثرة إلى باطنها لتتقوى به على دفعها، ولهذا يصفر وجه الممتَحَن عند عروضها فإن كان بين العبد وبين الله باب العناية والرحمة مفتوحة فهو في دفع تلك الأمور يصطوا إلى بابه واستعان به في دفعها إن أمكن، فيكون منصورًا مبتهجًا مسرورًا والالتجاء إلى الصبر والصلاة. وأما إن التجأ إلى المخلوق وهو أعجز فيكون مقهورًا خسر الدنيا والآخرة. شعر:

مَنِ اسْتعَانَ بغير الله في طَلَبٍ ... فإنَّ ناصِره عَجْز وخذلان

واعلم أنَّ الخوف على سبعة: خوف النفس وهو حين الطبيعة فمروجًا بضعف البشرية بهيجة فطّهر الله به بتطّهر صدق محبته من رعونات بشريته، ومدار هذا الخوف فقدان الرزق ونفورها من المجاهدة واضطرابها في تصديق وعد الله في الآخرة، وخوف الشيطان وهو تخويف العبد في ترك الدنيا بنقص الأموال ونقص النفس بالأمراض والأوجاع لتلف النفس وفقدان المقامات، وهذا

مخصوص بأوليائه ليثبت محاربتهم على عدوهم ويُظهر صدق نياتهم في مقاماتهم، وخوف كفار النفس لئلا يستولي على بلد القلب ويقهرها. وأما خوف النار فهو لجام النفس الأمَّارة بلجمها بطش قهر الحق يمنعها بها من سوء الأدب.

وأما خوف الفراق فهو خوف قائم في قلوب العباد ما داموا في الدنيا وهو أعظم الامتحانات ليجتهدوا في طلب المراد بنبذ الوسع والانفراد عن جميع الكون حتى يصلوا إلى مقام الإنس بلا صفات النفس. وأما خوف الحجاب فهو بهج العناية بنعت الرعاية حتى يفروا منه إليه لأنهم يعلمون أنهم مبتلون عنه به. وأما خوف التعظيم والإجلال فهو امتحان منه لأهل المكاشفة في مقام المشاهدة لينظر هل يمتنعون في مقام الانبساط بصحة الصمدية وقهر الكبرياء بنعت الغرة. وأما خوف الجوع فهو ابتلاء من الله لأوليائه ليصيمهم عن كدورات البشرية وخبث الطبيعة، وأيضًا ابتلي بجوع القلب في طلب المشاهدة بفقدان طعمة الوصلة إلى أن يشرع في طلب غذاء الشهود إلى أبواب السرادقات الجبروت ففتحت بمفاتيح التجليات الصفاتية، وأما بعض الأنفس فبالمنع عن مشتهياتها ودفع مألوفاتها. وأما الثمرات فهي ثمرات أشجار المقامات والحالات والكرامات العاليات، فهذه كلها بليات العرفاء في سرّ أسرارهم في ميادين الوحدانية ومضمار كمال الجمعية الإحاطية.

﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البَقَرَة: 155] الذين صبروا على كلّما ذكروا وكل من هذه الكدورات مصيبة وإذا هجمت المصائب ونزلت وجمعت النوائب اضطرت النفوس إلى باب الأحدية الجمعية فسلمت لما يرد عليها في باب الله الأعظم فحينئذ قالوا: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البَقَرَة: 156].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ تجليات وشهودات ﴿وَرَحۡمَةٞ﴾ أي مرتع الموانع ودفع الامتحان عنهم ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البَقَرَة: 157] إلى مقام الأمن الآمنة في ضياء نور القدس وصفاء جمال الأنس، إن الصفا والمروة هما جبلان في مكة وجود الإنسان أي النفس والطبيعة والقوة النظرية والعملية أو القوة الواهمة التي تدرك المعاني الجزئية في ضمن المحسوسات والقوة المتخيلة التي تركب المعاني ولصور المحسوسات الجزئية بعضها ببعض ويفصل بعضها عن بعض.

﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ﴾ [البَقَرَة: 158] أي بيت القلب المنعوت بالكمال الجمعي والجمع الكمالي بين الأفعال النفسية والأحوال الروحية والنسب العقلية فلا جناح عليه أن يطوف بهما ويتوجه إليهما لدى إدراك طور التجليات الآثارية وتنوع أطوارها الجزئية وأنوارها الحسيَّة، أو المراد بهما عالم الملك وعالم المثال. والمراد بالبيت عالم الملكوت أو المراد بهما عالم الصورة وعالم المعاني، والبيت هي الأحدية إذ كمال الجمعية يقتضي أن يكون نظر العارف مستوعبًا للكلّ، أو المراد بهما قوسا التنزُّل والترقي، ويجوز أن يكون المراد بهما عالم الملكوت والجبروت لأنهما حجابان بأن الجمعية الملكية الجمعية وملكة حجاب الحرم، والحرم حجاب البيت وأيضًا جبل الصفا مصعد العارفين لأجل تصفية الأرواح بنور المعرفة، وبجبل المروة مدرج الزاهدين لتزكية الأشباح.

روي عن علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جده الصادق رضي الله عنهم: جبل الصفا هو الروح لصفائها عن درن المخالفات، والمروة هي القلب لاستعمالها المروة في القيام بخدمة شعائرها. وقال: الصفا صفاء المعرفة، والمروة مروة العارف.

﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ﴾ الحاجة من تحصل الشعور والإشعار والظهور والإظهار عنهما وبهما إشارة إلى المرتبة الجامعة لتكون في السير في الله، فالصفاء والمروة كنايتان عن السير إلى الله ومن الله المنطويان على النفوس الإمكاني والوجوبي ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾ [البَقَرَة: 158] أو لا تغيب عن نظره، ويراد بهما الوحدة والكثرة فإنهما في المرتبة الجامعية في السير في الله وبالله لا يتحققان بل مشهودان معًا بخلاف السير إلى الله فإن الكثرة في نهاية الأول تختفي، والوحدة في الثاني تنتفي، فلا تظهر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ أي السائرين المنطوية والمكنونة ـ في نظرهم لدى الصعود والترقي إلى الأحدية الجمعية ـ صور الكثرات وغرر الممكنات ﴿مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي الجامعية العظمى التي أنزلها وأودعها الله في حقيقة كل واحد من الأشخاص الإنسانية بل في كل جزء من الأجزاء فإنهم باعتبار القيود المتراكمة والحدود المتصادمة قد اتفقت الجمعية واختفت الهيئة المعية فيهم أي إدراكها

لانتفاء شرائطها ﴿وَٱلۡهُدَىٰ﴾ أي الجمعية المعنوية ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ﴾ في النشأة الأولى والصفوة الأعلى ﴿لِلنَّاسِ﴾ أي الأعيان الثابتة والماهيات الممكنة ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ الكريم والعلم القديم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الأعيان الظليّة الجلالية في الفرداريّة النورية الجمالية الصريحة ﴿يَلۡعَنُهُمُ﴾ [البَقَرَة: 159] وينفدهم عن الكمال الجمعي والجمع الكمالي، وكذا الأعيان النورية الجمالية الإفرادية قد وقعت اللّعن والبعد عن الجمع المذكور أو يلعنهم عن مرتبة الجمعية والنشأة الكلية ﴿وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البَقَرَة: 159] والأشخاص الكاملون.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ ورجعوا عن قيود الجزئية بتأخير الحدود المُعَيَّنة ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾ باستجماع الشرائط ورفع الموانع ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [البَقَرَة: 160] أقبل رجوعهم إليّ وحضورهم بنعت الجامعية لديَّ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦١﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾ الواو للحال من فاعل ماتوا، أي هؤلاء الكاتمين الساترين بيِّنات الله وآياته وهدايته ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ﴾ ومن يعتدُّ بلعنته من الجن ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ﴾ المؤمنين لعدم الاعتداد بالكفار ولعنتهم لأنهم في عين اللّعنة ونفس البعد والطعنة أي استغفر عليهم ﴿أَجۡمَعِينَ﴾ [البقرة: 161] تأكيد للملائكة والمؤمنين. قيل: الأول لعنهم أحياءً وهذا لعنهم أمواتًا. وقرئ برفع الملائكة والناس عطف على محلّ الله لأنه فاعل في المعنى كقولك: أعجبني ضرب زيدٍ عمروًا، ولكونهم مرفوعًا بفعل مقدر أي ويلعنهم الملائكة هذا في يوم القيامة يوقف الكفار فيلعنهم الله والملائكة والناس.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ١٦٢﴾

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾ أي في اللعنة أو في العذاب أو النار ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ أي النار أو بالنار ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ [البَقَرَة: 162] لا يُمهلُون ولا ينتظرون ليعذروا أو لا ينظر إليهم نظر رأفة وتوجه شفقة ورحمة ﴿هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ ٣٥ وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ

﴿فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المُرسَلات: 35، 36].

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ الخطاب عام أي المستحق للألوهية لكم ﴿وَاحِدٌ﴾ لا شريك له أو يسمى أو تعبدًا لها، نزلت في كفار قريش حيث قالوا: يا محمد صِف لنا ربّك، فأنزل الله سورة الإخلاص وهذه الآية، قد كان في مكة للمشركين ثلاثمائة وستون صنمًا يعبدونها ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تقرير للوحدانية بنفي غيره وإثباته وإزاحة لأن يتوهم أنَّ في الوجود إلٰهًا لكن لا يستحق العبادة ﴿الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 163] وكالحجة عليه فإنه لما كان مولى النِّعم كلها أصولها وفروعها ولا شيء سواه بهذه الصفة فإنَّ كلّما سواه إما نعمة أو منعم عليه لعدم انتهاض الحاجة إلى منعم غيره فالمستحق للعبادة ليس إلا واحد نعمًا مطلقًا. وهذان خبران آخران لإلٰهكم أو لمبتدأ أو محذوف.

قيل: لما سمعه المشركون وقد كانوا وضعوا حوله ثلاثمائة وستين صنمًا وقالوا: إن كنت صادقًا فأتِنا بآية نعرف بها صدقك، فنزلت:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وإنما جمع الأول لكونها طبقات متغايرة بحسب الأثر متفاضلة متميزة من حيث الحركة تدرك بالبصر فلا بد وأن تكون أعيانًا متخالفةً بخلاف الأرض، وقد سيقَ مساق الاستدلال على التوحيد فليرجع إليه ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [البَقَرَة: 164] تعاقبهما في الذهاب والإياب من خلف يخلف خلوفًا إذا ذهب أحدهما وجاء الآخر خلافه أي بعده ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ [الفُرقان: 62] والليل جمع ليلة مثل تمرٍ وتمرة ونخلٍ ونخلة،

والليالي جمع الجمع، والنهار جمع نهر، وإنما قدم الليل لكونه بالأصل لما قدم ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يس: 37] خلق الله تعالى الأرض مظلمةً ثم خلق الشمس والقمر والكواكب وظلمة ليل الإمكان مقدمة على الممكنات كلها ﴿وَٱلۡفُلۡكِ﴾ أي السّفن واحده وجمعه سواء بفرق بالصفة في الفلك المشحون ﴿وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ وجرين بهم بريح طيبة ﴿بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ أي ينفعهم أو بالذي ينفعهم من الركوب والحمل عليها في التجارات والمكاسب وصنوف المرام وأنواع المطالب، قرئ بالضمتين على الأصل أو بجمع الجمع على كون الضمة للجمع لا للواحد ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ﴾ أي المطر، من الأولى للابتداء والثانية للبيان، والسماء يحتمل الفلك والسحاب وجهة العلو ﴿فَأَحۡيَا بِهِ﴾ أي بالمطر ﴿ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ أي يبوستها وحدوثها إلغاء للعطف على أنزل ﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾ نشر وفرق ﴿مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ الظاهر أنه عطف على أنزل داخل تحت حكم الصلّة أو على أحيا لأن الدواب ينمون بالخصب ويعيشون بالحياة ﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ أي في ذهابها قبولًا ودبورًا أو جنوبًا وشمالًا وفي أحوالها حارة وباردةً، وعاصفة ولينة، وعقيمًا ولواقح.

قيل: تارة بالرحمة وتارة بالعذاب وكان ﷺ إذا هاجتِ الرياح قال: «**اللهمَّ اجعلها رياحًا ولا تجعلها ريحًا**» **يذكّر ويؤنّث** ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ﴾ أي الغيم المدلل بقلّة الرياح في الجو بمشيئة الله يمطر حيث يشاء بين السماء والأرض، سمّي به لأنه ينسحب ويَسِرْ في سرعته كأنه يجرّ بعضه بعضًا ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [البَقَرَة: 164] يتفكرون فيها ويتدبرون لها بعيون عقولهم ونظر بصيرتهم ويعتبرون بها لأنها دلائل على كمال قدرته وشمول حكمته وقوة سلطانه، وعلو شأنه. قال عليه السلام: «**ويل لمن قرأ هذه الآية فمجَّ بها**» أي لم يتفكر فيها.

واعلم أن دلالة هذه الآيات على وجود الإله ووحدانيته لها وجوه كثيرة **منها**: أنها أمور ممكنة يحتاج في وجوداتها وكثرة أحوالها إلى مؤثر موجد عالم قادر حكيم محيط ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [سبإ: 3]، غني وواجب بالذات، مريد ما يشاء، ويفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، يعلم الجزئيات والكليات وبإرادته واختياره كان ما كان في الأزل، ويترجح وجودات

الأعيان بأحوالها فإن حركات السماوات بعضها شرقية وبعضها غربية، وكون الأقطاب والمحاوير والمراكيز والمناطق والمدارات اليومية بعضها متسامتة وبعضها متوازية ومتقاطعة في الشمال والجنوب، ومواضع الكواكب على منطقة البروج وغيرها وحركاتها كمية وكيفية، وجهة مع تساوي النسبة الإيجابية بالنظر إلى الكل، فإذًا لا بد وأن يكون لها مخصص والمخصص ليس إلا إرادته واختياره ومشيئته، وأما على قانون الإيجاب فهذه الأسئلة وغيرها لا يختص عنها إلا القول بالاختيار وسلب الإيجاب ونفي الاضطرار.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ أمثالًا يعني الأصنام المعبودة أو ساداتهم وقاداتهم الذين كانوا يطيعونهم في معصية الله. لعل المراد هو ما يشغلهم عن طاعة الله ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: 165] أي يعظمونهم ويطيعونهم كتعظيم المؤمنين وإطاعتهم الله، أو يحبونهم كحب الله أي يسوّونَ بين هذه الأصنام وبين الله في المحبة والطاعة لاعترافهم بالله ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر: 3]. المحبة ميل من القلب استعير لحب القلب ثم اشتقَّ منها الحب لأنها أصابته ورسخت فيه بمحبة العبد لله إرادة طاعته والاعتناء بتحصيل مرضاته. ومحبة الله للعبد إرادة إكراهه واقتداره على الطاعة وصونه عن المعاصي ومخالفة أمره ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البَقَرَة: 165] أي أثبت وأدوَم، وأن المشركين كانوا يعبدون صنمًا فإذا رأوا شيئًا أحسن منه تركوه وأقبلوا على عبادة الأحسن أو يعرضون عند نزول الشدائد والنوائب ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾ [العَنكبوت: 65]، ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ [الإسرَاء: 67] في البحر ضلَّ من تدعون إلا إياه، والمؤمنون لا يعرضون عن الله تعالى في السراء والضراء أو لأن الكافرين عبدوا الله عزَّ وجلَّ بالواسطة وذلك قولهم للأصنام: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يُونس: 18] والمؤمنون يعبدونه بلا واسطة.

نقل عن سعيد بن جبير: أن الله يأمر يوم القيامة من أحرق نفسه في الدنيا على رؤية الأصنام ومحبتها أن يدخلوا جهنم مع أصنامهم فيأبون ويمتنعون لعلمهم أن عذاب جهنم على الدوام، ثم يقول للمؤمنين في حضور الكفار: إن كنتم أحباء فادخلوا جهنم، فيقتحمون المؤمنون النار فينادى من تحت العرش: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ﴾ قيل: لأنهم يحبون ربًّا كبيرًا فيوزعون الحب بينهم. وأما المؤمنون فلا يحبون إلا ربًّا واحدًا ولأن حبّ المؤمنين عقلي حقيقي وحب المشركين هوائي وهمي مجازي. أو لأن حبهم صورة على كونها مصبوغة لهم، وحب المؤمنين حقيقي طبيعي لكونه صانعهم. شعر:

أحبّهم لحبّها السودان حتى حببتُ بحبّها سود الكلاب

﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ قرئ بالتاء خطابًا للرسول فحينئذ الجواب محذوف أي لو ينصرنا محمد الذين ظلموا ﴿إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ إذا شاهدت الظالمين وقت يأتيهم العذاب لرأيت أمرًا عظيمًا. وعلى قراءة الياء معناه: ولو يرى الذين ظلموا أنفسهم عند رؤية العذاب لعلموا ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ وأن مع الاسم والخبر مفعول ﴿يَرَى﴾ والجواب محذوف أي لو تعلمون أن القوة لله جميعًا إذا عاينوا العذاب لندموا أشد الندامة. وقيل: هو متعلق الجواب والمفعولان محذوفان ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ أن أندادهم لا تنفع لعلموا ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ ولا تنجح ولاية غيره. قرئ: ﴿أنَّ القُوَّة اللهِ جميعًا﴾، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ [البَقَرَة: 165] بالكسر على الاستئناف مع إضمار الجواب كما علمت.

وقال بعضهم: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ يوم القيامة ﴿إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ حين تخرج إليهم جهنم من مسيرة خمسمائة عام يلتقم كما يلتقم الحَمَام الحية ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي القوة والقدرة والملكوت والجبروت لله جميعًا لا يشاركه في شيء منها أحد من المخلوقات ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ مستأنف أو بإضمار القول.

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ
وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ بدل من ﴿إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ [البَقَرَة: 165]

أي وقت يتراءى المتبوعين واستبعادهم وهم الرؤساء والأعيان من الأتباع وهم السفلة والأداني أي تبرأ الجبابرة والقادة من الضعفاء أو هم الشياطين يتبرّأون من الإنس والجن ﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ عطف على تبرأ أو حال فاعله ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البَقَرَة: 166] عطف على تبرأ والأسباب الوصل كان بينهم من الاتفاق على دين أو نسب وعلى عمل واحدٍ وأصل الحبل الذي يرتقي به أو حال والأظهر.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ أي الاتباع ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ رجعة إلى الدنيا كما قيل لعليّ كرم وجهه: كرَّار غير فرَّار. لو للتمني ولذلك أجيب بالفاء أي ليت لنا كرَّة ورجعة إلى الدنيا ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ أي مثل الإراءة والقطع ﴿أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ﴾ أي ندمات وهي مفعول ثالث ليريهم إن كان من رؤية القلب وإلا فحال. قيل: هم أشركوا بالله رجاء أن يقربهم إلى الله ويشفعهم فلما عذبوا على ما كانوا يرجونه تحسروا وندموا وهي جمع حسرة كتمرة وتمرات وضخمة وضخمات وشهوة وشهوات ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البَقَرَة: 167] أي ما يخرجون فعدل إلى هذه العبارة للمبالغة في الخلود والالتقاط عن الخلاص والرجوع إلى الدنيا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ نزلت في قوم حرمت على أنفسهم بعض الأطعمة والملابس وحلالًا مفعول ﴿كُلُوا۟﴾ أو حال مما في الأرض طيبًا طاهرًا من كل شبهة ومن للتبعيض إذ لا يأكل كلما ما في الأرض ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ﴾ فتدخلوا في حرام أو شبهة أو تحريم حلال أو تحليل حرام، قرئ بضمتين وبضم وسكون وبضمتين وهمزة وبفتحتين وبفتحة وسكون وهي المرة من الخطو. ومن قرأ بالضمة جعلها ما بين قدمي الخاطيء وهما كالفِرْقَة

والفِرَقةِ والقِبْضَةِ والقِبَضةِ فقال: اتبع خطواته ووطئ على عقبه إذا اقتدى به واستنّ بسنته ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البَقَرَة: 168] بين العداوة أو مظهر العداوة حيث امتنع عن السجود وأقدم على تغريره حتى أخرجه من الجنة من أبان يبين إن ظهر وأظهر لازمًا ومتعديًّا ثم بيّن عداوته.

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ أصله مصدر ساء يسوء سواء ومساء إذا أحزنه وسوّأه فساء أي أحزنه فلما رأوه زلفة سيئت الآية. نظم:

إن يكُ هذا الدّهر قد ساءني ... فطال ما قد سرّني الدّهر
الأمر عندي فيهما واحد ... لذاك صبر ولذاك شكر

﴿وَٱلْفَحْشَآءِ﴾ ما يتجاوز الحدّ في القبح من العظائم والكبائر. قيل: السوء ما لا حد فيه والفحشاء ما يجب فيه الحد وكل ما في القرآن من الفحشاء فإنه زنى إلا قوله عن الشيطان: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ﴾ فإنه منع الزكاة، ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: 169] من تحليل الحرام وتحريم الحلال، أو ما استقبحه العقل وأنكره الشرع. هذا دليل على المنع من اتباع الظن وأما اتباع المجتهد لما أدى إليه ظن مستندًا إلى مدرك شرعي فوجوبه قطعي والظن في طريقه كما بين في الأصول.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ مستأنفة نزلت في اليهود فعلى هذا الضمير الغير المذكور. روي أن رسول الله ﷺ دعا اليهود على الإسلام وحذّرهم النار ﴿قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا﴾ وجدنا ﴿عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ وفي الكشاف: أن ضمير لهم للناس وعدل بالخطاب عنهم على طريقة الالتفات للنداء على ضلالهم لأنه لا ضلال أضلُّ من المقلِّد كأنه يقول للعقلاء: انظروا إلى هؤلاء الحمقى ماذا يقولون؟ قيل: هم المشركون وقيل هم طائفة من اليهود كما مرت الإشارة إليه نزلت في

المشركين أمروا باتباع القرآن وسائر ما أنزل الله من الحجج والبينات فجنحوا إلى التقليد. قيل: في طائفة مذكورة من اليهود قالوا: آباءنا أعلم وخير منا، فنِعم ما أنزل الله من التوراة لكونها داعيةً إلى الإسلام أيضًا أو طائفة من كفار قريش من عبد الدار قالوا: بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا من عبادة الأصنام ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا﴾ من الدين والتوحيد والآخرة وإدراك حقائق الأشياء لتعلموا أن المستحق للعبودية والمتحقق بالألوهية ليس إلا من وجب وجوده وبقاؤه وامتنع عدمه وفناؤه ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 170] لإدراك الصواب وأحكام الدين من الحلال والحرام وإدراك الأشياء على ما هي عليه في نفس الأمر. الواو للحال أو العطف والهمزة للردّ والتعجب، وجواب لو محذوف أي لو كان آباؤهم جهلة لا يتفكرون في أمر الدّين ولا يهتدون إلى الحق والصواب في النظر في ترتيب المقدمات لإدراك أوائل الموجودات على وجه تطابق الواقع، فالعاقل لا بد وأن لا يهتدى بهم لكونهم أضلّ الناس وأجهل الأشخاص وهو دليل على المنع من التقليد لمن قدر على النظر والاجتهاد دوامًا اتباع الغير في أحكام الدين وتحصيل أعلام اليقين إذا علم بالتحقيق أنه محقق كالأنبياء والأولياء والعلماء الربانيين والأمناء المجتهدين في الأحكام فهو في الحقيقة ليس بتقليد بل اتباع لما أنزل الله فالتقييد إنما هو اتباع الغير بلا دليل ونظر يدل على اتقانه في الإدراكات والمعارف بل بمجرد الظن والتوهم.

إشارة وتأويل

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي المتقيدين بطور من الأطوار وبمقام من المقامات قد ستروا الحقيقة الجمعية والمرتبة الكلية المحيطة بالكل وماتوا وهم كفار أي انتقلوا من ذلك الطور والمقام حال كونهم مستورين عن الوحدة الجمعية المناسبة لذلك الطور والمقام، فإن في كل طور ومقام أحدية جمعية يليق ميلًا في الطور القالبي لا بد وأن يحصل في التجلي الآثاري التوحيد الآثاري، وفي الطور النفسي في التجلي الأفعالي التوحيد الأفعالي، وفي الطور الروحي التوحيد الصفاتي، وفي الطور العقلي الصريح التوحيد الذاتي، وفي الطور القلبي والمرتبة الجمعية بين الكل التوحيد الجمعي الأحدي الذاتي والأسمائي.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: 161] أي بتبعيد الله إياهم عن التوحيد الجمعي والملائكة والمبادىء الروحانية والمنادي السبحانية والناس الكاملين في المراتب ومقتضيات الأطوار الشاملين على الأدوار الإلٰهية والأكوار الربوبية والكونية ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ في دركات البعد ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ أي عذاب الخوف والتحير ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ [البَقَرَة: 162] لينظر الله إليهم الجامع للكل.

﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ أي الله الغالب على الكل المدرك للكل أحد حقيقي وواحد مطلقًا من حيث إنَّه أوجب الوجود بتمام معانيه وهي النسب الذاتية والإضافات الإلٰهية والكونية هي الأصل والإحاطة الكلية ومنعه عن وقوع الشرك وغير ذلك ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ المعطي للوجود المحدث لكونه المفضل لتوابعه بمقتضى الكرم وكمال الجود ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ [البَقَرَة: 163] الرافع في الحجاب بينه وبين أوليائه، الموصل جمعية الوصل والفصل.

﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي الأنوار المجردة العالية والأعيان المادية السافلة ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [البَقَرَة: 164] قال الصادق رضي الله عنه: أي المعرفة والعقل وإدراكاته المتعلقة بالمجردات والماديات أو تصريف القلب تارة إلى عالم الخلق وأحواله وأخرى إلى الحق وأنوار ربوبيته وأسرار ألوهيته أو الإظهار، أو الإخفاء، أو تعاقب الفناء في الله والبقاء في الله، أو الملّة الرحمانية والملّة الشيطانية أو التجلي الجمالي والجلالي والقبض أو البسط، أو الخوف والرجاء، أو هبوب نفحات رحمته ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [يُونس: 107] أو هي لحظات عناية الله كما أشار إليه بقوله عليه السلام: «**إن لله تعالى في كل يوم ثلاثمائة وستين لحظةً منها هو إدراك حبّ الدنيا والآخرة أو هو تقلب المؤمن بتقليب الله تعالى أو تدبيره الرباني أو تحويله السبحاني**» يا محوِّل الحولِ والأحوال، ومدبِّر الليل والنهار، ويا مقلِّب القلوب والأبصار، حوِّل حالنا إلى أحسن الحال «**قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمٰن يقلِّبها كيف شاء**».

﴿وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ أي القوة العاقلة التي تجري في بحر المعرفة أو اليقين البشري الذي في بحر الوجود وغير ذلك من الأمور المتناسبة ﴿بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ أي يعطي منافع المعارف والإدراكات ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ﴾ من

سماء الأسماء الذاتية من ماء المعارف الإلٰهية والعلوم الشهودية والشهودات الذوقية، فالعاقل يرتع في مروج المنة، والعارف يرتفع إلى بروج سماء الأحدية.

قال في العرائس: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي نقصانهما وزيادتهما وذهابهما وآبائهما اعتبار الطلوع شمس المعرفة من مشرق القربة وغروبها في مغرب الفكرة في وقت الغيبة عن المشاهدة ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى﴾ الآية، أي العارفين في حوبات القلب في بحار العدم عند ساحل الفناء والعدم لطلب المعرفة من قعر تباريم الذات وبحر أحديته لمنافع المريدين برؤية الصفات الجبروتية في الآيات الملكوتية ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البَقَرَة: 164] أي أرض الاستعدادات وبسيط القابليات أي بعد خلّوها عن مياه المعارف الفطرية، ثم بأنوار الوجودية والأزهار الكونية وما يتبعها من تضاعف الإدراكات ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ أي كلما يدبُّ ويتحرك إلى الباطن ومن الباطن إلى الظاهر حالًا واعتبارًا ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إلى هواء المحبة الذاتية الجارية جميع الذراري وتمام الذراري التي تثير سحاب الشوق نحو سماء الشوقية الجمعية العظمى وفلك التجلي الأعلى ليمطر قطرات أمطار أنواع التجليات على أراضي رياض قلوب العارفين وحدائق غيوب المشتاقين لينبت أشجار المعارف الذوقية والشهودات الحقيقية الجمعية ﴿لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البَقَرَة: 164] أي بالغيب في مقام الحقل الصريح والكشف الفصيح والشهود الصحيح.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: 165] في مقام التفرقة أندادًا، هي للصدّيقين الزلات، وللعارفين التجليات، وللمحققين المقامات، وللسالكين الأنوار، وللعابدين لذات الطاعات، وللعلماء سرور العلوم والإدراكات، وللمشتاقين الشطح والطامات، وللعامة الشهوات ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجَاثيَة: 23]، ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا﴾ [البَقَرَة: 165] أي الذين وصلوا في مقام جمع الجمع، فإن حبهم يحتوي على جميع المحبات. وفي العرائس: لأن أهل الإيمان والتوحيد سمعوا خطاب ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعرَاف: 172] بالسمع الخاص في سابق الدهور ورأوا مشاهدة جماله وجلاله قبل وقوع البلاء فيبقى في قلوبهم لذّة المشاهدة والخطاب فيجدون بها في مقام

الفرق حلاوتها فيصادفون بالتفريق مرارة بلائه وغصة امتحانه فينقلبون منه ببذل نفوسهم وترك حظوظهم والوفاء بما عاهدوا عليه من قبول العبودية يحفظون معاقد الربوبية ولا يلتفتون إلى الغير فضلًا عن المحبة.

قال الشبلي: من ادعى محبة الله ونسيَ ذِكره طرفة عين فهو المستهزئ والمفتري على الله. قال الصادق رضي الله عنه: إن الله يباهي على خلقه من محبته للمؤمنين ومحبة المؤمنين له. قال بعضهم: يحبه الله إنما هي لله وهو باق فصار حبهم باقيًا ببقاء حبه كما بقوا عند الفناء في الله ببقائه أبدًا بلا فناء.

﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ [البَقَرَة: 165] أنفسهم في مقام التفرقة عند كشف الحجب البشرية ورفع الغطاء الكوني ما أعدَّ الله لهم «**أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قطّ**»، لرأوا أمرًا عجيبًا من إحراق نار التحسر والندامة وإشراق نيران الحرمان الموقدة في الأفئدة ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ [الهُمَزة: 6، 7] وسورة إحراق هذه النار أشد من سورة إحراق نار السّعير بسبعين درجةً كما ورد في الحديث إذ مراتب اللّذات والآلام تتكامل حسب تكامل مراتب الإدراك ولا شك أن إدراك النفس في التجرد أكمل مما في المادة فيكون لذات النفس وآلامها وهي إدراك الملائم والمنافر بعد التجرد أتم في عالم الصورة، ومراتبُ كمال النفس على سبيل الكلية مسبقة وهي مقتضيات الأطوار السبعة المستمدة من غيب الأسماء السبعة الذاتية المستنيرة بالأنوار السبعة المستندة إليها مقتضيات الكواكب السبعة السيارة، إذ يرون العذاب الروحاني المعنوي والجسماني الصوري الذي يختص إدراك كل منهما بقوة باقية بعد خراب البدن بالنفس في الجسد المثال المكتسب الثابت في البرزخ وهي القوة الروحانية العاقلة للأول. وخلوص إدراك هذه القوة إنما يكون بعد الانتقال من البرزخ إلى الملكوت ثم منه إلى عالم الجبروت، وهناك تتجرد النفس عن قيود جميع التعلقات وتتابع النِّسَب والإضافات والجذب للآلام واللّذات وتحقق النهايات بالبدايات، وانطبق النفس على العقل، والبرزخ الأدنى على البرزخ الأعلى إلى سدرة المنتهى فعلم ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ [البَقَرَة: 165].

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ أي القوى الجسمانية من القوى النفسانية والقوى النفسانية من الروحانية والعقل من الروح، والعقل من نفسه، وها هنا أن يبقى التحت والفوق وارتفع من البين الجمع والفرق وبالعكس ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البَقَرَة: 166] أسباب التعلقات التي بها ارتبطت بعضها ببعض وارتبطت الكل بالنفس وهي بالعقل، وهو بالوحدة الجمعية.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ [البَقَرَة: 167] من القوة الجسمانية والمبادي النفسانية والروحانية: يا ليت أن يكون لنا رجعة إلى ما كنا عليه في النشأة الأولى، إشارة إلى أن النفس مع ما لها من القوى الجسمانية والنفسانية والروحانية بعد عذاب البدن الحسي باقية لا تفسد بفساد البدن لأن هذه القوى مع النفس واحدة بالذات متغايرة بالاعتبار يحصل لها صفاتٍ وأحوال. فباعتبار كل صفة تسمى باسم بحسب مراتب إدراكاتها وشهوداتها التجلي الذاتي وكمالها أن يشاهد الوجه الواحد الباقي في جميع مراتبها بتمام وجوهها.

وهذا لا يتأتى إلا عند تساوي نسبتهما إلى تلك المرتبة الجامعة إذا بلغ مرتبة الفناء في الله والبقاء بالله في السير في الله مما لم يبلغ العارف إلى هذه المرتبة الجامعة جمعية العظمى ولم يحصل لها هذه الكلية الإحاطية يكون في خصوصيته كل مرتبة مبرأة ومتميزة عن الأخرى تميز تلك المرتبة الكلية الكبرى عن غيرها.

﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ يعني كما تبرأ من كل منها يريهم الله أعمالهم المخصوصة بخصوصية المرتبة ما يلزمها التي انعقدت النفس بها بخصوصية مآلها ﴿حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البَقَرَة: 167] التي تناسب المرتبة إلى أن اتصلت المرتبة الكلية الإحاطية.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أي القوى البدنية النفسانية ﴿كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ قابلياتكم المخصوصة بها نوع من الشراب واقتصدوا إلى فوقها لا إلى تحتها لأنها شيطان ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي انتقالات القوة النظرية وحركات القدرة الفكرية ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البَقَرَة: 168] بجرِّه إياكم من رفيع المرتبة العليا إلى وضيع الدركات السفلى.

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ أي التقيد في درجة القوة العملية بالأعمال السيئة

﴿وَٱلْفَحْشَآءِ﴾ أي مقتضى القوة النظرية المستمدة في إدراك مطالبها بالحواس ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: 169] الجامع على جميع الأسماء والصفات ويرجع إليه كل الموجودات أن ينسبوا إليه ما لا يعلمون إذ العلم هو التمثل حقيقة الشيء عند المدرك وهو ظهور الذات لذاته بذاته وظهور الغير فيه بغيره وهو التماثل والعلم بالذات الجامع لجميع الأسماء والصفات بكلا المعنيين لكل قوة في أي مرتبة منه وهو ظاهر.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ أي لتلك القوى ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من سماء غيب الواحدية وهو التجلي الكلي الجامع للكل ﴿قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ﴾ من التجلي الخاص المخصوص بتلك المرتبة ما وجدنا ﴿ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا﴾ مع التجلي المذكور لعدم مناسبتهم به ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البَقَرَة: 170] أي لا يجدون الوصول إليه لانتفاء شرائط بيان الأحوال والمبادىء وللقوى وما يلزمها من الإدراكات ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصَّافات: 164].

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ﴾ ويصوّت ﴿بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ إضمار، أي ومثل داعي الذين كفروا كمثل الذي ينعق أو مثل الذين كفروا كالبهائم التي تنعق. والمعنى أن الكفرة لانهماكهم في التقليد لا يلقون أذهانهم إلى ما يتلى عليهم ولا يتأملون فيما تقرر بهم فهم في ذلك كالبهائم التي عليها أو يصوت إليها فيستمع الصوت ولا يعرف معناه ويحس بالنداء ولا يفهم مبناه، أو تمثيلهم في اتباع آبائهم جاهلين بحقيقة ما هم عليه بالبهائم التي تسمع الصوت ولا تفهم ما يحويه، أو تمثيل في دعائهم الأصنام بالناعق في نعقه وهو التصويت على البهائم، وهذا يغني عن الإضمار إلا أنه لا يساعده.

قوله: ﴿إِلَّا دُعَآءً﴾ لأنها لا تسمع إلا أن يجعل من باب التمثيل المركب ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البَقَرَة: 171] مرفوع على الذّم أي هم صمٌّ بُكمٌ يقال لمن يسمع ولا يعمل بما يسمع كأنه أصم، أي لا يسمعون الحق تنزيلًا لمن لا يسمع

الحق بمنزلة الحمار لعدم السّماع عنها ولا يقول بالحق ولا يرى الحق، فإذا كانت حالهم كذلك فهم لا يعقلون أي ليس لهم عقول لأن ارتفاع اللازم يستلزم ارتفاع الملزوم وهذا أبلغ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ﴾ وفي الكشاف: وما رزقناكم من مستلذّات لأن كل ما رزقه الله لا يكون إلا حلالًا، هذا على مذهبه من أن الحرام لا يكون رزقًا. عن النبي ﷺ: «**أن الله طيب لا يقبلُ إلا الطيب، وأن الله أمر المؤمنين بما أمر به المُرسلين فقال: يا أيها الرسل كلوا من الطيبات، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ﴾ بطول يطيل السفر أشعث أغبر يمدّ يديه إلى السماء: يا ربّ ومطعمه حرام وشرابه حرام وملبسه حرام وغُذِي بالحرام فأنّى يُستجاب له**» ﴿وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ﴾ على نعمةِ المطاعم والأشربة والملابس لأن الحرام يقسِّي القلب ليعصي الربّ فكيف يُستجاب لكم ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البَقَرَة: 172] إن صحَّ أنكم تختصون بالعبادة وتقرُّون أنه مولى النِّعم. عن النبي ﷺ: «**يقول الله تعالى: الجن والإنس في نبأ عظيم أخلق ويعبد غيري وأرزق ويشكر غيري**».

مطلب حِلّ طعام النصارى

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾ أكلها والانتفاع بها وهي التي ماتت من غير زكاة لحديث: «**ألحِق بها ما أبينَ من حيّ إلا السمك والجراد**» أخرجها العرف واستثنى عنها الشرع والحرمة المضافة إلى العين تفيد عرف حرمة التصرف مطلقًا إلا ما خصّه الدليل كالتصرف في المدبوغ ﴿وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ [البَقَرَة: 173] إنما خصّ بالذكر لأنه معظم ما يؤكل من الحيوان وسائر أجزائه كالبائع له. قيل: إن

الميِّت بالتخنيق هو الذي فارق الروح، وبالتشديد هو الذي لم يمت بعد وهو يموت ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزُّمَر: 30]. والمراد بالدم الجاري لقوله تعالى: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ [الأنعَام: 145]، قال النبي ﷺ: «**أُحِلَّت لنا ميّتتان: الحوت والجراد وأمَّا الدَّمان فالكبد والطحال**».

﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ أي ما رُفِعَ به الصوت لغير الله الأصنام والطواغيت كلها ومنه إهلال بالحج وهو رفع الصوت بالتلبية، وإهلال الصبي واستهلاله وهو صياحه عند خروجه من البطن، فإنهم إذا ذبحوا لآلهتهم جهروا أصواتهم.

والمراد أهل الشرك وعبدة الأوثان لا الذمي من أهل الكتاب فإن ما ذبحوا لعيد الكنائس وما هدوا به من خبز أو لحم فهو حلال لنا.

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ أي وقع في موقع الضرر نقل إلى باب افتعل وقلبت الطاء تاءً وأدغمت. قيل: أُكرِهَ عليه كالرجل تأخذه العِدى فتُكرِهه على أكل لحم الخنزير وغيره من المصيبة ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ [البَقَرَة: 173] نصب على الحال إن صلح موضعه إلا وإن كان إلا فهو استثناء أصل البغي قصد البغي والفساد ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريَم: 28]، ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النُّور: 33] باغ اسم فاعل وكذا عاد من العدوان وهو الظلم. يقال: عدا يعدو وعدوًا وعدوانًا إذا أظلم، فالمراد من الأول قطع الطريق ومن الثاني مفارقة الأمة والخروج عليهم بالسيف. والآبق من السيد أو الغريم وغير ذلك من وجوه العصيان.

فعلى هذا لا يباح للعاصي بالسفر وهو ظاهر مذهب الشافعي أكل الميتة وغيرها حال الاضطرار ولا شرب الخمر عند العطش، وإذا خرج مطيعًا مباحًا ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البَقَرَة: 173] في تناوله وشربه عند الاضطرار ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما أكل أو شرب من المحرمات حال الاضطرار ﴿رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: 173] به حيث رخص له ما حرم.

فإن قيل: إنما يفيد قصر الحكم على ما ذكروا من الحرام كثيرًا غير مذكور، قلت: المراد قصر الحرمة على ما ذكر مما استحلُّوه لا مطلقًا أو قصر حرمته على حال الخيار كأنه قيل: إنما حرم عليكم هذه الأشياء ما لم تضطروا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ في صفة محمد ﷺ. سألت ملوك اليهود قبل بعث محمد ﷺ: ما تجدون في التوراة؟ فقالوا: نجد أن الله عزَّ وجلَّ يبعث نبيًّا بعد المسيح يقال له محمد يحرِّم الزنا والخمر والملاهي وسفك الدماء. فلما بعث ﷺ ونزل المدينة قالت الملوك لليهود: أهذا الذي تجدونه؟ قالوا: لا، طمعًا لأموالهم فأنزلت إكذابًا لهم وتكذيبًا لقولهم، فعمدوا إلى تغيير صفته فأخرجوها وقالوا: هذا نعت النبي الذي يخرج ﴿وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ أي بالمكتوب عرضًا يسيرًا أو غرضًا حقيرًا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ إما في الحال لأنهم أكلوا ما تلبسوا بالنار لكونها عقوبة عليهم فكأنهم أكلوا النار. أكلت دمًا إن لم أرعك نصرة أي دية، وفي المآل أي لا يأكلون يوم القيامة أي بطونهم مُلئت من النار، إنما يأكلون في بطونهم نارًا ﴿وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ بمعنى عاقبتهم تولي النار. وفي الحديث: «**الذي يشرب من آنية الذهب والفضة إنما يجرّ جرًا في بطنه نار جهنم**» أخبر عن المآل بالحال ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ كلامًا ينفعهم ويسرّهم. قال أهل المعاني: أراد أنه نقضت عليهم كما يقولون: لا تكلم فلانًا أي هو عليه غضبان ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمۡ﴾ لا يطهرهم من دنس ذنوبهم ودرن عيوبهم ولا يثني عليهم ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: 174] مؤلم، وجع موجع.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ١٧٥﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ استبدلوا في الدنيا الضلالة بالهدى والغباوة بالنهى ﴿وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾ استبدلوه بها في الآخرة يكتمان الحق والتصرف في كتاب الله بتغيير ما فيه على وفق أغراضهم الفاسدة وأمنيتهم الكاسدة ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [البَقَرَة: 175] تعجب من حالهم في التباسهم

بما يوجب النار ويصيبُ البوار من غير مبالاة منهم كما يقول لمن يعترض بما يوجب غضب السلطان: ما أصبرك على القيد والحبس يعني لا يتعرض له إلا من هو شديد الصبر على العذاب. قيل: أي شيء صبرهم؟ يقال: اصبر على كذا وصبره بمعنى وهذا أصل فعل التعجب. قال بعضهم: فما أصبرهم على عمل أهل النار أي ما أدومهم عليه، قيل: هذا على وجه الاستهانة.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ١٧٦﴾

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ﴾ أي ذلك العذاب بسبب أن نزول الكتاب إنما هو بالحق والعدل فمن ترك العمل به وغير ما فيه، وكذبه ولهم ما فيه فهو يستحق العذاب ويلحق ويحيق به أشد العقاب ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي كتاب الله فقالوا: بعضها حق وبعضها باطلٌ، فاللام فيه إما للجنس أو للاستغراق أو للعهد والإشارة إلى التوراة فاختلفوا على معناه بأن بعضهم صدقوا ما فيه كعبد الله بن سلام وكعب بن الأحبار وأضرابهما، وبعضهم حرفوا ما فيها أو بمعنى التخلف إن كان المراد البعض الثابت على اليهودية فإنهم يخلفوا في التحريف عن المنهج القويم والطريق المستقيم أو إلى القرآن. والاختلاف هو القول بأنه سحر وتقول افتراء أو كلام علمه بشرًا وأساطير الأولين ﴿لَفِي شِقَاقٍ﴾ خلاف وضلال ﴿بَعِيدٖ﴾ [البقرة: 176] عن الحق والمنهج الصدق.

﴿۞ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ١٧٧﴾

﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ﴾ اسم للخير ولكل فعل مرضي ﴿أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ الخطاب لأهل الكتاب لأن اليهود تصلي ﴿قِبَلَ﴾ المغرب إلى بيت المقدس والنصارى ﴿قِبَلَ

﴿ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ أو عام أي ليس البرّ أمر القبلة فقط ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ﴾ أي البرّ الذي يجب الاهتمام به وصرف الهمة إليه ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: 177] فالاستغناء بالأول عن الثاني كقولهم: الجود حاتم أي جود حاتم ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة أي كخلق نفس. وقيل: هو على طريقة ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: 132] أي للمتقي أو على تقدير حذف المضاف أي ذي البر من آمن كقولهم: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ﴾ [آل عِمرَان: 163] أي ذو درجات. قال المبرد: لو كنتُ ممن أقرأ القرآن لقرأتُ: ولكن البَرَّ مَن آمن باللهِ بفتح الباء. يقولُ العرب: رجل بَرّ وبار والجمع بررة وأبرار، والبرّ العطف والإحسان والصدق والإيمان. وقرأ بعضهم: ﴿ولكنَّ البارُّ والتقوى﴾ وهو المراد في هذه الآية ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ﴾ أي يحشر الناس بعد فناء الدنيا وانقضائها فيه ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ كلّهم، والحكماء يسموا عنهم أنوارًا مجردة وجواهر عاليةً ونفوسًا عاملة ﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾ المُنزل من الله على الأنبياء ﴿وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البَقَرَة: 177] على طريق الإجمال إن كان والتفضيل في التفصيل ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ﴾ وأعطاها كلما يميل النفس إليه ليتموّل به ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البَقَرَة: 177] على حبّ المال، يعني على حالة تصح لحبه ويميل إليه ويكون مرغوبًا عنده ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عِمرَان: 92].

عن ابن مسعود: هو أن تأتيه وأنت صحيح شحيح تأمل العيش وتخشى الفقر فلا يمهل ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ [الواقِعَة: الآية 83] أو هو عائد إلى الله أي على حُبّ الله يعني أنَّ البر بالإعطاء والإنفاق إذا كان على حبّ الله إذ طباع الخلق مجبولة على الإسراف والتبذير ملحوظًا فيه الناموس والرياس والشهرة مع تهالكهم عليه وتكالبهم في تحصيله لديه. قيل: على حب الأبناء أي يعطيه وهو طيب النفس بإعطائه ﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي أهل القرابة.

قال عليه السلام: «**صدقتك على المسكين صدقة وعلى ذوي الرّحم اثنتين**» لأنها صدقة وصلة. وقال أيضًا: «**أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح**»(*) ولهذا قدمهم. ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ جمع يتيم وهو الصغير الذي مات أبوه ﴿وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ جمع مسكين الدائم السكون إلى الناس لأنه لا شيء له كالسكران الدائم السكر

(*) قيل الكاشح: العدو. رواه الديلمي في الفردوس حديث رقم (1417) [1/ 353].

وهو الذي له مال أو كسب لا يكفيه كأن العجز سكنه ﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي المختار. قال بعضهم: المسافر المنقطع الأهل يمر عليك والضيف ينزل بالرجل لأن السبيل يرعف به لذا سمِّي به لملازمته الطريق كما يقال: الصوفي.

مطلب: كون السائل هديةً

قال عليه الصلاة والسلام: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُكرم ضيفه حق الضيافة ثلاثة ليال وما فروق ذلك فهو صدقة**» ولذا سمِّي به لملازمته الطريق كما يقال ابن الوقت وغير ذلك ﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾ المستطعمين الطالبين للطعام. قال عليه السلام: «**هدية الله إلى المؤمن السائل على بابه مسلمًا كان أو كافرًا، غنيًّا أو فاقرًا**». ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ أي المكاتبين. وقيل: فداء الأسارى أو عتق النسمة وفكّ الرقبة ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يحتمل أن المقصود منه ومن الأول الزكاة المفروضة لأن الفرض من بيان مصارفها وحثّ على تطوع الصدقات وتبرعاتها. والمتبادر من هذا آداؤها. وعن الشعبي: إن في المال حقًّا سوى الزكاة، فعلى هذه الآية. وما ورد في الحديث: «**نسخت الزكاة كل صدقة**» وليس في المال حق سوى الزكاة فمحمول على صدقة واجبة يكون لأدائها شرائط وأسباب ﴿وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ﴾ فيما بينهم وبين الله أو فيما بينهم وبين سائر الناس ﴿إِذَا عَٰهَدُواْ﴾ إذا وعدوا أنجزوا وإذا حلفوا ونذروا أوفوا، وإذا قالوا صدقوا، وإذا ائتمنوا أدُّوا. عن ربيع بن أنس: من أعطى عهدًا لله ثم نقضه فالله سبحانه منتقم منه، ومن أعطى ذمة النبي ﷺ ثم عذر فالنبي خصمه يوم القيامة. عطف على مَن آمن ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾ نصب على المدح ولم يعطف لفضله على سائر الأعمال ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [البَقَرَة: 177].

إشارة وتأويل

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي ستروا سترة الوحدة الجمعية الإحاطية بالتقيد في ظاهر الأطوار وبالتجديد في الأنوار وروح العلوم الرسمية والإدراكات الوهمية من الأبرار ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ﴾ أي النفس الذي ترعى وتعمل بالقوى الجسمانية والنفسانية التي لا تسمع عن النفس إلا دعاءً وأمرًا إلى استيفاء حظوظ البهيمية

والملذات الشهودية ونداءً بأجرام أحكام نصوص السبعية ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البَقَرَة: 171] الخطاب الأزلي والنداء الأولي في مقام ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعرَاف: 172] ولا يتكلمون الكلام القديم الذي سمعوا في موطن القدم والمعطن العدم ولا يشهدون التجلي الذاتي الذي شهدوا في ضمن الشهود الأولي والعهود الأزلي ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ لا يدركون إدراكًا شهوديًّا حضوريًّا شيئًا مما شهدوا في الأزل وعاهدوا الله عليه في العهد الأول والعقد المؤول.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ في النشأة الأولى من الشهودات والمعارف المتعلقة بالأسرار الإلٰهية والأنوار الربوبية والأطوار القلبية ﴿وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ﴾ اعلموا ما رزقكم الله وتخلقوا به وتحققوا في مقام علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البَقَرَة: 172] حق العبادة بعد الشهود والمعرفة.

قال علي كرَّم الله وجهه: «رأيته فعرفته ثم عبدته لم أعبد ربًّا لم أره». ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾ المعصية الجسمانية ﴿وَٱلدَّمَ﴾ واللّذات النفسانية ﴿وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ أي الاشتغال بالأخلاف عن شهود الخلاق، أو المراد بالأول لحكمة الطبيعية ومن الثاني حكمة الرياضية، ومن الثالث الحكم الإلٰهي إذا اقتنع بالظاهر منها وبمقتضى معانيها الأولية ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ [البَقَرَة: 173] أي من وقع في الورطة وتمكن في السقطة في الطلب وتقلد بالحجاب النوراني عن الشهود الرباني لا بد وأن يخالف عادة عبادته بارتكاب بعض المعاصي كما أن الطبيب لما رأى المادة السمّية في المريض فلا بد وأن يمنعه من الغذاء المعتاد ويأمره بارتكاب الدواء السمّي وكالنجم في دفع الأعداء القوية يختار النحوس في دفعهم في دفع الخصماء والأعداء وهو السابع واثنى عشر ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة: 216].

روي أن ذا النون المصري كان مريدٌ له صادقًا مرتاضًا ثلاثين سنة ولم يكشف له شيء من التجليات، فاشتكى يومًا إليه من حاله فقال: اترك الطاعة المعتادة، فتركها فرأى الله عزَّ وجلَّ فقال ذو النون الزنديق: أتأمر عبدًا لأن يترك عبادتي، فناح ذو النون نوحًا شديدًا بأن حبيبي قد عظمني تعظيمًا وكرمني بخلقة

الزنديق. هذا من حسن الإرشاد وكمال التكميل. قال النبي ﷺ: «**لولا أن المؤمن يعجب بعمله يعصم من الذنب حتى لا يهم به، فلو أُعجب به لكان الذنب خيرًا له من العجب**». وقال أيضًا: «**لو لم تُذْنبوا لخشيتُ عليكم أعظم من ذلك، قالوا: وما ذلك؟ قال: العجب العجب العجب**». قال النبي عليه السلام: «**وربّ تالٍ يتلو القرآن والقرآن يلعنه**» فترك هذا النوع من التلاوة والقراءة فلا إثم عليه فلا حرج إليه فيما فعل لأن الله حكيم مطلق لا يؤاخذه ويستره ويرحمه بالتجلي كما فعل خضر بموسى عليه السلام من خرق السفينة وقتل الغلام.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي أصحاب التجلي الذاتي الجامع للتجلي الأسمائي بتمام المراتب وما فيها من الأعيان وما لها من الأعمال والأحوال ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۙ﴾ أي بالتجلي الذاتي تجلّيًا آثاريًا أو فعليًا أو ضيائيًا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ [البَقَرَة: 174] أي هؤلاء الذين بدلوا الكمال الجمعي والتجلي الكلي الأصلي والفرعي بالتجلي الآثاري واقتنعوا به ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ﴾ [البَقَرَة: 174] أي في بطون الآمال في الآخرة والمآل ﴿إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ أي نار التحسر والندامة التي أوقدت على الأفئدة ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ [الهُمَزة: 6، 7]، ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ بتجلي الكلام الجامع ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الآفاقية أو الأنفسية ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ لا يطهرهم عن أنجاس التقييد وأرجاس التقلد والمواد السمّية لعدم اتضاحها وإعدادها لدفعها ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: 174] ما داموا يتصفون بها.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾ يعتدون بدرجة الأنوار واشتغلوا بها عن جمعية الأسرار ﴿ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ استبدلوا فقدان المطلوب الحقيقي ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾ ووجدانه والعذاب الجسماني والنفساني ﴿بِٱلْمَغْفِرَةِۚ﴾ وكمال المعرفة ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [البَقَرَة: 175] الجسمانية في جهنم الجسمانية أو النفسانية في النفسانية والروحانية في الروحانية ذلك الاستبدال بأن الله ﴿نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّۗ﴾ أي الاشتراء أو العذاب بسبب أن الله نزل الكتاب التجلي الذاتي الشامل للكل ﴿بِٱلْحَقِّۚ﴾ [البَقَرَة: 176] أي بالقسط والعدل متساوية النسبة إلى الكل يقتضي استكمال الكل بكمال الكل، إلا أن البعض لفقدان شرائط الاستكمال لا يصل إلى جنة الذات الجامع للكل فيكون مترددًا في النشآت مستعدًا للدركات.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ المذكور بخلاف الاستعدادات لقبول هذا الكتاب أعني التخلي الذاتي الكلي الجامع للكل فمنهم من يقبل منه آية من التجلي الآثاري، ومنهم آيتين أو ثلاثة إلى آخرها، وكذا التجلي الأفعالي والصفاتي وإنما ظهر مقام المضمر إشعارًا بأن نسبته إلى الكل على السواء ﴿لَفِي شِقَاقِۭ﴾ وضلال ﴿بَعِيدٖ﴾ [البَقَرَة: 176] من الوحدة الجمعية والحقيقية الكلية.

﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ﴾ أي الكمال المعتد الجامع لكل الخيرات وتمام المرات ﴿أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ﴾ أي قبل مشرق التجلي المعنوي ﴿وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ مغرب التجلي الصوري والظهور النوري ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ بالفناء في الله والبقاء وهي صورة جمعيتهما في صورة الإنسان الكامل والعرفان الجامع الفاصل ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ أي نهاية أفضل التجليات أي الذاتية والصفاتية والأفعالية والآثارية ﴿وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [البَقَرَة: 177] أي آتى الزكاة وأعطاها وهي فصل التجليات وهو العلوم والمعارف والمتعلقة التابعة لها إشارة إلى ما يميل ويتملكه في المراتب محيطًا بالأطوار السبعية القالبية والنفسية والقلبية والسّرية والروحية والحقيَّة وغيب الغيوب ﴿وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْ﴾ في السير إلى الله ومن الله بأن لا يتقيدوا بما شاهدوا في هذين السيرين في الله والكمال الجمعي الأصلي والفرعي ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ﴾ أي في بؤس فقدان الكمال الجمعي الجمالي وفي حيز انتفاء الكمال الجمعي الجلالي ﴿وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [البَقَرَة: 177] لله في الاختلاف المفضي إلى الفساد والإفساد.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بما جاء من عند الله ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ﴾ [البقرة: 178] نزلت في حَيَّينِ من أحياء العرب اقتتلا في

الجاهلية قبيل الإسلام وكان بينهما دماء ولأحدهما طول على الآخر فأقسموا أن يقتل الحر بالعبد والذكر بالأنثى وبالرجل رجلين، وينكحوا نساءهم بلا مهور، فلما جاء الإسلام تحاكموا إلى رسول الله ﷺ فنزلت القصاص وهو المساواة والمماثلة في النفوس والجروح والديَّات فأمرهم أن يتساووا. والآية لا تدل على أن لا يقتل الحر بالعبد والذكر بالأنثى كما لا يدل على عكسه، فإن المفهوم حيث لم يظهر التخصيص سوى اختصاص الحكم وقد بيّنا ما كان الفرض.

عن عمر بن عبد العزيز والحسن البصري وعطاء وعكرمة: أن الحرَّ لا يُقتل بالعبد، ولا الذكر بالأنثى، وهو مذهب الشافعي ومالك ويقولون: هذه الآية مفسرة لما أُبهم في قوله تعالى: ﴿ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المَائدة: 45] لأن تلك الآية واردةٌ حكاية عما كتب في التوراة على أهلها وهذه الآية خوطِبَ بها المسلمون وكتب عليهم ما فيها، ولا يُقتل المسلم بالكافر.

لما سُئِل علي كرَّم الله وجهه: هل عندكم من النبي ﷺ سوى القرآن؟ قال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا أن يعطي الله عبدًا فهما في كتابه وما في صحيفة. قلتُ: وما في الصحيفة؟ قال: العقل وفكاك الأسير، وأن لا يُقتل مسلم بكافر، ولا يُقتل أحد من المسلمين بعبد ولا سيّد بعبده، ولا والدٌ بولده. يدل عليه ما روي أن رجلًا اسمه قتادةُ دعى ابنه بسيف فأصاب رجله فنزف فمات فقال عمر رضي الله عنه: لولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يُقتل مسلم بذي عهد ولا حر بعبد، ولا والد بولد**» لأمرتُ بقتل الوالد. وأبو حنيفة وأصحابه ذهبوا إلى قتل الحرّ بالعبد لما روي: أنَّ أبا بكر وعمر رضي الله عنهما كانا لا يقتلانِ الحرّ بالعبيد بين أظهر الصحابة من غير نكير، واحتجوا بآية: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ﴾ [يُوسُف: 53] وما جعلوا هذه الآية منسوخة بها، وهذا الاحتجاج ضعيف لأن هذه الآية حكاية عما في التوراة وهي لا تنسخ ما في القرآن.

﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾ أي ترك ما له في القصاص إلى ما له من الدية وصفح عنه من الواجب عليه وهو القصاص في قتل العمد فرضي بالدية أي ترك القصاص إلى الدية في العمد، قال البعض: شيء من العفو لأنه لازم لا متعدٍّ. وفائدته الإشعار بأن البعض من العفو كالعفو التام في إسقاط القصاص. وفي

«الكشاف»: ولا يصح أن يكون شيء في معنى المفعول به لأن العفو لازم لا يتعدى إلى مفعول به معناه فمن عفي له من جهة أخيه شيء من العفو على أنه كقولك: سيرَ البريد بعض السّير، قيل: معناه فمن عفى له أخوه لأنه لا نسبة من قبل وليّ الدم ومطالبته كما يقول للرجل: قل لصاحبك كذا لمن بينه وبينه أدنى ملابسة ولا يعدى بعن إلى الجاني والذنب معًا، يقال: عفوت عن فلان وعن ديته إذا تعدى إلى الذنب قيل: فمن عفي عن جنايته فاستغنى عن ذكر الجناية. فإن قيل: تفسير عفى بترك غير ثابت، قلت: هذا تفسير باللازم لا بالمرادف.

﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ أي فعلى العافي أوفا الآمر عليه مطالبة الدية بالرّفق لا بالعنف والزيادة، وعلى المعفوّ عنه أداءها بطيب القلب والقول الحسن بلا مطل وكسل ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي العفو ﴿تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ لما فيه من التسهيل والتيسير والنفع والخير الجميل الكثير ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ إرادة الخير لكم لأن الله تعالى كتبه على اليهود في النفس والجرح في الأعضاء القود والقصاص لا غير، وعلى النصارى العفو مطلقًا. وهذه الأمة لكونها وسطًا خُيِّرت بينهما.

واعلم أن أنواع القتل ثلاثة: العمد، وشبه العمد، والخطأ. فالعمد هو الذي يقصد بقتل وضرب بشخص جارح كالرمح والسيف وغير ذلك، فالغالب عليه أن يموت منه فهذا هو الذي يتعلق به القصاص. وشبه العمد هو الذي انتفى عنه بعض هذه كالضرب بالسوط والخطأ فعل مزهق للروح صادر من غير قصد أو قصد غير ما أصابه كمن خرّ على صغير بلا قصد ومات، وكمن رمى السهم إلى الصيد أو إنسانًا يظن أنه شجرة أو حيوان فأصاب إنسانًا ومات منه، وكلاهما لا يستحقان القصاص بل الدية.

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي ظلم وتجاوز الحدّ بعد أخذ الدية وقتله ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: 178] قتله في الدنيا ولا يعفى عنه. قال عليه السلام: «**لا أعافي رجلًا قتل بعد أخذه الدية وفي الآخرة عذاب النار**».

﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ كلام في غاية الفصاحة والبلاغة من حيث جعل

الشيء محلّ ضده وذلك لأنه إذا علم أنه إن قَتَلَ قُتِلَ ارتدَعَ عن القتلِ، ففيهِ حياة للذي همَّ بقتله وحياة الهَامّ أيضًا فيكون سبب حياة نفسين، أو لأنهم كانوا يقتلونَ غير القاتل والجماعة بالواحد فيعنون فيهم الفتن، وإذا اقتص من القاتل سلم الباقون ويكون ذلك سببًا لحياتهم. فعلى الأول فيه إضمار، وعلى الثاني تخصيص. وقيل: المراد به الحياة الأخروية فإن القاتل إذا اقتص منه في الدنيا لم يؤاخذ به في الآخرة. قيل: المراد منه القرآن أي ولكم في القرآن حياة للقلوب وقرئ في القصص، وإنما عرَّف القصاص ونكَّر الحياة ليدل على أن في هذا الجنس من الحكم نوعًا من الحياة عظيمًا لأنّ العلمَ به يمنع الهامّ من القتل فيكون سببًا لحياة نفسين كما علمت ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ ذوي العقول الكاملة والأرواح الفاضلة ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 179] القتل مخافة القود، أي تعملون عمل أهل التقوى في المحافظة على القصاص والحكم به.

﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ١٨٠﴾

﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ بظهور الآيات وحضور العلامات وشهود المعلمات ﴿إِن تَرَكَ خَيۡرًا﴾ مالًا كثيرًا من شأنه تحصيل الخيرات وتكميل الميراث به. عن علي كرم الله وجهه: كان مولى فأراد أن يوصي وله سبعمائة درهم فمنعه. عن عائشة رضي الله عنها: أن رجلًا أراد أن يوصي فسألته: كم مالك؟ فقال: ثلاثة آلاف، وكم عيالك؟ قال: أربعة، قالت: إنما قال الله خيرًا وأن هذا شيء يسير فاترك لعيالك.

﴿ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ مرفوع بكتب أو مبتدأ خبره ما بعده، والجملة جواب الشرط بإضمار الفاء من يفعل حسنات الله يشكرها. قيل: كان هذا في بدء الإسلام فنسخت بآياته المواريث وفيه بحثٌ لأن آية المواريث لا تعارضها بل تؤكدها حيث دل على تقدم الوصية مطلقًا، وما ورد في الحديث: «**أن الله أعطى كل ذي حق حقه**» ألا «**لا وصية لوارث**» فحيز الواحد لا يعارضها ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [البَقَرَة: 180] أي لا يزيد على الثلث ولا يوصي الغني ولا يفضله

على الفقير أو يتركه. عن ابن مسعود: الوصية للأخلّ أي الأحوج.

في الإشارة والتأويل

﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البَقَرَة: 172] قال الصادق رضي الله عنه: «**الطيبات زينة المؤمنين والشكر لباسهم**»، والميتة والدم ولحم الخنزير والهوى والنفس والدنيا ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ وهو شجرة الإياسة والبغي وهو مخالفة المولى، والاعتداء وهو التجبُّر والتكبُّر على أولياء الله ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البَقَرَة: 173] أن يأكل من ثمرة الإياسة حتى يجد المولى. قال الصادق رضي الله عنه: «مَن أكل من الدنيا تمتُّعًا فكأنما أكل من النار، ومن أكل منها افتخارًا فكأنما جارى فيها الجبابرة، ومن أكل منها تزودًا وجد المراد وبلغ إلى معبوده فيها ومقصوده».

قال في العرائس: الطيبات ما قسم الله لأهل الإيمان في سابق علمه الأزلي بنعت الرضى من معاشهم الذي لا بد من تناول النفس وما يفترشه المؤمن بنور الإيمان. قيل: وقوعه في أوان الحاجة أو الأخلاق المحمودة وترك مألوفات النفس الأمَّارة ومتابعة الشهوة أو ما يحصل من الغيب بلا صبغة آدم. أو ما لا يأكل بالشهوة بل بورثة الحكمة والمعرفة والعبادة والذكر إذا لم ينبه إلى ذكر المخلوق وهو رأيه المذكور بنعت طيران الأرواح بقوة المواجيد في بساتين الصفات إذ لا شبهة في حله.

﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البَقَرَة: 172] أي اشكروا الله بمعرفتكم على المكوث واعبدوه بشرط المعرفة لأن العبودية لا تصح إلا بالمعرفة. وهو تنبيه للمعاندين ليعرفوا أن الشكر لا ينبغي إلا لمن خلق ورزق وأمات وأحيا.

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ [البَقَرَة: 173] في «العرائس»: إذا احترقت النفس الأمَّارة في نيران المحبة وتخاف أن تتلاشى في السطوات العظمى فيجوز للنفس الناطقة بعد اضطرارها أن تتناول من الحطام الدنيوية لبقاء الصورة فلا جرم على العارف ما دام في مقام العبودية وعجز البشرية أن يستأنس بمستحسنات المحدثات ملتفتًا بنعت الاقتباس لأنوار الألوهية من عالم الشهادة إشارة إلى حسن الإرشاد وكمال التكميل، فإن المرشد إذا رأى في المريد آثار العجب

والأنانية قد حصلت من أكثر الطاعات والمواظبة على العبادات ولا تندفع تلك الأنانية بأنواع الرياضات وأضعاف المجاهدات، فحينئذ يأمره بارتكاب بعض المعاصي اشتهارًا كما أشرنا إليه آنفًا وترك العبادة ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ﴾ [البَقَرَة: 216].

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ ساتر بهمة الحدثية بنور الأزلية لأهل المعرفة ﴿رَّحِيمٌ﴾ [البَقَرَة: 173] بأن يخرجهم من ظلمات الإنسانية إلى نور الصمدية أي غفور لارتكاب بعض المعاصي وترك بعض الطاعات.

﴿وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ﴾ بعهد الأزل بترك المعارضة في العبودية عمّا سوى الحق في مقام المعرفة. قال بعضهم: الوفاء بالعهد لزوم الحدود والرضا بالموجود والصبر على المفقود في السّراء والضراء، أي الصبر في دفع صولة صدمات النفوس عند معارضها كشوف الخلائق وضرّها عند فناء الخطرات في ديوان المكاشفات بنعت ترغيبها وصفة ترهيبها، وعند تطريق طوارق القهر أبواب خزائن القلب لتستردّها بحالة عوارض البشرية بالسكون في دفع الخطرات فيرخص به الصادقون في طلب مرضات الحق عند نزول أحجار البليات من منجنيق الامتحان.

﴿مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: 177] قال الصادق رضي الله عنه: لا يتم الإيمان إلا بالوفاء مع الأيتام وهم أولاد الرسول أو الناس أصبر مع أهل بيته في الشدائد بهم والصدق في محبتهم والتقوى عن عداوتهم والصدق والصلاة على نبيّهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾ [البَقَرَة: 178] إلى آخره.

اعلم أن العدالة باعتبار كونها وسطًا بين الأطراف لظهورها لا بد وأن تتفاعل الأطراف وتتقابل الأضداد عند الأعراف مع تساوي نسبتها في الكلّ في القوة، فالأطراف باعتبار كونها أصلًا تكون أجزاءً وكل أصل لا بد وأن يكون تحته أمور جزئية وهي الفروع والعبيد كالقوة الشهوية والغضبية والنفسانية والملكية، فإن لكل منها طرفين متكافئين في القوة، أما الشهوة فطرفاها الفجور والخمود والغضبية فطرفاها الجبن والتهور والنفسانية والحكمية فطرفاها البله والجريرة والشيطنة، فإذا قتل أحدهما الآخر لا بد وأن يقتل الآخر أيضًا ليظهر العدالة.

وأما إذا قتل الفروع أحد الأصول لا يجوز أن يقتل لعدم ظهور العدالة بقتله مثلًا إذا غلبت العفة على الشجاعة وهي من فروع الشهوية وقتلت الشجاعة لم تقتل العفة لاستلزامه المحال، وهو انتفاء العدالة وابتغاء الضلالة.

وبالجملة أن القوى الفاعلية الأصلية منها هي الأحرار، والفرعية هي العبيد، والقوى القابلة هي الأنثى. وأيضًا أن القوى النفسانية هي الأحرار والغضبية هي العبيد والشهوية هي الأنثى ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البَقَرَة: 178].

﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البَقَرَة: 179] أي للقوى النفسانية والغضبية والشهوية في تقابل الأطراف حياة فإن كمال القوة النفسانية وحياتها هو الحكمة، وهي إنما تحصل إذا تقاتلت الجريرة والبله وتراجعا وتحاكما إلى النفس الناطقة الحكيمة الحاكمة عليهما وعلى سائر القوى بالعدالة ليظهر ما فيها من الحكم المناسبة بكل من القوى الغضبية والشهوية وفروعهما، فإن الحكمة المنسوبة إلى نفس القوى النفسانية والنفس الناطقة الإنسانية إنما تظهر إذا روعيت العدالة بين هذه القوى وآثارها، وكذا الغضبية والشهوية.

قال الصادق: «الحي من عرف ربه وترك أنانيته، وحياته النظر إلى معروفه». وفي العرائس: «لكم في قتل النفوس بعد خروجها على القلوب واقتصاصها حياة أرواح النفوس هي المقدسة فإذا شرعتم في أخذ ديات الجنايات يفورون من مهلكات القهر». قال الجنيد قدس سرّه: للصابر علامات ثلاث تعرف في نفسه: ضبط نفسه عند أخذها حظها، والدخول في الطاعات عند مطالبة النفس بالتخلف والكسل سكون القلب عند نزول الحكم.

﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾﴾

﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ﴾ غيّر شيئًا من الوصية أو باعتبار كونها بمعنى الإيصاء أو كونها بمعنى القول أحد الأوصياء والأولياء والشهود ﴿بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ﴾أي بعد سماعه عن الميت ووصوله منه إليه وتحققه عنده ﴿فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ﴾ [البَقَرَة: 181] أي ما إثم تبديل الإيصاء وتغييره ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾ لأنهم عانوا وخالفوا ما في الواقع من الحق

والشرع ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لوصاياكم وأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: 181] بنياتكم، وعيد للمتبدل.

﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾

﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ﴾ أي توقع وعلم ممن قال بالوصية ﴿جَنَفًا﴾ جورًا وعدولًا عن الخوف، والجنف الميل في الكلام والأمور كلها. وقرأ علي رضي الله عنه وكرم وجهه: (حَنيفًا) بالحاء والياء أي ظلمًا أو إثمًا أي عمدًا يعني من حضر مريضًا وهو يوصي فخاف أن يخطىء في وصيته فيفعل ما ليس له أو يتعمد جورًا فيها فيأمر بما ليس له فلا حرج على من حضره أن يصلح بينه وبين ورثته بأن يأمره بالعدل في وصيته ونفاه عن الحيف.

قال آخرون: إذا أخطأ الميت في وصيته أو خاف فيها جنفًا وميلًا فلا حرج على وليه أو ولي أمر المسلمين أن يصلح بعد موته بين ورثته وبين الموصى لهم ويرد الوصية إلى العدل والحق ﴿أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البَقَرَة: 182] ضمير الجمع يعود إلى الورثة وإن لم يجر ذكرهم لدلالة سياق الكلام عليه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ أي فرض وهو مصدر صمتُ صيامًا كقمتُ قيامًا ونظمتُ نظامًا أصله من الإمساك، يقال: صامت الريح إذا سكنت. وقد يطلق على الصمت والسكوت نحو ﴿نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ [مريَم: 26] سكوتًا ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البَقَرَة: 183] من الأنبياء والأمم من آدم إلى خاتم النبيين ليثبت قلبه وترغيب أمته وتطييب عينه على الإقدام عليه وتطييب نفوسهم لديه. عن علي كرم الله وجهه: «أتيت رسول الله ﷺ وهو في الحجرة فسلمت عليه فردَّ عليَّ السلام ثم قال: «**يا علي هذا جبرائيل يقرئك السلام**»،

فقلت: **وعليك السلام وعليه السلام يا رسول الله**، **ثم قال: ادنُ مني**، فدنوت منه فقال: **يا علي يقول لك جبرائيل: صم في كل شهر ثلاثة أيام يكتب بأول يوم عشر ألف حسنة، وباليوم الثاني ثلاثون ألف حسنة، وباليوم الثالث مائة ألف حسنة**، فقلت: يا رسول الله هذا ثواب لي خاصةً أم للناس عامة؟ قال: **يا علي يعطيك الله هذا الثواب ولمن يعمل مثل عملك بعدك**، قلت: وما هي؟ قال: **أيام البيض ثلاثة عشر وأربعة عشر وخمسة عشر، وإنما سميت بها لأن آدم لما هبط من الجنة إلى الأرض أحرقته الشمس فاسودَّ جسده فأتاه جبرائيل عليه السلام فقال: يا آدم أتحب أن يبيضَّ جسدك؟ قال: نعم، قال: فصم من الشهر ثلاثة عشر وأربعة عشر وخمسة عشر**»، فصام أول يوم فابيضَّ ثلث جسده، وصام اليوم الثاني فابيض ثلثا جسده، وفي اليوم الثالث تمام جسده، ولذا سمِّيت أيام البيض، ففرض الله تعالى على النبي عليه السلام وعلى المؤمنين صوم عاشوراء وثلاثة أيام من كل شهر حين قدم المدينة فكانوا يصومونها إلى أن نزل صيام شهر رمضان قبل قتال بدر بشهر وأيام.

قال البعض: إن المراد بـ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [البَقَرَة: 183] النصارى شبه صيامنا صيامهم لاتفاقهما في القدر والوقت لأنه فرض عليهم صيام شهر رمضان فاشتد ذلك عليهم لأنه ربما كان في الحر الشديد والبرد الشديد وكان يضرّهم في أسفارهم ومعايشهم فاجتمع رؤساؤهم وعلماؤهم على أن يجعلوا صيامهم في فصل من السنة بين الشتاء والصيف، فجعلوه في الربيع وزادوا فيه عشرة أيام كفارةً لما صنعوا فصاروا أربعين. ثم إن ملكًا لهم اشتكى فمه فجعل لله إن برئ من وجعه أن يزيد في صومهم أسبوعًا فبرأ فزاد أسبوعًا ثم مات ذلك الملك ووليهم ملك آخر فقال: أتموه خمسين يومًا لعلكم تستقوا الأكل والشرب والجماع.

مطلب الساعات

﴿أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٤﴾

﴿أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾ [البَقَرَة: 184] فيأتون بعدد معلوم أو قلائل فإن القليل من

المال بعد عدِّ نصبهما ليس بالصيام لوقوع الفصل بينهما بل بإضمار صوموا لدلالة الصيام عليه. والمراد بها رمضان أو ما وجب صومه قبل وجوب به ونسخ به، وهو عاشوراء ثلاثة أيام من كل شهر قيل: معناه صومكم كصومكم في عدد الأيام كما روي أنَّ رمضان كتب على النصارى فوقع حرّ وبرد شديد فحوّلوه إلى الربيع وزادوا عليه عشرين كفارة للتحويل. قيل: زادوا لموتان أصابهم أي رمضان ثلاثين أو تسعة وعشرين يومًا بحسب سير القمر، هذا موافق لما اعتبر أهل الحساب من أرباب التنجيم من اجتماع آخر على ما وجدوا في الرصد تسعة وعشرون يومًا واثنتا عشرة ساعة وأربع وأربعون دقيقةً، فجعلوه أيام الشهر الأول ثلاثين يومًا اصطلاحًا منهم على أن الكسر يقوم مقام العدد إذا كان زائدًا على نصفه وجعلوا أيام الشهر الثاني تسعة وعشرين إذا كان الشهر الأول تسعة وعشرين يومًا واثنتا عشرة ساعة وكسر دقائق فلتكميله ثلاثين زادوا عليه إحدى عشرة ساعة وست عشرة دقيقة من الشهر الثاني تسعة وعشرين يومًا وكسر فيرى الهلال حينئذ، وهذا في الاجتماع الثالث اثنتا عشرة ساعة وأربع وأربعون دقيقةً وقد بقي من كسر السهم الثاني بعد حيز نقصان الشهر الأول ساعة وثمان وعشرين دقيقةً، وإذا ضممناه إلى الشهر الثالث وهو تسعة وعشرون يومًا وأربع وأربعون دقيقة اجتمع تسعة وعشرون يومًا وأربع عشرة ساعةً واثنتا عشرة دقيقة. ولما كان هذا المبلغ أي الكسور زائدة على النصف أخذناه يومًا تامًّا وأنت خبير بأن هذا المبلغ وهو أربع عشرة ساعة واثنتا عشرة دقيقة وإن كان زائدًا على النصف وهو واثنتا عشر ساعة إلا أنه لا بد وأن يضم إليه تسع ساعات وثمان وعشرون دقيقةً ليتم اليوم بليلته، أعني أربع وعشرين ساعة، والشهر الرابع أيضًا تسعة وعشرون يومًا وأربع وثمانون دقيقة، فإذا خيرنا نقصان هذا الشهر الثالث من الشهر الرابع يكون الثاني أقل من نصف اليوم أخذناه تسعة وعشرين يومًا، وهكذا يكون شهر منها ثلاثين وشهر منها تسعًا وعشرين والكل تسعة وعشرون يومًا كما أشار إليه رسول الله ﷺ: «**شهر القمر تسعة وعشرين يومًا**» وسيأتي في سورة يٰس في آية القمر: و﴿قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: 39] إن شاء الله العزيز، منصوب إما على المدح أو بفعل متعدد أي صوموا لدلالة الصيام عليه لا الصيام لوقوع الفصل بينهما.

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ مرضًا يضره الصوم أو يعسر عليه ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ مباح لا معصية ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ فعليه صوم مدة أيام المرض والسفر في وقت آخر وقرئ بالنصب أي فليصم عدةً، وذهبت الشيعة إلى وجوب الإفطار إذ الأمر هنا للوجوب وعليه أبو هريرة رضي الله عنه، فيكون عزيمة لا رخصة وعند غيرهم هذا رخصة، والمرض المبيح هو المطلق لعدم تخصيصه بمرض دون مرض كما لم يخص بسفر دون سفر. عن ابن سيرين: أنه برجيع أصابه أفطر. سئل مالك عن رجل يصيبه رمد فقال: إنه في سعة من الإفطار. والشافعي على أن لا يفطر حتى يجهده جهدًا غير محتمل. وفي كيفية قضائه أيضًا اختلاف فعامة العلماء على التخيير والتفريق، وعن علي كرم الله وجهه: أنه يقضي كما فات متتابعًا فرأى أُبّي بن كعب أيام أخر متتابعات.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ أي على المطيقين للصيام ولا عذر لإفطاره في الحال إلا أنه يفضي إلى المرض في المآل ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ وهي بدل يتدارك به، فإن طعامُ مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف قرئ بالإضافة إلى ﴿مِسْكِينٍ﴾ [البَقَرَة: 184] من باب منجد الجامع وهي نصف صاع من برّ أو صاع من غيره عند العراقيين، وعند الحجازيين مدٌّ، وكان ذلك في بدء الإسلام عند اشتداد الجوع وما يلزمه لعدم تعوّدهم به ثم نسخ بقوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البَقَرَة: 185] فمعناه لكل يوم إطعام مسكين واحد ومن جمع رده إلى الجميع.

وقال آخرون: محكم منسوخ مخصوص بالشيخ الكبير والشيخة وهم يطيقون الصوم إلا أنه شاق عليهم فرخّص لهما الإفطار أو الفدية أو الصوم، والبعض على أن هذا منسوخ بآية ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾. وقال قوم: لم ينسخ هذه الآية ولا شيء منها إن كانوا في حال شبابهم وصحتهم وقوتهم ثم عجزوا عن الصوم ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ لأن القوم رخصوها لهم في الإفطار وهم على الصوم قادرون، أضمروا في الآية كانوا هذا ما كان في أول حالهم وجعلوا الآية محكمةً وهو إحدى الروايات عن ابن عباس جملةٍ ما ذكرنا من هذه الأقاويل على قراءة ﴿يُطِيقُونَهُ﴾ من الإطاقة وهي القراءة الصحيحة التي قرأها عامة أهل القرآن ويطابقها مصاحف البلدان.

وأما ﴿ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ أرادوا بهم الشيوخ الكبيرة والعجوز الكبيرة والمريض الذي لا يُرجى برؤه فهم يكلفون بالصوم ولا يطيقونه فلهم أن يفطروا ويطعموا مكان كل يوم فطروه مسكينًا وهم قالوا: محكمة غير منسوخة ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ أي زاد على مسكين واحدٍ وعلى القدر الواجب من الإطعام أو يجمع بين الصيام أو إطعام الطعام ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي صومكم أيها المطيقون أو الموطوقون خير لكم من الفدية أو الإفطار أو الفدية ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: 184] ما هو أنفع لكم وأفضل لكم في الآجل والعاجل فأخبرتموه فحذف الجواب لدلالة ما قبله عليه. وقيل: معناه إن كنتم من أهل العلم علمتم أن صومكم خير لكم من المذكور.

واعلم أنه لا رخصة لأحد من المؤمنين البالغين في الأقطار الأربعة أحدهم عليه القضاء والكفارة كمن قصر في قضاء رمضان إلى أن دخل رمضان آخر والحامل والمرضعة إذا خافتا على أولادهما، والثاني عليه القضاء فقط كالمريض والمسافر وإياهن خفن على أنفسهن وكالحائضات والنفساء. والثالث عليهم الكفارة دون القضاء كالشيوخ والأعجاز المذكورين وصاحب العطش الذي يخاف منه الموت فعليهم الكفارة دون القضاء، هذا قول عامة الفقهاء. وأما الذين لا قضاء عليهم ولا كفارة فالمجنون.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ أي الذي ﴿أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ إما مبتدأ خبره الذي أو خبر مبتدأ محذوف المذكور هو شهر رمضان أو بدل من الصيام إن كتب عليكم الصيام صوم شهر رمضان قرئ بالنصب على الإضمار أي صوموا شهر رمضان أو على

أنه مفعول تصوموا وفيه ضعف أو بدل من أيام أو الشهر من الشهرة، وهي الشيوع والبياض والظهور، والرمضان مصدر رَمَضَ أي احترق وإنما سمي به لأن الإمساك فيه عبادة قديمة يرمضون به من حرّ الجوع والعطش ومقاساة شديدة كما سمُّوه نافقًا لأنه كان ينفقهم ويزعجهم إضمارًا أو لأنه لما نُقل أسماء الشهور عن اللغة القديمة سموها [حسب] الأزمنة التي وقعت فيها فوافق هذا الشهر أيام رمض الحرّة، والبعض على أنه اسم من أسماء الله سبحانه، فشهر رمضان كشهر الله. عن جعفر الصادق عن آبائه عن النبي ﷺ قال: «**شهر رمضان شهر الله**»، وقال أيضًا: «**لا تقولوا رمضان انسبوه كما نسبه الله تعالى في القرآن فقال: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ﴾**»، ولذا قيل: وإنما سمي به لأنه يرمض الذنوب، أو لأن القلوب تأخذ فيه من حرارة الموعظة والفكرة في أمر الآخرة.

قيل: مأخذه من الرمض وهو مطر يأتي في الخريف ويغسل النَتِنَ والكدورة كما يغسل هو الأبدان والنفوس من الآثام والأخلاط الرّديةِ المجتمعة في الأيام والأدواء في دفع الأمراض والعلل البدنية والنفسية سيما البلغمية أفضل منه. أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام: «من صام لمرضاتي صححت جسمه وأعطيت أجره». وأما ما وقع في الحديث: «**من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا**» فعلى حذف المضاف لا من الالتباس.

﴿أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ [البَقَرَة: 185] أي الذي ابتدىء فيه إنزاله منه في ليلة القدر أو لأنه أنزل القرآن جُملة واحدة من اللوح المحفوظ في ليلة القدر في بيت العزة في سماء الدنيا، ثم نزل به جبرائيل على محمد عليه السلام نجومًا نجومًا عشرين سنة أو ثلاثة وعشرين ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقِعَة: 75]. قال النبي عليه السلام: «**نزلت صحف إبراهيم في شهر رمضان لستٍّ مضين، والإنجيل لثلاث عشر، والقرآن لأربع وعشرين**» فلا تغفل عن صورة هذا العدد ودلالته فإنه عدد كامل.

﴿هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ من الضلالة والباطل إلى الحق والإسلام الكامل والدين الفاضل ﴿وَبَيِّنَٰتٖ﴾ [البَقَرَة: 185] واضحاتٍ وموضحاتٍ للحلال والحرام والحدود والأحكام حال من القرآن وهو هادي من الهُدىٰ بعضه من الفرقان حال من البينات

أو صفة لها أي دلالات تكون بعضها مما يفرق به الحق من الباطل ويهدي منه إليه من الوحي والكتب السماوية والنواميس الإلهية. قال رسول الله ﷺ: «**يا أيها الناس قد أظلّكم شهر عظيم، شهر رمضان مبارك، شهر فيه ليلة خير من ألف شهر، جعل الله صيامه فريضة، وقيام ليله تطوعًا، من تقرَّب فيه بخصلة من خصال الخير كان كمن أدّى سبعين فيما سواه، وهو شهر الصبر ثوابه الجنة، وشهر المواساة وشهر يُزاد فيه في رزق المؤمن، وشهر أوله رحمة، وأوسطه مغفرة، وآخره عتق من النار. من أفطر فيه صائمًا كان له مغفرة لذنوبه وعتق رقبته من النار، وكان له مثل أجره من غير أن ينتقص من أجره شيء**». قالوا: يا رسول الله ليس كلنا نجد ما يعطي الصائم فقال ﷺ: «**هذا الثواب من أفطر صائمًا على مذقة لبن أو تمر أو شربة ماء، ومن أشبع فيه صائمًا سقاهُ الله من حوض لا يظمأ حتى يدخل الجنة. فاستكثروا فيه من أربع خصال، خصلتين ترضون بهما ربّكم وخصلتين لا غِنى بكم عنهما. فأما الخصلتان اللتان ترضون بهما ربّكم فشهادة أن لا إلٰه إلا الله وتستغفرون، وأما اللتان لا غِنى بكم عنهما فتسألون الله الجنة وتتعوذون به من النار**».

حديث آخر: قال ﷺ: «**إن أبواب السماء وأبواب الجنة تفتح لأول ليلة من شهر رمضان فلا تُغلقُ إلى آخر ليلة منها، وليس مِن عبد يُصلي في ليلة منها إلا كَتب الله تعالى بكل سجدةٍ ألفًا وسبعمائة حسنةٍ وبنى له بيتًا في الجنة من ياقوتة حمراء له سبعون ألف باب لكل منها مصراعان من ذهب موشح ومن ياقوتة حمراء، فإذا صام أول يوم من شهر رمضان غفر الله كل ذنب إلى آخر رمضان وكان كفارة إلى مثلها وكان له بكل يوم يصومه قصرٌ في الجنة له كل باب من ذهب واستغفر له تسعون ألف ملك من غدوة إلى أن توارى بالحجاب، وكان له بكل سجدة يسجدها من ليل أو نهار شجرة يسير الراكب في ظلّها مائة عام لا يقطعها**».

وقال عليه السلام أيضًا: «**إذا كان أول ليلة من شهر رمضان نادى الخليل جلّت عظمته رضوان خازن الجنان فيقول: افتح جنّتي وزينها للصائمين من أمة محمد ولا تغلقها عنهم حتى ينقضي شهرهم. ثم ينادي مالك خازن النار: يا مالك أغلق أبواب جهنم عن الصائمين من أمة محمد ثم لا تفتحها عليهم حتى**

ينقضي شهرهم. ثم ينادي جبرائيل: انزل إلى الأرض فَغلّ مردَة الشياطين عن أمة محمد لا يفسدوا عليهم صيامهم وإفطارهم. ولله عزَّ وجلَّ في كل يوم من شهر رمضان عند طلوع الشمس والإفطار عتقاء يعتقهم من النار عبيدًا وإماءً، وله في كل سماء منادي فيه ينادي: هل مِن تائب يُتاب عليه»، إشعار بأن كلّ نفسٍ من النفوس الإنسانية لها اتصال بالنفوس الفلكية اتصالًا معنويًّا روحانيًّا يشهد (هي) منها، وأن نداءهم فيها (هو) نداء النفوس الجزئية الإنسانية وإنَّ صلاحهم موقوف على حصول المناسبة الحسية التامة والعقلية العامة بينها وبينهم، فبهذه المناسبة يحصل العروج والصعود والرجوع إليها وبتلك المناسبة يظهر فيهم التوبة والرجوع والإنابة إلى الله ومن لم يحصل له هذه المناسبة لا بد وأن يحصل لهم الاعتقاد الصحيح بها ليقبله. هذه الأحكام على سبيل حسن الظن والمصارَّة[1] إلى أن أراهم الله إياها بطريق المشاهدة والعيان فيتصل علم اليقين بعين اليقين ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾[التّكاثر: 5، 7] الآية إلى آخره. وأما من لم يحصل له هذه المناسبة فهو مندرج تحت البهائم والسباع خارج عن درجة الاعتبار.

﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ أي تمامه إن كان حاضرًا فيه مقيمًا غير مسافر في الشهر عاقلًا بالغًا صحيحًا، أو دخل عليه شهر رمضان أو رأى هلال رمضان أو سمع وثبت بشهادة واحد فيه شرائط الشهود جزم بلام الغائبة ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا﴾ أطلق عليه اسم المرض، ويوجد فيه أغراضه سواء كان في تمام البدل أو بعضه. روي أن ابن سيرين رضي الله عنه قد أفطر لوجع أصبع، وقد مر الكلام فيه ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البَقَرَة: 185] فعليه الصوم في أيام أخر، وقد عرفتَ أنها عزيمة عند البعض ورخصة عند الآخرين، ولكل تمسكات من الأحاديث والأخبار والآراء.

وقال عليه السلام: «**ليس من البرّ الصيام في السفر**» وقال: «**الصائم في السفر كالمفطر في الحضر**». ومن قال بالرخصة تمسك بقوله عليه السلام: «**إن شئتَ فصُم وإن شئتَ فافطر**».

(1) صارَّه على ما لا يرغب فيه: أكرهه، حمله عليه.

قال أيضًا: «**ليس من البر أن تصوموا في السفر وعليكم برخصة الله التي رخّص لكم فاقبلوها**». وقال أيضًا: «**أفطر ويحك فإني أراك لو مُتّ على هذا دخلتَ النارَ**». وكان ابن عمر رضي الله عنه لا يصوم في السفر وعائشة تصوم وقال عمر بن عبد العزيز: اللهمَّ اغفر إذا كان يسرًا فصوموا وإن كان عسرًا فافطروا.

وروي عن أنس رضي الله عنه: كنا مع رسول الله ﷺ فمنا الصائم ومنا المفطر، فنزلنا في يوم حار واتخذنا ظلًا فسقط الصُوَّام وقام المفطرون وسقوا الرّكاب فقال رسول الله ﷺ: «**ذهب المفطرون اليوم بالأجرة**». عن ابن عمر رضي الله عنه قال: رأيتَ لو تصدقت على رجل صدقة فرد بها عليك ألم تغضب، قلت: نعم، قال: فإنها صدقة من الله تعالى يتصدق بها عليكم. والإفطار حده مسافة القصر.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ﴾ حين يرخص لكم، للمريض والمسافر، الإفطار. حكم الآية عام وإن كان المورد خاصًا لعموم العلة ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ والتصريح بما علم التزامًا إشارة إلى عموم الحكم لعموم العلة ﴿وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾ الواو للنسق واللام بمعنى كي أي يريد الله بكم لتكملوا العدة، واللام للعلة والفعل المعلّل محذوف مدلول عليه بما سبق. أي شرع جملة ما ذكر من أمر الشاهد بصوم الشمس والمرخّص لتكملوا العدة إلى آخرها على سبيل اللغة فقوله: ﴿وَلِتُكۡمِلُواْ﴾ علة الأمر بمراعاة العدد ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ﴾ علة ما علم من كيفية القضاء والخوف عن عهدة الفطر ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ علة الرخص واليسر، وهذا النوع من اللّف لطيف المسلك أو معطوفة على مقدرة مثل التسهيل عليكم أو لتعلموا ما تعملون ولتكملوا، أو يجوز أن يعطف على اليسر أي ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ﴾ [البَقَرَة: 185] ويريد بكم لتكملوا كقوله: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾ [الصَّف: 8] والتكبير تعظيم الله والثناء عليه، أو يكبر يوم الفطر. وقيل: هو تكبير الاستهلال وإنما عدّى بعلى لكونها متضمنة الحمد، كأنه قيل: ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ﴾ حامدين ﴿عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [البَقَرَة: 185] إرادة أن يشكروا، وعاصم يقرأ: (لتكمّلوا) مشددةً.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ قل لهم إني قريبٌ وهو تمثيل لكمال علمه بالأشياء وأفعال العباد وأقوالهم واطّلاعه على أحوالهم بحال من قريب مكانه. روي أن أعرابيًّا قال لرسول الله ﷺ: أقريب ربّنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فنزلت ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البَقَرَة: 186] إما بالنفس أو بالقلب أو باللسان سرًّا وجهرًا ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعَام: 3] تقرير للقرب والوعد ووعد للدّاعي بالإجابة وتحثيث وترغيب للخلق على الدعاء. قال عليه السلام: «**من لم يدع الله غضب عليه**». قال يهود أهل المدينة: يا محمد كيف يسمع ربّنا دعاءنا وأنت تزعم أن بيننا وبين السماء خمسمائة عام وأن غلظ كل منهما مثله؟ فنزلت. وإنما رفع الواسطة تنبيهًا على كمال القرب «وأنا أقرب إليكم من حبل الوريد»، وإن ﴿اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفَال: 24].

واعلم أن القرب والبُعد بين العبد والربّ ليس من جنس الكم والمقدار بل من جنس الكيف، وإنما يثبت ليستحكم ويتكامل ويرتفع ويزول بالكم وبمقدار الزمان بذريعة الأفعال والحركات والأعمال من الطاعات والعبادات.

﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ بالطاعة، يقال: أجاب ويستجاب إذا أطاع. الإطاعة إذا كانت من العبد فهي الإطاعة ومن الله الإعطاء ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البَقَرَة: 186] لكي يهتدون أو راجين إصابة الرشد إلى الحق.

فإن قيل: قل ما تكون الدعوة مقرونة بالإجابة؟ أجيب بأن معنى الآيتين خاص أجيب دعوة الدّاعي إن شئت أو أجيب دعوة الداعي إذا وافق القضاء، أو أجيب دعوة الداعي إذا لم يسأل محالًا، وأجيب دعوة الداعي إذا كانت الإجابة خيرًا له.

وفي الحديث: «**ما من مسلم دعى الله دعوة ليس فيها قطيعة الرحم ولا إثم إلا أعطاه بها إحدى خصال ثلاثة: إما أن يعجل دعوته، وإما أن يدخر له في الآخرة، وإما أن يدفع عنه من السوء مثلها**، قالوا: يا رسول الله إذا كبّر قال: **الله أكبر**».

مطلب إجابة الدعاء وعدمه

والبعض على أن الإجابة عامة إذ حقيقة الإجابة هي تلقي سؤال السائل سواء كانت مقرونةً بإعطاء الأمنية وقضاء الحاجة، فإن السيد والأب قد يجيبان مسألة العبد والولد بلا قضاء الوطر، وفي الحديث: «**من فتح له باب في الدعاء فتحت له أبواب الإجابة**». وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: «**قل للظلمة لا تدعوني فإني أوجبتُ على نفسي أن أجيب من دعاني وإني أجبت الظالمين لعنتُهُم**». قال: إن الله تعالى يجيب دعاء المؤمن في الوقت إلا أنه يؤخر إعطاءه مراده ليدعوه ويسمع صوته، فوكَّدهُ ما وقع في الحديث: «**إنَّ العبد ليدعو الله عزَّ وجلَّ وهو يحبه فيقول: يا جبرائيل اقضِ لعبدي هذا حاجته وأخّرها فإني أحب أن لا أزال أسمع صوته، وأن العبد ليدعو الله عزَّ وجلَّ وهو يبغضه فيقول: يا جبرائيل اقضِ لعبدي هذا حاجته وعجّلها فإني أكره أن أسمع صوته**».

عن يحيى بن سعيد أنه قال: رأيتُ ربَّ العزَّة في المنام فقلت: يا ربّ كم أدعوك فلا تستجب لي، فقال: يا يحيى إني أحبُّ أن أسمعُ صوتك. قال بعضهم: إن للدعاء آدابًا وشرائط. سُئِلَ إبراهيم بن أدهم قدّس سرّه: ما بالنا ندعوا الله فلا يستجيب لنا؟ فقال: لأنكم عرفتم الله فلم تطيعوا، وعرفتم الرسول ﷺ فلم تتبعوا سنته، وعرفتم القرآن فلم تعملوا به، وأكلتم نعمة الله فلم تؤدوا شُكرها، وعرفتم الجنة فلم تطلبوها، وعرفتم النار فلم تهربوا منها، وعرفتم الشيطان فلِمَ تحابوه ووافقتموه، وعرفتم الموت فلم تستعدوا له، ودفنتم الأموات فلم تعتبروا، واشتغلتم بعيوب الناس وتركتم عيوبكم.

إشارة وتأويل

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البَقَرَة: 183] في النشأة الأخرى ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ على الأعيان الثابتة في النشأة الأولى. قال الصادق رضي الله عنه: «**من صام عن المراد أفطر عن الآثام، ومن صام عن الشوق أفطر عند الحبيب، ومن صام في الدّار عن الغير أفطر عن الإنابة عند الملك الأعلى**».

هذا **واعلم** أن هذا خطاب ونداء إلى القلب باعتبار أطواره السبعة ومبادىء إدراكاتها من الإعطاء والقوى فإن له في كل طور بحسب المراتب تعلقًا خاصًّا ولذلك التعلق ربّ خاص من الأسماء الإلٰهية والكونية، أعني الصفات السبعة الذاتية والذراري السماوية وباعتبار جمعية الكل ربّ وهو الذات مع الأسماء والصفات، فكتب الله عليه باعتبار كل واحد وباعتبار الجمعية الصوم والإمساك عن الغير ليتوجه بحذافيره والكل مآله إلى الكلّ، وربّ الأرباب، فيكون الصوم عبادة قديمة يحتاج إليها كل العباد لأن النسبة وهي توجه القلب إلى البقية ابتغاء لمرضاة الله وهي الغناء في الله والبقاء بالله، والتحقق بكمال الجمعية حيث قال تعالى: «**أطعني يا عبدي فأجعلك مثلي وليس لي مثل**» فمدار صحة العبادات الإخلاص ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البَيِّنَة: 5] ولا يصح إلا بالإمساك عن الغير فلا تتم عبادة من العبادات إلا به «**الصوم لي وأنا أجزي به**».

﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البَقَرَة: 183] عن الشرك والإشراك في عبادة الأملاك ومدبّر الأفلاك لإظهار سر الله في أعيان العجم وسلطان العرب والأتراك.

﴿أَيَّامًا مَّعۡدُودَٰتٍ﴾ متجاوزات متوازيات للمراتب التي بين النشأتين يعني أن استكمال الإمساك إنّما هو في هذه الأيام ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ عاجزًا قاصِرًا لضعف الاستعداد القريب بالفعل أو على سفر غير مستكمل للإمساك، كيف وكما في مدة فرداريّة اقتضاء اسم من الأسماء الأربعة الذاتية ﴿فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البَقَرَة: 184] أي فعليه استكمالها في فرداريّة اسم آخر لأنه يتقوى للاستعداد المذكور لحصول المعدات والشرائط في تلك الأيام ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ أي على المطيقين للإمساك عن الأكل بنعت الزهد عن الدنيا في أيام حياتهم ولم يعملوا عمل أهل الطاقة لقلّة توفيقهم وبلّة هدايتهم في طاعتهم ﴿فِدۡيَةٞ﴾ يعني خدمة أولياء الله تعالى ببذل النفس والمال، أو على الذين يطيقون الإمساك في مقام التكوين خدمة لأهل التمكين ليصير متمكنًا في السير إلى الله، أو على الذين يطيقون في السير إلى الله إلى فرداريّة في اسم فدية في فرداريّة الاسم الجامع في السير في الله، أو على الذين يطيقونه في طور من الأطوار ﴿فِدۡيَةٞ﴾ تمام الأطوار ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرًا﴾ أي من يغذي لعجزه عن حقيقة المعاقل زيادة على الواجب

الذي ليس له غنى عنه ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ إشارة وتنبيه إلى عدم تناهي كمالات الإنسان ومقامات الأعيان ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي عمّا يشتغل أهل الدنيا وعما سوى الله من الأطوار وخصوصيات التجليات وأنوار الأحوال وأسرار المقامات ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: 184] منافع هذا الصوم.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البَقَرَة: 185] قال الصادق رضي الله عنه: «**أراد الله بنا إذ أمرنا بشهر رمضان وهي ثلاثون لأن أمامنا ثلاثين عقبة، عقبة القطيعة والفراق والعزل وأشباهه، فمن صام نجّاه الله منها وهداه إلى ثلاثين المنازل، منزل الوصل، ومنزل الإنابة، ومنزل الرؤية والولاية**».

هذا **واعلم** أن مبادىء الأفعال والأعمال التي هي ذرائع الدرجات ومصارع الدركات ثلاثة: السبعية والشهوية والملكية النطقية وعمل كل واحد منها موقوف على المشاعر العشرة الشاعرة، فباعتبار كل منها تثبت درجته إن كان على ما ينبغي، ودركة وعقبة إن كان على خلافه، وربّ هذه القوى الثلاثة هي الأسماء الثلاثة الذاتية من السبعة، أعني السمع والبصر والكلام، فالعشر الأوّل مخصوص بالسمع، والثاني بالبصر، والثالث بالكلام.

هذا فاليوم الذي كنت أحرِّر وأُملي هذا المقام وكان زفاف ابنتي إدريس فيه، فسمعت من النبي ﷺ ذكر الله: يا غفار يا فتاح، يا رزّاق، وكذا كنت أسمع ذكر الله من لسان جميع الذرّات الكونية والجزئيات الكنانية بهذه الأسماء الثلاثة فتفاءلت بالسعادة والخير الكثير والفتوح الغفير. وإن من عدل كلًّا من هذه القوى الثلاثة وكلها انفتحت أذن قلبه وسمع بصيرته وغيبه يسمع بها في كل عشر من شهر رمضان كلامه هذه الأسماء الثلاثة وكذا يسمع تسبيح الحق وذكره عن الأشياء كلها ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسرَاء: 44].

قال النبي عليه السلام: «**إن للقلب أذنًا وبصرًا إذا أراد الله بعبد خيرًا فتحهما**» الحديث، فحينئذ يسمع كلام الحق القديم القائم بذات الله مطابقًا لما سمعه في الأزل في بداية الدور النوري الجمالي في مقام ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعرَاف: 172] أرجو من الله أن يطابق الواقع ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ هي التقوى الكلية والجزئية ﴿وَبَيِّنَٰتٍ﴾ هي الحالات والكمالات المختصة بها ناشئة من هدى

الولاية والفرقان والنبوة ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ﴾ أي رأى في شهر المرتبة الشهادية هلال التجليات الآثارية بصور أعيان الآثار فعليه أن يمسك بصيرة فؤاده عن مشاهدة صور الأعيان والأغيار ويقصر نظره على مشاهدة جماله كما قيل: ما رأيت شيئًا إلا وجدت الله فيه. ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا﴾ منحرفًا مزاجه الفطري في المرتبة القالبية والنفسية لغلبة مادة عالم الطبيعة واستيلاء أحكام العادة واستعلاء الأحوال الوضيعة واختفى لديه ما كان عليه في الفطرة الأولى من شهود ذلك الجمال الأزلي وسماع خطابه الأولي ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ هابطًا من ذلك المقام، ساقطًا من ذا المرام إلى التنزلات ولم يبلغ إلى المرتبة الكلية الإنسانية فحينئذ لا يتمكن عن الصوم المذكور لانتفاء شرطه وهو الجامعية الكبرى في النشأة الأخرى ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي في فرداريّة اسم آخر من الأسماء الذاتية ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾ في السير إلى الله ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ أي السير من الله ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ فيهما ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ إلى السير في الله ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البَقَرَة: 185] على هذه النعم الجليلة والعطية الجميلة.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى﴾ [البَقَرَة: 186] قال الصادق عليه السلام: إن أردت أن يُستجاب لك دعوة فانظر أن لا تعصي الله إذا خلوت وأن لا تطلب الدنيا إذا غدوت لأن الدنيا فانية وآثار الإثم ونتائج المعصية باقية وكل نفس فيها ذائقة المحبة لله، والبعد عن العبادة أصل الخلوة والخلوة مكان القربة والقربة منازل الإجابة.

هذا ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ﴾ ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفَجر: 27] ﴿عِبَادِى﴾ أي القوى الجسمانية والنفسانية والروحانية ﴿عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ منهم فإن دعوت الوصول إليّ فإني ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾ المخلصين المستعدين ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى﴾ بالطاعات المتناسبة والعبادات اللائقة بكل أو بالجذبات المعدة للتجليات ﴿وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى﴾ أي ليوفوا بما كشف لهم من أسرار ملكوتي وأنوار جبروتي ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البَقَرَة: 186] إلى مقام الطمأنينة وحقائق التمكين بالوصول إلى المعرفة الفطرية.

قال الشبلي: إذا وجد الحق للعبد إرادة قربة ارتضاه لنفسه وتولى سياسة

لنفسه وأدبه بأخلاقه وأعطاه ثلاثة أوصاف ذات حياة لا موت فيها وقدرة لا تزول لعجز ملكًا في جوار الملك ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القَمَر: 55].

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ١٨٧﴾

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ كان في بدء الإسلام إذا أفطر الرجل يحلّ له الطعام والشراب والجماع إلى العشاء الأخيرة أو يرقد قبل الصلاة إذا صلاها أو رقد قبل الصلاة ولم يفطر حرِّم عليه الطعام والشراب والجماع إلى مثلها من القابلة، ثم إن عمر رضي الله عنه واقع أهله بعد الصلاة فلما اغتسل أخذ يبكي ويلوم نفسه، فأتى النبي ﷺ واعتذر وقال النبي عليه السلام: «**ما كنت جديرًا بذلك يا عمر**»، فقام رجال واعترفوا أيضًا بما فعلوا فنزلت في عمر وأصحابه. الرفث والرفوث كناية عن الجماع. عن ابن عباس: «**إن الله حيي كريم يكني فيما في القرآن من المباشرة والملازمة والدخول والإفضاء والرفث والوقاع والوطئ ألا يعني به الجماع**». قيل: الرفث كلمة جامعة لكل ما يريده الرجال من النساء، وقُرِئ بالرفوث.

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾ استئناف يبين سبب الإجلاء وهو قلة الصبر عنهن. ولما كان كلٌّ منهما مشتملًا على صاحبه اشتمال اللّباس على اللابس شبَّه أحدهما بالأخرى ﴿وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ اللِّباس الشعار أي يلي الجلد من الثياب فيستحي كل منهما لباسًا لتجردهما عند النوم واجتماعهما في ثوب واحد وانضمام جسد كل واحد منهما إلى الآخر حتى يصل كل منهما لصاحبه كالثوب الذي يلبسه ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البَقَرَة: 187] بما فعلتم بعد صلاة العشاء من

الظلم على النفس بالمباشرة ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [البَقَرَة: 54] تجاوز عن سيئاتكم مقبلًا إليكم رحيمًا عليكم ﴿وَعَفَا عَنكُمْ﴾ من ذنوبكم ووقى عيوبكم ﴿فَالْئَنَ﴾ وهو الحد الحاجز والفاصل البارز بين الماضي والآتي أي أباح الله لكم بعد المنع بعد الصلاة الوطء فأنتم ﴿بَٰشِرُوهُنَّ﴾ أي جامعوهن، وإنما سمِّيت به لتلاصق البشرتين ﴿وَٱبْتَغُواْ﴾ واطلبوا ﴿مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ في اللوح المحفوظ أي اطلبوا ما قدَّر الله لكم في سابق علمه وما جرى عليه حكم العلم. قرئ: (اتبعوا) من الاتباع، البغية هي الطلب أي اطلبوا ما كتب لكم في ليلة القدر أو الولد وما أحلَّ الله لكم من الجماع. قال عليه السلام: «**تناكحوا تكثروا فإني أُباهي بكم الأمم يوم القيامة ولو بسقط**»، وأيضًا: «**ما من رجل يأخذ بيد امرأته ويزاولها إلا كتب له حسنةً فإن عانقها فعشر حسنات، وإن قبَّلها فعشرون، وإن أتاها كان خيرًا من الدنيا وما فيها، فإذا قام ليغتسل لم يمرّ الماء على شعرة من جسده إلا يمحى عنه سيئة ويعطى درجةً، وما يعطى بغسله خير من الدنيا وما فيها، وأن الله عزَّ وجلَّ يباهي به الملائكة يقول: انظروا إلى عبدي قام في ليلة قرة باردة يغتسل من الجنابة يتيقن بأنّي ربّه أُشهدكم بأني غفرت له**».

﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾ في ليالي الصيام ما وجدتم من الطعام والشراب والماء ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البَقَرَة: الآية 187] وهو أول ما يبدو من الفجر المعترض في الأفق كالخيط الممدود، والخيط الأسود ما يمتد معه من غسق الليل شبهّها بخيطين أبيض وأسود وإنما اكتفى ببيان الأول لدلالته على الثاني، ويجوز أن يكون للتبعيض لأنه بعض من الفجر وأوّله. فعلى الأول يكون من باب التشبيه لا الاستعارة كما أن رأيت أسدًا مجاز، وإذا قيل من فلان رجع التشبيه وإنما جعل من التشبيه والتمثيل إذ شرط الاستعارة أن يدل عليه الحال والكلام ولو لم يذكر من لم يعلم أن الخيطين مستعاران فيكون من التشبيه البليغ.

نزلت في رجل من الأنصار اسمه قيس كان يعمل في أرض له وهو صائم فلما أمسى رجع إلى أهله فأرادت أن تطعمه شيئًا سخيًّا وكان في الأوائل أن من صلى العشاء أو نام حرِّم عليه الطعام والشراب والجماع، فلما جاءت بالطعام إذ هي به قد نام فأيقظته فأبى أن يأكل وأصبح صائمًا مجهودًا فلم ينتصف النهار حتى

غشي عليه، فلما أفاق ذهب إلى النبي ﷺ فقال له: «**ما لك يا قيس! أمسيت طليحًا؟**» فقصَّ له ما جرى عليه، فاغتمَّ الرسول لذلك، فأنزلت فعلَّم رسول الله الصوم والصلاة فقال: «**صُم وصلِّ كذا وكذا فإذا غابت الشمس** ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ **وصُم ثلاثين يومًا إلا أن يتبين لكم الهلال**». قيل ذلك فأخذ بعضهم خيطين أبيض وأسود ونظر إليهما فلا يتبين له، فأتى النبي ﷺ وذكر ذلك له فضحك النبي وقال: «**يا ابن حاتم إنما ذلك بياض النهار من سواد الليل**».

قال بعضهم: نزلت [فينا] وكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط رجل في رجله الخيط الأسود والأبيض فلا يزال يأكل ويشرب حتى يتبين له الخيطان، فأنزل الله ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ وهو انشقاق عمود الصبح وابتداء ضوئه، وهو نوعان:

أحدهما: ما يسطع في السماء مستطيلًا كذنب السرحان وهو الكاذب فلا يحل الصلاة ولا يحرم الأكل والجماع.

والثاني: وهو الصادق جوَّز عنده الصلاة ويحرم الأكل وما أشبهه. قال عليه السلام: «**لا يمنعكم السحور أذان بلال ولا الصبح المستطير**». ولكن الصبح المستطير في الأفق. وفي تجويز المباشرة إلى الصبح دلالة على جواز تأخير الغسل إليه وعلى صحته إذا أصبح جنبًا.

﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ قيل: فيه دليل على جواز النية في النهار في صوم رمضان وعلى جواز تأخير الغسل إلى الفجر، وعلى نفي صوم الوصال. بيان منتهى امتداد وقته وهو غروب الشمس إذا كان الأفق مستويًا وإلا قضوها.

عن عبد الله بن أبي أوفى قال: كنا مع رسول الله ﷺ في مسير وهو صائم، فلما غربت الشمس قال لرجل: انزل فاجدح لي، فقال الرجل: يا رسول الله لو أمسيت، قال: فانزل فاجدح، قال: يا رسول الله إنَّ علينا نهارًا؟ فقال له الثالثة، فنزل فجدح له ثم قال عليه السلام: «**إذا أقبل الليل من ها هنا وأدبر النهار وغابت الشمس فقد أفطر الصائم**» وفي بعض الألفاظ: «**أكل أو لم يأكل**».

﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ﴾ أي حال كونكم معتكفين أي لابثين ﴿فِى

﴿ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ [البَقَرَة: 187] قصدًا للقربة، أصله الثبات والإقامة. وفي الشرع: عن إقامة في مسجد قربةً لله، فلا يجوز في غير المسجد ولا يختص بمسجد دون مسجد. قيل: اختص بمسجد النبي عليه السلام وهو أحد المساجد الثلاثة أو الجامعة، والعامة على أنه في مسجد الجماعة. والمراد بالمباشرة هو الجماع وهو يفسد الاعتكاف لأن المنهي في العبادات يوجب الفساد فيها. نزلت في الأصحاب كانوا يعتكفون في المسجد وكانوا يخرجون منه إلى نسائهم ويجامعونهم فيغتسلون ويعودون، فهو أن لا يجامعوا نساءهم ليلًا أو نهارًا حتى يفرغوا من اعتكافهم. قيل: هي عام يشتمل الجماع واللمس والقبلة.

فالمباشرة غير الجماع على ضربين، أحدهما: يقصد به التلذذ بالمرأة فهو مكروه لا يفسد الاعتكاف عند أكثر الفقهاء. قال مالك: يفسده والفتوى عليه. والثاني: ما لا يقصد التلذذ بالمرأة فهو مباح كما جاء في خبر عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ كان يُدخل إليها رأسه من المسجد فترجله وهو معتكف. قال عليه السلام في المعتكف: «**هو معتكف للذنوب ويجري له من الحسنات كلها**». عن علي بن حسين عن أبيه رضي الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن اعتكف عشرًا في رمضان كان له حجتين وعمرتين**».

﴿تِلْكَ﴾ أي الأحكام المذكورة في الصيام والاعتكاف ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ حدّ الشيء ما ينقطع الإشارة إليه فيمتنع به عن غيره ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ أي فلا تغشوها إنما نهى التقرب بالحد الحاجز بين الحق والباطل لئلا يداني الباطل بالتخطي عنه.

قال عليه الصلاة والسلام: «**إن لكل ما لك حمى وحمى الله محارمه فمن وقع حول الحمى يوشك أن يقع فيها**». ويجوز أن يراد بها محارم الله ومناهيه و﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك البيان ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البَقَرَة: 187] مخالفة الأوامر وموافقة الدّواهي.

فإن قلت: ما قول الله ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: 229]؟ قلت: من كان في طاعة الله والعمل بشرائعه فهو متصرف في حيز الحق فهي أن يتعداه فإن تتعداه فقد وقع في حيز الباطل ثم بولغ في ذلك فهي أن يتقرب الحد الحاجز بينهما كما مر في الحديث.

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البَقَرَة: 188] أي لا يأكل بعضكم مال بعض بالباطل أي بالوجه الغير المشروع، وأصله الذهاب أي بالأمر الغير الثابت. يقال: بطل بطولًا وبطلانًا وبطلًا إذا ذهب بينكم نصب علي.

نزلت في امرىء القيس بن عابس الكندي وعبدان الحضرمي اختصما إلى النبي ﷺ في أرض فأراد امرؤ القيس أن يحلف فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ [آل عِمرَان: الآية 77] فقرأها النبي ﷺ فأبى أن يحلف وحكم عبدان في أرضه ولم يخاصمه.

﴿وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ عطف على النهي أي لا تلقوا أمرها إلى الحكومة فيها إلى الحكام من الإدلاء وهو إرسال الدلو وإلقاؤه في البئر، يقال: أدلى دلوه إذا ألقى دلوه في البئر، أي يجعل إلقاء حجته سببًا لأن ينال بغيته ﴿لِتَأْكُلُواْ﴾ بالمحاكمة ﴿فَرِيقًا﴾ طائفة ﴿مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ﴾ بشهادة الزور وباليمين الكاذبة أو بالصلح المبني على الحيلة ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 188] والحال أنكم مع العلم بأن المقضي له ظالم ولذا قيل: معناه لا تخاصم وأنت تعلم أنك ظالم متعدٍّ.

قال بعضهم: هو أن يكون على الرجل لصاحبه حق فإذا طالبه دعاه إلى الحاكم فيحلف له أو يقيم على أدائه بيّنةً باطلةً ليذهب لحقّه، فإذا قضى له بالباطل فإنَّ خصومته لم تقطع حتى يحكم الله تعالى بينه وبين خصمه يوم القيامة فيقضي بينهما بالحق. قال شريح: إني لأقضي لك وإني أعلم أنك ظالم إلا أني لا يسعني نظرًا إلى ظاهر الحجة إلا القضاء فقضائي لا يحل لك حرامًا.

قال رسول الله ﷺ: «**إنما أنا بشر وأنتم تختصمون إليّ ولعلّ بعضكم أحق بحجّته من بعض فأقضِ له، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فإنما أقطع له قطعةً من النار**».

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ ﴾

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ عن سبب اختلاف أحوالها أو حكمها أو مطالعها، نزلت في معاذ بن جبل وثعلبة بن تميم الأنصاري قال: يا رسول الله ما بال الهلال يبدو دقيقًا ثم يزيد حتى يمتلىء ثم ينتقص حتى يعود كما بدأ. وهي جمع هلال كأردية وأئمة جمع رداء وإمام مأخوذ من استهلّ الصبي إذا صاح حين تولّد، أو أهلَّ القوم بالحج والعمرة إذا رفعوا أصواتهم بالتلبية ﴿قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ أي الجواب بما يوافق ظاهرًا حال السائل لا بما يطابق السؤال تنبيهًا على أن المسؤول عنه أمر معضل موقوف على مقدمات كثيرةٍ صعبة البيان وقد يثبت في موضعها وهو علم الهيئة وتنويها بآداب السؤال وإرشادًا لها. قال عليه السلام: «**حُسن السؤال نصف العلم**» أي الأهلّة مواقيت ومعالي للعبادات المؤقتة والمعاملات المؤجّلة وأوقات الحج وأزمان أركانها ونسكها. وإنما ذكر بعض الأحكام الظاهرة دون الباطنة وهو الفكر والتأمل في كمال قدرته والتدبر في شمول حكمته تنبيهًا على مثل ما مرّ.

﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ قال المفسرون: كان الناس في الجاهلية وفي أول الإسلام إذا أحرموا بالحج والعمرة لم يدخلوا بيوتا ولا حائطًا ولا دارًا من باب فإن كانوا من أهل المدر ثقب ظهر بيته ويدخل فيه منه لا من بابه، وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخيمة والفسطاط لا من الباب إلى أن يحلّو من إحرامهم ويرون ذلك برّ إلا أن يكونوا من الخمس وهم: قريش وكنانة وخزاعة وثقيف وبنو عامر بن صعصعة وبني نضر بن معاوية، والحماسة هي الشدة ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [البقرة: 189] أي البرّ من اتقى كقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: 177]، ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ [البَقَرَة: 189] الظاهر أن هذا إشارة وأمر إلى تعلُّم علم الهيئة وشرطه وهو التقوى وطهارة النفس ولهذا سميت علومًا رياضية وهي أربعة: علم المقدار والهندسة، وعلم الحساب، وعلم

الهيئة، وعلم التأليف والموسيقى. فإن باب معرفة الأهلّة وأحوالها هو علم التنجيم فعلى من أراد أن يتعرفها أن يدخلها من بابها وهو علم الهيئة، منه أن القمر في نفسه كمد مظلم صقيل قابل للإضاءة فنصفه مستضيء من الشمس أبدًا والباقي مظلم على حاله. وإذا قارن الشمس واجهها هذا النصف من الظلم فإن اجتمعا في دقيقة ودرجة واحدة كسفت الشمس عند إحدى نقطتي التقاطع المسمى بالرأس والذنب، وإذا كان الكسوف تامًّا يرى حلقة النور فحينئذ يرى الوجه المظلم، فإذا فارقها قدرًا يرى من الوجه المنور شيء فهو هلال، فكلّما ازداد البعد بينهما ازداد تواجه الوجه النوراني إلينا إلى الربع الأول فحينئذ يرى من الوجه المستضيء قريبًا من الربع على هيئة الإهليلج، وإذا تقابل الشمس تواجه تمام ذلك الوجه المنور بنا فتُرى بدرًا كاملًا. فبعد الاستكمال في البُعد أخذ إلى التقارب أيضًا على نحو ما مر فإذا قارنها مرة أخرى انمحق نوره، وهكذا ففي كل يوم في منزلة من منازله ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يُونس: 5] فتدبّر. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البَقَرَة: 189] لكي تظفروا بالهدى وتفوزوا بالبرّ والتقوى.

﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾

﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وجاهدوا في دين الله وطاعته لإعلاء كلمته وإفشاء شريعته ﴿ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ﴾ [البَقَرَة: 190] مفعول قاتلوا، هذا أول ما نزل في القتال فكان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتله ويكف عمن كفَّ عنه حتى نزلت: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: 5] فنسخت بها وأمر بالقتال مع المشركين كافة أو الذين يناصبونكم القتال ويتوقع منهم ذلك دون غيرهم من المشايخ والصبيان والرهبانية والنساء. يؤيّد الأول ما روي أن المشركين صدوا رسول الله عام الحديبية وصالحوه على أن يرجع عامه ذلك على أن يخلى له مكة عام قابل ثلاثة أيام فيطوف بالبيت ويفعل ما يشاء، فصالحهم ثم رجع من فوره إلى المدينة فلما كان العام المقبل تجهَّز رسول الله وأصحابه لعمرة القضاء وخافوا أن لا تفي قريش

بذلك وأن يصدوهم عن المسجد الحرام ويقاتلوهم، وكره أصحاب رسول الله ﷺ قتالهم في الشهر الحرام في الحرم.

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ محرمين ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ يعني قريش ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ﴾ أي ولا تبدؤوهم ولا تفاجؤوهم بالقتال فتبادروا في الحرم بالقتال محرمين، فأنزل الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [البَقَرَة: 190] لا يريد الخير لهم.

إشارة وتأويل

واعلم أن لكل واحد من العمل والروح والقلب والنفس وإن كان الكل واحدًا بالذات ولقواها الظاهرة والباطلة لنسبة مخصوصة إلى الله تعالى ولهم إلٰهيته وربوبيته خاصة. أما العقل قيده ومبدؤه هو الذات مع الأسماء والصفات والتجلي الآثاري، واسم المريد باعتبار كونه صورة الجميع وبه، وكذا أصل كل واحد من المشاعر الظاهرة والباطنة والقوى المحركة هو هذه الأسماء المذكورة فلا بد وأن يكون لكل منها بالنسبة إلى هذه الأسماء عبادة من الصوم والصلاة وهما يعمّان الكل، فصوم العقل وهو الإمساك عما تقتضيه ذاته وهو الإدراكات المضافة إلى ربّه شهودات الذات، وقس على هذا صيام ما عدا العقل إلا أنه لو كانت هذه الصيام دائمة لصارت العبادة رسمًا وعادة فلا تتضمن الكمالات، وهي تضاعف الإدراكات فلا بد وأن تكون تارة صائمة وتارة مفطرة متوجهة إلى صور الكثرات وأحكام الإمكانات لتحصيل مبادىء أطوار التجليات وأنوار الشهودات وذلك عند شعشعة دياجير ظلمة الليالي الإمكاني على نشأة القابليات يظهرون غشيان القوة الإلٰهية، قوة الإمكان القابلة وازدواجها إيَّاها أنواع نتائج التجليات وأطوار الشهودات وأنوار المشاهدات والمعاينات كما في الحديث حكاية عن أبي بكر وعلي وجماعة من الصحابة. وقال عليه السلام: «**لا رهبانية في الإسلام**».

﴿هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ﴾ إشارة إلى أن القوة الفاعلية والقابلية واحدة بالذات وأن نعت الفاعلية والقابلية متبادلة التوارد ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ﴾ أي تميلون إليها لاكتساب النتائج ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾ بالترجيع إلى ما كنتم

عليه من الاتحاد في مرتبة الأحدية الجمعية ﴿وَعَفَا عَنكُمْ﴾ أي أزال عنكم ما اكتسبتم من أحكام الإمكان عند الرجوع إلى مرتبة الناسوت. قال في «العرائس»: الخيانة ترك مجاهدتها ورفض تعليم النفس أسرار الآداب والوقوف على مرادها، واستماع كلامهما عند الظهور فسادها وإظهار إفسادها، والصبر على انطلاقها عن رقّ العبودية واقتحامها في نيران الشهوة أو الوقوع بها حيث وقعت.

﴿فَالْئَٰنَ بَٰشِرُوهُنَّ﴾ أي حين الانصراف من الوحدة في السير من الله إلى الكثرة ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي ما جمعه الإلٰه في بدء الفطرة في رحم قابلياتكم وباطن استعدادتكم الذاتية ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ من أرزاق المعارف الفطرية وشربة العلوم النظرية سواء كانت من القوة النظرية أو العملية ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ﴾ أي يظهر صبح سعادة العروج والعود إلى عالم الوحدة ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ﴾ الإمساك من غير الحق في جميع المراتب إلى أن يحيط ظلمة الوحدة التي هي غيب النور ومنبع الظهور صور تمام الكثرات ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي الْمَسَٰجِدِ﴾ [البَقَرَة: 187] أي الجمعية الأحدية والواحدية وجمعها باعتبار أن لكل واحد من الأعيان جمعية مخصوصة أو الصورة الجمعية الإلٰهية والإمكانية كما هي في السير في الله، فإن السير إلى الحدود والأطراف إنما هو من خصائص السير من الله وإلى الله، وأما السير في الله فلتساوي الحدود والأطراف بالنسبة إليه لتساوي النسبة إلى الكل، فحدّه هو هذه الجمعية لا يمكن التعدي عنها ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي نهاية المراتب وغاياتها فإن لكل واحد من الله وبالله وفي الله أو لكل أحد من الأطوار أي طور العقل والروح والنفس والقلب أو لكل طور من أطوار القلب حد وطرف ومبدأ ونهاية وهو الحق، إذ ﴿الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّٰهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحَديد: 3] هو الله، ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البَقَرَة: 187] وفي «العرائس»: لا تقربوا حدود الحقائق أولًا بشرط آدابها بنعت المعرفة وحسن حقيقة الأدب، وإنما جعل الحق أحكام الربوبية حدودًا في مقام العبودية لتحجز العباد بها عن هتك أسرار القربة لأن في بداية الحدود أسرار العبودية وفي نهاية أسرار الربوبية لا يمنع الخلق بها عن الاطلاع على الأسرار الأزلية وهي أحكام الشريعة وإعلام الطريقة وإفهام الحقيقة.

واعلم أن لكل مرتبة كلية أو جزئية بل لكل عين من الأعيان حد ونهاية تتعين به، فإذا تجاوز ذلك الحد لم يبق مرتبة ولا شخص على حال مثلًا أنّ للمزاج الإنساني حدًّا وطرفًا فإذا تعدى عنه لم يبق الإنسان إنسانًا ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصَّافات: 164].

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي كما ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾ أن حدود الربوبية والعبودية موافق للسائرين ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ﴾ أي أسرار القدم بوصف الجبروت للأعيان الثابتة وأنوار الربوبية بنعت الملكوت للأرواح القدسية، وبصفة الآثارية للأكوان الحسيَّة والأعيان الجسمية الفلكيَّة والعنصرية إلى الجمعية الكليَّة الناسوتية.

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البَقَرَة: 188] قال الصادق رضي الله عنه: «من صدق في عبوديته وصدقه تبين في خصلتين: الامتناع عن جميع الأباطيل وحفظ القلب عن جميع الآثام وصار عند الله صادقًا ووليًّا».

واعلم أن لكل من العقل وأخواته ولكل طور من الأطوار السبعة وتعيناته، ولكل قوة من القوى النظرية والعملية وهيئاتها علم معين وشهود مبين فلا بد وأن يقتنع بما له ولا يتعدى إلى ما لغيره، مثلًا السالك إذا كان في مرتبة النفس ولم يستكملها بعد فإن ادَّعى التجلي والعلم الشهودي الحضوري وأولى به إلى ما هو حاكم في إقليم الوجود وهو العقل البشري المتشبث في أحكامه في الوهم فإن حكمها كدعواها باطل ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ [البَقَرَة: 189] القمر هو القلب لاقتباسه النور من شمس الروح والعقل فإذا حصل مناسبة تامة بالروح ولم يقع أرض الطبيعة حالةً بينه وبين العقل يكون كامل النور لغاية بعده وفي الحضور لغاية بعده من شرح الصدر مع ربّه في غاية السرور ﴿قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ [البَقَرَة: 189] أي الأهلّة ويحول أحوال القلب في مسالك سيره ومدارك دوره وطيره للناس المعهودين وهم السائرون إلى الله فمناسكهم ومنازل مداركهم إلى الوصول بزيارة بيت الله وهي الجمعية الكبرى أربعون مرتبة ولذا مدارج الاستكمال أربعون يومًا ﴿۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعرَاف: الآية 142].

قال الصادق رضي الله عنه: «الهلال العقل المطّلع على درجات الألوهية

فصار العبد يضيء والهًا إلى ربّه، ونقصانها الميل إلى الهوى بقدرة. قال صاحب «العرائس»: يسألونك أطوار أطيار بساتين الغيب عن نقصان هلال المشاهدة عند الفترة وزيادتها عند الكشوف بنعت تجلي الأسرار لأنهم إذا غابوا في أوصاف أحكام العبودية احتجبوا بها عن رؤية مشهود الغيب، فإذا خرجوا من وطئات أزمة الابتلاء رأوا وعاينوا في سماء التبيين نوادر أنوار آثار الصفات فتاهوا عند ذهاب عقولهم في مجلس خاص تحت خصوص شوامخ الكبرياء وطاشوا في هبوب البليات من تراكم سحاب الواحد عند بدريتها في منزل الشوق فتخيروا بين المنزلين واستفتوا من شرف خلق الله محمد ﷺ من مرسوم هذه الأوصاف كي يخلصوا عن أركان الشواهد بعدَ جمع الجمع في قلوبهم فأمره الله ﴿قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ أو هذه الأحوال المنسقة في الكشوف عن الحوادث السرمدية والحوادث الأبدية والأطوار القلبية هي المواقيت للأرواح في طيرانها إلى أعلى المقامات على ترتيبها وظهور أوقات المواجيد وقصورها إلى عالم الصفات نسق الله تعالى كشف القدرة على قدر شوق السابقين لا المشتاقين فإنهم هم المقربون حتى علموا أحكام العبودية في الربوبية وأنوار الربوبية في العبودية على تدوير الأحوال وكشف الصفات لأن العارف محتاج إلى حقيقة علم الأحوال والآداب في الأوقات ليشتغل بها بقدر وجدان أنوار القدرة.

﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ [البَقَرَة: 189] إشارة إلى استيفاء المقامات لا بد وأن يكون على نظم طبيعي وترتيب وضعي بأن يسير أولًا في المراتب الأدنى متدرجًا إلى المراتب العليا بأن يسلك ابتداءً في البدن وأطواره ثم في طور النفس ثم في طور القلب ثم في طور السرّ وطور الروح وطور الخفي إلى طور غيب الغيوب والطور الخفي سواء تقدم السلوك على الجذبة أو بالعكس، فإن المقامات على وفق المراتب مترتبة، فالمقام الأدنى باب للمقام الأوسط وهو باب للأعلى فمنهم من استعجل استعجالًا طبيعيًا وطفر من الأدنى إلى الأعلى. قيل: استكملها ثم يرجع إليه رجع القهقري ويستكمله كما هو دأب بعض المجذوبين من السالكين ثم طفر بالأعلى.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ ما يحل للنظم الطبيعي في السير إلى الله ﴿وَأْتُوا۟

﴿ٱلْبُيُوتَ﴾ أي مراتب التجليات الذاتية والصفاتية والأفعالية والآثارية والصورة الجمعية الإنسانية ﴿مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ أي المقامات العالية بعد تكميل مقام الأدنى ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ أي احذروا عن السير في الله. قيل: استكمال السير إلى الله ومن الله ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البَقَرَة: 189] وتظفرون بمرتبة برزات الكل.

﴿وَقَٰتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ [البَقَرَة: 190] أمر الله تعالى بالسلوك وهو الجهاد الأعظم وآدابه وترتيبه أي اعدموا وافنوا في السير إلى الله الموانع الذين يمنعونكم عن سبيل الله والوصول إليه فإنَّ كل ما يحجبك عن الله فإنه واجب الدفع وإن كان في الظاهر عبادة كما قال عليه السلام: «**وربّ تالي للقرآن والقرآن يلعنه، وربّ مصلح لا خير فيه**» الحديث. فإن ترك الدواعي البشرية لسلامة القلب عند اجتماع همومه بين يديه واجب. قال النبي ﷺ: «**من انقطع إلى الله في دنياه كفاه الله كل مؤنة فيها من أحسن فيما بينه وبين الله كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته، ومن عمل للآخرة كفاه أمر دنياه**» الحديث ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشُّعَرَاء: 88، 89].

﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا﴾ [البَقَرَة: 190] أي لا تجاوزوا حد الاعتدال في جهاد النفس كما هو دأب الجهال المرائين من أصحاب السلوك حيث انقطعوا عن الطعام كما كان في الرهبانية وقد نهى رسول الله ﷺ عنها: «**لا رهبانية في الإسلام**».

﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾﴾

﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي وجدتموهم، أصل الثقافة الحذاقة ومدّ البصر بالأمر ويقال: رجل ثقيف إذا كان صادقًا في الحرب بصيرًا بمواضعه جيد الحرب ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أي مكة، وقد فعل ذلك من لم يسلم يوم الفتح من المشركين ﴿وَٱلْفِتْنَةُ﴾ أي الشرك بالله في الحرم أو مطلقًا ﴿أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البَقَرَة: 191] أصعب منه وأكثر إثمًا في دوام بقائها وبقاء تألم النفس بها، والمحبة التي يفتتن بها

الإنسان كالإخراج من الوطن والأحباء فإنه أشد من الموت.

سئل بعض الحكام: ما أشد من الموت؟ قال: ما يتمنى فيه الموت، وهو الفراق، فالقتل بحدِّ السيف أهون موقعًا على النفس من قتلٍ بحدِّ الفراق.

وقيل: صدّكم إياكم عنه أشد من قتلكم إياهم فيه أو عذاب الآخرة ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ﴾ [الذّاريَات: 14].

﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي الحرم ﴿حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ﴾ أي يبادروكم بالقتال ويبدؤوا به فيه ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمْ﴾ عند الحرم ﴿فَٱقْتُلُوهُمْ﴾ ولا تبالوا بقتلهم بمبادرتهم بهتك حرمته قبل وقوع الفعل عن البعض يكون وقوعًا عن الكل إشارة إلى كمال اتحادهم ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل جزائهم ﴿جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البَقَرَة: 191] بالقتل، أي اقتلوهم كما قتلتم آباءهم للإشراك موجب القتل بينهم هو الشرك.

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾﴾

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾ عن القتال والكفر وتركوه أو عن الشرك أو عن الإخراج عن الوطن ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن تاب عن الذنوب وغاب عما غاب لدى القلوب ﴿رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: 192] لمن أطاعه معرضًا عن عقاب علام الغيوب.

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ
وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ﴾ أي المشركين ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي لا يوجد شرك وقتال أو الإخراج عن الوطن ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ﴾ أي يصير الإسلام والعبادة خالصةً ﴿لِلَّهِ﴾ وحده لا شريك له فيه من غير أن يكون لإبليس فيها من خلائق فلا [يقبل] من المشركين إلا الإسلام أو الصمصام(*).

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾ عن الشرك والعناد ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ﴾ فلا ظلم حاصل ﴿إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البَقَرَة: 193] أي إلا على الذين لا ينتهون عن الظلم، يعني لا تعتدوا ولا تظلموا

(*) الصِّمصام: السيف الصارم لا ينثني، والجمع صماصمة.

على المنتهين لأن مقاتلتهم عدوان وظلم لعدم موجبها فيهم، فوضع قوله: ﴿إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البَقَرَة: 193] موضع على المنتهين أو لا يحسن أن يظلم إلا من ظلمه فوضع القلّة موضع الحكم، ويسمى جزاء الظلم باسمه للمشاركة كقوله: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أو إنكم إن تعرضتم للمنتهين صرتم ظالمين وينعكس الأمر عليكم فالفاء الأولى للتعقيب والثانية للجزاء.

﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾

﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ﴾ أي الشهر الذي حرِّم فيه القتال ﴿بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ الشهر يقابل الشهر، نزل حين ذهب رسول الله ﷺ عام الحديبية في ذي القعدة إلى مكة للعمرة فصدهم المشركون عن البيت فعاد ثم رجع في العام القابل مع أصحابه فدخلوا مكة [فطافوا] البيت ونحروا الهدي وأقاموا فيها ثلاثة أيام في ذي القعدة سنة سبع، فقال له تعالى: في الشهر الحرام يهتك حرمة شهركم فافعلوا لهم بهتك حرمة شهركم كما فعلوا بهتك حرمته عليكم ولا تنالوا من كراهة القتال فيه لأنه جزاء فعلهم يعني يهتكون حرمته عليهم كما هتكوا حرمته عليكم.

﴿وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾ مصدر بمعنى المساوات، أي كل حرمة وهي ما يجب أن يحاف عليها يجري فيها من الحرمان القصاص إذا هلكت اقتص فيها بمثلها فلما هتكوا حرمة شهركم بالصد فافعلوا بهم مثله وادخلوا عليهم عنوة واقتلوهم إن قاتلوكم كما قال ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي تجاوز بقتلكم في الشهر الحرام ﴿فَٱعْتَدُوا۟﴾ تجاوزوا ﴿عَلَيْهِ﴾ أي على المعتدي المتجاوز عن الحدّ ﴿بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ من هتك حرمة الشهر والصيد والقتل فلم تجاوزوا أنتم عن المثلية كمًّا وكيفًا ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [البَقَرَة: 194] أي احذروا غضب الله وقهره في زيادة القصاص في من ظلمكم حقوقكم، فإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التّوبَة: الآية 123] متجاوزين من الاعتداء بالنصر والاستظهار على المعتدين.

﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾

﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ نزل حين أمر الناس بالخروج إلى جهاد فقام بعض من ظاهري المدينة وقالوا: إنما نتجهز في سبيل الله فوالله ما لنا زاد ولا يطعمنا أحد أي لا يتصدقوا في سبيل الله في طاعته ومنها الجهاد. وقيل: في حق البخلاء حيث قالوا: لو أنفقنا أموالنا لصرفنا فاقرين إلى الناس ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ﴾ لا تطرحوا أنفسكم، وإنما عبر عنها بها لظهور معظم أفاعيلها بها، ويجوز أن يقال: ولا تلقوا أنفسكم بسبب أيديكم أي الأعمال الصادرة عنها. فعلى الأول الياء زائدة ﴿إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ أي الهلاك بإسراف مالكم وإتلاف مالكم من النقود والأجناس وسائر ما ينتظم به أمر المعاش وبالكف عن العزّ والإنفاق فيه فإن ذلك يقوي العدو ويسلطهم على إهلاككم. ويؤيده ما روي عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه: لما أعزّ الله الإسلام وأكثر أهله رجعنا إلى أهلينا وأموالنا نقيم فيها ونصلحها، أو بالبخل فإنه سبب موجب للهلاك ولذلك سمّي هلاكًا ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟﴾ أعمالكم وأخلاقكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البَقَرَة: 195] بالله الظن فيما أنفقوا في سبيل الله بأن يعوّضكم أحسن منها في الدنيا ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعَام: 160].

﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾

﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ﴾ ائتوا بهما تامّين وهو على هذا يدل على وجوبهما ويؤيده

قراءة من قرأ: (وأقيموا الحج) تهيّبًا عما لا يستحلّ فيهما لأن المشركين كانوا يقولون في التلبية: لا شريك لك إلا شريكًا هو لك تملكه وما يملكك، فقال الله تعالى: ﴿وأتموهما﴾ ولا تخلطوا بهما شيئا آخر. وقيل: إتمامهما أن تكون النفقة من الحلال وبالانتهاء عما نهيتم عنه وبعدم شوبهما بشيء من التجارة. وقيل: إتمامهما بإحرامك عن دائرة أهلك وبإتمام مناسكهما وسنّتهما بالإحرام من المواقيت ووجوب الحج الجماعي، والعمرة واجبة عند الشافعي وسنةٌ عند أبي حنيفة.

والحج ثلاثة: إفراد، وهو أن يحجّ الرجل ثم يعتمر بعد فراغه منه وهو الأفضل عند الشافعي. وتمتُّع، وهو أن يعتمر في أشهر الحج وبعد الفراغ منها يحرم بالحج فيحجّ في هذا المقام. وقران، وهو أن يحرم بالحج والعمرة معًا ويحرم بعمرة ثم يدخل عليها الحج قبل أن يطوف، وهو الأفضل عند أبي حنيفة ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ أي منعتم وحبستم، يقال: حصر العدو وأحصره إذا حبسه ومنعه عن المضي. والمراد حصر العدو من الحبس الحرب والنهب وغير ذلك عند مالك والشافعي لقول ابن عباس رضي الله عنه: لا حصر إلا حصر العدو. ولأن هذه الآية نزلت في قصة الحديبية وذلك إحصار عدو بشهادة قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾، وعند أبي حنيفة: كل منع من عدو ومرض وعجز وغيرها من اللذع وذهاب النفقة وضلال الراحلة وما ناسبها من الأعذار لما روى عليه السلام: «**من كبر أو عرج فقد حلّ وعليه الحج**» من قاتل وهو ضعيف مأوّلٌ بما إذا شرط الإحلال لقوله عليه السلام لصناعة بنت زياد: «**حجّي وشارطي**». وقولي: «**اللهمَّ محلٌّ حيث حبستني**». وقوله عليه السلام: «**لا إحصار إلا حبس عدو**».

﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ [البقرة: 196] فعليكم ما تيسر من الهدي أو فالواجب ما استيسر، فاهدوا ما تيسر، فالمعنى إذا حصر المحرم وأراد أن يتحلل بذبح هدي تيسر عليه من بدنة أو بقرة أو شاة حيث حصر عند الأكثر لأنه عليه السلام ذبح عام الحديبية بهما وهي من الحل، وعند أبي حنيفة بعث به ويجعل المبعوث به إلى الحرم بمكة فيخيّر فيه ويقيم في مقام أحصر على إحرامه ويواعد يومًا من يذبحه عنه فيه ثم ينحل من إحرامه في يوم الذبح إذا علم أنه قد ذبح يرجع إلى أهله ثم يقضي حجَّه وعمرته بعد ذلك. وما نحر النبي ﷺ من المحصر كان طرف

الحديبية إلى أسفل مكة وهو من الحرم. فالمعنى أنكم إذا منعتم عن حجّ البيت فعليكم من الهدي ما استيسر.

﴿وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ﴾ أي لا تحلقوا شعورها عند الإحرام ﴿حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ﴾ أي لا تحلقوا حتى تعلموا أن الهدي المبعوث إلى الحرم بلغ محلَّه ومكانه وهو مع هديه. وقرئ بالتشديد جمع هدية كمطيّةٍ، وهذا على قول من عمم الإحصار فإن محلَّ الهدي عنده وهو الحرم لا غير، وأما من حصر على العدو ويجعل المحلَّ حيث يحل ذبحه وأكله وانتفاع به لقوله عليه السلام في اللّحم الذي تصدّق [به] على بريرة قال: «**قرّبوه فقد بلغ محله**» يعني هدية إلينا بعد أن كانت صدقة على بريرة. عن الزهري أنه قال عليه السلام عام الحديبية لأصحابه حين أحصروا: «**قوموا فانحروا واحلقوا**»، قال: فوالله ما قام أحدٌ حتى قال ثلاث مرات فلمَّا لم يقم أحد منهم قام عليه السلام فدخل على أم سلمة فقالت له: يا نبي الله اخرج ولا تكلم منهم أحدًا حتى تنحر بدنتك وتدعو حلاقك فتحلق، فلمَّا رأوا ذلك قاموا ونحروا وحلق بعضهم بعضًا. قال البعض: فمن لم يقدر على النحر فعليه إطعام أو صيام وكل ما وجب على المحرم في ماله من بدنةٍ أو هديٍ وصدقة فلا يجري إلا في الحرم لمساكين أهلها إلا في موضعين أحدهما دم المحصر فإنه ينحر حيث حبس وحلّ والآخر من تلك هديه في الطريق لم يجز له أكله ولا لرفقائه وإن كانوا فقراء بل قسم على فقراء ذلك المحلّ.

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ أي لا يجوز الحلق حال الإحرام إلا لمرض يحتاج إلى مداواته ﴿أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ﴾ كالصداع والجراحة والقمل ﴿فَفِدۡيَةٞ﴾ فعليه إذا حلق قبل وقته وهو يوم النحر للضرورة فدية ﴿مِّن صِيَامٍ﴾ ثلاثة أيام (من) لتبين جنس الفدية وتعيين نوعه ﴿أَوۡ صَدَقَةٍ﴾ يطعمها ثلاث مساكين لكلٍّ نصف صاع ﴿أَوۡ نُسُكٖۚ﴾ أي ذبيحةٍ واحدها منسك أعلاها بدنة وأوسطها بقرة وأدناها شاة، وهو مخيّر بين هذه الثلاثة والأصح أن هذه الفدية حيث يأتي بها فهو مجزئ لإطلاقها في الآية من غير تعيين مكان دون مكانٍ بها.

﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ﴾ من الخوف والأعذار مطلقًا وكنتم على حالة السّعة ﴿فَمَن تَمَتَّعَ﴾ [البَقَرَة: 196] أي استمتع وانتفع بالتقرب أو تلذّذ إذ أصله التردد فإن المتاع هو

الزاد ﴿بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ﴾ أي وقت الحج، فمنهم من قال: معناه فمن أحصر حتى فاته الحج ثم قدم مكة ثم خرج من إحرامه بعمل عمرة واستمتع بأحواله إلى حج السنة القابلة ثم يحج ويهدي. وبعضهم قال: معناه فإذا أمنتم وقد حللتم من إحرامكم بعد الإحصار ولم ينقضوا عمرة تخرجون بها من إحرامكم بحجكم ولكن حللتم حين أحصرتم بالهدي وأخرتم العمرة إلى السنة القابلة فاعتمرتم في أشهر الحج ثم حللتم فاستمتعتم بإحلالكم إلى حجكم الآتي. وقيل: فمن استمتع بعد التحلل من عمرته واستباحة محظورات الإحرام إلى أن يحرم بالحج القابل.

﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ أي فعليكم ما تيسر لكم من الهدي. قال الفقهاء: إن المتمتع الذي يجب عليه الهدي هو أن يجتمع فيه أربع شرائط وهي: أن يحرم في أشهر الحج ويحلّ من العمرة فيها، وأن يحرم بالحج من عامه ذلك من مكة ولا يرجع إلى الميقات. وزاد بعض أصحابنا: وأن يكون من غير الحرم فمتى انخرم شيء من هذه الشرائط سقط عنه الدم ولا يكون مطبقًا فهو دم خير أن يذبحه إذا أحرم بالحج ولا تأكل منه عند الشافعي لكونه دم حياته. قال أبو حنيفة: إنه دم نسك فهو مثل الأضحية.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ الهدي ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ﴾ أي في أيام الاشتغال به بعد الإحرام وقبل التحلل ويكون آخر الأيام منها يوم عرفة فيصوم يومًا قبل التروية ويوم التروية ويوم عرفة أي سابع ذي الحجة وثامنه وتاسعه، ولا يجوز يوم النحر وأيام التشريق. وعند أبي حنيفة: في أشهره ما بين الإحرامين إحرام الحج وإحرام العمرة ﴿وَسَبْعَةٍ﴾ [البَقَرَة: 196] أي فصم سبعة أيام أو فعليك صيام سبعة كقوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ [البَلَد: 14، 15] بفائدة الفذلكة والحساب أيام ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ إلى أهليكم وبلدكم عند الشافعي وعند أبي حنيفة عند الفراغ من أفعال الحج ﴿تِلْكَ﴾ الأيام ﴿عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البَقَرَة: 196] فذلك وحسابها أن لا يتوهم أن الواو بمعنى أو كقولك: جالس الحسن وابن سيرين فإذا جالسهما أو واحدًا منهما كان ممتثلًا، ويقال لها واو الإباحة والتخير. وأيضًا فائدة الفذلكة في كل حساب أن يعلم العدد جملة كما علم مفصلًا ليحاط به من جهتين ليتأكد العلم به كما قيل: علمان خير من علم كامل

تأكيد آخر وفيه زيادة توصية لصيامها وأن لا تهاون بها ولا ينتقض من عددها ذلك ﴿لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ﴾ الحكم المذكور وهو وجوب الهدي والصيام عندنا والتمتع عند أبي حنيفة إذ لا متعة ولا قران لحاضري المسجد الحرام عنده، فمن فعل ذلك منهم كان عليه دم جناية لا يأكل منه. وأما القارن والمتمتع من أهل الآفاق فهما دم نسك يأكلان منه ﴿حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أو هم أهل المواقيت ومن دونه إلى مكة عند أبي حنيفة، وعند الشافعي: أهل الحرم ومن كان فالحرم على غير مسافة القصر.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في أداء ما أمركم به ونهاكم عنه سيما في الحج ومحافظة أركانها ومناسكها ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [البَقَرَة: 196] إن طبقتم ما أمره ونها عنه.

إشارة وتأويل

﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أمر من القوى الروحانية التي استعد والشهود التجليات بالقتال بجنود القوى النفسانية وعساكر المبادىء الطبيعية في أي مرتبة وجدت إشارة إلى عموم سريان النفس في جميع المسالك، فإن كانت غير مهذبةٍ بمنع الشهود فحينئذ يجب القتال معها ودفعها، وإن كانت مهذبةً تكون مرآتًا لتطور الشهودات وأنواعها فلا قتال ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أي ادفعوا سلطانهم عن كل طور من الأطوار السبعة التي امتنعت بها عن مقتضياتها الفطرية ومسوغاتهم النظرية، وهي الشهود المذكور على مرتضى العقل الصريح والذوق الصحيح ﴿وَٱلْفِتْنَةُ﴾ أي الجهل المركّب والشرك الخفي المرتّب على العقل الجزئي المتشبث بأزيال الوهم ﴿أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البَقَرَة: 191] أي من قتل النفس الأمارة بسيف الجهل البسيط وسنان الشرك الخفي الروح النفساني والنفس الإنساني لأن ضرره أعم من ضرره وأتم من شرره ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي عند العين الأحدية الأسمائية والجمعية الإلهية والكونية في النشأة الكلية والمرتبة الإحاطة لإطاعتهم لسلطان القلب في هذه الحالية.

﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمْ﴾ عند الجمعية القلبية خالفوكم في الاتباع ﴿فَٱقْتُلُوهُمْ﴾ بإمالتهم

عن مقتضيات طباعهم إلى ما طبعت له وهي المرتبة التي ينعكس فيها تفاصيل التجليات الآثارية والأفعالية والصفاتية إجمالًا وتفصيلًا وكلية وجزئية في حالة واحدة في السير في الله ﴿كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البَقَرَة: 191] بالقتل والإخراج عن مقتضى أحوالهم الموافقة بالقوى الروحانية والمطاوعة للنفس الناطقة المطمئنة في الشهود في السير إلى الله ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: 27، 30] إلا أنهم لا يوافقون الحقيقة الإلهية الكلية الجامعة بالتحقق بالكل. المعنى: يا عبدي أجعلك مثلي وليس لي مثل.

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾ عن المخالفة بالنفس الناطقة وقوتها إلى ما عيّنهم الله تعالى ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ ستار عليهم بتجلياته الجلالية ﴿رَّحِيمٌ﴾ [البَقَرَة: 192] بالتجليات الجمالية.

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي قاتلوا القوى النفسانية من القوى العملية والعلمية المدركة والمحركة في تمام المقامات وكل المدارك ومراتب التعينات حتى لا تكون وتوجد فتنة في شهود الأنوار سر هوية الغيبية وتوسوس في أحوال السالكين إلى الله كما روي أن موسى عليه السلام لما شاهد التجلي الكلامي حضر الشيطان عنده وقال: يا موسى إن مكلّمك هو الشيطان، ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ﴾ [البَقَرَة: 193] أي استسلام الممكنات ﴿كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الالأنفال: 39] وترجع الأمور كلها إلى الله. وإنما كرر الأمر بالقتل لأن جنود إبليس كلما قتلوا أحيوا وعادوا إلى الفتنة والإضلال لأن اقتضاء اسم المضلّ كاقتضاء الهادي غير منقطع سواء كان بالنظر إلى شخص واحدٍ أو أشخاصٍ متعددة.

وفي «العرائس»: قاتلوا أنفسكم على دوام الرعاية لأوقاتكم بنعت تصفية أحوالكم عند دنس الطبيعة وخبث الحيلة وإزالة الأوصاف البشرية ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البَقَرَة: 193] وقوع خطرات العدد في ديوان الأسرار أي الصدور الصافية والقلوب النقية المنورة بنور الأحدية فيكون بعد جمع الهمم الأسرار وطبقات المكاشفات وحقائق الإيمان المستولي على باطن حقيقة النفوس بنعت انفراد الأسرار بين يدي العزيز الغفار ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾ عن الإضلال والإغواء ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ﴾ ولا دفع استظهار أمر فضل الله ﴿إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البَقَرَة: 193] الصادّين عن سبيل الله المعاندين مع أهل الله.

﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ﴾ قال الصادق عليه السلام: «**الشهر الحرام المعرفة والقصاص ترك الفكرة والاعتداء هو الجواز عن حرم الطاعة والمعرفة بخلاف التقوى** ﴿بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ﴾ أقول: المراد بالشهر هو الطور السرّي الذي هو محل التجليات الآثاري و﴿ٱلۡحَرَامُ﴾ هو الشهود يعني أن الطور الذي استعد فيه القلب لشهود التجليات الآثارية وحرم فيه شهود الغير والالتفات فيه فلو هتكت القوى النفسانية وكفار جنود الطبيعة حرمة هذا الشهر الذي رخص فيه وحجّ شهود الجمال وعمرةِ المعرفة فالتمتع بالأخلاق الرضية والملكات المرضية بعد إطاعتهم للقلب وتعديل أطوارهم وصفاتهم إلى أطوار القوى الروحانية وصفاتهم السنية فلا بد للقلب أن يجاوبهم ويردهم إلى طاعتهم له وتجاهدهم وإن كان الالتفات إلى الغير في هذا الطور حرامًا.

﴿وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ﴾ يعني كما أن هذه القوى عند تهذيب النفس وتذهيبها يحرم رجوعهم إلى مقتضى مسخه الأصلي في هذا الشهر أي شهر الفؤاد كذلك يحرم على القلب في هذا المشهد الالتفات إلى الغير، فكما هتكت هذه القوى حرمة هذا الشهر كذلك للقلب أن يهتك حرمته بالقتال معهم والرّد إلى متابعتهم له ومطاوعتهم إليه كما قيل: ارتكاب الشرّ القليل للخير الكثير خير كثير.

﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [البَقَرَة: 194] إشارة إلى أن المعاينة والمحاربة مع النفس في هذه المرتبة لا بد وأن تكون على نهج الاعتدال لئلا تعمى النفس لكثرة المجاهدة في هذا الطور عن المشاهدة ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحَجّ: 46]، فإن القلب كما يعمى في التفريط كذلك يعمى في الإفراط «**خير الأمور أوسطها**». قال: لا تعتدوا في رياضة النفس حتى لا تعمى ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ النقود العملية والأجناس العملية وثمرات الأخلاق المرضية ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِۛ﴾ [البَقَرَة: 195] أي بالقوى النظرية والعملية والإدراكات الوهمية والأعمال الذاتية والأخلاق الردية القطيعة وهي البعد عن الحق. قال الصادق رضي الله عنه: «المحرم لا يريد غير الله والمحسن لا يريد غير ثواب الله، والمنفق لا يريد غير النجاة في مواقع الهلكة وهي خسران الله وعقوبته».

وفي «العرائس»: الإنفاق على ثلاثة أحوال: نفقة الزاهدين، ونفقة المحبين، ونفقة العارفين. وأما نفقة الزاهدين فهي ترك الدنيا بما فيها لأهلها حتى يستمتع بها الأنام وبذل نفوسهم لله في أيام الله.

وأما نفقة المحبين فهي إعطاء ما نالوا من الحق لأهل الحق. وأما نفقة العارفين فتبديل الأرواح في مقام الفناء من وجدان غير الحق في أسرارهم، أمرهم الله تعالى بالإعراض عن الكون مع استبطان أحوالهم بلذائذ المحبة والدخول في مقام الإحسان لأن الإحسان أعلى مرتبة من رتب أهل المشاهدة. وأعلمهم الله تعالى بأنهم لا ينالوا حقيقة المشاهدة إلا ببذل حياتهم لأجل خالصة الحق وأن مقام الإحسان مقرونٌ بالمحبة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البَقَرَة: 195] فإن من فاته الإحسان احتجب عن المشاهدة وهلك في قبض بطش النفس متحيرًا في هاوية هواها مصروعة في ورطات هوياتها.

﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ﴾ [البَقَرَة: 196] أي ائتوا بأركانهما، فأركان الحج خمسة: الإحرام والطواف والسعي والوقوف بعرفة والحلق، إشارة إلى العوالم الخمس ومراتب التنزلات والترقيات، فالسالك القاصد لزيارة كعبة الحقيقة وهي الأحدية الجمعية لا بد وأن يكون يحرم من بيت النفس ويطوف حول قلبه لتكميل الأخلاق وتهذيب الأوصاف والاتصاف بأوصاف الواحد الأحد الخلاق، ويسعى في صفاء سرّه، ويقف في مقام عرفات جمعية سره على ما عرف وشاهد في الفطرة الأولى من تجليات ذلك الجمال بسبب خلق شعور المشاعر العشرة التي محلها هو الرأس، خمسها في الظاهر وخمسها في الباطن، فأركان العمرة وهي أركان الحج سوى الوقوف بعرفة. الصدر إشارة إلى مراتب العقل في القوة النظرية وهي الهيولانية والعقل بالملكة والتحلية عن آثار أعلام الإلهام بالفجور والتقوى ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشّمس: 8، 10] إلى التحلية بحلل جواهر العلوم النظرية ونفائس الفواخر العملية عند اطمئنان النفس بإطاعة ربّها والرجوع إلى مرتبتها ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفَجر: 27] والإدراكات النظرية ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: 28، 30].

قال عليه السلام: «**من عمل بما علم علمه الله علم ما لم يعلم**». قال الصادق رضي الله عنه: «من صام من الموسم ـ وهي الحرم ـ بعد أداء هدية الإيمان وعطية الإسلام، وصام عن الخلق والآثام فصار حاجًّا ومعتمرًا، فمن نوى إلى البيت فهو حاجّ، ومن نوى إلى ربّه فهو معتمر متبرئ عن المعاصي». وفي «العرائس»: أوجب الحق سبحانه وتعالى على وفد أهل الحقيقة إتمام مقاصدهم إلى بساط القربة بأن تخيير دواعي الكائنات في توجيههم إلى زيارة مزار القدم بلا سعي القدم وهموا إجابة الحق بأداء ما افترض عليهم من بذل النفوس في العبودية ليقترن إجابة الظاهر بإجابة الباطن لأنهم أجابوا الخلق في بدء الأمر إذ قالوا: بلى، فأمر الله إتمام ميثاق الأول بأن يتذكروا العهد الأول بتعريف نفسه إليهم ويتموا حقيقة الإجابة بلبيك وسعديك. فالحج لأهل التمكين، والعمرة لأهل التلوين، فإتمام الحج البلوغ إلى رؤية الربوبية، وإتمام العمرة الوصول إلى حقيقة العبودية.

﴿فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ﴾ أي منعكم عن الوصول إلى زيارة بيت الله تعالى وهو مقام الجمع عليه جيوش النفوس عند الإحرام للقصد إليه فعليكم ﴿فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ﴾ لكم ﴿مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ﴾ فإن منعتم في مقام النفس الأمارة فعليكم بذبح الكبش وفي مقام النفس اللوامة فبقرة وفي الملهمة ففدية ﴿وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ﴾ أي لا يحصل الفناء على الشعور والإشعار أي الإدراكات الحسية والعقلية حتى تبلغ السالك في مقام فناء النفس غايتها، إشارة إلى ترتيب السلوك، يعني لا بد وأن يتقدم في الفناء الكلي والإفناء النفسي سواء حصل لها استعداد الرياضة والأحد في السلوك أولًا، هذا إذا كان السلوك على النظام الطبيعي ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ أي لا يكون سلوكه على الترتيب ﴿أَوۡ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأۡسِهِۦ﴾ أي على بعض الترتيب إلا أنه لا يكون جذبة من جذبات الرحمٰن ﴿فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ﴾ أي كف النفس من مقتضياتها ﴿أَوۡ صَدَقَةٍ﴾ أي بدل القوة النظرية التوجه إلى الفكرة في الهيئات وصرفها بالتأمل في أحوال الممكنات من حيث إنها ممكنات ﴿أَوۡ نُسُكٖۚ﴾ أي ذبح وصرفها عن جميع مقتضياتها ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ﴾ [البَقَرَة: 196] من حصر كفار النفس لانهماكهم واستهلاكهم بالكلية.

﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ﴾ أي استكمال تهذيب النفس مراتبها وأطوار القلب

في مآربها إشارة إلى أحوال الكُمَّل من السالكين سواء كانت الجذبة متقدمة على السلوك أو بالعكس ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ﴾ في كل طور من الأطوار ﴿مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ [البَقَرَة: 196] المذكورة ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ إشارة إلى السير من الله.

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ [البَقَرَة: 197] أي وقت الحج كما قيل في البرد والحرّ شهران وهي شوال وذو القعدة وتسعة من ذي الحجة إلى طلوع الفجر عند الشافعي وهما عشر من ذي الحجة عند أبي حنيفة، وعند مالك جميع ذي الحجة. فمن قال بتسع أراد الأيام، ومن قال بعشر أراد الليالي، فمن أحرم قبلها لم يجز عند الشافعي كالدخول في الصلاة قبل الوقت، وعند أبي حنيفة ومالك يجوز. ودليل الشافعي تخصيص صحة الحج بهذه الأشهر كاختصاص الصلاة والصيام بأوقاتها والله أعلم. وجمعهما باعتبار الأوقات أو لأن أقلّ الجمع اثنان لأن اسم الجمع يشترط فيه ما وراء الواحد بدليل ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التّحْريم: 4] هذا ما قيل.

واعلم أن المراد من الأشهر الأهلّة كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البَقَرَة: 189] فحينئذ يستغنى عن هذا التكلف المتقدم أو لتنزيل بعض الشهر شهرًا.

﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ أي فمن أوجب على نفسه فيهن الحج بالإحرام والتلبية أو سوق الهدي عند أبي حنيفة وبالنية عند الشافعي، وهو دليل على ما ذهب إليه الشافعي من أن من أحرم بالحج لزم الإتمام ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ أي الجماع والفحش من القول ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ أي خروج عن حدود الشرع بالمعصية ﴿وَلَا جِدَالَ﴾ أي المخاصمة مع الرفقاء والخدم والمكارين ﴿فِى ٱلْحَجِّ﴾ بأن يقول البعض: الحج اليوم ويقول الحج غدًا ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ﴾ [البَقَرَة: 197] أي إحسان وطاعة وإنما نهى عن المذكورات في الحج مع أنه واجب الاجتناب في

كل الأوقات لأن الإثم فيه أتم لإبطالها في الحج ولكونها مذمومة مستقبحة كلبس الحرير في الصلاة والتطريب بقراءة القرآن ولأنه خروج عن مقتضى الطبع، مع أنَّ المنهيَّ في الآية وهو الرفث والفسوق والجدال لا في نفسها لقوله عليه السلام: «**من حجَّ ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه**» حثّ على الخير عقب النهي عن الشرّ بأن يستعملوا مكان الرفث الكلام المحسن، وفي مكان الفسوق التقوى، ومكان الجدال الوفاق والتجنب عن الشقاق والنفاق ﴿يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ أي الخير فيجازيه آجلًا وعاجلًا، خبر الموصول المتضمن للشرط ولا جرم ﴿وَتَزَوَّدُوا۟﴾ أي خذوا الزاد والتقوى إذا عزمتم في السفر سيّما الحجّ، نزل فيمن يقصد الحج ويقول: إنَّا نتوكل في زيارة بيت الله وحجّه فإنه يطعمنا، فأمرهم بالتزود لئلا يكونوا كلًّا على الناس، أي خذوا زادكم في السفر سيّما للحج والعمرة، أو ما يكفيكم من السؤال واتّقوا الاستطعام من الخلق ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ وكفُّ النفس من سؤال الزاد عن الناس فاجعلوا التقوى زاد الآخرة والطعام زاد الحج والعمرة ﴿وَٱتَّقُونِ﴾ خافوني واحذروا من عقابي ﴿يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البَقَرَة: 197] فإنَّ نصَّة اللّب ونتيجة العقل جنسية والإبقاء منه والتجافي عن كل شيء سواه إليه، فإن مقتضى العقل الصريح ومرتضى النظر الصحيح هو إيثار ما يبقى على ما يفنى.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾﴾

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ إثم وحرج في موسم الحج ﴿أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي عطاءً ورزقًا وتفضيلًا وهو النفع والربح في التجارة في الحج، كان ناس من العرب في الجاهلية يتأثمون التجارة في أيام الحج وإذا دخل العشر كفوا عن البيع والشراء فلم يقم لهم سوق، فلما جاء الإسلام سألوا عنه فنزلت ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ﴾ أي رجعتم ووقفتم أنفسكم من أفاض الماء إذا كثر وسال من جوانبه من الوقوف بها بعد غروب الشمس وهي علم للموقف دليل على أن

الوقوف بعرفة واجب لأن الإفاضة لا تكون إلا بعد الوقوف بها لقوله عليه السلام: «**الحج عرفة فمن أدرك العرفة فقد أدرك الحج**»، ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ بالتلبية والتهليل والتكبير والدعاء ﴿عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ بالقرب منه والمراد منه المزدلفة، وسمِّي بها لأن آدم عليه السلام لما أُهبط وقع بالهند وحواء بجدة فيطلبها فوجدها بعرفات واجتمع بها فيها يوم عرفة فيها ودنى منها، أو لأن فيها الجمع بين الصلاة بين المغرب والعشاء في وقت واحد.

﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ أي أرشدكم لدينه ومناسك حجه وعلمكم كيف تذكرونه فلا تعدلوا عنه في إتيان مناسك حجّه ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي الهدى ﴿لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [البَقَرَة: 198] أي الفاقدين للهدى، الجاهلين بعبادة الله تعالى وذكره لا يعرفون كيف يذكرونه ويعبدونه، وهي إن المخففة من المثقلة بقرينة اللام، نزلت حين كان قريش وأتباعها يقفون بالمزدلفة ولا يخرجون إلى عرفات ترفعًا على الناس قائلين بأنا نحن أهل الله وسكَّان حرمه لئلا يساويهم في الموقف ويشاركهم فيه والناس من أهل اليمن وغيرهم يقفون خارج الحرم بعرفات ويفيضون منها، فأمر الله لهم أن يقفوا حيث يقف الناس ويفيضوا من حيث يفيضون.

﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٩٩﴾

﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ [البَقَرَة: 199] أي من عرفاتٍ.

قال علي كرَّم الله وجهه: بعث الله تعالى جبرائيل إلى إبراهيم عليه السلام فحجّ به حتى إذا أتى عرفات قال: عرفت، وكان قد أتاها قبل ذلك فسمِّيت عرفات، فقيل للموقف عرفات وليوم الوقوف عرفة.

قال بعضهم: لما أذَّن إبراهيم عليه السلام في الناس فأجابوا بالتلبية فأتاه من أتاه، أمر الله تعالى أن يخرج إلى عرفات ونعته له، فخرج فلمَّا بلغ الشجرة استقبله الشيطان فرده فرماه بسبع حصيات يكبِّر مع كل حصاة فطار فوقع على الجمرة الثانية فرماه وكبَّر فطار ووقع على الجمرة الثالثة فرماه وكبَّر، فلما رأى أنه لا يطيقه ذهب. فانطلق إبراهيم عليه السلام حتى أتى، ذا المجاز فلما نظر إليه لم

يعرفه فجاز وسمي ذا المجاز ثم انطلق حتى وقف بعرفات فلما نظر إليها عرفها بالنعت فقال: عرفت، فسمِّي عرفات واليوم عرفة، حتى إذا أمسى ازدلف، جُمِع فسُمِّي المزدلفة.

قال ابن عباس: إنما سمِّيت تروية وعرفة لأن إبراهيم عليه السلام رأى ليلة التروية في منامه أنه أُمر بذبح ابنه فلما أصبح روى يومه أي تفكَّر أمن الله هذا الحلم أم من الشيطان، ولذا سميت تروية. ثم رأى ليلة عرفة ثانيًا فلما أصبح عرف أن ذلك من الله تعالى فسمِّي يوم عرفة. والبعض أن آدم عليه السلام لما أمر بالحج بوقفة بعرفات يوم عرفة، فعرف ذنبه فقد كرمته فقال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: 23] الآية.

﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ﴾ هنا من جاهليتكم في تغيير المناسك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن تاب عن ذنبه ﴿رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: 199] للحاجّ بقبول دعائه ويستحب ندائه. قال عليه السلام: «**اللهمَّ اغفر للحاجّ ولمن استغفر للحاجّ**». روي أن النبي ﷺ أمر أبا بكر أن يخرج بالناس جميعًا إلى عرفات فيقف بها، وروي أن الله تعالى يباهي الملائكة بأهل عرفات ويقول: «**انظروا إلى عبادي جاؤوا من كل فجٍّ عميق شعثًا غُبرًا، اشهدوا أني غفرتُ لهم**».

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾﴾

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ﴾ أي فرغتم من أداء أمور الحج، جمع منسك وهو المذبح ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي أكثروا ذكره وبالغوا في ذلك الموقف ﴿كَذِكْرِكُمْ﴾ أي كما تذكرون ﴿ءَابَآءَكُمْ﴾ وتبالغون في ذكر مفاخرهم بكم. وإنما أمر الله إياهم بذكره والمبالغة به لأن ذكره ثمراته باقية وذكره غيره فانٍ مع أنه يتضمن الوبال والنكال ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ أي اذكروه ذِكرًا أشد من ذكركم آبائكم إما عطف على كم في ذكركم أو منصوب على أنه صفة مفعول مطلق ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ﴾ أي بعض الناس إشارة إلى اختلاف أغراض الناس في الذّكر فإن منهم من

يطلب بذكره الدنيا ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا﴾ إبلًا وغنمًا وبقرًا وعبيدًا وإماءً وحذف المفعول للتعميم ﴿وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ أي من نعيم الآخرة وثوابها ﴿مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البَقَرَة: 200] من حظ يسير ونصيب قليل نزير.

تأويل وإشارة

الحج هو الجمع الكمالي في الأدوار الأربعة الفرعية النورية الوجودية والكمالي الجمعي في الأكوار المربعة الظلية الشهودية، أو الجمعية الحاصلة في نهاية السير إلى الله ومن الله ومن الناسوت إلى اللاهوت، ومن اللاهوت إلى الناس والناسوت. وهاتان الجمعيتان ربما يجتمعان للعارف في آن واحد في شهود التجلي الذاتي بالعنوان الجمعي والصنوان المعيّ، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحَديد: 3] هذا هو العيد الأكبر ﴿رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ [المَائدة: 114] الآية.

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ أي أطوار معدودة وهي طور السّر الفؤادي والروحي، والطور الخفي الحقي يؤدى فيها حجّ الإفراد والقران والتمتع ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ الوصول إلى المحبوب وحصول زيارة بيته وهو القلب الطور عند جمعية همه ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ [البَقَرَة: 197] أي لا يميل إلى نساء النفس ولا يصل بمقتضياتها من شهوات الحس لا ظاهرًا ولا باطنًا ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ أي لا يخرج من مقام الجمعية والتفرقة ﴿وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ أي ولا تشتغل بالقوة النظرية والعلوم الجدلية ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ﴾ أي ما يشغلك من الخلق إلى الحق من العلوم والإدراكات الحقيقية والاعتقادات والعبادات البدنية والنفسانية المقرونة بالإخلاص ﴿يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ لأنه معه وعند ذي الإدراك والعمل بل ظهوره وتجلّيه له بصورتهما ومرآتهما إذ لا أثر ولا وجود للغير ﴿وَتَزَوَّدُوا۟﴾ فأنّي زادكم وجلّ مقصودكم بل كل أمنيتكم ومرادكم فلا تحتاجوا إلى غيري ولا تقصدوا سواي في جميع الأحوال ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي الحذر من الالتفات إلى غيري ووقاية قلبك عما سوائي ﴿وَٱتَّقُونِ﴾ [البَقَرَة: 197] أي فاحذروا في جمع الجمع مني.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ في السير من الله عند التوجه إلى جمعية كعبة النشأة الإنسانية فإنها وإن كانت ظاهرها يحصل فيها الحج الأكبر إلا أنها هي الكعبة العظمى يحصل فيها الحج الأكبر ﴿أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا﴾ على ما حصل لكم في السير إلى الله ومن الله لأن هذا تفصيلي وذاك إجمالي. وها هنا مقام ثالث فاضل عليهما وهو جمعيتهما لا رجحان أحدهما في نهاية السير إلى الله ومن الله، والثالث هي السير في الله وبالله وهي الحج الأكبر لاجتماع الحجين فيه ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ﴾ أي من الواحدية في السير من الله ومن الطور القلبي في السير إلى الله ﴿فَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البَقَرَة: 198] وهو مرتبة جمعية الذات والأسماء الذاتية باعتبار الكلية الإجمالية والتفصيلية في مرتبة النفس المطمئنة فاذكروه كما هداكم في مقام ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعرَاف: 172]، ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [البَقَرَة: 198] في الفناء بالله أو المرتبة البشرية عند اختفاء آثار أنوار الكمال الجمعي النوري الجمالي التفصيلي الإجمالي عند استيلاء جمال السلطان الجلال، فإن المرتبة البصرية متفاوتة الأطوار في الظهور والبروز، فظاهر عند العارف كما أشار إليهما النبي عليه السلام بقوله: «**وإني لأستغفر الله في كل يوم مائة مرة أو سبعين مرة**»، «**لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل**».

مطلب قاله علي رضي الله عنه وكرّم الله تعالى وجهه

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ خطاب إلى الفرق الضالين والمجذوبين الغير السالكين، والناس هم السالكون المجذوبون، السالك والسالكون الغير المجذوبون ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا ٱللَّهَ﴾ في التردد في النشأة ومراتب التنزلات ومنازل الترقيات ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ للأولين ﴿رَّحِيمٌ﴾ [البَقَرَة: 199] للآخرين.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ﴾ في السيرين ﴿فَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ﴾ في المرتبة الجامعة بينهما أي الذات الجامعة لجميع الأسماء والصفات المحيطة بكل النشآت في تمام الدورات الغير المتناهية ﴿فَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ﴾ في هذه المرتبة الجامعة ﴿كَذِكْرِكُمْ﴾ في السير إلى الله ومن الله ﴿ءَابَآءَكُمْ﴾ أي الأسماء الإلهية والمبادئ العالية ﴿أَوْ

﴿أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ وأشد ثباتًا وبقاءً.

قال الصادق عليه السلام: «الذكر ثلاثة: ذكر المريد وذكر الحبيب وذكر المنيب. ذكر المريد إيمان، وذكر الحبيب أمان، وذكر المنيب إسلام». قال أيضًا: «ذكر العام وذكر الخاص وذكر الأولياء، ذكر العام لبطونهم وأهوائهم، وذكر الخاص لفاقتهم، وذكر الأولياء لعبودتهم»، وأيضًا: «ذكر الأولية والأخرويَّة والباطنية والظاهرية»، فمن ذكر أولية وجد الوحدانية من ذكر الآخرية نزل في الفردانية، ومن ذكر باطنيته نزل في الموات.

﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ﴾ قولًا استعداديًّا حين الحج ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي في واحد من السيرين ﴿حَسَنَةً﴾ حظًّا كاملًا ونصيبًا هاطلًا ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ في السير في الله ﴿مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البَقَرَة: 200] وإنما سمَّاها لكونها أدنى منه واستخرج باقي المناسبات بسائر المناسك.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾

﴿وَمِنْهُم﴾ أي من المؤمنين ﴿مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي التوبة والمغفرة والعلم النافع والعمل الصالح الرافع والصحة والكفاف من الرزق الطيب والتوفيق في الخير ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البَقَرَة: 201] يعني الثواب والجنة والتجلي الذاتي والأسمائي والأفعالي والآثاري وكمال جمعيته وتمام معيته ووفور تطورها وتنوعها فإنهما لا تتناهى. وعن علي كرم الله وجهه: «الحسنة في الدنيا المرأة الصالحة الحور العين أو الحوراء». الحور جمع أحور وتأنيثه حوراء.

وقيل: في الدنيا حلاوة الطاعة وفي الآخرة لذَّة الرؤية والمشاهدة التي تحصل بعد الموت الإرادي أو الطبيعي. أما الموت الإرادي فهو إنما يكون في الدنيا ممن حصَّل المشاهدة والشهود في الدنيا يحصل في الآخرة، ومن لم يحصل له في الدنيا لم يحصل له في الآخرة لأن الدنيا مزرعة الآخرة ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: 72].

عن أنس: أن النبي ﷺ قال لمريض: «**قل اللهمَّ آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة...**» إلخ، فدعا الله فشفاه.

﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البَقَرَة: 201] احفظنا من عذاب النار وأوفر عنا بالعفو والمغفرة أو مما يفضي إليه من الشهوات والذنوب. وقيل: المرأة السوء والسليطة وهي في الواقع حية كما قيل: المرأة السليطة حيّة تسعى ما دامت حيّة تسعى، أو كل ما يبعد العبد عن الحق.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٢٠٢﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي الفرق الأول والثاني أو كلاهما أي الدّاعون بالحسنتين ﴿لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ﴾ [البَقَرَة: 202] من الدعاء، وكسب لأنه عمل من الأعمال المكتسبة أو من جنس كسبوا من الأعمال الحسنة وهو الثواب الذي هو المنافع الحسنة، أو من أجل ما كسبوا كقوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ﴾ [نُوح: 25] ولهم نصيب مما دعوا به فإنَّا نُعطِهم منه ما يستوجبونه بحسب مصالحهم في الدنيا واستحقاقهم في الآخرة. ثم حثّهم على أعمال الخير وحذَّرهم بالموت لأن الجزاء والحساب إنما يكون بعد الموت ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [البَقَرَة: 202] أي بادروا إكثار الذكر وطلب الآخرة فإنه يحاسب العباد على كثرة أعمالهم وطول أعمارهم أقلّ من لمح البصر، وفي الخبر: «**أن الله يحاسب في قدر حلب شاة**» يعني يعرف الله عباده مقادير الجزاء على أعمالهم ويذكرهم ما قد نسوه ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ﴾ [المجادلة: 6].

﴿۞ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٠٣﴾

﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾ [البَقَرَة: 203] أي كبّروه في أيام التشريق وهي يوم النحر ويومان بعده خلف الصلاة وفي المجالس وعلى الفرائش والفسطاط والطريق ويكبّر علي كرم الله وجهه من صلاة يوم عرفة إلى صلاة

العصر من آخر أيام التشريق أو من صلاة غداة عرفة إلى صلاة العصر من آخر أيام النحر، وهما عند أبي حنيفة وصاحبيه أو من ظهر يوم النحر إلى صلاة العصر من آخر أيام التشريق. وعند الشافعي من صلاة ظهر يوم النحر إلى صلاة الفجر من آخر أيام التشريق. وعند الشافعي اقتداء بالحجيج لأنهم يقطعون التلبية ويأخذون في التكبير يوم النحر في صلاة الظهر والصبح من آخر أيام التشريق آخر صلاة يصلِّيها الحاج بمنى والناس لهم بيع وفسق.

التكبير: الله أكبر الله أكبر ثلاثًا تترى عند الشافعي، واثنان عند أبي حنيفة.

﴿فَمَن تَعَجَّلَ﴾ طلب الخروج من منى ﴿فِى يَوْمَيْنِ﴾ بعد النحر ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في تعجيله في سفره في اليوم الثاني ﴿وَمَن تَأَخَّرَ﴾ التقريب من اليوم الثاني إلى الثالث فيرمي الجمار ثم ينفر مع الناس ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في التأخر وهو مذهب الشافعي والصاحبين. والرمي في اليوم الثالث يجوز تقديمه على الزوال عند أبي حنيفة دون الشافعي وتكرير نفي الإثم يدل على التخيير في التعجيل والتأخير وإن كان التأخير أفضل فلا بأس في التخير بين الفاضل والأفضل كما خيّر المسافر بين الإفطار والصوم، والصوم أفضل على الجاهلية فإن منهم من يجعل التأخير إثمًا ومنهم بالعكس ﴿لِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [البَقَرَة: 203] أي ذلك التخير الإثم عنهما لأجل الحاجّ المتقي قتل الصيد في أيام التشريق بطريق ذلك ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ [الرُّوم: 38] لاختصاص الاتباع بهم دون مَن سواهم أو معاصيَ الله ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ عما نهاكم عنه ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البَقَرَة: 203] فيُجاء بكم بأعمالكم.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾﴾

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ﴾ [البَقَرَة: 204] أي يروقك ويعظم في نفسك، نزل حين جاء الأخنس بن شريف إلى رسول الله ﷺ وكان حلوَ الكلام، حسن النظر، فاخر السريرة، وقال: إنما جئت أريد الإسلام، وقال: والله يعلم أني لصادق

وأحبّك، فأعجب به النبي عليه السلام وهو منافق يمرّ على زروع المسلمين فيحرقها ليلًا.

قوله: ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ فاعل يعجبك يتعلق بأمور الدنيا، أي حبّك إياها لأجل منافع الدنيا ﴿وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ﴾ في خلقه ﴿عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ﴾ من دعوى المحبة وقبول الإسلام ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾ [البَقَرَة: 204] والحال أنه أشد الخصومة والعداوة وأكثر الجدال للمسلمين. ويجوز أن يكون جمع خصم كصفق وصفاق أي أشد الخصوم خصومةً وإضافته بمعنى في نحو ثبت العدّو.

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ٢٠٥﴾

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ﴾ عاد ورجع وأدبر وانصرف عن مجلسك ﴿سَعَىٰ﴾ وجدّ واجتهد بعمل المعاصي ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا﴾ بسفك دماء المسلمين والفساد لجميع المعاصي ﴿وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ﴾ والزروع بالإحراق ﴿وَٱلنَّسۡلَۚ﴾ أي نسل كل دابة والناس منهم. عن مجاهد: إذا تولى وعمل بالظلم والعدوان أمسك الله المطر وأهلك الحرث والنسل ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾ [البَقَرَة: 205] بعمل المعاصي.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ٢٠٦﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ خفِ الله واحذر عقابه على فسادك وإفسادك ﴿أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ﴾ حملته الأنفة وحمية الجاهلية مثلّه بالإثم أو لسبب إثمه الذي في قلبه لقساته وبُعده من الله فألزمته إلى اللّجاج والعناد والتعنت فلا ينفعه النصح والموعظة ﴿فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ﴾ كافاه جزاء عذاب جهنم وهي علم دار العقاب. عن ابن مسعود رضي الله عنه: إن أكبر الإثم والذنب عند الله أن يقال للعبد: اتقِ الله فيقول: عليك بنفسك ﴿وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ [البَقَرَة: 206] الفراش والمقر جواب قسم محذوف والمخصوص بالذم محذوف للعلم به.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ
ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى﴾ أي يبيع ويستبدل ﴿نَفْسَهُ﴾ [البَقَرَة: 207] في الجهاد أو في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى يقتل. نزلت في صهيب بن سنان الرومي مولى عبد الله التيمي أخذه المشركون في رهط من المؤمنين فعذبوهم فقال لهم: إني شيخ كبير لا تضرّكم ولا تنفعكم حياتي، خذوا مالي وخلُّوا سبيلي. ففعلوا فأقام بمكة ما شاء الله فخرج إلى المدينة. قال عليه السلام: «**سيد الشهداء يوم القيامة حمزة بن عبد المطلب ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله**».

قال بعضهم: نزلت في علي بن أبي طالب رضي الله عنه بمكة حين هاجر رسول الله ﷺ وتركه في مضجعه أوحى الله تعالى إلى جبرائيل وميكائيل عليه السلام: «**إني آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول فأيكما آثر صاحبه بالحياة فاختارا كلاهما الحياة فأوحى الله عزَّ وجلَّ إليهما: أفلا كنتما مثل علي آخيت بينه وبين محمد وبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة. اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوه**» فنزلا وكان جبرائيل عند رأسه وميكائيل عند رجله، وجبرائيل ينادي: بخ بخ مَن مثلك يا علي بن أبي طالب إن بك يباهي الله الملائكة، فأنزلها الله. عن ابن عباس: نزلت في علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ أي طلبًا لمرضاة الله ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البَقَرَة: 207] كثير الرحمة والرأفة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟
خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ﴾ [البَقَرَة: 208] ولهذا يطلق في الصلح والإسلام نزلت في مؤمني أهل عبد الله بن سلام وأضرابه بكسر السين والفتح الاستسلام والانقياد وذلك بأنهم عظّموا السبت وكرهوا لحمان الإبل وألبانها بعدما أسلموا وقالوا: يا رسول الله التوراة كتاب الله تعالى فدعنا فلنقم

بها في صلاتنا بالليل، فأنزل الله ﴿كَآفَّةً﴾ اسم للجملة لأنها تكف الأجزاء من التفرقة حال من الضمير أو السلم لأنها تؤنث كالجواب أي ادخلوا في الإسلام بكليتكم ولا تخلطوا به غيره ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ بالتفريق والتفرق بتحريم السبت ولحم الإبل وغيره ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [البَقَرَة: 208] ظاهر العداوة أي لا تتبعوا طرقه التي يدعوكم إليها ليصرفكم عن سواء السبيل.

﴿فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٠٩﴾

﴿فَإِن زَلَلۡتُم﴾ أي نلتم منه المراد وهو الميل إلى السقوط ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ الحجج الواضحة على ما دعاكم إليه محمد ﷺ وهو حق ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البَقَرَة: 209] غالب بالنقمة لا ينتقم إلا بالحق والعدل الذي هو من الحكمة وأثره هو الحكم على ما هو عليه في الواقع أي يقتضيه الحال. روي أن قارئًا قرأ: (غفور رحيم)، فسمعه إعرابي فأنكره وقال: إن كان هذا الكلام كلام الله فلا تقول كذا الحكيم إذ لا يذكر الغفران عند الزلل لأنه إغراء عليه. لا يقال: هذا ينافي قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزُّمَر: 53] لأن هذا وعد بعد وقوع الإسراف إظهارًا لكمال كرمه ووفور رأفته وذلك وعيد يترتب على مخالفة الحق الواضح بالآيات الظاهرة والأمارات الباهرة فإنها خارجة على قضية العقل الصريح والنقل الصحيح والله أعلم. قرأ بكسر اللام نحو: خليت وخللت.

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٢١٠﴾

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾ استفهام في معنى النفي ولذا قرن به الاستثناء هل ينظرون النار، كون الدخول في السلم كافة والمتبعون خطوات الشيطان ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البَقَرَة: 210] أي إلا إتيان بأس من الله وقضائه بالعذاب في الدنيا أو يوم القيامة أي ما ينظرون ولا ينتظرون بترك الدخول التام في الإسلام إلا إتيان بأس الله

وقضائه بالعذاب يعني أن جزاءهم المرتب على ترك الدخول في الإسلام مقصور على إتيان بأس الله وعذابه فلا ينتظرون في مقام المجازات ﴿فِي ظُلَلٍ﴾ جمع ظِلةٍ وهي الظلّ ﴿مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ أي الغيم صفة ظل وهو السحاب الأبيض الرقيق فيه إيذان بشدة العذاب لأن الغمام مطية الرحمة فإذا أنزل منه العذاب كان حينئذ أصعب لأنه من حيث لا يحتسب كالصاعقة حيث يرتجي الغيث. قيل: هي كهيئة الضبابة البيضاء وإنه غير السحاب ولم يكن إلا لبني إسرائيل في تيههم. عن النبي ﷺ: «**من الغمام حافات يأتي الله عزَّ وجلَّ فيه محفوف بالملائكة**»، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ عطف على الله أي يأتيهم ليقبض أرواحهم، قرئ بالجر عطفًا على الغمام وجعل في بمعنى الباء بمعنى مع وبعض من المفسرين على أنه نزل الآية على الظاهر وجعل الإتيان الانتقال من مكان إلى مكان بلا كيف بمعنى لا يطلع عليه قوة البشر وهذا توهم بالتجسيم وبطله. قال أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه: مَن زعم أن الله تعالى من شيء أو في شيء أو على شيء فقد ألحد لأنه لو كان من شيء لكان محدودًا محدبًا، ولو كان في شيء لكان محصورًا، ولو كان على شيء لكان محمولًا محدودًا».

واعلم أن الإتيان والانتقال إنما يدل على الحدّ والتجسيم إذا كان الانتقال بالحركة النقلية، أما إذا كان بالحركة العقلية كانتقال الفعل من المطلوب إلى المباديء ومن المبادىء إلى المطلب التصوري أو التصديقي فلا يجوز أن يكون إتيان الحق وانتقاله كانتقال العقل في الموضوعات والمبادىء التصورية والتصديقية فلا يلزم ما ذكر.

﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي أمر إهلاكهم وتدميرهم، وقرئ: (وقضاء الأمر) على المصدر المرفوع المعطوف على الملائكة ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [البَقَرَة: 210] معلومًا ومجهولًا.

﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾﴾

﴿سَلْ﴾ يا محمد أمر الرُّسل ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [البَقَرَة: 211] أو كل واحد من ذوي الألباب، هذا السؤال سؤال تقريع كما يسأل الكفرة يوم القيامة ﴿كَمْ

﴿ءَاتَيْنَٰهُم﴾ أعطيناهم، يحتمل الاستفهامية والخبرية منصوبة ومرفوعة على الابتداء على حذف العائد و﴿مِّنْ ءَايَةٍ﴾ مميزها ومن للفصل فالاستفهامية للتقرير ﴿مِّنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ بيان لهما وهي مثل العصا واليد البيضاء وفلق البحر وغيرها ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ بغيرها لأن الله أظهر الآيات فيكون أسباب هدايتهم فجعلوها أسباب ضلالتهم فزادتهم رجسًا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون أو حرفوها من كونها دالّةً على حقيقة دين محمد إلى ما يناسب أغراضهم الفاسدة ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ﴾ ووصلت إليه وتمكن هو من معرفتها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [البَقَرَة: 211] بمن غيَّر نعمته ولم يؤدِّ شكرًا، نزلت في شأن المنافقين أو المشركين.

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي حسِّنت الدنيا وزخرفها في أعينهم وأشربت محبتها في قلوبهم حتى تهالكوا عليها وأعرضوا عن غيرها، والمزين هو الله إذ لا تأثير ولا فعل إلا لمن وجب وجوده وامتنع عدمه وفناؤه، فمن لم يكن وجوده وبقائه من نفسه وذاته لا يكون له فعل، ومن قال إنه الشيطان فقد غفل عن هذا الستر ويؤيده قراءة بناء الفاعل. نعم يسند بالمجاز إلى الشيطان والقوة الحيوانية وما خلق الله فيها من الأمور الهنية للأشياء البهية لكونها أسبابًا ظاهرة ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي يجعلوهم سخريًّا وهزءًا وهم فقراء أهل الإسلام كعبد الله بن مسعود وعمار وبلال وصهيب وغيرهم ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [البَقَرَة: 212] من الشرك والنفاق وأطاعوا الله قومهم يوم القيامة ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ [المطففين: 18، 19] اشتغلوا عليهم عند الله في الدنيا بأن الله أخبر في كتابه الكريم عن علو شأنهم وأمر الرسول بمجالستهم ونهى عن طردهم باستدعائهم إياه عن الرسول ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ [الأنعام: 52] وأمره بالصبر على مجالستهم بقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ [الكهف: 28]، وأما في الآخرة

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: الآيتان 13، 14] وإنما أردف الإيمان بالتقوى دليلًا على أن الاستعلاء معلل بهما، وفي العطف إيذان بأن كلًّا منهما في حصول السعادة كاف وأن التقوى وهو أخص من الإيمان ووجودًا لا يوجد بدونه فالتقوى أفضل وأكمل والإيمان أشرف وأعلى وأجمل ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البَقَرَة: 212] في الدارين.

إشارة وتأويل

ومنهم من أعيان الأدوار النورية الوجودية من يقول: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي أرنا في السير من الله في التنزلات في الشهود العيني ﴿وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ أي في السير إلى الله سر سير ذلك الشهود عند الترقيات أو أرنا كيفية تلبس المعاني العينية بملابس الصور العينية لتجليات الجمال واختفاء الصور العينية في مجال المعاني باقتضاءات الجلال، أو أشهدنا كيفية كون الوجود كوريًّا في التنزلات والسير دوريًّا في الترقيات لأعاين سر التنزيل إلى النهايات والعود إلى البدايات حيث ينقطع الكلام وتسكن حركة اللّام وتمحى نقطة العين وينوب الواحد عن الاثنين، أو أشهدنا في الدنيا سرَّ العبودية وأنوارها، وفي الآخرة في مقام المجازات أسرار الربوبية وأزهارها ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البَقَرَة: 201] أي نار التحسر في فقدان هاتين الحسنتين، أو المراد بالدنيا هو السير من الله وإلى الله، وبالآخرة هو السير في الله.

﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾ في السيرين في النشأة من شهود تطور الشؤونات ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [البَقَرَة: 202] فيما شاهدوا في هذه النشآت من أطوار التجليات في الأدوار الكلية والجزئية العظمى والكبرى والوسطى والصغرى ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ أي في مراتب التنزلات والترقيات في الدورات باسمه الأعظم وهو الله الجامع للكل ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ أي في مرتبتي الصورة والمعنى قبل استكمال ما فيهما من أعيان المراتب وما يترتب عليها من الكمالات اللائقة لها كما هو شأن المجذوبين، ومن تأخر بالجزية من بعد استبقاء المناسك في المنازل والمناسك كما هو شأن السالكين المجذوبين ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البَقَرَة: 203] التخير في التردد في النشآت ليحصل له شرائط

الوصول في النشأة الكاملة والمرتبة الجامعة الشاملة.

قال رضي الله عنه: إن الله تعالى دعانا إلى الخلوة وفتح علينا بابه بالذكر فمن تعجل بالخروج إلى النشأة الإنسانية إلى خلوته أو تأخر الاستعداد ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ﴾ لأن الخلوة منازل المشيئة مع الله والفناء فيه لمن اتقى من الموانع ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البَقَرَة: 203] حشرًا طبيعيًّا دفعيًّا كما هو مقتضى ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٖ مِّنْ خَلْقٖ جَدِيدٖ﴾ [ق: 15] أو تدريجيًّا اختياريًّا كما هو في القيامة الأنفسية واضطراريًّا كما هو في القيامة الآفاقية.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ من الأعيان النفسية والأكوان الحسية ﴿مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ﴾ [البَقَرَة: 204] وكلماته عند التوجه إلى القلب بالقلب أو المراد منهم أرباب القوى النظرية المستخدمة للقوة الوهمية والعملية، هذا طور الأنفس. وأما طور الآفاق فإشارة إلى الذين يدعون إلى الأصول ويتشطحون مباهين بالطامات مفتخرين بإظهار الكمالات، إياك وتقربهم أيها الطالب فإنهم عطّالون بطّالون يدعون التحقيق والإرشاد والتكميل وهم في أنفسهم ناقصون ليس لهم كمال ورشد فضلًا عن الإرشاد والتكميل إياك والتقرب منهم فإنهم ضالُّون مضلُّون كذّابون، كل مدّع كذاب ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ﴾ وأعرض عن طور القلب ومدينة كور الغيب إلى مدين النفس والبدن ﴿سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ أي في أرض الاستعدادات الأزلية ﴿وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ﴾ حرث المعارف الفطرية وتبع موادَّ النتائج الفكرية الصابئة بالتلبيس في المقدمات التي بعضها بمنزلة الأب والآخر بمشابهة الأم، ويشكل الباطل منها بشكل الحق وبالعكس ويعرض النتيجة الباطلة على الفعل فيتلقى منها على صورة الحق أو إذا بعد هؤلاء السالكون الناقصون عن حضرة المرشد الكامل المكمل.

﴿سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي أرض استعداد الطالب الصادق ﴿وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ﴾ أي المعارف الفطرية ﴿وَٱلنَّسْلَۗ﴾ [البَقَرَة: 205] أي التجليات الإلٰهية والشهودات الأولية. قال صاحب «العرائس»: حسنة الدنيا معرفة الله وطلب مرضاتِهِ بترك الاشتغال في الدنيا بالأشغال الشاغلة عن الله وحسنة الآخرة مشاهدته تعالى والاشتغال به عن نعيم الدنيا حرام على أهل الأرض والآخرة حرام على أهل

الدنيا وهما حرامان على أهل الله تعالى. وأيضًا حسنة الدنيا المواجيد السرمدية، وحسنة الآخرة الشكر بمشاهدة الحق جلَّ ذكره، أو حسنة الدنيا الذكر الصافي، أو حسنة الدنيا هي التجليات النورية الوجودية الجلالية، وحسنة الآخرة هي الخلوات الظلية الجلالية والعلوم النظرية والرسوم الفكرية والأحوال والمقامات القلبية والمشاهدات العينية وشهود التجليات الإلٰهية والكمالات الجمعية والظهورات والبروزات وغير ذلك. والنفس الزكية وحسنة الآخرة ما يتبعه من الأنوار والتجليات والفناء والبقاء.

﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البَقَرَة: 201] الحجاب الظلماني أو نار التحسر والندامة أو نار القطيعة التي توقد على الأفئدة ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ [الهُمَزة: 6، 7]. قال الصادق رضي الله عنه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ﴾ [البَقَرَة: 204] من هرب من الذلّ فكأنما هربَ من الله، ومن هرب من العز الإلٰهي فقد أهلك الحرث والنسل وتوجهت القطيعة عليه، من هرب من عزّ الدنيا ونعيمها فقد استمسك بالعروة الوثقى وهي العصمة والرأفة والمولى، وإذا قيل له: اتق الله أي لمن تقيَّد في درجة العقل بالقوة النظرية أو لمن ادعى الإرشاد والتكميل وهم ناقصون أخذته العزَّة والحمية الجاهلية والعار والأنفة مدّعين بأنَّا كاملون لا يخفى علينا شيء في الأرض ولا في السماء وهم يحسبون أنهم على شيء ألا إنهم لكاذبون استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ [المجَادلة: 19] في الدعوى الباطلة، فحسبه جهنم أي نيران التبعُّد والقطيعة عن المقامات العالية والدرجات الرفيعة إذ من احتجب بسوء عمله وفساد رأيه لكمال جهله من الله ومن شرف صحبة أوليائه فهو في العذاب الأكبر حيث طرف الرشاد وكنف الرشد والتكميل والإرشاد ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: 17].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البَقَرَة: 208] أي ادخلوا في المرتبة الجمعية والكلية الإحاطية في السير في الله فإنها حال الكل ومرجع جميع السّبل ودار السلام وغار الأمن والأمان ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: 25]، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ [البَقَرَة: 208] أي

الطرق المتعددة والسبل المتعدية عن صراط الحق ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يُوسُف: 108].

قال الصادق رضي الله عنه: أيها المتبحر بمعبودك على بساط الافتخار عند كمال الافتقار والانتهال لدى الانقطاع عن الأعداء لأنهم ليسوا بمسلطين عليك. قال في «العرائس»: ادخلوا في قباب اعتصام الحق بنعت الاستفادة حتى تصيروا ساكنين تحت محاذي الأقدار راضين في حقيقة الاختيار، معرضين عن الكائنات، مبصرين غيوبات الملكوت، شاهدين أنوار الجبروت، متعادين لأحكامه القديمة، متأهلين لذبح النفوس طلبًا لمرضاته وشوقًا إلى لقائه وتجلياته. وقيل: السلم هو الرضاء بالقضاء أو الاتباع بالأوامر والانتهاء عن النواهي. قال بعضهم: هو الخمود تحت مجاري القدر لك أو عليك.

﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [البَقَرَة: 209] متفرع علة السابق الزلة هي السقوط عن رتبة القربة لانتفاء شرائط الاستكمال كما وقع لإبليس ومن يحذ حذوه فإن من عرف الحق بنعت الألوهية وصفة الربوبية فقد رجع إلى ورطات نفسه بالإعراض عن لذَّة النسبة وحضرة قدسه استوجب أكمل العقوبة لإشراكه بالله ولم يؤمن من نقمة الحق إلا ما عاش، وكان في كمال ظاهر العبودية طاش وفي المعارف النظرية ناش وحاش وجاش وتفكّر وعاش عيشًا طيبًا رغدًا صيّبًا.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البَقَرَة: 210] إشارة إلى العقوبة المعنوية الروحانية في المحشر العظمى آفاقيةً كانت أو أنفسيةً ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّۗ﴾ [فُصِّلَت: 53] يتجلى الله ويظهر بجميع أسمائه وصفاته على عباده المخلصين فهم يشاهدون وجه الله ولقائه بلا حجاب معاينة من غير ثقات محيطًا بهم إحاطة تامةً ويأخذهم من أنفسهم أخذًا وبيلًا بحيث لم يبق منهم أثر من الوجود ولا علم ولا يصير وقت الشهود فيشاهدون الحق بعينه وبصره ويعلمه بعلمه ويبقى ببقائه. وأما مَن عداهم فعلى أنحاءٍ كثيرة وأرجاء غفيرة، فمنهم عند النداء الإلٰهي والصداء الأولي: يا عبادي انظروا إليّ لعلكم تتذكرون، فمنهم من يرفع رأسه لينظر إليه فإذا هو أعمى ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: 124].

ومنهم من ينظر إليه وتتراءى حال الناظر متلبسًا حجاب غمام القوة النظرية وسحاب القوة العملية أنه يأتي إليه في ظلل من الغمام الذي كان الرأي متلبسًا به وهم في هذه الحالة يعلمون أحوال السابقين مع الله وكانوا يسعون أن يرووا الله ويشاهدوا بعين العيان بلا حجاب ولا تيسَّر لهم فهم، والحالة هذه يعذبون بنار إلٰهية موقدة في مجمر القلب يخطب ما كان في الصدر من الصفات البشرية والهيئات والتشكلات الحسية ومن آثام الأمنية وطول الأمل وفساد النية، وكدائر الطوية ولوازم الماهية وخصائص الهوية الشخصية ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ [الهُمَزة: 6، 7]. ومنهم من يكون في درجة الأشقى ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى: 12، 13] وغير ذلك.

واعلم أن الله تعالى لكونه محيطًا بالكل يمتنع الإتيان والانتقال من مكان إلى مكان ومن جهة إلى جهة في حقه تعالى، فالذي يراه الناظر من الإتيان في الغمام ليس إلا بالنظر إلى حاله وكيفية حاله من بقايا الصفات البشرية والأحكام الإمكانية وتبدلها من الأدنى إلى الأعلى وبالعكس لأنه لما كان العبد منشأ العبد وأن ينسب اختلاف النسبة والقرب والبعد إليه لا إلى الله تعالى لكونه تعالى محيطًا بالكل تكون نسبته ونسبة الكل إليه على السواء، فإن اختلاف النسبة بين الناظر والمنظور، ولا يخلو من أن يكون منهما أو من أحدهما أو من خارجهما المتوسط بينهما كالمرآة، والسحاب المسخر بين السماء والأرض. ولا جائز أن يكون من المنظور لاستواء نسبته إلى الجميع، فتعين الثاني والثالث.

فالذي بين الناظر لصفات البشرية والهيئات العنصرية الثابتة في صحائف ديوان أعماله وصفائح طوامير أفعاله وأحواله، والذي من الخارج المتوسط هو آثار الأعمال وأنوار الأحوال. نعم يمكن أن يقال: تتمثل إرادة الحق تقريب العبد وتبعيده بالإتيان والذهاب والتوجه والآيات، فالأول يتمثل بالإتيان من جانبه، والثاني بالسقوط والإسقاط.

نعم يتمثل انحطاط النفس عن مكانة الإمكانية ورتبة الإمارية وانحطاطها وكمال توجيهها إلى الله وبعدها عما سوى الله بإتيان الحق وتوجهه إلى العبد كما وقع في الحديث القدسي: «**من تقرب إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا، ومن تقرَّب إليَّ**

ذراعًا تقرَّبت إليه باعًا، ومن تقرَّب إليَّ باعًا تقرَّبت إليه هرولة». وفي حديث آخر: «**مشيت**» وهذا النوع من السقوط عين القرب والرفق.

واعلم أن الإتيان كما يستحيل بالنسبة إلى الله يستحيل أيضًا بالنظر إلى العبد لأن الله محيط بالعبد بجميع الجهات كالأفلاك المحاطة بالنسبة إلى فلك الأفلاك، فالإتيان والذهاب منه وإليه محال فلا بد وأن ينسب إلى صفات العبد وأفعاله وآثاره وأحواله وقد تحقق أن ليس للعبد أفعالًا ولا تأثيرًا عمَّا له بل الفاعل هو الله، ولا بد أن ينسب الكل إليه باعتبارات مختلفة وإضافات متغايرة، منه بدأ وإليه يعود ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصَّافات: 96] وقضى بالأمر بالكشف كما كانت الأشياء عليه وهو العدم الذاتي والفناء الأصلي والخلاء الأولي.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي أمور الدنيا من الظهور والإظهار والإخفاء والإسرار وأمور الآخرة من إظهار الأحوال الخفية وآثار الأعمال الإرادية والأفعال الاختيارية ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السَّجدَة: 17] وإخفاء ما كانوا عليه من أطوار الدنيا ومقتضياتها، فالفاعلية والقابلية والتكلمية والقابلية والمعبودية والساجدية والمسجودية والربوبية والمربوبية والإلٰهية والمألوهية لا يمكن أن تكون إلا بالنسب والإضافة التي ظهرت من تطور إدراك الحق ذاته بذاته على أنحاء كثيرة وطرق غفيرة كل منها مبدأ اسم وصفة له بل عينه فهو كما يجوز أن يكون الذات الواحدة عالمًا ومعلومًا، عاقلًا ومعقولًا، جاز أن يكون عابدًا ومعبودًا.

قال عليه السلام لأهل مكة: «**هل ينظرون إلا أن يأتيهم رسول الله في ظل الكرامة وأعلام النبوة بإنزال جبرائيل الأمين وقضاء الملك واستقامة الأمر تحت قدرة القادر، وتحرك الفلك**». قال الصادق رضي الله عنه: «لو كان الله الآتي لكان محاطًا والمحاط لا يستحق الربوبية، ويمكن قرب عباده إن شاء يأت إليهم في ظلل الغمام، وإن شاء ذهب بهم لأن الله قاضي السماوات ومدبرها وآمر العباد ومستقر القلوب والفؤاد». وقال الباقر: لا تنظر إلى ظاهر الآية لأن من نظر إلى ظاهرها صار كافرًا لا يسمع أن إبليس نظر إلى ظاهر نفسه فصار ملعونًا، فلو جاز أن يكون الربّ في ظلل فالظلال محيط به، ومن أحاط به شيء لا يستحق الألوهية.

﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾ قال الصادق رضي الله عنه: «الآيات ما يدلّك إلى الله، والبيّنات ما أعانك على طاعته، والنعمة ما يقرّبك إلى رحمته»، فإذا كان كذلك فـ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ التي تقربك إلى رحمته ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [البَقَرَة: 211].

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي السائرين إلى الله بما شاهدوه في مدارك سلوكهم واقتنعوا به من غير توجه إلى السير من الله وفي الله وكشف أسرار ما شوهد فيه إلى السير في الله وإلى سرّ جمعيتهما وما يترتب عليه من انكشاف سرّ اتصافه بالعابدية والمعبودية وبالكثرة والوحدة والإلٰهية والمألوهية والعبودية والربوبية ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ أي السائرين إلى الله ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي السائرين من الله إلى الله في النشأة الكلية والمرتبة الجامعة الكونية والإلٰهية ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ من خصوصية السيرين إلى شرف جمعيتهما في السير في الله ﴿فَوْقَهُمْ﴾ بحسب الإحاطة لاشتماله عليهما وعلى ما فيهما من الأدوار الغير المتناهية والنشأة المتتابعة فيهما.

قال صاحب «العرائس»: أي للذين اغتروا بها حياة الدنيا أهل الكرامة وبقبوليتهم بين الخلق بإظهارهم الفراسات والكرامات فاحتجبوا بها عن درجات المشاهدات وما سبق للأولياء من الرعايات والعنايات ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البَقَرَة: 212] أي يتهاونون أهل المواجيد الذين سبقوا بنور العصمة وغابوا في مشاهدة مولاهم. وقال جعفر: زيّن للذين جحدوا التوكل زينة الحياة الدنيا حتى جمعوها وافتخروا بها فهم يسخرون من الذين وكلوا الله وفوضوا الأمور كلها إليه ونبذوا الدنيا وما فيها وراء ظهورهم فأعرضوا عنها، وهم الفقراء الغير الراضين وإن كانوا في الظاهر أعني الخلق كان الناس أمة واحدة صيغة ممكنة متحدة أو في الطبيعة النوعية والحقيقة الحسية فلا بدَّ وأن يكون مقتضى النوع من اللوازم الذاتية موجودة في جميع الأفراد من غير تفاوت لامتناع الاختلاف في مقتضى النوع الواحد وتأثير الفاعل إنما هو على وفق مقتضى القابل، والقابل لكونه مقدمًا على التأثير لا يجوز أن يكون من الفاعل وإلا لزم الدور والتسلسل. فالاختلاف في الأفراد لا يكون إلا فيما يلزم الوجود الخارجي بتخصيص الفاعل بإرادته واختياره كل واحد منهما بنوع من الأعراض الشخصية والأحوال

المخصصة صاحبها بنوع من السعادة والشقاوة والأزلية التي قضى الله عليهم بهما بعلمه الأزلي. وتلك الأعمال والأحوال إنما هي بخلق الله وإيجاده بإرادته واختياره مشروطة بأوضاع الأفلاك ونسبة الأفلاك الحادثة آنًا فآنًا، ساعةً فساعة.

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ﴾ [السَّجدَة: 5] إلى آخر الآية، فبعث الله النبيين مبشرين بتلك السعادة ومنذرين بتلك الشقاوة فبينوا لهم أسباب تحصيل السعادة والحذر من الشقاوة وأسبابها.

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾

قال بعضهم: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ﴾ من وقت وفاة آدم إلى بعث نوح عليه السلام ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ على ملة واحدة وهي الكفر، كانوا كفارًا مثل البهائم من غير أن يكون بينهم حلّ وحرمة بل يحرِّمون الأمور بينهم على مقتضى الحيوانية ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ﴾ عزَّ وجلَّ ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أولًا نوحًا، ثم إبراهيم وغيرهما من النبيين.

قال قتادة وعكرمة: كان الناس من وقت آدم إلى مبعث نوح عليه السلام أمةً واحدة، وكان بينهما عشرون قرنًا كلهم فيهما على شريعة واحدة من الحق والهدى. عن أُبيّ بن كعب: كان الناس حين عرضوا على آدم وأخرجوا من ظهره وأقرُّوا بالعبودية والربوبية أمة واحدة مسلمين كلهم ثم اختلفوا بعد ذلك. وفي بعض التفاسير: عدد الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألفًا والرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر، والمذكور ثمانية وعشرون. قال عليه السلام: «**صلُّوا على أنبيائه ورسله فإن الله بعثهم كما بعثني**».

واعلم أن بين آدم ونوح كان إدريس النبي عليهما السلام قد أُنزل عليه الكتاب والصحف وعلم النجوم وسائر العلوم الحكمية ومنها الهندسة والحساب والموسيقى الذي يقال له علم التأليف وهو أدق العلوم الرياضية، وأحق وأقرب

إلى اليقين، وما كان في زمان إدريس شريعة سوى ما توالد من آدم إلى زمانه من الأحكام من الصوم والصلاة والنكاح وأحكام القصاص في القتل والجراح.

﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ لا يريد أن مع كل منهم كتاب من الصحف المنتشرة فإن أكثرهم لم يكن لهم كتاب يخصّهم، وإنما كانوا يأخذون بكتب مَن قبلهم، فالمراد جنس الكتاب أو العهود ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ خلاف الكتاب بالعدل والصدق ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ على بناء الفاعل والمفعول، والأول بمجاز على تقدير كون الكتاب حاكمًا، ويجوز أن يعود إلى الله أو النبي. والثاني حقيقة ﴿فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ أي الكتاب المنزل لأن آلة الاختلاف وإظهار الحق ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ أعطوا الكتاب وهم اليهود والنصارى ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي أحكام التوراة والإنجيل، كان فيها الأمر باتباع أحكام ما في هذا الكتاب المنزل على النبي عليه السلام لارتفاع الاختلاف واتباع طريق الحق، وهم عكسوا الأمر وزادوا الاختلاف واعترضوا عن الحق وحرّفوا كتابهم وقالوا نؤمن وكتموا بعثة محمد وغيره ونكفر ببعض ﴿بَغْيًۢا﴾ ظلمًا وحسدًا ﴿بَيْنَهُمْ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ببعض ﴿لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ بيان لما ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ [البَقَرَة: 213] أي علمه وإرادته.

قال بعضهم: كان الاختلاف في الصلاة فمنهم من صلّى إلى المشرق، ومنهم إلى المغرب، ومنهم إلى بيت المقدس، فهدانا إلى الكعبة، أو في الصيام فمنهم من صام بعض اليوم كالنصارى، ومنهم من يصوم بالليل فهدانا الله بشهر رمضان، أو في يوم الجمعة، فمنهم من صام يوم السبت أو يوم الأحد فهدانا الله ليوم الجمعة، أو في إبراهيم عليه السلام فمنهم من قال: كان يهوديًا أو نصرانيًا فهدانا الله فيه للحق بإذنه ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ [آل عِمرَان: 67]، ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ في الكل ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البَقَرَة: 213] دين الإسلام الذي اختلفوا فيه بعد الاتفاق قبل الانحراف والتحريف.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ ظننتم ﴿أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البَقَرَة: 214] نزلت في غزوة الخندق

حين أصاب المسلمين ما أصابهم من الجهد والشدة والبرد وضيق العيش وأنواع البلاء والأذى كما قال.

يقال: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزَاب: 10]، قيل: نزلت في حرب أُحدٍ، وبعضهم نزل حين هاجر رسول الله وأصحابه المدينة بلا مال وتركوا ديارهم وأموالهم بأيدي الأعداء طلبًا لمرضاة الله، وأظهرت اليهود العداوة بهم وأسرّ قوم من الأغنياء النفاق أم منقطعة، ومعنى الهمزة التقرير وإنكار الحسبان واستبعاده، خاطب به النبيين والمؤمنين بعد ذكر الاختلاف للأمم على الأنبياء بعد مجيء الآيات تشجيعًا لهم على الثبات مع كمال مخالفتهم لهم وإنكارهم لآياته وعداوتهم وللمؤمنين.

وفي «الكشاف»: قال لهم على طريقة الالتفات التي هي أبلغ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ وفيه ما فيه ﴿أَن تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم﴾ بمعنى لم في نقل المستقبل إلى الماضي ونفيه إلا أن فيها معنى التوقع وهي في النفي نظيرها قد في الإثبات يعني أن إتيان ذلك متوقع منتظر بعد كونه منفيًا ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم﴾ أي لم يأتكم قصة الذين سبقكم، أصلها لم ضمت إليها ما لتفيد معنى التوقع ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾ أي الشدّة والفقر والبلاء والأمراض وهي جملة استئنافية ليبين المثل ﴿وَزُلْزِلُوا﴾ حرِّكوا وأزعجوا منها إزعاجًا شديدًا بحيث لم يبق لهم صبرٌ ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ﴾ حتى استمر الانزعاج إلى أن يقول الرسول ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ﴾ عند انقطاع حبال الصبر ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البَقَرَة: 214] تنبيه واستئناف على إرادة القول، أي قيل لهم ذلك إشفاقًا لهم إلى طلبهم من عاجل النصرة، وفيه إشارة إلى أن الوصول إلى الله والفوز بكرامته إنما هو برفض الهوى ونقض القوى ونفض اللّذات والتحمل على مكابدة الشدائد ومعاندة المكائد.

قال ﷺ: «**حُفت الجنة بالمكاره وحُفت النار بالشهوات**» الحديث، قرئ حتى يقول الرسول رفعًا ونصبًا، أما الرفع فلكونه بمعنى الماضي وحتى لا تعمل في المستقبل بمعنى الماضي. وأما لنصب فظنّ، قيل: قد مات بين الطائف ومكة سبعون بلدًا من الجوع والقمل وأنه إذا سلك بك سبيل البلاء فقرَّ عيناك فإنه سلك

بك سبيل الأنبياء والصالحين، وإذا سلك بك مسلك الرخاء فعليك بنفسك فقد خولف بك سبيلهم.

قال عليه السلام: «**إنَّ أشد البلاء على الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل من الناس**»، فيتسلى على حسب دينه فلا يبرح البلاء عن العبد حتى يدعه يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة.

حكي كان وزيرًا لعيسى قد ركب يومًا فأكله السبع، فقال عيسى: يا رب رسولي في دينك وعوني على بني إسرائيل وخليفتي فيهم سلطت عليه كلبك فأكله، قال: نعم، كان له عندي منزلة رفيعة لم أجد عمله مبلغها فابتليته بذلك لأبلِّغه تلك المنزلة.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ﴾ نزلت في عمرو بن الحوج وكان شيخًا كبيرًا كثير المال قال: يا رسول الله بم يتصدّق وفي ماذا؟ هذا وجهان:

أحدهما: أن ما الاستفهامية مبتدأ وذا بمعنى الذي خبره.

والثاني: أنهما اسم واحد بمعنى أي شيء ﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ أي مال كثير ﴿فَلِلْوَٰلِدَيْنِ﴾ وإنما أجاب بالمصر مع أن السؤال كان من جنس المصروف تنبيهًا على أن النفقة لا يعتد بها إلا أن تقع موقعها.

قيل: نسخت بآية الزكاة والجواز العمل بها على التبرع والنفل والتطوع ﴿وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ أي ذوي القرابة والرّحم. قال عليه السلام: «**صَدَقَتك على المسكين صدقة وعلى ذوي الرحم صدقة وصلة**». ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ جمع يتيم وهو صغير لا أب له ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ خرجهم فاضل على الحاصل والدخل ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ مسافر انقطع عن أهله وبلده ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ﴾ أي ما له حلاله بيان لـ(ما) ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: 215] بقدره وكميته ويجازيكم به في الدنيا والآخرة.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾ فُرِضَ على كلكم الجهاد على الكفاية. وقال بعضهم: فرض عين ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ والحال أنكم لكونها شاقةً وحالةً داقة على نفوسكم لا تميلون إليها بالرغبة ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي نافع لكم في الواقع ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البَقَرَة: 216] أي المكروه من الكراهة لا من الكره ومنه الإكراه من باب وضع المصدر موضع الوصف، ويجوز أن يكون بمعنى الإكراه مجازًا كأنهم أكرهوا عليه لشدة كراهتهم نحو قوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [الأحقاف: 15] يجوز فيه الفتح والضم كضعَف وضعُف ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ منافعكم ومضارّكم في نفس الأمر ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: 216] ما ينفعكم في الواقع وما يضرّكم فيه، وجميع الأوامر والنواهي من هذا الباب، وإنما ذكر عسَى لأن النفس إذا ارتاضت تخشى أن يعكس الأمر في حقها.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البَقَرَة: 217] نزلت حين بعث النبي ﷺ عبد الله بن جحش وهو ابن عمته عليه السلام مع تسعة رهط والمهاجرين إلى آخر جمادي الآخر قبل بدر بشهرين ليترصدوا عير قريش وأمر عليهم عبد الله بن جحش وكتب كتابًا

وقال: «**سر على اسم الله ولا تنظر في الكتاب حتى تسير يومين، فإذا نزلت منزلين فافتح الكتاب واقرأ على أصحابك وامضِ ما أمرك ولا تستكرهنَّ أحدًا من أصحابك على السير معك**»، فلما نزل عبد الله بعد اليومين منزله وفتح كتابه فإذا فيه: «**بسم الله الرحمٰن الرحيم أما بعد، فسر على بركة الله بمن تبعك حتى تنزل بطن نخلة فترصد عير قريش**» فقال لأصحابه: من يريد الشهادة تبعني ومَن كره فليرجع فإني ماضٍ لأمر رسول الله. فمضى بأصحابه حتى نزلوا بطن نخلة بين مكة والطائف. فبينا هم كذلك إذ مرَّت بهم العير فرمى أحد من أصحاب عبد الله أحدًا من العير بسهم فقتله واستأسر اثنين فكان ذلك أول أسير في الإسلام وأفلت بعضهم، فاستاق المؤمنون العير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله ﷺ بالمدينة فقالت قريش: قد استحلَّ محمد الشهر الحرام، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال لهم: «**ما أمرتكم بالقتال في الشهر الحرام!** قالوا: يا رسول الله إنَّا قتلنا ثم أمسينا فنظرنا إلى هلال رجب فلا ندري أهو رجب أم جمادي الآخرة» فنزلت فأخذ الرسول العير وعزل منها الخمس فكان أول خُمس وأول غنيمة وأول أسرى في الإسلام. قال رسول الله ﷺ: «**إن رجب شهر الله**»، وكان أهل الجاهلية إذا دخل رجب وضعوا أسلحتهم ويعطلونها والناس يأمنون الطريق ولا يخاف بعضهم بعضًا.

﴿قِتَالٍ فِيهِۖ﴾ بدل من الشهر الحرام بدل الاشتمال، ﴿قُلۡ﴾ يا محمد ﴿قِتَالٌ فِيهِۖ﴾ أي بالشهر الحرام ﴿كَبِيرٌۚ﴾ إثمٌ عظيم ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ ﴿وَكُفۡرُۢ بِهِۦ﴾ أي بنِعَم الله ولم يشكرها ﴿وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ عطف على سبيل الله ﴿وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ﴾ أي المسجد الحرام وهو النبي عليه السلام ﴿مِنۡهُ﴾ من المسجد الحرام ﴿أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ وزنًا وصَدٌّ مع ما عطف عليه أي إثم هذه المجموع أكبر من القتال في الشهر الحرام وإثم كل واحد وهو أيضًا ظاهر ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ﴾ أي الشرك بالله ﴿أَكۡبَرُ﴾ وأعظم إثمًا ﴿مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ أي ثابتون الكفار على مقاتلتكم ﴿حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ﴾ [البَقَرَة: 217] وحتى للتعليل نحو قولهم: اعبدوا الله حتى تدخل الجنة، وجئتك حتى تعطيني حقي، ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحِجر: 99]، ﴿إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ﴾ على دوام مقاتلتكم وردّكم ﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ﴾ أي ينصرف وينقلب على عقبيه ﴿عَن دِينِهِۦ﴾ الإسلام إلى دينهم سرًّا وعلانية ﴿فَيَمُتۡ

﴿وَهُوَ كَافِرٌ﴾ على الارتداد مجزوم عطفًا على يرتدد ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ أي بطلت وضاعت وصارت عبثًا ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ لامتناعهم عن شرف الإسلام وغنائمه وحفظ الأموال والأولاد والدنيا ﴿وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ لانتهائهم عن ثوابها وتهيئهم لعذابها وشدة عقابها، وبهذه الآية استدل الشافعي على أن المرتد ما لم يثبت على الكفر لم يحبط عمله بسيئات فإن تاب وآمن عاد إليه ما امتنع منه، ومنعه الحنفي رضي الله عنه ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البَقَرَة: 217] دائمون.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨﴾

فقال أصحاب السّريّة: يا رسول الله هل نؤجر على وجهنا هذا وهل نطمع أن يكون سفرنا هذا غزوًا؟ فأُنزل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وثبتوا عليه ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ وفارقوا عشائرهم وأموالهم ومنازلهم ﴿وَجَٰهَدُواْ﴾ المشركين لنصرة الدين وإعلاء كلمة الله ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وطاعته وعدّهم من المهاجرين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي عبد الله وأصحابه ﴿يَرۡجُونَ﴾ فيما فعلوا من المهاجرة والجهاد ﴿رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ﴾ أي الجنة برحمته ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ﴾ لذنوبهم لقتالهم في الشهر الحرام ﴿رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: 218] بفضله الجنة واللقاء وكرامتها. قيل: نسخت برخصة القتال في الشهر الحرام ﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [التّوبَة: 36].

﴿۞يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ٢١٩ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٢٠﴾

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ﴾ [البقرة: 219] نزلت في أمير المؤمنين عمر

ابن الخطاب نصبه ومعاذ بن جبل ونفر من الأنصار أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله إفتنا في الخمر والميسر فإنهما مذهبتا العقل مُسْلِبَتَا المال، فأنزل الله هذه الآية. ولأهل التفسير في تحريم الخمر ألفاظ مختلفة ومعانٍ متفقة على أن الله سبحانه وتعالى أنزل في الخمر أربع آيات نزلت بمكة ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ﴾ [النّحل: 67] فكان المسلمون يشربونها وهي لهم يومئذ حلال، ثم نزلت في حلّية الخمر ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «**إن ربكم قد قدّم تحريم الخمر**» فتركها قوم بقوله: ﴿قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ﴾ قائلين بأنّا لا حاجة لنا في شيء فيه إثم، وشربها قوم بقوله: ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البَقَرَة: 219] وكانوا يستمتعون بمنافعها ويجتنبون بإثمها إلى أن صَنَع عبد الرحمٰن بن عوف طعامًا فدعا ناسًا من الأصحاب فأتاهم بخمر فشربوا وسكروا فحضرت صلاة المغرب فقاموا في الصلاة، فقرأ الإمام: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ [الكافرون: 1، 2] بلا لا، فأُنزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾ [النِّساء: 43] فحرَّم الخمر في أوقات الصلاة فتركها قومٌ أُخر قائلين: لا خير في شيء يحول بيننا وبين صلاتنا.

وقال قوم: نشربه ونحبس في بيوتنا إلى أن شرب حمزة عم النبي عليه السلام وسكر فشق بطني شارفي علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فجاء علي فرأى شارفيه فبكى وتوجه إلى الرسول، فجاء النبي إلى حمزة عمه فأساء حمزة الأدب معه فبعد ذلك اتخذ عثمان بن مالك ضيفًا ودعا رجالًا من المسلمين منهم سعد بن أبي وقاص وكان يسري لهم رأس بعيرٍ فأكلوا منه وشربوا الخمر فسكروا وتشاعروا وتفاخروا فأنشد سعد قصيدةً فيها هجو الأنصار، فقام رجل من الأنصار وضرب رأسه وشجه، فذهب سعد إلى رسول الله وشكى من الأنصاري فقال عمر: اللهمَّ بيِّن رأيك في الخمر بيانًا شافيًا، فأنزل تحريم الخمر في: (. . .) إلى قوله: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المَائدة: 91] فحرِّمت، ولم يكن للعرب أعزّ شيء منه كما قال رسول الله ﷺ في الآية: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ﴾ [النّحل: الآية 67].

قال عليه السلام: «**الخمر من هاتين النخلة والعنبة فغلى بطبعه دون عمل النار فيه وما عداه فليس بخمر**» هذا عند أبي حنيفة وجماعة من العلماء. ثم اختلفوا في المطبوخ فقالوا: هو كل عصير طُبِخَ حتى ذهب نصفه فهو حلال وإن طُبِخَ حتى ذهب ثلثاه وبقي الثلث فهو حلال مباح شربه وبيعه إلا أن ما أسكر منه حرام بيعه وشربه، وأغلوا في إباحة المطبوخ ما كتب عمر رضي الله عنه إلى بعض: أما بعد، فاطبخوا شرابكم حتى يذهب منه نصيب الشيطان فإن له ثلثين ولكم واحدة. عن سعيد بن المسيب: إن الشراب الذي أحلّه عمر هو الذي يُطبخ حتى يذهب ثلثاه. وإن أبا الدرداء كان يشرب ما ذهب ثلثاه. وقال أيضًا: إذا طبخ الطلاء على الثلث فلا بأس به، وبه قال الحسن.

واعلم أن كلما يغير العقل وتصرفه عن مقتضياته وهو العلم والحكمة الذي هو أعظم السعادة في النشأتين ويكدر الروح الحيواني والنفس الإنساني ويوشح مرآة القلب وهو مجلى جلوة وجهة الحق فهو حرام عقلًا ونقلًا، أما عقلًا فهو أظهر عند من له عقل وسمع وهو شهيد أما نقلًا فقد سلف. ومن قال: إنه حلال فهو كافر بالله العظيم شرعًا وطبعًا نعم يصير مباحًا عند الضرورة فإن الضرورة تبيح المحظورات لقوله عليه السلام: «**الضرورات تبيح المحظورات**» فيكون حكم الخمر حكم الميتة والدم ولحم الخنزير يكون شربه بلا إثم نحو ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ [المَائدة: 3] فمن اعتقد أنه حرام ثم بنا على غلبة مقتضى النفس الحيوانية تزلّ قدماه ثم ندم على نفسه واستغفر ربه وجزم بأنه عاصٍ من حيث إنه خالف العقل والشرع.

وتمثيل الأمر به من حيث إنه وافق تقديره وطابق إرادته وسار بين الخوف والرجاء وفتح أبواب التضرع والابتهال ونادى ربَّه: يا ربّ لمتُ نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، فحينئذ تهيّأ نحو مغفرته ويغرق المذنبين في لجةِ يَمِّ فضلِهِ ومنّه ومنّته، بل لو أقسم على الله جميع الخلائق لأبرّه، والمستحل للخمر فهو محروم من هذه السعادة وانخرطت نفسه في زمرة البهائم العجم والسباع وأطلق منه قيود الأحكام التشريعية النبوية التي تطلق نفسك عن الهيئات النفسية والقيودات الحسية وقلبك عن العقائد الفاسدة والمعاقد الوهمية الكاسدة وفؤادك

وسرّك عن عجائب الإدراكات التقليدية والمعلومات الفلسفية عن التقيد بالمدركات الإيجادية التي لا أصل لهما لا من العقل ولا من الشرع والنقل.

وهذا العصيان من العبد ابتلاء وامتحان من الله ومن شكر على آلائه وصبر على بلائه فقد فاز فوزًا عظيمًا وهدى الله صراطًا مستقيمًا، ولو قارن بهذه الحالة الاستبعاد والرجوع إلى باب الغفّار وتضرَّع في بابه وأقرّ واعترف بذنبه واستغفر ربّه وخرّ راكعًا وساجدًا فحينئذ يستره بكنف ستره وعصمته ويتجلى له في سرّه وغيبته بتجلٍّ رحماني، وإن لم يعلم والحالة هذه أشرف وأعلى وأفضل وأولى وأقبل من الطاعات والعبادات الظاهرة إلى الله تعالى «**إنَّ أنين المذنبين أحبّ إليّ من زَجَلِ المسبِّحين**». قال آدم الأولياء علي المرتضى:

إلٰهي وخلاقي وحرزي ومولايَ إليك لدى الإعسار واليسر أفزعُ
إلٰهي لئن جلَّت وجَمت خطيئتي فعفوك من ذنبي أجّل وأوسع
إلٰهي حليفُ الحب في الليل ساهر يناجي ويدعو والعقل يهجع

قال النبي عليه السلام: «**مَن أذْنَبَ ذنبًا وهو يعلم أنَّ له ربًّا يغفر الذنوب غفر له وإن لم يستغفر**» فعليك يا طالب أن تحترز عن مجالستهم فإنهم قد هلكوا في أنفسهم وأهلكوا وأضلّوا من عقد في مجلسهم. قال: «**استولت عليك نفسك فعليك بالمطبوخ**»(*).

﴿وَٱلْمَيْسِرِۖ﴾ هو القمار وهو لكل لعب شرط فيه المال من غير تبرُّع كالكعاب[1] والنرد والشطرنج وغير ذلك.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ نزل حيث حثّ النبي الأصحاب على الصدقة ورغّبهم فيها من غير عزم فقالوا: ماذا ننفق وعلى مَن نتصدّق ﴿قُلِ ٱلْعَفْوَۗ﴾ قرئ مرفوعًا ومنصوبًا وهو ما فضل من المال على نفقة العيال، والبعض هو الوسط من النفقة من غير إسراف وإقتار، والطيّب، ويقال: أفضل مالك وأطبعه وأصله الزيادة والكثرة، قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ [الأعراف: 95]. وقالوا: وفي الحديث: «**قص الشوارب وإعفاء اللّحا**» كذلك مثل ما سبق.

(*) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.
(1) الكعب: فص النَّرد.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ﴾ في أمر النفقة والخير والصدقة ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البَقَرَة: 219] فيما ينفعكم ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾ [البَقَرَة: 220] بأنَّ الدنيا مزرعة الآخرة فخذ منها ما يكفيك ولا تدخّر ولا تفضلها لتفخر فإنها زائلةٌ، والعاقل لا يفتخر بالزائل ولا يناهى ولا يجمعها ولا تسعى فيه في الدنيا والآخرة أي تأمَّل في حال الدنيا واعتبر في حالهما بأنهما فانيتان باليتان وفي ﴿ٱلْآخِرَةِ﴾ بأنها باقية والباقية أحق أن يسعى ويدعى إلى منافعها ولذّاتها وهي السعادة العظمى والمقصد الأقصى والسعادة العظمى الباقية فعلى العاقل طلبها. قال عليه السلام: «**من طلبَ الدنيا أضرّ بآخرته ومن طلب الآخرة أضرَّ بدنياه فليتخير ما نفع ويبقى**».

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [البَقَرَة: 220] على أنه كان في الجاهلية يعظِّمون أمر اليتيم ويهتمون في شأنه وكانوا يتشائمون بملابسة أموالهم والبعض الآخر على أنه لما نزل ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: 152]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النِّساء: 10] اعتزلوا أموالهم واجتنبوا مخالطتهم في كل شيء، فاشتد ذلك عليهم وسألوا رسول الله فنزلت: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ وقرئ: (إليهم) يعني الإصلاح إلى أموالهم من غير أجرة ولا أخذ عوض منهم خير وأعظم أجرًا ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ﴾ أي يشاركهم في أموالهم وتخالطوهم بأموالكم في نفقاتكم ومطاعمكم ومساكنكم وخدمكم ودوائكم فتصيبوا من أموالكم لهم عوضًا من قيامكم بأمورهم أو تكافؤكم على ما يصيبون من أموالهم ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ أي فهم كإخوانكم في الشركة فمعاملتكم بهم كمعاملتكم بإخوانكم ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ﴾ لأموالهم أو مطلقًا ﴿مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ لها، فاتقُّوا الله في مال اليتامى ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ إعناتكم ﴿لَأَعْنَتَكُمْ﴾ يضيق عليكم وإثمكم فخالطهم، وأصله الشدة والمشقة مأخوذة مما حدث في رجل البعير كثير بعد جزّ حتى لا يمكنه المشي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب على إغناء عباده وقهرهم في بلاده ﴿حَكِيمٌ﴾ [البَقَرَة: 220] في صنيعته فيما يكلفه بالخلق.

إشارة وتأويل

كان الناس أمةً واحدة في الميثاق الأول والعهود في الأزل معين في الخطاب بتعريف نفسه لهم بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 172] وأقروا بربوبيته وإلزام

عبوديته على أنفسهم ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ فمن شاهد أنوار جماله وأسرار قهرمان سلطان جلاله قبل الابتداء فإذا نزل في منازل الآلام ولم تشغله شواغل العوالم الهيولانية وبقي على حالته السابقة متضاعفة الأنوار على بصيرته متلاطمة الأسرار على سريرته فإذا بلغم بالرؤية دعوة النبي عليه السلام تلقوها بكليتها، فأنزل الله سكينته في قلوبهم ليزدادوا إيمانا بعد إيمانهم وما زاغوا عن سمت الاستقامة لسابقوا الآخرة بالدنيا يستبدلوها، وتحيروا في بحر الحسرة وبر الندامة ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا﴾ [الأحزاب: 23]. فبعث الله النبيين مبشرين للفرقة الأولى ومنذرين للثانية ليبين في ما جرى في حريم قضائه بين تفاوت الاستعداد واختلاف القبول من الماهيات عند إمضائه قدره في الأزل إلى الأبد، قال علي كرَّم الله وجهه في مناجاته: «اللهمَّ إني لم أرتكب الذنوب والخطايا جرأة مني ولا استخفافًا بحقك لكن سبق علمك وجرى به قلمك».

﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ قال الصادق رضي الله عنه: «من أراد نصرة الله فعليه باحتمال ذلّته لأن الذلّة روضة أنبيائه ولا يدخل فيها إلا أهل دارها»، هذا خطاب إلى الأطوار النفسية والقلبية والسّرية والروحية أي ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: 27] أحسبتم أن تدخلوا جنة التجليات وروضة المشاهدات بدون المجاهدات ﴿وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ﴾ أي ما يقع عليكم حالة وقعت في الطور السابق في مرتبة النفس الأمَّارة واللَّوامة الملهمة الزّكية والتصفية والتخلية والتحلية وتبديل الأخلاق الدنية الذميمة إلى الأوصاف السّنية والملكات الكاملة الفاضلة الرضية المرضية، والأخلاق الإلٰهية الحسنة ﴿مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ﴾ [البَقَرَة: 214] أي اتقوا وهو ترك مقتضى طبعهم على ما تقتضيه القوة النظرية ﴿وَٱلضَّرَّآءُ﴾ أي العدول من طورهم إلى طور آخر أعلى منه على ما تقتضيه القوة العملية ﴿وَزُلۡزِلُواْ﴾ أي حركوا ونقلوا وسلكوا من الصفات النفسانية إلى الهيئات القلبية والملكات الفاضلة الملكية، واستعدوا لشهود نصرة الله وغلبة عساكر جذبات الإلٰه إلى مشاهدة وجه الله في كل شيء من الكليات والجزئيات العاليات والسافلات ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ﴾ أي القلب في الطور السرّي ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ أي القوى الروحانية والأطوار السابقة واللاحقة مع رسول القلب والفؤاد ﴿مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ﴾ [البَقَرَة: 214] أي جذب بدن

النفوس إليه وجلب مطايا القلوب لديه.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ أي من المعارف الإلٰهية والحقائق الأزلية الغير المتناهية ﴿فَلِلْوَٰلِدَيْنِ﴾ أي العقل والنفس ﴿وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ أي المبادىء الروحانية والقوى العقلية ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ جمع يتيم.

قال الصادق: «اليتيم المتردد في دورات الخلوة، والمسكين الذي عقد مسكنه، والوالد الذي دلّه إلى تسكين النفس عن حركاتها وتحريك قلبه إلى الموطن الأعلى». ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البَقَرَة: 215] وهم الذين يترددون مراتب شهود التجليات الآثارية ولم يبلغ بعد إلى غايتها وهي شهود الوجه الحق في تمام المظاهر الحسية والمجالي والمشاهد النفسية المنفقة، وهي التي تسمى بالتوحيد الآثاري وإنما قيد النفقة بالخبر إذ هي التي تعينك إلى تلك المشاهدة ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْۖ﴾ [البَقَرَة: 216] إنَّ الله تعالى فرض الجهاد مع الكفار وهم الذين حجبوك عن مشاهدة الوجه الباقي على الوجه الكلي الجمعي فكل حريته من المراتب الجرمانية والمظاهر الجسمانية والمحالّ النفسانية والمدارك الروحانية ومسالك الأسماء الربانية والحالات والمقامات في السير إلى الله ومن الله، فهي بالنسبة إلى شهود ذلك الوجه الجمعي في السير في الله كفر وحجاب وستر يكثر ويستر ذلك الوجه الجمعي والكمال المعيّ فحينئذ فرض الله دفعه على كل أحد والجهاد معه على كل فرد كل مرتبة فإن المرتبة الأولى بالنسبة إلى المرتبة العليا حجاب يجب دفعها إلى أن بلغ إلى مرتبةٍ جامعةٍ لتمام المراتب وهي الجمعية الكبرى والكلية العظمى، وحقيقة القلب هي هذه الجمعية وجميع الكون مظهر هذه الجمعية وحجاب لها، أولها مرتبة الطور القالبي، ثم النفسي كما قال عليه السلام: «**لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء**».

وأما إذا صعد إلى سماء الطور السِّري والروحي فحجابه الأخلاق المرضية والتجليات الآثارية والأفعالية ونهاية نظره هو جبروت سماء الأسماء الإلٰهية في السير إلى الله. وإذا عرج إلى سماء الطور الخفي وفلك الفؤاد وملك الحب والوداد فحجابه عن شهود التجلي الذاتي هو التجليات الأسمائية بما مرَّ مما في سائر الأطوار وأحوالها ونهاية مطرح نظره هو حقيقة تمام السماء وأمهات جميع

الأسماء، وإذا تنزل بعد استكمال مراتب العروج في السير إلى الله من الله انعكس الأمر في نظره، وهكذا إلى أن حصلت الإحاطة الكلية والجمعية الحقيقية في السير في الله، وحينئذ اتحد بالكل وتفرد نسبته إلى جميع السبل.

﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ فإن جواز الصراط المستقيم الذي هو عبارة عن الوحدة الجمعية والهيئة الاعتدالية التي هي أدقّ من الشعر وأرقّ وأمضى وأخرق من السّيف في غاية الصعوبة ونهاية التقوية، فيكون أكره المكروهات لدى الحالات وأرباب المجاهدات النفسية. قال الصادق: «المكروه عدله والمحجوب فضله وفضله عدل وفي عدله فضل».

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا﴾ عند جهاد النفس ومخالفة هواها وهو في الحقيقة عدل لها لو غواها في الإفراط في استيفاء الحظوظ في الهواء والهوس ﴿وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لاعتداد حالكم به ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا﴾ عند تزكية النفس بصنوف الرياضات في صنوف أرباب المجاهدات عن تلقاء نفوسكم ومرتضى هوسكم من غير التلقي من مرشد كامل عارف بخواص أنواع الطاعات وفروع العبادات ﴿وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البَقَرَة: 216] إذ الطاعات والعبادات والأذكار والأفكار أغذية وأدوية وأشربةً للقلب مختلفة الاقتضاء، وشعائره الآثار. وأمراض القلوب أيضًا مختلفة كمًّا وكيفًا فربما يهوي إلى نوع منها وهو مضر في الحقيقة وهو شر محض بمقتضى الطبيعة، ومن هذا لا يجوز أن يرتاض كل واحد من عند نفسه بلا مرشد كامل عارف بخواص أدوية الأذكار وأشربة الأفكار وأغذية الطاعات الفرضية، عالم بأمزجة الأرواح وحالات القلوب وهيئات النفوس وطبائع الأشباح ومقتضيات الطباع وآداب الرياضة وشرائطها وأوقاتها وخصائص حصصها، وهو إمام الزمان وهادي الأعيان ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ﴾ [الإسراء: 71]، ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: 17] قال النبي ﷺ: «**من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية**». وكم من رائض بنفسه وارتاض من تلقاء نفسه فقد هلك وأهلك.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البَقَرَة: 217] هو عبارة عن الفؤاد والطور السري فإنه محلّ ظهور تجليات أنوار الجمال ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النّجم: 11] فلا بدّ

وأن لا يقع آثار أسرار الجلال وهو القتال فإن محلّه هو بوادي النفس ومبادي الحواس الخمس إشارة إلى السلوك الطبيعي والترتيب الوضعي فيه، فإن نظم السلوك إذا كان طبيعيًا لا بد وأن يقع الجهاد أولًا بكفار الأعضاء البدنية والأجزاء البيّنة ثم بمشركي القوى الطبيعية النفس الأمّارة، ثم بالنفس اللّوامة والملهمة، وهما أهل الكتاب يهوديًا ونصرانيًا من الطور النفسي والطور الصدري الظاهرة الذي هو الوجه القلبي الذي يلي النفس، ثم بمنافقي الإسلام ومبتدعيهم وهي الأوصاف القلبية والهيئات التي لم يبلغوا غاية الاطمئنان ومرتبة الرسوخ والملكة والقوة النظرية التي استخدمتها القوة الوهمية ولم تبلغ بعد كمال الإيقان ومقام العرفان.

﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ﴾ أي إخراج أهل القلب وهم الأخلاق الرضية المرضية والملكات الكاملة المرضية والهيئات الفاضلة كالعفة والقناعة والصبر والتودد والرضاء والتوكل والتسليم بالقدر والقضاء وتضييعها بسبب علة الأحكام الإمكانية الناشئة من القوة النظرية، قيدها سلطان الوهم فأعملها تارة بملابس الحدّ والرسم وأخرى بمحاسن القضايا من الفعل والاسم.

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ﴾ يعني أن عساكر قوة الطبيعة وجنود النفس الغير الطبيعية يقاتلونكم دائمًا، وأن مقتضى طباعهم متباينة لا ينفك عنها فما دام التباين والتخالف يكون ثابتًا بينهم يسعى أحد الفريقين لأن يقهر الآخر ويرده إلى طوره ويدخله تحت حكمه ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ الأصلي وهو الإسلام إلى الكفر والمخالفة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ [البَقَرَة: 217] في نار القطيعة والحسرة الفظيعة عند التجلي الإلٰهي في المحشر العظمى ورفع الحجب عن أعين الأعضاء والأجزاء وبصائر القوى ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: 22] فإنَّ لكل من الأجزاء والقوى بصرًا ولسانًا وأذنًا ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ [النُّور: 24]، فكما أنَّ الكل بمعرفة ربّه وعبادته كذلك الأجزاء ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسرَاء: 36] لأن الذين آمنوا في الفطرة الأولى والنشأة الأعلى بأنوار جماله وأسرار جلاله وعظمته وقهرمان عزّته وضياء صمديته ولواء كبريائه ونوال رأفته وسجال رحمته وسناء حكمته.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ من مكة الموطن الأولي إلى مدينة نشأة الأخرى، أو من

مكة السير إلى الله إلى مدينة السير في الله أو منهما إلى مدينة السير في الله، أو من مكة الطور القلبي والنفسي إلى مدينة الطور السوّي وغير ذلك من الأطوار العالية ﴿وَجَٰهَدُواْ﴾ مع من يمنعهم من العود والرجوع إلى الوطن الأصلي والوطن الأولي ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي في السير إلى الله، أو المراد منه الذين آمنوا هم السائرون إلى الله، ومن الذين هاجروا أي الواصلون بالجمعية الكبرى هم السائرون من الله ويجاهدون في هذا إلى أن يصلوا إلى كعبة الجمعية الكبرى في السير في الله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ﴾ رحمة الله الجامعة للكل ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ﴾ لما فات في السير إلى الله ومن الله ﴿رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: 218] لمن فاز بسعادة الجمعية الكبرى في الدنيا والآخرة، أي السير إلى الله ومن الله متعلق بيرجون لتساوي نسبتهم إليها فكونهم في الدنيا هو كونهم في الآخرة وبالعكس.

﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٢١﴾

﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ﴾ [البقرة: 221] المشركات الحربيّات وقيل: هنّ مع الكتابيات لكونهن أيضًا مشركات [لقولهم]: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ﴾ [التوبة: 30]. أصل النكاح الجماع ثم استعمل في العقد، وإنما حرَّم الله النكاح من المشركات عقدًا ووطئًا لعدم الكفاءة بينهم وبينها ﴿وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ﴾ بالله وبرسوله وبما جاء به فنكاحها ﴿خَيۡرٞ مِّن﴾ نكاح ﴿مُّشۡرِكَةٖ﴾ حرَّة كانت أو قنية ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ﴾ جمالها وحُسنها ونسبُها ومالُها.

﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ أي ولا تزوجوا نساءكم المؤمنات ﴿حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ﴾ مثل إيمانهن، وإنما صرح بهذا القسم ليدفع التوهم بأن العكس جائز ﴿وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ﴾ حرّ في تزويج نسائكم به دونه ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ﴾ بماله وحسن حاله ومآله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ برهان وحجة على ما ذكر، أي المشركون والمشركات ﴿يَدۡعُونَ﴾

ويطلبون إياكم ﴿إِلَى ٱلنَّارِ﴾ إلى سببها وهو الكفر ﴿وَٱللَّهُ﴾ [البَقَرَة: 221] أي أولياء الله وأحباؤه ﴿يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ﴾ أي إلى ما يوصلكم إليها وهو الإيمان ﴿وَٱلْمَغْفِرَةِ﴾ الساترة الماحية للذنوب والسيئات وترك الطاعات في بعض الأوقات نظرًا إلى بعض الأشخاص والحالات اعتبارًا للإيمان وإيماء إلى أن الإيمان أقوى من العمل وأعلى وأشرف منه ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ بإرادته ومشيئته وأمره ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ﴾ أوامره ونواهيه في أمر التزويج وغيره ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البَقَرَة: 221] ينقطعون وينزجرون عن المعاصي ويتعرفون بما جرى بينهم وبين الله من العهد والإقرار في الأزل.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ أي عن الوطىء وسائر الاستمتاع عند الحيض، كان في الجاهلية إذا حاضت المرأة لم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يساكنوها في بيت كما فعلت المجوس واليهود فسألوا عن النبي عليه السلام، فنزلت. المحيض مصدر حاضت كمحيي ومميت ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ﴾ أي الدم الحيضي ﴿أَذًى﴾ أي أمر نجس مستقذر يؤذي وينفر ويكره نفاره المحيض، وعسى أن تبرأ الروح ويتنفر منها طبعها ويدعها وطئًا ووضعًا ويؤدي إلى الفراق ويفضي إلى الفسخ والطلاق ﴿فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ [البَقَرَة: 222] أي ارفضوا مجامعتهن والاستمتاع بهنَّ عنده. قيل: إن اليهود يعتزلوهن في كل شيء، والنصارى يجامعوهنَّ ولا يبالون بالحيض، فأمر الله تعالى بالاقتصاد والتوسط بينهما في الاعتداد.

واعلم أن الحيض يمنع من تسعة أشياء: من الصلاة، والصوم، وقضاء ما هو واجب، وقراءة القرآن، والطواف، ودخول المسجد والاعتكاف فيه، والوطىء، ومن الاحتساب بالعدة.

لما نزلت هذه الآية عمد المسلمون إلى إخراج الحِيَّض من البيوت إلى الطهر والاغتسال، فشكوا أهل المدينة إلى الرسول ﷺ بأن البرد شديد والثياب قليلٌ فإن آثرناهنَّ هلكَ الباقون وإلا فهنَّ، فنزلت بأن اعتزلت في المباضعة والاستمتاع

في المحيض بالمجامعة وبما في حكمها لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾ ولا تستمتعوهنَّ بالوطئ والمفاخذة قدرَ ما سترته الإزارة.

﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ بانقطاع الدم أي دم الحيض والاستحاضة عن أبي حنيفة وبه وبالغسل عند الشافعي، وهذا أقرب إلى الطبع والنسب إلى الوطيء والوضع ورعاية طباق الوضع الطبع أحسن. عن الحسن البصري: أنه إذا وطئ الرجل امرأته بعد انقطاع الدم بلا غسل فعليه منه الكفارة. قال علي كرم الله وجهه: من قرأ بالتشديد فهو حجة للحاضرين، ومن خفف فهو حجة للمحبين. ويؤيد الأول تكرار الطهر، ومدح الحق جلَّ وعلا المتطهرين بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البَقَرَة: 222] ولا يحمد الإنسان على ما لا صنع له فيه، والاغتسال هو فعلها دون انقطاع الدم يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟﴾ [المَائدة: 6] والإطهار والتطهر واحد وهو الاغتسال.

﴿فَأْتُوهُنَّ﴾ جامعوهن ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ من الفرج لا غير ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ مما يخالف أمر الله ﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البَقَرَة: 222] من الرجال والنساء من النجاسات العينية والحكمية والخفية. قيل: من أدبار النساء.

﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾

﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ أي مزرعٌ ومنبتٌ للولد كالأرض للنبات والحبوب والبذور بيان لقوله: ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾، ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ﴾ أي نساؤكم من محلّ الزرع وهو المهبل ﴿أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البَقَرَة: 223] أي كيف أردتم ومن أي وجه شئتم، مستقبلين أو مستدبرين والمآل واحد. روي أن اليهود كانوا يقولون: مَن جامع امرأته من جهة دبرها في قبلها كان ولدها أحول، فذكر ذلك لرسول الله فنزلت. أنَّى حرف استفهام للسؤال عن الحال بمعنى كيف، والمحل بمعنى حيث شئتم ومتى شئتم. فقل هذا في العزل يقول: إن شئتم فائتوا وإن شئتم فاعزلوا كما يقال: إن شئت فاعطش وإن شئت فاروو‌ا.

واعلم أن الغرض من وضع النكاح التناسلُ والتوالد «**تناكحوا تناسلوا فإني**

أباهي بكم الأمم يوم القيامة ولو بالسِّقطِ» الحديث، وهو لا يحصل إلا بالإقبال من جهة القبل إذ هو محل الحرث وهذا الوضع مُخْبِلٌ دون سائر الأوضاع والهيئات وهو من الكنايات اللطيفة والتعريضات الظريفة فعلهما للعباد بأن يقتدوا في محاوراتهم ومخاطباتهم ومكاتباتهم هذا المنحى استهجانًا للتصريح بذكر ما فيه قباحة هذا من التمثيلات الحسنة.

﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ﴾ أي الولد والتزويج بالعفائف ليكون الولد صالحًا عفيفًا وطاهرًا ظريفًا. قال النبي ﷺ: «**إذا أراد أحدكم أن يأتي أهله قدموا التسمية على الوطيء وقولوا: اللهم جنِّبني الشيطان وجنِّب الشيطان ما رزقناه فإن ولد بينهما ولد لم يضره الشيطان**» الحديث. قال عليه السلام: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية بعده وعلمٌ ينتفع به وولد صالح يدعوا له**». قال أيضًا: «**من قدم ثلاثة من الولد لم يبلغوا الطمث لم تمسه النار إلا بتحلّة القسم**». قيلَ: العِلم الصالح أو كل ما أحلّ لكم وحرَّم عليكم، فإنه إذًا قدم صدق عند ربكم. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فيما أمركم به ونهاكم عنه واجعلوه حاضرًا عليكم ناظرًا إليكم وإلى أعمالكم ولا يشفع عند ربكم لديكم ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ﴾ يوم الجزاء فيجزيكم بأعمالكم ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [البَقَرَة: 223] أي الصادقين الصدِّيقين بوعوده والحافظين لحدوده.

﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٢٤﴾

﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ﴾ أي ما يصلح لإيمانكم، أصلها الشدّة والقوة. قيل للدابة التي تتخذ للسفر بعدله: عرضةً لقوتها عليه. يقال: عرضت ناقتي لذلك اتخذتها له، ثم قيل لكل ما يصلح هو عرضة حتى يقال للمرأة هي عرضة للنكاح إذا صلحت له وقويت عليه، وفلان عرضة للسير وللحرب أي صالح لهما ﴿لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ [البَقَرَة: 224] جمع يمين وهو المحلوف عليه، وسمي به ملابسة اليمين، واللّام يتعلق بعرضة لكونهما بمعنى الاعتراض أي لا تجعلوا الله حاجزًا لما خلقكم عليه من ترك الخير من الإحسان بأحد أو صلة الرحم أو إصلاح ذات

البين أو العبادة كالصوم والصلاة قائلين بأنّا حلفنا بالله فنخاف من اليمين به أن نفعله ﴿أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [البَقَرَة: 224] أي لا تبرؤوا كقوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ﴾ [النِّساء: 176] أي لئلا تضلُّوا بيان لأيمانكم أي الأمور المحلوف عليها وهي البرّ والتقوى وإصلاح ذات البين، أي لا تحلفوا على ترك البرّ والتقوى والإصلاح.

نزلَت في عبد الله بن رواحة الأنصاري حين حلف أن لا يدخل على صلة بشير ابن نعمان ولا يكلمه ولا يصلح بينه وبين خصم له. قيل: نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين حلف أن لا ينفق على مسطح حين خاض في حديث الإفك على عائشة رضي الله عنها وأن لا يصل ابنه عبد الرحمٰن حتى يسلم، وهذا وإن كان خاصًّا موردًا إلا أنه عام حكمًا.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [البَقَرَة: 224] سميع ما قالوا فيما إليه مالوا، عليم بنيَّاتكم فيجازيكم بها.

مطلب أنواع اليمين

قال النبي عليه السلام: «**إذا حلفتَ على يمين ورأيت غيرها خيرًا منها فأتِ الذي هو خير وتكفِّر عن يمينك**».

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ٢٢٥﴾

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي لا يعاقبكم ﴿بِٱللَّغۡوِ﴾ أي الكلام المطروح الباطل الساقط الغير المعتد به ﴿فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ [البَقَرَة: 225] أي في حلفكم ويمينك ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾ [المؤمنون: 3]، فقام قوم وهو ما يسبق به لسان الإنسان من الإيمان والسرعة والعجلة من غير عقد وقصد وميل: لا والله، ولا والله، وكلَّا والله ونحوها، فهذا لا إثم فيه ولا كفارة عليه.

قال عليه السلام: «**لا يمين في غضَبٍ**». وقال بعضهم: هو اليمين في المعصية لا يؤاخذه بالحنث بيمينه ويكفِّر. قيل: لا كفارة عليه. والبعض على أنَّ

كفارته توبته عن تلك المعصية، وكل يمين لا يحلّ لك أن تفي بها فليس فيه كفارة. قيل: هو ما كان في الهزل والمراء والخصومة، والحديث الذي لا يعقد عليه القلب ودعاء الحالف على نفسه كقولك: أعمى الله بصري إن لم أفعل كذا، أخرجني الله من مالي أو ديني أو إيماني، أو هو كافر إن فعل كذا، هذا كله لغو إذا كان باللسان بلا عقد القلب والجنان، وتدعو الإنسان بالشرَّ دعاءَه بالخير ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسرَاء: 11] قيل: هو الحلف على شيء يظن أنه صادق عنه وليس كذلك فعند أبي حنيفة: هذا لا إثم فيه ولا كفارة. وعند الشافعي: هؤلاء والله من غير خطور الحلف بالبال.

وها هنا معنيان أحدهما: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ﴾ بلغو اليمين الذي يحلفه أحدكم بالظنّ ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي عمدت وعزمتَ وقصدت ﴿قُلُوبُكُمْ﴾ وهو أن يحلف الرجل على ما يعلم أنه خلاف ما يقوله وهي اليمين الغموس لانغماس صاحبها في الإثم. والثاني: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ﴾ بمعنى لا يلزمكم الله الكفارة بلغو اليمين الذي لا قصد معه، ولكن يلزمكم الكفارة بما نوت قلوبكم وقصدت من اليمين لا بقصد اللسان وحده.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لمن حنثَ وكفَّرَ عن يمينه ﴿حَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: 225] حيث لم يعجل بالمؤاخذة بل تربص بالتوبة. قيل: إذا حلف أحدكم بشيء فحنث فإن كان مستقبلًا فعليه كفارة وهو اليمين المعقدة وإن كان ماضيًا. فإن كان الحالف عالمًا بالواقع على خلافه فاليمين كبيرة ولا كفارة عند أبي حنيفة وعند الشافعي يجب الكفارة فيه وهو اليمين الغموس. وإن كان الحالف جاهلًا بالواقع ويرى أنه صادق فيه وهو يمين اللّغو عند أبي حنيفة ويمين الغموس عند الشافعي.

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ
أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾﴾

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ﴾ أي يحلفون على ترك القربات من الإيلاء يتعدى بعلى لكنه لكونه متضمنًا لمعنى البعد يعدى بمن، فكأنه قال: يبعدون بالقسم ﴿مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ نزل فيمن كان يكره امرأته ويخاف أن يطلقها فيتزوجها غيره، فحلف على أن لا يقربها

أبدًا فكان أن يتركها بذلك لا أيمًا ولا ذات بعل، وكانوا يفعلون ذلك في الجاهلية وجاء الإسلام فجعل الله له الأجَلَ وهو ﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ بعد الحلف أي انتظاره مبتدأ وهو قبله خبره أو فاعل الظرف أي للمولى حق التلبث في هذه المدة بلا تطالب بفيء ولا طلاق ولد. قال الشافعي: لا إيلاء إلا في أكثر أربعة أشهر. ويؤيده ﴿فَإِن فَآءُو﴾ قال علي رضي الله عنه: الإيلاء يمين في الغضب فلو حلف في حال الرضاء فليس بإيلاء. وعامة الفقهاء يجيزونه على العموم، فإن جامعها قبلَ مضيها كفَّروا عن يمينهم ولا شيء عليهم والنكاح ثابتُ بفضل وتبين للإيلاء ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ للمؤمنين لرجوعهم من ضرار لنسائهم بالإيلاء ﴿رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: 226] على ما فعلوا.

﴿فَإِن فَآءُو﴾ [البَقَرَة: 226] أي رجعوا إلى مولاهم قبل انقضاء العدة لهم بترخيص الكفارة في ذلك. قيل: إن فاء الحالف إليها في المدة بالوطىء إن أمكنه أو بالقول إن عجز عنه فعلى هذا يصح الفيء والرجوع ويحنث بالوطىء قبل انقضاء العدة فلزمته كفارة اليمين ولا يلزم في الفيء قول الكفارة والإبانة بتطليقة عند أبي حنيفة وعند الشافعي لا يصح به الإيلاء في أكثر من أربعة أشهر بأن حلف الزوج على امتناع من الوطىء، أو فوق أربعة أشهر ولا يختص بالحلف بالله وبصفته بل إذا علّق به طلاقًا أو عتاقًا أو قال: إن وطئتك فللَّهِ عليَّ صلاة أو حجّ أو عتق كان موليًا. ولا يصح الإيلاء دون أربعة أشهر عند بعض الحنفية، وحق المولي بأن يلبث في هذه المدة فلا يطالب بفيء ولا طلاق ومن رجوع هذا ما قال الشافعي رضي الله عنه: لا إيلاء إلا في أكثر من أربعة أشهر. وعند أبي حنيفة: الإيلاء أربعة أشهر وما دونها.

﴿وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٢٧﴾

﴿وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ﴾ أي حققوا وصدقوا ونووا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لقولهم ﴿عَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: 227] بنيّاتهم، وفيه دليل على أنها لا تطلق بعد مضي المدة ما لم يطلقها زوجها أو السلطان لأنه شرط فيه العزم ولأن السّماع يقتضي مسموعًا والقول: هذا الذي تسمع، فالسماع راجع إلى الطلاق.

﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾

﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ﴾ المدخول بها ذوات الأقراء ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ ينتظرنَّ ﴿بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البَقَرَة: 228] وبضم القاف وبالفتح هو الطهر عند الشافعي والحيض عند أبي حنيفة، أي إقرار وحثّ لهنَّ على التربُّص، فإنَّ نفوس النساء طوامح إلى الرجال نصب على الظرفية ومفعول نتربص وقد يوضع جمع الكثرة موضع جمع القلّة.

فإذا شرعت في الحيضة الثالثة فعند الشافعي انقضت عدّتها، وعند أبي حنيفة لا بل في الحيض الواقع. وقد كان في أول الإسلام أنه إذا طلق رجل ثلاثًا وهي حبلى فهو أحق برجعتها ما لم يضع ولدها إلى أن نسخ الله بقوله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ [البَقَرَة: 229]، فإن قيل ثلاثة قروء خاص لا بد وأن يكون دلالته على مفهومه قطعيًّا وهو أن يقع التربص في ثلاثة قروء كاملة بلا زيادة ونقصان فالطلاق إن وقع في الطهر فلا يحسب الماضي منه بل الباقي فيلزم أن لا يكون التربص ثلاثة قروء، وكذا إن حنث لزيادته، وكذا إن وقع في الحيض. أجيب بأنه يكمل من الرابع إذ الحيض والطهر لا يقبلان التبعيض إذ عدة الإماء مع كونها نصف عدّة الأحرار قد اعتبر الحيضان والطّهران.

وقد أجيب بوجه آخر وهو أن الطهر ليس اسمًا لمجموع ما يتخلل بين الدّمين وكذا الحيض بل اسم مشترك بين القليل حتى يطلق على ساعة وعلى المجموع المتخلل وعليه منع ظاهر بأنه إن كان الطهر اسمًا للمجموع فالسؤال وارد، وإن لم يكن يلزم انقضاء العدة بطهر قابل ضرورةً اشتماله على ثلاثة أطهار باعتبار الساعات.

قيل: الطهر حالة مستمرة لا تدخل تحت المعدد ولا بانقطاعه بالحيض، فاندفع ما قيل. أجيب بأن الحالة المستمرة لا تتصور إلا بين أمرين، فعاد المحظور.

﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ﴾ يخفين ويسترنَ ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ من الجنين والحبل ودم الحيض بأن تقول: لستُ بحامل وإني حائض ليبطل حق الزوج في الرجعة والولد، فإن المرأة أمينة على فرجها ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ فإن المؤمن بهما يخاف من عقاب الله في الدنيا والآخرة فلا يُبطل حق الغير ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾ جمع بعل وهو الزوج والتاء لتأنيث الجمع كالعجولة وأصله السيد والمالك ليملك أمور الزوجة ﴿أَحَقُّ﴾ وأحرى وأليق ﴿بِرَدِّهِنَّ﴾ بالرجعة إليهم حال كونها ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾ الأمر المذكور وهو مدة التربص ﴿إِنْ أَرَادُوٓاْ﴾ الزوج والزوجة والولي بالرجعة ﴿إِصْلَٰحًا﴾ بينهما في حسن المعاشرة ولا إضرارًا بأن طلقها واحدة وترك حتى قرب انقضاء عدتها راجعها ثم ترك مدة أخرى ثم طلقها أخرى وتركها كما فعل في الأولى ثم راجعها ﴿وَلَهُنَّ﴾ على أزواجهنَّ ﴿مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾ للرجال من الحقوق ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي بالذي عرف شرعًا لا يكلفنَّ ما ليس عليهم من زيادة النفقة والمهر واللِّباس والتّزين ولا العكس.

يروى أن امرأة معاذ قالت: يا رسول الله ما حق الزوجة على الزوج؟ قال: «**أن لا يضرب وجهها، ولا يقبِّحها، وأن يعطيها مما يأكل ويلبسها مما يلبس ولا يهجرها**». وقال أيضًا: «**خير النساء من أمتي من تأتي مسرة زوجها بكل شيء يهواه ما خلا معصية الله، وخير الرجال من أمتي مَن يلطف بأهله لطف الوالدة بولدها، يُكتب له في كل يوم وليلة أجر مائة شهيد قُتِلوا في سبيل الله صابرين محتسبين**».

وقال عليه السلام: «**ولكل امرأة أجر ألف شهيد**»، فقال عمر رضي الله عنه: كيف يكون للمرأة أجر ألف شهيد؟ فقال: «**أوما علمتَ أن المرأة أعظم أجرًا من الرجل وأفضل ثوابًا وأن الله ليرفع للرجل في الجنة درجاتٍ فوق درجاته برضاء زوجته عنه في الدنيا ودعت بها له، أوما علمت أن أعظم وزرٍ بعد الشرك بالله أن المرأة إذا عقت زوجها! ألا فاتقوا الله في الضّعيفين فإن الله عنهما سائلكم: اليتيم والمرأة، فمن أحسن إليهما فقد بلغ إلى الله ورضوانه، ومن أساء إليهما فقد استوجب من الله سخطه. حقّ الزوج على المرأة كحقي عليكم، فمن ضيع حقه فقد ضيع حق الله ومن ضيع حق الله فقد باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير**».

﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البَقَرَة: 228] بعد الإشراك في المذكورة زيادة وفضل

في الحق لأن حقوقهن في أنفسهن وحقوقهن في المهر والنفقة والرجعة، أو بالفعل والشهادة والميراث والقيام بمصالحها. أرسلت بعض النساء إلى الرسول عليه السلام: هل لنا من الأجر من شيء في خدمة أزواجنا؟ قال: «**إن طاعة الزوج واعترافًا بحقه يعدل ما هناك وقليل منكن يفعله**». ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ قدير على الانتقام ممن خالف الأحكام المزبورة ﴿حَكِيمٌ﴾ [البَقَرَة: 228] عالِم بمصالحهم وحكمهم ويحكم على مقتضى الحكمة.

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٢٩﴾

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾ التطليق والرجعى ثنتان، سئل عليه السلام: أين الثالثة؟ فقال عليه السلام: «﴿أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ **ومعروف**». وقيل: التطليق الشرعي تطليقة بعد تطليقة التفريق. ولذلك قال أبو حنيفة: الجمع بين الطلقتين والثلاث بدعة نزل فيمن يطلق زوجته ثم يراجعها مرارًا كثيرًا مضادة للزوج ولو ألف مرة كما كان في الجاهلية. يعني أن الطلاق الذي يملك فيه الزوج الرجعة مرتان إحداهما بعد الأخرى لا الجمع بينهما، فإن راجعها بعد الثانية ﴿فَإِمۡسَاكُۢ﴾ أي فالحكم يمسكها ﴿بِمَعۡرُوفٍ﴾ شرعًا من وراء الحقوق التي هي الإنفاق وكسوتها وحسن معاشرتها وترك إيذائها ولا يراجعها بقصد تطويل العدّة عليها مضارّة لها ﴿أَوۡ تَسۡرِيحُۢ﴾ أي تطليق ﴿بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ بالطلقة الثالثة أو بأن لا يراجعها حتى تبين بانقضاء عدّتها، فإن طلّقها واحدة أو اثنتين فهو أملك برجعتها، فإن طلقها الثالثة بانت منه وكانت هي أحق بنفسها ولا تحلّ له حتى تنكح زوجًا غيره.

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾ حال الاستبدال والطلاق ﴿مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾ أعطيتموهن من المهور ﴿شَيۡـًٔا﴾ [البَقَرَة: 229] وغيرها للتطليق، نزلت في جميلة بنت عبد الله بن سلول وزوجها ثابت بن قيس كان يحبها وهي تُبغضه

فأتت رسول الله ﷺ وقالت: لا أنا ولا ثابت وقد كان قد أعطاها حديقة، فقال عليه السلام: «**خذ ما آتيتها وخلِّ سبيلها**» ففعل، فكان هذا أول خلع في الإسلام ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ﴾ استثناء من النفي بظنّا أو يعلما الزوجان ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ﴾ المعروفة في إصلاح الزوجية بينهما.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أيها الحكّام والأئمة ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ أي لا تحفظا حدود الله المعروفة في إصلاح الزوجية بينهما ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ لا إثم ولا حرج ﴿عَلَيْهِمَا﴾ على الزوج فيما أخذ من الزوجة ولا على الزوجة ﴿فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ﴾ من المال إذا كان النشوز من قِبل المرأة إذا خافت على نفسها هلاكًا ومعصيةً وهي ممنوعة من إهلاك المال وإتلافه، أما إذا كان النشوز من جانب الزوج فلا يحل له أن يأخذ شيئًا مما أتاها، فلا تأخذوا منه شيئًا ففيه إشعار بجواز الخلع.

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي المذكورات أحكامه وأوامره ونواهيه ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ﴾ أي لا تتجاوزوها ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ وترك أحكامه وأمره ونهيه ولا يعمل به ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البَقَرَة: 229] الضارُّون بأنفسهم يتجاوزون عن الطلاقين والإمساك بالمعروف والتسريح بالإحسان.

﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾

﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ [البَقَرَة: 230] أي الطلقة الثالثة، واعلم أن تعقيبه للخلع بعد ذكر الطلقتين يقتضي أن يكون طلقة رابعة لو كان الخلع طلاقًا والأظهر أنه طلاق لأنه فرقة باختيار الزوج ذكر الخلع فهو كالطلاق بالعوض وهو متعلق بقوله: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾ وتفسير لقوله: ﴿أَوْ تَسْرِيحُۢ بِإِحْسَٰنٍۗ﴾ [البَقَرَة: 229]، ففي وقوعه اعتراضًا بينهما دلالة على أن الطلاق قد يقع مجانًا بعوض أخرى والمعنى فإن طلقها بعد اثنتين ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ﴾ أي من بعد ذلك الطلاق ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥۗ﴾ [البَقَرَة: 230] ويدخلها.

واعلم أن ها هنا أمورًا أحدها: بيان الطلاق والتربص ومدته بيان عدم الكتمان بقوله: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ [البَقَرَة: 228] إلخ، لما بيّن الطلاق أراد أن يبين كيفيته وكميته وأن يبين الرجعةَ وحلّها بقوله: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ﴾، وأن يبين أنواع الطلاق أحدها: الخلع بقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا﴾ [البَقَرَة: 229] إلخ، بأنه يكون مجانًا أو بعوض لكونه طلاقًا لا يزيد في عدده إذ العروض إنما تتحقق بعد تحقق المحلّ وتعيينه. فمن قال: إن الخلع طلاق فينظره إلى العارض والمعروض فيكون مجازًا مرسلًا تسميةً للكل باسم الجزء، ومن قال إنه فسخ فينظر إلى اللام الطلاق المشترك بينهما وهو الفراق بمنزلة لازم الوجود.

فلما بيّن حقيقة الطلاق وأنواعه وعدده أراد أن يبين ما يتبعه: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ [البَقَرَة: 230] إلخ، وبهذا التقرير اندفع ما قيل في هذا المقام.

﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ الزوج الثاني ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أي الزوج والزوجة التي طلقها بعد انقضاء العدة لطلاق الزوج الثاني ﴿أَن يَتَرَاجَعَآ﴾ أي يرجع كل منهما إلى صاحبه بتجديد النكاح، إشارة إلى أن هذه الرجعة لا تتحقق بأحدهما بخلاف الأولى ﴿إِن ظَنَّآ﴾ أي علما أو غلب ظنهما ﴿أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ﴾ [البَقَرَة: 230] المعروفة في حق الصحبة بين الزوجين. قيل: في النكاح المعقود شرطه.

إشارة وتأويل

﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ يا أيها الطور السرّي والروحي وما فوقهما المستأنس بشهود التجليات الآثارية والأفعالية والأسمائية لا تقرب في حرم شهودك مشركات النفس العاملة والقوة العاقلة التي استخدمته القوة الواهمة واستولى عليها سلطانها حتى يؤمنَّ وتدخل في حكم مرادك واستسلام لأمرك في بلادك ولتنخرط في مسالك أطوار عبادِك القوى الروحانية المزكاة عن دنس المبادىء الطبيعية ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ﴾ طائعة لحكمك مطاوعة لأمرك ﴿خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْۗ﴾ لحسنها أي إدراكاتها الحسنة الحسيّة ﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ولا تستأنسوا قوتكم العمليّة ولا تزوجوها القوى الدراكة المطاوعة للنفس الغير المهدية ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ﴾ بحس الظاهر المصبغة للنفس الإنسانية المهدية المنورة

بضياء شمس المعارف والفطرية ﴿خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ﴾ أي قوة نظرية خدمته الأبالسة الفكرية ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ كالواهمة والمتخيلة ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ لأنهن يدعونك إلى نار القطيعة والنيران الفظيعة ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ﴾ بتجلياته وجذباته ﴿إِلَى ٱلْجَنَّةِ﴾ أي جنة لقائه وروضته رجاء المغفرة ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [البَقَرَة: 221] الذاتية في جداول حقائقه الأسمائية بصور صفاته الأولية وشؤوناته الأصلية من ماء المعارف الفطرية وينعقد بعقود العهود وقيود النقود.

قال الصادق رضي الله عنه: هي نوره المعلّق من خزينة العفو ولا يجد منها نصيبًا إلا مَن وجد في بساط الأول وهي الأمن من الشقاوة والعقوبة حبل الله الوثيق المعلق في عنق الفريق من الله في بحر السخط والسعيق.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ وهو الإدراك الناشىء من منح الطبيعة ووسخ الصنيعة الشنيعة ﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾ أي علّة غالبة غالية من الغليان عند فوران الطبيعة وغليانها ﴿فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ﴾ أي النفوس العاملة في هذه الحالة إذا أردت أن تعمل القوة الفطرية ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾ أي النفوس المذكورة عند إعمال القوة العملية واستخدامها إياها ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ من تلك العلة الفارقة الخارقة أو ﴿فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلْمَحِيضِ﴾ عند تبديل الأخلاق وتعديل الأوصاف ابتغاء لمرضاة الخلّاق لدى إشراق لوامع الأشواق ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾ عند استكشاف التجلي في مظاهر الكونية والأسماء الإلٰهية والأنوار الربوبية استكشاف شهودها.

﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي النفوس العاملة التي هي مزرعة حبوب الإلٰهية ومواضع غرزتها للأنوار الربانية وأشجار أزهار الكونية إما من حيث القوة النظرية أو من حيث القوة العملية فإن جميع الأشياء سيّما تمام الأجزاء والأعضاء والقوى من آثار ظهور التجليات الإلٰهية ومحال ظهورات سرّ الذات والأسماء والصفات وخصوصيات آثارها وجزئيات إدراكاتها إنما كانت حجبًا عليها فلمّا ارتفعت عند انصرافها إلى تجردّها الأصلي انكشف سرّ سريان الألوهية في الكل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ الراجعين من القوى العاقلة والمبادئ الروحانية من عالم الحس إلى عالم القدس وأوج مرتبة الإنس عند استكمال مراتب كمالات الإنس ﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ قال بعضهم: التوابين من التوبة

و﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البَقَرَة: 222] من الطهارة والطاعات حتى القوى العاملة المقدسة عن أقذار الطبيعة وأرجاس التخيلات الفاسدة وأنجاس الأحكام والأوهام الكاسدة.

﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ أي أرض قابلياتكم الأزلية محل حرث حبوب كمالاتكم الذاتية والأسمائية عند الارتحال من شتاء الفناء في الله في السرّ من الله إلى ربيع البقاء ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البَقَرَة: 223] أما من جهة الأسماء الكونية الغرائب تعيناتها التبرر إلى نهاية مراتب الحرث، وهي النشأة الكاملة العنصرية. أو من جهة الأسماء الإلٰهية بأن لا يرى في المزارع إلا الإمكانية لا مواضع مظاهر الكثرات الكونية الأنوار شمس وجهه الباقي وأنهار أسرار جمال النشأة في رياض أسحار الكائنات وأنهار التعينات أو من جهة القوة الفكرية العاقلة، أو من جانب القوة العاملة، أو من طريق الولاية والنبوة.

قال الصادق رضي الله عنه: «نساء المؤمنات ونساء المشركات حرث الطاعات وحرث المعاصي والسيئات والمؤمنون حرث الله»، فلا بد في الحرث ثلاثة: الطمأنينة مع الحارث وهو المولى والطمأنينة مع البروز وهو القرار ثم النشأة برؤية الرحمٰن.

﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ﴾ في السير في الله أو قدموا تزكية النفوس وتصفية القلوب للاقتباس من أشعة عكوس الشموس من يشرب بشراب محبة القدوس لاقتباس تعاطي جود المودة من ملك الكؤوس أو لتكميل القوة النظرية وتعديل النفوس العاملة بمعرفة حقيقة نفسكم لتعلموا أنه ربّكم لقوله عليه السلام: «**مَن عرف نفسه فقد عرف ربّه**». وقدموا طريق الاستدلال باستكمال القوة النظرية لحصول علم اليقين أو طريق الرياضة والمجاهدة لاعتدال القوى النفسية للوصول إلى درجة عين اليقين بشهود كمال الجمعية في أنفسكم لدى مرتبة حق اليقين ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ لرفع الكونين والإعراض عن أغراض النشأتين ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟﴾ علمًا يقينيًا ﴿أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ﴾ بالفناء الكلي الدفقي أو التدريجي ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البَقَرَة: 223] من القوى الظاهرة والباطنة بل الأعضاء والجوارح بالوصول إلى شهود كمال الجمعية في المحشر العظمى الأنفسي والآفاقي.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾ [البَقَرَة: 224] بل اجعلوا قلوبكم بالتزكية والتصفية عرضة الله ومعروضة لتجليات أنوار أطوار جماله، ومعروضة لمقتضيات أسرار جلاله ذريعة للاستصعاد إلى شهود كمال جمعيتها وتبرؤ القلوب والنفوس عن سِوى الله شريعة للاستعداد مشاهدة كمال معيتهما في السير في الله واتقوا عن مخالفته وأصلحوا سرائركم مع الله ولا تستعلوا في مقام النقص باللغو فإنه بدئ العمد بدئ سخط الله وغضبه.

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [البَقَرَة: 225] لأن اللّغو من الكلام بمنزلة الأزهار المتناثرة من الأشجار والثمار المتساقط قبل الاستكمال، وكالأجنة الساقطة فإنها كما لا يترتب عليه الاعتبار من النفع والإضرار كذلك اللّغو من الكلام يمينًا كان أو غيره لا يحكم عليه بالدر والضرّ وكذلك الأجنة والأسقطة فإنها وإن كانت في هذه الدورة قد انتفت عنها كالأنهار واختفت فيها أطوارها وأنوارها وانطفت عينا آثارها تكون كائنةً في خزائن سرّه ودفائن برّه، فإذا انتقلت الفرداريّة من هذه الدورة إلى دورة أخرى وتكملت في استعدادها الذاتي انقلبت من القوة إلى الفعل وخرجت من التفرقة إلى الصورة الجمعية ومن الإلحاد إلى الاتحاد، ومن البداد والعداد إلى الجداد والمداد، ومن الضعف إلى الاشتداد، ومن البياض إلى السواد ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحِجر: 21].

وامنع العبث والباطل في ملك الله وملكوته وخزائن أمره وجبروته ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: 115] ولكونها من الحكمة المسكوت عنها وجب السكوت على هذا القدر فتدبر واعتبر واصطبر وتبصر.

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ [البَقَرَة: 226] إشارة إلى مقام الجذبة بعرض الروح عن مباشرة النفس إلى ملاحظة العهود الأولية والمواثيق الأزلية فإنه إذا تذكر زوج الروح عن تلك العهود والجمال المشهود انجذب إليه انجذابًا كليًّا، فإن رجع إلى مقام النفس بعد أربعة أشهر أي بعد الوجود على المراتب الأربعة أي الجبروت والملكوت والملك والأثر، ووفى واشتغل بالسلوك صار مجذوبًا سالكًا.

﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ﴾ ولم يمكث في مرتبة الاختيار ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما قال لسان زوج استعداد الروح من القبول والتبري ﴿عَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: 227] بما يصح له من

الطلاق والرجوع إلى التلاق، وأراد أن يجعله مجذوبًا إليه رأسًا برأس لم يجعله إليها بل وقفه عنده وإلا أرجعه إليها وجعله مرآةً لشهود ذاته بأسمائه وصفاته في أطوار أدوار الجمال وأكوار الجلال وجميعتهما.

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾ مرة في الطور القالبي وأخرى في الطور النفسي ﴿فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ﴾ أي رجوع إلى الطورين هذين واشتغال بالسلوك والمجاهدة لا على وجه المبالغة ليضرّ النفس والبدن بحيث انتفى عنهما إثبات حبوب المعارف النظرية والتجليات الإلٰهية وينجذب ببصره عن مشاهدة المصنوعات وينصرف سمعه عن إسماع الموضوعات فإنه مما كشف أو عرف ﴿أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ [البَقَرَة: 229] يطلق أطلاقًا ثلاثًا في الطور القلبي فيقصر نظره إلى شهود جماله المطلق والجذب إليه بالكلية، فانتفى السير، فإذا لا يقتدى بهم ولا ينكر عليهم كما عرفت أن السلوك مراتب فمنهم من ينحصر شهوده بالجمال المطلق في المجالي الآثارية وهذا المجذوب يسير بالعلاج، ومنهم من هو في عالم الجبروت واستغرق في شهود أنوار جماله وسرور أسرار جلاله وانقطع نظره بالكلية عن العوالم التي دونها هذا متعذر العلاج وممتنع الإخراج، إلى غير هذه المرتبة لكونه بالغًا في الإفراط غايته كمن انغمس في تيار لجج بحار ظلمات الطبيعة في جانب التفريط بالغًا مرتبة لم يمكن إصلاحه.

﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ﴾ أي من طلق النفس وترك البدن والجذب إلى المرتبة الأولى من الجذبة، ينتظرن ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ﴾ وقرء في النفس الأمارة وقرء في اللوامة، وقرء في الملهمة فعند هذه الأطهار الثلاثة يمكن توجه الجذبة إلى عالم النفس ويباشرها بالسلوك والرياضة ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكۡتُمۡنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ﴾ يعني لا ينبغي أن لا يخفي ما كان ثابتًا ﴿فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ﴾ [البَقَرَة: 228] أو في نفسهن من الزوج من الطاعات والعبادات والمعارف والإدراكات والحالات والمقامات، بل لا بد وأن يظهرن منها وفيها عند الله من التصفية والتزكية والتهذيب وما يختص بها من الطاعات والعبادات والعلوم والإدراكات الممتزجة من المحسوسات والمعقولات وهي التي تحصل من المبادئ الحسية وشهود التجليات القدسية بصور المحسوسات إشارة إلى تفاوت أحوال المجذوبين بحسب الأوقات ﴿فَأَمَّا

إن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة: 88 ـ 94] الآيات. فمنهم من ينشد جذبته في وقت ويخف في وقت آخر. فعند الخفة يظهر ها هنا ما كان فيها من الروح والعقل من العبادات والإدراكات من الأحوال والمقامات ويعطف إليه التكاليف الشرعية والأحكام العرفية. وأما عند اشتداد الجذبة الإلٰهية تختفي آثار الطاعات وأنوار المقامات وأسرار الحالات.

﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ [البَقَرَة: 228] عند استيفاء الترفيه أي الأطهار الثلاثة المذكورة أي الروح الذي استخدم القوة الطبيعية والحيوانية والقوة العملية والنظرية لا الروح الحيواني أو القوة النظرية الشيطانية. ويحتمل أن تكون إشارة إلى حشر الأجزاء الأصلية فإن لكل نفس وروح في كل دورة وكورة إفرادية وجمعية وجمعية جمعية بدنًا خاصًا وله أجزاء مخصوصات، فعند المحشر الأعظم تتعلق الروح بتلك الأجزاء وكذا التدبيرات في السماوات الأسمائية فإن لكل اسم فرداريّة خاصة فإذا أعاد اقتضاء فرداريّة في الدورة الثابتة بعد انقضاء اقتضاء دورية الأولى فكل ما كان مربوبًا فهو أحق أن يرد إليه.

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى﴾ يعني أن لكل من النفس والبدن والروح حقًّا على الآخر فلا بد أن يراعي كل منها حق الآخر ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البَقَرَة: 228] يعني أن للروح لكونه أصلًا ومقدمًا ومضافًا إلى الحق فضيلةً ومزيةً عليها، فلا بد وأن يكون حاكمًا عليها متصرفًا فيها.

قال الصادق رضي الله عنه: «الطلاق ثلاثة، طلاق الديانة وطلاق الإهانة وطلاق المملكة. أما الأول فكطلاق الزاهد الدنيا. وأما الثاني فكطلاق العرفاء المجذوبين للنفس. وأما الثالث فكطلاق الأولياء المحبين الدنيا والآخرة وهم ملكوا المولى وآثروه عليهما. ومن قتلته فأنا ديته، الدنيا حرام على أهل الآخرة والآخرة حرام على أهل الدنيا وهما حرامان على أهل الله».

﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ أي فإن طلقها ثلاثًا، طلاق الطور القلبي وطلاق الطور النفسي وطلاق الطور القلبي ولم يستكمل ما في هذه

الأطوار وانجذب بكليته إلى كليته في فرداريّة اسم من الأسماء الذاتية فلا يحل له ولا يتعلق بها في نوبة اقتضاء هذا الاسم له حتى يدخل في فرداريّة حكم اسم آخر ليستجمع شرائط استكماله إلى أن يعود اقتضاء اسمه الربّ له فحينئذ يصير سالكًا فيما مات وعارفًا مالكًا لما فات.

﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ أي الزوج الثاني وهو في الحقيقة عين الروح الأول إلا أنه يغادره باعتبار الحكم أي إذا تعرض فرداريّة هذا الاسم وخرج هذا عن حكمه ودخل في حكم الاسم الأول الذي هو ربّه ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ [البَقَرَة: 230] أن يتراجعا في نوبةِ حكم هذا الاسم إن ظنّا أن لا يقيما حدودًا بالنفس فإقامتها الحد أن يتصقل ويتصفى للشاهد فيهما الزوج الروح جماله ولها حسن كلية فيها بل ما كان كامنًا فيهما من الأسرار الإلٰهية والأسماء الكونية وإقامة الروح الحدود فهو أن لا يبالغ في جهادها ومخالفتها وأن لا يلغي حقها وحظها من المحسوسات ولذّاتها لئلا تعمى في مداركها وأن لا يشغل من العالي إلى السافل وبالعكس، بل يكون كريم الطرفين.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المَائدة: 66] يعني أنَّ السالك إذا كان في حكم فرذازنة اسم ولم يستكمل نفسه في مقتضى حكم هذا الاسم وانتقل في فرداريّة اسم آخر لتحصيل شرائط الاستكمال فلا جناح ولا إثم عليهما يتراجعوا رجع القهقرى إلى حكم اسم أول في الدورة الأولى إشارة إلى أن مقتضى الوجود دوريٌّ ومرتضى السير كوري كما ورد في الأدعية المأثورة: اللهمَّ أرني الوجود كوريًّا والسيرَ دوريًّا لأُعاينَ سرَّ التنزيل إلى النهايات والعود إلى البدايات.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ [البَقَرَة: 231] أي أشرفنَ أن يبيننَّ بانقضاء

العدة، نزلت في رجل من الأنصار طلق امرأته حتى انقضت عدتها إلا يومين أو ثلاثة وكادت تبين منه، راجعها ثم طلقها، فعل ذلك بها حتى مضت تسعة أشهر مضارّة لها بذلك ولم يكن الطلاق يومئذ محصورًا فالبلوغ ها هنا بلوغ مقاربة لا بلوغ انقضاء وانتهاء. يقال: بلغت المدينة إذا صار إلى أحدها ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ راجعوهن ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ بإشهاد على الرجعة بالقول دون الرجعة بالوطئ ﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ﴾ أي حتى تنقضي العدة فما ملكت أنفسهنَّ ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا﴾ من غير حاجة لكم إليهنَّ، أي لا تقصدوا بالإمساك تطويل العدة بالرجعة في آخر العدة والطلاق بعدها ﴿لِّتَعْتَدُواْ﴾ أي ليظلموهن بتطويل الحبس فيلجؤوا إلى الاقتدار بالمال ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ الإضرار ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ برجوع وبال أضرار عليه وهو غضب الله وسخطه عليه.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ لعبًا وسخرية بأن يطلق الزوج ويقول: كنت لاعبًا وقصدتُ به مزاحًا واستهزاءً، أو ينكح أو يعتق ويقول: كنت لاعبًا. قال عليه السلام: «**خمسة جِدهنَّ جدٌّ وهزلهنَّ جدٌّ: النكاح والطلاق والعتاق والنذر والرجعة**». ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ أي الإسلام والإيمان وأحكامه ﴿عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ أي التفقه في الدين أو العلم بالكتاب وأحكامه وبما فيه والعمل على مقتضاه ﴿يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ أي بالنازل عليكم ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ من المخالفة وعدم إصغاء المواعظ ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ مما أسررتم وأعلنتم ﴿عَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: 231] علمًا حضوريًا ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سبإ: 3].

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ نزلت في امرأة طلقها زوجها بطلقةٍ واحدةٍ ثم تركها حتى انقضت عدتها ثم خاطبها وأراد رجعتها أو هي تريد الرجعة فيمنعُها أخوها ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ لا تمنعوهنَّ. العضل المنع من التزوج ﴿أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾ الأولى بنكاح جديد ﴿إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البَقَرَة: 232] بنكاحٍ جديد ومهر

صالح. قيل: مهر المثل، وعن أبي حنيفة: إنها إذا تزوّجت بأقل من مهر المثل فللأولياء أن يعترضوا إلى أن يكمل وإلا فلهم أن يفرقوها منه، خطاب إلى الأولياء والجار والمجرور متعلق بينكحن. هذا دليل من قال: لا نكاح إلا بولي ولو كان للمرأة إنكاح نفسها لم يكن هناك للعضل ولا للنهي فائدة. قال عليه السلام: «**لا نكاح إلا بولي**».

﴿ذَٰلِكَ﴾ [البَقَرَة: 232] النهي والخطاب للجميع على تأويل أو لكل واحد أو لأن الكاف لمجرد الخطاب من غير تعيين المخاطب. وقيل للرسول عليه السلام على طريقة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطَّلَاق: 1]، ﴿يُوعَظُ بِهِۦ﴾ أن ينهى ويأمن ﴿مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ﴾ بالحساب والثواب والعقاب ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ أي العمل بمقتضى المذكور ﴿أَزۡكَىٰ لَكُمۡ﴾ وأطهر لقلوبكم وأنفع وخيرًا لكم لأنه لما كان في نفس كل واحد علاقةً وحبّ لم يؤمن أن يتجاوز إلى خلاف ما أمر الله ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾ ما في قلوبكم من الحبّ والبغض والغضبية وما فيه صلاحكم من الأحكام والمصالح ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: 232] خيركم وصلاح دينكم ومنافع دنياكم وعقباكم لقصور عقولكم. فيه دلالة على أن الولي إذا منع التزوّج فللحاكم أن ينكحها.

﴿۞ وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفۡسٌ إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ وَعَلَى ٱلۡوَارِثِ مِثۡلُ ذَٰلِكَۗ فَإِنۡ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٖ مِّنۡهُمَا وَتَشَاوُرٖ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَاۗ وَإِنۡ أَرَدتُّمۡ أَن تَسۡتَرۡضِعُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا سَلَّمۡتُم مَّآ ءَاتَيۡتُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٢٣٣﴾﴾

﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ﴾ المطلقات ﴿يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ﴾ [البَقَرَة: 233] أربعة وعشرين شهرًا على سبيل الاستحباب وإن وجدت مرضعات أخرى وإلا فإرضاعهنَّ لهم واجب على عوض أو تبرع ﴿فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾

[الطَّلَاق: 6] ثم بيّن مدة الرضاع، يعني أن حق الرضاع على الوالدات حولان كاملان ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ من الآباء لأن الأب يجب عليه إرضاع الولد دون الأم لقوتهم وكمال عقلهم وفعلهم وعملهم ولذا صرف الوالد إليه لا إليها ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ﴾ [البَقَرَة: 233] فلا يجبر عليها وعليه أن يجد له مرضعةً إلا إن تطوعت الأم ولا يجوز استئجار الأم عند أبي حنيفة ما دامت زوجةً أو معتدّةً، وعند الشافعي رحمه الله يجوز. وإذا انقضت عدّتها جاز بالاتفاق. نعم يجب على الأم إذا لم يقبل إلا ثديها أو كان الأب عاجزًا عن الاستئجار. قال ابن عباس: إذا وضعت لستة أشهر فإنها ترضعه حولين كاملين، وإذا وضعت لتسعة أشهر أرضعت أحدًا وعشرين شهرًا ليتمّ ثلاثين شهرًا ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: 15].

﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ﴾ أي على الأب ﴿رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البَقَرَة: 233] على قدر الميسرة، فالنفقة والكسوة على الأب والحضانة على الأم، وإنما لم يقل على الأب ليعلم أن الأولاد للآباء لأن الزوجة إنما تلد للزوج والأبوين يطلق على الأم [كقوله تعالى:] ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾ [النِّساء: 11].

﴿لَا تُكَلَّفُ﴾ أي لا يلزم ﴿نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا﴾ بضم الراء وفتحها وكسرها، فالأول نفي، والثاني نهي أي لا توصل الأم في الضرّر بسببه بأن ينزع الولد منها إلى غيرها بعد أن رضيت بإرضاعه وألِفها الصبي ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ بإلقاء الزوجة أو الأم للولد على الأب. وقيل: لا يضاره والده بما يكره على إرضاعه بعد أن قبل عن غيرها وهي كأمه وهو غير واجب ولا مولود له بأن يحمل عليه أن يعطي الأم إذا لم يرضع الولد إلا منها أكثر مما يجب لها عليه.

﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ﴾ عطف على المولود له أي وارث الصبي ﴿مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ [البَقَرَة: 233] أي مثل ما كان على الأب فتكون النفقة والإرضاع عليه إذا لم يكن له أب، اختلف فيه قال البعض: هم عصبته كائنًا مَن كان مِن الرجال دون النساء مثل الجد والأخ وابنه والعم وابنه ونحوهم، هذا قول عمر رضي الله عنه.

وقال أبو حنيفة وصاحباه: لا يجبر على نفقة الصبي إلا ذو رحمه الذي هو المحرم. وقال الشافعي ومالك: والمراد نفس الصبي الذي هو وارث أبيه المتوفى إن كان له مال ولا أجبر أمه على إرضاعه ولا يجبر على نفقته إلا الوالدان. قال

أحمد وجماعة: هو وارث الصبي كائنًا مَن كان مِن الرجال والنساء.

﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا﴾ أي الوالدان القطع عن الرضاع حال كونه ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا﴾ أو فصالًا يكون عن تراضٍ منهما ﴿وَتَشَاوُرٍ﴾ وهو المشورة والمشاورة استخراج الوارث من شاورت الدابة وشاورتها إذا أخبرت ما عندها من العدو وإنما اعتبر اتفاقهما أما الأب فلكونه وليًّا، وأما الأم فلوفور شفقتها ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ لا إثم ولا حرج ﴿عَلَيْهِمَا﴾ على الأبوين في العضل ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ﴾ أيها الآباء أو الوارثون ﴿أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ﴾ المراضع ﴿أَوْلَٰدَكُمْ﴾ حذف للاستغناء عنهم منقول من أرضع ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم﴾ [البَقَرَة: 233] بالمد أعطيتم وبالقصر أي جئتم إليه إحسانًا من قبيل ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المَائدة: الآية 6] أو إلى أمهاتهم ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ صلة سلمتم أي بالوجه المتعارف المستحق. وجواب الشرط محذوف يدل عليه ما قبله، والتسليم ليس بشرط للجواز والصحة بل لتكون المرضعة طيبة النفس راضيةً لإصلاح شأن الصبي احتياطًا لأمره. وقيل: المراد بالمعروف هو أن يكون الأجر حلالًا لأن المرضع إذا أكلت الحلال كان اللبن أنفع للصبي وأقرب إلى صلاحه. قال عليه السلام: «**الرِّضاع يغيِّر الطِّباع**».

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فيما عيَّن لكم من أحوال الرضاع وأحكام المرضع ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الاسترضاع والإضرار ومخالفة ما أمر الله وموافقته ﴿بَصِيرٌ﴾ [البَقَرَة: 233] لا يخفى عليه شيء مما خَلَقَ وخُلِقَ له.

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾ أي الأزواج الذين يموتون منكم ﴿وَيَذَرُونَ﴾ يتركون ﴿أَزْوَٰجًا﴾ أي نساء مزوجة ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ ينتظرون بعدهن بالاعتبار أو خبر الذين باعتبار حذف المضاف ﴿بِأَنفُسِهِنَّ﴾ [البَقَرَة: 234] أصل توفي أخذ الشيء وافيًا كاستوفى كذا في «الكشاف» وفيه ما فيه، والباعث على تقدير المضاف خلوّ الخبر عن العائد إلى المبتدأ والأحسن أن يقدر العائد بعد الجملة أي ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ

مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ﴾ بعدّتهن، فعلى ما مرّ لا حاجة إلى تقدير المضاف. قرأ علي عليه السلام بفتح الفاء يتوفون أي يستوفون آجالهم. وفي «الكشاف»: والذي يحكى أن أبا الأسود الدُّؤلي كان يمشي خلف جنازة فقال له رجل: من المتوفي؟ بكسر الفاء، فقال: الله، وكان أحد الأسباب الباعثة، لعلي أن أمر به أن يصنع كتابًا في النحو مناقضة هذه القراءة.

﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البَقَرَة: 234] متعلق بيتربصن، ويختص بغير الحامل بدليل ﴿وَإِن كُنَّ أُولَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: 6] فتكون ناسخة لعمومه كنسخ (وأن تجمعوا بين الأختين)، قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النِّساء: 3].

واعلم أن الغرض من العدة إبراء الرَّحم عن شغل النطفة لئلا يختلط المنيان ويتعين النسب، وهذا يحصل بثلاثة أقراء والسرّ في هذا العدد أن الممات ضد الحياة وهي إنما تظهر في هذه المدة ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون: 12، 13] إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: 14] وهذه الاستحالات إنما تحصل في هذه المدة لأن الله تعالى يدبر أمر المخلوقات من السماء إلى الأرض، ففوض تدبيرًا لنطفة وتغييرها إلى كوكب زحل أربعين يومًا وتدبيرًا لعلقة إلى المشتري كذلك تدبيرًا لمضغة وتفصيل الأجزاء وتقسيمها إلى الأعضاء وتصويرها إلى المريخ مثله. ثم إذا انتقل التدبير إلى الشمس نفخ فيه الروح في عشرة أيام ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البَقَرَة: 196] ومجموع هذه المدة أربعة أشهر وعشرًا. وأشار إلى هذا أفضل البشر عليه السلام: «**إن الله تعالى يجمع خلق أحدكم في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، وأربعين علقةً، وأربعين مضغةً ثم يبعث أربع ملك بأربع كلمات**» إلخ. فلا تغفل عن الإشارة إلى هذا السرّ في سائر أصناف العدة.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ انقضاء العدّة ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الأولياء والأئمة وجماعة المسلمين ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ﴾ من الزينة والكحل والخضاب ودهن الرأس بأي دهن كان ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ حال كونه على الوجه الشرعي والتزوج بزوج آخر كفؤًا فلا يمنعن من ذلك ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البَقَرَة: 234] أي عالم بالظاهر والباطن من الطاعة والمعصية. قيل: يستوي

المدخول وغير المدخول الصغيرة والكبيرة في وجوب العدة من رفض الزينة والمنع من النكاح والخروج وغير ذلك.

إشارة وتأويل

تكرار الطلاق إيماء إلى كيفية التردد في النشأة وتكرار الدورات وتكثير النشأة خلعًا ولبسًا، ورجعة ونكسًا. وإنما ذكر الطلاق صريحًا وكنايةً في إثنا عشر موضعًا إشارة إلى عدد الأدوار والأكوار الكليّة البسيطة والمركبة من الجمالية الوجودية والجلالية العدمية، والصورة الجمعية بينهما.

والطلاق يترتب على النكاح الساري في تمام الذراري الجاري في دنياوات الأدوار والأكوار، والطلاق هو الفراق والهجرة والافتراق بين الجزء الأفضل الإلٰهي الروحي والجزء الأدنى الأخس البدني وهو لا يحصل إلا في الآخرة ويوم القيامة. قال النبي ﷺ: «**مَن مات فقد قامت قيامته**».

فأحكام النكاح إنما هي في أطوار الدنيا وإعلام الطلاق والانفكاك والافتراق إنما هي في مقتضيات أدوار الآخرة ومرتضيات أكوارها.

﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ [البَقَرَة: 233] قال الصادق: «**الدنيا طيرنا والآخرة أمّنا فإن لم تسترضع من طيرك فلا تسترضع من أمك والله بصير بأحوالنا**».

واعلم أن زوج الروح إذا نكح النفس وأدخلها حكمه تحت المعارف وباشر بها تولّد منهما القلب والأخرى والأوْلى أن ترضع بنفسها هذا الولد وتدبره تدبير قوتيّ النظرية والعملية ليحصل فيه ما في طبعها من القابلية الإلٰهية والتجليات الذاتية والصفاتية والأفعالية والآثارية والإدراكات الفطرية والأفعال الملكية والأخلاق الإلٰهية، ولا تسترضع في إضاعه من الطبيعة الجسمانية والقوة البدنية الظلمانية كي لا يسري الظلمة منها في ولد القلب. قال النبي عليه السلام: «**الرضاع يغيِّر الطباع**».

﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البَقَرَة: 233] وهما استكمال مراتب القوة النظرية والعملية باستيفاء مقتضيات كواكب الأسماء السبعة الذاتية التي مظاهر الإنسان الصغير آثار نور أنوارها في البدن الإنساني هي الأطوار السبعة القلبية، وفي بدن الإنسان

الكبير هي الإنسان هي النجوم السبعة فاستكمال البدن وقواه إنما يكون بتكميل الظاهر والباطن أي البدن والروح في مدة خمسة عشر دورًا فحينئذ استعد لأن يرجع إلى المبدأ الأولي والمنشأ الأزلي، ولذا كلّف الشارع المولود بما يتوقف عليه الرجوع والعروج عن الأحكام الشرعية الدينية والأعلام عن اليقينية. وكذا من ازدواج الولاية والنبوة أو من ازدواج قوسي التنزل والترقي أو الشريعة والطريقة أو السير إلى الله من الله والعبودية والربوبية بتولد الصورة الجمعية والحقيقة الكلية الإحاطية وهي المولود الإلٰهي الذي سوّى بدنه ونفخ فيه روحه ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [ص: 72].

مطلب عدم اندراس حب النبي ﷺ

ومدبر هذا المولود ومرضعه هو الله «**أبيت عند ربي فيطعمني ويسقيني**»، ﴿قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 37] ولذا لا تأكله الأرض لأن بدنه من طين الجنة قال النبي عليه السلام: «**خلق الله الأغنياء من طين الدنيا وخلق الفقراء والأنبياء من طين الجنة، فمن أراد أن يكون في عهد الله فليكرم الفقراء**».

﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ كالمجذوب السالك والسالك المجذوب، وأما السالك الغير المجذوب والمجذوب الغير السالك فهما ناقصا الرضاعة والطباع ولذا قيل: لا تقتدي بهما ولا تنكر عليهما. وأما المجذوب الغير السالك فلما ورد في الحديث. والسالك الغير المجذوب فلأنه ما صعد أسماء الحقيقة لتقيده بأحكام الشريعة وأعلام الطريقة.

وأن الدِّين المحمدي عبارة عن ثلاثة: الشريعة والطريقة والحقيقة كما قال النبي عليه السلام: «**الشريعة أقوالي، والطريقة أفعالي والحقيقة أحوالي**». ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ﴾ أي الروح والولاية وغير ذلك ﴿رِزْقُهُنَّ﴾ من المعارف الفطرية والعلوم النظرية ﴿وَكِسْوَتُهُنَّ﴾ أي التقوي وعصمة الله ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي على ما تقتضيه الحكمة الإلٰهية والمشيئة الذاتية بحسب اقتضاء استعداداتهم، فإن رزقَ المجذوبِ السالك والسالك المجذوب وكسوتهما متغايران ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ﴾ بالرياضة المفرطة والمجاهدة المخبطة.

﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ﴾ بكثرة التوجه في رعاية القوة الفاعلية ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَۗ﴾ أي على القوى الروحانية مثل ما كان على الروح ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ﴾ [البَقَرَة: 233] أي القطع من الإرضاع بالعلوم الفطرية والمعارف الكونية إلى شهود الصريح والكشف الصحيح والتحقق بالبقاء بالله والكلية والمظهرية وكمال الجمعية وتمام الإحاطة بالمراتب الجزئية والكلية ومقتضيات الأسماء الذاتية وأدوارها السرمدية والإلٰهية والربوبية والربانية والحسية منهما أي من الزوج وأم النفس، أو من أب ربّ الجمال ومدبّر الجلال.

﴿وَتَشَاوُرٍ﴾ أي من نعت معيتهما وصور جمعيتهما في مقتضى الأدوار ومرتضى الأكوار، فمن ارتضع الأكوار من ثدي مطلق الولاية رضاع شهود الجمال المطلق صار مجذوبًا بلا سلوك، أو من ثدي الولاية والنبوة معًا صار مجذوبًا سالكًا وقع أولًا على الجمال المطلق وسالكًا مجذوبًا بأن كان بالعكس فقط أي وقع أولًا على الجمال المقيد ثم المطلق وإن وقع على الجمال المقيد فقد صار عابدًا زاهدًا عالمًا قسريًّا أرشد الأولياء. ومن ارتضع من طابة الجلال المقيد فقط صار كافرًا وإن وقع نظره على الجمال المقيد أيضًا صار منافقًا وعالمًا مقلدًا، ومن ارتضع من ثدي الولاية والنبوة والقوة الإلٰهية والكونية والربوبية والعبودية رضاع شهود الذات بجميع الأسماء والصفات في جمعية الأدوار والأكوار ومعية الأطوار ببلوغ الأنوار وتطور شهود الأسرار صار عارفًا محققًا وحكيمًا فاضلًا جامعًا مدققًا.

﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾ أي انقطاعًا عن إرضاع اسم خاص في دور مخصوص ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَاۗ﴾ ولا حرج ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ من اسم جامع ومرتبة كلية وصورة جمعية ﴿إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ﴾ أي إذا فوضتم ما كان لكم من النفوذ العلمية والأجناس الكشفية ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البَقَرَة: 233] أي بجميع أعمالكم وتمام أحوالكم في دورة جامعة وكورة شائعة ذائقة بأي وجه يظهر وبأي وجه كيفية يخفى ويحيى.

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾ قال الصادق رضي الله عنه: «المتوفى عنها زوجها ثلاثة: أما النفس فزوجها الهوى، وأما القلب فزوجها العلم، وأما الروح فزوجها

النور. فإن بقي هؤلاء عن أزواجها فلا خير فيهن ولا يصلحن أبدًا إلا بالنار التي وعدها الله لأعدائهم». ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ فإن مراتب العلم النظري أربعة وكذا مراتب نور الروح وهو الشهود أيضًا ومبادىء العلم والشهود وهو الحواس الظاهرة والباطنة عشرة ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ [البَقَرَة: 234] أي استوفين في تلك المراتب من أنواع العلوم ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ يا صواحب الأطوار السبعة القلبية الغائبين عن مقتضيات القلب والنفس والروح إذا رجعتم عن تَيهِ الحيرة والفناء إلى المدارك النظرية الشهودية والمشاهد الشهودية فيما فعلن في أنفسهن من التزيين بحلل العلوم الحسية والإدراكات النفسية ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البَقَرَة: 234] وما تعملون نافذ يسير.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ﴾ تفسيره أي لوّحتم وهو إيهام المقصود وإيماء إليه بما لم يكن حقيقة ولا مجازًا ولا كنايةً، الكناية هي الدلالة على الشيء بذكر لوازمه كطويل النجاد للطويل وكثير الرماد للمضياف ﴿مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي طلب نكاح النساء في العدة كقولك: إنك لجميلة، وإنك صالحة، وأن عزمي أتزوج، ولعلَّ الله يسوق إليك خيرًا، وغير ذلك من العرضات. والخطبة في الأصل التماس النكاح وطلبه ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ﴾ أي أسررتم وأضمرتم ﴿فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ من خطبتهن ونكاحهنَّ ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ ولا تنصرفون عنهنّ، فيه نوع توبيخ وتعبير ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ﴾ استدراك عن محذوف دل عليه ﴿سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ أي فاذكروهن ﴿سِرًّا﴾ [البَقَرَة: 235] مفعول به أي جماعًا لا يصف الراغب نفسه بكثرة الجماع ولا تواعدوهن النكاح في السرّ فإنه مستقبح جدًا

﴿إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ استثناء من المفعول المطلق أي لا تواعدوهنّ مواعدةً قط ﴿إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا﴾ [البَقَرَة: 235] أي مواعدة معروفة غير منكرة أي عدةً حسنةً ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ [الطّلَاق: 1] وأن الله يحب حسن المعاشرة وطيب المباشرة وهيَّأ المباشرة لا مستقبحة مصرّحة كقوله أي أجامع كل يوم وليلة كذا وكذا ولي ضربات شديدة وإيقاعات سديدة وغير ذلك من تصريح المشبّهات القبيحة.

﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾ أي لا تنووا ولا تقصدوا في العدّة فيه مبالغة للنهي. قيل: لا تقطعوا فإن أصل العزم القطع ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البَقَرَة: 235] أي العدة المفروضة لكونها فرضًا ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البَقَرَة: 183] أي ينقضي ﴿أَجَلَهُۥ﴾ يعني ما كُتِب وفُرِض انقضاء مدته ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ من العزم والوعد والوفاء ﴿فَٱحْذَرُوهُ﴾ ولا تقربونه وخافوا من عقابه ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ يستر الخطيئات ويتجاوز عن العقوبات ﴿حَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: 235] لا يعجل بالعقوبة، نزلت في رجل طلق امرأته وكان لم يسمِّ لها مهرًا ولم يجامعها.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ ينفيه من مهر مزور لأنه لا بدعةَ في الطلاق قبل المسيس. قيل: لما أكثر الرسول عليه السلام النهي عن الطلاق بقوله: «**أبغض الحلال إلى الله الطلاق، وأن الله يبغض كل مطلاق مذواق**» ظنّ أنَّ فيه حرجًا فنفى أي لا بأس ولا إثم ﴿إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ أي لا تجامعوهن، قرئ بالألف تماسوهن ﴿أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشرا﴾، ﴿أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي سمُّوا لهنَّ مهرًا وصَداقًا مفروضًا معيّنًا أي ما دام لم يعرضوا لهنَّ أو حتى تفرضوا. وفريضةً مفعول به قيل: معناه لا جناح عليكم إن طلقتموهن ما لم تمسوهنَّ في أي وقت شئتم، حائضًا أو طاهرًا، بخلاف المدخول بها ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ [البَقَرَة: 236] أعطوهن،

معطوف على مقدرًا طلقوهنّ ومتعوهنّ ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ﴾ أي الغني مقدار المهر والصداق ﴿وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ أي الفقير، مفوض إلى رأي الإمام والحاكم. قال المفسرون: هذا في رجل يتزوج المرأة ولم يسمِّ لها صداقًا فطلقها قبل أن يمسها فلها المتعة لا فريضة لها بالإجماع. واختلفوا في متعة المطلقة فيما عدا ذلك فقال قوم: لكل مطلقة متعة على أي وجه وقع الطلاق سواء دخل بها أو لم يدخل، فُرِض لها أو لم يفرض، إذا كان الطلاق من قِبله، أما إذا كان الطلاق من قِبلها فلا متعة لها في العدة ولا مهر فرضتم أو لم يفرض. قال أبو حنيفة: المتعة إحسان والأمر بها ندب وقدر درع وملحفة. وعند الشافعي: لأعلاها خادم وأوسطها ثلاثة أثواب: درع وخِمار وإزار ودون ذلك وقاية أو شيء من الوَرِق. وكان شريح تمتع بخمسمائة درهم وعبد الرحمٰن بن عوف رضي الله عنه طلق أم أبي سلمة على جارية سوداء، ومتع الحسن بن علي رضي الله عنهما على امرأة له بعشرة آلاف درهم فقالت: متاع قليل من حبيب مفارق. والمعتبر في التقدير حال المرأة لا الرجل.

﴿مَتَٰعًا بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ تمتعًا بالوجه الذي يستحسنه الشرع والمروءة والعرف ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البَقَرَة: 236] صفة لمتاعًا أو مصدرًا مؤكدًا أي حق حقًّا على الذين يحسنون إلى أنفسهم بالمنازعة إلى الامتثال وإلى المطلقات بالتمتع، وسماهم محسنين ترغيبًا وتحريضًا.

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ هذا فيما سُمِّي لها صداقًا ﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي جئتم لهنَّ صداقًا وسمَّيتم لهنَّ مهرًا ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ أي نصف المهر المسمَّى. قرأ بضم النون وهما لغتان وإن لم يسمِّ لها فلها المتعة ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ [البَقَرَة: 237] أي يترك الزوجات المطلقات فلا يأخذون شيئًا من

الأزواج، لفظة جمع يستوي فيه المذكر والمؤنث، ويفرق بالتفريق فإن الواو في المؤنث أصلي وزنة يفعلن. وفي المذكر ضمير جمع تقديره يعفو بحذف لام الفعل ﴿أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ أي الولي الذي يلي عقدة نكاحهن، هذا قول الشافعي رحمه الله في القديم. قيل: هو الزوج وعفوه أن يصرف كل الصداق إليهن، وهو قول أبي حنيفة والشافعي آخرًا. ويسمي الزيادة على النصف عفوًا إما لأن الغالب عندهم أن يسوق المهر إليها عند التزوج فإذا طلقها يستحق أن يطالبها بنصف ما ساق، فإذا ترك فقد عفى أو سمى بطريق المشاكلة. والأول أشكل ظهر لأن العفو يطابقه ويشعر بأن الطلاق قبل المسيس مخيّر للزوج غير منتظر بنفسه وهو مذهب بعض الحنفية.

﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ مبتدأ وخبر أي وترك بعضم بعضًا حقه أقرب للتقوى أي لأجله يريد الوجه الثاني وهو عفو الزوج على وجه التخيير ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ الفضل والإحسان الجاري بإعطاء كل المهر لها وترك المرأة نصيبها منه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي بأعمالكم الظاهرة والباطنة ﴿بَصِيرٌ﴾ [البَقَرَة: 237] فيعلم ما جرى بينكم مما يلزم النكاح والطلاق.

﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾

﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ المكتوبة أي داوموا على محافظتها في المواقيت بعد رعاية شرائطها ورعاية أركانها وهيئاتها ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البَقَرَة: 238] بين الإيجاب المبطل والتطويل والإعجاز الممل المعطل. قال بعضهم: المراد بالوسطى سهمًا باعتبار توسط وقتها بين أوقاتها وهي العصر بتوسطها بين صلوات الليل والنهار.

مطلب الصلاة الوسطى

وقال عليه السلام: «**الصلاة الوسطى صلاة العصر**». قيل: كان في مصحف عائشة: ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى صلاة العصر﴾. عن علي قال: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: «**شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر**».

هذا مذهب أبي حنيفة ومذهب جماعة وعليه الشافعي: هي صلاة الصبح لتوسطها بين الليل والنهار يصلي في سواد من الليل وبياض من النهار ولأنها لا تقصر ولا تجمع إلى غيرها وبين صلاتين يجمعان ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسرَاء: 78] يعني يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار وهو مكتوب في ديوان الليل وديوان النهار ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ [البَقَرَة: 238] طائعين خاضعين، نزل حين كانوا يتكلمون في الصلاة فنهوا عنه قالوا: لا صلاة مكتوبةً فيها قنوت سوى صلاة الفجر، فظهر أن المراد صلاة الفجر.

قيل: ما زال رسول الله ﷺ يقنت في صلاة الغداة حتى فارق الدنيا. عن ابن عباس قال: قنت رسول الله ﷺ حتى مات، وأبو بكر حتى مات، وعمر حتى مات، وعلي حتى مات رضي الله عنهم.

وبعضهم: هي صلاة الظهر لأنه وسط النهار. عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن لله في سماء الدنيا حلقة تزول فيها الشمس فإذا زالت الشمس سبَّح كل شيء فأمر الله تعالى بالصلاة في تلك الساعة وهي الساعة التي تفتح فيها أبواب السماء فلا تغلق حتى يصلّى الظهر ويُستجاب فيها**»، ولأنها أوسط صلاة النهار ومن خصائصها أنها أول صلاة فُرِضَت وأول صلاة توجّه رسول الله عليه السلام وأصحابه إلى الكعبة.

وبعضهم: هي صلاة المغرب، ألا يرى أنها وسط ليست بأقلها ولا أكثرها ولا تقصر في السفر. في الحديث: «**إن أفضل الصلاة عند الله صلاة المغرب لم يحطها الله عن مسافر ولا عن مقيم، فتح الله بها صلاة الليل وختم بها صلاة النهار، فمن صلّى المغرب وصلى بعدها ركعتين بنى الله له قصرًا في الجنة. ومن صلى بعدها أربع ركعات غفر الله له ذنب عشرين**» أو قال: «**أربعين سنة**».

وعن بعضهم: صلاة العشاء الآخرة لأنها بين صلاتين لا يقصران وفي طرفي الليل والنهار. عن النبي ﷺ: «**من صلّى العشاء في جماعة كان كقيام نصف ليلة، ومن صلى الفجر في جماعة كان كقيام ليلة**». وقال بعضهم: هي إحدى الصلوات الخمس لا على التعيين، والقول الأول يشتمل جميع الأقوال الخمسة، فمن راعاها فقد أدرك الصلاة الوسطى. قال بعضهم: أخفى الصلاة الوسطى في جملة

الصلوات المكتوبة لتحافظوا على جميعها رجاء إدراك الوسطى كما أخفى ليلة القدر في ليالي رمضان واسمه الأعظم في جميع الأسماء، وساعة الإجابة في ساعات الجمعة، حكمة منه في فضله ورحمة على خلقه.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ من العدو وغيره ﴿فَرِجَالًا﴾ أي فصلُّوا حال كونكم راجِلِينَ ﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾ أي راكبين أي مشاةً على أرجلكم أو ركبانًا على ظهور دوابكم ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ أي زال الخوف عنكم عن العدو وغيره ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي صلُّوا الصلوات الخمس برعاية حقوقها أو صلاة الأمر أو الشك ﴿كَمَا عَلَّمَكُم﴾ أي واذكروا ذكرًا يكون مثل علمكم من الشرائع وآدابها ورعاية حقوقها وأركانها في حالتي الخوف والأمن، فما مصدرية أو موصولة ﴿مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: 239] في بداية الحال من آداب الصلاة في الحالتين وأركانها وشرائطها وكيفية آدابها، والموصول مفعول علمكم.

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾ يا معشر الرجال، مبتدأ ﴿وَيَذَرُونَ﴾ يتركون ﴿أَزْوَاجًا﴾ نساءً من بعدهم ﴿وَصِيَّةً﴾ بالنصب مصدر محذوف الفعل أي يوصون وصيةً، والجملة خبر والذين، وقرئ مرفوعًا أي فعليهم وصية. والجملة خبره أو وحكم الذين يتوفون وصية ﴿لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا﴾ نصب بالوصية أو بفعلها المقدر أي الحكم أن يوصوا لهن ما يتمنون به متاعًا ﴿مَّتَاعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ﴾ من النفقة والكسوة والسكنى أما صفة متاعًا أو متعلق بفعله المقدر أي متعوهن متاعًا إلى الحول وهو نفقة سنة لطعامها وكسوتها وسكناها وما تحتاج إليه ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البَقَرَة: 240] صفة متاعًا أو حال منه.

قال المفسرون: نزل في رجل من الطائف هاجر إلى المدينة وله أولاد معه أبوان وامرأة، فمات فأنزل فأعطى رسول الله ﷺ أولاده ووالديه من ميراثه وأمر أن ينفقوا على امرأته من تركته حولًا وذلك لما كان في بدو الإسلام إذا مات وترك امرأةً اعتدّت سنة في بيت زوجها ولم يكن لها الميراث، فإن خرجت من بيت زوجها فلا نفقة لها. وكان الرجل يوصي بذلك فإذا نزلت آية المواريث نسخ الله نفقة الحول بالربع والثمن وعدة الحول بقوله: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البَقَرَة: 234].

﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾ من المسكن من قِبَل أنفسهن قبلَ الحولِ مِن غير إخراج الورثة ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ يا أولياء الميت ﴿فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ أي التشوق للتزوج في قطعه النفقة عنهن إذا خرجن قبل الانقضاء، أو في ترك منعهن من الخروج، خيّرها الله في ذلك إلى أن نسخه بأربعة أشهر وعشرًا ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البَقَرَة: 240].

إشارة وتأويل

﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾[البَقَرَة: 238] أي لازموا على الإقبال إلى شهود مطلق الجمال في المجالي الخمس مبتدؤها موطن الإنس ومنتهاها مرتبة جمعية الإنس، فالمحافظ هي مداومة شهود طور السرّ سريان ذلك الجمال في مقام الغيب عند خمود النفس عن دواعي الشك ودعاوى الريب وموافقة القلب بالأمر بالاستقامة إلى حصول الشيب ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هُود: 112].

قال عليه السلام: «**شيبتني هود**». ورعاية الروح في مشاهدة الوصل ورعاية العقل شرائط الشهود وآدابه ظاهرًا وباطنًا وبإقامة الحدود وأركانه ودفع الخواطر الشاغلة عن هذا الشهود.

والصلاة الوسطى هي أن يشاهده في جميع المجالي في النشأة الكاملة التي هي وسط بين قوسي الوجوب والإمكان وقوسي النزول والعروج والسير إلى الله ومن الله في الجمعية العظمى والكلية الكبرى في السير بلا سير ومع كل سير مع ذلك السير.

﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ۝٢٤١﴾

﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلْمَعْرُوفِۖ﴾ تفسيره لما ذكر علم المتعة وأعاد ذكرها وأثبتها للمطلقات تنبيهًا على عموم حكمها وإفراد بعض العام بالحكم لا يخصصه إلا إذا جوزنا تخصيص المفهوم بالمنطوق ولذلك أوجبها سعيد بن جبير لكل مطلقة وأول غيره بما يعم التمتع الواجب والمستحب ويجوز أن يكون اللام للعهد وتكريره للتأكيد أو لتكرير القصة بالمعروف على حال الزوج ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البَقَرَة: 241] أي المؤمنين المتقين الشرك. قال علي كرم الله وجهه: لكل مؤمنة حرة أو أمة متعة وقرأ هذه الآية. ولذا قال هناك ﴿عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وهنالك ﴿عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التّوبَة: 91] والأحوط التعميم إذ لا فائدة خير من الإعادة كما هو شأن أهل التقوى.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢٤٢﴾

﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل بيان أحكام الطلاق وما يترتب عليه ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 242] مضمونها وتعلمونها بصريح العقل.

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۝٢٤٣﴾

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تعجب وتقرير لمن يسمع بقصتهم من أهل الكتاب وأصحاب التواريخ قد خاطب من لم ير ولم يسمع فإنه صار مثلًا في التعجب ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ كانت قرية اسمها داردان وقيل واسط، وقع بها الطاعون فخرجت طائفة فهلك أكثر من بقي في القرية وسلم الذين خرجوا فلما ارتفع الطاعون رجعوا سالمين فقال الذين بقوا: كان أصحابنا أجزم منا ولئن وقع الطاعون ثانية لنخرجنَّ إلى أرض الأوفاء، فوقع فيها الطاعون من قابل فهربت عامة أهلها حتى نزلوا واديًا يبتغون فيه النجاة ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ [البَقَرَة: 243] فناداهم ملك من أسفل الوادي وآخر من أعلاه إن تموتوا فموتوا جميعًا، كانوا ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف أو

ثلاثون أو سبعون ألفًا ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَـٰهُمۡۚ﴾ [البَقَرَة: 243] الله ليعلموا أن الحذر من الموت لا ينفع بل لا يمكن ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ﴾ [النِّساء: 78].

واعلم أن الطاعون إما اسم لورم حارّ وسمِّي حاصل من أمر سماوي مهلك على سبيل الأكثر، أو اسم لحمى حارّة لازم لهذا الورم الحادث من طعن أرواح أو أملاك يطعنون الخلق بالرماح أو غيرها يشاهدونهم أكثر الخلق سيما الغلمان. وأما الوباء فهو عبارة عن فساد الهواء إما لطول حبسها في موضع كالماء الراكد المتعفن أو الجاري على الأراضي الردية أو الآجام والنباتات السمّية أو الجيف المنتنة المعفنة أو لاختلاطه بالأبخرة والأدخنة الكائنة في الصحارى العتيقة والبراري العميقة وينتقل بالرياح العاصفة إلى المواضع الرطبة القابلة للتعفن وربما يتولد في باطن الأرض أبخرة رَديّة سميّة ويخرج إلى الظاهر ويفسد بها الهواء والماء، وفساد الهواء يغيّر الروح الحيواني ويفسده، ودليل فساد الهواء فرار الحيوانات الزكية كالخطاف واللقلق والغراب فإذا اتحد سمّ الهواء ففروا إلى البراري وقلل الجبال والصحارى طبعًا وعقلًا وشرعًا، أما طبعًا فلا تكن أقل طبعًا من اللّقلق والغراب، أما عقلًا وشرعًا، فلا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة.

مطلب: بيان الطاعون وأسبابه

روي عن النبي ﷺ: «**إذا رأيتم طاعونًا في موضع ففروا في قلل الجبال ولا تدخلوها**» لكونها ساريةً مما ذكرناه بطريقة الحكماء الطبيعية. وأما على قانون الشرع فهو علّة سماوية مشروطة بمادة أرضية وهي فساد نطف الزنا، فإذا أكثر الزنا كثر تعفن النطفة على وجه الأرض تعلق بها أرواح سمّية سماوية يباين كيفية مزاج نوع الإنسان بل كل الحيوانات وبأيديهم رماح وسيف يطعنون ويضربون من تعفن أخلاط بأمر الله وإذنه ومنهم من لم يظهر آثار الطعن في الظاهر بل يبغي في الباقي، وهذا الصنف قلّ ما يخلص إلا ما شاء الله. هذا بحسب الخاصية كما أن قلة المطر فيهن خاصته منع الزكاة. بيت شعر فارسي:

[ابـرنـا يـدا ربـي مـنـع زكـوه   وارزنـا افـتـدوا بـا انـدرجـهـات]

فإذا أراد الله حلول سخطه ونزول قهره وغضبه في قطر من أقطار الأرض أو تخريب موضع أو إهلاك طائفة أو جماعة أمر الله هذه الأرواح لإهلاك قرية أو بلد أو ناحية فبدّل الذين ظلموا قولًا غير الذي قيل لهم: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [البَقَرَة: 59]. وهذه الأرواح جنود الله وعساكر الله إذا أراد إهلاك طائفة أرسلها إليهم مساكن هذه الأرواح في عالم البرزخ والمثال، وتصرفهم في عالم الملك وأعيانه، وأصحاب النفوس الزاكية كالصبيان والرجال والنساء من أهل الصفاء قد يشاهدونهم بصور مختلفة وغيرهم في المجلس الذي يرونهم فيه لا يرون منهم قط.

وهذا دليل صريح على كونهم في عالم المثال إذ مقتضى الحسن إليهم لا يتبدل أصلًا، فإذا تفطنت نزول غضب الله وحلول قهره فعليك بالخروج، وإياك والدخول فيها وإلا فأنت متحير على الله ومستكبر على أمره لعدم المبالاة بشدة بطشه ووفور قهره والفرار مما لا يطاق من سنن الأنبياء المرسلين والأولياء المرشدين المكملين. أما إذا هجت العلة وعمت البلية فلا يجوز الخروج عنها لئلا يتعدى هذه البلية إلى غيرها من البلاد والآنية.

وأما إحياء الموات فإن أمر بني إسرائيل بعد موسى ويوشع بن نون وكالب ابن بوفيا انتهى إلى حزقيل وهو ذو الكفل، وإنما سمي به لأنه تكفّل سبعين نبيًّا وأنجاهم من القتل وقال لهم: اذهبوا فإني إن قتلت كان خيرًا من أن تقتلوا. فلما مرّ حزقيل بأولئك الموتى وقف شجعيا بن أباني ومن أحوالهم فأوحى الله تعالى: يا حزقيل أتريد أن أُريك آية من آياتي وأريك كيف أحيي الموتى؟ قال: نعم، فأحياهم الله عزَّ وجلَّ وكانت أجسادهم وعظامهم قد تفرقت ومزقتها الطيور والسباع فنادى حزقيل: أيتها العظام إن الله يأمركم أن تكسوا اللحم، ثم نادى: أيتها الروح إن الله يأمركم أن تعدن إلى أجسادكم، فقاموا جميعًا وعليهم ثيابهم التي ماتوا فيها وكبروا تكبيرةً واحدة وقالوا: سبحانك ربّنا وبحمدك لا إلٰه إلا أنت، فرجعوا إلى قومهم وأنسلوا بعدما أحياهم الله عزَّ وجلَّ وعاشوا دهرًا يعرفون أنهم كانوا مسحة المولى على وجوههم حتى يأتوا لآجالهم التي كُتبت لهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾ أي منّ وإحسان ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البَقَرَة: 243] منّ والإحسان.

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ طاعة لله أعداءَ لله ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: 244] قال أكثر المفسرين: الخطاب مع الذين أحيوا والبعض أنهم أمروا أن يقاتلوا في سبيل الله فخرجوا من ديارهم فرارًا من الجهاد فأماتهم الله ثم أحياهم فأمرهم أن يعاودوا الجهاد أي لا تحذروا الموت وقاتلوا أو لأمة محمد ﷺ.

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ مَن استفهامية مرفوعة المحلّ مبتدأ، وذا خبره الذي صفته أو بدل عنه أي إقراضًا حسنًا مقرونًا بالإخلاص من غير شرط وهو مثل تقديم العمل الذي يطلب به الثواب.

قيل: هو المجاهدة والإنفاق في سبيل الله أو إعطاء جميل باستطابة النفس ابتغاء مرضاة الله ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ﴾ أي القرض ونصبه لوقوع جواب الشرط أي فيزيده ﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ﴾ [البَقَرَة: 245] لا يعلم عددها لكثرتها إلا الله.

وقيل: الواحد سبعمائة نصبه على الحال من الضمير المتصرف أو المفعول الثاني لتضمن المضاعفة معنى التعبير أو على المصدر على أن الضعف اسم المصدر وجمعه للتنويع. قال البعض: القرض اسم لكل ما يعطيه الإنسان ليجازى عليه، وفي الآية إضمار أي يقرض عباد الله المحتاجين كما جاء في الحديث: «**إن الله يقول لعبده: استطعمتك فلم تطعمني، واستسقيتك فلم تسقني، واستكسيتك فلم تكسني، فيقول العبد: كيف ذلك يا ربّ؟ فيقول: فلان الجائع وفلان العاري فلم يعد إليه من فضلك فلأمنعك اليوم فضلي كما منعته**».

مطلب: مزيد ثواب القرض

وإنما أمَرَ الله بالصدقة بلفظ القرض إظهار المحبة لعباده المؤمنين إذ لا يستقرض إلا من خاصيته. قال عليه السلام: «**رأيتُ على باب الجنة مكتوبًا: القرض ثمانية عشر والصدقة عشرًا، فقلت: يا جبرائيل ما بالُ القرض أعظم أجرًا؟ قال: لأن صاحب القرض لا يأتيك إلا محتاجًا وربما وقعت الصدقة في غير أهلها**».

﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ﴾ أي يمسك الرزق عن خلقه ﴿وَيَبۡصُۜطُ﴾ بالسّين والصّاد أي يوسعه على من أراد من خلقه أو يقبض بعض القلوب فلا ينشط للخير ويبسط البعض منشط له فتقدم لنفسه ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [البقرة: الآية 245] أي إلى الله أو إلى ما قدمتم فيجازيكم به.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٢٤٦﴾

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ﴾ أي وجوههم وأشرافهم ورؤسائهم، أصله الجماعة من الناس لا واحد له من لفظه كالإبل والرهط والقوم والجيش ﴿مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ﴾ أي موته ﴿إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ﴾ [البَقَرَة: الآية 246] وهو يوشع بن نون أو ابن أفران بن يوسف بن يعقوب بن إسحٰق بن إبراهيم، أو أشموييل، وذلك لأنه لما توفي موسى خلَّف بعده يوشع نبيّهم يقيم فيهم التوراة ثم خلّف حزقيل بعده ثم بعد وفاته عظمت الأحداث فيهم ونسوا عهد الله حتى عبدوا الأوثان، فبعث الله إليهم الناس فجدد فيهم التوراة وأحكامها بعد تركهم إياها، ثم بعث أليَسَع ثم بعد قبضه جلّت الخُلُوف فيهم وعظمت الخطايا وظهر لهم العدو ويقال له ليلثاثا وهو من قوم جالوت وهم العمالقة، وغلبوا عليهم وسبوا عن ذراريهم وأسروا من أبناء

ملوكهم أربعمائة وأربعون، وضربوا عليهم الجزية، وأخذوا توراتهم ووصل منهم ببني إسرائيل بلاء عظيم ولم يكن لهم نبي يتدبر أمرهم وكانوا يسألون الله عزَّ وجلَّ أن يبعث لهم نبيًّا يقاتلون معه، وكان سبط النبوة قد هلكوا فلم يبق منهم إلا امرأة حبلى، فأخذوها وحبسوها في بيت رهبة أن تلد جارية فكانت المرأة تدعو الله أن تلدَ غلامًا، فولدت غلامًا فسمّته أشموييل أي سمع الله دعائي، فكفله شيخ من علماء بيت المقدس فلما بلغ الغلام بعثه الله نبيًّا أتاه جبرائيل عليه السلام والغلام نائم إلى جنب الشيخ قال له: اذهب إلى قومك وبلِّغهم رسالة ربّك، فلما أتاهم كذبوهم وقالوا: استعجلت بالنبوة، قالوا: إن كنت صادقًا ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ استئناف كأنه قيل لهم: ما تصنعون بالملك قالوا: نقاتل.

فحينئذ ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ﴾ أي قاربتم بفتح السين وكسرها ﴿إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟﴾ خبر عسيتم ﴿قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ﴾ أصله أن لا مع أن وتركها في مثل هذه الصورة ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أيضًا شائع نحو: ما لكم لا تؤمنون بالله، ﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾ والمُخرجون قوم جالوت ساكنين في ساحل بحر الروم بين فلسطين ومصر ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر على عدد أهل بدر وهم الذين عبروا النهر ولم يشربوا من مائه ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البَقَرَة: 246] نفوسهم بالقعود عن القتال وترك الجهاد.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ أشموئيل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ [البَقَرَة: 247] حين سأل الله أن يبعث لهم ملكًا فأتى بعصا وقرن فيه دهن القدس فقيل له: إن الملك الذي سألته طوله طول هذه العصاء، وإذا دخل عليك ونفش

الدهن في القرن فهو ملك بني إسرائيل، وطالوت كان سقّاءً يسقي على حمار من النيل، وكان فقدَ حمير لأبي طالون فأرسله بغلامٍ في طلبها فمرّ به ببيت أشموئيل فدخلا عليه ليسألاه عنها إذا نفش الدهن في القرن، فقام أشموئيل وقاس طالوت بالعصا فكان على طوله فدهن رأسه بهذا الدهن وقال له: أنت ملك بني إسرائيل، وكان من أدنى أسباط إسرائيل، فقال لبني إسرائيل: إن الله قد بعث طالوت.

﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ استبعاد أي من أين له التملُّك ﴿عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ﴾ وأولى وأليق ﴿بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾ لأنه كان في بني إسرائيل سبطان سبط نبوة وسبط مملكة والأول لاوي بن يعقوب بن إسحاق، والثاني يهودا بن يعقوب، ومنه كان داود وسليمان، وطالوت ليس من أحدهما بل هو من سبط بنيامين بن يعقوب وكانوا عملوا ذنبًا عظيمًا، كانوا ينكحون النساء على ظهر الطرق نهارًا فغضب الله عزَّ وجلَّ عليهم ونزع المُلك والنبوة عنهم ولهذا أنكروا عليه وادعوا الاستحقاق ﴿وَلَمْ يُؤْتَ﴾ والحال أنه لم يعط ﴿سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ والتملُّك لا يتأتى إلا بمال واسع وسيف قاطع.

قال أشموئيل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ﴾ [البَقَرَة: 247] اختاره وأعلاه ﴿عَلَيْكُمْ﴾ فردًا ولا على ما اعتقدوا أن الملك إنما هو للمال والسيف بأن العمدة فيه إرادة الله ومشيئته، قال: فمن أراد سلطانًا. وثانيًا بقوله: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ﴾ أي سعة ويتحرى ليتمكن من معرفة الأمور السياسية والتدبيرات الملكية والقواعد السلطانية ﴿وَٱلْجِسْمِ﴾ ليكون أعظم خطرًا في القلوب وأقوى قهرًا ومطرًا على مقاومة الأعداء في الحروب. وثالثًا: بأنه حكيم عليم بعواقب الأمور ومقتضيات الأعصار والدهور ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: 247].

إشارة وتأويل

﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ﴾ عن الخلق ولا يخرجون إليهم إلا بمعروف من الحول أي الحول وهم الأولياء الذين غفلوا عن فناء الدنيا وأهلها ومكارهها فتركوا بها، أو المراد النفوس الأمَّارة واللّوامة والملهمة، فإن لكل منها في ترتبها متاع ونصيب

من الدنيا ولذّاتها بمنزلة الدهن للسراج ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البَقَرَة: 228] بقدر الاحتياج فإذا انقطعت منه ومنها انطفى نار شوقها وانتفى نور ذوقها، ولذا قال ﷺ: «**لا رهبانية في الإسلام**»، وبقي سراج الفؤاد والقلب مظلمًا عن الأنوار الإلٰهية والإدراكات الفطرية والتجليات الذاتية والأسمائية ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البَقَرَة: 180] مما نهاه الله مما يضرّ القلب في مسالك السير إلى الله ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾ مثل بيان أحوال النفس والقلب من المصالح والمفاسد يبيِّن ويعيِّن ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ [البَقَرَة: 187] أي تجلياته وأطوار اقتضاءات أسمائه وصفاته.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ أي الأطوار القالبية والنفسية والقلبية تركوا مقتضياتهم ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ [البَقَرَة: 243] ثلاثة آلاف لكل منها ألف إشارة إلى كثرة متعلقاتها ووفور تطوراتها حذرَ الموت الكلي ورهبة من الغوث الأصلي، فقال لهم الله عند التجلي الذاتي: موتوا بالإرادة والاختيار، فماتوا ورجعوا إلى فنائهم الأصلي وجلائهم الحقيقي ثم أحياهم الله الحياة الحقيقية وأبقاهم ببقائه الذاتي.

قال الصادق رضي الله عنه: «مَن أراد أن يخرج من دار الأعداء وحبسه فلا يقدر إلا بالموت عن الهواء ومنه يخرج صار حيًّا بنور المولى وجد المراد والمولى». وإنما قراره في الدنيا بسيماء وقاره مع الخلق بأن ﴿يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ هو بذل الوجود ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا﴾ أي يجعله موجودًا بوجوده ومتحققًا بأسمائه وصفاته وكمال شهوده. وإنما يستقرض من عباده ما أعطاهم من الوجود وما يتبعه ليريهم أحسن تربية لهم ويزيد فضله على فضله من غير تناهٍ ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ﴾ أرواح المحبين ونفوس المتقين بل الأشياء كلها آنًا بعد آنٍ وزمانًا بعد زمان ﴿وَيَبْصُۜطُ﴾ [البَقَرَة: 245] أسرار العارفين وسرائر الموحدين بلطائف التجليات وزين المشاهدات في محافل الجبروت ورياض الملكوت إلى الناسوت.

قال الصادق رضي الله عنه: «القرض الحسن هو قرض المحبة عنهم ويحبونه»، والله يقبضك من الأعداء ويبسط لك الآلاء وأنامك عليه نوم الأولياء وأي يوم مثل هذا.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ﴾ أي الطور السّوي والطور

القلبي والطور النفسي ﴿إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا﴾ أي تجلي من تجلياته أو جذبة من جذباته ﴿مَلِكًا﴾ وهو القوة الفكرية المؤيدة بالعملية ﴿نُّقَٰتِلْ﴾ مع القوى النفسانية والطبيعية ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي السير إلى الله فلما كتب عليهم القتال ﴿تَوَلَّوْاْ﴾ أي أعرضوا عن مقاتلة كفار النفوس والطبيعة الطور النفساني والقلبي ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ [البَقَرَة: 246] أي الطور السّري.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ﴾ أي الفعل الصريح ﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾ أي بملك البدن ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ﴾ من القوى والتبع ﴿ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً﴾ وانتظام الملك إنما هو بالعلم لا الجهل ﴿وَٱلْجِسْمِۖ﴾ [البَقَرَة: 247] أي العظم في البدن وكثرة التصرف وهما العمدتان في الملك وضبطه وإصلاح أموره وربطه ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ﴾ أي العمدة العظمى في إعطاء الملك إنما هي مشيئته الذاتية وعنايته الأزلية إذ ما سواه إما عدم محض لا يؤثر ولا يتأثر بل المؤثر والمتأثر والفاعل والقابل إنما هو ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: 247] علّة في المعنى للحكم.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ [البَقَرَة: 248].

تفسيره:

إن الله أنزل تابوتًا على آدم أي صندوقًا فيه صور الأنبياء من أولاده وفيه بيوت بعدد الأنبياء وآخر البيوت بيت محمد ﷺ من ياقوتة حمراء وهو قائم فيه يصلي وعن يمينه الكهل المطيع مكتوب على جبهته: هذا أول من يتبعه من أمته، وهو أبو بكر، وعن يساره الكهل مكتوب على جبهته: هذا أول من قرن من بعده لا يأخذه في الله لومة لائم.

ومن ورائه ذو النورين مكتوب في جبهته: بارّ من البررة، ومن بين يديه علي ابن أبي طالب شاهر سيفه على عنقه مكتوب في جبهته: هذا أخوه وابن عمه المؤيد بالنصر من عند الله، وحوله عمومته الخلفاء والنقباء ثم انتقل منه إلى شيث، وهكذا إلى أن وصل إلى إبراهيم عليه السلام، ومنه إلى إسماعيل لأنه أكبر ولده، ومنه إلى قيدار وأولاد إسحاق عمه يتنازعون فيه فيذهب يومًا ليفتحه عسر عليه فتحه فنادى منادي: يا قيدار ليس لك أن تفتحه لأنه وصية نبي لا يفتحه إلا نبي ادفعه إلى ابن عمك يعقوب عليه السلام.

﴿فِيهِ سَكِينَةٌ﴾ أي طمأنينة لقلوبكم ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ قال علي رضي الله عنه: «هي رمح محوج هفافة لها رأسان وجهه كوجه الإنسان، قال: لها كرأس الهرة وذنب الهرة، قيل: هي رأس هرة إذا صرخت صراخة هرة، تعالوا وأيقنوا واتقنوا بالنصر والظفر. قيل: هي طشت من ذهب من الجنة كان يغسل فيه قلوب الأنبياء وهي روح الله يتكلم إذا اختلفوا في شيء فيتكلم ويخبرهم بما أرادوا. قيل: ما يعرفون من الآيات فيكنون إليها أو رحمة من ربكم اطمأنت واستكانت بها قلوبكم ووجدتم النصر والفتح ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ [البَقَرَة: 248] أي الباقي، والياء للمبالغة، التابوت صندوق التوراة وكان موسى إذا قابل قومه ليسكن نفوس بني إسرائيل ويكون سكنةً لفؤادهم، فعلى هذا يكون الضمير في ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ﴾ للإتيان أي في إتيانه سكون لقلوبكم. وقيل: التابوت هو القلب، والسكينة هو الإيمان التام واليقين العام والإخلاص والصدق.

قال المفسرون: كان فيها عصا موسى وقِطَعَ اللّوح التي تكسّر ورضاضها ونعلاه وعمامته وعمامة هارون وقفيز من المنّ فلما عصوا وفسدوا وأفسدوا واستمروا عليه وامتدوا لديه سلّط الله عليهم العمالقة فقلبوا على التابوت وسلبوه، والسبب فيه أن لعيلى الذي ربى بنيامين وأشموئيل فأحدثا في القربان شيئًا لم يكن فيه وكان النساء التي يصلّين في بيت المقدس يتشبثن بهن فأوحى الله إلى أشمويل: انطلق إلى عيلى وقل له: منعك حب الولد من أن تزجر وتمنع نبيك أن يحدث في القربان وقد عصوا عصيانًا. فأخبر أشمويل بذلك ففزع فزعًا شديدًا فظهر لهم فأمر ابنَيْهِ أن يخرجا إليه بالناس فيقاتلا ذلك العدد، فخرجا وأخرجا

معهم التابوت فلما هبُّوا للقتال قاتلا وقتِلا فجاء الخبر إلى عيلى إن ابناك قُتِلا وهو على الكرسي فسقط من كرسيّه ومات، فهرج ومرج أمر بني إسرائيل أن بعث الله طالوت ملِكًا قصة إتيان التابوت ورجوعه وعوده إليهم.

إن الذين سبوا التابوت أتوا به قرية من قرى فلسطين وجعلوا في بيت فيه الأصنام ووضعوه تحت الصنم الأكبر فأصبحوا والصنم تحته فأخذوا محله ووضعوا وسمروا مخالطهم على التابوت فرأوا غدًا الصنم مقطوع الرِجْلِ تحت التابوت وسائر الأصنام منكوسةً فأخرجوه من بيت الصنم في ناحية من المدينة فأخذ أهل تلك الناحية وجع في أعناقهم فأخرجوه إلى قرية أخرى فبعث الله إلى تلك القرية نارًا فأصبحوا ميتًا قد أكلت ما في أجوافهم، فأخرجوه إلى الصحراء ودفنوه في مجراة لهم، فكل من يبرز هناك أخذه الناسور والقولنج فبقوا متحيرين في أمر التابوت وكانت منهم امرأة من بني إسرائيل من أولاد الأنبياء وقالت لهم: ائتوا بعجلة وحمِّلوا التابوت عليها ثم عقلوها على الثورين ووكّل الله تعالى من الملائكة يسوقونهما حتى وقفا على أرض بني إسرائيل فكبَّروا الله وحمدوه وشكروه.

﴿تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُۚ﴾ أي تسوقه. قال ابن عباس: جاءت الملائكة بالتابوت حاملين لها بين السماء والأرض وهم ينظرون إليه حتى وضعه عند طالوت ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: 248].

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ﴾ أي خرج وشخص من بيت المقدس بالجنود وهم يومئذٍ سبعون ألف مقاتل قائلين بأن لنا نصرًا وظفرًا ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم﴾ عند

العطش الشديد ﴿بِنَهَرٍ﴾ بفتح الهاء وسكونها وهما لغتان كشمَع وشمْع وصمَغ وصِمْغ وصخَر وصخْر، وفحَم وفحْم وهرَم وهرْم ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أي من أهل ديني وأرباب طاعتي ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾ أي يذقه ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾ أي من شيعتي، وإنما عبّر عن الشرب بالطعم تنبيهًا على كمال العطش وأنه ربما يقوم مقام الطعام كما في الإفطار وأن الاحتياج إليه عام في عموم الأوقات لتمام المكونات كما علمت من أن الأرزاق على قسمين معنوي وصوري ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ﴾ بفتح الغين وضمها ﴿بِيَدِهِۦ﴾ مفعول مطلق للمرَّة أي ملاءَ الكف مرةً واحدةً.

﴿فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۚ﴾ نصب على الاستثناء كانوا أربعة آلاف والأصح ثلاثمائة وثلاثة عشر.

قال عليه السلام: «**أنتم اليوم على عدة أصحاب طالوت حين عبروا النهر ثلاثمائة وثلاثة عشر**» سائلين قانِعين بتلك الغرفة، والذين خالفوا أمر الله اسودّت شفاههم وغلبهم العطش وبقوا على شط النهر ولم يشهدوا الفتح إظهارًا لكمال قدرته وسوء عقيدتهم وكذب دعواهم.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ﴾ أي النهر، هو طالوت ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ يعني القليل ﴿قَالُواْ﴾ أي الذين خالفوا الأمر وشربوا منه ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ يوقنون ﴿أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ﴾ أي جماعةٍ يسيرةٍ وهي جمع لا واحد لها من لفظها، وجمعها فئاتٌ وفئوت في الرفع فتبيَّن في النصب والخفض ﴿غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ﴾ بإرادته ومشيئته ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البَقَرَة: 249] أي الحابسين نفوسهم على التوكل على الله وتفويض الأمور إلى الله والصبر الصادق يؤيد الصابر الواثق إلى الله لاجتماع الهمم همّة الرجال تقلعُ الجبال.

﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾

﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ﴾ أي ظهروا وخرجوا على طريق الارتفاع طالوت بفئتِهِ ﴿لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ [البَقَرَة: 250] أي انصب علينا

صبرًا ووقارًا على القتال ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي على جالوت وجنوده.

﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾

﴿فَهَزَمُوهُم﴾ أي انهزم جالوت وجنوده من طالوت وقومه وعساكره وقلب الطالوتيون على الجالوتيين ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البَقَرَة: 251] وأمره وتقديره.

إشارة وتأويل

قال الصادق رضي الله عنه: «مراد الحق ثلاثة: إما في القتال مع الأعداء فمن وجد مراده ثم فقد فقد أدركه الشقاوة، وإما في المملكة فمن وجدها ولا يعرف حق المملكة صار خارجيًا. وإما مراده في العلم والنظر فمن وجده ثم خالف طريق العمل فقد أدركته الخسارة في النشأتين».

هذا **واعلم** أن التابوت هو القلب المطهر والصدر المنور ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البَقَرَة: 248] أي إيمان كامل وإيقان فاضل وهو شهود الحق تعيين اليقين وذكره بلسان الحال والمقال واطمئنانه في مقام التمكين ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرّعد: 28].

﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾ [البَقَرَة: 248] وهي الأخلاق المرضية والملكات الفاضلة الرضية، ومنه العدالة والشجاعة والعزيمة وهي قوة إلٰهية وهمة شاملة لهمتها ووجهتها إلى الجبل جعلته دكًا دكًا، وإلى الفلك صكًا صكًا تحمله الملائكة لأنه عرش الرحمٰن وهم حمَلَة العرش.

قال الصادق رضي الله عنه: «الإيمان سكينة للمؤمنين وأبدانهم تابوت الملائكة»، وفيه جواهر العبودية وخرائد الربوبية وتعين للأولياء وتذكرة للمصطفى، وإشارة للمولى حفظة لأوليائه في تابوته.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ أي القوة العاقلة بجنود القوى الروحانية والنفسانية عن التوجه عن المبادىء العالية إلى انتظام المملكة السافلة قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ عالم الطبيعة ﴿إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً﴾ بقدر مساس الحاجة كما عرفت ﴿بِيَدِهِ﴾ [البَقَرَة: 249] أي بسبب كسبه واكتسابه، فإن شهود المعارف الفطرية بعين النفس موقوف على كسبها بإعانة الأعوان الطبيعية وأعيان القوى النفسانية.

قال الصادق رضي الله عنه: «النهر الدنيا وابتلائها»، ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ﴾ أي من مائها وأصولها ﴿فَلَيْسَ مِنِّي﴾ من الله ومن رسوله، ومن التقى منها قويًّا وهو عند الله فيها من آل المصطفى ومن أولياء الله. قال صاحب «العرائس» قدّس سرّه: إن الله امتحنهم بمجاهدة نفوسهم قبل المحاربة بالعدوّ ولينظروا كيف يكون خلوصهم من الجهاد الأكبر لأن من عجز عن مجاهدة نفسه لا يصلح لمحاربة غيره ولذا قال: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ﴾ فوق جدله ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ﴾ أي يعلمون علمًا يقينيًّا أنهم ملاقوا الله في الدنيا ووصلوا إليه وفوضوا إليه أمورهم ووكّلوه في كل ما يحتاج إليه في الآخرة للنجاة من الدركات والفوز على الدرجات ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ﴾ [البَقَرَة: 249] اعتصموا بالله وهو مولاهم ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحَجّ: 78]، ﴿غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البَقَرَة: 249] ونصره.

قال الصادق: «الفئة القليلة هي نصر الله الغالب على كل شيء من العرش إلى الفرش» ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

قال الصادق رضي الله عنه: «من هزم جيوش المعاصي وقتل جالوت الميل إليها أعطاه الله ثلاث ولايات: ولاية الملكية على بساط الملِك القدوس، وولاية الحكمة على بساط الفضل في مدينة السنة، وولاية العلم في مدار العبودية» وفضله قائم بهمتهم يرفع بعضهم على بعض ويدعوهم إلى خدمة ربّ العالمين.

﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾ [البَقَرَة: 251] لما عبروا النهر وتقاتلا فأرسل جالوت لطالوت مَن يبارزني ويقاومني في المقاتلة ويعارضني في المحاربة فإن بارزني وقتلني فملكني وإن قتلته فملكه لي، فشق هذا على طالوت فنادى في عسكره:

مَن قتله زوّجته وتناصفت ملكي معه، فلم يجبه أحد، فسأل طالوت نبيّهم فدعوا الله فدعاه فأتى القرن فيه دهن القدس فقيل: إن الذي يقتل جالوت هو من يوضع القرن على رأسه فيغلي الدهن حتى يدهن منه رأسه ولا يسيل على وجهه ويكون على رأسه كهيئة الإكليل، فدعا طالوت بني إسرائيل فجربهم بالدهن فلم يوافق منهم أحدًا، فأوحى الله تعالى إلى نبيّهم: أن في ولد إيشا مَن يقتل الله به جالوت، فدعا إيشا وقال له: اعرض عليَّ بنيك، فأخرج له اثني عشر رجلًا، فلم يوافقه على أحد، فقال لإيشا: هل لك ابن آخر؟ قال: لا، فجاء الوحي: أن إيشا يكذب، فقال إيشا: صدقت إن لي ابنًا صغيرًا قصيرًا أقمته يرعى الغنم. فدعاه وخرج إليه طالوت فرآه عندهن يحمل شاتين ويعبر بهما عن الماء فلما رآه طالوت قال: هو هذا، هو الذي أطلبه، فإنه يرحم البهائم فهو بالناس أرحم.

فدعاه ووضع القرن على رأسه فقال له طالوت: هل لك أن تقتل جالوت وأزوجك ابنتي وأشاركك في ملكي؟ قال: نعم، أنا أرعى فيجيء الأسد والذئب والنمر فيأخذوا شاتًا فأقوم إليه وأخرق لحيته فيلقي الشاة فحمله إلى عسكره فمرّ داود بحجر في الطريق فناداه: يا داود احملني فإني حجر هارون الذي قتلَ بي فلان وفلان، فحمله فمرّ بحجر آخر فناداه: احملني فإني حجرك الذي يقتل بي جالوت فحمله، فلما تصافًا وبرز جالوت وسأل المبارزة انتدب له داود فأعطاه جالوت فرسًا ودرعًا وسلاحًا، فلبس آلة السلاح وركب الفرس وسار ثم عاد وترك الفرس والسلاح فأخذ مخلاته فتقلّد المقلاع ومضى إلى جالوت وكان أشد الناس وأقواهم ويهزم الجيش وحده، فلما نظر إلى داود ألقي في قلبه الرعب منه فقال: أنت تبارزني! استخفافًا واستحقارًا لكونه صغيرًا قصيرًا مِسقامًا مصغارًا أزرق أشقر، قال: نعم، فأخذ المقلاع ووضع الأحجار الثلاثة فيه وقال: بسم الله إلٰه إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ورمى به دماغه وخرج من قفاه وقُتل من ورائه ثلاثين رجلًا، فخرّ جالوت صعقًا وهزم الجيش فأخذ داود جالوت وجرّه إلى طالوت.

﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البَقَرَة: 251] أي النبوة، فلما أهلك جالوت وأوفى طالوت ما وعده وزوّجه ابنته وشاركه في مُلكه مال الناس إلى داود أكثر، فوجد طالوت من ذلك شيئًا في نفسه وقصده وأراد قتله، فأخبرته زوجته

فهرب داود بعد معارضات كثيرة فما كان عالمُ وزاهد وعابد إلا يمنع طالوت من قتل داود فلم يمتنع إلا قتله ثم ندم بعده وطلب التوبة ولم يبق أحد من العلماء والأنبياء ليقبل توبة طالوت، فجاء إلى قبر أشمويل فأحيا الله تعالى أشمويل فقال: يا طالوت ما صنعت بعدي؟ فقال: ما بقي من الشر شيء إلا فعلته فهل لي توبة؟ قال: كم لك من الولد؟ قال: عشر رجال، قال: توبتك أن تخرج أنت وولدك في سبيل الله فيُقتل أولادك بين يديك ثم تُقاتل أنت حتى تُقتَل. فلما قُتِل طالوت وأولاده انتقل المُلك إلى داود بن إيشا بن عويد بن ماعز بن سلمون بن بخشون بن عمر بن مارب بن أرم بن خضرون بن قارص بن يهوداء بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وكان ملك طالوت من أوله إلى أن قتل مع أولاده أربعون سنة.

﴿وَعَلَّمَهُۥ﴾ أي داود ﴿مِمَّا يَشَآءُ﴾ من صنعة الدرع أو منطق الطير وكلام الجنكل والنمل والدبور أو إرثما طبقي ونسب الأبعاد الألحانية المشتهر بالموسيقى، ووضع في هذاالنوع آلاتًا منها الأرغون والقانون وغيرهما، واصنع الدرع بتعليم الله ووحيه، وكان له صوت حسن في الغاية حتى كان أنه إذا قرأ الزّبور تدنو إليه الوحوش ووقفت الطيور فوقه وتظل به وتسكن الماء والريح.

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ﴾ مفعول دفع ﴿بَعْضَهُم﴾ منصوب على البدلية من الناس وأصل الصرف ولولا أن يصرف الله بعضهم أو المشركين والمفسدين ﴿بِبَعْضٍ﴾ أي المؤمنين ويكف بهم فسادهم لغلب المفسدون على المصلحون ﴿لَفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ بالكفر والشرك أو لم يدفعهم بهم يعم الكفر والشرك، ونزلت السخطة، وعمَّ البلاء، وعمَّت النوائب والقحط، واستوصل أهل الأرض بشدة البطش وجدة السقطة ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البَقَرَة: 251]، قال رسول الله ﷺ: «**لولا عباد لله رُكَّع وصبيةٌ رُضَّع وبهائم رُتع لصُبَّ عليكم العذاب صبًّا**» وفي رواية أخرى: «**لولا المشايخ الرُّكع والصبيان الرُّضَّعُ والبهائم الرّتع لصُبَّ عليكم العذاب صبًّا ثم يرضّ رضًّا**». شعر بارع:

لولا عباد لله رُكَّع وصُبيةٌ من اليتامى رُضّعُ
ومُهملاتٌ في الصّلواتِ رُتَع لصُبَّ عليكم العذاب الأوْجَع

أو يــدفــع الله بــمــؤمــن عــن مــؤمــنٍ

قال عليه السلام: «**إن الله ليدفع بالمؤمن الصالح عن مائة من أهل بيته من خيراته منها البلاء**» ثم قرأ هذه الآية.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ أي القصص التي قصصناها عليك من حديث الإماتة بالطاعون وإعطائهم بأمر الرحمٰن من قوم موسى وهارون إلى هنا ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ باليقين والصدق ولا يشك فيه أهل الكتاب لأنه وجد في كتبهم بالطباق والرفق والوفاق ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [البَقَرَة: 252] حيث يخبر بها من غير أن يعرف بقراءة كتاب أو سمع من مؤرّخ أو سمع سماعًا ضروريًّا فهو من المعجزات الدالّة على توحيد الله وصدق نبوّته.

﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾ التي كانت مصورة في التابوت الواصلة من شعيب إلى موسى عليهم السلام، أو التي ذكر قصتها في هذه الصورة، أو الذين ثبت عليهم عند النبي عليه السلام ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ بكمالات في الدنيا ورفع درجات بكثرة الحسنات في الآخرة والعقبى لا يعلمها غير الله ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البَقَرَة: 253] من غير ترجمان واختصاص بجهة من الجهات كتكليمه لموسى ليلة الخيرة التي اختار فيها من قومه سبعين رجلًا ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف: 155] وكلم ربه إلى آخره، وبمحمد ليلة المعراج وإنما لم

يصرح من جميع الجهات ولم يخصص إشعارًا بعمومه وبعدم اختصاصه بالأنبياء والأولياء، إلا أن الأولياء بالتبعية، وكذا الشهود والمشاهدة للأنبياء بالأصالة والأولية للأولية كما قال النبي عليه السلام: «**إن الله تعالى أعطاني التجليات وأعطى موسى الكلام**».

﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍۚ﴾ أعني محمدًا عليه السلام عطف على ﴿كَلَّمَ﴾ أي ومنهم من رفعه على سائر الأنبياء فكان بعد تفاوتهم في الفضل أفضل منهم بدرجات بالتقرب إلى الله وهو لا يكون إلا محمدًا ﷺ إذ كمال القرب إنما يكون بتمام البعد في الوجود وهو لكونه علةً غائية «**لولاك لما خلقت الأفلاك**» متأخر في الوجود، متقدم في العلم ولذا صار خاتم النبوة ودينه ناسخ الأديان ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [البَقَرَة: 253] أي الغرائب المعجزة والدلائل الواضحة الملجئة إلى الانقياد كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وإنما أفرد بالذكر عيسى وموسى وأشار إلى محمد بالكناية لأن أكثر دلائلهما صريح كالعصا والتابوت وفلق البحر والقمل والضفادع والدم وغير ذلك وكذا دلائل عيسى. وأما أكثر دلائل محمد ليس بصريح بل معنوي كالمعراج والعلوم الدينية وكشف الحقائق وشهود المعارف الإلٰهية والحالات المعنوية والمقامات العليّة والمنامات الغريبة والمشاهدات العجيبة والتجليات الذاتية والأسمائية والأفعالية والآثارية والصورة الجمعية والأحد الأولية والوحدة مع الكثرة والكثرة مع الوحدة والأحدية بالواحدية وبالعكس، والإلٰهية بالكونية وبالعكس، والربوبية بالعبودية والعبودية بالربوبية وغير ذلك من الجمعيات والمعيات «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**» وغير ذلك.

قال عليه السلام: «**أعطى الله موسى الكلام وأعطاني التجليات**» أي بأنواعها الأربعة، ولذا تمنى اثنا عشر نبيًّا أن يكون من أمة محمد ﷺ. قال النبي عليه السلام: «**لقد تمنى اثنا عشر نبيًّا أن يكون من أمتي ومنهم موسى بن عمران وعيسى ابن مريم**».

﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِۗ﴾ قوّينا عيسى بجبرائيل حين أرادوا قتله، والقدس هو الله تعالى أحييناه بحياة الله ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ مشيئته فسّر الاختبار ﴿مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ

﴿مِنْ بَعْدِهِم﴾ أي بعد الرسل من الأمم ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ بدل منه أي مجيء البينات التي يهتدى بها ﴿وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا﴾ في دينهم ﴿فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ﴾ لالتزامه دين الأنبياء ﴿وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ لإعراضه عنه وصاروا يعقوبية ونسطورية وملكانية ثم تحاربوا ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا﴾ بمعنى ما تقاتلوا، كرَّر للتأكيد ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البَقَرَة: 253] من الخذلان والعصمة والتوفيق والتحقيق، فيوفِّق مَن يشاء فضلًا ويخذل من يشاء عدلًا، دليل على أن الأنبياء متوارثة الاقتدار وأنه يجوز تفضيل بعضهم على بعض ولكن بتقاطع لأن اعتبار الظن فيما يتعلق بالعمل، وأن الحوادث بيد الله تابعة لمشيئته خبرًا كان أو نظرًا، إيمانًا أو كفرًا، خيرًا أو شرًّا، نفعًا أو ضرًّا.

سُئِلَ علي رضي الله عنه عن القدر فقال: طريق مظلم لا تسلكه، فقال: أخبرني عن القدر، قال: بحر عميق لا تلجه، فقال: أخبرني عن القدر، قال: سرّ الله لا تفشه، قال: فأخبرني عن القدر، قال: أيها السائل إن الله خلقك كما شاء أو كما شئت؟ قال: كما شاء، قال: فيبعثك يوم القيامة كما شاء أو كما شئت؟ قال: كما شاء، فقال: يا أيها السائل ألك مع الله مشيئة أو فوق الله مشيئة أو دون الله مشيئة؟ فإن زعمت أن لك دون الله مشيئة فقد اكتفيت بها عن مشيئة الله، وإن زعمتَ أن لك فوق الله مشيئة فقد زعمتَ أن مشيئتك غالبة، وإن زعمت أن لك مع الله مشيئة فقد زعمت الشرّ كله، ألست تسأل ربك العافية؟ قال: بلى، قال: فمن أي شيء تسأله؟ أمِن البلاء الذي ابتلاك الله به أم من البلاء الذي ابتلا به غيرك؟ قال: من البلاء الذي ابتلاني الله به، قال: ألست تقول لا حول ولا قوة إلا بالله؟ قال: بلى، قال: أفتعلم تفسيرها؟ قال: علّمني يا أمير المؤمنين، قال: إن العبد لا يقدر على طاعة الله ولا يكون له قوة على معصية الله في الأمرين جميعًا إلا بالله. يا أيها السائل إن الله يشجّ ويداوي ومنه الدواء ومنه الداء، أعقلت من الله؟ قال: نعم، قال رضي الله عنه: الآن أسلم أخوكم قوموا فصافحوه. ثم قال: لو وجدت رجلًا من أهل القدر فإن أطال عنقه حتى أكسرها فإنه يهود هذه الأمة ونصاراها أي مجوسها.

قال الشافعي عليه السلام: ما شئتَ كان وإن لم أشأ، وما شئتُ إن لم تشأ لم يكن.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ﴾ أي تصدَّقوا ﴿مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ صدقة التطوع والنفقة في الخير والزكاة ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ﴾ الحساب والجزاء من الثواب والعقاب ﴿لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ﴾ ولا صداقة ﴿وَلَا شَفَٰعَةٞۗ﴾ أي مسألة لدفع الحساب ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البَقَرَة: 254] لأنفسهم لوضعهم العبادة في غير موضعها أو الاعتقاد في غير موقعه، أو صرف النفس إلى ما لا ينفعها.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾

﴿ٱللَّهُ﴾ الذات الواجب بذاته، الوجود المستحق لذاته جميع العبادات، المتخصص في جبروت جميع الأسماء والصفات ولذا استحق تمام المحامد استحقاقًا ذاتيًّا ووصفيًّا وصار اسم أعظم يُستجاب به الدعوات ويُدفع بكثرة قراءته والمداومة على تلاوته سورة النَّكباتِ وسطوة البليَّات ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبر الله، أي لا إلٰه موجود متصف بالاستحقاقين إلا هو أي الله ﴿ٱلۡحَيُّ﴾ الذي أحيا بقوة ذاته الجواهر العالية والفواخر الغالية وعلَّم كلّما له الوجود مما كان أو مما هو كائن ويكون وقدّره تقدير الباقي الذي لا يسأل للغناء عليه ﴿ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البَقَرَة: 255] الدائم القائم بتدبير عالم الخلق والمُلك من العناصر والفلك وحفظه ويقيم الأشياء ويرفعها ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: 54].

سأل النبي ﷺ أبا المنذر: «**أية آيةً في كتاب الله أعظم**، قال: الله ورسوله أعلم. ثم سألني فقلت: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البَقَرَة: 255] **فضرب صدري ثلاثًا ثم قال: هنيئًا لك العلم أبا المنذر، والذي نفسي بيده إن لها لسانًا يقدس الملك عند ساق العرش**». قال عليه السلام: «**من قرأ آية الكرسي دبرَ كل**

صلاة مكتوبة كان الذي يتولى قبض روحه ذو الجلال والإكرام وكان كمن قاتل مع أنبياء الله حتى استشهد».

روي أن أبا هريرة رضي الله عنه كان معه مفتاح بيت الصدقة وكان فيه التمر، ففتح الباب فإذا التمر قد أُخذ منه، ثم دخل يومًا فرآه قد أُخذ أيضًا مثله، فذكرتُ ذلك للنبي ﷺ فقال: «**أيسُوؤُكَ أن نأخذه؟** قال: نعم، قال: **إذا فتحت فقل سبحان الله من سخرك لمحمد**. قال: فذهب ففتح الباب فقال: سبحان الله من سخرك لمحمد فإذا هو قائم بين يديه، فقال له: عدوّ الله أنت صاحب هذا؟ قال: فإني لا أعود ما كنت آخذه إلا لأهل بيت فقراء من الجن. ثم عاد فذكره للنبي ﷺ فقال: **أيسرك أن تأخذه؟** قلت: نعم، **قال: إذا فتحت الباب فقل مثل ذلك أيضًا**، فقاله فإذا هو قائم بين يديه ثم عاد فأخذه الثالث فقال أبو هريرة: لا أدعك حتى أذهب بك إلى النبي ﷺ، فقال: لا تفعل فإني أعلّمك كلمة إذا قلتها لم يقرب منك أحد من الجن لا صغير ولا كبير ولا ذكر ولا أنثى وهي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البَقَرَة: 255]» حتى ختمها، فتركه فذهب ولم يعد إبليس.

وقال عليه السلام: «**ما قرئت هذه الآية في دار إلا هجرتها الشياطين ثلاثة أيام أو ثلاثين يومًا ولا يدخلها ساحر ولا ساحرة أربعين ليلةً، يا علي علّمها ولَدَك وأهلك وجيرانك فما نزلت آية أعظم منها**».

روي أنَّ من قرأ آية الكرسي إذا أخذ مضجعه آمنه الله على نفسه وجاره وجار جاره والأبيات حوله. أوصى الله تعالى إلى موسى أن من داوم على آية الكرسي دبر كل صلاة أعطيته قلوب الشاكرين وأجر النبيين وأعمال الصدِّيقين وبسطت يميني بالرحمة. قال موسى عليه السلام: مَن يداوم عليها يا ربّ؟ قال: لا يداوم عليها إلا نبي أو صدِّيق أو رجل قد رضيت عنه أو رجل أُريد أن أقتله في سبيل الله.

وأيضًا قال عليه السلام: «**مَن خرج من منزله فقرأ آية الكرسي بعث الله إليه سبعين ألفًا من الملائكة يستغفرون له ويدعون له فإذا رجع إلى منزله فقرأ آية الكرسي نزع الله الفقر من بين عينيه**».

مطلب خواص آية الكرسي والاسم الأعظم

قال عليه السلام: «**يا علي سيد البشر آدم، وسيد العرب محمد ولا فخر، وسيد الفرس سلمان، وسيد الروم صهيب، وسيد الحبشة بلال، وسيد الجبال الطور، وسيد الشجر سدرة المنتهى، وسيد الأيام الجمعة، وسيد الكلام القرآن، وسيد القرآن سورة البقرة، وسيد البقرة آية الكرسي، يا علي إنَّ فيها لخمس كلمات وفي كل كلمة خمسون**».

قال الصادق رضي الله عنه: «من قرأ آية الكرسي مرة صُرِف عنه ألف مكروه من الدنيا وألف مكروه من الآخرة، أيسر مكروه الدنيا الفقر وأيسر مكروه الآخرة عذاب القبر».

عن ابن عباس: إن أعظم أسماء الله الحيُّ القيُّوم وهو دعاء أهل البحر: يا هيًا يا شراهيًا. وعن النبي ﷺ: «**أن اسم الله الأعظم لفي سور ثلاثة من القرآن: البقرة وآل عمران وطٰه، وهو** ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البَقَرَة: 255]، ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ﴾ [آل عمران: 1، 2]، ﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ﴾ [طٰه: 111].

﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ﴾ وهي النعاس وهو النوم الخفيف وأوّله ﴿وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ هو ما يطرأ للحيوان عند تقاعد الحواس وركودها عن الأشغال البدنية تأكيد للقيوم أي ليس بغافل عن أمور الخلق وحفظه لأن من جاز عليه التغير بالسنة والنوم بسبب الاسترخاء يعرض للأعصاب الدماغية عند تصاعد الأبخرة الرطبة من المعدة إلى الدماغ ويوجب تعطّل الحواس عن الإحساسات رأسًا والغفلة عن الظاهر وهذا ينافي القيوم الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه.

سأل موسى: أينام ربّنا؟ فأوحى الله: خذ بيدك يا موسى بقارورتين فألقى الله عليه النعاس فسقطتا من يده فانكسرتا فقال الله: يا موسى بهؤلاء أمسك السماوات والأرض بقدرتي فلو أخذني نوم أو نعاس لزالتا.

﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [البَقَرَة: 255] تقديره لقيومته وتحرير لما يدل عليها من لوازم ربوبيته أي ما هو منها داخل فيها أي ليس بخارج عنهما سواء كان حقيقتهما أو جزءًا منهما أو خارجًا عنهما أي هما بما فيهما ملك الله لا شركة

لأحد فيه لأنه خلقهما فلا يغفل عن تدبيرهما لا بالسنة ولا بالنوم ولا بغيرهما ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ﴾ بيان الاستفهام لعظمته وكبرياء شأنه وعزّته فعلى هذا من يقدر أن يتكلم عنده بالشفاعة وغيرها ﴿إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ أمره وقدرته وتمكينه بالتكلم. قال بعض المحققين: جذب بهذه الآية قلوب عباده آجلًا وعاجلًا فسبحان مَن لا وسيلة إليه إلا به.

﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ﴾ من أمر الدنيا والآخرة أو الأحوال الماضية والآتية، أو ما كان قبل خلق الملائكة أو بعده، أو في الأبد والأزل وما قبلهم وما بعدهم أو بالعكس لأنك مستقبل ومستدبر، والمستقبل بعضه حال وبعضه آتٍ يعبر عنهما بالمستقبل وعن المستدبر بالماضي، أو ما يدركونه وما لا يدركونه وغير ذلك مما يناسبه ﴿وَلَا يُحِيطُونَ﴾ أي لا يدرك الملائكة والأنبياء وغيرهم ﴿بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ﴾ قليل من علمه أي من جميع معلوماته تعالى ﴿إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾ [البَقَرَة: 255] أن يعلموا بإخبار الحق لهم كإخبار الأنبياء والمرسلين، وهذا ردٌّ على عابدي الملائكة حيث يرجون شفاعتهم، يعني أنهم لا يعلمون شيئًا مما تقدمهم وما تأخرهم ولا يملكون الشفاعة ولا غيرها إلا بما أخبرهم ربّهم لأن مجموعها يدل على تفرده بالعلم الذاتي التام الدال على وحدانيته ذاتًا وصفةً.

﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ﴾ تصوير لعظمته وتمثيل مجرد لعموم قدرته وشمول إرادته ومشيئته نحو: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: 91]، ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾ [الزُّمَر: 67] إذ لا كرسي في الحقيقة ولا قاعد. قيل: كرسيه مجاز عن علمه أو ملكه مأخوذ من كرسي العالم والملك. وقيل: جسم بين يدي العرش. وكذلك سمي كرسيًّا محيطًا بالسماوات السبع لقوله عليه السلام: «**ما السماوات السبع والأرضون السبع مع الكرسي إلا كحلقة في فلاةٍ**». وتفضُّل العرش على الكرسي كفضل الفلاة. وفي بعض الأخبار: أن بين حملة العرش وحَمَلَة الكرسي سبعين حجابًا من ظلمة وسبعين حجابًا من نور غلظ كل حجاب مسيرة خمسمائة سنة لولا ذلك لأحرقت الكرسي من نور حَمَلَة العرش.

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: كل قائمة من الكرسي

طولها مثل السماوات السبع والأرضين السبع وهو بين يديّ العرش، ويحمل الكرسي أربعة أملاك لكل ملك أربعة وجوه، أقدامهم في الصخرة التي تحت الأرض السابعة السفلى، فملك على صورة سيد البشر آدم عليه السلام يسأل للآدميين الرزق والمطر من سنة إلى سنة، وملك على صورة سيد الأنعام وهو الثور يسأل للأنعام الرزق من السنة إلى السنة وعلى وجهه غضاضة منذ عُبِدَ العجل من دون الله، وملك على صورة سيد السباع وهو الأسد يسئلُ الرزق للسباع من السنة إلى السنة، وملك على صورة سيد الطير وهو النسر يسأل للطير الرزق من السنة إلى السنة.

قال بعضهم من المتقدمين: الكرسي اسم ملك من الملائكة أضافه إلى نفسه تخصيصًا وتفضيلًا فنبه بهذا عباده على عظمته وقدرته فقال: إن خلقًا من خلقي يملأ السماوات والأرض فكيف يقدر قدرتي ويصرف عظمتي والله أعلم.

﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾ لا يثقله ولا يجهده ولا يشق عليه ﴿حِفْظُهُمَاۚ﴾ أي السماوات والأرض من الخلل والفساد ولكونهما ممكنين قابلين للفناء والعدم والفساد ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البَقَرَة: 255] أي الرفيع فوق خلقه بالتدبير والقدرة والقوة والتقدير لا بالمسافة والجهة والمكان فلا شيء أعظم منه لا ذاتًا ولا صفةً.

قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة مفروضةٍ أعطاه الله تعالى كرامتين في الدنيا وكرامتين في الآخرة وكرامتين في القبر. أما اللّتان في الدنيا فيوسِّع الله رزقه ويحفظه من البلايا. وأما اللتان في القبر يوسِّع الله قبره ولقّنه تلقين الصواب. وأما اللتان في الآخرة يأمِّنه الله من الفزع الأكبر ويمر على الصراط كالبرق الدافع**».

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِۖ﴾ [البَقَرَة: 256] إذ الإكراه في الحقيقة إلزام الغير أمرًا لا يرى فيه خيرًا لحمله عليه، أمرًا إخبار من الله بأن أمر الإيمان بعد وضوح الحجة

مبني على الاختيار دون القسر والإجبار ولو شاء الله لآمن من في الأرض كلهم جميعا، ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [يُونس: 99]. قيل: إخبار بمعنى النهي أي لا تكرهوا في الدين فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، ثم نسخ بقوله: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التّحريم: 9]. وقال الباقون: هي محكمة نزلت في رجل من الأنصار كان له غلام أسود فكان يُكرهه على الإسلام. ثم علّل عدم الإكراه بقوله: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ﴾ تميَّز الإسلام بحجج ظاهرة وبراهين ودلائل باهرة ﴿مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ أي الكفر، فإن الإيمان والإسلام رشد وطريق يوصِل إلى السعادة الأبدية، والكفر غيّ يؤدي إلى الشقاوة السرمدية، والعقل الصافي عن شوب الوهم يرشدك عن الشقاوة إلى السعادة.

﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ أي بكلما يطغى الإنسان به، فأعدل من الطغيان زيدت التاء عوضًا عن الباء وهو بيان لنفسه بنفسه كالنفس الأمَّارة تتناول جميع. قيل: من الصنم والكاهن ﴿وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ بتوحيد ذاته وتفرده في صفاته يوصل المؤمنين بهدايته ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ﴾ اعتصم وتمسك وتشبث ﴿بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ بالحلقة المتقنة المحكمة أو بالحبل الوثيق إلى الله ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ أي لا انقطاع لتلك العروة وهي للناقصين العالم الرباني يدعوك إلى الحق ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: 256] كلمة لا إلٰه إلا الله.

إشارة وتأويل

﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ﴾ أي النفس المطمئنة جالوتَ النفس الأمَّارة وميلها إلى مقتضيات الطبيعة فأعطاها الله ثلاث ولايات: ولاية المُلك والمالكية مع المملوك على بساط ملك القدس، وولاية الحكمة على بساط الفضل في مدينة الأنس، وولاية العلم في مدار العبودية وفضله، قائم بهم يرفع بعضهم عن بعض ويدعوهم ربّ العالمين ومقام الأنس ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ [البَقَرَة: 251] أي سلطه على ولاية القلب على جنود النفس وأعوانها ورعايا أجزاء البدن وأعضائه والحكمة وهي في الطور القالبي الطهارة والنظافة، وفي الطور النفسي هي العفة والعصمة والصبر والقناعة، وفي الطور القلبي هي الشجاعة والعدالة والمعارف النظرية وإدراك الحقائق الإلٰهية، وفي الطور السّري المكاشفة والمشاهدة، وفي

الطور الروحي هي المعاينة والمعرفة على أحكام المحبة والقربة، وفي الطور الخفي هو التحقق بالحقائق الإلٰهية والصفات الذاتية والأسماء الأولية، وفي طور غيب الغيوب هو الخلاء الأصلي والفناء الذاتي ثم البقاء بالله.

﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ في السير من الله من علوم الغيب حتى صار منفردًا برؤية أسرار الغيب الربوبية بلا ريب، وعجائب عالم الأمر والملكوت عظائم غرائب عالم البرزخ إلى مرتبة الناسوت ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ يعني بالجزاء الأفضل الإلٰهي وهو الروح القدسي أو باللَّمة الرحمانية أو الجنود الجذبة الإلٰهية للجزاء الأسفل الجسماني الدنياوي وقوته الطبيعية والنفسانية واللَّمة الشيطانية والإلقاءات الرديّة الفاسدة المفسدة ﴿لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ أي أرض الاستعدادات الأزلية والقابليات الأصلية.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البَقَرَة: 251] إشارة إلى عموم التجلي الذاتي بالنظر إلى تمام أعيان العالم العيني والشهادي الفلكي والعنصري النباتي والجمادي والحيواني وأي تمام الأجزاء الإنساني والقوى النفساني.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ الطور الخفي المحمدي الساري في تمام الكائنات، الجاري في عموم المكونات أي المذكورات هي آيات الله التي أعطاها ومنحها لديك وأفاضها عليك ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [البَقَرَة: 252].

قال الصادق عليه السلام: «من الأنبياء الرسل جعل الله مؤنسهم معهم في أنسه». والمصطفى عليه السلام كان يستأنس بالله على بساط نوره في خدمته في المسجد الحرام فرفعه الله على جناح أمينه وجاوز له على درجات قدرته وأنزله على بساط حضوره ثم قال: أنا مؤنسك ومحدِّثك وأراك الكرامة وأكرمك لرؤيته قال: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النّجم: 11].

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي التجليات الإلٰهية متفاوتة بالنظر إلى الأشخاص بحسب تفاوت الاستعدادات أو بالنظر إلى شخص واحد حسب اختلاف حاله وجلائه أو بحسب اقتضاء اختلاف الأسماء المدبرة والصفات المربية ترغيبًا للسالكين على الجهاد وترهيبًا للطالبين لئلا يركنوا إلى الركود عن السعي والاجتهاد ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البَقَرَة: 253] أي تجلى له بالتجلي الكلامي، وهذا

إنما يكون في الطور الروحي الموسوي، ومنهم من يتجلى له بالتجلي العلمي في الطور الخفي، ومنهم من يتجلى له بالتجلي الإرادي وكذا سائر الصفات السبعة الذاتية، ومنهم من يتجلى له بالتجلي الأفعالي وبالتجلي الآثاري، ومنهم من يتجلى له بجميع الأسماء والصفات في السير إلى الله ومن الله وفي الله وبالله في الأدوار والأكوار الإفرادية. ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النُّور: 35] ومنهم من يتجلى له بهذا الجميع وبجميع مقتضيات الأدوار الإلٰهية السرمدية والربوبية الأزلية والكونية الأبدية ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحَديد: 3]، «**لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل**».

﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ إشارة إلى التجلي الحسي وإحياء الأموات ظاهرًا وباطنًا، وإبراء الأكمه وغير ذلك من آثاره ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البَقَرَة: 87] أي التجلي الذي ظهر من فيضه الأقدس وهو نسبته الأولية وإضافاته الأصلية والشؤونات الذاتية والاستعدادات الأولية ومن فيضه المقدس أي نسبته الثابتة وشؤوناته الثانية التابعة لكمال ربوبية الوجودات العينية والأسماء المتقابلة.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾ أي بعد شهودهم تجليات الأسماء الإلٰهية أي لو شاء عدم اختلاف الأعيان الذين يكونون ويظهرون ويتكونون بعد التجليات الإلٰهية من التجليات الأفعالية والآثارية بأن كان التجلي الذاتي على طور واحد ونمط متحد لما ظهر الاختلاف في التجليات كما هو في التجلي العلمي والقديري والكلامي ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟﴾ أي التجليات وآثارها على طريقة منع الخلق ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ﴾ أي ظهر من سرّ التجلي الذاتي ﴿وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ [البَقَرَة: 253] أي ظهر من ضلاليته.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ [البَقَرَة: 254] إشارة إلى الإرشاد ومقام التكميل. قال الصادق رضي الله عنه: «يا من تمتَّع بذكري واشتغل برزقي أخلِ نفسك عن المعاصي واجل نفسك بيدي لأن يوم القيامة يفسد بيع العبيد مع السيد ويفسد الخلة مع ما دون الله ولا تنفع الشفاعة لمن عبدَ مراده وظلم نفسه».

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البَقَرَة: 255] إشارة إلى ما يتكمّل به الطالب المسترشد لأن السائر العامد والدائر القاصد من قضاء عرصة حضرة الأحدية إلى ساحة النشأة

العنصرية إنما يستكمل في مدارج كمالاته ومعارج كلماته إذا عاد إلى المقام الأولي وموطنه الأصلي وقطع مراحل التنزلات ومنازل الترقيات ثم عاد إلى ما كان عليه من النشأة الأولى الإنسانية أي بالفناء في الله والبقاء بالله أي بنفي الكثرات أولًا من نفسه وذاته ثم من الممكنات الباقيات، وهذا لا ينافي بكلمة جامعة وقد جمعت هذين الفرضين وهو لا يتحصل إلا من كلمة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [الصَّافات: 35].

روي عن الثقات: أن هذه الكلمة هي التي علَّم جبرائيل آدم عليهما السلام بطريق الحبس والخفاء في الخلوة عن الكثرات الحسية ويدرّ تنزيلها على القلب لينفتح عينه وأذنه عند التخلص عن المواد الفاسدة والهيئات الكاسدة ويتصل عليه بعين الحق وتصير عينه. ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ [الأعرَاف: 205]، «**لا يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه وبصره**» الحديث. وإذا حصل الصفاء التام والضياء العام حصل في ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ النفي الكامل والفناء الشامل للذّاكر واستكمل في قوس الترقي واصلًا إلى مقام ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ [النّجم: 9]، ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ [النجم: 8] إلى قوس التنزُّل بإزاء جميع المراتب شاهدًا سرّ الإلٰهية ونعت الوحدة الذاتية في أعيان المراتب إلى أن يبلغ إلى الرتبة الأولى فقد أشار إلى قلبه قائلًا: ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ فاستكمل في دائرة الكمال ولم يرج غير الله.

ثم ابتدأ بذكر آخر على هذا النمط وكيفية الفناء في الله والبقاء بالله في تكرار الذكر لا يتكرر بل في كل فناء وبقاء آخر ووحدة وكلية أخرى غير الأول هذا إنما يظهر من ذكر ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ بالشرط المذكور.

واعلم أنه يقترن بالذكر هذا أنوار ثلاثة: نور الهداية ونور الكفاية ونور العناية، سار ومشى ودار من الله إلى الله بالله بنور الله وهدايته، فهو أخص الخواص. والثاني: نور الكناية فهو يعصمه من شهود الغير. والثالث: نور العناية وهو يحفظه من الخطرات الفاسدة وصور الخيالات المفسدة فإذا رسخت هذه الحالة وكانت ملكة وصار الذاكر مطروحًا عن البين ذكره الله الله أو هو بل كان هو هو، أيّها الطالب لا تغير بهذا النوع من الذكر فإن الله غير متناه، فالحالات التي تكون لك بالله في الله لا بد وأن تكون غير متناهٍ أيضًا، فلو قمت

في مقام واقتنعت تكون مشركًا زنديقًا.

قال بعضهم: يحتاج قائل ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [الصَّافات: 35] إلى أربع خصال: تصديق وتعظيم وحلاوة وحرمة، فمن لم يكن له تصديق فهو منافق، ومن لم يكن له تعظيم فهو مبتدع ومريض القلب بل أشد قساوة من الحجر، فإن منها ما يتشقق ويخرج منه الماء، وأن منها ليهبط من خشية الله، ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: 21]، ومن لم يكن له حلاوة فهو مرائي، ومن لم يكن له حرمة لا يلاحظ النفي والإثبات فلا يدري مَنِ المنفي ومَنِ المثبت فيكون عابثًا وسعيه ضائعًا لا مورثًا ولا وارثًا.

وقال الصادق رضي الله عنه: «هو المستخرج إلى فضاء السرمدية وسعة الأبدية ومنه إلى سعة الصحراء السرمدية إذ لا حيّ غيره ولا قيُّوم ولا بقاء ولا قيام لسواه، إذ لو كان حيًّا لكان على الوحدانية. ومن كان خارجًا من هذه الصفة فهو لا يستحق للعبودية.

﴿ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ الذي قامت به الأحياء ويحيى بقيوميته الأموات من مضيق القبور وشقيق القلوب وسفيق الغرور، والحي هو الذي ألبس خلقه حياة السرمدية عند خلع لباس البشرية في فراغ وحداته الذاتية سرائر الموحدين فتوحدوا به، والقيومية صفة التي لم يزل ولا يزال كان موصوفًا أو قام بها بنفسه متقومًا به الأزلية والأبدية، وبحياته أفنت نفوس المحبين بسيف ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ وبقيومية ﴿إِلَّا هُوَ﴾ أقامهم ببقائه الحقيقي فيصير حيًّا لا يموت وباقيًا لا يفوت، وبحياته أعاد هويات المشتاقين إلى خلائهم الأصلي، وبقيومية ربي حقًّا تفهم الإلٰهية، ودبر ماهياتهم الكونية بالتجلي الذاتي والتجلي الوصفي فلا يرى جماله وجلاله إلا بعينه بحياته السير إلى الله، وبقيوميته السير من الله، بحياته تعين الأرواح، وبقيوميته تبين الأشباح واشتعلت في مكاشفات الناسوت مصباح الصباح.

﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ﴾ بحياته وبقيوميته لا يجري غفلة ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾ يخوف بها خواص المحبين الراقدين حتى لا يشتغلوا بغير طرفة عين لأنه ناقد بصير وشاهد خبير، فمن حق المحبين الصادقين أن ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ﴾ الغفلة ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾ الفترة. نظم:

إلٰهي حليف الحبّ في الليل ساهر   يناجي ويدعو والمغفّل يهجع

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ﴾ [البَقَرَة: 255] أي في الجبروت والملكوت من الصور العلمية والنسب الذاتية والشؤونات الأولية والكواكب سماء السبعة الذاتية والأعيان الثابتة، ومن الجواهر المجردة العقلية والأنوار القاهرة الكلية، ومن الأرواح المقدسة والأعيان القدسية واللطائف النورية والنفوس العاقلة القدسية. ومن هذه المرتبة تدبر أمر المخلوقات ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [السَّجدَة: 5]. ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ﴾ [البَقَرَة: 255] أي في عالم المثالة والمثال والملك ومن الأشباح النورية والصور الخيالية والمثل البرزخية والأعيان المثالية والأجرام المادية والأجسام المدنية والغواسق البرزخية والصياصي العنصرية والمتولدات الأرضية والمائية والهوائية النورية والنارية وغير ذلك، فبحياته أحيا السماوات وما فيها وتملكها، وبقيوميته أقام الصور وأفاضها على المعاني والمجردات أولًا في عالم الأشباح ثم في عالم الأجسام والألواح.

قال الصادق رضي الله عنه: «السماء بناؤها للأحرار والأرضون بناؤها للعباد»، فالعابد لا ينال مناه حتى لا يجاوز درجته، والحرّ لا يدرك نفسه أبدًا إلا بترك الاختيار على المدبر لأن السماوات والأرض ولايته وأهلهما دلالته والعبد لا يستقر إلا عند المعبود ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرِۭ﴾ [القَمَر: 55].

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ﴾ في القيامة العظمى والمحشر الكبرى كل الخلق هلكى، فأين يشفع وكيف أنت تشفع ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: 48] أو تأذن للدعاء ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ﴾ [البَقَرَة: 255] أي توفيقه وتعليمه، وإذا أراد الله إجراء سلطنة ذاته وصفاته أظهر ما أظهر ووهب ما وهب لمن وهب وفوض الأمور إلى من شاء لما شاء ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الإنسَان: 30]. قال الصادق رضي الله عنه: «لا يبلغ المؤمن إنِّيتَهُ حتى يجاوز مدائن القدرة وبلاد إحاطة الفكرة وتخليته عن العيوب وتحليته بالغيوب التي لا يجاوز من الربّ فحينئذ يجذبه معبودًا محدثًا».

واعلم أن النفوس الكاملة تحتها نفوس جزئية متحدية بالطبع إليها إلا أنَّ له موانع فإذا ارتفعت انجذبت هي إليها، فالشارع عبر عن هذا بالشفاعة. هذا في عالم الحس كحجر المغناطيس يجذب الحديد.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البَقَرَة: 255] أي ما جرى في مقام ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعرَاف: 172] في عالم الواحدية والجبروت وفي عالم الربوبية والأمر والملكوت والأفلاك النورية والظلّيّة من البرزخ العالية والسافلة أي عالم الناسوت والمواثيق والتقديرات وأحكام التدبيرات وترتيب المعدات وما جرى في عالم الناسوت من التدبيرات أو المراد السير من الله وما ينطوي عليه من الأحوال والمقامات وأمور الطاعات والعبادات أو السير من الله.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ أي لا يحصل لهم إلا في السيرين هذين علم من علمه بذاته وأسمائه وصفاته وبتمام مخلوقاته ﴿إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ أي كما أن ليس لهم وجود إلا وجوده ليس لهم علم إلا علمه بما شاء في الأزل يعني كما أن الإنسان وغيره مقهورون في وجودهم كذلك مقهورون في كل ما يكون تابعًا من الكمالات. وفي «العرائس»: حجب علم القدم عن إدراك من أوجد العدم إلا ما كاشف لأهل القلوب من معاينات الغيوب. ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ من علم الأزل ﴿إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ الآية، وأنه لا وسيلة إلى علمه سواه. وقيل: ﴿مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ أي من معلوماته وإذا تقاصرت العلوم عن الإحاطة بمعلوماته ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ كرسيه علمه بذاته وشؤوناته الذاتية، وعرشه هو علمه بذاته، والكرسي هو عالم الواحدية، وعرشه هو الأحدية الجمعية أو قلب العارف لاتساعه حضرة الكل فلا يسعه مرتبة من المراتب ولا عالم من العوالم إلا الوحدة الذاتية وهي هذه الجمعية لأنه صورة جمعية الأحدية والواحدية «**لا يسعني أرضي ولا سمائي ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن**» الحديث. أو كرسيه عالم الملكوت وهو مطاف أرواح العارفين والعرش عالم الجبروت وهو مصاف أعيانهم الثابتة وماهياتهم النابتة فيه.

واعلم أن لكل مرتبة من مراتب الكلية حالتين وفيها اعتبارين إحاطة إجمال وإحاطة تفصيل، فالأول هو العرش، والثاني الكرسي، ولو لم يكن مثل هذا لم يقدر أحد على توحيده والإقرار بفردانيته والطمأنينة إلى علوه وعظمته. قال الصادق رضي الله عنه: «الإيمان بساط المؤمن والمؤمن والمعرفة بساط العارف والسماوات والأرض بساط الخدمة، والكرسي بساط انتهاء المنة».

﴿وَلَا يَئُودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ﴾ [البَقَرَة: 255] لا يعجزه عن حفظه لهما وإحاطته بهما وبما فيهما لانتهاء إليه وهو في ذاته غير متناه فلا يشق عليه شيء ولا يثقل على قدرته أمر ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البَقَرَة: 255] باعتبار الحالين أي الإجمال والتفصيل والذات والأسماء والصفات فلا يكون له علّة في صنعه ولا آلة في فعله.

﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ﴾ أي ظهر ما سترهن الكون في الكون في علمه الأزل في العدم ما جرى في القدم من تصوير العلم على ألواح القابليات من السعادات والشقاوات فظهر سمة السعادة من المبتدلين ووسمة الشقاوة من المطرودين لأن في حياة السعداء مصابيح أنوار المعرفة تلوح ومن شقاوة الأشقياء فوائح آثار غياهيب ظلمات الغي يفوح. قال الصادق رضي الله عنه: «الشوق بساط ولايتي ووحدانيتي والتخلف عنها بساط عزله وفرقتي».

﴿لَآ إِكْرَاهَ﴾ لمن لا يجلس على بساط شوقي لأنها ثمرة لقائي ونتيجة رؤيتي ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ وهي رؤية الطاعات وملاحظة العبادات والخيرات والطمع في المكافئات والنظر إلى المجازات، فمن أعرض عنها فهو من أهل المشاهدات وهي ما سوى الله وكل ما شغلك عن ربك فهو طاعونك فمن لم يتبرأ عن الكل لا يصبح له الإيمان بالله ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البَقَرَة: 256] وهي ذات الحق ومحبته معرفته. وقيل: هي العصمة الأولية التي سبقت بنعمة العناية الأزلية لأهل السعادة عناية الأزلية كتأثير الأبدية، والظاهر أنها هو الإنسان الكامل المكمّل إذ كل ما فيها إنما يحصل من شرف خدمته وكمال محبته ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: 17] لا انفصام لها ولا انقطاع للإنسان الكامل إذ انقطاعه يوجب ارتفاع العالم وما فيه.

قال الشيخ في «الفتوحات»: فلا يزال العالم محفوظًا ما دام فيه هذا الإنسان الكامل. قال الصادق: «الطاغوت نفسك المهلكة فلا تختر رضاها على رضا مولاك في طلاقها وتمسّك بحبه عمن سواه إذ لا انفصام ولا عزل لأوليائه عن جنته لأنه يسمع عبادتهم ويعلم معدنهم ومعدن قلوب العارفين قناديل كرمه معلقة عن عرش بره».

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥٧﴾

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البَقَرَة: 257] أي حافظ المؤمنين وناصرهم ومحبهم ومعينهم، أو متولي أمرهم لا يكلهم إلى غيره يقال: توليت أمر فلان ووليته إذا حفظته أو الذين أرادوا أن يؤمنوا يعطف عليهم ﴿يُخۡرِجُهُم﴾ بلطفه وتأييده عن الكفر إلى الإيمان أو آمنوا في الأزل ﴿يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ العدم ﴿إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ الوجود أو من شهاب الدين إلى نور اليقين.

أو من العلم إلى العين فإن الوجود العلمي هو العدم الخارجي فلما أوجدهم في الخارج مضى فيهم أعلام علمه وأحكام قضائه وآثار حكمه.

أو من ظلمات النفس وكدرات الأوصاف الذميمة إلى نور الأخلاق المرضية وضياء الملكات الفاضلة الرضية كالرضاء والعفة والتوكل والقناعة والصبر والشكر.

أو من رؤية الأفعال رؤية المن والإفضال أو من ظلمات الوحشة والفرقة إلى نور الوصلة والقربة أو من ظلمات الجهل واتباع الهوى إلى نور العلم وضياء الهدى.

وجملة خبر بعد خبر أو حال من المستكن في الخبر الأول ومن الموصول أو منهما أو بمعنى أخرجهم من الكفر إلى الإيمان على إرادة الماضي والمستقبل فيكون استئنافًا مبنيًّا للجملة السابقة.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ [البَقَرَة: 257] على وتيرة قربه أو كفروا في مقام ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ﴾ [الأعراف: 172]، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ أحباؤهم الشياطين وأنصارهم وأعوانهم أصنام الغي والهوى ﴿يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ﴾ أي نور البينات الواضحة التي تظهر لهم الإيمان بمحمد عليه السلام لأنهم كانوا يعرفونه في كتبهم ويستفتحون بوجوده، أو من نور الإسلام الفطري «**كل مولود يولد على فطرة الإسلام**»، ﴿إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ ظلمات الإنكار والشكوك والشبهات ودياجير الكفر وغياهب الشرك وحبُّ الجاهِ والركون إلى الشهوات ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البَقَرَة: 257] أي نار التحسر والندامة في النشأتين.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ﴾ أي خاصم وجادل: نمرود بن كنعان بن سحارب بن كوس بن سام بن نوح وهو أول من وضع التاج على رأسه وادّعى الربوبية ﴿إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ أي توحيده وادّعى الشرك به وإثبات الربوبية لنفسه، استفهام للتعجب من محاجّته وكمال حماقته ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ أي لأن أعطاه تلك الأرض كلّمه أي حاجه ربه في إعطاء الملك فأعطاه وملك الأقاليم السبعة ولم يشكره بل ادعى الشرك وهو عكس الشكر، إن الله ملَّكَ الأرض وأقاليمها السبعة أربعةً مؤمنان هو سليمان وذو القرنين وكافران نمرود وبخت نصر. وقت المحاجة كسر إبراهيم الأصنام فسجنه نمرود ثم أخرجه ليحرقه بالنار فقال: من ربّك الذي تدعونا إليه.

﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ ظرف لِحاجَّ ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ قيل: كان الناس يتمارون من عنده الطعام فخرج إبراهيم يمتار منه مع الممتارين فقال نمرود: من ربّكم؟ قالوا: أنت وإبراهيم، قال: من يحيي ويميت، فقال نمرود: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ فدعا رجلين فقتل أحدهما وترك الآخر ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ ردًّا عليه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ﴾ أي يُظهرها ويُطلعها من جانب المشرق ﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ من جانب المغرب رعاية لحق التعارض والتقابل ﴿فَبُهِتَ﴾ أي سكت ﴿الَّذِي كَفَرَ﴾ [البَقَرَة: 258] أي نمرود وانقطعت حجته وأقحم في معرض المعارضة. وإنما عوض إبراهيم عن الاعتراض على معارضته الفاسدة إلى الاحتجاج بما لا يقدر فيه على نحو هذا التمويه دفعًا للمشاغبة وتنبيهًا على أن هذا عدول عن مثال خفي إلى مثال من مقدوراته التي يعجز عن الإتيان بها غيره لا عن حجة إلى أخرى، اللهمَّ إلا أن يقال: إن ظاهر حال نمرود بناءً على تمادي مكثه وطول لبثه وقوة حماقته على الكفر والشرك وشدة سفاهته يُشعر بأنه اعتقد

أنه يقدر على أن يفعل كل جنس مما يفعله الله فنقصه إبراهيم محتجًا بما ذكر ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البَقَرَة: 258] أنفسهم بتعاطي الشرك والركون من الهداية إلى الضلالة والإفك عليها باعتقاد الحلول والأطوار.

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (259)﴾

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ﴾ [البَقَرَة: 259] هي بيت المقدس، قيل: هي التي أهلك فيها الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف، أو قرية الغيب وهي على فرسخين من بيت المقدس، ومعطوف على ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ [البَقَرَة: 243] أو للتخيير وهو كافر بالبعث. وبعضهم قال: إنه عزير بن شرحيا، وقيل: هو أرميا بن جلقيا ابن هٰرون بن عمران وهو الخضر.

﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ ساقطة ﴿عَلَى عُرُوشِهَا﴾ سقوفها وأبنيتها ﴿قَالَ﴾ عزير ﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ للاستبعاد لا للشك بل ليريه الله كيف يحيي الموتى ويظهره بكمال قدرته وشمول إرادته وحكمته، فلما خطر هذا بباله وتكلم بمقاله نام في ذلك الموضع ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ﴾ أي أطال الله نومه كأنه ميت ﴿ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ [البَقَرَة: 259] أحياه ونبّهه عن موته في آخر النهار وقد نام في أوله ﴿قَالَ﴾ الله ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾ يا عزير أو أرميا في نومك ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ سنة.

﴿فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ﴾ يعني التين والعنب ﴿وَشَرَابِكَ﴾ العصير ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ [البَقَرَة: 259] قرأ بحذف الهاء أي لم يتغير من التّسنن وأصله من السنين وهو التغير ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحِجر: 26] أي متغير والظاهر أنه مشتق من السّنه والهاء أصلية يقال: ساهنت رجلًا إذا عاملته سنة، أو الهاء بدل من الواو المحذوفة

أصله سنو ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ قال أكثر العلماء: في الآية تقديم وتأخير نظمها: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ﴾.

﴿وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ﴾ الإنشاز هو الرفع ومنه نشوز المرأة على زوجها أي ارتفاعها عليه، والكسوة هي اللّبس والتواري. والمراد إما عظام الحمار بأن الله أمات حماره ثم أحياه خلقًا سويًّا وهو بعد الانتباه ينظر إليه فقام الحمار ونهق بإذن الله وأمره، والبعض على أن المراد عظام هذا الرجل فإن جسده تفتتت أجزاؤه وحماره في هذه المدة مربوط وأجزاؤه محفوظة ومضبوطة فأحيا الله رأسه وعينه وسائر جسده وهو ينظر إلى إحياء أجزائه وترتيب أعضائه، فلما استكمل جسده همَّ بحقده فركب حماره حتى أتى محلته فأنكره الناس وأنكر هو الناس وأتى لعجوز عمياء قد أتى عليها مائة وعشرون سنة، وإذ خرج عزير من بينهم كأنك عشرين سنة فقال لها: أنا عزير هل تعرفيني؟ قالت: سبحان الله فإن عُزيرًا فقدناه من مائة سنة فلم نسمع ذكره في عمرك، قال: فإني عزير أماتني الله مائة سنة ثم بعثني، قالت: فإنَّ عزيرًا كان مُستجاب الدعوة فادع الله تعالى أن يردَّ عليَّ بصري حتى أراك، فدعا ربّه وأخذ بيدها وقال: قومي بإذن الله، فقامت صحيحة فنظرت إليه فقالت: أشهد أنك عزير، ونادت: يا قوم إن هذا عزير. وقد كان بخت نصر قد أحرق التوراة ولم يكن بينهم توراة فبكى عزير على التوراة، فأتاه ملكٌ بإناءِ ماءٍ فسقاه من ذلك الإناء فملئت في صدره فرجع إلى بني إسرائيل وبُعِثَ نبيًّا فقال: أنا عزير، فقالوا: املِ لنا التوراة، فأملاها عليهم.

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ﴾ أي إحياء الموتى لعزير ﴿قَالَ أَعۡلَمُ﴾ عزير ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [البَقَرَة: 259] من الإحياء والإماتة والإبداء والإعادة.

إشارة وتأويل

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي شاهدوا أنوار جماله وأسرار جلاله في ضمن شهوده الذاتي وكماله الذاتي والأسمائي ﴿يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ الذاتي وجهل الخلاء الأصلي إلى نور الوجود العلمي والعيني وإلى العلم الشهودي الحضوري والمعارف الفطري الغيبي بفضله لا بعدله، أو من ظلمات الفناء في

الله إلى نور البقاء بالله، أو من ظلمات قيود الأحوال والمقامات إلى نور الإطلاق وسرور الحضور والتلاق وعدالة الأخلاق، أو من ظلمات الكشف والكرامات إلى شهود الذات والصفات، أو من ظلمات السير إلى الله ومن الله إلى نور السير في الله، أو من ظلمة الأدوار الجمالية ومرتضى الأكوار الجلالية الإفرادية إلى نور كمال جمعيتهما وظهور وصال معيتها وغير ذلك من الحالات والاعتبارات. قال الصادق رضي الله عنه: «الله لطيف بإحسانه مع المحسنين حيث أخرجهم من ظلمات العدل إلى نور الفضل»، والفضل عطاؤه والعدل ثناؤه.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ أي في المشهد الأول حيث وقع نظرهم أولًا على خصوصية أنوار جماله ثم على إطلاقه ﴿يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ خصوصية قيود ذلك النور. قال الصادق رضي الله عنه: «الطاغوت هي الهوى المائلة إلى الجفاء». ﴿يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ [البَقَرَة: 257] من نور الصفاء إلى ظلمة الشقاء وهم في الشقاوة خالدون. قال صاحب «العرائس»: يوجدهم من ظلمات العدم إلى كشف أنوار القدم، أو من ظلمات الامتحان إلى نور مشاهدة العيان، أو من ظلمات العبودية إلى جمال الربوبية، أو من ظلمات العلم اليقيني إلى نور عين اليقين وحق اليقين.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ أي خاصم نمرودُ الطبيعةِ والنفوسِ إبراهيمَ القلب والروح ﴿أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ﴾ [البَقَرَة: 258] أي مُلكَ عالم الناسوت له جراء الأحكام على جميع القوى الحسية والعقلية النظرية والعملية. قال الصادق رضي الله عنه: «من أراد الهداية إلى طلب مولاه لم يشتغل بالدليل وإنما يطلب الدليل منه لا يطلب المولى»، والدليل المولى على الإحياء حياة وعلى الأموات موت وعلى العقلاء القمر وعلى الفرق الشمس وعلى الهداية هدايته.

﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ﴾ عطف على الذي حاجَّ، فالمعطوف باعتبار القوة العملية الإبراهيمية والمعطوف عليه باعتبار اقتضاء القوة النظرية النمرودية فإن القوة النظرية إذا تمرد عن إطاعة الروح والقلب تزعزع وتمرد أي مر على قرية النفس عزير الفؤاد ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ أي ساقطة بيوتات القوى الطبيعية والنفسانية ﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ﴾ [البَقَرَة: 259].

واعلم أن للقلب في مسالك سلوكه أطوارًا فباعتبار استكماله في النزول والعروج والسير إلى الله ومن الله يسمى بالروح وإبراهيم وباعتبار عدم استكماله في العروج والسير من الله يسمى بالعزير والفؤاد، فالتلوين لازم لهذا والتمكين لذلك ولذا غلب إبراهيم الروح عند محاجة نمرود النفس عليه وأسكته وأبهته بخلاف الفؤاد فإنه لعدم تمكنه في طور السلوك أماته الله مائة عام أي بتمام المشاعر العشرة المضروبة في نفسها الدائرة على مركز إدراكها وحسّها وهي مائة أي قطع أحكام الإدراكات وشعورات المشاعر العشرة عنه ليعرج إلى شهود العوالم الخمسة الظاهرة وباطنها سرًّا وعلانية اقتضاء بها.

قال الصادق رضي الله عنه: «الدنيا بحذافيرها خربَةٌ وأهلها مسنون في المعصية وطاعتهم باقية لم تتسنه ومعاصيهم ثابتة عندهم لم تتعين، فإذا كان يوم القيامة يحشر الأولياء عن الدنيا والأعداء عن المعصية فينزل الأولياء بساط قدرته والأعداء بساط الحيرة في عذابه».

وفي «العرائس»: والفرق بين سؤال إبراهيم وسؤال عزير عليهما الصلاة والسلام أن إبراهيم كان في محل التمكين فأراه الله مشاهدة القدرة في غيره، وعزير كان في محل التلوين فأراه مشاهدة القدرة في نفسه.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ أي اذكر وقت قوله ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أرني أمر من باب الإفعال مفعوله الأول أرني، وكيف مفعوله الثاني، أي اجعلني رائيًا كيفية الإحياء.

قيل: سأله قوم نمرود: كيف يحيي الموتى ربك؟ فأراد أن يرى ذلك من الله ليكون جوابه عن عين اليقين مطابقًا لما رآه بعلم اليقين لتتقوى نفسه في التصرف

في نفوسهم ويقع الجواب في حيز القبول ﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾ لإبراهيم ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ بكمال قدرتي في الإحياء ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البَقَرَة: 260] وهو مضارع اطمئن وهو من الربّ والمريد أصله اطمانَّ زيدت الهمزة المكسورة وكرّر اللام الثانية فأدغم وصار اطمأن نحو اقشعرَّ أي وليس الخبر كالمعاينة أي ليسكن قلبي عن طلب الدليل فإن الصباح يغني عن المصباح.

لما عارض نمرود إبراهيم بقوله: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ قتل أحد الرجلين وأطلق الآخر فقال إبراهيم لنمرود: ليس هذا إحياء، فقال نمرود: أعاينت إحياء ربك؟ فلم يقدر إبراهيم عليه السلام أن يقول: نعم رأيته، ولهذا تركه وانتقل إلى حجة أخرى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ﴾ [البَقَرَة: 258] الآية، سأل ربّه كيفية الإحياء إشعار بأن كمال اليقين لا يحصل إلا بعين اليقين.

﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾ ديكًا وطاووسًا وغرابًا وحمامةً أو نسرًا ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ بضم الصاد قطعهن، وبكسرها أمر من يصور أو تصرّ أي مزّقهنّ.

وروى بفتح الصاد وضمها وكسرها والراء المشددة من القصرية بمعنى الجمع، وفيه إيماء إلى أن إحياء النفس بالحياة الأبدية إنما هو بانقطاع الشهوة وارتفاع تنوع الزخارف الذي هو طاووس زينة الدنيا وحب الشهوات الديكية والصولة وخسّة النفس الغرابية وطول أملها ومحبّتها والحرص على جيفة الدنيا الغرابية والسرعة الحماميةُ تنوع تشكلها وتلونها في الحركة في الهوى النفسانية.

﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ بضم الزاء وسكونها، قال المفسرون: أمر الله تعالى إبراهيم أن يذبح هذه الطيور وينتف ريشها ويمزقها ويختلط ريشها وأجزاءها ولحومها وعظامها ودماؤها، ففعل ثم أمر أن يجعل أجزاءها على الجبال ﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ﴾ واطلبهنَّ إليك ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ ساعيات متسارعات حال أو صفة مؤكدة ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البَقَرَة: 260] غالب بالانتقام من الجبابرة الذين لا يؤمنون بالله ولا يقرُّون بتوحيده، غير عاجز من إجراء ما أراد على مَن أراد، عليم بحقائق الأشياء وأوصافها وخصائصها ويفعل كل شيء لحكم ومصالح بالاتفاق.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾ لكمال الإيقان ﴿أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي مثل الصدقات للذين ينفقون ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ أي كمثل زراعة حبة ﴿أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ﴾ تلك المضاعفة فتكون أضعافًا.

وفي «الكشاف»: الممثل غير موجود، فأجاب بأنه موجود في الذهن وربما فرجت ساق البر في الأراضي المغلة فيبلغ حبّها هذا المبلغ ولو لم يوجد لكان صحيحًا على سبيل الفرض والتقدير ﴿لِمَن يَشَآءُۗ﴾ لا لكل منفق لتفاوت أحوال المنفقين أو يضاعف السبعمائة ويزيد عليها أضعافًا لمن يستوجب ذلك ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ أي واسع الفضل لتلك الأضعاف ﴿عَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: 261] بإنفاقهم وخلوص نيّاتهم وكيفية نفقاتهم وكيفياتها ومواضعها من السلامة والصحة وغيرها.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًىۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بيان طريق الإنفاق ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا﴾ أي لا يجعل المنفق متبوعًا للمنة بتعداد النعمة، يعني لا يمن على المنفق عليه بالإنفاق والصدقة بأن لا يقولون: أحسنتُ إليك وتصدّقتُ عليك، أو يعد نعمه عليه فيكدرها ﴿وَلَآ أَذًىۙ﴾ ولا يؤذون بأن قالوا له: أنّي قد أعطيتك وما شكرت وكم تسأل لا تستحي، فعدم الإنفاق حينئذ خير من إنفاق يتبعه المنّ والأذى فإنه كسر القلوب وهو أعظم الذنوب وأقبح العيوب.

وأصل المنة على النعمة على طريق التفضل بالأولى والأفضل أن لا يخطر بباله إنفاقه. قيل: لو ظننت أن سلامك عليه ثقيل فلتكف عنه سلامك.

﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ أي ثوابهم وجزاؤهم مهيَّأٌ وثابتٌ ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ الظرف مع

فاعله خبر ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾، ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في الآخرة بعدم وقوعه في حيز القبول بل هو ثابت عند الله وهو يرويه كما ورد في الحديث ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البَقَرَة: 262] في الدنيا على نقصان ما خلف لما مرَّ، ولما قال الله: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ [الأنفَال: 70] نزل في عثمان رضي الله عنه حين اشترى بئر رومة لسقاية المسلمين.

مطلب: ثواب الصدقات

﴿۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ في إصلاح ذات البين أو الدعاء ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أي ستر على الفقير وتجاوز عنه عند إظهار الشكوى والتشنيع إذا رُدّ بلا نوال، قيل: هو التجاوز عن ظالمه ﴿خَيْرٌ﴾ له خبر لمبتدأ مقدم نكرة موصوفة ﴿مِّن صَدَقَةٍ﴾ مدفوعة إليه ﴿يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ من تعيير السائل بسؤاله أو قول يؤذيه ﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ﴾ عن صدقة العباد ولو شاء لأغنى جميع الخلق ولكنه أعطى الأغنياء لينظر كيف شكرهم وابتلى الفقراء لينظر كيف صبرهم.

وفي الحديث: «**أوحى الله إلى موسى يا موسى ما الجأت الفقراء إلى الأغنياء أنَّ خزائني ضاقت عليهم وإن رحمتي لم تسبقهم ولكني فرضت للفقراء في أموال الأغنياء ما يسعهم، أردت بذلك أن أبلوا الأغنياء كيف صبرهم فيما فرضت عليهم للفقراء في أموالهم. يا موسى إن فعلوا ذلك أتممت عليهم نعمتي وضاعفت لهم الحسنة بعشر أمثالها**»، ﴿حَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: 263] لم يعجل العقوبة على من يستحقها.

قال النبي عليه السلام: «**إذا سأل السائل فلا تقطعوا عليه مسألته حتى يعرب عنها ثم ردوا عليه بوقار ولين أو ببذل يسير أو برد جميل فإنه قد يأتيك من ليس بإنسٍ ولا جان ينظرون كيف صنيعكم فيما خولكم**».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ﴾ أي لا تحبطوا أجور صدقاتكم وثواب نفقاتكم ﴿بِٱلۡمَنِّ﴾ على السائل وعلى الله ﴿وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي﴾ صفة موصوف محذوف أي إبطال مثل إبطال المنفق أو هو في محل النصب على الحال من فاعل يبطلوا أي مماثلين للذي ﴿يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ أي لأجل الرياء حتى يقال إنه رجل كريم ولا يريد بإنفاقه رضاء الله وثواب الآخرة وهو الشرك الخفي والمنافق الجلي إذ الكافر في كفره غير مرائي ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ أي مثل هذا المنافق ﴿كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ﴾ حجر أملس وهو واحدٍ وجمع، فمن جعله جمعًا قال: واحدهُ صفوانة كتمر وتمرة ونخل ونخلة، قرئ بفتح الفاء ﴿عَلَيۡهِ﴾ أي على الصفوان ﴿تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ﴾ المطر الشديد العظيم القطر ﴿فَتَرَكَهُۥ﴾ أي الصفوان ﴿صَلۡدٗاۖ﴾ أي حجرًا صلبًا أملس جردًا عن التراب الذي كان عليه فلا يمسك ماء ولا ينبت كلاء مثل ضرب الله تعالى لنفقة المنافق والمرائي والمؤمن الذي يمنّ بصدقته ويؤذي فإن الناس يرون في الظاهر أن لهؤلاء أعمالًا كالتراب على الصفوان فإذا كان يوم القيامة وأمطر عذاب الله وسخطه اضمحل ذلك كله وبطل كما أذهب الوابل ما كان على الصفوان من التراب ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ﴾ هؤلاء المنفقون ﴿عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ في الآخرة من الثواب والأجر ﴿مِّمَّا كَسَبُواْۗ﴾ وعملوا في الدنيا من الإنفاق بالرياء والمنّة والأذى والنفاق ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البَقَرَة: 264] نظر في وصف أعمال الكفار مثل الذين كفروا بربّهم أعمالهم كرماد ﴿ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ﴾ [إبراهيم: 18]، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ﴾ [النُّور: 39] الآية.

مطلب الرّياء

قال عليه السلام: «**إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ يسمع أهل الجمع: أين**

الذين كانوا يعبدون الناس؟ قوموا خذوا أجوركم ممن عملتم له، فإني لا أقبل عملًا خالط شيئًا من الدنيا وأهلها».

عن أبي هريرة رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ قال: «**إذا كان يوم القيامة يؤتى برجل كان قد خوّل له مالًا فيقال له: كيف صنعت فيما خولناك؟ قال: أنفقت وأعطيت، قال: أردت أن يقال فلان سخي فقد قيل فماذا يغنيك. ثم يؤتى برجل شجاع فيقال له: ألم أشجّع قلبك؟ قال: بلى يا ربّ، قال: فكيف صنعت؟ قال: قاتلت حتى أهرقت مهجتي، قال: أردتَ أن يقال شجاع؟ قد قيل فماذا يغنيك. ثم يؤتى برجل كان قد أوتي علمًا فيقال له: ألم أستحفظك العلم فكيف صنعت؟ فيقول: تعلمت وعلّمت، فقال: أردت أن يقال فلان عالِم فقد قيل ذلك فماذا يُغنيك عنك، ثم يقال: اذهبوا بهم إلى النار**».

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ نقدًا أو جنسًا ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ أي طلب رضاء الله ورضوانه ﴿وَتَثْبِيتًا﴾ تصديقًا وإذعانًا ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ يخرجون من أموالهم باستطابة النفس علمًا منهم بأن ما أخرجوا خير مما تركوا، أو توطينًا لأنفسهم من أنفسهم على طاعة الله في نفقاتهم، فمن ملك ماله لوجه الله فقد ثبت بعض نفسه ومن بذل روحه وماله معًا فهو الذي ثبتها كلها ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ﴾ أي بستان فيه نخلة وإذا كان فيه كرم فهو فردوس، وإذا كان جميع الأشجار المثمرة فيه فهي روضة ﴿بِرَبْوَةٍ﴾ بفتح الباء وضمها وهي المكان المرتفع المستوي يجري فيها الأنهار صفة أو حال من جنة أي كانت في مكان مرتفع ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ أي مطر كبير القطر ﴿فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا﴾ أعطت أكُلها بضم الكاف وبسكونها وفتح اللام وهي الثمرة. وقيل: هي كثرة ما في الشيء، يقال: ثوب كثير الأكل إذا كان كثير الغزل ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ مثلين أي حملت في سنة ما يحمل غيرها في سنتين ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ [البَقَرَة: 265] أي فبطش وهو مطر ضعيف، والطلّ إذا دام عمِل عمَل الوابل،

يعني أن صدقة المؤمن المخلص تنفعه في الآخرة جلّت أو حُقِرَت. وقلت: كما أن هذه الجنة تعطي ريعها كثر المطر أو قلّ ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البَقَرَة: 265] من عمل الإخلاص والرياء والقليل والكثير.

إشارة وتأويل

﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ﴾ يعني لما فنى واستهلك إبراهيم في نار المحبة على سبيل التدريج فأبقاه الله ببقائه وأراد أن يجعله شاهدًا لكيفية الربوبية خلق في نفسه هذا السؤال ﴿فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ﴾ تسر العقل وطاووس النفس وغراب الطبيعة وديك الجسم ومزقها وخلط بعضها ببعض في مقام كان الناس أمة واحدة أي في مقام الفناء في الله ﴿ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ﴾ عالم الجبروت والملكوت والمثال والملك ﴿يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ﴾ من الجبال الأربعة التي في حقيقتك وهوية ماهيتك إتيان الجزء إلى الكل والأعيان المتحيزة إلى أحيازها الطبيعية، ولذا قال: ﴿يَأۡتِينَكَ﴾ ولم يقل: إليك، فمن أراد أن يصل إلى هذه المرتبة وهي مرتبة الأحدية وكمال الصداقة المفضية إلى رتبة الكلية والتحقق بالأحدية الجمعية فليقطع آثار أحكام هذه الطيور عن مملكة وجوده وولاية شهوده.

قال الصادق رضي الله عنه: «إن الله تعالى وعد خليله في نعيم الدنيا وزهرتها فقال: إن أردت أن أؤمنك وأمكنك على بساط رؤيتي عن الميل إلى الأعداء فلا تعبدني، بأربعة من الطيور: فلا تكن حريصًا على المعاصي كالغراب على الدنيا، ولا تكن مفتخرًا بزهرتها كالطاووس بزينتها وأنصف من نفسك كما ينصف الديك للدجاج ولا تقطع قلبك عن خلّتي كقطع الحمامة عن فرخها، فإذا قطعت ما أمرتك أؤمنك على فراقي؟».

﴿وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي غالب قاهر على ما سواه، قوي قادر على إفناء ما عداه وإهلاك الموانع من الوصول إليه وإيصال العبد إلى مقام يتصف بنعت الربوبية ويجري أحكام الألوهية على نفسه وإجراء ماهيته بعين قدرته ﴿حَكِيمٞ﴾ باستعداد كل شيء وقدر مقتضاه في كل مرتبة من المراتب ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ﴾ [البَقَرَة: 260].

وفي «العرائس»: بعد رؤية فنائي في عظمتك وبقاء ربوبيتك، ويراد في سؤال حيلة تخرج من عجز العبودية وتلتبس بصفات ألوهيته، وهذا السؤال أعظم من سؤاله موسى لأن سؤال موسى كشف المشاهدة والخليل عليهما السلام سأل حقيقة علم صاحب المشاهدة وصرف ربوبيته فإذا علم الحق سبحانه من الخليل أنه أراد علوم الربوبية وسلك حقائق صفة القدمية وكنه ذات السرمدية، فقال: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾ أشار إلى طير الباطن.

في «العرائس»: اجعل العقل على جبل العظمة حتى يتراكم عليه أنوار سلطنته الربوبية فيصير موصوفًا بها ليدركني بعد فنائه فيّ، واجعل القلب على الكبرياء حتى ألبسه سناء قدسي فيتيه في بيداء التفكر منعوتًا بصرف نور المحبة واجعل النفس على جبل العزة حتى ألبسها نور العظمة لتصير مطمئنة عند جريان ربوبيتي عليها لئلا ينازعني في العبودية ولا تطلب أوصاف الربوبية، واجعل الروح على جبل جمال الأزل حتى ألبسها نور النور وعز العز وقدس القدس لتكون منبسطةً في الشكر مطمئنة في الصحو، عاشقة في الانبساط، راسخة في الاتحاد، فإن كانوا متلبسين بصفاتي يطيرون بأجنحة الربوبية في هواء الهويّة ويرونني بلباس الديمومية والأزلية ثم ادعهن بصور سرّ العشق وزمرة الشوق وجرس المحبة من بساتين القربة إلى عالم المعرفة.

﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ بسرعة جناح سلطان الربوبية إلى معدل العبودية بجمال الأحدية وتراني بعد جمعهن في مربع صدرك بعيون الأحدية والملكوت هذا السؤال بطريق الأدب كأنه يقول: أقدرني على إحياء الموتى بدل قوله: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البَقَرَة: 260]، وقيل: أرني كيف تحيي القلوب الميتة إشارة إلى طور مقتضيات الأدوار الأربعة الجمالية النورية وهي عنقاء عقل الدورة العظمى في فرداريّة تربية العلم وبازِي الروح في فرداريّة تربية اسم الحي في الدورة الكبرى وطير الهماي في فرداريّة نوبة تربية القدير في الدورة الوسطى وطير طاووس الدورة الصغرى في تربية فرداريّة نوبة المريد، وكذا إشارة إلى طيور مرتضيات الأكوار الأربعة الظلية الجلالية وهي غيوب هذه الطيور الأربعة النورية الجمالية والأكوار باطن الأدوار والأرباب النورية وغيوب هذه الأسماء النورية.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [البَقَرَة: 261] أي القوة العملية ينفقون أموال العمل وأحوال العلم ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ نقطة سويداء القلب ﴿أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ أي ظهرت فيه الصفات السبعة الذاتية التي وقع لها مواتًا ﴿فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ﴾ في كل صفة منها ﴿مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ من المنسوبات في سنبلة العلم مثلًا مائة نوع من العلم كان علم الملائكة المهيمن في مطالعة جماله نوع وعلم الكروبين نوع وعلم الملأ الأعلى وعلم العقل الأول بصفات الله تعالى وذاته نوع وعلم العقل الثاني، ونوع وعلم العقل نوع آخر وهكذا إلى العقل العاشر نوع كل من العقول العشرة بقلبية الأولى نوع وبكل نوع وبما دونه من العقول نوع وضرب العشرة في العشرة مائة، وكذلك حكم القدرة والإرادة والسمع والبصر يتنوع إلى الكلام ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البَقَرَة: 261] فإن علمه كل من هذه العشرة فيضاعف إلى غير النهاية.

قال الصادق رضي الله عنه: «من دخل في مدينة بره أنبت الله في قلبه سبع سنابل في كل سنبلة مائة نوع من الحب ويضاعف في الشوق إذ لا يختار عليه أحدًا سواه ولا يخاف غيره قول معروف ومغفرة يعني إن عمل النفس بالإخلاص الظاهر آثاره على صفحات اللسان الباهر أنواره بنفحات الشرع والبيان في الآن بعد الآن خير من عمل القلب الصادر من الغفلة وهو يؤذي الروح بالكدورة ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ﴾ عن أعمالكم لأن ما يصدر منكم من الأعمال والعلوم والأحوال والأقوال فهو لإصلاحكم وتكميلكم لا لتكميله لأنه كامل بالذات وأنتم بالذات ناقصون ﴿حَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: 263] لا يعاقبكم عقوبة لازمة دائمة خارجة عن الحكم والمصالح.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ خطاب الأطوار السبعة القلبية، فإن لكل طور منها وجهًا إلى الله ووجهًا إلى نفسه ووجهًا إلى ما دونه، والصدقة عبارة عما يوجه ذلك الوجه الإلٰهي ويقبله إلى الله، والوجهان الآخران يدبران ذلك الوجه إلى عالم النفس والطبيعة ويصرفان ﴿لَا تُبْطِلُواْ﴾ [البَقَرَة: 264] أي لا تصرفوا ذلك الوجه الإلٰهي بإبطال الصدقة الصادقة بالتوجه إلى العاملين المذكورين. قال الصادق: «المؤمن لا يكون مؤمنًا إلا بقبول المنة من الله والأذى عن عباد الله، وأنفق قلبه على عباد الله، ولا يؤثر على الله ما سوى الله حتى صار

الخلق صلدًا والمحبة خالية عن غير الله وإلى الله هاديًا».

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: 265] أي الطور الروحي يكون إنفاق ماله من المعرفة والشهود والطور القلبي ﴿يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [البَقَرَة: 264] من آثار الأخلاق والطور النفسي ينفق ماله من أعمال الحواس الظاهرة والباطنة والطور القالبي، وإنفاق هو بذل الوسع قبول الأعمال والأفعال من النفس، والكل إنما يكون مقبولًا إذا كان طلبًا لمرضاة الله وشهود لقائه أو وسيلة له وتثبتًا من أنفسهم أي ويكون صدور هذه الاتفاقات حالة التثبت والاستقامة على بساط العبودية منهم في ملك الأعمال والأفعال.

﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ أي مطر من سماء الذات والأسماء والصفات ﴿فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا﴾ أي ثمرات أشجارها ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ ضعف من الذات وهو البقاء بالله والكلية والمظهرية والجمعية الكبرى والتوحيد الذاتي والأسمائي، وضعف من شجرة الأسماء والصفات هو التجلي الأسمائي والصفاتي ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ﴾ أي تجلي ذاتي ﴿فَطَلٌّ﴾ [البَقَرَة: 265] أي مطر اسم من الأسماء وفيض صفة من الصفات وهو التجلي الأسمائي كالعلمي والكلامي والبصري والعقلي والآثاري بصورة عين من أعيان الكون كالكوكب والنار والشجر وحيوان من الحيوانات بحسب الأوصاف الغالبة. قال الصادق رضي الله عنه: «من اضطرّ في ميدان إنفاقه فله رضاء مولاه وأضعاف إحسانه، ومن اضطر في ميدان العبودية فله من ثمرات الشقاوة في بساتينه مع الكبر، والنية الضعيفة عند الله القوى المحرقة بالنار الموقدة فإعطاء الله أحسن لقومٍ يتفكرون في آلاء الله».

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾ تأكيد بمعنى الرياء تحقيق للندامة على

فاعله، فالهمزة للإنكار أي أيحب أحد منكم أن يكون له جنة ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ وإفرادهما بالذكر لشرفهما لكثرة منافعهما ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي خلال أشجارها ﴿لَهُ﴾ لأحدكم ﴿فِيهَا﴾ في الجنة والبستان المحفوف بالنخيل والأعناب ﴿مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ دليل على أن فيها سائر أنواع الأشجار، ويجوز أن يكون المراد المنافع ﴿وَأَصَابَهُ﴾ أي الأحد ﴿الْكِبَرُ﴾ أي كبر السن والواو للحال أي يحب الرجل المذكور كون الجنة الموصوفة وحصولها حالة الكبر في السِنّ ﴿وَلَهُ﴾ أي وللرجل ﴿ذُرِّيَّةٌ﴾ أولاد صغار ﴿ضُعَفَاءُ﴾ عاجزة عن كسب المعاش وهو منحصر عليها ﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ﴾ عطف على أصاب داخل في حيز الحال أي ريح عاصِف يهبّ وينعكس من الأرض إلى السماء كأنها عمود ﴿فِيهِ نَارٌ﴾ أي في الريح نار مثل صاعقة عاد وثمود ﴿فَاحْتَرَقَتْ﴾ الجنة وبقي ذلك الرجل متحيرًا في إصلاحها فلم يجد الرجل ما يعود به على أولاده الصغار ولا هم يعوذون به على أبيهم فبقوا فقراء عاجزين متحيرين، هذا تمثيل لمن لا يعمل الأعمال الحسنة في الدنيا لا يبتغي وجه الله فإذا كان يوم القيامة وجدها محبطة باطلة فيتحسر عند ذلك حسرة من كان له جنة بهذه الصفات المورقة والموبقة المحرقة أو لمن صعد بها من حضيض دركات الأرض إلى أوج السماوات وذراها ثم منها إلى عالم الملكوت ثم إلى عالم الجبروت ثم نكص على عقبيه إلى عالم الظلمة الأرضية ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل هذا البيان الذي بيَّن فيما مرَّ من الجهاد والإنفاق في سبيل الله وقصة إبراهيم وعزير وغير ذلك ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ الواضحات الدالّة على تحقيق التوحيد وتصديق التفريد ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البَقَرَة: 266] تتدبّرون في كمال عظمته وقدرته ووفور رأفته وسعة رحمته.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [البَقَرَة: 267] أي خيار ما تحصلتم وأنفس ما اقترفتم لأنكم لم تصلوا الخير ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا

تُحِبُّونَۚ﴾ [آل عِمرَان: 92] أو من حلالات مكتسباتكم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [المؤمنون: 51] إما بالتجارة أو بالصياغة من الذهب والفضة.

مطلب أفضلية التجارة على الحرث

قال عليه السلام: «**الخير عشرة أجزاء أفضلها التجارة فإذا أخذ الحق فأعطاه**» أي كما أخذوا أيضًا. قال عليه السلام: «**تسعة أعشار الرزق في التجارة**»)، وقال أيضًا: «**ما من تجارة أحبّ إليّ من عشرة عطايا أو بالحرث والفلاحة والزراعة**»، قال عليه السلام: «**أطيب ما أنحل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه**». قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إنه من طيبات الرزق».

﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِۖ﴾ [البَقَرَة: 267] يعني الحبوب والثمار التي تقتات وتدخّر ما يجب فيه الزكاة. قال عليه السلام: «**ولا يغرس المسلم غرسًا فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا طير إلا كانت له صدقة إلى يوم القيامة**». وأيضًا قال عليه السلام: «**وفي التوراة: طوبى لمن أكل من ثمرة يديه. يا معشر قريش لا يغلبنكم هذه الموالي على التجارة فإن البركة في التجارة وصاحبها لا يفتقر أبدًا إلا تاجر حلّاف مهين**».

﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِۖ﴾ من الحبوب والأثمار أو من المعادن والكنوز، هذا أمر بإخراج الزكاة من الحلال فلا زكاة في المغصوب عند الشافعي خلافًا للحنفي عليهما الرحمة والرضوان فإن الغاصب يملك المغصوب وللمغصوب عنه عليه قيمته.

﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ﴾ أي لا تعمدوا بإخراج رديء من المال والصدقة ﴿تُنفِقُونَ﴾ حال من فاعل تيمموا، ويجوز أن يتعلق به مقدمًا عليه والضمير للخبيث والجملة حال منه ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ﴾ والحال أنكم لا تأخذون إن أعطي لكم من الخبيث ﴿إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِۚ﴾ فكيف ترضون أن يكون الخبيث إلا أن تغمضوا فيه أي لا حال إغماض العين عنه فيأخذون دون حقكم مخافة أن يذهب جميعه أي يأخذون الرديء بدل الطيب من حقكم بناء على المساهلة وإغماض العين ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن ذلك الإنفاق وأن لا يقبل إلا الطيب أو عن

إنفاقكم وأن يأمركم به لانتفاعكم به لا له. قال عليه السلام: «**إذا رأيتموني أتصدق بشر ما عندي فابكروني واعلموا أنّى تحيون**»، ﴿حَمِيدٌ﴾ [البَقَرَة: 267] بأفعاله عند خلقه حيث يعطي الجزيل ويقبل القليل.

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ أي يخوّفكم في الإنفاق والإنفاق في الأصل شائع في الخير والشرّ والنفع والضرّ. وقيل: الوعد في الخير والإيعاد في الشرّ والضرّ الفقر بالضم والفتح والسكون وفتحتين أصله من كسر الفقار وهو سوء الحال وقلّة ذات اليد ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ والبخل ومنع الزكاة. قيل: إن كل فحشٍ في القرآن فهو الزنا إلا في الآية ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ﴾ أي يجازيكم، وعدة الله إلهام وتنزيل وعدة الشيطان وسواس وتخييل ﴿وَفَضْلًا﴾ أي رزقًا وخلقًا ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ أي واسع الفضل لمن أنفق أو نوى الإنفاق ﴿عَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: 268] بما ينفقون.

﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾

﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ﴾ تحقيق العلم وإتقان العقل اسم لأحكام وضع الشيء في موضعه. وقيل: النبوة أو العلم اللّدني أو النور الفارق بين الوسواس والإلهام ﴿مَن يَشَآءُ﴾ أو سرعة الجواب مع إصابة الصواب.

قال بعضهم: منَّ الله بعث الرسل بالنصح لأنفس خلقه وأنزل الكتب ليثبت قلوبهم وأنزل الحكمة لتكون أرواحهم والرسول داعٍ إلى أمره والكتاب داعٍ إلى أحكامه ومشيرة إلى فضله ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ أي الورع في دين الله عزَّ وجلَّ ﴿فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ أي أعطى خيرًا يتزايد ولا ينقص ويحسن ولا يقبح ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: 269] أي لا يتعظ إلا ذو العقول وأولوا اللبّ، واللّب ما صفى من العقل عن دواهي الهوى وهم العلماء بالله والعمّال بأحسن الأعمال من نشاء من الأعيان الكاملة والأكوان الفاصلة. قيل: من أعطي علم

القرآن ينبغي أن لا يتواضع لأهل الدنيا لأجل دنياهم لأن ما أعطاه الله خير كثير والدنيا متاع قليلٌ حقير.

إشارة وتأويل

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ [البَقَرَة: 266] هذا تمثيل للنفس الأمارة مع أختيها والطور القلبي فإذا كانتا على مقتضى طبعه الأصلي وكمال جمعه الأولي فجنته الذات بالأسماء والصفات والذاتي وهو المحبة الذاتية التي فيها نار قهرمان التجلي الذاتي.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ خطاب إلى القوى الروحانية والنفسانية وأمر بإنفاق ما اكتسبوا من المعارف الإلٰهية والإدراكات التي تعلقت بالأكوان الحقة الصادقة ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ﴾ أي يقصد ولا تهملوا العلوم الظنية والإدراكات الوهمية والخيالات أو الأعمال الفاسدة بالرياء. قال الصادق رضي الله عنه: «دعاك الله بأفضل الأسماء وإذا أدخلك في أطيب المدائن ومحى عنك أخبث المدائن وهو الكفر والشقاء وأخرجك من أرض عبوديتك للأنس معه». وفي «العرائس»: أنفقوا لأرواحكم ما كسبتم لأشباحكم من المعاملات القدسية عن شوائب الرياء والسمعة.

﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم﴾ [البَقَرَة: 267] أي مما أخرجنا بمؤن المعرفة عن سبحات المكاشفة من مزارع قلوبكم من الحكمة والعلوم اللدنية والصدق والإخلاص والرضاء على المريدين ليتخلصوا بذلك من مكائد الشيطان.

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ أي يخوف عن قوت أموال الأميال إلى الذات النفس وهي حياة النفس. قال الصادق رضي الله عنه: «أعظم الفقر في خزينة الله الفقر عما سوى الله، وأصل الفقر عن رحمة الله القطيعة عنه والمولى بسط بساط اللُّطف ودعاك باللطافة فأجبت له بأطيب الإجابة لأنه غني حميد». قال صاحب «العرائس»: يعدكم إلى قطع الرجاء عن الله في أثمان نواله وإلى قلة الطمأنينة وكثرة الشك فيما وعد الله لعباده من نفائس الألطاف التي هي سبب حياة العباد في الدنيا والآخرة.

﴿وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ أي بالبخل في صرف العلوم والمعارف إلى المستحقين من الطلاب ومن منع المستجدين فقد ظلم. قال صاحب «العرائس»: أي البخل والظن في الله بالسوء وحب الدنيا وبغض الموت وعمارة الضياع وانعقاد طلب الزيادة وبغض الفقر والفقراء، ومنع الزكاة وما أوجب تعالى عليهم من الحج والجهاد وغير ذلك من ما نهى الله من المنكرات ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةً﴾أي يطهر قلوب الأسخياء من أوساخ الشح والفاحشة والميل إلى الدنيا ﴿وَفَضۡلٗاۗ﴾ [البَقَرَة: 268] أي مشاهدته وقربه ومعرفته وتوحيده وكشف أسراره وأيضًا المغفرة التفرد عن الكون والفضل الوصول بلا وحشة البدن. قال بعضهم: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ﴾ تحذير للموحدين لأن الشيطان لا يدعو أحدًا إلى معصية الله حتى يعده من الفقر فإذا خاف العبد دعاه إلى النظر لمعصيته، وإذا استحل المعاصي دعاه إلى النفاق، وإذا استحل النفاق دعاه إلى الكفر، ولا يخاف الفقر إلا من نسي القسمة ولا ينسى من عرف الله الذي قسم لعباده ما أراده بمشيئته. وأصل المعاصي إنفاد الشهوات، وأصل النفاق التزيين للخلق، وأصل الكفر منازعة العازم. قال سهل: الفقر أن تأخذ شيئًا من غير وجهه وتضعه في غير حقه.

مطلب تعريف الحكمة

﴿وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ﴾ [البَقَرَة: 269] هي المعرفة الفطرية والوفاء بما عهد في الأزل والجذبة الإلٰهية أو شهود التجلي الذاتي، الحكمة هي المحبة الذاتية السارية في جميع المكونات «**فأحببت أن أُعرف**»، أو هي استقامة الظاهر بالباطن لحكم ظهور ما هي في الفطرة الأولى في استعداد النفس أو الحكمة النظرية هي النبوة التعريفية والعملية هي النبوة التشريعية المتعلقة بتكميل الظاهر وتعديل البواطن وتحصيل أنوار الأطوار وآثار جواهر المواطن. قال صاحب «العرائس»: الحكمة إدراك أنوار بواطن القلوب وأسرار عجائب مواطن الغيوب أو هي ما حفظته الأرواح من ألواح الملكوت وتلقت العقول إلهام الأحكام من عالم الجبروت، والحكمة هي أدب رباني لتهذيب خلق إنساني وأيضًا الحكمة معرفة الأخلاق والاطلاع بعيوب النفس ودقائق شقائق الشيطان وأنواع خطاب الحق ومعرفة أقدار الخلق ومداواة أمراض البواطن ودفع

الوسواس وخواطر الموسوس الخناس ووقائع المكاشفات وأنوار المشاهدات وإدراك منازل المعرفة ودرجات التوحيد والبلوغ إلى العلم اللّدني والكرامات والفراسات ورؤية الغيب بالغيب والمحادثة والمخاطبة والمكالمة مع الله في أسرار الخلوات وأنوار المناجاة. هذا والجملة أنها بحر عميق محيط على جواهر نفيسة كل في نفسه في الإفادة لحكمة كاملة.

قال الصادق رضي الله عنه: «أي يؤتي الحكمة الصدق في المحبة والإصابة في الولاية والحقيقة في المعرفة». فمن أوتي ما ذكرنا فقد أوتي المعبود وما يذكر من سر نوره إلا من عقل حكمة هذا القول ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [البَقَرَة: 269]. قال في «العرائس»: إن الله تعالى أخبر نبيه عليه السلام: «**لا يزال العبد يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به وقلبه الذي يعقل به**»، فإذا كان جميع وجوده مستغرقًا في رؤية خالقه فكيف لا يطّلع على مكنونات الغيب والمطلِع هو الله تعالى.

قال المعروف الكرخي: من حَسُنَ عمله نزلت الحكمة في قلبه. وقال سهل: الحكمة هي مجمع العلوم كلها وأصلها السنة ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأحزَاب: 34]، والحكمة الآيات الفرض والحكمة السنة. قال عليه السلام: «**القرآن حكمة الله بين عباده فمن تعلم وعمل به فكان كمن استدرجت النبوة بين كتفيه إلا الوحي ويُحاسب حساب الأنبياء إلا بتبليغ الرسالة**».

واعلم أن الحكمة هي المعرفة الخالصة عن شوب الرياء الحاصلة من التجلي الذاتي النازلة أولًا على الشؤونات الذاتية ثم على الأعيان الثابتة ثم على المجردات العقلية والجواهر النورية، ثم على الأرواح المقدسة وعلى الأشباح المؤسسة، ثم على النفوس الفلكية إلى أن يصل إلى الجمعية القلبية والصورة الكلية الغيبية، إلى أن يصل إلى الجوارح والمشاعر الباطنة والحواس الظاهرة أي القوة النظرية والعملية مبادئهما العينية والشهادية منزلة على المراتب الكلية الأربعينية، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام: «**من أخلص لله تعالى أربعين صباحًا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه**».

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾ فيما فرض عليكم ﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾ أي ما أوجبتموه أنتم على أنفسكم، والنذر نذران: نذر في الطاعة ونذر في المعصية، فما كان لله فالوفاء به واجب وفي تركه كفارة، وما كان للشيطان فلا وفاء ولا كفارة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ أي كل واحد منهما ويحسبه ويحفظه حتى يجازيكم به ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ الواضعين كلًّا منهما في غير موضعهما ﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾ [البقرة: 270] أعوان يدفعون عذاب الله عنهم. جمعُ نصير مثل شريف وأشراف وخبيث وأخباث.

﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾

﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ﴾ نزلت حين سئل: يا رسول الله أصدقة السرّ أفضل أم صدقة العلانية؟ قُرئ بفتح النون وكسرها وكسر العين وتشديد الميم أي نِعْم الخِصلة الصدقة، فنِعم فاعله مضمر فيه وما نكره بمعنى شيء مفسرّ للضمير المبهم، ويقصد به فعل الفاعل وهو إبداء المعلوم السابق ذكره وهي خبر مبتدأ محذوف بتقدير المضاف عائد إلى الصدقة كأنه قيل: ما الممدوح؟ فقيل: هي الصدقة المعلنة المفروضة ترغيبًا للخلق على أدائها وإبدائها وترهيبًا للممتنعين، أي نِعْم الشيء شيئًا الصدقة المعلنة.

﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ﴾ أي إن تعطوا الصدقات في السرّ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البَقَرَة: 271] كل صدقة صادقة النيّة فهي مقبولة إلا أن إسرار الصدقة أفضل لإخلاصها. قال عليه السلام: «**صدقة السرّ تطفئ غضب الربّ وتُطفئ الخطيئة كما تطفئ الماء النار وتدفع سبعين بابًا من البلاء**»، وأيضًا: «**سبعة يُظلّهم الله في ظلّهِ يوم لا ظلّ إلا ظلّه: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادته، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابّا في الله فاجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات جمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى**

لا تعلم يمينه ما تُنفق شماله، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه». قيل: إعلان الصدقة المفروضة أفضل من إخفائها بخمسة وعشرين ضعفًا، ويحتمل أن يكون المعنى من الخير الثواب والحسنة لا التفضيل ﴿وَيُكَفِّرُ﴾ بالنذر، والياء مجزوم عطف على محل الجزاء استئناف نحو يكفر ﴿عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ﴾ ويتجاوز عن جميع ما في ذنوبكم إذا كانت من زائدةً أو للتبعيض ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البَقَرَة: 271] قال هذه الآية في صدقة التطوع لإجماع العلماء على أن الزكاة المفروضة إعلانها أفضل كالصلاة المكتوبة في الجماعة فإنها أفضل من الإفراد، وكذلك سائر الفرائض بمعنيين:

أحدهما: ليقتدي به الناس.

والثاني: لإزالة التهمة لئلا يسيء به الناس الظن ولا رياء في الفرض. وأما النوافل والفضائل فإخفائها أفضل ليبعدها عن الرياء والآفات. عن ابن عباس رضي الله عنه: جعل الله صدقة التطوع في السرّ تفضل علانيتها بسبعين ضعفًا وصدقة الفرائض علانيتها بخمسة وعشرين ضعفًا وكذلك جميع الفرائض والنوافل.

﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾

﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ أي التوفيق للهداية وللتعريف. اعتمر رسول الله ﷺ عمرة القضاء وكانت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها معه، فجاءتها أمها وجدتها فقالت: لا أعطيكما شيئًا فإنكما لستما على ديني، فأنزل، فأمر عليه السلام بعده أن يتصدق عليهما ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ أي يوفق ويعرّف ويرشد هدايةً توفيقه ويلطف بالإرشاد إلى سعادة النشأتين ﴿وَمَا تُنفِقُوا﴾ أي شيء تصدقوا ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ أي مال ﴿فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ مبتدأ وخبر والفاء في الخبر لتضمن المبتدأ معنى الشرط أي ثوابه يختص بها لا يتجاوزها ﴿وَمَا تُنفِقُوا﴾ [البَقَرَة: 272] أي لا تتصدقون في طاعة الله جملة حالية أو نهي في المعنى ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ متضمن للشرط ﴿يُوَفَّ﴾ مجزوم

لكونه جزاء، أي يعطَ ثوابه لكم ويؤدَّ ﴿إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: 272] لا تنقصون من ثواب أعمالكم شيئًا، هذا حكم صدقة التطوع. وأما صدقة الفرض فلا تجوز إلا للمسلمين.

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾

﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ متعلق بفعل محذوف أو خبر مبتدأ أي صدقاتكم للفقراء واجعلوا صدقاتكم للفقراء ﴿الَّذِينَ أُحْصِرُوا﴾ أي أُحْبِسوا ومُنِعوا ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي الطاعات أو الجهاد.

قال بعضهم: هم فقراء المهاجرين الذين كانوا قريبًا من أربعمائة نفر لم يكن لهم مساكن في المدينة ولا عشائر، سكنوا المسجد يتعلمون القرآن بالليل ويرضحون النوى في النهار، وهم أصحاب الصفة.

عن ابن عباس رضي الله عنه: «وقف رسول الله ﷺ يومًا على أصحاب الصّفة فرأى فقرهم وطيب قلوبهم فقال عليه السلام: «**ابشروا يا أصحاب الصّفة فمن بقي من أمتي على هذا النعت التي أنتم عليه راضيًا بما فيه فهو من رفقائي**».

وأيضًا [قال] عليه السلام: «**يجمع فقراء المهاجرين يوم القيامة فينادون للحساب فيقولون: هل أعطيتمونا شيئًا فتحاسبونا عليه، فيدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام**».

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي سيرًا وتصرفًا فيها للتجارة، وطلب المعيشةِ قليلُ المال يصلحه فيبقى ولا يبقى الكثير مع الفساد يحفظ المال اليسير مَن تباه وضرب في البلاد بغير زاد ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ﴾ بحالهم وباطن أمرهم وشأنهم ﴿أَغْنِيَاءَ﴾ لتصونهم عن التعرض للناس بالمسألة ﴿مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ [البَقَرَة: 273] أي من أجل التعفف وهو القناعة بالقليل وترك طلب الفضل على

قدر الحاجة، ومنع علو همتهم رفع حوائجهم لغير مولاهم ﴿تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ﴾ بعلامتهم وهي التخشُّع والتواضع أو صفرة اللّون من الجوع والضرّ.

قال الثوري: فرحهم بفقرهم واستقامة أحوالهم عند موارد البلاء أو طيب قلوبهم وبشاشة وجوههم وحسن حالهم وتنور أسرارهم وجولان أرواحهم في الملكوت والجبروت.

﴿لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ﴾ إلزامًا وإلحاحًا حتى يعطي له شيئًا أي إذا كان عنده غذاء لا يسأل عشاءً وبالعكس، فيه نفي للسؤال والإلحاف جميعًا أي لا يسألون أصلًا، ومنصوب على أنه مفعول مطلق بتقدير المضاف أي لا سؤال إلحاف ولا غيره لكونهم متعففين عنه. قيل: إن سألوا سألوا بتلطُّف في حالة الاضطرار.

قال عليه السلام: «**ليس المسكين الذي ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان وإنما المسكين المتعفِّف**».

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ﴾ مال فإنه في ديوان أعماله ثابت ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ﴾ أي بما أنفقه ﴿عَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: 273] قدم عليه مفعوله قصدًا للتخصيص أي حفظه ومعلوميته مخصوص بالله فلا يضيع أجر عامل منكم من ذكر أو أنثى، فيه ترغيب وتحثيث على الإنفاق.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٤﴾

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي كل الأوقات ﴿سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ وخلاء وملاء حال من المفعول ﴿فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ﴾ أي جزاؤهم وثوابهم ثابت ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ أي علمه المتعلق بالجزئيات والكليات ﴿فَلَا خَوۡفٌ﴾ من تضييع أجورهم ﴿عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البَقَرَة: 274] على فوت أمر من مآلهم.

نزلت في علي بن أبي طالب حيث كان عنده أربعة دنانير فتصدّق بدرهم سرًّا وبدرهم علانية وبدرهم ليلًا وبدرهم نهارًا.

﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧٥﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ﴾ أي يأخذون ويعاملون معاملة ﴿ٱلرِّبَوٰاْ﴾ التباس أن يكتب بالياء لكسرة ما قبلها إلا أنه كُتبَ بالواو، وفي القرآن حيث كان أصله الزيادة، وقد خصت ها هنا بالمعاملة بأن يبيع المقومات جنسًا بجنس والنقدان أيضًا بالزيادة بأن يبيع صاعًا من حنطة أو برّ أو أرز بصاعين سواء كان حالًّا أو مؤجلًا، وكذا مثقال من ذهب بمثقالين من ذهب، ولا بأس ببيع صاعين من شعير بصاع من البرّ لاختلافهما جنسًا، وكذا بيع مثقال من ذهب بمثقالين أو صاعدًا من فضة ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ يوم القيامة عن القبور ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ﴾ أي يصرعه ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ ويحبله ﴿مِنَ ٱلۡمَسِّۚ﴾ [البَقَرَة: 275] أي الحيوان، يقال: مس الرجل وألمس فهو الممسوس والملموس ومألوس إذا كان محتويًا بعين إن أكل الرّبا يبعث يوم القيامة مثل من يقوم الذي يضربه الصرع والجنون من مسّ الشيطان فهو يقوم ويسقط، وأصل الخبط الضرب بلا استواء، ومنه خبط العشواء.

حكى رسول الله ﷺ عن قصة الإسراء قال: «**وانطلق بي جبرائيل عليه السلام إلى رجال كثيرة كل واحد منهم بطنه مثل البيت الضخم متصدين على مسائلة آل فرعون وآل فرعون يعرضون على النار غدوًّا وعشيًّا، قال: فيقتلون مثل الإبل المفهومة يخبطون الحجارة والشجرة فإذا أحس بهم أصحاب البطون قاموا فتميل بهم بطونهم فيصرعون ثم يقوم أحدهم فيملأ به بطنه فيصرعون فلا يستطيعون إن خرجوا حتى يغشاهم آل فرعون فيؤذونهم مقبلين ومدبرين، فذلك عذابهم في الديباج بين الدنيا والآخرة.**

قال عليه السلام: قلت: «**يا جبرائيل من هؤلاء؟** قال: **هؤلاء الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبّطه الشيطان من المس**».

﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب الذي بهم بسبب أنهم ﴿بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ﴾ لا

تفاوت بينهما في أخذ العوض وقصد الربح، وإنما عكس في التمثيل قصدًا للمبالغة في استحلال الربا ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ يعني قيامكم فاسد لأن الله حرَّم الربا وأحلَّ الله البيع لأن الربح في البيع غير متعين بخلاف الربا فإنه متعين بقصد المرابي ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ﴾ [البَقَرَة: 275] وزجر عن الرّبا ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [البَقَرَة: 37] وأثر في قلبه وغيّر ما في نفسه من الاستحلال وقلب وجهة قلبه من النفس إلى حظائر القدس ومقام الأنس خشع لربّه ﴿فَٱنتَهَىٰ﴾ وامتنع عن تعاطيه بكمال التلقي إلى القبول بتمام القلب ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ وأسلفه في الآخرة ليوم الجزاء من الامتناع عن أكل الربا والإعراض عن الاعتقاد باستحلاله ﴿وَأَمْرُهُۥٓ﴾ راجع ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ إن شاء عذّبه بسائر الذنوب وبما تقدم منه، وإن شاء غفر وتجاوز عن عذابه ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ بعد الانتهاء بقبول النصح والموعظة إلى أكل الربا وتحليله ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البَقَرَة: 275] لكفرهم بالله.

قال عليه السلام: «**الربا سبعون بابًا هو عند الله كالذي ينكح أمه**»، ولعن رسول الله ﷺ آكل الربا ومؤكله وشاهده وكاتبه. وأيضًا قال عليه السلام: «**إذا أراد الله بقرية هلاكًا أظهر بينهم الربا**».

﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾

﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ ينقصه ويهلكه ويذهب بركته وإن كان كثيرًا إذ عند أخذ الربا يغفل قلبه عن الله وينساه والمال لا يبقى نفسه فيبقى في معرض الهلاك ﴿وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البَقَرَة: 276] أي يثمرها ويُكثرها ويبارك فيها في الدنيا ويضاعف الأجر في الآخرة.

قال عليه السلام: «**إن الله يقبل الصدقات ولا يقبلُ منها إلا الطيب ويأخذها بيمينه فيُربيها كما يربي أحدكم مهره أو فلوه حتى أن اللقمة لتصير مثل أُحد**» وتصديق ذلك: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التوبَة: 104].
قال يحيى بن معاذ: ما أعرف حبّة تربى جبال الدنيا إلا الحبة من الصدقة.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ مبالغة في الكفر ﴿أَثِيمٍ﴾ [البَقَرَة: 276] منهمك في ارتكابه أو فاجر بأخذه وبأكله.

إشارة وتأويل

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾ من أموال أعمال النفس ﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾ [البَقَرَة: 270] من أحوال القلب من التزكية والتصفية والتحلي بجواهر الأخلاق والتجلي بزواهر أوصاف الخلاق وتخليته عن الملكات الرديئة والهيئات الدنيّة والكيفيات الرّزيلة. والمراد أفعال القوى النظرية والعملية. قال الصادق رضي الله عنه: «لا يصفوا العبد بعبادة ربّه إلا بإنفاق قلبه على محبته أو الوفاء بنذره».

﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أي الأعمال النفسية والأحوال القلبية كما هو دأب المرشدين ليقتدي بهم المسترشدون ﴿فَنِعِمَّا هِىَ﴾ أي نِعم أحوالهم ﴿وَإِن تُخْفُوهَا﴾ كما هو شأن السلّاك والمحبين لا يظهروا أحوالهم ولا أعمالهم إلا عند المرشد العارف بحقائق الأحوال ودقائق ثمرات الأفعال ليعلموا بها أحوالهم ويطلعوا على كيفية أطوار القلب السبعة وأركان الفقر وهي ثلاثة وهي: الكشف والحقائق وأطوار القلب وذلك إنما يعرف بثمرات الأفعال البدنية ونتائج الأعمال النفسية التي تشاهد في كيفية عالم البرزخ عند تقاعد العمّال البدنية وهي الحواس الظاهرة والباطنة، فإن لكل من الأعمال والأفعال والأقوال والأحوال صورة برزخية وهيئة مثالية ثابتة في عالم الخيال المقيّد وهو البرزخ المعادي أو في الخيال المطلق المتصل بعالم الأرواح والملكوت وهو البرزخ المبدئي فتنعكس فيه المعاني المجردة الإلهية والجبروتية والملكوتية فهذه الثمرات والنتائج تخبر عن أحوال النفس والقلب والروح، والنفس إخبار النبض عن أحوال القلب والروح والنفس. فلا بد أن تتعرّف تلك الصور وكيفية محو ارتباطها بالقلب والنفس والروح لتعلم منها أحوالها ومن لم يعرف ملك الصور وكيفية ارتباطها بالنفس والقلب والروح وهي علم التعيين، فمن لم يعرف علم التعيين لا يصلح للإرشاد والإرشاد عليه حرام، وإن كان أحواله ومقامه وعلومه وإدراكاته غير متناهية، وتوفوا الفقراء الكاملون في مراتب القلب وهي أربعون وأطواره السبعة.

﴿فَهُوَ﴾ أي إعطاء الصدقات الفقراء وإخفاؤها ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم﴾ ويمحو ويزيل ﴿سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [البَقَرَة: 271] أي تقصيراتكم وغفلاتكم

﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [البَقَرَة: 272].

قال الصادق رضي الله عنه: «ليس الهدى من وفاء العهود وإنما الهدى لمن وجد المعبود»، وفي الافتقار إليه والاستغناء عن غيره حتى تجد المرضاة والولاية الأبدية.

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾ في مقام النفس من التهذيب وأحكام السياسة والتأديب وما يصدر منها وحسن الأفعال ﴿فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ أي فلاستكمال أنفسكم في أطوارها وظهور أسرارها ﴿وَمَا تُنفِقُواْ﴾ في مقام القلب الصافي من الكدورات البشرية والأغراض النفسية من الجواهر العملية والفواخر العملية من الأخلاق المرضية ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾ ليخلصه عن جميع الأعراض وعموم الأعاض وتمام الأغراض ﴿وَمَا تُنفِقُواْ﴾ في مقام الروح من المعارف الإلٰهية والعلوم العنصرية والإدراكات الحقيقية والشهودات الأولية ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾ وصدقة وإحسانٍ وفضل ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ﴾ أي بإنفاق الخير ﴿عَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: 273].

﴿ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعني ما أنفقتم من أموال العلوم النظرية وأعمال القوى النفسانية والكمالات الإنسانية من شهود التجليات الربانية ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ أي للقوى الروحانية وللطور الخفي والطور الروحي الذين حبسوا أنفسهم عن الميل إلى غير الله في مجلس السنة ناظرون من الله إلى الله، راضون بقضاء الله في مراد الله، صابرون في بلائه صابرون إلى شهود المنعم ولقائه في مرايا آياته وزوايا نعمائه وبيناته لتجريد القوى الروحانية والأحوال والعلوم والأعمال من الصور الحسية والنسب العقلية إلى هذين الطورين ليجعلاهما مرآة شهود أنوار جماله وأسرار جلاله ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي السير في السفليات حالة الحبس.

﴿يَحْسَبُهُمُ﴾ الجاهل ﴿أَغْنِيَآءَ﴾ بأموال التجليات الأسمائية والصفاتية وأنوار الإشراقات الإلٰهية ﴿مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ والإعراض عن الأعراض السفلية هي مرايا تجليات الذات والأسماء والصفات ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ [البَقَرَة: 273] أي بظهور آثار أنوار مشاهدة وجه الحق في وجوههم ببهجة ما في قلوبهم من العلوم الحاصلة من أنواع التجليات وأصناف إدراكات الشهودات، وفي لسانهم وفوههم

من الأفعال الصادقة والكلمات الحقة الدالّة على كمال بهجة ما في قلوبهم من العلوم الحاصلة من أنواع التجليات وأصناف إدراكات الشهودات، وتضاعف الإدراكات وتعاطف المعنويات.

﴿يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [البَقَرَة: 273] أي القوى الطبيعية لأنهم توغلوا في صحارى التوحيد وتبتلوا في تيهِ التقديس بنعت التفريد وصفة التجريد فتاهوا في بحار عظمته وباهوا بتشريف خلقه أحدية جمعيته فتلونوا من معين التلوين إلى عين التمكين لا يستطيعون من ثقل مآلهم سيرًا من الحيرة إلى رؤية المنة والقربة في أرض الديمومية وبسيط القيومية والطيران عن مصاعد الحدوثية في أسرار القدمية فإذا برزوا بهذه السمات من بطنان عجائب الغيب يحسبهم صبيان الملكوت أنهم حال بسط بساط الديمومية لا يعرفون شأن قبضهم لأنهم في طيب الحان مزمار اللّطف والإحسان يحتجبون عن إدراكات أحوال المحترقين بنيران الكبرياء لكن بلغهم الله مقام التفرقة بنعت جمع الجمع ليجمعوا شتات المسترشدين، وليستمعوا هفوات الناقصين من المدّعين ليهتدوا بهم فسيقولون: هذا إفك قديم.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [البَقَرَة: 274] إشارة إلى كيفية الإرشاد وطريقته، أي الذين يتصدقون بأهل ليل الكفر والمعاصي وبأهل النهار أي التائبين الصالحين ﴿سِرًّا﴾ أي في أيام الخلوات وعلانية حال الاختلاط مع الناس وحالة الصحو والشكر، قال الصادق رضي الله عنه: أنفق الطاعات على الأولياء والأحباء لئلا ينسوا ليالي خطاياهم، ونهار عقلهم وسر خلوتهم ونهار عادتهم فهو عند الله من الأمن عن فواته.

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البَقَرَة: 275] إشارة إلى أن بين النفس والروح معاملات لا بد وأن تكون على التساوي والتعادل والتفاوت والتفاضل وإلا لما أدى إلى التعطيل والتعليل.

قال الصادق: «فآكل الربا كعبادات اللّات والعزى، ومن أكل قدر دانق من الرّبا فكأنما حارب مع المولى بنفسه وخالف كتاب وسنة المصطفى».

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البَقَرَة: 277] من آمن في ظاهر آية أعماله وعمل في باطن أفعاله وخلى في خلوة كرمه وزكى في جلوة بره فهو المأمور في داره وخلوة غاره، والمستأنس بحبه وأنسه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾ [البقرَة: 278] إشارة إلى تعدد مقام المعاملة والربا فإن للبدن مع النفس معاملة ومقاسمة وللنفس والقلب مع الروح والنفس معاملة ومقاسمة، فإذا كانت النفس غير مهذبة بكون معاملتها على الأكثر بالزيادة على مقتضى القلب. وكذا حال القلب إذا لم يكن صافيًا عن الملكات الردية والهيئات الدنية تكون معاملته بالروح أيضًا على الربا ودعوته لتقويته بالنفس الغير المهذبة.

﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرَة: 179] ومن مات من الوباء فأمره الله بالرجوع إلى رأس ماله من الأعمال النفسانية والأفعال الحيوانية ويرب النفس بها البدن بلا ربا أو زيادة التصرف في القلب وجذبه إلى مقتضى مسخه ومرتضى طبعه ووسخه ومن لم يتب منها فأوجب الله عليه الخلود في النار يظلمون ولا يظلمون، يا أيها القوى الروحانية لا تظلمون القوى النفسانية والجسمانية بالمنع عن مقتضاها الأصلية بالكلية فإنها تعمي النفوس وتظلمها، ولا يظلمون بالانقياد إلى حكم سلطان النفس.

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ أي وقع غريم صاحب عسار ﴿فَنَظِرَةٌ﴾ خبر حذف مبتدؤه أي فالحكم تركه وإهماله وإنظاره وإمهاله ﴿إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ بضم السين وفتحها أي إلى وقت اليسر بإدراك ما يثمر ويغني وجود المال أو جزاء الشرط بتقدير فعليكم

بنظرة هذا عام في كل دين ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا۟﴾ على المعسرين شيئًا من رأس المال أو بالإبراء ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وأرجى للثواب وأنجى في الآخرة من العقاب. وفي تأويل المصدر المرفوع معطوف على ﴿فَنَظِرَةٌ﴾ مبتدأ خبر ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: 280] مصالح دينكم ومناهج دنياكم من الذكر الجميل والأجر الجزيل. قال عليه السلام: «**من أنظر معسرًا ووضع له أنجاه الله من كرب يوم القيامة**».

﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وهو القيامة أو يوم الموت فتأهبوا لمصيركم إليه ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ أي تجري كل نفس ساعته وطبيعته داعية بما عملت من خير وشرّ ونفع وضرّ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: 281] أي لا ينقص ثوابه ولا يضاعف عقابه. عن ابن عباس: أنها آخر آية نزل بها جبرائيل. وقال عليه السلام: «**ضعها في رأس المائتين والثمانين من البقرة وعاش بعده أحد وعشرين يومًا**».

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم﴾ أي دائن بعضكم بعضًا وعامله نسبية ﴿بِدَيْنٍ

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي وقت معلوم بالأيام والشهور والأعوام أولًا وآخرًا، الدين ما كان مؤجلًا، والعين ما كان حاضرًا إلى قدوم الحجيج وإدراك الحصاد وغير ذلك ﴿فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ [البَقَرَة: 282] أي الدين أو الثمن أو الأجل بالإشهاد لحصول الوثائق ودفع المشاجرة ورفع المخاصمة عند السهو والنسيان والإنكار والطغيان. والبعض أن هذا منسوخ بقوله: ﴿فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ﴾ [البَقَرَة: 283] واجب فرض لقوله عليه السلام: «**ثلاثة يدعون الله فلا يُستجاب لهم: رجل كان له دين فلم يشهد، ورجل أعطى سفيهًا مالًا وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ﴾** [النِّساء: 5] **الآية، ورجل كانت عنده امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها**» ثم بيَّن كيفية الكتابة.

﴿وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ﴾ أي كتاب الدين بين المتداينين أو البائع والمشتري ﴿بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ بالصدق والحق متعلق بـ«ليكتب» دليل على أن يكون الكاتب عالمًا بالشرط عادلًا لئلا يزيد ولا ينقص﴿وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ﴾ أي لا يمتنع أحد من الكتَّاب ﴿أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ﴾ كتابة الوثائق بلا تبديل ولا تغيير، وهو نهي عن الامتناع من الكتابة المقيدة بالوصف الذي يحيي ذكره.

ثم قال: ﴿فَلۡيَكۡتُبۡ﴾ تلك الكتابة المقيدة المذكورة تأكيدًا وتنبيهًا ﴿وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ﴾ أي يقول من عليه الحق ليكون قوله وإقراره شهادة على نفسه بلسانه، ويكتب الكاتب على طبق الإملال، فمعنى الإملال والإملاء واحد والإملال في الأصل إعادة الشيء مرة بعد أخرى والارتياح عليه ﴿وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ أي وليحلف الله المطلوب بالدين في الإملال والمملي أو الكاتب ﴿وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ﴾ أي لا ينقص من الحق الذي يثبت عليه ﴿شَيۡـٔٗا﴾ ولو قليلًا.

﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ﴾ أي المطلوب بالدين ﴿سَفِيهًا﴾ أي جاهلًا بالإملال وصغيرًا، والسفاهة خفة العقل ونقصانه ﴿أَوۡ ضَعِيفًا﴾ في عقله أو في قوته البدنية أو النفسانية أو العاقلة، وإليها الإشارة بقوله: سفيهًا، وهو العاجز ﴿أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ﴾ هو لخرس أو عمى أو عجز أو زمانة أو حبس ﴿فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ [البَقَرَة: 282] أي ولي من عليه الحق وهو القيم أو الوكيل أو الوصي. قيل: ولي صاحب الدين لأنه أعرف بحقه.

﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ﴾ أي اطلبوا على حقكم ﴿شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ المسلمين ذوي الفهم والعقول الأحرار العدول، هذا مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ﴾ شاهدين ﴿فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾ أي فليشهد رجل وامرأتان ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ﴾ أنتم وتختارون شهادتهم ﴿مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ وشهادة النساء مع الرجال جائزة في الأموال بالإجماع، والمجرور صفة رجل وامرأتان والثاني بيان من ﴿أَن تَضِلَّ﴾ بفتح أن المصدرية أي أن النفس أي إن تنسى وبكسرها إن الشرطية أي إن نسيت ﴿إِحْدَىٰهُمَا﴾ أي إحدى الامرأتين الشاهدتين ﴿فَتُذَكِّرَ﴾ بالرفع تضعيفًا وتخفيفًا من التذكير والإذكار جواب الشرط ﴿إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ أي جعلت إحداهما الأخرى متذكرة من الشهادة المنسية ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ﴾ أي لا يمتنع من أداء الشهادة ﴿إِذَا مَا دُعُواْ﴾ ما مصدرية أي وقت الدعوة والطلب إلى أداء الشهادة لدى الحكّام طلبوا إلى الحكام ليشهدوا. وقال بعضهم: هذا في تحمل الشهادة والآخر فيه وفي الأداء والإقامة في وقت.

﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾ أي تميلوا فيمنع ملالتُكم وسآمة نفوسكم وفتور حالتكم وقصور مقالتكم من الكتابة استحقارًا للقليل فيكون كتابة صغيرًا أو استكثارًا للكثير فيكون كتابةً كبيرًا طويلًا، فإن القليل والكثير من الحق فيما نفع التظالم سواء تحريض على الكتابة. قيل: هو الكسل وهو المنافق. قال عليه السلام: «**لا يقول المؤمن كسلتُ**» ﴿إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾ أي وقت الحق ومحله ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي الاستشهاد والكتابة والكتب والإشارة إلى أن تكتبوه ﴿أَقْسَطُ﴾ أي أعدل وأكثر عدلًا وقسطًا ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: 282] وهو مصدر وإن لم يشتق منه فعل، وليس من الإقساط فإن الأفضل لا يبنى من الأفعال والقسط النصيب بالكسر وبالفتح الجور ومنه ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ﴾ [الجن: 15]، ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾ أي أثبت من قولهم: حقي عليك، أو أعون على إقامة الشهادة لأن كتبته يذكر الشهود ويصدقها من التقويم بمعنى الثابت المحكم ثبوته أو أشد استقامة والبُعد من الاعوجاج والخصومة ﴿وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾ أي أقل فائدته عدم وقوع الشك والريبة منكم في الشهادة والحق ومبلغه ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ﴾ التجارة أو المعاملة ﴿تِجَٰرَةً حَاضِرَةً﴾ بالرفع، قرأ على أن تكون تامةً أي وقع التجارة ﴿تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ [البَقَرَة: 282]

أي تداولها بأيديكم ولم يكن المال نسيئةً مؤجلة ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ إثم وبأس ﴿أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ أي التجارة إذا كانت حاضرةً لا بأس عليكم من عدم الكتابة وتركها لأنكم تملكتم ما ملكتم بعوض حاضرٍ ويعارض في المجلس.

﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ أمر بالإشهاد على التبايع في الأحوال كلها غائبًا وحاضرًا، الأمر للوجوب وعند البعض للاستحباب وعليه التعويل ﴿وَلَا يُضَآرَّ﴾ بفتح الراء، نهي الغائب لالتقاء الساكنين أي لا يجبر على الكتابة ولا على تحمُّل الشهادة راغب ﴿وَلَا شَهِيدٌ﴾ ويحتمل أن يكون النهي من التحريف في الكتابة والزيغ في الشهادة ﴿وَإِن تَفْعَلُواْ﴾ ما نهيتم من الضرار والتحريف فيهما ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ أي فعل المنهي وعدم الامتثال للأمر ﴿فُسُوقٌۢ﴾ خروج من الأمر والامتثال ومعصية ﴿بِكُمْ﴾ أي خروج عن الطاعة يلتصق ضرره ويلحق نكاته وغرره بكم لا يتجاوز عنكم ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ﴾ واحذروه من شدة بطشه في مخالفة أمره وما قدره في عرشه ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ شرائع دينه وأحكام شرائعه لأهل بيته ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ قليل وكثير، صغير وكبير، عظيم وحقير إلى جواهر الهباء ﴿عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 282] حتى ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ﴾ [يونس: 61].

﴿۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُواْ الشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾

﴿وَإِن كُنتُمْ﴾ أيها المتداينون ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أي مسافرين ﴿وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا﴾ أفرزه لأن في عدم الكاتب الشاهد في الأغلب ﴿فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ جمع رهن خبر مبتدأ محذوف، فالذي يستوثق به رهان مسلّمة إلى المرتهن، ويجمع على رُهُن بالضمتين أصله للإثبات والإدامة ﴿فَإِنْ أَمِنَ﴾ ووثق ﴿بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ من غير رهن وكتابة وإشهاد وشهادة، خطاب للمتداينين ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ [البقرة: 283] أي دينه أمر من اعتمد عليه أن يجري بالإحسان في أداء الدّين وإعفاء الحق عند وجوبه والأمانة لما ائتمن به أو عليه كالعلم بمعنى المعلوم، استعير هنا للدّين

لائتمانه عليه بعزّتك الارتهان به ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ أي وليتق عذاب ربّه بالخيانة وعدم أداء الحق والجنانة في حق المعصوم ﴿وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَـٰدَةَ﴾ إذا دعيتم للشهادة، عام حكمها وإن كان خاصًا أمرًا ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا﴾ عند الاستشهاد ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ أي يأثم قلبه أو قلبه آثم. والجملة الاسمية خبر إن بناء على أن اسم الفاعل لا يعمل لعدم الاعتماد، وإن أنَّ لغير الابتدائية عن المدخول عليه وإسناد الإثم أي الفجور إلى القلب لاكتتامه الشهادة وإخفاء الحق، وإثمه قساوته وبونه عن الحق بعدما كان قريبًا وأي إثم أكبر من هذا، وإن كتمان الشهادة من الآثام المتعلقة باللسان فقط، وليعلم أن القلب أصله متعلقة ومعدن اقترانه واللسان ترجمان عن أفعال القلوب أعظم من أفعال سائر الجوارح وهي لها، فالأصول التي يتشعب منها، ألا ترى أن أصل الحسنات والسيئات الإيمان والكفر وهما من أفعال القلوب فيكون من معالم الذنوب. عن ابن عباس: أعظم الكبائر وأكبرها الإشراك بالله بقوله فقد حرَّم الله عليه الجنة وشهادة الزور وكتمان الشهادة. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من كتمان الشهادة وتحريف الكتابة وآداء الحقوق بالإحسان ﴿عَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: 283] بكيفية الكتمان والتحريف والأداء.

﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾

﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ ملكًا وخلقًا وعابدًا ومسبِّحًا وشاهدًا على ربوبيته وسلطان ألوهيته فلا تعصوه بما أمركم ونهاكم عنه. نزل لتهديد عباده وتأكيد لإجراء أحكام سلطنته في عموم ملكه وبلاده ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ من الخواطر السيئة والضمائر الجلية والخفية والخيالات الشاذة المادة والتوهمات الغير العادة والإحساسات المختلفة بالكمية والكيفية وغير ذلك من العوارض الجزئية ﴿أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ﴾ [البَقَرَة: 284] ذهب المحققون إلى أنها محكمة غير منسوخة عامة للكل، يحاسب المؤمن والكافر مما أبدى وأخفى.

لما نزلت جاء جماعة من كبار الصحابة فجثوا على الركب عند رسول الله ﷺ

وقالوا: يا رسول الله ما نزلت آية أشد علينا من هذه الآية، إن نفسنا لتحدُّثنا بما لا نحب أن يثبت في قلبنا، فلو أخذنا به لهلكنا به والله، فقال النبي عليه السلام: «**هكذا أُنزِلت**»، ومن قال إنها منسوخة فلعله لم يرد بالنسخ المعروف إذ هو في الأحكام الجارية في الأزمنة المتتالية الآتية لا السابقة وهي الأخبار والاعتقادات والحكايات والنصائح والخطابات، فإن النسخ من جريان الحكم السابق واستمراره في الأزمنة المتتالية الآتية لا السابقة، وهي الأخبار والاعتقادات والحكايات والنصائح والخطابات، فإن النسخ من جريان الحكم السابق واستمراره في الأزمنة المتعاقبة يعين كل عامل مأخوذ بكسب ويجازى عليه، فما من عبد أسرّ بعمل أو أصرّ عليه وأبداه من حركة في جوارحه أو همة في قلبه في الدنيا إلا أن الله يعلمه ويثبت ذلك بكتابة ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفِطار: 11] في ديوان أعماله إلى يوم القيامة.

ثم يعرف للعبد أعماله الصادقة حالة البلوغ بل من زمان ولادته، ويخبره عنه من غير طريان النسيان وجريان السهو والنقصان فسبحان الله ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعَام: 91] ما هذا [القدر] الشامل والحكم الكامل، اللهمَّ اغمسنا في بحر علمك لنرى كمال شمول علمك بشمول عِلمك.

ثم يحاسبهم ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ ويتجاوز عن الكبائر وكلما أصابه في الدنيا من غم وحزن وهمّ فهو كفارة له. عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما همّ به العبد من خطيئة عوقب على ذلك بما يلحقه من الهمّ والحزن. ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [البَقَرَة: 284] بالمناقشة في الحساب ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسرَاء: 36]. حدَّثها النبي عليه السلام حين سألته يقول: «**يا عائشة هذه مبايعة الله العبد بما يصيبه من الحمى والبلية حتى البضاعة يضعها في كُمّهِ فيفقدها فيفزع لها فيجدها في ضبنه حتى إن المؤمن ليخرج مِن ذنوبه كالتبر الأحمر من الكِير**»، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ يشاء وقوعه ويريد سطوعه ﴿قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 284] والمبالغة في القدرة والكثرة المقدور وعظمته كالسماوات وما فيها من الكواكب الغير المتناهية والأملاك التي لا يعرف عظمهم إلا هو كما ورد في الخبر أي قادر أتمّ القدرة.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾ قال رسول الله ﷺ: «**أنزل الله تعالى آيتين من كنوز الجنة كتبها الله تعالى قبل أن يخلق الخلق بألفي عام من قرأها بعد العشاء الأخيرة مرتين أجزأتا عنه قيام الليل**». وأيضًا قال عليه السلام: «**من قرأ آيتين من آخر سورة البقرة في ليله كفتاه**».

﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ أي آمن الرسول أولًا بما أُنزل عليه لأن ثبوت الشيء للشيء فرع ثبوته في نفسه ثم فيما يتعدى منه ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ﴾ كلّ واحد منهم ﴿ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ أي صدّق بوجوده وأذعن بوحدانيته وأقرَّ بكمال صفاته ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ بأنهم عباد الله ومخلوقاته قد فوّض الله تعالى تدبير العالم وتقدير بني آدم إليهم وبأنهم ليسوا إناث ولا بناته ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ وبما دلّت عليه من الأحكام من الحلال والحرام وغيرهما مما يتداول بين الأنام، وبأنها كلها من الله غير مخلوقة بل هي صفة قديمة قائمة بذاته ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ بأن الله بعثهم بتبليغ الأحكام لمصالح الخلق.

والفرق بين الرسول والنبي أن النبي أعم والرسول مشروط بأن يكون معه الكتاب.

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ﴾ أي يقولون ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ بأن لا يقول نؤمن ببعض ونكفر ببعض كما قال اليهود والنصارى واحد ها هنا للعموم ولذا أضيف إليه بين ﴿وَقَالُواْ سَمِعۡنَا﴾ أي أجبنا إلى أمرك ﴿وَأَطَعۡنَاۖ﴾ أي دخلنا في طاعتك. لما نزلت بعض هذه الآية قال جبرائيل للرسول: إن الله أثنى عليك وعلى أمتك فاسأل تُعطَ، فقال رسول الله ﷺ: ﴿غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا﴾ أي أعطنا مغفرتك أو نسأل غفرانك أو اغفر لنا ﴿وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البَقَرَة: 285] المرجع والمعاد.

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ﴾ جواب سؤال مقدر كأنهم قالوا: لا تكلفنا نفسنا إلا وسعها، فأجاب الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ﴾ أي طاقتها، هذا إخبار عن عدله وعموم رحمته وشمول رأفته ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ أي للنفس ما عملت من الخير ثوابًا وجزاءً حسنًا ﴿وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ﴾ أي على النفس ما اكتسبت من الشرّ ونكابته ونكبة وروده، وإنما خص الكسب بالخير والاكتساب بالشرّ لأن تحصيل الخير ليس باشتهاء النفس انحراف الشرّ فإنه لا يكون بانجذاب النفس في تحصيله واجتهادها مكتسبًا بها.

وكان بنو إسرائيل إذا نسوا أو أخطؤوا بعمل شيء من المناهي وترك عمل من الأمور عُجِّلت عقوبتهم في الدنيا، فأمر الله المؤمنين أن يدفعوا ذلك عنهم بالمسألة منه تعالى فقالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ﴾ لا تعاقبنا ﴿إِن نَّسِينَآ﴾ أي أغفلنا ﴿أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ﴾ أي تجاوزنا الحد.

قيل: معنى قوله: ﴿إِن نَّسِينَآ﴾ أي تركنا الأمر وأخطأنا بعمدنا لخطأ، أو المراد بالخطأ والنسيان هما نسيان عن التفريط والإغفال. ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾ أي ثقلًا أو عهدًا أو ميثاقًا وعقدًا لا نطيقه ولا نستطيع القيام به فيعذبنا بنقضه وتركه ﴿كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ﴾ وهم بنو إسرائيل فإنهم كانوا إذا أذنبوا بالليل وجدوه مكتوبًا على بابهم بالنهار، وكانت الصلاة عليهم خمسين في يوم وليلة وكان ربع أموالهم زكاة وكانت الطيبات محرمة عليهم بظلمهم فخففت عن هذه الأمة، ومن أصاب بثوبه نجاسة قطعها وغيرها من الأثقال والأغلال التي كانت عليهم ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت قبل ديننا ليس فيه توبة ولا كفارة أو قربة.

﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ﴾ [البَقَرَة: 286] أي لا تكلفنا من الأعمال

ما لا نطيق أو حديث النفس والوسوسة. وقال بعضهم: هو العشق والمحبة.

حكي أن ذا النون المصري كان في فسطاط مصر يعظ الخلق في مجلس فيه سبعون ألف رجل فتكلم فيه في محبة الله فمات في ذلك المجلس أحد عشر رجلًا، فصاح رجل من المريدين: يا أبا الفيض ذكرت محبة الله وما ذكرت محبة المخلوقين، فتأوه ذو النون تأوهًا شديدًا وشقَّ قميصه نصفين وقال: آه غفلت رهونهم واستعبرت وخالفوا السهاد وفارقوا الرقاد فليلهم طويلٌ ونومهم قليلٌ، أحزانهم لا تنفد، وهمومهم لا تُفقد، أمورهم عسيرة ودموعهم غزيرة، باكية عيونهم، قريحة جفونهم، عاداهم الزمان والأهل والجيران.

قال يحيى بن معاذ: لو كانت العقوبة بيدي يوم القيامة ما عذبت العشاق لأن ذنبهم اضطراري لا اختياري، والبعض على أنه شماتة الأعداء.

سأل أيوب النبي ﷺ: ما كان أشق عليك في طول بلائك؟ قال: شماتة الأعداء. نظم:

كلّ المصائب قد تمر على الفتى ... فتَهُونُ غير شماتة الأعداء
إنَّ المصائِب ينقصُ أيامها ... وشماتة الأعداء بالمرصادِ

وقال جماعة: على أنها هي الفرقة والقطيعة نعوذ بالله منها. يُقال: قطع الأوصال أيسر من قطع الوصال، ولو عذب الله أهل النار بالفراق لاستراحوا إلى ما فيه. قيل: لا تكلفنا ما لا نطيق ﴿وَٱعۡفُ عَنَّا﴾ أي تجاوز عنا وامحُ عنا تقصيرنا وذنوبنا ولا تصرف وجوهنا عنك، وامحِ عنا تقصيرنا وذنوبنا، ولا تضرب على وجوهنا أعمالنا وطاعاتنا حيث لا يليق بحضرتك ﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ أي استر علينا ذنوبنا وتجاوز عنا ولا تفضحنا ﴿وَٱرۡحَمۡنَآۚ﴾ [البَقَرَة: 286] فإنا لا ننالُ العمل بطاعتك إلا بقدرتك ودرايتك ولا نترك المعصية إلا برحمتك.

قيل: واعف عنَّا من المسخ واغفر لنا من الخسف وارحمنا من القذف، أو فاعف عنا الصغائر واغفر لنا الكبائر وارحمنا بثِقل الميزان مع إفلاسنا ودناءة إدراكنا ورداءة إحساسنا وبضاعة مزجاتنا.

قيل: واعف عنا في سكرة الموت واغفر لنا في ظلمة القبر وارحمنا في

أهوال القيامة وأدخلنا الجنة لأن هذه كلها أصابها الأمم السالفة.

﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ سيِّدنا ومتولي أمورنا وحافِظنا ومدبرنا وناصرنا ووليّنا وأولى بنا منّا ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البَقَرَة: 286] أعنا وأعلنا على مَن خالفنا في الدين وما خالفنا في إقامة اليقين لأن المولى حقه أن ينصره عبيده.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ لما دعا بهذه الدعوات قيل له عند كلمة: قد فعلت.

وقال عليه السلام: «**من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة كفتاه**» أي من قيام الليل أو من حساب يوم القيامة.

وقال عليه السلام: «**السورة التي يذكر فيها البقرة فسطاط القرآن** ـ أي مصره الجامع ـ **فتعلّموها فإن تعلُّمها بركة وتركها حسرة ولن تستطيعها البطلة**، قيل: وما البطلة يا رسول الله؟ قال: **السحرة**» أي لا تستطيع البطلة أن تسحر قارئها. عن معاذ بن جبل: إذا ختم البقرة قال آمين.

إشارة وتأويل

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البَقَرَة: 280] إن الله تعالى يشير إلى أن مدار أحوال العارفين على حالين: قبض وبسط، وغناء وفقر، وفناء وبقاء، فإذا فنى العارف عن وجوده وصفاته في وجود الحق وصفاته وبقي ببقائه غنِيَ بفنائه وبسط ببسطه بعد القبض، فلما تنزل من دار الفناء إلى دار البقاء ومن مقام الفناء إلى مقام الغناء وعاد إلى ما كان عليه من الفقر والفاقة ومدارِ الافتقار والحاجة لا يغفل من نفسه ولا يكلفها برياضة شاقة وجهادة داقة لا يكون لها عليها طاقة بل ينتظر عناية الحق وتمام عطفه ليرده إلى سيره الأخرى وإلى غناه أولى وأخرى ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾ [الشرح: 6، 7].

وفي «العرايس»: إن كان أهل المعرفة في عسر من المشاهدة وكشف القربة فلا يطالبوهم بإتقان المعاملات والتماسِ الكرامات إلى مسير الكشوف وبروز أنوار الحضرة في قلوبهم لأن للعارفين مقامين:

الأول: هو القبض.

والثاني: هو البسط فهو في رضاء التوحيد ويطيق أن يودي ما وجب عليه من حق الطريقة لأنه في ذلك الحالِ ملتبس بأنوار الربوبية ويتهيأ له ما يريد كما وصف الله تعالى أنبياءه وأولياءه في حال انبساطهم وبسطهم مثل عيسى عليه السلام وإبراء الأكمه والأبرص وأحيا الأموات بإذن الله.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البَقَرَة: 281] في القيامة العظمى برجوع كل الأشياء من الأعضاء والقوى والأفعال والأعمال والأقوال والأحوال إلى أصلها وهي المبادىء الأصلية والمراتب الكلية فحينئذ لا يحكم لأحد من القوى والأعضاء والنفوس والأرواح والأجزاء على الأخرى.

قال الصادق رضي الله عنه: «أمرنا بالتقوى وخوفنا بيوم القيامة لأنه يوم قال: المؤمن من نفسه ويشتغل الأنبياء بأنفسهم فيرجعون إلى الله ناكسون رؤوسهم ويوفى إليهم أجورهم ومن لم يجبهم يردهم إلى عذاب الفراق ونار القطيعة والعزل».

قال صاحب «العرائس»: خافوا من يوم الوصل من الوقوف في مقام الحياء والخجلة بين يدي ملك الملك لا يمنع المستدرجين عن مشاهدته ويعامل أولياؤه بالخطرات والإشارات.

قال الواسطي: هذا تخويف العوام وأما الخواص فبقوله ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ [البَقَرَة: 41] قالَ بعضهم: من يتعظ بمواعظ القرآن فليس له فيما سواه متعظ وأي موعظة أعظم مما أخبر الله به عباده من الرجوع إليه فمن لم يحزن لذلك الموقف ولم يسلك لذلك المشهد فبأي موعظة يتعظ ثم توفى في كل نفس ما كسبت في النشأة من الكلمات في القيمة العظمى وهم لا يظلمون أي لا ينقصون مما كسبوا ولا ينسون ولا يهملون.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم﴾ [البَقَرَة: 282] لما كان بين القوى النفسانية والروحانية احتاج من الجانبين ومعاملات بنقد ودين ونسبة وعين فلا بدّ وأن يكون بينهم حد محدود وأجل معلوم معدود فالنفس إلى سن التمييز كانت متصرفة

في ملكها وما لها وما بعده احتاجت إلى القوة العاقلة المميزة بين السعادة الدنيوية وشقاوتها وبين السعادة الدينية الأخروية وشقاوتها وكذا بين المنافع والمضار وبين الحق والباطل والصواب والفساد وفور سلطان القلب للنفس المدبرة أمورًا خاصةً وللعاقلة أمورًا مخصوصةً ماضيةً العاقلة تداري النفس وتداينها إلى سن البلوغ في الإيمان باللَّهِ والعبادة بطريق التقليد فلما بلغ وواصلَ سنّ التكليف وهو إما الحلم أو السن وهو خمسة عشر سنة والأول قد يتفاوت إما في التسعة إلى خمسة عشر فحينئذ يطالب منها دينه لتقرر عليها أمرها ودينها.

قال الصادق رضي الله عنه: لا يتم الإيمان حتى يشهد بنفسك بعبوديته فالعبد لا يطلب سخط سيده بل يطلب رضاه ورضاء المولى فيما تول إليه بإملائه الثناء عليه في مدائن الشوق وهاهنا شهيدان عليكَ حتى تثبت عن اليقظة ولا يصل لنقمة وأشهدوا إذا تبايعتم. قال الصادق: البيع هاهنا بيع النفس بالخدمة للَّهِ لأن اللَّهَ تعالى أعقبها تقبل التوحيد ثم أمرك بالتجارة بعده حتى وجب عليك خدمته تعالى.

﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي سماء أسمائه الذاتية والأفعالية وأرض أسمائه الكونية.

قال الصادق رضي الله عنه: وليمة السماوات ووليمة الأرض فمن أكل من وليمة السماوات صار طعام الفاني عليه خواصًا أي من مواليد محبته الذاتية فكان الغير مقطوعًا عليه الحرمة ووليمة في الأرض أسراره في المعرفة وأنوار المحبة فمن أكل منها وتمتع فيها وجب له وليمة الخلد المزين بنوره والنور متصل بالقرب ولا يكون بين القربة والبعد والغربة واسطة إلا مغفرة عذاب فإن تغفره فيرجع عن القرب أو يعذب في النور فلا يرجع إلا بعد الرؤية واللقاء ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه.

قال صاحب العرائس: أي لا تكتموا ما أشهدكم الله عليه من مقام أهل الولاية بأن لا تخمد واذكرهم حسدًا عليهم ومن يكتمها خصهم به من الشهادة

فإنه آثم قلبه وإثم القلب الحسد والحسد يورث الفسادَ ولا يقدر بها أن يرى مقام أهل الولاية وأنوار أسرارها وجزاء الحسد ومآلها الطبع والختم نعوذ بالله ومن خساسة القساوة ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ﴾ وفي العرائس أي خزائن ملكوت الكونين وأسرار غيب العالمين لا ينكشف إلا لخواص أعطيته إياهم.

قال ابن عطاء: الكونان مهدتهما من غير سني فمن اشتغل بهما قطعا عن اللَّهِ ومن أقبل على الله وتركهما ملكهما الله إياه ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ [البَقَرَة: 284] أي إن تظهروا ما في قلوبكم من حقائق المكاشفات ودقائق أنوار المخاصمات وشوارق المشاهدات ليقتدي لهم أهل الإرادة ويقتفي بهم أرباب المحاسبات والإرادات أو تخفوها عجائبَ الغيب القدسي وغرائب مطالب ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر نوعًا لئلا يفتن بها أقوام من ضعفاء المؤمنين لقلة فهمهم وعلة حلمهم وفهم بدقائق الرياء والسمعة ويتعين الناظر ما أخفيتم من الخلق إخلاصًا لتذوقوا حلاوة الإيمان في كتمان الأسرار وأيضًا إن تبدوا في الظاهر.

قال الصادق رضي الله عنه: إن تبدوا الإسلامَ أو تخفوا إرادة الكونين ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البَقَرَة: 284] أي من أراد الجنة ونعيمها ويعذب من يشاء من آثر الدنيا على الآخرة.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾ [البَقَرَة: 285] قال الصادق رضي الله عنه: بلغ مرتبة الرسول إلى ربّه حتى أن الله تعالى صار إليه مشتاقًا فأخرجه من الدنيا على نوره وجاوز به على أنواره حتى قربه إلى ربوبيته ثم لقنه تلقن الكرامة فقالَ: يا حبيبي وصفيي وأنيسي ومشتاقي جئت عبدًا أم ملكًا فتخير الرسول قالَ: جئت عبدًا سامعًا لقولك طائعًا لأمرك راجيًا إلى غفرانك خائفًا من عذابك فقالَ له المولى: الملك لك ورفعنا لك ذكرك ورفعنا العبودية عنك فكن آمنًا من عذابي ومن قطيعتي.

قال صاحب العرائس: إنَّ اللَّهَ تعالى قدَّس باطنَ رسولهﷺ من شوائب النفسانية وخطوات الشيطانية وكحل عين سرّه بنور الملكوت حتى قبل بالصدق والإخلاص ما كشف له من عجائب الجبروت ورأى بمصابيح القرآن أسرار الأزل والأبد وما أريناه في بطنان الغيب وغيب الغيب رؤية عيان وآمن بها إيمان المشاهدة والعرفان كما قال الله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النّجم: 11].

والمؤمنون كلٌّ آمن بالله وفي هذا العطف بشارة عظيمة للمؤمنين وإشارة كريمة إلى أنهم بشرفِ كمال متابعته عليه السلام يصلون إلى مقام هذه التشريفات والفرق إنما هو بالأصالة والتبعية وفي العرائس المؤمنون على قسمين منهم العارفون والصادقون والمقربون والمكاشفونَ والمخلصونَ والمحسنونَ والراضونَ والمتوكلونَ والمحبونَ والمؤيدونَ والمرادون كلٌّ شاهدوا بعض ما شاهدَ الرسول ﷺ ولولا ذلك لم يسرعوا في بذل الأرواح ومجاهدة الأشباح لكن للنبي مشاهدة الذات الصرفة خاصة له بملازمة الخطوات ولهم مشاهدة النفس بواسطة نظر الالتباس فتمتحن بالوسوسة والقسم الثاني من المؤمنين هم الذين آمنوا إيمان الفطرة بإرشاد العلم والعقل والبيان والبرهان وأصل هذه الأشكال إلهام وفروعها أسباب وأيضًا استفهام النبي عندَ صدمة سلطان ألوهيته ويمكن فيما عاينَ من جلال ذات القديم جل جلاله بنعت صرف المشاهدة والنفس والمؤمنونَ يريهم الله بعضَ أنوار غيبه فآمنوا بما أدركوا به.

وقال الأستاذ: آمن الرسول ولِمَ لم يقل آمنتُ كما يقول لعظم الشأن من الناس.

قال الشيخ: لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها أي ما أظهر من جمال صفة لا يطيق الخلق أن يستقيموا عندَ كشف ذرة منها لكن أواسيهم بلوامح نور التجلي ولوامع ضياء الشهود الأزلي بنعت الالتباس لئلا يفنوا كما إذا طلب وسأل موسى ذلك التجلي فرده بقوله: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: 143] إلا أنهم واسى بهم باستئناسهم بشهود لوامعها خلف الأستار ليستأنسوا به كما وقع ظهور التجلي لموسى وعيسى وإبراهيم ورسولنا ﷺ بصور الأجسام كما ذكر في موضعه وأيضًا

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ أي الا ما وسعه الله في استعداد النفس العود في الأزل.

قال الصادق رضي الله عنه: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ النظر إلى صنعه بل كلف عليهم النظر إلى آثار ربوبيته على قدر وسعة القلوب في عباده وحجب عنهم نسيان الغافلين وخطرات العابدين ولم يحمل عليهم آثار الربوبية إلا بقدر ما يطيقون الصبر في نوره وأيضًا لا يكلف الله حق عبوديته نفوس أوليائه إلا بقدر ما يطيقونَ من جهة التبصير والضعف عند تحمل حقيقة العبودية لأن من حق الربوبية أن يدرب الأرواح ويسبب الأشباح في التكبيرة الأولى تعظيمًا وإجلالًا وإن اللَّهَ تعالى ما أظهر للخلق من معرفته إلا قدر ما يعيشون به من جهلهم بربوبيتهم ولو أيقنوا أنهم في معزل من حقيقة العبودية وإدراك صرف الربوبية ماتوا تحسرًا على ما فاتوا ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ أي للأرواح من مقاساة الهجران في دار الامتحان ﴿وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ﴾ النفوس من جرائم الخطرات عند مكاشفات أنوار التجليات وأسرار المشاهدات فيجازيهم الله النفوسَ في الدنيا بالذنوب في المجاهدات ويجازي الأرواح في الآخرة بصرف المشاهدة ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ﴾ [البَقَرَة: 286] أي لا تحجبنا بنا عنك إن نسينا عهدكَ وغفلنا عن مشاهدة ربوبيتك في معاهد العهود أو أخطأنا لبقائنا إلى غيركَ ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ﴾.

قال الصادق: «لا تحمل علينا أنوار جودكَ إلا بقدر ما يقدر حمله بغير الاحتراق وإن قذفتَ في قلوبنا نور شوقك فصبرنا عليه فإنه لا طاقة لَنا في نور شوقك واعف عنا التقصير في عبادتكَ واستر علينا جلبات رحمتك وارحمنا بمواصلتك ومشاهدتك» قالَ ابن عطاء: ﴿لَا تُؤَاخِذْنَآ﴾ عند المصيبة واستر علينا في القيامة ولا تفضحنا على رؤوس الأشهاد ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البَقَرَة: 286].

قال الصادق رضي الله عنه: أي انصرنا على من لا يعرفك ولا يشاهدوا وحدانيتك فإنه لا طاقة لنا معهم يا مولانا.

قال صاحب العرائس: هذا نجوى أهل الامتحان من المكاشفين والمجاهدين يعني نحن أسرار مغفرتك وضعفاء محبتك فارحمنا بتجلي العظمة حتى نقوى منك بك في محل العبودية وكشف الربوبية وانصرنا بمعاونة المعرفة وجذور حقائق الإلهام وعساكر الشوق والمحبة على القوم الكافرين أي على بغاة أعوان الطبيعة وأعيان القوى النفسانية حتى يهرموا عن ميادين معازلك ومضمار عوارفك وتسريح من تشويشهم في صرف عبوديتك وطلب مشاهدة حضرتك إنك قريب مجيب والفقير إلى نفسك مسارع وإلى مغفرتك داع منيب.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ترتيبها 3 سُورَةُ آلِ عِمْرَان آياتها 200 مدنية

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ الذي شرف هذه السورة بتصديرها بالأسماء العظام والآلاء الجسام وبذكر الكتاب الكريم تخصيصًا لها من الأعيان بآل عمران ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الذي عظمها بذكر الأنبياء من آدم إلى الخاتم ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ الذي شهدَ على وحدانيته بنفسه وشرف عباده بنور الإسلام إلى يوم القيام قال النبي ﷺ: «**من قرأ سورة آل عمران فهي غنًى**».

وقال أيضًا: «**تعلموا البقرة وآل عمران فإنهما الزهروان وأنهما يأتيان يوم القيامة في صورة ملكين يشفعان لصاحبهما تدخلاه الجنة**».

وقال أيضًا: «**من قرأ سورة البقرة وآل عمران في ليلة الجمعة جعلَ له يوم القيامة جناحان يطير بهما على الصراط**».

تفسيرها وسبب نزولها: قَدِمَ على رسول الله ﷺ من وَفد نجران ستون راكبًا أربعة عشر من أشرافهم ثلاثة منهم من أكابر القوم.

أحدهم: أميرهم اسمه عبد المسيح.

الثاني: اسمه الأيهم.

الثالث: خيرهم وأسقفهم وإمامهم وصاحب مدارسهم أبو حارثة بن علقمة له الكنائس لكثرة علمه واجتهاده وملوك الروم يعظمونه بالهدايا والتحف فقال: هذا هو الشخص الذي ننتظره؟ فقالَ: أخوه اسمه كرز فما يمنعك منه وأنتَ تعلم؟ قالَ: هؤلاء الملوك أعطونا أموالًا كثيرةً فلو آمنا به لأخذوه منا فوقع هذا في قلب كرز أي

أن أسلم فلما أتوا هؤلاء إلى رسول الله ﷺ فقالوا مرة أن عيسى هو الله وأخرى أنه ابن الله وإنه ثالث ثلاثة واستدلوا على الأول بأنه كان يحيي الموتى ويبرئ الأسقام وخلق من الطين كهيئة الطير فنفخ فيه فطارَ، وعلى الثاني بأنه لم يكن له أب، وعلى الثالث بأن اللَّهَ يقول: إنا خلقنا ولو كان واحدًا لقال: خلقت فقال لهم رسول الله ﷺ: «**أسلموا**، قالوا: أسلمنا قالَ عليه السلام: **كذبتم كيف أسلمتم ويمنعكم من الإسلام ادّعاؤكم لله ولدًا وعبادتكم الصليب وأكلكم الخنزير**، قالوا: إن لم يكن ولد لله فمن أبوه؟ فقال النبي ﷺ: **يعلمون أنه لا يكون إلا وهو نسبه إياه** قالوا: بلى فقال عليه السلام: **فكيف يكون ما ذكرتم**» فأنزلَ الله:

﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾

﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [آل عمران: 1، 2] إلى بضع وثمانين آيةً فأخذ رسول الله ﷺ يناظرهم بقوله: «**ألستم تعلمون أنه حي لا يموت وأن عيسى أتى عليه الفناء وأن ربّنا قيم على كل شيء ويحفظه ويرزقه، فهل يملك عيسى من ذلك** قالوا: لا، ثم قالَ: **ألستم تعلمون أن اللَّهَ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء وإن ربنا صوّر عيسى في الرحم كيف شاء فهل يعلمون ذلك؟** قالوا: بلى، ثم قال: **لا يأكل الطعام ولا يشرب الشرابَ وتعلمون أن عيسى حملت به امرأة كما يحمل المرأة ورضّعته كما رضّعته المرأة وغذي كما يغذى الصبي ثم كان يطعم الطعام ويشرب الشرابَ**، وقالوا: بلى، فقالَ رسول الله ﷺ: **فكيف يكون هو كما زعمتم فأنزل الله**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: الآية 5] الآية، فعرفوا ثم قالوا: يا محمد ألست تزعم أنه كليم الله وروح منه فقال: **بلى**»، فأنزل ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ﴾ إلى ﴿أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران: 7] فقالوا: يا أبا القاسم دعنا ننظر في أمرنا ثم نأتيك بما تريد، ثم انصرفوا. لما ثبت أن لا إلٰه لا يكون إلا حيًّا بذاته قيومًا بأحوال الممكنات بصفاته امتنع أن يكون له ولد لعدم المشابهة بينهما والولد يشبه الأبَ فيما يميزه عن غير نوعه وهو الصورة النوعية بل الصنفية والله منزه عن جميع الصور لتساوي نسبته إلى تمام الصور والمعاني وامتناع تحققها على وجه المغايرة

بالجزئية في الذات وألا يلزم التركيب والإمكان والتعدد في الذات أو لأنه من خواص الأجسام المركبة الممكنة ولا شيء من الممكن بآلائه ولذا قبلَ من يقدر على نفي القتل من نفسه فكيف يكون إلهًا.

فقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [آل عمران: 2] دلّ على نفي هذه الأمور الثلاثة كما لَوَّحَ إليه ﴿الٓمٓ﴾ [آل عمران: 1] لأن القيوم هو القائم الموجود بذاته المقيم لما سواه من الممكنات المدبر للمخلوقات بإيصال ما يحتاجون إليه بهم في معايشهم بالليل والنهار وإنزال ما يتم به أمر المعاش من الأنظار وتهيج الرياح وإثبات الحشائش والأشجار وإخراج الأثمار وخلق الحيوانات فالحي القيوم هو المحيط بتمام الأسماء والصفات الذاتية بالذات والأفعالية باعتبار ملاحظة الغير روى أنه عليه السلام قالَ: «**إن اسم اللّهَ الأعظم في ثلاث سور، في البقرة وآل عمران** ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ **وفي طه:** ﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ﴾ [طه: الآية 111]»، فلما تم أمر المعاش وكان الإنسان مدني الطبع يحتاج في تعيشه إلى اجتماع الأشخاص وكانت طبيعة الإنسان مجبولة على المخالفة فلا بدّ من قانون ينتظم به قواعد المعاش ومعاقد المعاد ومقاعد الانتعاش.

﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ٤﴾

﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ﴾ [آل عمران: 3، 4] إشارة إلى وضع القانون والاحتجاج على صحته بأن الله لمَّا قدر على إنزال الكتاب على موسى وعيسى لمصالح النّشأتين يقدر على إنزاله على غيرهما لكونه ممكنًا والاحتياج باق والقانون الموضوع للاحتجاج المتقدم لا يجدي نفعًا في كل زمان لاختلاف مقتضياته ففي برهة من الزمان لا بدّ وأن يقع أمر مخالف الزمان الماضي لاختلاف مقتضيات الأوضاع السماوية الواقعة بتدبير الله وتقديره يدبر الأمر من السماءِ إلى الأرض مع أن أصحاب ذلك القانون قد غيّروا كتابهم وحرفوه فاقتضت الحكمة الربانية أن يبعث

في كل وقت نبيًّا وينزل كتابًا يناسبه إلى أن يستكمل أمر النبوة، وإنما وضع الكتاب المنزل على محمد بأمرين أحدهما أنه في نفسه حق وعدل وصدق فيما يتضمنه من الأخبار عن الأمم السالفة والآخر أنه مصدق لكتب الأنبياء التي بين يديه وحاضرة لديه على طريقة الاستمرار وكونه ناسخًا لها لبعض الأحكام لا ينافي التصديق إذ النسخ إبطال حكم في الزمان الحاضر لا الماضي مع أن المنسوخ بعض الأحكام لا القصص والاعتقادات التي لا يتبدل حسب تبدل الزمان والدول والتوراة والإنجيل اسمان أعجميان للكتابين المنزلين.

قال الفراء: التوراة هو النور والضياء من قولهم: ورى الزند إذا أخرجت ناره أفرأيتم النار التي تورون، فالموريات قدحًا.

وقيل: من التوراة وهي كتمان الشيء والتعريض بغيره وكان أكثر التوراة معارضًا وتلويحًا من غير إيضاح وتصريح قيلَ بالعبرانية توروتو ومعناه الشريعة والإنجيل من النجل وهو الأصل وقيلَ هو الخروج ومن تسمية الولد نجلًا وقال قوم: هو الماء الذي يخرج من البئر ولو كانَ لكل لفظ أصل لدَارَوتسَ فعلى هذا وجب الاعتراف بأنه لا بدّ من ألفاظ يكون في الأول موضوعًا حتى يجعل سائر الاتعاظ متشعبة منها فعلى هذا يقال لم لا يجوز في هذا اللفظ الذي جعلوه منشعبًا من ذلك أن يكون الأمر بالعكس مِنْ قَبْل تنزيل القرآن فإن قيلَ وصف القرآن في أول البقرة بهدًى للمتقين وههنا لم يقيد قلت: لأن الانتفاعَ به مخصوص بهم والمقصود هاهنا هي المناظرة مع النصارى فالمناسب التعميم والمراد بالفرقان أما الزبور بقرينة ذكر أقرانه أو للجنس الشامل للكتب الإلهية فإن كلها فارقة بين الحق والباطل وذكره بعدَ الثلاثة دفع توهم اختصاص كون الفارقية بها أو القرار تنبيهًا على أنه لكونه في نفسه هدايةً وحقًّا ومصدقًا لسائر الكتب يختص بالعاقبة ولذلك قيدهما بالهدى واطلق الفرقانَ، أما الكلام في الإنزال والتنزّل فقد مر في صدر البقرة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بسبب كفرهم بالفرقان بمحمد أو بهما ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۗ﴾ خصص بعضُ المفسرين هذه الآية بالنصارى وقصر اللّفظَ العامَ على الخاص لخصوص لزوم سببه والمحققون قالوا خصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ فهو يتناول كل من أعرض عن دلائل التوحيد ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [آل عِمرَان: 4] أي

الغالب الذي لا يغلب ولا يمنع من التعذيب الانتقام العقوبة وهوَ وعيد جيء به بعدَ تقرير التوحيد والإشارة إلى ما هو عمدة في إثبات النبوة تعظيمًا للأمر وزجرًا عن الإعراض عن الأول: صفة الذات والثاني صفة الفعل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٥﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عِمرَان: 5] تصريح وتفصيل لما علم ضمنًا وإجمالًا إذ القائم بتدبير أحوال الممكنات بدون العلم بها فهو إشارة إلى كمال علمه المتعلق بجميع المعلومات ومقادير الحاجات ومراتب الضروريات لا يشغله شأن عن شأن لأن النكرة الواقعة في سياق النفي يفيد العمومَ وإلى أن مدار الألوهية وتقديم الأرض المترقي من الأدنى إلى الأعلى كما هو دأب الإرشاد أو لتقدمها على السماء في التخليق كما هو رأي الملمين أو المراد الجمعية لا الترتيب كما هو مؤدي واو العطف.

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٦﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾ تامًّا وناقصًا ذكرًا أو أنثى قصيرًا أو طويلًا أسودَ أو أبيض حسنًا أو قبيحًا سعيدًا أو شقيًّا وغير ذلك من الأحوال والصفات والأعمال إشارة إلى كمال قدرته وتمام حكمته وشمول إرادته وعيسى ليس كذلك فكيف يكونَ أيضًا وأما كونه محييًا ومميتًا للبعض ويبرئ الأكمه والأبرصَ ومزيلًا لبعض الأسقام سيما كونه كذلك إنما هو بإرادته وقدرته ومشتبه ولا يستحق الألوهية إذ لو كانَ من ذاته ونفسه لكان دائمًا، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [آل عِمرَان: 6] تصريح بما أشارَ إلى إبطال ما تمسك به النصارى في دعواهم لأن الإلَه لا يكون إلا كاملَ القدرة شامل العلم فاضل الرحمة أزلًا وأبدًا يدل عليه صيغ المبالغة وعيسى لا يكون كذلك، التصوير جعل الشيء ذا صورة وشكل باعتبار إحاطة وحدٍّ واحد أو حدود ونهايات متعددة من صارَ يصير صيرًا إذا مالَ الرمل يكون علة من أبويه، والأرحام: جمع رحم وهي مقر النطفة وممر

صورة النقطة أصلها من الرحمة والاشتراك في الاسم يوجب الرحمة والعطف وقد استفينا الكلام في الفاتحة.

والحاصلُ: إن القيومية نوعان جسماني وروحاني أما الأول فتعديل المزاج وتكميل الأجزاء والجوارح والأعضاء وذلك في الرحم أما الروحاني الذي أشرفه العلم فهو الذي كالمرآة المجلوة التي انعكست صور الموجودات فيها وإليه الإشارة بقوله:

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ القرآن ﴿مِنۡهُ﴾ بعض ﴿ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ﴾ أحكمت عبارتها وحفظت من الاحتمال في الدلالة على غير ما فهم من منطوق اللفظ أي ما يحتويه كلام نحو فصيح الألفاظ والمباني وصحيح الدلالات وصريح الفحوى على المعاني ﴿هُنَّ﴾ أي تلك الآيات ﴿أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وأصله يرد إليه غيره والقياس أمهات الكتاب فإفراد بها على تأويل كل واحدة أو على أن الكل بمنزلة آية واحدة أو على أن الآيات كلها في تكاملها واجتماعها كالواحدة وكلام الله واحد أو باعتبار أن كل آية منها أم الكتاب وجعلنا عيسى ابن مريم وأمه آيةً أي كل واحدة فيهما والعرب يسمى كل شيء فاضل جامع يكون مرجعًا لقوم أمًّا كما قيلَ اللّوح المحفوظ والفاتحة أمّ الكتاب ومكة أم القرى وللآية أم الكتاب وللرجل الّذي يقوم بأمر العيال أم وللناقة والشاة التي تعيش بها أهل الدار أمّ وكان عيسى عليه السلام يقول للماء: هذا أبي، وللخبز: هذه أمي لأن قوام الأبدان بهما ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ﴾ [آل عِمرَان: 7] جمع آخر أي محتملات لا يتضح مقصودها الإجمال مما فيها أو مخالفة لا يكون ظاهره إلا بالفحص عنها ليظهر فيه درجات فضل العلماء ويزداد خوفهم وحرص في التعمق في الاجتهاد في تدبرها وتحصيل

العلوم المتوقفة استنباط المراد بها فينالوا بها ونابضات القوابح في استخراج معانيها والتوفيق بينهما وبين المحكمات وأما قوله: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: الآية 1] فمعناه: حفظت من فساد المعنى.

واعلم أن القرآن على أنه كلٌّ محكم وأعلى أنه بكلية متشابهة أما الأول كقوله: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: الآية 1]، وأما الثاني فهو: ﴿كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ﴾ [الزمر: الآية 23]، فالجواب عن الأول ما ذكر قبيل هذا وعن الثاني فهو كونه كتابًا يتبين بعضه بعضًا في الارتفاع وعلو الشأن في حسن البلاغة وكمال الفصاحة فالحكم في اللّغة: المنع يقال: حكمت بمعنى منعت الظلم وإنما سمّيت اللجام: لحكمة منعها الفرسَ عن الاعوجاج والاضطراب.

واعلم أن اللفظ إذا كانَ موضوعًا لمعنى فإما أن يكون محتملًا لغير ذلكَ المعنى أو لا يكون، والأول إما أن يكون أحدهما راجحًا فيسمى بالنسبة ظاهرًا إليه أو بالنسبة إلى المرجوح مؤوّلًا، وإما أن يكون لهما على السّوية فاللفظ بالنسبة إليهما مشترك وبالنسبة إلى كل منهما على التعيين مجملًا.

والمجمل: ثلاثة أقسام:

أحدها: أن يكون اللفظ مجملًا بين المعاني المتعددة وضع لكل منها كالقرء بين الطهر والحيض.

والثاني: أن يكون اللّفظ واحدًا والمعنى مشتركًا بين الأفراد، كالبقرة في قوله تعالى: ﴿أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ﴾ [البقرة: 67].

الثالث: أن يكون مشتركًا بين المعاني الحقيقة والمجازية والقرينة يمنع أن يكون المعنى الحقيقي مرادًا نحو: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ [الفتح: 10]، فيكون مشتركًا بين المعاني المجازية، والثاني من الأول وهو الراجح يشتركان في حصول الترجيح إلا أنَّ النَّص راجح مانع من الغير فهذا القدر المشترك هو المسمى بالمحكم، وأما عند التسوية فيتوقف الذهن مثل القرء هي بالنسبة إلى الحيض والطهر فلا يتعين المراد إلا بقرينة صارفة.

واعلم أن كلًّا من الخصمين يزعم أن الآيات الموافقة بمذهبه محكمة وبمذهب

خصمه متشابهة كالمعتزلة فإن قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: 29] عندهم محكمة ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: 30] متشابهة فلا بدّ من قانون حاكم فيقول اللفظ إذا كانَ محتملًا لمعنيين الراجح إذا حمل عليه كانَ محكمًا وعلى الآخر متشابهًا مرجوحًا فحينئذ يحتاج إلى صارف بخلاف الأول والصارف إما لفظي أو عقلي والأولى ربطه لأن اللفظ لا يكون قاطعًا بدون العقل لأن إفادته موقوف على اللّغة والصرف والنحو وعلى عدم الاشتراك وعدم المجاز والتخصيص والإضمار والمعارض العقلي والنقلي والكل مظنون، فثبت أن الدليلَ اللفظي لا يفيد القطع، وإن صرف اللفظ عن معناه الراجح إلى المرجوح لا يجوز إلا عند قيام الدليل القطعي، وقد يستعمل المرجوع عند تعذر الحمل على الظاهر فتعين التأويل، فليعلم أن في المحكم والمتشابه أقوالًا عن ابن عباس: إن المحكَم هو الناسخ المعمول به، والمتشابه: المنسوخ الذي يؤمن به ولا يعمل به وزاد بعضهم المحكم: هو الناسخ والحلال والحرام وحدود الله وفرائضه وما يؤمن وما يعمل به والمتشابه: هو المنسوخ ولا يعمل وما يؤمن به. وقال أيضًا: المحكمات هي الثلاث الآيات في سورة الأنعام: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾ [الأنعام: 151] إلى آخره، نظيرها في بني إسرائيل والبقرة وما سوى ذلك من الحروف الواقعة في أوائل السور التي تشابهت على اليهود وغيرها إن رهطًا من اليهود أتوا النبي ﷺ فقالوا: بلغنا آية نزلت عليكَ ا ل م فقال: «**نعم**» قالوا: إن كانَ حقًّا ذلك أمتك إحدى وسبعون سنة فهل غيرها؟ قالَ: «**نعم ا ل ر و ا ل م**» وفقالوا: خلطت علينا لا ندري أبكثيره نأخذ أم بقليله فنزلت: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران: 7] والبعض أن المحكم ما احتمل من التأويلات وجهًا واحدًا، والمتشابه ما احتمل من التأويلات وجوهًا، وإن التكاليف الواردةَ من الله قسمان: منها ما لا يجوز أن يتغير بشرع كأعداد الصلاة ومقادير الزكاة وشرائط البيع والنكاح وغير ذلك، ومنها ما يجوز فالأول المحكم والثاني المتشابه، قالَ: الأهم المحكم هو الأول يكون دلائله واضحةً مثل ما أخبر الله به من إنشاء الخلق في قوله: فخلقنا النطفة علقة وجعلنا من الماء كل شيء حيًّا وغير ذلك والمتشابه ما يحتاج في معرفته إلى التدبير والتأمل نحو: إن اللّهَ يبعث من في القبور فإذا تأمل صار

محكمًا بأن من قدر على الإنشاء قدر على الإعادة ومنهم من قال المحكم: كل ما أمكن تحصيل العلم بدليل جلي أو خفي والمتشابه بالعكس كالعلم بوقت قيام القيامة وبمقادير الثواب ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ [النازعات: 42].

واعلم أن من الملاحدة من طعن في القرآن لاشتمال على المتشابهات قائلًا: بأنكم تقولونَ إن تكاليف الخلق مرتبطة بهدف القرآن إلى آخر الدنيا وإن صاحبَ كل مذهب يتمسك بآيات فالجبري متمسك بآيات الخير ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الكهف: 57] والقدري يقول: هذا مذهب الكفار لذكرها في معرض ذمهم ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت: 5] هكذا سائر المذاهب فكيف يجعل الكتاب مرجعًا للكل.

أجيبَ بأن القرآن لكونه آخر الكتب السماوية وجامعًا لما فيهما جدير بأن يحتوي على كلا المعنيين النوعين المحكم والمتشابه ليكون بها معجزًا عن تصدي بمعرض التحدي ويكون الوصول إلى الحق أصعب وأشق ومزيد المشقة يوجب عتيدَ الثواب وكثرة النيل إلى الصدق والصواب ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: 142]، وأيضًا اشتمال القرآن عليهما يفض إلى الاستعانة بدليل العقل فحينئذ ينجو من غياهب التقليد ونوائب التقييد إلى ضياء الحق والتأييد وانفتح الاجتهاد واتسع ساحة محيطات دوائر الاعتقادات لعلوم الكثير كالنحو والصرف وعلم الاستدلال وأصول الفقه والكلام والفقه وفنون الحكميات والكلام وغير ذلك مما يسترد من أصول الفقه والكلام.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ أي ميل عن الحق وعدول عنه إلى الباطل كالمبتدعة ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ أي من الكتاب فيتعلقون ويتقيدونَ بظاهره أو بتأويل باطل ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ أي طلب أن يفتنوا الناسَ عن دينهم بالتضليل وبمناقضة المحكم بالمتشابه والفتنة هي الاشتهار والعلوم يقال فلان مفتون يطلب كذا أي علا في طلبه وجاوز الحد ﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عِمران: 7] أي طلب تأويل الكتاب وتوجيه ما فيه لأن يوقعُوا الناسَ في الفتنة على ما يشتهونه ويريدونه ويحتمل أن يكون الداعي إلى الاتباع مجموع الطلبين أو كل واحد منهما على التعاقب والأول من العناد والثاني من الجهل.

﴿وَمَا يَعْلَمُ﴾ أي لا يعلم ما ﴿تَأْوِيلَهُۥٓ﴾ أي لا يعلم تأويله الذي يجب أن يحمل عليه ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: 7] وهؤلاء هم وفد نجران حيث خاصموا الرّسولَ ﷺ في شأن عيسى وقالوا: ألستَ تزعم إنه لكلمة الله وروح منه قال: بلى قالوا: فجئنا فأنزلت وبعضهم هم اليهود طلبوا أجل هذه الأمة فاستخرجوا بحسبان الجمل وحسبنا بعضهم على أنهم هم المنافقون أو الخوارج أو الأمم المتبوعة.

عن عائشة رضي الله عنها أن رسولَ اللَّهِ ﷺ قرأ هذه الآية وقالَ: «**إذا أردتم الذينَ يسائلونَ عما تشابه منه ويجادلونَ فيه فهم الذين قالوا عيسى ابن الله عز وجل، فاحذروهم ولا تجالسوهم**». والمحققون على أن هذا عام وإن كان سبب النزولَ والمورد خاصًّا وخصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ كما مر فيدخل ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: 5] فيه بظاهره استمسك بالمتشابهات وهي بدن والعقل لا يفيد وإذا خاصمَ دليل العقل صرفه إلى المحكم كما أن الحاصِلَ في الحيز ممكن إن شاء الخير أو زاد عليه أو نقص من إمارات الجسم وخواصه والجسم مؤلف وكل مؤلف ممكن فالجسم ممكن، فعلم من هذا أن معنى الاستواء ليس الاستقرار وإن اللَّهَ تعالى منزه عن أن يكون جسمًا.

ومن جمل ذلك استدلال المعتزلة بالظواهر الدّالة على تفويض العقل بالكلية إلى العبد إلا أنه لما ثبتَ بالبراهين العقلية أن صدور العقل الاختياري موقوف على الدواعي كما ثبت في موضعه وحصول الدواعي من الله لإمكانها والعقل عندَ الدواعي واجب فبطل التفويض وثبتَ أن الكلَ بقضاء الله وقدره ومشيئته فمناط الكل إنما هو العقل فظهر من هذا أن كل آيةٍ يوافق مذهب الخصم فهي محكمة وما يخالف فهي متشابهة يصير بالعقل محكمة وعند المحققين ثلاثة أقسام:

ما يتأكد ظاهرها بالدلائل العقلية فهو المحكم حقًّا كما في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۝﴾ [آل عمران: 1، 2] كما مرَّ.

والثاني: هو الذي دلت الدلائل العاطفة على خلاف الظواهر كما في ﴿ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: 5] فذلك هو الذي يحكم فيه بأن مراده تعالى غير ظاهر.

والثالث: ما لم يجد مثل هذا الدليل على طرفي ثبوته وانتفائه فهو التوقف فهذا مع الثاني هو التشابه لاشتباه الأمر فيه لعدم امتياز أحد الجانبين عن الآخر

﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ [آل عِمرَان: 7] المتشبثون المتمكنون فيه فمن وقف على مراد الله فسّر المتشابه بما استأثره الله بعلمه كمدة بقاء الدنيا ووقت قيام القيامة ونزول عيسى وخروج يأجوج ومأجوج والدّجال وطلوع الشمس من مغربها وعلم الروح وخواص تمام الأشياء والأعداد أو بما دل القاطع على أن ظاهره غير مراد إليه ولم يدل على ما هو المراد قالوا: [و] للابتداء ومن عطفه فسّر المتشابه بما علم من التقرير السابق وكلاهما منسوبان إلى ابن عباس والراسخون في العلم هم الذين توسلوا إلى معرفة ذات الله وأسمائهِ وصفاته وأفعاله بالفعل الصريح والشهود الصحيح والعلوم الغريبة وما يتوقف عليه ولذا قال عليه السلام: «**لمن فسر القرآن برأيه فقد كفر ومن فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار**».

﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا﴾ استئناف موضح لِحال الراسخين أو حال منهم أو خبره إن جعل مبتدأ ﴿بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ أي المتشابه والمحكم والعلم بهما وبغيرهما مما علمناه من الأشياء بل الأشياء، زعم بعضهم أن ﴿عِندِ﴾ هنا صلة ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران: 7] مدح للراسخين بجودة الذهن وحسن النظر فإنهم بهذه الصّفة يتعظون بكتاب الله يتذكرون عن عهوده الأزلية وعقوده الأولية قال المفسرون علماء موضحين لكتاب الله مثل عبد الله بن سلام وأصحابه لقوله تعالى: لكن الراسخون في العلم منهم يعني الوارثين في علم التوراة سئِل النبي ﷺ من الراسخون في العلم؟ قالَ: «**من برّ بيمينه وصدَقَ لسانه واستقام قلبه وعف فرجه فذلك الراسخون في العلم**». عن مالك بن أنس هم المتواضعونَ لله المتذللون في طلب مرضاته لا يتعظمونَ على من فوقهم ولا يحقرون من دونهم والبعض هم الذين وجدوا في علمه أربعة أشياء التقوى بينه وبين الله والتواضع بين الخلق والزهد بينه وبين الدنيا والمجاهدة بينه وبين نفسه.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ۝٨﴾

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ﴾ لا تمل ﴿قُلُوبَنَا﴾ [آل عمران: 8] عن الهدى والحق كما أزغت قلوب اليهود والنصارى وأهل البدع ﴿بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا﴾ وفقتنا لدينك والإيمان بالمحكم والمتشابه والمجمل والمبين من كتابك ﴿وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ﴾ أوصلتنا

إليك وأنزلتنا إلى حضرتك أو توفيقًا للثبات على الحق والمغفرة للذنوب ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عِمرَان: 8] تعطي كل ما هو مسؤول ومرغوب وتفضيل كل ما هو مقصود ومطلوب على أن الهدى والضلالة من الله وإنه متفضل بما ينعم على عباده ولا يجب عليه شيء من مقالة الراسخين وقيلَ استئناف.

واعلم أن القلب في نفسه صالح لأن يميلَ إلى أحد الجانبين من الكفر والإيمان والطاعة والعصيان إلا عندَ داعية أبدعها الله فإن مالت إلى الكفر فهي الخذلان والدعاة والختم والرين والزيغ والقسوة والوقر والأكنان وغير ذلك مما ورد في الكتاب وإن مالت إلى الإيمان فهي التوفيق والإرشاد والهداية والتسديد والتثبيت كانَ رسول الله ﷺ يقول: «**قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن فيقلب الإنسان**»، وكان يقول عليه السلام: «**يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك**». وكان يواظب على هذا الدعاء وهذا لكونه برهانيًّا متأكدًا يكون من أقوى المحكمات وعند المعتزلة من المتشابهات. وإنما قدم دعاء النفي على الإثبات لأن التطهير كما ينبغي مقدم على التنوير على ما ينبغي لتقدم الشرط ورفع الموانع على وجود المعلول والرحمة نعم الإيمان والمعرفة وعمل الجوارح وأفعال الأركان بأن يحصل أولًا في القلب ثم سرى منه إلى الأعضاء واللسان ثم يفضي إلى سهولة أسباب المعاش من الصحة والأمان وإلى سهولة السؤال وسهولة ظلمة القبر وسؤال الملكان ثم إلى سهولة العقاب والحساب والخطاب في القيامة ولذا عقبه بقوله:

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ﴾ لإعطاء الجزاء ﴿لِيَوْمٍ﴾ أي يوم يجمع فيه الناس وهو يوم القيامة ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي في وقوعه ووقوع ما فيه من الحشر والجزاء وغير ذلك مما يترتب عليه من النار والأنوار للأبرار والفجار ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عِمرَان: 9] أي ميعاد الأولياء لا وعيد الأعداء لأن خلفَ الوعيد كرم ولطف إذا وعد السرّاء أنجز وعده وإن وعدَ الضرّاء فالعفو من عند الله ينجز وعده

عدلًا ووعيدًا تلطّفًا وفضلًا ولا يلزم منه الكذب وإنما يلزم إن لو كان في الوعد.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مطلقًا أو النصارى واليهود أو المشركون من العرب ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾ أي لن ينفع ولا يدفع بالثواب والجنة والجحيم والعقاب وإنما سمي المال غنى لأنه ينفع صاحبه ويدفع فيه شدة الفقر ونكبة الفاقة وسورة النوائب وحدة الأمور الشاقة من ركوب البحر الزخار والبر الضرار ﴿مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي لا ينفع لهم شيئًا من المال والمغفرة ولا الطاعة والعبادة ولا يدفع عنهم من العذاب والعقوبة واللفظ عام وإن كان المورد خاصًّا وكمال العذاب وهو أن يزول عنه أعظم ما ينتفع به وهو المال والبنون ويجتمع عليه الأسباب المؤلمة فإن المراد عند نزول الخطوب وحلول مقتضيات الذنوب في الدنيا يفزع إلى المال والولد لدفعه وهما في ذلك اليوم لا ينفقان لارتفاع العبرة بهما يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى اللّهَ بقلب سليم ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي الكفّار المذكورون ﴿هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ [آل عِمرَان: 10] بفتح الواو ما يستعر به النار وتتقد هي في ظاهرهم وباطنهم وهو أشد العذاب.

إشارة وتأويل

(ا ل م) اعلم أن إشارة هذه الحروف غير إشارة ما تقدمت الإشارة إليه في صدر البقرة وإن كانت متحدتين بالذات والصفات لأن نسبة سورة البقرة وما فيها من الألفاظ والعبارات والحروف والرموز والإشارات لفظًا ومعنى إلى الذات والأسماء والصفات غير نسبته إلى آل عمران وما فيها من الألفاظ والمعاني إذ الألف التي هنا هو غير الألف التي في البقرة لأنه ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمٰن: 29] إشارة إلى نورانية ذاته في قدسه ووحدانيته آنيته في أنسه واستبقاء ما سواه على عدميته واللّام إشارة إلى لطائف غيبه في جبروته والميم إلى غرائب ملكوته أو الألف إشارة إلى أحدية هويته وفردانية حقيقته وماهيته نظر إلى وحدانيته وصفته

ونعته واللام إلى واحدة نعته وصفته والميم إلى ديمومية سلطنته في ملكه ودوام مملكته والألف إلى أوليته واللام إلى كمال جماله والميم إلى عظم جلال ذاته وصفاته في أفعاله وآثاره وإلى فرط محبته لأوليائه وقد جرت العادة بين الأحباب التخاطب بالرموز والتلويحات بالرقوم والإشارات كتمًا بالأسرار وحرمانًا للأغيار تعظيمًا لشأنهم وتكريمًا لهم في لطائف عرفانهم.

ولذا قيل: العبارات والإشارات للخواص والتلويحات والرموز لأخص الخواص أو الألف إشارة إلى إعطاء الاستعدادات واللّام إلى إفاضة أنوار لطفه عليها في مقام علمه وهي الحياة السرمدية والميم إلى قيوميته للأشياءِ بنعت الوجود والعين والألف إشارة إلى إفاضة عموم الأحوال على صفحات ضمائر أحبائه واللام إلى لطفه الخفي في سرائر أوليائه والميم إلى مراجعة سرائرهم من مواطن الإنس التي هوارم القدس للألسن حتى إذا قرأتَ هذه الألفاظ وما يضاهيها أسماع المحبين سبقت حقائق سرائرهم أسوار معانيها وأنوار مبانيها ولطائفها في ألواح أرواحهم القدسية حتى عاينوا أن كل حرف منها إشارة إلى اسم واللاسم إلى فعل وأثر وهو إلى صفة وهو إلى الذات فإذا صادفت هذه الرموز قلوب العارفين ترقد مدارج الأفعال والأسماء والصفات حتى بلغوا سرادقاتِ الكبرياء فانكشفت لهم المعلومات السرمدية من الحق للحق فشاهدوا السرائر النسبة الذاتية وأنوار النقب الإلهية أولًا في حضرة الواحدية والجبروت في ديوان الملكوت.

قال الصادق رضي الله عنه: إن اللَّهَ تباركَ وتعالى ذكر وحدانيته ودل على إقرار ربوبيته الحي القيوم أولًا على الذّات الذي ظهر بنوره حقائق الكائنات وماهيات الممكنات في مرتبة علمه وشهود ذاته وأقام في عرصة العين بقيوميته تلك الحقائق للصور الغيبية أولًا بالهيوليات الروحية ثم المثاليات وأشباح الممثلات البرزخية ثم الشهاديات أو يعطي الروح ويقبضه ويقيم الجسدَ ويرتبط به أو الأول يشير إلى قوس التنزل والثاني إلى قوس الترقي أو إلى السير إلى الله ومن الله نزلَ عليك الكتاب بالحق إشارة إلى السير في الله أي المرتبة الجامعة الشاملة للكل في الدورة الجامعة والكورة الطامعة للكل في الكل للكل مصدقًا لما بين

يدي أي السير إلى الله ومن الله فإن العارف إذا استكمل فيهما ينتقل إلى السير في الله فأنزل التوراة أما أن السير إلى الله والإنجيل هاديًا إلى السير من الله إلى الله ولهذا ذهب النصارى إلى أن صاحبه هو الله أو ابنه وهو التجلي الذاتي هو هداية الدورة العظمى النورية الجمانية باعتبارين من قبل نزول الكتاب المعني منه هو الكتاب الجامع المذكور إشارة إلى تكرار مقتضيات الدورات الأسمائية إن الذين كفروا في فردانة اسم من الأسماء الذاتية في السير إلى الله فإنهم داموا فيها وقاموا لديها واعتكفوا وصاموا عليها لهم عذاب شديد وعقاب مديد شديد والله عزيز غالب على الأمور كلها الجارية في مقتضيات الأدوار الأسمائية أو أن الذين حجبوا عن مشاهدة الحق بنعت النفس في رؤية شواهد الربوبية لهم عذاب شديد أي عرفان وجدان وطول مقامات أهل الهدايات.

قال أبو سعيد الخراز: الَّذين كفروا باطنها كرامات الله على غير أوليائه لأنها لعدم استحقاقهم لها محرمة عليهم لهم عذاب شديد واللَّهُ عزيز بعز ولايته ويمنع عمن لا يليق بها ويكون إظهار الكرامة ووداده على من يشاء من عباده ذو انتقام ينتقم من أعدائه إنكارهم على أبنائه بأن لا يهديهم إلى ما آتاهم وأعطاهم من أنواع فضله وكرمه إن اللَّهَ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ما يجري على قوس التنزل إلى أرض الجامعية الإنسانية في السير من الله فإن الأشياء كلها سائرونَ من الله إلى الله إلا أن منهم من لم يصل بعد إلى أرض الكلية والإمكان والقوة الاستعدادية القريبة بالفعل الجامعية وهي أسفل السافلين ليحصل السير بالاختيار إلى اللَّهِ تعالى لأمة اختص اسم السير إلى الله بمن يكون سيره إليه مقرونًا بالاختيار ولا في السماءِ أي كل ما يجري عند الترقي إلى السماء الأحدية والأسماء الواحدية من الأحوال والمقامات والشطح والطاعات.

وفي العرائس: لا يخفى عليه شيء مما في صدور أوليائه في الأرض من لهب نار الاشتياق ولا مما في قلوب الأصفياء للملائكة تحت العرش من أزيز نيران الحرق وهذا نوع سياسة من الله لعباده فإنهم إذا تيقنوا أن اللَّهَ يعلم ما في صدورهم مما يخفونَ عن الناسِ ويعلم كل ما يفعلون ويعملونَ لِما اجترؤوا على أمر لم يرض به الله فعلموا أنهم يحزنون بمقاساتهم في شوقه وطريق محبته ورفيق

ذوقه أو لم يظهر وهي أشد الحالات وأحد المقامات كما علمتَ في تفسير قوله: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ﴾ [البقرة: 284].

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ﴾ [آل عِمرَان: 6] أي صور علومكم ومعارفكم وأحوالكم ومقاماتكم في أرحام قابلياتكم الأزلية واستعداداتكم الأولية الأرضية أولًا في الفطرة الأولى والنشأة العليا كما صوّر صور هيولى حقائقكم ومادة ماهياتكم ابتداءً في البرزخ الأعلى بالصور العلمية ثم في الملكوت القصوى بالصور العينية الروحية ثم في البرزخ الأدنى بالصور الشبحية والمثل النورية إلى الأرحام العنصرية بالرقوم البشرية والرّسوم الصّورية. قال عليه السلام: «**إن اللّهَ خلق الخلق في ظلمة وألقى عليهم من نوره فمن أصابه ذلك النور فقد اهتدى ومن أخطأه فقد ضلّ**»، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [آل عِمرَان: 6] إلى كميات مراتب التصوير وكيفيات الّتي أشرت إليها.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ﴾ أي الكتاب العيني منه أي بعضه وحمله منه آيات محكمات وهي الهيولى الصورية العلمية والحقائق الإلهية وجملة ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ﴾ هي الصور العينية والتعينات الكونية الواردة عليها المترادفة لديها أو المراد الجواهر الأعراض التي يتبدل الأمثال والأشباه فالأحكام المعلقة من الكتاب المعنوي بأحوال الأول هي المحكمات وبالثانية هي المتشابهات أو المراد من المحكمات هو الإنسان الكامل المكمل المتحقق بالأسماء الإلهية من المتشابهات وما عداه من الفقراء الغير البالغين مقام الرجال المشتبهين لهم من المجاذيب والسلّاك من تشبه بقوم فهو منهم أو المراد بالمحكمات هي الأرواح وبالمتشابهات هي الأجسام المتضاهية.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ﴾ ريب وشك وارتياب من حقيقة حاله وفي التحقيق بالكمال الجمعي والجمع الكلي في مآله، أو المراد بالمحكمات أي لم يستكملوا في النشأة ﴿فَيَتَّبِعُونَ﴾ ويتقيدونَ في مراتب الصور ولم يصلوا إلى عالم المعاني أو إلى المرتبة الجامعية بينهما ﴿مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾ وطلبها بينهما فمن تقلد بالمتشابهات ويقيد بها ولم يبلغ حقيقتها وقع في الفتنة والتردد في النشأة، ولم

يبلغ حقيقتها ما لم يبلغ حقيقة المحبة الذاتية ﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ وإرجاعه إلى ما كانَ عليه وهم متقيّدون بعالم الصور والمراتب المتشابهات.

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ أي لا يعلم وقت تأويله وحالة إرجاعهم وترجيعهم إلى ما كانوا عليه في المرتبة الجمعية في أحدية الجمع إلّا الله والراسخونَ في مراتب النشأة والمستكملون في درجات أفلاك الكمالات والمتصعدون إلى كرات سماوات الكائنات وطبقات المعارج الممكنات في مرتبة جمع الجمع الباقونَ بالله العارفونَ بنور الحق العالمون تشابه أسرار القياس نعوت الجبروت في الملكوت بنعت ظهور تجليه لأهل حقيقة التوحيد والتفريد والعطف يشعر بهذا أي هم ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ إيمان من جمع في مقام الجمعية علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين لا يشغله شأن عن شأن ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ أي كل من المتشابه والمحكم ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عِمرَان: 7] مدح للراسخين بجودة الذهن وحسن النظر وإشارة إلى ما استعدوا به للاهتداءِ إلى تأويله وهو تجرد العقل عن غواشي الحسّ واتصال الآية بما قبلها من حيث إنها في تصوير الروح بالعلم وتزيينه.

قال بعضهم: الراسخ هو الّذي حق بالحق أي الذي وقع مظهر الألوهية حيث أشارَ: كنتُ سمعه وبصره ويده ورجله ولسانه فبي يسمع وبي يبصر وبي يمشي وبي ينطق وبي يبطش، أو الذي ظهر الحق وتعين بالتعين الكامل والكون الفاضل العالم أو الذي رسخ بروحه في غيب الغيب في سرائر أو الذي استجمع أحكام العلوم وهي أربعة التجلي والعندي واللّدني التي صيرها التجلي الآثاري والأفعالي والصفاتي والذاتي. قال البعض: هو الذي وجد علم التأويل من الله فيكون إيمانهم بالله حقًا ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنفال: 4].

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ في النشأة الأخرى ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ في النشأة الأولى ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ كاملةً جامعةً بين النشأتين أو لا تزغ قلوبنا في أحكام الممكنات ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ إلى دراية أعلام الشريعة ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أي شهودًا بحقيقة أو علم اليقين بعين اليقين بعد إذ هديتنا بعلم اليقين ﴿مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ [آل عِمرَان: 8] حق اليقين، وهب لنا ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر هب

لوسائط الأمور وهب المذكورة وهب لنا من لدنك رحمة السّائرين إلى الله السرّ منك فيك.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عِمرَان: 9] في محشر العظمى النفسي أهل الحقيقة على بساط القربة المؤمنون على بساط الكرامة والموقنون على نشاط المشاهدةِ والمجبونون على مجمل الوصل والعارفونَ على مقام الأنس باللقاء وقس أحوالَ أصحاب الأطوار السبعة ومنهم يبلغ عندك على منتهى مقاصدهم التي كانوا عليها في الدنيا جامعًا أمرَ رسم المقامات ووسم الحالات وقسمَ المكاشفات والمشاهداتِ. قال الصادق رضي الله عنه: الراسخ الناقد في العلوم بخيارٍ منها المحكمات من الولايات ويستقر في المتشابهات في النّبوات لأن ظاهرها خلق بنور بواطنها وبواطنها مزيّن برضاءِ الله فالراسخ قاصد تحت أمن منه.

وقالَ أيضًا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ [آل عِمرَان: 8] أي لا تجعلنا مع أعدائِك مجتمعين في هجرانك فإن مرادَهم نارك ومرادنا نوركَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عِمرَان: 9] أي ما وعد لأنبيائه وأوليائه من وصولهم إلى مشاهدته بعدَ ما أحاطهم حين أودع أرواحهم قبل وجود الكونين وعرف نفسه لهم بلا كلفة العذاب ومشقة الحساب وأيضًا لا سبيلَ إلى تغير الحدثان ووقوعه في قدم علم الرحمن لأنه تعالى منزه عن أن يفعل شيئًا بعلم يحدث.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالوصول إلى مشاهدته بعدَ الخطاب بـ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 172] والعهد بقولهم ﴿بَلَىٰ﴾ [الأعراف: 172]، ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ﴾ أي ما حصل لهم من القوة العملية من الأخلاق الرضية والملكات والهيئات السنية المرضية والعادات الرزية ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾ أي ما حصلَ لهم من القوة النظرية ومن العلوم والإدراكات ومعرفة القواعد والرسوم وحسن العادات وقبول العبادات ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ [آل عِمرَان: 10] أي حطب نار الندامة والتأسف إذا اطّلعوا على فقدان وجدان ما منح الله بهم عليهم في الفطرة الأولى من الشهود الذاتي والعهود الأول.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ الدأب الجهد في الشيء والتعب فيه يقال دأب يدأب إذا اجتهد، ثم صارَ الدّأب عبارة عن الأمر والشأن والعادة يقال هذا دأب فلان أي عادته أو من الدؤوب وهو الثبت أي جهد هؤلاء الكفار وتعبهم وجهدهم في تكذيب محمد كجهد آل فرعونَ وتعبهم مع موسى عليه السلام تكذيبًا وإهلاكًا أو بمعنى إن عادة الله وسنته مع هؤلاء في تكذيبهم وإهلاكهم كعادته وسنته في تكذيب آل فرعون موسى وإهلاكهم أو إن أحوالهم في أولادهم وأقوالهم في عدم النفع في رفع العذاب عنهم آجلًا وعاجلًا كحال آل فرعونَ فيما ذكر أو متصل بما قبله أي لن تغني عن أولئك أموالهم وأولادهم أو توقد بهم كما توقدنا فعلى الأول مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف.

﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾ عطف على آل وقيلَ استئناف ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ حال بإضمار قد واستئناف لتفسير حالهم أو خبر أن ابتدأت بالذين ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْۗ﴾ عطف على كذبوا أي يعاقبهم الله بسبب ذنوبهم أو المتصفين بذنوبهم ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [آل عِمرَان: 11] تهويل للمؤاخذة وزيادة تخويف للكفرة.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ﴾ هذا وعد وتبشير من الله لمحمد وأصحابه بتغليبهم على الكفار واستقامتهم وتسليطهم عليهم بالنقل والسبي والأسر وغير ذلك وسبب النزول إنه لما غزا رسول الله ﷺ قريشًا يوم بدر وقدم المدينة جمع اليهود في سوق بني قينقاع فأحذرهم أن ينزل بهم ما نزلَ بقريش فقالوا: لا يغرونك إنك أصبتَ أعمارًا لا علم لهم بالحرب لئن قاتلتنا لعلمتَ أنا نحن النّاس. وقد صدق الله وعده بقتل قريظة وإجلاء بني النظير. روي أن يهودَ أهل المدينة لما شاهدوا وقعة بدر قالوا والله إن هذا هو النبي الأمي الذي بشرنا به موسى في التوراة ونجده في كتابنا بنعته وصفته ثم قال بعضهم

لبعض لا تعجلوا فلما كانَ يوم أحد وقتلت أصحابه قالوا: ليس هو ذلك فلم يسلموا هذا وقد كانَ بينهم وبين رسول الله ﷺ عهدًا إلى مدة لم ينقض فنقضوا ذلكَ العهدَ قبل أجله فانطلق كعب بن الأشرف في ستين راكبًا إلى أهل مكة إلى سفحانٍ وأصحابه فرافقوهم وأجمعوا أمرهم على رسول الله ﷺ ثم رجعوا إلى المدينة وجهنم من الجهنام وهي البئر البعيدة القعر ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: 12] الفراش النار تمام يقال لهم واستئناف وتقديره بئس المهاد جهنم أو ما مهدوا لأنفسهم.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾ أي دلالة واضحةً وعبرة لائحة على صدق ما أقول لكم أنكم ستغلبون وإنا غالبون عليكم ﴿فِى فِئَتَيْنِ﴾ فرقتين وجماعتين أصلها من الحرب لأن بعضهم نفي إلى البعض في الحرب أي محمد وأصحابه والقريش ﴿ٱلْتَقَتَا﴾ يوم بدر فيه مرفوع على الخبرية أو مجرورة على البدلية من فئتين وهم محمد وأصحابه ﴿فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في طاعة اللّهِ وكانوا ثلاثة مائة وثلاثة عشر رجلًا كان معهم ستة دروع وثمانية سيوف وفرسان أحدهما للمقداد بن عمرو وأخرى لزيد ابن أبي مريد وبين كل أربعة بعير، وفرقة ﴿وَأُخْرَىٰ﴾ وهم قريش ﴿كَافِرَةٌ﴾ مشركة في مكة تسعمائة وخمسين رجلًا مقاتلًا معهم مائة فرس وسبعمائة إبل وأهل الجبل كلهم دارعون، على رأسهم عتبة بن ربيعة بن عبد شمس وأبو جهل ﴿يَرَوْنَهُم﴾ هذه الفرقة الكافرة تلك الفرقة المسلمة ﴿مِّثْلَيْهِمْ﴾ أي ضعف عدد الكفرة فلما غلب المسلمونَ عليهم وأسروهم سأل المشركون المسلمين كم كنتم قالوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا قالَ المشركون: ما رأيناكم إلا ضعفهم، قيل: الأنسب يكونَ الرائي المسلمونَ والمرئي المشركون لأن اللّهَ أمر المسلمين أن يقاوموا المشركينَ وإن كانَ المشركونَ ضعف المسلمين وإن ﴿يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ ۚ﴾ [الأنفال: 66] ﴿رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ﴾ أي في أول النظر أو رؤيةً ظاهرة معاينةً ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ

﴿بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي ويقوي ويَجعل من يشاء قادرًا غالبًا قاهرًا على من يشاء كما أيّد المسلمينَ في بدر على المشركينِ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي التقليل والتكثير أو غلبة القليل عديم العدة على الكثير شاكي السلاح وكون الوقعة إنّه أيضًا يحتملهما ويحتمل وقوع الأمر على ما أخبر به الرسول أي غلبة القليل مع قلة الأهبة وعدم الشوكة وكثرة الرهبة وشدة الهوية على الكثير مع تمام العدة وكمال العهدة والعدّة من الأسلحة وقوله الشوكة ﴿لَعِبْرَةً﴾ عظة واعتبارًا وتبصرة ﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [آل عِمرَان: 13] وتذكرة لذوي العقول والاستبصار.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [آل عِمرَان: 14] جمع شهوة وهي ما يدعو النفس إليه وبتحريك الهاء للفرق بين جمع الاسم وجمع الصّفة إذ الصّفة لا تحرك نحو ضخمة وضَخمات وضمحة وضمحات والاسم تحرك نحو تمرة وتمَرَاتٍ إلّا أن الاسم إذا كانَ أجوفَ فالأكثر على التسكين نحو بيضة وبيضات وجوزة وجوزات أي المشتهيات وإنّما سمّيت بها للمبالغة وللإيماء إلى أنهم انهمكوا في محبتها حتى أحبّوا شهوتها كقوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ [ص: 32] قالَ عليه السلام: «**حفت الجنة بالمكاره وحفّت النار بالشهوات**»، والمزيّن هو الله تعالى لأنه خالق الأفعالِ والدواعي لكونه ممكن يحتاج إلى مرجح وهو إما للابتداء ولكونه وسيلة إلى السّعادة الأخروية إذا كانَ على وجه يرتضيه أو لأنه من أسباب التعايش وبقاء النوع وقيلَ: الشيطان ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ بدأ بها لكونهنَّ حبائل الشيطان هو أقرب إلى الافتنان ﴿وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ [آل عِمرَان: 14] جمع قنطار وهو المال الكثير بعضه على بعض عن النّبي ﷺ القنطار اثنا عشر ألف أوقية والبعض ألف دينار.

قالَ عليه السلام: «**من قرأ في ليلة خمسين آية لم يكتب من الغافلين ومن قرأ مائة آيةٍ أعطي قيام ليلة قائمة كاملة ومن قرأ مائتي آيةٍ ومعه القرآن فقد أدى حقه**

ومن قرأ خمسمائة آية إلى أن يبلغ ألف آيةٍ كان كمن تصدّق بقنطار قبل أن يصبح»، قيل: ومَا القنطار؟ قالَ: ألف دينار وقد روى عنه عليه السلام ألف ومائتا مثقال قيلَ: ثمانون ألفًا أو ما بين السماء والأرض مالًا أو أربعونَ ألف والمقنطرة المحكمة والمدفونة من قنطرة إذا كنزه أو المضروبة المنقوشة حتى صارت دراهم ودنانير قيلَ: هو مثل ألف مؤلّف والقراء إنه مضعف من الذهب والمعتزلة منهم قالَ: إن المزيّن هو الله بوجوه:

الأول: أنه تعالى كما خلق منافع الآخرة ثم رغب الإنسان في منافع الآخرة كذلك خلق منافع الدنيا وأباحها للعبيد، وإباحتها لهم تزيينها ولهم فإنه تعالى لما خلق الشهوة والمشتهى وخلق له علمًا في طلب المشتهيات وتناولها ثم أباحها له ذلك التناول كانَ ذلك ترتيبًا له.

الثانية: الانتفاع بهذه المشتهيات وسائل إلى منافع الآخرة والله تعالى يندب إليها فكانَ مزيّنًا لها بأن يتصدق بها ويتقوى بها في طاعة الله وإذا انتفع بها وعلم إنها بخلق الله وإعانته صار ذلك أداءً للشكر ولذلك كان ابن الصاحب العباد يقول شرب الماء البارد من الطيبات ويستخرج الحمد من إقصاء القلب وإن القادر على هذه اللّذات والطيبات إذا تركها واشتغل بالطاعات والعبادات وتحمل المشقات كانَ أتم في طلب الثواب في الجنات ومحاولة الدرجات وجذب السعادات. قالَ الحكماء: الإنسان قد يحب شيئًا ولكن أن لا يحبه مثل المسلم فإنه يميل إلى المحرمات بطبعه لكن يجب أن لا يحبه وما أحب شيئًا أحب أن يحبه فذلك كمال المحبة فإن كانَ ذلك في جانب الخير فهو كمال السعادة إني أحببت حب الخير أي أحب الخير وأحب أن أكون محبًّا للخير وفي جانب الشر بالعكس فهاهنا أمور ثلاثة:

أولها: إنه يشتهي أنواعَ المشتهيات.

والثاني: أن يحبَّ شهوته لها.

والثالث: إنه يعتقد أن تلك المحبة حسنة وفضيلة وعند اجتماعها المحبة العامة القصوى ولا يكاد ينحل في الشراب إلّا توفيق عظيم من الله.

﴿مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ وإنما سمي به لذهبانه والفضة من الفض وهو التفرق ولو كنت فظًّا غليظَ القلبِ لانفضوا من حولك ﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ [آل عِمرَان: 14] جمع لا واحد له من لفظه واحد فهرس كالقوم والنساء والرهط والجيش المسومة هي الراعية من سامَ يسوم سومًا فهي سائمة أي راعية والبعض هي الصورة الحسناء أصلها من السومة والسيماء والسيمياء وهي العلامة يقال سومت الخيل إذا أعلمتها من الملائكة مسوّمين وقيلَ: هي المعدة للحرب والجهاد في صفة الخيل عن علي ابن أبي طالب عليه السلام أنّه قالَ: قالَ رسول الله ﷺ: «**لما أراد الله أن يخلق الخيل قالَ: لريح الجنوب إني خالقٌ منك خلقًا فأجعله عزًّا لأوليائي ومذللًا على أعدائي وجمالًا لأهل طاعتي فقالتِ الرّيح اخلق فقبض منها قبضة فخلق منها فرسًا فقال له خلقتك عربيًّا وجعلَ الخير معقودًا بناصيتك والغنائم مجموعة على ظهرك عطفت عليك صاحبك وخلقتك تطير بلا جناحٍ فأنتَ للطلب وأنتَ للهرب وسأجعل على ظهرك رجالًا يسبحونني ويحمدونني ويهلّلونني ويكبرونني تسبحين إذا سبحوا وتهلّلين إذا هلّلوا وتكبريني إذا كبروا**».

وقالَ عليه السلام: «**ما من تسبيحة وتمجيدة وتكبيرة يكبرها فيسمعها إلّا تجيبه بمثلها ثم قالَ لما سمعت الملائكة صفة الفرس وعاينوا خلقها قالت: يا رب ملائكتك تسبحك وتحمدك فماذا لنا فخلق الله لَها خَيلًا بلقاء أعناقها كأعناق البخت فلما أرسل الفرس إلى الأرض استوت قدماه على الأرض صَهَلَ قيلَ: بوركت من ذاته أذل بصهيلك المشركين أذل به أعناقهم وأملأ آذانهم وأرهب به قلوبهم فلما عرض الله تعالى على آدم من كل شيء قال: اختر من خلقي ما شئتَ فاختارَ الفرسَ فقيلَ: له اخترت عزك وعز ولدك خالدًا ما خلد وباقيًا ما بقوا بركتي عليك وعليهم ما خلقت خلقًا أحب إلي منك ومنه**».

فصل: الخيل

قال عليه السلام: «**الخيل معقود في ناصيتها الخير إلى يوم القيامة**» عن أنس رضي الله عنه: قال لم يكن شيء أحب إلى رسول الله ﷺ بعدَ النساءِ من الخيل.

قال: ما من فرس عربي إلا يؤذن له عند فجر بدعوة اللّهم حوّلتني من بني

آدم وجعلتني أحب أهله وماله إليه وَمِنْ أحب أهله وما له إليه.

قال عليه السلام: «**اربطوا الخيل وامسحوا بنواصيها وقلدوها ولا تقلدوا بالأوتار وعليكم لكل كتب أغر محجل أو أشقر أغرّ محجل أو أدهم أغر محجل**». كان النبي ﷺ يكره أشكالًا من الخيل والأشكال في اليد قالَ عليه السلام: «**الشؤم في ثلاثة: المرأة والفرس والدار**». ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ جمع النعم وهي الإبل والبقر والغنم ﴿وَٱلْحَرْثِۗ﴾ يعني الزرع ﴿ذَٰلِكَ﴾ ما ذكر ﴿مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ﴾ الاعتماد والمعاد والعقبى ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عِمرَان: 14] المرجع والمآل هذا تحريض على استبدال الشهوات بما عند الله من الباقيات الصالحات ذكر هاهنا أمورًا سبعة أولها النساء ولأنها من النّاس ولذا أوقع الاستئناف بها وكانت أقربَ لأنبيائه عليها وكونها من الناس وهي مفاتيح أبواب جهنم لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزءٌ مقسوم فإن قيلَ المآب قسمان الجنة وهي غاية الحسن والنار وهي غاية القبح فكيف وصف المآب المطلق بالحسن قال: المآب الذي هو مقصود بالذات إنما هو الجنة بناءً على أن الكلّ مفطور على الإسلام وللدخول في دار السلام إلا أنه عرضت لبعضهم ما أخرجت من الفطرة الأولى من مقتضيات عالم الطبيعة وما بالذات لا يزول بالعرض.

﴿۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَؤُنَبِّئُكُم﴾ أخبركم ﴿بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْۚ﴾ مما ذكر لكم من متاع الدنيا ويريد به أن ثواب الله خير وأكثر من ملذّات الدّنيا ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ استئناف أو متعلق بخبر واختص بالتيقن لاختصاص الانتفاع بهم فعلى الأول فيه دلالة على بيان ما هو خير من ذلكم وعلى الثاني برفع جنات بالخبرية ومبتدأه محذوف هو ﴿جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ مما يستقذر منه النساء من دم الحيض والنفاس ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ بضم الراء برواية حفص وكسرها وهما لغتان ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عِمرَان: 15] بأفعال العباد

وأحوالهم ويوم التناد ويتغير ذلك من المبدأ والمعاد فيثيب المحسن العارف بها ويعاقب المسيء وأرباب الظلم وأصحاب الجهل والفساد أو بأحوال الذين اتقوا وغيرهم من العباد وتنبيهًا على أساس المعبودية هو التقوى فلذلك خص الجنات بهم إشارة إلى أن اللَّهَ له نعم أدناها الدنيا وأعلاها رضوان الله أوسطها الجنة ونعيمها. قال الإمام في التفسير الكبير: الجنة إشارة إلى الجنة الجسمانية والرضوان إلى الجنة الروحانية، وهي تجلي نور جلال الله وانكشاف نور جماله في روح العبد واستغراقه في معرفته ثم يصير راضيًا مرضيًا وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم عن النبي ﷺ يقول لأهل الجنة: «**يا أهل الجنة فيقولون لبيك ربنا وسعدَيك والخير في يديك فيقولُ: هل رضيتم؟ فيقولون: ما لنا لا نرضَى يا ربّ وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب فأي شيء أفضل من ذلك؟ قال: أحلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبدًا**».

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾ صفة للمتقين أو للعباد أو منصوب ومرفوع على المدح ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عِمرَان: 16] ترتيب السؤال على مجرد الإيمان دليل على أنّه كان في استحقاق المغفرة أو الاستعداد لها لذكرهم في معرض المدح والثناء عليهم.

﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾

﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ صفة أخرى على امتثال الأوامر والانتهاء عن المناهي وعلى البأساءِ والضراء وحينَ البأسِ ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في إيمانهم. قال قتادة: هم قوم صدقت نياتهم واستقامت قلوبهم وألسنتهم ومساءتهم فصدقوا في السرّ والعلانية ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ﴾ [آل عِمرَان: 17] عن النّبي ﷺ: «**إنَّ للّهِ ملكًا ينادي: اللّهم**

أعطِ ممسكًا تلفًا وأعطِ منفقًا خلفًا» ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عِمرَان: 17] لقد أحسن الله في ترتيب المقامات التي تترتب على المعاملات وهي إما التوسّل وإما الطلب والتوسّل إما بالنفس وهو منعها عن الرذائل وحبسها على الفضائل وهما بالصبر أو بالبدن وهو إما قوتي وهو الصدق وإما فعلي وهو القنوت الذي هو يلازمه الطاعة وإما بالمال وهو الإنفاق في سبيل الله وأما الطّلب فالاستغفار لأن المغفرة أعظم المطالب بل الجامع بينهما وإنما ترك عطف بالمالِ وهو الإنفاق ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ دونَ أخواتها تنبيهًا على أن السعادة لا تتم إلا بالصبر وإن ما عداه من المعطوفات وغيرها لا يكمل إلا به ولذا كثر الأمر بالصبر وختم السورة بالصبر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ﴾ [آل عمران: 200] وجعل شطر الإيمان ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ﴾ [السجدة: 24] وإنما قيد الاستغفار بالأسحار لأن الدّعاء فيها لكون النفوس فيها صافيةً عن الشواغل والعبادة فيها أشق عليها وكون السَّحَر أعز الأوقات وأشرفها بكون أقرب إلى مظان الإجابة ذهب بعضهم إلى أن الاستغفارَ هاهنا هوَ الصلاة وبالأسحار هم يستغفرون أي يصلون والظاهر أنه أعم لما قيلَ: أنهم كانوا يصلّون إلى السحر ثم يستغفرونَ ويدعونَ.

واعلم: أنَّ السَّحرَ وهو عبارة عن وقت آخر الليل قبل طلوع الفجر هو وقت صلاة التهجد ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ٧٩﴾ [الإسراء: 79] قال سفيان الثوري: إن لله سبحانه وتعالى ريحًا يقال له: الصبحية تهب وقت الأسحار يحمل الأذكار والاستغفار إلى الملك الجبار.

قال أيضًا: بلغنا أنه إذا كان من أول الليل نادى مناد ليقم العابدونَ فيقومون ويصلون ما شاء الله ثم ينادي مناد في شطر الليل ألا ليقم القانتونَ فيقومونَ كذلك يصلون إلى السحر وإذا كان السحر ينادي مناد أين المستغفرونَ أولئك وآخرون يصلون فيلحقون بهم فإذا طَلَعَ الفجر نادى منادي ألا ليقم الغافلونَ فيقومون من فرشهم كالموتى نشروا من قبورهم.

قالَ لقمان لابنه: يا بني لا يكونن الدّيك أكيس منك فإنه ينادي ربه بالأسحار وأنت نائم، عن النبي ﷺ: «**إن ثلاثة أصوات يحبهم الله عز وجل: الديك وصوت الّذي يقرأ القرآن وصوت المستغفرين بالأسحار**».

وقالَ أيضًا: «**إن الله تعالى يقول: إذا همّ بأهل الأرض عذابًا فإذا نظرت إلى عمار بيوتي وإلى المجتهدين وإلى المتحابين وإلى المستغفرين بالأسحار صرفت عنهم**».

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وأولي العلم شهادة الله هو خلق الدلائل على توحيده وشهادة الملائكة ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ الإقرار بذلك، والآية تدل على كليهما نحو إن الله وملائكته يصلون على النبي مع تغاير معنى الصلاة فيهما، والمراد بالعلماء هم الذين وصلوا إلى مرتبة علم اليقين وعين اليقين لأن العلمَ المعتبر في الشهادة هو هذا العلم لقوله عليه السلام: «**إذا علمت مثل الشمس فاشهد**» وهم العلماء الرّاسخون ﴿قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عِمرَان: 18] مقيمًا بالعدل نصبه على الحال من الله مقيمًا وإفراده بها لعدم اللّبس ولم يخبر نحو جاء زيد وعمرو راكبًا أو من هو، والعامل معنى الجملة أي تقرير أداء الشهادة من الله مقيمًا أو من أحقه بأنها حال مؤكدة أو على المدح ويكون مندرجًا في الشهودية إذا جعلَ صفة للنفي أو حالًا أو مدحًا وقرأ القائم بالقسط بدلًا من هو أي خبر المحذوف.

قال الإمام في تفسيره الكبير: إن العدل والقسط جاء في أحوال الدّنيا والآخرة أما الدّنيا فانظر في كيفية خلقه أعضاء الإنسانِ لتعرف عدله فيها ثم فانظر إلى اختلاف أحوال الخلق في الحسن والقبح والغنا والفقر والصّحة والسّقم وطول العمر وقصره واللّذة والألم والكل من عدل وحكم مصالِح ثم انظر إلى العناصر وأجرام الأفلاك وتقدير منها بقدر معين وخاصية وتأثير، وانظر أيضًا إلى أحوال الخلق من العلم والجهل والفطانة والبلادة والهداية والضلالة والظلم والعدالة والكل عدل من الله تعالى، ولقد خاض صاحب الكشاف هاهنا في العصبية للاعتزال فزعم أن الآية دال على أن الإسلام هو العدل والتوحيد، وكانَ ذلك المسكين بعيدًا عن معرفة هذه الأشياء إلا أنّه فضول كثير الخواص فيما لا يعرف وزعم أن الآيةَ دالّة على أخبار الرواية أو ذهب إلى الخير لم يكن على الدين الّذي

هو الإسلام والعجب إن أكابرَ الاعتزال وعظمائه قد أفنوا أعمارهم في طلب الدّليل على نفي الرؤية مستدلين بأن اللَّهَ لو كان مرئيًّا لكانَ جسمًا وما وجدوا فيه سوى الرجوع إلى قياسِ الغائب على الشاهد من غير جامع عقلي قطعي وهذا المسكين ما شمَّ رائحة العلم بالحق اليقين من وجود ذلك وأما حديث الجبر فالخوض فيه من ذلك المسكين خوض فيما لا يعنيه لأنه لما عرف بأن الله تعالى عالم بجميع الجزئيات واعترف أيضًا بأن هذا العبد لا يمكنه أن يقلب علم إلى الله جهلًا فقد اعترف بهذا الجبر فمن أين هو والخوض في هذا وأمثاله ثم كلام تفسير الكبير في العلم والعلماء.

قال المفسرون: إنما قرن الله سبحانه وتعالى شهادة العلماء بشهادته لأن العلمَ صفة اللَّهِ العليا ونعمته العظمى والعلماء أعلام الإسلام والسابقون إلى دار السلام وسرج الأزمنة وحج الأمكنة.

قال عليه السلام: ساعة من عالم يبكي على فراشه ينظر في علمه خير من عبادة العابد سبعين عامًا وقالَ أيضًا عليه السلام: «**تعلموا العِلمَ لأن تعلَّمه حسنة ومدارسته تسبيح والبحث عنه جهاد وتعليمه من لا يعلم صدقة وتذكيره لأهله قربة**»، لأن معالم الحلال والحرام ومنازل سبيل الجنة والنار والأنيس في الوحشة والصاحب في الغربة والمحدث في الخلوة والدليل على السراء والضراء والصلاح على الأعداء والقرب عند الغرباءِ يرفع الله به أقوامًا ليجعلهم في الخير قادة يقتدى بهم وبفيض آثارهم ويقتدى بأفعالهم وينتهي إلى رأيهم وترغب الملائكة في خلقهم وبأجنحتها تمسحهم وفي صلاتهم يستغفر لهم وكل رطب ويابس يستغفر لهم حتى حيتان البحر وهوامِها وسباع الأرض وأنعامها والسماء ونجومها ألا وإن العلمَ حياة القلب عن العمى ونور الأبصار من الظلم وقوة الأبدان من الضعف يبلغ بالعبد منازل الأحرارِ ومجلس الملوك والفكر فيه يعدل بالصيام ومدارسته بالقيام بالعلم وبه يعرف الحلال والحرام ويوصل الأرحام إمام العمل والعقل تابعه يلجئ به السعداء ويحرم الأشقياء ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ كرر الشهادة لأن الأول محل الدعوى والثانية محل الحكم.

قال جعفر الصادق رضي الله عنه: الأولى وصف التوحيد والثانية رسم

وتعليم أي قولوا لا إلٰه إلا الله بعد العزيز الحكيم وكرروها فإنه أشرف الذكر قال عليه السلام: «**أفضل الذكر لا إلٰه إلا هو العزيز الحكيم**»، فالعزيز ينبئ عن كمال القدرة والحكيم عن كمال العلم وهما مدار الألوهية ومنازل الربوبية ومثار العدالة وإنَّما قدم العزيز لدلالته على توحيد الذات والحكيم على توحيد الصفات ولأن العلم يكون قادرًا مقدم على العلم بكونه عالمًا في طريق الاستدلال على طريقة البرهانِ الآني المورد في التعاليم وهو طريق أهل الحق ورفعها على البدلية من هو أو على كونها صفتين لا تدل على ضعف.

قال بعض المفسرين: قدم حبران من أحبار الشام على رسولِ الله ﷺ فلما انصرفا لِلمدينة قالا: هذه بعينيها هي مدينة النبي الذي يخرج في آخر الزمان فلما دخلا على النبي ﷺ عرفاه بالنعت والصفة فقالا: أنتَ محمد وأحمد. قال: نعم قالا: إن أخبرتنا عن أعظم الشهادة في كتاب اللّهِ تعالى آمنا بك فأنزل الله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عِمرَان: 18] الآية فأسلمَا.

قال سعيد بن جبير: كانَ حولَ الكعبة ثلاثمائة وستونَ صنمًا فلما نزلت هذه الآية خرت سُجدًا.

قالَ عليه السلام: «**من قرأ هذه الآية خلق الله تعالى منها سبعينَ ألف خلق يستغفرونَ له إلى يوم القيامة**»، وقال عليه السلام: «**تجيء هذه الآية بصاحبها يوم القيامة فيقول الله تعالى: إن لعبدي هذا عندي عهدًا وأنا أحق من وفى بالعهد أدخلوا عبدي الجنة الحديث فحريٌ بمن يستمع هذه الآية أن يقولَ وأنا أشهدُ بما شهِدَ اللّٰهُ به وأستودعُ اللّٰهَ هذه الشهادةِ وهي عندَ الله وديعة حتى يؤتى بها يوم القيامة**».

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عِمرَان: 19] قرأ بكسر الألف وفتحها فعلى

الأول جملة مستأنفة مؤكدة للأولى أي لا دين مرضي عند الله إلا الإسلام وهو التوحيد والتذرع بالشرع الّذي جاء به محمد، وعلى الثاني بدل الكلّ إن فسر الإسلام بالإيمان والتوحيد أو بما تضمنه وبدل الاشتمالِ فسر بالشريعة.

قال الإمام: الإسلام في الشرع: هو الإيمان والدليل عليه أن الدين عند اللَّهِ الإسلام لأنه يقتضي أن يكون الدين المقبول هو الإسلام فلو كان الإيمان غير الإسلام وجب أن لا يكون الإيمان مقبولًا عند الله ومن يتبع غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه هذا كلام وفيه ما فيه، والظاهر أن الإيمان هو الإذعان والتصديق القلبي يغاير الإسلام الذي هو الانقياد في الظاهر كما يشعر به الآيات الدالة على تغاير العمل بالإيمان أن الذينَ آمنوا وعملوا الصالحات وغير ذلك وما ورد في الحديث في سؤال جبرائيل عليه السلام عن النبي ﷺ ما الإيمان وما الإسلام ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ المراد منهم اليهود والنصارى.

وفيه أقوال: أن موسى عليه السلام لما حان وقرب موته سلم التوراة إلى سبعين حبر وجعلهم أمناء عليها واستخلف عليهم يوشع بن نون فلما مضى ثلاث قرون وقع الاختلاف والفرقة بين أبناء هذه الأحبار من بعدَ ما جاءهم العلم التوراة بغيًا بينهم، الثاني حينَ أهرقوا بينهم الدماء ووقع الشرّ والفتنة العظيمة، المراد النصارى حيث اختلفوا في أمر عيسى عليه السلام بأنه عبد الله ورسوله أو الإلٰه وابن الله الثالث، واليهود والنصارى في أن اليهود قالوا: عزير ابن الله وقالت النصارى: للمسيح ابن الله وأنكروا الكل من بعد ما جاءهم العلم في التوراة والإنجيل بنبوة محمّد عليه السلام وبأن عزير أو عيسى عبد الله ورسوله بغيًا وحسدًا من أن الأحقاء بالنبوة من قريش لأنهم أميون ونحن عالِمونَ بالكتاب وأمر النبوة وأحكام النواميس الإلٰهية ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آل عمران: 19].

إشارة وتأويل

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي النفس اللّوامة والملهمة كعادة النفس الأمارة في

تكذيب ما عند الله من التجليات والعلوم اللّدنية والمعارف الفطرية والأسرار الربوبية واستهلاكهم في بحر نير عالم الطبيعة ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من أهل الطّور القالبي فلما تجلى ربه إلى الجبل جعله دكًّا وخرّ موسى صعقًا ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي العلوم اللّدنية والمعارف الإلٰهية ولذا أدب وأمر بإدراك صاحب الجمعية الكبرى أعني خضر وموسى عليهما السلام ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [آل عمران: 11] أي الذات الجامعة للجميع ومجمع الكل في بحر قهرمان الأحدية.

﴿قُل﴾ يا أيتها الحقيقة المحمدية ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من القوى البدنية والمبادىء النفسانية والقوة النظرية والعملية والأطوار القالبية والنفسية والقلبية وغيرها وكفروا بالتجلي الذاتي ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ عند ظهور سطوة شعشعة شمس أحدية الجمعية ويستهلكون عن خصوصيات آنياتهم وتعينات هوياتهم ﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ [آل عمران: 12] أي نار الندامة والتحسر عند اطلاعهم بإمكان وصولهم إلى المرتبة الجمعية والمرتبة الكلية.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ﴾ الخطاب لِلمؤمنين المستكملين للمراتب كلها بالغين إلى البرزخية الكبرى والجمعية العظمى آيةً واضحة فيهما شاملة لهما وهي التجلي ﴿فِئَةٌ﴾ مؤمنة وهي باطن النفس العاملة ﴿تُقَاتِلُ﴾ أي القوة العملية التي يستخدمها النفس الناطقة ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 13] أي السير في اللّٰهِ النفس الأمارة واللّوامة والملهمة التي تستخدم القوة النظرية العاقلة في مطالبها إلى أن طاعت وانصرفت بجميع قواها إلى طاعة اللّٰهِ واطمأنت فيها، وفئة أخرى وهي النفس الأمارة بتوابعها كافرة سائرة لإنابة الباهرة وهي التجلي الذاتي، يرونهم أي الكافرة ترى الفئة المؤمنة مثليهم لكون القوّة العملية والنظرية العقلية مطيعة لهم، والمراد منهما السائرون إلى الله ومن الله والسائرون في الله، فإنَّ السائرونَ إلى الله كافرون بصفات الله وأسمائه لسترهم لها وتجريد قلوبهم عن ملاحظتها وتفريد سرهم وفؤادهم عن مشاهدة آثارها ومعاينة أنوارها، والسائرون من اللّٰهِ كافرونَ سائرونَ لها لوقوع نظرهم على الأسماءِ والأفعال والآثار والكثرات على السائرين إلى اللّٰهِ، والسائرونَ في اللّٰهِ هم الجامعونَ لهما المؤمنونَ بهما المطيعون لأحكامها، ولهذا ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: 13]

والله يؤيد بنصره من يشاء من خواص عباده الّذين ألبسهم أنوار هيبته وأسرار غيب هويته الكلية الجامعة.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ يعني أن اللّهَ عز وعلا ركز في طبيعة الإنسانِ من حيث إنَّه ممكن محبة الكثرات وأحكامهما لمجانسة الإمكانية من النساء بيان الأنواع الكثيرة وإشارة إلى أن الكثرة إنما نشأت من جانب القابل ولازمتها الوحدة للفاعل، فإن المرتبة الفاعلية متقدمة على الرتبة القابلية تقدم الوحدة على الكثرة لأنها مقصودة بالغير والفاعل مقصود بالذات، ومن البين أن الفاعلَ لا يكون إلا موجودًا بل وجود الامتناع والتعدد في تلك المرتبة حقيقيًّا كان أو اعتباريًّا، وكذا القابل لا يكون إلا موجودًا إذ الوجود واحد حقيقي، فعلى هذا الفاعل والقابل لا يكونان إلا الوجود المطلق باعتبارين متغايرين، وإذا أثبت الفاعل والقابل لا بدّ وأن يثبت الأثر وهو لا يكون إلا مجرد نسبة الفاعل إلى القابل أي نسبة الوجود المطلق إلى نفسه، وهذه النسبة مبدأ النسب التي لا تتناهى من الممكنات وصور الكثرات.

﴿وَٱلْبَنِينَ﴾ أي الظاهر من الفاعل والقابل أولًا في المرتبة الواحدية والعلمية من الماهيات، ثم في المرتبة العينية أولًا في الملكوت من الأعيان الروحية، ثم في عالم البرزخ من الأشباح البرزخية والمثل النجية، ثم في عالم الملك والشهادة وهي الأجرام السماوية والأجسام العنصرية من البسائط والأعلام المركبة من المواليد الثلاثة إلى عالم الإنسان وما تولد منه كائنًا ما كانَ إلا أن في العرف العام اختص اسم الولد والتوليد والتولد بما ظهر من العناصر الأربعة.

﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ [آل عمران: 14] أي العلوم الشهودية الحضورية والإدراكات الحصولية أو المعارف الفطرية الضرورية والعلوم النظرية أو الحاصلة من القوة النظرية من الإدراكات، ومن القوة العملية من الأخلاق المرضية والأوصاف الرضية ﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ من الطاعات النفسانية المقبولةِ ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ من العبادات البدنية ﴿وَٱلْحَرْثِ﴾ مما حصل منهما ويترتب عليهما من الأحوال والمعادن ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الشاغلة عن الحق والمرتبة الجمعية. قالَ النبي ﷺ: «**كل ما شغلك عن ربك فهو دنياك**»،

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: 14] بالترجيع إليه وترفيع الآيات لديه قل أؤنبئكم بخير من ذلك.

قال الصادق عليه السلام: «الجنة جنتان جنة الأبدان وجنة الأديان»، فإن جنة الأبدان بنعيمها ما هو مذكور في الآخرة لمن هو مذكور مثل المتقين والمستغفرين وجنة الأديان رضا المولى وفي رضاه مناه وفي مناه لقائه ورؤيته.

واعلم أن الجنات كالتجليات أربعة: جنة الذات وجنة الصفات وجنة الأفعال وجنة الآثار، فالأولى: للذين اتقوا مما سوى الله من الوجود الإضافي وما يتبعه، والثانية: للتائبين من الصفات والثالثة: لمن أفنى أفعاله في أفعال الحق والرّابعة لمن فني عن هوية الحسية وآنية الجسمية والله بصير بالعبادِ بأحوالهم الدّنياوية والأخروية مما ذكرت أو لم يذكر بل أمر إلهي وحال رباني لا يمكن ذكره «أعددت لعبادي الصّالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر».

﴿ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ في المرتبة الأولى على مجاهدة النفس وقواها في المرتبة الثانية على الأعراض عن الأعراض من الأخلاق الحميدة والملكات الفاضلة وباقي الأعراض وفي المرتبة الثالثة على الانصراف عن التجليات الآثارية إلى الأفعالية ومنها إلى الأسمائية ثم على الانعطاف عن الروحانيات ولوازمها وهكذا إلى أن يفنى عن جميع ما سوى الحق ﴿وَٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ في التجليات الفؤادية ما كذب الفؤاد ما رأى من التجليات الآثارية في طور السرّ ﴿وَٱلۡقَـٰنِتِينَ﴾ المطيعينَ بأرواحهم للتجليات الإفعالية.

﴿وَٱلۡمُنفِقِينَ﴾ البازلين جميع صفاتهم العقلية عندَ شهود التجليات الأسمائية ﴿وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ﴾ المتبرّين عن جميع ما كانَ له في الحضرة العملية للأعيان الثابتة عن الشهود الذاتي ﴿بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾ عند الأحدية الجمعية التي هي برزخ بين ظلمة لليل الأحدية وضياء الفجر الواحدية فعلى هذا يكون الصبر من الله باللَّهِ وباللَّهِ لِلَّه ولله في الله مع اللَّهِ، الصادقين في تمام هذه الأحوال به.

﴿وَٱلۡمُنفِقِينَ﴾ إشارة إلى الإشارة والتكميل وفي العرائس: المنفقين نفوسهم لله وباللَّهِ والمستغفرين من التفاتهم إلى عين اللَّهِ ﴿بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾ [آل عمران: 17] حين أشرقت أنوار المشاهدة لأهل المكاشفة وأيضًا الصابرين عن الله باللَّهِ الصادقين

في دعوى محبة اللّهِ بنعت كشفِ مشاهدتِهِ القانتين بشرط الإخلاص في عبوديته والمنفقين حقوقهم في رضاء اللّهِ والمستغفرينَ عن الخطراتِ في أوقات المناجاة.

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ وأقر على وحدانيته ذاتًا وصفةً أي والشأن والحال ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ولا موجودَ في تمام المراتب وكل المآرب إلا هو أي ذاته في العوالم الخمسة والمراتب الستة وهو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم، ثم أشهدَ الخلق على ذاته ونفسه وأسمائه وصفاته وربوبيته في الأول ونشأته في الأزل وفي سائر المراتب على أنفسهم.

قال الصادق رضي الله عنه: شهادة الله حق وشهادتنا رسم فكيف يستوي الرسم مع الحق، ولكن ينبغي لنا أن يجاوز ثلاثة خوف عمل في البداية وخوف مدة في العاقبة والآن خوف قسط وعدل هذا كلام من الأهل الظاهر لا بدّ له من التفصيل يعني أن العبدَ ما دام في مقام الرسم فشهادته وإن كانَ بتعليمه وإرشاده لنَا وأما إذا أفني عن الرسم والصفة والذّات والاسم والنعت وبلغ في مقام فبي يسمع وبي يبصر وبي ينطق فيكون شهادته أيضًا بطريق الحق نعم في الشهادةِ إنما هي لله من الله لا من العبد فشهادة العبد قالي وحالي والكل من الله.

وقال الصادق رضي الله عنه: قال في تأويله ثلاثة قالَ عمرو رضي الله عنه: شهد الله أي بين شهادته في عرش سابق علمِهِ وقدرته ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [آل عمران: 18] شهادته فأقروا به ثم أضافَ إلى أولي العلم وهو أهل ولايته وأطعمهم طعام عبوديته حتى صاروا عالمين وشهدوا بوحدانية ملكهم بآية الإبقاء للعز والحكم ألا بعز لله وحكمه. قالَ عثمان رضي الله عنه: من كان عبدًا فلا بدّ له من سيد والسيد جعل نفسه دليلًا لعباده حتى يمشونَ على أثر شهادته ويجدونه على بساط عزه ويشهدون بشهادته على بساط علومه.

قال علي كرم الله وجهه: أشهد لله حجته الخالقة متى استقر الخلق شهادته والحكم في هذه الشهادة هو أن اللّهَ أقام الشاهدينَ بهذه الشهادات فمن وافق بشهادته بإقامته فهو في الدنيا من أولي العلم من أهل ولايته وفي الآخرة من المقربين وفي القرب آمنين واصلين إليه.

قال تاج الأمة: الشهادة دار اللَّهِ ولا يدخل فيها أحد للأيام والقدر ومن دخل فيها فعليه بثلاثة أشياء أن يرى عزه بعزّ ربّه ويحكم بحكمه وأن يستقيم على خلوة علمه فحديث كانت شهادته على وفاق شهادة اللَّهِ قال الباقر رضي الله عنه: إنّ اللَّهَ تعالى ابتلانا بشهادته كي يكون لَنا دليلًا على شهادته لأن شهادتنا منقولة عن شهادته، وكذا صفتنا وعلمنا من علمه وصفاته، وأمّا شهادته منقولة من ربوبيته وصفاته وهي عين وحدته ووحدانيته، فمن انتقل على شهادة ربه نزّلَ عندَ شهادته على بساط حكمه ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: 18].

واعلم أن الشهادةِ هي الربوبية والشهود وأن اللَّهَ واحد حقيقي لا يشاركه أحد في أمر ولا ينازعه فرد في شيء فلا تدَّعى ولا تدعى عليه ولا القاضي إلا هو فلا يشهد له ولا عليه إلا هو لما شاءَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ أن يظهر بمشيئته الذّاتية ما كان في ضمن شهوده الذاتي من الأسرار والأحكام بملابس الأنوار والظلام أظهر حقيقة محمّد وروحِهِ بالتجلي الذاتي والشهود العيني وخلق من الملائِكة العليا والملأ الأعلى وسائر الخلق فنصب روحه في ديوان قضائه ومحكمة قدرته نائبًا وخليفةً منه وانتهى إليه ما كانَ عنده من الشهادة والأحكام فبناء روحه الخلق عن ذلك المنهي وأجرى عليهم أحكام النبوة الذاتية فسمعوا تلك الشهادة ورأوا مشهوديته ووحدانيته وربوبيته وشهدوا بما شهد الله وقبلوا تلك الأحكام ثم نزلوا من هذه المرتبة إلى المرتبة الأدنى عالم الأمر، وهكذا إلى عالم الناسوت، وفي كل مرتبة أخذ الله ميثاقهم على هذه الشهادة.

وإنما قدم الملائكة لأن اللَّهَ أمر بهذه الشهادة لا يمكن إلا في عالم الناسوت ورتبهم متقدمةً على هذه المرتبة وقيدهم بالعلم دون الملائكةِ لكونهم كاملينَ في مراتب الشهود والمشاهدة أن الملأ الأعلى ليطلبوا به كما تطلبونه أنتم لحديث: «**العلماء ثلاثة: عالم بأمر الله وأحكامه فهم علماء الشريعة، وعالم بصفاته ونعوته فهم علماء السنة والطريقة والجماعة، وعالم به وبأسمائه وأفعاله فهم العلماء الربانيين والراسخون في العلم**»، والرسوخ في العلم إنما يكون إذا انتقل العلم بالعين والشهود والعين بالتحقيق فمن لم يقرّ بهذه لم تقبل شهادته.

﴿قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ مدار الربوبية على أربعة أشياء: على الإقرار والعلم والقسط

والحكمة، فلا يجد المولى إلا بحكم الإقرار في مدائن البلوى ولا يلتذ بالعلم إلا من وافق المولى على بساطِ المحق والبلوى، ولا يكون عادلًا في عبوديته إلا أن يعمل على رضائه ويختار رضاءَهُ على رضاءِ نفسه، والإقرار لا يكونَ إقرارًا صادقًا حتى يكون على وفق إقرار اللّهِ والحكمة في إقرار اللّهِ حيث قالَ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: 18] أي لم يكن رب غيره ولا مالك إلاّ هو ولو كانَ سواه رب لكان نورَ المصطفى ونفي الألوهية عن حبيبه فعن غيره بطريق الأولى، فحينئذ شهد الله والملائكةُ وأولوا العلم روح النبي ﷺ بأنه لا إلٰه إلا هو في الأدنى والأخرى، له الحكم وهو العزيز الحكيم، يرجع الأمر كله إليه القاهر الغالب الذات الذي يمنع المشاركة فيه، الحكيم الذي منعَ الشركةَ في الصفات، أو الذي حكم بحقيقة الشهادةِ لنفسه ولا بالذات ولغيره من الممكنات بطريق الرسم المجازي.

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: 19] أي الطريق النجاتي ووسيلة الدرجات وذريعة الوصول إلى الجناتِ السلامة عن الشركة في الوجود وما يتبعه والرضاء بمواد الحق وإمضاء فناء قضائه بإفناء رضائه في رضائه باستقامة السّرّ في الباطِن وقلّة الاضطراب في الظاهر ووجدان لذة المحبة وقت نزول البلاء والمحنة قبل التدين في الإسلام هو السلامة من رؤية الخلق، فحينئذ سلم قلبه من شهوات نفسه وعينه، وسره من خطرات قلبه، وروحه من لحظات سره، وحقه من أوصاف روحه، فهو في حال الاستقامة ومقام الاستسلام.

وقال بعضهم: أركان الإسلام أربعة، التواضع والألفة وكظم الغيظ والصبر، فإذا تمت هذه الأربعة وجدت منها أربعة أخرى، التواضع من التوكل ومنه الألفة والتسليم، ومن كظم الغيظ التفويض، ومن الصبر الرضاء، فإذا استكمل هذه الصفات دخل الجنة من أبوابها الثمانية وإن شئت قلتَ: التجليات الأربعة التي هي حقيقة الجنات ظاهرة وباطنة وهي ثمانية.

قالَ الصادق رضي الله عنه: إذا لم يكن إسلام العبد على معرفة الصحة من الله والتوكل عليه والتسليم لديه والتفويض إليه فهو على اسم الإسلام لا على حقيقته.

﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أي القوى النظرية اليهودية والعملية النصرانية أعطى للأولى التجلي الآثاري، وللثانية التجلي الأفعالي، وأصلها التجلي الذاتي الذي كانَ الناس فيه أمةً واحدةً، فما لم يحصل المتعلق بالأطوار اليهودية والنصرانية كانت التجليات وأحوال الممكنات كلها في التجلي الذاتي على بعث الوحدة، فإذا نزلت عن مجده الوحدة بقيت بظهور الأحوال المتغايرة على منحها ﴿بَغْيًۢا﴾ اختلفت التجليات وتعاونت الكائنات فمرت العلوم وانفردت الأوهام والفهوم، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين فاختلفوا ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وتجلياته ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آل عمران: 19] لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً في التنزلات من أحكام النشأة وأحوال الشؤونات إلى أن بلغ كل أحد إلى مقامِه المعلوم وهو أحدية الجمعية وواحدية الأولية.

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: 20] أي فإن خاصموكَ يا محمد وجادلوك في الدين بعدَ إقامة الحجة عليهم على حقيقة دينك فقل أسلمت وأخلصت نفسي لله، وإنما عبر عنها بالوجه لكونه مجمع المشاعر فإذا خضع لشيء فقد خضع له جميع الجوارح أي قل للقوم إنكم تقرون بالصانع وكونه مستحقًّا للعبادة وهذا القدر متفق عليه لا حاجةَ لنا في إتيانِه إلى دليل وأنتم لو تدعونَ وراء ذلك أمرًا فعليكم البيان وعليه إقامة البرهان، والبعض استدلوا بأن اليهودَ والنصارى والمشركون كانوا مقرين بحقية دين إبراهيم وصدق ملته غير زيادة الشرائع والأحكام فأمر الله محمدًا أن يتبع ملّته ويقول ما يقول ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: 79] هذه مجادلة حسنة إلزامية داخلة تحتَ ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125].

﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾ عطف على فاعل أسلمت للفصل أو مفعول معه ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي اليهود والنصارى ﴿وَٱلْأُمِّيِّۦنَ﴾ الذين لا يقرؤون الكتابَ ولا يعملون به

كمشركي العرب ﴿ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ﴾ [آل عِمرَان: 20] كما أسلمت بعدَ إقامة الحجة أم اعتكفتم على ما عرفتم به من الشرك ﴿فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ﴾ كما أسلمنا وعليه آباؤنا ﴿فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ﴾ من الباطل إلى الحق وفازوا فوزًا ونزلوا مقامًا كريمًا ﴿وَّإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ وأعرضوا عن الحق فما عليك منهم من شيء ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ [آل عِمرَان: 20] وتبليغ الرسالة وإيصال الدعوة وإرسال الهداية ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [آل عِمرَان: 20] وهدايتهم وضلالتهم وسعادتهم وشقاوتهم ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [القصص: 56].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وهم اليهود والنصارى ﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ والعدل في الأمور وينهى عما خرج عن مطرح الاعتدال ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 21] المؤمنين التابعين لهم وهم يهود خاصةً لاشتهارهم بقتل الأنبياء دون النصارى لأنهم ما كان في زمانهم نبي سوى عيسى وخالد وهم أتوا بعيسى وأما خالد فقال أضاعه قومه كما قالَ النبي ﷺ لبنته حين جاءته: «**مرحبًا ببنت نبيٍّ قد أضاعه قومه**».

قال النّبي ﷺ: «**قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيًّا من أول النّهار في ساعة واحدة فقام أمة واثنا عشر رجلًا من عباد بني إسرائيل فأمروا من قتلهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوا جميعًا من آخر النهار في ذلك اليوم فهم الذين ذكرهم الله عزّوجلّ في كتابه**».

سُئِلَ النبي ﷺ: أي قوم أشد عذابًا يوم القيامة؟ قال: «**رجل قتل نبيًّا أو رجل أمر بالمنكر ونهى عن المعروف**»، قالَ أيضًا: «**بئس القوم قوم يقتلون الَّذين يأمرونَ بالقسط من الناس، بئسَ القوم قوم لا يأمرون بالمعروف ولا ينهونَ عن المنكر، بئس القوم قوم عيسى بينهم يمشي بالتّقية والكتمان**».

فإن قلتَ: كيف يكفر اليهود والنصارى وهم أهل الكتاب بالآيات فالجواب المراد بها إنما هي القرآن أو التي نزلت في التوراة والإنجيل في نعت محمد ﷺ

المؤمنين. وفي (يقتلون ويكفرون) إشعار بأن هذا الأمر أمر مستمر بينهم لا يختص بوقت فإنهم بعدَ ذلك قتلوا زكريا ويحيى وعيسى وهموا بقتل محمّد والمؤمنين. قالَ الحسن رضي الله عنه: إن هذه الآية تدل أن القائم بالأمر والنهي عند الخوف نزلَ منزلة الأنبياء. قالَ عليه السلام: «**أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطانٍ جائر**» ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عِمرَان: 21] وجيع أو موجع خبر إن بتأويل والفاء لتضمن الَّذينَ معنى الشرط كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ [البروج: 10].

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (22)﴾

﴿أُولَئِكَ﴾ المذكورون من اليهود والنصارى ﴿الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي بطلت وذهبت أصل من الحبط وهو أن يرعى الماشية راعيًا رديًّا يهلكها ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: 22] يدفع العذاب فيهما عنهم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (23)﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا﴾ كثيرًا أو قليلًا حقيرًا من علم الكتاب والفهم ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي التوراة إن كانَ المراد اليهود أو جنس الكتاب السّماوي إن كان المراد العام فـ﴿مِنَ﴾ إما للتبعيض أو البيان ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: 23] أي القرآن الداعي هو المحمد سبب النزول. روي أن رجلًا وامرأةً من اليهود زنيا وكانا ذا شرف وكان في كتابهم الرجم فكرهوا رجمهما فرجعوا إلى النّبي رجاء أن يكون عنده رخصة في ترك الرجم فحكم الرسول ﷺ بالرجم فأنكروا ذلك فقالَ: بيني وبينكم والتوراة فإن فيها الرجم فمن أعلمكم؟ قالوا: ابن صور الفدكي فأتوا به فأحضروه التوراة فلمّا أتى على آيةِ الرجم وضع يده عليها فقال ابن سلام: قد جاوز موضعها يا رسولَ الله فرفعَ يده عنها فوجدوا آية

الرجم فأمر النبي ﷺ فرجما فغضب اليهود غضبًا شديدًا فأنزلَ الله الآية وفيه دليل على أن الأدلة السّمعية حجة في الأصول والفروع.

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ بعد علمهم به فيه استبعاد لتوليهم لعلمهم ﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [آل عمران: 23] أي فريق من الرؤساء والمعرضونَ هم الباقونَ منهم ويجوز أن يكون فريق معرضينَ.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ القول والإعراض ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾ [آل عمران: 24] أي سبب قولهم ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ﴾ [البقرة: 80] في الآخرة وبتسهيلهم عذابها لأنه لا يكون ﴿إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ قد مرَّ تعيين عددها في سورة البقرة استدلَّ على بطلان هذا القول بأنه لو صح ذلك في هذه الآية مع تمرنهم في أعظم المعاصي يصح في سائر الأمم مع تشمرهم عن إشراكها الخارق ولما استحقوا الذّم، فلما ذكر اللَّهَ ذلك في معرض الذم علم أنَّ القول بخروج أهل النار منها قول باطل ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ عَلَى اللَّهِ وَعَلى أنفسهم بقول: نحن أبناء الله وأحبّاؤه أو قولهم لن تَمَسَّنا النارُ إلا أيامًا معدودات وإن آباهم الأنبياء يشفعونَ لهم وإنه تعالى وعدَ يعقوب عليه السلام أن لا يعذب أولاده إلا تحلة القسم وقيلَ قولهم نحن على الحق وأنتم باطلون، ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [آل عِمرَان: 24] فاعل غرهم افتراؤهم ومفتراهم.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿فَكَيْفَ﴾ حالهم وكيفية مآلهم وراءهم ﴿إِذَا جَمَعْنَاهُمْ﴾ [آل عِمرَان: 25] وحشرناهم ﴿لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عِمرَان: 9] أي يتصل جزاؤهم في يوم الأمر به في وقوعه استعظام لما يحيق بهم في الآخرة وتكذيب لقولهم روي أن أولَ رايةٍ ترفع يومَ القيامة من رايات الكفار راية اليهود فيفضحهم بهم الله على رؤوس الأشهاد ثم يأمر بهم إلى النار والفرق بين ليوم وفي يوم أن الأولَ يتضمن الفعلَ

دونَ الثاني تقرر أن كثرة الحروف تدل على كثرة المعنى ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ أي أعطيت جزاء ما كسبت أو جزاء كسبها دليل على أنَّ العبادةَ لا تحبط وأنَّ المؤمن لا يخلد في النار لانتفاء توفية إيمانه وعمله في النّار ولا قبلَ دخولِها فإذا هيَ بعدَ الخلاص منها، وأهل الاعتزال يستدلون بهذه الآية على خلود أهلِ الكبيرة في النارِ بأن من ارتكب الكبيرة يستحق بها العذاب والخلود به والإيمان يحبط بالكبيرة لقوله عليه السلام: «**لا يزني الزاني حيث زنى وهو مؤمن**».

وأجيب: بأن الإيمانَ لا يسقط بالكل بشيء لأنه فطري كل أحد على فطرة الله التي فطر الناسَ عليها لا تبديلَ لخلق الله.

قالَ يحيى بن معاذ: إيمان ساعة يسقط كفر ستين سنةٍ فكيف ثواب إيمان ستين وإنَّ كل مولود يولد على فطرة الإسلام فأبواه يهودانه ويمجسانه وينصرانه ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 25] أي لا ينقص من حسناتهم ولا يزاد على سيئاتهم وجمع الضمير على معنى أي كل إنسان.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عِمرَان: 26] الميم عوض عن الـ(ياء) ولذلك لا يجتمعانِ وهو من خصائص هذا الاسم كدخول الياء عليه مع لام التعريف وقطع همزته وتاء القسم وقيلَ: يا الله آمنا بالخير بحذف النداء ومتعلقات الفعل كهمزته مالك الملك يتصرف فيما يمكن التصرف فيه تصرف الملاك فيما يملكون وهو نداء ثانٍ عند سيبويه فإن الميمَ يمنع الوصفية ﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ﴾ أي تستردّه وتستزيله ﴿مِمَّن تَشَآءُ﴾ فالأول علم والآخران بعضان منه وقيلَ: المراد بالملك النبوة فانتزاعها نقلها من قوم إلى قوم ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾ وتُعليه وتجعله غالبًا على من يشاء ومستوليًا ﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ وتحقره في الدنيا والآخرة ويجوز فيهما معًا ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عِمرَان: 26].

سبب النزول أن النّبي ﷺ خطَّ الخندق عام الأحزاب ثم قطع لكل عشرة أربعين ذراعًا وكان سلمان رجلًا قويًا فقالَ المهاجرون: سلمان منّا وقال الأنصار:

سلمان منّا فقالَ رسول الله ﷺ: «**سلمانُ منّا أهل البيت**»، فإذا أخذوا في الحفر ظهرت صخرة كسرت حديدهم فقالوا: يا سلمان اِرْقَ إلى رسول الله ﷺ، فرقى وأخبر رسولَ الله ﷺ عنها فهبط عليه السلام مع سلمان إلى الخندق فأخذ المعول من سلمان فضربها ضربة صدعها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها يعني المدينة كمصباح في بيت مظلم فكبّر رسول الله ﷺ تكبير فتح وكبر المسلمون ثم ضربها ضربةً ثانيًا وثالثًا وكبّرها وبرق منها برق فأخذ بيد سلمان ورقى فقالَ سلمانُ: رأيتُ من رسول الله ﷺ سناءً ما رأيتُ قط مثله فقالَ رسول الله ﷺ للقوم: أرأيتم ما يقول سلمان؟ قالوا: نعم قالَ: ضربتُ الأولى فرأيتُ بضيائها قصورَ الحيرة ومدائن كِسرى فأخبرني جبرائيل عليه السلام أن أمتي ظاهرة عليها ثم ضربت الثانية فبرق الذي رأيتم أضاءت إلى قصور الحمر من أرض الروم فأخبرني جبرائيل عليه السلام أن أمتي ظاهرة عليها ثم في الضرب الثالث أضاء إلى قصور صنعاء فأخبر جبرائيل أنهم ظاهرة عليها فأبشروا أو استبشروا قالوا: الحمد للَّهِ موعدَ صدق وعدنا الله النصرَ بعد الحصر فقال المنافقون: ولا تعجبوا أن يمسكم ويعدكم الباطل فنزلَ ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب: 12] وأنزلَ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ الآية.

قالَ أبو رجاء العطاردي: هذه الميم الّتي في قوله اللّهم يجمع سبعين اسمًا من أسمائه مالك الملك قالَ الله تعالى في بعض الكتب: أنا الله ملك الملوك ومالك الملك وقلوب الملوك ونواصيهم بيدي فإن العبادَ إن أطاعوني جعلتهم عليهم رحمةً أعطفهم عليكم، وإن عصوني جعلتهم عليهم عقوبةً فلا تشتغلوا بسبِّ الملوك.

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قالَ رسول الله ﷺ: لما أراد اللَّهُ أن ينزلَ فاتحةَ الكتاب، وآية الكرسي، وشهد الله، وقل اللهم إلى بغير الحسابِ، تعلقت بالعرش وليس بينهنَّ وبين الله حجاب وقلنَ يا رب تهبطنا إلى دار الذنوب وإلى من يعصيك ونحن معلقات بالطهور والعرش فقالَ الله: «وعزتي وجلالي ما من عبد قرأكن في دبر كل صلاة مكتوبة إلا سكنته حضرة القدس على ما كانَ فيه وإلا نظرت إليه بعيني المكتوبةَ في كل يوم سبعينَ مرةً وإلا قضيت له كلّ يوم سبعين حاجةً أدناها المغفرة وإلا أعذته من كل عدو ونصرته ولا يمنعه دخول الجنة إلا أن يموت».

عن معاذ قال: قالَ رسول الله ﷺ: «**أتحب يا معاذ أن يقضيِ الله دينك؟ قلت: نعم، قالَ عليه السلام: قل اللهم مالك الملك إلى يوم الحساب رحمن الدنيا والآخرة ورحميهما تعطي ما تشاء منهما وتمنع منهما اقض عني ديني فإن كانَ ملأ الأرض ذهبًا فهو مقضي عند الله**».

التفسير

واعلم أن الملك هو المقدور والملك هو القادر يعني أنه تعالى قادر على كل شيء قادر ومقدوره وعلى كل مالك ومملوكه ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ أي النبوة والرسالة وهي أعظم الأملاك ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 54]، والمراد هنا جميعَ ملك النبوة وملك الحكمة وملك العلم والعقل والفعل والصحة والأخلاق الحسنة وملك القدر والعفة والشفاعة والشجاعة وملك العشق والمحبة والمعرفة وملك القلوب وملك الجمال وملك الكمال وملك الأموال وملك الجاه والحكومة وملك الولاية والتخصيص منها بأمر من غير دليل وقرينة لا يجوز.

وعلى الإجمال قسمان: ديني ودنياوي، أما **الأول**: فأشرف أنواعه الإيمان وأحوال القلوب والعلوم اللدنية فللَّه العزة ولرسوله وللمؤمنين وأدناه هو الكفر والجهل، ولما كان لا بدّ له من فاعل وهو إما العبد أو الله الحق والأول باطل إذ نسبته إليهما في كل الأوقات والأحوال على السواء فتخصيص البعض في البعض تخصيص بلا مخصص لا يدل عدم الحصول لعدم الشرط أو الوجود مانع لأنا نقول الكلام فيهما كالكلام فيهما فإذن لا بدّ وأن يحصل من فاعل واجب بالذات مختار وأيضًا أن العقل في نفسه نور لا يناسبه إلا النور ولا يطلب ولا يرضى إلا النور والعلم والمعرفة والإيمان والحكمة والنبوة والولاية إنما هي النور، والكفر والجهل إنما هو الظلمة فلا يناسب النور ولا يلائمه ولا يلازمه أبدًا فإنصاف القلب والفعل بها ليس لذاته بل لأمر آخر عرضي يزول بالآخر، ومنه موجود كامل بذاته لذاته لا يحتاج في كمال إلى غيره، وتمام الكمالات إنما يكون من دينه، والدنياوي وهي ما عداه.

فثبت أن المعطيَ والمانعَ والضارّ والنافعَ والمعزّ والمذلّ والهادي والمضلّ والمبعض، والمكملَ هو الله، ومالك والملك إنما هو هو، والمراد بالخير هو القدرة أي بيدك وإدارتك وقدرتك تحصيل القصة والاقتدار والتقديم للتخصيص ذكر الخير وحده لأنه المقتضي بالذات والشر والعجز مقتضى بالعرض لأنه لا كاملَ بالذاتِ إلا هو والعجز لا يكون إلا بالنسبة إلى الناقص فالبشر الحزين لا يكون ما لم يتضمن خيرًا كلها إذ ظهوره ليسَ إلا لإظهار الخير الكلي وهو القدرة الكاملة هذا يكون مقصودًا بالذات إلا إن ترك القوم لما عجزوا عن صدع الصخرة وعجزوا إلى الرسول كيف ظهر الإخبار منه عن القدرة الكاملة على الاستيلاء على الملائكة فما شيء جزئي من المعاصي وغيره إلا ومن شأنه أن يتضمن خيرًا كثيرًا، أما الكبائر منها توجب الحدّ والندامةَ والاستغفارَ والعجزَ والافتقارَ وهي خير كثير.

قال عليه السلام حكاية عن ربّه: «**أن أنين المذنبين أحب إليّ من زجل المسبِّحينَ**». وقالَ أيضًا عليه السلام: «**لو لم تذنبوا أنتم لخشيت عليكم أشد من الذنب العجب العجب**»، فتدبر وتبصر، أو لمراعاة الأدب في الخطاب.

فإن قيلَ التخصيص بعدَ اختصاصِ الخبر بذات الخبر فلا يكون فاعلًا للشر. أجيب: بأن هذا من باب قصر الصفة على الموصوف لا العكس.

﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢٧﴾

﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ﴾ [آل عِمرَان: 27] الولوج الدخول فيه وجهان: حكمي وشرعي.

أمّا **الأول**: فلأن الله فوضَ تدبيرَ العالم وَنظامه إلى تحريك السماوات والكواكب وتعاقب اللّيل والنهار وبخصوصية حركة الشمس وذلك لأن مدارَ الشمسَ مقاطع للدائرة معدل النهار في موضعين متقابلينَ يقال لأحدهما معدل نقطة الاعتدال الربيعي والآخر نقطة الاعتدال الخريفي فنصف مدار الشمس عن المعدل شمالي والآخر جنوبي فإذا أوصلت الشمس إلى إحدى النقطتين اعتدل الليل والنهار في جميع المعمورة أن مدارها سيكون هو المعدل وهو تقاطع الأفق على

التناصف فيكون قوس نهارها مساويًا لقوس ليلها حسًّا لا حقيقة فإذا جاوزت عن إحدى النقطتين وصارت شمالية أخذ النهار في الازدياد والليل في الانتقاصِ إلى أن بلغت منتصف العقدتين في الشمالِ فهنا النهار في غاية الازدياد ويختلف الازدياد بحسب عروض الأقاليم فأي بلد يكون عرضه أكثر يكون غاية ازدياد النهار فيه أطولَ بالنسبة إلى البلد الذي يكون عرضه أقل وإذا تجاوزت عن تلك النقطة التي يكون النهار عندها في غاية الازدياد أخذ النهار في الانتقاص والليل في الازدياد إلى أن بلغت إلى النقطة الأخرى الخريفية فهنا ساوى الليل والنهار أيضًا وإذا جاوزت الشمس عن هذه النقطة صارت جنوبية أخذ الليل في الازدياد والنهار في الانتقاص إلى أن بلغت الشمس إلى المنتصف الجنوبي، وهنا يكون ازدياد الليل في الغاية فإذا جاوزت عنه أخذ النهار في الازدياد واللّيل في الانتقاص إلى أن بلغت مرة أخرى إلى نقطة الاعتدال الربيعي وهنا اعتدال اللّيل والنهار ومرة أخرى، ولا شكّ أن النهارَ إذا أخذ في الازدياد يكون بعض أجزاء اللّيل مختفيةً داخلةً في أجزاء النهارِ وبالعكس.

وأما الوجه الشرعي فهو على وجهين:

الأول: سبحانه وتعالى جعل اللّيلَ والنهارَ آيتين متعاقبتين دالّتين على وجود الصانع وكمال قدرته وحكمته فإذا ظهر النهار دخلَ الليل واختفى في النهار وإذا ظهر الليل اختفى النهار ودخل في اللّيل لا أنهما ينعدمان على التعاقب إذ الموجود لا ينعدم والمعدوم لا يوجد كاختفاء الشجرة ودخولها في النواة والنواة في الشجرة وكدخول الآخرة في الدنيا والدنيا في الآخرة واختفائها فيها وفي الآخرة يتبدل الحكم وينعكس. وأما قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: 12] أي دلالتها عليهما وفي جعل إضافتها إلى الليل بيانية تكلف على ما لا يخفى.

والثاني: إن اللّهَ تعالى يلبس الدّنيا تارة ظلمةً وأخرى نورًا وضياءً وهذا الوجه لا ينافي الوجه السابقَ كما لا يخفى والوجه الشرعي وإن كانَ أخفى وأدقّ ولأن يتلقى كل فهم بالقبول أولى وأحق مما ذكر الحكماء ومن وجوه **أحدها**: أن ما ذكروه غير مطرد لعدم جريانه في خط الاستواء.

الثاني: إنما يكون في بعض الأوقات كما عرفتَ.

الثالث: أنه لا يكون في كل الأجزاء إلا في حدود عرض تسعين شمالًا وجنوبًا أما شمالًا فلاختفاء اللّيل في النهار في ستة أشهر إذ الشمس لا تغيب في هذه المدة بل هو يدور فوق الأرض وأما جنوبًا فالأمر بالعكس فإذا تجاوزت عن هذين الموضعين ظهر الطلوع والغروب وحضر الليل والنهار متزايدًا وَمتناقصًا وشهر ولوج اللّيل في النّهار وبالعكس.

﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ [آل عِمرَان: 27] قسمان: صوري ومعنوي. أما الصوري فهو الذي لا يظهر فيه آثار الحياة من الحس والحركة كالمعدنيات والبعض من النباتات والحيوانات كالحبوب والنطف وما زالَ منهما الحياة كالأجسام الجافة والجيفة والثاني هو الجهل والكفر ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعَام: 122]، ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: 21] فالآية تحتملهما كإخراج النبات من المعادن والحيواناتِ من النّبات أو بالعكس عند جفاف النبات أو إخراج الحبوب والنواة من الزروع والأشجار وبالعكس وكإخراج الكافر من المؤمن والجاهل من العالم وبالعكس وكإخراج الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان وكذا سائر الكائنات الدّورية ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عِمرَان: 27] أي تعيين وتحديد بل يبسطه ويوسعه بما يشاء على من يشاء كيف يشاء من يشاء بلا سبق الاستحقاق من أعطى بالاستحقاق فهو بالحساب، فالرزق أيضًا صوري ومعنوي أما الصوري: فقط فظاهر، وأما المعنوي فهو الإيمان والمعارف الإلٰهية والعلوم الحقيقية كليةً وجزئيةً نوعيةً وشخصيةً.

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عِمرَان: 28] إنشاء في صورة الإخبار سبب النزول: أنه جاء قوم من اليهود إلى زمرة من المسلمين ليفتنوهم عن دينهم في صورة المؤاخاة والخلة فنهى الله من موالاة الكافِرينَ نحو: ﴿لَّا تَجِدُ

قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: 22]، ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الممتحنة: 1].

واعلم أن الموالاة على ثلاثة أقسام أن يكون راضيًا بكفره والمعاشرة الجميلة في الأمور الدنياوية والركون إليهم للمعاونة والمظاهرة لقرابة أو مجاوزة أو غير ذلك مع الاعتقاد أن دينهم مطيّة فالأول كفر يجب الانتهاء وعنه والباقيان ليسا بكفر إلا أنهما نهى عنهما مطيّة وقوعهم فيه. قال في الكشاف: المحبة في اللّهِ والبغض في اللّهِ باب عظيم وأصل من أصول الإيمان يعني أن لكم في موالاة المؤمنين مندوحة يعني عن موالاة الكافِرينَ فلا تؤثروهم عليهم ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي اتخاذ موالاة الكفار في نقل الأخبار إليهم ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ من الولاية يعني أنه منسلخ من ولاية اللّهِ رأسًا فإنَّ مولاةِ الولي وموالاة عدوه ضدان لا يجتمعان.

تُـودّ عَـدوِّي ثـم تـزعـمُ أنـنـي صديقُكَ ليسَ النوكُ عنكَ بغاربِ

﴿إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ أي تخافوا أو تحذروا من جهتهم ما يجب اتقاؤه قرأ تقيةً منع عن موالاتهم ظاهرًا وباطنًا في كل الأوقات إلا وقت المخالفة فإن إظهارَ الموالاة تحفظ النفس والعرض والمال سائغ.

واعلم أن التقية عبارة عن حفظ النفس وقيلَ وهما المال والعرض أيضًا فيما تلحق الضرر بها توهمًا وتحققًا لقوله عليه السلام: «**حرمة مال مسلم كحرمة دمِهِ المسلم للمسلم حرام نفسه وعرضه وماله ومن قُتِلَ دون ماله فهو شهيد**» الحديث، والتقية إنما يجوز إذا كان الرجل في قوم كفار ويخاف منهم على نفسه وماله وعرضه فيداريهم باللسانِ ولا يظهر العداوة به بل يظهر المحبة والموالاة بهم.

وعن جعفر الصادق رضي الله عنه: التقية واجبة لو أسمع الرجل يشتمني فأستتر منه لئلا يراني.

وقال: الرياء مع المؤمن شرك ومع المنافِق في داره عبادة قالَ عيسى عليه السلام: كن وسطًا وامش خائفًا ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ﴾ أي يخوفكم الله على موالاة الكفر وارتكاب المنهي فلا يتعرضوا لسخطه بمخالفة أحكامه هو تهديد عظيمٌ مشعر بتناهي المنهي في القبح ﴿نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: 28] مفعول ثان ليحذر أي

العقاب الصادرَ عن نفسه وذاته ولو قالَ ويحذركم اللَّهُ لما أفادَ أنَّ العقاب صادر عنه والعقاب الصادر عنه أعظم العقاب لا نهايةَ لَهُ ولا يقدر على دفعه ويمكن أن يقالَ إن الضمير يرجعُ إلى نفس الاتحاد أي يحذركم اللَّهُ وينهاكم عن هذا الفعل نفسه ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عِمرَان: 28] أي يصير أموركم كلّها راجعًا إليه.

﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾

﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾ قلوبكم من مودة الكفار وموالاتهم أو تكذيب رسول الله ﴿أَوْ تُبْدُوهُ﴾ قولًا وفعلًا ﴿يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عِمرَان: 29] هذا في حكم الاستدلال من العام على الخاص وبيان تفسير ليحذركم الله نفسه يعني أن ذاته تعالى متصف بعلم ذاتي أي علم مبدؤه الذّات فلا يختص بمعلوم دون معلوم وكذا قدرته وإرادته، فإن قلت يعلمه الله جزاء يترتب على الشرط المذكور متأخر عنه فيكون حادثًا. أجيب: بأن حقيقته قديم والتعلق حادث فحينئذ يردان تعلق العلم إن كانَ علمًا والعلم من حيث إنَّه علم صفة كمال وكمالاته كلها بالفعل حاصلة له حاضرة عنده أزلًا وأبدًا وإن كانَ غير علم يلزم عدم تعلقه بالجزئيات والجواب الختم إن الجزئيات كلها كالكليات بجميع حالاتها الواردة على كل منها ثابتة في علم اللّهِ تعالى حاضرة عنده وإن كانت غير متناهية وحدوث الجزئيات في الخارج معرفات لها وشارحات لا شروط لحدوثها ولا لتسلسل فمن كان نفسه ذاته وعلمه محيطًا بالكل ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ﴾ [سبأ: 3] يجب أن يحذر عنه في جميع الأوقات والأحوال.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ صحائف كتب فيها تمام ما عملت من خير أو جزاء ﴿مَّا عَمِلَتْ﴾ محضرًا مثبتًا وحاضِرًا من غير بخس ونقص ﴿مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ مفعول ثان

لتجد قرأ بكسر الضاد يعني أن عملَه يحتضره الجنة من الحضور أو سرعة إليها من الحضر ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ أي صحائف ما عملت أو جزاءه من سوء معطوف على ما سبق ولا يجوز أن يكون شرطية وإلا يلزم أن ينتصب بتودُّ على أن وعد الجزاء عامل في الشرط ولم يُقْرأ إلا بالرفع ولا استئنافًا كما قيلَ وإلا لم يكن الآية دليلًا على توعيد المذنبين كما كان مقدمة وقرينة وعدًا للمطيعين، يوم منصوب بما ذكر المضمر وبقوله تود صفة سواء ساء ﴿تَوَدُّ﴾ يتمنى كل نفس في يوم تجد فيه صحائف أعمالها حاضرةً ﴿لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ﴾ أي في عملها وبين النفس ذلك اليوم وهوله وشدة بأسه ونوله ﴿أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ أي مسافة وبونًا كثيرًا وزمانًا مديدًا يعني تحب وتتمنى كل نفس في ذلك اليوم أن يكونَ بينها وبين عملها السوء زمانًا طويلًا ومسافة في غاية البعد استخلاصًا أو استمهالًا ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ وإنما كرر التحذيرَ إشارةً أن هول ذلك اليوم وشدة بأسه يتجدد ويتبدل ويسند ساعةً بعدَ ساعةٍ بحيث لا يكون بين تلك الأهوال مناسبة ومشابهةٌ كما يكون لأصحاب السعير كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودًا غيرها ليذوقوا العذابَ ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: 30] وإنما قارنَ الأول بالوعيد والثاني بالوعدِ إيماء إلى أن في بعض تلك الأهوال إياسته وفي بعضها تطمّع.

تأويل وإشارة

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ﴾ الخطاب للطور الخفي الجبروتي المخصوص بمحمد أي فإن خاصموكَ وخالفوك حقيقة يا محمد سائر الأطوار السبعة والقوى النفسانية والروحانية والجسمانية ولم يتبعوك في التوجه إلى المرتبة الجمعية الإحاطية في بعض الأوقات أو بعض الأدوار فقل وتهيأ للعروج إلى سماء الكمال الجمعي وفلك الجمع الكمالي في الدّور النوري الجمالي والكور الظلّي الجلالي الإفرادي الجمع والجمعي فإنه إذا جاءَ نصر التجلي الذاتي والفتح الإلهي وانهزم جنود القوى النفسانية والمبادىء الروحانية وعساكرها فحينئذٍ يسلمون ويدخلون في دين الله تابعين لك متوجهين بكَ إلى دار السلام ومدار حقيقة جمعية الإسلام ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ [آل عِمرَان: 20] أي بعض الأطوار الذي لهم كتاب التجلي وهو الطور الرّوحاني والسّريّ فإن لهما التجلي

العقلي والآثاري والبعض الذي ليس لهم كتاب التجلي وهو الطور القلبي والنفسي والقالبي.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي تجليات اللّهِ وهم النفوس الأمارة واللوامة والملهمة والمطمئنة، والنبيّون هم الأطوار السرية الروحية والخفية ﴿ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عِمرَان: 21] هم الطور القلبي والقوى النفسانية التابعة للطور الخفية والروحية المتصرفة في تدبير البدن بطريق العدالة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ أي بطلت أعمالهم الجارية على ما أرادوا في ظاهر البدن وباطنه عند ظهور سلطان التجلي الذاتي واستيائها ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: 22] أي ما بقيت من عذاب نار الندامة وبوار الحسرة يوم القيامة من القوى النظرية ولا من القوى العملية.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إشارة إلى كيفية أحوال السائرين في الله كما كانت الآية السابقة إشارة إلى كيفية أحوال السائرين إلى الله ومن الله يعني أن السائرين إلى الله ومن الله في بعض الأوقات يكون خطابًا ﴿مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي التجلي الذاتي الظاهر بصورة الكلام ونعت الكمال الذاتي والأسمائي الجامع لأحكام باقي التجليات ﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي التجلي الكلامي إلى هذا الكتاب ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ فيما جرى بين القوة النظرية التابعة للعقل الجزئي والبشري والقوة العملية التي استخدمها النفس العاملة من المباشرة والمباضعة برجمهما وقتلهما بتصريفهما عما كان عليه وجعلهما تابعين للقوة الإلٰهية الجمعية ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ أي السائرون إلى الله اقتناعًا بما لهم من التجليات الجزئية ومن الكلية والمظهرية في وقت من الأوقات ﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [آل عِمرَان: 23] من الإعراض والتولي.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [آل عِمرَان: 24] أي الإعراض عن الوصول إلى الجمعية الإحاطية إنما هو بسبب قولهم واعتقادهم بأنَّ نار التحسر على فقدان الجمعية الكلية لا يكون إلا أيامًا يكون بإزاء المراتب الكلية وهي أربعون أو ستون.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عِمرَان: 25] أي يوم المحشر الأكبر

بعدَ انقضاء اقتضاء الدورة العظمى في الآفاق والنفس. قال الصادق رضي الله عنه: اليوم يوم وفاء العبودية استيفاء الأعمالِ فانظر ما عملتَ وفي أي موضع عرضتَ نفسك على مولاك قل اللهم مالك الملك.

قال رضي الله عنه: المؤمن ملك الله في الأرض وولايته الإيمان فإن اجتهد في ليالي عقله وجد معرفته وإلا أخذه الله عن توحيده وجعله ميتًا عن رحمته، وإنما خص الله نفسه ومدحه بتلك الربوبية مع أنه ذو الملك والملكوت والجبروت وصاحب الجمعية العظمى كما قالَ ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: 3] إيماءً إلى أن الملك لتأخره مجمع للكل وذِكره ذكر الكل، وملكه قديم وهو موصوف به في الأزل ويبقى إلى أبد الأبد، وهو متفرد به، ثم خصص بملكه الذي هو من صفاته من يشاء من أنبيائه وأوليائه، فالملك الذي خصّ به الأنبياء هو الاصطفاء والاحتباء والخلافة والحكمة والمحبة والتكلم والإيمان والمعجزات والمعراج والمنهاج والرسالة والنبوة والولاية والمعرفة وخصص من بينهم أصحاب الوحي والعزم وهم ثمانية وعشرونَ على ما ذكرهم الشيخ العربي في كتبه وهم قهروا لغير ملك النبوة جبابرة الأرض وأكاسرها.

وأما الملك الذي اختص به الأولياء فأربعة:

منها: الكرامات وهي مثل تقليب الأعيان وطي الأرض واستجابة الدعوة وهي لأهل المعاملات.

والثانية: وهي أشرف من الأولى مثل الزهد والورع والتقوى والصبر والشّكر والتوكل والرضا والتسليم والتفويض والتقديم والصدق والإخلاص والإحسان والاستقامة والطمأنينة وهذه لأهل الدرجات.

والثالث: وهو أشرف من الثاني هو الوجد والنجوى والمراقبة والحياء والخوف والرجاء والمحبة والشوق والسكر والصحو وهذا لأهل الحالات.

والرابع: منها وهو أشرف من الكل هو الكشف والمشاهدة والمعرفة والتوحيد والتفريد والفناء والبقاء والتطهيرية والكلية والتجليات بأنواعها الأربعة.

فهذه الأحوال جعل ملك الولاية فمن استشرف بها واستولى عليها فقد بلغ

ذروة ملك الأزل والأبد وتملك بملك سرمدي وفاز فوزًا عظيمًا. وهاهنا ملك أخذ وهو الجمعية العظمى والإحاطة الكلية الكبرى بين الوحدة والكثرة والبقاء والفناء وتمام المتقابلات وجميع الأضداد والمعاندات والأنداد فما في الأزل والأبد بل الأزل والأبد والحدوث والقدم والوجود والعدم والبقاء والفناء والفقر والفناء والدنيا والآخرة وهذا الملك باقٍ غير فانٍ فإنَّه لامتناع طريان الشيء على نفسه وعلى غيره بخلاف سائر الأملاك فإنها قد تكونُ مكرًا واستدراجًا وهذا الملك إنما هو في ولاية السير في الله فمن أعطاه الله لا ينزعه منه ولا تدل صاحب هذا الملك بعزله.

قال أبو عثمان: الملك هو الإيمان يدل على أن الإيمان لا يتحقق ولا يبقى على شخصٍ بعد الكشف والسلامة في الاتصالات والتقلُّب إلى ربه فربما تكون معرفة يتعرف بها صاحبها وربما يكون عطاءً يزداد به صاحبه قيلَ هو المعرفة.

قال الشّبلي: هو الاستغناء بالمكون عن الكونين يحذركم اللَّهُ نفسه أي إنما يحذر ويبعد نفس الحق وذاته من عرفه وجعله عارفًا بتجلياته الذاتية والأسمائية والأفعالية والآثارية وبمقتضياتها من أنواع المعارف وأسرار الحقائق الإلٰهية والأنوار الربوبية والأطوار القلبية وخصائص الأدوار الإلٰهية ونصائص الأكوار الدّيمومية الإفرادية والجمعية وجمعية الجمعية، وأما من لا يعرف ولا يعرف ولا يتعلق به هنا الخطاب إذ هذا الخطاب يختص بالأكابر. وأمّا الأصاغر فخطابهم هو: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 281]، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ [آل عمران: 131] وغيره ذلك.

﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ أي تدخل الوحدة في الكثرة في التنزلات وتولج نهار الكثرة في ليل الوحدة في العروج والترقيات أو يدخل ليل طور الدنيا في نهار طور الآخرة أو بالعكس ويدخل كل طوري الدنيا والآخرة في النشأة الجامعةِ للسير إلى الله ومن الله وفي التغير للَّهِ، أو تولج ليل اقتضاء فرداريّة اسم القديم في دورة عالم الجبروت في نهار اقتضاء فرداريّة اسم الحيّ في دورة عالم الملكوت وهكذا إلى أن تولج نهار اقتضاء اسم المريد في دورة عالم الملك والشهادة في ليل عالم الجبروت أو يولج عالم ليل مقتضى الظلّ والجلال في نهار

مرتضى النور والجمال إذا كانَ مقتضى النور والجمال صريحًا ومرتضى الظل والجلال تبعًا وضمنًا وينعكس الأمر إذا انتقلت فرداريّة التربية من صراحة النور والجمال إلى صراحة الظل والجلال وهذه الإيلاجات لا ينقضي أبدًا.

﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ أي البقاء بالله من الفناء في اللَّهِ أو التفصيل من الإجمال ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ أي بالعكس أو يخرج الوجود الإضافي في ماهية الممكن من العدم الذاتي له وبالعكس أو يخرج ويظهر نهار أشجار المعارف الفطرية من الأرض الميتة الاستعدادية وبالعكس فإن الاستعداد الأوليَّة الخفية إنما يظهر من ظهور نهار الأحوال والمعارف ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عِمرَان: 27] من الأعيان الثابتة بأرزاق التجليات الشهودية في ضمن شهود ذاته التي تفضلت بصور الأحوال المزبورة والحالات المذكورة الظاهرة في الأدوار والنشأة المتكررة.

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ به أي من كان في المقام الأعلى ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الذين قنعوا بالأحوال الجزئية في المقام الأدنى ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ [آل عِمرَان: 28] إشارة إلى شرائط الاستكمال والاسترشاد والتكميل والإرشاد فإن حق المسترشد المطالب أن يتعرف بأحوال المرشد في الجملة بأن يعلم ويعتقد أن أطوار السّبعة القلبية حاصلة عندَ المرشد وإن أركانَ الفقر وهي فاء الكشف وقاف الحقائق وراء الأطوار المذكورة بكمالها حاضرةً عند المرشد مع ما لِلأخلاق المرضية والملكات الفاضلة وهو قد استكملها إذ السالك إذا كانت عنده الأطوار والكشف والحقائق ولم يستكمل الأخلاق فهو إما سبع أو بهم أو شيطان لا يعتد بأحواله وبمقاماته فإن كثيرًا منها يكون استدراجًا ومكرًا أمر الله الجليل بأن قال: «يا خليلي حسِّن خلقك ولو بالكفار تدخل مداخل الأبرار»، قالَ الله تعالى في حق حبيبه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القَلَم: 4]، ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: 50] الكاملين في أركان الفقر وأطواره في الأدوار والأكوار المتخلقين بأخلاق الله «**تخلقوا بأخلاق الله**» الحديث.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي اقتدى بالناقص ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ من الكمالات الذاتية والأسمائية وشهود التجليات والمعارفِ الفطرية والحقائق الإلٰهية وغير ذلك من الأحوال لأن المقامات والتخلق بالأخلاق الإلٰهية

من الكلية والمظهرية والتحقق بالكمالاتِ الذاتية ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ﴾ أي تخافوا من فوت ما للمقام الأعلى ولم يستكمله بعد لعدم تكميل ما يتوقف هو عليه في المرتبة الأدنى فحينئذ يجب على صاحب هذا المقام إلى مقام الأدنى ويكمل ما فيه ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ أي يخوفكم ويبعدكم عن السير في الله ما أنتم في السير إلى الله وفي السير من اللّهِ من غير استكمال ما فيهما من المقامات والحالات ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عِمرَان: 28] تطييب لقلوبهم وتسلية لهم بأن الكلَّ يصلونَ إلى الوحدة الجمعية الإحاطية ﴿قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾ [آل عِمرَان: 29].

واعلم أن للطبقة القلبية أحوال ثلاثة:

أحدها: إلى ما دونه أي النفس ليأخذ منها مبادىء الإدراكات فيقال لها بهذا الاعتبار الصدور.

الثاني: إلى ما فوقه أي يستفيض منه وتبلغ إليه ما أخذت من المبادئ وهي بهذا الاعتبار هي الفؤاد.

والثالث: إلى نفسها وهي في حد ذاته ينقلب تارة إلى العلوِ للتعاطي إلى الإشراقاتِ الإلٰهية والتماطي إلى أنوار التجليات الذاتية وأخرى إلى السفل لاقتباسِ المبادىء التصورية والتصديقية فيسمى بهذا الاعتبار قلبًا فإخفاء ما في الصدور هو اكتسابه فما في النفس من الهيئات الجميلة أو القبيحة فيبدي الجميل ويخفي القبيح أو المراد منه الإخفاء، أخذ المبادىء من جانب النفس ومن الابتداء استفاضة من جانب الأعلى أو بالعكس ويعلم ما في السماوات وما في الأرض أي ما الروح من المعارف الإلٰهية والعلوم اللّدنية وما في أرض النفس من مواد العلوم النظرية أو في أرض الاستعداد فما ظهر ويظهر في النشآت والدورات.

﴿مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ في السّير إلى اللّهِ ومن الله من المعارف الإلٰهية والمقامات الغير المتناهية والطاعات والعبادات البدنية والنفسانية ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ في مقام النفس والبدن من السيئات والقبائح ويستعد للعروج بالفعل فالسالك في هذا المقام يتكدر ويتخجل عندَ عرض أحواله على الشيخ المرشد أو على النفس في مقام المحاسبة فحينئذ يتمنى ما يتمنى ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عِمرَان: 30] هذا

إنما هو بالنظر إلى السائر من اللّهِ فالأول كانَ من السير إلى اللّهِ فالسالك ما دام في هذين المقامين لا تيسر له التي في السنن والخوض في اللّهِ ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ [آل عِمرَان: 31] محبة خالصةً عن شرب الرعونة والأعراض الفاسدة والرهبوية فاتبعوني في كل ما أرسلت به وعملت يحببكم اللّهُ بالثواب في مقام المجازات بضعف الحسنات من التجليات ومشاهدة الفناء في اللّهِ والبقاء باللّهِ والتحقق بالذات بتمام الأسماء والصفات وشرب بحار شرب التجليات وخمور المحبة الذاتية وشرب المودة الإلٰهية والسيران والطيران فوق عروش الأدوار وتحت فروش الأكوار بالسّنين السرمدية والأدوار الإلٰهية سبب النزول إنه كانَ قوم على عهد رسول اللّهِﷺ يزعمون أنهم يحبون اللّهَ فأمر الله بمتابعة حبيبه ومتابعة رسوله والاقتداء بشريعته والاقتفاء بطريقته والتحقق بحقيقته لتستكمل في دينِهِ بأركانه الثلاثة الشريعة والطريقة والحقيقة كما قال عليه السلام: «**الشريعة أقوالي والطريقة أفعالي والحقيقة أحوالي**» وللنظر في صدق دعواهم بمحبة اللّهِ.

واعلم أن المحبة ميل النفس إلى الشيء لإدراك كمال فيه بحيث يحملها على ما يقربها إليه والعبد إذا نظر إلى نفسه ووجَدَها عاريةً عن الكمال مطلقًا فعلم أن الكمال الحقيقي ليس إلا لله وإن في الله كمالًا لنفسه ولغيره فهو في هذه الحالة يعلم أن هذا الكمالَ ليس إلا من الله وبالله وإلى الله فلن يمن حبه إلّا لله وفي الله وذلك يقتضي إرادة طاعته والترغيب فيما تقربه فلذلك سرت المحبة بإرادة الطاعة وجعلت مستلزمة لاتباع الرّسول في عبادته والحرص على مطاوعته.

واعلم أن المحبة وهي سر من أسرار اللّهِ ويقتضي بالذات الميل من الكمالِ والحسن والجمال ولا يعرف حديث إلا بخصائصه ولوازمه الذاتية **قسمان**: محبة الله ذاته وغيره: أما محبة الله ذاته فهي معرفته وعلمه ذاته بذاته لقوله تعالى: «**كنت كنزًا مخفيًّا فأحببت أن أعرف**» فالجملة الثانية بيان للأولى وأما محبة اللّهِ الغير فهي عبارة عن إرادة طاعته لقوله تعالى: فخلقت لما عرف بطريق العبودية كما فسر قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56] أي ليعرفوني بطريق العبودية.

واعلم أن المتكلمين صرحوا بأن لا محبة للخالِق للمخلوق إذ المحبة من

جنس الإرادة ولا تعلق لها إلا بالحوادث والمنافِع وهو ضعيف إذ لا يمكن أن يقال أي شيء يكون محبوبًا إنما يكون لأجل معنى آخر وإلا لزم الدّور والتسلسل فلا بدّ من الانتهاء إلى شيء يكون محبوبًا لذاته فكما تعلم أن اللغة محبوبة لذاتها فكذلك تعلم أن الكمالَ محبوب لذاته في أي مادة كانت شجاعة أو سخاوةً أو علمًا وحكمةً وعدالة وغيرها كما أنّا إذا سمعنا أخبار روستم واسفنديار في الشجاعة وأنوشيروان في العدالة وحاتم في السخاوة مالَ القلب إليهم مع أنا قاطعونَ بعدم الفائدةِ والنفع منهم والسائل ربّما يعتقد أن تلك المحبةَ معصية ولا يجوز الإصرار عليها فعلمت أن الكمالَ محبوب لذاته وإنَّ كلما يكون محبوبًا فهو لكمال قلبه وتمامية له وإن نهاية الكمالِ إنما هي لِلَّه وبالله إذ الكمال وهو التمامية بجميع الوجوه لا يكون إلا في اللَّهِ وما سوى اللَّهِ بالنسبة إليه بل في حد ذاته ناقص ولذا صارَ هو محبوبًا لذاته وما سواه محبوبًا لغيره.

قالَ صاحب الإشراق: أن الأنوارَ القاهرة المترتبة الشاعرة للأعين قهرًا وإحاطة على السائل وللسائِل شوق وحجته إلى المعالي ومشاهدة لها وبهذين الأمرين انتظم أمر الوجود، وآثار فتور الأنوار له قهر بالنسبة إلى ما سواه فلا يحب ولا يعشق غيره إذ الشيء لا يعشق إلا من هو أعم كمالًا وأعم جمالًا فيه عنده فيما يعشقه وغيره أقل كمالًا منه بل لا كمالَ للغير بالنسبة إليه فإذن لا يحب ولا يعشق هو إلا ذاته وأما غيره فتحبه ويعشقه ويحب نفسه وذاته أيضًا من حيث الكمالية وهو أكمل الأشياء وأجملها فظهوره لنفسه أشد من كل ظهور في الوجود، وليست اللّذة إلا الشعور بالكمال الحاصل له من حيث هو كمال وحاصل، فالغافل عن حصول الكمال لا يلتذ وكل لذة الملاذ إنما هي استيقان كماله وإدراكه لكماله فكلّما كان الإدراك أعم والكمال أتم كانت اللّذة أشدَّ وأقوى ومن البيّن أنه لا أجملَ ولا أكملَ من نور الأنوار فلا يكون ألذَّ من لذاته ولغيره وإنما خفي علينا مع أنه لا أظهر منه لأن شدة ظهوره حجابٌ من غيره فظهوره سبب بطونه وسطوة ظهوره حجاب لنوره وظهوره وكذا حكم العقل والنفس.

هذا إذا علمت أنه يجوز أن يكون العبد محبًّا لله وإن المحبةَ سر من أسرار

اللَّهِ لا يطبع العقل على حقيقتها وصدقها بطريق الفكر والنظر ولا على سبيل الدّعوى والخبر بل لا يمكن له الاطلاع عليه ما لم يتصف بحقيقة معناها فوضع الله تعالى بحكمته البالغة في كل شخص من الأشخاص الإنسانية سرًّا يتعرف به حقيقة المحبة وضابطه يتعرف بها صدقه وهي متابعة رسوله وحبيبه أما السّير فهو أمر لا يطلع عليه إلا من كانَ فيه فهو حقيقته المحضة التي هي أمر وجداني يجده كل أحد في نفسه بالنسبة إلى الخلق أو إلى الحق فلو أراد أن يبينه لغيره لا يقدر عليه إلا لمن كان قلبه أو ألقى السمع وهو شهيد ولا يطلع على حقيقة المحبة إلا من كانت هي فيه فلا يعرف حقيقة المحبة إلا المحب لا المحبوب ولا المحب لا يعرف المحبةَ إلا بالمحبة، وأما المحبوب فباعتبار كونه محبًّا يعرف المحبةَ لا باعتبار كونه محبوبًا فبالمحبة ظهرت الكائنات ووجدت وبها يصل كل طالب إلى مطلوبه كنت كنزًا مخفيًّا فأحببت أن أعرفَ فخلقت الخلقَ لأعرفَ.

واعلم أن المتكلمين ما أنكروا حقيقة المحبة ولا محبة المخلوق ولا محبة الخالق للمخلوق لأنه إنكار للحق الصريح ذهب إليه جميع الأنبياء والمرسلين والأولياء الكاملين والحكماء والإلهيين المتألهين والعلماء الربانيين لأنه للحق الصريح والصدق الصحيح وإنما أنكروا محبة الخالق للمخلوق إذا كانت علة التكميل للخالق لا تكميل الخالق للمخلوق كما أنكروا العلة الغائية لأفعال الله التي يكون علّة لتكميل الحق لا لتكميل الخلق كما قالَ: وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون. قال عمر وعثمان: محبة الله هي معرفة وخشيته ودوام اشتغال القلب به ودوام انصراف القلب واشتغاله بذكره ودوام الأنس به قيلَ هو الموافقة في التماسِ مرضاته.

قيلَ: علامة المحبة قلة العبادة وكثرة التفكر والفكرة ودائم الخلوة ظاهر الصّمت لا يبصر إذا نظر ولا يسمع إذا نودي ولا يحزن إذا أصيبَ ولا يفرحَ إذا أصابَ ولا يخشى أحدًا من الأخوة ولا ترجوه قيلَ: لا يزيد بالبر ولا ينتقص بالجود.

فاعلم أن درجاتِ المحبين في المتابعة تتفاوت فمنهم من أظهر المتابعة وامتثال أمر اللَّهِ ويدعون الخلقَ إليها كالأبرار والعلماء والنبيين وغيرهم من الأولياء

والفقراء وهم طائفة من الأولياءِ الكاملينَ المسلمين المرشدين ومنهم أخفى المتابعة بل يظهر للخلق المخالفة والمنكرات بحسب الظاهر والحال أنهم في الخلوة أشد الناس متابعةً كإظهار الخضر لموسى عليه السلام وهم طائفة من الأولياء يقال لهم الملامية وكذا البدلاء «**أوليائي تحت قبائي لا يعرفهم سوائي**»، وهؤلاء مستورة الأحوال عن الخلق ولا يعرفهم إلا أهل الله فلا اعتمادَ ولا وثوقَ للظاهر، فالمتابعة في الظاهر مع عدم أطوارها لجواز أن يكون في الظاهر متابعةً كاملةً وفي الباطن حال إنما هي لأهل الظاهر، فالتعويل لدى أهل الحق إنما يعرف بالحق وهداية نوره الذي يلقى في قلب المؤمن به يعرف المحبة وقرارَها في القلب ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النُّور: 35]، «**اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله**».

فالمحب يعرف المحب كما أن العارفَ يعرف العارف إنما يعرف ذا الفضل من الناس ذووه، فالأحوط التوقف لا ينكر ولا يقتدي وأما ما وقع في هذا الباب من أهل التقليد من الطعن على أولياء اللّٰهِ والصديقين فينبغي أن لا يلتفت به بالرد والجواب لأن محبةَ اللّٰهِ ومعرفته أمر كشفي وذوقي ومواهب شوقية تأتي من العقل الجزئي ويمتنع من الفهم الرسمي وهم مع كونهم منزلين كلام اللّٰهِ على خلاف مراده عدلوا عن طور العقل الصريح ومقتضى النقل الصحيح فإنهم قالوا إذا رأيتَ من يذكر محبة اللّٰهِ ويصفق بيديه مع ذكرها ويطرب وينفرد ويصفق فلا شكّ في أنه لا يعرف الله ولا يدري محبة اللّٰهِ وغير ذلك من التشنيعات والتقريضات لا يخفى على من له أدنى عقل وتميز أن هذا النفي غير صحيح عقلًا ونقلًا، أما العقل فلأنه امتنع إقامة البرهان على أن هذا العبدَ الفقيرَ ليس بعارف بالله ولآل محبة الله، وإنَّ كلما ظهر منه من الصفق وتغير الأحوال كله فهو رياء وإن هذا الحكم من القليل فرية بلا مرية وحكومة بلا حكمة، وأما النقل فلأن الحجة على النفي غير مسموعة سيما على الأمر المتقى.

قالَ عليه السلام: «**هل شققت على قلبه**»، وقد صح عند أهل الحق أن رسولَ اللّٰهِ ﷺ قد حضر عند أصحاب الصّفة مع أصحابه فقالَ: هل فيكم من ينشدني فقام واحد وأنشد:

كُــلُ صُــبْــحٍ وَكُــل إشــراقِ تــبـكـي عَـيْـنـي بـدَمٍ مُـشْـتـاقٍ

لَسَعت حية الهوى كَبِدي فلا طَبيبٌ لَها وَلا رَاقِ
إلّا الحَبيبُ الذي شغفت بِهِ فَإنَّه رُقْيَتي وتِرياقِ

فتواجدَ رسول الله ﷺ مع أصحابه فسقط رداؤه فقسمه أربعمائة قسم أعطى لكل واحد منهم قسم فقالَ معاوية: ما أحسنَ لعبكم يا رسولَ الله؟ فقالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «مَهْ يا معاوية ليس بكريم من لا يهتز في السّماع» فعليك يا أخي في اللَّهِ إذا سمعتَ كلامَ اللَّهِ من أهل الحق فإنَّ وله وجوه أن تحمل على أحسنها وكذا إذا شاهدت فعلًا منهم لا تبادر إلى الرد عليهم فإن العالِم بالسرائر هو الله فعليك بالتوقف وعدم الإنكار في هذا الطريق ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: 18].

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ﴾ مجزوم لكونه عطفًا على الأمر المجزوم فإن قلتَ من أحب اللَّهَ وتابعَ حبيبَهُ فيما جاء فأحبه الله يكون وليًا عصمه من المعاصي والذنوب فلا يتصور من ذنب فضلًا عن الذنوب قلت باعتبار ما كانَ وما سيكونَ وتنبيه على أنَّ المقربين المخلصين لا بدّ وأن يؤمنوا من استدراجه ومكره فإن اللَّهَ غني عن العالمينَ ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ ستار ويستر الذنوب والخطايا ﴿رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: 31] لمن تحبب إليه كريم لمن تجنب بالطاعة والاتباع لهواه، نزلت لما قالت اليهود نحن أبناء الله وأحباؤه وقيلَ نزلت في وفد نجران لمّا قالوا إنا نعبد المسيحَ حبًّا للَّهِ.

﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بامتثال أوامره والانتهاء عن المناهي ويحفظ القلبَ عن اللواهي لأنه مجلى تجلياته ﴿وَٱلرَّسُولَ ۖ﴾ باتباعِهِ بحفظ الأعضاء والجوارح عن الاشتغالِ بما لا يعنيه والتعطيل عما يعنيه ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ [آل عِمرَان: 32] يحتمل المضي والاستقبالَ على تقدير حذف التاء أي أعرضوا وتعرضوا عما يتعلقان به

فيحكم عليهم بأنهم المغضوب عليهم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: 32].

قال عليه السلام: «**من أطاعني فقد أطاعَ اللَّهَ ومن أطاعَ الإمامَ فقد أطاعَني ومن عصاني فقد عصا اللَّهَ ومن عصَا الإمامَ فقد عصاني ومن عصاني فقد عَصَا اللَّهَ ومن عصا اللَّهَ بالقلب والجوارح فهو كافرٍ بالله العظيم**» وفيه دلالة على أن التولّي كفر وهو ينفي محبة اللَّهِ وإن محبته مخصوصة بالمؤمنين.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا
وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ أي آثـر واختـار ﴿ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عِمرَان: 33] وإنما ذكر نوحًا لأنه آدم ثان أو لأنه أول من شرع أي اصطفى نوحًا بالرسالة والنبوة والخصائص الروحانية وَالنصائص الجسمانية وآل إبراهيم وآل عمرانَ، ولذلك فازوا على ما يقر عليه غيرهم وبين أنها الجالبة لمحبّة اللَّهِ تنبيهًا على أنهم مخالفونَ لغيرهم لما روي عنهم من المعجزات وخرق العادات إن أجسامهم مخلوقة من تراب الجنة وإنها جرت بالتنبيه إليهم مجرى اللوازم الذّاتية.

واعلم أن المخلوقات على قسمين مكلف وغير مكلف فالمكلف أشرف وأعلى وفاقًا من غيرهم وهم على أربعة أنواعِ الملائكة والإنسِ والجن والشياطين فأتمهم تكليفًا وأعرفهم وأكملهم تعريفًا وأشرفهم مرتبةً وأفضلهم رتبةً ولا شكّ أنّ الإنسانَ أكثر تكليفًا لأن ذاتياتهم أوفر لأن الملائكة على روايةٍ خلقت من الريح وفي رواية أخرى خلقت من النور فالجمع بين القولين أن يقالَ أبدانهم من الريح وأرواحهم من النور ولذا صاروا من سكّانَ السماوات والجن خلقت من النار الصافية والشياطين من النار الكدرة والنباتات والحيوانات من الهواء والماء، وأما الإنسان فخلق من آخر الموجودات رتبة وهو الأرض، ولذا جاءَ معلولًا أخيرًا جامعًا لخصائص جميع الأجناسِ والأنواع العالية والمتوسطة، فلا بدّ وأن يكلف بتمام عبادات جميع المخلوقات لوجودها فيه فيكون أشرف وأكملَ مرتبةً وأعلى منزلةً من الجميع وإن كانَ أسفلَ رتبة، والمراد من آل إبراهيم: إسماعيل

وإسحاق وأولادهم ومنهم الرسولﷺ وعمران اثنان والد موسى وهارون وهو ابن صهر بن قابيت بن لاوي بن يعقوب، والثاني والد مريم أم عيسى وكانَ بينهما ألف وثمانمائة سنةً.

﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤﴾

﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا﴾ فعيلة أو فعولة من الذراء أبدلت همزتها ياءً أو واوًا ثم قلبت الواو ياءً وأدغمت وهو الولد حال أو بدل من الآلين أو منهما أو من نوح أي أنهم ذريّة ﴿مِنۢ بَعْضٍۗ﴾ واحدة متشعبة بعضها من بعض في الدين أطلقت على الواحد والكثير ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ بأقوال الناس وكلام قائم بالنفس ﴿عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 34] بذات الصدور ولا يخفي عليه شيء في الأرض ولا في السماء من الأحوال والأعمال فيصطفى من كانَ سليمَ القلب مستقيم العقل في الحضور والغيب منهيًّا ليوم لا شكّ فيه ولا ريبَ أو سميع بقول امرأة عمران عليم بأميتها تنبيهًا.

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ٣٥﴾

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾ وهي حسنة بنت فاقود بن قبيل وهي جدّة عيسى وأما عمران فهو من ملوك بني إسرائيل وأحبارهم من أحفاد سليمان بن داود ﴿رَبِّ﴾ مفعول قالت أي يا رب ﴿إِنِّى نَذَرْتُ﴾ أي جعلت ﴿لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا﴾ [آل عِمرَان: 35] نذرًا مني لك والنذر ما أوجبه الإنسان على نفسه بشريطة أو بغير شريطة إني نذرت للرحمن صومًا أي أوجبت.

قال عليه السلام: «**من نذر أن يطيع اللّهِ فليطعه ومن نذر أن يعصِ الله فلا يَعْصِه**»، التحرير: الإعتاق والتخليص أي لخدمته لا يشتغل بشيء آخر أو لعبادته نصب على الحالِ يقال حررت العبدَ أي أعتقته وحررت الكتابَ إذا أصلحته وأخلصته فلم يبق فيه ما يحتاج إلى إصلاحه ورجل حُرّ إذا كانَ خالصًا لنفسه لا يتعلق لأحد به شيء.

والقصة: أن زكريا وعمران تزوجا أختين وهما بنتا فاقود واسم إحداهما

أبشياع أم يحيى وخَنّة زوجة عمران وكانت من كبراء بني إسرائيل آيست من الحَبَل فبينا هي في ظل شجرة رأت طائرًا يطعم فرخه فتحركت لذلك نفسها للولد فدعت الله أن يهب لها ولدًا وقالت في نفسها: اللّهم لك عليّ إن رزقتني ولدًا أن أتصدق به على بيت المقدس فيكون من سدنته وخدمته نذرًا وشكرًا فحملت بمريم فحررت ما في بطنها ولم يعلم ما هو.

فقالَ لها زوجها: ويحك ما صنعتِ إن كان ما في بطنك أنثى لا يصلح لذلك فوقعا في هم ووقعا في غم فهلك عمران وامرأته حامل بمريم فقبل ما نذرته ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ﴾ ما ردّدته في نفسي من المناجاة الخفية ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: 35] بما يؤتيه.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ أي ولدت ما في بطنها وتأنيثها باعتبار الحال ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ حال من الضمير المؤنث فإن قلتَ فعلى هذا يكون أي وضعت الأنثى أي فيكون لغوًا قلت: حاليّة باعتبار ما في البطن وفائدته إظهار التحسر والنصيحة لعدم موافقة الموضوع المطبوع في الروع ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ أي بالشيء الذي وضعته وهو استئناف من الله تعالى تعظيمًا لموضوعها أو تجميلًا لها بشأنها وقرأ على طريقة التكلم تسلية لنفسها فيكونُ عطفًا على ربِّ أي ولعل اللّهَ تعالى فيه سرًّا وحكمًا ومصالح وإنه خير لي ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ﴾ الذي قصد لخدمة بيت المقدس وعبادة صاحبه ﴿كَٱلْأُنثَىٰ﴾ المعهود الموضوع الموهوب فاللّام للعهد الخارجي ويجوز أن يكون للجنس يعني وليس الذكر كالأنثى سنين في الخدمة والعبادة لضعف الأنثى واعترائها من الأذى والقدرة ﴿وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ من مقولتها وجملة كلامِها عطفًا على ما قبله وما بينهما اعتراض وهو بمعنى العابدة والخادمة ليطابق الاسم المسمى ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ﴾ أي أجعلها عائذةً بك محفوظة بكنف عصمتك ﴿وَذُرِّيَّتَهَا﴾ عطف على الضمير المنصوب ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عِمرَان: 36] الطريد اللّعين المرمي

بالشهب أصله الرمي بالحجارة عن النبي ﷺ ما من مولود إلا والشيطان يمسّه حين يولد فينهل صارخًا من مسّ الشيطان إياه إلا مريم وابنها وأيضًا كل آدمي طعن الشيطان في جنبيه حين ولد غير عيسى وأمه جعل بينهما حجاب فأصاب الطّعنة الحجاب.

روي لما ولد عيسى عليه السلام فإن الشيطانَ إبليس لم يستطع إغواءه فقالوا: أصبحت الأصنام منكسة فقال: هذا لحادث حدث فقال: مكانكم فطار حتى جاء خافقي الأرض فلم يجد شيئًا ثم جاء البحارَ فلم يجد شيئًا ثم طارَ فوجد عيسى قد ولد وإذا الملائكة حفت حولَه فلم يصل إليه إبليس فرجع إليهم فقالَ: إن نبيًّا قد ولد البارحة ما حملت أنثى قط ولا وضعت إلّا أنا بحضرتهما إلا هذا فآيسوا أن تعبد الأصنام بعد هذه اللّيلة ولكن أتوا بني آدم من قبل الخفة والعجلة.

وفي الكشاف: فالله أعلم بصحة الحديث الأول فإن صح فمعناه: أن كل مولود يطمع الشيطان في إغوائه إلا مريم وابنها فإنهما كانا معصومين وكل من كانَ بصفتهما ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: 82، 83].

واستهلاله صارخًا من مسِّه تخييل تصوير لطمعه فيه كان مسه ويضرب بيديه ويقول: هذا من أغويته. وأما حقيقة المسّ والنخس كما يتوهم أهل الحشو والكلام ولو تسلطَ إبليس على الناس لامتلأ الدّنيا صراخًا وبكاءً أقول: هذا كلام في غاية الوهن والسقوط مبني على نفي وجود الجن والشيطان وهو يخالف النقل الصحيح والعقلَ الصريحَ والعدول عن الحقيقة بلا مرجح وفيه نفي الموجودات التي نطق بها العقل الصريح والنقل الصحيح إنما يكون من قلة تتبع العلوم الحكمية والعلوم الحقة التي أخبر عنها الكتاب والسنة.

قال الشيخ السَّهروردي في كتابه «الإشراق»: كنت في الأوائل ذابًّا على الحكمة المشائية التي صرحوا بها بنفي الجان والأبالسة والشياطين والملائكة فهدى اللَّهُ لي أن أعرضت عن عقائدهم الباطلة وقواعدهم العاطلة وخضت في طريقة الإشراقية وجزمت بوجود ما نفاه المشائيّون وشاهدت منفياتهم من الجان وغيرهم فلي في هذه الطريقة تجارةٌ صحيحة وليس الخبر كالمعاينة وصرف كلام

الرسول عن مقتضاه الظاهر إلى موافقة مذهب الباطل ناشئ عن الانغماس في التعصب والتقليد.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا﴾ أي قبل إنه من امرأة عمران مريمَ مكانَ الذكر المحرر الأنثى ورضي بها ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ [آل عِمرَان: 37] فيه وجهان:

أحدهما: أن يكون اسم ما يقبل به كالوضوء والسَعوط بفتح الفاء اسم لما يتوضأ به ويسعط به وهو اختصاصها بها في إقامتها في النذر مقام الذكر ولم يقبل قبلها في ذلك أنثى ولم يحرر إلا الذكر بأن يسلمها من أمها عقيب الولادة قبل أن يشاء ويصلح للسدانة والخدمة. روي أن حنة أم مريم لما ولدت مريم لفّتها في خرقة وحملتها إلى باب المسجدِ ووضعتها عندَ الأحبار أبناء هارونَ وهم في بيت المقدس كالحجبة في الكعبة فقالت لهم: دونكم هذه النذرة فتناقشوا فيها لأنها كانت بنت إمامهم وصاحب قربانهم فقال لهم زكريا: أنا أحق بها لأن خالتها عندي فقالوا: يا أخي نقترع عليها، فانطلقوا ـ وكانوا سبعة وعشرين ـ إلى نهر فألقوا فيه أقلامهم فارتفع قلم زكريا فوق الماءِ وترسبت أقلامهم فكفلها.

والثاني: أن يكونَ مصدرًا على الحذف أي فتقبلها بذي قبول حسن أقلامهم أي بأمر ذي قبول حسن وهو الاختصاص المذكور، ويجوز أن يكون تقبل بمعنى استقبل كتقضي وتعجل بمعنى استقصى واستعجل أي فأخذها في أول أمرها حين ولدت بقبولٍ حسن وبوجه ليّن فإن قيلَ من أين علم قبول الحق إياها مع كونها مخالفة لما تقرر عندهم قلت يمكن أن يكونَ بالوحي لوجود الأنبياء في ذلك الزمان منهم زكريا وغيره أو الإلهام وهو عام.

﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ مجاز عن التربية يقال لهذا النوع المصدر على غير الصدر كتكلمت كلامًا. وحسن الإنبات **أما دنياوي** فكانت تنبت في اليوم ما ينبت

المولود في عام **أو ديني** فإنها تنبت في الصلاح والسداد والعفة والطاعة ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّآ﴾ بأن يقال كفل يكفل كفالةً وكفيلًا فهو كافل إذا اهتم بالصلاحِ وإصلاحِ بناجحة وإنجاحِ مصالِحِه، ضعّف الفاء بعضُ القراء فالفاعل هو الله والمفعول زكريا أي جعله كافلًا بإصلاحها وضامنًا بمصالحها فمن حققها جعل زكريا فاعلًا ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾ حين كفالته إياها. المحراب: وهو موضع عالي شريف استعير منه محراب المسجد وهي غرفة في وسط المسجد لا يوضَعُ فيها غيرها ولا يصعد إليها غير زكريا والمفسرون بنى لها بيتًا واسترضعَ لها وبعضهم ذهب بها إلى زوجته وهي خالتها إلى أن كبرت وبلغت مبلغ النساء فبنىٰ محرابًا في المسجد ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ جواب كلما أي دنياويًّا صوريًّا فاكهةً في غير موسمِها أو معنويًّا أخرويًّا وكلاهما خارقان للعادة ﴿قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عِمرَان: 37] روي أن زكريا كلما خرج منها غلّق أبوابَ المسجد فحصول الرزق في هذه الحالة [وتكلتها][1] في الصغر خارق للعادة فلمّا شاهدَ زكريا هذه الحالات اختلج في صدره أن يطلب من اللّهِ ولَدًا.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ في ذلك المكان في تلك الحالة حيث هو فاعل في المحراب عند مريم أو في ذلك الزمان حيث يستعاد هنا وثم وحيث للزمان والوقت ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عِمرَان: 38] وقد عرفتَ إنها تطلق على الواحد والكثير والذكر والأنثى كما وَهَبتَ لحنة العجوزِ العاقِر مريم والمريم أنواعُ الكرامات وأصناف خرق العادات، والمعتزلة قد اجتمعوا على امتناع الكرامات وأصناف خرق العادات، والمعتزلة قد اجتمعوا على امتناع الكرامات بناء على أنها حجة لصدق النبوة يجري بها أن لا يوجد في غير الأنبياء كما أن العقلَ المحكمَ يدل على كمال العلم والقدرة وهما لا يوجدان في غير الصانِع.

(1) كلمة غير واضحة في الأصل.

أجيب: بأنه ظهور الفعل الخارق للعادة لما جاز من كل البشر فإن قارنَ التحدي فهو دليل النبوة وإلا فهو يدل على الولاية والامتناع إنما هو في دعوى الولي النبوة وبهذا وجب على النبي إظهاره وعلى الولي إخفاؤه ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عِمرَان: 38] أي مجيبه بعد السّماع فإن قيلَ: إن دعاء الأنبياء والرسل لا يكون إلا بعدَ الإذن لاحتمال أن يكون الآتي غير مصلحة فحينئذ يكون دعاؤهم مردودًا وذلك نقض في النّبوة.

أجيب: بأن لما أذن في الدّعاء مطلقًا وبين أنه تارةً يجيب وأخرى لا يجيب فللرسول أن يدعوَ كلما أراد اللّهُ يجيب إن شاء الله تعالى وإلّا فلا ولَيس هذا نقضًا لمنصب الأنبياء لأنهم على باب رحمة اللّهِ سائلون فإن أجابهم فبفضله وإحسانه وإلا فبعدله ولكونه تعالى غير واجب عليه شيء إن شاء فعل وإن شاء ترك، وإنما قالَ من لدنك إشعار بأن صلاحيةَ النسب هاهنا قد انتفت لزوال القابلية عن زوجته وفيه أربع ركعات بفتح اللام وضم الدّال وجزم النون وهو أفصح بفتح اللام وحذفت النون بسكون الدال وفتح النون وبضم اللّام معهما.

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ من جنسهم إذ المنادي جبرائيل وحده يدل عليه قراءة ابن مسعود جبرائيل وذلك لتعظيم شأن المشار إليهما ويجوز أن يكون من قبيل عكس يا هامان ابنِ لي صرحًا ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ﴾ حال كونه قائمًا في المسجد ﴿يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ﴾ بالفتح على الخبر وهو أن اللّهَ يبشركَ أو بتقدير الباء المتعلقة بينادي بأنَّ اللّهَ وبالكسر على إرادة القول فإن النداء نوع من القولِ ﴿بِيَحْيَىٰ﴾ [آل عِمرَان: 39] وإنما سمي به لأن اللّهَ أحيى به قدر الإسلام والقلب بالإيمان والنبوة وماءِ العرفانِ أو النفس بالصفات الحميدة أو البدن بنور الطاعة وضياء العبادة والإطاعة روي ما من أحد إلا يلقى الله تعالى قد هم بخطيئة أو عمِلَها إلا يحيى بن زكريا وذلك أن زكريا سأل من اللّهِ يحيى لأجل نفسه بل للّهِ ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: 5، 6] تنبيهًا على أنه سأل من

الله قلنا بل من الله لله لا لغير اللّهِ ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عِمرَان: 39] يعني بعيسى وبوجوده يكن من غير الأب كانَ أكبرَ سِنًّا من يحيى ستةَ أشهر وقيلَ بكتابه وآياته قالت أم يحيى لمريم: إني حامل فقالت مريم: أنا أيضًا حامل فقالَت لها: إني وجدت ما في بطني يسجد لما في بطنِك وكانَ أول من آمن بعيسى وصدقه بأنه كلمة الله وروحه ثم قتل يحيى قبل رفع عيسى عليه السلام أو لأنه تكلم في الطفولية.

واعلم أن كلمة اللّهِ هي كلامه وكلامه صفة قائمة بذاته عند المتكلمين وعندَ المعتزلة أصوات يخلقها الله في جسم مخصوص، ومن البين أن الكلامَ بهذا المعنى لا يكون دأب عيسى إلا بمعنى دقيقٍ لا ينتقل إلا لمن يخصه الله بكمالِ الدراية ومزيد الهداية وهم لا يقولونَ ولا بدّ عندهم من التأويل وباب التأويل مفتوح على الفريقين ﴿وَسَيِّدًا﴾ وصف له فيعل من السّود وهو الرّئيس الّذي يُتّبع ويهدىٰ إلى قوله.

قيل: في الدين وحسن الخلق وعن السعيد حبي هو الّذي يطيع وقيلَ: هو الشريف الكبير وعن ذي النون المصري أن الحسودَ لا يَسُود سُئِلَ رسول اللّهِ ﷺ أفي أمتك سيدٌ؟ قال: «**بلَى رجُلٌ أعطي مالًا ورزق سماحةً وأدنى الفقراء وقلّت شكايته في الناسِ**» قيلَ هو الرّائي في الدّينِ أعني في العلم والحلم والعبادة والكرم والعفة والزهد والورع ومن جمع فيه هذه المعاني فهو سيد السادات ومنبع الخير ومعدن البركات ولذلك قيلَ عادات السّاداتِ سادات العادات ﴿وَحَصُورًا﴾ هو التعين الثابت له وهو في الأصل الحصر والجنس ومنه إحصار العدد وجعلنا جهنم للكافِرينَ حَصيرًا مفعول بمعنى فاعل أي حاصر لنفسه عن جميع المحظورات والمحظورات من الشهوات ومن هذا قول من قال إن ترك النكاحِ أولى نظرًا إلى دينهم، وأما بالنظر إلى ديننا فالنكاح أولى مخفف لأنه وسط بين دينهم وهو يدعو إلى التنزه والتجرد ودين اليهود يدعو إلى التعبد والتقليد ولذا بالغوا في النكاح كما اشتهر أن لسليمان كانَ ألف امرأة ولداود عليه السلام تسع وتسعين مع أنه نظر إلى امرأة رجل طمع فيها ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عِمرَان: 39] فيه إشعارٌ بأن من اجتمع فيه أو عنده هذه الخصائل فهو نبي أو سيد إذ السيد هو الذي يقدر على ضبط مصالح الخلق فيما يرجع إلى التأديب والسياسة بالأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر، والصالح يحتمل ثلاثة أمور:

الأول: أن يكون من أولاد الصالحين.

والثاني: أنه خير لا شرّ فيه.

والثالث: إن صلاحيته كانت أتم من صلاحية سائر الأنبياء لما مر من قوله عليه السلام.

روى أنه كان يمر وهو طفل على الصبيان وهم يلعبون فدعوه إلى اللّعب فقالَ: ما خلقت للعب، لا يقالُ لما كان منصب النبوة إعلامًا فما الفائدة في ذكره بعدها الآن نقول المراد من الصالحين الكاملين في الصلاحية فإن للصالحين حدًّا ومرتبةً إذا تجاوز عنه ارتفعت النبوة وانحط عنها فكل ما كانَ أكبرَ نصيبًا منه كانَ أكبر قدرًا وأعز نصرًا في النبوة والله أعلم.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ٤٠﴾

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ هذا الخطاب مبني على أن بدء الملائكةِ كان بأمر اللّهِ فلا يرد أن يقال لا بدّ وأن يكون المخاطب والمنادي واحدًا ويجوز أن يكونَ الخطاب بالملائك ثناءً على أن المرادَ منهم جبرائيل يرسل إياه إلى الأنبياء لتربيتهم فأمره أمر الله و﴿أَنَّىٰ﴾ إما للاستبعاد من حيث العادة أو للاستفهام بمعنى كيف أو للتعجب الناشئ من غاية الفرح لا من الإنكار ليلزم أنَّ هذا لا يليق لأهل الإيمان فضلًا عن الأنبياء عليهم السلام ﴿وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾ أي السن وضعفت قوتي الشهوية التي هي مبدأ التوليد والتولد ﴿وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ﴾ لا يلد من العقر بضم العين بمعنى انقطع أي انتهت قوتي الفاعلية والقابلية إلى غاية لا يتوقع منها تأثير وتأثر من حيث العادة فإن زكريا كان في سن تسع وتسعين وامرأته في ثمانٍ وتسعين روى أن زكريا لما سمع النداء جاءه إبليس قائلًا زكريا إن هذا الصّوتَ من الشيطان سخرًا بكَ ولو كانَ واللّهِ لكانَ وحيًا خفيًّا كما هو في سائر الأحوال ولذا استبعد، والاستبعاد إنما هو في كيفية التولد لا في الولد أتجعلنا شابين ولودين

أم بطريق آخر فأزال الاستبعاد ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ كأمرك الغريب وشأنكَ العجيب ﴿ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ يفعل كيف يشاء فعل ما شاء وكيف شاء كخلق آدم لا من الأب والأم، والحواء لا من الأم، وكخلق السماوات والأرض وسائر العناصر لا من الشيء، والملائكة والجان في بدو الفطرة، بل أمرك هذا أهون فالله: مبتدأ على تقدير حذف ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ [آل عمران: 40] خبره مقدمًا أي أمر الله وصنعه في الاستبعاد والاستغراب كفعلك هذا والصنع بك، يفعل ما يشاء بيان وتفسير المبتدأ المحذوف أي الأمور الصادرة عن الله مثل الأمر الذي يفعل بكَ لأنه الله يفعل ما يشاء وكيف يشاء لا رادَّ لقضائه ولا معقب به لحكمه ما شاء الله كانَ ويكون على الاستمرار في الأبد وما لم يشأ لم يقع ولا يقع أبدًا.

تأويل وإشارة

﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: 31] قل يا محمد ومقتد بالأصحاب الأطوار المتنوعة الظاهرة من التجلي الذاتي هو الحقيقة إن كنتم ادعيتم محبة الله وأنتم صادقونَ في الدعوى فاتبعوني في السير إلى اللَّهِ ومن الله بالكشف الصريح والذوق الصحيح ليوصلكم بركات متابعته إلى المحبة الذاتية ويحصل لكم الوسيلة إلى المرتبة الجمعية الإلٰهية والكلية الإحاطية في السير في الله هذا على تقدير الخطاب إلى الكل، أما إذا كانَ الخطاب إلى كل واحد من الأطوار فاتبعوني أي كل واحد في السير إلى اللَّهِ بمتابعة سنني في الشريعة وموافقة سنني في الطريقة فإني سيّد المحبين ورأس الصديقين وقدوة المريدين حتى أريكم مصارع المهلكاتِ ومصارعَ المنجياتِ من أحسن المعاملاتِ وأفضل الطاعات ورعاية الآداب عند مواقع الآداب ويشرفكم على دقائق أحكام المشاهدات ويعرفكم حقائق أسرار المعاينات ورقائق أنوار التجليات في الطور السري والروحي والخفي لأني قد كشفت بأسرار المحبة وعرفت أطوار القربة فإن اتباعي شكر محبة المحبوب وهادي إلى جذبة المطلوب فإن زدتم في متابعتي زادكم اللَّهُ شقائق محبته وشوارقَ لوامع جذبته لئن شكرتم لأزيدنكم.

واعلم أن حقيقة المحبة عند العارفينَ هي إحراق قلب المحب بتلهب نيران الشوق لدى أشواق شعشعة أنوار وجه الحبيب دون وجدان لذة شوارق نور من

نار الحبيب ونيران العشق مناديًا إلى محو مبادئ الأجناس واستغراق الحواس في لجة بحر الذوق وطهارة النفس بمياه أنوار القدس وطيران السير في غيب الغيوب إلى أن يصل بمقام الأنس ويتخلق المحب بخلق المحبوب فشاهدَ الحبيب في الكل بعين الكل.

أما فرع المحبة فهو موافقة المحبوب في جميع ما يرضاه وتسليم الأمور كلها وتفويضها إلى ما في قضائه وقدره برعاية الوفاء والمواظبة على سنن المصطفى فعلى هذا لا يعرف حقيقة المحبة إلا بنور المحبة ولا يطّلع على حال المحب إلا المحب دائمًا علق المحبة إلى المتابعة إيماء إلى أن الحقيقة المحمدية في الحقيقة هي المحبة الذاتية كما كانت ذريعة وجود الموجودات في التنزلات لا بدّ وأن يكون متابعته وسيلة لمحبة اللَّهِ في الترقيات إلى جنات قدسه والصعود إلى درجات جنات أنسه.

وأما أن المحبة وعلاماتها هي أن يكون العبارة كثير العبادة دائم الشكر لازم الخلوة طالب الوحدة راغب الصحبة لا يبصر إذا نظر ولا يسمع إذا نودي ولا يحزن إذا أصيب ولا يفرح إذا أصابَ ولا يخشى أحدًا ولا يرجوه ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ﴾ فردًا فردًا أي يستر زلاتِكم في السير في اللَّهِ ويقرركم في إحاطة الأسوار وإماحة الفتور في ضبط مقتضيات الأطوار في السير من الله ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عِمرَان: 31] إشارة إلى استمرار هذه الأحوال وإبقائها على العارف.

﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ﴾ [آل عِمرَان: 32] بالمحبة والمتابعة المفضية إلى كمالِ المحبة فالمحب لا يختار على مراد حبيبه بل بقي مراده في مراده فيصير مع حبيبه في الخلوة مع المراد بلا مراد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ﴾ الطور التالي الذي هو نهاية التنزلات وبداية الترقيات للمعاني اللطيفة الظاهرة بملابس الصور الكثيفة التي هي مدار أحكام نعت الكلام ومنار أعلام أركان الإسلام وهي مرآة الذات والأسماء والصفات الظاهرة والباطنة ﴿وَنُوحًا﴾ أي الطور النفسي الذي هو طور المناجاة ﴿وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي سائر الأطوار القلبية التي نشأت من الطور القلبي وهي السري الذي هو مجلى تجليات الآثار والطور الروحي هو مرآة التجلي الأفعالي والخفي وهو مجلى

التجلي الصفاتي وغيب الغيوب وهو الذي يقع فيه التجلي الذاتي ﴿وَءَالَ عِمْرَٰنَ﴾ ومنهم الطور الروحي وعيسى الطور الخفي وطور غيب الغيوب الذي استوطن الحقيقة المحمدية ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عِمرَان: 33] أي أهل عالم العلم وعالم العين الروحي والشهادي الصّوري المعنوي.

قال الصادق رضي الله عنه: كان لآدم سجودَ الملائكة ونوح كانَ ملجأ المذنبين وإبراهيم كانَ للأضياف وآل عمران كانَ ربحًا للأنبياء والمصطفى ﷺ كانَ ملك المولى ولما وجدوا الإيمانَ سجدوا وأطاعوا لمحمد ﷺ.

قالَ صاحب العرائس: اصطفى آدم عليه السلام بعلم الصفات وكشف جمال الذات قبل خلق الخلق في أزل الآزال فإذا أرادَ خلق روحه نظر بكماله إلى جلاله ونظر بجلاله إلى جماله وظهر منه النظرين روح آدم عليه السلام فخلقها بصفة الخاص ونفخ في روحه روحًا وهو علم الصفات بفعله الخاص الذي يتعلق بالذات وخلق أيضًا صورته بصفة الخاصِ ونفخ فيه روح الأول وروح الثاني فوصف روحه وقالَ: ونفخت فيه من روحي، ووصف صورته خلقت بيدي، فسبق بهذه الصفات من الملائكة الكرام البررة، وألبسه خلقه خلافته، وأسجد له الملائكة كرامةً له وتشريفًا وتفضيلًا، وأيضًا اصطفى العالم بصفاته وآدم لذاته وتمام أسمائه وصفاته أو بكمال النبوة وتمام الولاية.

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ﴾ اذكر حالة مقاله قابلية عمرانَ عينك الثانية ووقت معاهدة استعداد روحكَ في المعاهد الأزلية ﴿إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى﴾ أي خصصت بكَ ما هو ميسر في خفاء بطني وخلصت لكَ ما هو مختزن في فضاء بطني من المعارف الإلٰهية والإدراكات الفطرية ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ﴾ أي تسمع مقالَتي حالًا ومآلًا ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ [آل عِمرَان: 35] بما كانَ وبما سيكون.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ [آل عِمرَان: 36] إشارة إلى تعدد القابلية وإلى أن إحداهما مترتبة على الأخرى وإلى أن الأفياض والمعاني القدسية يقال منها الاستعداد الإمكاني وللآخر الاستعداد الوقوعي فلما تنزلت المعاني على القابليات في المراتب الكائنة انصبغت في كل مرتبة بمقتضى قابلية تلك المرتبة إلى أن بلغت مرتبة الناسوت وتدنّست بلوث البشرية وورث كمال السفلية ولم

يصعد تلك المعاني من هذه المرتبة إلى المرتبة الأولى، وقد عوهدت تلك المعاني بأنها إذا بلغت غاية التنزلات صعدت إلى الموطنِ الأصلي والمقام الأولي بل حصلت لها قابلية أخرى سميت بالإمكان الاستعدادي والاستعداد الوقوعي وهي مرآة إظهار أسرار الألوهية ومجلى أنوار الربوبية وليس الذكر أي الصعود إلى ما كانَ وما يتضمن من الشهود والإدراك اللاحق المعهود كالأنثى أي مثل هذه القابلية الأخرى.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ لكونها جامعةً لتمام الأسرار الإلٰهية ومتضمنة لظهور جميع الأنوار الربوبية وظهور أسرار الألوهية يعني أن المبادىء النظرية ومباني الإلٰهية المنتجة متفاوتة في الانتاج منها ما يكون غير مقصود بالذّات كما هو في الأقيسة المفصول النتائج، ومنها ما هو مقصود بالذّات كما هو في الأقيسة المنتجة والأقيسة المخرجة كالأشكال الأربعة سيما الشكل الأول ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّآ﴾ ضمنت تربيتها القوة العاقلة التي يحيى بها البدن وقواها في مسجد أقصى البدن في غرفة مرتبة النفس اللّوامة ومحراب القوة النظرية ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ أي إدراكًا فائضًا من الملكوت الأعلى.

﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عِمرَان: 37] أي المبدأ الأولي فإن له اتصالًا وإحاطةً بالكل وتصرفًا فيه بلا واسطة لكمال إحاطته الجميع وتمام الأسماء والصفات الذاتية التي هي في طور التحقيق عين الذات، والقول بالواسطة بأنها ليست عين الذات ولا غيرها في الحقيقة راجع إلى هذا التحقيق فتأمل.

﴿هُنَالِكَ﴾ عندَ ظهور ما في الاستعداد الإمكاني منَ المعارف الكلية الإلٰهية والإدراكات الجمعية الإحاطية والعلم بأنّ هذا عام شامل لتمام الذّرات وجميع المكونات ﴿دَعَا﴾ دعاءًا استعداديًا ﴿زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ﴾ أي من حضرتك الجامعة للكلّ بلا واسطة فإن الواسطة إنما يكون في الجزئية ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عِمرَان: 38] معرفةً كليّةً ونتيجةً كاملةً متعلقة بالكل والجميع.

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي الأسماء العالية الفاعلية ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ﴾ حاضر القلب وحاضر القوى وباطن الغيب ﴿يُصَلِّي﴾ يتوجه بجميع ما له من القوى وتمام مآله من المبادىء الروحانية وذرائع النهي من الأسافل والعلى ﴿بِيَحْيَىٰ﴾ أي علمًا كليًّا

وإدراكًا وشهودًا كانَ أوليًا ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي معرفة كاملةً تظهَرُ من الألوهية الذي كانَ كامنًا للكل في الكل فإن جميع الأشياءِ من حيث إنها قائم بالكل يكون في كل منها قابلية الاتصاف يبعث الكل ويظهر به الألوهية لا يختص بفرد دون فرد وشخص دون شخص بل لكل منها متساوية الأقدام ولذا أضاف الكلمة إلى نفسه ونكّره ﴿وَسَيِّدًا﴾ نظرًا إلى عالم الجبروت ﴿وَحَصُورًا﴾ في الملكوت ﴿وَنَبِيًّا﴾ [آل عِمرَان: 39] في الملك.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ إدراك كامل متعلق بالكل ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ أي تعلقات إمكانية كثيرة وعوائق وموانع كبيرة ﴿وَٱمْرَأَتِي﴾ أي قابليتي القريبة الظاهرة في النشأة الأخيرة ﴿عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عِمرَان: 40] أي فعل الله وإظهاره سر الألوهية في كل شيء وجعل مظهرًا لأحكام ربوبيته ومصدرًا لأعلام أسرار سرمدية مثل الذي يفعل بك أي ليس على اللّهِ شيء تبليغ الشيء إلى كماله اللّائق وهو الكلية والهيئة الجمعية والصفة الإحاطية.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ علامة معلمة لوقت حبل زوجتي لأزيدَ في الشك وينقص في الشكوى أي العُلوق فإنه خفي لا يطلع عليه أحد بخلاف الحبل فإنه أمر ظاهر ﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾ أي لا يمكن على التكلم مع القدرة عليه ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ لتقبل بكليتك على طاعتي وتميل بسر أسر جمعيتك إلى عبادتي وتتوجه بصفاء طويتك وإخلاص نيتك إلى ذكرى وذكري ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ إشارة بيد ورأس وغيرهما أصله التحرك ومنه الرّاموز للتحر قرأ بضمتين جمع رموز كرسول ورسل وبفتحتين جمع رامز كخادم وخدم الاستثناء منقطع وقيلَ متصل حال منه ومن الناس أي مترمزين ومعلّمين سيّما بلغني (فردين روانف التيك وتسيطار) أو تقييد للأيام الثلاثة إشارة إلى تكميل الغرض من السكون الحسي وهو التوجه الكلي موقوف على تعديل مبادىء الأفعال والأعمال والأقوال وهي القوى الثلاثة الطبيعية والنظرية والعملية وإنما ذكرها هاهنا الأيام وفي سورة مريم

اللّيالي تنبيهًا على أن الذكر يجب أن يقع في جميع الأوقاتِ في الأيام واللّيالي.

﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ﴾ ذكرًا ﴿كَثِيرٗا﴾ في أيام الحبسة ولياليها وسائر الأيام ومؤكد لما قبلها ومبين للغرض منه ﴿وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ﴾ أي بعده ونزهه عن النقائص الإمكانية والنقائص الزمانية والمكانية من الزوال إلى الغروب وقيلَ من العصر أو الغروب إلى ذهاب صدر اللّيل ﴿وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ [آل عِمرَان: 41] بكسر الألف من طلوع الفجر إلى الضحى وقرأ بالفتح جمع بكر كسَحَر وأسحار الغرض دوام الذّكر في الليل والنهار إشعار بأن حق العابد العارف ووظيفتَه الطائع الواقف أن لا يغفل عن ذكر المعبود طرفة عين لأنه معه أبدًا حاضر لديه أمدًا وهو معكم أينما كنتم ولو ذهل عند لحظة لفات عنه من السعادة ما لا يتدارك أصلًا ولو ماتَ في تلك اللّحظة لماتَ كافرًا «**كما تعيشونَ تموتونَ وكما تموتونَ تحشرونَ**» الحديث.

﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [آل عِمرَان: 42] عطف على المتقدمة روي أنهم جبرائيل وحده كلموها شفاهًا معجزةً لزكريا عليه السلام منكرًا لكرامة مريم أو كرامةً لها ولزكريا أو إرهاصًا لنبوة عيسى فإن الإجماعَ على أنه تعالى لم يَستنبِىء امرأة ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾ [الأنبياء: 7] إذ الأنوثة نقص يمنع الشهادة فضلًا عن النبوة لا الشهودَ ولا المشاهدة وأما الولاية فلكونها عامةً في جميع الأوقات والأزمان ولا لِيستتبع النبوة دون العكس لا يختص بالذكور ﴿يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ﴾ أي تقبلك تقبّلًا لم يكن قبلك ووفقك للعبادة والطاعة وأغناكِ برزق الجنة عن الكسب ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ عما يستقذر من النساء ﴿وَٱصۡطَفَىٰكِ﴾ ثانيًا بمعرفته والتوجه إليه بكليتها وشرَّفك بولايته وكرامته كالتولد من غير ذكر وتكلم الملائكة ويتولد عيسى منك وبرأها مما قذفت اليهود تعنتًا واستنكارًا لنبوة عيسى عليه السلام ﴿عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عِمرَان: 42] على طريقه ﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الجاثية: 16] أو بالصفة التي اختصت هي بها.

﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ٤٣﴾

﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ﴾ أي تواضعي واخضعي بالظاهر والباطن في الخلوة والعيان والجلوة ﴿وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عِمرَان: 43] تغليبًا للرّجال على النّساء فيه إشارة إلى أن الجماعةَ في الصّلاةِ سنة حسنة عندَ الكل وإنما أمر زكريا بالذّكر والتسبيح ومريم بالقنوت والصلاة لكونها مناسبة لها في أنها جامعة لعبارات جميع المعادن ومتضمنة للأذكار والتسبيحات وغير ذلك تضمنها وجود عيسى وهو الملك مما تضمنه زكريا من يحيى وبهذا كان أول من آمَن وتقديم القنوت متغير بأنه معتبر في كل العبادات والأذكار والتسبيحات والسجود إما لكونه مقدمًا في شريعتهم على سائر الأركان أو لكونه أقربَ طريق يتقرب به العبد إلى اللّهِ تعالى وفي الحديث القدسي: «**يا أحمد هل تعلم بأي وقت يتقرب العبد إليّ؟ قال: لا يا رب قالَ: إذا كانَ جائعًا أو ساجدًا**».

وقال عليه السلام: «**إن أقرب ما يكون العبد من ربّه إذا نام في سجوده فيقول للملائكة انظروا إلى عبدي روحه عندي وجسده في عبادتي**». قيلَ: المراد بالقنوت إدامة الطاعة وثبات إقامة العبادة ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا﴾ [الزمر: 9] بالسجود، والصلاة كقوله: ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق: 40]، وبالركوع الخشوع والإخبات، ويحتمل أن يكون في زمانها من كانَ يقوم ويسجد في صلاته فلا يركع وقوم آخر فأمرت بأن يركع مع الراكعين ولا يركع مع من لا يركع.

﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ٤٤﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ زكريا ويحيى ومريم وعيسى يعني أن ما ذكر من القنوت ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ أي إخبار لا يتلقى إلا من عالم الغيب ﴿نُوحِيهِ﴾ أي نلقيه ﴿إِلَيۡكَ﴾ يا محمد بواسطة الملك ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ﴾ عند أحبار اليهود في بيت المقدس ﴿إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ﴾ قداحهم وسهامهم في الماء للاقتراع وقيلَ: هي الأقلام التي يكتبون ﴿أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ﴾ [آل عِمرَان: 44] بها التوراة تبركًا فألقوا أقلامهم التي في

أيديهم في الماء اقتراعًا ليعلموا ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ﴾ يضمن حفظ ﴿مَرْيَمَ﴾ وحضانتها أي ليكفلهم حفظ مريم وصيانتها فإن كانَ الأقلام من القصب ارتفعت أقلام زكريا على الماء وإن كانت من الحديد ارتسبت. والمراد تقرير كونه وحيًا على سبيل التهكم بمنكريه ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عِمران: 44] في شأنها تناقشا في التكفل فإن قلت: تعنت المشاهدة وانتفاؤها للرحمٰن إليه معلوم وترك نفي الاستماع وهو موهوم أجاب بعضهم بأنه كان معلومًا عندهم تعنتًا أنه ليس من أهل السماع والقراءة وكانوا منكرين فلم يبق إلا المشاهدة وهي غاية الاستبعاد ونهاية الاستحالة وفيه ما فيه.

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بدل من المتقدمة ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ﴾ يقربك بولد مخلوق وجه التعين عن الكلمة قد ذكر ﴿مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ﴾ أي اسم الولد النازل من عند الله تعالى اسمه مبتدأ والمسيح خبره ومنه متعلق بالاسم، والجملة صفة كلمة والمسيح فعيل بمعنى المفعول أي ممسوح جبرائيل معنا وبالعبرية المبارك ﴿عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ خبر بعد خبر (ابن) صفته وإنما سمي الدجال مسيحًا لأنه ممسوح العين كأنهما طافية أو لأنه يسيح في الأرض فيضرب فيها مكة والمدينة وبيت المقدس، وإنما لقب عيسى به لأنه لم يقم في موضع وفائدة الالتفات وانتساب الابن إليها تنبيه على أنه لا أبَ له إذ الأولاد تنسب إلى الآباء ﴿وَجِيهًا﴾ شريفًا ذا جاه وقدر حال متقررة من كلمة باعتبار أنها موصوفة والتذكير باعتبار المعنى الوجاهة ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ النبوة ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ وفي الآخرة الشفاعة وعلوّ الدرجة في الجنة ﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عِمران: 45] من اللَّهِ.

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ﴾ صغيرًا حال كونه ﴿فِى ٱلْمَهْدِ﴾ [آل عِمران: 46] عن مجاهدٍ قال قالت مريم رضي الله عنها: كنت إذا خلوت وعيسى في بطني حدثني وحدثته فإذا

شغلني إنسان سبح في بطني وأنا أسمع، والمهد مصدر سمي به ما يمهد للصّبي من مضجعِهِ ﴿وَكَهْلًا﴾ أي تكلمهم حال كونه طفلًا وكهلًا كلام الأنبياء مع الأمة من غير تفاوت بين الحالتين وهو حالة للإنسان من أربعين إلى ستين ومنه إلى آخر العمر شيخوخة وإنما ذكره دون الشيخوخة لكونه أفضلَ الأحوال الإنسانية في استحكام الرأي وكمال العقل والجودة في العقل والعرب يمدح بالكهولة لأنها الحالة الوسطى فالمراد ما في السّنّ لا نفس السّنّ فاندفع ما قيلَ من أنه ما بلغ سن الكهولة بل رفع في ابتداء الوقوف وانتهاء الشباب وهو ثلاثة وثلاثين وفي ذكر الأحوال المختلفة البشرية في كل زمان أعيب عنها المنافية للألوهية على من اتصف بكمال الدراية لا يخطر بباله أنه ليس من البشر فضلًا أنه إله ﴿وَمِنَ﴾ العباد ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عِمران: 46] عطف على الأحوال وإنما ذكر له أربع صفاتٍ وليحيى ثلاثة بأنه إشعار أفضل وأكمل من يحيى ولذا كانَ أول من آمَنَ به.

﴿قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٧﴾

﴿قَالَتۡ﴾ مريم يا ﴿رَبِّ﴾ يا ربي وسيدي ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ﴾ كناية عن الجماع تعجب واستبعاد لا إنكار واستفهام عن أن التولد إنما يكونُ من الازدواج على وضع مخصوص وفي بدائع التفسير أن ﴿رَبِّ﴾ نداء لجبرائيل بمعنى يا سيدي ﴿قَالَ﴾ جبرائيل أو الله بواسطة جبرائيل وأراد أن يخلق شيئًا وينشىء أمرًا ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ [آل عِمران: 47] والكلام فيه كالكلام فيما سلف في ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عِمران: 40]، ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا﴾ وأراد أن يخلق وينشىء أمرًا ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عِمران: 47] إشارة إلى أن الخلق على ضربين تدريجي مسبوقًا بأسباب كما مرّ في خلق مريم ودفعي كما قالَ به الحكماء في حكم المجردات من أنها غير مسبوق بمادة ومدة والمليُّون في خلق الجواهر الفردة وخلق مادة وجود عيسى وهو نفخ جبرائيل في نفس مريم فإنه معنوي روحي لا حسيّ.

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الكتبة والخطّ أو جنس الكتب المنزلة بالوحي والإلهام ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ هي معرفة حقائق الأشياءِ على ما هي في نفس الأمر بقدر الطاقة البشرية والعمل بمقتضاها نظرية وعملية أما النظرية فهي الّتي يتعرف بها حقائق الأشياء وخواصها ولوازمها الذّاتية الوجودية والعدمية، وأما العملية فهي التي يتعرف فيها طريق كيفية العمل والشريعة قد قضت الوطر في قسميها. الكلام إما مستأنف تطيّبًا لقلبها وإزاحة لما يلومها ويطيبها أو عطف على نبشركَ ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عِمرَان: 48] عطف بيان لقسمي الحكمة أو يخلق قرأ بالياء والنون للتعظيم والتوراة والإنجيل والتصريح بما علم ضمنًا وخصهما للفضل فيحفظهما عن ظهر القلب.

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ منصوب بمضمر على إرادة القول نقول أرسلت رسولًا ﴿أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم﴾ منصوب بنزع الخافض أي بأني قد جئتكم ﴿بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ المراد جنس الآيات المجيئة بآيات كثيرة ويجوز أن يكون معطوفًا على وجيهًا ورسولًا مصدقًا ناطقًا إذ الرسالة والتصديق لا يكونان إلا بالنطق من الآياتِ ﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ﴾ قرأ بالكسر على الاستئناف أو إضمار القول وبالفتح بدل من أني قد جئتكم مجرور عطفًا على آية ومرفوع بتقدير هي ومنصوب على البدلية كما علم ﴿كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ أي كصورته ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ أي في ذلك المماثل أو الطّين ﴿فَيَكُونُ طَيْرًۢا﴾ جمعًا أو حيًّا طائرًا مغردًا ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عِمرَان: 49] بأمر الله كسائر الطيور تنبيه على أن الإحياء إنما هو من الله، ظنًّا منهم أن المخلوق واحد وهو الخفاش لأنهم طلبوه منه لكونه أعجب الخلق، من عجائبه إنه لحم ودم يطير

بلا ريش إذ له جناح لا ريش فيه والطير إنما هو منه وبه ويضحك كالإنسان وله ثدي وأسنان وتحيض كالمرأة وتلد ولا تبيض كسائر الطيور ولا يبصر في ضوء النهار ولا في ظلمة اللّيلِ وإنما يرى في ساعتين بعدَ غروب الشمس وبعد طلوع الفجر وفي ساعة قبل الإسفار.

قال وهب: كانَ يطير ما دام ينظر الناس إليه فإذا غاب عن أعينهم سقط ميّتًا لتميز فعل الخلق عن فعل الحق ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ﴾ الذي ولد أعمى أو ممسوح العين ﴿وَٱلْأَبْرَصَ﴾ هو كصاحبه اسمان كالأسود والأبيض والأعمى والأخرس صفتانِ بمعنى ذي برص وَكَمَه وهو مرض جلدي أن يكون به، أبلق إما أبيض أو أسود وهو أشد قبحًا من الأبيض وهو مقدم الجذام ﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عِمرَان: 49] أعاده دفعًا لتوهم الألوهية فأحيى أربعة أنفس:

الأولى: أن العاذر كانَ صديقًا له فأرسلت أخته إلى عيسى إن أخاكَ العاذر يموت وكانَ بينهما مسيرة ثلاثة أيام فأتاه هود وأصحابه فوجدوه قد ماتَ مذ ثلاث أيام فانطلق معهم إلى قبره وهو في صخرة مطبقة.

فقالَ: اللّهم رَبَّ السّمواتِ السّبع والأرضين السبع أرسلتني إلى بني إسرائيل أدعوهم إلى دينكِ وأخبرهم أني أحيي الأمواتَ بإذنك فأحيي العاذِرَ فقام وبقيَ مدةً، وولد له.

الثاني: ابن العجوز مرَّ به ميتًا عيسى وهو على سريره، فدعا الله عزَّ وجلَّ فجلس على سريره فأنزلَ عن أعناق الرجال ولبس ثيابه وحمل السّرير على عاتقه ورجع إلى أهله فبقي وولد له.

الثالث: ابنة العاشر قيلَ أتحييها وقد ماتت أمس فدعا اللّهَ فعاشت فبقيت، ووُلِدَ لها.

الرابع: سام بن نوح دعا عيسى عليه السلام بالاسم الأعظم فخرج من قبره وهم ينظرونَ إليه قد شابَ نصف رأسه فقالَ: قد قامت القيامة قالَ: لا ولكن دعوتك باسم الله الأعظم وقد كانَ سام قد عاش خمسمائة عام وهو شاب ثم قال له: مت قالَ: بشرط أن تعيذني بالله عز وجل من سكرات الموت، إحياؤه كان

باسم الله الأعظم: يا حي يا قيوم لما أنكروا آيات اللَّهِ وقالوا: هذا سحر، ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ﴾ من الأطعمة والأثمار وغيرها ﴿وَمَا تَدَّخِرُونَ﴾ وتخفونه لغدٍ ﴿فِي بُيُوتِكُمْ﴾.

قالَ السديّ: كانَ عيسى في الكتاب يحدث الغلمان بما يصنع آباؤهم ويقول لهم: انطلقوا فقد أكل آباؤكم كذا وكذا ورفعوا لكم كذا وكذا وادخروا كذا فانطلق الصِّبية إلى بيوتهم وحكوا ما قال لهم: فيقول الأب والأم أين تدرون هذا؟ قالوا: علّمنا عيسى فنهوا عن الكتّاب ولا تجلسوا ولا تلعبوا مع هذا السّاحر فجمعوهم في بيت فجاء عيسى بطلبهم فقالوا: ليس هاهنا فقال عليه السلام: فما في هذا البيت؟ قالوا: خنازير قالَ عيسى عليه السلام: هكذا يكون فلما فتحوا البيت فإذا كلهم خنازير فساء ذلك بين النّساء فهموا به فخافت أمه عليه فحملته على حمير لها وخرجت به إلى الصحراء ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي الذي ذكرت لكم ﴿لَآيَةً لَّكُمْ﴾ أي علامة واضحة ودلالةً صريحةً لكم لنبوته ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عِمران: 49].

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ عطف إما على رسولًا كما عرفت أو منصوب بإضمار فعل دلّ عليه قد جئتكم أي وجئتكم مصدقًا ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ في دين موسى ومن قبله من لحوم السمك ولحوم الإبل والشحوم والتّروب ولحم كل ذي ظفر والبعض على أن البعض بمعنى الجميع أي كل الذي حرم عليكم من الأطعمة فإن البعض يكون بمعنى الجزء وبمعنى الكل. قيلَ: مردود على ما بعده ﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عِمرَان: 50] أي قد جئنا بآية من ربكم مصدقًا لما بين يديه ولأحل لكم بعض الّذي حرم، قيلَ: أحل لهم من السمك والطير ما لا صِيصِية له وجئتكم بآيةٍ أخرى الصيصية الشوكة المرتفعة كعرف الديك شاهدة على صحة رسالتي وصدقًا لنبوتي ودعوتي من ربكم وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ [آل عمران: 51] أي آية بهداية من خلق الطير والإبراء والإحياء والإنباء بالخبايا وغير ذلك ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [آل عِمرَان: 50]

واتبعوني فيما اجتمع الأنبياء طرًّا عليه وهو فارق بين النبوة والسحرة وجئتكم عليه بآية ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ هو هذا إنّ اللَّهَ ربّي وربكم فاتقوا اللَّهَ وأطيعوني اعتراض والظاهر تقرير لقوله تعالى: ﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي آية بعد أخرى مما ذكرت لكم والأول لتمهيد الحجة والثاني تقريرها وتقربها أي الحكم ولذا عقب بالفاء أي لما جئتكم بالمعجزات القاهرة والآيات الباهرة فاتقوا اللَّهَ في المخالفة وأطيعوني فيما اجتمع عليه الأنبياء، إشارة إلى أن استكمال الحقيقة الإنسانية إنما هو بأمرين تكميل القوة النظرية بالاعتقاد الحق المبني عليه سائر العقائد وهو التوحيد، فاعبدوه عبادةً صالحة لائقةً كما شرع اللَّهُ لكم ولا ينادي ذلك إلا بتكميل القوة العملية التي لا تحصل بالمواظبة على الطاعة التي هي الامتثال بالأوامر والانتهاء عن المناهي والتجافي عن الملاهي التي تورث للقلب القساوةَ وللعقل الغباوة.

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي الاستكمال المذكور وإلى الحق طريق مستقيم ومسلك قويم.

إشارة وتأويل

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عِمران: 41] لما وعد الله تعالى زكريا القوة العاقلةَ بالأصل بما يحيي به أرض وجودها أشار إلى ما يدل عليه بما هو من شرائطه وهو تمكين القوة الطبيعيّة وما يستخدم لإبقاء الشخص والنوع من القوة العادية والنامية وتوليد المثل وتعديل القوة الحيوانية بما يستتبعها من المبادئ الشهوية والغضبية وتفضيل القوة الملكية بتهذيب النفس بالأخلاق وتأديبها بإزالة الهيئات الردية وتخلية المرات الإلٰهية وهي القلب عن الأوساخ البشرية ليتجلى فيها ويشاهد ذاته بجميع أسمائه وصفاته الإلٰهية والكونية كما كانَ يشاهد في مرات عينه الثابتة في المرتبة العلمية والفطرة الأولية ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾ في هذه النشأة أي بجميع الأسماء والصفات بالصور العينية كما ذكرتَ ربك في الفطرة الأولى بالصور العلمية ﴿وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ

﴿وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ بعده في عشي عالم الكثرة عما يقدح الوحدة الأسمائية، ونزهته في عالم الوحدة عما يوجب التعطيل ويذهب التعديلَ ويثبت التفضيل.

يعني ﴿قَالَ﴾ زكريا القوة العاملة ﴿رَبِّ﴾ أي الذات الجامع لجميع الأسماء ﴿ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ﴾ في حصول غلام العلم الكلي والوصول إلى الشهود الأوَّلِي في ضمن الشهود الذاتي المتعلق بجميع الأسماء والصفات في تمام المراتب المحيط لعموم الأدوار ومقتضياتها من ظهور الأسرار وبروز أنواع الأنوار إنّه يقربني إليك ويشوقني وكمال الحضور لديك ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾ أي لا يلتفت ناس القوى البدنية والنفسانية والروحانية لتكلمها في أطوارها وبعدلها باستقامة مقتضاها وإقامة مرتضاها ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ في تكميل مبادئها وهي الطبيعية النفسانية والإنسانية الأرض ﴿إِلَّا رَمۡزٗاۗ﴾ أي إشارة خفية وبشارة سرية بلسان الاستعداد ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا﴾ [آل عمران: 41] ذكرًا وحمدًا بلسان الحال وبعض المقال في عشي الكثرة وبكرة الوحدة بحيث لا يقدح إحداهما الأخرى أو عشي الأجسام وبكرة الأرواح.

﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي اذكر يا زكريا القوة العاقلة وقت ذكر الأسماء الإلٰهية الفاعلية للأسماء الكونية القابلية، يا مريم أي الاستعداد القريب الجامع لتمام المعدات السابقة والمعدات اللاحقة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ﴾ أي اختارك لظهور أسرار الأسماء الألهية ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ عن دنس الموانع الظاهرة والباطنة ﴿وَٱصۡطَفَىٰكِ﴾ بظهور الأنوار الربوبية والأطوار العبودية وبجمعية الأسماء الإلٰهية والكونية وبجمعية مقتضاهما ﴿عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: 42] أي سائر القابليات العلوية والاستعدادات السفلية.

وفي «العرائس»: ﴿إِلَّا رَمۡزٗاۗ﴾ أحصر لسان نبيه ﷺ عن المكالمة والمجادلة مع غير الله ليتجرد سره وينفرد حاله ومفرده عن الروح أم الخلق وذكرهم والأدب أن من يطلب من اللّهِ تعالى شيئًا من المعاني الغيبية ورؤية كرامته وشهود معجزته فحري به أن لا يتحركَ لسانه بالفضولات وقلبه لا يخطر به شيء من طوارقات الوسواس وخوارقات الأنجاس حتى تكون ظاهرة وباطنة مشغولًا بالحق مغلولًا عن الخلق فإن التفرق إذا وقع في الظاهر يتشوش به الباطن وأجاز له الرمز ليدفع

ضيق قلبه ليرفع به صفوة قلبه وحقيقة الرمز تعريض السّر إلى السر وإظهارُ النفوس إلى النفوس وإعلام الخاطر إلى الخاطر لتحريك سلسلة المواصلة بين المخاطِب والمخاطَب وتحريك ما في بطن الطالب على ما في سر المطلوب وبالعكس.

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾ [آل عِمران: 41] الذكر الكثير هنا تخليص النية عن الخطوات وجمع الهمم في دفع الخواطر وشواغل الهموم بنعت تصفية السر في المناجاة وتحير الروح في المشاهدات لما أراد الله سبحانه وتعالى يا رب أهل محبته وإرادته بها أخبر عن معجزة زكريا واستجابة دعوته حتى إذا كشف الغيب واستجابت الدّعوة اعتزلوا عن الخلق وعن مجادلتهم وترك ما لا يعنيهم بقطع اللّسان لمعاريض الصمت وسكاكين الوقف والسكت وجعله رطبًا بذكر اللّٰهِ في أيام مناجاتهم بأمرهم.

﴿ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ﴾ [آل عِمران: 43] إشارة إلى الترقي والعروج وبيان أسبابه وشرائطه وهي كائنة عليه ثلاثة الشريعة والطريقة والحقيقة بطريق اللّف والنشر.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ خطاب إلى الطور الخفي المحمدي ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ أي عند الطور السري الشهودي ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾ [آل عِمران: 44] أي سهام أنظارهم في حضانة القابلية القريبة وإنما نفى كون الطور الخفي.

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ﴾ كلية جامعة أي تجلي محيط بأطوار تمام التجليات ومقتضيات أدوار الشؤونات في سنن النشأة. وإنّما ذكر مريم ثلاثًا إشارة إلى ما ذكر وإلى أنّ القوة القريبةَ بالوقوع إنما تكون في ثلاثة مواضع: السير إلى اللّٰهِ ومن اللّٰهِ وفي اللّٰهِ، ولذلك ذكر للكلمة ثلاثة اسم المسيح ﴿عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عِمران: 45] أي يكون له وجه حسن في السير إلى اللّٰهِ ومن اللّٰهِ وفي اللّٰهِ. قال الصادق رضي الله عنه: من حفظ سره عن أعداء اللّٰهِ وولايته عن المعتمد على الهدى جعله في الدنيا وجيهًا في الطاعات حيث قالَ: فاسألوا أهل الذكرِ لأنهم وجوهي في طاعتي ومقربًا إلى اللّٰهِ في طهارته حتى وجدوا الصفاوة في دار رؤيته.

قالَ صاحب العرائس: وجيهًا أي ملبسًا بأنوار الربوبية وفي كمال المشاهدة ألبسه الله خلقة الهيبة ليكون عظيمًا في أعين الناظرينَ من الفريقين المؤمنين

والكافِرينَ، وتكلم الناسَ في المهدِ أي لِتكلم القوى الثلاثة المذكورة في السير إلى اللَّهِ وكهلًا في السير في اللَّهِ ومن الصالحين في السّير في الله يعني ظاهرًا بالصفات العبودية بالنعوت الربوبية ثم بالنعت الجمعية لهما قالت أنّى يكون لي ولد أي القوة القريبة بالفعل أو القابلية القريبة بالقبول كيف يظهر مني علم كلي وشهود حقيقي أولي محيط بالكل متعلق بالأسماء العالية الإلٰهية والأسماء السفلية الكونية وأنا في مرتبة أسفل السافلين ولم يعانقني صفة جمعية وهيئة إحاطية معين، قالَ: كذلك الله خلق ما يشاء أي أمر الولد كأمرك، فإنك كنتَ في الأول لا شيئًا محضًا فأظهرتك لا من شيء بالفيض الأقدس ثم زيدك بالفيض المقدس الكوني بذريعة القوة العاقلة الزكرياوية يخلق ما يشاء ويطهر ويتعين بما يشاء كيف يشاء متى يشاء وأينَ يشاء إذا قضى أمرًا أي شاءَ وأرادَ أي شيء في قضاء قضائه، إشارة إلى الأعطيات الاستعدادية والقابليات الأولية الأصلية فإنما يقولُ لَهُ كن فيكون في عالم العلم (كن) فكانَ فيه بالوجود العلمي على وجه التفصيل بالوجود العيني والتعين الكوني، فلا فرقَ بين الوجودينِ أي العلمي والعيني وبين الاستعداد الأولي، فإنّ الكلَّ إنّما هو من المشيئة الذّاتية فالمشيئة عامة الإرادة تختص بإعطاء الوجودات، فلا تيأسي يا مريم القابلية القريبة عن الولد الجمعي فإنه فيكَ مكنون ونظرك عنه مكمون ويعلّمه الكتابَ أي الوصف الجمعي والتجلي الذاتي الإجمالي والحكمة أي التفصيل في التجليات والتفصيل في المكونات وظهور الذات في مرايا المضمرات وتجلي الصفات، والنورية أي تجلي الأفعال، والإنجيل أي تجلي الآثار.

قال الصادق: من طارَ من نفسه إلى قلبه ومن قلبه إلى محبته ومن محبته إلى طاعته وعبادته صارَ هاديًا إليه ناديًا للخلق لديه، مؤنسًا معه حيًّا بذكره، شافيًا من مرض الشقاوة ومفتخرًا باللَّهِ.

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [آل عِمران: 49] أي القوى والأعضاء ليجعل واحدًا منها مظهر لهذه التجليات ومظهرًا للسرالإلهي في الجمعية في الرّبوبية والعبودية والإلهية والكونية ﴿أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [آل عِمران: 49] أي بصفة الإلٰهية ونعت ربوبيته ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ﴾ أي القوة الاستعدادية ﴿كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾

أي صفة الخفاش النفس اللّوامة ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ نفخًا إلهيًّا لا بشريًّا ﴿فَيَكُونُ﴾ الفضل اللّوامة ﴿طَيْرًا﴾ أي طائرًا وسائرًا إلى الله بمشيئته وكمال أحديته ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ﴾ أي النفس الأمارة ﴿وَٱلْأَبْرَصَ﴾ أي النفس الملهمة ﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي الجسدَ وأجزاؤه والبدن وأعضاؤه في المراتب ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ﴾ [آل عِمران: 49] لغداء النفس الأمارة وما تأكله هو الشيطنة والجبلة والمكر والمنكرات: النفس الأمارة بالسوء وما يدخرها: هو النفاق والرياء والجهل المركب والكبر والعجب والعظمة والكبرياء وإن غذاء النفس اللّوامةِ تارة المعصية وتارة الندامة، وما تدخره الحقد والحسد وغذاء النفس الملهمة؛ الكسلة والغفلة والجهل البسيط تارة، وأخرى التنبه والاطلاع على معايب نفسها وغيرها وعلى ما يفندها من الطاعة والعبادة والورع والتقوى وما يدخره هو الغبطة ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: 8] وغذاء النفس المطمئنة الاطمئنان على الطاعة والاستقامة والثبات عليها ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: 28] وما يدخره الرّغبة على الطاعة والرجوع إلى باريها ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: 28، 29].

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ﴾ أي التجلي الصفاتي ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عِمران: 50] أي أرخص لكم وأبيح عليكم ما منع عنكم، فإن لكلّ قوة كما عرفت غذاءً وعبادةً وطاعةً يحل له ويحرم على غيره ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [سورة الكافرون: 1 ـ 6] وكذا لكل حاسة عالم يختص إدراكها كالألوان والأشكال والأضواء للباصرة والأصوات للسامعة وهكذا غيرهما وكذا لكلّ طور من الأطوار السبعة نوع من الإدراك والشهود ونور من أنوار الوجود فإذا جاء الإسلام الحقيقي وهو الدّعوة العامة العظمى والجمعية الكبرى نسخت الأديان كلها لاشتماله على الجميع وجئتكم بآيةٍ كليةٍ ودعوة أصلية وكلكم مفطورونَ عليها كل مولود يولد على فطرة الإسلام ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وارجعوا إليه ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ [آل عِمران: 50] واتبعوني في الدخول إلى دار السّلام ودين الإسلام.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عِمران: 51] يجب على الكل أن يسلكوه ويستقيموا عليه والله أعلم.

﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ﴾ أدرك وتحقق عنده ﴿مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ وإرادة قتلهم وقصدهم له تحقق إدراك الحواس الظاهرة فحيث قالَ استبصارًا عليهم ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ﴾ أي ظهيري وأعواني إلى دعوة الخلق إلى الحق لما خرج عيسى مع اللَّهِ هاربينَ إلى مصر عندَ ظهور الآيات المذكورة فأمره اللَّهُ بدعوة بني إسرائيل فساحَ مع أمه في الأرض فنزلا في قرية على رجل فأضافهم وأحسن إليهم وكانَ لتلك المدينة الأخيار معبد فجاء الرّجل يومًا مغتمًّا حزينًا فدخل منزله ومريم عندَ امرأته فسألت مريم عن حاله قالت إن لنا أميرًا جعل على كلّ منا أن يطعمه يومًا مع جنوده ويسقيهم الخمرَ، واليوم نوبتنا ولا نستطيع لها قالت مريم لزوجته: قولي له لا تحزن فإني آمر بني فيدعو الله عزَّ وجلَّ ليكفيكم فقالت لعيسى: فقال لئن فعلتُ ذلك لوقع شرٌّ قالت: لا تبالي قالَ: فإذا اقترنَ ذلك الوقت فاملأ قدورك وخوانينك ماءً فدعا عيسى فجعل الله القِدْر مِلاءً من اللّحم، والخوابرَ خمرًا، فلمّا أكل الملك وسقى الخمر سَألَ الرجل من أين هذا الخمر؟ قالَ: من أرض كذا قال: تكذِبُ خمر تلك الموضع ليس كذلكَ فلما شدد عليه قال: عندنا غلام لا يسأل الله شيئًا إلا أعطاه وقد كانَ للملك ابن يريد أن يستخلفه فماتَ قبل ذلك بأيّام فسأل الملك عيسى أن يدعوه ليحيي ابنه.

قال عيسى عليه السلام: لا أفعل فإنه إن عاشَ وقع الفتنة؛ فدعا اللَّهَ فعاشَ الغلام فلما رأى أهل القرية ذلك وثبوا على الملك وقصدوه فخرج عيسى من بينهم فمرّ بالحواريين وهم يصطادون السّمك فقال لهم: ما تصنعون؟ قالوا: نصطاد السّمكَ قالَ: فلا تمشون يعني لصائد الإنسان قالوا: وكيف ذلك ومن أنتَ؟ قال: أنا عيسى ابن مريم عبد الله ورسوله فآمنوا به وهم الحواريون وقالَ لهم: ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عِمرَان: 52] كانوا يلبسون الثياب البيض وسموهم بذلك لأنهم يحورون الثيابَ أي يبيضونها ولذا قال البعض كانوا أنصاريين والبعض على أنهم

صباغون فطبخ عيسى دنًّا واحدًا على لون واحدٍ وأدخل جميع الثياب المدفوعة إليهم ليصبغوا أصباغًا مختلفة في ذلك الدن الواحد فقالَ الحواريون: ما فعلت؟ فقال: انظروا فخرج منه ثوبًا أحمر وثوبًا أصفر وثوبًا أزرق وأسود ويعلمون أن ذلك من اللَّهِ تعالى فكانوا اثني عشر رجلًا فإذا جاعوا قالوا: يا رسولَ اللَّهِ جعنا فيضرب بيده على الأرض فيخرج لكل منهم رغيفان وكذا إذا عطشوا يضرب على الأرض يخرج منها الماء قالوا: يا روح اللَّهِ من أفضل منا؟ قالَ: من يعمل بيده ويأكل من كسبه وبكدّه، وقال البعض سموا بذلك لصفاء قلوبهم أو لأنهم كانوا ربانيّين يرى أثرَ العبادة ونورها وبهاءها على وجوههم سيماهم في وجوههم من أثر السّجود مأخوذ من الحور وهو البياض ومنهم من قالَ الحواريّونَ الناصرون ومن له صلاحية الخلافة وقالَ أيضًا:

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ﴾ من كتابك على عبدك عيسى ﴿وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾ أي الّذي أرسلته إلينا ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عِمرَان: 53] بوحدانيتك أو مع الأنبياء الذي يشهدون لأتباعهم أو مع أمّة محمّد عليه السلام فإنهم شهداء اللَّهِ على النّاس يوم القيامة.

﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾

﴿وَمَكَرُواْ﴾ أي الذين أحسَّ منهم الكفر وهم اليهود وذلك إن عيسى عليه السلام بعدَ الخروج من بينهم عاد إليهم مع حواريه وصاح فيهم بالدّعوة فهموا بقتله وتواطؤوا عليه فذاك مكرهم لأن أصلَهُ الظّلم ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ جازاهم على مكرهم أو فعل بهم ما فعل بأهل مكرٍ بعضهم ببعض إذ يعاملهم معاملة الماكرين ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: 54] أي أقواهم مكرًا وأقدرهم كيدًا وخدامًا وفكرًا وأشدهم عقابًا وأنكر من المخلوقين الخبّ والخديعة والحيلة ومن اللَّهِ الاستدراج بأنهم كلّما أحدثوا خطيّةً جددناهم نعمةً وأنسيناهم الاستغفارَ فحق عليهم العذاب سئِلَ جنيد البغدادي قدس سره كيف رضي الله المكرَ بنفسه وقد

عابَ غيره قالَ: لا أدري ما تقول ولكن أنشَدَتني فلانة الطبرانية:

فذنبك قد جبلَت علَى هَواكا   فنَفسي لا تنازعُني سِواكا
أحبك لا ببعضي بل بكلي   وإن لم تبق حبك لي فناكا
ويقبح من سواكَ الفعل عندي   وتفعل فيحسن مِنْكَ ذاكا

فقالَ الرّجل: أسألك عن الآية وتجيب بشعر الطبرانية فقالَ: ويحك قد أجبتك إن كنتَ تفعل فإن تخليتهم مع المكرمة مكر منهُ بهم قالَ أهل التاريخ: حملت مريم بعيسى عليه السلام وهي بنت ثلاث عشرة سنةً وأوحى الله تعالى على رأس ثلاثين سنة من ولادته ورفعه الله من بيت المقدس ليلة القدر من رمضانَ وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وكانت نبوته ثلاث سنينَ وعاش بعدَ مريمُ ست سنينَ فلما قصد بنو إسرائيل بقتل عيسى لحواريه جمع الحواريين وأوصاهم ثم قالَ لهم: ليكفرن بي أحدكم قبل أن يصيح الديك وسيبيعني بدراهم كثيرة فخرجوا وتفرقوا وكانت اليهود يطلبونه فأتى أحد من الحواريين إلى اليهود فقالَ لهم: ما تجعلونَ لي أن أدلكم على المسيح فجعلوا له ثلاثين درهمًا فأخذها ودلهم عليه وإذ دخلَ عليه ألقى شبهه عيسى عليه السلام عليه، فأخذوه فلم يجدوا غيره في البيت فقالَ: أنا الذي دليلكم عليه فلم يلتفتوا إلى قوله: وقتلوه وصلبوه ظنًّا منهم أنه عيسى هذا مكره بهم فلما صلب شبه عيسى جاءت مريم وامرأة كان دعا عيسى لها أو أبرأها من الجنون باكيتين عندَ المصلوب إذ جاءهما عيسى عليه السلام فقالَ: على ما تبكيان؟ قالتا: عَلَيك قالَ: إن الله تعالى قد رفعني ولم يصبني إلا خير وإن هذا شبيهي، فلما كان سبعة أيّام:

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾ تعالى ﴿يَٰعِيسَىٰٓ﴾ [آل عِمرَان: 55] اهبط على مريم المسجد فإنه لم يبك أحد بكاءها عليك ولم يحزن أحد حزنها يجمع الحواريون عليكَ فبثهم على الأرض دعاةً إلى الله فاهبط الله عليها فاشتعل الجبل وهبط نور فجمعت له

الحواريونَ فبثهم في الأرض دعاةً ثم رفعه، وهذه اللّيلة هي التي يدفن فيها النصارى قالَ الله: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ [آل عِمرَان: 55] أي مستوفي أجلكَ عاصمًا لك من قتلهم أو قابضك من الأرض أو متوفيك نائمًا فإن النوم أخ الموت.

قال الواسطي: إنّي متوفيك من شهواتك وحظوظ نفسك قالَ النبي ﷺ: «**الأنبياء أخوة العلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم لأنه لم يكن بيني وبينه نبي وإنه نازل على أمتي وخليفتي عليهم فإذا رأيتموه فاعرفوا فإنه رجل مربوع الخلق إلى الحمرة والبياضِ وهو سبط الشعر كأن شعره يقطر**» وإن لم يصبه بَلَلٌ يدق الصليب ويقتل الخنزير ويفيض المال ويسكن الروح أو لتقسمها جميعًا ويقاتل الناس على الإسلام حتى يهلك الله في زمانه الملوك كلها ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال الكذاب ويقع منه في الأرض الأمن حتى يَرْتع الأسود مع الإبل والنمور مع البقر والذئاب مع الغنم ويلعب الغلمان مع الحيات لا يضر بعضهم بعضًا ويلبث في الأرض أربعين سنة وفي رواية أربعًا وعشرين ثم يتزوج ويولد له ولد لأنه عليه السلام سأل الله أن يجعله من هذه الأمة فاستجابَ اللَّه دعوته ثم يتوفى ويصلّي الناس عليه ويدفنوه في حجرة النبي ﷺ. قيلَ للحسين بن الفضل: هل يجد نزول عيسى في آخرها والمهدي من أهل بيتي في وسطها.

﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي مخرجك من بينهم ومنجيك منهم قيلَ من سوء جوارهم وخبث صحبتهم ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾ في أحكام دينك ﴿فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ من اليهود بك وبدينك ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي يعلوهم ويفوقهم بالحجة أو السيف غالبًا متبعة من المسلمين والنصارى لم يسمع إلى الآن غلبتهم عليهم ولم يتفق دولتهم إلى أن يشاء الله ولم يساعدهم لشدة عداوتهم ولتجدنَّ أشدّ الناسِ عداوةً للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا الآية ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ الخطاب لِعيسى وتابعيه ومخالفيه جميعًا على طريقة التغليب على الغائب ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ المؤمنين والكافرينَ في الآخرة ﴿فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [آل عِمرَان: 55] في أمر الدّينِ.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بيان حال الفريقين ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بالقتل والسّبي والجزية والخزي والذلة ﴿وَٱلْآخِرَةِ﴾ من السّلاسل الأغلال وعذاب النار والأظلال ﴿وَمَا لَهُم﴾ في النشأتين ﴿مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: 56] مانعين.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ الكائنة بأداء الإيمان بالحق والعمل بمقتضاه ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عِمرَان: 57] الذين عدلوا عن طريق الحق.

﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي سبق من بناءِ عيسى وغيره مبتدأ ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَٰتِ﴾ خبره الجار والمجرور حال من الهاء ويجوز أن يكون خبرًا والفعل حالًا على أن يكون العامل معنى الإشارة أو خبرين ﴿وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عِمرَان: 58].

قال عليه السلام: هو القرار المشتمل على الحكم والمحكم الممنوع عن تطرق الخلل إليه قيلَ هو اللّوح المحفوظ وهو معلق بالعرش درة بيضاء أو الناطق بالحكمة وهو القرآنُ وصف بصفة من هو سببه.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ شأنه الغريب كشأن آدم ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عِمرَان: 59] أي خُلق أولًا أجزاؤه الكثيفة ثم جزء آخر لطيفًا وهو التعلق ثم أنشأناه خلقًا آخرَ الآية تفسير للمبالغة شبه الغريب بالأغرب ليكونَ أقطع للخصم

وأمنع لمادة المشبهة نزلت حين جاء وفد بحران مع علمائهم قالوا للرّسول ﷺ: ما لك تشتم صاحبنا قالَ: ما أقول؟ قالوا: نقول إنه عبد الله ورسوله قالَ: أجل قالوا: هل رأيتَ ولدًا بغير أبٍ فنزلت: ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عِمرَان: 59] أي أنشأ بشرًا وقدر تكوينه من التراب ثم كونه ويجوز أن يكون ثم للتراخي لا مخبره قيلَ لبعض النصارى: لم تعبدونَ عيسى؟ قالوا: لأنه لا أبَ له قالَ: فآدم أحق بالعبادة قالوا: لأنه يحيي الموتى قال فحزقيل أولى إذ عيسى أحيى أربعة نفر وحزقيل أحيى ثمانية آلاف وقالوا كان يبرىء الأكمه والأبرص فقال: قال فجرجيس أولى لأنه طبخ وأحرق ثم قام سالمًا فبهتوا فيكون ويتكون ويتحقق ويوجد في الحال لامتناع تخلف الحال المعلول عنه القلة التامة حكايةً عن حال ماضيه قيلَ يكون بمعنى كانَ.

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٦٠﴾

﴿ٱلْحَقُّ﴾ خبر مبتدأ محذوف ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ حال منه أو مبتدأ خبره إشارة إلى دفع توهم أن عيسى ليس كآدم لما له من الآيات الباهرة والأمارات الشاهرة والعلامات الظاهرة لا يكون خالفه الشيء أصلًا ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عِمرَان: 60] أي السالكين من أن الخالقَ هو الله لا عيسى لأنه مخلوق أو أن آدم مثل عيسى في المخلوقية وأصل الاحتياج على الخطاب عام وإن كان المورد خاصًا ولهذا قارنَ نفي الشك على أبلغ وجه وآكد حكم.

تأويل وإشارة

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ﴾ أي استشعر عيسى الروح والعقل من كفار القوى النفسانية ﴿ٱلْكُفْرَ﴾ أي الاستتار عن نظر القوة النظرية والاختفاء عن بصر المعرفة الفطرية.

﴿قَالَ﴾ عيسى الروح في مشاهدة شهوده ومدار وجوده ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ﴾ وأعواني في دعوة القوة المذكورة ودورات الأنوار المزبورة ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عِمران: 52] وأعيان الأطوار إلى اللّهِ قالَ الحواريون أو الأطوار المؤيدة والنفوس المؤدية والقوى المهدية نحن أنصار اللّهِ في الدعوة المذكورة وفي اصطياد أسماك

التوحيدات فإن لكل طور من الأطوار المستورة وقوة من القوى النفسانية والمبادىء الروحانية المزبورة كمالًا أوليًّا وتوحيدًا أصليًّا وعلميًّا كليًّا وحكمًا جليًّا مثلًا كمال الطور الطور القالبي والقوى الطّبيعية والأعضاء والأمكان والأجزاء أن يصل إلى التوحيد الآثاري والعلم الأولي والحكم الضروري الجلّي وكمال الطوري النفسي والقوى الحيوانية وهو التجلي العقلي والعلم النظري والحكم النظري وكمال الطور القلبي وهو التجلي الجمعي والإدراك المعني وكمال الطور السري وهو شهود التجلي الآثاري والصدي والتحقق به وكمال الطور الروحي شهود التجلي العقلي والعلم الحضوريّ والمخاطبات الروحية والمنازعات الروحية وكمال الطور الخفي وهو شهود التجلي الأسمى والتوحيد التواضعي وإدراك الشّهود وكمال الطور الخفي وغيب الغيوب هو الفناء الذاتي والتوحيد الذاتي والبقاء الإلهي وشهود اللقاء وأنواره الغير المتناهي آمنا باللّهِ بأن لا موجودَ ولا أثرَ ولا رسمَ ولا فعلَ ولا اسمَ ولا صفةَ ولا ذاتَ إلّا لله، واشهد بأننا مسلمون إشارة إلى كمال الثاني وإمكان حصول المعاني الأولى والثواني قالَ الصادق رضي الله عنه: النصرة فتح القلوب بذكر الله واشتغال النفوس بوفاء الأمر وطلب الخلوة في وفاء العبودية بالفراق على النفس.

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ﴾ علينا من العلوم والإدراكات وشهود التجليات ومعاينة التوحيدات في شهود حقائق الكائنات في حدود شقائق أسرار الأسماء والصفات ﴿وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾ في شهود جمعية الأحدية الذاتية والواحدية الأسمائية الأوليّة والأفعالية والآثارية الثابتة ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عِمران: 53] المشاهِدينَ مقام كمال الجمعية الإحاطية ونعت الكلية وصفة الأحدية الجمعية.

وفي «العرائس»: عاينوا بأبصار القلوب حقائق الغيوب ﴿وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾ فيما نحن أظهر منه سنن أوامرك وسنن نبايع مواهبك لتوصِلنا إلى التحقق بكمال محبّتك، ومكروا أي سقطوا عن مشاهدة سابق مكر الحق فإن مكرهم هذا إنما بسابق قضائه وسابق مشيئته ورضائه فأحيا لوامع أهل الولاية وصاحب الوحدة الجمعية بتدبر النفس إياهم، وكان مكرهم مكر الحق عليهم وهم لا يشعرون لأنهم مخدوعون بجبره وإخباره لهم على ما فعلوا فحسن الله مكرهم عند إرائهم إياه لهم

حسنًا، أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنًا والله خير الماكرين يكون مكرهم منه مع أنه تعالى يجازيهم عليه، قالَ الله: يا عيسى إني متوفيك أولًا من مشاهدة خصوصيات هويتك ومغايرة تعينات أجزائك ورافعك إليّ برفع الحجب عن وجه بصيرتك.

واعلم أن التحقق بهذا المقام مبني على معرفة الحياة والموت وكيفية نسبة حقائق الأشياء ووجوداتها إلى الله فليعلم أن اللّهَ تعالى لكونه نورًا في ذاته وظهورًا مبطنًا في ذاته لذاته لَه نسب وإضافات من ذاته والنسبة معلومة الآتية مجهولة الكيفية، فكل نسبة مخصوصة منها باعتبار إنها حصة من النور والظهور يكون عينًا من الأعيان ويكون النور محيطًا به في جميع أحواله الظاهرة والباطنة متصلًا به لاتصال المجاورة والمعية إذ الاتصال أيضًا مجهول الكيفية موصول الآنية، فإنه مع كل شيء لا بالمقارنة وبدون كل شيء لا بالمزايلة، والحياة ظهور النسب والموت خفى ظهور النسب عندَ الحِس الظاهري لوجوده في الخيال والوهم والذّهن ونفس الأمر ولو بالاعتبار.

قال عليه السلام: «**المؤمنون لا يموتون بل ينقلون من دار إلى دار**» ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ﴾ [آل عمران: 169، 170] الآية، فالرفع هاهنا إنما هو بيان رتبة صاحبه من مطلق الوجود بأن له به نسبة لا أنه انتقل من منزل إلى محل، رفع على (عليّ) ومطهرك من الذين كفروا عن لوث مشاهدة وخصوصياتها وجاعِل الّذين أتبعوك في الإعراض على شهوده خصوصياتها فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة أي القيامة العظمى فإن فيها تنحل القيود وتزول الجهات والمحل والحدود وتضمحل الأشياء إلى ما كانت عليه تعود. قال الصادق عليه السلام: ومن توفي عن همة الكافي فهو المطهر بالقدس الرافع إلى الله بحسن الآلاء وزين الكرامات فوق الأعداء وهو أن يزينه بذكره وأسمائه بحكمته وجعل في الدارين عدوه فداءه جلّ وعلا.

وفي العرائس: ﴿وَمُطَهِّرُكَ﴾ عن مثوبة البشرية ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ عن رسم الحدثية أو متوفيك عنك ﴿وَرَافِعُكَ﴾ منك ﴿إِلَيَّ﴾ [آل عِمران: 55] أو متوفيك منك وقابضك منك ورافعكَ منك إليّ أو متوفيك مني لأجيبك في ملأ لا لك لأن الفاني بفناء

كلّي باق ببقاءٍ كلّي لا يفنى أبدًا أما إذا نزلَ العارف من مقام المعرفة إلى معالم العلم لتضاعف الإدراكات يقوم مقام الجمعية بين الربوبية والعبودية فيترشح من إناء قلبه رشحات أنوار جلاله على الله على صفحات أجزائه الظاهرة وقواه الباطنة بصور الأحكام الشرعية ليكون جامعًا لأحكام النبوة وأسرار الألوهية وأنوار الولاية فأحكام الشريعة باقية ببقاء العارف ظاهرة مزينة بأنوار الأحكام الشرعية المحمدية وباطنة بأزهار أسرار الطور الروحي العيسوي ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: 59] أي من القوة القريبة من الفعل فإن القابلية إذا كملت في الباطن من أنوار القوة الفاعلية الكاملة في ذاتها بذاتها استغنى ظهور الأثر منهما عن سبب خارجي سواهما وإلا لتسلسل ولكون الاستغناءَ في آدم الّذي هو أوّل الأثر أتم فاستغنى عن السبب مطلقًا وأما في عيسى فلوقوعه بينَ الأسباب لا يكون الاستغناء على ما كانَ في آدم فاستغنى عن الأب الذي هو مظهر الفاعل الكامل بذاته أولًا وآخرًا غير منقطع اقتضائه وتأثره فلا يمكن أن يستغني عنه وأما الأم الّتي هي مظهر القابلية فلا يمكن أن يستغنى عنها أيضًا وإلا لم يكن الفرق بينه وبين آدم ولذا بين وجه الشبه بينهما بقوله من تراب قوله ثم قالَ له كن فيكون تشبيه آخر وهو لا يختص بآدم وعيسى بل يعمان تمام المركبات إشعارًا بأن الألوهية لا يخص بعيسى بل يعم الكل إذ الكل بحسب الحقيقة والذات مظهر الآلة فتخصيص عيسى تخصيص بلا مخصص وبحكم محض ولذا استغنى عن الأب الظاهري دون الأم فلا يكون أغربَ من آدم لوقوع الأول في آدم لظهور حواء منه.

واعلم إن الصورَ الجمعية الإحاطية والهيئة الكلية الكونية والإلهية والنسبة الإحاطية يقتضي أن يكون لها في العلم والعين مظهر كامل ومظهر فاضل يكون نسبتها إليه من حيث الفاعلية والقابلية على السّوية وهو الإنسان المعنوي والصوري ولذا لم يحتج في النشأتين إلى الأب والأم وإلى أهلية الفاعلية والقابلية الخاصة المخصوصة بخلاف المفردات والبسائط فإنه يحتاج إلى العلل البسيطة التامة والعلة في سلاسل العلل والمعلولات المفردة والبسيطة كالعقول والنفوس والأجسام فإن كلا منها يحتاج إلى الفعاليات والعلة الفاعلية المخصوصة المتعينة وذلك في العقول والجواهر العقلية، وأما الأجسام الفلكية فيحتاج إلى العلة

القابلية أيضًا وهي الهيولى والصورة الجسمية أو مطلق المقدار والوجدان أو الجواهر الفردية أو الأجسام الصغار التي ذهب إليه ديمقراطيس فإن كلًّا من الأفلاك وعقله ونفسه يظهر من الله تعالى بخصوصية اقتضاء كل من الأسماء السبعة الذاتية مثلًا يظهر عقل فلك زحل يذيعه باطن العلم ونفسه بظاهر العلم وجسمه بخصوصية جمعيتهما وكذا سائر الكواكب وعقولها ونفوسها وأجرامها هذا في فردانية الدورة الأخيرة الصغيرة من الأدوار الأربعة النور الجمالية وكذا صدر والعناصر الأربعة فلا يكون بذريعة هذه الأسماء السّبعة العناصر من الأربعة الأولى منها أعني العليمَ والحي والقدير والمريد والمواليد من الثلثات بصير ومتكلم فتدبر وتأمّل وتبصر وهذا لوجه عام جار في كل المواليد.

قال في العرائس: خلق الله الأرواح القريبة وحللها بنور المشاهدة فصارت تلك الأرواح من أصل واحد وإن كانت متفاوتة في الأحوال والمقامات والصور البشرية وجميع ذريته من الأنبياء والصديقين خلق من الملكوت الأعلى وسائر أولاده من الملكوت الأوسط فذكر الله أولًا خليفته من عالم الملك ثم ذكر ما صنع بروحه من تخصيصه بالقربة والكرامة والمشاهدة والعلم والمكاشفة والتفريد والتجرد والتوحيد فذكر أن روح عيسى في منازل القربات مثل روح آدم عليه السلام إلا أن لآدم خصوصية بأن أسجد له كل الملائكة لكمال تجريده مثلهم في عدم الاحتياج إلى الأبوين إلا أن جسدَ عيسى لكونه نفخ جبرائيل يكون ألطف من جسد آدم فيكون مضاهيًا للأجساد البرزخية والمثل الشبحية في اللطافة فلا يعد في أن يقال رفع إلى السماء الحسية ودخل فيها من غير الخرق والالتئام إلا أن الخطوط الشعاعية البصرية مع كونهما أكثف بمراتب من الحقيقة العيسوية والنفخ لجبرائيل من جمعيتهما مع أنهما تنفذ في آن واحد في السماوات إلى الثامنة ويقف فيها مع أنه لا خرق ولا التئام ولا ينفد فيها الشياطين والجان مع أبدانهم أكثف من أبدان الملائكة الحقيقة المسيحية ينفذ في السماوات فانفذوا لا ينفدون إلا بسلطان.

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عِمران: 60] هذا يطيّب لقلب حبيبه أي كما كنت قادرًا بخلق آدم وعيسى بكلمتي وقوة سلطاني فالإله قادر على إظهار ما وعدتك من أعلام أحكام دينك واقتناء أعلام شريعتك وإتمام نعمة المعرفة عليك

وعلى نفسك فلا يكن ملهوفًا من خطرات نفسك قالَ البعض في حق من ربك أنه لا يظهر شيئًا من المكونات إلا منه يحب سلطان كن.

قال الصادق رضي الله عنه: إن عيسى كانَ سره المكنون أظهره الله عندَ أمته بنزول روحه عليه وإن آدمَ من مكنون حكمته أدخل فيه روحَ أنسه ثم قالَ له: كن ذا عقل من الله أمره والحكمة فيما مثل الله عيسى ما قلنا بآدم.

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ﴾ لمن حاجك فيه أي من خاصمكَ في أمر بعدَ بيان حاله وتبين مقاله من بعد ما جاءك من العلم من البينات الموجبة للعلم بأنه عند رسول الله وفي الخلق مثل آدم بل آدم أشد خلقًا منه فقل تعالوا أي ارتفعوا أو اهملوا إلى الرأي الصائب والعزم الثابت والموالي التفكر والجزم الغالب لتبين الحق ﴿أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ أي يدْعُ كل منا ومنكم نفسه وأعز أهله وألصقهم بالقلب عندَ المباهلة والحمل عليها وإنما قدمهما على النفس إشعارًا بأن الرجلَ قد يكون الأمران المذكوران عنده أحب من نفسه إذ هو قد يخاطر بنفسه لهم ويحارب لهم ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ أي نتضرع في الدعاء ونخلص فيها ويبالغ عندَ النداء في الدّعاء بأن يكون الكاذب منا ملعونًا عندَ اللّهِ وعند النّاس ﴿فَنَجْعَل﴾ [آل عِمرَان: 61] وأصل الابتهال إنما هو هذا لازمه البُهلَة بضم الباء وفتحها وهي اللعنة والترك بهلت الناقة إذا تركتها بلا ضرار وبهله الله لعنه وأبعده من رحمته هذا هو أصل الابتهال إلا أنه قد يستعمل في كل دعاء يجتهد فيه.

روي أنه لما دعاهم إلى المباهلة قالوا: دعنا وأنفسنا حتى نرجع وننظر فلما تحاولوا قالوا للعاقب وهو رجل نحرير سقيف يا عبدَ المسيح ما ترى في أمرنا هذا؟ قالَ: والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمدًا نبي مرسل ولقد جاءكم بالفضل من أمر صاحبكم والله ما باهل قوم قط فعاش كبيرهم ونبت صغيرهم ولئن فعلتم

لتهلكن ما بقي من أحد فجاء الرسول محتضنًا بالحسنين آخذًا بيد حَسَنٍ وفاطمة تمشي خلفه وعلي خلفها فقال: ماذا دعوت فأمنوا. فقال: أسقفهم يا معشر النصارى صالحوه برؤيا ولا تردنا عن ديننا على أن تؤدّوا إليه كل سنة ألفي حلة ألف في صفر وألف في رجب وثلاثين درعًا من حديد فصالحَهم.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾﴾

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي ما ذكر من مريم وعيسى عليه السلام ﴿لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّۚ﴾ والفصل بين اسمها وخبرها بالجملة يفيد أن ما ذكر في حقهما وقصتهما ثابت وحق ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ لا شريكَ له في الألوهية ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب في ملكه المنعم عمن عصاه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عِمران: 62] في أمره أي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد من خلق عيسى بلا أب وخلق آدم بلا أب وأم من تراب ومنه خلق بنيه بأب وأم.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أي أعرضوا عن الحق وأبوا عن الإيمان به ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [آل عِمرَان: 63] وهو وعد شديد لهم بقوله: زدناهم عذابًا فوق العذاب بما كانوا يفسدون.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ نزل حيث قالت اليهود نحن على دين إبراهيم فإنه كانَ يهوديًا وقالت النصارى نحن على دين إبراهيم لأنه كان نصرانيًا فأمر الله عزَّ وجلَّ قل يا محمد فقالَ عليه السلام: كلاهما يرى منه ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾ أي كلام واحد ﴿سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عِمرَان: 64] لا تختلف فيه الكتب السماوية وبها يرتفع ألّا

هو المتباينة والآراء المتخالفة ﴿أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ بيان للكلمة ﴿وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾ كما فعلت اليهود اتخذوا أحبارهم ورهبانهم وأنبياءهم أربابًا من دون الله فقالوا عزير ابن اللّهِ والنصارى المسيح ابن الله ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ وأعرضوا وانصرفوا من هذه الوجوه وامتنعوا وانحرفوا من هذا التوجيه ﴿فَقُولُواْ﴾ أنتم لهم ﴿ٱشۡهَدُواْ﴾ واعلموا يقينًا ﴿بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عِمرَان: 64] مخلصونَ للّهِ بالتوحيد والعبادة.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٥﴾

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ﴾ تخاصمون ﴿فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ أي دينه زاعمين أنه على دينكم ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ﴾ على موسى وعيسى واليهود والنصارى ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾ وأنتم سميتم أي باليهودية والنصارية بعد نزولها ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [آل عِمران: 65] أي لا تدركون بطلانَ قولكم بطريق العقل وأسلوب الدليل والنقل فتجادلون بالمحال إذ بين إبراهيم وموسى ألف سنة وبين موسى وعيسى ألفي سنة فكيف يكون ما قلتم.

﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٦٦﴾

﴿هَٰٓأَنتُمۡ﴾ مبتدأ وها للتنبيه ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ خبره مع تكرار التنبيه على أنهم غفلوا عن حالهم التي نهوا عنها ووبخوا بها ﴿حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ من أمر إبراهيم وموسى وعيسى خبر ثان أو مبين للجملة الأولى أي أنتم هؤلاء الخفي حالكم أنكم جادلتم فيما لَيس لكم به علم وما وجدتموه في التوراة والإنجيل عنادًا وتدعون وروده وقيلَ: هؤلاء موصول بمعنى الذين أصله أنتم على الاستفهام لِتعجب من كمال حماقتهم جعلت الهمزة هاءً ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ﴾ [آل عِمران: 66] هذا الاستفهام تنبيه على أنهم أقلُّ وأدنى في الإدراكات من التصورات والتصديقات من البهائم لأن البهائم إذا وجدوا في طريق أو من أمر أو رفيق ومن صاحب غير

شفيق مضرة فإذا وصلت ثانيًا إليه لم تجبر عليه ولا تميلُ لديه ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾ حالكم ومآلكم في مالكم ومآلكم ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [آل عِمران: 66] قبح حالكم ولا من مآلكم.

﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧﴾

﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ﴾ والتصريح على ما أفاد البرهان تصريح على غاية حمقهم ونهاية رداءة حالهم ﴿يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا﴾ مائلًا عن العقائد الزائغة والفِرَق الباغية ومعاقد الطوائف الطائفية ﴿مُّسۡلِمٗا﴾ منقادًا للَّهِ ليس المراد أنه كان على ملة الإسلام وإلا لاشتركه الإلزام ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [آل عِمران: 67] تعريض بأنهم مشركون لإشراكهم به عزيرًا ومسيحًا ورد على المشركين أي أخصهم لادعائهم أيضًا أنهم على ملّة إبراهيم.

﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٨﴾

﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ﴾ أي أخصهم وأقربهم من الولي وهو القرب وأحقهم بدينهم ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ وافقوه في زمانه وبعده خبر إن واللّام للتأكد أو توطئة القسم ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾ عطف على الذين ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وبما جاء به لموافقتهم له في أكثر ما شرع لهم ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آل عِمران: 68] ينصرهم ويجازيهم جزاءً حسنًا لإيمانهم وحسن متابعتهم قال: لكل ولاة من النبيين وإن وليي منهم ربي وخليل ربي ثم تلا هذه الآية.

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٦٩﴾

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [آل عِمران: 69] أي أرادت وتمنت نزلت حين دعا لما هاجَرَ جعفر بن أبي طالب وأصحابه إلى الحبشة وهاجر رسول الله بعده إلى

المدينة ثم وقعت حادثة البدر الأولى اجتمعت قريش في دار النبوة وقالوا إن لنا في الّذينَ عندَ النجاشي من أصحاب محمد ثأرًا بمن قتل منكم يوم بدر فاجمعوا مالًا فأهدوه إلى النجاشي لعله يدفع من عنده إليكم فبعثوا عمرو بن العاص وعمار بن معيط، فلما دخلا على النجاشي سجدا له وقالا: أن قومنا بعثونا إليكَ لنطلب منك هؤلاء القوم الذين قدموا عليكَ، وقد بُعث بيننا رجل يدعي النبوة.

فبعث ابن عمه هذا بجماعة ليردك عن دينك فاحذرهم وابعثهم إلينا وآية ذلك أنهم إذا دخلوا عليك لم يسجدوا لك.

فدعاهم النجاشي فلما حضروا رفع جعفر الصوتَ يستأذنك حزب الله فلما دخلوا عليه قال عمرو: كيف يزعمون أنفسهم حزب الله؟ ما أجابه النجاشي. إنهم يستنكرون أن يسجدوا لك! فسأل النجاشي جعفر عنه، أجابه: بأن اللّهَ بعثه فينا نبيًّا صادقًا وهو يأمرنا بالإسلام وهو تحية أهل الجنة فعرف النجاشي أنه أحق. فقام عمرو وقالَ: إن قومنا يطلب منك هؤلاء. فقالَ النجاشي: هذا تحكم؟ فقالَ جعفر: اسأله يا ملك منك نسأل هل نحن عبيد أم مديون أم قتلنا من غير حق منهم. قال عمرو: لا إلا أنا كنا على دين واحد وأنتم تركتم واتبعتم دينًا آخر. قالَ النجاشي: ما هذا الدين؟ وما الذي تركتم؟ قالَ جعفر: أما الدّين فكان دين الشيطان وأما الذين اتبعنا فهو دين الحق وهو دين الإسلام جاءه نبي من الله ومعه كتاب مثل كتاب عيسى وموسى. فقال النجاشي: يا جعفر تكلمت بأمر خطر. فأمر النجاشي أن يضرب الناقوس فاجتمع إليه كل قسيس وراهب فقالَ النجاشي: أنشدكم بالله هل تجدون بين عيسى وبين يوم القيامة نبيًّا مرسلًا؟ فقالوا: نعم قد بشر عيسى بأنه من آمن به فقد آمن بي ومن كفر به فقد كفرني. فقالَ النجاشي لجعفر: ما يقول هذا الرجل وبما يأمركم ومن أي شيء ينهاكم؟ قالَ جعفر: يقرأ علينا كِتاب اللّهِ ويأمرنا أن نعبد الله ولا نشركَ به شيئًا. فقالَ: اقرأ علينا شيئًا منه. فقرأ عليه سورة العنكبوت والروم، ففاضت أعين النجاشي وأصحابه من الدّمع وقالوا: زدنا من هذا الحديث الطيب فقرأ عليهم الكهفَ فقالَ عمرو: إنهم يسبون عيسى وأمه مريم، فقرأ عليه سورة مريم فلما بلغ ذكر مريم وعيسى رفع النجاشي الصوتَ وقالَ: والله ما زاد المسيح على ما يقولونَ.

هذا ثم قالَ لجعفرَ وأصحابه: اذهبوا بأرضي وسيروا أين شئتم. فقال عمرو: يا نجاشي من حزب إبراهيم؟ قالَ: هؤلاء الرهط وصاحبهم الذي جاؤوا منه، فردّ النجاشي إلى عمرو ما أهداه ﴿لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ أي أرادت وتمنت أن يصرفوكم عن دين الإسلام إلى دين الكفر والضلالة نزلت إذا دعا اليهود معاذًا وحذيفة وعمارًا رضي الله عنهم إلى دينهم ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [آل عِمرَان: 69] إنه وما وبال إضلالهم إلا عليهم فوق عذاب كفرهم وما يصرفونَ عن الإسلام إلا أمثالهم وأكفاءهم في الدناية وعدم الديانة وهم لا يدركون ذلك إلا انتفى عنهم الإدراك الحسي والشعور النفسي.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ۝٧٠﴾

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي بما نطقت التوراة والإنجيل به ودلت على نبوة محمدﷺ ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [آل عِمران: 70] وأنتم تشهدون وتقرؤون بأن بعثته مذكورة في الكتابين أو يعلمون بالمعجزات إنه أحق وتشهدون في الخلاء الخفية وينكرون في الملأ كما مرت الإشارة إليه بعكس أرباب النفاق ولا يلزم منه أن يكونوا من أصحاب الوفاق لانتفاء الانطباق الظاهر والباطن بالاتفاق.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٧١﴾

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ﴾ أي دين الحق وهو الإسلام أو بعث محمد ﷺ الثابت في التوراة والإنجيل أو المراد التوراة والإنجيل ما فيهما من صفة محمد ﷺ ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أي باليهودية والنصرانية أو بالتحريف ويجوز أن يكون المراد بالحق التوراة وبالباطل التغيير والتحريف أي بالمحرف والمغير الذي كتبتم بأيديكم أو بإبراز الباطل في صورته ﴿وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ أي نبوة محمد وبعثه المكتوبتين في الكتابين ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عِمرَان: 71] عالمين بأنكم كتمتم الحق.

تأويل وإشارة

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ الخطاب بطور غيب الغيوب المحمدي أي من خالفك من القوى الروحانية والمبادىء النظرية في الطور الروحي العيسوي في التوجه إلى الحقيقة الكلية العليا والإلهية الإحاطية الأولى واعتكف على الربوبية العيسوية ولم يقعد على الأفق إلا على فضل ﴿فَقُلْ تَعَالَوْاْ﴾ تهيأوا وأعدّوا ﴿نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ﴾ أي علومنا ومعارفنا ﴿وَنِسَآءَنَا﴾ أي أفعالنا الطبيعية ﴿وَأَنفُسَنَا﴾ أي حقائقنا الأولية وماهيتنا الأصلية الروحية والعقلية وألسنتكم مثل تلك ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ [آل عِمرَان: 61] أي نتضرع إلى ربنا الأعلى ونتوجه إليه بكمال الخشوع والافتقار والخضوع في الأولى والأخرى، الابتهال: وهو غذاء القلب على ثلاثة أنواع: ابتهال العبد والحر والمعتق، فالحر يبتهل إلى نفسه والعبد إلى روحه والمعتق إلى ربه لكونه معتقًا لقوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: 2]، ابتهل إلى اللّهِ ودعاهم إليه فإذا وصلوا إلى ربهم الأعلى ظهر كذب ما ادعوا باستحقاق ربوبية ما سواه من الأرباب، وسبب الأسباب لأنه رب الأرباب وينفتح إليه تمام الأبواب لا غيره.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ أي ما جرى بين الطور الخفي المحمدي وبين الطور الروحي العيسوي وبين القوى المذكورة مثبتًا لحقيقة الحال وحقيقة المآل. فظهر أنه ما من إلٰه إلا الله المحيط بالكل وإن الروحَ العيسوي أحصر منه لا يستحق الربوبية ولا يتحقق له الألوهية وإلا فآدم أحق منه بها لكونه أعزبَ ومن الألوهية أقربَ ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ القاهر على الكل الغالب على الجزء والكل المنتقم عن الجميع بالإرجاع والإعادة إلى حضرة جبروته ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عِمرَان: 62] الذي حكم في ملكوته الأعلى والأدنى في نقباء الكل واستهلاك الجميع وتمام السبيل.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي يا ذا التجليات الآثارية ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عِمرَان: 64] قال الصادق عليه السلام: «**الكلمة ريحان الله والعبادة بستانه والتوحيد نهره والإسلام غذاؤه والشهادة ماؤه والتوراة والإنجيل هما نهره والقرآن ماء الله يجري بينهن ويسقي ريحانه فمن شم هذا الريحان صار متوليًا مع الأولياء**».

﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ﴾ أي الطور القلبي فإنه وإن كانَ نظرًا إلى الاعتبار متوسطًا إلا أنه في الحقيقة متقدم فإن حقيقة القلبِ هي الصور الجمعية للأحدية والواحدية والأطوار السّبعة يتوارد عليها في الاعتبار نظرًا إلى الوجود الخارجي ألا ترى أن حقيقة القلب الصنوبريّ الجسماني متقدمة في الفكر متوسطة في التعين الكوني فإن النطفة إذا استحالت في الرحم مضغة فحقيقة القلب يظهر فيها **أولًا**: بصورة النقطة الواحدة في الوسط وهذه النقطة وهي مادة القلب وهيولاه ثم تنبط هذه النقطة وتصير نقطتين إحداهما من يمينها.

والثانية: من يسارها فالأولى مادة الدّماغ والثانية مادة الكبد ثم يتكون سائر الأعضاء يمينًا ويسارًا فكما أن للقلب تقدمين أولي وأولوي كذلك لإبراهيم تقدمان أولي على الأنبياء الشارحة وأولوي شرقي يكون نسبته إلى الكل على السواء فلا يكون ﴿يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا﴾ مسلمًا ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عِمرَان: 67] ولا شكّ أنَّ الحقيقة حينئذٍ متقدمة على الأحوال المتقدمة ويكون نسبته إلى الكل على السوية.

قالَ الصادق: ما كانَ إبراهيم مائِلًا إلى النفس ولا إلى الروح لكن المولى حنيفًا مستقيمًا معه لا يختار عليه سواه يقول ما كانَ إبراهيم مشبهًا ولا منزهًا ليلزم التضليل والتعطيل ولكن كان حنيفًا مسلمًا أي متوسطًا بينهما جامعًا لهما إن أولى الناس بإبراهيم قالَ الصادق: الخليل كان ولاية المصطفى والمصطفى كان ولاية الله والمولى كان ولي المؤمنينَ فمن كان في ولاية غيره فصاحب الولاية كان أولَى بولايته وماله من غيره كما قالَ عليه السلام: «**أنا أولى بكل مؤمنٍ ومؤمنة من أنفسهم وأموالهم**» إلى آخره للذين اتبعوه في الشّرائع الظاهرة والبدائع الباطنة من أفعال النفس وأحوال القلب من الملكات الفاضلة والأخلاق الكاملة وأطوار السر والروح والعقل الخفي وغيب الغيوب من التجليات الآثارية والأفعالية والصفاتية والذاتية ودت طائفة.

قال الصادق: من سبقته قسمة العدل حجبته عن الفضل وصارَ باب العقل دائرًا في الكفر لا يجد إلى باب الأنبياء دليلًا ولا إلى الإقرار سَبيلًا فيبقى متحيّرًا فيما بين دوران الباطلِ وكتمان الحق حتى هلك من هلك وبقي من بقيَ.

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ نزلت حينَ قالَ كعب بن أشرف ومالك بن ضيف وأتباعهما من اليهود آمنوا أظهروا الإيمان ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ﴾ بالقرآن الذي ﴿أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾ أول النَّهار الذي هو أحسنه وأبينه هو ظرف الأمر إلا الماضي ﴿وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ﴾ أي أظهروا الكفر آخر النهار بالارتداد وصلوا الصّلاة نحوَ الصخرة ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي يرجى المسلمونَ أنهم لما شاهدوا منكم هذا الارتداد شكرا في دينهم، وقالوا: لو كانَ هذا الدين حقًّا لما رجعوا هؤلاء عنه وهذا إنما كانَ بعد صرف القبلة نحو الكعبة وكون هذا الأمر شاقًّا عليهم ﴿يَرْجِعُونَ﴾ [آل عِمران: 72] عن دينهم ويصرفون قبلتهم إلى قبلتنا بفعلكم هذا. قيلَ: اتفق اثنا عشر نفرًا من أحبار خيبر بأن يدخلوا في الإسلام أول النهار ويكفروا آخره قائلين بأنا نظرنا في كتابنا ما وجدنا فيه نعت محمد بل وجدنا خلافه.

﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾

﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ هذا من كلام اليهود أي لا تؤمنوا أو لا تصدقوا إلا لمن تبع دينكم اليهود ووافق قبلتكم في الصلاة عطفًا على الأمر أو كلام المؤمنين قالوا: لا تعتمدوا إلا لمن تبع أحكام دينكم لكمال الإخلاص ووفور اليقين أو للاستئناف ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ يلطف بمن يشاء ويوصله أو يدله دلالةً موصلة إليه وتنحصر الهداية على هداية الله إذ لا عبرةَ لهداية غيره فيكون الاهتداء جملة اسمية اسم وخبر لأنه تسلية للرسول أو تنبيه عليه فلا يضره كيدكم وحيلكم لأنه في كنف اللَّهِ وعصمته وحصن حمايته ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾ [آل عِمرَان: 73] متعلق بمحذوف أي ولا تؤمنوا أن يؤتى أحد عطفًا على ما سبق من كلام اليهود وتشويقًا لهم وتثبيتًا على دينهم، لا تؤمنوا ولا

يعتقدوا كون إعطاء أحد من العالم مثل إعطائكم من العلم والحكمة والكتاب والحجة الكاملة والمعجزات الفاضلة كالمن والسلوى وفلق البحر وانشقاق العيون من الحجر وغير ذلك، أو ولا تظهروا إيمانكم بأن يعطي أحد مثل ما يعطيكم إلّا لأشياعكم ولا تفشوا إلى المسلمين لئلا يزيد ثباتهم ولا إلى المشركين لئلا يرغبوا إلى الإسلام قل إن الهدى هدى الله اعتراض يدل على أن كيدَهم لا يجدي أن يؤتى أن قرأ بالفتحِ يكون في محل النصب مفعول ولا تؤمنوا وإن قرأ بالكسر يكون نافية فيكون من كلام الطائفة أي قولوا لهم ما يؤتى أحد مثل ما أوتيتم.

﴿أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْۗ﴾ عطف على أن يؤتي وجمع الضمير يكون أحد بمعنى الجمع أو المعنى غير اتباع اليهود على الوجهين الأولين وعلى الثالث معناه حتى يحاجوكم عندَ ربكم فتفرغوا باطنكم بحقهم وتدحضوا حجتكم ويغالبونكم عند اللّهِ يوم القيامة قيد المنفي لا النفي ويجوز أن ينصب أن يؤتيَ بفعل مضمر يدل عليه قوله ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم كأنه قيلَ: قل إن الهدى هدى اللّهِ فلا تنكروا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم لأن الله واسع المغفرة وعام الرحمة قادر على أن يبعث نبيًّا مثل نبيكم بل أفضل وأن يعطيه كتابًا وعلمًا مثل كتابكم وعلمكم أو أكبر وأكثر كما كان خضر عليه السلام استدعى موسى عليه السلام متابعته هل أتبعك على أن تطمئن ممّا علمتَ ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ أي الهداية والتوفيق والعلم والكتاب بقدرته وإرادته ومشيئته ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۗ﴾ من عباده ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ أي كثير الفضل ﴿عَلِيمٌ﴾ [آل عِمران: 73] بمن هو أهله واستحق إحسانه وفضله.

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ﴾ نبوته وولايته وحكمته ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من عباده المخلصين ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [آل عِمران: 74] ذو المن الجزيل والأجر الجليل بمن اختص بدين الإسلام وإنما أجملَ القول ليبقى معه رجاء الراجين وخوف الخائف رد عليهم حيث زعموا أنهم مختصون بمزيد العلم والحكمة وبالنبوة حيث صرحوا بأن لا نبي بعدَ موسى وإن دينه مؤبّدٌ.

﴿۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ﴾ وبعض من اليهود وأن يجعله أمينًا أهلًا لحضانة الأمانة ﴿بِقِنطَارٍ﴾ مال كثير ﴿يُؤَدِّهِۦٓ﴾ بالجزم على أنه جزاء للشرط وبسكون الهاء أجرى في الوصل مجرى الوقف وبكسرها وإلا على الياء أو بالياء على الأصل الموصولة مبتدأ ومنه الجار والمجرور وخبره ﴿إِلَيْكَ﴾ يرد ذلك المال إليك وهو عبد الله بن سلام أودعه رجل ألفا مائتي أوقية ذهب فأدّاها إليه فمدحه الله تعالى ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ كفنحاص بن حاذ.

وقيل: كعب بن أشرف فإن رجلًا من قريش استودعه دينارًا فخانه وفي بعض التفاسير إن الموحدين هم النصارى والخائنين هم اليهود إذ الغالب على النصارى الأمانة وعلى اليهود الخيانة ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ﴾ أي لا يؤديه إلا حالة ملازمتك ومدة دوامك ولزوم قيامِكَ بالحجة متقاضيًا عليه فصاحبَ الحق عليه هذا إذا لم يجد إلى الإنكار سبيلًا وإلا فالإنكار متبع.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الخيانة وترك الأداء ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟﴾ أي بسبب قولهم واعتقادهم بأنه ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ﴾ أي مالَ العرب الذين لا يكتبونَ ولا يعلمون كمن نشأ عند الأم ونمى الجهل لا من رباه الأب، والنعم بالعلم والفضل هو الّذي بعث في الأميين رسولًا ﴿سَبِيلٌ﴾ إثم وخرج ما على المحسنين من سبيل أي ليس علينا في شأن من ليسوا أهلَ الكتاب ولم يكونوا على ديننا عتاب وذم في أخذ مالهم بأي وجه كانَ من الله فإنهم يستحلون مالَ مخالفيهم في الدين مستندًا إلى ما في التوراة على زعمهم الباطل ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ من ذلك وحي من الله على نبيه في التوراة ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عِمرَان: 75] بكذبهم وافترائهم على الله فإن الله تعالى أمرهم فيها بأداء الأمانة إلى أهلها.

مطلب: أداء الأمانات

﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧٦﴾

قيلَ عاملت اليهود رجالًا من قريش فلما أسلموا تقاضوهم فقالوا: سقط حقكم حيث تركتم دينكم وزعموا أنه كذلك في كتابهم عن النبي ﷺ إنه قالَ عندَ نزولها: «**كذب أعداء الله ما من شيء في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي إلا الأمانات فإنها مؤداة إلى البر والفاجر**» ﴿بَلَىٰ﴾ إثبات لما نفوه بلى ليس عليهم فيهم سبيل ويجب عليهم الاتقاء ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ﴾ أي الله الذي عهدهم عليه في التوراة وأخذ ميثاقهم لديهم من الإيمان لمحمد وأداء الأمانة إليه ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ الشرك والخيانة ونقض العهد فإن ذلك محبوب عند اللَّهِ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عِمرَان: 76] استئناف مقرر للجملة التي سدت ﴿بَلَىٰ﴾ مسدها والضمير المجرور لِلَّه أو لمن على الحذف وعموم المتقين ناب الراجع من الجزاء إلى من وأشعر بأن التقوى ملاك الأمر ونعم الوفاء وغيره من أداء الواجبات والاحتساب عن المناهي.

قال عليه السلام: «**ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صلّى وصام وزعم أنه مؤمن: إذا حدّث كذب وإذا وعدَ خلف وإذا اؤتمِنَ خانَ**». وأيضًا: «**مَن اؤتمن على أمانة وأداها ولو شاء لم يردها زوّجَه الله تعالى من حور الجنة ما شاء**»، وأيضًا: «**التاجر الصادق والأمين مع النبيين والشهداء**». قال عليه السلام: «**أداء الأمانة يجلب الرزق والخيانة تجلب الفقر**». قيلَ: أكمل الديانة ترك الخيانة وأعظم الإفلاسِ خيانة الناس.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٧﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ﴾ يستبدلونَ ويقابلون ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ بما عاهدوا عليهم من الإيمان بالرسل والوفاء بالأمانات ﴿وَأَيْمَٰنِهِمْ﴾ بما خلفوا به من قولهم والله لنؤمننَّ به ولننصرنَّه ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عِمران: 77] عوضًا يسيرًا من متاع الدنيا نزلَ حين ادعى

رجل على رجل ولم يكن له بينة وهو صاحب الحق فأراد المدعى عليه أن يحلف بالله كذبًا ليأخذ المالَ أو حين حرّف اليهود نعت محمد وعهد الله الذي عهد إليهم في التوراة وكتبوا فيها غيرهما لأجل منافع الدنيا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ﴾ أي لا حَظَّ ولا نصيب لهم ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أن أشعث بن قيس ورجل اختصم عندَ الرسول في أرض كانت له عندَ أشعث فقال عليه السلام: «**أقم بيّنتك؟**» قالَ الرجل: من يشهد لي على أشعث فأمر أشعث أن يحلف قال: إني أشهد اللّهَ وأشهدكم أن خصمي صادق فرد عليه الأرض.

قالَ عليه السلام: «**إياكم واليمين ألف مرة فإنها تدع الديار بلاقعَ**»، وقالَ أيضًا: «**اليمينَ الفاجرة يعقم الرحم**». عن أبي هريرة رضي الله عنه اليمين الفاجرة منفقة السلعة ممحية للكسب ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ كناية عن غضب اللّهِ عليهم بدليل ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ فإن من سخط على غيره واستهانه أعرض الله عنه ولا يتكلم معه ولا يلتفت إليه ولا يتوجه نحوه.

قالَ عليه السلام: «**ما نظر الله إلى شيء إلا رحمه ولو قضى أن ينظر إلى أهل النار لرحمهم ولكن قضى أن لا ينظر إليهم**» ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمۡ﴾ لا يطهّر عن الآثام عما يقتضي العذاب والآلام ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [آل عِمران: 77] مؤلم.

﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٨﴾

﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا﴾ من أهل الكتاب لطائفة وهم كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وأبو ياسر وشعبة بن عمر الشاعر ﴿يَلۡوُۥنَ﴾ يحركون ﴿أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي لقراءة الكتاب بالتحريف والتغيير حيث غيروا نعتَ محمد ﷺ ونبوته وآيةَ الرجم المراد بتحريفهم الكتاب بألسنتهم في التلاوة أو في التأويل فيميلونها عن المنزّلِ أي المحرف ﴿لِتَحۡسَبُوهُ﴾ أي لتعددوا المحرفَ باللسان والكتابة ﴿مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ المنزل والخطاب للمسلمين وكذا أن قرأ على الغائب أي ليوقعنكم تحريفهم في الظن بأن المحرف من التوراة ويجعلونه جزءًا منها والحال أنه ﴿وَمَا

﴿هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ المنزل ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي اليهود ﴿هُوَ﴾ أي المحرّف المكتوب بأيديهم منزل ﴿مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [آل عِمرَان: 78] أنه ليس من عندِ اللّهِ هذا القول تأكيد لقوله وما هو من الكتاب وتشنيع عليهم وتسجيل وبيان بعد بيان وتأكيد بعد تأكيد لتوغلهم في الإنكار مرة بعد أخرى نزلت في اليهود والنصارى جميعًا لإلحاقهم بهما ما ليسَ منهما وأسقطوا منهما الدينَ الحنيف.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ٧٩﴾

﴿مَا كَانَ﴾ اللائق والحقيق.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ أي عيسى ﴿أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ﴾ أي يعطيه ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي الإنجيل هذه الجملة في محل النصب خبر كانَ ﴿وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ أي الفهم والعلمَ أو إمضاءَ الأحكامِ وتبليغها ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قالَ ابن عباس وعطاء: ما كان بشر يعني محمدًا ﷺ أن يؤتيه الله الكتابَ أي القرآن وذلك أن أبا رافع القرظي من اليهود والرّئيس من نصارى أهل نجران قالا: يا محمد أتريد أن نعبدَك فنتخذك ربًّا؟ فقالَ الرسول: «**معاذ اللّهِ أن نعبد غير الله أو نأمر لعبادة غيره ما بعثني الله لذلك ولا بذلك أمرني**» فيكون تكذيبًا وردًّا على عبدةِ عيسى واليهود، والبشر جمع كالرهط والقوم والجيش لا واحد لَهُ ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ أي يقولوا كونوا ربانيين أي منسوبين إلى الرب بزيادة الألف والنون وهو الكامل في العلم والعمل أي الحكيم التقي النقي الفاضل قيلَ: جمع ربّان أي رب العلم والناسِ والقيوم بأمرهم ومصالحهم، والألف والنون للمبالغة كما قالوا ربان أو عطشانَ وشبعان وعريان ثم ضم إليه ياء النسبة.

قال علي كرم الله وجهه: هو الذي يرب بعلمه وعلمه بعمله ﴿بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾ [آل عِمرَان: 79] أي كونوا ربانيينَ بسبب كونكم معلمين للكتاب ومدرسين ودارسين له.

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾ بالرفع استئناف وبالنصب عطفًا على أن يأتيه اللَّهُ أو على ثم يقول وفيه وجهان أحدهما أن يجعل لا مزيدة لتأكيده معنى في قوله وما كانَ لبشر يعني ما كانَ لبشر أن يؤتيه الله وينفيه للدعاء إلى اختصاص اللَّهِ بالعبادة وترك الأنداد ثم يأمر الناسَ بأن يكونوا عبادًا له كما يعبد النصارى المسيح ويزعمونَ أنه أمرهم به ﴿أَن تَتَّخِذُوا۟﴾ أي قريش وغيرهم نفسه ﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا﴾ معبودين كاتخاذ اليهود والنصارى عزيرًا والمسيح معبودَين أيأمركم البشر أو الرّسول أو اللَّهُ إنكار وتعجب واستبعاد ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عِمرَان: 80] أي بعد ثبوت أحلامكم وإخلاصكم في التوحيد فلو أمركم بذلك الكفر وسقط عنه درجة النبوة فالهمزة للاستفهام للإنكار على سبيل التوبيخ والتغيير.

إشارة وتأويل

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي القوى النظرية التي تشبث في إدراك المطالب بأذيال الوهم للنفس اللّوامة ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي بالتجلي الذاتي يعم الكل ﴿أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي القوى والأعضاء التي أطاعت للطور القلبي والروحي ﴿وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾ عندَ ظهور أنوار آياته وغلبة آثار إماراته ﴿وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ﴾ [آل عِمرَان: 72] وأعرضوا عن هذه القوى ومبدئه وهو الطور القلبي والروحي إشارة إلى فيض التجلي في أول ظهور ونزوله مؤثر في جميع القوى الجسمانية والنفسانية والروحانية وهم يتأثرونَ منه إلا أنه لم يتعلق به إدراك من النفس فإن حصولَ الشيء عند النفس لا يستلزم الإدراك به فإن النفس مدركة لذواتها وما لها من القوى والآثار مع أنهما لا يدرك هذا الإدراك ثم يزول هذا التأثر لعدم رسوخه فيه ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عِمرَان: 72] أي القوى الروحانية والنفسانية التابعة للنفس المطمئنة والروح من إطاعتهما إلى إطاعة النفس الأمارة.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي الوصول من أي شيء إلى أي مطلوب إنما هو ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ أي اتصاله إيّاه إليه وهو في الحقيقة إيصاله إلى ذاته إذ لا مطلوب إلا هوَ ﴿قُلْ إِنَّ

﴿ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ [آل عِمرَان: 73] أي الإرشاد والإهداء إنما هو بيده وبمشيئته.

قال الصادق رضي الله عنه: لا تتبع إلا لمن معك يتبعك في هداية اللَّهِ لأن الهداية رفع الأستار والفضل قبول الاعتذار والرحمة العطف على المؤمنين للأمانة إلى أهلها بالوفاء مع اللَّهِ في سرّه والتقوى في غيبته وإظهار الخلوة في محبته.

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ﴾ أي بشهود سريان عموم رحمته إلا متباينة وهي الوجود وما يتبعه من الكمالات الأولية والثانية ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من الأعيان الثابتة والماهيات الكونية ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [آل عِمرَان: 74] أي النعم الظاهرة والباطنة أي الكون العيني وما يتبعه من أحكام النبوة وأعلام الولاية والأسرار الإلٰهية.

﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ﴾ أي من أهل التجلي الأسمائي المتضمن للتجلي الذاتي قوة نظرية مقدسة عن الحكم الوهمي ﴿بِقِنطَارٍ﴾ أي علوم نظرية ومعارف فطرية وإدراكات كثيرة فكرية من العلوم والمعارف ﴿يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ ويرجع ويعيده لديه من غير خيانة ويقتنع منها شيئًا ما ومنهم ﴿مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ﴾ من القوة الفكرية مستمدة من الوهم والخيال مستخدمة للنفس ﴿بِدِينَارٍ﴾ [آل عِمرَان: 75] أي شيء قليل من أسرار ربوبية وأنوار علوم الكونية إشارة إلى القوى المدركة والمبادئ الحافظة لانقطاع المناسبة بيننا وبين المبادئ الإلٰهية التي هي محل انتعاش العلوم والإدراكات إشارة إلى ما ذهب أبطال الفلسفة من أن القوة الحافظة المدركة هي خزانة العلوم والإدراكات المكتسبة إلّا أن الحق في هذا الباب أكد أن الكل مسطور في أول الكتاب ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: 59] ونفس الإنسان وروحه الذي هو روح الله كما قال: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: 72] هو متصل باللوح المحفوظ والكتاب المبين فينعكس منه إلى لوح روح الإنسان وقلبه إشراقات بأنواره ونقتبس بروقات أضواء أسراره منه إليه.

﴿لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا﴾ إلا بعد رياضات كثيرة ومخالفات دريرة ومجاهدات ذريعة ذلك أي عدم أداء الأمانات إلى أهلها لسبب أنهم ما رجعوا إلى المبدأ الأول ليتذكر بما عهدَ عنده بأداء الأمانات وبالوفاء بالمواعيد والمعاهدات ﴿قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ﴾ أي في الأمور التي لا تدخل تحت نظرنا خارجة عن حيطة

حكمنا بل داخلة تحت حكم القوة العملية ﴿سَبِيلٌ﴾ [آل عِمرَان: 75] إلى الله أي ليس علينا أن يحصل لهم سبيلًا إلى الله فإن اللَّهَ ما فوض تحصيل السبيل إليه إلينا.

﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ﴾ [آل عِمرَان: 76] أي ليس الأمر على ما زعمت القوى النظرية بل السبيل إلى اللَّهِ إنما هو لمن أوفىٰ بعهده الذي عقد العهدَ عليه في الأزل ولمن اتقى وجوز عما سواه.

واعلم أن العهدَ ثلاثة في أزل الآزال للشؤونات الذاتية أولًا ثم للأعيان الثانية والحقائق الإلٰهية ثم عهدَ في الأول للعقول وللأرواح والنفوس العاملة بالعبودية والكشف بالسّرائر الربوبية، وعهِدَ في أحايين الأبد للقلب بالجمعية بين الربوبية والعبودية وبين المعارف الفطرية والعلوم النظرية، فمن أوفى روحه عهدَ الأزل فاز عن دركات الشرك وبلغ سرَّ التوحيد، ومن وافى قلبه الإلهام الخاص اللّايق بكمال الاختصاص بالجمعية المخصوصة بإلقاء السمع الخاص لإصغاء خطابه الأزلي مقرونًا بالجواب الأولي وبما جرى في الجبروت للأعيان الثابتة وفي الملكوت للأرواح برب الأرباب ونور الأنوار ومسبب الأسباب وكيفية الحكم جريان فقد بلغ حقيقة الرضاء وخلص عن درك الألم والتحسر وعذاب العناء، ومن أوفى عقله الحق ونواهيه الجارية بالرسائل الإلٰهية والوسائل الربانية في ظاهره وباطنه على وفق ما أمر في الحضرة العلمية وسائر المراتب فقد بلغ حسن الأدب في مقام العبودية ويكون مرشدًا للمريدين ومكملًا للمسترشدين وقائدًا للعارفين. فمن اتقى خطرات النفوس وطوارق الشهوات ومخارق العكوس والمرادات من مشارق شموس القوى الفكرية والمبادئ النظرية المقارنة بكواكب القوى الوهمية والنجوم الخيالية، فإن اللَّهَ أبلغه مقام حقيقة المحبة الذاتية والنسبة الأولية والمشيئة الغيبية التي هي المحبة الذاتية التي بنى الذات المتجلية بعنوان الذات لذاتها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ الجاري في عالم الجبروت ﴿وَأَيْمَٰنِهِمْ﴾ وميثاقهم بالله جاريًا في الملكوت ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ متاعًا قليلًا وحظًا ظليلًا من الدنيا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ﴾ والعروج من التجليات وآثار أنوار أسرار الشهودات ﴿وَلَا

﴿يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ بما كلمهم في الأزل ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ بما نظر إليهم في الفطرة الأولى ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ في المحشر العظمى الآفاقي. والمراد من الأولى القسمة التي يكون في المحشر النفسي في السير إلى الله ومن الثانية المحشر الكبرى في السير في اللَّهِ ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ في الأولى والأخرى عن كدورات الدركات وظلمات الظنون وبعض الإدراكات ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عِمرَان: 77] بنار الندامة التي توقد على الأفئدة وهي النار الكبرى ومأوى الأشقى الذي يصلى النارَ الكبرى ثم لا يموت فيها ولا يحيى.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا﴾ يعني من القوى النظرية والمبادئ الروحانية لفريق مما بلغوا في الاستكمال إلى مقام استخلصوا بالكلية عن رقبة عبودية النفس الأمارة فلم يميزوا التجليات الإلٰهية من الخواطر النفسانية والقياس الفكري والوسواس النظري ﴿يَلْوُۥنَ﴾ ويحركون ويقرؤونَ ﴿أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ﴾ ويقولون هو من التجلي والحال أنه ليس من التجلي ويفعلون في مرتبة النفس اللّوامة أيضًا ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وما هو من عند اللَّهِ وإنما نفى كونه من عند اللَّهِ مع أن الكل من عند الله لأنهم ما قالوا هذا القول من عين التحقق بل من محض التقليد وفرط مقتضيات التفريق ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ بأنه اتخذ ولدًا ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عِمرَان: 78] بطريق النظر أنه ليس من الكتاب ولا من عند اللَّهِ إشارة إلى تفاوت درجات السلاك والمرشدين، فمنهم من أهل الشهود والعرفان والتحقيق، ومنهم من ليس كذلكَ وهم أيضًا فرق كثيرة. وأما أهل الكشف الصحيح والعقل الصريح والنظر الجريح والتحقيق الفصيح فقليل جدًّا.

﴿كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ [آل عِمرَان: 79] إشارة إلى الفرقة الأولى فإنهم وإن كانوا في مقام العبودية لم تظهر الربوبية ولم يتحققوا بالأسماء والصفات الألوهية فلم يدَّعوا الربوبية ولا الإلٰهية وإن كانَ شهود كتاب التجليات وأسرار الولايات وأنوار أحكام النبوات إلا كمال رتبة البشرية إنما هو كمال الجمعية بين الربوبية والعبودية وبين الإلٰهية والكونية، فكل من الربوبية والعبودية والإلهية والكونية فرادى نقص في مرتبته ورتبته، وأما الكمال فإنما هو لجمعيتهما وتمام معيتهما ولكن كونوا ربانيين من حيث الباطن بما كنتم تعلمون

الكتابَ الأولي والتجلي الذاتي الأولي بحيث أي يظهر الربوبية منكم من حيث التصرف الباطني فيما دونكم بالتبليغ عند رفع الحجب إلى مقام شهود التجليات وإلى مقام الفطري وبما كنتم تدرسون هي أي كانوا درسوا المعارفَ الفطرية وتعارفوا أحكام النبوة الذاتية ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة.

والحالة: هذه لا يأمر هذا البشر الكاملَ المكمل لمتابعته أن تتخذوا الأسماء الإلٰهية والجواهر العلمية والأنوار القاهرة والنبيين أربابًا في الظاهر لأن عبوديتهم في الظاهر تنافي الربوبية فيه لما في الباطن وأيضًا ينافي الجمعية الكبرى بين العبودية والربوبية الفردي. قال الصادق رضي الله عنه: ما كان عبد في ذاته يدعي الربوبية إلى نفسه ولكن يريد الآخرين غرقى ألا يرى إلى قوله: ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عِمرَان: 80] أي يريدون أن يحرقوكم بعدَ ما أحرقوا. وقال عليه السلام أيضًا: «**كونوا ربانيين علماء بالله حكماء عن عباده**».

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ فيه حث للرّسول ﷺ أن يأمرهم بما في كتاب الله من معرفته ومعرفة أحكامه ولأمته أن يمنوا بما يقولوا لهم من الأمر والنهي ويتبعوا دينه وينصروه ولا يخالفوا عن أمره، أي اذكر يا محمّد وقت أخذ اللَّهِ ميثاق الأنبياء وأممهم وعهدهم في يوم الميثاق حين أخرجهم من صلب آدم وأجمعهم في ذلك الموقف أن يبلغ الأول الآخر وأن يصدق الآخر الأول وفي إضافة الميثاق وجوه أحدهما أن يكون إضافة المصدر إلى الفاعل أي أخذ الميثاق الذي وثقت الأنباء معه وأن يكون إلى الموثق عليه أي ميثاق اللَّهِ الأنبياء أو أولادهم على حذف المضاف أو الجميع على تقدير الحذف أي ميثاق الله النبيين مع أولادهم.

﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ﴾ بيان لما بكسر اللّام وما مصدرية ﴿وَحِكْمَةٍ﴾ أي لأجل أعطاني إياكم بعض الكتاب والحكمة ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ [آل عِمرَان: 81] من التوراة والإنجيل عطف عليه أي لإعطائي ومجيء الرّسول أو بفتحها إما للابتداء أو لتوطئة القسم وتخفيف الميم موصولة متضمنة لمعنى الشرط ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ ساد مسد جواب القسم والشرط لأن أخذ الميثاق في معنى الاستخلاف وقرأ لما بمعنى حينَ والمتكلم هو الله من قبيل الالتفات ﴿قَالَ﴾ الله لهم في ذلك الوقت ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ﴾ بذلك الميثاق بتصديقه ونصره إذا خرج.

﴿وَأَخَذْتُمْ﴾ أي قبلتم بالطوع لا بالكره وخوف الروع ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ﴾ الميثاق ﴿إِصْرِى﴾ أي عقدي أو عهدي بكم في شأن محمد وأصله الثقل وإنما لأنه يؤصره ويشده ويثقل على صاحبه المخالفة وقرأ بالضم إما لأنه لغة فيه كضعف وضعفٍ وإما لأنه جمع آصار وهو ما يشد بهِ ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي الأنبياء وأتباعهم من الأشياع والأحفاد والأتباع ﴿أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ﴾ أنتم على أنفسكم وعلى أتباعكم قيلَ الخطاب للملائكة قالَ علي كرم الله وجهه: لم يبعث الله نبيًّا آدم ومن بعده إلا أخذ عليه العَهْدَ في محمد وأمره فأخذ العهدَ على قومه ولتؤمنُنّ ولئن بعث وهم أحياء لينصرونه ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عِمرَان: 81] على أنفسكم هذا تأكيد وتهديد من الرجوع.

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ﴾ أي أعرض من الميثاق ونقضه ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ الميثاق والتأكيد والإشهاد ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عِمرَان: 82] العاصون الخارجونَ عن الإيمان باللّهِ وطاعته ببعض العهد.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ﴾ الإسلام ﴿يَبْغُونَ﴾ [آل عِمرَان: 83] يقصدون هؤلاء الفاسِقونَ ويطلبون غير الإسلام وإنما قدم المفعولَ إشعارًا بأن غير الإسلام

ودين الله في نفسه قبيحٌ باطل يتجه الإنكار إليه فيكون ذكره أهم وطلب باطل في القبح أتم ولهذا أدخلت الهمزة على فاء العاطفة على الجملة المتقدمة أو المدخول فيه محذوف أي تتولونَ عن الميثاق أفغير دين اللّهِ يبغونَ بالياء أو التاء على تقدير قل لهم ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ﴾ أي ولله أطاعَ وانقادَ كلّ ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الملائِكة والنفوس العاملة ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ومن عليها وما فيها ﴿طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾.

مطلب: خواصّ الآية

وفهم من شهد أن اللّهَ ربي وأنا عبده ثم أخلص له العبودية هذا الذي أسلم طوعًا بعين بالنّظر واتّباع الحجة وكارهين بالسّيف ومعاينة معاناة ما سيلجىء إلى الإسلام كشق الإنجيل والإدراكِ والإشراف على الموت أو مختارين كالملائكة والمؤمنين أو مسخرين كالكفرة فإنهم لا يقدرونَ أن يمتنعوا عن حكم القضاء وكذا سائر الموجودات ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ [آل عِمرَان: 83] بالياء على تقدير عود الضمير إلى من وبالتاء خطاب إلى كل من يستحقه عن أبي العالية إن كل آدميّ أقر على نفسه إنّ اللّهَ ربي وأنا عبده فهذَا الإسلام بالطّوع لو استقامَ عليه فلما تكلم به صار حجة ثم اشتركَ في عبادته فهو الذي أسلم كرهًا مما قالَ عليه السلام: «**الملائكة أطاعوه في السماء والأنصار وعبد القيس في الأرض**»، وأيضًا: «**لا تسبوا أصحابي فإن أصحابي قد أسلموا من خوف اللّهِ وأسلم الناسِ من خوف السيوف**». قال الضحاك: هذا حين أخذ الله الميثاقَ منهم وأقروا به. قال رسول اللّهِ ﷺ: «**إذا استصعب دابة أحدكم وكانت شموسًا فليقرأ في آذانها هذه الآية:** ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ﴾ أفغيرَ دين اللّهِ» إلى آخرها.

﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٨٤﴾

﴿قُلۡ﴾ يا محمد لأهل الكتاب إن لم تؤمنوا أنتم نحن معاشرُ الإسلام ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ وبتوحيده وبأنبيائه وكتبه ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾ [آل عِمران: 84] أمر الرسول ﷺ

بأن يخبر عن نفسه ومتابعيه بالإيمان باللَّهِ وكتابه ولذا جمع نفسه وأيضًا المنزل على النبي منزل على أتباعه من الحاضرينَ والغائبينَ من الأولاد والأحفاد لاشتراكهم على التقليد بأحكامه وأيضًا المنسوب إلى الواحد من الجمع وقد ينسب إلى الكل وإنما استعمل أنزل بعلى وإلى الموجود معنى الاستعلاء والانتهاءِ فيه لأن الوحيَ منه الأعلى إلى الأدنى ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ وأولاد يعقوب فإن أنبياء بني إسرائيل من أولاده والمنزل على هؤلاء هو الصحف أكثرها في خواص الأشياءِ والعلوم الحكمية والأسرار الربوبية ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ من التوراة ﴿وَعِيسَىٰ﴾ من الإنجيل ﴿وَٱلنَّبِيُّونَ﴾ من أتباع موسى وعيسى ﴿مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾ في النبوة كما يفرق أهل الكتاب فيكفرون ببعض ويؤمنون ببعض ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عِمران: 84] منقادونَ مخلصونَ بالتوحيد والطاعة.

﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥﴾

﴿وَمَن يَبۡتَغِ﴾ أي يطلب ﴿غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ﴾ [آل عِمران: 85] أي التوحيد والانقيادِ بحكم اللَّهِ والإخلاص بوجه اللَّهِ نزلت في اثني عشرَ رجلًا ارتدوا عن الإسلام وخرجوا من المدينة إلى مكة منهم الحارث بن سويد الأنصاري ﴿دِينٗا﴾ طريقًا يجازى به وعلى ما يعمل بما فيه من الأحكام ﴿فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [آل عِمران: 85] الواقعينَ في الخسران لمخالفتهم الفطرة السّليمة الَّتي فطر الناسَ عليها استدل بهذه الآية على اتحاد الإيمان والإسلام إذ لو كانَ غيره لم يكن مقبولًا أجيبَ بأن المردودَ قبول كل دين يغاير الإسلام لا قبول كل ما يغايره والدين إما المجموع أو الأعمال وأيما كانَ يغاير الدين الإيمان.

﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٦﴾

﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ﴾ استفهام لفظًا وجحد معنى أي لم يرشد اللَّهَ ولن يهدي ﴿قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾ [آل عِمران: 86] أي لا يوصلهم إلى حقيقة الإيمان بعد

وصولهم إليه وتركهم إياه بما لا نزولَ أصلًا وهو تصميمهم وتصلبهم على الكفر لرسوخ القساوة وثبوت الظلمة في قلوبهم ﴿وَشَهِدُوٓاْ﴾ وحكموا وأدركوا وجزموا على طريق الشهادة على ﴿أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ﴾ عطف على ما في إيمانهم من معنى العقل ونظيره فالصدق داكن أو حالٌ بتقدير قد كفروا وهو على الوجهين دليل على أن الإقرارَ باللسان خارج عن حقيقة الإيمان قيلَ: كيف يلطف بهم وليسوا من أهل اللّطف لعلمه تصميمهم على كفرهم برجوعهم عن الإيمان ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُۚ﴾ أي الشواهد من القرآنِ على صدق ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عِمران: 86] أي الذين ظلموا أنفسهم بالإضلالِ بالطّرد ووضع الكفر موضع الإيمان بالإنكار ووفور الرد فكيف من جاءه الحق وعرفه ثم أعرض عنه أو المعاندين الذين علموا أن اللطف لا ينفعهم وهذا القول فيمن ركن الكفر في قلبه فلا يقصد الرجوع إلى الإسلام.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ﴾ مبتدأ خبره ﴿أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ﴾ وسخطه وطرده عن رحمته وتبعيدهم عن مغفرته ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [آل عِمران: 87] يدل بمنطوقه على جواب لعنهم وبمفهومه ينفي جواز لعن غيرهم وذلك لأن الألوان في قلوبهم شغلها رأسًا فانطبع الكفر فيهم دون غيرهم والناس يحتمل العموم والخصوصَ.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾﴾

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي في اللعنة أو العقوبة أو النار لمصيرها إليهما ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أي لا يهون عليهم ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [آل عِمران: 88] أي لا يمهلونَ ولا يهملونَ.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ الارتداد أي ندموا على ما صدّوا ﴿وَأَصْلَحُواْ﴾ [آل عِمران: 89] بلا مفعول منزلًا منزلةَ اللازم بمعنى دخلوا في الصلاح أو أفسدوا

أو تداركوا ما عليه من الكفر أسندوا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ يقبل التوبة ويمحي الحوبة ويستر قبيح ما توغّلوا فيه من الكفر والمعصية ﴿رَّحِيمٌ﴾ [آل عِمران: 89] يتفضل عليه نزلت في حارث الأنصاري حين ندم على ردته فأرسل إلى قومه أن اسألوا هل لي من توبة فأرسل إليه أخوه الجلاس بالآية فرجع إلى المدينة فتاب وأسلم وحسن إسلامه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرًا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ۝٩٠﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾ كاليهود وكفروا بعيسى والإنجيل بعد الإيمان بموسى والتوراة ﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرًا﴾ بمحمد ﷺ بعدما آمنوا به قبل بعثهِ ثم ازدادوا كفرًا بالإصرار والعناد والطّعن فيه والصدّ عن الإيمان ونقض الميثاق أو لقوم ارتدوا إلى مكة ﴿لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ﴾ لأنهم لا يتوبونَ أو لا يتوبون إلا استعفوا على الهلاك وإنّما كنى عن عدم توبتهم بعد قبولها تغليظًا في شأنهم وإبراز حالهم في صورة حال الآيسين من الرحمة أو لأنَّ توبتهم لا تكون إلا نفاقًا لكونهم في الإنكار شقاقًا لا لارتدادهم وزيادة كفرهم ولذلك لم يدخل الفاء فيه ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ [آل عِمرَان: 90] الثابتون على الضلالة النابتون بالشرك والجهالة فماتوا على كفرهم.

إشارة وتأويل

﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ قال الصادق رضي الله عنه: من أراد العقبى فليطرح الدنيا وليخرج منها لأن الأولياء شهداء الله المولى شهيد على شهادتهم إن اللّٰهَ تعالى خلق الخلق أولًا في ظلمة الإمكان الذاتي ثم أفاض عليهم بفيضه الأقدس الذي هو التجلي الذاتي القابليات الأولية والاستعدادات الذاتية بذريعة المشيئة الذاتية، ثم تجلى على ماهياتهم الأولية الذاتية وهي الشؤونات الذاتية المحفوفة بالصور العلمية بالتجلي الوصفي أولًا على ماهيات الأنبياء أولًا على الحقيقة المحمدية وما يتضمنها من أعيان أمته، ثم بواسطتها على حقائق الأنبياء

وحقائق أممهم، ثم عرض عليهم أنوار النبوة الذاتية وهم قد قبلوا منه.

ثم أمرهم بأن يتبعوه وينصروه في دينه ويعهدوا به الأنبياء كما قالَ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [آل عِمرَان: 81] إلى آخره في حق محمد ونصرة دينه ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ﴾ أي نبوة بشريعته ﴿وَحِكْمَةٍ﴾ إلهية وولاية ونبوة تقربه ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ﴾ بعدَ شيوع دينكم وذيوع حكاية ما يصيبكم ﴿رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ﴾ يعني محمد الذي ختمت به دائرة النبوة واستكملت وكانت شمس الحقيقة النازلة من سماء الألوهية الدائرة على مدار أعيان الكائنات ومنار أكوان المكنونات إلى أن وصلت إلى شأن العنصرية فتعينت أولًا بهوية آدم ثم نقلت بطنًا بعد بطن على أصلاب الآباء الطاهرة إلى أن وصلت إلى صلب عبد اللّهِ بن عبد المطلب ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ ظاهرًا وباطنًا ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عِمرَان: 81] إشارة إلى أن الشهادةَ أولًا بالذّاتِ إنما هي للّهِ ثم للحقيقة المحمدية ثم لأمته حاصلة في ضمن شهادته ثم لسائر الأنبياء وأمتهم ثم لغيرهم.

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ﴾ وأعرض وانصرفَ ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ الإقرار والاعتراف بحقيقته وصدق نبوته ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عِمرَان: 82] الخارجونَ عن دائرة دين الحق الداخلون على غابرة الباطِل ونائرة(*) السعير السحيق الظالمون على أنفسهم وعلى غيرهم.

واعلم أن أرباب أعيان الأدوار النورية الجمالية وهي ظواهر الأسماء لأربعة الذاتية أعني العليم والحي والقدير والمريد إذا كانت صريحةً يغاير أرباب أكوان الأكوار الظلية الجلالية وهي بواطن هذه الأسماء وأنتَ خبير بأن الظاهرَ والباطن توأمان لا ينفك أحدهما عن صاحبه في الاقتضاء، فكل واحد من الأعيان والأكوان مشترك في تربيته اسم بعنوان الجمال والنور وعنفوان الجلال والصّمود فعنوان النور والجلال هو الإيمان والطاعة والعبادة والعلوم والمعارف والكشف والشاهدة وعنفوان الظلّ، والجلال وهو الكفر والعصيان والجهل والكفران

(*) نائرة: النائرة: المنيرة. العداوة والشحناء، يقال: أطفأ نائرة الحرب: شرها وهيجها.

والعماء والطغيان، فإن كانَ مقتضى اسم العليم مثلًا وغالبًا ومرتضى الجهل مغلوبًا ظهر الإيمان والطاعة والعلوم والمعارف، وإن كانَ بالعكس انعكس الأمر وظهر الكفر والعصيان وإن استويا وكان مقتضى النور مغلوبًا ظهر النفاق وكثر الخلاف والشقاق وتردد صاحبه في دركات الأدوار وظلمات الأكوار إلى أن اقتضى حكم العدل الحقيقي تساوي النور والجمال والصمود والجلال فحينئذ يصير موافقًا حقًّا ومرافقًا صدقًا طلقًا.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ﴾ وهو الإسلام الحق أن الدينَ عند اللّهِ الإسلام ﴿يَبْغُونَ﴾ ويطلبون أعني التجلي الجمعي والظهور المعي والشهود الكامل النوعي ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ﴾ أي والحال أن لصاحبه أطاع وانقاد ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي أعيان الأدوار النورية الجمالية ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ أي أكوان الأكوار الجلالية أو المراد من في السماوات هي الأنوار القاهرة والجواهر المجردة ومن في الأرض هي عالم الأجسام من العناصر والأجسام وما يتركب منها من المواليد الثلاثة أو الاستعدادات القريبة بالفعل طوعًا ونظرًا إلى الاسم المربى ويكون في الفردانية صريحًا وكرهًا نظرًا إلى غيره الضمني ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عِمرَان: 83] ولديه توضعونَ دفعًا أو تدريجًا بالصورة الجمعية والهيئة الكلية والإحاطة المعية في الأدوار والأكوار بالاختيار مسبوقة بالموت الإرادي أو بالاضطراري مرفوقة بالاقتضاء الطبيعي.

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ في المقام الأول في الفطرة الأولى والمعهد الأزلي في المرتبة العليا ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ في الطور الخفي ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ في المراتب في باقي الأطوار الروحية والسرية والقلبية والنفسية والقالبية ﴿لَا نُفَرِّقُ﴾ في مقام جمع الجمع ﴿بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ في التجلي الذاتي من حيث إنَّ الكل ظاهر بالعنوان الذاتي أولًا بالشؤونات الذاتية والنسب الأولية ثم تتنزل منه الأحدية الذاتية إلى الواحدية ظاهرة بالصور العلمية والأعيان الثابتة ﴿وَنَحْنُ﴾ بجميع الأطوار في مقام الفرق والجمع، والجمع والفرق ﴿لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عِمرَان: 84] منقادون انقيادًا تامًّا بجميع الأجزاء والجوارح والأعضاء في تمام المراتب في كل الأدوار

والأكوار وجمعيتهما في السير في الله.

﴿وَمَن يَبۡتَغِ﴾ من الأعيان والأكوان الإفرادية ﴿غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا﴾ الفطري الذي جعل الكل عليه وهو الإسلام ودين الحق، أو المراد منه هو الإسلام الجمعي والأحكام المعي ﴿فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾ [آل عِمرَان: 85] لأن كل عين من الأعيان وكل كون من الأكوان من حيث إنها حصة من الوجود الذي هو منبع جميع الكمالات الذاتية والأسمائية طالبةً لتلك الجمعية ولا تسكن إلى غيرها.

﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ﴾ ويرشد إلى الإسلام الحقيقي ﴿قَوۡمٗا كَفَرُواْ﴾ به لعدم اجتماع أسباب الوصول إليه ﴿بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾ في الفطرة الأولى والنشأة العليا ﴿وَشَهِدُوٓاْ﴾ في هذه الفطرة ﴿أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ﴾ أي التجلي الوصفي بعنوان العلم وهو ظهور الحقيقة المحمدية وشهودها التجلي الذاتي بالعنوان الوصفي في عالم الجبروت والواحدية من ثابت في الكل ﴿ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ﴾ والأحكام النبوية لأعيان الأنبياء وأممهم بالنبوة الذاتية في تمام المراتب من العهد والمواثيق ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عِمرَان: 86] المتجاوزين عن الحدّ في الطور النفسي.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ﴾ هم الظالمونَ إلى نفسه وعلى غيره ﴿أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ﴾ وبعده وتبعيده ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [آل عِمرَان: 87] وذلكَ لنقضهم عهدَ الله الجاري في الجبروت والملكوت والبرزخ والملك والشهادة والناسِ ولعنةُ الناس أشد لتضمنها لعنة اللّهُ والملائكة وغير ذلك.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ وعادوا ورجعوا وأنابوا إلى الله وإلى الإسلام الحقيقي ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ [آل عِمرَان: 89] أي تلك النفر لدى اجتماع الأسباب في الأدوار إن الذين كفروا بعد إيمانهم إشارة إلى وقع السالكين من التنزل بعدَ الترقي فهو عام لجميع الموجودات من الملائكة كما وقع لهاروت وماروت وغير ذلك من الأعيان والأكوان والنباتات والحيوانات والإنسان كما في السّقط وموت الأطفال وصغار الحيوانات التي ماتت قبل البلوغ إلى كمالها المتوقع، فإن الكلَّ يترددون ويعذبون في النشأة في الدورات.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا﴾ بين الخافقين طولًا وبين الشمالِ والجنوب عرضًا ودخول الفاء في الجر مشعر بأن ما قبلَه علة لما بعده ﴿وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ أي أنفق الذهب بتمامه لم يفده رُوِي بفاء الكفر يوم فيقال لهم: أرأيتم لو كان لكم ما في الأرض ذهبًا أكنتم مفتدين له فيقولون: نعم فيقال لهم: كذبتم لقد سألتكم ما هو أسهل من ذلك فأبيتَ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين نعتوا بهذه الأوصاف ثابتة ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وعقاب عميمٌ ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: 91] مانعين من العذاب دافعينَ عن العقاب.

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ﴾ الخيرَ الكثيرَ والفضل والحسن الكبيرَ ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُواْ﴾ أي لَن تبلغوا حقيقة البرّ الذي هو كمال الخير وحبه، أو لن تنالوا بر اللَّهِ الذي هو الرحمة والرضى والجنة حتى تنفقوا ﴿مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ [آل عِمرَان: 92] أي يتصدقوا من أعزّ الأموال وأنفسها وأبرها فإن هذا يدل على كمال محبتهم للَّهِ وإن محبته أشد المحبات والذين آمنوا أشد حبًّا لله والسلف كانوا إذا أحبوا شيئًا جعلوه للَّهِ لما نزلت جاء أبو طلحة إلى رسول اللَّهِ ﷺ فقالَ: يا رسولَ الله لي أموال كثيرة ولي بيرحاء هي أحب إلي كانَ مستقبلَ المسجدِ وكانَ النّبي ﷺ يدخلها ويشرب من مائِها أجعلها صدقة أرجو برها وذخرها عند الله فقال رسول اللَّهِ ﷺ: «**بخ بخ ربحَ البيعُ يا أبا طلحة**». عن ابن عباس المراد الزكاة أي حتى تحبوا زكاة أموالكم.

قالَ بعضهم: يعم المالَ وغيره لبذل الجاه في معاونة الناس والبدن في طاعة اللَّهِ والهمة في سبيله قالَ الله تعالى: يا موسى كن للفقير كنزًا وللضّعيف حِصنًا وللمساكين عونًا أكن لك في الشدة صاحبًا وفي الوحدة أنيسًا وأكلؤكَ في ليلك ونهاركَ.

قالَ عطاء: لن تنالوا شرفَ الدّين والتقوى حتى تتصدقوا وأنتم أصحاء وأشحاء تأملونَ العيش وتخشونَ الفقرَ قيلَ كل شيء أنفقه المسلم من مال ابتغاء وجه اللَّهِ حتى التمرة فهو من هذا القسم.

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ﴾ أي شيء قليل أو كثير طيب أو خبيث شريف أو خسيس محبوب أو عنه مهروب أو مرغوب أو دونه مرغوب أو مغروب وخفي مقروب ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ﴾ [آل عِمران: 92] بما فعلتم فيجازيكم به قيلَ لا المساق إلى المطلوب إلا باتفاق المحبوب روى أن زيدًا بن حارث جاءَ بفرس كانَ يحبّه فقالَ: هذا في سبيل الله فحمل الرسول عليه أسامة بن زيد من أقاربه عليه فوقع في نفسه فقال: أردت أن تصّدق؟ فقال عليه السلام: «**إنَّ اللَّهَ قد قبلها منك**» ومن هذا علم أن الانفاق أحب الأموال على أقرب الأقارب أفضل وأقرب ولهذا قسم رسولَ اللَّهِ النخلة التي تصدقها أبو طلحة على أقاربه.

﴿۞كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٣﴾

﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ منصوب بمقدر أي يحل حلًّا حمل على كل الطعام مبالغة استوى فيه المذكر والمؤنث والمفرد والجمع نحو لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن نزلت حين قال النبي ﷺ: «**أنا على ملّة إبراهيم**» فقالت اليهود: كيف وأنتَ تأكل لحوم الإبل وألبانها؟ فقالَ النبي ﷺ: «**كان حلًّا لبني إسرائيل**» فقالوا: كل شيء أصبح اليوم محرمًا فإنه كانَ محرمًا على نوح وإبراهيم إلى أن انتهى إلينا فأنزلت تكذيبًا لهم ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ﴾ [آل عِمران: 93] أي يعقوب معناه عبد الله أو صفي الله كانَ مع أخيه عيص في بطنٍ وكانَ يعقوب مقدمًا في التولد فاستعجل أخوه وتقدم في الولادة فصار يعقوب في عقبه ولدًا سمي بيعقوب. قيل: كان يعقوب غوث النساء فنذر إن سقي يحرم على نفسه لحوم الإبل وكان أحب الطعام إليه قيلَ كانَ ذلكَ بإشارة الألباء خبرًا بإذن اللَّهِ من جواز الاجتهاد للنبي احتج بهذه الآية.

أجيب: بأن هذا التحريم كان بإذن اللَّهِ وأمره وإشارته لا باجتهاده يا محمد ردًا عليهم ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [آل عِمرَان: 93] في دعواكم وادعائكم هذا رد عليهم في الطعن في النسخ فإن إبراهيم عليه السلام أحل لحومَ الإبل وألبانها فحرمها يعقوب بعده على مقتضى المصلحة وإنما جعل التعدية حكمًا لقطع الخصومة.

﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾

﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي لزوم الحجة القاطعة ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ المفترون ﴿هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [آل عِمران: 94] الذين يتعدون في رفع الإنصاف وسلوك منهج الاعتساف، وفي علاج عرق النساءِ: روي عن النبي ﷺ تأخذ إليه كبش عربي لا صغيرة ولا كبيرة فيقطع صغارًا فيخرج إهالتها فيقسم ثلاث قسم فأكل يوم على ريق النفس ثلاثًا.

قال النبي ﷺ: «**فمن وضعته لأكثر من مائة فبرأ بإذن اللَّهِ**»، روي أن في زمان الحجاج بن يوسف كانوا يداوون هذه العلة بآية، قيلَ وقرأ عليها أقسم، لكنها الله الأعلى، لئن لم تنته لأكوينك بنار ولأخلفنك بموسى وعيسى، ويمسح على ذلك كل يوم، ذلك بإذن اللَّهِ وأمره، والله أعلم وأحكم.

﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾

﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ﴾ تعريض تكذيبهم أي ثبت أن اللَّهَ صادق فيما أنزلَ وأحكم وفصلَ وأنتم كاذبونَ ﴿فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي الإسلام الّذي هو في الأصلِ ملّة إبراهيم ﴿حَنِيفًا﴾ أي خليصًا في دليله مخلصًا ومستقيمًا في سبيله حتى يتخلصوا عن اليهودية التي تجاسروا بها على التحريف والتغيير والمكابرة وألزمتكم على تحريم طيبات ما أحل الله لإبراهيم وتابعيه ﴿وَمَا كَانَ﴾ إبراهيم ومن تابعه من الأولاد والأمة والأحفاد ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عِمران: 95] تعريض آخر لليهود بأنهم أشركوا وعبدوا عزيرًا ومسيحًا فإن عيسى ومن تابعه من اليهود من بني إسرائيل فمن كان على ملة إبراهيم لا بدّ وأن يكون على الإسلام كما قال وأنا

أول المسلمينَ مستقيمًا.

فيه إشارة إلى أن اتباعه واجب أن يكونوا تابعين في التوحيد والاستقامة فيه وفي التجنب عن الإفراط والتفريط وتعريض بشركهم فصلّوا إلى بيت الله الذي بناه على الحدّ الذي كان البيت المعمور عليه وهو الذي من السماء في عهد آدم عليه السلام حين اشتكى إلى الله عن الخروج من الجنة والسماء التي كان يصلي فيها مع الملائكة فإذا هبط إلى الأرض على جبل سرنديب في الهند أنزل الله البيت المعمور إلى الأرض مكة على محل محدود فأمر الله آدمَ أن يصلي فيه فتوجه من أرضِ سرنديب إلى مكة فيصلي فيه مع سبعين ألف من الملائكة وكان آدم قد زاره وصلى فيه في مدة عمره أربعين عمرة وكان الحجر الأسود في البيت المعمور أبيض فلما ظهر الطوفان رفع الله تعالى البيت المعمور إلى السماء وأودع الحجر في جبل أبي قبيس، فلما أمر الله تعالى إبراهيم وإسماعيل أن يبنيا الكعبةَ وتم بناءها قد بقي موضع لا ينطبق فيه حجر فذهب إسماعيل أن يجيء بحجر فناداه أبو قبيس يا إسماعيل الحجر الذي تطلب عندي فأخذه وأتى به، هو الحجر الأسود الذي كان أبيض فصار أسود بسبب كثرة أهل الجنابة والحيض وأصحاب الزنا والفساد وسفك الدماء.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ أي وضعه لهم للعبادة نزلت عند تفاخر المسلمين واليهود فقالت: إن بيت المقدس أفضل وأعظم عند الله من الكعبة لأنها مهاجَرًا لا يتنافى في الأرض المقدس وقالَ المسلمون: الكعبة أفضل وفضلى، فأنزل الله إن أوّلَ بيت وضع للناس ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عِمرَان: 96] وهي لغة في مكة كالنبيط والنميط والرّاتب والراتم واللازم واللازب وقيلَ هو موضع المسجد ومكة بلدة وإنما سمّيت بها لأن الناسَ يتباكونَ فيها أي يزدحمونَ وبالمكة لقلة مائها من مك الفصيل الضرع أنه إذا امتص كل ما فيه من اللبن أو من بكهُ إذا دقه فإنها تدكّ أعناق الجبابرة وتدق رقاب الأكاسرة روى أن الملائكة بنته في أيام سلطنتهم في الدنيا عند انتقال الفردانية والسلطنة من الجنة إليهم، فإن آدم لما حجه قالت

الملائكة يرحمك الله يا آدم قد حججناه قبلك بألفي عام.

قال النبي ﷺ: «**إن المسجد الحرام وضع قبلَ الأقصى بأربعين سنة**». قيلَ هو أول متعبد في الأرض، وأول ما بناه آدم، وأول بيت ظهر على وجه الأرض عند خلق السماءِ والأرض، فإن اللّهَ خلقه قبل الأرض بألفي عام، وكان ربذة بيضاء على الماءِ قد دحيت الأرض تحتها.

عن علي عليه السلام: أن رجلًا قالَ له: أهو أول بيت؟ قالَ: لا قد كانَ قبل ولكن أول بيت وضع للناسِ مباركًا فيه الهدى والرّحمة والبركة وأول من بناه إبراهيم ثم بناه قوم من العرب من جرهم ثم هدم فبنته العمالقة ثم هدم ثم بنته قريش مباركًا حال من ضمير [رضغ] أي كثير الخير والمنافِع للناسِ بحصول النبوات بالطواف والصلاة والعكوف فيه ومغفرة لذنوبهم ﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عِمرَان: 96] عطف على الحال كونه سببًا لهدايتهم لأنه قبلتهم يصلون إليها لأجل عبادة الله سُئِلَ علي بن الحسين رضي الله عنه فقالَ: إن الله وضع تحت العرش بيتًا وهو البيت المعمور الذي ذكره وقال للملائِكة طوفوا به ودعوا العرش وطافت الملائكة البيت وتركوا العرش فكان أهونَ عليهم ثم أمر الله تعالى الملائكة الذين سكنوا الأرضَ أن يبنوا فيها بيتًا على مثاله وقدره فبنوا واسمه الصّراح، وأمر في الأرض من خلقه أن يطوفوا به كما يطوف أهل السماوات بالبيت المعمور.

هذا مطلب شريف

﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ [آل عِمرَان: 97] كانحراف الطّيور عن موازاته ومسامتته على مد الأعصار وعد الأدوار وإن ضواري السّباع يخالط الصيود في الحرم ولا يتعرضنَ لها وإن كل جبّار قصده بسوء قهره الله تعالى كأصحاب الفيل والتبّع قد ملك أكثر البلاد وهلك بيده أرباب المكابرة وأهل العناد، فلما وصلَ إلى مكة يرتجي من سكانها أن يعظموه فما التفتوا إليه اعتمادًا على شرف البيت فقصد أن

يهدم البيت وضربه فإذا وقع في بطنه مغص شديد ومقص شديد كاد أن يهلك وظهر في سائر أجزائه نتن قبيح ونتن وقيح وكان في خدمته أربعة آلاف من الحكماء وأفاضل الأطباء ورئيسهم عمارس فعجزوا عن معالجته فقال عمارس: يا ملك إن سببَ مرضك هذا سماوي لا أرضي هل قصدت بالنسبة إلى هذا البيت سوءًا؟ قالَ: نعم. فقال: غيِّر نيتك إلى الخير وإلا تهلك فبدل السيئة إلى الحسنة والشر إلى الخير فشفي وبرأ، فقال: يا ملك إن هذا البيت بيت شريف عظمه الله بفضله وسيبعث في هذا المكان نبي خاتم الأنبياء اسمه محمّد وأنا على دينه وشريعته أرجو منك أن يجبرني لأسكن في هذا الموضع وأجاوره وقالَ له: أريد أن أبني له بيتًا لعلَّ اللَّهَ ببركة هذا النَّبي أن ينجينيَ فقالَ له: يا ملك إن موطنه وإن كانَ في هذه الأرض إلا أنه يهاجر من هذه الأرض إلى أرض طيّبة. فبنى فيها بيتًا وجعل توليته لعمارس وأولاده وكتب كتابًا وجعله عنده وأبو أيوب الأنصاري من ولده وكان في خدمة عمارس أربعمائة من تلاميذه وكانوا أجداد الأنصار، قال النّبي ﷺ: «**الحب يتوارث والبغض يتوارث**».

هذا ﴿مَقَامِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [آل عِمران: 97] خبر مبتدأ محذوف أو بدله من آيات بدل البعض من الكل وقيلَ عطف على أن المراد بالآيات أثر القدم في الصخرة الصّماء وغوصها فيها إلى الكعبين ذكر فيه السببان أحدهما: أن إبراهيم لما رفع بنيان الكعبة وضعف هو وعجز عن رفع الحجارة قام على هذا الحجر فغاصت قدماه فيه وفيه ما فيه لأن غوص القدم التي هي من اللحم والعصب والجلد والعظم في الحجر الصماء الصّلب غير معقول بل لا بدّ وأن يكون من سبب إلهي خارق للعادة أقول ليسَ بين هذين القولين مانعة الجمع بل مانعة الخلو. الثاني: أن إبراهيم لما نقل زوجته هاجر وابنهما إسماعيل وكان صبيًّا إلى أرض مكة ولما تركهما بواد غير ذي ذرع وغاب عنهما خرجت هاجر بعد مضي ساعات مترددة في طلب رسم بين الصفا والمروة ما وجدته، فلما رجعت إلى إسماعيل رأت في موضع تركته فيه قد نبَعَ فيه ماء وهو بئر زمزم وإذ جاءت طائفة من جرهم ورأت هذا الماءَ ولم يروا قبلُ في هذا الموضع ماء علموا أن لهذا الصبي وفي هذا الموضع سرًا ومعجزةً عكفوا وسكنوا في هذا الموضع واشتغلوا فيه بالعمارة

وتكفلوا مؤنة هاجر وابنها وقاموا في خدمتهما.

فبعد مضي برهةٍ من الزمان توجه إبراهيم إلى زيارة ابنه إسماعيلَ فرأى ما رأى وقد تأهَّل إسماعيل من جرهم وكان صيادًا فإذا جاء إبراهيم إسماعيلَ عليهما السلام وسألَ عن صاحبه أجابت امرأته جوابًا خشنًا وأساءت الأدب بحضرة الخليل لله إبراهيم قال لها: إذا جاء إسماعيل قولي له بدّل عتبة دارِكَ فإذا جاء إسماعيل وشمَّ رائحة أبيه سألها عنه قالت: جاء شيخ كذا وكذا مستخفة ومستحقرة بشأنه فقالَ إسماعيل: ما قالَ الشيخ؟ قالَت: إذا جاء بعلُكِ أقرئه السّلام وقولي له بدِّل عتبة دارِكَ قالَ إسماعيل الشيخ أبي إبراهيم: قد أسأتِ الأدبَ بحضرته فطلقها فأخذ امرأةً أخرى فلما عاد إبراهيم مرة أخرى وجاء إلى بيت إسماعيلَ وسأل عن إسماعيلَ فلما رأت امرأةُ إسماعيل إبراهيم استقبلته وعظّمته وكانت حسنة الخَلْق والخُلُق، طلقة الوجه، فأحضرت الطعام واللّحم واللّبن والتمست منه أن يغسل رأسه فلما استقامَ على حجر غاصت قدماه في الحجر إلى الكعبين فلما فرغت عن غسله واستجاز منها وقالَ لها: إذا جاء إسماعيلُ اقرَئيه السلامَ مني وقولي له قد استقامت عتبة دارِكَ فلما جاء إسماعيل وشم رائحة أبيه إبراهيم فسألَ عن أبيه إبراهيم قالت: جاء شيخ شريف مبارك شأنه كذا وكذا وأخبرت عن غسله وغوص قدميه في الحجر فعظمه واتخذه مقامًا فيه آيات بينات مقام إبراهيم ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾ إما جملة اسمية أو شرطية معطوفة من حيث المعنى على مقام إبراهيم لأنه في المعنى من الآيات فمن دخله كانَ آمنًا من شقاوة الدارين وخسارة النشأتين لبقاء أثره مرة الدهور والأعصار ومن عذاب يوم القيامة.

قالَ النبي ﷺ: «**من ماتَ في أحد الحرمين بُعثَ يوم القيامة آمنًا**» ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ وقصده والتوجه إليه بقصد زيارته على الوجه المخصوص بفتح الحاء وكسرها بدل من الناس أي فرضَ حج بيته على ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ﴾ [آل عِمران: 97] ولام الجر للإيجاب في الإلزام أي ولِلَّهِ فرض واجب على الناس حج البيت، الاستطاعة عند الشافعي: الزاد والراحلة ولذا أوجب الاستنابة على الزمن إذا وجد أجرة من ينوب عنه وقالَ المالك إنها بالبدن فيجب على من يقدر على المشي والكسب في الطريق وقالَ أبو حنيفة: مجموعهما ﴿وَمَن

كَفَرَ﴾ أي ترك الحج بعد الوجوب عمدًا أو جَحَد وجوبه وضعه موضع لم يحج تأكيد لوجوبه وتغليظ على تاركه ولذا قالَ عليه السلام: «**من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديًّا أو نصرانيًّا**» ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عِمرَان: 97] أي عمن حج وعمن لم يحج.

واعلم أن شرائط وجوب الحج تسعة:

1 ـ الإسلام.

2 ـ البلوغ.

3 ـ العقل.

4 ـ أمن الطريق.

5 ـ الدّليل عليه.

6 ـ إمكان المسير.

7 ـ وزاد كافي.

8 ـ وراحلة مبلغة.

9 ـ على المال مع سائر الشروط وجب عليه الحج.

وكذا إن وجد من يبذل له الطاعة والنيابة هذا عند الشافعي والحنبلي. وقالَ مالك: إن كانَ معصوبًا بأن لأن يقدر على أن يثبت على مركب بحال أو يكون مريضًا مرضًا شديدًا لا يرجى برؤه، أو يكون شيخًا كبيرًا ضعيفًا سواءٌ كانَ قادرًا على من يحج عنه بالمال وبغير المال وعاجزًا سقطَ عنه.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾﴾

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ من اليهود والنصارى ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ السمعية والعقلية الدالة على صدق محمد فيما يدعيه من وجوب الحج وغيره ويخصهم بالخطاب بمزيد القبح في كفرهم وإن زعموا أنهم مؤمنونَ بالتوراة والإنجيل فإنهم كافرون بهما أيضًا لعدم امتثالهم بما فيهما من إطاعةِ محمّد ونصر دينه ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عِمرَان: 98] من الجحود بالآيات فيجازيكم عليها لا ينفعكم

التحريف على مقتضى دعمكم لا عاجلًا ولا آجلًا وغيره من الأفعال الظاهرة والأعمال الباهرة والأحوال الباطنة.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دين الإسلام وما فيه من الأحكام وعن سماع صفة محمّد وبما حكم به من الحج وغيره ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ بِهِ وصدق بالإسلام وما ينطوي هو عليه من الحج وثبوته مَنقول يصدون ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ حال من فاعل يصدون باغينَ طالبين في السَّبيل عوجًا أي مَيلًا عن الاستقامة بتلبيسكم إياها على الناس حتى يوهموهم إن فيها عوجًا بقولكم للناس إنّ شريعة موسى لا تنسخ ولا تتغير بتغييركم صفة محمّد ﷺ عن وجهها ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ على أنفسكم بالإقرار بنبوة محمد وبصحة دينه في الميثاق الأول والعهد الأوّل أو بأن دينه قويم وسبيله مستقيم وإن محمدًا ﷺ صادق فيما أتى به لعلمكم بالتوراة المنطوية بجميع أحواله وعموم أطواره ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عِمران: 99] من كتمان صفته وتبديل نعته بنعت أخرى ليست فيه ولما كانوا يجهرونَ بالكفر أردفه بالشهادة ويخفونَ الصدَّ عن السّبيل والسدَّ عن الدليل عقبه بنفي الفعل عنه لأنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ بمحمد وبما جاءَ به من تصديق الأنبياء وكتبهم ﴿إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا﴾ يدعونكم إلى دينهم وغير ذلك احتجاجًا عليكم بأنكم قائلونَ بأن نبينا وكتابه حق ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهم رؤساء اليهود ﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ عن دينكم ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ بحقيقته وصدق نبوةِ صاحبه ﴿كَٰفِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: 100] حال عن كم لأنهم يريدون كفركم ويجوز أن يكونَ حالًا من الفاعل تنبيهًا على نهاية قبح حال الفريقين.

نزلت في نفر من الأوس والخزرج كانوا محدثونَ بهم شماس بن قيس اليهودي فغاظه تألفهم واجتماعهم وصلاح ذات بينهم فأمر شابًّا منهم أن يجلس مع جماعة المسلمين ويذكرهم يوم بعاث وينشدهم بعض ما جرى بينهم وكان الظفر في ذلك اليوم لِلأوس فتنازع القوم في التفاخر وتغاضبوا وقالوا السيف السيف واجتمع من القبيلتين خلق عظيم فتوجه إليهم رسول اللّهِ ﷺ وقالَ: **«أتدعون الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألّف بين قلوبكم فما هذا»** فألقوا السلاح واستغفروا وعانق بعضهم بعضًا وانصرفوا مع الرسول ﷺ وإنّما خاطبهم اللّهُ بنفسه بعدَ ما أمر الرسول بأن يخاطب أهل الكتاب إظهارًا لجلالة شأنهم وإشعارًا بأنهم لصفاءَ سريرتهم وضياء بصيرتهم فهم أحقاء بأن يخاطبهم الله ويكلمهم.

إشارة وتأويل

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي اشتروا واحتجوا في الخلقة بالوجود العيني كما مرت الإشارة إليه ﴿وَمَاتُوا۟﴾ بحسب الفطرة السليمة في الوجود العلمي عن الحقيقة وهي الكمال الجمعي والجمع الكمالي بالصورة الجمعية الإلٰهية والكونية والهيئة المعية والربوبية والعبودية والإحاطية الكلية النورية والظلية الجمالية والجلالية والإفرادية والجمعية والجمعية الجمعية بالنعت السّرية ﴿وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ في الأدوار والأكوار الإفرادية ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم﴾ من الأعيان النورية الوجودية والأكوار الظليّة العدمية الوحدانية والنعوت الإفرادية ﴿مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ﴾ الاستعدادية والعرض القابلية في الأدوار والأكوار الإفرادية ﴿ذَهَبًا﴾ [آل عِمرَان: 91] أي خلوصًا وخالصًا عن النقائض الإفرادية وعن النقائض الفردانية لاستحصال مقتضيات النوافِل واستكمال مرتضيات الفرائض وهي التحقق بالأسماء الذّاتية والصفات الإلٰهية وشهود تجلياتها الإفرادية والجمعية فهنا مقامان وشهودان:

أحدهما: أن يكون الحق صفات العبد نحو كنت سمعه وبصره هذا ثمرة النوافل.

الثّاني: كون العبد صفات الله وأسماءه نحو سمع الله لمن حمده بأن يتصرف

الله في الكون ويدبر فيه بالعبد وذريته فإنه خليفة الله في الأرض فإنه يؤثر في المكونات ويدبر أمورهم بقدرة الله وقوته ومشيئته، ولا يحيطونَ بشيءٍ من علمه إلا بما شاء وما تشاؤونَ إلا أن يشاء اللَّهُ هذا من ثمرات الفرائض لن تنالوا البر أي هذا النوع من البر حتى تنفقوا مما تحبون من الأعمال والأحوال وأنتَ خبير بأن الفرائض أحب من النوافل.

قال صاحب العرائس: أهل هذه القضية إنفاقهم على أربع طبقاتٍ طبقة منهم أهل المعاملات وهم **عشرة أقسام منهم**: **التائبون** وإنفاقهم ثلاثة ترك الدنيا وترك الرياسة وترك النفس والسياسة لله وفي الله.

وقسم **منهم**: **المتورّعون** وإنفاقهم ثلاثة الاجتناب عن المعاصي وترك ما يتلذذ به من الحلال وفطام النفس عن ألبان الشهوات وألوان المشتهيات.

ومنهم: **الزاهدونَ** وإنفاقهم ثلاثة: حفظ الأوقات وصيانة القلب عن الأوقات ووقاية السّر والغيب عن الالتفات إلى الأعيان وصور الكثرات والتعفف في جميع الأمور عن الإعزاز والاعتزار.

ومنهم: **الأغنياء** وإنفاقهم ثلاثة: بذل الأموال بغير المنة والإيذاء والتواضع عندَ الفقراء وطلب الإخلاص في أنفسهم عندَ خطوات الرياء وخطوات الوباء.

ومنهم: **الصابرونَ** وإنفاقهم ثلاثة الخروج من الجزع عندَ الفاقة وبساط القلب وانبساطه عند نزول البلاء وحلول العناء وإيثار البلاء والعناء على الراحة والزيادة والنماء.

ومنهم: **الشاكرونَ** وإنفاقهم: قصر ألسنتهم عن تتابع عرفانهم بنعم ربهم استحياء منه وحيرة في قلوبهم عن معرفة حقيقة المنعم والخروج عن رسم الإعراض في بذل الأرواح.

ومنهم: **المتوكلونَ** وإنفاقهم ثلاثة: استرسال النفوس لله عندَ نزول البلاء وبذل المهجة طلبًا لمرضاته وضبط الخاطر عن الخطوات عند جريان قضائه.

ومنهم: **الراضونَ** وإنفاقهم ثلاثة: ترك الاختيار في اختياره باختياره وترك تدبيرهم في مراده وصون سرائرهم عما دونه.

ومنهم: **الصادقونَ** وإنفاقهم ثلاث: إخلاص العبودية عن رؤية الخلق وإخلاص السّرّ عن دعوته النفس ومعونة الخلق حالة الجميع والفرق والإخلاص التوحيد عن رسم الحدوثية ووسم الرجولية والأنوثية.

ومنهم: **من طبقة أهل الحالات وأصحاب المقامات** وهم على **عشرة أقسام**:

منهم: المراقبونَ وإنفاقهم ثلاثة: رفع الخطوات واجتماع المناجاة وحفظ الحرمة في الخلوات.

ومنهم: **الخائفونَ** وإنفاقهم ثلاثة: قلة المنام وقلة الأكل وندرة الكلام بالصوم.

ومنهم: **الراجعونَ** وإنفاقهم ثلاثة: ترك الطمع في الدارين والارتقاء من هذين المنزلين وتخلية السّرّ عن ذكر العالمين.

ومنهم: **المحبونَ** وإنفاقهم ثلاثة: الاتقاء عن تعرض الكرامات وترك الالتفات إلى الطّاعات وتصفية القلب عن الدرجات لوصولهم إلى مقام المشاهدات.

ومنهم: **المشتاقونَ** وإنفاقهم ثلاثة: احتراق القلب بنيران الحزن وإحراق الحر للنفس بنيران الجوع وإحراق الأرواح بنيران الخوف والآجال.

ومنهم: **العاشقونَ** وإنفاقهم ثلاثة: ترك لهب الولاية وترك حظ المهجة والتزام السّرّ في منزلة الرعايةِ.

ومنهم: **الموقنونَ** وإنفاقهم ثلاثة: ترك الشفقة على النفوس ودوام رعاية القلوب والشروع في تزكية الأرواح عن ذكر الحدثان.

ومنهم: **المستأنسونَ** وإنفاقهم ثلاثة: الإعراض عن الخلق وإلقاء الخاطر إلى مشهد طلوع صبح أنوار المشاهدة وطهارة السّرّ عن معارضة العدو.

ومنهم: **المطيعونَ** وإنفاقهم ثلاثة: التمكين في البلاء والصبر في العناءِ والشكر في النعماء.

ومنهم: **المحبونَ** وإنفاقهم ثلاثة: صحة العبودية بنعت رؤية المشاهدة وبذل

الروح بلا رغبة في ثواب الجنة ومطالعة أنوار الكفاية.

ومنهم: **أهل المعرفة** وهم **عشرة أقسام**:

منهم: الذّاكرونَ وإنفاقهم ثلاثة: دفع الوسواس وطرد الغفلة من القلب بين الناسِ والجروح عن رسوم الأشخاص.

ومنهم: المتفكرونَ وإنفاقهم ثلاثة: إرسال الأرواح إلى مشاهدة هذه الغيوب ليتراءى جلال القديم، وإمهال العقول في ميادين الملكوت لمشاهدة الجبروت، وإدلاء القلوب إلى بساط القربة بطلب الوصلة بنعت إلهية، وحركات السّر في جولانه في أنوار البقاء والأزل.

ومنهم: الحكماء وإنفاقهم ثلاثة التكلم بالحكمة للمؤيدين، ونشر العلم للطالبين، وإرشاد الصّواب للعالمين.

ومنهم: أهل الحياء وإنفاقهم ثلاثة: التكلم في السّرّ في مقام الفكر، وتقديس الشهوات الخفية عن مشهد الذكر، ورفع دقائق الرياء في مجاري الخطرات.

ومنهم: أهل التلوين وإنفاقهم ثلاثة: التفكر في الربوبية بالعقل ليحصل المعرفة والنظر إلى **قديم إنعامه** بالقلب ليحصل المحبة، والسير بالروح في عالم الملكوت لتحصيل أنوار المشاهدة، وهذه صفة من يباشر قلبه نور الأحدية على الأوقات السّرمدية، فهؤلاء مكنوزون بكنوز أنوار التوحيد مغرقونَ في بحار الامتثال لحقائق أسرار الهوية بنعت التجريد، ناطقونَ عما في الضمائر وكاشفونَ مكنون السرائِر.

ومنهم: أهل التمكين وإنفاقهم ثلاثة: خفض جناح العبودية على توحيد الربوبية، ودفع تهمة البشرية عن مصدر كشف المشاهدة، ورسوخ السر في طوالع سلطانِ الإلٰهية، وأهل التمكين منتهون عن إدراك حقيقة جمال القدم مقدمونَ عن اتحاد البقاء بإعدام مشاهد صرف سلطان الوحدانية، فيحشرون أسرارهم عن شوائب الحوادث، ويحوطونَ أنوارهم عن اطلاع الخلائق ويصونون ما أوحى الله إليهم من أسرار الإلهام عن تحريفات الشياطين وأباطيلهم وأكاذيب أقاويلهم.

ومنهم: أهل الحقيقة وإنفاقهم ثلاثة: الدعاة على العصاة وتحمل إيذائهم على طيب النفس، وترك الطّمع في تجاراتهم فهؤلاء رحمة اللَّهِ على عباده بالخلق مصروفون عن المعارف.

وهم مكرمون بالكواشف قيضهم اللَّهُ تعالى لبقاء العباد في أطراف البلاد لدفع المفاسد والإفساد ليلجأ إليهم **المرتابون** في الأحوال وأهل رغائب الآلاء.

ومنهم: أهل السّر وإنفاقهم ثلاثة: كتمان الأسرار من خوف غيرة الحق عليهم وخروجهم عن مرادهم لمراد الحق ويفقد جمال غيب غيبه عن الخلق.

ومنهم: العارفونَ وإنفاقهم ثلاثة يتركون الدنيا والآخرة ولذاتها يجلسون على باب المولى منصرفين عما سواهم ملتجين إليه بنعت رعاية المحبة مفتقرين إلى مشاهدته لصفاء العبودية، انحسموا عن المكونات وانقطعوا إليه عن جميع المخلوقات.

منهم: أهل التوحيد وهم على **عشرة أقسام قسم**:

منهم: أهل الفيض وإنفاقهم ثلاثة: عدّ الناس المراقبات في مقام الحزن، وسفك الدّماء في حنين العشق، والتأوه من صميم القلب في مقام الشوق.

ومنهم: أهل البسط وإنفاقهم ثلاثة: الفرح بوجه الحبيب والزبيرة من مخاطبة الرقيب، والتقرب بكثرة النوافل إلى القريب.

ومنهم: أهل الصحو وإنفاقهم ثلاثة: السكون في حرارة الهجران، والحنين من شوق الرحمن، والحنين على خلقه شفقة على أحوالهم، والتمكين في محاربة الشيطان.

ومنهم: أهل الشكر وإنفاقهم ثلاثة: الشروع في السّماع، وطلب الوصل بالنغمات، واستيثاق بنجاة القرب بالمراقبات.

ومنهم: أهل الفناء وإنفاقهم ثلاثة: الاستغفار بعدَ الشطح، وحفظ الآداب في حالة الشكر، والإخبار عن المقامات لأهل الإرادات.

ومنهم: أهل الحقائق والتوحيد وإنفاقهم ثلاثة: الاستقامة في الامتحانِ بنعت إخلاص الإيمان، وترك حظوظهم في مقام المحبة بوجدان جمال القدم لأن المحبة

حظ العارف ورؤية القدم نصيب الحق تعالى، ورعاية الأسرار بترك المقامات.

ومنهم: أهل الوله وإنفاقهم ثلاثة: الزفر في العشرات، والفوز في الأزليات، وبذل المهجة للأبديات.

ومنهم: أهل الاتحاد وإنفاقهم ثلاثة قمع شهوات الفسق عن مفارِقِ أشجار التوحيد، وسرّ السّرّ في قدم القدم بنعت التجريد، وطيران الروح في بقاء بأجنحة التفريد، هذا وصف إنفاق رجال الصدق وهم بالتفاوت فيما قالوا من أبواب الإنفاق في هذه الإنفاق من جزيل الكرامات وهو ما ذكره في كتابه: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ [آل عِمران: 92] فالبر جزاؤهم منه ولكل طائفة بِرٌّ، **فَبِرُّ التائبينَ** هو محبة الله لهم بعدَ إيابهم منه إليه أن اللَّهَ يحبّ التّوابين.

أما برّ المتورعين فهو استجابة الدعوة لأنها مقرونة بالتقوى.

وبرّ الزاهدينَ الحكمة: «**مَن أخلص لله تعالى أربعين صباحًا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه**».

وبرّ الفقراء هو السكينة أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم.

أما **برّ الأغنياء** فهو درجة الكرامات إن فعلوا ذلك أتممت عليكم من ربكم وضاعفت لهم الحسنة بعشر أمثالها.

وبرّ الصابرين درجة الولايات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عِمران: 200].

وأما برّ الشاكرينَ فهو زيادة القربة ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: 7].

وأما برّ المتوكلين هو الكفاية في جميع المرادات ووجدان لطائف محبة اللّهِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عِمرَان: 159].

وأما برّ الراضين فهو رضوان الله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ﴾ [المَائدة: 119].

قال النبي ﷺ: «**الرضوان الأكبر فهو التجلي الخاص ومن بلغ مقام الرّضا فقد وجد رضوان الله الأكبر**».

وأما برّ الصادقين المحمدة في الدنيا والآخرة وحقيقة الطمأنينة والكرامة

على رؤوس الخلائق يوم القيامة ليجزي الله الصادقين بصدقهم هذه درجة أهل المعاملات في مجازات اللَّهِ تعالى إياهم وكرامته إياهم.

وأما برّ الموقنين فهو وجدان رضوان الله ولواء عزه ونور الفراسة وحلاوة الذكر.

وأما برّ الخائفين فهو ذوق المحبة ومعرفة إجلال الحق وتوفير شكر نعمه ووفور كرمه تعالى.

وأما برّ الراجين فهو صفاء اليقين ونور البسط والانبساط.

وأما برّ المحبين فهو المكاشفة وأنوار القربة والمشاهدة.

وأما برّ المشتاقين فهو الإنس باللَّهِ في جميع المعاني والأحوال والصور والأعمال.

وأما برّ العاشقين فهو بهجة سائر الجمال في غيب الأرواح.

وأما برّ الموقنين فهو مشاهدة الآلاء والنعماء والطمأنينة في رسوم الربوبية.

وأما برّ المستأنسين فهو حلاوة حسن القدم في قلوبهم وتفرد خواطرهم عن فعل خطوات الشيطان في أشواق الشهوات.

وأما برّ المطمئنين فهو حصول الكرامات من تقليب القلوب وتقريب طور السّر والغيوب في غيب الكائنات وباطن المكونات لشهود عجائب الآيات وغرائب بدائع المصنوعات وأن يتذوق حلاوة ذكر اللَّهِ ويطمأن به الَّذين آمنوا وتطمئنُّ قلوبهم بذكر الله ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرّعد: 28].

وأما برّ المحسنين فهو مشاهدة الحق في لباس أعيان الملكوت هذا نعت الأحوال والمقامات الظاهرة وأرباب ذكر الجهر ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: 36، 37] الآية إلى آخره.

وأما برّ أهل الذّكر الخفي والفكر والنظر الخفي فهو أن يشاهد جمال الله وجلاله وجمعيتهما في قوسي دائرة الذكر في زوايا خلوة غيب القلب وباطن الفؤاد وطور سرّ الغيب ويتحقق الذاكر بحقيقة الذّكر وهي الحقيقة الجمعية وإلهية

الكلّية من الوجود والعدم ينطوي عليهما مفهوم مطلق الوجود والذّات البحت ومؤدي واجب الوجود ومضمونه وخلاصه مكتوبة في بداية الواحدية والجبروت ونهاية الأحدية واللّاهوت وهي الأحدية الجمعية والوحدة الذّاتية الّتي هي برزخ بين الأحدية والواحدية ويقال لها برزخ البرازخ فحينئذ يصير الذاكر عين المذكور وعين الذكر.

وفي السفر الثاني من التوراة: محمد رسول الله ﷺ أمر الحمادون يحمدون الله في السّراء والضّراء ولن أقبضه حتى تقام به الملة المعوجة بأن يقولوا لا إلٰه إلا الله، ويفتحوا عينا عمياء وآذانًا صماء وقلوبًا غلفاء، فلا يزال العبد في خلوته يردد هذه الكلمة على لسانه مع مواطأة القلب حتى تصير الكلمة متأصلة في القلب مزيلة لحديث النفس ينوب معناها في القلب عن كل حديث النفس فإذا استولت الكلمة وسهلت على اللسان يشتريها القلب فلو سكت اللّسان عن الذّكر لأسكت القلب ثم يتجوهر ليستكن نور اليقين في القلب حتى إذا ذهبت صورة الكلمة من اللسان والقلب لا يزال نوره لجوهرها ويتحد الذكر مع رؤية عظمة المذكور سبحانه ويصير الذكر حينئذ ذكر الذات وهو التذّكر هو المشاهدة والمعاينة والمكاشفة عن ذكر الذات هذا هو المقصد الأقصى من الذكر.

هذا **وأما برّ** الحكماء فهو خصائص الخطاب ونصائص مضمون الكتاب بنعت الإلهام وصفة الوارد والإعلام في مرتبة العقل المستفاد أو العقل لدى استكمال القوة النظرية وتزكية القوة العملية وتصفية الفؤاد والصدر.

وأما برّ أهل الحياء فهو مشاهدة نور اليقين ورؤية حق الإيمان وباطنه عند انصراف وجه الصدر عن ملاحظة أعمال النفس إلى حقيقة القلب وانصرافها إلى ملاحظة إيصالها بعالم البرزخ وعالم الأمر والجبروت ومنه إلى كبريائه الذي اقتضاه النور والجمال وإلى عظمته التي هي مرتضى الظّل والجلال ثم إلى كيفية إشراقات الأنوار الإلٰهية على الجواهر العقلية والفواخر النورية.

ومنها إلى الجواهر القدسية والأرواح الإنسية ومنها القلب الذي هو مهبط تلك الإشراقات ومجمعهما أو مرقى المعاني المتصاعدة من الحواس الظاهرة والباطنة إليه.

وأما برّ أهل التلوين فهو رؤية ترجيع الأعمال المتنوعة والأفعال المتلونة المتفرعة المنسوبة إلى النفس ومبادئها وقواها المدركة والمحركة إلى الله تعالى.

وأما برّ أرباب أهل التمكين فهو شهود إيصال جميع الأسماء والصفات الآثارية والأفعالية والذاتية بذات اللَّهِ وأسمائها وصفاتها بل جميع الأعيان الإلٰهية والجواهر النورية العلية والسفلية الروحية والجسمية متصلة متحدة الذات.

وأما برّ أهل التحقيق وأصحاب الحقيقة فهو رؤية عين الحقيقة الواحدة سارية في كل الحقائق العالية والسافلة المجردة والمادية بل عينها ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: 3]، ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [النور: 35] الآية إلى آخرها، وهذا الشهود مبتني على الفناءِ باللَّهِ.

وأما برّ أهل السّير فهو شهود لما عقده وجزم بحقيقته من التجليات الذاتية والأسمائية والأفعالية والآثارية ودرجات الجنات وسعير الدركات والتوحيدات والذات والأسماء والصفات وغير ذلك بعد علم اليقين في ملابس الآثار أولًا ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ [الأنعام: 76] الآية. قالَ النبي ﷺ: «**رأيتُ ربي في أحسن صورة شاب أمرد قطط**».

ثم في حظائر عالم القدس في مظاهر أعيان أرواح الإنس وغيرها ثم في عالم الواحدية والجبروت بصور النفس والعقول والأعيان الثابتة وحقائق الأسماء والصفات الذاتية منسوباتهما من المعلومات والأحياء والمقدورات والمرادات والمسموعات والمبصرات والكمالات.

وأما برّ العارفين فهو معرفة النفس على وجه يطابق ما جرى في الفطرة الأولى من عرف نفسه فقد عرف ربه.

وأما برّ أهل البسط فهو شهود لنفسه انبساط نور الأنوار على مشكاة مصابيح أعيان الأدوار وأكوان الأكوار.

وأما برّ أهل القبض فبالعكس.

وأما برّ أهل الذكر فهو عبارة عن انقباضِ سرّ القلب من ملاحظة صور الأعيان بجذب شراب المحبة الذاتية إلى سر الجمال المطلق.

وأما برّ أهل الفناء فهو رؤية انصراف النفس عن تدبير البدن وانعطاف إدراكها عنه بل عن نفسها إلى سبحة الأولى وهو مطلق العلم فحينئذ تذهل النفس عن ذاتها لما تقرر في قانون الحكمة إن بين كل حركتين مختلفتين زمان السكون فالفناء المعتور في عرف العرفاء هو هذا الذهول لأن وجود السالكِ يصير معدومًا ثم يجد وينفي ثبت العرش ثم انتعش والبقاء هي عبارة عن انصراف العلم الذي اتصل بالعلم المطلق إلى وجوده المطلق أي الذي في ضمن وجوده الخاص.

وأما برّ أهل حقائق التوحيد فهو عبارة عن شهود الوجود المطلق في مظاهر التجليات الذاتية والأسمائية والأفعالية والآثارية والصورة الجمعية.

أما التوحيد الذاتي فهو شهود الذات بعين الذات بعنوان الذات.

وأما التوحيد الصفاتي والأسمائي فهو شهود الذات بعنوان صفة من الصفات المذكورة أو فعل مخصوص كالعلم والحياة والقدرة وغيرها أو بالخلق والترزيق والإحياء والإماتة وغير ذلك أو بصورة جسم من الأجسامِ أو بصورة جمعية العالم أو الآدم ويسمّى هذا التوحيد التوحيد الصوري.

وأما برّ أهلُ الوَلَهِ فهو عبارة عن هيمان طريق بأن التجليات وتضاعفها وقالَ الصادق رضي الله عنه: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: 92] أي لن تنالوا خدمتي إلا بمعرفتي، ولن تنالوا معرفتي إلا برضائي، ولن تنالوا رضائي إلا بمشاهدتي، ولن تنالوا مشاهدتي إلا بعصمتي، ولن تنالوا عصمتي إلا بتعظيم ربوبيتي، ولن تنالوا تعظيمَ ربوبيتي إلا بالانقطاع عما سوائي.

قالَ بعضهم: البر هو الهداية ثم المجاهدة ثم المشاهدة أي لن تنالوا بخصائص هذه الخصائل إلا بإنفاق ما هو أحب من الحياة الحسية واللذات النفسية والمستأنسات الإنسية كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل أي جميع الحالات والأحوال والمقامات والعلوم والإدراكات كانت مباحة لجميع الأطوار السبعة القلبية والقوى النفسانية والمبادىء الروحانية في تمام الأدوار النّورية الجمالية الصريحة إلا ما حرم إسرائيل يعني يعقوب طور الظل والجلال الضمني الَّذي تولد مولده الذي هو مع المولود الجني الإنسي النوري الجمالي الصّريح الذي من شأنه أن يستتبع المولود الجني وجعله تابعًا له في الحالات والأحوال

والمقامات والمعرفة والعلوم والإدراكات الحصولية والحضورية والعلوم الشهودية والقوة النظرية أو العملية التي تولدتا من أم النفس وأب الروح معًا وقد علمت أن كل منهما اقتضاء يخالف اقتضاء الآخر وحرام على الأخرى.

قالَ النّبي ﷺ: «**ما منكم إلا وله مولود جني؟** قالوا: وإياك يا رسول اللّهِ قالَ: **وإياي إلا أن الله تعالى أعانني عليه فلا يأمرني إلا بالخير**» فلو أعرض المبايعة وانصرف عن المتابعة بالمولود الجمالي يحدث عن تلقاء نفسه علومًا يكون مناقضة لعلوم الطور النوري الجمالي ومعارضة لها فلا يعقبه ولا يكون يعقوبًا به فيكون مخالفًا له في الأحكام ومنافيًا له في الاقتضاء والأعلام إلى أن ظهر صاحب الزمان الهادي المهدي الذي انتشرت بوجوده وشمس شهوده أنوار العدل الحقيقي في جميع الموجودات سيما في الأحكام الدينيّة والأعلام اليقينية فحينئذ ترتفع المخالفة والتخالف في الآراء والأنظار والأفكار والأهواء فاتحدت الأديان ورجعت وآلت إلى دين واحد وهو الإسلام الحقيقي الذي اختفى فيه الكفر وصار دينًا واحدًا ويقينًا فاردًا إن الدّين عندَ اللّهِ الإسلام ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: 13] الآية، وهذا الدّين الحقي والإسلام الحقيقي يعم الكل كل مولود يولد على فطرة الإسلام فأبواه يهودّانه ويمجسانه وينصرانِهِ يعني أن تمام الشؤونات الذّاتية قد شاهدوا الذات بعنوان الذات وكذا الأعيان الثابتة والماهيات الكونية والحقائق الإلٰهية قد شاهدوا الذّاتَ بعنوان الوصف في ضمن شهود الذات الذات التجلي الذاتي بعنوان الذات وكذا الأعيان الثابتة والماهيات الكونية والحقائق الإلٰهية قد شاهدوا الذات بعنوان الوصف في ضمن شهود الذات الذات بالتجلي الذاتي بعنوان الوصف وهو الإسلام الحقيقي إلا أن مقتضى خصوصية فردانية النور والجمال وهو الأب يخالف مرتضى نصوصية الظلّ والجلال وهو الأم وهما يخالفانِ إسلام الكمالِ الجمعي ودين الجمع الكماليّ الذي ظهر في الأحدية الجمعية والبرزخية الكلبّية وكل عين من هذه الأعيان إذا نزلت من الأحدية الجمعية والإحاطة الكلّية الإجمالية في مراتب التفصيل فإن انطوت على النعت الجمعي والصفة المعية تصالحا الأب النوري

الجمالي والأم الضموري فارتفعت اليهودية والنصرانية والمجوسية وغير ذلك من مقتضيات خصوصية الطور النوري والكور الظلّي: [فارسي]

[مكة بي رنكى أسير رنك شد موسى بافرعون رادر جنك شد

چوبي رنكى رَسى كان داشتي موسى وفرعون دارنده آشتي]

قالَ الصادق رضي الله عنه: الدنيا نفسك المائلة إلى المعاصي فليحرم على نفسك اتباعها وأبت عن موافقتها لأن الخليلَ ما وجدَ الخلة حتى يبرأ عنها من قبل أن ينزل التوراة أي هذا التحريم والتبعيد عن تلك العلوم والمعارف ليس قديمًا ذاتيًا ناشئًا عن مقتضى الذات بل حادث في هذه النشأة الأخيرة بسبب الآثار الحادثة قبل نزول توراة تفضيل أحكام النبوة الذّاتية فالغرض من نزولها تبرئة تلك القوى عن مقتضيات تلك القوى وتجريدها عنها ليتخلص وتؤول إلى الحالة الأولى.

قال صاحب العرائس: يجوز لهم أن يتركوا شيئًا من المأكل من جهة المجاهدة لا من جهة التحريم وإنما بين اللّهُ حالهم ليفيدوا بها الخلائق هذا قول المأكولات كالأرزاق صورية ومعنوية أما الصورية فهي ما يتقوم بها البدن ويقتدي به الجسم والبدن ويتخلل في الأجزاء الأصلية والأعضاء الثابتة والأولية تخلَّل ماء الورد في الورد وسريانه فيه.

وأما المعنوية فهي أهم وما يتقوم به كل ممكن بالإمكان العام وهو سلب الضرورة عن جانب المخالف مجردًا كان أو ماديًا حتى أن النفس الغذاء يحتاج إلى الغذاء صوريةً كانت أو معنوية فالغذاء المطلق وهو مطلق الوجود الذي يتغذى تمام الموجودات وهو بنفسه مغتذ وموجود فتبصر وتدبر.

وأما الرزق المعنوي فهي ما يتقوم به جوهر الروح وحقيقته وهي العلوم الحقيقية والمعارف الإلٰهية والأحوال والحالات الربانية والإدراكات الحضورية والعلوم الشهودية.

﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ أي بين اللّهُ في التوراة أي مجلى تفاصيل ظاهر حقيقة الفرقان في المرتبة الربوبية مرتبة الإجمال بيانًا حقًّا وعين اللّهُ في مرتبة التفصيل

عيانًا صادقًا مصدقًا لأحوال الأطوار المختلفة والقوى المذكورة لإبراهيم الطور الحقي الخفي عند التجلي الذاتي المحمدي ﴿فَاتَّبِعُوا﴾ يا أطوار القلوب المذكورة والقوى المزبورة ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [آل عِمرَان: 95] أي ما بين الله له وأودعَ في كنز قلبه وهي جواهر الشوق والعشق وكمال الذوق والمحبة والخلّة والمروءة والفتوة والشجاعة والسخاوة والحلم والأمانة والديانة والكرم والعلم فالحكمة والكرامة وإكرام الضيف والصبر في البلاء والشكر في النعماء والهجرة والتحرر عما سوى اللّهِ بالكلية والعبرة والغيرة والتأوه والصدق والإخلاص والتوحيد والتجريد والتفريد والسماع والوجد والإنصاف والتخلق والاتصاف بصفات الحق مع رسوم البشرية ولذلك جعلَ إمامًا للعارفين ومقتدى للعالمينَ العاملين فأمر الله أحب عبادته بمتابعته وموافقته في جميع أحواله فمن يرغب من القبول الجزئية والمبادىء الروحانية عن طريق إبراهيم العقل الكلّي ولو ذرّةً فالنفس لها صنم ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: 130].

﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عِمرَان: 95] متعبدًا في مقام النفس لا يميل من الحق الجامع للكل إلى ملاحظة مما تشربون خصوصية جبرائيل العلم الكلي حيث عرض عليه المساعدة قالَ: ألكَ حاجة؟ فقالَ: أما إليكَ فلا، تداهن في دينه الحق بمحبة أبويه أي العقل والنفس قالَ: إني بريء من المشركين وقالَ: إني ذاهب إلى ربي سيهدين وكسر أصنام الهوى والهوس بفأس الغيرة وقلع مقلاع الحمية وكون الحمية في مقام النفس المطمئنة ومرتبة مقتضى الطور السّري آثار صور الأغيار وتخالف مرتضى أنوار الأطوار وبذلَ في محبته الأموالَ والأولاد والآباء والأحفاد ولا تخافوا لومة لائم أي أموال الأولاد وأمتعة الأحفاد وجاهِ الآباء وجهات الأجدادِ.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ [آل عِمرَان: 96] أي للصور النوعية والحقيقة الجمعية الإنسانية التي ظهرت في بداية الدورة العظمى النورية وهو العلم الأعلى والفعل الكل والمخلوق الأول.

أول ما خلق الله القلمُ ثم خلق النونَ وهي الدواة ثم قالَ له: أكتب قال: ما أكتب؟ قالَ: ما كانَ وما هو كائن إلى يوم القيامة ثم ختم على فمه فلم ينطق ولا

ينطق إلى يوم القيامة وقال: أول ما خلق الله العقل ثم قالَ له: أقبِل فأقبَلَ ثم قالَ له: أدبر فأَدْبَرَ ثم قالَ: ما خلقت خلقًا أحسن منك بك آخذ وبك أعطي ثم قالَ: أول ما خلق اللّٰهُ روحي أول ما خلق نوري إشارة إلى أوائل الأدوار وما في مبادئها النورية الجمالية في فردانية الحضرة العلمية، للذي ببكة أي الصورة النوعية، اللاإنسانية وإليه الحصة القلبية الّتي هي بيت كائنين في مكة مرتبة الجبروت والواحدية ومظهر هذه الجمعية في عالم الأمر والملكوت هو النفس الكلية الفلكية والروح الأعظم الملكي وفي عالم البرزخ هو رب النوع الإنساني والنور الأعظم كما أشار إليه النّبي ﷺ. وفي عالم الملك هو العرش المجيد وفي عالم الأفلاك هو البيت المعمور وفي عالم العناصر هي الربذة الّتي دحيت الأرض من تحتها على وجه الأرض ما استقرت الربذة عليها وهي مكة وفي مكة موضع انطبق مركز الربذة على مركز ذلك الموضع وهو محل الكعبة فمركز البيت منطبق على مركز هذا الموضع.

قالَ الصّادق رضي الله عنه: عجيب أن يسافِر إلى بيت الله ليرى فيه الركن والمقام فكيف لا يسافر إلى نفسه ليرى فيها آثار ملك الأنام في كل الأيام فمن دخل في النفس صار عامدًا ومن دخل في القلب صار آمنًا ومؤمنًا وفي العرائس العرش قبلة الملائكة والكرسي قبلة البررة والبيت المعمور قبلة السفرة والكعبة قبلة الناس عامًّا وخاصًّا ومن أعرض مفرد عن الجهات في توجيهه إلى اللّٰهِ والصفات صار الحق قبلة لَه فيكون هو قبلة الجميع كآدم عليه السلام كانَ قبلة الملائكة لأنه وسيلة الحق بينه وبين ملائكته لما عليه كسوة جماله وجلاله كما قال عليه السلام: «**خلق الله آدمَ على صورته**».

واعلم أن القبلة الحقيقية للكل هي الله فالكل يتولون إليه إما من حيث خصوصية اسم واحد كما المسافرين إلى الله وإما من حيث هو مجمع الأسماءِ والصفات كلّها كما للسائرين في اللّٰهِ، وهذا لا يكون إلا في النشأة الكاملة الجامعة الناسوتية، ولذا أمرت الملائكة للسجدة لها ووصف بقوله: ﴿مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٩٦ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ﴾ ولذا اختص حج البيت ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ﴾ باستجماع جميع ما

في النشأة في الأدوار والأكوار الإلٰهية والكونية الإفرادية والجمعية التي جمع فيها جهات أنواع الاستطاعة ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ وسترها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: 96 ـ 97] كافرين كانوا أو مؤمنين طاغين أو مطيعين أو عاصين وباغين وطائعين «**يا ابن آدم لو أنَّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على قلب مؤمن لما زاد في ملكي شيئًا يا ابن آدمَ لو أنَّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على قلب كافر لما نقص من ملكي شيئًا**».

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ بالإغواء والإغراء على الكفر والشكر والمعاصي والافتراء والإفك والصد هو المنع عن الطاعة والإيمان بالله وذلك إنما ينشأ ويظهر ويرتشي من صفة الحقد ونعت الحسد ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ [آل عِمرَان: 99] على أنفسهم بالإقرار بالنبوة المحمدية الذاتية في مقام ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 172] وعلى الأنبياء والأملاك والخلائق أجمعين، ونحن جعلنا أمةَ محمد شهداء عليكم وعلى غيركم ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: 143]، ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: 99] وتفعلون ما فعلتم نشأة الأدوار والأكوار.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [آل عِمرَان: 100] في الأدوار والأكوار الإفرادية لا تطيعوا فريقًا قد تقيدوا بمقتضى فردانية اسم من الأسماء الذاتية يردوكم عن ساحة الكمال الجمعي والجمع الكمالي بعد إيمانكم وتحققكم بمقتضى الكمال الجمعي في الأولى في المرتبة العليا إشارة إلى تغاير مقتضى النشأة في الأدوار والأكوار الإفرادية وإلى تغاير اقتضاء مبارز البرزات وتخالف ارتضاء مجاوز البروزات فإنها قد تكون على وجه الترقيات وقد تكون على وجه السقوط والتنزلات.

قالَ آدم عليه السلام: «**أنا أول المبارزين ومقدم المتجاوزين، أنا الحجر الّذي تفجر منه اثنا عشر عينًا، وأنا البعوضة التي ضرب الله بها مثلًا، أنا آدم الأول أنا نوح الأول، أنا إبراهيم الخليل حين ألقي في النار، أنا النّور الذي اقتبس منه موسى فهدى**» وغير ذلك.

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ وتجحدون بوحدانية اللَّهِ وبصدق وعد محمد ﷺ بما جاء به ﴿وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ يرد عليه من الله الوحي والكتاب والآيات الدّالة على صدق نبوته وحقية رسالته ويجوز أن يكون هذا الخطاب للصحابة رضي الله عنهم خاصة، وأن يكون للأمة أجمعين، وإن لم يكن بعضهم موجودًا وحاضرًا ومشهودًا ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾ ويلتجىء بفضله في مجامع أموره حثٌّ وترغيب لهم على الاعتصام بالله في دفع شرور الكفار ووفور ضرور الفجار ومكائدهم أصله للمنع فيه معنى الهداية ويتوقع فيها الحصول لأن المعتصم بالله يتوقع فيه الهداية ولذا اقتفى بقوله ﴿فَقَدْ هُدِىَ﴾ واهتدى واسترشد ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ﴾ صريح وسبيل واضح صحيح موصل إلى البغية ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عِمران: 101] مستوى نسبته إلى الكل وتمام السبيل.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عِمران: 102] أي حق حذر واحتراز أي احذروا حقَّ الحذر عن مخالفة أمر الله وارتكاب المناهي واجتلاب المحرمات والملاهي أي أطيعوا اللَّهَ ولا تعصوه طرفة عين واشكروه على تواتر نعمائه وتكاثر آلائِه الّتي تجددت عليكم وتحددت لديكم آنًا فآنًا نزلت حين تفاخرت الأنصار بالأنساب والأحساب قيلَ أطيعوا اللَّهِ ولا تشتروا اللَّهَ ولا تشهروا طاعتكم. قالَ النّبي ﷺ: «**إذا أرادَ اللَّهُ لعبد خيرًا ألهاه عن محاسنه ويجعل مساويه نصب عينه**»، بل لا بدّ وأن لا يخطر بباله خطراته وحسناتِه وطاعاته وإطاعته به وأن لا يأخذ لومة لائمُ وأن تقوم بالقسط والإنصاف ولو على نفسه أو ابنه وأبيه لما نزلت قالت الصحابة: من يقوى منا على هذا فأنزل اللَّهَ: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: 16]. قالَ رسول اللَّهِ ﷺ: «**لأتقي اللَّهَ حق تقاته حتى يحزنَ لسانه**». قيل: هو استفراغ الوسع في القيام إلى المواجب والانتهاء عن المحارم.

﴿وَلَا تَمُوتُنَّ﴾ بالطبع والكره والإرادة والطوع ﴿إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عِمران: 102] أي لا تثبتوا ولا تكونوا إلا على حالة الإسلام فيدرككم الموت ويلقاكم بالإرادة النّقل والفوت، أو كونوا تائبينَ على دين الله والإسلام غير منفكين عنه طرفة عين حتى لو لاقاكم الموت لم يجدكم إلا على الإسلام إذ لو كانَ في الكلام المنفي قيد بتوجه ذلك النّفي إليه أو إلى الفعل المقيد.

﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾ أي كتابه أو رسوله ودينه وإسلامه أو أهل بيته أو الصحابة أو العلماء ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين يجوز أن يكون تمثيلًا استظهاره ووثوقه بحمايته وعصمته كاستمساك المتدني من مكان رفيع ومحل عالي بحبل وثيق مأمون انقطاعه والحبل استعارة لعهده والاعتصام بوثوقه بالعهد أو ترشيحًا لاستعارة الحبل بما يناسبه أي اجتمعوا على استعانتكم بالله ووثوقكم به ولا تتفرقوا عنه أو اجتمعوا على التمسك بعهدِ الله إلى عبادته وهو الإيمان بالله وطاعته وإطاعةِ أو بكتابه لقول النبي ﷺ: «**القرآن حبل الله المتين لا ينقضي غرائب عجائبه وعجائب غرائبه ولا يخلو عن كثرة الرد من قال به صدق ومن عمل به رشد ومن حكم عدلَ أو دعا إليه ومن اعتصم به هدي إلى صراطٍ مستقيم**».

﴿وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عِمرَان: 103] أي لا تختلفوا في أهل الكتاب أو لا تتفرقوا عن الحق يفرقكم الجاهلين في الدين بعد الإسلام كاختلاف اليهود والنصارى أو لا تتفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم كاختلاف أهل الكتاب أو لا تتفرقوا عن الحق بفرقكم الجاهلية يحارب بعضكم بعضًا أو لا يذكروا ما يوجب النفرة ويزيل الألفة قيل هما الأوس والخزرج كانا أخوينَ لأب وأم فوقعت بينهم العداوة فتطاولت العداوة بينهم مائة وعشرين سنة إلى أن أطفأ الله ذلك العداوة بالإسلام وألَّف بين قلوبهم برسول اللّهِ ﷺ.

قالَ عليه السلام: «**ستفرق أمتي على اثنين وسبعين فرقةً كلهم في النار إلا فرقة واحدة**، فقيلَ: يا رسولَ اللّهِ ما هذه الواحدة؟ قالَ: فقبض رسول الله ﷺ يده فقالَ: **الجماعة ثم قرأ واعتصموا بحبل الله**» قالَ الصادق رضي الله عنه: نحن حبل الله الّذي قالَ الله تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ﴾ [آل عِمرَان: 103] **يا أهلَ الأنصار قبلَ الإسلام منا الهداية والتوفيق بالإسلام المؤدي إلى التآلف وزوال القتال وفصال المقاتلة والجدال**».

من عادة الرسول ﷺ أن يعرض نفسه على قبائل العرب في محلّ موسم فلما أراد الله إظهار دينه وإشهار أهل يقينه أخرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقي نفرًا من الأنصار عندَ العقبة وهم ستة نفر من الخزرج سعيد بن زرارة وعوف بن عفراء ورافع بن مالك وقطب بن عامر وعقبة بن عامر وجابر بن عبد الله فقالَ لهم رسول الله ﷺ: «**من أنتم؟**» قالوا: نفر من الخزرج قال: «**أفلا تجلسون حتى أكلمكم؟**» قالوا: بلى فجلسوا معه فدعاهم إلى الله وعرض إليهم الإسلام فتلى عليهم القرآن وكانت اليهود معهم ببلاد وهم أهل الكتاب والخزرج أهل الأوثان والشرك وكانَ بينهم نزاع وقالت اليهود لهم: إن نبيًّا الآن مبعوث قد دنا زمانه ونتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم فلما كلمهم رسول الله ﷺ قال بعضهم لبعض: أتعلمون والله هذا الذي تدعونا اليهود فلا يسبقكم إليه أحد؟ فأجابوه وصدقوه وأسلموا وقالوا: إنا تركنا قومًا عسى الله أن يجمعهم بك ثم انصرفوا إلى بلادهم وقد آمنوا. وإذا قدموا المدينة وذكروا الرسول لهم ودعوهم إلى الإسلام فعاش بينهم ولم يبق دارٌ من دور الأنصار إلا وأسلم فيها رجال ونساء وفيها خبر رسول الله ﷺ وهاجت نيران محبة الله ورسوله في مجامِر أفئدتهم فإذا جاءت العامة المقبلة وافى الموسمَ من الأنصار اثنا عشر رجلًا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس. فبايعوا في العقبة الرسول على: «**أن لا تشركوا باللّهِ شيئًا ولا تزنوا**» فلما انصرفوا وبعث الرّسول معهم مصعب بن عمرو بن هشام بن عبد مناف ليعلمهم الإسلام وأحكامها وآدابها وفرائضها وسننها فلما بلغ إلى القوم في النادي قال لهم: إن كلامَ رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله فأسلم القوم حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا أسلم فيها رجال ونساء إلا دار

بني أميّة بن زيد وجماعة لأنه كان فيهم أبو قبيس بن الأسلب الشاعر وكانوا يستمعون الكلام منه ويطيعونَ له فرجعَ مصعب إلى مكة وخرج من الأنصار سبعونَ رجلًا مع حجاج قومهم وهم أهل الشرك حتى قدموا مكة فوعدوا رسولَ الله ﷺ العقبة وكانت الميعاد هي مخرج رسول الله مع عمه العبّاس وهو في ذلك اليوم غير مسلم فلما جاء رسول الله معه العباس في الميعاد قالَ العباس: يا معشَر الخزرج إنَّ محمدًا مِنّا ما علمتم وقد منعنا منه قومنا فإن كنتم وافونَ له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفوه فأنتم وما تحملتم من ذلك وإن كنتم ترون أنكم مسلمونَ له وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن دعوه فإنه في عزٍّ ومنعة، فتكلم رسول الله وتلا القرآنَ ودعاهم إلى الإسلام ورغب إليه.

ثم قالَ: «**أنا أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعونَ منه أبناءكم ونساءكم فبايعوني عليه**» فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قالَ: والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع أنفسنا. فبايعنا رسولَ الله فنحن أهل الحرب وأهل الحلقة ورثناها كابرًا عن كابر فقالَ أبو الهيثم بن التيهان: يا رسول الله إن بيننا وبين الناسِ حبالًا يعني اليهود وإنا قاطعونَ إياها فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلكَ ثم أظهرك الله فأنت ترجع إلى قومك وتدعنا فتبسم رسول الله ﷺ وقالَ: «**لا بل الدم بالدم والهدم بالهدم وأنتم مني وأنا منكم أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم**»، فبايعوا رسول الله ﷺ على ذلك ثم قالَ الرسول: «**أخرجوا إلي منكم اثنا عشرَ نقيبًا كفلاء على قومهم بما فيهم كفالة الحواريين لعيسى بن مريم**» فأخرجوا اثنا عشر نقيبًا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس فلما بايعوا رسول الله ﷺ انصرفوا إلى المدينة وأظهروا الإسلام وبلغ ذلك قريشًا فاشتغلوا بإيذاء أصحاب رسول الله فأمر رسول الله أصحابه إلى الهجرة بعد أن هاجرت طائفة ورأسهم جعفر الطيار بن أبي طالب وقد مرت القضية فأول من هاجر إلى المدينة أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي ثم عامر بن [....][1] إلى أن أذن الله للنبي فهاجرَ النبي ﷺ ومعه أبو بكر.

﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ أي جمعهم توددًا على الإسلام ﴿فَأَصْبَحْتُم﴾ وصرتم ﴿بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عِمرَان: 103] أي متحابين في الله مجتمعين على الآخرة في

(1) بياض في الأصل.

اللّٰهِ وولايته قال عليه السلام: «**لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا تفاخروا وكونوا عباد الله إخوانًا المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله التقوى ها هنا**» فأشار بيده إلى صدره. وقالَ أيضًا: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا**»، وشبك بين أصابعه. وقالَ أيضًا: «**المؤمنون كرجل واحد مثل الجسد إذا اشتكى رأسه تداعى سائر جسده بالحمى والسهر**».

﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ﴾ أي طرف ما حفر مملوء ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي كنتم مشفين ومشرفين على أن تقضوا في نار جهنم بما كنتم عليه من الكفر ﴿فَأَنقَذَكُم﴾ أي خلصكم وأنجاكم ﴿مِّنْهَا﴾ أي النار والحفرة والشفرة بسبب الإسلام والخطاب إما خاص بالخزرج والأوس أو عام ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك البيان الذي بين لهم ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ من الأوامر والنواهي والتوحيد وسائر ما يشتمل عليه الكتاب ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عِمران: 103] مرجوًا منكم التثبت على الهداية أو لكي ينجو من الضلالة والكفر وكمالِ الجهالة ويعرفوا الحق بهذه النعمة أو إرادة الثبات على الهداية إشعار بأن البيان المذكور علّة الهداية.

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ أي لا بدّ وأن يقدم جماعة منكم ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ [آل عِمرَان: 104] ينادونَ إلى جميع الخيرات من التوحيد والإيمان والمعارف الإلٰهية والعلوم الحقيقية وشهود التجليات الذاتية والأسمائية والأفعالية والآثارية والصورة الجمعية أي الشريعة والطريقة والحقيقة التي تتضمن جميع الخيرات الظاهرة والباطنة من تزيين أجزاء البدن وتخلية أعضائه وجوارحه بأنوار ظاهر الأحكام الإلٰهية والأعلام النبوية وتبديل الأخلاق الردية والأوصاف الجنية والهيئات السّبعية والبهمية بالأوصاف الملكية والأخلاق الإلٰهية والهيئات السنية والملكات والمفاضلة من الفقه والشجاعة والحكمة والعدالة، وما يتفرع عليها إمامًا يتفرع على الأولى فهي الحياء والرفق والصبر والقناعة والسخاوة، وما يتفرع على الثاني فهو الحكم والثبات والهمة والتواضع والحمية، وما يتفرع على

الثالث وهي نعت لِحكمة لا العلم المدون الذي انقسم على النظرية والعملية والنظرية إلى الإلٰهية والرّياضية والطبيعية والعملية إلى المنزلية والمدنية والسياسة بل ملكة يقتدر بها على إظهار صفاتٍ حميدة وهي الذكاء وحسن التعقل والتحفظ والتفكر والتذكر ومن تركيب هذه الأصول الثلاثة تحت نعت العدالة تنشعب صفات فاضلة وهيئات كاملةٍ كالصداقة والوفاء والشفقة والتودد والتسليم والتوكل.

ولكل واحدٍ من هذه الأصول الأربعة طرفان يتولد منهما صفة ردية وهنية دنية فللعفة طرفان وهما الإفراط والتفريط يتولد منهما رذيلتان فمن التفريط يتولد الخنوثة والحمودة ومن إفراطها الفسق والفجور ومن طرفي الشجاعة يتولّد من إفراطها الجسارة والظلم ومن تفريطها الجبن والانظلام من تفريط نعت الحكمة يتولد البَلَه والبلادة والحماقة ومن إفراطها الجزيرة والشيطنة والفتنة ومن إفراط العدالة يتولد الظلم والجور ومن تفريطها الانظلام والفجر ومن تركيبهما يتولد صفات رذيلة وهيئات دنية لا تتناهى كما بين في علم الأخلاق وكل منها أصليةً كانت أو فرعية حميدة أو رذيلة يستند بكوكب من الكواكب السيارة والثابتة وامتزاج أحوال الكوكب وإن توقفت على كيفية امتزاج الأخلاق والأوصاف كما أشار إليها بطليموس ليس يصل إلى الحكم على تمزيج الكواكب إلا عالم بالأخلاق والامتزاج الطبيعي الصور التي في عالم التركيب مطيعة للصور الفلكية ولهذا رسمها أصحاب الطلسمات عند حلول الكواكب فيها لما أرادوا علمه وقال أيضًا: النفس الحكيم تعين الفلكي كما يتعين الزراع القوى الطبيعية بالحرث والتنقية وإلى هذه العلوم والمعارف الطبيعية والإلهية والخلقية، أشار بقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ﴾ ويحثّون ﴿إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عِمرَان: 104] إشعار إلى إبطال ما قاله بنو إسرائيل من أن تبديلَ الأخلاق لا يمكن أن تعين وتبديله هو تبديل الخلق وتغييره. قالَ النبي ﷺ: «**إن بني إسرائيل على تعيين الخلق كتعيين الخلق لن يستطيع أن يغير خلقه**».

واعلم أن شرط الاحتساب والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو استيفاء هذه العلوم المذكورة والتحقق بها أو كان فيه ملكة فاضلة نفسيّة وقوة قدسية يقتدر

بها على استنباطها واستخراجها عندَ الحاجة كما كانَ في زمان النبيّ عليه الصلاة والسلام وأصحابه العظام رضي الله عنهم فإن هذه العلومَ ما وصلت إليهم وما زاولوها والشريعة والطريقة والحقيقة التي هي أقوال الرّسول وأفعاله وأحواله وتدل عليها هذه الآية: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: 125] تغني عن هذه العلوم ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [آل عِمران: 104] لتحقيقهم بها وإجراء أحكامها أي المخصوصونَ بكمال الفلاح ووفور النجاح سواء قاموا بالكل والبعض إذ هذه الأمور بعضها فرض عين وبعضها مستحبّة ومندوبة وبعضها مباحة وملاك الكل هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو الواجب على الكل لقوله عليه السلام: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان**»، وهو يوافق الآية المذكورة ويدل على أصناف المؤمنين وهم العلماء والحكام وعامة الخلق.

أما الحكام فيجب عليهم الأمور الثلاثة والعلماء فعليهم الاثنان وعامة الخلق فعليهم الأمر الأخير. سُئِلَ رسول اللَّهِ ﷺ وهو على المنبر: من خير الناس؟ قالَ: «**من آمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر واتقاهم لله وأوصلهم إلى الرحم**»، فالأمر بالمعروف واجب ومندوب، والنهي عن المنكر كله واجب، لأن جميع ما أنكره الشرع حرام يجب الانتهاء والتجنب عنه لأن كسبه واكتسابه والاتصاف به يورث الظلمة والقساوة في القلب، يجب كف النفس عنها وإنكارها إذ الرضاء بالمناهي والميل إليها يوجب تأثر النفس عنها وقبولها كما وقع الرضاء بالكفر كفر وبالمعصية معصية وغير ذلك، فالواجب على العبد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإن لم يعملوا به وإن لم ينتهوا عنه، قالَ النبي ﷺ: «**مروا بالمعروف**»، وأن يعملوا به كله، والنهي عن المنكر وإن لم ينتهوا عنه كله، وقالَ أيضًا: «**مثل الفاسق في القوم مثل قوم ركبوا سفينة فاقتسموها فصار لكل إنسان منها نصيب فأخذ رجل فأسًا فجعل ينقر في موضعه فقال له أصحابه أي شيء تصنع تريد أن نغرق قالَ: هو مكاني فإن أخذوا عن يده نجوا ونجا وإن تركوه هلك وهلكوا**».

قالَ علي كرم الله وجهه: أفضل الجهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فمن أمر بالمعروف شد ظهر المؤمن، ومن نهى عن المنكر أرغم أنف المنافق

والفاسقين وغضب الله له. عن أبي الدرداء رضي الله عنه: لتأمرنّ بالمعروف وتنهونّ عن المنكر أو ليسلطنّ الله عليكم سلطانًا ظالمًا لا يجل كبيركم ولا يرحم صغيركم ويدعو أخياركم فلا يستخلف لهم ويستنصرونَ فلا ينتصرونَ ويستغفرونَ فلا تغفرونَ ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: 25] الآية، فمن آمن بالمعروف ونهى عن المنكر وأراد أن يقع في حيز القبول لا بدّ أن يجري أولًا على نفسه إذ ثبوت الشيء مرفوع ثبوت ذلك الأمر بالمعروف على الناهي عن المنكر في نفسه قالَ عيسى عليه السلام: عظ نفسكَ فإن اتعظتَ فعِظ غيرك وإلا استحيي من الله تعالى. فالواجب على الآمر بالمعروف وعلى الناهي عن المنكر أن يعظ ويأمر أولًا نفسه وأهلَهُ وجاره وأحباءهُ ولا يداهن أحدًا.

روي أنه سئِلَ أيوب عليه السلام: بأي شيء ابتلاك اللّهَ؟ قالَ: لمداهنة صدرت عني في أمر موسى لفرعونَ قالَ الثوري رحمه الله: إذا كانَ الرجل محبًّا في جيرانه محمودًا في إخوانه فاعلم أنه مداهن فمن ارتجى المحمدية والقبولية عند الخلق فلا يجارى على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ كاليهود والنصارى فإنهم اختلفوا في التوحيد والتنزيه وأحوال الآخرة وأعمال التجريد وفي تحريف الكتاب وتعريف التفريد ﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عِمرَان: 105] الحجج والآيات المبينة للحق الموجبة للإنفاق وإعلاء كلمة الحق والأظهر أن المنهيَ عنه من الاختلاف إنما هو في الأصول وهي الاعتقادات المجمع عليها لا الفروع لقوله عليه السلام: «**اختلاف أمتي رحمة**».

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا﴾ [الشورى: 13]، ولقوله عليه السلام: «**من اجتهد وأصاب فله أجران ومن أخطأ فله أجر واحد**»، ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عِمرَان: 105] وعيد للمتفرقين وتهديد على التشتت والمختلفين.

واعلم أنَّ المنهي عنه نوعان عقلي وشرعي أمّا الشرعي فهو كل ما عدّهُ الشرع قبيحًا وحكم على قبحه وسوء أجزائه آجلًا وعاجلًا، وأما العقلي فهو الذي حكم العقل على قبحه فربما يوافق الشرع كالظّلم فإنه قبيح عقلًا وشرعًا والعدل فإنه حسن عقلًا وشرعًا وربما يتخالفان كالخمر فإن شربه قبيح وممنوع في الشرع قليلًا كانَ أو كثيرًا وإن كان نافعًا بقدر الاحتياج فنظر العقل محصور على الظاهر وهو النفع البدني ونظر الشارع أتم وأعلى فإنه قد حرّمه لأنه يضر الجزء الأفضل الإلهي وهو العقل والقلب والروح وضرره ظاهر لا يخفى على أحد ونفعه خفي لا يطلع عليه كل أحد ولا في كل وقت وزمان فمجرد العقل لا يكفي فلو اكتفى لما وقع الاحتياج إلى الوحي وإنزال الكتب مع أن أصولَ الحكمة وهي الحكمة الإلٰهية والرياضية بفروعها وأصولها وهي علم الموسيقى والتأليف والحساب والمقادير والنجوم والهيئة والطّبيعة مع فروعها وهي الطب وفرعه وهو علم الصناعة، وغير ذلك إنما ثبت وتحقق بالوحي والكتب السّماوية، وليس علم من العلوم المدونة لا العقلية ولا النقلية مسندًا إلى مجرد العقل إذ العقل إنما هو لإقامة العبودية لا لإدراك الربوبية ولا لإدراك الأمور الخفية من المجردات والمادية. قالَ النبي ﷺ: «**العقل لإقامة العبودية لا لإدراك الربوبية**»، قالَ آدم الأولياء علي المرتضى:

كيفية المرء ليسَ المرء يدركه ... وكيف كيفية الجبار في القدم

هو الذي أنشأ الأشياء مبتدعًا ... فكيفَ يدركه مستحدث النسم

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾﴾

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ في الدنيا بالاستقامة في الدين وأحكامه في أصوله وفروعه وفي الآخرة عندَ ظهور ثمراتها ونتائجها ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عِمرَان: 106] فيهما أما في الدنيا فلظهور مخالفة أحكام الدين وأعلام أهل الإيمان وكمال الإيقان واليقين وإشهار ظلمة النفاق وسواد وجه القلب عندَ اختيار أهل الشقاق والمخالفة وإيثارهم الوفاق نصب الظرف إما بالظرف السابق وهو لهم أو بإضمار المقدر وهو اذكر أو اتق يومَ كون وجوه المؤمنين مبيضة بنور الإيمان وضياء

الإيقان وصفاء اليقين وكمال الإتقان والثبات عليه والاستقامة فيه ولديه وبنور الأعمال الصالحة المقارنة وتسود وجوههم بظلمة الكفر وسواد النفاق وغياهب المخالفة ودياجير الشقاق والظاهر أن المراد توسم أهل الحق ببياض الوجه وبهجته وبضياء الجبين وإشراق البشرة وسعي النور بين يديه واليمين وتورم وجوه أهل الباطل من المنافقين والكفرة بالسواد والظلمة والعبوسة والبسورة في جواز الصراط بالسقوط والانحطاط يوم يقول المنافقونَ والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيلَ: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورًا.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۝٢٤ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [القيامة: 22، 25]، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [عبس: 38، 42]، وإنما خصت الوجوه لأنها أشرف الأعضاء وأعرف الجوارح والأجزاء ولأنها مجمع الحواس ومشعر المشاعر ومعرش الشعور والشعائر أو لأنها على صورة الحق خلق الله آدم علَى صورته ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ فحينئذٍ يقال لهم ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ في الأزل والعهد الأول والميثاق المؤول بقولكم بلى وهم المنافقون والمرتدونَ وأهل الكتاب فإنهم آمنوا بمحمد ويستفتحون على الذين كفروا وأشركوا بقدومه وبعثته فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ المخلد والعقابَ المؤبد ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عِمرَان: 106] الحق وبما جاء منه ما يحتمل المصدر الموصل أي بسبب كونكم كافرينَ أو بما عملتم به بعمولكم أي أو بسبب انتفاء الإيمان واختفاء حكم الإيقان وانطفاء نور العرفان.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١٠٧﴾

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ من أهل الله وأهل الوفاء بعهوده والثابتونَ على الإيمان ظاهرًا وباطنًا سرًا وعلانيةً التائبون إلى الرحمن عن العصيان ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ [آل عِمران: 107] ونعيم الجنان عن علي كرم الله وجهه أن الرجل ليخرج من أهله مما يعود إليهم حتى يعمل عملًا يستوجب به الجنة وأن الرجل ليخرج من أهله مما يعود إليهم حتى يعمل عملًا يستوجب به النارَ ثم قرأ يوم تبيض وجوه إلى آخرها

وإنّما عين عن الجنة بالرحمة التي هي سبب دخول الجنة تنبيهًا على أن العبدَ لا يدخل الجنة إلا برحمته ووفور فضله ورأفته وإن استغرق عمره طاعة الله وعبادته وكمال إطاعته لأن الطاعة لا يكون إلا بتوفيقه وهدايته وإنما أَخر هذه الفقرة ليكون أولَ الكلام ومطلعُه موشحًا بما ختم به ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عِمران: 107] لكون ما يقتضيها لازمًا لذواتها وهو فضل الله ورحمته استئناف لجواب من سأل عن حالهم.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ التي يحصل بها المناسبة بين ذات العبد والجنة فبالجنسية والمناسبة التامة ينجذب العبد إلى الجنة وقرب جوار اللّٰهِ وشهود تجليات ذاته وصفاته أي الأخبار الواردة في بيان حال الفريقين آيات الله النازلة من القرآن في الوعد والوعيد والنصح والتهديد ﴿نَتْلُوهَا﴾ ونقرأها ونوحيها ﴿عَلَيْكَ﴾ متلبسة ومستصحبة ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالقسط والعدل وملتصقة بالصدق والصواب لا مرية فيها ولا فرية لديها ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عِمران: 108] أي شيئًا نذيرًا وأمرًا يسيرًا من الظلم لأنه حكيم عادل كل ما يريد ويفعل ويبدىء ويعيد لا يكون إلا لحكمه ومصالحه ومصلحته في إرادة الظلم إذ لا يحق ولا يحمل عليه بشيء فيظلم بنقصه ولا يمنع عن شيء فيظلم بفعله لأنه المالك والحاكم على الإطلاق لا رادّ لقضائه ولا معقب لحكمه يتصرف في ملكه ما يشاء وكيف يشاء ومتى يريد ويشاء وإنما يكون في التصرف في ملك الغير لا على وجه العين.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي في جهة العلو منه الأملاك وأجرام الأفلاك وما فيها من الكواكب وما يريدها ويحركها ويدبرها من النفوس العاملة والظواهر المدبرة وما عليها من الأملاك العالية والجواهر المجردة والعقول والأنوار القاهرة ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي جهة السفل من الأجسام الثقيلة والحقيقة البسيطة والمركبة وما فيها من الطبقات السبعة وما فيها من أنواع المخلوقات هذا دليل على ما ذكروا ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [آل عِمران: 109] دليل آخر يلائم البرهان الآني والأول اللّمي يعني

نازل إليه أمور الخلائق كلها من التدبير والتصرفات وتصريف الممكنات وتحويلها والتوفيق على الطاعات وتحقيق الحالات والأحوال والمقامات والاقتدار على الأعمال والعبادات والمكافآة والمجازات إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾

﴿كُنتُمْ﴾ يا أمة محمّد ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ عند اللَّهِ وفي علمه أو في اللوح المحفوظ أو عند الأمم السالفة على ما ثبت في الكتب السماوية والصّحف الإلٰهية وأنتم ثابتونَ على الخيرية إلى الساعة فظهور يوم القيامة، فسقطَ ما قيلَ أنه لا يدل على الخيرية مطلقًا، وما قيلَ من أن ما كان يكون حلّة أو تامة أي وجدتم وصرتم متفرع على ما تقدم، وترك ما يدل عليه كفاية الظهور.

قالَ البعض: هم المهاجرون أو الصحابة متمسكًا لما روي: «**خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم يجيء قوم يتسنمون ويعطون الشهادة قبل أن يسألوها**»، وقال أيضًا: «**طوبى لمن رآني ولمن رآى من رأى من رآني**». والحق إنها عامة للمؤمنين عامة إلى يوم القيامة وإن كان للصحابة والتابعين شرف بقرب الزمان إلا أن للمتعبدين شرفًا كما قالَ عليه السلام: «**ألا طالَ شوقي إلى لقاء الأبرار**»، وقال أيضًا: «**أنتم في زمان لو تركتم من عشرة واحدًا لهلكتم، سيأتي زمان على أمتي لو فعلوا من عشرة واحدًا لنجوا**». ﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عِمرَان: 110] لأجل هداية الناسِ والشهادة لهم وعليهم هم أمة محمد يأمرونَ بالقتالِ فهم يسخرون الرفع والترك والعرب والعجم والشرق والغرب والخافقين ويسبونها ويدخلونهم في دين اللَّهِ والإسلام.

قالَ عليه السلام: «**ما من أمة إلا وبعضها في النار وبعضها في الجنة وأمتي كلها في الجنة**»، وأيضًا: «**مَثَلُ أمتي مثل المطر لا يدري أوّله خير أم آخره**»، وأيضًا: «**إن الجنة حرمت على الأنبياء كلهم حتى أدخلها وحرمت على الأمم حتى تدخلَ أمتي فيكون أنتم خير أمة أولًا وآخرًا**»، ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ

﴿ٱلْمُنكَرِ﴾ بيان لخيرتهم يأمرون بأفضل المعروف وهو شهادة أن لا إلٰه إلا اللَّهَ ويمنعونَ عن الشرك وتكذيب الحق كالبعث وما يترتب عليه من الميزان والصراط والجنة والنار قيل الأمر بالمعروف إقامة السّنة والجماعة، والمنكر هو: إقامة البدعة وإظهار الضلالة وإفشاء الكفر وشعار الجهالة، وأن لا تأمر حتى يكونَ فيكَ ثلاث خصال أن تصحح نيتك وتعرف حجتك وتصبر على ما أصابك، عن أنس رضي الله عنه قالَ: خرجنا مع رسول الله ﷺ فإذا صوت يجيء من شعب فقالَ: «**يا أنس انطلق فانظر ما هذا الصوت**» قالَ: انطلقت فإذا رجل يصلي تحت شجرة ويقول: اللّهم اجعلني من أمة محمد المرحومة المغفورة لَها المستجابة لها المثاب عليها فأتيت رسولَ الله فأعلمته فقالَ: «**انطلق وقل له أنَّ رسول الله يقريك السلام ويقول من أنتَ؟**» فأتيته وبلغته ما أمرني رسول الله فقالَ: أقرىء مني الرسول السلام وقل أخوك الخضر يقول: ادع الله أن يجعلني من أمتك المرحومة المغفورة المستجاب لها المثاب عليها يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ جنس الكتاب والمعهود هو الفرقان ويثبتون على التوحيد ويستقيمون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعلى كلما تحت الإيمان به من الرسل والكتب المنزلة عذاب القبر والبعث والحشر والنشر ولكل ما جاء من الحق فمن أنكر شيئًا منها فهو كافر بالله، وإنما أخر ما حقه التقديم إيماء بأن الأمرَ بالمعروف والنهي عن المنكر إنما هو للإيمان باللَّهِ وبكتابه وبما يتضمنه من الأمور المذكورة، وإنما استدلّ بهذه الآية على أن الإجماع حجة لأنها تقتضي أن يكونوا آمرين بالمعروف كله وناهين عن المنكر إنما هو عن كل منكر، اللّام فيهما إما للاستغراق أو الجنس الّذي يستلزم الاستغراق، فلو أجمعوا على باطل كانَ أمرهم على الخلاف، عن كعب الأحبار أن موسى نظر في التوراة فقالَ: يا ربي إني أجد أمّةً خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر و﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْۚ﴾ [آل عِمرَان: 110] يقاتلونَ أهل الضلالة حتى يقاتلوا الأعور الدجال إجعلهم من أمتي قالَ: هي أمة محمد. وعنه أيضًا في التوراة في السطر الأول محمد رسول الله أمته الحمادونَ يحمدون اللّهَ في السراء والضراء

ويحمدون في كل منزل ويكبرونه على كل منزل وشرف، رعاة الشمس يصلون الصّلاة إذا جاء وقتها ولو كانوا على كتابه ويأزرونَ على أواسطهم ويرضون أطرافهم وأصواتهم باللّيل في جو السماء كأصوات النحل ولو آمنَ أهل الكتاب باللَّهِ وبرسوله وبكل ما جاء به منه لكانَ ذلك الإيمان خيرًا لهم مما هم عليه من الكفر وحب الدنيا والجاه والرياسة.

﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ كعبد الله بن سلام وأضرابه ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عِمرَان: 110] الخارجون عن حيطة الإسلام وساحة الدين الثابتونَ على الكفر والفسق المصرون على الكفر والشرك المضرون للمؤمنين.

إشارة وتأويل

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عِمرَان: 101] ظواهر أطوار السبعة القلبية بأطوار البدنية والنفسانية والقلبية وبأطوار العقول الأربعة الهيولانية والعقل بالملكة والعقل المستفاد والعقل بالعقل أو النفوس الأربعة الأمارة واللّوامة والملهمة والمطمئنة أو مراتب القوة النظرية والعملية الأربعة وهي التزكية والتصفية والتجلية والتخلية ومعاشر المشاعر العشرة الشاعرة شهود التجلي الذاتي الذي قد حصل لكم في الفطرة الأولى في النشأة العليا في بداية الدورة العظمي النورية الجمالية في ضمن شهود الذات التجلي الذاتي بعنوان الذات في الأحدية الجمعية التي هي نهاية اللاهوت والأحدية وبداية الواحدية والجبروت أولًا في مظاهر الشؤونات الذاتية التي هي ذوات الأعيان النورية والأكوان الظلية، ثم في الجبروت الواحدية بمعالم الأعيان الثابتة والصور العلمية والحقائق الإلٰهية في مشاعر العقول العشرة التي هي جبروت الحواس العشرة الباطنة والظاهرة، فيميز جبروت كل منها عن الآخر بالوصف كما تميز في الذات بالذات، وشاهد كل من هذه الحواس التجلي الذاتي بعنوان الوصف في ضمن شهود الجواهر العقلية ذلك التجلي الذاتي بالعنوان الوصفي، ثم تتنزل من عالم الجبروت إلى عالم الملكوت ويميز كل من الحواس العشرة عن الأخرى من حيث الملكوت، وهكذا تتنزه في عالم البرزخ ويتعين كل منهما في الآخر.

وتتميز الحواس الظاهرة عن الحواس الباطِنة ثم تنزلُ إلى عالم الملك والشهادة ويتعين في عالم الصورة والجسم أولًا في الأجرام السماوية والهيئات الكوكبية لما تحقق من الأفلاك والكواكبَ كلها أحياء ذوات سمع وبصر وكلام ثم تتنزل في عالم التركيب وتعينت وتميزت كل منها عن الآخر فكل من هذه الحواس قد شاهدت ذلك التجلي الذّاتي في كل مرتبة من المراتب وعالم من العوالم بوصف من الأوصاف بالعلم والحياة والقدرة والإرادة وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ فشاهدوا في المراتب فلما وصلت إلى عالم الناسوت وتغربت عن تلك الأوطان نسبتها وذهلت عن تلك الحالات ﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ أي الحقيقة المحمدية التي أرسلها أولًا في عالم الواحدية إلى الماهيات والأعيان الثابتة، ثم إلى سائر المراتب إلى الناسوت، نحن الآخرون السابقون ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾ وحفظها عن التناسي والغفلة والذهول ﴿فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عِمرَان: 101] وطريق قويم فقد سلكتها في أسفارها عن تلك الأوطان إلى هذه الأماكن والمواطن، وشهدت تلك الحالات الأولية والتجليات الأزلية في المدارج الأبدية. ويحتمل أن يكون الخطاب بالألغاز السبعة القلبية التي استصحبت الحقيقة القلبية في التنزلات.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ في الفطرة الأولى بالتجلي الذاتي الأزلي ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في حفظ العهد الأزلي ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ﴾ بالموت الإرادي والاضطراري ﴿إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عِمرَان: 102] قائمونَ على وفاء تلك العهود.

﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ أي العهد الأولي والتجلي الذاتي أو الحقيقة المحمدية السارية في تمام الأعيان الكتابية أو بالكتاب القديم النفسي الذي قد سمعتم في الفطرة الأولى ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟ۚ﴾ في الحق وهو إظهاره ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ وهي المعارف الفطرية والتجليات الذاتية والأسمائية والأفعالية والآثارية ﴿إِذْ كُنتُمْ﴾ في النشأة الأولى والمرتبة العليا ﴿أَعْدَآءً﴾ جاءت عارية عن ملابس التعينات الحسية التي هي موطن الألفة والصداقة والعداوة الكلية ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ بالمحبة الذاتية والمناسبة الأولية المقاربة الواحدية والصفاتية والأفعالية والحالية ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ التي هي تلك المناسبة إخوانًا أي مقارنًا في التعين

والوجود العيني والكون الخارجي ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾ أي نار التحسر والقطيعة عندَ الاطلاع على قوة الكمال الجمعي والجمع الكمالي ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: 103] أي كما بين تنزلاتكم من الأحدية الجمعية إلى الجمعية إن نسبته والإحاطة الحسية يبين الله طريق الترقي والعروج ﴿لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي التجليات الحالية الشهودية والتجليات الظهورية الوجودية ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عِمرَان: 103] في السر الإلهي ومن الله في الدورات الإلٰهية الإفرادية النورية والكورات الوحدانية الظلّية إلى السير في اللَّهِ والكمال الجمعي والنعت المعي في الدورة الجمعية النورية والظلية جمعيتهما.

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ وهم الأنبياء المرسلون والأولياء المرشدونَ المكملون ﴿يَدْعُونَ﴾ الخلق إلى معرفة الحق وشهود تجلياته ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ الموصوف والدين المعروف ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ كل ما يوجب النكرة والبعد عن اللَّهِ ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عِمرَان: 104].

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ إشارة إلى شرط الإرشاد ووظيفة المسترشدين في الاسترشاد وهي الموافقة ظاهرًا وباطنًا صورة ومعنىً فإن الموافقة هي عكس الصورة الجمعية الأحدية، فإذا اتصف القلب بها حصل له مناسبة ذاتية بالأحدية الجمعية والوحدة الذاتية فحينئذ ينجذب بتلك المناسبة إليها، فإن كانت تامة يعني القلب عن خصوصية هويته الغيبية وآنيته العينية ويبقى ببقائها ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عِمرَان: 105] وهو عذاب الفرقة التي يوجب المخالفةَ والتفرقة.

واعلم أن **الاعتصامَ** على **أربعة أقسام**: اعتصام المجدّ والعاشق والعارف والموحد أما الأول فيطرح نفسه على باب الحبيب عجزًا وتضرعًا لطلب الوصول إليه، فإذا اعتصم بالحق على غليان الحب والهيجان والشوق فهداه إلى مشاهدة جماله وحسن عطفه وإفضاله.

قالَ عليه السلام: «**من أحبَّ لقاءَ اللَّهِ أحب اللَّهُ لقاءهُ**»، وأما **اعتصام العاشق** فقطع العلائق من قلبه ورفع العوائق من سر غيبه وإيثار المشاهدة على ما سواها فإذا تحقق في استغراقه في بحار العشق أرشده الله إلى مقام الأنس حتى

يسكن في أكناف ألطافه وأكتاف أعطافه فهو مكفوف من الاستدراج بالعطية الأزلية. وأما **اعتصام المعارف** فهو معرفته بمعروفه فإذا عرفه تحير فيه واعتصم بمعرفته عن النكرة تارة وبالبكرة عن المعرفة الأخرى والعجز عن درك الإدراك إدراك، فإذا تحير العارف في مهمة لعظمة وبر الجلالة فأصفده الحق عطاءً من علوم المجهول من لديه وأضله الله على علم فيرى بها ويشاهد الأسرارَ من حقائق غيب الغيب والأنوار من ربّ الريب. وأما **اعتصام الموحد** فليأخذه من الجهل إلى المشاهدة للبقاء فالعرفان على مشاهدة القوم وإذا وجده الحق مضمحلًا في صفات عظمته وأنوار كبريائه هداه إلى طرق من حقائق الوحدانية ليسكن به جهلًا لا علمًا وعلمًا لا جهلًا وأمرًا لا حكمًا وحكمًا لا أمرًا.

قالَ في العرائس: من اعتصم به من اهتدى به إليه لأنه في محل المعرفة ممن عرفه يستعيذ برضاه من سخطه وبمعافاته من عقوبته.

قالَ علي كرم الله وجهه: وفي سجوده أعوذ بالله من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بكَ منك لا أحصي ثناءً عليكَ أنتَ كما أثنيتَ على نفسك وكانَ رضي الله عنه مستغرقًا في بحار علوم القضاء والقدر ورأى ما رأى من عجائب قدرته وغرائب حكمته واطلع على بعض أسرار إرادته فخاف به منه واستعاذ منه إليه وأيضًا من اعتصم باللَّهِ فهداه الله إلى معرفة عيوب النفس ودقائق همزات الشيطان وأخلاق القلب وشمائل الروح وأوصاف العقل وأمور المعاملات وحقيقة الحالات وطلب المكاشفات والاطلاع على المشاهدات وعلى لمة الشيطان ولمة الرحمن وعلى دقائق علوم الإلهام والفراسة ورسوم الأعلام وخداعة الأبالسة قيلَ الاعتصام للمحجوبين وأهل الحالات لا المقامات وأصحاب الحقيقة وأنتَ خبير بأنَّ الاعتصامَ له معانٍ كثيرةٌ واعتبارات غفيرة لكل طائفة في المراتب والمقامات اعتصام كما أشرنا إليه، فإن من افتقر إلى الله من الله اعتصمَ باللَّهِ من اللَّهِ إلى الله إذ لا موجودَ سوى اللَّهِ فالمعصِمُ والمعتَصَمُ هو اللَّهَ وأما التقوى فهو كالاعتصام لا يتحقق إلا في الموجود من الموجود فهو في الممكن هو الفناء تحت سلطان هيبة سطوة الواجب الموجود والتحير بنعت الحياء في مقام المعرفة وذوبان حقيقة الممكن في رؤية عظمة نورِهِ وسطوة سلطان جلاله وشهود حضوره، وأصل التقوى

هو صون العهود وحفظ حكم الحدود، والحدود تحت جريان القضاء بنعت الرضاء وصفة الوفاء.

قالَ بعضهم: كمال التقوى هو أنه إذا قالَ قالَ للَّهِ وإذا عمل عمل للَّهِ، وإذا نظر نظر لله، وإذا تحرك تحرك للَّهِ إلى اللَّهِ باللَّهِ، وإذا أخذ أخذ لِلَّهِ، وإذا نوى نوى للَّهِ، وفي أي شيء ينصرف لا بدَّ وأن يكون لِلَّه وبالله وفي اللَّهِ، ولا تغرقوا بالمخالفة في الأصول لا الفروع التي هي الأحكام الشرعية والأعلام الوضعية التي هي آثار أنوار النبوة المتعلقة بانتظام أمور الدنيا وأحوالها الحادثة الّتي لا يتحقق إلا بالاختلاف وهو يوجب البعدَ عن الوحدة الذاتية والأحدية الجمعية لازمة رجع إلى حكم اللَّهِ إلى رأيه وتدبيره وعقله ومعاملة نفسه ومجاهدته وكفاية فكرته ونظره واستدلاله فهو بمعزل عن ظل عناية الله وكفايته الأزليّة كما قيلَ: عناية الأزلية كفاية الأبدية فاعتصام بالله والتمسك بحبل اللَّهِ وهو سر الولاية أرشد الشخص إلى نفسه ومنها إلى أنه بالله وأنسه الله به، فالاعتصام شفقة من الله على العبد في استغراقه في بحر التوحيد والتوحيد نوعان أحدهما هو شهود الوحدة بلا كثرة والثاني شهود بلا وحدة بالكثرة بحيث لا يستر الكثرة الوحدةَ ولا تقدح الوحدة الكثرة، وكل منهما يحصل بعدَ الفناء في الله والبقاء باللَّهِ بعد شهود التجليات الذاتية والأسمائية والأفعالية والآثارية والصورة الجمعية فلكل واحد من هذه التجليات الفناء في الله والبقاءِ بالله، والتوحيد الذاتي والأسمائي والأفعالي والآثاري والتوحيد الجمعي، واذكروا نعمة الله عليكم بأن هداكم إلى نفسه بنعت المحبة والمعرفة إذ كنتم أعداء مبتعدين من مشاهدة التوحيد في حجاب الفكر وتحت غمام البشرية عن رؤية القربة والمشاهدة، وألف بين قلوبكم بنور عظمته وكشف جماله حتى وصلتم بأجمعكم إلى حقائق مكاشفات الوصالِ، فذاقوا من كأس المنة شراب الأنس وخمر الإلفة، فطربوا بجمال الحبيب وارتفعت عن بواطِن سرهم وفؤادهم غشاوةً الوحشة والنكارة، فكان عيشهم عيشًا واحدًا ومذهبهم مذهبًا واحدًا وحظهم حظًّا واحدًا وجمعهم الله على عيون الإخلاص حتى يظهروا فيها عروس الأخلاق وأوصاف الطبائع ولبسوا منها حُللَ أنوار الألفة وإخلاصهم يخلصهم عن أسرار المكونات ويرفع عن سرائرهم

أخطارَ التفرقة، فجمعهم في عين الجمع كنفس واحدة، فأحوالهم أورثتهم الوفاء، وضياء إخلاصهم وصفاء عقيدتهم ألبسن أسرارهم نور الصفا وسرور الوفاء، فبين الصفا والوفا صاروا في الآخرة صادقين في المحبة مخلصين في الصحبة متصفين بكمال حقيقة الخلة.

واعلم إن الإلفة حسب مقتضى المقامات ومرتضى الحالات متفاوتة فإن اللّهَ تعالى إذا جمع الأرواحَ في مهابة مشاهدة قربه بعد إنشائها وأبدانها فأكرم بعضًا منهم بإدراكه مقام التوحيد وبعضًا بمقام المشاهدة وبعضًا بمقام المناجاة وبعضًا بمقام الكرامات وبعضًا بمقام الفراسة وبعضًا بمقام الوجد، فحصلَ لبعضهم على بعض حمية وشفقة وهداية وعصمة. كما قالَ عليه السلام: «**المؤمنون كالبنيان يشد بعضهم بعضًا**» فمن وافق في مشهد الأزلِ ومعهد الأول على مدارج المقامات صار بين الأقوال محبوبًا وإمامًا وجد أصولَ حقائق القوم وأدرك حقيقة مقاماتهم، ومن لم يبلغ جميعَ المقامات صار بخلاف ذلكَ، فالتآلف بأوصاف الأولين والتناكر بنعوت الآخرين لأن أرواحَهم احتجبت بعضهم عن بعض «**الأرواحَ جند مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف**» الحديث.

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ عن ابن عباس يوم تبيض وجوه المؤمنين بنور إيمانهم ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عِمرَان: 106] أي وجوه الكافرين بظلمة كفرهم، فالكافر في سواء ذائق العذاب، والمؤمن في نوره ذائق الرحمة، ومقتضى الثواب وجد المؤمن بما نظر إلى عاقبته أن السماوات والأرض ملك يدبر في عاقبته ويرجع الأمر إليه في بدايته ونهايته.

قالَ أبو بكر الصديق رضي الله عنه: يوم تبيض وجوه الأولياء بمنشور الولاية وتسود وجوه الأعداء بالتنفر عن أوليائه فمن نظر في باب ملكه عرف سمواته وأرضه ورجع إلى الله في فكرته لأن تدبيرَ الأشياء يرجع إليه.

قالَ عمر رضي الله عنه: يوم يدين المولى السعداء بنور السعادة والأشقياء بظلمة الشقاوة فالشقي لم يرجع إلى الله بسره، والسّعيد من وافقَ رحمته فقبله وأدرك مناه بوصله، وتلا ذو النورين رضي الله عنه يوم تبيض وجوه الأنبياء والأولياء ببشارة الروية وتسود وجوه الخلائق من كثرة المخاصمة، فبعض من

الناسِ يوم القيامة في رحمة اللَّهِ ينقلب إلى رضوان اللَّهِ، وبعضهم في شقاوته يتردد في هجرانه، والمولى لا يميل إلى أهل التقوى ولا يطلبه على أهل الردى.

قالَ المرتضى رضي الله عنه: يوم يبسط الملوكَ على بساط مرادهم في داره ويوم ينقطع مراد الرغبة للهوى تنقطع عنهم الأحوال، والمولى كلف فيهم الخلّة وهم لا يجدون المرجع إلا إليه. قال الباقر رضي الله عنه: يوم تبيض الجنة بالمؤمنين وتسود النار بالكافرين فالكافر يتردد في ظلمات هوائه والمؤمن ينقلب في روضات نعمه وكرمه ووجد هذه المنة بالفكرة في مبتدأه وميعاده.

قالَ الصادق رضي الله عنه: يوم يجد الوصلة مع الله ومن وصل قلبه باللَّهِ ويوم يجد القطيعةَ عن اللَّهِ من قاطع عنه بسرّه فالمنقطع ذائق الألم والمتصل ذائق الرّحمة في روح اللّقاء عند رؤية المولى.

قالَ في العرائس: يوم تبيض وجوه الصادقينَ في دعوى المحبة بنور المشاهدة حيث يطلع شمس شرف الأزل من مطلع القدم فإنه يورث بتجلي الجمال وجوهًا ناضرة بضياء حضرة حياة العشق والشوق وألبسها نورًا من نورها حتى رأت العدم وهي مشرقة بنور ربها مسفرة بضياء قربه مستبشرة في رؤية وصاله ناضرة بتبسم أفواه الرضوان الأكبر ناظرة من ربها إلى ربها ملك سماة وجوه الأولياء الَّذين إذا رأيتهم رأيتَ نعيمًا وملكًا كبيرًا إلا أنهم مرآة الحق يتجلى منهم بجلاله للخلق وتسود وجوه المدعين مقامات الأولياء بإظهار التعشق بين الخلق وخروجهم بزي الصادقين طلبا من الخلق استحسانًا وصرف وجوههم إليهم وعداوتهم أمناء الله في الأرضِ حين يخرج رجال الله من حضرة الله ركبانًا على نجائب النور وعلى رؤوسهم تاج الوقار في ميدان السرور فرأتهم عصاة محمد ﷺ من أسواق القيامة ويدخلونَ بهم الجنانَ بلا إذن الرضوان.

اعلم أني تأمّلت في ساعة كنت أكتب هذا المقام في هذه الحالة فخاطبني الله تعالى في سرّي: أتشك في هذا المقام وترتاب في حقية هذه الحالة فاشهد لي في هذا المقام وهذه الحالة فرأيتها أضعافًا مضاعفةً واشهدني يومًا تبيض وجوه العارفين بنور كمال الجمعية وحضور سرور سرهم على سرير الأنس بسر ألمعية الأحدية سلطان الوحدة بكثرة رغبة الواحدية عندَ اقتضاء فردانية سلطان النور

والجمال بفردانية شيطان الظلّ والكل الجلال وارتضاء جمال جمعية اقتضائهما في جمعية الأدوار والأكوار.

﴿تِلْكَ﴾ الحالات التي ذكرت للمؤمنين والكافرين ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ [آل عِمرَان: 108] في الفطرة الأولى في الأحدية الجمعية وفي مراتب التجليات الوجودية والظهورات النورية والشهودية في ولاية من يتفق قلبه أن تبيضّ بنور معرفته فكيف تسود بنا قطيعته ومن اسودت وجوه قلبه بسواد عداوته وظلمة ضلالته كيف يتنور وتبيض ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عِمرَان: 108] إشارة إلى أن هذه القسمة إنما هي بمقتضى اقتضاء الاستعداد الذي هو اقتضاء الفيض الأقدس الذي هو التجلي الذاتي وإنما نفي إرادة الظلم إشعارًا بهذه الإشارة.

فانظر يا عارف بما ترجع إلى اللّهِ وبأي شيء تُقدّم وكيف تحضر لديه بنور الوجه وبياضه أم سواد الوجه وظلمته، فاعتبروا يا أولي الأبصار إذ لا عبرة للأحوال والمقامات.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ﴾ يوم الميثاق بما أقمتكم على يمين آدم فقلت لكم: هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وأقمت الأعداء من أهل الكتاب وغيرهم من المشركين على يسار آدم وقلت لهم: هؤلاء في النار ولا أبالي ﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ لدعوتهم إياهم إلى الحق على الصّراط المستقيم والطريق القويم بأن ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عِمرَان: 110] بعد الخروج من عالم الغيب إلى مرتبة الشهود ومن كتم العدم إلى رسم الوجود على وجوه يطابق السنن المعهودَ وموافق السنَن الموعودَ، فعلامة المؤمن الأمر بالمعروف، وعلامة أهل النار الفسق والمعصية والفجور وترك الأمر بالمعروف وترك النهي عن المنكر والرضاء بالمنكر والإنكار على المعروف ويقال لكم: أنتم خير أمة أخرجتكم من خزينتي وأقمتكم على بساطِ المحبة وخزنتكم بأنواع المحبة وأصناف البلية فمن رضي بالبلاء وثبت في المحاربة بالأعداء وصبر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا.

وأما المتبرىء عني فهو من أخرج بنعمتي إلى المحاربة فهوَ من أعدائي وأهل القطيعة، قالَ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ في سابق علمي ثم قلت: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: 10، 11] معناه أمتك يا محمد هم المقربون السابقون إلى رؤيتي يوم القيامة وهم ينظرونَ إلى منازلهم لديّ وهم عندي كقاب قوسين أو أدنى فإن الأمة ثلاثة أحرف ألف هو الله والميم محمد والتاء التوحيد المؤمنين معناه قالَ اللَّهُ تعالى: يا أهلَ التوحيد فأنتم لي ومختصون بي أعتقتكم من النار بفضلي وبفضل حبيبي فأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر حتى يصير الفاسق فداكم عن غضبي ويقال كنتم خير أمة لأنكم من نور الفضل وسائر الأمم من نور العدل فالفضل يصير ويسير إلى الفضل وأهل العدل إلى الهاوية، فالفضل سعادة والعدل شقاوة، فمن كانَ أصله من السّعادة طار وارتقى وصعَدَ برياش السعادة، وجناح العناية وفلاح الهداية إلى سماء قرب ربه حتى أتاه اليقين، ومن أصله العدل تمتع بالدنيا وحطوماتها وشهواتها ورفع في حِمى مشتهياتها ففسق عن أمر ربه وخرج عن قربه حتى أتاه اليقين.

قالَ الصادق: إن اللَّهَ تعالى قالَ كنتم خير أمة مدح لهم فلا يجوز أن يعذبهم لأنهم خير عباده، ولم يكن يمدح قومًا ثم يعذبهم لأنه يخالف الحكمة والمصلحة قالَ بعضهم: إن اللَّهَ تعالى خلق نورين نورَ السعادة على بساط الفضل طائعًا ونور الشقاوة على بساط العدلِ ضائعًا ثم ألبسَ لنور السعادة الحياء ولنور الشقاوة البذاء ثم قالَ لهما: أئتيا طائعين فأتى الله نورَ السعادة طائعًا ونور الشقاوة كارهًا فسجد نور السعادة على بساط الفضل ومكث في سجوده بالثناءِ عليه ألف سنة، وسجد نور الشقاوة على بساط العدل حين رأى نور سجود نور السعادة فمكث في سجوده أربعمائة سنة ثم رفع رأسه ولم يجيىء ربّه ولم يشاهده وأتى عاجلًا إلى مكانه فقال الجليل: يا نورَ العدل والسعادة لماذا توجهت إلى مكانك بغير إذني؟ فقال: عجلت إيشاعًا من طاعتك فقال الجليل: وعزتي وجلالي جعلتك لباسَ الشقاوةِ التي لا شقاوَةَ بعدها فحولته عن طاعتي فمن أطاعني جعلته سعيدًا بفضلي ومن عصاني جعلتهم من أهل الشقاوة بعدلي.

قالَ الصادق رضي الله عنه: المعروف موافقة الكتاب أو السنة، والأمر بالمعروف دعاء المريدين بلسان المحبة مع مدح المشاهدة والنهي عن المنكر ردهم ونهيهم منهم إليهم.

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾﴾

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًىۖ﴾ أي ضرر الحصر على الأذى كالطعن في الدين واللّعن على أهل اليقين قال الصادق رضي الله عنه: من عصى ربه ولو ساعة من الساعات فتلك الساعة آلة وهوان وغضب من اللّهِ عليه ولا يكون خروج من اعتدائه إلا بقيامه على بساط المحبة وبتلاوة منشودة الولاية بالصلح مع الله في جميع المحبة فحينئذ صارَ واليًا جارحًا من العدوان والعداوة ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ إن قصدوا الخروج لقتالكم لرجعوا وهربوا إلى الأدبار وهزموا إلى الدّيار منهزمين غير خارجين فضلًا عن أن يكونَ ضاربين لكم بقتل وأسر ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عِمرَان: 111] أي لا يكون لهم عون غيرهم فبعونهم من بأسكم وبطشكم، ثم للتراخي في المرتبة لأن الإخبارَ بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بربهم وانهزامهم إلى الأدبار، يعني أنهم بعد توليتكم الأدبار لا تنصرون قاتلوا، ولم يقاتلوا إما استئناف أو عطف على الجملة الشرطية أو الجزاء قرأ بحذف النون عطفًا على الجزاء.

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ ألزم عليهم الجزية أو القتل وهدر لفضل المال والأهل جزاء لمخالفتهم وعنادهم وقتالهم وإقامتهم عليهم ﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾ حيثما وجدوا ولاقوا ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ استثناء من أعم الأحوال أي ألزم عليهم في عامة الأحوال إلا في حالة الاعتصام بحبل العهد من الله وباللّهِ بأن تسلموا وبحبل عهد من الناس يعني محمدًا والمؤمنين أن أدوا إليهم الجزية والخراج فيؤمنوهم وجعلوهم في الأمن والأمان والمأمن ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ رجعوا وعادوا مستحقين بغضب اللّهِ وسخطه حال كونه مبتدأً من اللّهِ ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُۚ﴾ [آل عِمران: 112] ويبني عليهم كما ضرب ويبني البيت على أهله محيطًا عليهم وهم ساكنونَ فيه، والمراد هم

اليهود فإنهم في الأغلب مساكين إذ لا شوكة لهم وإن كانوا متمولين ولهم أموال كثيرة ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ضرب الذلة والمسكنة ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي بسبب كونهم كافرين بآيات الله القرآن أو محمدًا والتوراة فإن فيها الأمر بالإيمان بمحمد وبنصره وهم خالفوا وسردوا وتخلفوا عنه ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ يعني سبب ما ذكر ليس هو الكفر فقط بل مع قتل الأنبياء بغير حق وهو مثلها بأنه ظلم صريح وعدوان صحيح ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟﴾ أي كفرهم وقتلهم بسبب عصيانهم وفسقهم وخروجهم عن منهج الحق ومخرج الصواب والصدق ﴿وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [آل عِمران: 112] حدود الله ويتجاوزون عن طريق الحق وقيوده.

﴿۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾

﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً﴾ لما أسلم عبد الله بن سلام وثعلبة بن شعيبًا وأسد بن عبيد وسائر من أسلم من أعيان اليهود قالت اليهود حسدًا وغيظًا ما آمن بمحمد إلا أشرارنا، ولو كانوا من أخيارنا لما تركوا دينَ آبائهم، فقالوا لهم: وأنتم أيضًا اخترتم عند المخاصمة وعندَ التحكيم حين استبدلتم بدينكم دينًا آخر وهو دين عيسى فأنزلَ اللَّهَ ليسوا سواءً ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي مستوين لأن منهم ﴿أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ مقام العبودية وأمة على امتثال الأوامر الإلهية وعلى الانتهاء عن المناهي الغير المتناهية ﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ويقرؤونها أو يتبعون أحكام كتاب الله ويتفكرون في آثار ملكوته وأنوار جبروته وأسرار أعيان لاهوته ويتدبرون في أطوار محكمات آياته ومتشابهاته وبيّناته، وأمة أخرى كافرة معرضين عنها ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ وآياته وأجزاء ساعاته جمع إلى مثل نجى وأنجا وناجى قيلَ: جوفه قال النبي ﷺ: ركعتان في جوف اللّيل خير من الدنيا وما فيها لبقاء ثمراتهما وسعاداتهما وفناء الدنيا وحطاماتهما ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عِمرَان: 113] حال من ضمير يتلون أي يقتلون ويتلونَ فيها آيات اللّٰهِ وكلامه من المجاز المرسل من باب الجزاءِ وإرادة الكل تنبيهًا على أنه أشرف الأجزاء وأعرفها إشارة إلى صلاة التهجد وفضيلتها وكثرة ثوابها ونجاته خصائصها ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء: 79].

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ أي بذاته وأسمائه ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وصفاته وبنعوت كبريائه وجبروت آلائه ونعمائه وبوحدانيته وبأحكام كتابه وأعلام خطابه وبما أمرهم اللَّهُ به في كتابهم في التوراة والإنجيل.

قالَ عطاء: هم أربعونَ رجلًا من أهل نجران العرب، ثمانية من الروم اثنان وثلاثون كانوا على دين عيسى ﷺ كانوا يصدقون محمدًا وكان من الأخيار فيهم، وهم أسعد بن زرارة والبراء بن معرور ومحمود بن سلمة وأبو قيس بن أنس، كانوا موحدين يغتسلون من الجنابة إلى أن جاءهم محمد ﷺ فصدقوه ونصروه، عن ابن عبد بن مسعود رضي الله عنه أخر رسول الله ﷺ صلاة العشاءِ ثم خرج إلى المسجد فإذا الناس ينتظرونَ فقالَ: «**أما أنه ليس من أهل هذه الأديان أحد يذكرون اللَّهَ تعالى هذه الساعة غيركم**».

﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ أي الإيمان بالله وحده لا شريك له وبما جاء به محمد ويمنعوا عن الكفر والشرك وعن المعصية والفسق والكذب والإفك ﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ من الأعمال الصالحة والأقوال الفاتحة المفلحة والعقائد الحقة والأخلاق المرضية والأوصاف الحميدة الرّضية وإعطاء النفقات التي تتضمنها الشريعة والطريقة والحقيقة ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ المذكورون من أهل الكتاب أو المؤمنونَ بأسرهم من أولي الألباب ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عِمران: 114] من الدينِ صلحت أحوالهم الظاهرة والباطنة في الدنيا والآخرة.

﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾

﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ أي أمر نافع في الدارين ورافع في النشأتين ﴿فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ [آل عِمران: 115] أي لا يحرموا ثوابه في الآجل والعاجل للركبان والراجل وقلن تقدموا ثوابَهُ ولم يَجحدوه أو فلن يضيع ولا ينقص أجره وعوضه، وإنما سمى كفرانًا كما سمى توفية الثواب وتوفية الصدق والصّواب شكرًا، وتعديته

إلى مفعولين لتضمنه الحرمان كأنه قيلَ فلن تحرموا جزاؤه ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عِمرَان: 115] الذين يتقون ويحفظون سرهم عن كلّ ما يوجب سخطَ اللَّهِ وقهره وغضبه وسخطه، وعن كلّ ما يبعد العبد عن حضرته، وفيه تبشير لهم بأن التقوى مبدأ كل خير ومنشأ كل فعل وحسن سير، وإن الفائز عند الله هو المتقي والعامل المتقي.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۚ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ﴾ لا يمنع منهم شيئًا من العذاب يوم القيامة لا أموالهم ولا أولادهم ﴿أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ﴾ من العذاب يوم القيامة وأمراض العقاب لانتفائهم في ذلك اليوم ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الكافِرونَ هم أصحاب النار ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عِمران: 116] ماكثون مكثًا طويلًا بيان لما تقدم.

﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾

﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ﴾ الكفرة في الحياة الدنيا للغني ولحسن الخلق عند الخلق، أو للمفاخرة أو المنافقونَ رياءً أو خوفًا ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ﴾ أي برد شديد مهلك يحرق أو صر مديد محرق، وهو في الأصل مصدر نعت به، أو نعت وصف به البرد للمبالغة كما في قولك برد بارد قيلَ ما أنفقوا في عداوة رسول الله ﴿أَصَابَتۡ﴾ تلك الرّيح ﴿حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ بالكفر والمعاصي ﴿فَأَهۡلَكَتۡهُۚ﴾ أي أهلكت الريح زرعهم عقوبةً لهم وهو من التشبيه المركب ولذلك لم يبال بإيلاء حرف التشبيه في الريح دون الحرث، ويجوز أن يكون من التشبيه الفرد أي مثل إهلاك ريح أو مثل ما ينفقون كمثل ريح مهلك وهو الحرث ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بتضييع نفقاتهم وعدم قبول نفقاتهم منهم لانتفاء اقترانها بالخلوص والإخلاص ﴿وَلَٰكِنۡ﴾ كانوا ﴿أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [آل عِمران: 117] بالكفر والمعاصي ومنع حق اللَّهِ وبارتكاب من لا يستحق به القبول ويجوز عود الضمير إلى أصحاب

الحرث أي ما ظلمهم بإهلاكهم حرثهم ولكن ظلموا أنفسهم بارتكاب ما استحقوا به العقوبةَ المذكورةَ والهلكة المزبورة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً﴾ أي لا تتخذوا الكفارَ قريبةً يكون قربهم بكم كقرب بطانة جبتكم وثوبكم بقميصكم كناية عن كمال القرب فحينئذ يطلعون على ما أخفيتم من الأسرار أي لا تقربوهم قرابةً تكون مثل قرابة البطانة من الثوب أو البدن فتجعلوهم أصدقاء، واعتمدتم عليهم بإفشاء الأسرار ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ متعلق بلا محذور صفة للبطانة ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ﴾ من الألو وهو التقصير والترك ثم استعملَ متعديًّا إلى مفعولينَ بلا حرف كما في قولهم لا آلوك إليهم جهدًا أو نصحًا أي لا أمنعك نصحًا ﴿خَبَالًا﴾ فسادًا ﴿وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي أتموا عنتكم وهي الشدة والضرر والمشقة ما مصدرية ﴿قَدْ بَدَتِ﴾ وظهرت ﴿ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي ظهرت العداوة والمبغضة في كلامهم ومن كلامهم بأن يتكلموا بما يوجب العداوةَ والبغض من السبّ والشتم والفحش ﴿وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ﴾ من البغض والعداوة ﴿أَكْبَرُ﴾ وأكثر مما أظهروا بأفواههم لعدم شكهم وإمساكهم أنفسهم من إظهار ما فيها لفرط بغضهم ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدالة على وجوب الإخلاصِ وموالاة المؤمنين ومعاداة الكافرينَ ومهاراتهم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عِمرَان: 118] بينا لكم من أحوال المؤمنين وأعمال الكافرينَ.

﴿هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾

﴿هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ﴾ [آل عِمرَان: 119] ها للتنبيه وأنتم مبتدؤه أولاء خبره أي أنتم

أولاء المخاطبون في موالاة الأعداء من أهل الكتاب ﴿تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ بل تعادونهم بيان لخطئهم في موالاتهم أي يحبونهم لمظاهرتكم إياهم ولا يحبونكم لأنكم على خلاف دينهم ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ وهو مائة وأربع سنة وهي التوراة والزبور والإنجيل والفرقان مشهورة ومائة عشر من الصحف السّماوية والإيمان بالكل واجب لأن من جزء الإيمان وركنِه لأن ركنَ الإيمان منها الإيمان بالكتاب كما أجاب رسول الله ﷺ في جواب جبرائيل عليه السلام حيث سألَ ما الإيمان؟ قالَ عليه السلام: «**الإيمان أن تؤمن باللّهِ وملائِكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره من الله تعالى**» فصدقه بقوله صدقت يا رسول الله ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ بمحمد وما جاء به ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ﴾ ورجعوا فيما بينهم في الخلوة ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ﴾ أي أمسكوا أطراف الأصابع ﴿مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ بأسنانهم غيظًا وحسدًا تحسرًا وتأسُّفًا ﴿قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ﴾ على وجه الدعاء ليضاعف قوة الإسلام وقدرة المسلمينَ وشوكة أهل الإيمان وصولة المؤمنين على الكفار والمشركين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عِمرَان: 119] أي بما تقرر وتثبت في القلب بالوجه الذي يلي النفس ويصعد منها إليه صور الأفعال الَّتي صدرت منها خيرًا أو شرًّا نفعًا أو ضرًّا.

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ﴾ من الظفر والاستيلاء ودفع الأعداء ونصرة الأولياء ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ توقعهم في السوء والعناء والعقبة حقدًا وحسدًا ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي ضعف وهزيمةٌ وفرار وكسر وانكسار ﴿يَفْرَحُواْ بِهَاۖ﴾ بيان غاية العداوة ونهاية المخالفة ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ﴾ على أذيتهم وإصرار أضرارهم والشدائد الواقعة في طريق الحب والوداد ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ قلوبكم عن ملاحظة صور الأغيار وغرر مقتضى الأدوار ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ﴾ وحيلتهم ومكرهم ﴿شَيْـًٔا﴾ أصلًا لا قليلًا ولا كثيرًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي بعملكم ومعمولكم ﴿مُحِيطٌ﴾ [آل عِمران: 120].

إشارة وتأويل

﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ [آل عِمرَان: 111] بمعنى أن السلاك بما سافروا ورجعوا وصعدوا ووعدوا من الناسوت إلى اللاهوت مستتبعين لجنود القوى الفؤادي الرحمانية التوراة والجمالية والظلية الجلالية الشيطانية، وعمال الأعيان النفسانية ورعايا القوى الجسمانية دفنت تلك الجنود وعساكر القوى بذواتها وهوياتها وحقائقها وماهياتها وأعمالها وأحوالها، فإذا رجعوا وعادوا مع ما لهم من القوى والمبادئ الثانية والأولى من اللاهوت إلى الناسوت عادت الجنود والقوى والمبادئ الأولى والأخرى والمنادي إلى ذلك المحافل والمنادي فحينئذ عادت تلك القوى والعساكر العليا والسفلى إلى ما كان عليه من الحالة الأولى فكفرت بربها وبالنعمة التي اجتباهم بها وهداهم إلى صراط مستقيم فحينئذ خالفت جنود المبادئ الناسوتية العساكر الإلهية والجنود الربانية وقصدوا القتالَ والمقاتلة والمحاربة والجدال بهم فغلبوها لكَ وانقلبوا صاغرين، أو المراد إرادة الأطوار القالبية والنفسية والقلبية القتال مع الأطوار السرية والروحية والحقية ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عِمرَان: 111].

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ والمسكنة أي على الأعيان النورية الجمالية الإفرادية وعلى الأكوان الظلية الجلالية الوحدانية، الذلّة البعد عن الكمال الجمعي والجمع الكمالي ﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾ في الأدوار الأربعة والأكوار المربعة الإفرادية وجمعيتها الإنجيل من اللهِ أي الكمال الجمعي للأعيان النورية الجمالية الإفرادية ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي الجمع الكامل الكمالي بين الأكوان الأربعة الظلية الجلالية الإفرادية ﴿وَبَآءُو﴾ أي الأعيان الإفرادية النورية والأكوان الوحدانية الظلية رجعوا وعادوا ﴿بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وبعدوا احتجاب من ذلك البعد والحجاب ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ ويشترون ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي تجلياته الجمعية الإلهية والكونية ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾ أي التجلي الأسمائي والأفعالي والآثاري ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عِمرَان: 112] بلا وجه كشفي أو ذوقي أو نظر فكري أو شرعي ليسوا سواء من أهل الكتاب من التجلي الأسمائي والأفعالي والآثاري، أو التجلي الجمعي الأسمائي أو الأفعالي بأن تتجلى الذات بتمام الأسماء الذاتية

أو الأسماء الأفعالية والآثارية أو التجلي الذاتي والأسمائي الذاتية والأفعالية.

منهم أي من أصحاب التجلي الجمعي ﴿أُمَّةٌ﴾ وطائفة ﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ويشاهدون التجليات الإلهية الأسمائية أي الأسماء الذاتية أو الأفعالية ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ أي ليل الخلوات ونهار الكثرات الكونية ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عِمرَان: 113] يصلّون صلاة جميع الأعيان النورية الجمالية الإفرادية أو الجمعية الوجودية أو صلوات الأكوان الظلية الجلالية إفرادًا أو جمعًا إفراديًا والجمعية العدمية أو الجمعية الجمعية المحيطة على الأسماء الثبوتية والسلبية أو الوجودية والعدمية أو التشبيهية والتنزيهية والتقديسية.

﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ الذات الجامع للأدوار النورية أو الأكوار الظلّية الإفرادية والجمعية وجمعية الجمعية ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [آل عِمرَان: 114] أي نهاية اقتضاءات الأدوار وارتضاءات الأكوار الإفرادية والجمعية الفردانية وجمعية الجمعية ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي المقتضيات النورية الجمالية ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ أي عن ظهور خصوصية ارتضاءات الظلّية الجلالية الشيطانية الجنية المخالفة للاقتضاءات النورية الرحمانية الإنسانية بل يسعون لأن يوافَق الارتضاءات الشيطانية الجنية للآيات الرحمانية الإنسية ويسلم الشيطان بيده ولا يأمره إلا بالخير والطاعات كما أشارَ إليه النبي ﷺ: «**بأن شيطاني أسلم بيدي ولا يأمرني إلّا بالخير**»، ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ من الأعمال الصالحة الصادرة عن الصورة الجمعية التي هي توافق اقتضاء النّور وارتضاء الظل والصمود ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الأعيان الجامعون بين الأضداد والأنداد ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عِمرَان: 114] الذين صاروا تصلح طاعاتهم الجمعية وعباداتهم الأصلية والفرعية لياقةً لحضرته ووفاقة لكمالِ ربوبيته.

﴿وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ﴾ جامع لجهات تمام الخيرات وعموم المبرات ﴿فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عِمرَان: 115] الذين اجتنبوا عن تمام المخالفات.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ﴾ أي المقتضيات النورية ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾ أي المرتضيات الظلية لأنهم لم يصلوا إلى المقام الجمعي والمرام

الألمعي ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ والذات الجامع لتمام الأسماء والصفات في تدبير الدورات وتدوير أفلاك الأدوار وسماء الكورات ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عِمرَان: 116].

﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ﴾ المشركون والمنافقونَ والمتقلدون أو الملحدونَ من أموال العلوم النظرية والعملية الّتي خلت عن التأييد الإلهي والتوفيق الربّاني ﴿كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ﴾ أي مثل الهوى الصادرة عن الحيوان عند التنفس ﴿أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ﴾ [آل عِمرَان: 117] إشارة إلى علوم الإلحاد والمعارف والمنسوبة إلى الملحدين والزنادقة فإنهم يؤمِنونَ ويعتقدونَ عقائد المسلمين الطالبين للحق الراغبين إلى الصواب والصدق بالأباطيل والتخيلات المتوهمة والمزخرفات المموهة، وإنما نسب الظلم إلى أنفسهم فإن كلّ ما ظهر ويظهر منهم إنما هو من استعدادهم الطيب بالفعل الظاهر آثاره في النفس العاملة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ﴾ [آل عِمرَان: 118] قالَ الصادق: ما ضرّ للمؤمنين عداوة جميع الخلق من العرش إلى الفرش من الثرى إلى الثريا ما بعد أن اللّهَ تعالى محبهم ووليهم وما ينفع للمؤمن من موالاة الخلق ومحبتهم بعد أن رد الله إياهم من بابه وقطاعهم عن رحمته وولاية قربتهم ويردهم في غضبهم وسخطه وعقوبته وباقي الآيات ظاهرة إلى قوله:

﴿وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٢١﴾

﴿وَإِذۡ غَدَوۡتَ﴾ أي اذكر وقت الذي خرجتَ بالصباح ﴿مِنۡ أَهۡلِكَ﴾ أو وقتَ سيرورتك ذات غداة من أهل المدينة من حجرة عائشة عازمًا إلى أحدٍ ﴿تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ﴾ مهموز مرة ومضعفة ومخففة غير مهموزة من أبوء يبوء إذا وطنتم وتبوّؤا أي توطنوا وتمسكنوا وتقرروا ﴿لِلۡقِتَالِۗ﴾ أي موافق للحرب والمحاربة يعني ترتب المؤمنين بعضهم للقتال وبعضهم للحفظ ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ بقولك وبقولهم ﴿عَلِيمٌ﴾ [آل عِمران: 121] بنيتك وبنيتهم وأمر الكفار.

روي أن المشركينَ نزلوا بأحد يوم الأربعاء ثاني عشر شوال إلى سنة ثلث من الهجرة الثانية فاستشارَ الرسولﷺ الأصحابَ فدعا عبدِاللَّهِ بن أبي سلول هو وأكبر الأنصار قالوا قم يا رسول الله بالمدينة فلا تخرج إليهم فوالله ما خرجنا منها إلى عدو إلّا أصابَ منا، ولا دخلها علينا إلا أصابنا منه فكيف وأنتَ فينا، فإن الرجالَ قاتلوهم والنساء والصبيانَ رموهم بالحجارة، والبعض أشارَ بالخروج وهمّ الّذين هم فإن منهم البدو.

وأتاه النعمان بن مالك الأنصاري فقالَ: يا رسولَ الله لا تحرمني الجنة فوالذي بعثك بالحق لأدخلنّ الجنة ثم قالَ: أشهد أن لا إلهَ إلّا الله وإني لا أفِرَّ من الزحف قالَ: «صدقت» ثم قال: **«إني رأيتُ في ذباب سيفي ثلمة فأولتها هزيمة ورأيت كإني أدخلت يدي فِيّ في درع حصيفة فأولتها بالمدينة»**، فلما بالغوا دخل الرسول البيت ولبس لأمته فإذا هم ندموا وقالوا بئس ما صنعنا فقال النبي ﷺ: **«لا ينبغي لأحدٍ من الأنبياء إن لبس لأمته فيضعها حتى يقاتلَ»** فخرج يوم الجمعة بعدَ الصلاة وأصبح بالشعب من أُحُد يوم السبت منتصف الشوال، فجعل نصف أصحابه للقتال وأسند ظهره وعساكره إلى أُحُد وأمر عبد الله بن خيبر على الرماة.

﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ﴾ أي جماعتان من المؤمنين وهما بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس وهما من الأنصار ﴿أَن تَفْشَلَا﴾ أي تَجْبُنا وذلك أن رسولَ الله ﷺ قد خرج إلى أحد وقيلَ بألف وسبعمائة وخمسين رجلًا والمشركونَ ثلاثة آلاف، فلما بلغوا الشطي رجع عبد الله ابن أُبَيْ مع ثلاثة مائة من المنافقين فهمت الطائفتانِ أن يرجعوا معه فحفظ الله قلوبهم وثبتهم فمضوا مع رسول الله ﷺ ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ وحافظهما وناصرهما فمالهما تفشلان وتجبنان وتخافانِ ولا تتوكلان إلّا على الله ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمرَان: 122] ويفوضون الأمورَ كلها إليه.

مطلب: غزوات النبي ﷺ

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ تسلية لهم وتوطئةً لقلوبهم وتقديم الجار على العامل للحصر والفاء جواب الشرطِ المحذوف أي أقصروا توكلكم على الله ولم يعتمدوا على غيره بدل من إذ غدوتَ ومحذوف عامله وهو اذكر أي اذكر وقت قصدكم الرجوع إلى المدينة ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ حال من كم جمع ذليل كأعزة جمع عزيز وأقلّة جمع قليل، والبدر بئر ماء بين مكة والمدينة كانَ لرجل اسمه بدر وجمع القلة إشارة إلى أن المسلمين في البداية كانوا ذليلين عاجزين قليلًا في بدر، ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا أكثرهم كانوا راجلين حفاة عراة والمشركون تسعمائة وخمسون ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ قل يا محمد خافوا اللّهَ واخشوه واعرفوا حق نعمته السابقة بالإسلام والنصر والغلبة على الأعداء والظفر ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عِمران: 123] نعمه وإنعامه وكرمه وإكرامه إشارة إلى أن التقوى هي مدار الشكر ومبدأ أصل الفكر والصبر وهما الإيمان، وليعلم أن الرسولَ ﷺ غزا سبعة وعشرين أولها كانَ النبي ﷺ إذا غزا قالَ: «**اللهمَ أنتَ عضدي وأنتَ نصيري وبكَ أقاتلُ**».

1 - غزوة الأبرار	**2 - غزوة العسر**	**3 - غزوة بدر الأولى**
4 - غزوة البدر الكبرى	**5 - غزوة بني سليم**	**6 - غزوة السويق**
7 - غزوة ذي أسر	**8 - غزوة أُحد**	**9 - غزوة بني سليم**
10 - غزوة الأسد	**11 - غزوة بني النضير**	**12 - غزوة بدر الآخرة**
13 - غزوة دومة الجندل	**14 - غزوة الخندق**	**15 - غزوة ذات الرقاع**
16 - غزوة بدر الآخرة	**17 - غزوة بني قردة**	**18 - غزوة بني المصطلق**
19 - غزوة بني قريظة	**20 - غزوة الحبان**	**21 - غزوة الفتح، فتح مكة**
22 - غزوة حُنين	**23 - غزوة الحديبية**	**24 - غزوة خيبر**
25 - غزوة تبوك	**26 - غزوة الطائف**	**27 - ذكر غزاة الغار**

قاتل منها في تسع غزوات غزوة بدر الكبرى وهو يوم الجمعة من شهر رمضان

سنة اثنين من الهجرة وغزوة الأُحد في شوال سنة ثلاثة وغزوة الخندق وبني قريظة في شوال سنة أربع وغزوة بني المصطلق وبني الجنان في شعبان سنة خمس وغزوة خيبر سنة ست وغزوة الفتح في شهر رمضان سنة ثمان وغزوة الحنين والطائف في الطائف في شوال سنة ثمان فأول غزوة غزاها بنفسه وقاتل فيها هي غزوة بدر وآخرها تبوك وإنما أراد الجمع جمع قلة ليدل على أن أهلَ الإسلام كانوا قليلًا عاجزين ضعفاء قليلي السّلاح والركوب وذلك أنهم خرجوا على النواضِح المعدودة ومعهم فرس واحد وأربعة عشر سيفًا والعدو ألف مقاتل وبهم فرسٍ.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾﴾

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ظرف لقد نصركم قيل بدل ثان من إذا غدوت أي اذكر وقت قولك للمؤمنين ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم﴾ من الإمداد وهو الإعانة ﴿بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ [آل عِمرَان: 124] حال من الملائكة قالَ لهم قبلَ النزول تسكينًا لقلوب المؤمنين وإنما جيء بلن الّتي هي لتأكيد النفي وتأييده إشعار بأنهم كانوا لقلتهم وضعفهم وندرة مؤنتهم وكثرة أعدائهم وكمال قدرتهم ووفور قوتهم وشدة شوكتهم كالآيسين من النصر.

﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾

﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ﴾ نعم يكفيكم الإمداد بهم جواب الاستفهام من الله إشعار بأن المؤمنين بكمال خوفهم ووفور دهشتهم وعوقهم نصرهم الله وجعلهم مظفرًا ومنصورًا أشار إليه بلى إن تصبروا مع نبيكم ولن يخالفوا ما عيّن لكم وأمركم وحلكم عليه ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ مخالفة أمر نبيكم ﴿وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾ [آل عِمرَان: 125] أي من مناعاتهم بغتة من الفور والفوران وهو الغليان والاضطراب من فار يفور إذا غالَ يغولُ وفار التنور إذا غلت الماء منه واضطرب في الظهور فاستعير للسرعة ثم اطلق للحال التي لا ريبَ ولا يتراخى أي يأتوكم في الحال أي حال إتيانهم بلا تراخ

وتأخير عددكم ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: 125] من التسويم الذي هو إظهار سيماء الشيء بقوله عليه السلام لأصحابه: «**تسوّموا فإن الملائِكةَ قد تسوّمت بالصوف الأبيض**» هذا كله كانَ يوم بدر.

قالَ الحسن: فهؤلاء هم خمسة آلاف رداء للمؤمنين إلى يوم القيامة روى أن النَّبيَّ ﷺ مع الصحابة لما نزلَ منزلًا قريبًا من بدر فإذ جاء خبر أن أبا جهل قد نزلَ بألف رجل مقاتل بدرًا وأن أبا سفيانَ والعير قد عبروا ووصلوا إلى مكة فاستشارَ الرسول أصحابه فنزلَ جبرائيل وقال: يا محمد إن اللَّهَ وعدكم إحدى الطائفتين إما العير أو النفير وهم قريش فقالَ الأصحاب: العير أحب إلينا من لقاء العدو فتغير وجه النبي ﷺ فقام أبو بكر وعمر وقالا أحسن القول فقام المقداد فقال: امض بنا يا رسولَ اللَّهِ ما أمرك ربّك، فإنّا معكَ حيثُ توجهت. فسُرَّ رسول الله ودعا له دعاءَ الخير ثم قالَ النبي ﷺ: «**أيها الناس أشيروا عليَّ**» وهو يريد الأنصار فقامَ سعد بن معاذ وقال: كأنك تريدنا يا رسولَ اللَّهِ؟ فقالَ: «**أجل**» فقالَ: امضِ بنا يا رسول الله بما أمركَ اللَّهُ لما أردتَ فوالذي بعثك بالحق لو استعرضتَ بنا هذا البحرَ فخضته فخضناه معكَ فسُرَّ بذلك النّبيّﷺ وقالَ: والله لا نقول ما قال اليهود لموسى ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: 24]. ثم قال الرسول ﷺ: «**سيروا على بركة الله وأبشروا فإن اللَّهَ تعالى وعدني النصر على العدوّ والله لكأنّي انظر الآنَ إلى مصارع القوم**»، فساروا واجتمعوا فنصرهم الله تعالى على قريش في بدر فهزموهم بإذن الله فلما فرغ رسول الله ﷺ من بدر قال له أصحابه: عليكَ بالعير يا رسولَ الله ليس دوننا شيء فقال العباس: وهو في وثاقه وحبسه لا يصلح هذا الرأي فقال له النبي: «**لِمَ يا عم؟**» قالَ: لأن الله تعالى وعدك إحدى الطائفتين وقد أعطاك ما وعدكَ فامتنع الرسول من ذلكَ وكان الرسول يقول لأصحابه قبلَ هذا إذ سمع قدوم قريش في بدر مستغيثين بالله: «**اللّهم أغثنا يا غياث المستغيثين**». وقالَ النبيّ ﷺ: «**اللهم انجزني ما وعدتني**» مادًّا يديه مستقبلَ القبلة: «**اللّهمَّ إن تهلك هذه العصابة لا تُعبَد في الأرض**» ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: 9]، فنزل جبرائيل عليه بخمسمائة ملكٍ على يمينه وفيها أبو بكر ونزلَ ميكائيل في خمسمائة على الميسرة وفيها علي والملائكة على

صورة الرجال عليهم ثياب بيض وعمائم بيض فقاتلت الملائكة يوم بدر ولم يقاتلوا يومَ الأحزاب ولا يوم حنين فقتل من قريش سبعون وأسر سبعون وتمام هذه القصة سيأتي في سورة الأنفال.

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ أي يوم بدر ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ أي بشارة مخصوصة وإشارة مختصة ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ أي تثبت وتستكن قلوبكم وفؤادكم من الخوف ومن الزجر والفوت ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ﴾ لا من غيره من العساكر والجنود الإلٰهية والكونية ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الغالب الذي لا يُغلَب في أمره وتدبيره أو حكمه أو منبع بالانتقام لمن جحده ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عِمران: 126] الذي يحكم ويعلم على مقتضى الحكمة والمصلحة فلا تضطربوا ولا تجزعوا ولا تخشوا ولا تفزعوا من كثرة الأعداء وشوكة الخصماء وتوكلوا عليه واستغيثوا به.

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾ متعلق بنصر أي ولقد نصركم الله ببدر ليقطع طرفًا ويهلك طائفةً ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ معطوف على ليقطع أي يهزمهم من الكبت وهو شدة الغيظ أو وهن في القلب فأو للتنويع وما لغة الخلو إلا الترديد والشك وامتناع الجمع والخلو ليكون منفصل حقيقي ﴿فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾ [آل عِمرَان: 127] أي فيهزموا منقطعي الآمال ومرتفقي الأعمال والأفعال.

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أي أمر الكفار وحالهم من الكفر والتعصب والتشدد فيه والإصرار على العداوة والإضرار بالمكايدة والإدرار على المكابدة ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي يقبل توبتهم ويرحم عليهم ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ [آل عِمرَان: 128] أن أصروا على الكفر وإنما أنتَ عبد مبعوث لإنذارهم أو دعوتهم إلى الهدى عطف

على أن يكبتهم ويجوز أن يعطف على الأمر أو شيء بإضمار أي ليس لك من الأمر أو من التوبة عليهم أو من تعذيبهم شيء من الأشياء أو فعل من أفعالهم الإرادية وأعمالهم الاختيارية قيلَ أو بمعنى إلى أن يتوبَ اللَّهَ عليهم فتفرح بحالهم أو يعذبهم فيتشفى صدركَ منهم قيلَ أراد الرسول أن يدعوا عليهم فنهاه الله عنه بأن فيهم من يؤمن أو يأتي منهم من يؤمن.

واختلفوا في سببه فقالَ عبد الله بن مسعود: لما أرادَ رسولُ اللَّهِ أن يدعوَ على المنهزمين من أصحابه يوم أحد ومنهم عثمان بن عفان فنهاه الله وتابَ عليهم. وقالَ جماعة: من رَمَى رجل من هذيل اسمه عبد الله بن قميئة وجه رسول الله فدعا عليه رسول الله ﷺ فسلط الله عليه تيسًا فنطحه حتى مات وكانت هند زوجة أبي سفيان مع نسوة معها تجدعنّ آذان الأصحاب القتلى وأنوفهم حتى اتخذت منها قلائدَ ونقرت من كبد حمزة عم رسول الله، ثم علت صخرةً مشرفة فصرخت: نحن جزينا بيوم بدر والحرب بعد الحرب ذات شعر، قيلَ اللّام في ذلك بمعنى (إلى) كقوله: ﴿إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ﴾ [آل عمران: 193] الحمد للَّهِ الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي، ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران: 128] بترك أمر الله وارتكاب المناهي أي ليسترجع إليكَ شيء من أمرهم ليغفر لهم أو يعذبهم لأنهم ظالمون ويستحقون التعذيب بل الأمر كله لله، فإن شاءَ يغفر لمن يشاء، أو يعذب من يشاء.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ عظم نفسه بأنه المالك المطلق يتصرف في ملكه كيف يشاء ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ﴾ الكبائر والصغائر المصر عليها هي الكبائر ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لأهل الكبائر ﴿رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: 129] على عباده المصرين على الصغائر فلا تبادرَ إلى الدعاء عليهم وفي تخليل العذاب بعد المغفرتين وإرداف الرحمة بهما إشارة إلى ما يلوح إليه ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ [الزمر: 53].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ﴾ أي لا تـزيـدوا زيـادة مكررة بأن كانَ للرجل على الرجل مال مؤجل فإذا انْقرض الأجل طلبه من صاحبه فيقول له: أخِّر عني وزد على مالك شيئًا وهكذا إلى أن يتغفر المال الخفيف بالزيادة والتضعيف كل مال المديون مع الزيادة وإنما نهى أكلَ الربا لأنه يقسي القلب وينسي الرب فإن قلتَ إذا كان في الكلام المنفي قيد يتوجه النفي إلى ذلك القيد قال الممنوع هو الزيادة والربا المخصوص لا مطلق الربا قلتَ في الكلام إضمار تقديره لا تأكلوا الربا مطلقًا سيما إذا كانَ أضعافًا مضاعفة ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في أموال الربا وأكلها ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [آل عِمران: 130] راجين بالفوز بالجنة وللأنوار والنجاة عن دركات النار.

إشارة وتأويل

﴿وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ﴾ [آل عِمران: 121] خطاب إلى الطور الخفي والخفي المحمدي المنزل إلى الطور القالبي الناسوتي المؤمنون هم الأطوار الباقية التي تتابعت الطور القلبي الجامع لإشراقات الأنوار الإلٰهية والآثار المترقية من القوى النفسانية والمبادىء الجسمانية إليه ليتصاعد إلى الأحدية الجمعية التي هي شبحها وأصلها الفطري والقتال هو المخالفة الداعية إلى الموافقة والمطاوعة لسلطان الطور السري الروحي والخفي التي هي مشاهد شهود التجليات الإلٰهية الأسمائية والأفعالية والآثارية والله سميع لاستدعاء الاستعدادات لقبولِ شهود التجليات المعهودة التي تترتب على التجلي الذاتي عليم بمقادير الاستعدادات البعيدة والقريبة بالفعل.

﴿إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ﴾ [آل عِمران: 122] من المؤمنين وهما القوة النظرية والعملية المطاوعتانِ للروح والعقل والمصدر والفؤاد المتطاوعتانِ لسلطان القلب المأموران لمخالفة سلطان الجلال الذي هو رب المولود الجني والشيطان فاعتقدهما على بساط المبارزة في مضمار المقابلة مع الأعداء بسيف التوكل

وسنان الرضى والتسليم ورمح التوبة والإنابة إلى الله فلا تفشلان ولا ترجعان إلى غير اللَّهِ وما سواه.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ أي بدر النفس الأمارة أو بدر البدن ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عِمران: 123] خطاب إلى الطور القالبي الذي هو قريب العهد بعالم الطبيعة وتدبيرها بنعت الحرص والطمع. قالَ الصادق: «الطمع يجر صاحبه إلى الانقطاع من الله إلاّ من عصمه» بالتأييد الاعتصامي ونصره برحمته فيقطع منه بطمع ويطلع من يرفع بالعز والنصر والإقبال والولاية والإجلال فمن صفى بأنوار الكبرياء والعصمة يصير عظيمًا في عيون الخلق منصورًا بتأييد الحق الأزلي على كل منكر مريد ومتمرد وسديد. قالَ عليه السلام: «**إن الشيطان يفر من ظل عمر لكمال اهتمامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**».

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [آل عِمران: 124] إلخ، إشارة إلى الجهات الثلاث التي تكون في البدر الأصغر البدني والبدر الأكبر القلبي والبدر الأوسط النفسي ففي كل بدر يكون أملاكًا مناسبة تفيض من غيب التجليات الثلاث المذكورة المنسوبة إلى الطور السوري والروحي والخفي وهي التي تملك القوى الثلاثة وهي الشهودية والغضبية والملكية النطقية بلى إن تصبروا وتتقوا يعني الأمداد المذكورة لا يكفي في انهزامه كفار عالم الطبيعة مقرونة بالصبر والتقوى بل مدد واحد يكفي إلا أن اللَّهَ تعالى أرادَ أن يعظم حبيبه بضعف المدد ليس لكَ من الأمر شيء أي أمر عالم الطبيعة والقوى الجسمانية والمبادىء النفسانية التي وكل الله على كل واحد منها نوعًا من الشيطان ونوعًا من الأملاك وطائفة منهم وهم عيوب الأبالسة والشياطين فإذا أراد اللَّهَ لعبد خيرًا أسلم تلك الشياطين والأبالسة بيده ويطاوعه ولم يأمر فيه ولا يريد إلا خيرًا كما أشارَ إليه وصرح به النبي ﷺ: «**إن شيطاني أسلم بيدي ولا يأمرني إلا بالخير**».

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أي أمر الشياطين الموكلة على عالم الطبيعة والنفوس والأجسام شيء من التصرف والتدبير والاستسلام ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ بأن يطيعهم لك ويجعلهم مسلمين مريدين للخير بل الأمر كله لله إن شاء يطيعهم لكَ

﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ بمخالفتهم لك ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ في أنفسهم ﴿ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عِمران: 128].

قالَ الصادق: على مقتضى سنن قضائه السابق لما خرج من غير حاجته وكشف ما غاب عنه من العفو والمغفرة لمن التجأ إليه وعرف ربه بالمغفرة والرحمة صار أمره أمرًا ومراده مرادًا.

قالَ صاحب العرائس: أراد السيد عليه السلام تقديسَ حضرة الجلال عن أنغام المحرمين وقولهم بما لا يليق بجلال اللَّهِ من الشرك والكفر لئلا يبقى في ساحة الكبرياء في قلبه غير الله وغيره من على جمال وجهه تعالى فمن كثر محبته وشدة إرادته ثم يطالع أمرَ القدم الذي جرى العناية في حق المستوفين بأستار عوارض الامتحان فعاتبه الحق: أين أنتَ يا محمد من مشاهدة سبق عنايتي لهم فأنعم نظركَ واسرح باطن بصرك في ديوان الأزل لينكشف لكَ أنهم سعدائي وإن وقع في البين فترة وليس لك في هذه الفترة من أمر القدم ومشيئة الأزل في وقتك حين احتجبت بغيرتك على من أمرهم بشيء فإن صرفت منك إليّ رأيتَ أمر المشية ويشفي من الدعاء عليهم لأنهم في أمورهم مجبولونَ فأدّب الله نبيه بأحسن الأدب بشيئين أحدهما: أنه أهل الكرم والرحمة من العرش إلى الثرى والفرش حيث وصفه الله بكمال الرحمة ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107] أي ارحم من حيث أنتَ على أمتك ولا تدعو عليهم. والثاني: ألبسه خلقته وصفته لأن من صفته وخلّته الرحمة يرحم على نجم بدر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ [آل عِمران: 130] أو ليعلم أن بين الروح والنفس لاحتياج أحدهما إلى الآخر معاملات معنوية ومكالمات سرية ومبادلات خفية فلا بدّ أن تكون تلك المعاملات بلا زيادة وتفاضل بأن أحوال الروح التجرد والفتوح إذا غلبت برياضة النفس انتفت عنه الكمالات الجمعية والحالات والمقامات المعنوية انتفائها من الملائكة والمجردات فإن النفس لكثرة الرياضة وشدة المجاهدة تعمي القلوب والأرواح عن مشاهدة التجليات الآثارية والأفعالية كما أشار إليه آدم الأولياء بقوله: لا تبالغوا في رياضة النفس ومجاهدتها لئلا تعمى ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: 46]، وعن شهود التجليات الإلٰهية وعن الأسوار الناسوتية وعن كشف لطائف جمعية الناسوت

واللاهوت والجبروت والملكوت والبرزخ والملك إلى مرتبة الجالوت، فعلى المرشد الكامل في استيفاء أنوار الأطوار السبعة القلبية ومعية مقتضيات الأدوار ومرتضيات الأكوار الإفرادية والجمعية وجمعية الجمعية المكمل للنفوس الناقصة لا بدّ وأن يتأمل في نفس السالِك وقربها وقدر قابليتها ويأمر عليه بقدر الحاجة ولا يبالغ في منع الغذاء سيما الحيوانية عن النفس كما ورد في الحديث «**من ترك اللحم أربعين يومًا ساء خلقه**» قالَ عليه السلام: «**لا رهبانية في الإسلام**».

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١﴾

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ﴾ أي خلقت وهيئت ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عِمران: 131] بالله وآياته بالتحرز عن مجالستهم والتقرر عن مقالتهم ومبايعتهم وتعاطي معاملتهم ومؤاخاتهم يدل على أن النارَ مخلوقة معدة أولًا وبالذات للكافرينَ وثانيًا وبالعرض للعاصين وإنما كرر التقوى إشعارًا بأنَّ المعاصي منها يسلب الإيمانَ عندَ النزع ومنها أكل الربا كما أشرت إليها وإن مدار السعادة العظمى هو حفظ النفس بالتقوى عن ركوب مطية الهوى فإنه مأوى كل شر ومثوى كل سوء وضر.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢﴾

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ بالانتهاءِ والتجنب عن المناهي والمساوىء والملاهي وبالامتثال بالمعروف والتحقق بالحق الموصوف ﴿وَٱلرَّسُولَ﴾ بمتابعة شريعته وموافقة طريقته والتخلق بأخلاقه والتحقق بحقيقته والتجافي عما نهانا عنه ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [آل عِمران: 132] وجاء إن يرحمكم اللّهَ ويغفر لكم ذنوبكم فلا تعذبوا بالنار المعدة للكفار، وإنما أتبع الوعيدَ بالوعدِ ترهيبًا عن المخالفة وترغيبًا على الطاعة، ولعل وعسى في أمثال هذا الوضع دليل على عزة التوصل وعزة التوسل إلى ما وعَدَ.

﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ
وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [آل عِمران: 133] أي سابقوا وبادروا إلى

أسباب المغفرة وهي التوبة والرجوع إلى الحق والإنابة لديه والبعض إنما هي الإسلام. قالَ علي كرم الله وجهه: هي آراء الفرائض وعثمان رضي الله عنه هي الإخلاص وبعضهم على أنها الائتمار بالأوامر والانتهاء عن النواهي والزواجر وقيلَ الجمع والجماعات والقول الجامع هو المجموع لأنه المطلوب ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [آل عِمرَان: 133] أي إلى عمل توجب الجنة بالوراثة، وعرضها كعرضها بدليل ما في الحديد عرضها كعرض السماء والأرض، وذكر العرض للمبالغة في وصفها بالسعة على طريقة التمثيل لأنه دون الطول الذي لا يعلمه إلا الله وذلك لأن الطولَ أطول الامتداد الثالث وأولها لا يعلمه إلا الله إشعار بأن العرض مسار للطول والعمق فيكون الأفلاك والعناصر مستديرة وبأنَّ الجنة أيضًا مستديرة لأن الاستدارةَ أفضل الأشكال لا يتطرق عليه التجزيء والانفصال.

قالَ ابن عباس: كسبع سموات وسبع أرضين لو وصل بعضها إلى بعض، وفي الكشاف المراد وصفها بالسعة والبسطة فشبهت بأوسع ما على الناس من خلقه وأبسط، وخص العرض لأنه في العادة أدنى من الطول كقوله تعالى: ﴿بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن: 54] وصف البطانة بأحسن ما يكون يدل على أن الظواهر أحسن وأبهى هذا إذا بقيت السماوات والأرض على هيئتها أما إذا جعلت سطحًا مؤلفًا من أجزاء لا يتجزأ وصل البعض بالبعض حتى صار طبقًا واحدًا مثل عرض الجنة فحينئذ يكون في غاية من السعة لا يعلمها إلا الله، قال أهل المعاني: ليس الغرض هاهنا من العرض المقابل للطول بل المبالغة كما يكون في ذكر العدد الكثرة.

مبحث: اتحاد الجنة والنار

قالَ النبيّ ﷺ: «**إن للّهِ تعالى سبعين ألف حجاب من نور وظلمة**». كتب هرقل عظيم الروم إلى النبي ﷺ إنك كتبت تدعوني إلى جنة عرضها السماوات والأرض فأين النار؟ قال: «**سبحان الله، فأين الليل إذا جاء النهار وبالعكس**» ويمثل هذا في التوراة والظاهر من الحديث أن الجنة والنارَ متحدتان بالذات مختلفتان بالاعتبار والآثار فإن الأمرَ الواحدَ قد يكون بالنسبة إلى شخص واحد ضارًّا وإلى آخر نافعًا كنار إبراهيم عليه السلام قلنا: يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم

بأنه باطنه الرحمة وظاهره من قبله العذاب وكالماء التي ابتلاها الله تعالى القبطَ والسبطَ بها فإنها بالنسبة إلى القبط كانت مرًّا عجاجًا وبالنسبة إلى السبط عذبًا فراتًا سائغًا شرابه وفي الحديث: «**إذا دخل المؤمن النارَ نادت النار: جُزْ يا مؤمن فإن نوركَ أطفأ ناري**».

سئل مالك بن أنس عن الجنة أفي السماء أم في الأرض؟ فقال: وأي أرض وسماء يسع الجنة فقيلَ: أين هي؟ قالَ: فوق السماوات السبع تحت العرش والظن أنه هو الكرسي الذي هو الملك الثامن الذي مركوزة فيه الكواكب الثابتة ما يعلم عددها ولا مقدار كل واحد منها وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما كما ورد في الحديث عرشها عرش الرحمن ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عِمرَان: 133] وصف ثان للجنة وفيه إيماء إلى أن الجنة مخلوقة غير داخلة في العالم ولا خارجة كما لوح إليه الحديث.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ مجرور صفة لهم أو مرفوع ومنصوب على المدح أي في حالتي الرخاء والشدة أو الأحوال كلها إذ الإنسان لا يخلو عن مضرة ومسرة وسعة وراحة وشدة قيلَ في المرض والصحة فيه حث على التصدق بما أمكن على كل الأحوال قل أو كثر. قالَ النّبي ﷺ: «**السخي قريب من الناس بعيد من النار والبخيل بعيد من الله بعيد من الجنة بعيد من الناس قريب من النار**»، وأيضًا: «**الجنة دار الأسخياء والسماح شجرة في الجنة أغصانها في الدنيا من تعلق بأغصانها قادته إلى الجنة والبخل شجرة في النار أغصانها في الدنيا من تعلق بغصن من أغصانها قادته إلى النار**». ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ [آل عِمرَان: 134] أي الجارعينَ الغضبَ والقهرَ والساترينَ له في أجوافهم عند امتلاء نفوسهم به وأصله حبس الشيء عند امتلائه يقال لمجاري المياه كظائم لامتلائها بالماء ومنه رجل كظيم إذا امتلأ من الغم والحزن وابيضت عيناه من الحزن وهو كظيم.

قالَ عليه السلام: «**من كظم غيظًا وهو يقدر على أن ينفذه دعاه الله يوم

القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخبره من أي الحور شاء»، وأيضًا: «**من كظم غيظًا وهو يقدر على إنفاده ملأ الله قلبه أمنًا وإيمانًا**».

إذا غضبتَ فكن وقورًا كاظمًا تبصّر للغيظ ما تقول وتسمع
وكفى به شرفًا يصبر ساعةً يرضى به عنك الإلٰه وترفع

والمراد بهم لا يظهرون ما في نفوسهم من الغيظ والغضب والأسرار ﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ أي الذين يعفون عمن ظلمهم بعد قدرتهم عليه أو عن مماليكهم لسوء آدابهم.

قالَ رسول الله ﷺ عند ذلك: «**أن هؤلاء في أمتي قليل إلا من عصم الله وقد كانوا كثيرًا في الأمم التي مضت**» كان أبا بكر مع النبي ﷺ فجاء رجل فوقع في أبي بكر وهو ساكت والنبي تبسم ثم رد أبو بكر عليه بعض الذي قال فغضب النبي ﷺ وقام فلحقه أبو بكر وقالَ: يا رسولَ لله شتمني وأنتَ تبسم ثم رددت عليه بعض ما قال فغضبتَ وذهبتَ فقال: «**إنك حين كنتَ ساكتًا كان معك ملك يرد عليه بعض ما قالَ فلما تكلمتَ وقع الشيطان فلم أكن أقعد في موضع فيه الشيطان يا أبا بكر ليس عبد يُظلَم بمظلمة فيعفو عنها إلا أعز الله نصره وليس عبد يفتح بابَ مسألة يريد به كثرةً إلا زاده الله قلة وليس عبد يفتح باب عطية أوصلة إلاّ زاده الله بها كثرة**» ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عِمرَان: 134] اللام للجنس أي يحب كل محسن من الأبرار والمماليك أو للعهد فيكون الإشارة خاصةً بهم فعلى الأول يدخل الجنةَ هؤلاء المذكورونَ فلا منافاة بين الاستغراق والجنس.

واعلم أن الإحسانَ قد يطلق على الفعل الموجب للمسرة قالَ علي كرم الله وجهه: إن الإنسان عبيد الإحسان إلا أن الإحسان يقطع اللّسانَ وعلى العبادة الكاملة والمشاهدة الفاضلة.

قالَ النبي ﷺ: «**الإحسان أن تعبدَ اللَّهَ كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراكَ**»، وعلى الانفعال كقوله عليه السلام: في جواب عائشة رضي الله عنها ما المحسن؟ قالَ: «**المحسن من ظنّ أنه مسيء والمسيء من ظن أنه محسن**» فالإحسان هو أن لا يرى فعلَه وإحسانه ويرى عجزه وافتقارَهُ وسوءَ نفسه.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥﴾

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾ استئناف نزل في رجل تمّار جاءته امرأةٌ تشتري منه تمرًا فأدخلها في الحانوت وقبّلها ثم ندم على ذلك نعم كل من أذنب ذنبًا وطلب التوبة أي الذين فعلوا الكبائر من الزنا وغيره وندم وتابَ ورجع إلى الله وأنابَ فالآية حكمها عام وإن كانَ المورد خاصًا بعضهم نزلت إذ قالَ المؤمنونَ يا رسول اللّهِ كانت بنو إسرائيل أكرم على الله منا كان أحدهم إذا أذنب أصبحت كفارة ذنبه مكتوبة في عتبة بابه افعل يا فلان كذا فسكتَ رسول الله ﷺ فأنزل اللّهَ فقالَ رسول الله: «**ألا أخبركم بخير من ذلك فقرأ عليهم** ﴿أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾» بفعل الصغائر كالقبلة واللمس ﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾ عهدَ الله الجاري بينه وبين العبد في الأزل أو وعيده وعقابه ﴿فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾ أي طلبوا المغفرة باللسان ورغبوا إلى مذمّة النفس ولومها عليها بالبيان وتوجه القلب إلى الله بالكشف والعيان لأن الاستغفارَ باللسان بملاحظة معناه تحرك النفس وتنبهها ويوجه القلب والجنانَ إلى باب الغفار لطلب الرحمة والغفران ﴿وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ﴾ ويسترها ويتجاوز عن مكافآت العصيان في المحشر العظمى ويمحوها عن ديوان الأعمال وصحابتها والاستثناء لتضمن الاستفهام معنى النفي أي لا يغفر الذنوب إلا الله ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ والجملة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه تبيان سعة رحمته وكمال مغفرته للتائبين فيه حث وترغيب على التوبةِ وهي عبارة عن الندامة وما يلزمها.

قالَ أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه في جواب الأعرابي حيث قالَ: اللّهم إنّي أستغفركَ وأتوب إليكَ، إن سرعة اللّسان في التوبة توبة الكذابين، إن التوبةَ لا يصح إلا بستّة أشياء، على الماضي ندامةً، وللفرائض إعادة، ورد المظالم، واستحلال الخصوم، وأن يعزم على أن لا يعود إلى الذنوب، وأن تربي نفسك في طاعة الله كما ربيتها في المعصيةِ وأن تذيقها مرارةَ الطاعات كما أذقتَها حلاوَةَ المعصيةِ ﴿وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ﴾ [آل عِمرَان: 135] ولم يقيموا ولم يداوموا على

الفعل وعلى المفعول المذموم أو على المعمولِ الملقوم إذ التثبت والإصرار على المعاصي يقسي القلبَ وينسي الربَّ ويجر صاحبه إلى ما كانَ وهو الظلمات وغياهب الدركات.

مطلب المغفرة

قالَ النّبيّ ﷺ: «**ما أصرّ من استغفر وإن عادَ في اليوم سبعين مرة وليس كبيرة بكبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة بصغيرة مع الإصرار**»، الحديث. قالَ: «**لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار**».

فـإنَّ الـذّنـبَ وإن جـلَّ ودبَّ ... فـإنّ عَـفْـوَهُ أجَـل وأخْـطَـبُ
إلـهي وإن جَلَّت وَجَمَّتْ خطيئَتي ... فـعـفـوك مـن ذَنـبـي أجلُّ وَأَوْسَع
إلـهـي وَخَـلاَّقـي وَحِـرزي وَمَـوْئِـلـي ... إليـكَ لِـذي الإعسـارِ والـيُسْـرِ أَفْـزَعُ

﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [آل عِمرَان: 135] كثرة ذنوبهم وكمال عفو الله وجلال مغفرته وسعة رحمته قالَ عليه السلام: «**من أذنب ذنبًا وهو يعلم أن له ربًّا يغفر الذّنوب غفر له وإن لم يستغفر**» وأيضًا قالَ: «**من علم إني ذو قدرة على المغفرة غفرت له ولا أبالي ما لم يشرك بي شيئًا**»، جملة حاليةٌ من ولم يصروا.

وفي الكشاف: إن الذينَ آمنوا على ثلاث طبقات: متقونَ وتائبونَ ومصرُّون، وإن الجنةَ للمتقين والتائبين منهم دون المصرينَ ومن خالف في ذلك فقد كابر عقله وعاند ربه وقالَ: أجر العاملين بعدَ قوله.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّـٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الذين ينفقون بأنفسهم عن المحارم يبغون ﴿جَزَآؤُهُم﴾ [آل عِمرَان: 136] لأنهما في معنى واحدٍ وإنما خالف بين اللفظين لزيادة التنبيهِ على أن ذلكَ جزاء واجب على عمل ثابت وأجر مستحق عليه ثابت لا كما يقول المبطلونَ هذا، أقولُ: قال أهل السنة والجماعةِ إن جزاء الحسنة حسنة والسيئةِ سيئة إنما هو بفضله وبرحمته وإرادته لا لأنه واجب، إذ الوجوب إما عقلي أو

شرعي أو مادي، والكل في حق الله تعالى: كيف وإن عاملَ الحسنة إنما يكون بإرادته وتقديره وإعطائه، والاقتدار عليه إنما هو بمشيئته وقضائه، وهو ليس بمحض الفضل والعناية ووفور الرحمة مع أنه لو كان واجبًا لما كان كقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ [آل عمران: 136] فائدة لوجوب الثواب وكون التائب من الذنوب كمن لا ذنب له، وأيضًا لا يلزم من أعداد الجنة للمتقين والتائبين أو كمالًا وبالذات عدم المصرين فيها بطريق التوبة أو بطريق الفضل والإحسان يفعل الله ما يشاء بقدرته ويحكم بعزته ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: 23]، ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: 53] كما أن النارَ أولًا وبالذات كانت للكافرينَ لا يلزم منه للكافرينَ عدم دخول العصاة فيها كما أن اللّهَ تعالى جعل الطيبات من الرزق للّذينَ آمنوا في الحياة الدنيا خالصةً وأولًا وبالذات عدم جعلها للكافِرين.

﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةً كَذَّبُواْ﴾ [الأعراف: 32] أما استئناف يبين الجملة الأولى أو خبر للذين إن قطع عما قبلَه وإنما وصف الجنة بما في الأولى بما هو ذاتي لعارفي الثانية بما هو عرضي تنبيهًا على هذا ولذا أردف المغفرةَ بالجنّة للمتقين ﴿وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ [آل عمران: 136] وإنما قال هاهنا أجر العاملين وهنالك جزاء لأن المتداركَ لا يكون كالعامل لما بين المحسن والمتدارِك والمحبوب والأجير من تفاوت لأن المتدارك للتقصير كالعامل لتحصيل بعض ما هو فوّت على نفسه والمخصوص بالمدح محذوف أي نعم أجر العاملين ذلك أي حصول المغفرة ودخول الجنة وإنما جمع الجنات هنا ووحد هنالك إشارة إلى أن المذنبين التائبين أقرب وأعز وأحب إلى الله من المتقين التائبين الثابتين على التقوى لأنهم يجاهدونَ في سبيله وقد تقدمت الإشارة إلى هذا أو فضّل الله المجاهدينَ على القاعدين أجرًا عظيمًا درجات منه مغفرة ورحمة ولذا قيلَ إن إبليسَ بكى حين نزلت هذه الآية إلى ﴿أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾.

﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١٣٧﴾

﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ﴾ أي أمم أو ما سنَّه الله في الأمم أي قد مضت في الأمم قبلكم طرائق إهلاك المكذبين سنن جمع سنة وهي الطريقة التي سنها وعينها الله لإهلاك من كذب أي وقائع بيّنها اللَّهُ في الأمم السّالفة كقوله تعالى: ﴿وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا ٦١ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُ ٦٢﴾ [الأحزاب: 61، 62] وغير ذلك تحريض على النظر في الأحوال المتقدمة والعبرة عنها وتحثيث وتحريض على التوبة وَالإنابة ولذا أمرنا بالتسيير قل ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عِمرَان: 137] لتعتبروا بما ترونَ من اختلاف الأحوال المتواردة الحوادث المتعاقبة فالفاء للسببية مشعرة بأن السير واجب إذ النظر في أحوال الممكنات والتفكر في أطوار الكائنات وأدوار أعيان الممكنات وأكوان أكوار التمكنات واجب، فكأنه قال سيروا لأجل النظر ولا تسيروا سيرَ الغافلينَ، وأما العطف بثم فإشارة إلى إباحته لمنافع الدنيا ومصالحها من التجارة واكتساب هذا إشارة إلى فحوى الخطاب.

﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ١٣٨﴾

﴿هَٰذَا بَيَانٞ﴾ قد خلت أو مفهوم الأمر بالنظر أو أمر المتقين والتائبين أو معنى والذين إذا فعلوا فاحشة أو إيضاح سوء عاقبة ما هم عليه وقيلَ إشارة إلى القرآنِ ﴿لِّلنَّاسِ﴾ أي ما ذكر دليل وحجة لأهلِ النظر لتطهير نفوسهم من الجهل البسيط والمركب الذي هو إرادة الأمراض النفسانية هذا الأمر الذي ذكر بيان وقول شارح للناسِ ﴿وَهُدٗى﴾ ورحمة ﴿وَمَوۡعِظَةٞ﴾ لأصحاب البصر والبصيرة وتبصرة لأرباب القلوب وتذكرة لأصحاب النظرة والفكرة وتجلية للطور السري إلى مرتبة غيب الغيوب وتخلية لغيب السرّ عن صور الأغيار ليصل ما كانوا عليه في الفطرة الأولى والنشأة العليا وهي نهاية جيب الجيوب ﴿لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عِمران: 138] سرائرهم عن مشاهدة الأغيار ضمائرهم عن ملاحظة الأطوار يدعوهم إلى النسك والخضوع والتواضع في العبودية والخشوع والثبات على الطاعةِ والصبر على ما

أصابهم في سبيل اللّهِ من أنواع البلاء وأصناف العناء.

﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩﴾

﴿وَلَا تَهِنُواْ﴾ ولا تضعفوا من الوهن وهو الضعف ﴿وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ تسليةً من الله لنبيه والمؤمنين وتقويةً لقلوبهم على الجهاد وتوطيتهم وتطييب قلوبهم عليه منعًا لهم عن التقاعد عن الجهاد ودفعًا عن التباعد عن الرجف من الزحف وضعف القلب والجبن والخوف ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ والحال أنهم غالبونَ عليهم بعد الأحد ويرتقي يومًا فيومًا عزكم ونصركم وفوزكم ويعلو شأنكم ويعلو حالكم وتجلو أنواركم لقوله عليه السلام: «**الحق يعلو ولا يعلى جلوة الباطل وجلوة الحق إلى الساعة**»، ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: 139] متعلق بالنهي أي ولا تهنوا إن صح إيمانكم أو بالأعلون أو شرط حذف جزاؤه أي إن صح إيمانكم ووضح إيقانكم فلا تهنوا في الجهاد ولا تحزنوا إن أصبتم في البلاد.

﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٠﴾

﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ﴾ بضم القاف وفتحها جراحة وهما لغتان كالضَّعف والضُّعف قيلَ بالفتح الجرح وبالضم ألمه ﴿فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ﴾ الكفارَ في حرب البدر منكم ﴿قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ﴾ [آل عِمرَان: 140] وهم لا يضيقوا ولم يجبنوا ولم يغتسلوا ولم يتقاعدوا عن الحرب وَالقتالِ مع أنهم خالونَ عن نصر الله وتأييده، والله أيدكم ونصركم وأعانكم، فأنتم أحق منهم أن تسرعوا إلى الجهاد، وأنتم في الأغلب عالونَ وغالبونَ، ففي حرب كانوا عالينَ في البداية لم يخالفوا أمر رسول الله فإذا خالفوا أمره غلبوا، فإنهم لما رأوا غلبة المسلمينَ عليهم واشتغالهم بالنهب والغارة تركوا حفظه للمركز والميمنة طلبًا للغنيمة، فإذا رأى المشركون أن المسلمين تركوا حفظ المركز والميمنة واشتغلوا لضبط الغنائم حملوا على المسلمين وانهزموا وقتلوا وأسروا أسرًا كثيرًا، وذلك لشآمة المخالفة وخلاف أمر الله وأمر رسول الله

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا﴾ أي أيام النصر وأزمان الظفر وحالة العرضة نداولها ونعتورها ونصرمها ونحولها فيكون يومًا لنا ويومًا لهم ويومًا عليهم ويومًا يتوجه الانهزام إليهم وأمثال هذا الحرب سجال ﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ قال أنس رضي الله عنه: أتى رسول الله ﷺ بعلي كرم الله وجهه وعليه نيف وستون جراحة من طعنة وضربة ورمية وكان الرسول يمسحها واحدًا واحدًا وهو يلتئم بإذن الله تعالى كأن لم يكن ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ منكم بالإخلاص ممن شكّوا فالمخلص صابر على البلاء صابر إلى الآلاءِ جزاء بما عمَلَ وشكر وعلم وصبروا قيل إلى الرجف فاختبر عطف على العلة المقدرة أي نداولها ليكون كذا وكذا وليعلم اللَّهُ أي استمر علمه وشهوده وحضر عنده ولا يجوز أن يفيت ويفوت فيه طرفة عين وإنما عطف إيماءً وإيذانًا بأن العلة فيه غير واحدة وإن ما يصيب المؤمنَ فيه من المصالح ما لا يعلمه وأن الفعل به محذوف، فعلنا ذلك ليتعظ وليعلم الله الذين آمنوا ويتميز التائبون على الإيمان من الذين على طرف وحرف وطرف من الذين ظلموا ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأنَّ به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ وليكن منكم طائفة قد ارتجوا بالشهادة لاستدعائهم من الله الشهادةَ حين مشاورة النبي ﷺ الصحابة في أمر أحد قالوا: أرنا يومًا كيوم بدر لنقاتِلَ المشركينَ ونصلَ درجة الشهادةِ لا لأجل نصرة الكفار وحبهم أو يتخذ منكم شهداء معدلينَ بما صورفَ منهم من الثبات والصبر على الشدائد ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عِمرَان: 140] المضمرين خلافَ ما يظهرونَ أو الكافرينَ وهي اعتراض فيه تنبيه على أنه تعالى لما ينصر الكافرينَ على الحقيقة وإنما يغلبهم وينصرهم أحيانًا استدراجًا لهم وللمؤمنين استخراجًا من الغفلة اللّازمة لتوافر النعمة وتواترها الجارية للعجب والأنانية النائلة الآيلة إلى العجز والافتقار وتنبيهًا على أداء الشكر الجاذب لمزيد النعم واللّذات.

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي يظهرهم مما في القلوب وما يصفهم ويخلصهم من الذنوب إن كانت الدولة عليهم ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: 141] ويهلكهم

ويستأصلهم إن كانت عليهم من المحق وهو النقص قليلًا قليلًا إلى أن هلكوا بأسرهم والمحق: من محاق القمر.

إشارة وتأويل

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ﴾ [آل عِمرَان: 131] أي معاشر الأطوار القلبية والقوى الروحانية احذروا واجتنبوا من النار نار الظلمة التي توقد على الأفئدة عند الاطلاع في المحشر العظمى على تفويت الكمال الجمعي والجمع الكمالي بين القوى السفلية البدنية والمبادىء النفسانية والروحانية العالية الغالبة ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾[المائدة: 66]، ﴿ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: 131] الأطوار القالبية والنفسية والقلبية التي أكلت الربا أضعافًا مضاعفةً عند استيلاء سلطنتهم على البدن وقواهُ.

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ أي الكمالي الجمعي والجمع الكمالي الإلهي والكوني الظاهر في النشأتين فَبداية الدورة العظمى النورية الجمالية الجمعية الإفرادية ونهايتها أو جمعية الجمعية ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عِمرَان: 132] رحمةً تامةً ونعمة عامة محيطة على جميع التجليات في جميع الدورات وتمام الكورات بعموم المنشآت بهجوم الشؤونات.

﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ﴾ أي بادروا في السير إلى الله إلى الفناء في الله عن جميع ما سوى الله من الله أو في الله ﴿وَجَنَّةٍ﴾ أي البقاء بالله والجمعية التجليات الذاتية والأسمائية والأفعالية والآثارية وبكليتها ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [آل عِمرَان: 133] أي سعتها الأسماء الإلهية والذاتية والأرض أي الأسماء الكونية والنعوت الربوبية والنعوت الملكية والشهادية وهي عالم الأجسام من العناصر والأجرام وهي جنة الذات بالأسماء والصفات أو المراد من السماوات هي الأدوار الأربعة النورية الجمالية مع ما فيها بتجلي السماوات النورية العقلية والروحية والبرزخية والأجرام الحسية الشهادة ومن الأرضية هي الأكوار الظلية المربعة التي هي غيب الأدوار وسرها أو المراد من السماوات هي الأدوار والأكوار الإفرادية من الأرض

هي جمعيتها ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عِمرَان: 133] أي اتقوا وحفظوا نفوسهم عن تمام سوى الله وشهوده.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ﴾ الأدوار النورية الجمالية ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [آل عِمرَان: 134] الأكوار الظلّية الجلالية. عن ابن عباس المغفرة هي الصلوات الخمس وتكبيراتها وإنما سماها مغفرةً لأن الله يعطي بتكبيرها ما يعطي لمن ملأ الأرضَ والسماوات من الجواهر ثم أنفقها في سبيله في السّراء والضراء وحمل الأذى عنهم وعفى عن ظلمه ولا يعقل هذا إلا أهل المحبة لأن الله يحب المحسنين في وفاء العبودية فقالَ: سارعوا إلى طاعتي لأن لي دارًا عرضها رضائي وسماؤها نوري وأرضها قدرتي أعدت للمتقين.

قالَ الصادق رضي الله عنه: سارعوا في الخلوات إلى الطاعات فإن الجنانَ مكافأة الطاعة والحلم والفقر والمولى مكافآت القلوب بالمحبة والإحسان ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عِمرَان: 133] الواقين قلوبهم من الالتفاتِ إلى ما سوى الله إلى الذات الجامعة لجميع الأسماء والصفات والآثار من الظلمات والأنوار الكاملتين بالكمالات الذاتية والأسمائية.

قالَ الغزالي في الإحياء: وفي الخبر أنه سئلَ النبي ﷺ من خير الناس؟ قالَ: «**خير الناس مؤمن محموم القلب**» فقيلَ: وما محموم القلب؟ قال: «**هو التقي النقي لا غش فيه ولا بغي ولا حسد**».

ولذا قالَ عمر رضي الله عنه: رأى قلبي ربي إذ كان قد رفعَ الحجاب بالتقوى ومن رفع الحجابَ بالتقوى بينه وبين قلبه تجلى له حقيقة السماوات والأرض أما جملتها فأكثر سعةً من السماوات والأرض لأنهما عبارتان عن عالم الملك والشهادة وهو وإن كانَ واسع الأطراف متباعدَ الأقطار والأكناف إلا أنها متناهية لكونها مدركة بالأبصار على الجملة وأما عالم الملكوت فهو الأسرار الغائبة عن مشاهدة الأبصار المختصة بإدراك البصائر فلا نهاية لها حِسًّا.

قالَ النبي ﷺ: «**لولا أن الشياطينَ يحومون على قلوب بني آدم ليظهروا إلى ملكوت السماء وحملة العرش**» والملك والملكوت إذا ظهرت دفعةً واحدة يسمى

الحضرةَ الربوبية وهي محيطة بكل الموجودات إذ ليس في الوجود شيء سوى الله وأقواله وأفعاله وأسماؤه وصفاته ومملكته، هذا واعلم أن الجنة قسمان:

صوري ومعنوي.

أما الصوري: فهو الذي يكون من جنس عالم الملك والدنيا فيسمى جنة الآثار وهي جنة الزهاد والعباد الرسمية، أما المعنوية فهي ثلاثة أفعالية وصفاتية وذاتية فالتمثيل إنما هو في الجنة الصورية.

وأما المعنوية: وهي الحضرة الربوبية والواحدية والإلهية فهي غير متناهية ولا محسوسةَ فلا يصح التمثيل بها وإنما ذكر العرضَ لأن طولَها لكونها متصلة بالجنة الأفعالية أيضًا غير متناه لأنه امتداد الحضرة الربوبية والألوهية واستمرار النفس الرحمانية الشامل للكل وهو غير متناه قدمًا ووضعًا أما وضعًا فظاهر لكونه غير محسوس ، أما قدرًا فلأن ما لا وضع له لا قدر له وما لا قدرَ له لا نهاية له لأنها من خصائص المقدار نعم ينتهي بحسب المرتبة والرتبة والطول وهو أول الامتداد إذ الأخذ من النقطة المنتهي إليها فهو من حيث إنَّه منته إلى النقطة غير متناه في الوضع كالكرة والدائرة في المقدار، فامتداد النفس الرحمانية لكون مبدئه ومنتهاه وهي الوحدة الذاتية إذ ما عداها عدم محض غير متناه في الوضع والمقدار وأما العرض وهو امتداد ثان ينتهي بالذات إلى الخط وبواسطته إلى النقطة فهو متناه في المضلعات لا المستديرات.

واعلم الوحدة الذاتية لعدم تجزيها لا تنتهي كما أن الذات الأحدية لعدم تركبها وكمال عظمتها وتمام كبريائِها وعموم إحاطتهما لا ينتهي إذ الانتهاء من خصائص التركيب ومن خصائص ذوي التركيب، وأيضًا كما أن الوجودَ في جانب الصعود والعظمة يقتضي عدم التناهي والشهود كذا في جانب النزول وكمال الضد يقتضي اللاتناهي إذ لو انتهت لصارت مركبة في المقدار ولا مقدارَ في النقطة والوحدة، فإذا النقطة والوحدة عبارتان عن حقيقة إجمالية ودفعة كليّة يكون نسبتهما إلى ما عداها على السوية إذا ظهرت في ذاتها من ذاتها نسبة وإضافة ظهر خط ثنوية لانقسامها بقسمين وأمرين متساويين وإذا تحرك الخط من نفسه على نفسه ظهر السطح والجسم التعليمي الذين ينفقونَ الجواهر العلمية

والفواخر العملية من المعارف الفطرية والشهودات الأولية الضرورية ويتكلمون النفوسَ الناقصةَ بها في السراء والضراء أي حالتي الصحوة والغيبة أو الجذبة والسلوك والفناء في الله والبقاء باللّهِ أو الجزئية والكلية أو في مقام الألوهية والعبودية، والكاظمينَ الغيظ في المقام القلبي والمرام الغيبي عند ظهور آثار القوى الجسمانية والأطوار النفسانية لشهودهم صدورها عن الحق، والعافين عن الناسِ أي القوى الروحانية عن طريان الغفلة عليها في العبودية، والله يحب المحسنين بالخُلق والخَلق للحق، والذين إذا فعلوا فاحش، الفحش عن النفس هي المعصية والقلب والروح الغفلة ومن النقل الفترة.

قالَ الصادق: المتقي هو الخارج من النفس إلى المولى، والعاقل هو المطيع على البساط للمولى، والهادي هو المهتدي إلى حجة الله المولى.

وقالَ أيضًا: الفحش والمعصية هما درجة الذل ممن مال إليهما يصير ذليلًا عند الله وعند أوليائه، لأن الفحش هو تبرأ منه، والمعصية هي الخروج بالمبارزة عليه وعلى حكمه وأمره ومنه يقدر أن يغفر هذه المعاصي إلاّ الله بعد الذكر والثناء عليه وإنما يغفر لحرمة الذكر لا بالرجوع إليه لأن الجنةَ جزاء الذاكر ونعيمها جزاء العاملين، والمولى جل جلاله مقدرة العارفين وموعظة للمتقين أو يُعدى القوةَ النظرية عن مقتضى العقل الصريح ومرتضى الكشف الصحيح مستخدمةً للقوة الوهمية والقوة العملية خارجة عن مقتضى العدالة بين القوى النفسانية والروحانية في الأفعال فيظهر العلم والعدالة بينها، ولا تهنوا أي ولا تحزنوا، وتعاونوا في مجاهدة النفس ومخالفة هواها وتعديل قواها، ولا تحزنوا على ما فاتكم من الأحوال والمقامات والعلوم الحقيقية والإدراكات الحقة عندَ التعديل.

قال ابن عباس: ولا تهنوا في طاعتي، ولا تحزنوا على ما فاتكم من دنياي وأنتم الأعلون، أي والحال أنتم في العاقبة واستحصال الخير والعافية إن كنتم مؤمنين ثابتين على الإيمان دائبين على كمال الإيقان، أو في إيمانكم وميثاقكم على محبتي ووفائي فمن وجه حقيقة الإيمان وهي كمال كمال اليقين والمتقين هو سكون القلب بوعد الرب بالنصر والاعتلاء على الخصماء والأعداء فلأي شيء يحزن ويضعف في الجهالة فمن ناكر حقيقة الإيمان وباكر أصلَ الإيقان قوى يقينه وما ذهب عنه جميع الأحزان، سُئِلَ محمد بن موسى رضي الله عنه: ما بال

الإنسان يحزن مرة ويفرح أخرى أجابَ بأن غذاء الأرواح وقوتها دواء الأشباح وقوتُها إنما هو شهود جمال الحق ووقوع أنوارها عليها فعند التجلي يطرب وعند الاستتار يحزن ويكرب، فإذا قال طالب المغفرة والغفران، فإذا طالعه تعين البر واللّطف فرح وإن لم يعلم وما يدرك تلك المطالعة، فإن طالعه تعين القهر والسخط خاف وقلق واضطربَ.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ﴾ أي ظننتم الهمزة للإنكار والميم صلة أي أزعمتم دخولَ ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾ من غير إصابة شدة في الدين وإضافة فتنة وامتحان واختيار لأهل اليقين ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾ أي لم يعلم اللّهُ ﴿ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ﴾ نُزل نفي العِلم منزلة نفي متعلقة لانتفائهِ بانتفائهِ يقال ما علم الله في فلان خيرًا أي ما فيه خير حتى يعلمه، إن يعلم الله في قلوبكم خيرًا يؤتكم خيرًا مما أخذ منكم الآية وفتح الميم في يعلمَ الله باعتبار حذف نون الخفيفة وكسرها لالتقاء الساكنين في القرائن ﴿وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: 142] على شدائد الجهاد نصب بإضمار أن والواو للجمع ورفع على أنها للحال وجزم بالعطف أي تحسبونَ دخولَ الجنة والحال أنه مما اجتمع جهاد بعضكم بصبر بعضكم عليه.

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾ أي الحرب والجهادَ فإنه من أسبابه خطاب من فاتَ منهم بدرًا وَحَثُّوا الرسولَ على حرب أحد قبلَ لقائه فالله أراكم إيّاه ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ أي الحرب وما هو من أسبابه ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [آل عِمرَان: 143] بالموتَ بالشهادة معاينين إياه، تعتيب عليهم وتشنيع لديهم حيث تمنوا وحثوا الرسولَ ﷺ ثم انهزموا، فإن قلتَ في تمني الشهادة غلبة العدو قلتُ المقصود النيل إلى شرف الشهادة وكرامته لا غير من غير انتقال إلى ذلك المتضمن كما أن الطّبيبَ يشرب الدواء المرّ للمريض قاصدًا للشفاء من غير أن يخطر بباله أمر آخر.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ نزلت حيث حثُّوا الرسولَ على الحرب ثم هزموا، خرج رسول الله ﷺ حتى نزل الشعب في أحد في سبعمائة رجل وجعل عبد الله بن خيبر على الرماة، وقالَ: «**أقيموا بأصلِ الجبل لئلا يأتوننا من خلف، وإن كانت لنا أو علينا فلا تبرحوا مكانكم**».

فجاءت قريش وعلى ميمنتهم خالد بن الوليد وعلى ميسرتهم عكرمة بن أبي جهل ومعهم النساء المطربة يضربنَ الدّف ويقلن الأشعار فحمل النبي وأصحابه على المشركين وقتل علي بن أبي طالب أبي طلحة صاحب لواء قريش فانهزم المشركونَ فاشتغلت الصحابة بالنهب، فلما رأت الرماة النهب فقصدوا الغنيمة ولحقوا بالعسكر فلما رأى خالد بن الوليد قلة الرماة واشتغال المسلمين بالغنيمة صاح في خيالة من المشركينَ ثم حملوا عليهم فهزموهم وقتلوهم، ورمى عبد الله بن قمنة الجارمي رسول الله بالحجر فكسر أنفه ورباعيته وشج في وجهه فتفرق عنه أصحابه فأقبل عليه عبد الله وقصد قتله، فندب مصعب بن عمير وهو صاحب راية رسول الله على رسول الله حتى قتل مصعب فرجع عبد الله جازمًا بأنه قَتَلَ رسولَ الله وصاح صارخًا: ألا إن محمدًا قد قُتِلَ، وكان رسول الله يدعو المسلمينَ: «**يا عبادَ الله إليّ**»، فاجتمع عليه يلقونَ رجلًا فاجتمعوا حتى كشفوا عنه المشركين ورمى سعد بن أبي وقاص حتى اندمت سنة قوسه فلما انصرف رسول الله أدركه أبيّ بن خلف وهو يقول لا نجوتُ إن نجوتَ فقال القوم: رسول الله ألا تعطف عليه؟ فقال عليه السلام: «**دعوه**»، حتى إذ دنى فلما دنا منه تأوّلَ رسول الله الحربة من الحارث ثم استقبله فطعن في عنقه فسقط عن فرسه وهو يخور خور الثور ويقول: قد قتلني محمد فأنزل: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ﴾ على فراشه أو إذا قضى أجله ﴿أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ إلى دينكم الأول الكفر ورجعتم إليه رجع القهقرى ﴿وَمَن يَنقَلِبْ﴾ [آل عِمرَان: 144] ومن يرتد

ويرجع ﴿عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ كافرًا بعد الإسلام ﴿فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ من ملكه وسلطانه لتنزهه عن الضر وقبول الحيف والشر عن الغير بل يضر نفسه ضرًّا عاجلًا وشرًّا آجلًا ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: 144] ويعطيهم أجر الذاكرين ونعمة الإسلام وإعلاء لواء الدين ورفع أعلام أهل اليقين الثابتين عليها الصابرين على الشدائد والبلاء الصابرين إلى الفناء، فلما صرخ صارخ بأن محمدًا قتلَ قالَ بعض المسلمينَ: ليتَ عبد الله بن أبي يأخذ لنا من أبي سفيان وقالَ ناس من المنافقين: لو كان محمد نبيًّا لما قتلَ فارجعوا إلى دينكم وإخوانكم وأقاربكم، قال أنس بن النضر عم أنس بن مالك: إن قُتِل محمد فإن ربَّ محمد حي لا يموت وما تصنعونَ بالحياة بعد رسولِ الله ﷺ فقاتلوا على ما قاتلَ عليه وموتوا على ما مات عليه واتّبعوا دينه وتمسكوا بكتابه كما تمسك أتباع الأنبياء المرسلين لأن الغرض من بعثة الرسل تبليغ الرسالة وإلزام الحجة وقد وقع، فشد بسيفه وقاتلَ حتى قتِلَ فإن قلت فإن قلت لم ذلك القتل والموت وقد علم إنهما غير واقعين، قلت لكونه محورًا عند المخاطبينَ أو لتميز المؤمن الثابت في دينه عن المنافقين المترددينَ الذين يأكلونَ من سبعة أمعاءٍ.

قالَ عليه السلام: «**المؤمن من يأكل من أمعاء واحد والمنافق من سبعة لا يزعجه شيء ولا يزلزله**» فلما ارتحل رسول الله ﷺ دخل أبو بكر على الناس المجتمعين على باب المسجد وقال يا أيها الناس من كانَ منكم يعبد محمدًا فإن محمدًا قد ماتَ ومن كانَ يعبد اللّهَ فإن اللّهَ حي لا يموت، ثم تلا هذه الآيةَ ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ﴾ [آل عِمرَان: 144] الآية وما علم الناس أن هذه الآية قد نزلت على رسول الله حتى قرأها أبو بكر.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وبقضائه وحكمه وإراداته ومشيئته فلا ينجي الحذر منه لأنه جف القلم بما هو عند الله ﴿كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عِمرَان: 145] مصدر مؤكد أي كتب كتابًا مؤجلًا صفة له إذ المعنى كتب كتابًا فيه أجل يعني أن

لكل شيء مدة هو بالغها وسعادة وشقاوة تنالهما ورزقًا ليستوفيه ﴿وَمَن يُرِدْ﴾ في طاعته وعبادته وإطاعته ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ جزاء العمل وعوضه من حطام الدنيا وتمتعاتها ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ نعطيه إياه وما له في الآخرة من خلاق ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ﴾ بعلمه وهجرته وجهاده ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَاۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: 145] نعم الله وأفضاله. قالَ النبي ﷺ: «**من هاجرَ إلى الله ورسوله فهجرته إلى اللّهِ ورسوله ومن كان هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجرَ إليه**». أوحى الله إلى موسى: يا موسى إن من لو سألني الجنة بحذافيرها لأعطيه إياها ولو سألَني علاقة سوط من الدنيا لم أعطه إياها وليسَ ذلكَ من هوانه عليَّ لكن أريد أن ادّخر له من كرامتي في الآخرة، تحريض وتشنيع على القتال والجهاد ووعد للرسول بالحفظ والظفر والعزّ والنّصر.

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾

﴿وَكَأَيِّن﴾ أصله أي بمعنى بعض من كل دخلت عليها كاف التشبيه فصار بمعنى كم التي للتكثير فصارتا كلمة واحدة مبتدأ خبره قاتل والتنوين تنوين كتب بصورتها على خلاف القياس وإن كانَ في اللّفظ نونًا ﴿مِّن نَّبِيٍّ﴾ بيان له ﴿قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ بكسر الراء بمعنى ربانيون جماعة كثيرة نسبت إلى الرّبة بمعنى الجماعة مأخوذ من الربا بمعنى الكثرة والجماعة فاعل قاتلَ وهي عشرة آلاف.

وقالَ بعضهم: منسوب إلى الرب بالعبودية أي يعبدونه ﴿فَمَا وَهَنُوا۟﴾ أي ما عجزوا وضعفوا فتروا عن القتالِ والجهاد من الوهن وهو الكسر والفتور ﴿لِمَآ أَصَابَهُمْ﴾ من القتل والجرح أو سماع قتل النبي ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وطريقه من إظهار الحق وإعلاء كلمته ﴿وَمَا ضَعُفُوا۟﴾ عن العدو وجهادهم بالجبن ﴿وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ۗ﴾ [آل عِمرَان: 146] أي ما ارتدوا عن الدين بل قاتلوا على ما قاتل نبيهم حتى لحقوا بالله كأنس وأضرابه فإنهم ما تضرعوا وتذللوا وما تواضعوا من العدو الأمانَ وهو أبو سفيان وقيلَ هو عام في جميع الكفار فإنه وجب على المؤمنين أن يحاربوهم ولا يواسونهم ويحابونهم ولا ينزلوا على حكمهم وموافقتهم ومنه المسكين لذلّه

وسكونه تعريض ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عِمران: 146] الحابسين أنفسهم على ما أمروا من حفظ الحرية والموضع الذي عينه النبي لهم وإقامة أحكام الجهاد فنصرهم الله وثبت قلوبهم وعظَّم قدرهم.

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي ليس قولهم عند شيوع خبر قتل النبي ﷺ إلّا هذا القول والاستغفار من الصغائر ﴿وَإِسْرَافَنَا﴾ والمبالغة ﴿فِىٓ أَمْرِنَا﴾ في ارتكاب الكبائر أصله التجاوز عن الحدّ ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ في ميدان الجهاد ومضمار تدافع مفاسد أرباب الفساد لتخليص العباد من شرور المكابرة والعناد في كل أقطار البلاد ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عِمران: 147] من مقول القول توبيخ عليهم أفهلا فعلتم مثل ما فعلوا أو جاهدتم مثل ما جاهدوا مع أنبيائهم وقالوا ما قالوا بهم في مقام الاستغفار يعني يا أصحاب محمد هل فعلتم ما فعل القوم الذين قد تقدموكم مع أنبيائهم وقلتم ما قالوا من الدعاء والاستغفار مع كمال قوتهم ووفور شوكتهم.

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أما ثواب الدّنيا فهو النصرة والظفر والغلبة كنصرة بني إسرائيلَ والسّبط وموسى على القبط وفرعون وقومه أما ثواب الآخرة فهو المكالمة مع الله والجنة ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عِمران: 148] في الجهاد والطاعة ودفع المفاسد عند القتال بكمال الإطاعة وحسن الاستقامة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [آل عِمران: 149] عند الهزيمة وأظهروا الكفر عند شيوع قتل النبي بقولهم اتركوا هذا الدين المستحدث

وارجعوا إلى دينكم الأصلي نزلت في شأن المنافقين ومقالتهم بعدَ حربهم ومقاتلتهم المسلمين لدى إيثار قتل النبي ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟﴾ في أحوالكم بترك الحق وإيثار الباطل المحق حال لكونكم ﴿خَٰسِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: 149] مستبدلينَ الحق بالباطل بإطاعتكم لهم فليس ناصركم ومنجيكم ووافيكم إلا من خلقكم.

﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾

﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ وحافظكم وناصركم ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: 150] على الأعداء والخصماء فلا يحتاجونَ إلى النصرة والإعانة إلى غيره.

تأويل وإشارة

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ [آل عِمرَان: 142] قالَ الصادق عليه السلام: «الجنة دار الاتصال ولا يدخل فيها إلا من صبر». قيلَ: الوصال واجتهدوا في السؤال وترك النوال مخافة الإحجام فحينئذ يدخل الجنة بالأعمال المقسومة على الإفضال هذا الخطاب إنما هو للأطوار القلبية والقوى الروحانية والمبادىء النفسانية أي لا يدخلون جنة المشاهدة إلا بالصبر على المجاهدة وهي رفض الأحكام الجزئية المنسوبة إلى كل منها، فإن التقيدَ بها يمنع الدخول في جنات أنواع التجليات ودرجات أصناف الشهود والمشاهدات.

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ﴾ في النشأة الأولى في مقام ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 172] قالوا: أي الفناء في اللّهِ والفناء الذاتي أي الاستمرار عليه ﴿مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾ [آل عِمرَان: 143] في النشأة الأخيرة فقد رأيتموه في الفناء في الله بالتجلي الذاتي في السير إلى الله ومن الله وفي الله وبالله ومع الله، فإن السائر والسالك الدائر في كل دور وأي مقام وطور وفي كل تجلي من أنواع التجليات الذاتية والأسمائية والأفعالية والآثارية والصورية التي تكون بصورة البشر سيما إذا كانت كلية وكلا محيطة على مراتب الصور فناءً كليًا كان أو جزئيًا دفعيًا أو تدريجيًا مرتبًا على فناء أجزاء العالم وموافقًا لها.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ﴾ أي الطور الخفي الحقي باعتبار الترقي أو الحقيقة المحمدية باعتبار التنزل إلى آخره أرسل الله في السير من الله أولًا في بداية الدورة النورية

الجمالية الوجودية في الشؤونات الذاتية ثم في الواحدية والجبروت في الأعيان الثابتة والحقائق الإلٰهية ثم في الملكوت في الأرواح القدسية ثم في عالم البرزخ في الأشباح الإنسية ثم في عالم الملك والشهادة في مراتب الأملاك ومطالب الأملاك ثم في المرتبة الناسوتية والمرتبة الإنسية ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت وتقدمت ﴿مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ محبب المراتب وإن كانت في الحقيقة حقائق الأنبياء وماهياتها هي الحقيقة المحمدية الطاهرة في كل مرتبة بتعين خاص من التعينات النبوية ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ﴾ في حد ذاته الممكنة ﴿أَوْ قُتِلَ﴾ وانتقل حسب اقتضائه الدورات وارتضاء الكدورات ﴿ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عِمرَان: 144] إشارة إلى أن أعيان أمته يلازمونه في الأدوار كلها وفي كل دور لهم طور مع تلك الأعيان فمن ينقلب من هذه الأعيان في هذه الأدوار فلن يضر الله شيئًا أي لا يغير تقديره وتصرفه وتدبيره سيجزي الله الشاكرين الجامعين لهما في السير في الله.

قالَ في العرائس: إمارته حي وزواله أعظم وأعجب من إبقائه لأن في الموجود قدرة وليس في المعدوم قدرة فإن الأمارة والحكومة والأمارة لا يزول بالرياضة والمجاهدة بل تطمئن بإذن الله وبحلاوة ذكره ومناجاته.

قالَ الواسطي: ليس نفس تلك الفناء والبقاء وإن كان في زمان واحد غير متناهية بل كل ذلك لآجال معلومة كما قال الله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: 38].

واعلم أن ثواب الدنيا المعرفة وثواب الآخرة المشاهدة الموصوفة محققة وثواب الآخرة قريبة جليّة جليلة مخلدة فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون.

وأيضًا: من وقع في مجلى الإرادة وإرادتي في أنوار صفاتي فقد انجلى له بالآيات ومن الآيات في الآيات، ومن وقع في المعرفة وإرادتي صرفًا انجلى له بلا علة لأن الإرادة محل الغيبة والمعرفة محل الحضور.

وأيضًا: ثواب الدنيا صحبة الأولياء وثواب الآخرة صحبة الحق.

قيلَ: ثواب الدنيا هي العاقبة وثواب الآخرة حسن العاقبة وكأي من نبي قاتلَ معه ربيونَ الجامعونَ بين العبودية والرّبوبية.

قالَ الصادق رضي الله عنه: هم العارفون الذين لِغير المولى فلا يستأنسونَ الآية والعاقلون ولايته المحبون في خلوات محبته الواجدون له على بساط شوقه وبسيط مودته فما وهنوا وضعفوا لما أصابهم في النشآت وثمرات الشؤونات من التطورات وتشوق في البروزات وما ضعفوا في إحاطة أحكام السير إلى الله وما استكانوا وحملوا وسكنوا في ضبط ما يرى في السير من الله إلى الله والله يحب الصابرين على ما أصابهم في سبيل الله وطريق السير في الله من الله إلى الله من أنواع البليات وأصناف المجاهدات وأطراف المصادقات وما كان قولهم في مسلك السير في الله ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ آل عِمرَان: 147] أي ما فات عنا في السير إلى الله ومن الله من أسرار الإحاطة الجمعية وإسرافنا في أمرنا في السير في الله وثبت أقدامنا في الكمال الجمعي والجمع الكمالي والأحدية الجمعية والجمع بين التفصيل والإجمال والظل والجلال، وانصرنا على القوم الكافرين أي السائرين إلى الله ومن الله لتوصلهم في النشآت إلى كمال الإيمان وهو شهود الحق بجميع الوجوه وذكره بتمام الألسنة وعموم القوة بكل الأطوار في كل الأدوار وجل الأكوار أفرادًا وجمعًا وجمع الجمع فآتاهم الله ثواب الدنيا وهي الظّهورات النورية الحالية الوجودية وحسن ثواب الآخرة وهي الظهورات الظلية العدمية الجلالية الاقتضاءات الوجودية الجمالية والاقتضاءات العدمية الجلالية في السير من الله وإلى الله والله يحب المحسنين بكمال جمعيتهما وعموم معيتهما في السير في الله وبالله ومع الله «**لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل**».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ في الكمال الجمعي بالذات الجامعة لتمام الأسماء والصفات المانعة للمغايرة ﴿إِن تُطِيعُواْ﴾ فريقًا من مقتضيات الأدوار الوجودية ومرتضيات الأكوار العدمية وتعبدوا بخصوصياتها من الذين أوتوا الكتاب أي كتاب الكمال الجمعي وخطاب الجمع الكمالي والجلالي ﴿يَرُدُّوكُم﴾ [آل عِمرَان: 100] بعد إيمانكم بالكمالي الجمعي من الجمال والجمع الكمالي من الجلال أي يكون الجمعية تارة بعنوان الجمال وأخرى بصنوان الجلال ومرة بجمعيتهما بالسوية، وكمال الاستواء والتسوية إشارة إلى تفاوت أقدام السالكين في أطوار البشرية وأدوار الظهورات فربما يكون يختفي الكمال الجمعي في الصورة الحقيرة والهيئة الصغيرة.

قالَ آدم المبارزين ومقدم المبارزين كرم الله وجهه: «**أنا الحجر الّذي تفجر منه اثنا عشر عينًا أنا البعوضة التي ضرب الله بها مثلًا**» وربما يكون يظهر بالإحاطة التامة والهيئة الكلية العامة. كما قالَ: «**أنا الذي عندي ألف كتاب من كتب الأنبياء أنا المتكلم بكل لغة في الدّنيا الذي وقت السماوات السبع بنور ربي وقدرته أنا الغفور الرحيم وإن عذابي هو العذاب الأليم كافرين سائرين للكمال الجمعي والجمع الكمالي النوري الجمالي والظّلي الجلالي**» كما أشار.

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾ الخوف يوم أُحُد بأن هزموا إلى مكة بعد أن غلبوا على المسلمين بلا سبب ظاهر لما ارتحل أبو سفيان إلى مكة منهزمًا وهاربًا بعد الغلبة حتى بلغ بعض الطريق فانتبه على نفسه فندم وقال مع القوم ما صنعنا شيئًا قتلنا منهم ما قتلنا ثم تركناهم كالمنهزمين منهم ونحن الغالبونَ فلنرجع عليهم ونستأصلهم فلما عزموا على الرجعة وجزموا ألقى الله الرعبَ والخوف في قلوبهم ﴿بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ﴾ أي بسبب شركهم وكفرهم بالله ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ أي يقذف في قلوب المشركين بسبب شآمة شركهم وكفرهم بالذي ما نزل به على غيرهم حجة وسلطانًا ودليلًا قاطعًا وبرهانًا قاطعًا فما الأولى مصدرية والثانية موصولة هي مفعول الإشراك والمراد نفي الحجة ونزولها جميعًا كقوله ولا ترى الغيب بها ينحجر أي انتفى الحجر والرؤية معًا أي ليس على إشراكهم حجة لا من الكتاب ولا من البيان والبرهان من اللباب والسلطان هو القوة ومد النار السّليطة لقوة اشتغالها والمرأة السليطة بغلبتها على المرء والمرأة السّليطة حية تسعى ما دامت حية تسعى ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ ومصيرهم إليها في الآخرة ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عِمرَان: 151] وضع المظهر مكان المضمر للتغليظ والتشديد والتخويف والتهديد والمخصوص بالذّم محذوف ليكون آكد في المقصود.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ بالغلبة والحبس والنصر بشرط التقوى والصبر كما مر نزلت هذه الآية لما رجع المسلمونَ إلى المدينة فقالَ ناس: من أين وصلَ وأصابنا هذا الذل وقد وعدنا النصرَ والغلبة والظفر؟ فأجاب الله بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ في بدر وغيره ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ وتقتلونهم وتغلبون عليهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ عطف على قصة أُحُد ويجوز عطفه على محذوف حتى لانتهاء الغاية يعني صدق الوعدَ قد استمر إلى وقت الفشل والتنازع في الثبات في حفظ المركز الذي عينه الرسول فقالَ بعضهم: قوموا حيث أمرنا الرسول.

وقالَ آخرونَ: فما موقفنا هنا وقد انهزم وأخذ منا المشركون الغالبون ﴿وَعَصَيْتُم﴾ أمر الرسول في حفظ المركز ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم﴾ أي بعد إراءتي إياكم ﴿مَّا تُحِبُّونَ﴾ وتطلبون منه الظفر وانهزام العدو والنصر عليهم ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ ونعيمها والتلذذ بحطامها وغير ذلك من خصائصها ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ وسعاداتها السرمدية ولذاتها الأبدية وهو عبد الله ومن قام به في حفظ المركز والرمي على وجوه الكفار إلى أن ماتوا عليه ﴿ثُمَّ﴾ أن اللّهَ بعد ذلك ﴿صَرَفَكُمْ﴾ وكفكم عنه بالهزيمة والانصراف عنهم ﴿عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ ويختبركم على المصاب من القتل والمذمة والجراح والهزيمة والثبات على الإيمان ﴿وَلَقَدْ عَفَا﴾ الله وتجاوز ﴿عَنكُمْ﴾ عما صدر منكم من المخالفة والعصيان فلم يعذبكم ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ﴾ عظيم ولطف عميم بالعفو والتجاوز كرمًا وحِلمًا أو في جميع الأحوال ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عِمرَان: 152].

﴿ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ بضم التاء الفوقانية وكسر العين متعلق بصرفكم أو بـ يبتليكم من أصعد في الأرض إذا بعد يقال صعد من مكة إلى مدينة إذا بعد، والإصعاد في الأرض هو السّير للهرب وعند الخليل هو الارتفاع ومقابلة الهبوط ﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ أي لا يقف ولا يقيم أحد على أحد لفرط الخوف وعدم ربط حبل الوقار في الجوف ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ إلى نفسه بقوله يا عبادَ الله أنا رسول الله هلموا إليّ وألموا عليّ ﴿فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ أي حال كونكم في الجماعة الأخرى ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾ عطف على صرفكم أي جازاكم الله جزاءً يكون غمًّا بعد غم وحزنًا بعد حزن من القتل والجرح والنهب والأسر، قيلَ الغم الأول هو خروج خالد بن الوليد وإشرافه، والغم الثاني انتهاء الرسول إلى الصخرة، فلما رأوا أصحاب الصخرة الرسولَ قصده أحدهم بالرمي فقالَ: أنا رسول الله فلما اجتمعوا وفيهم رسول الله وفرحوا بالرسول، فإذا يرون أبا سفيان وأصحابه مقبلين إليهم فوقعوا بباب الشعب ثم أشرف عليهم فلما نظروا إليهم اغتموا وقالوا: هم يعلونا ويغلبوننا فاغتموا ووقعوا في الغم والحزن فقال النبي ﷺ: «**لا تغتموا ولا تحزنوا فإنهم ليس لهم أن يعلونا**» وقالَ عليه السلام: «**اللَّهمَّ إن تُقتَل هذه العصابة لا تعبد في الأرض**»، فأمر أصحابه بالرمي بالحجارة فانهزموا وانصرفوا عن المسلمين فأنزلت ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ [آل عِمرَان: 153] من الفتح والغنيمة متعلق بأثابكم يعني جازاكم الله تعالى غمًّا حين صرفكم عنهم وابتلاكم بسبب غم رسول الله بعصيانكم له، وتمرنوا في الشدائد على الصبر، واعتادوا بنزول البلاء وحلول المصائب والعناء حتى أنه لو وقع فيما بعد شيء منها لم يقع فيكم حزن ولا يقع عنكم جزع ومحن ولا من الهم حزن ولا من النعم والآلاء سرور وفرح بل استوى الأمران ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: 23]. ومن قالَ: إن لا صلة فقد غفل عن التحقيق والرضى

والحق المنوي ﴿وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْۗ﴾ من القتل والجرح والهزيمة والقرح تسلية للمؤمنين وإرشاد للطّالبين الراغبين إلى الحق فإن هذه الحال والمقامَ أشرف الحالات وأرفع المقامات في الولاية الإلٰهية والإيالة الربانية ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [آل عِمرَان: 153] أي عالم بظاهركم وباطنكم وعلانيتكم وسرائركم أو بمعمولاتكم الظاهرة والباطنة فيجازيكم بها.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٥٤﴾

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ﴾ أي أزالَ عنكم الخوف فأنزل عليكم بعد هموم الغموم وهجوم الهموم ﴿أَمَنَةٗ﴾ أمنًا وأمانًا ﴿نُّعَاسٗا﴾ لأجل أخذ النعاس والنوم الخفيف يعني النعاس والنوم الخفيف في القتال هو السكينة من الله ﴿يَغۡشَىٰ﴾ وفي الصلاة من الشيطان لأن في القتال لا يكون إلا من كمال الوثوق بالله وقوة حفظه أما في الصلاة فلكمال الغفلة في العبد من الله ولاستيلاء الشيطان عليه ووفور استحازته لديه استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر اللّهِ أولئِكَ حزب الشيطان الآية نعاسًا بدل من أمنةً بدل اشتمال عن أبي طلحة غشينا النعاس ﴿طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ﴾ حتى كاد السيف أن يسقطَ من أيدينا فنأخذه ثم يسقط فنأخذه وهم المؤمنون حقًا ﴿وَطَآئِفَةٞ﴾ أي المنافقونَ ﴿قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ أوقعتهم أنفسهم في الهموم أو ما يهمهم ولا يشغلهم إلا هموم أنفسهم لا الرّسول وأصحابه ولا أمر الدين فلم ينزل عليهم السكينة ولا الأمنة فإنهما واردتان من اللّهِ ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ﴾ [آل عِمرَان: 154] بأنه لا ينصر محمد أو هو قد قتل خبر وطائفة مبتدأ لأنها موصوفة بالجملة التي بعدها أو صفة أخرى لها أو حال واستئناف بيان

لها غير الحق ظن الجاهلية أي يظنون بالله ظنًّا غير ثابت في الواقع بل هو ظن مثل ظن الجاهلين الكافرين بأن محمدًا قد قتلَ ولن ينصره الله أبدًا ﴿يَقُولُونَ﴾ في أنفسهم أي الجاهلون الكافرون أو المؤمنون العاصونَ الآيسونَ عن النصرة والظفر ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أي أمر النصرة والظفر ﴿مِن شَيْءٍ﴾ من إما صلة لتقرير معنى الاستفهام والاستغراق فشيء مبتدأ لاختصاصه بالعموم والاستغراق أو بتقدم الخبر وهو لنا والجملة خبر للاستفهام الإنكاري هل تزول عنا هذا القهر والغضب الذي يبعد العبد من الله والثواب ومن منهج الصدق والصواب ليكون لنا شيء من الظفر والنصرة.

قالَ النّبي ﷺ: «**لا يقضي القاضي حين يقضي وهو غضبان**». قالَ الحكيم الفاضل: المحبة والمبغضة يعدلان الفكر عن الإصابة وهما عزيزتان جليتان، ولذا قالَ النبي ﷺ: «**الحب يتوارث والبغض يتوارث**». ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ دينيًّا ودنياويًّا قرأ بالرَّفع مبتدأ لله خبره قدم عليه وبالنصب تأكيد الأمر أي منعنا تدبير أنفسنا وتصرفها باختيارنا إذ الأفعال والأحوال إنما هي مستندة إلى الله فلم يبق لنا من الأمر شيء لا من الأفعال الاختيارية ولا من الأعمال الاضطرارية ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ ويكتمون في تواطئهم ومكامن حسهم ﴿مَّا لَا يُبْدُونَ﴾ أي أمورًا لا يظهرونها ﴿لَكَ﴾ حال من فاعل يقولون أي يقبلون حال كونهم مخفين في نفوسهم أمورًا لا يظهرونها عنكَ بل هم يظهرون خلالها عن الاسترشاد والاستكمال وطلب النصر والغلبة والظفر في حالة ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أي الأمر الغلبة والنصر على الأعداء ما وعدنا الله ﴿شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا﴾ وغولبنا ﴿هَٰهُنَا﴾ أي لما قتلَ الله أحدًا من المسلمين في أُحد ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لَّوْ كُنتُمْ﴾ متمكنين ﴿فِى بُيُوتِكُمْ﴾ متوطنين في مضجعكم آمنين فيها ساكنين من القتالِ ﴿لَبَرَزَ﴾ وطرح وأخرج منكم الرجال ﴿ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ﴾ في الكتاب المبين والزبر المتين أو في قضائه وعلمه وتقديره وحكمه أو في مشيئته الذاتية والشؤونات الأولية ﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ أي مهالكهم ومصارعهم طرحًا ضروريًّا وخروجًا ظاهرًا صموديًّا لامتناع تغيّر ما في علمه وتبدل ما في حكمه ﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾ من الإخلاص في الأعمال وخصوص المنويات مقرونًا بالدوام والثبات ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عِمرَان: 154] أي

ليظهر ما في قلوبكم ونياتكم ويغشى ما في ضمائركم من الأمنيات والمنويات مقرونةً بالإخلاص وصفاء العقائد والخلوص بكمال الاختصاص، المراد من الأول هو الإلقاءات الشيطانية، ومن الثاني الإلهامات الروحانية والمخاطبات الخفية الربانية ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ وخبير وحكيم بصير ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عِمران: 154] أي بما فيها من الخير والشر والنفع والضر وإنما عبّر عنه بالذات تنبيهًا على غلبة أحكامه عليها وعموم إعلام لديها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ﴾ وأعرضوا أو انهزموا ﴿مِنكُمْ﴾ وتركوا ما أمرهم بحفظ المركز ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ المسلمون والمشركون في معركة مضمار واحد ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي طلب زلتهم بتسويل المخالفة وإغرائه إياهم في ترك المركز ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْۖ﴾ أي بسبب بعض كسوبهم لاقتراف كثرة ذنوبهم وعدم الاعتراف بكثرة عيوبهم لأن الذنبَ يذب الذنب كما أن الطاعة تطاوع بالطاعةِ وتطابع المطاوعة ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْۗ﴾ وتجاوز عن سيئاتهم ولم يعاقبهم لخلوص توبتهم وصحة اعتذارهم وفرط ندامتهم وإفراط نداوتهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ للذّنوب ﴿حَلِيمٌ﴾ [آل عِمران: 155] في ستر العيوب لا يعاجل بعقوبتهم بل يؤاجل فضالهم وعطيتهم كي يتوبوا ويرجعوا أو ينوبوا إلى الله ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ عن صميم القلب وعميم الإخلاص وصميم الغيب ﴿لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وأظهروا الكفر والنفاقَ والمخالفة والشقاق ﴿وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ ولمن يوافقهم في النسب أو الطريقة والمذهب ﴿إِذَا ضَرَبُواْ﴾ سافروا ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [آل عِمران: 156] للتجارة وغيرها ولاحق الكلام ونظمه إذا لقوله قالوا

لكنه جاء على حكاية الحال الماضية ﴿أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى﴾ جمع غاز كعافٍ وعفًى ﴿لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾ في الغزو يدل على أن إخوانهم لم يكونوا مخاطبين به ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ﴾ القول والاعتقاد ﴿حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ ونداءه في عيونهم متعلق بقالوا على أن اللّام لام العاقبة نحو ليكون لهم عدوًّا وحزنًا أي يصيّر الله ذلك القولَ والاعتقادَ حسرة وندامةً في آخر الأمر والعاقبة قيلَ ذلك إشارة إلى تأوّل عليه النهي أي لا يكونوا مثلهم ليجعل الله انتفاء ما قصدوا في المماثلة حسرة وندامة ﴿وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ بقضائه ومشيئته وحكم إرادته في السفر والحضر أو المراد أن الحياة على ما ذهب بعض الحكماء والمسلمين عرض والعرض لا يبقى زمانين إلا أنّ الله تعالى يبقي الحياة ويجعلها مستمرة باقية في الزمان الثاني والثالث إلى غير ذلك وإن الله يحيي المسافر والغازي ويميتُ القاعدَ والمقيمَ والجازي ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [آل عِمران: 156] عليم بكل أعمالكم علمًا حضوريًّا ولذا عبّر عنه بالبصر إشارة إلى أن علم الله تعالى وإدراكه حضوري شهودي.

﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في الغزو والجهاد واللام توطئة القسم ﴿أَوْ مُتُّمْ﴾ بضم الميم من مات يموت وكسرها من مات يميت ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ذنوبكم وستر منه عيوبكم ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ نعمة سرمدية وسعادة أبدية ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [آل عِمران: 157] من حطام الدنيا والجملة الاسمية المؤكدة باللّام ساد مَسَدَّ جواب الشرط يعني أن السّفر والغزو ليس كما يجلب الموتَ أبدية وإلا لما بقي مسافر وغاز ولو فرض ذلك ووقع في سبيل الله فما ينالونَ عن المغفرة والرحمة بالموت خير مما تجمعون في الدنيا بل من الدنيا وما فيها لبقاء هذا وفناء ذلك.

﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ على أي وجه كان ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آل عِمران: 158] وتبعثون بعدَ موت الطبيعي فيجازيكم إن كانَ أعمالكم خيرًا فخيرًا وإن شرًّا فشرًّا.

﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩﴾

﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ﴾ ذهب أكثر المفسرين إلى أن ما ههنا صلة وإن مثلها كثيرة وليت شعري لِمَ لَمْ يقفوا وما تأملوا في أمثال هذا المقام مفوضين العلم إلى الله ولعلّ إن ما ها هنا للتعجب لأنه لما كانت جنايتهم عظيمة وخطيئاتهم جسيمة فاللّينة معهم في غاية التعجب الناشئة من كمال حسن الخلق، فمعناه فبأي رحمة عظيمة وبأي نعمة جسيمة من اللَّهِ لنتَ لهم يا محمد وعفوتَ عن الذين تركوا المركز وخالفوا الأمر كما مرت الحكاية.

مطلب: رحم الإمام وغضبه

قالَ عليه السلام: لا حلمَ أحبّ إلى الله من حلم الإمام ورفعه ولا غضب وجهل أبغض من جهل إمام، وحرفه الراحمونَ يرحمهم الرحمن ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا﴾ جافيًا سيءَ الخلق ﴿غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ﴾ قسيّ الفؤاد رديء الغيب قويّ المكابرة والعناد والرّيب ولا يتأثر عن شيء أصلًا ﴿لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ أي تفرقوا من عندك ولم يسكنوا معك وهو ينافي الرسالة والنبوة ودعوة الخلق إلى الحق ويوافي البطالةَ والكسالةَ ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ﴾ فيما يختص بكَ وتجاوز فيما فعلوا ولا يأخذوا عن كل أحد وفرد ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ طلب المغفرة من الله لذنبهم فيما لله ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ [آل عِمرَان: 159] أي أمر الحرب إذ الكلام فيه أو فيما يصح ويصلح فيه المشاورة فالأمر بها عام وإن كان موردها الخاص لعموم منفعتها وهجوم فائدتها ومنجعتها وهي الاهتداء بالرفيق الأصلح والشفيق الأفلح في الطريق الأنجح وملازمة الجماعة والجمع.

قالَ النبي ﷺ: «**الجماعة رحمة والفرقة عذاب**»، وقالَ أيضًا: «**لا تجتمع أمتي على الضلالة**». وفي الشورى فائدة جليلة عميمة وعائدة جزيلة جسيمة وهي تطييب قلوب المؤمنين وترغيب نفوس المسلمين. وقالَ عليه السلام: «**إذا كان أمراؤكم خياركم وأغنياؤكم سمحاءكم ويكون أمركم شورى بينكم فظهر الأرض**

خير لكم من بطنها وإن كان أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاءكم ولم يكن الأمر شورى بينكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها».

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ على فعل وجزمت على عمل وقول ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ لا على المشورة ولا على صاحبها في إمضاء أمرك على الأرشد الأصلح ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عِمرَان: 159] عليه لا على غيره.

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ﴾ على الأعداء ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ ولا قاهر عليكم ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ ويذلّكم ويقهر عليكم ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم﴾ يمنع العدو عنكم ﴿مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي بعد القهر والغلبة ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عِمران: 160] في جميع الأحوال وتمام الأعمال وعموم الأفعال قال الله للنبي ﷺ ليلة المعراج: يا أحمد لا شيء أفضل عندي من التوكل علي والرضاء بما قسمت.

قال عليه السلام: «**مَن سره أن يكونَ أقوى الناسِ فليتوكل على الله ومن سره أن يكونَ أكرم الناس فليثق باللّهِ ومن سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يديه**»، وأيضًا قالَ: «**إذا توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير يغدو خماصًا ويروح بطانًا**».

إشارة وتأويل

﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ [آل عِمرَان: 151] إشعار بأن القوى النفسانية والمبادىء الجسمانية الذين كفروا بالفطرة الأصلية التي هي المعرفة الفطرية لمّا قابلت القوى الروحانية وقابلت بها وغلبت هي عليها أيد الله تعالى القوى الروحانية والمبادئ الربانية بالجذب الإلهي والتجلي الذاتي الساري في جميع الذراري وتمام الدَّراري، وأثرت شعاشع أنواره فيها بالجذب الإلهي والفيض الأزلي إلى الشبح الأصلي والمناخ الأزلي، وفي القوى النفسانية والمبادئ الجسمانية بإلقاء الرعب وإملاء الخوف في حقيقتها وإعلاء القلب

والجذب في شأناتها ونسبها الذاتية أولًا، ثم في ماهيتها وصورها العلمية وأعيانها الثابتة، ثم في نسبتها العقلية في جبروتها وفي ملكوتها العلية، ثم في مثلها النورية وطبائعها البرزخية ثم في تعيناتها الملكية الشهادية أولًا في البرازخ السماوية والمنايخ الفلكية في أعيان الكوكبية، ثم في النسب المرامية الثابتة في البرزخ النوري والملكوت السفلي، ثم في الأطوار المعدنية النباتية والحيوانية، ثم يتعين في عالم الناسوت وبرزخه الجمعي بالأطوار السبعة القلبية، ثم تصور الأعضاء والجوارح والقوى نزولًا وعروجًا إلى المراتب المنزل منها على ترتيب التنزلات إلى المرتبة الأولى وهي البداية الواحدية والنهاية الأحدية وهي برزخ البرازخ والبرزخ الأعلى ثم يفنى من التعينات كلها علوها وسفلها ويبقى ببقاء الحق كما قال الله تعالى: «**كنت سمعه وبصره ورجله ولسانه**» الحديث إلى آخره.

فالنزول باقتضاء سلطان النور والجمال والعروج بارتضاء الظلّ والجلالة وكذا السير إلى الله ومن الله فإنهما باقتضائهما والنزول والعروج يتبادلان إلى أن يتعادلا ويتكافيا ويتحدا في السير في الله وبالله ومع الله في الصورة الجمعية بين الأدوار والأكوار وحينئذٍ يتحد المتخالفات وينفرد المتباينات والمتغايرات ويشاهد الوحدة بعين الكثرة والكثرة بعين الوحدة، ومقتضيات الأدوار بعين مرتضيات الأكوار أعني النور والجمال بعين الجمال والظل والجلال وهذه الحالة إنما تكونَ باستصحاب كلمة لا إلٰه إلا اللّٰه في الخلوة عن الكثرة والجلوة بالوحدة كما ورد في السفر الثاني من التوراة محمّد رسول الله أمته الحمّادون يحمدون في السراء والضراء، ولن أقبضه حتى تقام به الملة المعوجة بأن يقولوا: لا إلٰه إلّا الله ويفتحوا أعينًا عمياء وآذانًا صمّاء وقلوبًا غلفاء فلا يزال العبد في خلوته تردد هذه الكلمة على لسانه مع مواطآت القلب حتى تصير الكلمة متأصلة في القلب مزيلة بحديث النّفس وينوب معناها في القلب عن كل حديث النفس، فإذا استولت الكلمة وسهلت على اللّسان يستر بها القلب فلو سكت اللسان لا يسكت القلب عنه ثم يتجوهر في القلب وبتجوهرها يستكن نور اليقين في القلب حتى إذا ذهبت صورة الكلمة عن اللسان والقلب لا يزال نوره لتجوهرها ويتخذ الذكر مع الرّؤية عظمةَ المذكور سبحانه وتعالى ويصير الذكر حديث الذات وهذا الذكر هو المشاهدة

والمعاينة والمكاشفة عن ذكر الذات هذا هو المقصد الأقصى بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا أي الجذبة الإلٰهية، وسلطنة الوحدة الذاتية الجامعة لتمام النقائص وعموم التضاد والنقائض هي للكلّ الداعي والساعي إلى الكلّ وتمام المناهج والسّبل والراعي لجميع الخلائق من الجزء والكل، ومأواهم النار أي نار التحسّر والندامة أو نار القطيعة عن مشاهدة نور الأنوار ومعاينة مدبر الأدوار ومدبر سماوات الأكوار. قالَ الصادق رضي الله عنه: «من أراد الدنيا فليعقد قلبه على البلوى لأن أمامه بلوات كثيرة وبليات كبيرة ومن أرادَ المولى فعليه بالخلوة عن العيوب ومن أراد العقبى فليبرأ من معصية الله لأنها لا توجد إلا بها».

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ في هذه النشأة في دورة البشرية والمرتبة العنصرية النورية الجمالية الجمعية التفصيلية والإجمالية ﴿وَعْدَهُۥ﴾ [آل عِمرَان: 152] في تمام الدورات وعمومًا وعموم الكورات الإفرادية والجمعية وجمعية الجمعية، فإن الله تبارك وتعالى قد وعد الاستعدادات الذاتية كلها بقبول جميع الكمالات الذاتية والأسمائية وشهود التجليات الإلٰهية والظهورات الكونية كونًا وبروزًا وذلك لا يحصل إلا في المرتبة الأخيرة والمرتبة الوثيرة إذا كانت القوى والأطوار وما في تمام الأدوار والأكوار كلها مطيعة لسلطان القلب ومطاوعة لنظر الشهادة وبرهان الغيب ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ إذ تخشونهم بإذنه أي صدق الله وقت كونكم قائلين لها في هذه النشأة على وجه قضى بعمله في النشأة الأولى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ﴾ [آل عِمرَان: 152] عند رجوعكم إلى مقتضى المرتبة الجزئية فحينئذٍ تصير الغلبة عليكم لأنكم لانقلاب حالكم الروحانية الجسمانية في النشأة الجزئية الشخصية مغلوبين وصيرورة قلوبكم مقلوبين.

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ﴾ أي وقت صعودكم وتفرقكم في أرض المذلّة عند غلبة الأحكام الوهمية على القوة النظرية والعملية ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ إلى التجلي الذاتي ﴿فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ أي في مرتبة أخرى لكم وهي الأحدية الجمعية التي هي منتهى الصعود والترقي في دورة نورية جمالية صريحة، وإن كان مقتضى الصعود والترقي هو سلطان الجلال الذي كان ضمنيًا تتنزل الأمر على المراتب إلى النهاية فإن للحقيقة المحمدية السارية في كل المراتب في تمام الأعيان النورية

صريحًا وفي الأكوان الظلية ضمنًا دعوة في كل طور وسير ودور نزولًا وعروجًا إلى الأحديتين الإلٰهية والناسوتية ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمٍّ﴾ أما في النزول فلاغتمام الذات بصورة الأسماء والصفات النورية الحالية الوجودية التشبيهية وأما في العروج فبهيئات بواطن الأسماء والصفات التي هي النعوت والأوصاف التنزيهية في الأدوار والأكوار الإفرادية والجمعية وجمعية الجمعية ﴿لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ﴾ في دورة من الأدوار الأربعة النورية فإن ما فات في دورة من هذه الأدوار يتدارك في دوره ومرتبته أخرى أو في طور من الأطوار السبعة القلبية في درجة أدنى ﴿وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ﴾ [آل عِمرَان: 153] من سلطان الظل والجلال الذي هو توأمان لسلطان النور والجمال.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةً﴾ وسكينة إلهية وطمأنينة ربانية في الطور القلبي والطور السّري الذي هو مجلى التجلي الإلهي ﴿نُّعَاسًا﴾ أي جذبة خفية ﴿يَغۡشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمۡۖ﴾ من أعيان مرتضى النور ومقتضى الجمال ﴿وَطَآئِفَةٌ﴾ [آل عِمرَان: 154] من أكوان الظل ومرتضى الجلال الذي اقتضاوه ضمني ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾ جماليًا كان أو جلاليًا إفراديًا أو جمعيًا صريحًا أو ضمنًا رحمانيًا أو شيطانيًا جنيًا أو إنسيًا دفينًا أو تدريجيًا ملكيًا أو فلكيًا أو عنصريًا أو غير ذلك ثابت لله ومن الله وبالله ومع الله ﴿قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ﴾ [آل عِمرَان: 154].

قالَ الصادق عليه السلام: «المضطجع ثلاثة منهم من اضطجع في الدّنيا على الدنيا فهم الجاهلون ومنهم من حذره وقلبه فهوَ عالم برؤية ﴿وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الحَديد: 6] ومنهم اضطجع في كرمه على كرمه».

هذا أقول: **أما الأول:** فهو على ما يخالف مرتضى الجلال الضمني في دورة مقتضى النور والجمال الصريح.

وأما الثاني والثالث: فهو على كل ما ترتضيه الموافقة وتقتضيه المطابقة إن الذين يتولون منكم التولي ثلاثة: تولّي الكفار عن معدن التوحيد فإنهم مع الشيطان، وتولّي المنافقين عن تصديق الشهادة ومعدنهم الحسرة والندامة والفراق، وتولّي المؤمنين إلى موليهم ومعدنهم الرحمة للقلوب والمغفرة للأبدان

فبما رحمة من الله لِنتَ لَهم ولو كنت فظًّا غليظَ القلب . . .

قالَ في العرائس: إن اللّهَ سبحانه خلق قلوب هذه الأمة وقت إيجادها في رؤية جمال الله ونورها بالحسن والبهاء وأخرج أرواحهم من العدم إلى عالم البسط والسرور وسناءِ المشاهدة في طور المجاهدة والسماع والحبور وإليها خلعَ اللّطف فصارت مستعدة لرؤية الألطاف قابلة لنور الأنس ومن كمال حكمة الله ولطفه جعل نبيّنا رحمة للعالمين فبهذه الرحمة يداري مع الخلق طرًّا ويتحمل أذيتهم واستخفافهم ولم يترك الدعوةَ وإن كانت سِرًّا ومساءةً وضرًّا.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ أي ما صح وما جرى أن يخونَ في الغنائم ولا في غيرها فإن النبوة تنافي الخيانة لقوله عليه السلام أكملَ الديانة ترك المدينة يقال: غلَّ شيئًا من المغنم يغل غلولًا وأغل إغلالًا به إذا أخذه في خفية.

قالَ بعض أهل التفسير: نزلت حين همَّ رسول الله ﷺ أن يصلِّ على عبد اللّهِ ابن أبي سلول من كبار المنافقين فمنعه أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ولم يمتنع فأخذ بردائه وجره حتى احمرَّ عنقه فغضب رسول الله ﷺ ودخل دارَه فنزلت. عن ابن عباس: نزلت في قطيفة حمراء يوم بدر فقدت فقالَ بعض المنافقين: أخذها رسول الله والبعض على أن الأقوياء ألّحوا عليه يسألونه من المغنم أي ما صح لنبي أن يعطي الأقوياءَ ويمنع الآخرين بل عليه التسوية والمراد براءة النبي عما ظن وما ظن بعض الرماة في أُحُد في حقه حين تركوا المركز للغنيمة وأن الرسولَ يعطي الأقوياءَ ولا يعطي الضّعفاء إنَّ اللّهَ لما بالغ في الحث على الجهاد وأتبعه بذكر أحكامه ومن جملتها المنع من الغلول ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عِمران: 161] أي أن من يخفى مِنَ الغنيمةِ تمثل له ذلك المغلول في قعر النار ثم يقال للغال إنزل إليه فينزل فيحمل على ظهره فإذا بلغ موضعه سقط إلى ما كان عليه في النار ثم كلف أن ينزل ثانيًا فيخرجه هكذا يفعل ذلك مرارًا. قالَ عليه السلام: **«من فارق روحُهُ جسَدَهُ وهو بريءٌ من ثلاثة: الكبر والغلول والدّين دخل الجنة»**.

﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ أي يجازي ويعطي جزاء ما اقترفت من فعل أو قول أو عمل كافيًا أو وافيًا ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عِمران: 161] لا ينقصونَ من ثواب أعمالهم ولا يزاد في عقاب معاصيهم ولا في عذاب صياصيهم بالأخذ من أنوفهم ونواصيهم أضعافًا وألوفًا وآلافًا واللائق ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ لكنه سبق مساق البرهان ليعم الغالّ وغيره فيكونُ أبلغَ وأثبتَ في الزجر ولذا أردف بما دل على إنكار السّويةِ بين الأمين الصالح والخئين الخالف الطالح والعائف الكالح.

﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾﴾

﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ بالطاعة والصدق والأمانة ﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ﴾ أي رجع بسخطه لخيانة وسقط ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ﴾ أي مقام الغال ومصيره ومأواه ﴿جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عِمران: 162].

﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾

﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ﴾ أي في أنفسهم درجات متفاوتة علوًّا ودنوًّا أو الغالون أو العالمونَ كدرجات، وإنّما شبهوا بالدرجات لما بينهم من التفاوت في الثواب ومراتب العقاب ومسالك العذاب ومسلكه، فبعضهم أرفع منزلة في درجات الثواب ودرجات العقوبة والعقاب وهم ذو درجات ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عِمران: 163] أي خبير بأعمالهم ظاهرًا وباطنًا أو شاهد وعالم على طريق الشهود والمشاهدة أو بمعمولاتهم.

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ﴾ أي أنعم الله وأعطى على المنة والتفضل ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عِمران: 164] المنفقين من كمال فضله ووفور إحسانه وإفضاله تنبيهٌ على أن

نعم الله تعالى أولًا وبالذات إنما هي للمؤمنين المخلصين وبوفور العناية ودرور اللطف المتخصص كما قال في الأعراف: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف: 32]، ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ نسبًا وحسبًا ليفهموا كلامه بسهولة قرأ ﴿مِّنْ أَنفَسِهِمْ﴾ على صيغة أفعل التفضيل أي أفضلهم وأشرفهم ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي يقرأ القرآنَ عليهم تبيينًا للحلال والحرام ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي يطهرهم من دنس الطباع وأوصاف البهائم وهيئات السباع على ما يقتضي خصائص الرضاع لقوله عليه السلام: «**الرضاع يغير الطّباع**» الحديث. فمنهم على نعت السباع وبعضهم على صفة البهائم فحكمة الله تعالى قد اقتضت أن يبعث فيهم رسولًا ويتلو عليهم آيات كتابه ليهديهم إلى تزكية النفوس وتطهرهم عن الأوصاف البهيمية والهيئات السبعية والنعوت الشيطانية من الضلالة والإضلال والجهالة والإغلال كما قال: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَٰبَ﴾ العَمَلية والعِلمية وأحكامه من الحرام والحلال ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ العلمية والعملية وأقسامهما من الطبيعية والرياضية والإلهية وأما العملية فَهي العبادة وأنواع الطاعة والأحوال المنزلية والأحوال المدنية والقوانين السياسية التي تتضمن السعادة الدنياوية والدينية وهي معرفة المبدأ والمعاد وانتظامه أمور المعاش والانتعاش لاستكمال العباد تؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤتى الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا الآية ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ﴾ أي قبل البعثة وتعليم الكتاب وأبوابه ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عِمرَان: 164] أي ظاهر ومبيّن هي المخففة بقرينة اللام وتقدير ضمير الشأن.

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾

﴿أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ الهمزة للتقريع والتقرير دخلت على واو العاطفة للجملة على ما سبق من قصة أُحد أو على محذوف أفعلتم كذا أو قلتم كذا من الفشل والتنازع ﴿قَدْ أَصَبْتُم﴾ منهم يوم بدر ﴿مِّثْلَيْهَا﴾ من قتل سبعين وأسر سبعين والعذاب ونهب الأموال ﴿قُلْتُمْ﴾ حين أصابكم هذه المصيبة وهو عامل في الملأ وإن كان متأخرًا عنه ﴿أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ [آل عِمران: 165] من أين وقع هذا الخذلان ونحن

موعودون بالنصر والظفر ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ أي من اجترأ عنه أنفسكم من الإلحاح في الخروج من المدينة ثم ترك المركز طمعًا في المغانم، والوعد كله كان مشروطًا بحفظ المركز والإطاعة والانقياد والمطاوعة، وعن علي كرم اللَّهُ وجهه، باختياركم الفداء يوم بدر قبل أن يؤذن لكم قالَ: جاءَ جبرئيل فقال: يا محمد إن اللَّهَ كره ما صنع قومكَ في أخذهم الفداء فقالُوا: هم عشائرنا وإخواننا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من النصر وإصابتهم منكم وإصابتكم منهم آخرينَ ﴿قَدِيرٌ﴾ [آل عِمران: 165] من غير رد منه جمع أو فرد.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾﴾

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ من المسلمين والمشركين في أُحد مبتدأ متضمن للشّرط ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ خبره أي فهو كائن بقضاءِ الله تعالى وتجليته للكفار وتغليبه إياهم وتسليطهم عليكم واستعارة التخلية للإذن لأنه من لوازمها وذلك لنبتليهم ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عِمران: 166].

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ أي أظهر النفاق أي ليميز المؤمنين الصادقينَ من المسلمينَ المنافقين ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ﴾ [آل عِمران: 167] إما عطف على نافقوا أي للمنافقين المنقلبين عن أحد وللمتباعدين عن الحرب أو مستأنف روي أنَّ عبد الله بن أبي سلول لما خرج بعسكره إلى أُحد قالوا: لِمَ نلقِ أنفسنا في التهلكة فرجعوا بثلثمائة فخير اللَّهَ الباقين من المؤمنين بين الأمرين الدنيا والآخرة فإن كان في قلوبكم الدين والإسلام فأنتم قاتلوا في سبيل الله، أو كانَ حب الدّنيا فيكم ادفعوا عن أنفسكم وأهليكم وأموالكم، وإلا كونوا مع المجاهدين ليكثر سوادهم مما يفزع العدو ويوقع في قلوبهم الرّعب لما رجع عبد الله قيلَ لهم: لَمَ رجعتم؟ قالوا: لو نعلم

قتالًا يحوج إلى الإعانة والتعاون لاتبعناكم في القتال لكن هذا هو الإلقاء إلى التهلكة وهم قبلَ هذا كانوا يظهرونَ الإسلامَ ويخفونَ الكفرَ والنفاق فأخبر الله عنهم ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم كانَ قبلَ هذا ﴿أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ لأنهم كانوا قبلَ هذا تظاهروا على المشركين ويستنصرونَ عليهم بالمؤمنين من غير أن يبدو منهم ما يدل على كفرهم ونفاقهم فلما انصرفوا عن المؤمنين وانحرفوا عن المسلمين وقالوا ما قالوا فظهر منهم آثار الكفر وأسرار النفاق فصاروا أقربَ نصرةً إلى الكفار وإعانةً لهم فقيل لهم لأهل الكفر أقرب نصرةً منهم لأهل الإيمان لأن انحرافهم لتقليل سواد المسلمين وتقوية للمشركين ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عِمرَان: 167] من الإصرار على الكفر والنفاق وإخفائِهِ عنهم.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ أي لأجل إخوانهم في السكنى لا في الدين وهم شهداء أُحد ﴿وَقَعَدُوا۟﴾ والحال أنهم قد قعدوا عن القتال في المدينةِ ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ ووافقونا في القعود عن القتالِ والانحراف عنه ﴿مَا قُتِلُوا۟﴾ بل عاشوا مثلنا آمنين في أنفسهم ﴿قُلْ﴾ يا محمد في الرّدّ عليهم إن كنتم صادقينَ فيما ادعيتم في دعواكم ﴿فَٱدْرَءُوا۟﴾ وادفعوا ﴿عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عِمرَان: 168] فإن أسبابه كثيرة مجهولة لا يعلمها إلا الله ولا يدفعها إلا الله، فالكلّ إنما هو من الله وبالله وفي الله، فإذن وجب تفويض الأمور كلها إلى الله، وفيه راحة ورحمة وإزاحة الهموم والغموم كما قيلَ المستريح من أطلعه الله على سر القدر.

قالَ النبي ﷺ: «**الإيمان بالقدر يذهب الهم والحزن**». قالَ الحكيم الفاضل أفلاطون: القضاء مقدر والمقدر غير مغير لا يُحَسّ قبلَ وقوعه ولا يدفع بعد وقوعه، فخوفي منك وتسلطك عليّ لِمَ؟. ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عِمرَان: 169].

﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عِمرَان: 170] وهو شرف الشهادة والفوز بالحياة الأبدية والقرب من الله والتمتع بنعيم الجنة الذاتيّة. قالَ النبي ﷺ: «**المؤمنون لا يموتونَ بل ينتقلونَ من دار إلى دار**». وقالَ أيضًا: «**لما أُحُييت إخوانكم يوم أحد جعل اللَّهُ أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهارَ الجنة وتأكل أثمارها وتسرح منَ الجنة حيث شاءت ويأووا إلى قناديلَ من ذهب تحت العرش فلما رَأوا أطيبَ مطعمهم ومشربهم ورأوا ما عند الله لهم من الكرامة قالوا: يا ليتَ قومَنا يعلمون ما نحن فيه من النعيم وما صنع الله بنا كي يرغبوا في الجهاد، ولا يتكلموا**».

مطلب: المؤمنون في عالم الأرواح يتنعمون ويتزوجون

قالَ بعض الحكماء: إن في الوجود عوالمٌ كثيرةٌ كعالمنا هذا وأن التزويجَ كله سرورنا وأن بعد الموت أكلًا وشربًا ونكاحًا وغيرها من اللّذات.

واعلم أن بقاءَ النفس بعد المفارقة ثابت نقلًا وعقلًا وشرعًا وقد ثبت بطريق المشاهدة والمعاينة والوحي فمن خالفه فبسبب خمود نار الفطنة أو بغلبة نيران الشهوة والبطنة فلا سبيل إلى المناظرة والمعارضة معهم لاندراجهم مدارج البهائم والسباع يجرون الأمورَ في الوجود على مقتضى الطباع فليعلم أن في الوجود للعلم والمعرفة والشهود مراتبَ وأن للإنسان في كل مرتبة وعالم وجود أو تعينًا محدودًا ففي برزخ البرازخ وهي نهاية الأحدية وبداية الواحدية له تعيين آني بوجه ذاتي وتجلي أحدي وهو شأن ذاتي وفي مرتبة العلم والجبروت تعينه علمي عملي ووجوده روحي عقلي وفي مرتبة الملكوت والأمر تعينه روحي ووجوده نفسي وفي مرتبة البرزخ وعالم الخيال المطلق والمثال المتحقق بعينه صوري بدني برزخي ووجوده نوري مثالي.

وأما في المرتبة الشهادية وعالم الملك فتعينه صوري جسدي جسماني

ووجوده دنياوي، وأما في الناسوت وعالم الأنسيات فتعينه كوني إلهي جمعي ووجوده كلّي محيط بجميع المراتب وبما فيها من الحقائق الأعيان النورية الجمالية ودقائق الأكوان الظلية الجلالية من الأملاك ودقائق الكواكب والأفلاك وغير ذلك من المعاني والصور والعالم البرزخ السّفلي ارتباط بعالم الملك والناسوت وبعالم الملكوت وبما فوقه من الجبروت وبما فيه من الأملاك والعقول والأسماء والصفات وهوية الذّات ففي الإنسان من كل واحد من هذه المراتب حبل ممدود وخيلٌ مشدود يجره إلى عالمه ومرتبته فمن بقي فيه تلك العلاقة والتعلق والرابطة والتشوق، فإذا ذكر عنده من هذه المراتب والعوالم وصف ونعت انتهضت نفسه إليه ومال لديه ويطلب أن يصل إليه ومن ارتفع عنه هذا الارتباط والعلاقة إذا ذكر عنده من هذه المراتب والعوالم أمرًا نكره وجعله من المقترنات وكذب أمر الآخرة وما ثبت في العالم البرزخ من أنواع الغرائب وأصناف العجائب فيعذب عذابًا شديدًا ويعاقب عقابًا مديدًا.

﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾ ويشيرون وينتهجونَ ويطلبونَ ﴿بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي بإخوانهم المجاهدين الذين لم يُقْتَلوا فيلحقوا بهم من خلفهم يعني الذين قد بقوا بعدهم قيلَ لم يلحقوا بفضلهم ولم يصلوا بكمال علمهم وعملهم وبمقامهم وحالهم وبمرتبتهم ومنزلتهم ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ بزوال نعمهم وفضال كرامتهم كي يتنغّص عيشهم ويتكدر صفاؤهم ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: 170] على الخروج عليها هذا يدل على أن الإنسانَ غير هذا الهيكل المحسوس.

تأويل وإشارة

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ أي ليس لطور خفي لدى الاستيلاء على سائر الأطوار والقوى النظرية والعملية وآثارها أن يخفى مقتضيات الأطوار السافلة عند تصاعدها عن تلك الأطوار إلى ساحته إحاطة هذا الطور فإن آثارَ الأنوارِ نور الأنوار ولا ينزل من الكنز الخفي الأحدي إلى هذا الطور ثم على مقتضى الحكمة الإلٰهية ومرتضى التربية الربانية ينزل على أعيان عالم الجبروت وهي الأنوار القاهرة والعقول المجردة والجواهر النورية وعلى الأعيان الثابتة والماهيات الكونية والحقائق الإلٰهية ثم على الأكوان الملكوتية والأرواح ثم على المثل

النورية والأشباح ثم على أعيان الملك ثم على الأعيان الثابتة والكون الجامع، ثم يتصاعد منه إلى ما كانَ عليه وهو الحقيقة المحمدية والوحدة الذاتية، ثم يصعد منها إلى الكنز الخفي من غير نقصان ثم ينزل منه إلى ما يتصاعد منه غير نقصان بل لا بدّ وأن يكونَ زائدًا على ما كانَ وألا يكون عبثًا وضائعًا.

﴿وَمَن يَغْلُلْ﴾ أي من لم يستكمل مقتضيات الأطوار في مدارك الأدوار ومسالك الأكوار وأخفى من مرتضيات الأطوار في النزول والعروج ﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ﴾ عند نهاية مقتضيات الدورة النورية وهي المحشر العظمى وما وقع في الحديث من تكرار النزول إشارة إلى أن للسالك في أطوار عروجه وصعوده أطوارًا مختلفةً وأدوارًا متخالفة إذ هو ربما يصعد ويعرج من مرتبة إلى مرتبة ومن طور إلى طور ولم يستكمل وظائف تلك المرتبة ولم يستوفِ لطائف ذلك الطور فلا بدّ أن يرجع رَجْعَ القهقرى إلى المرتبة السفلى لتكملها وهكذا يتردد في النشآت على مرتضى الدّورات ومقتضى الكورات حتى لم يبق لها حالة منتظرة وإلى هذا أشار النبي ﷺ في حديثه، ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ [آل عِمرَان: 161] في النشآت الأدوار وشؤونات الأكوار في مراتب السير إلى الله ومن الله وفي الله حسب تفاوت مراتب الاستكمال. قالَ الصادق رضي الله عنه: من اختار الدنيا على الآخرة والولاية والملك على المالك والنعمة على المنعِم فقد غل ومن غل أتى يوم القيامةِ مغلولًا من نوره.

﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ﴾ في مدارك نشأته ومسالك شؤوناته في السير إلى الله عند الاستكمال بأن يستوفي حقوق ﴿رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ في كل طور ومرتبة من غير غلول شيء منها فهو يكون ﴿كَمَنْ بَاءَ﴾ ورجع في مدارج صعوده بغضب من الله ﴿بِسَخَطٍ﴾ [آل عِمرَان: 162] منه بترك المعهود ورفض مرتضيات العقود في المعاقد الأزلية والمعاهد الأولية إما لعدم الاشتغال بترتيب الأسباب الموصلة أو لنقصان الاشتغال في نفسه.

﴿هُمْ دَرَجَاتٌ﴾ أي لهم في السير إلى الله ومن الله وفي الله مراتب ودرجات جنات التجليات بأنواعها ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ﴾ وشاهدٌ لهذه التجليات والدّرجات وحالاتها ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عِمرَان: 163] أي مع أعمالهم أو مع معمولاتهم لا

يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء هو الذي يصوركم بأعمالكم وأحوالكم وحالاتكم ومقاماتكم أولًا في أرحام الاستعدادات الذاتية والقابليات الأولية ثم ينزلكم على المراتب إلى نهاية المراتب ثم يعرجكم ويرقيكم إلى ما كنتم عليه مع تضاعف ما كانَ معكم من التجليات المتنوعة والشهودات المتفرعة.

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أولًا بإعطاء الاستعدادات وإفاضة القابليات ثم بإضافة الوجودات بتطوراتها وما يتبعها من الكمالات الذاتية والأسمائية والأفعالية والآثارية في الأدوار والأكوار ونشأة الأطوار وما يتبعها من أنواع التجليات وأصناف الشهودات ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا﴾ أي الحقيقة المحمدية أولًا في البرزخ الأعلى لشؤونات الذاتية والنسب الأولية ففيض عليهم بالتجلي الذاتي الذي هو الفيض الأقدس والاستعدادات الذاتية ثم في العلم ومرتبة الواحدة بالوجودات العلمية والتعينات الأسمائية وهكذا في سائر المراتب ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي آيات كتاب التجلي الذاتي ثم الوصفي ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ويطهر من الموانع والقواسر ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [آل عِمرَان: 164] أي التجلي الأسمائي والصفاتي في عالم الجبروت والتجلي الأفعالي في الملكوت والتجلي الآثاري في عالم الصورة اللطيفة وهي البرزخ الأدنى ثم في عالم الصورة الكثيفة في عالم الملك ثم في عالم الكون الجامع ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عِمرَان: 164] أي العلم بهذه الأمور المذكورة من التجليات والعلوم التي يتضمنها ويتعلق بأسرارها وبما يقتضيه من الأدوار وما فيها من الأعيان النورية والكونية والعقلية والروحية والشبحية والشهادية والملكية والنشأة الجامعة والمرتبة الناسوتية وما يختص بها من الكمالات الجمعية والحالات المعية وما يتوقف عليه من الأعمال الإدارية والأفعال الاختيارية من الطاعات والعبادات البدنية والحالات النفسانية والمقامات القلبية والأحوال الروحية والعقلية والمعاملات المنزلية والسياسة. ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ [آل عِمرَان: 165] من الطبيعة والنفس وجنودها وهي الفرقة والضلالة والجهالة.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ أي الأفياض النازلة من المرتبة العالية والمعاني الصاعدة من النشأة الجامعة وعساكر القوى الجسمانية والمبادئ النفسانية

من الحواس الظاهرة والباطنة التي اجتمعت معها في مجمع البرزخ القلبي ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عِمرَان: 166] أي هذا النزول والصعود والاجتماع إنما هو بإذن الله وأمره وحكمه وحكمته وبمقتضى قضائه وعلمه، فإن الأسماء المتقابلة والصفات المتباينة لا تزال مقتضاها يظهر فرادى أو جمعًا فلا يزال أبدًا التقابل والتقايل والاجتماع بينهما فتارة يكون الغلبة للنفس والطبيعة وأخرى للروح والعقل وأخرى للصورة الجمعية القلبية ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر: 1 ـ 3]، «**وإني ليغان على قلبي وإني لأستغفر اللّه في كل يوم مائة مرة أو سبعين مرة**»، ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آل عِمرَان: 166] والنازلينَ من العالم الإلهي أو الصاعدين من العالم السفلي ووصل إلى المرتبة الجمعية القلبية، وليعلم المنافقين الذينَ لم يستكملوا في النزول والعروج بل يتردد في البين، فالمؤمن هو الذي بلغ في مقام الجمع وشاهدَ الكمالَ الجمعي، والكافر هو الذي ينزل إلى المرتبة الذاتية ولم يصعد بعد، والمنافق هو الذي أخذ في الصعود ولم يستكمل أسبابَ الصعود فليتردد في البين فهو لا كافر ولا مؤمن ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ۝١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [آل عمران: 169، 170].

قالَ الصادق رضي الله عنه: من قتلته الدنيا صار حيًّا وميتًا عن العقبى ومن قتلته العقبى صار ميتًا عن الدنيا ومن قتله المولى صار معه ميتًا عن الدنيا والآخرة باقيًا ببقائه أزلًا وأبدًا سرمدًا إلى ما لا نهاية له أدوارًا وأكوارًا.

واعلم أن من قُتِلَ في سبيل محبته وطريق شوقه ومودته بسِنان العشق وسيف الحب ووفور الذوق أحياه الله تعالى وأبقاه بحياة سرمدية وبقاءً أبديًّا وأسنده في سرير وحدة جمعية الذّات وكلية معية الأسماء والصفات فألبسه بخلع القدم وآمنه من طريان الفناء والعدم فليلبس بنور أزليته وحضور أوليته ومن قتلته فأناديه مَوصوفًا بصفة آخريته ومنعوتًا بنعت ظاهرية وصفة باطنية فتحقق بنعوت كمال جمعيته وإحاطة كليته هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم يرزقون عنده بما وصلَ إليه من جميع الأعيان الإلٰهية والربانية من الملائكة والعقول والكونية من الأرواح والأشباح والملك والشهادة بواسطة الكون الجامع

والإنسان الكامل الرافع إما آنا فآنًا أو بعد الأدوار والأكوار وبالشؤونات الذاتية والأعيان الإلٰهية واستبطائه إياها مرة أخرى واستطارها أخرى ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [الرحمن: 29]، ﴿بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ [ق: 15]، ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ أي منبسطين بما بسطه الله في ذاته بذاته في أسمائه وصفاته ويستبصرونَ بالذين لم يلحقوا بهم أي الذين لم يبلغوا مبلغهم بالتحقق بالأحدية الجمعية من الأطوار والقوى أي السائرين إلى الله ومن الله وفي الله أن لا خوف عليهم من زوال الكمال الجمعي والجمع الكمالي ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [آل عمران: 170] من فوات الكمالات الذاتية والأسمائية.

﴿۞ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٧١﴾

﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ﴾ [آل عمران: 171] أي يطلبون بعد البشارة بالجنة التي أعدت للمتقين مع الزيادة فيها وعليها ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾ [يونس: 26] وهي ثمرات شجرات الخلوص والإخلاص يدل عليها التنكير الذي هو للتكثير، وفضل إشارة إلى أن السالك العارفَ يتزايد في كمالاته ودرجات جنات تجلياته آنا فآنًا من غير أن يتكرر التجلي أن الله لا يتجلى في صورة ثنتين ولا في صورة اثنين ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: 171] من جملة ما يشير به عطف على فضل بالفتح وبالكسر على الاستئناف.

قالَ عليه السلام: «**السيوف مفاتيح الجنة والجنة تحتَ ظلال السيوف**»، وأيضًا: «**الشهيد يشفع في سبعين من أهله**». والتكرار الإشارة إلى الحالتين:

إحداهما: بالنظر إلى ذواتهم.

والثانية: إلى أحوالهم خارجًا وداخلًا. روي أن الشهيدَ إذا وصل إلى الأرض تقول له الأرض: مرحبًا بالروح الطيب الّذي أخرج من البدن أطيب البشر فإن لك «**ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**» كما ورد في الحديث. ويمكن أن يقال: المراد من الفضل اندفاع الخوف والحزن أو الفرح الدائم أو السرور والبهجة اللازم لا يخالط ألم خوف ولا همٌّ عرف.

﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ١٧٢﴾

﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ صفة للمؤمنين أو نصب على المدح نزل حين رجع أبو سفيان إلى مكة بعد قتال أحد فندم حيث لم يستأصِل النبي وأصحابه فأراد العودَ لذلك فسمع النبي ﷺ فأرادَ الخروج له فكَرِهَ الأصحاب فقال النبي ﷺ: «**والذي نفسي بيده لأخرجن إليهم وإن لم يخرج معي أحد منكم**» فمضى رسول الله ﷺ في طلب أبي سفيان ومعه قريب من سبعين رجلًا من المسلمين وكانَ لهم جراحات حتى بلغ حمراء الأسد على ثمانية أميال من المدينة فجبن أبو سفيان فقالَ الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ أي أطاع أمر اللّهِ ورسوله ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُ﴾ وجرى من أعضائهم وجراحاتهم وجراحات أجزائهم وجراحات بدنهم وأعضائهم دم وقيح ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ بطاعتهم وتفضلوا بمزيد طاعتهم لأمر الله ورسوله ﴿مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ﴾ من للتبيين لا للتبعيض ومفعول اتقوا محذوف أي مخالفة أمر الله ورسوله مع انقلاب أنواع القروح والجراحات ﴿أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عِمرَان: 172] مبتدأ قدم عليه خبره وهو الجار والمجرور ويجوز أن يكون فاعلًا للظرف والجملة الاسمية أو الظرفية خبر للموصول السابق.

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ أي أبو سفيان وأتباعه ﴿قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ﴾ في مكة متجهِّز لقتالكم فلما خرج نَعيمٌ من مكة قالَ أبو سفيان: إذا لقيتَ محمدًا وأصحابه ﴿فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾ وخوفهم لكيلا يخرجوا فإنا قد جمعنا على العود عليهم ﴿فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ عليهم فلما قدم نعيم المدينة أخبرهم بما قالَ أبو سفيان: ﴿وَقَالُواْ﴾ أي المسلمون ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ [آل عِمرَان: 173] فزادهم قول نعيم إيمانًا أي زاد إيمانهم بقوله واطمأنت قلوبهم وفؤادهم فأخلصوا النية على الجهاد وخصصوا الأمنية إلى دفع الشرك ودفع الفساد والإفك، وذلك أنهم لما سمعوا

هذا القولَ وقد كانوا ذوي جراحات وقروح محتاجين إلى المداواة مرتاحين مزيد النصرة والفتوح متوكلين على اللّهِ السبوح دليل على أن الإيمان يزيد وينقص فتوجه المسلمونَ إلى قتال أبي سفيان فلما سمعوا أن أبا سفيان ما خرج من مكانه.

﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾

﴿فَانقَلَبُوا﴾ أي رجعوا وانصرفوا من المنزل الذي نزلوا فيه سالمين غانمين ﴿بِنِعْمَةٍ﴾ حاصلة ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ من المعاملة التي جرت بينهم وبين أهل السوق الذي كان معهودًا في موسم معين اتفق حضورهم فيه ﴿وَفَضْلٍ﴾ أي ربح وتجارة ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ من عدوهم وآلام جراحاتهم ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ ورضاءه الذي هو مناط الفوز بخير الدارين وسعادة النشأتين ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عِمران: 174] أي يفضل عليهم بالتثبت وزيادة الإيمان والتوفيق للمبادرة إلى الجهاد بلا كسل وتهاون وَمُطْل بل بفرط رغبة ووفور ميل ونيل بلا رهبة.

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ﴾ أي الذي قاله نعيم إن الناسَ قد جمعوا لكم إنما هوَ ﴿الشَّيْطَانُ﴾ أي هو من قبل الشيطان، أي ألقى الله به في أفواههم ليبتليكم ويمتحنكم في الثبات على طاعة الله وطاعة رسوله في أمر الجهاد، والمراد من الشيطان هو أبو سفيان والنعيم ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ أي يرهب أحباءه وأصدقاءه من الصحابة وهو لكمال إيمانهم باللّهِ لا يخافون للأمن للّهِ ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ يا معشر الإسلام والمسلمين أبي سفيانَ وأضرابَهُ حتى تقاعدوا عن الجهاد ﴿وَخَافُونِ﴾ لا تخافوا إلا منّي فإني قادر على ارتفاع المكروه عمن أريد وأحب أن يرجع ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عِمران: 175] أي كاملي الإيمان فاضلي الإيقان سالمي الإتقان.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ﴾ وهم المنافقون من المتخلفين أو قوم ارتدوا عن الإسلام ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ﴾ أي لن يضروا أولياء الله وأحباءه بمسارعتهم في الكفر فإنما يضرون بها أنفسهم ﴿شَيْـًٔا﴾ يحتمل المفعولَ والمصدرَ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ﴾ أي نصيبًا وحصةً من الثواب يدل على تمادي في الطغيان وتمرنهم على الكفر والنفاق والعصيان والشرك والكفران ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عِمران: 176].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟﴾ واختاروا ﴿ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ واستبدلوه به ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ﴾ أي بعض الضرر في دينه أو سلطانه وملكه ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عِمران: 177] وجيع عميم وموجع عظيم.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ﴾ أو نمهلهم ونتركهم وجزاهم عذاب الدنيا والآخرة ﴿خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ﴾ خطاب بالرسول بكل ما يصلح له أي لا تظن يا محمد أن تركهم وإهمالهم وإخلاهم ومشيئتهم وإرادتهم خير لهم من منعهم عن إرادتهم ومرادهم، إنما نملي لهم ونملهم بدل منه وإنما اقتصر على مفعول واحد لأن التعويلَ على البدل والمبدل منه كقولكَ جعلت متاعكَ بعضه فوق بعض مع امتناع قولك على متاعك، ويجوز أن يكون الخطاب بأبي سفيان وأضرابه أو لا يظنن أبو سفيان وأصحابه إن إمهالهم مع أنفسهم ومرادهم خير لأنفسهم بل ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ﴾ فوق إثم وغمًّا على غم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عِمران: 178]

وما، إما مصدرية أو موصولة، فعلى الثاني العائد محذوف، وعلى الأول حقها الانفصال في الخطأ لا أنها وقعت متصلة في الأمام، فإن قلتَ كيف يكون ازدياد الكفر غرضًا قلت ما كل علة لغرض، ألا يرى أنك تقول قعدت عن العجز والعجز والفاقة وخرجتُ عن البلد مخافة الشر وليس شيء منها لغرض، ولهم عذاب مهين بدل من الإهانة وهي الإذلال.

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ويتركهم ثابتين ﴿عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ قائمين أي على ما أنتم عليها من خلطة بعضكم ببعض بحيث يسلم مخلصكم عن منافقكم بل ابتلاكم الله تعالى بهذه البليات ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ﴾ أي النفس الخبيثة من النفس الطيبة أي لا يترككم مختلطين لا يعرف المخلص عن المنافق ﴿مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ﴾ ولا يتميزان إلا بالتكاليف الشاقة كبذل الأموال والأنفس في سبيل اللّهِ، نزلت في المنافقين حيث اعترضوا على ما قاله النبي ﷺ: «**عرضت عليّ أمتي كما عرضت على آدم وعملت كما علمت من يؤمن ومن يكفر وينافق**»، فبلغ ذلك المنافقينَ فاستهزؤوا وقالوا زعم محمد أنه يعلم من يؤمن به ومن يكفر به فمن لم يخلف ونحن معه وهو ما يعرفنا فبلغ ذلكَ رسولَ الله ﷺ فقام على المنبر خطيبًا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «**ما بال أقوام جادلوني وطعنوا في علمي لا يسألوني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة إلا أنبؤكم به**» ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ لعدم حصول شرائطه ووجود الموانع فيكم، فلم يطلعوا على الغيب ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ﴾ لما يشاء عند حصول الشرائط وفقدان الموانع من الاطلاع على الغيب، فيطلع بالوحي على الغيب من الكفر والإيمان والإخلاص والنفاق والمخالفة والشقاق والمطابقة والوفاق وغير ذلك من المعينات ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ بوجوده وتوحيده وصفاته الذاتية والأفعالية والآثارية ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ [آل عمران: 179] وبما جاؤوا به بالإخلاصِ بأنهم صادقونَ في مقالاتهم لأنهم لا يجيزون إلا عن الله وعن ما

أطلعهم الله عليه ﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ﴾ أحق الإيمان بكمال الإخلاص ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ عن النفاق واستبعدوا عن المخالفة والشقاق ﴿فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عِمرَان: 179] وهو علو الدرجة في حضائر الجنة وعظم مشربها ووفور بهجتها.

﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرًا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرٌّ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ ١٨٠﴾

﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾ بالتاء خطاب والمفعول هو الموصول الأول بتقدير المضاف أي بخل الذين والثاني هو خير لهم والضمير للفصل وبالياء فاعله الموصول والمفعول الأول هو كناية عن البخل والمفعول الثاني خيرًا أي لا تحسبن الباخلونَ ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ من عطائه وسعة إفضاله بترك الإنفاق في سبيل اللّهِ ومنع الزكاة منه ﴿هُوَ خَيۡرًا لَّهُمۖ﴾ أي لا يحسبن الباخلونَ أن البخل هو خير لهم في الدنيا والآخرة ﴿بَلۡ هُوَ شَرٌّ لَّهُمۡۖ﴾ لاستجلاب العذاب عليهم وتبعيد الخلق عنهم لقوله عليه السلام: «**السخي قريب من الجنة قريب من الله بعيد من النار البخيل بعيد من الجنة بعيد من الله قريب من النار بعيد من الناس**»، ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ﴾ بيان له قالَ قوم بخل به ومنعه من الزكاة والصدقة حيث يطوق في عنقه يوم القيامة تنهشه من قرنه إلى قدمه وينقر رأسه ويقول له: أنا مالكُ فلا يزال كذلك يفعل حتى ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ ينساق إلى النار.

وقالَ عليه السلام: «**ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جعل الله له شجاعًا في عنقه يوم القيامة**»، وأيضًا: «**ما من ذي رحم يأتي دار رحم يسأله عن فضل إعطاء الله إياه فبخل به عنه إلّا أخرج الله له من جهنم شجاعًا حتى يطوقه**»، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ أي له ما فيهما من الأفلاك المدبّرة وهي الكواكب والجواهر الخفية والفواخر النورية والأعيان التي لا يعلمها إلا الله ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عِمران: 180] وغير ذلك من العناصر وما يتركب منها وما يستكن في طبقاتها أي ما فيهما مما يتوارثان وينتقل إليه من مال هؤلاء الذين بخلوا به وإنه تعالى يرث منهم ما يمسكون ولا ينفقون في سبيل اللّهِ بموتهم

وهلاكهم ويبقي عليهم الحسرة والندامة والتأسف على الخسارة والميراث مجازيًا يبقى عنهم بعد موتهم وفوتهم.

إشارة وتأويل

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عِمران: 171] وهي البقاء بالله بعد الفناء في اللَّهِ وفضل وهو تحقيق الجمعية بالذات بتمام الأسماء والصفات أو المعرفة التامة الكاملة التفضيلية والسير في الله يزيد ويفضل على السيرين إلى الله ومن اللَّهِ، أو المراد بالنعمة هي المعارف الفطرية الأزلية وفضل هي القوة الفكرية التي هي الانتقال من أعيان العوالم الكونية الباطلة إلى شهود الحق والوجود المطلق ومشاهدته، أو المراد بالنعمة هي النعمة الوجودية الظاهرية والباطنية وما يتفرع عليها من العلوم والإدراكات والأحوال والمقامات والكشف والمعجزات والمشاهدات والكرامات، أو شهود المنعم، أو الزيادات الحاصلة في الدورات وأطوارها، فإن في كل دورة في العروج والنزول زيادة وفضلًا، فإن كل دورةٍ يتضمن كورة ما كانت حاصلة قبلها، أو المراد هي الإجمال والتفصيل للذين أحسن الحسنى وزيادة.

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ﴾ بالتوحيد الذاتي والصفاتي والأفعالي والآثاري ﴿وَٱلرَّسُولِ﴾ بالتوحيد الجمعي والكمال ألمعي بإجابة دعوته إليه وهدايته لديه ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ أي المجاهدات في الطور القالبي والنفسي بنفي الإدراك الحسي أو الفناء الجزئي والكلي الدفعي والتدريجي في استكمال المراتب واستيفاء شرائطه واتقوا موانعه في الأدوار المتتابعة والأكوار المتعاقبة ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عِمران: 172] إحاطة كلية بما في الأدوار النورية والأكوار الظلية وشهود التجليات الجمالية والجلالية في السفر إلى الله ومن الله في مقعد شهود جمعيته الذاتية والأسمائية الإلهية والكونية.

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ﴾ إشارة إلى أن السالك رجع من السير إلى الله ومن الله إلى الجمعية الناسوتية فحينئذ قد رجع كفار جنود القوى النفسانية إلى ما كانوا عليه فاعتبرت القوة النظرية التي تخلصت عن إلقاءات

شيطان الوهم هذه الحالة إلى مجازية كفار النفس الأمارة القوى الروحانية والأطوار القلبية لئلا يترك الجهاد بكفار القوى النفسانية والمبادىء الطبيعية مقاتلتها ومجاهدتها ليصرفها عن مقتضى طباعها ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ فإن شهودهم حينئذ غير الشهود الأول تفضيلًا وشرفًا وتفضيلًا، فالطور القلبي عند رجعة القوى الجسمانية النفسانية إلى مخالفته ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: 173] فحينئذ يتقوى بقوة الله تعالى وقدرته فانقلب الشكل مع القوى الروحانية إلى الطور الخفي والعقلي استفاض من إشراقات الأنوار الإلٰهية ورجع بها إلى طوره الجمعي بنعمة من الله التي استفاضت من الله بذريعة الطور الخفي وفضل ألبسه واجتلبه بواسطة الطور العقلي، ولله ميراث السماوات والأرض يرثهما في القيامة الآفاقية الكلية والجزئية لحظة بعد لحظة وآنًا بعد آن والنفسية، أو جمعيتهما لدى الفناء الكلي والجزئي الدفعي والتدريجي جميع ما لها من الموجودات العالية والسافلة وما يتبعهما من اللوازم الذاتية والعرضية والعلوم والدرايات والمعارف والإدراكات والأحوال الخفية والمقامات العالية والنازلة، فيجازي به المنفقين وجودهم بالاختبار في طريقهم، فأعطاهم ما لم يعطَ أحدٌ من العالمين من الجمعية بين العبودية والألوهية والوحدة والكثرة والفناء والبقاء والقدم والحدوث والحطامات والذكورة والأنوثة والفقر والغناء والفنون والخنوثة وغير ذلك من المفهومات المتقابلة والمعلومات المتباينة.

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ١٨١﴾

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ نزل حين قالت اليهود عند سماع ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [الحديد: 11] إن اللَّهَ فقيرٌ يستقرض منا فقال أبو بكر رضي الله عنه لفنحاص بن عازر حين كان الخلق الكثير حوله: اتقوا اللَّهَ وأسلموا وأقرضوا اللَّهَ قرضًا حسنًا، فقالَ فنحاص: إن الله فقير ونحن أغنياء فإن الفقير يستقرض دون الغني فلطمه أبو بكر على وجهه لطمًا عظيمًا، وقالَ: لولا العهد بيننا وبينك لضربت عنقك فشكا إلى النبي ﷺ ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ﴾ [آل عمران: 181]

بالياء والنون في صحائف الكتبة أو يحفظ ما قالوا من الإفك والفرقة على الله والكفر بالله والاستهزاء بالقرآن في علمنا ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾ على ما قالوا ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ﴾ بلا جرم وجناية مستحق له وكلاهما متقاربان في العظم ولذا جمعهما ويقول بالنون والياء والفاعل هو الله ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [آل عِمرَان: 181] مقول القول عذاب الحريق أي عذاب النار الملتهبة المحرقة وفيه تنبيه على أنهم لكونهم متصفين بكل منهما استحقوا هذا العذاب فإن من قالَ هذا القولَ لم يبال من قتل الأنبياء وبالعكس لأنه لا يكون إلا من قساوة القلب والاستبعاد من الرب. قالَ النبي ﷺ: «**إذا لم تستحِ من الحق فافعل ما شئتَ**».

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ١٨٢﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ من اكتساب الآثام في الليالي والأيام إذ الإثم يجر الإثم وإنما صرح باليد لأنها أكبر عملًا وأكثر فعلًا ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عِمرَان: 182] أي بكل واحد منهم والمبالغة إنما هي بالنظر إلى كثرة العباد فتقيد نفي الظلم عن كل واحد منهم وهذا يستلزم كون القليل أتقى لأنه غني عادلٌ يثيب المحسن ويصيب المسيء بلا نقصان من الثواب وبلا زيادة على العقاب، لأنه لكونه عينًا بالذّات عادل على الإطلاق لا حاجة له إلى الظلم لا إلى قليل منه ولا إلى كثير مع أنه مالك الملك يتصرف في ملكه ما يشاء وكيف يشاء، فليس لأحد أن يعترض بأنه لم فعل كذا وكذا لأنه يتصرف في ملكه كيف يشاء ومتى يشاء.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ١٨٣﴾

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ﴾ مرفوع أو منصوب على الذم إذ قالت اليهود جوابًا لقوله الله ورسوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ﴾ أي أمرنا وأوصانا في كتبه أو على ألسنة الأنبياء ﴿أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ﴾ ولا نبي ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ [آل عِمرَان: 183] أي بهذه

المعجزة الخاصة الّتي كانت لنبي من أنبياء بني إسرائيل هذه مما بقيت من جملة آدم عليه السلام إذا وقع أمر مشكل، أمر الله أن يأتيه بقربان فإن ظهرت نار فأكلته كان ذلك الأمر مقبولًا عند اللَّهِ، وإن لم يظهر عندَ ذلك القربان نار أو ظهرت ولكن لا تأكل القربان كان ذلك القربان غير مقبول عند الله، كما أن هابيلَ وقابيلَ تنازعا في أخت كانت توأمة لهابيل وكان هابيل راعيًا وقابيلُ زراعًا فأمر آدم بقربان لهما فأكلت النار قربان هابيلَ دون قربان قابيلَ، فزوج آدم تلكَ البنت من هابيل فغضب قابيلُ وسخط وقتله، هذا أول قتل وقعَ في أولاد آدم، وما كان الدفن مشهورًا بينهم فتحير قابيل في أمر هابيل وكانَ آدم غائبًا فحمله على عنقه خوفًا من أن يأكله السّباع فمثل الملك بصورة الغراب قد حمل غرابًا آخر ميتًا فحفر الأرض فدفنه فيها فاعتبر قابيل وعلم من الغراب ﴿قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى﴾ [المائدة: 31] الآية، فدفن هابيل، فهذا أول دفن وقع في بني آدم هكذا قد استمرت هذه المعجزة إلى زمان بني إسرائيل، وكذا غير هذه المعجزة قد ظهرت من أنبيائهم وهم قد أنكروها وقتلوا صاحبها كما ظهرت من عيسى وزكريا ويحيى وجرجيس وغيرهم فإنهم قد قتلوهم وما قتلوا معجزاتهم ﴿قُلْ﴾ يا محمد ردًّا عليهم وزجرًا إليهم ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى﴾ كيحيى وعيسى وزكريا ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الواضحة والآيات اللائحة والمعجزات الظاهرة الصالحة ﴿وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾ أي بالقربان الذي تأكله النار البيضاء النازلة من السماء بلا دخان لها دوي خفيف وهمس ضعيف، فأكل القربان كانَ ذلك علامة القبول وإلا بقى على حاله ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عِمرَان: 183] في قولكم ودعواكم.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ تسليةً لنبيه ليصير على آذانهم بالتكذيب ﴿فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الدّالة والحجج الساطعة الدالّة على صدقهم ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ جمع زبور كمرسل جمع رسول وهو الكتاب يقال زبر يزبر إذا جمع ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [آل عِمرَان: 184] يبين للحلال والحرام.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ١٨٥﴾

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ بجرِّ الموت ونصبه، وقال الحياة وانقطاع التعلق بالبدن. عن النّبيّ: «**لما خلق الله آدم اشتكت الأرض إلى ربها عما أخذ منها فوعد أن يرد إليها ما أخذ منها**»، فما من أحد إلا ويدفن في التربة التي خلق منها وأما من أغرق في الماء وأحرقَ في النار أو أكله السباع فإن أجزاءه الأصلية الترابية لا يبلى أصلًا بلى يبقى فيجمعها اللَّهُ تعالى ويردها إلى ما أخذت منه في البرزخ المعادي، وهي المرتبة السّفلى في عالم المثاني وهي موطن محض أحوال المعاد والحشر، وما يرى في المقامات وأحكام النشوء ما يترتب عليه من النّار والجنات ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ﴾ أي يوفوون أجوركم جزاء أعمالكم من الثواب والعقاب ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يوم قيام الأموات عن القبور يشعر بأن بعض الأجور يعطى إما في الدنيا أو في القبور قبل يوم النشور. قالَ النبي ﷺ: «**القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران إلا أن تكميلها وتتميمها إنما هو يوم القيامة بعد النشور**».

﴿فَمَن زُحْزِحَ﴾ وتنحى وبعُدَ وأُزيل من الزحّ وهو الجذب بعجلة عن النبي ﷺ من أحب أن يزحزح ﴿عَنِ ٱلنَّارِ﴾ فليدركه منيته وهو مؤمن بالله واليوم الآخر ويأتي إلى الناس ما يحب أن يُؤتى ﴿وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ﴾ أي يحصل له الفوز المطلق المتناول بكل ما يفاز به ولا غاية للفوز إلا النجاح والفلاح من سخط الله والعذاب السرمد ورضوان من الله والنعيم المخلد ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ أي الحياة الحاصلة في الدّنيا وهي اللّذات الحسية والشهوات النفسية ﴿إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عِمرَان: 185] أي لذة ومنفعة يوجب الغرور ويوجب السّرور ويزول سريعًا ويحول بينه وبينها منيعًا. قالَ أيضًا: موضع سوطه من الجنة لكونه يقينًا ثابتًا خيرًا من الدنيا وما فيها.

واعلم أن هذا إنما يكون عند من آثرها على الآخرة وأما من جعل خديعةً لها

ومزرعة لأجلها فهي متاع البلاغ ومطيّتها. قال عليه السلام: «**لا تسبوا الدنيا فإنها مطية الآخرة**».

﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًاۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ١٨٦﴾

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ اللام لتوطئة القسم أي والله ليختبرنكم له بتكليف الإنفاق وبنزول المصائب وحلول النوائب وبما هو وسيلة لها والجهاد والصبر على الشدائد زوال المناصب وتغيير الألقاب وتبديل المناقب وما يترتب عليها من المخاوف والأمراض والمتاعب، نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه وفنحاص سيد بني قينقاع، وقيلَ نزلت في كعب بن الأشرف أنه هجا رسولَ اللَّهِ وسب نساء المسلمين حتى أذاهم. فقالَ عليه السلام: «**من لي من ابن الأشرف؟** فقال محمد بن مسلمة الأنصاري: أنا لك يا رسولَ الله أنا أقتله. قالَ عليه السلام: فافعل» فقتله وجاء برأسه إلى رسول الله ﷺ، ﴿وَأَنفُسَكُمْ﴾ بأن جعلتم نفوسكم فداء للَّهِ ولرسوله كما فعلَ محمد ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يعني من اليهود والنصارى المطاعن في الدين الحنيف والصّدّ من الإيمان والتخطية لمن آمن باللَّهِ وبما جاء به ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًاۚ وَإِن تَصْبِرُواْ﴾ على إذائِهم ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ اللَّهَ بالدعاء عليهم والمكافآت بهم ومخالفة أمره تعالى ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الصبر والتقوى ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عِمرَان: 186] أي من الأمور المعروفة المقصودة بالتوجه إليها والثبات عليها فإنه في الأصل من ثبات الرّأي على الأمر كإمضائه.

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ١٨٧﴾

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي اذكر وقت أخذ الله ميثاق أهل الكتاب في الأزل بأمرين في كتبهم وبالسنة بيّن في أمر محمد ﷺ ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ﴾ أي

ليظهرنَ أهل الكتاب ويعلّمن معانيه وأحكام مبانيه ﴿لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ يريد بهم العلماء فعليهم بإفشاء أحكام الكتاب وإنشاء معالم حلاله وحرامه وانتشاء ما فيه من أعلامه ومعالمه في شأن محمد ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ﴾ أي عرضًا يسيرًا من أحكام الدنيا ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عِمران: 187] أي ساء وبئسَ ما يختارون من الدنيا ويأخذون منها بدلًا من الآخرة لأنفسهم قالَ النبي ﷺ: «**من كتم علمًا من أهله ألجم بلجام من النار**» عن علي كرم الله وجهه: ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟﴾ أي فعلوا فإن أتى جاء استعمالًا بمعنى فعل ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾ الخطاب للرسول ومن ضم الياء جعل الخطاب له وبالمؤمنين فالمفعول الأول الموصول والثاني ﴿بِمَفَازَةٍ﴾ فلا تحسبنهم تأكيد أي لا تحسبن الذين يفرحون فلا تحسبنهم بمفازة ونجاة ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ﴾ أي المعارضين بكفرهم ونفاقهم وتلبيسهم ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 188].

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾ فيملك أمرهم ويتصرف فيهم كيف يشاء ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عِمران: 189] أي على إهلاكهم في الدنيا ونزول العذاب وحلول العقاب في الأولى والأخرى.

إشارة وتأويل

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عِمران: 181] أي سمع الله القول الاستعداديّ باللّسان الحالي في مراتب التنزلات لأن ما عدا الناسوت وبالقالي والحالي في الناسوت من كفار النّفس الأمارة والمبادئ الطبيعية بأن اللّهَ فقير أي ليسَ ما لنا له من ما لنا ومما اختص بنا من اللذات

الحسية والمشتهيات النفسية والإدراكات المضاعفة المتجددة المتعددة المتحددة ونحن أغنياء بهذه النقود العلمية المجتلية والعروض العملية والأجناس الحسية من مدارك الإحساس ومسالك الاقتباس ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟﴾ إشارة إلى أن هذا النوع من العلم إنما يتأخر من مطلق الصور العلمية الإلٰهية المتعلقة بحقائق الأشياء وماهياتها رؤية واعتبارًا دفعة لأنها حضورية شهودية مستمرة أزلًا وأبدًا على حالة واحدة من غير تبدل وتغير لأنها ليست بمؤقتة ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [آل عِمرَان: 181] أي البُعد عن الأحدية الجمعية والوحدة الحقيقية التي هي عين الكثرة ونفس التعدد.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ﴾ أي لا نقبل ولا نُذعِن التجلي من التجليات الإلٰهية الذاتية والأسمائية والأفعالية والآثارية ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ أي النار الذاتية وهي المحبة الذاتية التي يفني الكل النازلة من سماء البياض المطلق ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى﴾ في الأدوار النورية الجمالية الوجودية وهي العظمى والكبرى والوسطى والصغرى والدورة الصغرى هي التي ظهرت فيها الحقيقة المحمدية بالخصائص الحمية ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [آل عِمرَان: 183] والتعينات النورية وبأحكام النبوة الذاتية والعرضية التشريعية والتعريفية.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ [آل عِمرَان: 184] بحسب الاستعدادات الذاتية التي ليست لها تلك الجامعية الكاملة فقد كذبت في تمام الأدوار لعدم كمال جمعيتهم جاؤوا بالبينات أي الشريعة والدين أي الطريقة والكتاب المنير أي «**الحقيقة والشريعة أقوالي والطريقة أفعالي والحقيقة أحوالي**»، الحديث.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عِمرَان: 185] أي الفناء الكلي والجزئي العارض على التعين العيني. قالَ الصادق رضي الله عنه: لما أذاقها اللَّهَ حلاوة الغرور ومكنها على بساط بسط سرير السّرور أشربها شراب الصبر على مرارة الحبور وحراقة الحلول في القبور حتى خالفت حلاوة الغرور به نالت منه من الكريم الغنى والجواد القوي الكرامة وعموم المسرة على بساط النور.

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [آل عِمرَان: 186] قالَ الصادق رضي الله عنه: العام مبتلى بالمال والخاص بتلاوة الكتاب واستماعه والتفكر في معناه

واحتمال الأذى عن الأعداء فالصبر للعام نور والتقوى للخاص نجاة، العام نبذ الكتاب وآثر الدنيا، والخاص نبذ الدنيا والعقبى وآثر المولى.

قالَ صاحب العرائس: النفس منهم زينها الحق بكسوة الربوبية وملأها من القهر واللّطف وكسَا ملكه بزينة أموال الدنيا امتحانًا للمحبين فمن نظر إلى نفسه بعين زينة الحق صار فرعونًا نطق لسان القهر منه بأنا ربكم الأعلى وذلك مكر القدم واستدراجه، ومن نظر إلى زينة الربوبية وفنت نفسه فيها نطق لسان الربوبية منه كالحلاج قدس سره، وهو مثل شجرة موسى عليه السلام حيث نطق بالحق بقوله في الخبر ﴿أَنَا ٱللَّهُ﴾ [طه: 14] فَنَطَق بصفته عن فعله، ومن نظر إلى حضرة الدنيا وتابع شهواتها صار كالبلعام، فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، فأي الابتلاء أعظم من رؤية الملك ورؤية الربوبية في الكون لأنه محل الابتلاء ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [آل عِمرَان: 187] إلخ.

اعلم أن الله تعالى أمر الصادقين الذين هم أصحاب الإلهام الخاصة والمحدثين والمتكلمين والحكماء المتألهين والواصلين العارفين والمتحققين أن يظهروا بعض مقاماتهم وحالاتهم التي بينهم وبين الله وما يليق بحالهم للطالبين ويعرفوا أحوال أهل الولاية في زمانهم الخلق ليتبركوا بهم ويصلوا إلى الله ببركاتهم قال: اصحبوا مع الله فإن لم تستطيعوا فاستصحبوا مع من يصحب مع الله ليوصلكم بركات صحبته إلى الله فإن المعارف الإلٰهية والأسرار الأزلية الغير المتناهية والعلوم اللّدنيّة التي سميت بالعلم الباطن الذي أودعه اللَّهُ تعالى في قلوبهم.

قالَ النبي ﷺ: «**سألت جبرئيلَ عن علم الباطن فقال: سألت الله عن علم الباطن فقال هو سر بيني وبين أوليائي وأحبائي وأصفيائي أودعته في قلوبهم لا يطلع عليه لا ملك مقرب ولا نبي مرسل**». فأخذ الله الميثاق منهم على أن يوصلوه إلى مستحقيه وهم جلساء الله وأمناؤه وأنيسه وطليسه يحث على الكل أتوسل بهم في التوصل إليه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: 35]. قالَ عليه السلام: «**من سره أن يجلس مع الله فليجلس مع أهل التصوف**».

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠﴾

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عِمران: 190] نزلت حين سأل أهل مكة رسولَ الله ﷺ بأن يأتيهم بآية لصحة دعواه لأنه كان يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له وترك عبادة الأوثان فقالَ الله تعالى: إن في هذه: خلق الأجرام العظيمة والأجسام الكريمة مع ما فيها من النجوم وما لها من الحركات كمًّا وكيفًا واختلاف أوضاعها وحالاتها رجوعًا واستقامةً وسرعة وبطءًا وغير ذلك وإنما عبر عن العناصر بالأرض إشعارًا بأن في كل دورة من الأدوار الأربعة النورية عنصرًا يكون تولد المواليد في تلكَ الدورة من جنسه مثلًا في الدورة العظمى النورية يتولّد المواليد من النار وفي الكبرى من الهواء وفي الوسطى من الماء وفي الصغرى من الأرض ونحن في الدورة الصغرى من جنس الأرض.

قال عليه السلام: «**إن الله تعالى خلق آدم في سبعة آماد والأمد هو الدهر العظيم الذي لا يعلمه إلا الله ونحن في الأمدَ الآخر**» ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ بحسب عروض البلدان وطولها طولًا وقصرًا واستواء أما في جميع الأوقات كما في خط الاستواء فإنَّ الأيام كلها فيه متساوية نهارها اثنتا عشرة ساعة وليله أيضًا اثنتا عشرة ساعة وذلك لأن المداراتِ اليوميةَ كلها متساوية فيه إذ الأفق قد قطع جميعها على التناصف على زوايا قائمة، وأما في الآفاق المائلة فعند حلول النير الأعظم في الاعتدالين الربيعي والصّيفي يعتدل الليل وَالنهار ويتساويان وفي غير هذين الموضعين يختلف الليل والنهار ويتساويان ﴿لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عِمرَان: 190] ذوي العقول الصافية والفحول الوافية عن عائشة رضي الله عنها قالت: قام رسول الله ﷺ يبكي حتى بلت الأرض فأتى بلال وقال له: يا رسولَ الله تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم وما تأخر فقالَ: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**» ثم قال: «**وما لي لا أبكي وقد أنزل اللّهُ عَلَيَّ في هذه الليلة** ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾» [البقرة: 164] الآية إلى آخره عن علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ إذا قام من الليل يستوي ثم ينظر إلى السماء ثم يقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية، وقال

أيضًا: ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها.

حكي أن الرجل في بني إسرائيل إذا عبد الله ثلاثين سنة أظلته سحابة فعبده فتى من رجالهم فما أظلته فقالت له: أنه لعل فرطة فرطت منك قال: ما أذكر قالت: لعلك نظرتَ مرة إلى السماء ولم تعتبر قالَ: نعم قالَت: فما أتيت إلا من ذلك.

﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ أي قائمين وقاعدين ومضطجعين ذكرًا دائمًا ويتأملون في معاينة تأملًا لازمًا «**من أحب أن يرتع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله**» الحديث عن علي عليه السلام وابن عباس رضي الله عنه هذا في الصلاة وعنه عليه السلام أيضًا: «**ذكر الله علم الإيمان وبراءة من النفاق وحصن من الشيطان وغمد من النيران**» الحديث. قالَ الله تعالى لموسى عليه السلام: يا موسى اجعلني منك على بال ولا تنسى ذكري على كل حال فليكن همك ذكري. عن علي كرم الله وجهه: هذا في الصلاة يصلي قائمًا فإن لم يستطع فقاعدًا وإن لم يستطع فعلى جنبيه ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عِمرَان: 191] وما فيهما من العجائب الدالة على كمال القدرة علم نور الحكمة الجسيمة اعتبارًا واستدلالًا واستبصارًا وهو أفضل العبادات. قال عليه السلام: «**لا عبادةَ كالتفكر لأنه المخصوص بالقلب والعقل والغيب**».

قالَ عليه السلام: «**لما أسري بيَ إلى السماء السابعة فإذا هو رهج ودخان وأصواتِ فقلت: ما هذا يا جبرائيل؟ قال: هذه الشياطين يحرقون على أعين بني آدم أن لا يتفكروا في ملكوت السماء والأرض ولولا ذلك لرأوا العجائب**» وقالَ أيضًا: «**تفكر ساعة أفضل من عبادة سنة**» عن أبي هريرة قالَ قالَ رسول الله ﷺ: «**بينما رجل مستلق على فراشه إذا رفع رأسه فنظر إلى النجوم وإلى السماء فقالَ: أشهد أن لكِ ربًّا وخالقًا اللهم اغفر لي فنظر الله إليه فغفر له**» عن ابن عمران أن الفكرة تذهب الغفلة وتحدث للقلب الخشية كما يحدث الماء للزرع النماء وما جلبت القلوب بمثل الأحزان، ولا استنارت بمثل الفكرة، عن عائشة رضي الله عنها

قام النبي ﷺ في اللّيل يصلّي فجعل يبكي حتى بلغت الدموع الأرضَ، فأتاه بلال يؤذنه بصلاة الغداة فرآه يبكي فقال له: تبكي يا رسولَ الله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال ﷺ: «**يا بلال أفلا أكون عبدًا شكورًا**». ثم قال عليه السلام: «**وما لي لا أبكي يا بلال فقد أنزلَ الله علي في هذه اللّيلة هذه الآية:** ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾» إلخ.

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا﴾ الخلق العظيم العجيب والأمر الكريم البديع الغريب ﴿بَٰطِلًا﴾ عبثًا ضائعًا فلا فائدة ومنفعة وحكمة أي ويتفكرون في خلقهما قائلين ربنا ما خلقتَ هذا باطلًا ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تنزيهًا لله من أن يكون خلقك عبثًا ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عِمرَان: 191] عن النبي ﷺ: «**لا تفضلوني على يونس بن متى فإنه كان يُرفع لَه في كل يوم مثل عمل أهل الأرض**» فقالوا: هذا هو التفكر في بدائع أمر الله الذي هو عمل القلب وإلا لما قدر بشر على طاعة يكون مثل طاعة أهل الأرض بالجوارح والأعضاء.

واعلم إن الفكر قسمان فكر بطريق النظر والانتقال من العالم إلى الصانع والثاني هو شهود الحق في جميع العوالم الإلهية والكونية أو فيهما جميعًا وهذا الفكر هو يعادل طاعة أهل الأرض والسماوات السّبع والعرش والكرسي في تمام الأدوار الإلٰهية والكونية لا الكونية بالمعنى الأول وإن كان في نفسه أشرف وأفضل من الطاعة البدنية لا النفسانية والروحانية فإنه اشتمل على الفكر بالمعنى الثاني وغيره فتأمل وتدبر.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ١٩٢﴾

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ﴾ المعصية وترك الفكرة التي هي أفضل الطاعات وأكمل العبادات فتركها أقبح وأفضح فيكون مستحق لأشد العذاب وأسد العقاب، هذا دليل على شرف علم الهيئة الذي يكون مادة التفكر وآلته في عجائب صنعه وغرائب بديعه ﴿فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ فضحته وأهنته على رؤوس الخلائق ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [آل عِمران: 192].

﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣﴾

﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي﴾ أي محمدًا يدعو الخلق كله إلى اللّٰهِ ﴿لِلۡإِيمَٰنِ﴾ أي لأجل الإيمان به وبمعرفته ﴿أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ﴾ أن للتفسير والبيان ﴿فَـَٔامَنَّاۚ﴾ تفريع على المفسر ﴿رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ ومعاصينا الظاهرة والباطنة من الكبائر والصغائر ﴿وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا﴾ أي اقبض أرواحنا ﴿مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ [آل عِمرَان: 193] أمر تتوفى، وهو جمع البر، وهو من سلم الخلق حتى الجراد والبعوض من يده، أو من أصلح سره وقلبه من الالتفات إلى الغير، فهم يحبون لقاء الله والله يحب لقائهم، أو احشرنا معهم في الدّنيا والآخرة، أوحى الله تعالى إلى إبراهيمَ عليه السلام: يا خليلي حسن خلقك ولو مع الكفار تدخل مداخل الأبرار. وهو جمع بارّ كأصحاب جمع صاحب.

﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ١٩٤﴾

﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا﴾ اعطنا وواصل في خير القبول ﴿مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ﴾ تصديق ﴿رُسُلِكَ﴾ من الثواب الجميل والأجر الجزيل والفضل الجليل، أو على ألسنتهم لما أظهروا واجب امتثاله لما أمر به سالفًا وجد عليه، لا خوفًا من إخلافه الوعد مخافة أن لا يكون الموعودين بسوء عاقبته أو للقصور في الامتثال أو للقصد والاستكانة ﴿وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ أي لا تخذلنا يوم قيام الأموات من الأجداث ويوم الجزاء الذي فيه قام كل بما أخذ له وعليه من الثواب والعذاب، ولا تفضحنا على رؤوس الأشهاد يوم التناد ﴿إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عِمرَان: 194] أي الموعود، أو يوم وعد فيه إجراء الأجزاء أو المعدود للمؤمنين والكافرين، على أن مصدره ميمي بمعنى المفعول.

وإنما دعوا اللّٰهَ بإنجاز ما وعده وهو لا يخلف الوعدَ إلّا أنه قد يخلف لتخلف أسباب الإنجاز من العبد لا من اللّٰهِ فدعاهم لطلب التوفيق لا يحفظ

عليهم أسبابه، وتكرار ربنا بعدد المشاعر الشاعرة هو خمسة أشعار، بأن أسباب التخلف هي هذه المشاعر خمسة في الظاهر وخمسة في الباطن، أو للتنبيه على أن الإنسانَ منشأ السهو والنسيان كثيرًا يغفل عن الله فضلًا عن الإيمان، فحق العارف بالله أن لا يغفل عن حفظ القلب عن غفلة حصلت من مدارك الحواس الخمس الظاهرة والخمس الباطنة، وعلى أن إشراقات الأنوار الفائضة والأسرار الفائضة على القلب إنما تكون من العوالم الخمس اللاهوت والجبروت والملكوت والملك والناسوت واختيار هذا العدد لكون حاشيته كمال مرتبة تلك عشرة كاملة، ولذا اختص بإجابة الدعاء عن الصادق رضي الله عنه من حزنه أمر فقالَ: خمس مرّاتٍ ﴿رَبَّنَا﴾ نجاه الله مما يخاف وأعطاه ما أراد قيلَ وكيف فقرأ: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عِمرَان: 191 ـ 194].

﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ١٩٥﴾

﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾ إذا طلبوا وهو أخص من أجاب في حصول المطر ويتعدى بنفسه وباللّام ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ﴾ أي بأني لا أضيع ولا أحبط ولا أبطل ﴿عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ﴾ بيان عامل بل أثيبُ ﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ﴾ الذكر من الأنثى والأنثى من الذكر والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ أوطانهم إلى المدينة بعد أن هاجرت جماعة إلى الحبشة كما سبقت حكايتهم أو من الشرك إلى الإيمان والتوحيد ﴿وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾ من المواطن المألوفة والمواطن والديار المعروفة بسبب إيمانهم وعبادتهم وطاعتهم وإطاعتهم الحق ﴿وَأُوذُواْ﴾ أنواع الأذيات من الشتم والضرب وتضييع الأموال ونهبها ﴿فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ﴾ الكفار والمنافقين لم يتقاعدوا من القتال بهم بما فعلوا بهم ﴿وَقُتِلُواْ﴾ في طاعة اللّهِ وإعلاء كلمته ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ﴾ لأمحونَّ ﴿سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ﴾ يوم القيامة ﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا﴾ كثيرًا وأجرًا عظيمًا كبيرًا ﴿مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عِمرَان: 195] يختص

به وبفضله ثم أكد اختصاصَ الثواب به دون غيره بتقديم عنده ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عِمرَان: 195] أي حسن الجزاء وهو نعيم الجنة الباقية لا الفانية عن النبي ﷺ إن الله عزَّ وجلَّ يدعو يوم القيامة الجنة فتأتي بزخرفها وزينتها فيقول أين عبادي الذين قاتلوا في سبيلي وأوذوا في سبيلي ادخلوا الجنة فيدخلونها بغير حساب بلا مناقشة وعتاب، ويأتي الملائكة فيسجدون ويقولون ربنا نحن نسبح الليل والنهار ونقدس لك، من هؤلاء الذين آثرتهم علينا، فيقول الله تعالى هؤلاء عبادي الذين أوذوا في سبيلي فيدخل عليهم الملائكة بتحفة ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ [يٰس: 58]، ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: 24].

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦﴾

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾ نزلت في مشركي العرب فإنهم كانوا في عيش ورخاءٍ وكانوا يتجرون ويتمتعونَ فقالَ بعض المؤمنين: إن أعداء الله مما يروا من الخير ونحن قد أهلكنا من الجوع والجهد ﴿تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ [آل عِمرَان: 196] بأموال وأولاد فلا تعب ولا جهاد وجهد ونصب في البلاد.

﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧﴾

﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ﴾ أي هو متاع قليل أي منفعة يسيرة في أدنى نذيرة، وكلما هو فانٍ فهو قليل وإن كان في الظاهر يتراءى كثيرًا. قالَ عليه السلام: «**ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بمَ يرجع**». قالَ عليه السلام: «**ما الدنيا فيما مضى منها إلا كمثل ثوب شق اثنتين وبقي الخيط إلا مكان ذلك قد انقطع**» ﴿ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ﴾ ومصيرهم ﴿جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ﴾ المصير ﴿ٱلۡمِهَادُ﴾ [آل عِمران: 197] الفراش وموضع القرار فلا ينفعهم أموالهم ولا تجارتهم.

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ١٩٨﴾

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾ [آل عِمران: 198] عن الشرك والمعصية والكذب

والإفك إخبار عن أجر المؤمنين وهو باق ثابت أبدَ الآباد بلا انقطاع ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ إما مبتدأ قدّم عليه خبره والفعل صفته أو ظرف ما بعده فاعله لاعتماده على ما قبله ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [آل عِمران: 198] ثابتين لازمينَ دائمينَ لازبين خالدين بلا زوال لا بالموت ولا بالخروج ولا نعتًا ﴿نُزُلًا﴾ أي وظيفة مقدرة لوقت نصبه على الحال من ضمير جنات والعامل فيه الظرف أو مصدر مولد لقوله لهم جنات يعني أثابهم بها ثوابًا من عند اللّهِ ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ بيان له ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي من الألطاف الخفية والأعطاف المخفية والنعم الخبية والخير العميم المخفية ﴿خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عِمران: 198] من متاع الكفار الفاني المكدر.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ القرآن ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ التوراة والإنجيل والزبور النازلين إليهم حال كونهم ﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ متواضعين ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ لا يحرفون كتبهم ولا يكتمونَ نعتَ محمد لأجل حطام الدنيا الفانية كما فعلت رؤساء اليهود والنصارى ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المؤمنون الخاشعون للّهِ لا يشترونَ بآيات اللّهِ ثمنًا قليلا ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آل عِمران: 199] في جميع الأدوار وتمام الأكوار لا يحتاج إلى غيره لا من الوزير ولا من النظير لا من الرؤساء ولا من الأمراء والوزراء.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟﴾ [آل عِمران: 200] على طاعة الله وامتثال أمره والانتهاء منه قيلَ إن الشياطينَ يتعوذون من الصابرين الثابتين على طاعة الله وعبادته كما يتعوذ المؤمنون من الشياطين وهو حبس النفس مع الله وأوامره

ونواهيه. قالَ الحكماء: الصبر ثلاثة ترك الشكوى وصدق الرضا وقبول القدر والقضاء.

قالَ الحسن: اصبروا على دينكم ولا تدعوه لشدة ولا رخاء ولا سراء ولا ضراء قيلَ على طاعة الله فلا تتركوا الصبر لشدة ولا رخاء ﴿وَصَابِرُواْ﴾ أي تعاونوا على دفع العدو بالصبر فلا تكونوا أقل صبرًا منهم وثباتًا في دفع الخصم قيلَ خير الدنيا والآخرة في صبر ساعة.

قالَ علي رضي الله عنه: الصبر عندَ الصدمة الأولى ﴿وَرَابِطُواْ﴾ أي أقيموا في الثغور والقلاع والسور والرباط خير لكم للغزو مستقدمين للجهاد مبتعدين عن الحرز وفي الآخرة والبدئ.

وقالَ النبي ﷺ: «**رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها**»، أصل الربط القوة والشد يقال فلان رابط الجأش أي قوي القلب عن جابر قالَ: سمعت رسولَ الله ﷺ: «**من رابط يومًا في سبيل الله جعل الله بينه وبين النار سبع خنادقَ كل خندق منها سبع سماوات وسبع أرضين**» ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ﴾ في جميع الأمور بهمومكم من الالتفات إلى السبب.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عِمران: 200] تنجون من عذاب النار وتبلغون مقاعد أهل الصدق فإنها محل الفلاح.

قال عليه السلام: «**من أحب أن يكون أكرم الناسِ فليتق الله**»، قيل: أراد العقلِ وهو التقوى أي إلى الآخرة اتقاء القبائح فمن لم يتق القبائح فليس من العقلاء. عن السّري السقطي: اصبروا عن الدنيا رجاء السلامة، وصابروا عند اللّقاء بالثبات والاستقامة، ورابطوا هوى النفس الأمّارة، واتقوا اللّهَ ما يعقب لكم الندامة لعلكم تفلحون غدًا على بساط الكرامة. قيل: اصبروا على بلائي، وصابروا على نعمائي، ورابطوا على دار أعدائي، واتقوا اللّهَ محبة عن سوائي لعلكم تفلحون في دار غدٍ بلقائي. وقيل: اصبروا على النعماء، وصابروا على البأساءِ والضراء، ورابطوا في دار الأعداء، واتقوا إلٰه الأرض ورب السماء، لعلكم تفلحون في دار البقاء.

فهرس المحتويات

تقديم 3

ترجمة الشيخ البدليسي 4

توصيف المخطوط 4

نماذج من صور المخطوط 6

مقدمة المصنّف 9

سورة الفاتحة 13

اللغة والإعراب 16

نكتة 22

لطيفة 22

سورة فاتحة الكتاب تفسيرها وتنزيلها وتأويلها 37

مطلب العارفين 49

سورة البقرة 59

مطلب خواص سورة البقرة 59

مطلب الاسم الأعظم 64

الغيب 75

فائدة علميّة 81

فائدة حكميّة في تحقيق الصلاة وأقسامها 82

مطلب الجهل المركب 107

مطلب خلق القلب 112

مطلب استهزاء اللّه بالكفار 114

مطلب دعاء الرعد 126

مطلب الفرق بين العبادة والطاعة 139

مطلب ميثاق الثلاثة 157

مطلب العهود وأنواع الميثاق 159

مطلب سؤال أفلاطون عن عيسى عليه السلام 161

مطلب الحياة الحقيقية 162

مطلب خلق الأرض 165

هذا صورة مكتوب أفلاطون إلى عيسى عليه السلام 168

مطلب خلق العالم 172

مطلب جذب السلوك وعكسه 173

مطلب أقسام الملائكة 175

مطلب خلق كثرة الآدم 176

مطلب خلق سبعين آدم 178

مطلب كذب النساء 194

مطلب دعاء النبي 202

مطلب البرّ ثلاثة 214

مطلب عدم ترك العدس 229

مطلب غريب 232

مطلب هاروت وماروت 270

مطلب استئذان الأزواج 301

مطلب الشهداء 333

مطلب حِلّ طعام النصارى 355

مطلب: كون السائل هديةً 360

مطلب الساعات 371

مطلب إجابة الدعاء وعدمه 380

مطلب قاله علي رضي الله عنه وكرّم الله تعالى وجهه 412

مطلب أنواع اليمين 447

مطلب عدم اندراس حب النبي ﷺ 467

مطلب الصلاة الوسطى 472

مطلب: بيان الطاعون وأسبابه 477

مطلب: مزيد ثواب القرض 480

مطلب خواص آية الكرسي والاسم الأعظم 497

مطلب: ثواب الصدقات 516

مطلب الرّياء 517

مطلب أفضلية التجارة على الحرث 524

مطلب تعريف الحكمة 527

سورة آل عمران 555

فصل الخيل 577

مطلب: أداء الأمانات 661

مطلب: خواصّ الآية 670

هذا مطلب شريف 681

مطلب: غزوات النبي ﷺ 733

مبحث: اتحاد الجنة والنار 742

مطلب المغفرة 746

مطلب: رحم الإمام وغضبه 770

مطلب: المؤمنون في عالم الأرواح يتنعمون ويتزوجون 780

فهرس المحتويات 809